الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الجامعات والبحث العلمي

مكتبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
الدورة رقم ... ص ...

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة

معهد
الحضارة الإسلامية

الرؤية الإسلامية في شعر محمود حسن إسماعيل

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب الحديث

إعداد الطالبة
آمال لواتي

إشراف الدكتور
حسيني علي رضوان

1415هـ - 1994 م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والشعراء يتبعهم الغاوون .ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون.
وأنهم يقولون ما لايفعلون.
إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات.وذكروا الله كثيرًا
وانتصروا من بعد ماظلموا. وسيعلم الذين ظلموا
أيّ منقلب ينقلبون.﴾

الشعراء -224-227

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى الذي علمني سر الحرف ، معلمي الأول ... أبي
إلى التي شعرت بلحظات يأسي وأملي ... أمي
إلى الذين تشوقوا لرؤية ثمرة عملي ... إخوتي
إلى الذي تابع خطواتي بأناة وصبر ... أستاذي المشرف
إلى الذين يصنعون مستقبل هذا الوطن ... رفقاء دربي

أهدي هذا الجهد المتواضع .

آمال لواتي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- إدراك مانريد من الأدب الإسلامي، ما وجه هذا الأدب؟ ماذا يريد المريدون منه؟. هذا الأدب الذي لا نريده خطابات ومواعظ دينية بقدر ما نريده بصدقه فنا جميل الفكرة، جميل الصورة يخدم انتماءنا الروحي الإسلامي،ويهذب فينا مشاعر الجمال والخير والحب والحق.

2- إثبات وجود الأدب الإسلامي وعدم اختفائه -على مر العصور- من خلال قضايا وظواهر متشعبة في الأدب والحياة، ومن خلال شخصيات لها بصماتها المبدعة -على المستوى الفكري والفني- يجب أن يكون لها حضورها وتفردها الذي يقتنع به بعض الرافضين والمشككين في حق وجوده.

3- تقديم منحى آخر في البحث الأدبي يتخذ من معيار الأصالة الإسلامية مقوما أساسيا،بتحرير المضامين الأدبية من التبعية والتغريبية، ويسلك منهجا شاملا وأصيلا لتوسيعها بالنقد والدراسة،ويفرض نفسه مع بقية المناهج الأخرى.

4- إعطاء البديل الإسلامي أمام التيارات والنظريات الأدبية الدخيلة في صورة إيجابية لها خصوصيتها وتميزها بنظرتها الجمالية والوحدانية والعقدية والإنسانية التي تتجاوز النظرة المادية والإباحية والإلحادية، وتكون واضحة المعالم ليترسمها الأديب أو الناقد المسلم.

5- تجاوز مرحلة التنظير في الأدب الإسلامي إلى مرحلة التطبيق بمحاولة صياغة تطبيقية لإبداع ما بمجموعة حقائق موجودة لنظرية لها أصولها المستمدة من الإسلام -وحيا وتراثا وفكرا- لكنها مبعثرة، مغيبة، ومحاصرة كما هو الحال في السياسة والاجتماع والاقتصاد والفن عموما.

ومن أجل الخروج بموقف جلي من مسألة الرؤية الإسلامية في الأدب بعامة.وتأكيدها بالتطبيق على الشاعر محمود حسن إسماعيل بخاصة.اعتمدت على المصادر الأولى.ألا وهي دواوين الشاعر التي حاولت من خلالها إلغاء الوساطة بالنقل من بعض المصادر المتفرقة.وإنما تعاملت مع النصوص الشعرية في صورتها المنقحة الشاملة المبثوثة في الدواوين. حيث بدأت في قراءتها القراءة الأولى التي تتحقق فيها صحة الفهم بإخضاع النفس وإصغائها لتلقي تلك النصوص وتذوقها والتجاوب معها والاقتراب من فهم أسرارها. وانتقلت إلى القراءة الثانية،وهي القراءة النقدية التي اعتمدت فيها على استكشاف الملامح العامة لتلك النصوص وتسجيل الملاحظات الأولية كردود أفعال مباشرة وجمعها في خطوط عريضة من أجل تأصيل رؤيته الإسلامية الشعرية في محاور متشعبة حرصت على تناول أهمها وأبرزها بغية التحكم في خطوات الدراسة بالاعتماد على المصادر العامة التي سعت إلى إيجاد الطريق النظري والتطبيقي لإبراز فكرة الأدب الإسلامي إلى حيز الوجود، وفتح المجال للدارسين في هذا المضمار.

كما استفدت من معظم الدراسات السابقة التي كتبت عن الشاعر حتى لا أقع في التكرار، ولا أسقط في المحالفة أو الموافقة بغير وعي، وإن اهتمت أكثرها بالدراسة الفنية لشعره، مثل التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل لمصطفى السعدني، شعر محمود حسن إسماعيل -دراسة فنية- لمحمد علي هدية، محاولات للتذوق الفني لشعر محمود حسن إسماعيل لأس داود. وهذه الدراسات لم تعن بمضامين ورؤى شعره إلا بعضها مثل الفلاح في شعر محمود حسن إسماعيل محمد ثابت بدارني، ومحمود حسن إسماعيل بين الأصالة

1- إدراك ماذا نريد من الأدب الإسلامي، ما وجه هذا الأدب؟ ماذا يريد المريدون منه؟. هذا الأدب الذي لا نريده خطابات ومواعظ دينية بقدر ما نريده بصدقه فنا جميل الفكرة، جميل الصورة يخدم انتماءنا الروحي الإسلامي،ويهذب فينا مشاعر الجمال والخير والحب والحق.

2- إثبات وجود الأدب الإسلامي وعدم اختفائه -على مر العصور- من خلال قضايا وظواهر متشعبة في الأدب والحياة، ومن خلال شخصيات لها بصماتها المبدعة -على المستوى الفكري والفني- يجب أن يكون لها حضورها وتفردها الذي يقتنع به بعض الرافضين والمشككين في حق وجوده.

3- تقديم منحى آخر في البحث الأدبي يتخذ من معيار الأصالة الإسلامية مقوما أساسيا،بتحرير المضامين الأدبية من التبعية والتغريبية، ويسلك منهجا شاملا وأصيلا لتوسيعها بالنقد والدراسة،ويفرض نفسه مع بقية المناهج الأخرى.

4- إعطاء البديل الإسلامي أمام التيارات والنظريات الأدبية الدخيلة في صورة إيجابية لها خصوصيتها وتميزها بنظرتها الجمالية والوحدانية والعقدية والإنسانية التي تتجاوز النظرة المادية والإباحية والإلحادية، وتكون واضحة المعالم ليترسمها الأديب أو الناقد المسلم.

5- تجاوز مرحلة التنظير في الأدب الإسلامي إلى مرحلة التطبيق بمحاولة صياغة تطبيقية لإبداع ما بمجموعة حقائق موجودة لنظرية لها أصولها المستمدة من الإسلام -وحيا وتراثا وفكرا- لكنها مبعثرة، مغيبة، ومحاصرة كما هو الحال في السياسة والاجتماع والاقتصاد والفن عموما.

ومن أجل الخروج بموقف جلي من مسألة الرؤية الإسلامية في الأدب بعامة.وتأكيدها بالتطبيق على الشاعر محمود حسن إسماعيل بخاصة.اعتمدت على المصادر الأولى.ألا وهي دواوين الشاعر التي حاولت من خلالها إلغاء الوساطة بالنقل من بعض المصادر المتفرقة.وإنما تعاملت مع النصوص الشعرية في صورتها المنقحة الشاملة المبثوثة في الدواوين. حيث بدأت في قراءتها القراءة الأولى التي تتحقق فيها صحة الفهم بإخضاع النفس وإصغائها لتلقي تلك النصوص وتذوقها والتجاوب معها والاقتراب من فهم أسرارها. وانتقلت إلى القراءة الثانية،وهي القراءة النقدية التي اعتمدت فيها على استكشاف الملامح العامة لتلك النصوص وتسجيل الملاحظات الأولية كردود أفعال مباشرة وجمعها في خطوط عريضة من أجل تأصيل رؤيته الإسلامية الشعرية في محاور متشعبة حرصت على تناول أهمها وأبرزها بغية التحكم في خطوات الدراسة بالاعتماد على المصادر العامة التي سعت إلى إيجاد الطريق النظري والتطبيقي لإبراز فكرة الأدب الإسلامي إلى حيز الوجود، وفتح المجال للدارسين في هذا المضمار.

كما استفدت من معظم الدراسات السابقة التي كتبت عن الشاعر حتى لا أقع في التكرار، ولا أسقط في المخالفة أو الموافقة بغير وعي، وإن اهتمت أكثرها بالدراسة الفنية لشعره، مثل التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل لمصطفى السعدني، شعر محمود حسن إسماعيل -دراسة فنية- لمحمد علي هدية، محاولات للتذوق الفني لشعر محمود حسن إسماعيل لأنس داود. وهذه الدراسات لم تعن بمضامين ورؤى شعره إلا بعضها مثل الفلاح في شعر محمود حسن إسماعيل محمد ثابت بدارني، ومحمود حسن إسماعيل بين الأصالة

والمعاصرة لصابر عبد الدايم. هي في عمومها ساهمت في إعطائي بعض الجوانب الحياتية والفنية في شعره، وأنارت على صعيد المضمون -ولو من بعيد- آفاق رؤيته الإسلامية -أو الحس الإسلامي في شعره- والتي لم يفرد لها دراسة مستقلة واضحة، وحددت لي على صعيد الشكل بعض المعالم الفنية، وإن انتهجت في دراستي الفنية طريقة مختلفة عن تلك الدراسات المذكورة.

وإن ارتبطت بالنص الشعري ارتباطا مباشرا وأساسيا من أجل تفسير وتحليل مستمد من أفكاره ومعانيه، ولغته وبنائه الفني العام، فإني عمدت إلى الاطلاع على كثير من المصادر والمراجع القديمة والحديثة، العربية والمترجمة،العامة ككتب في التفسير والتصوف والاجتماع والسياسة والتاريخ، وفي الفكر المعاصر والتي استعنت بها في كل تمهيد أو توطئة بربط كل قضية بملابساتها الفكرية والفنية. والخاصة ككتب الأدب والنقد المختلفة الاتجاهات والغايات. وكلّها أعانتني على تعميق ملاحظاتي واستنتاجاتي المتعلقة بالأسس النظرية والتطبيقية لقضايا جوهرية في عالم الأدب -والشعر- وعلى تحديد الإطار الفكري والفني للشاعر، وفتح بعض الآفاق الأدبية .كما ساهمت الدوريات بقسط وافر في إجلاء كثير من المحاور التي تلاءمت مع طبيعة الدراسة التي تشمل مرحلة أدبية معاصرة مازالت بحاجة إلى الاستقصاء والتأليف، والتي حددت من بعضها الجوانب الحياتية والإبداعية للشاعر كالثقافة، الهلال، الدوحة، الشعر ... واستخلصت من البعض الآخر بعض المحاور المهتمة بالاتجاه الإسلامي العام في الأدب كالرسالة، الأزهر، الأمة، المسلم المعاصر... واستلهمت من أخرى مفاهيم جديدة في الدراسة الأدبية والنقدية كالآداب، الشعر، الكاتب، فصول...

وقسمت دراستي إلى قسمين قسم فكري وآخر فني، أو ما يسمى بدراسة المعنى باكتشاف المعطيات الذاتية والموضوعية للنصوص الشعرية من خلال تتبع رؤى الشاعر الروحية والجمالية، والسياسية والاجتماعية، والإنسانية والحضارية، وكذلك دراسة المبنى باكتشاف المعطيات الجمالية والفنية لتلك النصوص بإبراز بنائها وهيكلها الفني العام من خلال اللغة والصورة والموسيقا والإيقاع. وإن بدا هذا التقسيم تعسفيا وتقليديا عند بعض الدارسين المتمرسين الذين تخلوا عن تمزيق النص الشعري إلى شكل ومضمون وآمنوا بقيمة العمل الفني من خلال استخلاص-لا تمزيق هذين العنصرين- وإن حاولت انتهاج سيرهم في ثنايا الفصول، لم أستطع الجمع بينهما كلية في مشروع مرحلي مبتدئ. ومن هنا كان تقسيمي لموضوع "الرؤية الإسلامية في شعر محمود حسن إسماعيل" إلى مدخل وستة فصول عرضتها على النحو التالي :

- المـدخـل :

وفيه ألقيت الضوء على حياة الشاعر محمود حسن إسماعيل،وألمحت إلى جوانب كثيرة منها متفرقة وغير مدروسة، مركزة على ثقافته وشخصيته وشاعريته وآثاره،لارتباطها المباشر وغير المباشر بإبداعه الشعري. كما تطرقت إلى مفهوم الرؤية تطرقا عاما من المنظور النقدي ومن المنظور الإسلامي،مبيّنة من خلالهما إمكانية استعمال مصطلح "الرؤية"،على الرغم من الاختلاف الواقع حول تعريفه وضبطه كمنهج نقدي،وكيفية تطويعه للتصور الإسلامي الذي ينبثق خصائصه ومواصفاته، وكان هذا المدخل بمثابة فصل تمهيدي عام.

- **الفصل الأول** : "الرؤية الروحية"

وفيه عرضت لعقيدة الشاعر من خلال رؤى روحية ونفسية أكدتها عن طريق مراحل ووسائل قد يشترك فيها الشاعر والصوفي من أجل الوصول إلى الحقيقة الإلهية الكبرى بالتأمل في قضايا الغيب والمصير الإنساني والكشف عن حقائق النفس بنوازعها المادية وتطلعاتها الروحية بالمجاهدة والتوبة والعبادة والخلوص الكلي إلى الله، متخذة غايات بعض الصوفيين لا طرائقهم لتوضيح أسس هذه العقيدة الخالصة.

- **الفصل الثاني** :" الرؤية النبوية"

وفيه عمدت إلى تأكيد إيمان الشاعر بالله عز وجل ، بإيمانه بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم،وبعثته التي صاحبتها عدة دواع ومظاهر وآثار، غيرت مسار الحياة الإنسانية بحقيقة سماوية كبرى. ألا وهي حقيقة الإسلام، الصالحة لكل زمان ومكان،بإظهار الشاعر لدورها الإيجابي في إصلاح وتغيير عصره وأوضاع أمته.

- **الفصل الثالث** : " الرؤية الكونية"

وسعيت فيه إلى إبراز رؤية الشاعر من خلال التصور الإسلامي للكون،وتفرده عن شعراء الطبيعة من خلال رؤى عميقة أكدت طريق الوصول إلى الله بالتأمل في الغيب والحياة والجمال من خلال الكون. وحاولت من خلال عدة مباحث الخروج بنظرة أخرى للطبيعة ذات أبعاد دينية وجمالية، تتجاوز النظرة الوصفية الخارجية المجردة أو المقيّدة بالمتعة المادية أوالخالية من القصد والغاية.

- **الفصل الرابع** : " الرؤية الاجتماعية "

على الرغم من تشعب القضايا الاجتماعية المعاصرة للشاعر، استطعت أن أتتبع أهمها في شعره وعرضها من خلال التصور الإسلامي، محاولة الخروج من بعض الإشكالات التي فرضتها التصورات الوضعية أو الفلسفية بالخصوص حول موقع العدالة الاجتماعية، وموازين الأخلاق في المجتمع الإنساني،وموقع القيم الإسلامية في الحياة سواء بالنسبة للرجل أو للمرأة، اللذين يمثلان صورة الإنسان بأبعاده نحو الحيوانية، ونزوعه نحو التحلي الإلهي.

- **الفصل الخامس** : " الرؤية السياسية "

جمعت فيه بعض القضايا السياسية التي فرضتها ظروف العصر الحديث، وكان لها الأثر العميق في المسار السياسي والحضاري للأمة العربية الإسلامية، وبينت موقف الشاعر منها ومدى توافقها بشكل أو بآخر مع المعطيات الإسلامية من جهة،والمعطيات التراثية والإنسانية من جهة أخرى، كقضايا الحرية والوحدة والنهضة والسلام...وحاولت المزج بين مفاهيم سياسية وأخرى حضارية، لتحسس موقع الأمة العربية من ازدواجية العروبة والإسلام، وصراعها مع الغرب وتحدياته، ومواجهتها للمد الصهيوني العالمي، وامتدادها نحو أمم أخرى قد تشكل معها حلم الأمة الإسلامية الحقة.

- **الفصل السادس** : " الرؤية الفنية "

خصصته للدراسة الفنية وتشمل أهم العناصر الفنية كاللغة والصورة والموسيقا التي تجتمع فيها عدة روافد ومصادر، استطاعت أن تفجر طاقته الإبداعية بكل قوتها وإثارتها ونجاحها في احتواء رؤيته الإسلامية وصياغتها صياغة فنية فاعلة ومؤثرة ومتفردة لأنه استفاد من المصدر الإسلامي -القرآني- في لغته وخياله وإيقاعه

مؤهلا بذلك لإشراقات إبداعية فنية لا تتعارض مع المفهوم القرآني تصورا وتصويرا. والمصدر التراثي بكل أبعاده وأسسه الجمالية اللغوية والتصويرية والموسيقية، والذي أصبح مرفوضا لادعاءات صعوبته وتعنته وتجاوزه للزمن الإبداعي المعاصر. وكذلك من المصدر التجديدي بأدواته الجمالية المستحدثة لأنه لم يمارس سياسة الإقصاء والرفض، وإنما اعتمد على الانتقاء والاختيار الفني، وأعاد البناء الجمالي لشعره من خلال المزج البارع والذكي بين تلك المصادر.

- الخـــاتـــمـــة :

أدرجت فيها نتائج البحث العامة المستخلصة من محاوره الرئيسة، كما ضمنتها بعض الآفاق التي يمكن أن تدرج للمهتمين بمجال الدراسة الأدبية الإسلامية.

ومن أجل استيفاء الموضوع منهجه التكاملي العام، اعتمدت على المنهج الاستقرائي والتحليلي، لأن متابعة مضامين الشاعر لا يمكن أن تتم إلا بالرصد والعرض، والاستقراء والتحليل. وعلى المنهج الاستنباطي والإحصائي في مواضع كثيرة من البحث لإدراك الحس الإسلامي في شعره من خلال الاستنتاج والتمثيل ببعض مواقفه وقضاياه الشعرية،ومن خلال تتبع بعض الدلالات الفنية كاللغوية والرمزية والايقاعية، والتقاء بعض النصوص الشعرية المماثلة والمتقاربة، أو المختلفة عن اتجاه نصوص الشاعر من أجل تحديد رؤيته بشكل واسع وموضوعي. والمنهج العام لتأصيل رؤيته أدى إلى كثرة الاستشهادات بنصوص الشاعر وإلى تكرارها عند الضرورة. وكان أمرا لا يمكن تجنبه، ذلك لأن الشعر موجود عيني، وأي دراسة لا تتعامل مع المعنى أو المبنى إلا على الوجه الذي وردت به في النص. ولأن ما يتضمنه النص ويوحيه هو مصدر الموضوعية والتنزه عن إقحام أفكار أو رؤى على النص دون أن تكون فيه.

إن هذه الرسالة ماكانت لتخرج في شكلها هذا لولا سداد رأي وتوجيه طوقني بهما أستاذي المشرف الدكتور "حسين علي رضوان- أمدّ الله في عمره-، ساطل معترفة له بفضله -علما وتجربة-، كما أتوجه بكل آيات العرفان والشكر والتقدير لكل من ساعدني وشجعني من قريب أو بعيد ولو بأصدق شعور وأخلص دعاء.

وفي الأخير أتضرع إلى الله العلي أن يهديني إلى طريق العلم.

﴿ وما أُوتيتُم مِنَ العِلمِ إلاّ قَليلاً ﴾(1)

---

(1) الإسراء- 85

المدخل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- حـــياة الـــشاعر

1- مـــولـــده ونشأتـــه

2- تكـــويـــنـــه وثـقافـتـه

3- وظائـفه ونشاطاتـــه

4- شـــخـــصيتـــه وسيـــرته

5- شاعـــريتـــه وآثـــاره

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

غاب اسم الشاعر محمود حسن إسماعيل في كثير من كتب التاريخ الأدبي والنقدي.إذ يُذكر ذكرا عابرا مع مبدعي عصره دون التوسع والتعمق في دراسة حياته وشخصيته وشعره، أو يُدمج مع مجموعة من الشعراء في أي مذهب أدبي أو مدرسة، أو يعرض لبعض نماذجه الشعرية، وأدواته التصويرية عند دراسة الشعر المعاصر بمظاهره وتطوراته وخصائصه. فما كان لي سوى بعض الدراسات القليلة حوله،والمختصرة التي لم تخصص له مبحثا خاصا، وإنما تمزج -في أغلب الأحيان- بعض جوانب حياته بشعره بما يخدم الغرض المطلوب.

ولهذا كان عملي هذا مرتكزا على جمع مقالات متناثرة في الهلال والثقافة والرسالة والشعر والكاتب والدوحة...التي كتبها أصدقاؤه وأقرباؤه، وبعض معاصريه من النقاد والدارسين. وكانت استعانتي بالمقالات بالاعتماد على منهج تحليلي استنتاجي رتبت من خلالها عناصر المدخل، وقد كان طابعها طابعا سرديا عاما. وكذلك على بعض ما كتب محمود حسن إسماعيل بقلمه -واعترف به- عن نفسه وحياته. وكانت أقرب وأصدق في حكمنا عليه ببعض البواعث والمؤثرات، ونعته ببعض الصفات الذاتية والأدبية.

1- مولده ونشأته :

يقول الشاعر << نشأت في قرية صغيرة في أعماق الصعيد اسمها "النخيلة" ولها من اسمها نصيب، يكثر فيها النخيل والبساتين المطلة على حافة نهر النيل من الجانب الغربي. ولم أولد في بيت علم، ولم أواجه في طفولتي مكتبة تشكل ثقافة مبكرة تعين على أي معرفة. وأول ما سمعت من اللغة العربية لغة القرآن، وقد حفظته في سنّ التاسعة. وأول ما سمعت من الشعر الأنغام الجائزية التي كان يتصايح بها المنشدون أمام النعوش وكنت أضيق بها وأفزع منها، ولهذا هربت إلى معيشة كاملة في الحقل، حيث سمعت من أنغام الطبيعة لغة الطيور التي كانت أول إيقاع موسيقي لم تتدخل فيه صنعة الإنسان، يحرك نفسي إلى الإصغاء لعالم الطبيعة بكل مافيه حتى الجذوع الصامتة، والليل الأحرس، والوجوه المستبعدة البكماء،التي تتحرك حولي تحت وطأة القهر والرق والحرمان والطمأنينة الزائفة وبؤس العيش، وذلك في العشرينات الأولى من هذا القرن، وقد طال مقامي كجزء من الطبيعة. >>[1]

من خلال هذه السطور نستخلص عدة أمور ارتبطت بمولده وأسرته ونشأته :

ففي قرية النخيلة[2] كانت ولادة الشاعر محمود حسن إسماعيل في الثاني من يوليو سنة 1910م، وكذا نشأته وسط جو ريفي، وأسرته مصرية فقيرة، ريفية أيضا. هذه القرية كان لها تأثير كبير في مسار حياته وشعره، حيث عرفت بعراقة تاريخها، ففيها اجتمعت الأصالة الفرعونية والعربية الإسلامية. بإسمها الذي يعود إلى تسمية القبائل العربية الأولى أثناء الفتح الإسلامي في مصر، وبأشكال بناياتها وشوارعها وجوامعها وكنائس أقباطها، وبأهلها الذين وصفوا بالشمائل العربية كالطيبة والانضباط والاتزان والحمية

---

(1) نصري عطا الله- محمود حسن إسماعيل بقلمه- مجلة الهلال-ع 85- 1977م- ص73.

(2) النخيلة : قرية تابعة لمحافظة أسيوط على الشاطئ الغربي للنيل.

والالتزام إلى حد التزمت والتعصب أحيانا، واشتهروا بحب العلم والتنافس على تعليم أولادهم.. وبطبيعتها الساحرة وأثرها في تنمية مواهبهم وخيالاتهم، وإنجاب كثير من الشعراء إلى جانب محمود حسن إسماعيل، فمنهم "محمد أحمد فرغلي" و"أحمد حسنين القرني"(1).

2- تكوينه وثقافته :

من خلال السطور السابقة للشاعر نستشف أيضا أنه لم يولد في بيت علم، ولم يواجه في طفولته مكتبة تعينه على أية معرفة أو ثقافة مبكرة. وإنما بدأها بحفظ القرآن الكريم على يد أبيه،حيث << كان الشيخ حسن إسماعيل والد الشاعر يعمل بالزراعة، ولكنه على جانب ذلك كان على حظ من العلم، وجعل منه إماما للمسجد الذي يقع في رحبته الضليلة بمنزله. فهو يؤم الناس في صلاتهم، ويخطب فيهم يوم الجمعة من أحد الدواوين الشائعة آنذاك، وقد جعله ذلك يحرص على تعليم أولاده الذكور وعددهم ستة. ولم يستثن أحدا منهم بل نه في حقله، وحفظوا جميعا القرآن الكريم، وهو منهل الثقافة العتيد>>(2). كما استعان أثناء حفظه القرآن بكتاتيب القرية، في كتاب الشيخ "عبد الحق سليم" والذي درس أيضا مبادئ من علم التجويد، الأمر الذي ألقى في نفسه إيقاعا جديدا من موسيقا اللغة العربية يضاف إلى إيقاعات الموسيقا الأخرى التي غذت روحه.(3) ثم بدأ تعليمه الأول في "الخص"(4) بمدرسة المعلمين الأولية، وتقدم إلى امتحان شهادة البكالوريا من الخارج، وحصل عليها حسب نظام دار العلوم آنذاك، ثم رحل إلى القاهرة، ودخل دار العلوم في يوليو سنة 1932م حيث كانت مطمح كل شاب ريفي حيث يجد فيها متنفسا لمواهبه الفنية، ومعينا ثريا ينهل منه في الأدب ومختلف العلوم آنذاك(5).

وفي القاهرة استطاع أن يشترك في سير الحياة العامة عن كثب، ويراقب الحركة الأدبية بعد أن كان يراقبها من بعيد حيث قال: << كنت أقرأ في الخص الصحف وخاصة البلاغ الأسبوعي، وهو الملحق الأدبي الذي كانت تصدره أسبوعيا جريدة البلاغ. وكان واحد يعمل عند الباشا اسمه فريد، يذهب كل يوم لإحضار بريد الباشا وفيه الجرائد والمجلات. وكان فريد يمر بي، فاتصفح بعض ما يحمل، آخذا منه البلاغ الأسبوعي لأقرأه في يوم أويومين قبل أن يصل إلى الباشا. لم تكن لديّ في الخص أية كتب غير الكتب المدرسية، ولم أقرأ شعرا غير المحفوظات المقررة، ومن هذه المحفوظات بدأ رفضي لكل مكرر وتعبير زائف.>>(6)

---

(1) انظر للتوسع- د/ عبد الحفيظ فرغلي قرني- القرية التي أنجبت محمود حسن إسماعيل- مجلة الثقافة-1977م- ع45(عدد خاص بمحمود حسن إسماعيل)- 1977م- ص84-87.

(2) المرجع نفسه- ص87.

(3) د/ محمد علي هدية- شعر محمود حسن إسماعيل- دراسة فنية- المطبعة الفنية- مكتبة مذبولي- القاهرة-1984م- ص27-28.

(4) الخص: منطقة بالقرب من قريته النحيلة بأسيوط، اسمها الكامل "أبو حرص".

(5) محمد علي هدية- شعر محمود حسن إسماعيل- دراسة فنية- ص32.

(6) عباس حضر- هؤلاء عرفتهم محمود حسن إسماعيل- مجلة الثقافة- ع45- ص65.

إذن لقد توافرت له في المدينة سبل المطالعة، والقراءة الأدبية القديمة والحديثة، إلى جانب دراسته الأكاديمية على الرغم من فقره وحاجته. كما أتاحت له فرصة الانضمام إلى جماعة أبولو والاتصال برئيسها الدكتور "زكي أبي شادي"، وبمحلتها أبولو. هذه الجماعة التي لم تلبث أن أحدثت دويّا في الشعر والأدب والنقد، وانضم إليها ما بين عضو ومؤازر الكثير من الأدباء والشعراء والنقاد.>>(1)

وتمكن الشاعر أن يهيء لنفسه مكانة ثقافية وأدبية مع بداية قراءاته المختلفة، واحتكاكه بشتى التيارات والأحزاب والطبقات، ونشر قصائده وإلقائها في المجالس والمحافل. إذ أن الثقافة هي المحرك الأول لتفكير الأديب واتجاهاته في إنتاجه. << فالبيئة بمعناها الواسع ذات أثر كبير في إنتاج الشاعر أو الأديب ولكن البيئة الواحدة قد تنتج لنا عددا من الشعراء المختلفي الإنتاج نتيجة لاختلاف ثقافتهم.>>(2)

وبالتالي قد استطاع أن يملك ثقافة راسخة أصيلة، إسلامية، بدأت جذورها من قريته واكتملت بدخوله دار العلوم التي كانت تمنح خريجها ثقافة أدبية إسلامية.. وقد أثرت هذه الثقافة على شعره، << فكان له مذاق خاص ما أسرع أن يصافحنا، ونحن نتأمل كلماته وأنغامه. مذاق يختلط فيه عبير صعيد مصر بروائح الريف المصري، بطقوس العبادات المتراكمة على ضفتي الوادي على مدار التاريخ السحيق فرعونية وقبطية وإسلامية، ويختلط فيه أيضا تكوين الشاعر المتكئ على ثقافة شرقية إسلامية ترفدها إطلالاته المستمرة على الانفتاح على آفاق التجربة الشعرية المعاصرة في الوطن العربي أو على الصعيد الإنساني>>(3).

3- وظائفه ونشاطاته :

نظرا لمستوى الشاعر الدراسي والثقافي فقد شغل عدة وظائف وعدم استقراره فيها، كان لها الأثر غير المباشر في حياته الأدبية، فبعد تخرجه عيّن بالمجمع اللغوي سنة 1937م مساعدا فنيا بمعجم فيشر. وفي سنة 1938م مديرا لتقسيم المباريات الأدبية والعلمية بوزارة الشؤون الاجتماعية مع الإشراف على أعمال الإذاعة ومجلة الشؤون الاجتماعية. وفي سنة 1950م تولى مراقبة الثقافة بوزارة المعارف. ثم عاد إلى الإذاعة سنة 1952م مساعدا للمراقب العام للبرامج العربية، فمراقبا للبرامج الثقافية بالإذاعة فمستشارا ثقافيا بها.

وبعد أن أحيل على المعاش، سافر إلى الكويت ليعمل خبيرا بإدارة بحوث المناهج بوزارة التربية، حتى وافته المنية هناك.

أما عن أوجه نشاطه الأدبي، فقد كتب في الصحف والمجلات منذ سنة 1932م، وعمل مشرفا على مجلة الشعر المصرية سنة 1956. وشارك في معظم مهرجانات دار العلوم الشعرية السنوية بأروع قصائده، واختير عضوا للوفد الرسمي للأدباء المصريين في شتى المؤتمرات الشعرية والأدبية العربية، وعضوا بجمعية الأدباء

---

(1) انظر- محمد عبد المنعم خفاجي- دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه- دار الطباعة المحمدية- الأزهر- القاهرة- ص251-252.

(2) ماهر حسن فهمي- تطور الشعر العربي الحديث في مصر(1900 1950م) مكتبة نهضة- الفجالة- 1958م- ص3.

(3) عبد المحيط قرعلي القرني- القرية التي أنجبت محمود حسن إسماعيل- مجلة الثقافة- ع45- ص84.

وجمعية الشعراء وجمعية المؤلفين والملحنين، وعضوا بنقابة المهن التعليمية(1).

4- شخصيته وسيرته :

أي شخصية لها من الصفات والمواهب والمواقف والخصال والمعارف التي تتألف منها وتمنحها التميز والتفرد في طباعها وسلوكها وتفكيرها ومعاناتها حتى إبداعها. وتشكلت شخصية محمود حسن إسماعيل من القلق والثورة، والشرود والهدوء، والتوثب نحو إبداع الكلمة، والتطلع الدائم نحو الروح،أوما ما يسميه هو "بالشموخ الروحي"، فلم تكن شخصية إنسان عادي بل شخصية شاعر فنان.

أ- عزلته :

العزلة هي سمة المبدعين المتفردين بالمعاناة والمشاهدة والتأمل والإحساس الحزين المتيقظ المتدفق، المتأثر بكل المظاهر والخفايا المنبثة في الحياة والكون. إن عزلة محمود حسن إسماعيل خلقت معه، وبدأت مع طفولته الأولى حيث كان كثيرا ما يقضي وقته في أحضان طبيعة قريته، حيث منادمة أنغام الطيور والسواقي، وارتعاشة الأغصان والنخيل، وصمت الجذوع والليالي ومنادمة الآمال والوجوه الكادحة الأليفة،ومنها وجه فاتنة القصر(2)، هذا النزوع نحو الطبيعة انتقل معه إلى المدينة، وإن كان إحساسه بطبيعته الريفية الصافية ظل يؤرقه ويحن إليه دائما. وقد استطاع أن يجد في النيل وحدائقه وجزره بعض اللحظات التأملية التي يهرب إليها كلما شعر أنه يبحث عن شيء يعنيه هو لاغيره -لعله التعبير الشعري- وقد أكدّ ذلك صديقه الدكتور "مختار الوكيل" <<وكنا نمضي الساعات الطوال في أحضان الطبيعة الحانية بالجزيرة، بين النخيل الرشيق، والدوح العتيق، والزهر الأنيق، والعشب المشذب الرفيق، وكنت أجده نعم الأخ والصديق، وكان مثلي يحب التأمل وإدمان النظر إلى تلك المخلوقات الرائعة الحسناء، بغية استيعاب جمالها الفتان، ومعانقة فنها الساحر الحنون. >>(3)

هذه العزلة التي أفضت به إلى التأمل الدائم، والابتعاد عن المحافل والتجمعات السياسية،بل كان يؤثر في بداية عهده بالمدينة عزلة اضطرارية في غرفة بالقاهرة أطلق عليها اسم "مقبرة الحي"(4)،حيث أناخ عليه الفقر

---

(1) د/ مصطفى السعدني- التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل- منشأة المعارف-الإسكندرية- مصر-1987م- ص18-19. وأعتمد المؤلف مصطفى السعدني في إحصاء وظائفه ونشاطاته على المصادر التالية:

أ- جوائز الدولة لعام 1964م .

ب- مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

ج- استمارة البيانات الخاصة بالأدباء الفائزين بجوائز الدولة .

د- أحاديث للشاعر بإذاعة البرنامج الثاني- بإذاعة القاهرة .

(2) فاتنة القصر: فتاة ريفية ذات يسر أحبها الشاعر في أيامه الأولى في القرية على الرغم من ابتعاده عنها فيما بعد، فقد كان لها أثر في شعره.

(3) د/ مختار الوكيل- أيامنا القصيرة- بعض ذكرياتي مع محمود حسن إسماعيل- مجلة الثقافة- ع45-ص80 .

(4) مقبرة الحي: عنوان لإحدى قصائده الأولى التي نشرها في مجلة أبولو.

بكلكله، واستبد بخاطره الحرمان. ثم أصبح يؤثر للملاحظة البعيدة، والتفاعل مع الأحداث في صمت، والإعلان عنها فيما بعد بتعبير وصوت منفرد، لا مع أصوات الجماعة،على الرغم من محاولات بعض السياسين لجذبه إليهم. إلا أنه هرب من الأضواء السياسية لشعوره الدائم بالانزواء، وعدم الاطمئنان للتغيرات السياسية.

وإن كان هذا الموقف لم يمنعه لأن يكون شاعرا سياسيا له رؤية سياسية رحبة لا حزبية ضيّقة. و<<كانت له طبيعته الهادئة الرقيقة . كان لايرى إلا حزينا واجما، ساهما شاردا.. كان يؤثر العزلة وينأى عن كل تجمع صاخب. ومثل هذه الشخصية لا يمكن أن تتلاءم مع ماعرفناه في ذلك الوقت عن غوغائية السياسة وصخبها ومزالقها>>[1].

ب- خصاله :

لقد كان التزامه ببعض الخصال والمواقف سلوكا معينا في الحياة يقوم على الجد والترّفع عن الصغائر والاعتزاز بالنفس،حيث يقول عن صديقه"عباس خضر" << وانعقدت أواصر الصداقة بيننا، إذ لمست فيه إنسانية صافية،وبهرتني شخصيته المترفعة عن الصغائر. وكانت فيه تلقائية صريحة نحو الذين لا يهضمهم>>[2].

كما غلب عليه طابع الافتخار، والاعتزاز بالانتساب إلى الأرض، حيث البساطة والصفاء الإنساني << إنه كان يفخر دائما بأنه فلاح وصعيدي،أي رجل محافظ وعنيد. وكان في تلك الفترة يهيم بحب الأرض، ويعشق أهل قريته، ويتدله في إعزازه لهم. ولهذا كانت تصرفاته تتسم بالحذر والدقة في معاملته لأهل المدينة. ولهذا أيضا لم يكن يصطفي من الأصدقاء إلا من يطمئن إلى أنهم مثله،أميل إلى التحلل من التزمت المدني،وأقرب إلى التصرف التلقائي الطبيعي الذي يتسم به أهل الريف. >>[3]

وكان يحاول دائما أن يكون ذا شخصية مستقلة متفردة، توحي بأنها شخصية شاعر إذ تقول زوجته <<كان محمود حسن إسماعيل ماردا عظيما في فنه، وظل قلبي يكبر ويكبر، ويتسع ويتسع ليحوي هذا المارد العظيم بكل ما فيه من ثورات جامحة محرقة، وأشجان عميقة متناقضة وأنانية -أحيانا- طاغية، تذوب رقة ووداعة أمام أولاده. من كان يريد أن يعرف محمود حسن إسماعيل على سجيته وحقيقته، كان عليه أن يعيش معه لحظات ما بعد منتصف الليل، فهو يفضي إلى الليل بكل ماعنده، ويأتي الصباح، فيحمل له معه القناع الجامد الذي يضعه على ملامحه ويواجه به الناس والعمل. ولم يعرف عذوبة محمود حسن إسماعيل إلا من استطاع أن يخترق هذا القناع>>[4].

ج- تدينه :

لعل السر في تدين محمود حسن إسماعيل يكمن في نشأته وتكوينه العلمي والثقافي[5]، فقد كان طابع

---

(1) د/ محمد محمود رضوان- ذكريات قدمتها مع محمود حسن إسماعيل- مجلة الثقافة- ع45-ص56 .

(2) هؤلاء عرفتهم- محمود حسن إسماعيل- مجلة الثقافة- ص65 .

(3) نعمان عاشور- محمود حسن إسماعيل وشاعرية النضوج - مجلة الدوحة - ع58-(1400هـ-1980م)-ص45 .

(4) سارة أحمد نسيم- محمود حسن إسماعيل-الروح والأب - مجلة الثقافة- ع45 ص52 .

(5) انظر-المحاور السابقة- (نشأته -ثقافته).

الالتزام الديني هو الذي يطغي على كثير من تصرفاته ومعاملاته مع الناس، كما انعكس هذا الالتزام فيما بعد على شعره مشكلا جزءا كبيرا في محاوره ومضامينه، وصوره الشعرية، وكان أعظم بواعث شاعريته.

وقد لاحظ كثير من أصدقائه والمتتبعين لحركة حياته وشعره ظاهرة التدين التي لم تكن نزوة أوصحوة عابرة، وإنما تأصلت في أعماقه وفكرة هذه النزعة الدينية بما وهب من فطرة سليمة صقلتها فيما بعد الأجواء الريفية المحافظة، والأسرة المتدينة، والثقافة الإسلامية العربية.

فيقول عنه"نعمان عاشور" << كان محمود حسن إسماعيل شديد التدين راسخ الإيمان، كما يتوقع لكل ريفي مصري بل كل مصري على الإطلاق.. وكان كثير الفخر بإسلامه وعروبته، ولم يكن يفصل بين الإسلام والعروبة. فما دمت مسلما فأنت عربي. هكذا كان دائما، ولكنه لم يكن متعصبا،لا في تدينه،ولا في عروبته على الرغم من نشأته ودراسته الدينية والبيئية التي تعلم فيها. وكان يحفظ الكثير من الآيات القرآنية، ويرددها في ميل واضح إلى طلاوتها وحلاوتها في معناها ومبناها، يتذوقها بفن وحسّ لغوي مرهف. وكان دائما يركز في إسلامياته على التغني بحياة الرسول وخلفائه الراشدين، ويعبر أن هذا هو العهد الذهبي، والوجه الحقيقي للإسلام والعروبة،وفيما عدا ذلك فلم يكن يرجع للمفاخر العربية إلا من خلال أمجاد التراث في مراحل الحضارة العربية إبان ازدهارها. وكان جوهر الدين عنده يتمثل في العلاقة المباشرة بين العبد وخالقه، وهي علاقة لايجب أن يداخلها وسيط من الأولياء. ويؤكد دائما أن جوهر الإسلام هو حرية الفرد. فكان يرفض الإنحياز للجماعات الدينية التي تتجه نحو السياسة وهي ظاهرة مميزة لعصره... ولعل الأرستقراطية الوحيدة التي كان يؤمن بها هي ارستقراطية الفكر، وكان يتمثلها دائما في نفسه، ويعبر عنها بأنها الشموخ الروحي >>(1).

د- ثورتـــه :

كان محمود حسن إسماعيل ثائرا، رافضا للواقع الإجتماعي والسياسي(2) الذي يعيشه مجتمعه.. إذ أن نشأته ،ومعاناته في القرية،ورحلته إلى القاهرة من أسباب تفجير ثورته، وطاقته الفنية، وقد أحسّ بالمفارقة الهائلة بين حياة القرية والمدينة، وتفتح عقله على متناقضات تلك الحياة متمثلة في الفوارق الطبقية والاجتماعية بين المترفين والكادحين، والظواهر المتفشية من تسلط وتجبر وظلم، وتناحر ورياء وذل وفجور. حيث عبر محمود حسن إسماعيل عن استكاره لذلك << أنا لم اكتب شعرا في القرية، وإنما عندما نزحت إلى مصر هاجني الحنين إلى قريتي، وإلى عالمي الساكن الهادئ الذي كنت أعيش فيه، فأنشدت ديواني الأول المسمى "أغاني الكوخ". وظل هذا الديوان امتزاجا فيا عميقا بكل ذرة من ذرات تراب هذه البيئة التي نشأت فيها بكل قطرة من هذه الينابيع التي تعد في مجملها ينبوعا واحدا هو الينبوع الأول الذي تدفقت منه الأنغام مرتبطة بالإنسان والتراب الذي يمشي عليه، والعالم الذي يعيشه بين الأكواخ والقرى والدخان والمظالم والكفاح الشديد. فقد كتبت هذا الديوان دفعة واحدة في حومة الهياج النفسي الحزين الذي صادفته عندما

---

(1) محمود حسن إسماعيل وشاعرية التسموح مجلة الموجة ص47.

(2) سنتحدث عن البيئة الاجتماعية والسياسية في فصول لاحقة وعلاقتها مع رؤى شعره.

فارقت القرية وواجهت المدينة بكل ضجيجها ومدنيتها وحضارتها وإنسانها المختلف اختلافا كاملا عن هذا الإنسان الهادئ الذي كنت أعيش معه، كأنما أعيش مع قطيع حية من الطبيعة من نخل وأشجار وسنابل وحقول وغيرها على شاطئ النهر الخالد.>>(1).

كما سيطرت عليه في تلك الفترة مشاعر جارفة بضرورة التغيير والتحرر بتوقه إلى الحرية، وتشبعه بروح الثورة،ودفعه لذلك فساد السياسة، وتأزم الاقتصاد، واضطهاد الحرية، وتعدد العدوان، وبعد أن شهد النمو الهائل في الوعي الشعبي والنهوض الاجتماعي الذي بدأته الدعوات الإصلاحية لكثير من السياسين والمصلحين الاجتماعيين والأدباء والشعراء. ثم انتهت بثورات عارمة هزّت العالم العربي بخاصة والإسلامي بعامة هزا عنيفا. التحم معها الشاعر التحاما قويا اتسم بالغيرة على الحق، والشوق إلى الحرية وتحقيق إنسانية الإنسان.

3-اغـــتـــرابه :

كانت ثورة محمود حسن إسماعيل بعيدة عن طلب امجد أو الشهرة أو الغنى،وإنما انطلقت من نفسه الرافضة للواقع بمافيه. فكانت بحق ثورة شعرية إلا أنها لم تجد الصدى المسموع في وطنه، وحوصر بالتجاهل واللامبالاة والصمت، فغادرمضطرا إلى الكويت. ولكنه لم يسقط في هاوية الاغتراب السلبي، والذاتية الهاربة من الواقع،بل بقي وجه وطنه بكل ما يحمل من معالم وهموم وقيم يلاحق ملامحه ولهجته المصرية الصعيدية، ونفسه المحبة الصادقة. وتتأسف زوجته عن أواخر حياته << للأسف! إن هذا البركان الثائر المتوهج المليئ بعطاء لا ينضب، والذي كان يتمنى أن يطول عمره حتى يكمل رسالته الفنية، أقول كان هذا البركان تخمد ثوراته أحيانا شواغل الدنيا وأمورها التافهة. وتشغله مطالب العيش والأولاد، وهو عابس غاضب. لأن وطنه الذي ظل يغني له قرابة أربعين عاما لم يوفر له مظلة الأمان، أو يرفع عن كاهله هذا العبء الذي يقيده، ويعوقه عن الانطلاق إلى آفاقه البعيدة المقررة. فترك نهره الخالد، وترك أهله وبلده. وطار حيث حط على أكف عربية هدهدت آلامه، وإن لم تضمد الجراح العميقة التي كان يعانيها من حصار الصمت والتجاهل، وعدم تقدير عطائه الشعري الفريد.فمات بعيدا عنه، وعن أهله تجلله عزة نفسه وترفعه ولسان حاله يقول :(2)

لَمْ يَطِبْ لِلنُّبُوغِ فِيكِ مُقَامٌ لاَعَلَيْكِ الغَدَاةَ مِنِّي سَـــــــــلاَمُ
أَنْتِ يَا مِصْرُ وَاصْفَحِي إِنْ تَغَنَّيْتُ وَأَشْجَاكِ مِنْ نَشِيدِي المَلاَمُ
قَدْ رَعَيْتِ الجَمِيلَ فِي كُلِّ شَيءٍ غَيْرَ مَا أَحْسَنَتْ بِهِ الأَقْلاَمُ .>>(3)

وقد تأثر لحال هذا الشاعر صديق كان يلازمه في الفترة الأخيرة في الكويت قائلا << فهو لم يصل إلى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب،إلا متأخرا جدا، ثم تركها مغاضبا. وهو لم يحصل على جائزة الدولة

---

(1) فاروق شوشة- الحديث الأخير للشاعر محمود حسن إسماعيل- مجلة الشعر- 1977م- ع7-ص81.

(2) مجلة الثقافة- -محمود حسن إسماعيل- الروح والأب- ص52 .

(3) هكذا أغني- دار المعارف- القاهرة- 1981م- ص165 166.

التشجيعية وكان من حقه التقديرية إلا بعد بدايات صحرة الستين من العمر، وهو لم يطبع ديوانا إلا بعد أن ألقي فترة كيوسف في الجب وشروه بثمن بخس بدارهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين، ثم أنه لم يصل إلى درجة مالية في الإذاعة، وبالتالي إلى معاش تتفق وقدراته المذهلة، وما أظنه كان شقيا هذا لأنه لو طامن رياح عبقريته، ولو أتقن الإمتاع والمؤانسة لانطفأ شيء ما داخل محجري شعره -كما انطفأ الحجر الأسود من ذنوب الناس- على حد تعبير لع معي مرة>>(1).

كما صور رحيل هذا الشاعر الذي تفرد بمطالبه المحدودة في الحياة وإخلاصه لشعره. وتمكن من أن يكون إنسانا صعب المراس في حياته، وفي شعره حياته التي كانت طلسما أعيا الكثيرين، وشعره الذي كان معابد لا يستوعبها إلا من اتسعت نفسه ورحبت. ومات بعدها في غربة كما عاش في غربة وكان الاحتفال بدفنه في مصر بسيطا كما تدفن سنبلة في قمح. وكما تدفن الشمس لتعود إلى الإشراق، وكما تدفن الحرية في جانب من الحياة، لتعود مندلعة في كل الحياة. وكان رحيله الأخير إلى الرفيق الأعلى في 25 من أبريل سنة 1977م(2).

5- شاعريته وآثاره :

عن بواعث شاعريته يقول محمود حسن إسماعيل: << أنا إما شاعر وإمّا لاشيء. الله أعطاني قيثارة كما أعطى الطير حنجرة، ولذلك فأنا أغني، وأنا مشبوب العاطفة. ولو لم أكن شاعرا، ولو لم تهبني السماء طبيعة الشاعر وإشعاع موهبته وفطرة موسيقاه، ولو لم تمكني ظروف النشأة من التثقيف العربي العميق الذي يتيح لي الإفصاح والتعبير عما أحس بلفظ عربي هو لغتي ولغة أمتي العربية، لكنت أبكم اللسان، شاعرا لا أثر له. يتحرك على تراب الأكواخ مع عبيد الأرض بإحساس شاعر ولسان جاهل>>(3).

إن مصدر شاعريته إذن هي القدرة على التعبير التي هي من إلهامات ومواهب الله عز وجلّ لفئات من الناس. هذه الموهبة التي ولدت مع رنين الطبيعة في طفولته. وكان ميلاده الشعري بالتأمل فيها واختزان الصور الشعرية من مادتها.

ونزل المدينة، ورأى عالمها الصاحب والمتناقض. فكان ذلك المحرك الأول لشاعريته، ومن خلالها انبعثت ألحانه في الحنين إلى الكوخ، وبثّ مايعانيه في المدينة، إذ يصرح بذلك << لم تترك طفولتي في الصعيد بصمات على حياتي كشاعر فحسب، بل كانت هي السر الذي اندلعت منه حياتي الشعرية، فهي لم تكن طفولة فقط، بل كانت امتدادا منذ مولدي بالقرية، إلى أن نزلت المدينة. وقهرني فن الشعر على التفجر قبل انتهاء مدة الدراسة العليا بصدور ديواني الأول "أغاني الكوخ"، ذلك أني عشت القرية بروحي وجسدي متوغلا في

---

(1) عبده بدوي- مقدمة المجلة بمناسبة وفاته- مجلة الشعر- ع 7- ص4- 5 .

(2) المرجع نفسه- ص5.

(3) محمود حسن إسماعيل بقلمه- مجلة الشعر- ع7-ص73 .

دخانها وترابها وشتاتها وأحزانها الراحية، ورفها المستسلم الوادع الذي طبعته مقارع السنين بالطمأنينة الكاذبة، والقناعة المهيمنة. ولرأيت المجتمع كله يتعاور على أعتاب حفنة من السادة ولا أستطيع تفسير شحنة العذاب والقلق والرفض، التي كنت أحملها كما فسرتها أنغام الكوخ، وهكذا أغني، وأين المفر، وسائر الدواوين والأشعار التي نشرت بعد ذلك. >>(1)

وبدأ الشاعر يستمد مخزونه الشعري من القرية قبل أن يكون قد قرأ وتعمق في قراءاته الأدبية والنقدية لما حولها من تطور وتجديد، وصدر ديوانه الأول أغاني الكوخ عام 1935م، وأثار حدثا فنيا آنذاك، وقد استقبل بوجهين مختلفين : وجه في احتفال أساتذته وأصدقائه بدار العلوم بمولد الشاعر ووجه آخر سياسي تجلّى في تهديد ووعيد وهجوم، نشر في جريدة كوكب الشرق. إذ حمل على أنه تحدّ للأثرياء للرفع من مستوى الفلاحين(2). لقد كان شاعرا في كل لحظة من لحظات حياته، أصبح فيها غريبا عن الناس على الرغم من عيشه معهم. << فهو في حالة شعور مستمر بما لايمكن أن يشعروا به، لأنه يلمح حقائق لا يلمحها غيره، وينبض بأحاسيس لا ينبض بها سواه. فهو شاعر في يقظته إلى الهمسة الخافية، وفي إدراكه للحلجة المتوارية، وفي انفعالاته بالحدث الذي يمضي عابرا، لا يكاد يلتفت إليه أحد، هو شاعر في جميع حالاته، وفي ملابسات حياته، وفي تجاربه. >>(3)

لقد كان شاعرا له معاناته الشعرية الخاصة، التي جعلته لاكالشعراء الذين يتحلون بلآلئ شعره، وإنما هو يعاني التعبير الشعري،ويستبد به،ولا يجد فكاكا منه. تقول زوجته مصورة لحظاته الشعرية.<< المعاناة الحقيقية التي كان يعانيها عند ميلاد قصيدة جديدة. فهو حينئذ منفعل متيقظ المشاعر، تتوه عيناه، ويتوهجان، وتحدقان في لاشيء، ثائر الحركة في صمت. لا يكلم أحدا ولا يريد أن يكلمه أحد. وينصرف إلى حجرته وقد أشاع في جو المنزل كله شيئا يسري كأنه الكهرباء. فإذا الكل صامت خاشع، يحس برهبة القادم الجديد. أقدم له فنجانا من القهوة بحذر شديد، ويظل يقاسي حتى يعثر على مطلع قصيدته. فيغمره حينئذ انبهار وفرح عبقري، ويتدفق في حديث ساحر مغرور في إعزاز وثقة، ثم ينتقل فجأة إلى مرحلة أخرى.حيث يعود إلى الصمت من جديد ليتلقى شلالا هادرا من القوافي تتراحم في عنف على قلم يجري في ثقة بالغة،وفي خط جميل له طابعه الآخاذ على صفحات من ورق يختاره بعناية فائقة. ويمضي لا يستطيع ولا يغير إلا في النادر القليل. كل ذلك حتى يتم قصيدته فينام سعيدا راضيا ليقوم ثائرا تحمل جوانحه عطاء جديدا. >>(4)

هذه المعاناة التي كلّما غصنا في أغوارها، كلما تأكدنا من أصالته الشعرية المميزة، وعطائه الشعري المتدفق

---

(1) المقال نفسه- مجلة الشعر- ص74.

(2) د/ ثابت أحمد بخاري- قضية الفلاح في شعر محمود حسن إسماعيل- مكتبة النهضة المصرية-(1404هـ-1984م)- ط1-ص53.

(3) مجلة الثقافة - ع45 ص84

(4) محمود حسن إسماعيل «الزوج الآلي» مجلة الثقافة-ص 53

الذي دلّ دلالة حية على معاناة اتسمت بالعزلة والغربة والابتعاد على البهارج والأضواء، وصل إلى حقيقة الكلمة بروح استشهادية خوفا من أن يتحول إلى مهرج أو نظام، أو أن يتحول إلى بركان خامد لا يرسل إلا الكلمات الميتة أو الفقرات المتفحمة. وامتدت عطاءاته الشعرية حتى آخر رمق فيه منحت شعرا سيظل يطلع في مصر، ومن ورائها العالم العربي والإسلامي . كالجبال والأسرار والكهوف والغابات والجياه الساطعة، فهو أقرب إلى الغابة من البستان، وإلى البحر من الجدول، وإلى الصحراء الغامضة، ومن الواحة المبتسمة. لقد كان في الفترة الأخيرة يبدو تجسيدا بشريا للشعر. فقد سال الشعر في تجاعيد وجهه، وأضحت تمتماته تفاعيل متوهجة. كما أنه تحول إلى ديوان مفتوح لا يستطيع قراءته إلا الموهوبون. فهو قد تحول من قارئ للطبيعة وللحياة إلى مقروء من الطبيعة ومن الحياة،وقد تحول بمهارة من الشاعر إلى الشعر. >>(1)

لقد نشر محمود حسن إسماعيل معظم دواوينه متأخرا، وهو على أعتاب الشيخوخة، وباعها بثمن بخس. ولأنه لم يتعود أن يجمع قصائده فقد كان نشره لدواوينه من الأحداث المثيرة، حيث كان يستحث أصدقاءه ومعارفه بأن يمدوه بما يكونوا قد وقعوا عليه منشورا في الصحف، ولقد كان جمعُ كل آثار الشاعر والتأكد من طبعها أزمة للناقدين والدارسين فلم يجمعوا على تحديد دواوينه، وقد قدم عطاء شعريا زاخما طيلة فترات حياته.

إن المستقرئ للخريطة الزمنية لتجربة محمود حسن إسماعيل والمتتبع لصدور دواوينه يجدها محددة بثلاث فترات فنية، وفي كل فترة يمر من خلالها بمرحلتين. وقد حددّها عبد العزيز الدسوقي كما يلي :

1- **الفترة الأولى** : فترة التدفق وقد مرّت بمرحلتين:

أ- مرحلة الكوخ،أو مرحلة البداية الفنية ومن حصادها "أغاني الكوخ" 1935م

ب- مرحلة النضج الفني، ومن حصادها " هكذا أغني" 1937م،و"أين المفر" 1947م.

2- **الفترة الثانية** : وهي فترة التريث الفني مرّ الشاعر بمرحلتين أيضا :

أ- مرحلة التوقف: فلم يصدر أي ديوان، وقد اتسمت هذه الفترة نحو عقد من الزمان من سنة 1948م حتى 1958م.

ب-مرحلة الأعراف: وهي المرحلة التي أحس فيها الشاعر أنه يقف بين عالمين، عالم انتهى، وعالم يحاول أن يعيش فيه، ولهذا سمّاها بالأعراف، ومن حصادها ديوان "نار وأصفاد" 1956م.

3- **الفترة الثالثة** : وهي فترة البعث الشعري، وقد مرّ أيضا بمرحلتين :

أ- مرحلة التجريب الفني ومن حصادها ديوان "قلب فوسين" 1964م.

ب- مرحلة التدفق الفني ومن حصادها دواوين "لابد" 1966م، "التائهون" 1968م، "هدير البرزخ" 1969م، "صلاة ورفض" 1970م، "نهر الحقيقة" 1972م.

---

(1) مجمة الشعر مقدمة المجلة ص5.

وقد برر الناقد عبد العزيز الدسوقي أن هذا النحو الصارم من التقسيم إلى فترات ومراحل إنما يحمل تيارًا فنيا متصلا يربطها خيط فني واحد. كما يرى أن هذه التقسيمات علامات تعين الدارس، على تتبع مراحل تلك التجربة الفنية، وتحيط بالظروف النفسية والاجتماعية التي مرت بها، ولاشك أن هذه الفترات تحمل بعض السمات الفنية الخاصة. ففي الفترة الأولى، تغلب عليها الطابع الرومانسي، إلى جانب النضج الفني وعمق التحديد، والفترة الثانية تميزت بالعنياع الفني، أما الفترة الثالثة فقد تميزت بالاكتمال الفني والتحديد في الشكل الشعري(1).

على الرغم من هذه التقسيمات النظرية من جدة وطرافة في تحديد مراحله الشعرية، لابد من إعادة نظر لما في تقييد عالمه الشعري من صعوبة نقدية وصرامة وعدم دقة في عرض كل دواوينه. حيث أننا يمكن أن نضيف للفترة الأخيرة ديوانيه الأخيرين "موسيقا من السر" الذي طبع سنة 1978م، و"صوت من الله" سنة 1980م.

ويجب أن نشير كذلك إلى ديوان أسقط من دواوين الشاعر تماما وهو ديوان "الملك"(2)، الذي صدر بعد ديوانه الثاني "هكذا أغني" سنة 1946م، وقد أهمله النقاد والدارسون لأسباب سياسية أكثر منها فنية، وعدّه بعض المنصفين من جيّد شعره،وإن وجدت فيه بعض هفوات الشاعر الفكرية غير المقصودة.

أما عناوين الدواوين الأخرى، "رياح المغيب"، "من أرض المعراج"، "الباب الموصود"، "ديوان الحب"، "هدير البرزخ"والتي يشار إليها على أنها تحت الطبع في نهاية بعض دواويه السابقة مازالت بمجهولة اضطراب الآراء حولها عن رياح المغيب وهي عبارة عن ملحمة شعرية، تقول أسرته أنأحد الناشرين في بيروت، قد أخذها لنشرها، ولا يدرون عنها شيئا حتى الآن. هل طبعت أم لا؟. كذلك الأمر بالنسبة لـ "هدير البرزخ" فهو عبارة عن ملحمة شعرية طبعت واختفت. أما أرض المعراج والباب الموصد لم يقرر الدارسون حولهما شيئا. بل احتاروا في أنهما عبارة عن مجموعة أشعار قد ضمتها ديواني "صوت من الله"، و"موسيقا من السر". أم أنها أعمال منفصلة، بل حتى ديوانه "صوت من الله" هو مجموعة من قصائد من دواوين سابقة، فيه أكثر منه ثلاثة عشرة قصيدة أعيد نشرها وهي في الأصل من دواوين سابقة كنهر الحقيقة و"قاب قوسين" و"موسيقا من السر"(3)، مع تغيير أو تكرار عناوين بعض القصائد. كذلك ديوان "الحب" هو مجموعة قصائد في المرأة والحب من دواوين سابقة ولعلّ من أسباب هذا التذبذب في توثيق وطبع كل دواوينه هو عدم متابعته لنشر أشعاره، وجمع دواوينه.

---

(1) محمود حسن إسماعيل في عالمه الشعري -مجلة الثقافة- ع45- ص72-73.

(2) الملك: ديوان كتبت قصائده في مدح الملك فاروق، وسنحاول أن نسلط الضوء على بعض مواضيعه في فصل الرؤية السياسية.

(3) انظر د/ أنس داود - شعر محمود حسن إسماعيل - تحولات مسلوق الضوء - هجر للطباعة والنشر-(1407هـ-1986م) ط1 ص9.

لأنه كان يعتقد أن من حقه على الناشرين أن يسعوا إليه، وبأبى أن يعرض على أحد نشر شعره. كما أنه كان يرفض أن يستغل وظيفته بالإذاعة لتقديم شعره.

إلا أنه لم يمتنع عن تقديم أي شيء منه إذا طلبت منه من جريدة أومجلة فكثيرا ماكان ينشر في الأهرام، وفي مجلة أبولو والثقافة والرسالة بالخصوص(1). كما أنه كان يتوقف عن النشر، فترات كانت تطول أحيانا إلى عقد من الزمان نظرا للمتغيرات السياسية والاجتماعية التي تطفو على سطح الحياة. وتتسرب إلى وجدان الشاعر. وتجعله يتوقف عن النشر وربما السعر، ولعل مراحل توقفه الشعري فرصة لمعاودة النفس ومراجعة التجربة.(2)

على الرغم ماظهر من الأسباب وماخفي عن آثار محمود حسن اسماعيل الشعرية، تظل بحاجة إلى إعادة نظر. ولهذا فالخطوة الأولى عند دراسة هذا الشاعر هي جمع وتوثيق آثاره وبالمعاودة والمراجعة يتم الكشف عنها كاملة، كما هي بحاجة إلىدراسة متأنية لما تحويه من قيم روحية وإنسانية وفنية.

هذا ماسنحاول البحث فيه بما نملك من الدواوين(3). حيث ستكون رؤيته الإسلامية هي المحور الأساس الذي سنبرزه في شعره.

---

(1) نعمان عاشور- محمود حسن إسماعيل وشاعريته الشموخ- مجلة الدوحة ص46-47.

(2) انظر- عبد العزيز الدسوقي- محمود حسن إسماعيل في عالمه الشعري- مجلة الثقافة-ص74.

(3) جمعت كل دواوينه المذكورة ماعدا ما أشير إليها على أنها تحت الطبع (رياح المغيب، أرض المعراج، الباب الموصد، ديوان الحب، هدير البرزخ). كما جمعت بعض القصائد المنشورة في الدوريات- (الهلال- الرسالة- الشعر).

2- الـرؤية الـشـعريـــــة

1- المـنـــظور النقـــــدي

2- الـمنـــظور الإسلامي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- المنظور النقدي

لكل شاعر أصيل نظرة معينة عن الواقع والأشياء، والحياة والناس وهذه النظرة الخاصة للشاعر تعبر عنها عبر طريقة تعبيره عنها، والتي تتجلى في مجموعها في شكل شعري. وهذه النظرة هي مانسمي في النقد الحديث بالرؤية الشعرية، أي الكيفية التي ينظر بها الشاعر إلى العالم، والتي ظهرت في النقد الغربي وبصورة واضحة عند الناقد "لوسيان كولدمان" الذي عرّف الرؤية للعالم "Vision du monde" بأنها << التقدير الاستقرائي والتصويري إلى أعمق مدى لالتحام الأحاسيس الفعلية والانفعالية والثقافية، بل حتى الأحاسيس المحركة لأفراد فئة اجتماعية ما.>>(1)، وأنها أيضا << مجموعة مترابطة من القضايا والحلول التي يتم التعبير عنها، على المستوى الأدبي عن طريق الإبداع بواسطة الألفاظ وبواسطة كون محسوس من المخلوقات والأشياء.>>(2).

وانتقل هذا المفهوم بفعل الاحتكاك الثقافي إلى العالم العربي خاصة مع الاتجاهات الأدبية، ورأى النقاد العرب إمكانية الاستفادة منه كمنهج كفيل بتحليل النص الأدبي.ووفق هذا المنظور تمكن الرؤية للعالم خلف كل نتاج أدبي، ومن ثم أصبح الشعر يعرّف بأنه رؤية يفسر الشاعر بها الحياة. ويسعى إلى توجيهها حسب بيئته وعصره ومكوناته النفسية والروحية والثقافية واتجاهه الحياتي. فالرؤية هي قوام الشعر لأنها << نوع من المعرفة الفلسفية والحدسية التي تخرج التجربة الحية في حرارتها الأولى في صدقها الحقيقي، قبل أن تغدو آلية استدلالية لاينفع معها أي مجاز>>(3).

ويسعى الدارس إلى تبيّن الرؤية الشعرية من خلال مجموع المدونين أوالقصائد التي ينجزها الشاعر في معظم مراحله الايقاعية والشعرية. ويستطيع أن يحدد مسار اتجاهها الفكري والفلسفي والفني. ويؤكد نجاحها أوفشلها من خلال تلك المراحل حيث << تنقل القصيدة من عالم "القوة" إلى عالم الفعل عبر التقمص الداخلي، والحلولية في قلب الأشياء والتجسيد في لغة حمالية. وعندما تفشل الرؤية في أداء مهمتها الجوهرية، فإن القصيدة تبدو في حالة من الزحزفة البديعية، واتراكم الموضوعي المشبع بروح المنطق التقريري الواضح أو تظهر قصيدة مطموسة متهالكة، مبتورة، ولا تنتج سوى الإبهام المغلق.>>(4).

ورؤية أي شاعر قد تشترك مع رؤى معاصريه من الشعراء في التعبير عن تجربة معينة تلح عليهم جميعا، أو تشترك معهم في خط فلسفي أوايدلوجي يجعل الخلفية الفكرية موحدة في شعرهم،أو قد تختلف عنهم في جوهر تلك الخلفية بالتزامه بمواقف أخرى تعد صغرة أو تطلعا...وفي جميع الحالات يبقى لكل شاعر رؤيته الخاصة التي تحقق له أصالته وطابعه الخاص وتبريره الفني لوجوده الشعري. وتظل القصيدة << تمثل رؤيته الخاصة..

---

(1) محمد إقبال عروي- جمالية الأدب الإسلامي - الدار البيضاء المغرب- ط1- 1986م- ص 72.

(2) المرجع نفسه- ص73.

(3) إبراهيم رماني- الغموض في الشعر العربي الحديث- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1991- ص107.

(4) المرجع نفسه- ص107.

مهما استخفى الشاعر وراء الرمز والاستعارة والعلاقات اللغوية المتكسرة التي تنتمي إلى العالم الشعري، فإنه يظل لحضوره فعالية خاصة.>>(1). لكن منهج الرؤية المستحدث أثار عدة إشكالات أهمها << أنه لا يصلح لكل الشعراء، لأنه ليس في وسع كل شاعر أن يكوّن رؤية. فهذه تحتاج إلى عبقرية خاصة،هي مزيج من موهبة عظيمة وثقافة بالغة الخصوبة ومعاناة صادقة إلى حد الاستشهاد >>(2). حيث يشترط أن تكون هناك رؤية شعرية شمولية،لأن البعض قد يمتلك رؤية لكن ينقصها الشمول والتعدد، بل هناك من يملك رؤية بلا حضور أشبه بالتهويمات والتعاويذ.

ومن إشكالات هذا المنهج أيضا هو ظهور بالمقابل مفهوم آخر هو "الرؤيا" ليزاحم المفهوم السابق "الرؤية" في الساحة النقدية. وقد ظهر أيضا مصطلح الرؤيا في النقد الغربي وتكيف معه النقاد العرب أيضا. لكن الشبه الواضح بين اللفظين أوقع بعضهم في إشكالية الفصل بينهما والخلط بين معنييهما،على الرغم من أن كل لفظ يحمل معنى منفردا. وقد ورد في لسان العرب أن الرؤية هي النظر بالعين والقلب، والرؤيا هي الحلم في المنام(3). حيث استعملوا هذين المصطلحين في النقد دون تحديدهما أو توضيح دلالتهما أو تحليل عناصرهما "كعبد العزيز المقالح" الذي يستخدم مصطلح "الرؤيا" في عنوان كتابه، وفي ثناياه لم يضع أي تعريف للرؤيا من حيث هي اصطلاح نقدي. لكنه استعمل مصطلح الرؤية لتوضيح رؤية الشاعر أوالكاتب الحديثان، فكلاهما << يمتلك قدرة على الكشف وإدراك المتغير، وتتركز رؤيته في القادم الأحد، ومن هنا تنبثق إمكانياته التعبيرية وقدرته على صياغة تلك الرؤية في مجالها المتغير والمتجدد>>(4).

وكذلك "محي الدين صبحي" الذي لم يحاول الفصل بينهما، حيث وظف الرؤيا بنفس معنى الرؤية دون أن يشير إلى ذلك لكنه أعطى مفهوما للرؤيا وارتباطها بالأدب والشعر، على أساس أن هذا الأخير هو حالة تشبه حالة الحلم متجاوزا حدود الزمان والمكان، والعقل والبرهان. << فمن طبيعة الأدب أن يقدم نظرة شاملة ومستقبلية إلى الحياة، وتعبير "النظرة الشاملة" يعني الأزمنة الثلاثة ولا يقتصر على الامتداد المكاني الذي قد يجعل الأدب تعبيرا عن روح العصر في إحدى المراحل، أوعن ثقافة دائرة حضارية كالعالم الإسلامي أو أوربا الغربية،وإن كان ينطبع بطابعها وتراثها>>(5). كما أنه -أي الأدب- << ليس محاكاة للطبيعة ولا يشير إلى الحقيقة الواقعية، بل هو حلم الإنسان، وإسقاط تخيلي لرغبات الإنسان ومخاوفه>>(6).

---

(1) عزالدين إسماعيل- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية-ط3-1981م-دار العودة ودار الثقافة-بيروت- ص392.

(2) محي الدين صبحي- الرؤيا في شعر البياتي- منشورات اتحاد الكتاب العربي- دمشق-ص16.

(3) ابن منظور- لسان العرب- دار المعارف- القاهرة- مادة رأى- ج3-ص 1537-1540.

(4) الشعر بين الرؤيا والتشكيل- دار طلاس- سوريا- ط2 1985م- ص12.

(5) الرؤيا في شعر البياتي- ص35.

(6) المرجع نفسه- ص35.

ويعرض عدة وجوه تعريفية للرؤيا ليقرّ في النهاية أن منهج الرؤيا يعتمد على الكثير من العمومية لصلته بمختلف المفهومات والنظريات النقدية الأخرى، ولانبعاثه من حضارة غير الحضارة العربية، وبهذا يطل من العسير تحويل رؤى الشعراء إلى وعي معرفي بالحياة(1).

على الرغم ما شاب مصطلح الرؤيا عندّ محي الدين صبحيّ من غموض، فإنه تلاءم مع المفهوم الحداثي للشعر بعد تأزم وانهيار رؤية الشعر الحديث. وتبني مصطلح الحداثة التي تعني في حقيقتها ثورة وليست تجديدا، لأنها تدخلت في الجوهر المسؤول عن تعويق التطور الطبيعي للشعر العربي. ومن هنا كانت الحداثة مفهوما ثوريا مقصورا على الحركة المعاصرة في شعرنا الجديد وليست تجديدا لشيء قديم(2).

وإنطلاقا من المفهوم الحداثي للشعر(3)، ارتبط الشعر بالرؤية على أنه << أفعال شعرية تسير بالسرعة اللارمنية التي تسير بها الرؤية على أنه المنظم، الزمن المقنن الذي تتصف به الرؤيا كما يتذكرها الإنسان>>(4). وأصبح من تعريفاته أنه << رؤيا والرؤيا بطبيعتها قفزة خارج المفاهيم السائدة هي إذن تغيير في نظام الأشياء>>(5).

وحلّت عناصر الرؤيا الحديثة في الوجود كله في مستواه التجريدي المطلق كبديل عن الوجود الاجتماعي أوالإنساني أو الجزئي الذي كان عماد الرؤيا السابقة. وكانت العتمة والدمار والتحلل هي المظاهر المباشرة للرؤيا الحديثة مما جعلتها رؤيا سوداء غامضة على النقيض من الرؤيا السابقة التي استهدفت الإنارة الكاملة. فهي تقيم عالما جديدا بحق، ولكن من أنقاض العالم القديم نفسه. ولاقترابها من مادة الحلم، ترفض التجانس بين جزئيات القصيدة الواحدة، وإن أصرت على موقف كلي شامل لهذه الجزئيات(6).

وباعتماد هذه الرؤيا أفرغ الشعر الحديث من محتواه الحضاري لصدوره من بواعث هذه الرؤيا الايديولوجية والثقافية الغربية، وتمخضت عنها بعض هذه السمات.

---

(1) انظر-المرجع السابق - ص28.

(2) انظر-د/ عدنان علي رضا النحوي- الحداثة في منظور إيماني- دار النحوي للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية- ط3- (1410هـ-1989م)-ط3-ص 90 وما بعدها.

(3) انظر للتوسع- الحداثة في الشعر- ندوة العدد- مجلة فصول- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة-1982م- مج3- ع1-ص260-268 .انظر كذلك-جوسف الخال- الحداثة في الشعر- دار الطليعة- بيروت-ط1-1978م-ص13-17

(4) أرشيبالد مكليش- الشعر والتجربة- ترجمة- مصطفى الحسناء الحيوشي- مراجعة- توفيق صايغ- دار اليقظة العربية- بيروت-1963م-ص 194.

(5) أدونيس- زمن الشعر- دار العودة- بيروت- ط1 1972م ص 9.

(6) د/ غالي شكري- شعرنا الحديث إلى أين- دار المعارف- مصر 1968م ص11-14.

1- **اللااسلامية:** يعني انفصالها عن موقعها الحضاري وانتمائها العقدي بابتعادها عن النظرة الإسلامية وعدم مطابقتها للمفاهيم الإسلامية وعدم تواصلها مع الزمن الماضي والحاضر، أي باتخاذ بعض الأدباء والشعراء موقفا عدائيا للدين والتراث مجاهرة وإلحادا وانتقادا واستهتارا وإنكارا[1]. **إلا أن** الفكر هو مرآة ينعكس عليها الواقع والشعور الذي يسلم أن الإسلام جاء برؤية جديدة تختلف عن رؤية أي نظام قديم أوحديث. كما أن محاولة الإعراض النهائي عن التراث والذي يمثل بالنسبة لهم الرجعية والسلفية والتخلف والجمود في محاولات التجديد المعاصرة هي نزوات نظرية سرعان ما يدحضها إنتاج أصحابها نفسه،وما إليها من المواقف التي أبعدتها من الرؤية الإسلامية التي تنتمي إليها،وبذلك << لم تفهم الحداثة في حمى غوايتها المتغربة أن مضمون روح العصر دلالة تاريخية متموضعة في سياقها الحضاري الغربي لاسبيل إلى تأويلها في سياق عربي لا يحتمل هذا التراكم الإشكالي.>>(2).

2-**اللاواقعية:** اقترب مصطلح الرؤيا لا الرؤية إلى الشعر الحداثي لعجزه عن صياغة الواقع،لأن << تأويل الحلم أو إخراج القصيدة من مستواها الرؤيوي الحلمي إلى مستواها الوجودي الفعلي، قد يصيبه اضطراب مصدره العجز عن هندسة بنية لغوية تطابق بين ما يراد قوله وما يقال.وإقامة التواصل أو بنينة القصيدة من أقصى الشعر في زمنه البكر إلى أقرب الشعر في إطاره المكتوب والمقروء>>(3). كما تنتهي << الرؤيا الحلم إلى الانهيار في لحظة العجز عن التواصل مع التجربة الحية في الواقع وتسقط في الابهام بانكسارها البنائي،أو خلوها من الدلالي>>(4).

وكان من أثر استلهام الرؤيا الحديثة ابتعادها عن إطار حركات التعبير الحضاري في الواقع العربي الإسلامي بكل تقاليده وصوره الموروثة مما جعلت << الشاعر العربي يعيش في مناخ معقد وشاذ. فهو قد يلتقي مع رؤيا القرن العشرين عند الغرب. وقد يلتقي مع رؤيا القرن التاسع عشر عند شعراء البلدان الاشتراكية. ولكنه في النهاية يحس إحساسا عميقا بمسافة ما بينه وبين كل من الفريقين. ذلك أن الاختلاف بين رؤيا القرن الماضي والرؤيا الحديثة في الشعر ليس اختلافا حضاريا أي ليس اختلافا في النوع، وإنما هو اختلاف في وجهة النظر. كما أنه اختلاف في درجة التطور الاجتماعي، وكلاهما عنصران في تكوين "الرؤيا" الشعرية.>>(5)

3- **التغريبية:** لانجرافها نحو تيار التغريب، وترسمها الآداب الأوربية بعامل التحديد والتقرب من آداب الغرب. حيث حاول عدد من الأدباء والشعراء << محاكاتها دون أن تحفزهم إلى هذه المحاكاة أوتدفعهم إلى لون خاص من الأدب دوافع قهرية كما كان في الغرب، ولكن حسب التحديد والتقليد للأدب الغربي

---

(1) انظر:د/ محمد عادل الهاشمي- الإنسان في الأدب الإسلامي- مكتبة الطالب الجامعي- مكة المكرمة- السعودية- ص40وما بعدها.

(2) إبراهيم رماني- الغموض في الشعر العربي الحديث ص114.

(3) المرجع نفسه- ص108.

(4) المرجع نفسه ص110.

(5) عز الدين إسماعيل- الشعر العربي المعاصر- ص18.

فحسب.>>[1] وإن استفادوا خبرة فنية كبيرة بالاستمداد من أدب الغرب ومذاهبه وأفكاره وطرائقه. فإنهم فقدوا شخصيتهم المميزة وتبعثروا ولم يعودوا يمثلون طابعا مميزا محدود السمات في الأدب العالمي، لاستعارتهم للآفاق والتجارب والمثل من بيئة مغايرة في الهدف والتصور.

4- السلبية: أدت إلى عدم الانفعال بالواقع والحياة والكون، وطغيان العقل الفلسفي على الشعور الإنساني والاجتماعي، وانهيار وتأرم رؤية الشعر الحديث في حمسم القرن العشرين باتجاهاتها المتعددة التي ارتبطت بالإحباطات الحياتية الكبرى- كالحزن واليأس والقلق، والعبث والضياع والوهم والعدم. إذا كانت << رؤية الواقع تتحدد بسمات القلق الحرين، الذاتية المستمرة، الحرية المفجوعة، الضياع في الوهم، التعلق المدهش بالغريب والجديد. فإننا نفهم مدى الغموض امتراكم على طبيعة الرؤية الحديثة المتمزقة في أرض الانهيارات المتلذذة بالتجربة الأليمة، المتحركة في أفق الاحتمال والالتباس بحثا عن الانفتاح والهروب من عالم مزيف يهيمن بكل سلطاته المرئية واللامرئية إلى عالم ما وراني مستقبلي لايبدو إلا في لحظة صوفية.>>[2] والتقاء المضمون السلبي والإبهام جعلها خاتية من الإيحاء والفكرة الواضحة لاعتمادها بالخصوص على الأسطورة باعتبارها مظهرا من مظاهر التحديث وتعليقها بالرموز الوثنية والنصرانية. واعتبارها تجربة الإنسان المركزية عبر التاريخ على الرغم من أنها كانت وهما طفوليا بدائيا، فسعت هذه الرؤيا إلى تمثل الرمز الأسطوري << الذي يتوحد مع الزمن في مساره اللانهائي مع الإنسان في بكارته والحياة في براءتها، وفي هذا السعي نحو الشامل والمطلق تتناسى تاريخيتها المشروطة بواقع حضاري>>[3].

ويهمنا هو أن نخرج من الدائرة الشائكة بين مصطلحي الرؤية والرؤيا، لأن الشعر في عمومه هو نوع من الحلم والإسقاط والنبوءة والتجلي والكشف. وهو أيضا استقراء وتفسير للواقع والحياة والكون والإنسان بنظرة تجمع بين العقل والعاطفة، والخيال والإحساس. وبالتالي يكون مصطلح الرؤية أقرب إلى الدراسة النقدية المنهجية الواعية والأصيلة، لأن الرؤية في الاصطلاح الذي يضيع سياقها العام بفعل الترجمة والوضع اللغوي القسري. لأن الرؤيا Vision في الاصطلاح الغربي مثلت الرؤية القديمة والرؤية الحديثة في الشعر، وإن تغيرت الطروحات المعرفية، والمفاهيم النقدية والنظريات المذهبية، التي لم تكن سوى تقنيات في خدمة الرؤية وتساعد على أدائها وتمنحها في كل موقف فكري بعدا معينا[4].

2- المنظور الإسلامي: إبقاؤنا على مصطلح الرؤية في الأدب على أنه << تعبير موح عن قيم حية ينفعل بها ضمير الفنان. هذه القيم قد تختلف من نفس إلى نفس، ومن بيئة إلى بيئة، ومن عصر إلى عصر، ولكنها في كل

---

(1) عمر الدسوقي- في الأدب الحديث- دار الفكر- ط8- 1973م- ج1- ص8-9 .

(2) إبراهيم رماني- الغموض في الشعر العربي الحديث- ص107.

(3) المرجع نفسه- ص111.

(4) وظف في الدراسات الأدبية والنقدية هذه المصطلحات في دراسة الشعر. الرؤية، الرؤيا، الأسطورة، التصور، النظرة الأسطورية...

حال تنبثق من تصور معين للحياة.>>[1]، ويفيدنا في دراسة شعر أي شاعر في عصر من العصور الأدبية، "فامرئ القيس وزهير بن أبي سلمى والمتنبي والمعري"وغيرهم،يملكون رؤية شعرية معينة. كما يفيدنا في توضيح نضج عناصرها وتبلور أبعادها في نفس صاحبهاعن طريق ترتيب وتنسيق فكره وخياله،وإظهار عنصر الصدق والاقناع، ومنح موضوعه صفة الجلال سواء أكان دينيا أم اجتماعيا أم سياسيا،يكون من ورائه مغزى يفيدفي الحياة برسم صورة فنية موحية مؤثرة في نفوس الآخرين.

كما نستطيع أن نوضح من خلاله توضيح رؤية ذات اتجاه غالب في النقد احديث،بعد أن اكتسحتها رؤية المذاهب والفلسفات المتغيرة القائمة على الأنقاض الهشة والمضطربة. وهي "الرؤية الإسلامية" التي تجاورت المناهج الفكرية والفنية المعقدة وكانت رؤية واضحة المعالم، سليمة التصور، لأنها ببساطة هي << التعبير الناشيء عن امتلاء النفس بالمشاعر الإسلامية.>>[2]، يستطيع الأديب المسلم من خلال ذلك الامتلاء النفسي أن يجعل رؤيته << ضخمة جادة، فاعلة، خالقة، منشئة، تملأ فراغ النفس والحياة. وتستنفذ الطاقة البشرية في الشعور والعمل، وفي الوجدان والحركة فلا تبقى فيها فراغا للقلق والحيرة، ولا التأمل الضائع>>[3].

فيبسط من خلالها نزعته الإيمانية التي تعبر عن تجارب إنسانية عميقة وصراعات نفسية وروحية وأخلاقية، وتناقضات اجتماعية وانسانية، ومحاولات للتوفيق بين مطامح وآمال تتطلع إليها البشرية من خلال مصدر عظيم ألا وهو الدين. فالدين << دائما يعنى بالفضائل الإنسانية ويدعو إليها. فالأخوة البشرية ركن وطيد من أركانه، والعدالة معلم بارز من معالمه الشامخة،والحرية سمة مشرقة من سماته السمحة، والحب شذى حلو يعطر مبادئه ومقاييسه الخالدة، والرحمة صفة حميدة تحسد شوكة الأقوياء،وتعضد قضية الضعفاء المغلوبين>>[4]. ولهذا فارتباط الأدب بالإسلام يبرر بلا شك حقيقة عميقة لفن إسلامي أصيل، لأنه لايستمد مقاييسه وكيانه من واقع فلسفة منحرفة، وإنما من واقع تصور إسلامي. ومن هنا اكتسب خاصيته وتعريفه على أنه <<التعبير الجميل عن حقائق الوجود، من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود. وليس من الضروري أن يتحدث الفن الإسلامي عن الإسلام: حقائقه وعقائده وشخصياته وأحداثه. وإن كان من الجائز بطبيعة الحال أن يتناول كل هذه الموضوعات ولكنه يتناولها. كما يتناول الوجود كله، وكل مايجري فيه، من زاوية إسلامية ويستشعرها بحس إسلامي.>>[5].

إن المبدع المسلم الحق، يجد الطريق أمامه ميسرا حين يوهب الملكة الفنية، لأنه يعيش المفاهيم الإسلامية بالفعل وينفعل بالأشياء والأشخاص والأحداث من خلال هذه المفاهيم دون افتعال أو جهد مبذول. لأن الإيمان << يفجر في وجدان الفنان المسلم -أكثره من غيره- شعورا حادا بالزمن، ويدفعه إلى مزيد من

---

(1) سيد قطب- في التاريخ فكرة ومنهاج- دار الشروق القاهرة ط6 (1403هـ 1983م)- ص11.

(2) المرجع نفسه ص28.

(3) المرجع نفسه- ص15.

(4) محمد قطب- منهج الفن الإسلامي- بيروت ط4 (1405هـ 1985م)، ص11 12.

(5) محمد قطب- منهج الفن الإسلامي- ط3 (1401هـ 1981م)، ص119.

التعبير باعتباره عملا يتقرب به إلى الله على الطريقة الإسلامية الفذة. يترع به متطلبات وجوده الحساس من جهة، ويصوغ مصيره من جهة أخرى. فليس ثمة ازدواج وثنائية بين الوجود والمصير في الإسلام، أي بين دوافع الحياة الدنيا وأهداف الإنسان في الحياة الأخرى.>>(1)

فالرؤية الإسلامية إذن استطاعت أن تقدم تصورا شاملا للمبدع في شتى المجالات الروحية والعقدية، والنفسية والسلوكية، والواقعية والإنسانية وكل الآفاق المستقبلية. وهذه الرؤية التي ظهرت إلى الوجود منذ النور الأول للإسلام، وكانت هي رؤية حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وعبد الله بن رواحة، وأبي العتاهية، وابن الفارض، ومحمد إقبال...إلى آخر السلسلة التي لا آخر لها في ظل الزخم الهائل من الإبداع الإنساني على مر الدهور. وتجلت رؤية متفردة، لأن << الرؤية التي يصدر عنها الفنان المسلم، تنفرد على غيرها من الرؤى،بأنها معجونة من طينة الأمل والفرحة، لأنها الطينة التي صنعها الله ووعدها بالخلود،وبأن هذه الرؤية بعيدة الحدود، عميقة الأغوار، ممتدة المساحات، لأن مساحتها ليست هذه الدنيا فحسب، وليس هذا العالم الفاني فحسب، لأنها تنبثق عن يقين مطلق بحياة بعد هذه الحياة، وبكون عظيم تبدو الأرض في كيانه ذرة تائهة في الملكوت، وبعالم واسع يضم مخلوقات أخرى غير البشرية. رؤية تحطم حواجز الحس، وتنساب في عالم الباطن، وتتخطى جدران الزمان والمكان لكي تلتقي بالملإ الأعلى.>>(2)

ولم يخل الأدب العربي من كثير من المعضلات الإسلامية،على الرغم ما يتحلل فتراته من انحراف عن قيم ومبادئ الإسلام. فالأدب الإسلامي أكيد الوجود ضمن إطاره المرجعي والتاريخي للاستمرار والإبداع، لكن بعض الدواعي السلبية والإيجابية أخت على ضرورة إيجاد رؤية إسلامية في الأدب(3).

1- ومن الدواعي السلبية ما يلي :

- أزمات العالم الإسلامي بعد إسقاط الدولة العثمانية،وانقسام العالم الإسلامي إلى دويلات لها حدودها الجغرافية والسياسية. لا تملك قوة التغيير والتأثير على أي من المعسكرين -الشرقي والغربي- اللذين يحكمان العالم. تعاني التفرق والاضطهاد والتحلف والتبعية السياسية والحضارية لهما، وخاصة أزمات العالم العربي التي أدت إلى ضياع فلسطين 1948م وهزيمة حزيران 1967م،وإلى تعالي صيحات الدعوات الإقليمية والقومية والعرقية والمذهبية.

-الغزو الثقافي الذي سعى إليه الاستعمار سعيا مباشرا وغير مباشر . نتيجة الضعف الفكري والإبداعي، وحركة البعثات العلمية والترجمة والصحافة التي اقتنعت بالنقل والتقليد والانبهار. وأدى إلى بعض الانقسامات

---

(1) عماد الدين خليل- في النقد الإسلامي المعاصر- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط3-(1404هـ-1984م)-ص32-33.

(2) عماد الدين خليل- في النقد الإسلامي المعاصر- ص71.

(3) انظر-د/ عبد الباسط بدر- مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي- دار المنارة- جدة- السعودية-ط1-(1405هـ-1985م)- ص59. انظر كذلك د/ محمد عادل الهاشمي- أثر الإسلام في الشعر الحديث في سوريا- مكتبة المنار- الزرقاء- الأردن- ط1 (1406هـ 1986). ص 23 27. [illegible] ص40 وما بعدها.

الأدبية،كتقسيم الأدباء والشعراء إلى تيار محافظ وهو في حقيقته تيار واتجاه إسلامي باعتماده على عنصر الدين والتراث في مواجهة قضايا العصره وإلى تيار مجدد بدأ بتحفظ وحذر،وانتهى إلى اتجاه خطير شمل المضامين والأشكال وتبنّاه دعاة الحداثة.

-حركة التغريب في الفكر والأدب والحياة لسيطرة النمط الفكري على العالم الإسلامي بتطبيعه بالحياة الغربية، وسلخ عقيدته، وتغيير ثقافته وفنونه،وملئه بقيمها وتصوراتها،وتبنيه نزعة العلمانية التي تدعو إلى فصل الدين عن الدولة أو الحياة،وبالتالي فصل الدين عن الأدب،بإحلال النظم والمناهج الغربية محل الشريعة الإسلامية، وابتكار الشعارات التي تهدم ثقة المسلمين بماضيهم وتراثهم،وصرف نظرهم عن كتابهم وسنتهم من خلال التسلل إلى حياتهم في غياب استقلال شخصيتهم بدعوى مجاراة روح العصر. مما خلق بعضا منهم من نهجوا خط التغريب بالاعتزاز بالحضارة الغربية والالتزام بتجاربها وعاداتها وأفكارها،وحتى آدابها باعتناق تياراتها الفكرية الدينية والتاريخية والأدبية والمعوية،واجهر بالعبثية والإباحية في الفن والحياة،والإصرار على بعض المفاهيم والأنماط الأدبية المضطربة بتوظيف اللغة العامية واللهجات والرموز الأسطورية والمسيحية والصوفية المتطرفة، وتفضيل الغموض بالتلاعب اللغوي والتصويري البعيد عن الخيال المنبثق من الوهم والإبهام.

2- أما الدواعي الإيجابية تتمثل في بعض مايلي :

- آثار الحركات الإصلاحية التي اتفقت دعوة رجالاتها على ضرورة الإصلاح بالعودة إلى محاضن الدين باشتداد الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والغربي،لعدم موت فكرة الوحدة الإسلامية،وتبلور الفكرة الإسلامية في العالم كله بظاهرة انتشار الإسلام.

- الصحوة الإسلامية التي دعا إليها صفوة من الدعاة والمفكرين من أجل تحقيق ازدهار الفكر الإسلامي المعاصر، وإعادة تصحيح مفاهيم النهضة والحضارة من منظور إسلامي بالإعلان الثوري الصريح على الشيوعية والصليبية والصهيونية وأعداء الإسلام.

- الوعي الإسلامي المتزايد بين المثقفين بالسعي الحثيث من أجل بناء كيان إسلامي حديث،وإبراز الشخصية الإسلامية في مجالات الحياة كلها. وتأكيد قدرة الإسلام على مسايرتها في كل زمان ومكان، وتزويد الفرد المسلم بالنظريات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفنية الإسلامية،لتعصمه من الضياع الروحي والحضاري ومن التحديات الكبرى.

- الإيمان بضرورة إيجاد أدب يحمل هويته الحقيقية - أي أدب عربي إسلامي- والتفكير الجاد من أجل تحديد المعطيات الفكرية والفنية الكفيلة بإيجاد أدب إسلامي من خلال المحاولات الإبداعية والتنظرية والنقدية، واختيار الخط المقابل للتغريب ألا وهو الأصالة، للتعبير عن شخصية الأمة ومثلها وقيمها وواقعها،وصهر المعطيات الوافدة إليها بتصورها وآفاقها المتميزة.

وبهذا طرحت مسألة إيجاد رؤية إسلامية في الأدب تتلاءم مع واقع المسلمين وأخلاقهم وعقيدتهم،ومسألة إيجادها في الساحة الأدبية ارتبطت بعدة ضرورات منها :

1-**ضرورة عقدية** : كثير من الذين ينفرون من الأدب الديني، كما ينفرون من الدين نفسه على أنه رجعية وجمود، وتبنوا إيديولوجيات أخرى بعيدة عن الخطاب العقلي المنطقي واعتنقوا عدة نزعات أخطرها نزعة الإلحادية، على الرغم من أن العقيدة هي المحصن الأول للإنسان، فهو << مرتبط دائما بعقيدة معينة وحاجته إليها فطرية تلازمه في كل زمان ومكان، لأن فيه ميلا غريزيا إلى تبني عقيدة ما، بل إن الإلحاد في ذاته عقيدة، لأنه يضع الطبيعة والإنسان مكان الألوهية>>(1). لكن عقيدة الدين عبرت منذ العهد الأول للإنسان أنها حقيقة عميقة في كيان هذا الوجود مهما كانت صورتها وطبيعتها، فكل مافي الوجود مهتد إلى الله، سائر على هداه، ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (2). ولهذا كان الاهتداء إلى الله هو أكبر منابع المعرفة، لأن << العقيدة في الله هي أضخم الحقائق في حياة الإنسان، كما هي أضخم الحقائق في كيان الوجود، إنها هي التي تكشف له حقيقته الجوهرية العذبة، هي التي تكشف له عمق نفسه واقتدار طاقاته، هي التي تكشف له عن مهمته الخطيرة في كيان الوجود كله مهمة الخلافة عن الله. وعندئذ تكشف له عن حقيقة صلاته بالله، وصلاته بالكون والحياة وأخيه الإنسان>>(3).

وأي فلسفة لايمكن أن تحمل في ثناياها ما يحمل الدين من مثل وقيم تفصل بين الخير والشر، والحق والباطل، والفضيلة والرذيلة، والهدى والضلال. فالدين<< هو الأفكار والمشاعر والآمال التي تستعر مشبوبة في صدر المؤمن، لما تحمله من قيم تفوق القيم جميعا. ويقف الإحساس بوجود تلك القيم على قدم المساواة مع إحساس المؤمن بوجوده هو نفسه. فالدين هو الوعي بتلك القيم والغايات، والسعي دوما إلى تدعيمها والتوسع في نشر أثرها.>>(4) ولهذا أصبح من الضروري أن تقوي أصرة الدين في هذا العصر الحديث الذي أصبح الإنسان يعيش فيه عدة أزمات أولها الإيمان التي تكمن وراءها مأساته.

والإنسان المسلم في خضم هذا التأزم بحاجة إلى التعبير عن الفكرة الإسلامية في أدبه،بعد أن أفلست كل الأفكار والانفتاح على تصور الإسلام الشامل للكون والإنسان والحياة، لأنه << تصور يسعى للتحقق بأكبر قدر من الوفاق والتناغم بين الإنسان والوجود، وخلق ايقاع موحد بين كافة الأطراف التي يحتويها الكون،

---

(1) عبد الباسط بدر- مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي- ص22.

(2) طه-50.

(3) محمد قطب- منهج الفن الإسلامي- ص116.

(4) صلاح فضل- نظرية القيمة في الفكر المعاصر- دار الثقافة- القاهرة- 1987م-ص 236 .

ويضم جناحيه عليها. التحقق -كذلك- بأكبر قدر من الحضور في قلب الطبيعة والعالم وصولا إلى الله. الحقيقة المطلقة والجمال الكامل>>(1).

2- **ضرورة اجتماعية** : إن المجتمع الإسلامي في حاجة إلى أدب يوصل الأسباب مابين قلبه وذوقه، وما بين عقله وروحه، ويعمل على تحصينه عقديا وتصوريا والحفاظ على خصوصيته الدينية والحضارية. و<< الأديب هو واحد من المدعوين لممارسة المهمة الجليلة بفنه القادر على التأثير والتحصين، بل إنه مدعو إلى أكثر من هذا، إلى دعوة المجتمعات الإسلامية لاستعادة ممارستها الأصيلة وقيمها المفقودة، وتكاملها الضائع، وتقاليدها الطيبة وإحساسها المتوحد، وصبغتها الإنمائية التي أبهتها رياح التشريق والتغريب>>(2).

ولهذا لا يمكن للأديب المسلم أن ينعزل عن مشاكل وقضايا مجتمعه، بل يحاول من خلال شعوره الديني إيجاد النماذج الإنسانية القريبة إلى الحق والصدق والواقعية.لأن << العامل الإلهي وحده، هو الذي يستطيع أن ينتصر على العزلة، وأن يجعل الإنسان مدركا للشعور بالألفة والصلة، ومتوخيا غاية جديرة بوجوده>>(3).

فالمسؤولية الإيجابية هي المستمدة من التصور الإسلامي العام على الرغم مايتحاور المجتمع من انحراف وضلال، << فالمسؤولية المقدسة هي عنق الأديب المسلم، تجعله يهدف أول مايهدف إلى تحقيق السعادة والتوازن النفسي لدى الأفراد، باعتدال الموازين بين فئات المجتمع، والانطلاق من موقف إيماني صحيح،والنظر إلى سوءات الحياة الاجتماعية نظرة الطبيب لمريضه، حيث تقتضي هذه العلاقة الحب والفهم،والولوج إلى القلوب لتحقيق الثقة والإيمان والأمل والقناعة الخاصة، ومن ثم يتولد الموقف الإيجابي، الموقف الذي يتحول إلى ممارسة وتغيير للأفضل.>>(4)

3- **ضرورة نفسية** : إن التوتر في الأدب هو المعاناة النفسية والانفعالات الوجدانية << إن التوتر الداخلي من العوامل الفعالة في نشوء التجربة والرغبة في التعبير، التوتر الذي ينشأ عن الألم الذي ينبثق بدوره عن عدم الانسجام بين الإنسان والعالم>>(5).

وعدم الانسجام بين الإنسان والعالم خلق نوعا من التوتر السلبي، وطغى الشعور بالتمزق والعبث والسأم فوجدنا << ذلك الكم الهائل من القصائد العربية التي تفيض بأحزان الإنسان المتشائم المغترب السأمان،

---

(1) د/ عماد الدين خليل- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي-مؤسسة الرسالة- بيروت-ط1-(1407هـ-1987م)- ص176.

(2) المرجع نفسه- 178 .

(3) نيقولاي بردياتف- العزلة والمجتمع- ترجمة.فؤاد كامل- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- 1960م- ص112.

(4) نجيب الكيلاني- مدخل إلى الأدب الإسلامي- مطابع الدوحة الحديثة- الدوحة-قطر-ط1-(1407هـ-1987م)- ص117-118.

(5) عماد الدين خليل- في النقد الإسلامي المعاصر- ص26 .

المسلمين على همّ واحد، وإحساس واحد ورؤية واحدة ومصير واحد. لقد بعثرتهم السياسات، فأحرى أن توحدهم الكلمات>>(1).

5-**ضرورة تاريخية** : الأديب المسلم لا يحقق قيمة رسالية أوجمالية فقط، إنما يحقق قيمة تاريخية التي تكون لها أثرا وخلودا أكثر من عملية التاريخ لأن << المؤرخ ينظر من الخارج لكي يجمّع شتات الأحداث بعد أن وقعت واكتسبت ملامحها النهائية. ولكن الفنان يتمعن من الداخل، ويمدّ رؤيته إلى الأعماق، إلى الوقائع والشخوص والأحداث وهي تتحلق وتتفاعل وتلتقي وتفترق وتتشابك لكي تشكل بهذه الصيغة أوتلك. إن المؤرخ يدرس الواقعة ولكن الفنان يعيشها. من ثم فهو أقدر على حمل الطابع التأثيري لهذه التجربة، ونقله للأجيال>>(2). ولأن الفعل التاريخي يبدأ من خارج الحادثة بينما يأتيها الأدب من داخلها أي أنه يستطيع أن يحفظ لنا حركية الحادثة التاريخية وحيوية شخوصها،وصياغتها في معاني وقيم جديدة معاصرة، من أجل نقد الواقع وتقويم المجتمع .وإحياؤها واستلهامها يعني المحافظة على ذات الأمة في معركة صراعها الحضاري، فالحدث التاريخي الذي وقع في الماضي، يجعله ينطبق على الحاضر ليستلهم منه المجتمع الأبعاد والنتائج.

6-**ضرورة حضارية** : لقد بهرت الحضارة الإسلامية البشرية، بقيمها السامية من خلال الالتقاء بالفطرة وحماية الإنسان من الشرك وربطه بخالقه عن طريق العبادة، وضبط سلوكه بالامتثال لنواهي الله عز وجلّ وأوامره،ودفعه إلى مرحلة التفكير والتأمل والتدبر والتفاعل مع الكون، وإعطائه القوة للموازنة بين مقاصد الروح ومطالب الجسد والربط بين عالم الغيب وعالم الشهادة، والأديب المسلم يستطيع أن يعبر عن أسس هذه الحضارة القائمة على العبادة والعلم والعمل والسعي والابتلاء. ولأن الأدب بمفهومه الحضاري هو سمة من سمات الحضارة الإسلامية، ولم تعتبر في معظم أحواله << ترفا لغويا، ولم يكن لونا باهتا داخل إطار الصورة الحضارية لها، لم يعش الشعر خارج الأحداث المتفاعلة والفاعلة في تحريك تلك الأمة. لقد أصبح سمة بارزة لها وعلامة دالة على وجودها>>(3). والأدب في إطاره الحضاري << يركز أساسا على ما يمكن أن نسميه "قيم الحضارة الإسلامية"، ويتناول صور الحياة الجديدة المثالية التي ترعرعت في جنباتها قيم الحرية الحقيقية والشموخ العلمي الباهر، والسموق التشريعي المذهل، والتجربة الصادقة الحية، والانفتاح الواعي على

---

(1) عماد الدين خليل- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي- ص177.

(2) المرجع نفسه- ص180.

(3) محمد إقبال عروي- جمالية الأدب الإسلامي- ص22 .

المسلمين على همّ واحد، وإحساس واحد ورؤية واحدة ومصير واحد. لقد بعثرتهم السياسات، فأحرى أن توحدهم الكلمات>>(1).

5-**ضرورة تاريخية** : الأديب المسلم لا يحقق قيمة رسالية أوجمالية فقط، إنما يحقق قيمة تاريخية التي تكون لها أثرا وخلودا أكثر من عملية التاريخ لأن << المؤرخ ينظر من الخارج لكي يجمّع شتات الأحداث بعد أن وقعت واكتسبت ملامحها النهائية. ولكن الفنان يتمعن من الداخل، ويمدّ رؤيته إلى الأعماق، إلى الوقائع والشخوص والأحداث وهي تتخلق وتتفاعل وتلتقي وتفترق وتتشابك لكي تشكل بهذه الصيغة أوتلك. إن المؤرخ يدرس الواقعة ولكن الفنان يعيشها. من ثم فهو أقدر على حمل الطابع التأثيري لهذه التجربة، ونقله للأجيال>>(2). ولأن الفعل التاريخي يبدأ من خارج الحادثة بينما يأتيها الأدب من داخلها أي أنه يستطيع أن يحفظ لنا حركية الحادثة التاريخية وحيوية شخوصها،وصياغتها في معاني وقيم جديدة معاصرة، من أجل نقد الواقع وتقويم المجتمع .وإحياؤها واستلهامها يعني المحافظة على ذات الأمة في معركة صراعها الحضاري، فالحدث التاريخي الذي وقع في الماضي، يجعله ينطبق على الحاضر ليستلهم منه المجتمع الأبعاد والنتائج.

6-**ضرورة حضارية** : لقد بهرت الحضارة الإسلامية البشرية، بقيمها السامية من خلال الالتقاء بالفطرة وحماية الإنسان من الشرك وربطه بخالقه عن طريق العبادة، وضبط سلوكه بالامتثال لنواهي الله عز وجلّ وأوامره،ودفعه إلى مرحلة التفكير والتأمل والتدبر والتفاعل مع الكون، وإعطائه القوة للموازنة بين مقاصد الروح ومطالب الجسد والربط بين عالم الغيب وعالم الشهادة، والأديب المسلم يستطيع أن يعبر عن أسس هذه الحضارة القائمة على العبادة والعلم والعمل والسعي والابتلاء. ولأن الأدب بمفهومه الحضاري هو سمة من سمات الحضارة الإسلامية، ولم تعتبر في معظم أحواله << ترفا لغويا، ولم يكن لونا باهتا داخل إطار الصورة الحضارية لها، لم يعش الشعر خارج الأحداث المتفاعلة والفاعلة في تحريك تلك الأمة. لقد أصبح سمة بارزة لها وعلامة دالة على وجودها>>(3). والأدب في إطاره الحضاري << يركز أساسا على ما يمكن أن نسميه "قيم الحضارة الإسلامية"، ويتناول صور الحياة الجديدة المثالية التي ترعرعت في جنباتها قيم الحرية الحقيقية والشموخ العلمي الباهر، والسموق التشريعي المذهل، والتجربة الصادقة الحية، والانفتاح الواعي على

---

(1) عماد الدين خليل- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي- ص177.

(2) المرجع نفسه- ص180.

(3) محمد إقبال عروي- جمالية الأدب الإسلامي- ص22 .

تراث الإنسانية والعصور، والفهم الصحيح للعلائق التي تربط النموذج الإسلامي بغيره من التجمعات البشرية والأحداث>>(1). فضرورة الأدب الحضارية هي إدانة الوجود المعاصر من أجل البحث عن القيم الحضارية التي لاتطغى فيها القيم المادية على القيم الروحية، وتجمع بين الواقعية والعاطفية والجمالية. << هذه الواقعية التي تستند إلى خلفية صامدة من القيم الثابتة التي لاتضيع معها الإنسان ولا يتيه في زحمة الواقع وثقله وتحضه وتحركه اللانهائي، ولا ينجدر في منعطفاته ووديانه... هذه العاطفية التي تحتضن في لحظة حب صامت عميق، كل الناس والأشياء.. والجمالية التي تربط الأجزاء المبعثرة في النفس والآفاق، في وحدة متناسقة عبقرية الصنع والتآلف والتوافق، تضع كل مخلوق وكل شيء حيث أراد الله أن يكون، جمال رائع لصورة تنبثق في وجدان الإنسان عن رؤية واسعة المدى للكون والحياة والعالم>>(2).

7- ضرورة أدبية: الأدب ضرورة فنية وروحية، فحاجة النفس إلى الفن كحاجة الجسم إلى الغذاء، إذ يقوم بتغذية العواطف وتنمية الوجدانات والسمو بالحياة في صورة من الجمال والطهر والنقاء ونفسية المسلم لا تند عن هذا الإطار فهو في حاجة إلى غذاء أدبي ملائم، وإلا صارت عرضة للأمراض الأدبية المتعددة التي تنتج حتما مع الإدمان على مطالعة الأدب العبثي والفن الساقط في أوحال المادية واللامبالاة (3).

ولهذا يجب أن يكون للأدب ذلك الشعور الروحي نمحه السمو والرفعة لأن << القصيدة تنأى عن الرفعة والمزية حين لاتنفذ إلى النواة المركزية للروح، حين تنقصها الروحانية بكل مالها من قدرة على تحريض الانفعالات، وإيقاظ الأعماق الغافية فينا. وحين تعجز عن أن تكشف لنا عن الغني الداخلي لأرواحنا نفسها، وحين لاتشف أمام بصائرنا عما هو سام ومهيب، وهذا يعني أن مضمون الفن يتماهى(4) مع مضمون الباطن ويحتويه بكامل ثرائه وحرارته، فالفن فيما لايفعل شيئا سوى أنه يتيح لحدوسنا أفضل فرصة للتعرف عما هو مركوز فينا سلفا. وحتى حين يعلمنا قيما جديدة، فإنه لايفعل أكثر من تحريض الوجدان على استحضار هذه القيم من المستودع الميتافيزيقي للنفس، وهو المستودع الذي يضم التجربة البشرية برمتها>>(5).

إذن فالقصيدة يجب أن تكون ذات نفس روحي أوذات نفس ديني فكل << نفس ديني يتأهل بشروط الولادة وإشكالات النمو ويقاوم اللاوجود. والدين نفسه له بعدان، عمق يعود إلى الماضي، والآخر توغل في المستقبل، والبعدان مشروطان متلازمان في القصيدة كما في الدين.>>(6).

---

(1) د/ نجيب الكيلاني- آفاق الأدب الإسلامي- مؤسسة الرسالة- بيروت-ط2-(1407هـ)-ص48.

(2) عماد الدين خليل- في النقد الإسلامي المعاصر- ص69-70.

(3) محمد إقبال عروي- جمالية الإسلامي-ص26.

(4) يتماهى: من الماهية: أي يكون له دور أو وظيفة.

(5) يوسف اليوسف- الشعر العربي المعاصر- منشورات اتحاد الكتاب العرب-دمشق- ط1980م- ص46.

(6) عزيز السيد جاسم- دراسات نقدية في الأدب الحديث- مطبعة الإدارة المحلية- طبع بمساعدة وزارة الثقافة والإعلام- بغداد-ط1 1970م- ص42.

ولهذا فأي أديب يستطيع أن يحقق بالنفس الديني توحدا روحيا وجماليا على الرغم من كل المدلولات المحيطة بالواقع الإنساني .لأن << النفس الديني ليس طرارا اعتياديا معينا، بل هو النفس الخفي المنبثق وراء روابي وهضاب وأشكال العالم، النفس السري الفائق الجمالية.>>[1] ولن يحقق الأديب المسلم قدرته على التأثير وتوصيل الشحنة الفنية إلى الآخرين بإحداث الهزة المرجوة فيهم،إلا بامتلاكه جمالية خاصة من خلال التعبير الجميل المؤثر بالكلمة . ولهذا لابد من تحقق القدرة الإبداعية لديه ونقاء التصور،لأن الأسس الجمالية في التصور الإسلامي هي التي تفرش الأرض وتمهد الطريق أمام الإسلاميين لكي يزيد أدبهم نضجا واكتمالا[2].

وكان لهذه الرؤية عدة خصائص ميزتها عن بقية بعض الرؤى الفاعلة في أدبنا العربي بتخطيها اتجاها معاكسا بمصارعة الاتجاه الحداثي، وإحياء الاتجاه المحافظ والأصيل في الأدب،ومن هذه الخصائص :

1-**الإسلامية**:في إطار التنظير لنقد وأدب إسلاميين يربط وجهة النظر الدينية للإنسان والكون بالمفاهيم الأدبية، وهنا يجب استبعاد فكرة المذهبية الضيقة التي تحصر الأدب داخل قواعد مصطنعة.لأن << الشعر ليس عقلنة للعالم أبدا، فهو ليس هندسة عقلية. إنه مزيج متكامل من العقل والحس والحدس، مزيج بين الشخصي والجماعي، بين الذاتي والكلي، بين الفكر والتجربة .وهذا المزيج ليس خلطا صناعيا أو عقديا بل هو مزيج العالم الذي يحوي كل شيء، المزيج الديالكتيكي التاريخي. المذهبية المرسومة المدروسة ، المفروضة،تخريب وتمزيق للوعي، والقصيدة كجبهة بين الوعي واللاوعي لاترضخ أبدا للمذهبية إلا في حدود التجربة الصادقة، التجربة الإنسانية المكشفة.>>[3]

ولهذا فالإسلامية في الأدب أوسع وأرحب من أن نقيدها بفكرة المذهبية << فالأدب أوسع من أن نحصره في قواعد أوفي قيود من القواعد المحلية أوالطارئة.والإسلام دين إنساني شامل لايعرف حدود الزمان والمكان، وإن تلاءم معها وتمشي مع منطقهما المتطور المتجدد الأشكال، الثابت الجوهر، وتبعا لذلك تكون الإسلامية من الوجهة الأدبية والفنية أرحب من المذاهب وأسمى من القيود>>[4]. كما أن فكرة الإسلامية تتجاوز مجموعة الحكم والمواعظ والمواضيع الدينية المحضة بتصور رحيب عن الكون والحياة والإنسان، وتصور بين حقيقة

---

(1) عزيز السيد جاسم- دراسات نقدية في الأدب الحديث- ص79 .

(2) نجيب الكيلاني- مدخل إلى الأدب الإسلامي- ص88-98 .

(3) عزيز السيد جاسم- دراسات نقدية في الأدب الحديث- ص97 .

(4) نجيب الكيلاني- الإسلامية والمذاهب الأدبية- ص47 .

الصراع بين الخير والشر، الحق والباطل، وتنتهي بوضع أعمق وأوسع وأثرى باختلافه عن التصور الفلسفي، لأن << التصور الفلسفي ينشأ في الفكر البشري -من صنع هذا الفكر- لمحاولة تفسير الوجود وعلاقة الإنسان به، ولكنه يبقى في حدود المعرفة الفكرية الباردة. أما التصور الاعتقادي -في عمومه- فهو تصور ينبثق في الضمير، ويتفاعل مع الشاعر، ويتلبس بالحياة، فهو وشيجة حية بين الإنسان والوجود، أو بين الإنسان وخالق الوجود.>>(1)

2-**الغائيـــة**: إن الرؤية الإسلامية لها هدف وغاية مقصودة من ورائها هي << تغيير الحياة وتطويرها وترقيتها إلى المستوى الأصلح والأجمل عن طريق بذر العقيدة وترسيخها في الصدور، وغرس مبادئ الخير والجمال في النفوس، والتباعد من الرذيلة والقبح والشين.>>(2) ولها دعوة صريحة للالتزام، ليس بنظرة جديدة وإنما بالاستمداد من القرآن الكريم الذي عرض المسألة من زاوية أكثر موضوعية وشمولا، بتأكيده على أن الشعر إذا كان هيمانا غير عقلاني، ليس له ضابط أو وازع، فهو غير ملتزم أبدا من خلال قوله تعالى: ﴿**الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا. وَانْتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾(3). فبإلقاء نظرة على حشود الشعراء عبر تاريخ البشرية، نلتقي بعدد من الشعراء، كان شعرهم نزوة عابرة، ورؤية موقوتة، فقد فقدوا بمرور الوقت قدرتهم على التأثير. ونستثني أولئك الشعراء الملتزمين ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا**﴾ حيث تحولت الكلمة لديهم إلى سلاح وفعل إبداع. يرون المسالك والدروب من خلالها، ويعرفون خريطة الأشياء، ويتحسسون مساحات الضوء والظلام، ويحاربون جاهلية عصره، فلا يتيهون، ولا يهيمون، ولا يهربون من القيم الأساسية التي تحفظ لهم وجودهم الإنساني(4). وأصبح الشعر عندهم رسالة إنسانية لإقرار الحق والدعوة إلى العدل والانتصار للعقيدة بألسنتهم وسيوفهم(5).

فالأديب المسلم يترفع عن أن يأتي عبثا مضيعا، وأن يهدر طاقته الخلاقة لعلمه أنه محاسب على كل شيء يأتيه مصدقا قوله تعالى ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾(6). فالالتزام الذي نريده - إسلاميا- ويختلف عن ذلك الالتزام الذي عرفته المذاهب الأدبية الأوربية وخصوصا "الواقعية الإشتراكية" و"الوجودية"، أعلى وأرقى درجات الالتزام أنه << يبرر القيم العقدية والخلقية السائدة في مجتمعه والمنبثقة

---

(1) سيد قطب- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته- دار الشروق- ط10- 1988م- ص43-44.

(2) د/ صانع آدم بيلو- من قضايا الأدب الإسلامي- دار المنارة- جدة- السعودية- ط1-(1405هـ-1985م)-ص73.

(3) الشعراء- 224-227.

(4) انظر- نجيب الكيلاني- مدخل إلى الأدب الإسلامي- ص75-86.

(5) د/ عبد الرحمن خليل إبراهيم- دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- 1971م-ص242-243.

(6) المؤمنون- 115.

من الإسلام، فيحبب الإنسان ويدعو إلى صحة المعتقد ووجوب سريان هذه القيم في منسربات الحياة، ويعمل إلى ترسيخها وتثبيت دعائمها والإشادة بها في أدبه وعمله الفني، وأن يتحاشى زعزعتها، وتفويضها، وأن ينفر ذلك، ويبغض فيما هو بضدها، ومناقض لها. بأسلوب الأديب الفنان وإيحاءاته لا بتقريرية العالم، ولابطريقة الواعظ، أوبخطابية السياسي أوالمصلح الاجتماعي. فلأولئك طرائقهم وأساليبهم التي توصلهم إلى أهدافهم وغاياتهم وهم أدرى بها، فإذا اتخذها الأديب نهجا له أخفق>>(1).

3-الإيجـــابية: ونكمن في أنها رؤية متفائلة ترفض الشر والضلال واليأس والتشاؤم والاغتراب، وتحفل بإبراز الحق والخير والعدل والأمل والجمال في الكون والطبيعة والأنفس والمشاعر، والأفكار والقيم انطلاقا من التصور الإسلامي للإيجابية الفاعلة في علاقة الله سبحانه وتعالى بالكون والحياة والإنسان. لأن هذا التصور الإسلامي << ليس تصورا سلبيا يعيش في عالم الضمير، قانعا بوجوده هناك في صورة مثالية نظرية أوتصوفية روحانية، إنما هو تصميم لواقع مطلوب إنشاؤه وفق هذا التصميم...هذا ما يثيره التصور الإسلامي في شعور المسلم.. ومن ثم نجد دائما هاتفا ملحا في أعماقه، يهيب به إلى تحقيق هذا التصور في دنيا الواقع ويؤرقه حتى يهيب للعمل، ويفرغ طاقته الإيمانية كلها إلى هذا العمل الإيجابي البناء، وفي إنشاء واقع تتمثل فيه هذه العقيدة في حياة الناس.>>(2)

لأن الإسلام يمنحه << قوة هائلة لاحدود لها تعينه على التغيير والتبديل، وتجعل منه كائنا إيجابيا فعالا يقاوم الضعف الذي في داخلها، والفساد الذي هو في خارجه ويحيط به>>(3). وقد شملت كثير من الآيات القرآنية هذه الإيجابية التي حاولت الرؤية الإسلامية في الأدب احتواءها في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(4) ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(5)

4-الواقـــعية: لانريد بالواقعية هنا الواقعية المتعارف عليها في الآداب الفنية الغربية بمعناها الضيق المحدود، وننسى الواقع الإنساني الذي يشمل حياة الإنسان كلّها طولا وعرضا وعمقا وزمانا ومكانا.

فالواقعية في الإسلام تعني واقع الإنسان الحقيقي الكبير << الذي لاينحصر في واقع المادة وواقع الإنسان، ولاينحصر في واقع فرد، ولاواقع جيل ولا ينحصر في لحظة ضعف ولحظة هبوط.>>(6) كما تتعلق بطبيعة المنهج الذي قدمه القرآن للحياة البشرية، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا

---

(1) صاح آدم بيلو- من قضايا الأدب الإسلامي- ص66-67.

(2) سيد قطب- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته- ص157.

(3) صاح آدم بيلو- من قضايا الأدب الإسلامي- ص77.

(4) الرعد-11.

(5) التوبة-105.

(6) محمد قطب- منهج الفن الإسلامي-ص129.

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(1)، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾(2) وقد حاول بعض الدارسين الإسلاميين إيجاد بديل للواقعيات الكثيرة وبخاصة الواقعية الاشتراكية بوضع اصطلاح الواقعية الإسلامية كأساس، نقدي جديد يجمع بين الواقع والإسلام. لأن << الواقع في الإسلام هو مصدر من مصادر المعرفة، ولكنه ليس المصدر الوحيد ولا هو مصدر الحق الكامل المطلق، والواقع في نظر الإسلام هو ميدان الممارسة الإيمانية ليقدم للمؤمن، لينمي إيمانه ويثبت يقينه. وهو ميدان التجربة الإيمانية، التجربة التي تطرق كل ميادين الواقع طاعة وعبادة لله، خشوعا وإنابة. فإذا عمل المؤمن كله هو عمل صالح، وإذا الشر هو باب من أبواب الابتلاء والتمحيص والاختبار، يتحول بنعمة الله إلى خير في صبر يمر به المؤمن ودعاء يتجه به إلى الله ومعاناة يصلح بها ويفسد.>>(3).

وتبدو الواقعية الإسلامية في الظاهر أنها << تلتقي مع الواقعية الاشتراكية في جوانب ظاهرية متعددة. ولكنها تختلف عنها في الجذور، إنهما تنفصلان عند الأساس الأكثر حسماً أقصد الأساس الروحي>>(4).

ويتضح هذا الأساس الروحي الذي كان وجها للتفريق بينهما، على أن الواقعية الإسلامية تجمع بين الواقع والحقيقة، على أن الواقع ذو بعد واحد هو الأرض والحقيقة ذات بعد واحد أيضا يقابل البعد الأول،وهو السماء أوهو الواقع الغيبي، والواقعية الإسلامية هي الرباط السليم المتوازن الذي يجمع بين الأرض والسماء، بين الطبيعة المحسوسة والطبيعة غير المحسوسة(5).

5-**الشمولية**:لأنها تجمع بين المادة والروح فلا تعرض للصراعات العرفية والاقتصادية والمادية. وتهمل الحقائق المعنوية والقيم الأخلاقية والنوازع الدينية والتطلعات والأشواق الإنسانية العليا. إنها << تعرض لصوره الكاملة بمادياتها ومعنوياتها وقيمتها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية، مترابطة ممتزجة كما هي في حقيقة الواقع، مؤثرة كلها بعضها في بعض. مع إبراز القيم الروحية والمعنوية لأن بروزها ذلك حقيقة كونية متصلة بعصميم فطرة الكون المتجه بروحه إلى السائر على هداه>>(6).

---

(1) الروم-30.

(2) الإسراء-9.

(3) عدنان النحوي- الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته- ص197.

(4) د/ أحمد بسام ساعي-الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد- دار المنارة- جدة-السعودية-ط-(1405هـ-1985م)-ص15.

(5) المرجع نفسه- ص17.

(6) محمد قطب- منهج الفن الإسلامي- ص128.

فخاصية الشمول تتجلى في ردّ كل شيء في هذا الكون، وهذه الحياة إلى الله . وقد قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾(1).

فالرؤية الإسلامية تختلف عن كل المذاهب لأنها تنفتح عليها جميعها،وقد تنسجم معها في إطار الإيجابية الصادقة.لأن << الفن الإسلامي فن منفتح على شتى المذاهب الفنية مادامت منسجمة في اتجاهها وتفاصيلها مع حركة الكون والإنسان الإيجابية في سبيل الحق والعدل الأزليين، وفي إطار الجمال المبدع بعيدا عن التزييف والكذب والتناقض. إنه مرن بحيث يتسع لكل المذاهب ويزيد عليها في سعة نظرته الكونية وعمقها وشمولها. إنه كلاسيكي حين يعبر عن التناسق الرائع للأشياء والقيم الخارجية، وحين يمجد بطولة الإنسان وإيجابياته إزاء الأحداث. وقدرته على تشكيل مصيره. إنه رومانسي حين يعبر عن أعماق الإنسان المؤمن، وعن تجاربه الشعورية المتنوعة التي تنبثق عن الإيمان بالله، وعن الحب الكبير الذي يتفجر عن هذا الإيمان ويتجه صوب كل الناس، وكل الأشياء. إنه واقعي حين يعلن ثورته الانقلابية على كل القيم المنحرفة عن الصراط المستقيم، وعلى كل الطواغيت التي لاتقرها وحدانية الله. والتي يأباها التحرر الوجداني للإنسان المسلم، ذلك التحرر الذي يبدأ من أعماقه وينتهي بالكون.>>(2)

وعلى الرغم من كل ذلك قد يلتقي مع هذا المذهب أوذاك لقاء جزئيا، لكنها تظل مستقلة في أصولها وكلياتها،ولايمكن بحال أن تلتقى مع أي من المذاهب الأدبية الأخرى. لأن << فكرة إيجاد مصطلح يستوعب مئات الكتاب والشعراء،ويوحد اتجاهاتهم المتباينة،ويضعهم جميعا في سلة واحدة اسمها المذهب الأدبي فكرة قسرية في الأصل. سبق وأن حيرت الأدباء والفنانين والنقاد جميعا في الغرب>>(3) وهي بذلك تجاوزت المفاهيم القسرية بنظرتها الشمولية الواسعة.

فالوجودية مثلا عقيدة تدور حول الذات البشرية الموجودة،وترفض كل ماوراءها،وتدعو إلى الحرية في فهم خاص يقوم على أساس تضخيم قيمة الفرد،ورفض كل ما من شأنه أن يضطره إلى فعل معين سواء أكان باسم الخالق،أم باسم المثل الأعلى الخلقي أو السياسي أو الاجتماعي. و << هذه العقيدة لن تستطيع أن تطلق التجربة الشعورية للأديب إلى آفاقها القصية، لأن رفضها لما وراء الوجود يقيد البحث عن الحلول ويمنع التجربة

---

(1) الزخرف- 84.

(2) عماد الدين خليل- في النقد الإسلامي المعاصر- ص40-41 .

(3) أحمد بسام ساعي- الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد-ص11.

من أن تتلون بمعطيات العالم الغيبي.>>[1] والماركسية تقيّد الأديب بالحدود المادية والحسية بعدم الاعتقاد بالألوهية والغيبيات وتدير قضايا الإنسان حول البنى الفوقية والتحتية، والصراع الطبقي. وتجعل التجربة الشعورية محدودة لأنها تجعل من الأديب << يتجرد عن وجدانه وحسه الباطني وعن تطلعاته ومكامنه الروحية. وأن يدخل ساحة الفن الماركسي إنسانا ماديا لا يملك غير اللحم والدم ولا يستجيب إلا لنداءات اللحم والدم>>[2].

6- **الانفتاحية** : ليس بالضرورة أن تكون هناك خصائص مضمونية وأخرى شكلية. لأن الإشكالية إشكالية مضامين لا قوالب أو أشكال. لأنه لا يمكن وضع هذه الرؤية في قوالب جاهزة وجامدة، فلا بد أن تكون هناك وسطية بين الانفتاح والانغلاق.

أ- هناك البعض من يتهم الرؤية الإسلامية في الأدب بالانغلاق والانعزالية والنفور من المناهج الفنية الحديثة. ولكن إصدار هذه الأحكام قد جانبت الصواب، لأن الإسلام لايرفض العطاءات الخصبة والإيجابية، والفن الإسلامي أيضا << ليس مقيدا بطرائق التعبير ولا موضوعات القرآن، فله أن يختار من الموضوعات والطرائق مايشاء، ولكنه مقيد بقيد واحد، أن تنبثق عن التصور الإسلامي للوجود الكبير، أو على الأقل ألا يصطدم بالمفاهيم الإسلامية عن الكون والوجود.>>[3]. والإسلام لم يحدد شروطا فنية خاصة لأن كل عصر يعيش تحولا في الحياة،وتحولا في الذوق الجمالي. وهو بحاجة إلى التجديد كما هو بحاجة إلى عدم التنازل عن القديم - أي التراث- فلم يجد الشعراء ذو التصور الإسلامي << غضاضة في توظيف الرمز والأسطورة، ومعانقة القصيدة الكلية التي تبطل أن تكون لحظة انفعالية،وتصبر على أن تكون لحظة تتداخل فيها مختلف الأنواع التعبيرية، نثرا ووزنا، بثا وروحا، غناء وملحمة وقصة>>[4]. كما أن معظمهم <<يسعى إلى خلق الصورة الشعرية خلقا،يجاور بها حدود المعطيات البلاغية والنقدية والتراثية التي اكتفت بالانبهار بالصورة الفنية القرآنية، ولم تتحد الحدود المنطقية والتمايز الدقيق بين كائنات هذا العالم الحي>>[5].

فيجب أن نحصر شروط الاختيار المتمر من الآداب الأخرى في جملة عناصر،منها اختيار الأدب المراد التأثر به بحسب حاجات الأمة وتوفر الأصالة وتطلب الحذر، وتحين فرصة الاستقبال الحسن،ليكتمل التلقيح،ويثمر في صورة أصيلة لها طابعها المميز[6].

ولهذا فرفض تسمية الإسلامية لايعني البتة الانغلاق وعدم الانفتاح على المعطيات الأدبية في العالم. فهناك مايمكن تسميته بالاختيار الحضاري الإسلامي و<< هو الذي أنشأ حضارة المسلمين في عصورها المعطاء، وهو

---

(1) عبد الباسط بدر- مقدمة النظرية في الأدب الإسلامي - ص38.

(2) عماد الدين خليل- في النقد الإسلامي المعاصر- ص212 .

(3) محمد إقبال عروي- حمالية الأدب الإسلامي ص76 .

(4) المرجع نفسه - ص76.

(5) المرجع نفسه ص77.

(6) انظر: د. محمد حسين علي الأدب الملتزم دار المعرفة بيروت 1983، ص9 19.

3- رؤيـــــــة الــشاعـــــــر

1- مــن خلال أحاديــثــه وآرائه.

2- من خــلال آراء النـقاد والدارســين لــه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الذي هيأ لهم أن يتسلموا زمام المبادرة،وأن يتولوا قيادة التراث البشري بنجاح منقطع النظير وسط عواصف الجاهلية وأنوائها التي أحاطت بهم من كل مكان. وهو الذي يتيح لكل إنسان مسلم في كل آونة، وفي كل مكان، فرصة الاختيار إزاء ما يحيط به من حضارات>>(1).

ب- اتهام الرؤية الإسلامية بالانغلاق يعود أيضا إلى عودتها إلى التراث مع الخلط بين التراث كرصيد معرفي وحضاري،والقرآن والسنة. والسبب الرئيسي الذي يمكن وراء تركيز بعضهم على هذا الاتهام << هو علاقة المسلم بالقرآن والسنة، فهذه العلاقة التي تنطلق من أغوار النفس وتنعكس على السلوك الفردي والجماعي، توهمهم بارتباطه بالماضي وتقديسه. ولو ميزوا قليلا بين القرآن والسنة وبين التراث الفكري والأدبي للأمة الإسلامية،لأدركوا حقيقة الأمر>>(2).

وهذه الحقيقة تتعلق بالقرآن الكريم والسنة المطهرة. << فهما ، لا يمكن اعتبارهما موروثا، وذلك أن المورث نعني به كل إنتاج أنتجته الذهنية الإسلامية، أما القرآن والسنة، فيمثلان الوحي الإلهي الذي لاتحصره زمان ولا مكان.>>(3).

ومن الطبيعي أن يكون المورد الأول لهذه الرؤية هو القرآن الكريم، فتشبع المسلم بروح القرآن تعكس بالضرورة تلك الروح في مجالات إبداعه. والمورد الثاني هو التراث الذي ترفضه الرؤية الحداثية، لأنه يطل <<التجربة العملية والفكرية للمسلمين أثناء استجابتهم للإسلام وتعاملهم مع قضاياه، يشكل علاقته مع المسلمين عبر عنصر الاستفادة، أو لنقل "العبرة" حسب التعبير القرآني، وهو عنصر شامل لكل حركة سواء في المجال الفكري أو السياسي أو الاقتصادي، وهو لذلك لا يخرج عن الإطار المحدد، ولا يمكنه أن يصل إلى ما يتوهمه البعض من تقديس وانكفاء على معطياته.>>(4)

لكن الرؤية الإسلامية تمعن النظر في التراث بتضمين رؤية شمولية تتجاوز الحدود الزمنية بوقوفها على المعاني الثابتة والقيم الخالدة والمحتويات الإيجابية، والإنسانية التي ساهمت به الحضارة العربية الإسلامية في التقدم الروحي والمادي للبشرية. وتغذي الرؤية المعاصرة بغربلته وتقييمه في إطار ثقافة إسلامية، هادفة ومعاصرة. فلا تعمل على تدنيسه أو تقديسه وإنما على الاستئناس به. وأهم هذه الخصائص المميزة للرؤية الإسلامية في الأدب نابعة من خصائص التصور الإسلامي القائم على الهدي القرآني، ويعد كل من" سيدمحمد قطب أولا من ساهم في تحديد هذه الخصائص في التصور الإسلامي العام وربطها بالفكر والأدب.(5)

---

(1) عماد الدين خليل- في النقد الإسلامي المعاصر- ص 180.

(2) جمالية الأدب الإسلامي- ص 91.

(3) المرجع نفسه- ص 92.

(4) المرجع نفسه- ص 81.

(5) انظر- سيد قطب- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته- ص 40 وما بعدها.

انظر كذلك محمد قطب- منهج الفن الإسلامي- ص 16 وما بعدها.

1- رؤيـــته من خلال آرائه وأحاديثه

يجد الدرس أو القارئ إزاء حديث الأديب أوالشاعر عـن نفسـه الأفكـار العارية والذكريـات المباشـرة الـتي تعرّف بعوالمهم الأدبية والفنية. وقد تدهشه هذه الأفكار لسذاجتها أولعمقها على السواء، وقد تضحره لافتعالها وامتلائها بالغرور في بعض الأحيان، ولكنهـا في جميع الأحـوال تـثري معرفتـه بـالمبدع وبعالمـه الإبداعـي على السواء[1].

صحيح أن العمل الفني هو الكلمة الأولى والأخيرة لأي فنـان خـلاّق،وهـو الوثيقـة الأساسـية في أي محاولـة للتعرف على عالمه وأفكاره ورؤاه، وصحيح أيضا أن هناك من المدارس النقدية ذات الاتجاه البنيـوي الشـكلاني التي ترفض أي تأويل للعمل الفني، يعتمد على عناصر خارج هذا العمل مهمـا كـانت وثاقـة صلتهـا بكاتبـه،أو موضوعه،أو باللحظة الحضارية التي صدر عنها ومارس في ظلها دوره وفعاليته. لكن هناك في الوقت نفسـه مـن المدارس النقدية التي تستفيد من كل هذه العناصر الخارجة في تناولها للعمل الفني،وتحليلها له دون التغـاضي عـن حقيقة أن العمل الفني ذاته هو محور كل تناول وتحليل.ومن هنا كان لكلمات الكاتب الخلاق المباشر فضلا عن قيمتها المستقلة في حد ذاتها دور كبير في إضاءة شتى جوانب عالمه وتجربته الإبداعية، وفي إلقـاء الضـوء على مواقفه من الفن والحياة على السواء[2].

وقد رأينا في أحاديث وآراء الشاعر محمـود حسـن إسـماعيل أهميـة كـبرى أثـرت معرفتنـا بعالمـه الشـعري، وألقت دفقات من الضوء على تجربته ورؤيته. ووضعت نقـاط الانعطـاف الهامـة في حياتـه الأدبيـة كمـا يقـول "فاروق شوشة" عند تقديمه للقراء " الحديث الأخير للشاعر محمود حسن إسـماعيل" أنـه << وثيقـة بالغـة الأهميـة وبخاصة أنها تكشف عن اهتمامـات الشـاعر الأساسـية وينابيعـه وروافـده الأولى.ورؤيتـه الخاصـة لمسـار رؤيتـه الشعرية الثريّة،وهمومه كشاعر يعيش تجربة وطنه وحساسية عصره،فضلا عن طبيعة ثقافته ومكوناته الفكرية والفنية.>>[3]

قد يغنينا شعره الذي أفصح به عن رؤيته للكون والحياة والإنسان،وإنما نقصـد إلى الكشـف عـن رؤيتـه مـن خلال أحاديثه وآرائه التي عبرت عـن تجاربـه،وكيـف ارتبطـت بنفسـيته وثقافتـه وإسـلاميته. وفعّـدت الأرضـية النظرية لأشعاره وشيء آخر يجعل من عرضها وتحليلهـا أمـرا ضروريـا، ونحـن في صـدد البحـث عـن خطـوات الشاعر على سلم الشعر، لنكشف عن نضوجه الفكري والفني، ومدى التزامه بتلك الآراء.

---

(1) مقدمة صبري حافظ من كتاب نجيب محفوظ- أتحدث إليكم- دار العودة- بيروت-ط1-1977م-ص7.

(2) المرجع نفسه- ص7.

(3) مجلة الشعر-ع7-1977م-ص 80.

ولا نبالغ إذا قلنا أن أسس رؤيته الشعرية الإسلامية النظرية قد تجلت من خلال آرائه وأحاديثه التي يمكن أن اعتبرها -بكل موضوعية- آراء جوهرية نقدية،وقد صدّر بها دواوينه الأولى. ونشر بعضها الآخر في عدة مجلات أدبية (كمجلتي أبولو والشعر)، والتي دارت حول الواقع الإبداعي للشعر والشعراء. كالحديث عن قيمة الشعر ودوره في الحياة والأدب والعناصر الفنية التي تتنازعه بين القديم والجديد أوالتراث والمعاصرة.

ومن خلال ذلك استخلصنا عدم تذهبه الشعري، وينابيع أومصادر شعره، ومحاور أوقضايا رؤيته الشعرية، واتجاهه الإسلامي في شعره.

مفهومه للشعر تجلّى من خلال تعريفه للقصيدة بأنها << هي النغم الإنساني الحقيقي الذي يخامر وجود الشاعر النفسي، ثم ينطلق منه في لحظة ما مكونا تكوينا كامل الرؤيا من كافة الأبعاد الفنية. وهذا يعني أن النغم يعيش في أعماق النفس عمرا لا حدّ له ولا أعرف بمبتداه، وانسكاب القصيدة على الورقة يمثل نهاية جزء منها أو المرحلة التي اكتمل تخليقها في الوجدان العميق.>>(1) والشاعر عنده له حاسة سابعة لها بعد أبعد من الحواس الخمس أو الحاسة السادسة. وبهذه الحاسة تتشكل تجارب الإنسان في شكل جديد << الشاعر هو الذي يحمل البعد السابع من النفس، بمعنى أن هناك بعد أبعد من الحواس الخمس التي تتعامل مع الوجود تعاملا مباشرا، وأيضا أبعد من الحاسة السادسة التي أضافها علم النفس الحديث في تفسيره للنفس البشرية أمام معطيات الكون...وفي البعد السابع تخترق التجارب الرائدة في وجود الإنسان وتختلط وتتصارع وتتعانق وتذوب وتأخذ شكلا جديدا، يختلف كل الاختلاف عن أصولها الأولى>>(2).

والشعراء الحقيقيون هم الذين يتفردون بالإبداع والأصالة. وبهما ينفردون برؤية جديدة ملؤها الإحساس والنقاء. << الشعراء في حقيقة أمرهم فلاسفة وغزاة مجهول. غزاة لأعماق نفوسهم وآفاق عصرهم، لايقفون أبدا ولايلتفتون إلى الوراء ليعيدوا طرح تجارب من سبقهم، ولا يتحيلونها للمحاكاة والتقليد والتوليد دون أن ينفردوا بإيداعات جدّية لن توافيهم اهاماتها بغير الحركة النفسية الدائمة الصريرعلى الرغم من صرير الدنيا من حولهم، تجارب الإحساس وتنقلها طاقة الإلهام إلى ساحة الفن، جديدة نقية العبور.. من هنا يأتي الشعر>>(3).

ولهذا فهو ينتقد أصحاب الفن من أجل الفن الذين يدعون إلى الجمال والمتعة الفنية في الشعر وغيره من الفنون ويرى بأن الشعر هو شعر المعنى، واللفظ يأتي بعد ذلك << هناك نظرة يجمع عليها تقول أن قوالب الشعر الجميلة هي الشعر الجميل . هذا خطأ.. الشعر هو المعنى في الاعتبار الأول. واللفظ والسياق والتحديد والتشكيل يأتي بعد ذلك . هل المتنبي والمعري عاشا لأنهما نقلا للناس بلاغة ؟ أبدا وإنما لأنهما طرقا من أبواب الحياة والنفس معاني كانت جديدة بالنسبة لمن سبقهما.>>(4)

---

(1) نصري عطا الله- محمود حسن إسماعيل بقلمه- مجلة الهلال- ع85- ص75.

(2) المرجع نفسه-ص 75.

(3) المرجع نفسه- ص75.

(4) المرجع نفسه- ص75.

والمعنى الذي يقصده محمود حسن إسماعيل ليس أي معنى، وإنما أن يكون للشعر رسالة معنوية، ولهذا حاول جاهدا وصادقا أن يوجه الشعراء إلى المعاني الهادفة والأصيلة الجديدة، والتعبير عن قيم الكون أوالطبيعة والإنسان والحياة. كالدعوة إلى الإحساس بالطبيعة والامتزاج الشعري بها، والتغني بأسرارها ومظاهرها، <<الطبيعة في كل زمان ومكان تأسر مشاعر الإنسان، وتملك عواطفه فيندمج فيها بآلامه وآماله. وكل إنسان في الحياة شاعر بالجاذبية الخفية بينه وبينها إلى حد ما.غير أن هذا الإحساس بالرابطة القوية بين النفس البشرية وبين الطبيعة يتفاوت عند الناس،حسب استعدادهم وقوة إدراكهم الفطرية>>(1).

ويُطلُّ على عصور الشعر العربي بدء من العصر الجاهلي، ليؤكد أن شعراء العرب أفاضوا في وصف الطبيعة وذكر منهم ابن الرومي، وابن خفاجة. وكما أكد على أن شعراء الغرب أولعوا بالطبيعة وهاموا بها وخلدوا لها الآثار الرائعة، وذكر بعض شعراء الإنجليز كشلي ولبيرن. حتى يصل إلى العصر الحديث ليجد استهواء بعض الشعراء للآثار القديمة أو الأجنبية وعقوقهم لطبيعتهم المصرية التي يراها << لوحة فنية رائعة وشاها النيل منذ فجر الله ينابيعه في هذا الوادي الخصيب بأصباغ فذة وألوان تثير شغف الفنان وتحرك فيه الميل إلى تصويرها في فنه. >>(2)

كما يدعو إلى الإحساس الصادق اتجاه المرأة في مواضع الغزل والنسيب، والاقتناع بأنها مصدر للإلهام الروحي لا الغريزي، والفني لاالجسدي. << يستطيع الشاعر الدقيق الإحساس الذي ينظر المرأة كمصدر للإلهام الفني قبل أن تكون وسيلة للتعاطف الجسمي المجرد من النظر الروحي الذي تخلقه طبيعة الجمال في نفس الفنان، أن يستلهم من المرأة فنونا شتى من الشعر الغزلي جديدة في معانيها وأخيلتها، عميقة التصوير، فياضة النوازع الوجدانية السامية التي يتمنع خلقها على الإحساس العادي>>(3).

ولأثر المرأة الوجداني على الإنسان والفنان بخاصة يرجو أن يكون استغلال هذا الأثر في تهذيب الإنسانية وتوجيهها إلى الكمال الروحي والنزوع بها إلى الغايات العليا <<..راجين أن يستغل الفن مثل هذه القوة الطبيعية التي رافقته من قديم الزمن في توجيه تياره إلى تهذيب الإنسانية، والطفرة بها من المستوى المادي الجاف إلى أبعد حدود الكمال الروحي الذي ينشده المجتمع البشري في جميع أطوار الحياة، والشعر أولى الفنون بالنزوع إلى هذه الغاية العليا،بفضل ماوهب من قدرة على التغلغل في النفوس والتأثير فيها برسالته التي اعترف بها كبار الفلاسفة والمفكرين.>>(4) .

---

(1) أغاني الكوخ- دار الكتاب العربي- القاهرة- ط2-1967م- من مقدمة الديوان وضعها الشاعر في آخره،ويبرّر ذلك بأن القارئ عليه أن يقرأ شعره قبل آرائه ليرى مدى توافقهما- ص226.

(2 المصدر نفسه- ص230.

(3) المصدر نفسه- ص235 .

(4) المصدر نفسه- ص235 236 .

أما دعوته إلى الإحساس بقضايا الإنسان والحياة، فتمثلت في نقده للواقع الإنساني من أجل الشعور بمعاناة الفلاح من الظلم والاقطاع والفقر. والمفارقات بين القرية والمدينة بانعدام العدل وأسس الحرية والكرامة. <<اضرب بقدمك في ليلة من ليالي السرار بين تلك الأكواخ المتداعية في قرى مصر . وتحدثنا عما تلاقيه من أهوال الظلام وعثرات المسالك في عصر يكاد يفترش فيه المدني الشعاع،ويتوسد مساقط النور، وخض بها تلك القنى التي تساور الفلاح في غيطه، واجلس بجانبه في الظهيرة تحت ظل الخيمة التي نصبها من ردائه على عصاه وفأسه . وقاسمه الطعام والشراب، وتعال فحدثنا كيف أكل؟ وكيف شرب؟ وهل تردد عشرين في احتساء الماء المقطر من كوب بنوري شفيف، أم انبطح على بطنه، فعبّ الماء من مسربه العكر وقام إلى فأسه فواصل عمله، لا يستريح ولا يعرف طعم الهدوء؟.>>(1)

كما دعا إلى الشعور بقضايا الوطن والأمة وواقع الاستعمار والتخلف والانهزام.. وواقع الحياة المعاصرة على المستوى العربي الإسلامي والإنساني. << الشاعر في العالم العربي، هو الشاعر في الأرض العربية، إن مسها سوء مسه، وإن مسها ضغار مسه. فإن كان الشاعر حقيقيا أصيلا وهبه الله موهبة الشعر، فطبيعته ودون أن نحضه على شيء أو نشير إليه بشيء، سيعطي عطاءه الأوفى في الدفاع عن ذرات هذا التراب المحطوف والتراب المستعبد، والتراب الذي يختلط فيه العربي بالأعجمي، وليس له شيم العروبة الخالصة..أن يواكب الأرض العربية المعاصرة في كل معطياتها الخادمة للحرية والمثل العليا التي تحقق لها الكرامة والسيادة في أوطانها.>>(2). ورفض أن يكون هذا الشعر سلبيا لا إيجابيا يحمل في ثناياه البكاء واليأس، والضعف أمام واقع الأمة المأسورة والمتردي. << الشعر العربي أمام الاهتزازات في تاريخ العزة العربية أغلبه مناحات وبكاء تصورات. بالغة الروعة أحيانا، للانهيارات واليأس ولتحريح الكيان العربي. لماذا ؟ حيث يتوقع أن يكون الشعر، هذا الفن الإبداعي العظيم ايجابيا خلاقا يغري الشعور في النفس العربية بأنه مهما حدث لها، ومهما كان الواقع مريرا فلا بد أن وجودها الحقيقي وحرية كيانها أرضا وسماء وهواءها آتية ولا شك هذه الحرية الكاملة آتية ولو على أجساد كل أفراد هذه الأمة>>(3).

---

(1) المصدر السابق ص231-232.

(2) فاروق شوشة- الحديث الأخير للشاعر محمود حسن إسماعيل-مجلة الشعر- ص85.

(3) محمود حسن إسماعيل بقلمه- مجلة الهلال- ص76 .

وإن اهتم محمود حسن إسماعيل بالجانب المضموني والقيمي للشعر، فإنه لم ينس الجانب الجمالي الذي له دور إيجابي في الإبداع والأصالة والتبليغ والتأثير . وتبيّن ذلك أكثر من خلال مقالتين نشرتين(1) عن الشاعرين صالح جودت وحسن كامل الصيرفي، حيث أفصح في كل منهما عن رأيه فيما ينبغي أن يجيء عليه الشعر، ومايتبغي أن يكون عليه الشاعر نفسه،ومايلفت النظر في آرائه أنه جمع قضايا الشعر الشكلية والمضمونية ويمكننا أن نجملها فيمايلي :

1- معاتبته لصالح جودت لخلو ديوانه من الروح الوطنية بهروبه من الواقع وعدم مواجهته،وتخليه عن رسالته بمواضيع ذاتية صرفة.

2- نفوره من التساهل المسرف نزولا على رغبة الجمهور، ويرى من الأنسب ترويض الجمهور على الأساليب الممتازة،ولا خوف من انقطاع الصلة بين الشاعر وجمهوره بل إنه سوف يرتفع إلى مستوى الشاعر بالتدريج.

3- الإبداع في الصياغة بالخيال الفني الخلاق وجمال النقش التصويري الذي يظهر المعاني في ثوب يناسبها حتى تبدو آية فنية تخلب العقول وتغذي الأذواق وكذلك يكون الإبداع بهجر العامي والقديم والكثير الاستعمال.

4- الأصالة في الإبداع في أن يستوحي الشاعر بريشته الأخيلة الفذة من دقائق تصوراته،وأن يحقق الذوق الموسيقي، قبل الذوق العروضي، يعني بذلك استخدام الإيقاع الموسيقي العروضي في نقل الأحاسيس.

5- تمجيده لزهد الصيرفي في شعره وروحيته التي استطاع أن يحقق بها سمو مبادئه ورقي فنه.

6- تمجيده لنزوع الصيرفي إلى المعاني التجريدية التي تتسامى على مدارك العاديين.كما تجد رمزيته التي بدأت تشيع في العصر الحديث،على أنها مظهر من مظاهر الأصالة والصدق في الإبداع.

وبرز اتجاهه الإسلامي الديني من خلال ربط قيمة الشعر ووجوده بالقيم، وهذه القيم مستمدة من السماء لإنقاذ وإصلاح الأرض -أي القيم الإلهية- وهو بذلك يؤكد على المعنى الديني في الشعر القائم على التصور القرآني.<< إن عظمة الشاعر، أي شاعر، أن يعطي الإنسانية بصدق مانافرح به إحساسه العميق من أي شيء ومعاصة كل مايرتبط بالقيم المرجاة الإنسان. والقيم المؤسسة الآتية من الماضي، المتفق عليها من كل البشر، قيم السماء، والقيم الإلهية، والقيم التي يحددها كل حرف من الحروف النورانية التي تدفقت بها السماء على الأرض لتنقذها من الضياع>>(2).

ويؤكد أن هذه القيم العليا ستظل مستمرة في حياة البشر المؤمنين بها،وحتى الرافضين لها بالتواءاتهم الفلسفية والعقلية، وعدم صفائهم الروحي .<< فكل هذه قيم مهما اعتصرنا الفلسفات والنبوءات -إن صحّ التعبير- ولكبار العباقرة الذين يعدّون فلتات لاتتكرر، لا يمكن أن تجد إلا أضواء هذه القيم العليا في نفوس

---

(1) انظر- محمد علي هدية- شعر محمود حسن إسماعيل- دراسة فنية- ص42-45. نقلا عن مجلة أبولو- المقالة الأولى منشورة في أبولو مايو 1934م. والمقالة الثانية في أول سبتمبر 1934م.

(2) الحديث الأخير للشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل- مجلة الشعر- ص83.

البشر، سواء عملوا بها أو عصوها أورفضوها. فهي لها وجودها الصراع فيها مستمر، حتى القائلون يرفضها هم يعدونها واجهة ضخمة، يحاولون تخريبها بالتواءاتهم العقلية وعدم الصفاء الروحي بينهم وبينها، هي قائمة ويصارعونها. فإذا آمنوا بها فهي أيضا قائمة ، فهي مستمرة إلى النهاية، لأنها هي أصول الوجود. فالقيم شيء يخترق العصور على الرغم من أنف الناس جميعا >>(1).

ويذهب إلى أبعد من هذا لما يؤصل هذه القيم تأصيلا فطريا وروحيا وإنسانيا، حتى عند الشعوب الكافرة، التي تظل في بحث دائم عن القيم الروحية، << حتى في الشعوب الكافرة، يخترق قلبها هذا الضوء ويعطيها عطاءه. فتجد فيها الحياء،وتجد فيها الأدب، وتجد فيها الأمان، وتجد فيها الشرف، وتجد فيها الصدق، وتجد فيها النزاهة، وتجد فيها الانفساح الروحي الذي منحته السماء للأرض. أما الشك الملتوي الذي يرتكز عليه الرافضون لهذه القيم،فهو شك مرفوض>>(2).

ويصل إلى خلاصة هامة جدا، وهي أن هذا العصر عصر علم، وبالتالي عصر مادة، وهو بحاجة إلى الروح، وعلى الرغم من أن أمرها صعب إلا أن الشاعر بإمكانه أن يرتادها لأن الله منحه قوة الارتياد إليها وعليه فأول قيمة ينبه إليها هو الله. << الذي أعطى الشاعر ليس إنسانا، الذي أعطى الشاعر ماتمكنه من العزف، ولاأقول العزف في الموسيقا . ولكن المعاني الجديدة التي تتعطش إليها البشرية باستمرار لأنها في تناقض مستمر وفي صراعات مستمرة –هو الله– هذا هو الأساس الذي ينبغي أن ينتبه إليه الشاعر>>(3).

ومن خلال إصراره على القيم السماوية أوالروحية في الشعر، تبيّن لنا أيضا بعض روافد أوينابيع رؤيته الشعرية أو مصادر رؤيتهويتعدد تحديدها بالنسبة لكل شاعر. فهي مرتبطة ارتباطا كاملا بوجوده الذاتي في بيئته الطبيعة أوالاجتماعية أوالثقافية أوغيرها. وما يهمنا في تحديد رؤيته الإسلامية هو رافد القرآن الكريم الذي جعل النغمة الإسلامية نغمة أساسية وعميقة في شعره، وقد أكد على ذلك << أنا أحفظ القرآن الكريم وسني تسع سنوات، فأصبح مسلما، أني مهما عشت، ولو عشت عمر نوح لاأستطيع الخلاص من أسر الحرف العربي في القرآن لا خارج القرآن. للحرف العربي في القرآن أسره الشديد الذي لا انطلاق ولا فكاك منه. فحتى حين أكتب عن أبعاد الأشياء عن مدارات الحرف في هذا المستوى المقدس، يكون الجانب الآخر قريبا مني. وأذكر أنني حين كتبت قصيدة "موسيقى من الشهداء".. ضمني مجلس فيه أحد الشعراء، وعلى مستوى مايتبادر به الشعراء حين يجتمعون تعليقا على ما يقولون قال لي: قصيدتك عظيمة، لكنها تنتمي إلى الإسلام، فحزنت أن تكون هذه الرؤية التي لا أتصور أبدا أن تكون في ذهن إنسان صحيح العقل، فيقولها لي لأنني ليست لي إرادة، وكنت منطلقا مع نفسي. لأن قولة القرآن العظيمة في الشهداء لا يرقى إليها أي شعر أو نثر.>>(4).

---

(1) الحديث الأخير للشاعر محمود حسن إسماعيل مجلة الشعر ص83.

(2) المرجع نفسه ص83.

(3) المرجع نفسه ص84 .

(4) المرجع نفسه ص85 .

كما أكد أن قصائده الواسعة الآفاق في شعره،هي قصائده الروحية << قصائدي الروحية واسعة الآفاق، لأنني كتبت في النفس، وفي الذنب، وفي الخطيئة وفي التوبة ، وكتبت قصائد على مستوى الصراع الروحي الفلسفي لجزئيات الإنسان.>>(1)

وعن السمات العامة لمحاوره الشعرية، فهو يرى أيضا أنها متحددة في الرؤية، متفقة في الجوهر في كل دواوينه. <<لافرق بين ديواني الأول والديواني الأخير في الجوهر : الشاعر في أغاني الكوخ هو الشاعر في نهر الحقيقة، قد تتحدد الرؤية في الأعماق بين كل ديوان وما بعده بل بعد كل قصيدة وما بعدها فالحركة الشعرية نسج هائل في بحار مجهولة الأماد والأبعاد، وما لم تتحدد رؤى الشاعر وانطباعاته مع كل دقيقة من حركة الوجود . فهو عازف وجود وموت وانتهاء .وما خلق الله الشعراء ليجتروا مايعزفونه للحياة فيحولوها إلى معازف سمر ولغو وتكرار وتسلية ممجوجة لأسماع الناس >>(2).

عاصر محمود حسن إسماعيل الصراع بين القديم والجديد على الصعيد الفكري والأدبي والنقدي، وحاول أن يخرج من هذا الصراع بمجموعة من القناعات والاتجاهات المتفردة، والتوجهات التي سلكها في شعره . وقد وضع في مقدمة ديوانه " أين المفر" وقوع الشعر في العصر الحديث أسير الجمود والعبودية بشد وثاقه نحو القديم الموروث فهو << مشدود الوثاق على خشب المنابر يتربص لزادها من حصائص الزمن وحوله رهط من السدنة المتحفزين للذود عن شعائره الموروثة كلما نبضت بأصفاده رنة حياة أو تحرر >>(3).

ويرى أن مما زاد في رق وجمود هذا الشعر هو بحث أولئك الذين أقاموا لأنفسهم على الشعر سدنة وأوصياء عن أمير الشعر. << فأمروه صاغرين على الشعر وحفوا حاشعين حول قبابه الناعمة بالجرس ، وفخامة الإيقاع، وترنيم اللفظي الساحر، وتأنق الزي البياني . >>(4)

ولاحظ أن مافتىء البعض الآخر يبحث عن شاعرآخر ليؤمروه ويقيموا له المحافل،لأنه رائد التحديد والترميم والتلقيح بلقاح الفن الأوربي . <<...أعادوا له السرادق وألبسوه مسوح شيخه، وبين عجيج المحافل وصحب المباركين وضعوا في يمينه عصا المعلّم. وقالوا له: سلام الفاتحين لقد كنت حامل اللواء، وأستاذ الشعر والشعراء، ورائد المجددين العاقل الخفر في تنظيم الشعر العربي الجامد بلقاح الفن الأوربي، وترميم هياكله وموهياته بطرائق الأدب الحديث. >>(5)

ومن خلال هذا التناقض الظاهر من خلال أحكامهم على الشعراء، كشوقي الذي يمثل أنصار القديم، وخليل مطران الذي يمثل أنصار الجديد، واضطرابهم بالتشبث بالموروث القديم أو الانفلات إلى مظاهر

---

(1) المرجع السابق - ص86.

(2) محمود حسن إسماعيل بقلمه - مجلة الهلال - ص76.

(3) أين المفر- مكتبة الأمل - الكويت - ط2 1968م مقدمة الديوان - ص أ.

(4) المصدر السابق - ص أ.

(5) المصدر السابق - ص أ.

التجديد، ففقد الشعر أصالته وجوهرته بتبعيتهم ومبالغتهم في تقليد القديم أوالجديد، وبذلك يرى محمود حسن إسماعيل، هذا التناقض والاضطراب والتقليد الذي أساء إلى الشعر. << نظم الأولون منهم الشعر. فكانوا حفدة حافظين لإرث أسلافهم أذهلهم دوار التعصب وجرفتهم حماقة الألفة الذهنية والعصبية الثقافية، ففضوا من كل شاعر لم يفهق غناؤه برغاء الجرس العربي الموروث. وحاد نفر منهم عن الطريق. فلم يستبيحوا نفائس التركة العربية. بل سلكوا السبيل نفسه في تعقب الشعر الجديد الذي بهرهم الفضاء ترامي بينه وبين حواجبهم، ففروا إليه يتلهفون على وميض من حياله وتعبيره ومعناه، وعادوا بنظم موقع يشوبه هوس الخيال المطروق واللحن المسروق، وتعذيب الألفاظ بحشرها في غير أجسادها النفسية بلا بث من الشعور،ولا إفضاء من الروح. >>(1)

ويشير إلى قضية خطيرة وهو بروز في خضم هذا الصراع اتجاه أشد خطرا على مسار الشعر العربي،وهو اتجاه دعاة التحديد المزعوم ويشير بخاصة إلى أدباء المهجر. << والنوى بالآخرين المعاد إلى أرضهم الأولى في جوانح الشرق . تخذل أسرارها كل قادم على وجهه غبرة الشك، لاذوابها من هجير المعميات النافرة بطبائعها وجوهر انفعالاتها عن وجودهم النفسي. فردّتهم حيارى، يتكفأون في مسح غريبه، وفن مضطرب الفرائص، هجين النسب، مقطوع الوشائج.. وبالغوا في التحفي وراء تلك السلائب المخطوفة. فلم يمهلهم قليلا في الترويج لهذه البضاعة الذهنية الشائهة حتى هتك عنها الحجاب، وعصف بالطلاسم اللفظية التي أعانهم غموضها على التدليس في إيهام الشرق بأنهم أضافوا جديدا إلى أدبه الراكد العقيم نزعات ومذاهب ومدارس شعرية، وتجديد وثورة على القديم. وكلها مباحر مدحولة الفوج على الشعر العربي. أفقدهم الإدمان على شميمها قوة احتماله كموجود حر الطبيعة والكيان لا يعوره التلقين الخارجي. >>(2)

ويصل إلى أن بين دعاة التقليد والتحديد هبط الشعر وتعثر، وسقط في تجارب رحيصة وسطحية وغير صادقة، اقترب من اللغو والكآبة والكساد << وبين هؤلاء وهؤلاء ضربت على الشعر أسداء خانقة من التشبث بالقديم، واحتراف التحديد فوقف عاثرا، مصلوم الجراح، يلفقون له البواعث، ويصنعون له المثيرات، ويلتفون زاده من لغط الحوادث اليومية، والتجاوب الرحيض مع انفعالاتها العادية السريعة. ويتصيدون له المنابر، ويروضونه وهو عصارة الأرواح الظنينة العانية على مداجاة الجماهير، ومصانعة العامة في ترديد ما يرضي أهواءها القاصرة المغلوبة، ومسارقة إعجابها بمس الرغائب المعاشية، والترجيع المتهز للخواطر السطحية في كل مامن شأنه إهاجة الشواغل الحسية تمليقا وتطويقا لثناء الناس، وكسبا عاجلا لزبد الشهرة واغتاما لمجدها الزائف، فأخذه الناس لغوا رحيما لفراغهم. >>(3)

وفي غمرة تحسسه لهذا الواقع الشعري لم يكر أن في خضم ذلك الصراع هناك ندرة صائبة من الشعراء لم تثر ضوضاء أوضجيجا، ولم تبحث عن إمارة، ولم يشدها القديم أوالجديد. وإنما هي ندرة تبحث عن شعر

---

(1) أين المرصاد ص ب .

(2) المصدر نفسه ص ج .

(3) المصدر نفسه ص ج .

ينطلق من وهج النور وقوة الإيمان بعيدا عن الغواية والضلالة والفضائحة، والتحذير والمداجاة والنفاق. <<..وبعضها وهم ندرة هائمة على سفوح النغم العربي في مختلف أصقاعه، انطلق جناحها في وهج النور العارج بقوة الإيمان، وراحت تتموج أوتارها بحنين الأسرار الواغلة في ظلام النفس الإنسانية، وأنين قيدها وعذابها المصفد العميق، ومالت إلى السحر المحجب العاصي وراء أحزان الطبيعة وأفراحها وأسوارها الأرلية العاتية، وشبّ غناؤها من نار الشقاء الإنساني الذي ترزح تحت نيره جوانح الشرق المعذب المقهور، بعد أن غوى الشعر عن طريقه ردحا من الزمن،وهو في شغل شاغل بالنفاق الاجتماعي ومداجاة الأوضاع والغناء الواقعي الضحل، وختال الجماهير بترويضها على الفنون الرخيصة المنحلة. >>(1)

ولعل هذه سمات الشعر الإسلامي بعقده للفن المنحل والرخيص والكاذب، وإصراره على شعر عميق بالنور والإيمان، ويدعو الشرق أو أمته إلى شعر نوراني أو إلى شعر يحمل النور لاشراق جديد. << فبأيها الأجنحة الضاربة في ضباب الشرق. ستقي حجاب السر المحيّم على جراح الوجود...ومري بترنيمك السماوي على أسوار هذه الأرض المحرومة من النور. لعل سحرها يمحو من غطيطه الطويل على دفّ هذه المزامير وينفات إشراقة من هذا الغناء الجديد>>(2).

لكن محمود حسن إسماعيل لم يهاجم القديم والجديد،أو التراث والمعاصرة هجوما كليّا بل نظر إليهما من زواية أخرى وهو مدى مساهمتها في شدّ أزر الشعر من أجل تحقيق أصالته لاتجميده وتقييده، والسمو به لا النزول به إلى الحضيض الفني، والانفلات به من أطره الأصيلة والعريقة.

فرأيه في التراث تجسد في إيجاد طريقة مثلى لاستلهامه والإفادة منه دون الوقوع في أسر تقليده ومحاكاته. فأمر الغوص فيه من أجل التقليد،لا الإبداع أمر مرفوض وكذلك الاحتجاب عنه والعبث بعناصره الفنية كاللغة التي لها قوتها وإشراقتها الفكرية والفنية في التراث والقرآن الكريم. فهو << جزء من كيان العقل، كيف ترفض شيئا أنت تمارس أجزاء منه، ترفض الشعر الجاهلي، وأنت تكتب شعرا ركيكا غثا غير حامل لأي مفهوم منه على غزارته هذا خطأ، وهذا عبث،وهذا يستوجب الرفض، لأن الحرف العربي الموجود في قصيدة امرئ القيس،أو في قصيدة النابغة،أو في قصيدة عدي بن زيد...هو نفسه الحرف العربي الذي أنقذه القرآن من الظلال،ورسم له المسيرة في كل شيء وفي كل فنون الحياة. فسار في ظلالها، مواريا لها، يستل منها المبادئ ويعطيها العطاء، يستل القيم ويعطيها المفاهيم. فلماذا نرفضه؟ من لم يقرأ جاهل، لانقاش معه، ومن يرفضه مغتر وعابث، يدرك بينه وبين نفسه أنه مخطئ، وأنه منحه إلى شيء يريده لغاية لا أسميها. >>(3)

فيدعو إلى قراءته ودراسته لا نسخه أو نقله أو رفضه جملة بحجة تطورات الحياة والعصر، << العطاء من التراث أن نتفهم أسراره وارتقاءاته العقلية ومداراته، وكيف عالج نفسه فأدى إلى هذه الجبال الضخمة من

---

(1) أين المفر- ص-د.

(2) المصدر نفسه- ص-د.

(3) [illegible] ص 84.

العطاءات الفكرية والفنية والثقافية، ثم تأخذ النماذج الأقرب إلى مزاج الجماهير وتروّضهم على قراءتها دون حرمان،للامتزاج بلغة العصر وعطائه. فرفض التراث خطأ وتيسير التراث بتحويله إلى ميسرات للعقول العاجزة التي لا تعني منه شيئا خطأ. إن الشرق كان مشعلا للغرب،وهو غارق في جهالاته وظلماته. فالتراث يحمل كل هذه الأزواد.>>(1)

ولهذا فهو يؤكد في أكثر من موقف تأثره بالتراث لاقتناعه بعطاءاته وامداداته الفنية والفكرية،وبالخصوص التراث الأدبي والشعري، فمن الشعراء الذين تشبث بشخصياتهم الشعرية أبوالعلاء المعري، الذي شدّه إليه بحثه في قيم الذات والوجود، وصوره المبصرة << أجدر الشعراء بالاقتراب مني هو أبو العلاء المعري حول نهايات الوجود ومصير الدنيا،وهجومه الصادق العنيف على الكذب في التدين وعلى الذل ضراوته،وصوره المبصرة مع أنه ضرير. شاعر يتحدث عن قافلة جمالها نائمة وهي تمشي وتحلم بالأرض الخضراء، وبأن هذا الصحراء ستنتهي>>(2) إلى جانب شعراء آخرين - كالمتنبي وأبي تمام- لم يفصح عنهم لكن أفصح عنه اتجاهه الشعري،وكذلك المصاحبون له،والدارسون لشعره.

أما عن قضايا المعاصرة في الشعر أو بعبارة أخرى قضية تجديد الشعر فقد كانت له رؤية موضوعية لامعقدة أومتعصبة. فهو يرفض مقاييس التجديد التي تحدد مسار الشعر زمانيا ومكانيا. << أنا أرفض التجديد قضية. لأن هذا معناه أنها شيء عقلي يجب أن نختص به، ونصبه على الفن. أنا شخصيا لا أومن بهذه المجادلات في قضية تجديد الشعر، فليس حتما أن يُجدد الشعر، هناك عصور بترت لم تكتب فيها قصيدة. هي هكذا طبيعتها. لأن الشعر هو الفن الوحيد الذي لا يتحقق له النماء والازدهار أوالاستنبات، بأي قضايا منطقية.>>(3)

ولهذا فالتجديد له عامل نفسي يتفاعل مع تغيرات العصر، وإن اختفى ذلك التفاعل بفعل الحركة والإحساس،لا تجدي مقاييس النقاد ولا توجيهاتهم << فالتجديد عمل من النفس، يتجدد الفن حين يوجد شاعر،وحين توجد نفس، أصابها ما أصاب التغيرات العصرية التي نراها تتلاحق ساعة بعد ساعة من حساسية الحركة. هناك شعراء يعيشون ويموتون وهم في حركة واحدة، كحركات العروض يعيش ساكنا أومفتوحا بحركتين ويستمر حتى يموت. لكن الفن العظيم أو التطور شيء غير هذا لابد من وجود نفس قائمة لاتدريها، ولا ينفع كلام النقاد شيئا في التعرف عليه، وهي بطبيعتها تنتج بدون استلهام من هذه التوجيهات الأخرى.>>(4)

ونتيجة لاحتكاكه بالاتجاهات الفنية الجديدة التي شاعت في عصره، وإتقانه بذاتيته المتفجرة بالحيوية والإبداع

---

(1) المرجع السابق-ص85.

(2) محمود حسن إسماعيل بقلمه - مجلة الهلال - ص76.

(3) حديث الأخير بقلمه - محمود حسن إسماعيل - مجلة الهلال - ص86.

(4) المرجع نفسه - ص86.

لم تشده تلك المذاهب الأدبية التي تقيّد ابداعه وتخنق أصالة شعره، وأنكر الانتساب إلى مذهب بعينه، بل إلى الكون الواسع غير المحدد. وقد قال لأحد أصحابه << أنا أضع نفسي إن شئت في مذهب "اللامذهب" وفي الكون الأوسع،لاالكون المحدد الذي ينجذب وراء حبال النقاد. فالطبيعة السليمة للشعر والشاعر تأبى هذا الانقياد والتمثيل والامتثال>>(1).

فيحطئ من ينسبه إلى الرومانسية،أو إلى الكلاسيكية،أو إلى الواقعية،أو الرمزية لأنه يرفض كل تلك المذاهب << وقد قرأت كثيرا مما كتبه النقاد عني من أن الشاعر كان رومانسيا،وكان رمزيا. كل هذا لا أؤمن به، أفهمه ولا أؤمن بتطبيقه على ما حدث. واقع حدث أنه كان هكذا، لا أقول عفويا،ولا أقول إلهاما مصمتا لاتفاعل فيه، هذا خطأ لكن الذي حدث أنني كنت انسانا مشحونا بأشياء كثيرة، فنفست عن الكثير منها. >>(2)

بل راح ينكر متلا تأثره بالمذهب الرمزي في ظاهرة تراسل الحواس(3)، كأداة من أدوات تشكيل صوره، والتي شاعت في شعره. ويرفض أن تكون هذه الظاهرة وليدة الآداب الأجنبية.بل عرفت في الشعر العربي القديم، وكل ذلك من أجل حصر رمزيته في حدود الأساليب البيانية القديمة مهما كانت جرأته في استعمال الأساليب الرمزية الحديثة. فيرى أن << الشاعر الذي وهب قوة عليا تمكنه من تصوير شعوره إزاء الطبيعة والترجمة عما يخالج نفسه من أثر الاندماج فيها فهو يحس بكل ماتتحمله هذه الكلمة من معان، حتى لقد تمتزج هذه الإحساسات في نفسه، فيترجم عما يراه بعينه بسمعه، وعما يسمعه بأذنه بنظرة، وهذا ما يعبر عنه بمزج الأحاسيس،ويظنه بعضهم لونا جديدا لاعهد للشعر العربي بمثله، وأنه وليد الآداب الأجنبية أو الابتداع الجديد في الشعر. ولكن المطلع على أسرار الشعر العربي يرى سبق العرب به، ولابن حمديس مَثَلٌ في ذلك،حين يصف الخمر : حَمْرَاءُ تُشْرَبُ بِالأَنُوفِ سُلَافُهَا - لُطْفًا وَبِالأَسْمَاعِ وَالأَحْدَاقِ >>(4).

بخصوص قضايا التجديد الأخرى في الشعر، يرى أنها لمس الشكل لا المضمون، حيث التفّت كل الجهود حول شكل القصيدة الموسيقي وظهور مايسمى بالشعر الحر. على الرغم من إن الموسيقا جزء أساسي في الشعر إلا أنه هناك إطارات أخرى تحرك هذا الشعر ومن هذه الإطارات التي يقصدها إطار المضامين. <<كل ماكتب عن الشعر الجديد كان في الشكل. وهذا امتداد للرؤية المسطحة التي لا تملك قدرة على الإطلال في الأعماق. وقد أسرف النقاد والشعراء في حوار هذه القضية مع أنها في أساسها واضحة المعالم، الموسيقا تعانق الحروف، البناء النغمي، الشعر هو ماوراء هذه الإطارات.>>(5).

---

(1) عناصر حضر- هؤلاء عرفتهم محمود حسن إسماعيل- مجلة الثقافة - ص67

(2) الحديث الأخير للشاعر محمود حسن إسماعيل- مجلة الشعر ص83 .

(3) انظر- فصل الرؤية الفنية- مبحث الصورة التراسل .

(4) أغاني الكوخ- ص226.

(5) محمود حسن إسماعيل في معركة الرسالة ص76 .

ويرى بأن الدعوة الجامحة لتحرير الشعر من الموسيقا هي دعوة للغش ، لا للتطور والابداع. لأن التحرر من الموسيقا إسقاط لصفة الشعر. ولهذا فالموسيقا العروضية في رأيه لايمكن أن تختفي، وإنما قد تجدد في مضامين الشعر،ليخرج من مصيبة التوابيت أي القوالب القديمة الجاهزة.<< الشعر المعاصر ابتلي بمصيبتين، الأولى : هي مصيبة التوابيت. والتعبير الذي كان يستخدم من ألف سنة لغرض من أغراض عصره، لا ينبغي أن يساق كما هو في عصرنا. والثانية: هي مصيبة الغش الذي انتشر تحت إطار الشعر الحر، لم يقل أحد أن الشعر في أعلى حدود التطور والتحرر والإبداع يكون متخليا عن خصائص أساسية تلازمه ملازمة الشيء لذاته. فالتحرر من الموسيقا إسقاط نهائي لصفة الشعر.>>(1)

على الرغم من هذا،فهو لم يرفض الشعر الجديد، لكن المرتبط بمقاييسه الموسيقية التي لا تخرج من أصول الشعر العربي،الذي لم يخل من تجديد عروضي في أوزانه وقوافيه،وهو مع التجديد الذي يتفنن في إيجاد قوالب وصيغ عروضية معينة، ولهذا فإنه كتب الشعر الجديد،وأعلن عن ذلك، وعدّ نفسه رائدا في كتابته،وإن كان النقاد قد تجاهلوا جهوده التجديدية(2). وتحرر من كل تلك الصراعات القائمة حوله وكتب الشعر العمودي، ولم تستطع تجاهل أصالة الوزن الخليلي. وكان التنويع الشعري عنده وليد إحساسه وحركة معانيه وألفاظه وهروبه وملله من التكرار. << أنا أول من كتب الشعر الجديد، فبراير سنة 1932م، ولم أتابع الرحلة لأن ضراوة حراس القافية أفزعتني، وأنا أكره إطالة الوقوف أمام هذه الصراعات، لأنني أضن بأي لحظة من عمري أن تضيع هباء. أنا أكره التكرار، تتابع الليل والنهار يرهقني، عندي غرور مقدس بأن المعاني هي التي تسيطر على حركة اللفظ في إطار الأصول الصحيحة لبناء الكلمات.>>(3)

ومن خلال مجموعة من أشعاره، استحلعنا أيضا وصفا وتحديدا لرؤيته التنعرية. ففي كقطوعة "ملاك لا شيطان":

يا مُلْهِمي الشِّعْرَ لَمْ تَلْمَحْ بِخافِقِهِ
إِلاَّ رَوَائِعَ مِنْ طُهْرٍ وَإِيمَانِ
لأَنَّكَ طَيْفُ مَلاَكٍ رَفَّ فِي خَلَدِي
مِنَ السَّمَوَاتِ لاَمَبْعُوثُ شَيْطَانِ(4)

فعبرت عن منطلقه الديني وميله الفطري نحو الطهر والإيمان، واقراره بالوحي الشعري الذي يلهمه إياه ملاك لا شيطان،وهو بذلك يختلف عن الشعراء الذين يدّعون بأن لهم شياطين الشعر، وهاهو يرى بأن هناك ملائكة للشعر. وتبقى مجرد تصورات يريد أن يوجه بها شعره وجهة إسلامية .

---

(1) المرجع السابق- ص86.

(2) انظر- تاريخ بدايات الشعر الحر- فصل الرؤية العينية- مبحث الموسيقا.

(3) المرجع السابق- ص86.

(4) المصدر السابق- ص172.

وعبر عن السمات العامة لرؤيته الشعرية والتي يريد أن يتفرد بها وينشرها في وسطه الأدبي، في قصيدته "هكذا أغني" وهو عنوان ديوانه وعنوان القصيدة الأخيرة منه. << ومع الشيء من التحوز نستطيع أن نعدها مقدمة الشاعر لديوانه. ففيها يبين كيف يتغنى بشعره أو كيف صدر هذا الشعر عنه، فالغناء هنا لا يعني أكثر من تعبير الشاعر عن ذاته بالشعر، وإلى جانب هذا، ففي العنوان رمزية دالة كامنة في اسم الإشارة "هكذا" وكامنة في الفعل وضمير المتكلم المستتر "أغني". فالشاعر لا يعنيه إلا أن يكون شعره بالصورة التي خرج عليها، لأنه راض عنها وكذلك فإن الغناء غناؤه لايقلد فيه أحدا هذا إلى جانب أن الضمير المستتر "أنا" فيه دلالات الاعتزاز والتمسك بكل من هذا وذاك.>>[1] ونستطيع أن نقول أن هذه القصيدة وصف وعرض لرؤيته الشعرية في ديوان "هكذا أغني" وفي غيره من الدواوين. ومن خلالها استخلصنا مايلي:

1- روحية شعره، إذ يحمل معنى العبادة والصلاة والغوص في عالم الروح:

إِنْ تَسْلُ فِي الشِّعْرِ عَنِّي - هَكَذَا كُنْتُ أُغَنِّي
لَا أُبَالِي أَشَجَى سَمْعُكَ - أَمْ لَمْ يُشْجِ لَحْنِي
هُوَ مِنْ رُوحِي لِرُوحِي - صَلَوَاتٌ وَتَغَنِّي [2]

2- معدن ومنبع شعره،هو قلبه وصدق إحساسه وأصله وأمانيه:

وَهْوَ مِنْ قَلْبِي يَنَابِيعُ بِهَا يَهْدِرُ فَنِّي
لِلْأَسَى، فِيهَا تَعَالِيلُ وَلِلْيَأْسِ مُنَنِّي
وَهْوَ إِحْسَاسِي الَّذِي يَنْسَابُ كَالْجَدْوَلِ مِنِّي [3]

3- الإلهام الشعري عنده سر إلهي يلهم به الروح، وهو سمو بالشعر:

هَكَذَا يَخْتَلِفُ نَايِي - بَيْنَ إِلْهَامِي وَبَيْنِي
يُلْهِمُ اللَّهُ.. فَيَمْضِي - وَتَرُ الرُّوحِ يُغَنِّي [4]

4- لامذهبية شعرية عنده، فهو نابع من ذاته، لا يقلد أحدامن أجل الأصالة والإبداع،ولا يهمه في ذلك اللوم أو الثناء:

فَتَوَاعَرْتَ تُغْنِينِي - لَائِمًا أَوْرَحْتَ تُثْنِي
مِزْهَرِي تَشْوَانُ لَاتَسْ - قِيطُهُ ضَحَّةُ كَوْنِي
مَذْهَبِي؟ لَا مَذْهَبَ الْيَوْمَ سِوَى أَصْدَاءِ لَحْنِي
وَلَهَا الْخُلْدُ وَلِي فِي ظِلِّهَا سِحْرُ التَّغَنِّي [5]

---

(1) د/ طه مصطفى أبو كريشة- هكذا أغني- عرض ونقد- مجلة الأزهر- (1403هـ- 1983م)- مج2- ج12- ص1884.

(2) هكذا أغني- ص263.

(3) المصدر نفسه- ص263.

(4) المصدر نفسه- ص264.

(5) المصدر نفسه- ص264.

5- رسالية شعره وإخلاصه في تأديته، في رقته الهادئة، وفي ثورته العارمة:

قَدْ وَهَبْتُ الفَنَّ عُمْرِي - وَوَهَبْتُ الشَّرْقَ فَنِّي
فَلْيَلُمْ مَنْ شَاءَ.. إِنِّي - رَاسِخٌ كَالطَّوْدِ حَتَّى

فَإِذَا رَقَّ.. فَقُلْ يَا - قُبْلَةَ الأَسْحَارِ غَنِّي
وَإِذَا هَاجَ .. فَهَوْلٌ - سَاقَهُ مَرْكِبُ جِنِّ[1]

6- اعتزازه بشعره الذي جعله لا يتملق قارئه،أو يحرص على ثناء يستجديه أو يخاف لومه، فهو هكذا يريد أن يغني، أو هكذا يقول الشعر، بكل ما سبق-:

إِنْ تَسَلْ فِي الشِّعْرِ عَنِّي - هَكَذَا كُنْتُ أُغَنِّي
إِنْ تَشَأْ فَاسْتَمِعْ نَشِيدِي - أَوْ تَشَأْ فَارْحَلْ وَدَعْنِي
وَإِذَا أَضْحَاكَ هَمْسِي - مِنْ صَدَاهُ.. لاَ تَلُمْنِي
مَا أَنَا إِلاَّ كَظِلِّ - لِشُعُورِي..فَاعْفُ عَنِّي[2]

واعتزاز الشاعر بشعره وتمجيده له ظاهرة مألوفة في الأدب العربي وخاصة الشعراء العظماء والملتزمين الذين لم يجدوا صدى في واقع حياتهم للتجاهل والنسيان والجحود، أو لعدم الوصول إلى أشعارهم التي تفردت بالنبوغ، أو الغموض،أو السمو الفني،أو الالتزام بمبادئ معينة مرفوضة في أوساطهم.كأن يقول في موضع شعري آخر:

أَنَا شَاعِرُ الوَادِي،وَعَزَّافُ اللَّظَى - إِمَّا شَهِدْتَ جِنَانَهُ مُتَأَلِّقَا !
أُهْدِي العَطُورَ مِنَ يَفِي لِبِلاَدِهِ - وَأَسُوقُ لِلطَّاغِي الخُزُونِ حَقَائِقَا
لاَمُوا عَلَيَّ النقد قُلْتُ رُوَيْدَكُمْ - مَنْ ذَا يَلُومُ العَبْقَرِيَّ المُلْهَمَا؟
غَيْرِي يَسُوقُ الشِّعْرَ فَضْلَ بَلاَغَةٍ - وَأَنَا أَفَجِّرُ فِي مَنَابِعِهِ الدِّمَا[3]

وهذا الاعتزاز بمبادئ وسمو شعره،يذكرنا باعتزاز حسان بن ثابت:

لِسَانِي صَارِمٌ لاَعَيْبَ فِيهِ - وَبَحْرِي لاَ تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ[4]

وكذلك قول المتنبي:

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِي - وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ
أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا - وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ[5]

---

(1) هكذا أغني- ص264 .

(2) المصدر نفسه- ص265 .

(3) المصدر نفسه - ص164 .

(4) ديوان حسان بن ثابت- دار بيروت - بيروت (1398هـ 1978م)- ص 9 .

(5) ديوان المتنبي- دار بيروت للطباعة والنشر- بيروت (1403هـ 1983م)- ص332.

2 رؤيته من خلال آراء النقاد والدارسين له:

على الرغم من قلة الدراسات النقدية حول رؤية الشاعر محمود حسن إسماعيل،إلا أنها وجدت متناثرة في مجموعة من الكتب والدوريات...ورأينا أن نعرض بعضا منها. ومن أجل إجلاء الحقيقة الموضوعية ، كان ينبغي علينا تقسيم آراء النقاد والدارسين له إلى مجحفين ومنصفين، ومن خلال ذلك التقسيم نستنتج أحكاما نقدية تفيد في تقييم رؤيته الشعرية عموما، وإجلاء رؤيته الإسلامية في شعره.

أ- **النقاد المجحفون** : على الرغم من إخلاص الشاعر لنفسه وارتياده لآفاق بكر في شعره، واحتراقه في مصادر تجاربه، نرى اتهامات كثيرة يسددها له البعض بكثير من التحامل وعدم الموضوعية. ومنهم الدكتور "محمد مندور" في كتابه "في الميزان الجديد"، إذ يرى أن محمود حسن إسماعيل يذكره دائما بالمتنبي، لأن في شعره رنين قوي، نجده في بساطة أوزانه وضخامة ألفاظه،بل في بعض صوره الشعرية المختلبة على نفس النحو الذي كان المتنبي يصطنعه أحيانا متتلمذا على أبي تمام، لكنه يخلص إلى أن المتنبي شاعر كبير. أما محمود حسن إسماعيل،فيعيبه أمران خطيران :

<< أولهما أن المتنبي نفس قوية عاتية متماسكة، عاطفة المتنبي مغلقة مركزة عميقة. ولهذا قلّما تلوح كاذبة، عاطفة المتنبي نار داخلية لاتراها. وإن أهبت اللفظ أو أوقدت الصورة. وأما إحساس محمود حسن إسماعيل، يأبى شاعرنا إلا أن يريده افتضاحا بقصاصات الشر التي يعلقها فوق قصائده، وفي هذا ابتذال للنفس فيه نفرة، عاطفة محمود حسن إسماعيل مطرطشة،حتى لتلوح سرابا عاطفيا.

ثانيهما: اضطراب الرؤية الشعرية عند محمود حسن إسماعيل، بل إني لا أخشى ألا يكون له حقل شعري على الإطلاق. وهذا أمر يتضح لمن يراجع صوره في أية قصيدة من قصائده. فإنه لابد واجد بينهما من التنافر، لأنه لا يرى الأشياء رؤية صحيحة تراه يجمع بين صور،لايمكن أن تكون وحدة للموصوف. ولو حرص على الرؤية الشعرية الصادقة لرأيت التجانس الذي يعوره>>(1).

على الرغم من أنه لا توجد دواعي للموازنة بينه وبين المتنبي للحكم بتفوق فنه،لأن الموازنة لم تكن في مصلحة الشاعر و لم تساعد على إضاءة شعره. يخلص إلى أن عدم صدق عاطفته واضطراب رؤيته وخطابية شعره يجعله يرفض شعره ويفضل بعض شعراء عصره عليه. << ونحن عندما لا نجد لدى الشاعر العاطفة المتماسكة، والرؤية الشعرية لانستطيع أن نحكم بتفوق فنه، وذلك لأن الرنين الخطابي مهما بلغت قوته لايمكن أن يسمو بالشعر. فلغيري إذن أن يعجب بقوة أسر محمود إسماعيل واستجعاد لفظه وغرابة صوره. وأما أنا فمادمت لا أستطيع أن أدرك ببصري حقيقة ما يوصف،ولا أن أسكن إلى نوع إحساسه. فإني لا أتردد في رفض شعره وتفضيل نُفَيْتة أو عُرَيْعِنة عليه. وذلك لصدق شعراء المهجر في فنهم.>>(2)

ويكرر اتهامه في كتاب آخر "الشعر المصري بعد شوقي"، ويؤكده قائلا << وباستطاعتي أن أضيف اليوم، أن اضطراب هذه الرؤية الشعرية عند محمود حسن إسماعيل ليس اضطرابا فنيا،فحسب بل اضطرابا نفسيا

---

(1) في الميزان الجديد- مطبعة نهضة مصر- ط3- ص98.

(2) المرجع نفسه- ص99.

أيضا، لأن مجموع شعره وعصارة حياته تنّم عن نفس مرتعشة>>(1).

كما يرى بأنه << شاعر وحشي الطاقة الشعرية عنيفها، ولكنه فيما يبدو غير مالك لزمام نفسه،ولا مسيطر عليها. وذلك لأن محمود حسن إسماعيل يوحي بشعره وحياته. بأنه يفتقر إلى الكثير من النظام العقلي والعاطفي، وكأن طاقته الشعرية الفذة قد أصبحت عليه لا له.>>(2)

ويوافقه الناقد مصطفى السحرتي على ذلك حيث يرى أن << أغلب نقدات مندور صائبة وبخاصة عدم وضوح تجربة محمود حسن إسماعيل الشعرية أوقصور رؤيته.>>(3)

وعلى الرغم من الأحكام النظرية التي حكم بها الدكتور مندور على شعره، فإنه لم يستطع أن يفرّ من موهبته التي أقر بها في نهاية نقده له حيث يقول:<< وأنا بعد مؤمن بأن محمود حسن إسماعيل يستطيع أن يصبح شاعرا كبيرا لأنه يملك هبتين لا شك فيهما :

- أولهما : روح الشاعر وروح غفل،ولكنها قوة من قوى الطبيعة، قوة تحتاج إلى التثقيف الصحيح.

- وثانيهما : قدرته على الانفعال، وفي هذا ما يلهب الحس، فيدرك المرء بقلبه حالا تدركه العقول. وما يحتاج إليه محمود حسن إسماعيل لاستغلال قدرته،إنما هو نوع من النظام يركز به إحساسه ويرد ما فيه من فضول.>>(4) وتجلى بذلك تناقضه وتحامله في الرأي، لأن الشاعر يمتلك تلك الدواوين،لايمكن أن نتهمه بأنه ليس له حقل شعري على الإطلاق. كما أن أحكامه النظرية كانت مجحفة لأنه طبقها على قصيدة واحدة "حصاد القمر"، والحكم على رؤية الشاعر من خلال قصيدة فيها كثير من العبث والإجحاف. ولهذا فاتهام رؤيته بالقصور والطرطشة، والاضطراب والغموض،هي من دوافع تحديدي لمجموعة من الرؤى، وتحديد كل رؤية على حدى في ضوء تأمل النصوص ودراستها، لأنها هي الحجة الموضوعية للدفاع بها عن هذا الشاعر.

كما أن هذا التحامل لايمكن معرفة كل أسبابه. ولعل السبب الذي يبدو ظاهرا،هو اتجاه الشاعر الإسلامي الذي يرفضه مندور لأنه يتبنى نظريات وايدلوجيات أخرى في الأدب والحياة.

ويتهمه ناقد آخر هو الدكتور "محمد النويهي" في كتابه "قضية الشعر الجديد" بقصور رؤيته والاحتراز الشعري في دواوينه، وأنه لم يحقق التجديد بل التكرار والتكرار الممجوج. وبدا متحاملا عليه أيضا،على الرغم من محاولات تبريره النقدي بالموضوعية أحسن من محمد مندور،وعلى الرغم من أن عنوان موضوعه في الكتاب "أيها الرومانسيون كفاكم احترارا" إلا أن انتقاده صبّه على محمود حسن إسماعيل،وإن لم يصنفه معهم،وإنما وضعه في مدرسة وسطية تجمع من القديم والجديد أي مدرسة تقليدية وحديثة، لأنه لم يستطع مذهبيته إلى أي مذهب كالمذهب الرومانسي مثلا، واعترف بأن له أسلوبه الخاص، الذي حققه بهذه الوسطية. وركز نقده للشاعر على ديوانه "قاب قوسين"، نقده للمضمون الفكري والعاطفي،والأداء الأسلوبي والتشكيلي. وخلص

---

(1) الشعر المصري بعد شوقي - الطبعة الثالثة - دار نهضة مصر للطباعة - القاهرة - ص141-142.

(2) المرجع نفسه - ص140.

(3) الشعر المعاصر على ضوء [illegible] 1948، ص213.

(4) في [illegible] ص99.

إلا أنه لم يأت بأي جديد أو تطور فني.<< ...أما من ناحية المضمون الفكري والعاطفي، فيخيل إلى أن الأفكار قريبة الغور، والعواطف مألوفة منتظرة، والتجارب الحيوية معروفة مطروقة، والمواقف قد اتخذت من قبل، من شعراء كثيرين ومن الشاعر نفسه، وخصوصا موقفه من الزيف والنفاق وسطوة الأقوياء على الضعفاء. فليس فيها جديد يصدمنا ويهزنا ويرغمنا على إعادة النظر في تجاربنا الإنسانية وإعادة الفهم لنا. وقد بذلت جهدي المخلص في أن أعثر في الديوان كله على شيء مضموني جديد، فلم أوفق. وأما من ناحية الأداء اللفظي والتشكيل الموسيقي، فيخيّل إليّ أن التعبير، وإن يكن أقل حشوا كما ذكرت، لايزال تقريرا مباشرا مسطحا، لاتوغل فيه، وهذا أمر نقبله ونسامحه من الشاعر في حداثة شعرنا الجديد، لكننا لا نستطيع الآن أن نكتفي به.>>(1) ويواصل نقده في عدة صفحات لمواضيعه وانفعالاته، ومفرداته ونعوته وصوره وموسيقاه ليؤكد عدم اقتناعه بشكل الديوان ومضمونه. << فهل احترت موضوعات هذا الديوان في الوجدان الشعري لمحمود حسن إسماعيل قبل أن يقدم على نظمها ؟. هذا ما يوسفني أن أقول أن قصائد الديوان لم تقنعني به، والمحك بالطبع هو أسلوب الأداء. وأداء القصائد في نظري غير ناضج. مكرر يستسهل التكرار، مجتر يعيد الاجترار، ولو اختمرت تجربته حقا لاضطرته اضطرارا إلى أن يلتمس لها أداء أكبر نضجا وأقل تسطحا وأقل غراما بترديد الإكليشيهات الرومانسية، التي لم تعد كما كانت نفيسة والتي فقدت قوتها الإيحائية بكثرة الابتذال.>>(2)

وفي نهاية موضوعه النقدي يشعر بأن القارئ سيحكم عليه بظلمه للشاعر،وبهذا يرى أن الحديث عنه بحاجة إلى نقاش وتوضيح. << فإن القارئ سيحكم عليّ بأني ظلمت محمود حسن إسماعيل ظلما مبينا، وحينئذ يكون خلافنا أساسيا يحتاج إلى مزيد من النقاش والتوضيح.>>(3)

ونلمح بنظرة منصفة إلى الشاعر أن دواوينه تأخذ الاتجاه الموضوعي مما يدل على نضوج رؤيته، فمثلا ديوان "أغاني الكوخ" يحمل موضوعا ذا طابع موحد، فكله ذوبان في الريف والطبيعة وإثارة لقضية الفلاح الذي يعاني الفقر والظلم والإقطاع.وديوان "نار وأصفاد" يحمل موضوعا موحد أيضا وهو الحرية، التي ينشدها الإنسان العربي منذ أن انبثق نور الإسلام من مكة وتنقل في عصور التاريخ إلى العصر الحديث. وما حوت هذه العصور من تناقضات ومآسي إنسانية نتيجة ضياع كثير من القيم والمثل. وديوان "لابد" يحكي إصرار الإنسان على الوصول إلى مرافئ السعادة والأمان والإيمان. وديوان "النائهون" يحمل مشعل الحقيقة أمام مواكب الحيارى والنائهين. وديوان "نهر الحقيقة" ينشد الحقيقة الإلهية الكبرى من خلال الكون والحياة والإنسان. وكذلك باقي دواوينه، فكل ديوان يحمل طابعا خاصا. وحتى ديوانه "الملك" الذي حاول بعض النقاد إسقاطه من شعره، ومهاجمته ورميه بالانزلاق والنفاق للملك فاروق، ولكنه لم يمدح الملك مدحا شخصيا، وإنما كانت معظم مدائحه توجيهات اجتماعية وإنسانية، وقد انتهز ذلك المدح من أجل الفقراء والمظلومين. ولهذا فإني

---

(1) قضية الشعر الجديد - دار الفكر - مكتبة الخانجي - مصر ط2 1971م ص414 415.

(2) المرجع نفسه 419.

(3) المرجع نفسه ص425.

لاأسقط ديوانه من مراحله الشعرية على الرغم من بعض التجاوزات والمبالغات الفنية(1). ولهذا فالشاعر لايكرر نفسه في كل ديوان بل يحمل في ثناياه الجديد المضموني والفني. ولهذا فهجوم "محمد النويهي" على مضمون ديوان "قاب قوسين" ،هو في الحقيقة هجوم على مضمونه الديني، لأن قصائده سميت بالقصائد الروحية والنورانية وهي مليئة بقضايا النفس والروح، والأخلاق والمثل...فهو مضمون جديد بالنسبة لعصره، لأنه استطاع أن يعيدنا إلى الحالات الزهدية والصوفية لأبي العتاهية وابن الفارض، لكن بصياغة جديدة .كذلك من حيث الأداء الفني،فهو متردد أسلوبا وتشكيلا .(2)

أما الناقد الآخر هو الدكتور "شكري عياد" الذي هاجم أيضا الشاعر في كتابه "الرؤيا المقيدة" وإن اعترف في بداية موضوعه " محمود حسن إسماعيل والانفعالات من الذاتية . أنه شاعر متفرد الرؤية، مختلف عن أقرانه الشعراء بالثورة والجوع والظمأ الشعري الدائم. << محمود حسن إسماعيل شاعر فذ بالمعنى الحرفي للكلمة، طلع مع أقطاب مدرسة أبولو" أبي شادي وناجي وعلي طه وجودت والهمشري" فكان نمطا آخر منفردا عنهم. لم تكن لمحمود حسن إسماعيل رقة ناجي ولا أناقة طه، ولا غزل جودت...ولكنه كان شاعرا فذ الشاعرية –إن صح التعبير– شاعر جائع أبدا، ظامئ أبدا، ثائر أبدا.>>(3)

ويحاول بعدها أن يتهم شعره باختناق أصالة الشعور فيه لاعتماد الشاعر على التراث وتأكيد انتمائه إليه. << وحرص محمود حسن إسماعيل على تأكيد انتمائه إلى تراث الشعر العربي دون غيره،هو المسؤول في أغلب الظن عن سيطرة القوالب القديمة على كثير من قصائده سيطرة تكاد تخنق أصالة الشعور. وذلك ظاهر–على الخصوص–في شعره الذي يمكننا أن نسميه دون حرج "شعر المناسبات".(4)

وكما وزان "محمد مندور" بين الشاعر والمتنبي، وزان "شكري عياد" بينه وبين أبي تمام، الذي يرى أن أبا تمام إمام الشاعر في التأمل الذهني واستدعاء الصور الخيالية، لكن شتان بينهما في ذلك. فأبو تمام << ملازما لهذه الطريقة، خبيرا بمذاهبها وكان يثقف شعره ولا يقبل كل ما تسعفه به قريحته. أما محمود حسن إسماعيل فهو شاعر متدفق يحتاج إلى أن يفرغ كل ماعنده حتى يعثر على جوهر الشعر. فهو كالسيل الآتي احتمل زبدا رابيا>>(5). كما يستنكر عليه اعترافه بعدم تمذهبه إلى أي مذهب من المذاهب الأدبية الأجنبية. ويصر على أن تمذهبه –شاء أم لم يشأ– لأن شعره هو دليل ذلك المذهب الرمزي. << ولكن محمود حسن إسماعيل بدلا من أن يعترف بهذه الأصرة التي تربطه –شاء أولم يشأ– بالتراث الرمزي في الآداب العالمية ليحاول –من بعد– أن يرتوي من هذا التراث، وينصرف فيه بقدراته المبدعة تصرف المالك، بدلا من أن يخوض في تيار الأدب العالمي بلا عقد، وجدناه يحرص على أن ينفي عن نفسه شبهة التأثر بأي أدب أجنبي. مؤكدا أن المطلع

---

(1) انظر– فصل الرؤية السياسية– مبحث قضايا وطنية.

(2) سيكون هذا الديوان مجال اهتمامنا في مضمون فصول البحث.

(3) الرؤيا المقيدة– دراسات في التفسير للأدب –الهيئة المصرية العامة للكتاب– 1978م– ص72.

(4) المرجع نفسه– ص74.

(5) المرجع نفسه– ص75.

على أسرار الشعر العربي يرى سبق العرب.>>(1)

ومن خلال تأمله لبعض قصائد ديوان "أين المفر" يحاول أن يظهر تأثره بالمذهب الوجودي الذي ينادي بالقلق والعبث في الوجود ببعض تساؤلاته التي يؤكدها فيما بعد أثناء تحليله لتلك القصائد(2). << لاأدري أكانت أطراف من الفلسفة الوجودية قد وصلت إلى الشاعر أثناء نظمه لبعض قصائد "أين المفر" .كما وصلت إليه أطراف من المذهب الرمزي أثناء نظمه لقصائد "أغاني الكوخ"، أم كان منحاه الوجودي مرحلة من تطور وعيه الشعري،وصل إليها حين قام الشك بوصفه سمة للعلاقات البشرية، والقهر بوصفه طابعا للعلاقات الاجتماعية، حائلين دون ماكان يطمح إليه من معانقة الوجود فرارا من أسر الذات.>>(3)

إلا أنه أعترف أنه عصي عليه ذلك،وهو يحاول أن يقدمه تحت أي مذهب أدبي أو رصيد تراثي. <<ولكنها شهادة ثانية لأصالة شاعرية محمود حسن إسماعيل، أنك لا تستطيع أن تجزم إن كان قد تأثر بغيره في منحى أواسلوب أو التقى بغيره في هذا المنحى أو الأسلوب التقاء غير متعمد. وإن شئت فقل إنها نقيضة من نقائضه الكثيرة أنه من أصدق شعراء جيله تعبيرا عن الاتجاهات العالمية في الشعر، بالرغم من تبرئه من هذه الاتجاهات، كما أنه من أشد الشعراء المعاصرين تعسفا في اللغة الشعرية الموروثة بالرغم من محافظته على طابعها العام>>(4).

وبقي أن نشير إلى قضية خطيرة أثارها الناقد وهي مهاجمته لاتجاهه الإسلامي في شعره -أو القالب الحكمي في شعره كما يقول- حيث يرى وأد تجربته التي كان من الممكن أن تكون من أغنى التجارب الشعرية في ذلك البيتين اللذين اعترف فيهما في وقت مبكر -أي في ديوانه الأول- بأن ملهمة الشعر ملاك صادق لاشيطان كاذب(5). ولا أدري لماذا صبّ انتقاده على هذين البيتين لولا المعنى الذي يحملانه ويرفض أن يؤمن به، لعل المقولة القديمة مازالت سائدة في أذهان الكثيرين "أن أعذب الشعر أكذبه" فيقول :<< يخيل إلي أن الشاعر نفسه أحسّ الحيرة، -منذ وقت مبكر- أمام هذه الحالة الانفعالية، فلم يدر إن كان ملهمه الشعر ملكا صادقا أم شيطانا كاذبا. ولا أدري لماذا أسرع بفض الحوار بينه وبين ملهمه إلا أن يكون هو القالب الحكمي. قد وأد تجربة من أغنى التجارب الشعرية في هذين البيتين.>>(6)

ومن الملاحظ أن رؤيته الإسلامية هي التي كانت محل رفض وتشكيك حيث رأى بعضهم أن وطأة الأحداث العامة،وفساد الجو الثقافي حوله،وإخفاقه في تحقيق المنزلة التي يصبو إليها أثر في اتجاهه إلى لون من

---

(1) الرؤيا المقيدة - ص74.

(2) انظره توطئة فصل "الرؤية الروحية".

(3) المرجع نفسه - ص76.

(4) المرجع نفسه- ص76 77.

(5) انظر الجزء الخاص برؤيته من خلال أثره والمحيط.

(6) المرجع نفسه - ص77.

التأمل والتصوف. ويشهد بذلك -حسب رأيهم- ديوانه "أين المفر" بعد إخفاقه في التقرب إلى العرش -الملك فاروق- وكذلك ديوانه "قاب قوسين" بعد تعثره في أن يكون شاعر الثورة[1]،وأكدوا أن هذا اللون من التأمل والتصوف محاولة للتعويض عن العلاقات الروحية والصلات الحميمة التي فقدهاالشاعر. وتأكيد بقاء الشاعر في هذه الدائرة الذاتية والصوفية نتيجة اصطدام أحلامه بالواقع يعني انفصاليته عن الواقع والمجتمع. هذه الانفصالية التي ناقشها الناقد "محمود أمين العالم" الذي يصنفه ضمن تيار في الشعر المصري الحديث عبر تعبيرا كاملا عن إرادة السلطة الحاكمة، وانفصل عن المجتمع وقضاياه العامة انفصالا كاملا. على الرغم من تعدد الاتجاهات التي قد تتغاير في تفاصيلها، ولكنها تلتقي عند هذا القرار الجائر وهو انفصال الشاعر المصري عن مجتمعه، حيث اندفع الشعراء إلى سياحاتهم الخاصة داخل ذواتهم الفردة المعزلة، وامتلأت أشعارهم بالتهاويل والرؤى والأشباح والأرواح. وتشبعت بالموسيقا المفرغة من الدلالة، وتعلقت بالانتصارات الموهومة والأحكام الفجّة في الحياة. ويخلص إلى أن هذا التيار لم يستحدث صياغة ثورية لتجاربه،وقد جددّ شعراؤه في حدود اللفظ والمعنى. واستحدثوا الصور والأخيلة المغرقة، واستعانوا بالأساطير والتماثم، ولكن بقيت حدود التعبير في إطار التعبير في إطار القيم التشكيلية المعتادة[2]. ويطبق تلك الأحكام النظرية على مجموعة من شعراء ذلك التيار ومنهم محمود حسن إسماعيل الذي يرى في ديوانه الأول "أغاني الكوخ"، أنه يتمثل الريف المصري بأناسه وحيواناته، وأدواته وأحواله كرموز لانفعالاته وطاقاته الذاتية،لا كواقع إنساني حي، له أبعاده الخاصة وملابساته الموضوعية، يتمثله رموزا لتهويماته الخيالية المفرطة. وينتهي بعد عرض بعض تهويماته المتعلقة بالصورة والرمز، إلى أن محمود حسن إسماعيل نمط كامل لانفصال الشاعر عن الحياة. إذ جاهد،لكي يوظف قواه في ركاب عظيم شأن الشعراء الأوائل،لكن القمم التي راح يتعلق بها أخذت تتداعى الواحدة بعد الأخرى. فساعد هذا على تغذية انفصامه عن المجتمع[3].

ب- النقاد المنصفون :

لست في موقف الدفاع عن محمود حسن إسماعيل وإنما شعره الذي يدافع عنه والنقاد المنصفون والذين عايشوه عن قرب، وتوغلوا في مجاهيل ذلك الشعر، ويدافعون عنه لابالكلمات الانفعالية. ولكن باستكشاف مافي نصوصه من قيم شعورية وجمالية مبدعة بكل موضوعية نقدية،التي تشبثّ بها حتى النقاد المحافظون ظاهريا.

ومن هؤلاء المنصفين الدكتور "عبد العزيز الدسوقي" الذي كثرت وقفاته مع شعر محمود حسن إسماعيل - دراسة ونقدا- حيث تصدى للرد على اتهامات "محمد مندور" توخيا للموضوعية عمد إلى تحليل قصيدة "حصاد القمر"، التي هاجم بها مندور الشاعر وبنى عليها أحكامه - تحليلا فنيا- واتجه اتجاها آخر لإبطال مزاعمه، بأن

---

(1) د/ ثابت محمد بدراني- قضية الفلاح في شعر محمود حسن إسماعيل- ص123-124.

(2) محمد أمين العالم- عبد العظيم أنيس- في الثقافة المصرية- دار الفكر الجديد 1955م، ص118 120.

(3) في الثقافة المصرية- ص121 122.

هذه القصيدة من النوع الخطابي لاالمهموس أي الرقيق. وبين حقيقة هذا الاتهام والهجوم بكل صراحة، أنه وليد صراع سياسي وفكري بينه وبين" سيد قطب"،ومن يدور في فلكه كمحمود حسن إسماعيل.<< ومن الغريب أن هذه التجربة الفنية الرائعة لقيت نقدا شديدا وسخرية من بعض النقاد. ولقد اتخذ منها أستاذنا المرحوم الدكتور"محمد مندور" نموذجا للشعر الخطابي الرديئ الذي كان يحاربه حينذاك. لأنه كان يبشر بمذهب الهمس في الشعر. ويبدو أن العراك الذي كان يدور بين المرحومين مندور وسيد قطب حول الشعر المهموس، هو الذي دفعه غلى هذه الحدة والقسوة>>(1).

وبعد عرضه لأحكام"محمد مندور" على القصيدة وتبينه للتحامل الظاهر بعد ظاهرة الهمس الموجودة في القصيدة يعترف << بأني لم أفهم على وجه الدقة حقيقة المآخذ التي يأخذها أستاذنا المرحوم الدكتور مندور على هذه القصيدة. فهي مجموعة من التساؤلات العامة الغامضة غير المحددة، وهو نفسه قد استنكر مسلك النقاد الذين يتناولون التجارب الفنية على هذا النحو ووصفهم وصفا ساخرا، فهم عنده كالجراح الذي يجري عملية جراحية دقيقة بسكين بصل.ومن الغريب أن القصيدة كما تبينا من تحليلها تموج بالصور الهامسة الخافتة، وهي أقرب فينا إلى هذا الشعر المهموس الذي كان يدعو إليه أستاذنا الدكتور مندور من كثير من القصائد التي أعجب بها. ويبدو أن الدكتور مندور لم يكن يتعاطف مع الشاعر سياسيا، فصرفه ذلك عن التعاطف مع القصيدة.>>(2)

ويتساءل بعدها الدكتور"عبد العزيز الدسوقي" عن احتفاظ مندور برأيه حول اضطراب رؤيته الشعرية على الرغم من إقراره بالموهبة له- كما رأينا في موضوعه- على الرغم من زوال حدة الصراعات السياسية والفكرية بعد تفرغه-أي مندور- للدراسات الأدبية والنقدية. << ولا أدري لماذا أصرّ أستاذنا على رأيه الأول بعد أن تغيرت الظروف والعلاقات الاجتماعية. فبعد ثورة يوليو سنة 1952م حلّت الأحزاب، وانتهى الصراع الحزبي الذي كان يؤثر على بعض أحكام المفكرين والنقاد، وانصرف المرحوم الدكتور مندور تماما إلى التدريس في الجامعة والمعاهد العليا، وكتابه الدراسات الأدبية والفنية في الصحف والمجلات، وهي فترة خصبة في حياته أنجز فيها دراسة الفنون الأدبية ونظريات النقد. وتناول بالدرس المطول المسرح والشعر بعد شوقي. في هذه الفترة أنصف كثيرا من الأدباء والفنانين، واحتضن جيلا من الشباب، ولكنه مع ذلك ظل على رأيه الأول في محمود حسن إسماعيل. فقد تناوله في الحلقة الثالثة من موسوعته "الشعر المصري بعد شوقي" والتي صدرت في عام 1958م واتهمه بالإسراف العاطفي، واضطراب الرؤية الشعرية، وعاب عليه شيئا آخر هو اتجاهه نحو الرمز والتجسيم.>>(3)

---

(1) التذوق الجمالي لشعر محمود حسن إسماعيل مجلة الثقافة ص71.

(2) المرجع نفسه ص71 72 .

(3) المرجع نفسه ص72 .

وخلص إلى أن الأحكام النظرية التي أطلقها على الشاعر أثبتت عكس ذلك أمام واقعه الشعري الذي ارتبط بشخصيته وحياته. << أما الأحكام النظرية التي أطلقها على الشاعر محمود حسن إسماعيل من اضطراب الرؤية والطرطشة، العاطفية، وجلب الصور الشعرية من الذاكرة، وانعدام القاموس الشعري. فلا أظن أنني بحاجة إلى الردّ عليها، فقد أثبت محمود حسن إسماعيل بحياته وسلوكه وإبداعه الشعري الطويل، أنه نفس قوية متماسكة وعاطفة مركزة قوية، وموهبة فنية عاتية.>>(1).

وفي مقال آخر له " محمود حسن إسماعيل في عالمه الشعري" أقر بأن تجربة محمود حسن إسماعيل الشعرية تجربة فنية متفردة في العصر الحديث. << لا أعرف شاعرا -بعد شوقي- استأثرت التجربة الشعرية بحياته وحولتها إلى وهج فني حار، كما استأثرت بحياة الشاعر محمود حسن إسماعيل، فلقد تحولت حياته إلى تجربة شعرية كبيرة، قلّ أن تصل إليها تجربة فنية في العصر الحديث.>>(2).

وبعد عرضه لمراحل تجربته الشعرية التي ربطها بدواوينه ربطا فكريا وفنيا، توصل شامل لرؤيته. <<أما رؤيته الشعرية فتتصل بطبيعة نفسه وتكوينه الفكري والروحي، وظروف حياته وموهبته الشعرية العاتية ولا شك أن الشاعر -كما قررت أكثر من مرة- يمتلك شخصية جارفة، ونفسا متماسكة قوية، ووجدنا حارا جياشا، وتصورا كاملا للكون والحياة. ولعل انصهار هذه العناصر في تكوينه الفني وامتزاجها بطاقته الشعرية الفذة، هو الذي يشكل ما نسميه بنظرته الكونية أو رؤيته الشعرية>>(3).

ومن خلال منهج نقدي فني اهتدي إليه الناقد "عبد العزيز الدسوقي"، هو منهج الوحد الفني. استمد منه سمات فكرية وفنية ذات مستوى رفيع من خلال ربط حياته برؤيته ويعني بحياته كل المؤثرات والظروف الخاصة والعامة المحيط به. ومن خلالها وصل الشاعر إلى ماأسماه بالوحد الشعري الذي برزت فيه بعض سمات رؤيته الشعرية وهي:

1- التنبه الحاد المصحوب بيقظة الحس، ورهافة الشعور وعمق الإحساس بالحياة.

2- جيشان النفس، ودقة العاطفة، والروح الإنساني العميق،الذي يحتضن الوجود بمافيه من كائنات.

3- غزارة الموهبة الشعرية وثراؤها واكتمال الأداة الفنية، مع الإحساس الغزير بالدهشة الدائمة نحو مظاهر الوجود(4).

ويرى أن هذه السمات العامة هي منحى غني لأي ناقد أودارس يمنحه إضافات جديدة. << ولعل هذه السمات هي التي جعلت لرؤيته الشعرية طابعا جديدا، ولألفاظه وتعبيراته وصوره مذاقا خاصا. ولتجربته

---

(1) المرجع السابق- ص72.

(2) محمود حسن إسماعيل في عالمه الشعري مجلة الثقافة- ص73 .

(3) المرجع نفسه ص75 76 .

(4) المرجع نفسه ص76.

الشعرية جاذبية عميقة وتأثيرا بعيدا. وقد ظللنا نصنف الشاعر بهذه السمات العامة دون أن نحدد كيف تكون هذا القاموس الشعري ومم يتكون؟ وما طبيعة هذه الخيال المجنح أوتلك الرؤية الشعرية ؟>>(1)

ونستخلص من كل ما سبق أن الدكتور" عبد العزيز الدسوقي" قد حاول إنصاف الشاعر من خلال الدفاع عن رؤيته الشعرية، ولعل تساؤله المتحفظ عن إجحاف وتعنت محمد مندور، قد أجبنا عليه فيما سبق، وهو أن اتجاهه الإسلامي الذي فرضه بتفرده الشعري،وتوغله في عالم الكون والحياة بمزجه الفني بين التراث والمعاصرة. هو الاتجاه المرفوض عند الدكتور محمد مندور وأمثاله. الذين يحملون أفكارا معادية لذوي الاتجاه المخالف لهم إيديولوجيا وفكريا وسياسيا،وحقيقة الصراع إذن! هي فوق الصراع المحدود الذي أشار إليه عبد العزيز الدسوقي. وأهم سمة توضح اتجاه رؤيته الشعرية نحو الرؤية الإسلامية،وهو الحكم على رؤيته بالاتساع والشمولية في تصور الحياة والكون. وهذا الاتساع والشمولية في التصور،هي من سمات الرؤية الإسلامية التي تتجنب النظر القاصر المحدود،أو النظر المادي المحسوس، دون التوغل داخل مجاهيل عالم الغيب والنفس والروح، كذلك ربط رؤيته بحياته وطبيعة نفسه وتكوينه الفكري والروحي.

ومن المدافعين أيضا عن رؤية الشاعر هو الدارس" محمد عبد الغني حسن" الذي ردّ على الدكتور" محمد النويهي"والذين اتهموه بالتكرار والاجترار الشعري، مؤكدا له أن << الثبات بحمد،فإنه في الشعر غير محمود، لأنه علامة التوقف والجمود.>>(2)

وأكد أيضا أن رؤية الشاعر متجددة ومتغيرة فكريا وفنيا حتى في مراحله الزمانية الأولى مابين أغاني الكوخ، وهكذا أغني فقط << وبعد ثلاث سنوات من صدور ديوانه الأول، قد أكدنا أنه تغير في بعض موضوعات الشعر كما تغير في طرائق تعبيره، فزادت العبارة قوة، وزادت الصورة وضوحا، وزادت الرؤية اتساعا وعمقا، وزاد الخيال تحليقا، وزادت الألفاظ مواتاة وتطويعا وحسن أداء، وزادت التجربة بقدر ماأضفته السنون على عمر الشاعر في ثلاثة أعوام،وهي عهد ليس بالقليل عند من يفيدون بالتجارب>>(3).

وبعدها انتقل إلى ديوان "قاب قوسين " ليبعد عنه صورة الجمود وعدم التجديد الفكري والفني،التي حكم بها الدكتور" محمد النويهي" عليه، ويمنحه صورة أخرى أكثر إشراقا وصدقا وإظهارا لمجالات انطلاق جديد للشاعر في الديوان من حيث الموضوع العشري، والخيال والتعبير، وقالب الصياغة الشعرية .حيث ركز على إظهار الجانب الروحي أو الإسلامي في الديوان. فمعظم قصائده روحية، تبحث عن حقيقة الله والنفس، والحياة والقيم. وهذا ماحاول النويهي تجاهله تجاهلا كليا ، << فكان في ديوانه الأخير "قاب قوسين" أو أدنى من الوصول إلى مرفأة المعرفة، أوقاب قوسين أو أدنى من الوصول إلى الله. أليس البحث عن الحقيقة، هو في ذاته بحثا عن الله، ومنحى في طريق الوصول إليه ؟. >>(4)

---

(1) المرجع السابق- ص76.

(2) ديوان قاب قوسين- مجلة الكتاب العربي ع19) 1385هـ-1965م)-مج4 ص18.

(3) المرجع نفسه ص18.

(4) المرجع نفسه ص19.

كما حاول أن يربط عمق صوره ببعد الرؤية الشعرية عنده، فهي << صور قلّ أن نجد لها مثيلا فيما ألفناه من صور الشعر العربي، وقد يستعين عليها شاعرنا بالتمثيل والتخيل، والتشبيه التركيبي والاستعارة البعيدة، ولكنها حتى على إغرابها وغموضها بعض بعض الحين صور فواتن.>>(1)

وذهب أيضا الدكتور "كامل البوهي" في مقاله "لابد" إلى تأكيد التجدد والامتداد الشعري في دواوينه، ليرد على الذين يدعون الاجترار والتكرار في شعره،وذلك من خلال ديوانه "لابد" الذي يعد صورة جديدة وممتدة لشعره. << هذا الديوان جديد في كل شيء، جديد في تصويره، جديد في إحساسه، جديد في أفراحه ودوافعه، في إصراره وقوته، ولكنه مع ذلك امتداد لفن محمود حسن إسماعيل. >>(2)

كما أكد عدم تمذهبه الشعري، وردّ على الذين يحاولون قسرا إدخاله إلى أي مذهب فني بعد أن اغرم كثيرا من النقاد بتلك الأحكام والمذاهب الجاهزة، ويرى ذلك أمرا عسيرا على كثير من الشعراء كمحمود حسن إسماعيل. << لفن جار اتباع هذه الطريق أو تلك مع شاعر عادي،لايكتب الشعر إلا اتباعا لمذهب فني معين، وانطلاقا من قاعدة أدبية معروفة. فإن هذا لا يمكن أن يؤدي إلى أية نتيجة في دراسة شعر محمود حسن إسماعيل الذي أصدر حتى الآن ستة دواوين، والذي حير النقاد منذ فجر حياته الأدبية، كلما أطلقوا عليه حكما عاما مما يطلق على كثير من الشعراء، أصدر ديوانا جديدا أو نشر قصيدة جديدة تحطم أحكامهم،وتهدم مقاييسهم تلك المعدة الجاهزة .>>(3) ويمثل اضطراب أحكامهم ومقاييسهم في عدم مقدرتهم على تصنيف الشاعر في أي مذهب فتارة هو رومانسي، وتارة أخرى واقعي...لكنهم لم يريدوا أن يدركوا شمولية رؤيته التي تمنحه الحرية الشعرية لا التقيد المذهبي القسري. << أكثر النقاد مع هذا لايزالون مضطربين في حكمهم على محمود حسن إسماعيل، واعتقد أن سبب اضطرابهم هذا أنهم يخطئون من أول الأمر، إذ يحاولون تطبيق القواعد النقدية المعروفة والمذاهب القديمة على شعر هو بطبيعته تدفق جديد من نبع لم يتأثر بأية قاعدة نقدية، ولم يقلد أي مذهب فني. فطالما قرأنا عن رومانسية محمود حسن إسماعيل، مع أن الواقعية واضحة كل الوضوح في شعره، وفي أغاني الكوخ نفسه نجد الشاعر يتعلق في الواقع الريفي إلى درجة جعلت بعض النقاد، يقولون إنه يكتب عن أسباخ القرية، ولكن الذين حاولوا تطبيق المذهب الرومانسي على شعره، ظنوه يتغنى بجمال الريف دون أن ينظروا إلى تصويره لواقعه المر وفلاحه المسكين.>>(4)

كما يؤكد ماأفصح عنه الشاعر سابقا أنه أول من قال الشعر الحر، << فمنذ أكثر من ثلث قرن، وفي نوفمبر سنة 1932م بالذات، نشرت "مجلة أبولو" قصيدة للأستاذ محمود حسن إسماعيل قدم لها الدكتور "أحمد زكي أبوشادي" بقوله "قصيدة من الشعر الحر" سبحان الله. قصيدة من الشعر الحر من سنة 1932م ؟ نعم، إنها من الشعر الحر فعلا، فبالرغم من موسيقاها العربية الأصيلة، نجدها خارجة على الأوزان التي كانت

---

(1) المرجع السابق- ص22.

(2) د/ كامل البوهي - ديوان لابد - لجنة الكتاب العربي ع29،1386هـ-1966م)- مج5 ص39 40 .

(3) المرجع نفسه ص33 .

(4) المرجع نفسه ص40 .

معروفة حتى ذلك التاريخ ، ولكن النقاد الآن لايعرفون أو لا يذكرون أن محمود حسن إسماعيل هو أول من كتب في الشعر الحر>>(1).

أما الدكتور "السعيد الورقي" أكدّ ازدهار رؤيته بعطاء متواصل ومتجدد منذ ديوانه الأول. الذي أعلن بمعن << ميلاد شاعر جديد، مكتمل النضج، متفرد الرؤيا والتناول،على الرغم من انتمائه تكوينيا إلى مدرسة أبولو>>(2). ويقسم رؤيته الشعرية إلى ثلاث مراحل التي تمت بها اكتمال دورة رؤيته من مجموعة دواوينه المتتابعة.

- المرحلة الأولى : بدأها بتفحص مظاهر الوجود ومظاهر النفس في "أغاني الكوخ وهكذا أغني وأين المفر".

- المرحلة الثانية : حاول فيها أن يمزج بين وجدانه الفردي والوجدان الجماعي في رؤية لاتخلو من أبعاد اجتماعية.وضح من خلالها أنه رأى عذاباته الروحية في الاقتراب من السر الأعظم،والذي وجده في معانقته الوجود واستكشاف وقعه في الذات. وضمت هذه المرحلة دواوين" نار وأصفاد، قاب قوسين، لابد."

- المرحلة الثالثة: اندمج أكثر مع الواقع الخارجي في حس ذي نظرة شمولية للوجود. وذلك في دواوين ، التائهون، صلاة ورفض، نهر الحقيقة، صوت من الله(3).

وتفرد رؤية الشاعر أبعدته عن المذهبية والامتثال لمدرسة أبولو وخصائصها على الرغم من انتمائه التكويني إليها والتي أكدها بعض الدارسين حيث نفي عنه الدكتور مختار الوكيل انتماءه إلى مدرسة الديوان أو أبولو، وشهد له باستقلال شخصيته << فإننا لا نستطيع أن ندرج محمود إسماعيل في إطار جامد محدد من مدرسة معينة، فنقول أنه من مدرسة "أبولو" أو نقول أنه من مدرسة "الديوان" أو من مدرسة حافظ وشوقي، أو من المتأثرين بشعراء المهجر، ولكن ربما استفاد من هؤلاء جميعا، ثم استقل بشخصيته الواضحة فيما بعد.>>(4)

كذلك يرى الدارس "عامر البحيري" أن الشاعر خاض خطوا آخر وسلك في طريقه للشعر اتجاهين، جعلته يختلف عن مدرسة أبولو . بعد أن يوازن بينه وبين الهمشري- حيث اكتسب أصالته بابداعه الحر على الرغم من الاستفادة من الجديد الأدبي.

الاتجاه الأول : مجاراة المجددين من شعراء المهجر، والإفادة من الشعر الرمزي.

الاتجاه الثاني : هو الاتجاه الموضوعي، وهو الذي ميزه في تلك الفترة المبكرة، فقد عاد إلى القرية، لاكما عاد إليها "الهمشري" مستلهما أحزان نفسه ولكنه عاد مستلهما أحزان القرية كلها.(5)

إذن فعلى الرغم من أنه يعد زهرة من زهرات مدرسة أبولو - كما يقول الدكتور "صابر عبد الدائم" فهو <<زهرة متمردة في كثير من الأحيان، واستطاع محمود حسن إسماعيل أن يثبت فنه ويؤكد شخصيته

---

(1) المرجع السابق - ص33.

(2) دراسات نقدية- دار المعرفة الجامعية- الاسكندرية- ط أولى- سنة 1988م.

(3) المرجع نفسه- ص133-134.

(4) بعض ذكرياتي مع محمود حسن إسماعيل مجلة الثقافة ص82.

(5) محمود حسن إسماعيل الشاعر الوطني، محمود حسن إسماعيل مجلة الثقافة ص81.

وأصالته.>>[1] وأصالته وتفرده لم تمنعه من التطوير والتجديد في شعره فقد << أثبت محمود حسن إسماعيل أنه يتطور مع الحياة، ويسير مع طبيعتها. ولكنه يتمسك برصانته، وتحليقه العذب الغريب في آفاق الحقائق والأسرار.>>[2] وهو أيضا لم يوافق الدكتور منذور في كل ماقاله فيه بقوله: << ألمح روح التحامل على الشاعر على نحو يذكرني بنقد العقاد لشوقي،مع الفارق في اتجاه الناقد والشاعر الحاليين عن اتجاه الناقد والشاعر السابقين.>>[3]

ويلخّص الدكتور "عبده بدوي" خصوصية وإسلامية رؤية الشاعر << وقد كان عليه لكي يحافظ على كل هذا الثراء أن يرتفع عن السفسطة والتفاهة والسطحية، وأن يصل إلى ماتمكن أن يسمى "التوحش في برية الشعر"، وفي الوقت نفسه كان عليه أن يحفر عميقا ليصل إلى أسرار الذات، بل وإلى كثير من أسرار الكون التي كان على وشك الإمساك بها.ولهذا كان من الطبيعي أن يضع الإنسان أمام بعض الصور البشعة، وأن يفجر اللغة تفجيرا شديدا، وأن يجعل من كثير من شعره أسرارا وطقوسا تقترب من الطقوس البدائية. ومما يعرف باللوحات الجدارية وبخاصة حين وصل في الفترة الأخيرة إلى نظرية إشراقية جديدة في الشعر المعاصر.>>[4]

كما يحاول أيضا أن يبيّن هذه الخصوصية في رؤيته المتمثلة في الوله الروحي والشفافية، والتحدد وامتلاك الأدوات. واستطاع من خلال ذلك أن يشكل ملامح عالم شعري فريد شديد الخصوصية والأصالة.<< كانت وسيلته إلى تشكيل ملامح هذا العالم رؤية شعرية بالغة الشفافية، وولها روحيا على قدر فريد من العرامة والتأجج، وقدرة خارقة على السيطرة على الأدوات الشعرية،وتطويعها لتشكيل ملامح هذا العالم الفريد. ولم يتجمد عند شكل معين،بل ظل متجددا متطورا،حتى ألقى الشاعر عصا الترحال،واستقر في ظلال الأبدية.>>[5]

ومن خلال ديوان واحد فقط "لابد" أقرّ بتعدد أبعاد رؤيته الشعرية وتلاحمها وتنوعها وتفاعلها...وكلّ ذلك أكسبها قيمة وتفردا. << فإذا كان الإطار العام للرؤية الشعرية في هذا الديوان،هو تلك الرغبة العارمة،التي سبقت الإشارة إليها،في تغيير كل ماهو متخلف ورديء في هذا الوجود، والإصرار على أن تواصل المسيرة الإنسانية طريقها إلى غاياتها النبيلة مكتسحة كل ما يعترض سبيلها. فإنه داخل هذا الإطار العام تتعانق مجموعة من الأبعاد النفسية والفكرية والشعورية،التي يتألف من امتزاجها وتلاحمها نسيج الرؤية الشعرية في هذا الديوان. ونستطيع أن نميز في هذه الرؤية بين ثلاثة أبعاد هي البعد الديني،والبعد

---

(1) صابر عبد الدايم- محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة- دار المعارف- مصر-1984م-ص203.

(2) المرجع نفسه- ص203.

(3) المرجع نفسه - ص231-232.

(4) عبده بدوي هذا العدد من الشعر مجلة الشعر ص4.

(5) قراءات في شعرنا المعاصر دار العروبة الكويت ط1 1982م ص19.

الاجتماعي، والبعد القومي، وهذه الأبعاد الثلاثة تمتزج بعضهامع بعض امتزاجا عميقا،بحيث يبسط كل منها ظلالا من ملامحه على الآخرين. >>(1)

لكن ماينبغي أن نشير إليه هو قضية الغموض في شعره، والتي حسبها البعض كمحمد مندور ومحمد النويهي، من القضايا التي أدّت إلى اضطراب وغموض وتعقيد شعره أو رؤيته الشعرية.

وإن كان للغموض جوانبه السلبية، فإنه ليس في أغلب الأحوال،وخاصة إذا وجدت المبررات المنطقية والموضوعية لذلك. ولهذا حاول البعض أن ينظر إلى قضية الغموض في شعره نظرة أخرى تخدم خصوصية وتفرد رؤيته الشعرية. يرى الدكتور "محمد رضوان" أن << في شعره غموضا لاريب، وإنك لتجهد نفسك في بعض ما تقرأ من شعره لتدرك أبعاد الصورة التي أراد رسمها، وقد لا تدركها وربما تدركها. ولكن الذي لا شك فيه أن هناك تجربة انفعل الشاعر بها، وأراد أن يعبر عنها فعبر وسواء أحملت إليك عباراته تجربته واضحة أم لم تحملها. فإن المسألة تغدو مسألة لغة وإغراب فحسب. أما الشاعر فهو لاريب صادق مع نفسه، بل إني أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول أن محمود حسن إسماعيل نفسه، لو طلب منه توضيح بعض الصور والأحيلة التي يضمنها شعره لعجز عن الإنابة والإفصاح.>>(2)

ويعلل ذلك الغموض بابتعاد القارئ الحديث عن اللغة التراثية، والتي أصبحت بالنسبة إليه لغة غامضة. لكن محمود حسن إسماعيل توغل في عالم اللغة التراثي من خلال قراءاته للشعر القديم،خاصة لغة أبي تمام التي امتازت هي أيضا بالغموض على المستوى الدلالي التعبيري أو المستوى التصويري الخيالي. يقول << حينما أنظر إلى قضية الغموض والإغراب في شعر محمود حسن إسماعيل. فإني أرجو ألا أكون متجنيا عليه إذا أرجعت لهذا الغموض بالإضافة إلى طبيعة التكوين النفسي للشاعر والظروف التي ألّمت به بالطبع إلى تأثره بالشاعر أبي تمام الطائي. إنني صاحبت محمودا سنوات، وأذكر أنني في خلال هذه السنوات لم أكن أراه إلا وفي يده ديوان أبي تمام، يقرأ فيها ويحفظ منه، حين يصبح وحين يمسي. وأكبر ظني أن محمودا كان قد قرأ لابن الأثير قوله في أبي تمام << ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير. ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير، فمن حفظ شعر الرجل، وكشف عن غامضه، وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام، وكان قوله في البلاغة ماقالت حذام.>>(3)

وهذ الغموض إذن يعود إلى حصيلة فنية فيه وكذلك إلى حصيلة تراثية،ولا يعود إلى تأثره بإحدى المذاهب كالرمزية والسريالية، ولا إلى دعاة الشعر الحر،وما تميز به شعرهم من غموض وإبهام.فهو << غموض يختلف كل الاختلاف عمّا يطلع به علينا بعض الشعراء المحدثين ويسمونه (الشعر الحر)، تقرؤه فإذا الإبهام

---

(1) المرجع السابق- ص33.

(2) قضية الغموض في شعر محمود حسن إسماعيل مجلة الثقافة ص54 55.

(3) المرجع نفسه ص55 .

والغموض، وتجهد ذهنك فلا تحصل على شيء. لا بسبب أنك عاجز على فهم معنى ماقيل، ولكن بسبب أن ماقيل ليس له معنى لكي يفهم.>>(1)

كما أكدّ ذلك صديقه "عبد الحميد الحديدي" بقوله: << كنت قد لاحظت بعض صور سريالية في أغاني الكوخ، وكانت السريالية شيئا جديدا علينا. سألته عن سر الغموض في معاني بعض تراكيبه، ففي أن بها غموضا، قلت إذن فأنت "سيريالي". وارتعشت جفونه مستفهما. قلت إنك تلجأ إلى تعبيرات مما يسمى "ما وراء الواقع"، لم يجب محمود بأكثر من ابتسامة صغيرة، سألته عمن يقرأ من الشعراء الفرنسيين أوالإنجليز. وكم كانت دهشتي عندما أجاب بأنه لايقرأ لهم،لأنه لايعرف لغة أجنبية. أصيل هو إذن محمود حسن إسماعيل، إنه لايقلد أحدا من الأجانب إنه ينبع من ذاته. وعلمت أنني أمام شاعر ملهم حساس، يمتلك ناصية المعاني، قادر على التعبير الجميل العامض أحيانا. ولعل هذا الغموض هو سر عبقرية محمود حسن إسماعيل. لقد كان محمود ذاته شيئا غامضا بالنسبة للكثيرين أوبالنسبة لأولئك الذين عجزوا عن فهم شيء عابوه،فإن عجزوا عن فهم إنسان سحروا منه.>>(2)

وبهذا كان الغموض سر من أسرار عبقريته الشعرية، وعالمه الشعري المتفرد الملامح. وإن فرض صعوبته على القارئ فإن ذلك شأن شاعر عظيم، ولهذا << فالقدرة على استيعاب الكشوف الفنية والروحية للشاعر العظيم،لايتيسر إلا لقارئ ينشد في الشعر شيئا أعمق من المتعة السطحية العابرة التي تحققها دغدغة الأسماع بأوزان مطربة لاتعنى إلا كل ماهو عادي ومبتذل من الرؤى والأحيلة والأحاسيس والأفكار. قارئ يوقن أن قراءة الشعر الحقيقي نوع من المشاركة في إبداعه، ومن ثم فإن هذه القراءة تتطلب قدرا من الجهد والمعاناة معادلا،لما بذل الشاعر منهما في سبيل تشكيل ملامح هذا العالم الفريد حتى يتمكن القارئ أن يكتشف أسرار هذا العالم.>>(3)

ومثل هذا الشعر يصدق على الشاعر محمود حسن إسماعيل،كما يؤكد ذلك الدكتور "علي عشري زايد." <<ولعل هذا هو سر ما يشعر به القارئ العجل لشعر محمود حسن إسماعيل من إحباط، حين ينشد في هذا الشعر فكرة جاهزة بسيطة، أو ثمرة دانية يقطفها وتمضي إلى حال سبيله. فشعر محمود حسن إسماعيل ومثله كل شعر حقيقي لايقدم لمثل هذا القارئ. وما أكثره بين جماهير قرائنا ما ينشده من فائدة سطحية سهلة وسريعة. ولهذا شاع عن هذا الشعر أنه غامض، وأصبحت هذه التهمة حاجزا تحول بين عدد كبير من القراء وبين الولوج إلى عالم من أثرى العوالم وأحفلها بالشعر الحقيقي العظيم.>>(4)

---

(1) المرجع السابق- ص56.

(2) الصديق الذي فقدته- مجلة الثقافة- ص68 69.

(3) علي عشري زايد- قراءات في شعرنا المعاصر- ص19 20.

(4) المرجع نفسه- ص20.

الـــفـــصـــل الأول

الـــــرؤية الـــــروحـية

- توطـــــئـــــة.

- الـــمـــبـــحث الأول : بيـــن الروح والـــنـــفس.

-الـــمـــبحث الـثانـي : الـــتـــذكـــير.

-الـــمـــبحث الثالـث : الـتـذكـــــر.

-الـــمـــبحث الـرابـــع : الـــــذكـــر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تـــوطـــئـــة :

في القرآن الكريم تبيّن أن من المخلوق الإنساني الذي هو جزء من ملكوت الله يمكن أن يستدل به على الله عز شأنه، ومن هذا الاستدلال يكون الإيمان بعظمة الخالق. فآيات كثيرة كما تدعو إلى التأمل في هذا الملكوت، تدعو إلى التأمل في النفوس أو الأنفس، وقد قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (1)، ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(2)

وتفتح هاتان الآيتان معرضين هائلين على مصرعيهما لمن يريد أن يبصر، ولمن يريد أن يستقين. فهذا الكوكب الذي نعيش عليه معرض هائل لآيات الله وعجائب صنعه. ومثل هذا المعرض معرض آخر مكنون فينا هو النفس الإنسانية، الخفية الأسرار التي تنطوي فيها أسرار هذا الوجود كله، لا أسرار الكوكب الأرضي وحده.(3)

فدعوة القرآن الكريم إلى أن نبصر في أنفسنا، هي دعوة إلى تلمس الأدلة من أقرب الأشياء إلينا، وألصقها بوجودنا المادي والروحي، ومقابلة ومواراة عالمنا المجرد -أي عالم النفس الإنسانية- بعالمنا المشهود ليس <<مجرد صدفة، إنها على العكس-تلفتنا لفتا قويا إلى أن عالم النفس، حين نتأمله، يكشف لنا عن نفس الأدلة والبراهين، التي تتكشف لنا في العالم الأكبر، وذلك أن الإنسان ذلك الجرم الضئيل قد تمثلت فيه كل مقومات العالم الأكبر، فإذا أدرك الإنسان نفسه، أدرك العالم من حوله ومن فوقه ومن تحته، ووجد في نفسه دليلا على الموجد المبدع سبحانه، ودليلا على قدرته المعجزة، ودليلا على تدبيره الحكيم.>>(4)

إذن فالتأمل في النفس طريق لمعرفة الله، هذه المعرفة التي أكدها الرسول صلى الله عليه وسلم في صورة أكثر تحقيقا للغاية القرآنية، وتحديدا وتعطيلا للمفهوم القرآني ﴿ فمن عرف نفسه عرف ربه.﴾(5)

فإذا أدرك الإنسان أن كل ما في هذا الكون الفسيح، المترامي الأطراف هو من فيض رحمته ونعمته، ومظهر قدرته، وهو كون على الرغم ما فيه من عظمة وجلال خاضع كله لسلطان الله وتدبيره وهيمنته. فإذا اكتملت له هذه الحقيقة، ثم نظر إلى نفسه من خلال هذا الكون، وقاسها عليه، ماذا يرى؟ وماذا يمكن أن يدعي لنفسه؟ إنه يدرك حقيقة وجوده، وجوهر نفسه، لما يوقن بأنه ذرة من ذرات هذا الوجود، تدور عليه حكمة إلهه، وهو مع بقية الموجودات خلق ليعبد الله وقد قال تعالى ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ

---

(1) فصلت-53 .

(2) الذاريات-20-21.

(3) سيد قطب- في ظلال القرآن- دار الشروق- القاهرة- ط12-(1406هـ-1986م)-ج27- ص3378 .

(4) عزالدين إسماعيل-نصوص قرآنية في النفس الإنسانية-دار النهضة العربية-بيروت-ص152-153.

(5) العجلوني- كشف الخفاء ومزيل الإلباس- صححه أحمد القلاش- مؤسسة الرسالة- بيروت- ط4-(1405هـ-1985م)-ج2-ص343.

عبدا﴾[1] ونعمة اليقين ولمسة الإيمان هي التي تعني في نفسه معنى العبادة. ففي آية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] يتضح معنى الفرار إلى الله، باحتواء هذا النص الصغير حقيقة ضخمة هائلة من أضخم الحقائق الكونية، التي لا تستقيم حياة البشر بدون إدراكها واستيفائها. وهي بلا شك حقيقة العبادة التي تقرر جوهر الإنسان باستقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور على أن هناك عبدا وربا، عبدا يعبد، وربا يعبد، وأن ليس في هذا الوجود إلا رب واحد، والكل له عبيد، التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.[3]

وتتشعب هذه العلاقة الروحية، وتتخذ شتى المسالك الغامضة والشائكة لارتباطها بالله بأعظم أسراره وآياته، وحقائقه وغيبياته... وبالإنسان ومكوناته الظاهرة من سمع وبصر وحس... وغير الظاهرة من عقل ونفس وروح... هذه المكونات هي التي تجسد وتشكل الإنسان أو الذات الإنسانية كما اصطلح عليها العقاد- على أنها << جملة القوى من النفس والعقل والروح. وتدل كل قوة منها على الذات الإنسانية في حالة من حالاتها ولا تتعدد الذات الإنسانية بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل، فإنما هي إنسان واحد في جميع هذه الحالات.>>[4]

وترتب هذه القوى وفق الهدي القرآني لتكون الروح أقرب إلى الحياة الغيبية الباقية، التي استأثرت بعلم الله وحده ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[5]. أما النفس فهي أقرب إلى المدارك الحسية باشتمالها على الطبع والغريزة، والقوة والإرادة، والوعي واللاوعي، والتقوى والفجور، والخير والشر، والهدي والضلال، والحسنة والسيئة، والتوبة والإثم، ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة ومستلهم هداية الروح، والإنسان في أحسن المواقع والمراتب لما << يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز ودوافع الحياة، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء، وسر الوجود الدائم.. وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود، ولكنه لا يدرك الحقيقة كنهها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام.>>[6]

ويبسط القرآن الكريم الحديث عن النفس، على أنها أهم ما في الإنسان، فشخصها وجعلها الكائن الذي يتلخص فيه وجود الإنسان وجوهره..بل هي الإنسان << بكل مشخصاته من علم وجهل، وإيمان وكفر،

---

(1) مريم -93.

(2) الذاريات-56.

(3) سيد قطب-في ظلال القرآن- ج27- ص3386-3387.

(4) عباس محمود العقاد-الإنسان في القرآن الكريم-منشورات المكتبة العربية-بيروت-ص33.

(5) الإسراء-85.

(6) المرجع نفسه ص35.

وهدى وضلال، فإلى النفس ينسب الإنسان كل عمل يعمله من خير أوشر، وإلى النفس يتوجه الثواب والعقاب الذي يستحقه.>>[1] كما قسمها حسب صفاتها وقواها وتأثيرها وسلطانها إلى النفس الأمارة والنفس اللوامة والنفس المطمئنة. هذه الأنفس الثلاثة تعيش مع أي إنسان، لتقوى نفس وتضعف أخرى، وتطفو نفس وتخفت أخرى، وتؤمن نفس وتضل أخرى، وتعبد نفس وتتمرد أخرى. فهذا الارتفاع والهبوط النفسي الذي يحدد معاني الاختبار والاعتبار والتأهيل والتكريم الإنساني. ويوجه المسار والمصير الإنساني نحو الله، ويبرز كثيرا من القيم الروحية التي تحقق في النهاية غاية الوجود الإنساني ألا وهي العبادة.

لنقف قليلا مع كل نفس لنصل إلى المقصود الإلهي، ولنتأمل السر والحكمة من هذا التنوع والتدرج والصراع الذي يلون ويساور ويتنازع كيان واحد ونفس واحدة هي الإنسان ، هي النفس الأمارة، التي يشير إليها قوله تعالى ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيَ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ.﴾[2]. وهي النفس التي يملؤها الهوى، ويستبد بها الضلال، وتظهر إذا ترك لها الحبل على الغارب، دون حراسة أو هداية، ولا تجد منها صاحبها إلا وسوسة من شيطان أو إغراء أو منكر أو سوء... ومن هنا كان يجب مراقبتها ومحاسبتها بكل يقظة وحكمة بالاتصال الوثيق والدائم بالله، وإلا عربدت وتشردت وانقادت إلى الوساوس والأهواء[3]، وقد قال تعالى ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾[4].

والنفس اللوامة، هي التي أقسم بها سبحانه في قوله تعالى ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ،وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾[5].وهذا القسم هو تنويه بها، ورفع لقدرها وهي متلبسة بحالة اللوم. وهذه النفس لا تسكن إلا قلب المؤمن بالله، المراقب لجلاله،﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا، فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[6]،وهي نفس طيبة إذا اقترف صاحبها إثما أو منكرا، هاجت واضطربت، وراحت تلح على صاحبها بسياط الحسرة واللوم، فلا تدعه أبدا حتى يلقي ربه خائفا نادما، راجيا عفوه، فيخف مسرعا إلى مصالحة ربه بالتوبة إليه والاستغفار لذنبه ولما فرط منه، وإذ ذاك يلقاه الله تعالى ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ﴾[7]

والنفس المطمئنة هي التي سكنت واطمأنت، حين وصلت وجودها بربها، وهي التي تجاوزت ريح الأهواء ونزعات الشيطان، فيأمن الإنسان معها من أن تضطرب سفينة حياته حتى تبلغ عالم الآخرة والخلود.

---

(1) عبد الكريم الخطيب-الإنسان في القرآن الكريم-دار الفكر- ص91 .

(2) يوسف-53.

(3) انظر-المرجع نفسه-ص53 .

(4) طه-122 .

(5) القيامة-1-2 .

(6) الأعراف-201 .

(7) طه-82 .

وقد قال تعالى ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾(1)

وكل هذه النفوس، تمثل في مجموعها حقيقة النفس الإنسانية وهي نفس واحدة، هي الإنسان بكل مكوناته ومقوماته وتصوراته وغاياته، وقد وضحها القرآن أيضا في آيات كثيرة منها ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾(2) ﴿ونَضَعُ الْمَوَازِينَ بِالْقِسْطِ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾(3) ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾(4) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(5)

وتظل النفس المطمئنة هاجسا روحيا دائما للإنسان، للشعور حتى ببعض الإطمئنان والرضا والصفاء، والتجرد والتحلي والاشراق من أجل الوصول إلى الله، وإلى مقام عبوديته، وهذا لن يكون بمجاهدة النفس الأمارة ومؤانسة النفس اللوامة، والالتحام معها في كل لحظة التحاما روحيا حتى يقترب من ضفاف النور... ويصل إلى تزكية نفسه وتطهيرها << وهو يغتسل من نور الله الفائض، ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود.>>(6)

فهذا الاقتراب والوصول إلى أقدس مطاف، لن يتأتى بيسر دون مكاشفة ومواجهة ومجاهدة النفس في أصغر وأكبر نقاط تواجدها وتحركها وتوجهها، ودون تزكيتها كمدلول أشد احتكاكا بالنفس حسيا ومعنويا...

فتزكية النفس هي تهذيبها وتطهيرها حتى تصير إلى صفاء فطرتها وجوهرها وحتى تكون بنمائها واكتمالها أملا للعبودية، متأهبة للوصول إلى الله مترشحة بهذا التسامي لقبول الله ورضوانه.

إن الحديث عن النفس بهذا المفهوم القرآني، يجعلنا نبتعد عن مقولات الفلاسفة والمتصوفة وآرائهم المختلفة في النفس الإنسانية، لأن نظرهم نظرا قائما على الاستدلال العقلي والقياس المنطقي أو العاطفي.

ولكن هذا لا يجعلنا ننكر الأثر الفلسفي والصوفي على الشعراء ومفهومهم للنفس إلى جانب الأثر الديني عند بعضهم. ففي كثير من الدواوين الشعرية القديمة، عثرنا على أشعار تتحدث على النفس وأصلها وجوهرها وماهيتها ومآلها، وفي معظمها لا تفرق بين الروح والنفس، بل آنا توحدهما وآنا آخر تفصلهما، فكلتاهما جوهر واحد مجرد عن الحس، فالنفس أو الروح هي المحرك الأول في الإنسان، والدافع الأعلى للحياة المثلى، وهي أبدا في اصطراع مع الجسد، تجذبه إلى جوهرها الأعلى وهو بدوره يجذبها إلى معدنه الترابي، وبفضل هذا

---

(1) الفجر-27-30 .

(2) المدثر-38 .

(3) الأنبياء-47 .

(4) الانفطار-5 .

(5) الرعد-11 .

(6) في ظلال القرآن- ج30ص 18-39

الصراع الروحي يتسنى للإنسان أن يرقى إلى درجة الإنسانية العليا. وقد عبرت أكثر أشعار الزهاد والمتصوفة عن هذه النفس أو الروح كقوة واحدة قاهرة، تسافر في مسلك شاق وطويل حتى تبلغ الله حيث الطهر والنقاء وحيث الفناء والبقاء. بل بلغت عند بعضهم بطهرها وارتفاعها ونموها الروحي الكمال الإنساني الذي يماثل الكمال الإلهي واتحدت بالذات الإلهية الكبرى، وأصبحت عالمة عارفة بأسرار الكون والكائنات وكان الاتحاد غايتهم القصوى(1).

أما الأشعار الحديثة فقد استمدت في تصورها للنفس من رصيد فلسفي أكبر أوجدته الاتجاهات والتيارات الفكرية والفلسفية الغربية التي أثرت في أدبنا وطغت على رصيدنا الديني. وبدت كثير من المواقف المتناقضة والمضطربة والتساؤلات الحائرة حول النفس، وتشعبت في اتجاهات، بلغت من التطرف والمغالاة ما لم يصل إليه حتى بعض شعرائنا القدامى الذين عرفوا بذلك ووصلت في النهاية إلى سراب وطلاسم(2).

وفي ضوء تحليلنا لبعض الأسس النظرية للرؤية الإسلامية للنفس وأحوالها وصفاتها وسبل تزكيتها، يمكننا أن نتساءل ما علاقة هذه الرؤى النظرية برؤية محمود حسن اسماعيل؟ وماهي الأنماط النفسية والروحية في شعره؟ وما موقفه الشعري من بين الشعراء القدماء أو المحدثين الذين أطالوا التأمل في المجردات والغيبيات - وبخاصة الصوفيين-؟.

وباستقرائنا المتأني لشعره، استطعنا تحديد البعد العقدي للشاعر باعتناقه الشعوري والشعري لتلك الرؤى وارتشافه الفطري والإيماني من ذلك النبع الروحي. وكانت تلك الرؤى النظرية مسالك فنية انتهجها من أجل معرفة نفسه، وسرّ شوقها الروحي من أجل الوصول إلى الله.

لكن قبل توضيح محاور رؤيته الروحية، لا بد أن نوضح قضية خطيرة أثارها بعض النقاد وهي أن شعره التأملي في النفس والغيب والكون والحياة اتخذ طابعا وجوديا(3) على أساس أنه تأثر بالمذهب الوجودي الغربي(4) كغيره من أدباء وشعراء عصره.

ومن مظاهر الوجودية الأساسية التي تنعكس على الفرد الوجودي، الشعور الحاد بالعدم والعبث والقلق والضياع، وهذا الشعور يمنحه عدم جدوى الحياة والقيم ويجعله يعيش في عالم غير معقول بلا هدف ولا تصور، نزعته الفوضى والغموض.

---

(1) انظر-ثريا عبد الفتاح ملحس-القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه- دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان- ص576-277.

(2) انظر- المرجع نفسه-ص-234-260.

(3) انظر المدخل -مبحث رؤيته من خلال آراء بعض النقاد والدارسين.

(4) انظر-محمد غنيمي هلال-سمات المذهب الوجودي -الأدب المقارن-ص405-409.

ويتحدد اتجاه مظاهر الوجودية الخطر في هدمها لفكرة الإله، واتساع عملية الهدم التي تقوم بها على هذا النحو المخيف الذي يمتد إلى فكرة الألوهية ذاتها، وتضليلها للفكر الإنساني على أنها فلسفة الخلاص من مشاكل الإنسانية المعقدة بثورتها العارمة ضد الدين والمجتمع والقيم والأخلاق والفلسفات الأخرى. وكان موقفها في النهاية من مشكلة التناقضات الداخلية في الذات الإنسانية موقفا سلبيا، لأنها بدلا من أن تقضي على هذه التناقضات بتوحيد عنصري الروح والمادة، فإنها أنكرت القيم الروحية وبهذا شوهت الإنسان(1).

ويذهب الناقد شكري عياد إلى أن محمود حسن اسماعيل قد انتهى في ديوانه "أين المفر" إلى نوع من الشعور بعبثية الوجود. "فالسر" الذي طالما متّى نفسه بإدراكه ينفلت منه دوما، ويبقى حيث هو، وحكم عليه بذلك من خلال العديد من قصائده خاصة التي ختم بها الديوان "عرفت السر" التي ذكرته بأسطورة سيزيف، ذلك البطل اليوناني الذي حكمت عليه الأقدار بأن يظل يدحرج الصخرة إلى أعلى بقوة ولكنها لا تبلغ قمة الجبل أبدا بل تنحدر دائما إلى السفح ليعاود محاولته العقيمة. ورأى أن المفكر الوجودي "ألبير كامي" هو الذي أحيا هذه الأسطورة، وأصبحت جزءا من التصور الوجودي للحياة الإنسانية والمصير الإنساني، وتلقفها شعراؤنا - ومنهم محمود حسن اسماعيل- فأصبح معنى متداولا بينهم كالوقوف على الأطلال عند الشعراء القدماء(2).

ولكن تلك المقطوعة الشعرية أو غيرها في الديوان لم تعبر عن حيرة الشاعر وعبثيته أو شكه في حقائق الغيب والوجود وصيرورة الحياة، بل كانت محاولة إنسانية لمعرفة كل أسرار الغيب واستغلاق بعضها أمامه، جعله يدرك المدى المحدد للإدراك البشري وأي محاولة لاقتحام كل الأسرار الغيبية، ستوقع أي إنسان في بحث غير مجد وتتركه يغبو حولها إذ يقول :

ولمّا دهاني السرُّ دارت ونوّحتْ - سوَاقي على قلبي بنائحها الغَيْبُ
وهبَّ الضَّريرُ المشتكي وتلفّتت - له نظرةٌ يكبو الضياءُ ولا تكْبُو
ورفَّ جَناحٌ كان في القيد صارخا - وحلّقَ لا يبْرُ هناك ولا حُجْبُ
ونوّرَ لَيْلٌ كانَ أعْمَى بِلاَ عَتَمَا - بهاوية تهْشُ الأفاعي لها دربُ
وأومأتُ... حتى كِدْتُ أعرفُ،فارتمتْ- تَمِيني.. وإنّي لا أزالُ هنا أحبُو..(3)

وإحساس الشاعر بالقصور والعجز عن بلوغ كل تلك الأسرار، وتجاوز حدود إدراكه أكده في مقطوعة أخرى " بكاء الرماد". فبعدم تحدد الأمل في إدراك تلك المجاهيل والأسرار يتمنى لو ينفصل من عالم الطين- أي الأرض- ليطلع نحو الروح -أي السماء- ويتكشف له حجاب الغيب، ولكنه خانته "إماءة الثرى" كما

---

(1) انظر- عماد الدين خليل-في النقد الإسلامي المعاصر-ص166-167 .

(2) الرؤيا المقيدة-ص76.

(3) أين المفر-ص170.

ظل في المقطوعة السابقة حيث هو "نجبو" :

وما أنا إلاّ شُعاعٌ غـــريبٌ - تألقَ بين جُـــفـــون العَـذابْ
له نَفْثَةٌ من وراءِ السّديـــــم - تثورُ على الأرضِ حُزنَ التُّرابْ
له نشوةٌ في الأسَى والعذاب - أما أيّ خمرٍ بهذا العـــــذابْ!
تَوهّجَ حتى بكاهُ الرّمـــادُ - وأغْـفَى فحُنّ عليـه السّحابْ
يلومونَ فيه اشتعالَ الغَيـــاءِ - وهل يَملكُ النارَ قلبُ الشّهابْ
تطلّعَ إشْـــرافَهُ للسّمـــاءِ - فأوْشكَ أنْ يَسْتَشِفَ الحجابْ
وحَـــانتْهُ إيـــمانةٌ للثرى - فلم يَلْقَ إلاّ الدّجى والخَـــرابْ
فظلّ على نـــارِه والهـــبا - يُدَمْدِمُ كالـــمَوْجِ بين العُبَابْ
حزينٌ وتضحـــكُ آهـــاتُـــه - شقيٌّ ويُلْهيه سحرُ الشّبابْ
يعيشُ على الوهمِ في عَـالَـمٍ - يُجَسّدُ للطّينِ وَهْمَ السّرابْ(1)

وهذا الإحساس ليس بالضرورة إحساسا ذا منحى وجودي، إلاّ لا نعتبره مرحلة من مراحل تطور وعيه الشعري القائم على التضخم والتطلع والألم النفسي، وهو في محاولة معانقة أسرار الوجود، انتقل بها إلى مرحلة أخرى عثر فيها على إجابات روحية عميقة عن تساؤلاته الحائرة في ديوان "أين المفر" نفسه -الذي اعتبره شكري عياد ديوانا وجوديا؟فمعظم قصائد الديوان عبرت عن حالات صوفية للشاعر متحرقة ووالهة شوقا إلى المعرفة وأكتناه أسرارها من أجل الوصول إلى حقائقها الكبرى، ففي قصيدة "العزلة" مثلا دفعه هذا الشوق إلى العزلة والوحدة لما فيها من رهبة وتأمل، فعزلته النفسية وهيجان أفكاره وتداعيها تحققت في ركن هادئ من روضة حافلة بخمائلها وحدائقها وطيورها وعطورها والتي تحولت فيما بعد إلى رموز كشفت عن حقيقة الشوق الروحي إلى الغيب:

في رَوْضَةٍ مِعْطارْ
تَفْضَلُ بالتّذْكـارْ
هاجَتْ بها الأفكارْ - ثائرًا على قلبي
فيها جَناحُ طَـارْ
وعِطْرُ أيْكٍ ثَـارْ
وجَدْوَلٌ هَـدّارْ - يَجْري بلا سَكَبِ...
حَمِيلُها حرّانْ

---

(1) أين المفر-ص125 .

(2) المصدر نفسه-ص33-34 .

وَتبعُها ظَمْآنْ
وَصمْتُها وَلْهَانْ - شَوْقًا إلى الـغَيْبِ[1].

وسرعان ما تحلت حالته بتفجر الأسرار من تلك الروضة التي لم يكن واقع العزلة والتأمل في أحضانها واقعا عبثيا وعدميا، بل كان << ذلك الميزان الذي يسجل ما في الوحدة من مظاهر الرهبة والصمت والرغبة في اختراق حجب الغيب وبطء النقلة في خطوات الزمن وامتلاء الجو بالأسرار واستجابة الوجدان لدعاء مجهول، يوحي بالتعبد والصلاة.>>[2] حيث يعلن على عثوره على مفتاح تلك الأسرار عند الله الذي بيده كل سر خفي وظاهر. ويدعو ليطلق سراح نفسه بعد قيود من الضلال الإنساني، وبذلك يكون قد ابتعد عن حيرة وضياع الوجوديين، يقول:

تَفجَّرَتْ أَنْهارْ
فيها منَ الأَسْرارْ
تَجْري بِها إعْصارْ - في عَالَمِ الرَّحْبِ...
وَهذه أطْيارْ
يا نَفْسُ أم أَوْكارْ
لاَذَتْ بها الأَشْرارْ - مِنْ رَوْعَةِ الخَطْبِ؟...
أَطْلقتُ فيكِ الرُّوحْ
كَطَائِرٍ مَجْرُوحْ
فَعَادَ كالمَتْنْبُوحْ - مُلقًى عَلَى التُّرْبِ
عُمْري غَرِيبٌ تَاهْ
ضَلَّتْ بِهِ دُنْيَاهْ
مِنْ سِجْنِهِ الأَوَّاهْ - أَطْلِقْهُ يَا رَبِّي..[3]

على الرغم من محاولة شكري عياد إقحام الشاعر في اتجاه وجودي من خلال تأكيد الفكرة العبثية في عدد من قصائده في ديوان "أين المفر"، أثار في ديوانه "قاب قوسين" أيضا فكرة القلق الوجودي من خلال قصيدته "على ذراع الريح" التي يصور كما يرى- منطلقه وتصوره الوجودي القلق قائلا:

عَلَى ذِرَاعِ الرِّيحْ
لِي مَخْدَعٌ مُرِيحْ

---

(1) المصدر السابق ص33-34.

(2) محمد علي هدية- شعر محمود حسن إسماعيل- دراسة فنية- ص161- نقلا عن مقال لأنور المعداوي- مجلة الرسالة- ع786- 1948م.

(3) أين المفر- ص34-41.

وروزق جريح
شراعه حرق
وسبحه غرق
طول المدى يصيح
لشاطيء القلق
قلق.. قلق.. قلق[1]

ونلاحظ أن الناقد فرض مصطلح القلق الوجودي على الشاعر فرضا، فهو مصطلح له شروطه ودواعيه التي لم تتلاءم مع قلق الشاعر. مما أوقعته تعليقاته في تناقض حيث يرى أنه قلق ممتع وخصب، ولابأس إن تباعد السرّ، فهناك دائما الأمل في الرنو إلى حقيقة السر التي ينشدها ماثلة في الحياة والأحياء، وفي مظاهر الوجود المتغير، إذ يقر بأن هذا القلق أوصله إلى الإيمان لكنه ليس إيمانا ميتافيزقيا -أي وجوديا- بل إيمان صوفي، وهما مختلفان، لأن الإيمان الصوفي نفسي محض لا يضع المطلق فوق الظواهر، بل يلمحه من خلال الظواهر، ومن خلال التجارب الحيوية، ويغوص إليه في أغوار الذات[2]. ونسي أن من يصل إلى هذا الإيمان عن طريق الناموس الإلهي الذي يسري في النفوس والموجودات لا يمكن أن يصاب بقلق وجودي. ويبقى القلق ملازما للنفس حتى يتم الحصول على نصيب من المعرفة يمنح لها الإيمان الذي يظل شوقا ملحّا إلى كشف النقاب عن وجه الحق وسعي دائب للوصول إليه، وقلق مستبد بين اليأس والرجاء وحيرة قائمة بين الشك واليقين دون أن ينقلب إلى انفعال داخلي قائم على الشك الغامض والألم الكئيب. ولا ضير أن تصاحب الإنسان << نوازع نفسية تدعو إلى البحث عن الله، وهو إذ يستجيب لهذه النوازع يستلهم كل قواه ويستحذم كل ملكاته، ولست تراه متلبسا بالحيرة والقلق واللهفة إلى أن يجد الله على أية صورة وإلى أن يتعرف إليه على أي حال.>>[3].

والشاعر -كأي إنسان غير عادي- << أحس بأزمة روحية فانطلق يعبر عما يجيش به صدره يغني التحرر من أسرار النفس ونار الأصفاد ويدفعه حنينه الملتهب لمعرفة الحقيقة وأشواقه الظمآى لكأس المعرفة وثورة نفسه العارمة للاهتداء إلى السر العميق.>>[4] حيث وجد نفسه في إصرار شفاف وعميق للمضي في رحلة البحث

---

(1) قاب قوسين- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر-ط1-1964م-ص201-202.

(2) الرؤيا المفيدة-ص78-79.

(3) د/ عبد الكريم الخطيب-الله ذاتا وموضوعا- -دار الفكر العربي-ط3- 1983م- ص 295 .

(4) صابر عبد الدايم-محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة-ص261.

عن السر من أولى دواوينه وتكبر فضاءات البحث بانتقاله الروحي من مرحلة إلى مرحلة أخرى وباتساع رؤيته من ديوان إلى ديوان آخر. وكان إرساؤه الروحي بعد العثور على السر وبعد صراع حقيقي نشأ من نفس واعية، لم تبدد طاقاتها وأسئلتها عبثا في صراع داخلي لا طائل من ورائه، وعبوت آخر مقطوعة في ديوان "قاب قوسين" " أنا والسر" عن ذلك الإرساء الروحي - والتي تجاهلها شكري عياد- :

أنَـا والـتّائِهُ، والـحياة
ومِـسَرُّ في طَـوايا النّفوسُ يَخفِيه بَرقعْ
كُـلّمَا سلّهُ شُعَاعِي من السَّلبِل
عـلى مَوْضِعٍ، يُداريه مَوْضِـعْ
لسْتُ في حَيْـرةٍ، ولا في وقوفٍ
فمَعَ اللّـهِ نَظْرتي تتطـلّـعْ..
كُلّمَا فَرّ طائِـرٌ، حاصَرتْهُ..
فأتَـاها من حالِكِ الّليْه يَخْشَعُ
هَـدْأةً... وانطِـلاقةً...
وإذا الـنـورُ عَلى الـتّرَبّ...
يَسْتَـهِلُ، ويَسْـتَطِعْ(1)

وعثور الشاعر على السر منحه تصورا إيمانيا للتطلع الدائم نحو الحقيقة، حقيقة الله والكون والإنسان والحياة. وكان منطلقا شاملا لمسار رؤيته الإسلامية في كل شعره. وتجلت روح محمود حسن اسماعيل عميقة ضارعة في رحاب الكون والنفس في حل دواوينه وانضحت ثلاثة أقانيم كبرى جمعت محاور رؤاه الشعرية هي السر والنور والرق << فهو الباحث عن السر، وهو المشتاق إلى النور، وهو الظامئ إلى الخلاص من الرق. ونشأ ذلك من ثورة محمود حسن اسماعيل على ذاته وطموحه في معرفة سر الحقيقة التائهة في بيداء الحياة وانشغال محمود حسن اسماعيل بذاته أدى إلى الشعور بأنه سجين ذاته ومن ثم إلى محاولة تدميرهذا السجن والالتحام بسر الوجود الأعظم وهذه نغمة تتردد في دواوينه كلها وهي من أصدق نغماته وأقربها إلى النفس.>>(2)

وسعى إلى أن يخلق عالما من التوحد بين الكون والذات والله، وهو عالم من الذوبان الصوفي الذي تتحلل فيه هذه الموجودات الكبرى، وتتحول بالتأمل إلى تواصل وتوحد شفاف. وأدى به الإحساس بعمقها إلى رؤية تستبطن النفس والوجود معا، وتسعى إلى كشف السر المحجوب في الذات الإنسانية. وكان تأمله وانعزاله طريقا للصفاء الروحي والرؤيا الأعمق وقد << تحركت الرؤيا وتخلصت من الكيان المادي، لتتحد الذات مع

---

(1) قاب قوسين-ص242.

(2) صابر عبد الدايم- محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة ص268.

المبحث الأول
بين الروح والنفس

1- الروح.

2- النفس.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الموضوع في حقيقة نفسية روحية، وأصبحت الذات طرفي السر الأعظم>>(1).

وحقق من خلال رؤيته توازنه النفسي والروحي << بتقديم بواعث حياة حقيقية، تسير حياته وتهدئ من روعه وتساعده على تحمل الحياة أو بعبارة أخرى تجعله يعيش الحياة بامتلاء.>>(2).وانهمك في عملية الخلق الشعري ليصور شعورا بالنفس قويا وملحا مؤرقا ومعذبا، حادا ومتيقظا، ممتعا وعذبا، معتدلا ومؤمنا، ويعبر عن حالاتها الروحية قبل أن تتلاشى وتنطفئ في أعماقه. وتذيل حياته المقيدة بالأجل والزمن وليلبس نفسه شكلا موقعا ومتلألئا << فالروح تعيش فقط حين تجد جسما جديدا، والشاعر عليه أن يبتدع وسيلة فنية وصورا حسية لكي تحمل قيم الروح، وهو بهذا يخلق جسما لا يذبل ولا يتغير ولا يخضع للزمن.>>(3).

ومن خلال رؤيته الروحية دخل محمود حسن إسماعيل عالم الصوفية المعتدل الذي لا تتعارض مبادؤه وقيمه مع الرؤية الإسلامية، وعلى اعتبار أن معاني الصوفية هي كل التجارب التي تتسم بالتجريد ويهدف فيها الشاعر إلى الوصول إلى الحقيقة والاندماج بها كالاتصال بالله أو بالعوالم الأخرى التي لا يمكن الاتصال بها في الأحوال العادية(4). وكثير من الأساليب والأغراض الصوفية والزهدية هي ثوب عريق من أثواب الشعر الإسلامي. ولهذا اتخذ الشاعر بعض وسائل الشعراء الصوفيين التي لا تتنافى مع المفهوم الإسلامي من أجل الوصول إلى الحقيقة والتواصل مع الله. ولم يستقص المعاني التي اصطبغت بروح صوفية بعيدة عن الدين، بل اقترب كثيرا من الفكرة الدينية للتصوف التي تجعله حقيقا << بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزاعات الوجدانية والأساس أن يكتم الصدق ويسود الإخلاص بحيث لا تملك النفس أن تصرف عما آمنت به واطمأنت إليه في عالم المعاني>>(5). وعبر محمود حسن إسماعيل عن أشواقه العليا وعن صراعه الروحي الدائم من أجل التحرر والخلاص والوصول بطائفة من الرموز النابعة من داخله والمعبرة عن معجم شعري وبناء تصوري خاص به والمختلفة عن رموز الصوفيين في كثير من المعاني والأساليب << وإن كان يذكرنا شعراء سابقون كانوا قد اضطرموا في طلبهم الباطن للنور واحتمال المطلق واحترقوا تماما... وترملوا. فانبعث من بين رمادهم رجال ذوو قلوب جديدة اتصلت بعالم الخلود من نماذجهم من العرب ابن الفارض، وحافظ الشيرازي-من غير العرب- بيد أن الفرق بينهم وبينه كبير. لقد ظل محمود حسن إسماعيل يتلظى ويحترق، ولم ينهض -فيما يبدو- منه إنسان من نمط هؤلاء ولي هذه المقارنة معنى يستلزم بحثا مفردا بنفسه.>>(6)

---

(1) السعيد الورقي-دراسات نقدية-ص114.

(2) السعيد الورقي-في الأدب العربي المعاصر-دار النهضة العربية-بيروت-ط1-(1404هـ-1984م)-ص87.

(3) إليزابيث درو-الشعر كيف نفهمه ونتذوقه-ترجمة-محمد ابراهيم الشوش-مطبعة عيتاني الجديدة-بيروت-1961م-ص351.

(4) انظر-د.عبد الكريم حسان-التصوف في الشعر العربي-مكتبة الأنجلو المصرية-1955م-ص67.

(5) د/زكي مبارك-التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق-منشورات المكتبة العصرية-صيدا-بيروت-ج1-ص16.

(6) إبراهيم رفاعة- شاعرية محمود حسن إسماعيل من خلال ديوانه صوت من الله أو همسة السائل إلى الله- مجلة العالم- [illegible] ع488،1413هـ 1993م، ص50

اهتم الشاعر بقضية النفس اهتماما كبيرا، وراح يفتش في أغوارها عن قضايا الإيمان والإلحاد، والخير والشر، والحياة والموت، وانشغل بمشكلاتها وقضاياها المتداخلة والمتشعبة حتى انكشفت له معالم الطريق.

واتخذت رؤية الشاعر مسلكين مسلكا واقعيا وآخر غيبيا. والرؤية الواقعية تمثلت في إدراكه لثلاثة نفوس على الأقل- يمكن أن تتعايش في النفس الإنسانية هي نفسه الأمارة بالسوء، المولعة بكل ممنوع، المريدة للشيء البعيد، المضيعة لكل نفيس. ونفسه الأخرى التي تملك القدرة والخبرة على المناقشة والمراقبة والمحاسبة ونفسه الأخيرة التي تطل وتصغي لتدارك النور في الأخير، وتطمئن بالوصول. فصور ارتباط الأولى بالغريزة والشيطان والخطايا والآثام فكان عنادها وانزلاقها، وفتنها وتمردها، وجهلها وغرورها، ثم الثانية التي ارتبطت بالتأنيب والتحذير والتذكير، فكان خوفها وورعها وحكمتها وعبرتها. والثالثة التي اتسمت بالاطمئنان والصفاء والهدوء، فكان تعبدها وتسبيحها وذكرها ووصولها إلى الله.

كما اتسمت بأنها رؤية غيبية لأن النفس في كل هذه الحالات هي نفس معقدة، متشابكة يلفها الغموض والتداخل والتوعر، لكن الشاعر رأى بأن معرفتها حق، لأن هذه المعرفة بداية لمعرفة متعلقة بها تتيح له الإحساس بأسرار الله، وتدفعه للرحلة المستمرة داخل أقانيمها، للولوج داخل عوالمها الغنية بالأسرار[1]. وشغفا بهذه المعرفة انطلقت رحلة الإيمان من أجل الوصول إلى الحقيقة الإلهية بكل حقائقها الكبرى، وبرزت في جل دواوينه قصائد سماها شكري عياد بالقصائد النفسية أو الميتافيزيقية[2] وهي قصائد عالج فيها قضايا النفس الإنسانية في صراعها بين الأرض والسماء، وترددها بين الطين والنور، وتطلعها إلى الحق. ولكن لنحرج هذا المصطلح الفلسفي "الميتافيزيقيا" من قصائده ولتكن "القصائد الإيمانية أو الروحية".

1-الـــروح :

لقد جنح الشاعر إلى التأمل والتطلع إلى عالم النفس واستشفاف ما وراءها وراوده في ذلك شوقا عارما وحزنا دفينا لاستكناه أسرار النفس، وقد أرقته تجاهيل العلاقة بين كثافة التراب وشفافية الروح لمعرفة حقيقة نفسه ووجوده ، وعبر عن هذا القلق النفسي وهذا التحرق إلى استشفاف أسرار النفس في ديوانه " أين المفر "-كما ذكرنا سابقا- حيث صور حقيقة كل إنسان وصراع الجسد مع الروح. هذا الصراع الفطري الذي يجسد شقاء وأسى وزوال الجسد الترابي وتمنح الروح ذلك السمو والدنو من حجب الغيب، لتتمرد على الأرض، وتهفو إلى السماء،حيث يقول :

---

(1) مصطفى السعدني -التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل- ص35-37.

(2) الرؤيا المقيدة- ص 78.

(3) أين المفر ص73.

(4) المصدر نفسه ص 128.

تَالِي أُحسُّ، كَأَنَّ عُمْرِي فِي يَدِ الأَحزَانِ يُطْوَى؟
نَفْسِي تَنَاهَبَهَا الشقاء، ولم تَجِدْ فِي الجِسْمِ مَأْوَى
أَغْدُو وأُمْسِي... والأَسَى نَارٌ أُذَابُ بِهَا وَأُكْوَى
رَبَّاهُ مَا أَنَا؟... هل وُجِدتُ على زمان الناس سَوَّوا
سَوَّيْتَنِي رُوحًا تَمَرَّدَ، لاَ يُطِيقُ الأَرْضَ مَثْوَى
وَأَنَا التُّرَابُ فَكَيْفَ صِرْتَ هَوًى وتَعْذِيبًا وشَجْوَا
شُرُفَاتُ غَيْبِكَ لا تُتِحْنَ لِغَيْرِ مَنْ يَبْكِي دَمًا
وأنا إليك ذَرَفْتُ أَيَّامِي، فَزَادَ دَمِي عُتُوَّا[1]

وفي قصيدة أخرى "التراب الحائر"، يرمز بهذا العنوان إلى الإنسان قبضة الطين، الباحث عن نفحة الروح التي يحس بها شيئا خفيا، يسري في جسده، وتحركه نار الشوق والظمأ لمعرفة سر هذا الجسد، وبأسلوب حواري عميق بين النار، نار تساؤلاته وحيرته وبين نفسه التي هي جزء من الروح. فيسائل النار التي تضرم قلبه لظى وظمأ، وحزنا وسرا عميقا، وإذا بنفسه التي يسائلها دموعها وشهيقها، واحتراقها وغضبها، تدعوه إلى أن يطفئ نيرانه، وتكشف له عن سر بكائها، إنها تبكي لحيرته وتساؤلاته، وتبكي من أجل أن يتدارك سر أعماقه ويدرك أن لا قيمة ولا حياة لجسده، -ذلك القفص الداجي الكئيب المتململ- بدون وجودها فيه يقول:

وَهَفَا بالنَّفسِ، مَا يَهْفُو بِغُصْنٍ فِي يَدِ الإِعْصَارِ يُعْوِلُ
ثُمَّ قَالَتْ : كَيْفَ عَنْ دَمْعِي وَمِنْكَ الدَّمْعُ يا حَيْرَانُ تَسْأَلُ؟
إِنْ أَكُنْ فِيكَ سَكَنْتُ الجِسْمَ، والجِسْمُ تُرَابٌ يَتَنَقَّلُ؛
فَأَنَا طَيْرٌ بِعَرْشِ اللهِ، فِي عُشٍّ وبُسْتَانٍ وحَقْلٍ
إِنَّمَا أَبْكِي لِهَذَا القَفَصِ الدَّاجِي الكَئِيبِ المُتَمَلْمِلِ
لَمْ يَجِدْ أَيَّ عَزَاءٍ فِي وُجُودِي.. كَيْفَ يَغْدُو حِينَ أَرْحَلْ؟[2]

وإدراك الشاعر هذه الثنائية جعله يفرق بين النفس والروح، على أن الروح هي أسمى ما في الإنسان لأنها متعلقة بالله والخلود والغيب والأزل. بينما النفس هي ذلك الجزء الحيوي في الإنسان الذي يمكن أن يعيش معها كل حالاتها ويلاحظها باستمرار.. وإن تشابكت لديه بعض المفاهيم الخاصة بهما. فهذا يعود إلى ظواهرهما الخفية والغيبية بل معه حسه الديني من أن يدور أو يتحرك في دائرة مغلقة غامضة للبحث عن أصلهما وماهيتهما وتخلص من تساؤلاته غير المجدية وهرب من شكوكه وقلقه إلى أكبر اليقينيات. فمن الآية الكريمة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ. قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي. وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[3]

---

(1) أبي الطرس ص 73.

(2) القصيدة نفسه - ديوان 128

(3) الإسراء - 85.

انطلق الشاعر يعزف "موسيقا الروح" مستلهما إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الروح، فأرجعها إلى علم الله سبحانه وتعالى قائلا في قصيدته "موسيقا من الروح":

سَأَلُوا نَبِيَّ اللَّهِ
قَالَ اللَّهُ : لاَ
الرُّوحُ مِنْ عِنْدِي، فَقُلْ : لاَ تَسْأَلُوا (1)

وراح يؤكد عدم جدوى الاتصال المحسوس والوصول المعرفي إلى حقيقة الروح مصورا حالة العقل في صورة نادرة، عبرت عن عجز العقل أمامها على الرغم من محاولاته المستحيلة وادعائه سبل المعرفة والإدراك، بل سلبه الغرور لما اكتشف الذرة كأبدع ما توصل إليه، وأصابه العمى والخبل، لما شق السماء، ومشى على القمر، لكنه لن يصل إلى الغيب لن يرى شيئا والروح ولا رب هذه الروح، فيقول:

... وَالعَقْلُ المَسْحُورُ (2)
يَطَلُ وَيَخْتَفِي
مَاتَ الضِيَاءُ بِهِ، وَحُنَّ المِشْعَلْ
خَطَفَتْهُ أَضْوَاءُ الطَرِيقِ
فَظَنَّهَا وَصَلَتْ، فَرَاحَ مِنَ العِمَايَةِ يَدْخُلُ
وَثَبَتْ مَخَالِبُهُ
وَدَقَّ جَنَاحُهُ بِالنُّورِ قَبْرَ النُّورِ
وَهُوَ مُخَبَّلُ
سَلَبَ الغُرُورُ ضِيَاءَهُ
فَمَضَى كَمَا تَمْضِي الغُرُورُ عَلَى السَّرَابِ يُخَوِّفُلْ
أَغْرَاهُ.. أَنَّ الذَّرَّةَ انْفَلَقَتْ عَلَى كَفِّيهِ
فَهُوَ بِكِبْرِهَا يَتَدَلَّلُ
قَهَرَ السَّمَاءَ وَشَقَّهَا
وَسَرَى بِهَا
وَمَشَى عَلَى القَمَرِ الأَصَمِّ يُرَتِّلُ
نَشْوَانُ يَلْطِمُ كُلَّ غَيْبٍ
لاَ يَرَى شَيْئًا وَرَاءَ الغَيْبِ مِنْهُ يُخَبَّلُ (3)

---

(1) موسيقا من السر - دار مأمون - مصر ط1 1978م ص18 .

(2) المسحور : الموقف يحال بينه وبين أن يدرك حقيقة ما .

(3) مخبل : من خبل والخبل الجنون أو فساد في العقل .

لا ربّ! لا رُوحا
ولا أمدّا به من سَطْوَةِ المتحوّلِ طيفٌ يمثّلُ(1)

ثم يواجهه-أي العقل- بحقائق كونية قد تبدو بسيطة وعابرة، ولكن ليبرز عجزه أمام قدرة الله في خلق الزهر والعطر، والخريف والربيع، والروض والطير، التي لا يدرك أسرارها ولا يتحكم في سننها وحكمة حياتها وفنائها إلا سبحانه وتعالى. وكذلك الروح فهي قدرة إلهية، لا يمكن لأي عقل بشري أن يفصح عن سرها. فيصور عجز هذا العقل عن تفسير خلق مظاهر الكون وعن تشكيل الحياة والموت لهذه الكائنات الطبيعية:

الزّهْرُ مَاتَ
فَهَلْ بِسِرّكَ قُدْرَةٌ؟
تَدْعُ الخُلودَ بِعِطْرِهِ يَتَنَقّلُ
والعِطْرُ مَاتَ
فَهَلْ بِسِرّكَ قُدْرَةٌ؟
خُيِّيْهُ مِنْ رَوْضِ البِلَى يَتَسَلْسَلُ
وأتَى الخَرِيفُ
فَهَلْ بِسِرّكَ قُدْرَةٌ؟
تَدْعُ الرّبِيعَ عَلَى ضُحَاهُ يُهَلّلُ
والرّوْضُ إنْ خَرِسَتْ جَمِيعُ طُيُورِهِ
أَلَدَيْكَ لِلأَغْصَانِ نَايٌ يَهْدِلُ؟
أَعَرَفْتَ سِرَّ غِنَائِهَا وَسُكُونِهَا؟
أَعَرَفْتَ؟ أَمْ أَنْتَ العَلِيمُ الأَجْهَلُ(2)

إن هذه الأسئلة التي وجهها الشاعر إلى العقل لم تكن في حاجة إلى أجوبة بقدر ما هي أسئلة تعجيزية، كان في الطباق "أنت العليم الأجهل" سرا بلاغيا. إذ أضفى عليه صفة من صفات الله الحسنى " العليم " وربطها بما يناقضها في الحين وهو الجهل، بل باسم مبالغ فيه "الأجهل" لتوكيد جهله وإنكار علمه أو ادعائه علم الله.

وفي مقطع آخر يكرر أسئلته ويواجهه بحقيقة الإنسانية ويجسد العقل أكثر في صورته الكبرى "صورة الإنسان" ويسائله عن سر معرفته لنفسه وحياته وموته، عندما تضيء أعماقه شعاعة الحياة، وعندما تتبدل أحواله ويفنى، ويصبح هيكلا فوق الأرض وتطير الروح كطائر حمي فوق الروابي بعد أن كانا متلاحمين. وقد

---

(1) موسيقا من السر-ص 19-20.

(2) المصدر نفسه ص 21 22.

صور هذا التلاحم تصويرا رائعا كما صور بعدها الانفصال عند انطفاء الإنسان الهيكل وعودته إلى أصله الطيني وصعود الروح إلى السماء حاملة النور معها، وعند حدود هذا الانفصال على العقل، عليه أن يؤمن بهذا القدر المعرفي الذي يؤكد أن خلق الإنسان روح وجسد، الروح روح الله والجسد سلالة من طين منه أتى وإليه يعود، مؤكدا بذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾(1) :

أعرفت نفسك
كيف تعقل ما ترى أو لا ترى في كل شيء يعقل
أعرفت كيف تضيء فيك شعاعة
كيف الضياء يطرفها يترمل(2)...
أعرفت إن سكنت بذاتك بغتة
لم أنت بعد سكونها تتبدل
تفنى
وطائرك الخفي يجنح فوق الزوال
... جناحه لا ينزل
قد كان فيك، وكنت فيه، وكنتما
هو ضوؤك الساري
..وأنت الهيكل !!
فإذا انطفأت
تخلصت ومضاته
ورجعت للاشيء.. صمتا يعول
هي فيك تجهلها، وتشرب خمرها
فإذا تطير.. فأنت كأس مهمل
يبقيك طين الأرض أصلك
مثلما يبقي الزوال من الحياة ويبتهل(3)

فالروح التي شبهها بالطائر الذي يجنح في السماء والجسد بالغصن أو الهيكل الذي يهوي إلى التراب، يذكرنا ببيت لابن سينا يقول فيه عن طيران الروح من الجسد :

---

(1) المؤمنون -12.

(2) يترمل: رمل ورمل اللحم رهلا ، هو شبه ورم ليس من داء، ولكنه رخاوة.

(3) موسيقا من البسيط ص22 23.

حَتَّى إِذَا تَمَّ فِي الدُّنْيَا تَسَطُّرُهَا - طَارَتْ إِلَى مَنْزِلٍ فِي الكَوْنِ رُوحَانِي[1]

وفي النهاية يطلب من العقل أن يتوقف عن طلب هذه المعرفة ويكتفي بهذه الحقيقة على أن الروح سر من أسرار الله. فليتركها ملثمة ولا يظل يمرق ويلهث بدون جدوى، فحقيقة الروح تبقى من علم الله:

دَعْهَا مُلَثَّمَةً
وَحَاوِرْ دَرْبَهَا
وَدَعِ القَوَافِلَ، فَالطَرِيقُ مُكَبَّلُ
مَا شِئْتَ
أَوْ مَا لَمْ تَشَأْ
تَتَطَلَّلُ تَمْرُقُ
ثُمَّ تَمْرُقُ
ثُمَّ لَا تَجِدُ الرُّؤَى، فَيَعُودُ طَرْفُكَ يَهْزِلُ
وَتَطَلُّ تَلْهَثُ
وَالحَقِيقَةُ سِرُّهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ
وَاضِحٌ مُتَمَثِّلُ
الرُّوحُ.. رُوحُ اللَّهِ[2]

2- النفس

انتهى إلى الحديث عن النفس من وجهة أخرى منفصلة عن الروح، وكانت قصيدة "موسيقا من الرمز" صلاة شعرية لقدرة الله في أغوار النفس، وقد صورها في شتى حالاتها التي خلقها بها سبحانه وتعالى، وكانت نفسه الأولى هي النفس الأمارة التي تنتفض في أعماقه كحمامة مجهولة السر، ليس لها أي علامة لا تحدها حدود وقيود، وهي في حالة انتفاض واضطراب، ونشوة وذهول:

خَطَتْ بِرَوْضِي وَمَضَتْ حَمَامَةْ
مَجْهُولَةُ السِّرِّ، بِلَا عَلَامَةْ
لَيْسَ لَهَا كَالطَّيْرِ فِي جَنَاحِهَا جَنَاحْ
وَلَا لَهَا كَالطَّيْرِ فِي صَفَائِهَا صُدَاحْ
وَلَا تَذُوقُ الشَّوْقَ إِنْ عَانَقَهَا الصَّبَاحْ
وَلَا بُكَاءَ اللَّحْنِ إِنْ أَنَّتْ بِهَا الجِرَاحْ

---

(1) ثريا عبد الفتاح ملحس-القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه-ص553 .

(2) موسيقا من الرمز ص23 24.

أُسْطُورَةٌ مَقْهُورَةٌ لاَ تَعْرِفُ النُّـوَّاحْ
وَلاَ تُطِيقُ نَشْوَةَ الإِفْـلاَتِ وَالسَّرَاحْ
مَسْحُورَةٌ فِي قَيْدِهَا مَسْعُورَةُ الرَّيَـاحْ
تَشْرَبُ مِنْ ذُهُولِهَا الغُدُوَّ وَالـرَّوَاحْ(1)

وتبدل حالها إلى نفس أخرى تملك ضميرا وتفكيرا وشعورا بالتأنيب والحسرة واللوم والندامة. وتهفو إلى العبادة وتقرر الرحيل والمسير للبحث عن السر الكامن فيها وفي الحياة والكون وأصبحت تلك النفس اللوامة :

إِنْ هَمَسَتْ فِي نَارِهَا المَلاَمَهْ
وَاخْتَبَسَتْ فِي قَلْبِهَا النَدَامَـهْ
تَنَاقَـضَـتْ، فَأَصْبَحَتْ عِبَادَهْ
وَنَشْوَةً بِسِحْرِهَا مُنْقَـادَهْ
تَرَى الظِلاَلَ دَمْعَةَ الهَجِيـرْ
وَالنَارَ حُلْمَ الشَكِّ فِي الضَمِيرْ
وَالنُورَ نَعْشَ اللَيْلِ فِي المَسِيـرْ
تَلَفَّتَتْ، وَانْطَلَقَتْ حَسْـرَامَهْ
فِي كُلِّ رُوحٍ نَفْسُهَا لَوَّامَـهْ(2)

وتغدو تبحث عن النور، تمزق الأستار، وتلتقط الأسرار، وتحطم الأغـلال-أغلال النفس الأمارة- وتلهث باحثة عن دربها، وهو درب النور،وهو درب الله لتنشد صحوة الإيمان، وتعيش ولادة جديدة ولادة روحية بين يدي الله وتطمئن بقربه تعالى وتصبح تلك النفس المطمئنة :

تَطُوفُ كَالإِعْـصَارِ بِالأَغْـصَانْ
وَتَجْذِبُ المَوْجَ إِلَى الشُـطْـآنْ
تُمَزِّقُ الأَسْتَارَ وَهِيَ هَـائِمَـهْ
وَتَلْتَقِطُ الأَسْـرَارَ وَهِيَ حَائِمَهْ..
وَتَسْـرِقُ الأَغْـلاَلَ مِنْ فُـرُوضِهْ
لاَهِـثَـةً، بَاحِـثَـةً عَنْ دَرْبِـهَا
مَحْطُوفَةَ السِّحْرِ بِإِذْنِ رَبِّهَا
تَعْبُدُهُ فِي صَحْوِهَا الجَدِيـدْ

---

(1) موسيقا من السر-ص59-60.

(2) المصدر نفسه ص60.

وفي انبثاق نبعها الوليـــد[1]

واستطاع الشاعر أن يصور قدرة الله في خلق هذه النفس التي يراها ولا يراها، ويشعر ولا يشعر بهـا. التي تملك الضلال والرشد،وترى طريق الخير والشر، إنه أدرك هذه النفس بشتى حالاتها وأيقن أنـه باستطاعتها أن تشهد الضياء والصفاء وتدرك الإيمان والسر والنور، فهي ذلك الكـائن الذي يعيش في كيانه، وبين جوانبه، وهي سر وجوده، وإنسانيته وظله الذي لا يفارقه:

كَـبَّرْتُ في ضَـلالِها وَرُشْدِهَا
وَهَمَمْتُ في سُبَاتِهَا وَسُهُدِهَا
بِغَيْرِهَا لا أَشْهَدُ الضَّـبَـــاءْ
وَلاَ أَرَى الذَّاتَ وَلاَ الصَّفَاءْ
سَأَلْتُهَا وَسِرُّهَا في خَـلَدِي
أَدْرِيهِ، لكِـنِي سَـجِينُ الأَبَـدِ
مَـنْ أَنْتِ يَا عَجِيبَةَ الحُـضُورِ؟
يَا مَوْجَةَ الكَشْفِ لِعُمْقِ نُورِي ؟
يَـا حَنْوَةً تَغْـتَسِلُ بِالإِبْـتَانِ
يَا سِرَّ كُلِّ السِّـرِّ في البُسْتَانِ
فَلَمْ تَكُدْ تَسْمَعُ.. حتى انْقَضَّتْ
وَمِنْ حَنَايَ وَكِيَانِي، هَرَبَـتْ
لَـكِنَّهَا في غَفَلاَتِ الكُـلِّ
شَـيْءٌ.. وَلاَ شَيْءٌ كَظِلِّ الظِّلِّ.[2]

لقد أدرك محمود حسن إسماعيل أن ليس من واعظ للمرء أبلغ من نفسه كما أدرك ذلك قبلـه أبو العتاهية قائلا:

يَا وَاعِظَ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهَمًا - إِذَا عِبْتَ فِيهِمْ أُمُورًا أَنْتَ تَأْتِيهَا
كَالمُلْتَسِ الثَّوْبِ مِنْ عُرْيٍ وَجَرَّبَهُ - لِلنَّاسِ سَادِيَةً مَا إِنْ يُـوَارِيهَا
وَأَعْـظَمُ الإِثْـمِ بَعْدَ الكُفْرِ نَعْلَـمُهُ - فِي كُـلِّ نَفْسٍ عَمَاهَا عَنْ مَسَاوِيهَا
عَرَّفْـتَنَاهَا بِعُـيُوبِ النَّاسِ تُبْصِرُهَا - فِيهِمْ، وَلاَ تُبْصِرُ العَيْبَ الذِي فِيهَا[3]

وإن كان شاعرنا يختلف في الصياغة الشعرية فالمعنى وارد لا محالة فهو يلح أيضا على الأطلال والإصغاء إلى ثلاثة نفوس على الأقل في نفس واحدة هي النفس الأمارة التي يناقشها الحساب ونفسه اللوامة التي ثرثرت

---

(1) موسيقا من السر ص60-61.

(2) المصدر نفسه ص61 62.

(3) ديوان أبي العتاهية، دار بيروت، بيروت، 1400هـ 1980م ص469.

على المحاسبة والتفتيش، ونفسه الأخيرة المطمئنة التي تصغي وتطل، فيقول :

رَبَابي على النَّفْسِ، نَفْسٌ تُطِلُّ
وتُصْغي، وتَعْزِفُ هَمْسَ النُّفُوسِ
وفي كُلِّ صَدْرٍ لِنَايٍ دُرُوبٌ
والْقَافُ تيهٍ لَدَيْها تَحُوسُ
تُفَجِّرُ أمْوَاجَها المُوثِقَاتُ
وتَعْصِرُ أسْرارَها في الكُؤُوسِ(1)

<< لقد أعلن محمود حسن إسماعيل منذ أولى خطواته على سلم الشعر الطويل، نفرته من الذاتية، وظل يبغي الانفلات من ذاتيته، وكأنه يبغي الإنسلاخ من جلده حتى تمنى في " اللحن المقهور"، " أين المفر" أن يتلاشى في صلاة أو غناء أو موج أو ريح، ولكنه في شعره الأحسر لا يهرب من ذاته بل يواجهها ويحاسبها.>>(2)

إلا أن هذا التلاشي و الانفلات الذي يراه شكري عياد قد أعلنه الشاعر في بداية شعره لم يكن نفورا من نفسه أو انسلاخا من جلده، بل إعلانا عن ثورة عارمة مع نفسه بحثا عن حقيقة حياته الكبرى، وعن سر هذه النفس في تحقيق هذه الغاية، ولما تمنى أن يكون صلاة أو غناء أو موجا أو شعاعا، لم تكن أمنية حالمة، مثالية، بل كانت فيها من الصدق والواقعية عبرت عن فطرة النفس التي تهفو لحياة التطهر ورفض الضلال والجهل من أجل الوصول إلى الهدى والنور، واكتساب قيم الحياة الخالدة. وكانت موجودات هذا الكون وقيم هذه الحياة التي تمنى أن يكون مثلها لا أن يتلاشى فيها ويقضي على وجوده وكيونته، باعثا للشعور بالتغيير، وإلباس نفسه ثوبا آخر من صفاء تلك الموجودات، وقداسة تلك القيم فيقول في لحنه المقهور الذي لم يكن يقصد منه الغناء والحلم وإنما عبر هذا العنوان عن معاناته ومحاولته قهر نفسه بما هو أسمى وأجدى :

لَيْتَني كُنْتُ صَلاةً - في كُهوفِ النَّاسِكينَا
أتَلاشَى في طَريقِ اللهِ شَوْقًا وَحَنينًا...
لَيْتَني كُنْتُ شُعاعًا - في لَيالي الحَائِرينَا
أمْكُبُ السُّلوانَ لِلدَّمْعِ وَأغْتَالُ الأنِينَا
لَيْتَني كُنْتُ سُكُونًا - خَاشِعًا بَيْنَ الجِبالْ
تَتَلاقَى فِيَّ آيًا - تُ وُجُودي بالزَّوالْ...
لَيْتَني كُنْتُ على لُجِّ - البِحارِ الخُضْرِ زَوْرَقْ
كَيْفَمَا شَاءَتْ بِي الرِّيحُ على الأمْواجِ تَخْفِقْ...

---

(1) قاب قوسين ص34.

(2) الرؤيا المقيدة ص79.

لَيْتَنِي كُنْتُ عَصَا فِي - كَفِّ أَعْمَى لا يَرَاهَا
هِيَ تَهْدِيهِ وَلَكِنْ - مِنْ إِلَى النُّورِ هُدَاهَا[1]...

ولهذا فثورة محمود حسن إسماعيل على ذاته لا تعني الهروب من الذات أو من الواقع بل محاولة للالتحام بحقيقة روحية كبرى من خلال تدمير سجن ذاته الذي لم يؤد به إلى التلاشي والذوبان السلبي أو الانتحار الروحي الذي يسحق النفس بالقلق والتمرد . وإنما إلى التغيير الذي يرفض ذلك السجن ويحمل للنفس أنوار الحقيقة، ويحقق لها ذلك الالتحام الروحي بالتجدد والابتعاد عن الرتابة والملل، إنه يخاطب نفسه التي تملك القدرة على تغيير نفسه الأخرى،فيقول :

غَيِّرِينِي
... فَأَنَا أَشْتَاقُ أَنْ أُبْصِرَ شَيْئًا غَيْرَ نَفْسِي
غَيْرَ أَنْ يُصْبِحَ يَوْمِي فِي دُجَاهُ
فِي ضُحَاهُ مِثْلَ أَمْسِي
غَيْرَ أَنْ أُبْصِرَ كَأْسِي فِي سُرَاهَا
كُلَّ يَوْمٍ هِيَ كَأْسِي

غَيِّرِينِي
وَاسْمَعِي فِيَّ صَدَى التَّغْيِيرِ
مِنْ هَمْسٍ لِهَمْسِي
خِفْتِ الصَّيْحَةَ.. لَمْ أَسْمَعْهَا مِنْ قَبْلِ
عَلَى أَعْمَاقِ حِسِّي[2]

واتسم هذا التغيير بعدم هروبه ونفوره وتبرئه من نفسه، وإن نفر منها فلمصارعة خطاياها وشرورها وآثامها، وإن تبرأ منها فلمحاسبتها وتوبيخها وتحذيرها، وإن خاصمها فلحثها ونصحها، وإن استحار منها فلتفتيش أغوارها، وهتك أستارها، والبحث عن السر والنور الذي يملأ أعماقها،ويوصلها في النهاية إلى الله. وكان هذا التغيير بكل أنماطه ووسائله طريقا للوصول إلى الله.

وقد أورد الدكتور مصطفى السعدني طريقتين شعريتين، اهتدى إليهما الشاعر أثناء رحلته مع نفسه نحو الحقيقة والنور، وهما التحرر أو التجرد ويعني بذلك تحرر الشاعر من كل قيود المواضعات العقلية والاعتماد على الخيال المتجرّد من المادة نهائيا، وتجرده من كل العوائق الحسية والغريزية والتطهر من كل رواسب الحياة وكذلك الانشطارالذي كان وسيلة ثانية للبحث عن المعرفة داخل النفس. فانشطار نفسه إلى نفس متزودة

---

(1) أبي المعري ص110 111.

(2) نهر الحقيقة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1972، ص86 87 .

بالنور، تتحشم مشاق الرحلة لتصل إلى النور، لتغشى به نفس أخرى ، فتنشدها من قيعان الوهم والغريزة إلى عالم الفضيلة والنور الأبدي[1].

ورأيت أن أمنح لهذا التحرد والتحرر والإنسحاق والإنشطار دلالات دينية تراثية للتوسع في طرق رحلته الشعرية مع نفسه، واعتبرتها وسائلا [2] للوصول إلى الله، والتي كانت في معظمها توسلات شعرية توسل بها إلى الله ليدرك أسراره وحكمه الإلهية، ويتدارك أمور نفسه وحياته، ويحمل مصباح الحقيقة التي جند نفسه لها، ليصل إليها في آخر المشوار.

وهذه الوسائل تنقسم إلى ثلاثة وسائل تحمل معاني متقاربة وتخدم غاية الوصول الكبرى وهي التذكير- التذكر-الذكر- وقد عثرت على اصطلاحاتها اللغوية والدينية التي جعلت لكل وسيلة بعدها العقدي الخالص وحاولت من خلالها أن أوضح الرؤية الروحية للشاعر.

---

(1) التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل-ص38-39 .

(2) وسائل من الوسيلة: القربة والواسل : الراغب إلى الله العامل على التقرب إليه. وقال تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾(الإسراء 57) ومنها التوسل : وهي ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به والمراد به في الحديث القرب من الله " اللهم آت محمد الوسيلة".انظر لسان العرب-ابن منظور-دار المعارف-مصر-مادة وسل-ج6-ص4837-4838. والوسيلة إلى الله سبحانه وتعالى ما يوصل إلى ثوابه والزلفى لديه. وذلك بعمل الطاعات وترك المعاصي ﴿ يا أيها الذين اتقوا ابتغوا إليه الوسيلة﴾(المائدة- 35) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم-مجمع اللغة العربية-الهيئة المصرية العامة ط2 1390هـ 1970م مج2 ص3225.

المبحث الثاني
التذكير

1- الحياة.

2- الموت.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التذكير[1] دعوة لاستشعار الله واسترضائه، وهو موعظة تنفع بها النفوس وتتأثر، وقد قال تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] فيها معاني للرهبة والرغبة ويؤكد هذين المعنين أيضا قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[3]. فالرهبة والرغبة عنصران أساسيان في مثل هذه المواقف، لأن للهوى شره وسلطانه، ولا يمكن التغلب عليه إلا بسلطان أعظم، وقوة أكبر. فكانت الرهبة ماثلة من مقام الله جل وعلا، وهي إذا أضيف إلى ذلك عامل الرغبة، كما هو ماثل في المأوى الناعم، المطمئن الدائم، وهو الجنة. كان ذلك خير معين على الانتهاء عما يقتضيه الهوى[4].

وتزكية النفس بعوامل الترهيب والترغيب، هو جهد شاق ومتواصل يؤدي في النهاية إلى خير الإنسان لأنه يرقى بنفسه، ويرتفع بإنسانيته ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[5].

وكانت أقوى وأعمق عوامل الترهيب والترغيب، هو التذكير بالحياة والموت. فالإنسان تسعى له الدنيا حتى يظن أنه سيدها الآمر، الخالد فيها، الأمل فيها بكل شيء، وإذا به تعرض عنه، فيهار مهيض الجناح، محطم النفس، حائر القوى، وقد أدرك أن إقبال الدنيا كان رورا[6] وازورارها كإقبالها، لا بقاء ولا ثبات له، وعليه أن لا يغتر، ولا ينفق حياته فيما لا طائل منه، وهو فيها بين صحة ومرض، وشباب وشيخوخة، وغنى وفقر، وعز وذل، ورشد وضلال، وسعادة وشقاء. وعليه أن يلتفت إلى كل هذه المظاهر التي تستر وراءها حقيقة كبرى، ولا يخسر الحقيقة، ومن خسر الحقيقة فقد خسر كل شيء، وخسر نفسه[7].

وحقيقة الحياة والموت تبدو في حكمة قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[8]. وهذه الحقيقة في التصور الإنساني تشير اليقظة لما وراءها من اختبار وابتلاء... واستقرار هذه الحقيقة في النفس يدعه أبدا يقظا، حذرا، متلفتا، واعيا للصغيرة والكبيرة في النية المستترة، والعمل الظاهر، ولا يدعه يغفل أو يلهو، كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح[9]. كما تبدو لحقيقتهما في ذلك التلازم والتلاحم الذي يمنح الشعور المتيقظ بالحياة المرتبطة بالموت ارتباطا مصيريا، لا يؤدي إلى الموت بمعنى الفناء

---

(1) التذكير: من ذكر ما يستذكر به الحاجة. والتذكير للتوكيد. المصدر- ابن منظور- لسان العرب- مادة ذكر- ج 3- ص1507.

(2) الذاريات-55 .

(3) النازعات-40.

(4) عبد الفتاح عبد الله بركة-في التصوف والأخلاق- دار القلم- ط1-(1403هـ-1983م)-ص39.

(5) فاطر-18.

(6) رور : فرار.

(7) المرجع نفسه- ص76-77.

(8) الملك-2 .

(9) سيد قطب في ظلال القرآن -ج29 ص3632 .

والاندثار، وإنما إلى حياة أخرى غيبية وخالدة وعليها تقوم وتستمر الحياة الأولى ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾[1]

وما أكثر ما يثير هذا التركيب في النفس من عبرة واعتبار، وما أكثر دلائل اعتبروا يا أولي الألباب، يا أولي الأبصار. ففي الاعتبار << معنى الإحساس بدلالات الآيات سواء أكانت حسية أم معنوية، وفيه معنى التأمل والتفكر والنظر مما يربي في نفس المعتبر فضيلة التأثر بالعظة والاستجابة للنصيحة والتقبل بالتوجيه والإفادة من سابق التجارب أو قائم الدلائل والمشاهد>>[2]. ويخلق الاعتبار من لواعج الخشية ودوافع التقوى نفسا معتبرة متدبرة. وكان التذكير من وسائل الشاعر الروحية التي لازمت رحلته الإنمائية الشعرية، وتابعته في كل حين عند البحث عن نفسه والتأمل في أغوارها وتناقضاتها وتوارعها وحوائجها. والحديث عن النفس ارتبط عند الشاعر بالتذكير بالحياة والموت ارتباطا وثيقا، كأكبر عنصرين يبرزان كثيرا من الأخلاقيات والغايات، ويجليان كثيرا من القيم كالإيمان بالله والغيب والخلود، وما يلازم هذا الإيمان من امتداد زماني ومكاني، وشعور دائم بالتعبد والتطهر والخير والإحسان والرجاء والأمل والحساب والعقاب، ورحيل أكيد من عالم إلى عالم آخر فيه بقاء لا فناء.

1-الحياة

لقد اختلفت مواقف الشعراء من سر الحياة والوجود الإنساني، وتساؤلاتهم عن سر خلق الإنسان، وعن الغاية من خلقه، ومن علة وجوده. فكان المؤمنون والمتصوفون، وكان الذاهلون والحائرون، فهناك من رأى أن الحياة عمل وجهاد، وسعادة وشقاء، وزوال وخلود. وهناك من اعتقد أن الحياة صراع ونزاع، وعدم وعبث، وهناك من اقتنع بأن الحياة قائمة بنفسها ماهي إلا دائرة لا أثر فيها ولا حديد، ولا فرق بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهناك من وقف موقف الحيرة المطلقة في هذه الحياة، ولم يجد سوى التحرّق والتلاشي والتشرد النفسي والفكري[3].

وقد حاول الشاعر أن يتخلص من هذه التصورات الوجودية ألا وهي العبثية والعدمية واللاجدوى من الحياة، وأن يتجاوز الحيرة النفسية ليحل لغز الحياة غير آبه ببعض تلك المواقف، مؤكدا رؤيته للحياة :

دَعُونِي أُغَنِّي
فإنَّ الغِنَاءَ طريقِي إلى كُلِّ سِرٍّ بعيدْ
خُلِقْتُ لِأَرْتَادَ رُوحَ الحَيَاةِ -
وَأَسْتَلَّ أَعْمَاقَهَا لِلوجُودْ ...
فَإِنِّي عَلَى كُلِّ خُطْوٍ جَدِيدْ[4]

---

(1) القصص-77.

(2) أحمد الشرباصي -- موسوعة أخلاق القرآن - دار الرائد العربي - بيروت- ط2 1985م- ج6-ص137.

(3) انظر أيضا عند الصالح ممحن - القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه- ص278.

(4) أبو القاسم قوميين ص 33.

أ- قيـــمـــة الـحـيـاة

إن الحياة عنده قيمة كبرى، تحمل في ثناياها شتى القيم والعبر، فالحياة هي الإنسان هي،عمره المتجدد، الذي يناديه كل حين في كل المظاهر والكائنات المنبثة في الكون،لما لها من رموز ومعاني للحياة:

حَيَاتِي، حَيَاةٌ
وَعُمْرٌ جَدِيدٌ أَرَاهْ
فَمَا فَاتَ مِنْهَا رَحَلْ
وَمَا غَابَ فَهُوَ طَرِيدُ الأَمَلْ
حَيَاتِي أَمَلْ
أُنَادِيهِ مِنْ زَهْرَةٍ فِي الصَّبَاحْ
وَأَدْعُوهُ مِنْ آلَةٍ فِي الجِرَاحْ...
أُنَادِيهِ مِنْ طَائِرٍ هَامَ فَوْقَ الغُصُونْ
وَمِنْ تَحْتَوِلٍ حَالِمٍ فِي ظِلَالِ السُّكُونْ
وَمِنْ زَوْزَفٍ سَابِحٍ فِي الأَصِيلْ
تُوَدِّعُهُ الشَّمْسُ قَبْلَ الرَّحِيلْ(1)...

وعمره وعمر الحياة هو الأمل الذي يدعوه لمقاومة اليأس واستقبال الأماني، بذلك الترابط المطلق بين الأمس واليوم والغد. وذلك التواصل الثلاثي يمنح الشعور بقيمة الزمن في الحياة، الذي يمتد من الماضي إلى الحاضر ثم المستقبل ويؤكد حتمية السير نحو غد سوف يأتي، والتفكير فيما فات قبل وصول الموعد :

أُنَادِيهِ... وَهُوَ الهَوَى وَالأَمَلْ
وَأَدْعُوهُ مَهْمَا اخْتَفَى أَوْ نَزَلْ
فَأَمْسِي تُرَابٌ لِدَرْبِ الغَدِ
وَيَوْمِي غَدٌ سَابِقُ المَوْعِدِ
وَمَا فَاتَنِي.. فِي غَدٍ سَوْفَ يَأْتِي
وَتَهْدِلُ أَطْيَارُهُ فَوْقَ صَمْتِي
فَلا تَيْأَسْ! هَذِي طُيُورُ الأَمَانِي
تُغَرِّدُ فِي حَيْرَتِي بِالأَغَانِي(2)

---

(1) نهر الخفيفة-ص104-105.

(2) المصدر نفسه ص106 107.

فمن دواعي صيرورة الحياة "الأمل" ، وهو حدس فطري يلازم الإنسان حتى في أتعس وأحلك لحظاته ومشاعره، وهو دافع قوي لإرادته، ولولاه لفقد كل معاني الحياة .فهو بصيص نور منحه الله عز وجل لعبده، حتى لا ييأس من رحمته ونعمته، ففي الخطأ الصواب، وفي الفشل النجاح، وفي الإثم التوبة، وفي المرض الشفاء، وفي الظلام النور، وفي الموت الحياة، إنه يحمل كل المتناقضات نحو نقطة الفصل والنهاية وهو الله الأمل الأكبر. ولهذا فالأمل هو الذي يشدّ الإنسان نحو الجهاد والسعي، والتفاؤل والرجاء، والتذكر والاعتبار، والتجدد والبعث، والخير والحق... والشاعر في قصيدته "مع الأمل" جمع كل ما في العمر والحياة والكون والغيب ليشكل الأمل، أمل الإنسان. فعند هيجان الرياح يكون الأمل شراع سفين، وعند زمجرة الأمواج يكون ضفاف سكون،وعند ذبول الزهور يجددها روضة يانعة، وعند كثبان الرمال يرش العبا والظلال، وعند كل خريف يجي الربيع :

فَإِنِي أَمَـــلْ
وَدَرْبٌ جَدِيدٌ لِشَطِّ الأَمَلْ..
فَلَوْ هَاجَتِ الرِيـــحُ
كُنْتُ لِمَوْجِي شِرَاعَ السَّفِينْ
وَلَوْ زَمْجَرَ المَوْجُ
كُنْتُ ضِفَافَ السُّكُونْ...
وَإِنْ ذَبُلَتْ زَهْرَتِي فِي شِعَابِ الجَبَلْ
فَحُبِّي سَيَخْلُقُ مِنْهَا الأَمَلْ
يُجَدِّدُهَا رَوْضَةً يَانِعَةً
وَيَنْسُجُهَا جَنَّةً رَائِعَةً
وَيَمْشِي، يَرُشُّ العَبَا فِي الرِمَالْ
بَسَاتِينَ تَرْقُصُ فِيهَا الظِلَالْ...
فَإِنْ شَجَرِي قَطَّعَتْهُ أَيَادِي الخَرِيفْ
رَبِيعِي سَيُحْيِيهِ غَضُّ القُطُوفْ(1)...

وأراد الشاعر أن يخلق للنفس عنصر التفاؤل الذي يخرجها من قواقع التذمر والملل واليأس والحيرة، ويكسبها الصمود والتحدي والصبر على المحن والابتلاء بأثقال الدنيا، التي لم تكن كما يقول الرافعي << أثقالا على نفسه، بل كانت له أسباب قوة وعمل، كالسر المخلوق لطبقات الجو العليا، ويحمل دائما من

---

(1) نهر الحقيقة-ص136-138.

أجل هذه الطبقات، تقل جناحيه العظيمين.>>[1]. فهو إذن يدعو في قصيدته "مع الإبتسام" إلى التفاؤل والتبسم في هذه الحياة :

تَبَسَّمِي أَمَلْ
وَتَبَسَّمِي أَمَلْ
وَنَظْرَتِي مَا لَمَحَتْ إِلاَّ تَبَسُّمَ الأَمَلْ
فِي اليَأْسِ، فِي المَلاَلْ
فِي تَمَزُّغِ الفَشَلْ
يَبْسُمُ كَالنُّوَارِ فِي إِحْتِبَاسَةِ الأَمَلْ[2]...

وينتهي الشاعر إلى أن الفرح والحزن، والسعادة والشقاء، والظلام والنور، والحياة والموت. هي كلها من سنن الله وحكمه ونواميسه التي لابد أن لا تهرب نفسه منها بل تؤمن بها بكل صبر ويقين :

تَبَسَّمِي لِلْفَجْرِ فِي ابْتِسَامِهْ
تَبَسَّمِي لِلَيْلِ فِي ظَلاَمِهْ
تَبَسَّمِي إِنْ عَبَسَ الطَّرِيقْ
وَإِنْ تَوَارَى خَلْفَهُ الشُّرُوقْ
فَالعَابِسُ المَحْزُونُ فِي انْطِوَائِهْ
لاَ يُرْجِعُ النُّورُ إِلَى فَضَائِهْ
وَنَظْرَةُ الكَئِيبْ
تُجَدِّدُ الغُرُوبْ
وَتَمْلأُ الشَّفَقْ، بِالدَّمْعِ وَالحَرَقْ
فَوْقَ المَدَى تَبَسَّمِي
فَوْقَ الرَّدَى تَبَسَّمِي
فَالحُبُّ، وَالحَيَاةُ، وَالأَمَلْ
سَفِينَةٌ لاَ تَعْرِفُ المَلَلْ[3]...

ويضفي الشاعر على الحياة بعد صور الأمل والتفاؤل صورا أخرى حالمة ومتناغمة للحب. التي رسمها على وجه حبيبه-الإنسان بكل معاني الأمل والضياء، والمحبة والرجاء والصلاة والصفاء، وانطلقا ينشران الحب، ويحققان معنى الحياة :

---

(1) مصطفى صادق الرافعي-وحي القلم-دار الكتاب العربي - بيروت- لبنان ج2-ص16.

(2) نهر الحقيقة -ص146.

(3) المصدر نفسه -ص150-151.

إِذَا رَنَّ لِلْحُبِّ نَايٌ بِعَبْقَرِكْ
وَهَبَّتْ طُيُورِي تُغَنِّي لِفَجْرِكْ
سَنُورِقُ آمَالَنَا لِلطَّرِيقْ
وَتُشْرِقُ أَحْلَامُنَا لِلرَّحِيقْ
وَنَنْشُرُ كَالزَّهْرِ عِطْرًا لِرُوحِ الحَيَاةْ
وَلِلنَّاسِ نُعْطِي عَبِيرًا رَشَفْنَا شَذَاهْ
وَنَخْلُقُ فِي كُلِّ شَطٍّ مَرَايَا حَدَائِقْ
يُطِلُّ بِهَا العِطْرُ بَيْنَ الزَّنَابِقْ
فَلَقَاكَ رُؤْيَا عَبِيرْ
وَدُنْيَا صَفَاءٍ وَنُورْ(1)!.

ويعم وينتشر هذا الحب في الحياة، ويزداد قداسة،وقد أصبح يشده إلى الله بالتوبة والطهر والعفو... حب يمضي مع الأمل طول للطريق نحو الله والبشر:

وَتَسْخَقُ فِي الدَّرْبِ شَوْكَ الطَّرِيقْ
وَتُطْفِيءُ بِالحُبِّ نَارَ الحَرِيقْ
وَتَأْتِي إِلَيَّ عَلَى كُلِّ نَغْمَهْ
وَفِي حَبَّةِ الدَّمْعِ أَلْقَاكَ بَسْمَهْ
فَأَنْتِ ابْتِسَامِي، وَحُبِّي وَأَنْتِ الحَيَاهْ
وَأَنْتِ إِذَا زَالَ عُمْرِي
مَتَابِي وَطُهْرِي، وَعَفْوَ الإِلَهْ(2)

وتتسع دلالات الحياة عند الشاعر لتشمل كثيرا من القيم والمعاني المتعلقة بها. هذه القيم التي دلت على خصوصية إلهية، وتفرد وقدرة على تسخير وخلق للحياة بأوسع معانيها، وكانت الحياة بما فيها باعثا روحيا للإيمان بالله ووجوده. فمظاهر وجوده تكبر وتزداد كلما ازداد التأمل في أغوار النفوس، وواقع الحياة وآثارها ومقاصدها .فالله عز شأنه يمثل كل القيم والمعاني الجميلة والخالدة التي خلقنا من أجلها. فهو الحب والطهر والعفو، والنفس والرحم والحق والعهد، والندم والتوبة والصلاة، والحلم والصدق والرحمة، والأمل والروح، والخير والنور:

هُوَ الحُبُّ فِي كُلِّ خَطْوِي أَرَاهْ
وَأَسْمَعُ فِي كُلِّ هَمْسٍ صَدَاهْ

---

(1) نهر الحقيقة -ص 100 101

(2) المصدر نفسه ص 101 102

هُوَ الطُّهْرُ فَوْقَ جَبِينِ الطُّفُولَةْ
هُوَ العَفْوُ فِي كُلِّ رُوحٍ جَمِيلَةْ...
هُوَ النَّفْسُ فِي تَمَنَّيَاتِ العَلاَةْ
هُوَ الرَّغْمُ العِصِّدُقُ فَوْقَ الشِّفَاهْ
هُوَ الحَقُّ فِي كُلِّ حَرْفٍ نَطَقْتَهْ
هُوَ العَهْدُ فِي كُلِّ سِرٍّ كَتَمْتَهْ
هُوَ النَّدَمُ المُرُّ خَلْفَ الخَطِيئَةْ
هُوَ الحُلْمُ يَمْسَحُ النُّفُوسَ البَرِيئَةْ
هُوَ التَّوْبَةُ اسْتَيْقَظَتْ فِي الضُّلُوعْ
وَبِتَّ هَوَاهَا لِذَوْبِ الدُّمُوعْ
هُوَ الرَّحْمَةُ اسْتَوْقَفَتْ كُلَّ وِفْرَةْ...
هُوَ الأَمَلُ المُسْتَمِرُّ الرَّجَاءْ
وَلَوْ خَاضَ بَحْرَ الأَسَى وَالشَّقَاءْ
هُوَ الرُّوحُ تَشْرَبُ كَأْسَ الوُجُودْ
سَلاَمًا وَحُبًّا، وَرُؤْيَا خُلُودْ
هُوَ النُّورُ
... فِي كُلِّ قَلْبٍ حَيَاةْ
وَفِي كُلِّ وَجْهٍ صَلاَةْ(1)

ب- ديمومة الحياة

أدرك بتصوره الإسلامي أن الحياة الدنيوية، لا يمكن أن تقوم بنفسها فهي دار موقوتة وزائلة ، وجسر لدار آخرة. فراح يحذر من خطورة الانسياق إلى الدنيا والانقطاع عن غاياتها وقيمها، بحيث تصبح مجرد لمضية زمن فارغ، خالٍ من مقومات الحياة الخالدة. مما يورث التنافس على الحطام والاغترار بالعرض الزائل ويدعو إلى التوازن بين الدنيا والآخرة ليتحقق الانسجام البشري، فكانت من مواقفه الدعوة إلى قيم الحياة كالحب والأمل والتفاؤل، والصبر والتقوى، التي تعمل على استمرارها وديمومتها وتدفع الإنسان إلى مواصلة الطريق بالاستعداد الدائم للرحيل وإعداد الزاد لحو حياة أخرى موصولة بالأولى على الرغم من انقطاع مؤقت ومؤجل. وفي قصيدة "مع الطريق"، أمن الشاعر بامتداد طريق الحياة وسار سير الواثق المؤمن، المتبصّر لا يريد

(1) نهر الحقيقة-ص 91-94

لسيره أن تحده حدود، لأنه سير نحو حياة خالدة أبدية هي حياة الآخرة. ولهذا فهو يحدوه التفاؤل دائما ويملأ نفس الشاعر ويجعله يصر على المضي والمسير على الرغم من الأشواك والصخور، والنيران والظلمات. فإنه لا يبصر أمامه سوى الزهور والعطور والأنوار:

طَـريقي أمَـلْ
وخَـطْوي أمَلْ
وكُلُّ دَرُوبي أمَلْ
إذا لاحَ لي الشَّوْكُ أبْصَرْتُ فيه الزُّهُورْ
وأقْداحُها وَهي بالعِطْرِ حَوْلي تَدُورْ
فإنْ كَانَ شَوْكٌ.. مَضَيْتُ
وإنْ كَانَ عِطْرٌ.. مَضَيْتُ
ولابُدَّ أمْضي، وَيَمْضي طَريقي
بِرَغْمِ خُطَا الدَّرْبِ مِنْ الحَرِيقِ[1]

ويسير الشاعر مع نور هذا الطريق وقد أخذ من حكمة الزمن وسنة الشروق والأفول، وإيحاءات الغيب ما يضيء له طريقه، واستطاع أن يصل بالأمل والصبر الجميل على الرغم من الصخور والجسور، والليل والوهم، وتراجع الرفاق، وينابيع السراب ولفحات الهجير...إلى حقيقة غيبية هي من أصول الإيمان ألا وهي الجنة، حياة المؤمنين والصالحين والصابرين، وقد تخيلها الشاعر تخيلا إيمانيا، لأن الوصول الحقيقي إلى الجنة ما زال طويلا، ممتدا إلى أجل لا ندركه. ولهذا فدعوة الشاعر إلى الإيمان بهذا الواقع الغيبي يكون بالسير الجاد مع الله بكل خشوع :

وَغَنَّيْتُ لِلنُّورِ عِنْدَ الشُّروقِ
وَعانَقْتُهُ فِي لَهيبِ الهَجيرْ
وَكَلَّمْتُهُ فِي صَلاةِ الغُروبِ
كِلانَا لِغَيْبٍ خَفِيٍّ يَسيرْ
وَسِرْنَا.. وَمازَالَ يَبْدُو وَيَخْفَى
وَمازِلْتُ فِي راحَتَيْهِ أسيرْ
فإنْ كان ضوءٌ مَضَيْتُ
وإنْ كَانَ لَيْلٌ مَضَيْتُ
ولابُدَّ أمْضي وَيَمْضي طَريقي

---

(1) نهر الحقيقة - ص 122-123

عَلَى الزَهْرِ، أَوْ فَوْقَ قَتَرِ الخَرِيفِ
- وَكَمْ مَرَّةٍ وَاجَهَتْنِي الصُخُورْ
وَسَدَّتْ بِوَجْهِي فِجَاجَ العُبُورْ
وَفِي حَلَكِ اللَيْلِ قَامَتْ جُسُورْ
وَلَمْ يَبْقَ حَتَّى رُفَاتٌ مِنَ الوَهْمِ مِنْ طَيْفِ نُورْ
وَحَتَّى رِفَاقِي، تَلَفَّتُّ لَمْ أَلْقَ إِلاَّ بَقَايَا مَسِيرْ
- وَنَبْقَى يُطَلُّ. فَامْتَدَّ أَشْرَبُ...
أَغْدُو سَرَابًا، يُعَانِقُ دُنْيَا سَرَابٍ ضَرِيرْ
وَطِلاَّ ظَلِيلاً.. وَلاَ ظِلَّ !!
أَطْبَقَ حَوْلِي المَتَاهْ
وَمَاذَا ؟!
خَيَّلْتُهَا جَنَّةً..
- مَقَاصِيرُهَا مِنْ ضِيَاءٍ وَحُورْ
- وَقُلْتُ:مَعَ اللهِ جَدَّ المَسِيرْ
وَلاَبُدَّ تَخْشَعُ كُلُّ السُدُودْ
وَتَخْضَعُ لِلرَوْحِ كُلُّ الحُدُودْ
- وَتَهْوِي القُيُودْ
وَتَفْتَحُ لِلْخَيِّطِ دَرْبٌ جَدِيدْ[1]

إن هذا الطريق الذي أدركه الشاعر هو طريق الحياة والإيمان والأمل والنور، واختلف عن طريقٍ إيليا أبي ماضي" الذي لم يدركه بموافقه اللاأدرية وتساؤلاته الحائرة عن غاية وجوده.وظل يدور في ظلامه باحثهل المطبق والضياع الروحي :

جِئْتُ لاَ أَعْلَمُ مِنْ أَيْنْ، وَلَكِنِّي أَتَيْتْ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتْ
وَسَأَبْقَى مَاشِيًا إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمْ أَبَيْتْ
كَيْفَ جِئْتُ ؟ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي ؟
لَسْتُ أَدْرِي!

---

(1) نهر الحقيقة-ص123-125.

وطريقي ما طريقي ؟ أطويلٌ أمْ قصيرْ؟
هلْ أنا أصعدُ أمْ أهبطُ فيه وأغورْ
أأنا السائرُ في الدربِ أمِ الدربُ يسيرْ
أمْ كلانا واقفٌ، والدهرُ نهرٌ جاريْ ؟
لستُ أدري ؟!(1)

وحين نضع تجربة محمود حسن إسماعيل اتجاه تجربة إيليا أبي ماضي ندرك الفرق الواضح بين نظرة الإسلام ونظرة الوجودية التي استهوت إيليا والفرق بين التجربة في الحس المضلل الشارد والحس المسلم المهتدي، كما ندرك أن غاية الوجود والحياة ليست مصدر حيرة عند الإنسان إلا إذ أغلق على نفسه منافذ الهدى الإلهي.

2- الموت

إذا كانت الحياة هي القوة التي يحس فيها الإنسان بوجوده بدافع الأمل والشعور، والحركة والاستمرار، فإن الموت في معناه شيء مفارق للحياة، متضاد معه، متعارض وإياه. فهو اليد القوية والخفية التي تنقض على حياته.

فكان الموت عند كل الذين يؤمنون في القديم والحديث بانتهاء الإنسان إلى العدم، حيث لا بعث ولا حساب -أي الدهريون والوجوديون- الهاجس الخانق الذي استحوذ على أفكارهم ومشاعرهم، وجعلهم في قلق متزايد ورعب دائم من غموضه. وفي ألم وغربة روحية بفقدانهم اليقين في الآخرة. فمجرد تصور النهاية يجعل الحياة عندهم مجرد وهم من الأوهام، ومجرد شيء تافه لا يستحق أي اهتمام.

بينما كان الموت عند الذين يعتنقون الأديان السماوية، وتصوراتها -وخاصة التصور الإسلامي- ليس مثار فزع واضطراب، بل قدر من الله، فهو انتقال من مرحلة إلى مرحلة فيها بعث وحساب وجزاء... وهو جسر يفضي إلى الآخرة حيث النعيم والشقاء. ولم يستطع الموت عند بعض هؤلاء أن يمنعهم من التفكير في الحياة، أو يسلمهم لليأس والقلق، بل كان دافعا قويا لمواصلة الحياة على الرغم من النهاية المفزعة حاولوا أن يبنوا آمالهم على أساس البقاء والخلود، وعلى أساس أن الموت لا يستطيع على الرغم من إيقافه لنبضات الحياة أن يقضي على إيمان الإنسان بحياة أخرى، لأن الإنسان المؤمن لا يخاف الموت.

وهكذا كان محمود حسن إسماعيل فما كاد يطرب، ويسرح في أجواء الحياة بما فيها من حب وأمل، وحسن وجمال، وما إليها من مفاتن وقيم، حتى يهرع إلى نفسه إلى عزلته.

وعالمه الحقيقي الملىء بالتأمل والتدبر، والخشوع والإيمان. وأعظم ما كان يشده لتذكير نفسه هي مشاهد الفناء والزوال، والشيخوخة والموت، وقد عكسها على الكون بمظاهره وفصوله(2)، وعلى الإنسان بمراحل

---

(1) ديوان إيليا أبو ماضي -دار العودة -بيروت 1986 -ص 191-192.

(2) انظر -فصل الرؤية الكونية -مبحث فناء الكون.

حياته ومشاعره ومصيره. وتجرد التفكير في الموت لم يجعله يخوض حول الحياة أشراكا من اليأس الذي يقتل الأمل ويفقد الشعور بالحياة، بل اعتبر الموت حافزا على تحريك الزمن، وعلى صنع اليقظة الإنسانية المتجددة. كما آمن بأن الموت لو كان هو النهاية والتوقف والعدم. لما كان هناك أي معنى للفداء والتضحية، والعطاء والإيمان، فكلها قيم تبذلها النفس في سبيل استمرار الحياة،وفي سبيل أن تظل تلك الشعلة وهاجة، تشع بنورها المقدس إلى أبد الآبدين. كما لم يرتعد منه، ولم يخشاه على الرغم من مرارته وقسوته، فهو قدر محتوم، وكأس لا مناص من تجرعها، بل يؤكده ليكون مؤثرا، وفاعلا في هذه الحياة من أجل الأهداف الإنسانية السامية والخلاص الإنساني والعبور إلى الخلود الأبدي المنتظر. كان اعترافا في كل الأحوال والمواقف بأن الموت حق، وكذلك الحياة حق آخر(1).

ورأى بعض الدارسين - ومنهم شكري عياد- أن نظرة محمود حسن إسماعيل للموت كانت نظرة حسية سطحية جدا. إذ أن وقفته أمام الموت لم تكن وقفة ميتافيزيقية، لأن الوقفة الميتافيزيقية أمام الموت، تربطه بالمطلق واللامتغير، ولكن وقفته تنطوي على شوق مشبع بقوة الدافع الحسي نفسه(2).

فهل هذا صحيح ؟ في الحقيقة ليس الأمر كذلك لأن الشاعر إسلامي يفهم الأشياء في إطار مرجعية فكرية قرآنية، ومن ثم فكرة الموت عنده يقينية لا سطحية -كما يرى- فدافعه الحسي في فهم الموت كان تأثرا بالتصور القرآني الذي وجد فيه عزاء عميقا لنفسه الحائرة. ذلك العزاء الذي يفتقر إليه الوجوديون ومن سار على هداهم بسبب غياب اليقينيات في تصورهم، وتورطهم في مشكلة التمزق والخوف من الموت واليأس من البعث والخلود، ومدافعة المصير المحتوم الذي ينتظرهم والظلام العدمي الذي يختفون فيه بشكل أبدي وهي تلك مرارة الأزمة التي يعيشها الإنسان البعيد عن الله(3).

وقد كانت الغاية القرآنية تقريب صور من الغيب إلى نفوسنا للتدبر والاعتبار والإيمان واليقين. وكانت صورة الموت محسوسة ملموسة حيث يأتي ملاك الموت فينزع الروح حتى حان أجلها، ثم يجرها صاعدا بها إلى السماء ويبقى الجسد في التراب حتى يوم البعث، حيث تقوم الخلائق ساعية إلى ساعة الحساب، فمن خفت موازينه كان في جنات النعيم، ومن ثقلت موازينه كان في نيران الجحيم. وكانت صور الشاعر متأثرة بتلك الصور القرآنية إلى حد كبير مع ما أضفاه عليها من أساليب فنية ذات إيقاع وتلوين وغموض، وتجسيد وغوص في عالم مرئي ولا مرئي ومشاعر دينية فياضة، مبتهلة غائصة في أعماق الأشياء المحيطة بالموت.

---

(1) د/ مفيد محمد قميحة - الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر-دار الآفاق الجديدة- بيروت- ط1-1401هـ-1981م)-ص392-394.

(2) الرؤيا المقيدة- ص79.

(3) انظر-عماد الدين خليل-في النقد الإسلامي المعاصر-ص165.

أ-تصوير الموت

كان حديث الشاعر عن الموت حديث المتأمل الحكيم، المؤمن المبتعد عن أشياء الموت الفريدة كوصف الشمائل والمواكب واحتدام العواطف بالبكاء والعويل والرفض والاحتجاج والهلع والرعب، بل اقترب من أبعاد الموت وحكمه، مضفيا عليه حزنا وصمتا وجلالا وخشوعا. فتحدث عن سر الكفن والنعش والتراب والرياحين والقبر ودودة القبر، مستمدا منها معان لصياغة فكرة الموت.

ففي قصيدة "النعش"، صور لحظات الانفصال عن الحياة، وعدم جدوى الشعور بها بعد أن وصل موعد الرحيل لمغادرة الدنيا، كما صور زوال الدنيا ساخرا من فتنتها، منذرا من خداعها، متأملا في مفارقاتها العجيبة بين لهوها ورهدها، مندهشا أمام حكمة الموت التي تمنع الإنسان من هذه الأرض الشاسعة عشر أشبار، إذ يقول :

يا غابرا هبط الدنيا فظن بها - مراتع الخلد لا تخشى بسيقدار
فراح يطرب مخدوعا بفتنتها - متاعين لهو وكاسات وأوتار
حتى أدارت له الأيام هازئة - كأسا مرادة من وصمة العار
وكم تزهد لا تنفك مبحثه - مجبولة الثوب من إثم وأوزار
هذا الذي ضاقت الدنيا بمطعمه - نعشه منها كان عشر أشبار[1]

ويؤكد بذلك قوله تعالى ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾[2]، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم" ﴿ كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل ﴾[3]

وفي قصيدة أخرى " هكذا قالت دودة القبر"، استطاع الشاعر برمز الدودة أن يرسم هذا الزوال الدنيوي، إذ تتهاوى العروش والتيجان أمام هذه الدودة وتتساوى أمامها كل الكائنات الحية والشفاة الساحرة والجباه المتكبرة، ويشير بذلك إلى زوال جمال وغرور الإنسان أمام الله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾[4]، وإلى حقيقته تحت التراب وخبر الدود وميزان الأثقال الإنسانية. ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[5]. ويقول على لسان الدودة :

أنا في ظلمة قبري - أرتوي من كل حبر
من رضاب في شفاه العبد - كم اشتفى بسحر

---

(1) أغاني الكوخ-110-112.

(2) الأنعام-32.

(3) العسقلاني- فتح الباري- شرح صحيح البخاري- تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز- تصحيح وإخراج- محمد فؤاد عبد الباقي- محب الدين الخطيب- دار المعرفة- بيروت- لبنان- كتاب الرقاق- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم- ج11- ص233.

(4) المؤمنون-12.

(5) الزلزلة-7 8.

وسراب في جباه العصيد كم أمرى بكبر
كم ملوك دانت الدنيا - لهم ذلوا لأمري
وعروش رصعت تيجانها - حليا لنحري
لي يا ابن الطين ملك - في البلى لو كنت تدري
صولجان الدهر عبدي - ورنه مثقال درّ[1]

أما في قصيدة "التراب" فقد كشف عن سر حقيقة الإنسان، وسر خلقه، وكان رمز التراب تذكيرا شعريا للإنسان بحقيقته التي يخفيها متجاهلا، متغافلا،متكبرا مؤكدا قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾[2]

وكذلك تذكيرا لردع نفسه عن غرورها بعدم وعيها هذا التراب بخيلاء، ونفور من منظره وغباره، بل بالسجود عليه وإطالة السجود. فمنه كان المجيء وانشقاق الوجود، وإليه العودة مهما طال المسير، وهذا لابد من الاتعاظ بالمصير و﴿ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[3]إذ يقول :

تسجدنا عليه، وطال السجود
فقمنا ندوس على جبهته
ومن صدره انشق فينا الوجود
وفي صدره ارتد عن خطوته
وطال المسير ودرنا، وعدنا
سكونا ذليلا على راحته
وعاد كما كان في قلبه
شعورا ضريرا على ذرته
تدور الرياح بأنفاسه
وتجري الأعاصير في كأسه
ويهتز شيء بإحساسه
يلف السباط على كل حي
ويجد الفناء إلى كل شيء[4]..

---

(1) هكذا أغني -ص261

(2) الروم-20 .

(3) آل عمران-185 .

(4) قاب قوسين-ص222-223 .

ثم انتقل إلى تجسيد حقيقة الموت وتأكيدها بمرارتها وقسوتها وحتميتها في صورة امتزج فيها الغيب بالواقع، فصوره كيف يتوغل في هذا الكون وكيف يتسع أقدار وآجال كل البشر باختلاف أجناسهم وأعمارهم وأخلاقهم وكيف يلوح في لحظات فجائية متخفيا،مخيفا، صامتا، غامضا، جليلا، قاهرا. فالموت مصيبة حتى في الوصف القرآني ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾[1]. ولا يمكن لأحد أن يباعد الموت عن خاطره ولا يرعبه شبحه، وهذا يرجع إلى غريزة البقاء التي تمنح شعورا قويا بالحياة، وتعلقا شديدا بها، إلا أن هذا لا يمنع من أن الحياة حقيقة لا شك في انقطاعها، والموت حقيقة لا مهرب من وقوعها،وعليه فالشاعر لم يدع إلى العكوف على التزود من نعيم الحياة والتغافل عن الموت،أو السخط على الحياة والازورار عنها تنسكا واستعدادا للموت. ولم ينصح بتجاهل الموت،أو الانصراف إلى الحياة لأنها ومضة لابد أن تنطفئ، والموت عظة لمن يتهافتون على متاعها الزائل أو يبيعون آخرتهم بدنياهم.

وكانت قصيدة "سارق الضياء" خير وصف للموت الذي يسرق الحياة- على الرغم من قساوة التشبيه - كان وصفا صادقا ودقيقا لاختطافه حياة الناس دون شعور ودون موعد منهم، والذين يسرقهم الموت هم المؤمنون والعابدون والتائبون، وهم المجاهدون والكاذبون والغافلون، وهم الأشقياء والسعداء.وكل السائرون في هذه الحياة ذائقون الموت،و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2]:

وفجأةً تلوحْ
كعاصفٍ ذبيحْ ...
وصمتُه عيونْ
وخطوُه وقوفْ
وسرُّه كهوفْ...
تمرضُ في الشفاهْ
وفي شذا الحياهْ
وفي جبين الساجدِ
وهمهماتِ القاعدِ
وفي يقينِ المؤمنِ
وفي رحيقِ المذنبِ
وفي عذابِ الضارعِ
وفي ضبابِ الخادعِ
وخلفَ كلِّ ساترِ
في غفلةِ المدارِ

---

(1) المائدة-106.

(2) العنكبوت 57.

وَفي شَهيقٍ تائبٍ
وَفي نَفيقٍ كاذِبِ
جَلاَّدُ كُلَّ شَيءٍ
حَصَّادُ كُلَّ حَيٍّ...(1)

وتكمن أسئلة الشاعر في قصيدة " موسيقا من الموت"، فعلى الرغم من إتيانه بحقيقة الموت وأسئلته التي لا ترفض هذه الحقيقة، وإنما تحاول أن تقوده في كل موقف شعري إلى حقيقة أعمق من خواطره ومخاوفه ومعرفته، ليعترف في الأخير بأن حقيقة الموت تظل أكبر من أي تصور بشري قاصر عن إدراك كل أسرارها وغيباتها. وتمضي القصيدة في رهبة وخشوع، والشاعر يلتفت هنا وهناك، ولا يكاد يقبض على كل صور الموت-وإن أدرك بعض الصور المحسوسة- ولم يستطع أن يتعدّ أكثر مما أعقب من صور على الرغم من خياله، فالخيال الإنساني له حدوده، والموت في ذاته حقيقة غامضة البداية والنهاية .

فصور الموت على أنه جبار يخطو وراء الكون، مقنع تتناهات هذا الكون، وساحر يدخل كل الأبواب القريبة والبعيدة، يمشي بلا شبح، يسقي بلا قدح، وأعمى بلا بصر ولا عصا، ليس له سمع ولا صدى. وإنما يقوده الغيب فيعرف كل حي وكل وجه مجهول في هذه الأرض وزائر لا يعرف أدب الزوار والزيارة، لا يستأذن ولا يحيّ، ولا يبالي، بل يداهم، ولا ينتظر أي دعوة، يمر على شيخ هرم، أو فارس يافع وصياد ماهر لم تخب يوما حبائله، لكنه لا يلقي شباكه ولا يحذر أي شيء بل يشد من يشاء، وأنى شاء وسكران لا يدري أين تخبط مشيه، يعترض ماشيا فينسحه، إنه يسكر الروح فلا تحس بأي رحيق، ويلمس الجسد العاتي، فيصبح لا جسد ولا حياة:

لاَ أَرْفُضُ المَوْتَ
لَكِنِّي أُسَائِلُـــهُ
هَلْ ذُقْتَ مَا أَنْتَ بِالإِنْسَانِ فَاعِلُهُ
شَيْءٌ هُوَ المَوْتُ يَا جَبَّارُ
تَكْتُمُهُ حَطَّاكَ أَنْتَ وَرَاءَ العَيْنِ حَامِلُهُ
تَمْشِي بِلاَ شَبَحٍ
تَسْقِي بِلاَ قَدَحٍ
وَكُلُّ بَابٍ وَمَهْمَا أَنْتَ دَاخِلُهُ
أَعْمَى !
عَصَاكَ بِلاَ دَرْبٍ وَلاَ بَصَرٍ
وَلاَ صَدَىً يُرْشِدُ الآذَانَ قَائِلُهُ
وَلاَ يَقُودُكَ إِلاَّ الغَيْبُ

---

(1) لاب فورمين - ص 230- 232.

تَعْلَمُهُ، وكلُّ حيّ بوجه الأرض جاهلُهْ

تَزُورُ

لا أدَبَ الزوّارِ تعرِفُهْ

ولا لَدَيْكَ إلى إذنٍ وَسائلُهْ

وتُبالي إذا داهمتْ

مُنتهبا يدعوكَ

أمْ فارسًا، تمضي تُعاوِلُه

سكنتَ في شرَكِ الأنفاسِ

ترصُدُها كصائدٍ لم تُخِبْ يومًا حبائلُهْ

تشُدُّ مَنْ شِئْتَ

أنّى شِئْتَ

لا شَبَكٌ يُلقى. ولا كفُّ صيادٍ تُطايِلُهْ

ولا انتظارٌ ولا خوفٌ

ولا تحذَرُ مِنْ أيِّ شيءٍ تَوارى فيكَ حامِلُهْ

وتُسكِرُ الروحَ

حتى لا تُحِسَّ بما يُطْوَى رَحيقٌ

بما تَسقِي تُبادِلُهْ!

سكْرانُ

تَخبِطُ في مَاشٍ

فتَستحُهُ توقُّفًا، ويلي سكْرى بجاهلُهُ...[1]

وعدم رفضه الموت و لم تمنعه من وصفه بالقوة والجبروت، والحدة والهول، حيث لا يمكن لأي بشر أن ينجو أو يفرّ منه، مؤكدا قوله تعالى ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[2].واقترب بذلك من وصف أبي العتاهية للموت لما وصفه بالقوة والحدّة والباب الذي لا بد يدخله كل الناس. وإن كان شاعرنا يفضل أن يكون الموت هو الطارق الداخل لكل أبواب الناس، يقول أبو العتاهية :

ـ مَا أشدَّ الموتَ حدًّا ولكِنّ - مَا وراءَ الموتِ حقًّا أشَـــــدُّ[3]

ـ الموتُ بابٌ وكُلُّ الناسِ داخِلُهُ - يَا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ البابِ مَا الدَّارُ[4]

---

(1) موسيقا من السر-ص98-101.

(2) النساء-78.

(3) ديوان أبي العتاهية-ص140.

(4) المصدر نفسه ص168.

كما بدا متأثرا ببعض صور ومعاني زهير بن أبي سلمى الذي يقول :

رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ[1] مَنْ تُصِبْ - تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِي يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ[2]

فزهير جعل من الموت كائنا أعمى، يمشي بلا هدى، ويخبط خبطا عشوائيا فمن يصبه يمته، ومن يخطه يعمر ويهرم، فالموت عنده يصيب الناس على غير نسق أو ترتيب أو بصيرة. بينما وصف شاعرنا أكثر ثباتا من حكيمنا زهير. فإن كان في سيره أعمى، فهو لا يتوه ولا يخطئ، ولا يفرق بين الكبير والصغير، فإنه يقوده الغيب، ويوجهه بالحكمة والقضاء والأجل وقد قال تعالى ﴿ وما كانَ لنفسٍ أنْ تَمُوتَ إلاَّ بإذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً﴾[3]

كما كان مع الشاعر بدر شاكر السياب في وصف الموت بالصياد، إلا أنهما يختلفان في الرؤية اختلافا جذريا. فرؤية شاعرنا فيه تحدٍّ ورضا وإقبال بالموت قضاء وقدرا وحكمة ومشيئة. بينما السياب قد عبر عن ذعره وفزعه ورفضه واحتجاجه للمصير الإنساني حيث يقول متألما متأوها :

كَمْ يَمُضُّ الفُؤَادُ أَنْ يُصْبِحَ الإِنْسَانُ صَيْدًا لِرَبَّةِ الصَّيَّادِ
مِثْلَ أَيِّ الظِّبَاءِ، أَيِّ العَصَافِيرِ، ضَعِيفًا
قَانِعًا فِي ارْتِعَادَةِ الخَوْفِ يَخْتَصُّ ارْتِبَاعًا لأَنَّ ظِلاًّ يُحِفُّ
يَرْمِي ثُمَّ يَرْتَمِي فِي اتِّئَادِ
تَغْلِبُ المَوْتِ، فَارِسُ المَوْتِ، عِزْرَائِيلُ يَدْنُو وَيَشْحَذُ
النَّصْلَ آهِ
مِنْهُ آهٍ يَصُكُّ أَسْنَانَهُ الجَوْعَى وَيَرْنُو مُهَدِّدًا، يَا إِلَهِي
لَيْتَ أَنَّ الحَيَاةَ كَانَتْ فَنَاءً
قَبْلَ هَذَا الفَنَاءِ. هَذِي النِّهَايَةُ[4]

أما آخر صورة للموت، وهي صورة السكران النشوان الذي يسقي الروح ويسكرها والتي لا تخرج عن نطاق التصور الإسلامي دائما، الذي يشبه لحظة الموت بلحظة السكر، وقد قال تعالى ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ. ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[5].

وأمام تلك الصور يعلن دهشته في نهاية القصيدة أمام هذه الحقيقة الجليلة التي تظل من حقائق الغيب الكبرى، التي انفرد بها الله عز وجل، فيسبح لله مسلّما مؤمنا :

---

(1) خبط عشواء : العشواء تأنيث الأعشى وهي الناقة التي لا تبصر ليلا فتخبط يدها على عمى .

(2) ديوان زهير بن أبي سلمى - دار بيروت - 1402هـ - 1982م - ص86.

(3) آل عمران - 145

(4) ديوان بدر شاكر السياب - دار العودة - بيروت - 1971م - مج1 - ص 120

(5) ق 19

وَتَلْمَسُ الجَسَدَ العَاتِي
فلا جَسَدْ
وَلاَ حَيَاةْ
وَلاَ شَيءٌ تُقَابِلُهُ!
سُبْحَانَ مَادِيكَ...
لاَ يَدْرِي لَهُ نَغَمٌ
وَلاَ لأَيِّ مَدًى تَمْضِي قَوَافِلُهُ[1]!

وتجاوز الشاعر البحث عن كنه الموت، مقتنعا بحدود علمه وإمكانه، وراح في قصائد أخرى يؤكد ساعة الموت حين تحين ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2] وحين تجيء بعلم الله و﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾[3] وحين تأتي بغتة ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾[4]

ففي قصيدة أخرى "موسيقا الوداع الأخير"[5] يقف أمام مشهد أكثر عمقا ورهبة لمقدم الساعة التي لن تتأخر بل تجيء وتختفي إلى سر لا ندريه، فينسحب الضوء من سراج الكون، وينسرب الوجود إلى مصيره المحتوم، ويقفر كل شيء، ولا يبقى أمامها أي حيرة أو حلم أو رجاء أو دعاء :

... وانْسَحَبَ الضَّوْءُ، مِنَ السِّرَاجِ الضَّارِعِ المَهْزُومْ
وانْسَرَبَ الوُجُودُ، كاللَّصِّ إِلَى رَمَادِهِ المَحْتُومْ
وَأَقْفَرَتْ! لَمْ يَبْقَ حَتَّى حُلْمُ عُودٍ فِي رَفَاتِ لُمْزَهْ
وَلاَ فَتَاتٌ بِذُرَى حَمْقَاءَ، يَهْوِي غُصْنُهَا أَنْ يَسْتَزِدَّ زَهْرَهْ!
وَلاَ مَنَارُ دَعْوَةٍ أَخِيرَةٍ إِلَى سَمَاءْ
وَلا مَدَارُ حَيْرَةٍ ضَرِيرَةٍ إِلَى رَخَاءْ
وَلاَ حُوَارٌ[6]، عَنْتَةٌ مَقْهُورَةٌ إِلَى ضِيَاءْ
رِثَاهُ.. وَيْلٌ سَاعَةٍ أَنْغَامُهَا فِي نَايِهَا مُكَرَّرَهْ..
تَجِيءُ، ثُمَّ تَخْتَفِي... ثُمَّ تَعُودُ فَوْقَ شَرّ...
... لَسْتُ أَدْرِي حَيْرَهْ[7]

---

(1) موسيقا من السر-ص 101-102.

(2) الأعراف-34.

(3) الأعراف-187.

(4) يوسف-107.

(5) قالها في رثاء د.محمد غنيمي هلال.

(6) حوار: حار رفع صوته مع تضرع واستغاثة ودعاء.

(7) صلاة وقصائد أخرى، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، المطبعة الفنية ط 1 1979، ص 152 153.

فإيمانه بقدر الموت وحتميته ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[1]، جعله يكره الاندهاش أمام الجنائز، ويكره الإصغاء للدموع والإفضاء إلى الرثاء والأحزان :

... مِنْ أَجْلِ هذَا
أَكْرَهُ الإِيمَاءَ، ولا نَدَمَاشَةَ الجَنَائِزِ
وَأَكْرَهُ الإِصْغَاءَ للدُّمُوعِ.. مَهْمَا حَوَّمَتْ غَرَائِزِي
وَأَكْرَهُ الإِفْضَاءَ بِالأَحْزَانِ مَهْمَا خَبَّأَتْ جِرَاحُهَا
لِشَمْسِي
وَأَكْرَهُ الرِّثَاءَ وَالبُكَاءَ، حَتَّى لَوْ رَأَيْتُ نَعْشِي[2]

ب - تصوير ما بعد الموت

ارتبط الموت عند الشاعر بفكرة البعث، وترددت كثيرا في أشعاره، وكانت من دواعي إيمانه ويقينه بالحياة ما بعد الموت، وبالحساب والجزاء والجنة والخلود. ولهذا كان الموت عنده لا موتا بمعنى الفناء، وإنما رحيلا وانتقالا من حياة إلى حياة أخرى. ولهذا فهو يدعو الله أن يمدد في حياته وأجله حتى يحقق قبل الرحيل بعض الأمل والمتاب، ويتوسل إليه أن يؤجل موته حتى يخارب ظلام نفسه بحثا عن النور، وهو توسل إيماني لنفس تبحث عن جوهر هذه الحياة. ويرمز هذه المرة إلى الموت بالتراب كرمز للنهاية الأكيدة :

يَاللهِ ... يَا تُرَابْ
أَمَا لَدَيْكَ بَابْ ؟
يُخْفِيكَ عَنْ عُيُونِي
وَعَنْ مَدَى ظُنُونِي
فَلَمْ تَزَلْ حَيَاتِي
تُرِيدُ كُلَّ آتِ...
وَأَرْمِي فِي ذَاتِي
أَبْحَثُ عَنْ خَبَايَا
أَسْتَلُّ مِنْ دُجَاهَا
وَمِنْ حَوَى ضُحَاهَا
مَا يَرْفَعُ الظَّلَامَا
وَيَقْهَرُ الظَّلَامَا

---

(1) الواقعة-60 .

(2) صلاة ورعشي ص154.

ضَوْءًا لِكُلِّ سَارِ
إِلاَّ خُطَا غُبَارِي(1)...

ومن خلال عنوان "سفني أقلعت" نستشف أكثر من أن الموت عند الشاعر رحلة إلى حياة أخرى، فسفنه هي قلبه ونفسه وروحه وعمله وعمره... هي كل حياة الإنسان التي أقلعت وأرمعت على الرحيل، وقبل الارتحال أبدى حزنه الإنساني في كيفية أخذ الزاد معه، وخشوعه للتهيؤ للآخرة، وخوفه من الحساب. كما أبدى رفضه لأي سؤال أو دهشة أو عرقلة تصده عن رحلته، فسفنه تشق عباب نفسه هاتكة الحجب، تنفض عنها غوائل الأمس وتهويماته، وتخوض بالروح غيب الشروق وتنادي الغد البعيد :

مِثْلَمَا تَشْهَقُ الدُّمُوعُ دُعَوْنِي
أَذْرِفُ السِّرَّ مِنْ بَقِيَّاتِ وَمْضِي
لاَ فِرَاقٌ وَلاَ وَدَاعٌ
وَلَكِنْ رِحْلَةٌ مِنْ ضِفَافِ بَعْضِي لِبَعْضِي
لاَ شِرَاعٌ وَلاَ سَفِينٌ
لَكِنْ زَوْرَقٌ يُوفِظُ مِنَ سَمَاءِ رُوحِي لأَرْضِي...
سُفُنِي أَقْلَعَتْ.. وَمَا كُنْتُ فِيهَا
إِنَّمَا كَانَ سَبْحُهَا فِي عُرُوقِي
تَمْخُرُ المَوْجَ. وَهُوَ قَلْبِي
وَتَجْتَاحُ زَبَدَ الرِّمَاحِ، وَهُوَ طَرِيقِي
وَتَشُقُّ العُبَابَ هَاتِكَةَ الحُجْبِ
لِرَعْدِي، وَعَصْفِي، وَبَرْقِي
تَنِيمُ مِنْ وُقُوفِهَا فِي الكَرَى الدَّاجِي
فَتَخُوضُ بِالرُّوحِ غَيْبَ الشُّرُوقِ
تَنْفُضُ الأَمْسَ مِنْ شِرَاعٍ عَلَيْهَا
مَلَّ تَهْوِيمَةَ الضِّبَابِ العَتِيقِ
وَتُنَادِي الغَدَ البَعِيدَ...(2)

وعند نقطة الوصول بعد الإقلاع والإبحار -أي الاتجاه نحو المأوى أو المآل أو القبر- يزول كل ما يشده إلى الأرض، كما يفر كل شيء من كيانه، وينحني وجهه إلى التراب فرارا من ذاته أو نفسه المملوءة بأثقال الحياة وأوزارها وفضائلها، ويبقى ينتظر في خسر ووجل رجوع نفسه إليه للعبور نحو الحياة الأخرى، لكن حتى يراها الله -أي يحاسبها- حيث قال عز شأنه ﴿ لِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ.إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

---

(1) غاب نوسين-ص233-234

(2) صلاة في القدس ص160

الحساب»[1]. ويصور الشاعر لحظات انفصال الروح عن الجسد والشعور السرمدي بالانتظار مجسدا بذلك واقعا من الغيب والرمز :

... ثُمَّ غادرتْ، ولستُ فيها
ولكنْ، كلُّ ما في كيانها فرَّ مني
فرَّ من وجهي، الذي فرَّ منهُ
طائري، واختفى إلى الترب غصني
فرَّ من سمعي الذي كانَ نايا
لصلاةِ الضحى بمحرابِ فني
فرَّ من ذاتي التي
آهِ.. لن ترجعَ ذاتي
إنْ لم يرَ اللهُ سفني (2)

ويواصل الشاعر رحلته مع الموت ليصل إلى مؤشر كوني أعمق هو الانتهاء الكلي لكل ما في الكون من محسوسات وكائنات طبيعية وبشرية، وذلك في قصيدة "صلاة الرماد"، إذ صور ذلك الانتهاء في أبسط وأعمق الأشياء والظواهر، والقيم والمعاني المبثة في الكون والحياة.. في السكون، والقبور والرماد والخريف، في ندم العصاة، وجرح الأساة، وأحلام العاشقين، في حمائل باكيات الظلال،وغدران ظامئات المياه، وليل حالي النجوم، وعطر باكي شذاه، وحنات دنيا رائلة، فيها شرور وذنوب، وضلال سنين... وقد عكس نهاية الإنسان على نهاية الكون بالخوف والحزن، والصمت والأنين والنوح، والرجاء والصلاة... وراح يتساءل بعد أن انتهى كل شيء، ولم يبق أمامه إلا تلك المشاعر الممزوجة بالبكاء والرجاء حينا، والتوبة والصلاة حينا آخر عن أرض أخرى، يجدد فيها الحياة.. ويقيم فيها الصلاة، إنها بلا شك الحياة الآخرة :

... تلفَّتُّ فاهتزَّ فيَّ الرمادُ
وشبَّتْ من الموتِ رؤيا لظاهْ
وآومأ إليَّ سكونُ الزوالِ
فضجَّتْ بجنبيَّ نارُ الحياهْ..
وهبَّتْ قبورٌ سلاها الفناءُ،
ولم يبقَ فيها لباكٍ شكاهْ..
سلونا وضعنا، وضاع الرَّبابُ
وصرنا خريفا، جفاهُ الرُّعاهْ
وكلُّ الذي كانَ في كأسنا

---

(1) إبراهيم- 51 .

(2) صلاة ورقص- ص 163 164

بقايا الندامة عند العصاة...
فمن أين يا ربّ هذا العناء
ولا أرض فيها تقيم الصلاة(1)

ولعل تساؤل الشاعر لم يكن يأسا وانهيارا، إنما باعث لإدراك أسرار الحياة والموت. وتحذير لأي تشبث بما هو زائل وفان، وأي تحسر أو ندم عما فات. ولم نجد الشاعر إلا رمز نوح عليه السلام والسفينة والنجاة من الطوفان الذي عم الكون. وعند الشاعر كان طوفان النهاية، وكانت سفينة للاقلاع والرحيل للاستجارة والنجاة والأمل في حياة أخرى. حيث تورق أغصان الزوال بعد أن يندلع فيها الرماد. وبذلك يكون قد صاغ في قصيدة "صلاة الرماد" أمل البعث في أسلوب ملحمي غنائي. فهو يغني هذا الرماد ويجدد روحه بهذه الصلاة :

وبحر من التيه ناءي الضفاف
تلاشى وأوغل بي شاطفاه
عبرنا بأمواجه اللاهثات
عذابا، تململ الليالي سراه
على زورق مستجير الشراع
تلجلج(2) في لجة، ثم تاه...
تعالي: فإني منادٍ غريبٌ
على قمة لم تقم فيها حياة
عبرت الليالي. يناتي شفيّ
وقلب ظمي، يساقي صداه
فهيا نغني لهذا الرماد
لعل البلى تنتهي من ثراه
ونغنو ربابا لفجر الربيع
وحلما عميقا، يناغي كراه
تعالي.. فما في عذاب الخريف
لأرواحنا غير تلك الصلاة(3)

وفي كل مواقف الشاعر وحالاته الشعرية لا تفارقه فكرة النور عقب الظلام والخصب إثر الجدب، والحياة بعد الموت، مؤمنا بالله الخالق القادر، المحي والمميت وقد قال عز وشأنه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا

---

(1) قاب قوسين-ص186-188.

(2) تلجلج : اضطرب وتردد .

(3) المصدر نفسه 192 193

المصير﴾[1]. وبذلك يكون قد خرج من دوامة الشك والحيرة التي تساور الكثير من الشعراء كإيليا أبي ماضي وأبرز الشعراء اللاأدريين-الذين تساءلوا بمرارة عن وجود الإنسان، وسر مجيئه ومصيره، فكانوا يصطدمون بالأسرار والألغاز ويحسون بالعدم والضآلة والجهل .حيث يقول :

أَوَرَاءَ القبرِ بَعْدَ الموتِ بَعْثٌ ونُشُورٌ ؟
فَحَيَاةٌ فَخُلُودٌ، أَمْ فَنَاءٌ وَدُثُورٌ ؟

أَكَلَامُ النَّاسِ صِدْقٌ أَمْ كَلَامُ النَّاسِ زُورٌ ؟
أَصَحِيحٌ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَسْرِي
لَسْتُ أَدْرِي [2]

ويربط الشاعر بين حقيقتي الحياة والموت في قصيدة "هناك اليراقع" بمقاطع امتزج فيها حسه الديني العميق مع لغته الشعرية الرقيقة وصوره الرمزية الشفافة، واستطاع أن يجمع بين هذين القطبين -أي الحياة والموت- محققا أسمى الغايات الروحية، بإدراك جوهر الحياة لما تكون متوجهة إلى الله، والغاية من الوجود الإنساني، عبادة الله وتقواه. ولهذا فهو يفضح أولئك الذين حادوا عن الغاية :

وَقَالَتْ، وَقَدْ أَبْصَرْتُ رَاكِعًا
يُسَبِّحُ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةْ
أَهَذَا تَقِيٌّ
فَقُلْتُ اسْكُتِي.شَيْخٌ من المسن عَادَتْ خُطَاهْ
يَدُبُّ بِهَا فِي هَدِيرِ الفِنَاءْ
وَيَلْعَقُ أَوْهَامَ صَيْدٍ تَرَاهْ
ذَعِيه يُسَبِّحْ كَمَا يَشْتَهِي
فَمَا عَادَ شَيْءٌ يُسَمَّى إِلَهْ
سِوَى اللهِ فِي مُلْكِهِ..
لَا تَرَى.. وَلَا يَعْبُدُ النَّاسُ رَبًّا سِوَاهْ[3].

ويحذر من مغبة النهاية وهول المصير، وساعة النشور كل من يعيش حياة الغفلة والجهل والوهم، والجحود والغرور... ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[4]يقول :

وَقَالَتْ : وَقَدْ أَبْصَرْتُ صَالِحًا
فَصِيحَ اللِّسَانِ كَصَبِيحِ الغَمَامْ

---

(1)ل-43.

(2) ديوان إيليا أبو ماضي-ص203.

(3) نهر الحقيقة ص42 43 .

(4) الأنعام 31.

ثم ينتقل إلى وصف ريف الحياة وروائها مذكرا بفناء كل الأحياء والأشياء، وما يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام... مؤكدا حرية الحياة والعيش فيها بكل كرامة وسيادة مع التفكم في حدود الأخذ من لحظاتها والحذر من الوقوع فيما لا يحمد عقباه ويحسب عليه:

وَقَالَتْ : وَكَانَ الأَمْسِ عَابِرًا
عَلَى وَجْهِهَا الشَّاعِرِي الحَزِينْ
وَرَيْحَانَةٌ سَقَطَتْ فِي الطَّرِيقِ
فَدَاسَتْ عَلَيْهَا خُطَا السَّائِرِينْ
وَمَاذَلِكَ الأَمْرُ؟
قُلْتُ اصْمُتِي
غَدًا مِثْلُهَا فِي الثَّرَى نُصْبِحِينْ!
يَشِيبُ الجَمَالُ... يَشِيبُ الشَّبَابُ
تَشِيبُ الحَيَاةُ
تَشِيبُ السِّنِينْ
خُذِي مَا تَشَائِينَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
حَذَارِ الَّذِي عَنْهُ
مَا تَسْأَلِينْ (1)

ويعلق الدكتور لويس عوض على أن هذه المقطوعة تجيب على لغز الحياة والموت، إلا أنها إجابات لا تؤدي إلى الله.فهو يقصد من "خذي ما تشائين".. أنه ليس بعد الحياة حياة ولا بعد الموت بعث ونشور(2).إن هذا المعنى لا تؤكده مقاطع القصيدة كلها،ولا تؤدي إلى النفي الأعظم لتلك الحياة-كما يقول-لأن الشاعر في المقطوعة التالية يحلم بفردوس الجنة، بصفائها وسحرها وأنهارها وحورها وطيورها وكل ما يسر الناظرين:

وَقَالَتْ : حَلَمْتُ بِفِرْدَوْسِ حُبِّ
وَأَنْهَارِ سِحْرٍ
بِلاَ شَارِبِينْ...
وَحُورٍ تُرَفْرِفُ مِثْلَ الطُّيُورْ
فَتُسْكِرُ أَسْرَابُهَا النَّاظِرِينْ
فَمَاذَاكَ ؟
قُلْتُ : احْلُمِي كَيْفَ شِئْتِ!

---

(1) نهر الحقيقة-ص52 53.

(2) لويس عوض تقديمه في معرض الكتاب بيروت ط2 1983 ص88.

وَكَيْفَ بِهَذَا تَسِيطُ الحَيَاةُ ؟
وَيَرْحَفُ إِصْرَارُهَا لِلنُّشُورْ
لَقَدْ نُفِخَ الصُّورُ فِي كُلِّ شَيءْ..
فَمَا بَالُهُ فِي صَدَاهُ يَدُورْ ؟
وَمَا بَالُهُ وَاقِفًا فِي خُطَاهُ
وُقُوفَ العَصَا فِي يَمِينِ الضَّرِيرْ ؟
وَمَا بَالُهُ ؟
قُلْتُ : لاَ تَسْأَلِي
فَهَذَا الَّذِي مِنْهُ مَاتَ المَسِيحْ[1]

وتحتج على وجود الإنسان المادي والزائل وإن كان قد أكد أن التراب أصل هذا الوجود فإنه يؤكد هنا أن هذا الوجود ماهو إلا خيال وظلال أمام الحقيقة النورانية.لأن جوهر حقيقته هي الروح.والروح قبس من النور الإلهي، فقوله:أنا حيارى سكارى كأنه اقتراب من نشوة الصوفية التي ترى بأن الكون سكران أثناء وجوده الزمني المحدود بالخمرة الإلهية[2]:

وَقَالَتْ : وَهَذَا المُغَنِّي بِكُلِّ الرَّبَابْ
وَلَمْ تَشْدُ مِنْهُ وَتَرْ
وَلَمْ يَشْدُ بِأَنْغَامِهِ فِي الفَرَاغْ
نَجْوَاهُمَا فِي الدُّجَى المُنْكَرْ...
فَقُلْتُ : اعْذِرِيلَنْ يَعِيَ[3] الوُجُودْ
لِغَمْرِ الَّذِي مِنْ يَدَيْهِ سَكَرْ
حَيَارَى، سُكَارَى.مِنَ النُّورِ حِقْنَا
وَلِلنُّورِ نَمْضِي خَيَالاً عَبَرْ...
هَوَى الرُّوحِ خُلْدٌ بِأَعْنَابِهَا
فَمَوْتُ الكُرُومِ حَيَاةٌ،
تَثُورُ عَلَى المَوْتِ
شَوْقًا لأَعْنَابِهَا[4]..

---

(1) نهر الحقيقة - ص44 .

(2) انظر-محمد عبد المنعم خفاجي-الأدب في التراث الصوفي- دار غريب- القاهرة- 1980م-ص181-182.
كذلك د/عاطف جودة نصر-الرمز الشعري عند الصوفية- دار الأندلس- بيروت- ط3- 1983م- ص-366-367.

(3) يعي: أصاخ : استمع وأصغى .

(4) نهر الحقيقة 46 48

وبا ضَيْعَةَ العُمْرِ لِلْحَالِمِينْ
زُهُورِي حَوالَيَّ، إِنْ لَمْ أَذُقْهَا ..
أَيَسْقِي شَذَاهَا رُبَى النَّائِمِينْ
أَفِيقِي مِنَ الوَهْمِ
لَنْ تَعْرِفِي مِنَ السِّرِّ
إِلا الَّذِي تُبْصِرِينْ(1)

ويرى لويس عوض حتى في هذا المقطع حزم الشاعر بعدم معرفة ماوراء الحجاب من أسرار، وأنه يؤكد بأن الجنة وهم من أوهام الخيال مشيرا إلى قوله "أفيقي من الوهم... لن تعرفي من السر إلا الذي تبصرين". إننا لا نشك أن الشاعر لا يؤمن بالجنة، لأنه يقصد أنه لا ينبغي أن يطمئن المرء أسير أحلامه وأمانيه دون الإحساس بالواقع، والعمل النقي من أجل الوصول إلى النهاية السعيدة. كما أنه كان واقعيا في تصوره، لأنه لن يصل مهما حاول-حتى بالإيمان الغيبي إلى كشف كل ما في الغيب، وتبقى من علم الله لا من علم البشر(2).

ولم أعثر على شعره على شبهته في البعث أو إثارته لريب ولبس، فهو يرى بأن الموت حق، والبعث حق، وإن كان حديثه لا يقتصر دائما على الرغبة الدائمة للفوز بالجنة،لأنه يأمل في حب الله وعفوه ورحمته. ولأن طريق الحياة الذي يسير فيه شائك وشاق،مخفّه العناقيد والأقداح من كل جانب، رمز اللذات والإغراءات.ولكنه يؤثر أن يظهر هذا الطريق ويعبره دون أن يرتوي ويعب من تلك الأقداح.وسر عزوفه عن الارتواء من أقداح الحياة على الرغم ظمئه الفطري إليها وهو خوفه الدائم من الكأس الأخيرة، كأس المنية التي ينطفيء فيها كل وهج. وكذلك شعوره بتقوى الله وحساب أحمر بعد الموت. وهذا الشعور لا يكون إلا في قلب المؤمن :

وقَالَتْ:أَحِبَّنِي
أَتَتْكَ الكُرُومُ، وَأَقْدَاحُهَا
عَاطِشَاتُ الرَّحِيقْ
وَمَالَتْ عَنَاقِيدُهَا فِي خَطَاكَ
فَحَمَّرْتَهَا
وشَرِبْتَ الطَّرِيقْ
لِمَاذَا ؟..
وَأَنْتَ عَلَى قَطْرَةٍ مِنَ الشَّوْقِ

---

(1) نهر الخفيفة-ص54-55 .

(2) انظر-توطئة هذا الفصل .

المبحث الثالث

التذكر

1- المجاهدة.

2- التوبة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تَنهلُ نارَ الحَريقْ
تَميلُ فَتَنأى
وَتَنأى فَتَشْقى
وَتَشْتاقُ طَيْفَ البَريقْ ؟
فَقُلْتُ: أَخافُ اخْتِدامَ الغُرُوبْ...
إِذا ذابَ في الكأْسِ
كُلَّ الشُرُوقْ (1)

وكان بلويس عوض فهم مغزى القصيدة-وكأنه لم يفهمها-وقد وقع أثناء تحليله في كثير من التناقضات.ففي هذه المقطوعة الأخيرة يشعر بإيمان الشاعر إلا أنه يرى بأنه إيمان تقليدي، لا صوفية فيه إيمان بالعقل أو بالتسليم، لا بالوجد والعشق. ولو أنه كان إيمانا بالوجد والعشق لكان من إيمان الصوفية ولاختلطت فيه معطيات الحواس ولفتح الباب أمام المعرفة اللدنية أو ربما شرب من أقداح عمر الخيام التي يقال أنها الوجه الآخر لأقداح الخمر الإلهية(2).

فلا ضير أن يكون إيمان الشاعر تقليديا أفضل من أن يدخل عالم الصوفيين دخول المغالاة والتطرف، وإن اتخذ بعض وسائلهم الروحية والفنية، فإنه مقتنع بمحدودية الإدراك الإنساني الذي يتجاوز الإيمان العقلي والواقعي.

لقد غالى لويس عوض في تفسير مواقف الشاعر من الحياة والموت فتارة يقارنها بالمواقف الصوفية، وتارة أخرى بالمواقف الكانطية التي تقول بأن الشيء في ذاته غير قابل للمعرفة والإدراك، وتارة أخرى بالمواقف الأفلاطونية التي تنشد المثالية في الحياة.وينتهي إلى أن محمود حسن إسماعيل لم يهتك أمامنا البراقع وإنما أسدل الأستار، وتركنا في حيرة أشد وأقسى(3).

لكن الأمر في الحقيقة غير تلك الأحكام التعسفية، لأن رؤية الشاعر واضحة بانشغالها بأكبر حقائق الكون والإنسان والحياة وتساؤلاته دائما لها إجابات روحية. وفي هذه القصيدة، وفي غيرها كان يهتك براقع كل ما يراه ويتأمله، ويعيشه ويشعر به، كاشفا عن كثير من الألغاز والمجاهيل والتساؤلات والرؤى. وإن كانت تعيقه أحيانا رموزه وإيحاءته وزخمه الشعري الكثيف، مما يصعب الوصول إلى مقاصده بسهولة، ويثير بعض الجدل عند مناقشة شعره.

---

(1) نهر الحقيقة-ص58-59.

(2) تفاحة في مفترق الطرق- ص89.

(3) المرجع نفسه ص90.

يذهب ابن قيم الجوزية إلى أن التذكر[1] ضد النسيان، وهو حضور صورة المذكور في القلب، واختير له بناء التفعل لحصوله بعد مهلة وتدرج كالتبصر والتفهم والتعلم، وأبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع بالعظة، والاستبصار بالعبرة، والظفر بثمرة الفكرة، والانتفاع بالعظة هو أن يقدح في القلب، قادح الخوف والرجاء، فيتحرك للعمل طلبا للخلاص من الخوف، ورغبة في حصول المرجو، والعظة هي الأمر والنهي. أما استبصار العبرة فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه في منزلة التفكر بقوة الاستحضار، لأن التذكر يعتقل المعاني التي حصلت بالتفكر في مواقع الآيات والعبر، فهو يظفر بها بالتفكر وتعتقل له وتتجلى بالتذكر[2].

والتذكر قرين التقوى، يقول الله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3] ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[4] وهذه الآية تفيد أن مس الشيطان يعمي ويطمس ويغلق البصيرة. ولكن وشيجة تقوى الله ومراقبته ومحاسبته، تفصل المتقين بالله، وتوقظهم من غفلتهم، فيتذكروا وتتفتح بصائرهم وتنكشف الغشاوة عن عيونهم، فإذا هم مبصرون. [5]

والتذكر قرين الإنابة ويقول عز شأنه في ذلك ﴿ ... تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[6] ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[7] والعبد كما يقول ابن قيم إذا أناب أبصر مواقع الآيات والعبر. ورأى الإعراض بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة[8]. وتستقيم الإنابة إلى الله أو الرجوع إليه بثلاثة أشياء، بالخروج من التبعات، والتوجع للعثرات، واستدراك الفائتات والخروج من التبعات بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله، والتوجع للعثرات أن يتوجع لعثرته إذا عثر فيتوجع قلبه ويتصدع، واستدراك الفائتات هو استدراك مافاته من طاعة وقربه بأمثالها[9].

وأعمق وصف للرجوع إلى الله، وصفه عز وعلا بالفرار إليه حيث يقول ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ. إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ

---

(1) التذكير : تذكر-استذكر والتذكر نقيض النسيان وهو استحضار الشيء في القلب والعلم به- انظر- ابن منظور- لسان العرب- ج3-ص1508 .

(2) ابن قيم الجوزية-مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين- تحقيق محمد حامد الفقي- دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان-(1392هـ-1972م)- ج1-ص442-444.

(3) الحاقة-48 .

(4) الأعراف-201

(5) سيد قطب- في ظلال القرآن-ج8-ص1420.

(6) ق-8.

(7) غافر-13 .

(8) مدارج السالكين-ص442 .

(9) المرجع نفسه -ج1-ص436 .

مُبِينٌ﴾[1]. لأن التعبير بلفظ الفرار - كما يرى سيد قطب - عجيب حقا، وهو يوحي بالأثقال والقيود، والأغلال التي تشد النفس البشرية إلى هذه الارض وتثقلها عن الإنطلاق، وتحاصرها وتأسرها ويجيء الهتاف قويا للانطلاق والتملص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود، الفرار إلى الله وحده منزها من كل شريك[2] أو كما يرى القرطبي أنها دعوة تحمل معنى التحذير والاستدعاء، أي فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمان، فروا من الكفر إلى الشكر، فروا من أنفسكم إلى ربكم، فروا مما سوى الله إلى الله.فروا إليه بالتوبة[3].

ويبدأ الفرار إلى الله بمجاهدة النفس ومخالفتها وخاصة النفس الأمارة. كان يعود إليها بين الفينة والأخرى لكي يناقشها ويصارحها ويحذرها ويعاتبها ويرغبها إلى خالقها وفاطرها، ويقيها شرورها وفجورها ويزكيها ويواتيها تقواها، وكما يقول أبو حامد الغزالي" << اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، فرارة من الخير. وأمرت بتركيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها من شهواتها وقطامها عن لذاتها -فإن أهملتها جمحت وشردت- ولم تظفر بها بعد ذلك. وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة، كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية. فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تستعن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولا بوعظ نفسك .>>[4].

فجهاد النفس إذن أو مجاهدتها هي بذل الجهد بتخليص النفس من الصفات المعلولة والأخلاق المذمومة حتى تشرق عليها أنوار الحكمة وتتوارد عليها أمن الإلهية وتحظى بالقربة والرضوان[5].وأبرز ما يلازم طريق الفرار إلى الله أيضا هي التوبة، لما لها من الأثر الطيب في الجانب العقدي الإيماني، فهي من أبرز الوسائل الروحية التي أكدها القرآن الكريم نفعها في العديد من الآيات البينات ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[6]،﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[7]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[8]. فهي من أحب القربات إلى الله لما فيها من الانكسار والاستغفار والخضوع له سبحانه، وتفسح مجالا واسعا لإصلاح النفس الأمارة بالسوء وتنقيتها وتطهيرها .تواجهها بالنفس اللوامة التي تضيق بالمنكر، وتشاك بأشواك الندم. وكما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ الندم توبة ﴾[9].

---

(1) الذاريات-50.

(2) سيد قطب-في ظلال القرآن-ج27-ص3386 .

(3) القرطبي-الجامع لأحكام القرآن-دار إحياء التراث العربي-بيروت-ج17-ص53-54 .

(4) أبو حامد الغزالي-إحياء علوم الدين-دار المعرفة-بيروت-ج4-ص416 .

(5) عبد الفتاح عبد الله بركة-في التصوف والأخلاق-ص110.

(6) التحريم-8.

(7) النور-31 .

(8) البقرة-222.

(9) ابن ماجة القزويني-تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي-كتاب الزهد-باب ذكر التوبة-دار الفكر-ج2 ص1420 .

حيث تجعل الإنسان في حالة خوف من ربه، ورجاء في عفوه ومغفرته، فيفر إليه مسرعا لاستدراك ما فرط منه، ومصالحة ربه بالتوبة إليه.ففي الفرار إلى الله-كما يقول القشيري- يكون بأحد الحالات إما حالة رغبة في شيء أو حال رهبة من شيء، أو حال رجاء أو حال خوف. وفي كل الحالات ينبغي أن يكون فرار إلى الله تعالى وتتم بذلك النعمة العظمى وهي الخروج من النفس. لأن النفس أعظم حجاب بين المرء وبين الله عز وجل، ولذا فمخالفتها رأس العبادة[1]. وإذ ذاك يلقاه ربه بالرحمة والمغفرة ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾[2]، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا.﴾[3].

لعل بعد مرحلة التذكر التي مر بها الشاعر، أصبح ذهنه مهيئا لاستخراج العبر واستنباط الحكم، وقلبه ممتلئا بالانتفاع بالعظة والعبرة.ليتوالى بعدها منزلة التذكر، فتذكر الله، الجنة، الخلود، الحساب، العقاب، زوال الدنيا، بغتة الموت، حكمة الابتلاء، نوازع لنفسه وتقلبها بين السور والظلام، الألم والأمل، الحزن والفرح، الشك واليقين، الخطيئة، والندم. كل هذا التذكر يجعله يضطرب وتضيق به نفسه، ويندفعه الندم على ما فرط فيه ولا يجد سبيل القرار والاطمئنان، إلا أن يتدارك نفسه بالعودة إلى الله والإنابة إليه، والتماس الهدى والنور <<وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ.>>[4] مسارعا إلى تطهيرها وتزكيتها بالدخول في رحاب الإيمان، واللجوء إلى حمى ربه فارا من أسباب العذاب والعقاب إلى باب الرحمة والثواب، مواظبا على مراقبة نفسه ومحاسبتها حتى يكون مع الله في جميع أحوالها، مستحضرا جلال الله، آملا أن يكون من الذين قال تعالى فيهم ﴿ وَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾[5].وقد عبر الشاعر عن استشراف نفسه آفاق التوبة إلى الله، مصغيا إلى وجدان الزواجر والمواعظ، ليتذكر ويخشى دون يأس أو تردد. ويستأنف توبته كلما شعر بضعفه وحمقه، باستشعار التأسف والندم موبخا محذرا منذرا نفسه تارة، مهددا داعيا مبشرا تارة أخرى. مستعينا بذلك على المشاهد والمواقف التي تثير نفسه وترعجها وتفزعها والمواعظ والرغائب التي تهيج رغبتها فيما عند الله وتزكيها، وتحرها لعبادة الله خالصة.

ويظل الشاعر دائما مع وسيلته الروحية والفنية "الرحلة"، فالرحيل عنده ثورة وتغيير، أهبة واستعداد، تفكر وتدبر، فرار وتوبة...وأعمق رحلة كانت مع نفسه التي حاول أن يسمو بها بالرحيل إلى الله وتكون رحلة حياة قبل أن تكون رحلة موت، يتتبع فيها نوازعها وغرائزها وتناقضاتها وأغوارها، ويتأمل ما يخالجها وما

---

(1) عبد الكريم القشيري-الرسالة القشيرية في علم التصوف-شرحه وعلق عليه-زكريا الأنصاري-دار الكتاب العربي-بيروت-ص46 .

(2) طه-82 .

(3) النساء- 110.

(4) الزمر-54 .

(5) الأنفال -2.

ينبغي أن تكون عليه من أجل الالتحاق بدرب النور والحقيقة والوصول إلى الله. وكان ديوان قاب قوسين(1)، ديوان تأمل وتعبد وخشوع واعتراف وفرار ورحيل. فكان قاب قوسين أو أدنى من الوصول إلى النور والله << فأينما سرت في قراءة هذا الديوان رأيت نورا يملأ فجاج الأرض ومسالك السماء. بل رأيت نورا يملأ كل كوة في نفسك، ويفيض عليها بإشراق جديد >>(2).

واستلهم الشاعر هذا الديوان من معنى الآية الكريمة << فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى >>(3) التي وردت في رحلة الإسراء والمعراج للرسول صلى الله عليه وسلم وكانت تعبيرا عن منتهى القرب من الله حيث كان أقرب ما يكون منه على بعد ما بين القوسين أو أدنى(4).

وكانت بداية الديوان استعدادا شعريا جميلا لهذه الرحلة، حيث تبدأ مع لحظات الإفاقة والتيقظ ومع هدير الشروق بأول مقطع شعري فيه روعة التمني والخشوع :

مَعَ هَدِيرِ الشُّرُوقْ
وَهُوَ يُفَجِّرُ صَحْوَ الأَعْمَاقْ
مع الإيمانِ وَهُو يشتَزِدُّ ذاتَه
وَالمَوْجُ يَجْرِفُ الهَشِيمْ
وَالرِيحُ تَعْزِفُ الرَّبَابْ لِلسَائِرِينَ نَحْوَ النُّورْ
الشَاطِئُ قَرِيبْ
والضُحَى
قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (5)

إن الشاطئ قريب والضحى قاب قوسين من النور. وكل رموز الارساء والاقتراب والوصول ليست من الأوهام والخوارق والنور ليس ببعيد، لأنه اليقين الذي يدعو به الشاعر نفسه للإيمان والثبات الذي يشرك به هذا القاب من النور فيدعوها أن تنفض ذاتها من الأدران والخطايا،ولا تبقي غير زاد الزاد ليوم الزحف الكبير، وتستزد مافاتها. يدعوها لتسمع في انطلاقاتها أنغام الهدير وتمنيها في هدوء وحبور بالوصول والاقتراب من ضفاف النور الساكن في الأعماق، وقد انتقل انتقالا بارعا من قاب قوسين إلى قاب قوس واحد إيذانا بأن المدى قريب:

فَانْفُضِي ذَاتَكِ، لاَ تُبْقِي
غَيْرَ زَادِ الزَّادِ، لِلزَّحْفِ الكَبِيرْ
وَاسْتَزِدِّي بِالخُطَا مَا فَاتَهَا

---

(1) قاب قوسين-مقدار ما بين القوس أو أقل من ذلك-معجم- معجم ألفاظ القرآن الكريم- مج2-ص425 .

(2) محمد عبد المعني حسين-قاب قوسين-مجلة الكتاب العربي -ج13- (1385هـ-1965م)-ص21 .

(3) النجم-9

(4) سيد قطب في ظلال القرآن -ج27 ص3406

(5) قاب قوسين ص1.

مِنْ ضِيَاءِ الدَّرْبِ لِلْحَفْنِ الكَبِيرْ
اجْرِ فِي كُلِّ وُقُوفٍ.. وَاسْتَقِي
فِي انْطِلاَقَاتِكِ أَنْغَامَ الهَدِيرْ..
قَدْ وَصَلْنَا .. لَمْ تَكَدْ فَافْتَرِبِي
مِنْ ضِفَافِ النُّورِ، فِي قَاعِ الصُّدُورْ
قَابَ قَوْسَيْنِ.. بَلَى
إِنَّا عَلَى قَابَ قَوْسَيْنِ. مِنْ ضُحَى المَرْسَى الأَخِيرْ[1].

1- المجاهدة :

تبدأ رحلة الشاعر مع نفسه بمجاهدتها من أجل أن تتطهر وتتخلص من أوهام وأثقال وأدران الدنيا، لتهيء الزاد ليوم حالك. فهي دعوة أمل ونصح، تستوقف نفسه كل حين، وتهزها هزا خفيفا وعنيفا حينا آخر، من أجل التوبة والرجوع إلى الله، من أجل التغيير حتى الجذور، والانطلاق من جديد، لتصحيح الخطايا، ومواجهة كل ظلام حتى لا يبقى سوى النور المشع في أعماقه ولا سوى النور. وانطلقت الرحلة من الأعماق لتغوص في الأعماق. وتتحرك في صراع وثورة مع نفسه وتتوقف أمام التأمل والشعور. وتوغل برفق داخل سكون هذه الأعماق حيث النور. وهذا تأكيد على وجود النور في كل مكان، بدء من الخالق عز وجل حتى النفس الإنسانية ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ نُورًا فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ﴾[2].

وبدأت الرحلة في قصيدة "أنا والنفس والطريق" وكانت طويلة كطول الرحلة والطريق والحياة[3]. والقصيدة كلها وصف لرحلة الحياة وما يتخللها من نوازع ورغبات وغرائز وخطايا وملذات. وما يخلّدها من قيم النور والحق والخير والإيمان، وهي تحمل صورة الله في كل توجهاتها عبر الزمان والمكان، وراح يحدثنا عن مفاجآت ومصادفات ومقاصد طريق هذه الرحلة، فيحذر نفسه ويرجو ويصيح ويدعو، ويأمر وينهي، ويطمئن وتمتي برموز الطبيعة ومدلولاتها لتتعكس بالجمال والظلال والحركة والقوة على قصائده. فهو يحذرها من الهروب ويطمئنها بعدم الظمأ والشقاء والتردد والخوف لتكون قريبة منه ومن صلاته، حتى ترى شعاع النور، إنها نفسه الحائرة، الواقفة في بداية الطريق، تفكر في الخلاص :

اتْبَعِينِي فِي دُرُوبِي، وَاحْذَرِي أَنْ هُرُوبْ
فَأَنَا أَظْمَأُ، وَأَسْقِيكِ مِنَ السِّرِّ الرَّهِيبْ
وَأَنَا أَشْقَى، وَأَشْجِيكِ بِمِزْمَارِي الغَرِيبْ
وَأَنَا أَسْرِي، فَأَهْدِيكِ إِلَى الشَّطِّ الرَّحِيبْ

---

(1) بقاب قوسين - ص 5 .

(2) النور - 40 .

(3) عدد أبيات القصيدة - 111 بيت .

فَإِذَا نَادَاكِ لِلَّيْلِ مُنَادٍ... لَا تُجِيبِي
وَاسْمَعِي شَدْوِي، وَكُونِي مِنْ صَلَاتِي عَنْ قَرِيبْ
لِتَرَيْ ذَاتَكِ فِي ذَاتِي شُعَاعًا فِي الغُرُوبِ
تَسْكُبُ النُّورَ لِحَوْرَانِ عَلَى كَفِّ المَغِيبِ
مَزِّقِي عَنْ وَجْهِكِ البَاقِي، أَسْمَالَ القِنَاعْ
وَارْفَعِي السِّتْرَ، بِلَا خَوْفٍ عَلَى أَنِّيَ مَنَاعْ
زَادَكِ النُّورُ، وَفِي دَرْبِكِ يَنْبُوعُ الشُّعَاعْ[1]

ولمتابعة هذا الدرب، راح يدعوها للزحف والسير الدائم دون الاغترار بالراحة والأمان والأحلام، ويكشف لها عن سر إصراره على حمايتها من أي سقوط أو ضلال، ويصور لها مظاهر الشقاء والذل والرق والمصير المفاجئ، ويمنحها كل مؤشرات الأمان فمعه الفجر والنور والإيمان والحرية والخبور، لتتصدى للدجى وتسحقه وتنفذ نحو النور في أخفى سراديبه :

اتْبَعِينِي.. فَمَعِي الفَجْرُ الَّذِي أَحْيَا رُفَاتَكْ
وَمَعِي النُّورُ، انْطِلَاقُ وَمُنَىَّ لِحَيَاتِكْ
وَمَعِي الرَّمْحُ.. رَوَالٌ هَبَّ يَمْحِي ظُلُمَاتِكْ
وَمَعِي الإِيمَانُ مِصْبَاحٌ إِلَهِيٌّ لِذَاتِكْ
تَجْرِفُ الظُّلْمَةَ إِنْ مَسَّتْ عَصَاهَا طُرُقَاتِكْ
فَارْحَمِينِي.. قَدْ بَاعَدْتِ الغَنَمَةُ مِنْ كُلِّ جِهَاتِكْ
وَرَكِبْتِ الصَّوْءَ مِعْرَاجًا لِأَغْنَى أُمْنِيَاتِكْ
اتْبَعِينِي، وَانْظُرِي حَوْلِي أَقْدَاحَ العَنَاءْ
فَانْهَلِي مَا شِئْتِ وَامْضِي حُرَّةً فَوْقَ الفَضَاءْ
فَإِذَا أَحْسَسْتِ وَهْنًا لِلدُّجَى دَبَّ وَرَائِي
فَانْسُجِي رُوحَكِ إِعْصَارًا يُدَوِّي بِالفَنَاءْ
وَانْفُذِي بِالنُّورِ فِي أَخْفَى سَرَادِيبِ الخَفَاءْ
وَاسْحَقِيهِ.. قَبْلَ أَنْ يَسْتَرِقَ اللَّيْلُ حُدَائِي
فَتَسِيرِينَ عَلَى التُّرْبِ بِلَا أَيِّ عَنَاءْ
فَاصْحَبِينِي، أَنْتِ سِرُّ النُّورِ يَجْرِي فِي دِمَائِي[2]

---

(1) قاب قوسين-9-10.

(2) المصدر نفسه - ص17-18.

إن القصيدة حوت على مشاعر دينية عميقة، وهي تلاحق السور في مكونات هذه الحياة وتشد حقيقة الوصول إليه،لأنه فطرة النفوس الإنسانية. على الرغم من غشاوة الجهل والظلام والغرور والجحود التي منحها الشاعر دلالات أوسع وأعمق لما حوّلها من واقع معنوي إلى واقع محسوس استمده من حركة الكون وصراعه الدائم.

وأكدت القصيدة ضرورة جهاد النفس وتهذيبها وهدايتها، لأنها أساس التغيير الذي لا يتحقق إلا بالإيمان والصبر على طول الرحلة -أي الحياة- المليئة بمباهجها وملذاتها الزائلة ومتناقضاتها العسرة بين دواعي الخير والشر. وكان الشاعر في رحلته واثقا، مؤمنا، صابرا وهو يقود نفسه التي تضعف وتتهاون، وتتراجع وتمضي نحو درب النور. ولم يتوان عن مراقبتها ومحاسبتها ونصحها بأسلوب الأمر الهادئ تارة، والعنيف تارة أخرى، الذي يلح عليه في كل مقطع مثل اتبعيني، امضي، احذري، استمري، اتركي، افتدي، اسحقي ... وأدى التكرار مع فعلي "اتبعيني" و"ارحفي" الخاصة على المتابعة والمواصلة والمجاهدة والمعاناة في سبيل الوصول إلى النور بعد مشاق الرحلة وطولها. وكان بالشاعر يوظف فعل "اتبعيني" عندما يحس بتوثب واستعداد نفسه ثم ما يفتأ يعبر بالفعل "ارحفي" عن تعبها وتعثرها وتقهقرها. لكن المهم عنده أن ترحف من أجل تحقيق الهدف المنشود ألا وهو الرجوع إلى الله.

وكان الشاعر واقعيا في تصوير نفسه بكل ما تحمل من نزعات ونوازع ومتناقضات واستعدادات، وما يتحللها من ضعف ووهن وحطأ، وقوة وأمل وإشراق. ففي قصيدة عاشقة العنكبوت صورها في سموها ونورانيتها،كما صورها في خطات ضعفها وجمودها، فالعاشقة هي النفس الأمارة بالسوء التي راحت في هدير الزحف -كما يقول في مقدمة قصيدته- تتلفت إلى الماضي فتمسها غبار التحلف، فشيّعها بهذه التراتيم. فالماضي الذي يرفضه الشاعر هو ماضي نفسه الذي يكون فيه ضلالها وجهلها وجحودها وتردها أو ماضي واقعه المليء بالمظالم والأغلال والشرور... وهذا فهو يتأسف ويتحسر على نفسه التي تتعانق هذا الماضي بظلامه وذله وضلاله إلى حد عبادتها. ووصل إلى مرحلة الاشتهار والتغزل بها، واعتبرها نشيدا للموت-أي الموت الروحي- ودربا للسراب بابتعادها عن الحقيقة. فيدعو الله أن لا يكون لهذه النفس أي شأو أو وجود أو امتداد في الحياة، بل تظل أمسا وترابا وصدأ وصدى. وكل هذه الدلالات عبرت عن تفاهتها وجهلها وحيتها وفنائها. وهي دعوة لاحتقار مسالك هذه النفس والاعتبار في آن واحد من مغبة السقوط والاضمحلال:

عَانِقِي المَاضِي، كَمَا شِئْتِ وَدُونِي فِي يَدَيْهْ
وَاخْرَعِي الظُّلْمَةَ مِنْ كَفَّيْهِ، وَانْتَابِي إِلَيْهْ...
وَاقْعُدِي فِي حُجْرِهِ أُسْطُورَةً، حَيْكِي رَوَائِعْ
وَتُغَنِّي لِلتَّوَابِيتِ مَذَلَّاتٍ، وَرِقًّا وَضَلَالَهْ

واعصري ذاتك فيه، واستعيدي سجداتك
واخشعي ماشئت. فالله بعيد عن صلاتك
أنت للموت نشيد، لم توقعه حنارة
أنت للتراب سراب، فلم ترقرقه مفازة
جل من أبقاك.. أمسا، وترابا، وغدا
وصدى مختنق الحيرة، ضحكة بسأ[1]

واستطاعت قصيدة "عاشقة العنكبوت" استطاعت بدء من عنوانها أن تمثل حقيقة ضخمة لهذه النفس، مستمدة العبرة من الآية الكريمة التي يقول فيها تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.﴾[2]. وكانت رمزا للفتنة والأذى والإغراء والأغواء، وكانت نفسا ضعيفة كالعنكبوت التي عشقتها على الرغم من خيوط بيتها الواهنة الضئيلة.

وينتقل الشاعر بالنفس من البيت الواهن إلى ركن قوي ركين هو المعبد، مكان الطهر والتوبة والنور واللقاء مع الله. وذلك في قصيدة "الهاربة من المعبد" التي كانت نداء وعتابا لهذه النفس بعد نفوره وتبرئه منها. علها تسمع نداءه، فلا تودعه، يرفعها من وحل الأرض نحو ضياء السماء. لكنها تصر على الهروب وتوديع معبده- أي عالمه الروحي- فيقرر بعدها الشاعر الانفصال النهائي عنها :

وأقبل النور يسري
على هياكل صدري
لا تغلقي الباب.. وامضي
من بعض ذاتي لبعضي...
ومن صلاتي الحزينة
على ضفاف السكينة
ومن تلفت نفسي
لعالم غير حسي
ومن هدير المعاصي
وبأسها في الخلاص
ومن تمزق قلبي

---

(1) غاب نوفمبر- ص 21- 22.

(2) العنكبوت- 41 .

على خطاها كُلُّ ذَنْبٍ
غَرِقْتُ كُلِّي وُجُودِي
سِحْرًا هذا النَّشيدُ
فَإِنْ أَرَدْتِ سِمَاعًا
فَلاَ تَقُولِي وَدَاعًا(1)

فمعرفة الشاعر لدهاليز نفسه وصدقه في مكاشفتها أدى به إلى الشعور بالانفصال باطنيا عنها،لأن رغباتها وحبائلها تمنعه من الاتصال بالنور الذي يسري في عمق الحياة والكون والانطلاق إلى عالم رحيب، حيث ينفتح المعنى الروحي في الإنسان.

وصور حقيقة هذا الصراع النفسي بالشعور بالانفصال عنها في قصيدة "المستحيلة" بحوار بارع مع النفس وأسلوب أنيق التعبير والتصوير. إذ لم يحاول أن يتحاور هروب نفسه منه وشردها وغرورها بالعروج إلى عوالم الحياة السامية، وإنما كان واقعيا وصادقا في معالجة مرائق النفس وانطلاقاتها الجامحة نحو عتمة الحياة وانفتاحها على عالم المادة محاولا أن يتزكى من خلالها ويعرج إلى عالم الروح :

وَقَالَتْ:أَجِرْنِي،فَقُلْتُ:اخْسَئِي
فَمَنْ غَيْرِ رَبِّ السَّمَاءِ المُجِيرْ ؟
تَعَامَيْتِ... حَتَّى رَكِبْتِ الظَّلاَمْ
عَلَى هَوْدَجٍ مِنْ ضَبَابِ الغُرُورْ
جَنَاحَاهُ مِنْ شَهَوَاتِ الحَيَاةْ
وَمِنْ يَأْسِهَا فِي لِقَاءِ المَصِيرْ
هَوَى بِكِ فِي قَاعِ لَيْلٍ بَهِيمْ
تَدُورِينَ فِيهِ، يُخَطِّو العَثِيرْ
دَعِينِي، فَمَثَالِي يَدُ فِي أَسَاكِ
وَلاَ عَثَرَتْ فِي طَرِيقِ خُطَاكِ(2).

ويصور معاناته وعذابه الروحي معها بمحاولتها المتنوية والسافرة لإبعاده عن درب الحياة العميق، وعن السر، والنور والله. وتشتد محاورته لنفسه وهو يحكي لها عن تجربته الخفية معها في كثير من المواقف الحياتية والتعبدية:

وَأَسْرِي بِدَرْبِ الحَيَاةِ العَمِيقْ
فَأَنْتِ وَأَنْتِ التِي تَعْثُرِينْ

---

(1) قاب قوسين-121-125.

(2) المصدر نفسه -ص126-127.

أنادي.. وللسرّ بعضي فداك...
وأدعو.. وما كان إلاّ دُعاكِ
يداي إلى الله مبسوطةٌ
وأنتِ إلى طيّها تضرّعين....
دخلتِ بي الحانَ في مرّةٍ
وكان اتجاهي إلى المعبدِ...
وكانت صلاتي قبلَ الصلاةِ
مزامرَ عُلويّةَ المَوْردِ
فحطّمتها مِنْ دمي للرحيقِ
وقُلتِ لي: اليومَ قبلَ الغدِ[1]

وسرعان ماانكشف له السر. ولاح له من بعيد، فولى إليه وجهه، وتراءى له روض الإنسان ذو سفوح وضيئة، وأزهار مؤمنة، وأطيار فانتة، وأنهار تائهة، فألقى عمره هناك. وراح يناديها باحثا عنها، علّه يراها ويلقاها هناك، تقبض على النور. ولكنها مارانت تصرّ على صدودها، وحلقته وتركته يستحيل تحسرا عليها وعلى الروض الذي استحال إلى فلاة بجحودها :

فلاحتْ لقلبي سُفوحٌ وضاءْ
وروضٌ عرفناهُ منذُ الأزلْ
أزاهيرُه مؤمناتُ العبيرِ
وأطيارُه فانتاتُ الرّحلْ
وأنهارُه من ضفافِ المتابِ...
فألقيتُ عُمْري بأعتابِه
وناديتُ حتّى تلاشى الأملْ
وأومأتُ شوقًا لعلّي أراكِ
لعلّي أرى شافعًا من لُقاكِ
لعلي.. بقبضةِ نورٍ بداكِ
تُضيءُ السبيلَ فعدتِ سماكِ
وخلّفتِني في الفلاةِ أتمتمْ
وأرمقتِ بين ربيعٍ وظلّ[2]

---

(1) قاب قوسين - ص128-130 .

(2) نفسه - ص 131 132

وأصر الشاعر على مواصلة المسير لأن مجاهدته نفسه هيأته مرحلة منتهاها أن يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام بالتقى والورع، وقد أدرك ما أدركه قبله أبو العتاهية أن :

أشَدُّ الجِهَادِ جِهَادُ الهَوَى - وَمَا كُرِّمَ المَرْءُ إلاَّ التُقَيّ(1)

2-التوبة :

مجاهدات الشاعر ومكاشفاته، لم تؤد به إلى الإستسلام لها والالتحاق بدربها المسدود بل أدت إلى الشعور الحاد والمؤلم بإثمها وضلالها وتناقضها، إلى حد التبرإ والاستجارة منها. كما أدت به إلى استشعار الله، بالإيمان نوره والرجاء والأمل في رحمته. ولم يجد أمامه إلا التوبة والتطهر من معاصيها وأدرانها وأثقالها. والعودة إلى الله بإشعاعات الإيمان والإجلال والخشوع والبكاء والصفاء الروحي، فكانت التوبة من أعمق المنعرجات الروحية في رحلته نحو الله >< فمن ثمارها تقوى الله وخشيته والصدوع والانتهاء عن معصيته، مع ما يتصل بذلك من المعرفة بالله وبرحمته ومغفرته وعفوه والإيمان بالوعد والوعيد والنعيم والجحيم>>(2).

وكانت أعمق قصيدة توبة في ديوانه قاب قوسين، هي قصيدة "العودة إلى الله" التي صورت الندم والدموع والبوح الشكوى والتذلل والتضرع. الاستجارة بالله واللجوء إلى حماه وطاعته والهروب إليه، فهو ملجأ الأمان والنجاة أوكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لا ملجأ ولا منجى منك إليك﴾(3).

ويصور الشاعر نفسه النادمة التائبة -وهو عائد إلى الله- بعد أن كان تائها في السراب، وعلى وجهه شظايا من الندم وكهوف من الخطايا، حاملا سره بعصمته وبكائه وحزنه وشكواه وتذكره، معلنا هروبه من نفسه الأمارة بالسوء، مستجيرا بالله منها، معترفا بأنها عدوه وشيطانه، بعد أن رمته للريح والإعصار والصحارى والفجاج موبخا عمره الذي لم يكتب فيه أي شيء، وكان كمن يكتب على الرمل حيث سرعان ما انمحى وزال كل أثر جميل وخالد، وكانت حياته قصة لم يرو فيها إلا الأسى والإثم والعصيان :

رَبِّ إنِّي لكَ عُدْتُ مِنْ سَرَابٍ فيه تُهْتُ
وَعَلَى وَجْهِي شَظَايَا نَدَمٍ فيه انتَهَيْتُ
وَكُهُوفٍ مِنْ خَطَايَا، خَتْمُهَا نارٌ وَصَمْتُ
وَطُيُورٌ ذَرَفَتْ سِرِّي وَطَارَتْ حَيْثُ طِرْتُ
وَتَلاشَتْ فِي رُوَايَا خَلَدِي أنِّي سَرَيْتُ

---

(1) ديوان أبي العتاهية-ص20.

(2) شوقي ضيف-فصول في الشعر ونقده- دار المعارف- مصر- 1971م-ص199.

(3) العسقلاني- فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب الوضوء- باب فضل من بات على الوضوء-ج1-ص357.

فَإِذَا ابْكِي أَرَاهَا أَدْمُعًا مِمَّا بَكَيْتُ
وَإِذَا أَشْكُو أَرَاهَا كُلَّمَا مِنْهُ اشْتَكَيْتُ
وَإِذَا أَهْرُبُ كَانَتْ كُلَّ دَرْبٍ قَدْ سَلَكْتُ
وَإِذَا أَفْزَعُ لِلأَوْهَامِ كَانَتْ مَا وَهِمْتُ
وَإِذَا غَنَّتْهَا الشَّيْطَانُ، غَنَّتْ مَا ذَكَرْتُ
وَمَحَتْ ذَاتِي وَعَادَتْ لِي بِمَا كُنْتُ دَفَنْتُ
رَبِّ جَنِّبْنِي صَدَاهَا فَهِيَ أَعْدَى مَنْ عَرَفْتُ
هِيَ نَفْسِي، وَهِيَ شَيْطَانِي الَّذِي مِنْهُ هَرَبْتُ
سَكَنَتْ فِيَّ، وَفِي صَحْرَائِهَا الكُبْرَى سَكَنْتُ
وَعَلَى مِفْتَاحِهَا المَخْبُوءِ فِي المَنْبَعِ أَقَمْتُ
وَكَمَا شَاءَتْ عَلَى الأَدْغَالِ وَالرِّيحِ ارْتَمَيْتُ
وَكَمَا يَنْطَلِقُ الإِعْصَارُ فِي اللَّيْلِ انْطَلَقْتُ
وَتَسَلَّلْتُ الفِجَاجَ السُّودَ فِيهِ وَمَضَيْتُ
رَاهِبًا صَلَّتْ مُسُوحِي فِي هُدَاهَا وَضَلَلْتُ
وَيْحَ عُمْرِي مَا الَّذِي كُنْتُ عَلَى الرَّمْلِ كَتَبْتُ
قِصَّةً مَازَالَ حَوْلِي كُلَّمَا فِيهَا رَوَيْتُ
الأَسَى وَالإِثْمُ وَالعِصْيَانُ. هَذَا مَا حَمَلْتُ[1].

وراح الشاعر يروي قصة حياته وما حوت من مآسي والمشاق والإغراءات والذنوب والآثام. ويصور نفسه التي أصبح لا يطيقها بما اقترفته،وعذبته في حياته بذنوبها وأهوائها، فاستجار بالله جزعا وهروبا منها من أجل أن يطهر نحو قدس علي، منحها نحو الله بوجه وعذاباته، ومن أجل أن يحترق حتى لا يبقى سوى بقايا رماد أو حصاد آملا في معرفة الله. إن صورة الانصهار والاحتراق عبرت عن شعوره القوي بالحاجة إلى التطهر والتوبة، وجعلت نداءه الخالص إلى الله يبعث من أعماق أعماقه إلى أبعد أبراج السماء الروحية، وهو ينادي في كل مقطع "رب" وهذا النداء القريب ينم عن اقتراب الشاعر من الله عز وجل اقترابا روحيا. فيتراءى أمامه في لحظات سره وجهره، ويكرر النداء "رب" ليوحي بالتواصل الروحي المطلق مع الله :

عَذَّبَتْنِي بِخَطَاهَا، وَهَوَاهَا فَاسْتَجَرْتُ
وَإِلَى قُدْسِ عَلِيٍّ، مِنْ ضِفَافِ النُّورِ طِرْتُ

---

(1) غاب فوسين-ص104-106.

بَعْدَمَا جَرَّدْتُ ذَاتِي، وَعَنِ النَّفْسِ انْفَصَلْتُ
وَإِلَى اللهِ، بِنَوْحِي، وَعَذَابَاتِي، اتَّجَهْتُ
وَشَبَبْتُ الجِسْمَ نَارًا، وَهَشِيمًا وَاشْتَعَلْتُ
رَبِّ! مِنْ بَقَايَا رَمَادِي وَحَصَادِي لَكَ جِئْتُ
رَبِّ غُفْرَانَكَ إِنِّي فِي ظَلَامِي قَدْ وَثِقْتُ(1)

ويتجاذب الشاعر اتجاهان متعاكسان . الاتجاه الأول يريد أن ينهض به إلى مقام إنسانيته المتفتحة على حقائق الروح. والاتجاه الآخر يخلد به إلى مستوى الحواس الظاهرة في عالم المادة التي تؤدي به إلى اقتراف الإثم وارتكاب الممنوع. مما يجعل ذاته حبيسة الجدران المظلمة المغلق بالمادة. ومن هنا يحدث الصراع في الباطن الإنساني، وتتولد المكابدة الدؤوبة للتخلص من الأثقال والآثام. فكيف تعامل محمود حسن اسماعيل مع هذا الصراع ؟

لقد حمل نفسه بكل أوزارها ونوازعها وألقاها عند باب الله، لأنه عرف ألا سبيل إلى التخفف من الخطايا والأخطاء إلا بالحضور بين يدي الله تائبا متضرعا ليتجدد بقبض النور ويتبدل إلى إنسان جديد.

وإصرار الشاعر الإيماني على مواصلة رحلة الإيمان نحو الله جعله يقترب من شاطئ التوبة. هذا الشاطئ الروحي الذي يهمس له بالتشهد وترتوي آفاقه بالنور والتعبد، وذلك في "النفس والخطيئة" حيث استجابت لنداء هذا الشاعر التائب الضارع إلى الله، الفار إليه، المستجير به، وأدركت حقيقتها المؤلمة بإفشائه أسرارها ومواقفها العدوانية والشيطانية،وإعلانه حسرته وحسرانه وجهله في هذه الحياة،لأنه كان أسيرها الضعيف الجاهل، ثم إعلان التمرد الروحي عليها بعد لحظات من التذكير والتذكر.

فكان شديدا قاسيا معها، حريصا على مجاهدتها بتوبيخها وتحذيرها وتهذيبها ونصحها، وتوصل إلى حد التيئيس والانفصال عنها .وبعد أن كان يخاطبها "نفسي" أصبح يخاطبها ب"يا نفس" عليها تشعر بضرورة تغييرها وتطهرها وتوبتها، وتحقق شيئا لغدها قبل فوات الأوان، ومفاجأة المصير.

وأمام الشاطئ تعلن توبتها منتفضة مرتجفة، باكية نادمة، معترفة بذنوبها وخطاياها، ترجو تأجيل الموعد، تطلب عمرا ثانيا وميلادا جديدا فيه نقاءها وصفاءها وبراءتها وإيمانها :

حَمَلْتُ أَمْسِي، وَغَدِي، وَسِرْتُ نَحْوَ المَوْعِدِ
حَتَّى وَصَلْتُ شَاطِئًا يَهْمِسُ بِالتَّشَهُّدِ
وَتَرْتَوِي آفَاقُهُ بِالنُّورِ وَالتَّعَبُّدِ
فَقُلْتُ: طِيرِي، وَاصْعَدِي يَا نَفْسُ حَانَ مَوْرِدِي
فَأَجْهَشَتْ وَانْتَفَضَتْ.. بِلَحْنِهَا المُرَدَّدِ

---

(1) غاب فوسين ص107- 108.

كُلُّ الخَطَايَا فِي يَدِي يَا رَبِّ أَجَلُّ مَوْعِدِي
فَتُوبَنِي مَوْعُودَةٌ فِي مَهْدِهَا، لَمْ تُولَدِ
مَازِلْتُ أَدْعُو اللهَ عُمْرًا ثَانِيًا لِحَسَدِي
أُعِيدُ فِيهِ سِيرَةَ الرُّوحِ مُنْذُ مَوْلِدِي
نَقِيَّةً مِنْ كُلِّ مَا تَقْضِي فِي مَرْقَدِي
بَرِيئَةً مِنْ كُلِّ مَا يَشْوِي الرُّؤَى فِي حَلَدِي
وَتَجْعَلُ الإِيمَانَ فِي نَفْسِي غَرِيبَ البَلَدِ(1)

ثم يكشف عن حقيقة رؤى نفسه على أنها رؤى شيطانية، مؤكدا أن الشيطان هوسبب كل الشرور والآثام الذي تجتمع حوله لكل الضلالات والمنكرات، وراح يلتقط له صورة من جنس أفعاله وأخلاقه ومعاصيه الواقعية والغيبية التي تلازم هذه النفس في الخفاء وفي الظاهر، في سوء النوايا والأفعال، فألف شيطان هو عدد آلاف النفوس التي يترصدها في شتى الأرمنة والأمكنة وخاصة في كل نفس ناسك أو تقي أو زاهد،وقدم صورة الشيطان شاخصة،مجسدة للتعبير عن نمط آخر من أنماط التجاذب في النفس يؤدي بها إلى الغواية والتخريب البشري :

وَأَلْفُ شَيْطَانٍ، بَغِيِّ الوَجْهِ، بَاغِي الجَسَدِ
مُحَرَّمٍ مِنَ الخَطَايَا بِشِهَابٍ أَسْوَدِ
يَخْطِفُ كُلَّ تَائِبٍ، بِسَهْمِهِ المُسَدَّدِ
وَتَجْعَلُ العِفْرِيتَانِ لِلنَّدْمَانِ أَشْهَى مَوْرِدِ
وَيُغْرِقُ النَّاسِكَ فِي بَحْرٍ أَلِيمِ المَدَدِ
يَظَلُّ الإِيمَانُ فِي جَنْبَيْهِ نَوَّاحَ اليَدِ،
مُلَوَّحًا بِالنُّسْكِ، وَالصَّلاةِ، وَالتَّهَجُّدِ
وَكُلُّ زُهْدٍ، وَتُقًى، لِلرُّوحِ أَوْ تَعَبُّدِ
فَتَعْصِفُ الرِّيحُ عَلَى دُعَائِهِ المُبَدَّدِ!(2)

إنها صورة لا تخرج عن نطاق التصور الإسلامي الذي جعل منه سلطة للابتلاء والإغواء، والعداوة والشرور في صورة من الاشتزار والتحذير والتعوذ، كما أوردته كثير من الآيات ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾(3)،﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(4)،﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾(5)

---

(1) غاب نوسين-ص109-110.

(2)المصدر نفسه-ص112.

(3) النمل-24.

(4) يوسف-5.

(5) المؤمنون-97.

وهذه الصور المفزعة للشيطان تحقق هدف التحذير والتبصير للنفس وتهيئها للتطهر والاعتصام بالله وتعيد الذات العاصية، المذنبة إلى حقيقتها وإيمانها، معترفة بكل ذنوبها طارقة أبواب السماء طالبة عفو الله وحبه ونوره، مواصلة الطرق لأنها تدرك أن أبواب الله مفتوحة لكل تائب أواب. فهو ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾(1) يقول :

رَبَّاهُ... بَعْضَ النُّورِ قَدْ طَمَّ الدُّجَى فِي خَلَدِي
سَبَحْتُ بِالإِيمَانِ فِي تِيهٍ عَمِيقِ أَبَدِي
قَلْبِي إِلَى نُورِكَ نَشْوَانٌ يُحِبُّ سَرْمَدِي
مُنْطَلِقٌ إِلَى سَمَاءٍ بَابُهَا لَمْ يُوصَدِ...
وَجَسَدِي مُحَمَّلٌ بِكُلِّ ذَنْبٍ مُبْعِدِ
وَاصَلْتُ دَقَّ البَابِ حَتَّى كَادَ يَمْضِي مَوْعِدِي
وَكَادَ يَبْلِينِي سَعِيرُ الإِثْمِ حَوْلَ مَوْقِدِي
رَبَّاهُ بَعْضَ التَّوْبِ، وَالغُفْرَانِ لِلْمُسْتَشْهِدِ
نَزَعْتُ ذَاتِي... وَانْتَهَتْ حَقِيقَتِي لِلأَبَدِ
وَجِئْتُ أَدْعُو اللهَ عُمْرًا ثَانِيًا لِجَسَدِي(2)

ويصور الشاعر غفران الله لخطايا التائبين في قصيدة "حديث الذنوب" من خلال حوار قصصي جميل بين الذنوب والتوبة. ذنوب تعترف بندمها، وتطلب الغفران والعفو متعهدة بعدم الرجوع إلى أي ذنب :

وَمَرَّتْ ذُنُوبِي عَلَى تَوْبَةٍ
مِنَ اللهِ، أَدْعُو لِقَاهَا بِقَلْبِي
مُنَوِّرَةً فِي ظَلاَمِ الوُجُودِ
تُضِيءُ الطَّرِيقَ لِغُفْرَانِ ذَنْبِي..
وَقَالَتْ: نَدِمْتُ وَمَا عُدْتُ يَوْمًا
إِلَى أَيِّ ذَنْبٍ أَمُدَّ اليَمِينْ(3)...

وترد التوبة عليها تبصرها بمعاصيها ومساوئها وتقسو عليها بعدم قبول اعترافها وتصر على أنها تجهل طريق عفو قائلة :

---

(1) غافر-3 .

(2) قاب قوسين-ص113.

(3) صلاة ورفض- الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر- المطبعة الثقافية- ط1- 1970م-ص138.

فردّتْ عليها : وبعد الندامة
جددتِ كأسك في الخاطئين
بسطتُ لكِ العفوَ في كلِّ أفقٍ
به تنذهبينَ، وتستغفرينَ
وأقبلتِ كيْ تبغيري لحظةٍ
بها عنْ معاصيكِ.. قد تخجلينْ
ولكلِّ أمارةِ السوءِ ناحتْ
فطرتِ إلى صوتها ترقصينْ...
فكيفَ أمدُّ إليكِ اليمينْ
وأنتِ بهمسِ الدعا تكذبينْ ؟
جهلتِ الطريقَ... إلى عفوِ ربيِّ [1]

وكاد أن ينتهي الحوار بحكم فيه ذل وقسوة، وأسى ويأس. ولكن أبرق الأمل وطفق صوت سماوي، صوت الله بجمع أشتات هذا الحوار إليه، وتمد يده عز شأنه لتمحو الخطايا والآثام مهما بلغت ملء الفضاء. ويدعو تلك الذنوب أن تقترب إليه بالاستغفار وتعانق توبتها بعهد أمين صادق بتقوى الله، حتى يسقيها عز شأنه نور اليقين، يقول :

ونادى المنادي، جميعُ الذنوبِ
يدُ اللهِ تغفرُها.. ما تشاءُ..
ورحمتهُ وسعتْ كلَّ شيءٍ
ولوْ ملأَ الإثمُ قلبَ الفضاءْ [2].

ويؤكد الشاعر اقتراب الله واستجابته لدعاء التائبين ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه. إن ربي قريب مجيب ﴾[3] ويؤكد رحمته وعفوه، وعدم القنوط منه، ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾[4]، فرحمته وسعت كل شيء ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ﴾[5]، فكل هذه المعاني حوتها هذه القصيدة بصدقها الشعوري والفني.

---

(1) صلاة ورفض -ص138-139.
(2) المصدر نفسه-ص139 .
(3) هود-61 .
(4) الزمر-53 .
(5) غافر-7 .

ووصل الشاعر إلى درجة رفيعة من السمو الإنساني برجائه الكبير في عفو الله ورحمته وأمله في استجابته لدعاء السائلين من عباده. وتلهف الشاعر الصادق إلى التوبة وتحسره المرير على الخطيئة ، لم يكن بسبب أوزاره ومعاصيه التي لا تصل إلى أوزار وأثقال أبي نواس، والتي لم تمنعه من أن يدعو الله في مناجاة وتسبيح هي من أجمل ما قيل في الشعر العربي :

يَارَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً - فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لاَ يَرْجُوكَ إِلاَّ مُحْسِنٌ - فَبِمَنْ يَلُوذُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا - فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَا لِي إِلَيكَ وَسِيلَةٌ إِلاَّ الرَّجَا - وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمُ[1]

وعلى الرغم من إيمان الشاعر بهذه الرحمة الإلهية الواسعة التي تفيض على نفوس التائبين والأوابين، ومن رجائه الذي كان رجاء محسن لا مجرم، فإن نفسه مازالت تختنق بشدة بسعير الإثم والذنب، ويطول وقوفه أمام شاطيء التوبة، ويطول انتظاره بكل خوف ورجاء وبكاء.

حتى يشعر بأن توبته توبة نصوحة عميقة، خالصة ويشعر بأن الله قد سمع نداءه ورجاءه ودعاءه وتوسله، فيعبر الشاطيء طاهرا تائبا، عابدا مطمئنا، معتبرا متدبرا. وكانت قصيدة "شاطيء التوبة" فيضا زاخرا بالتوبة والإيمان، والدعاء والمناجاة، من أجل الوصول إلى شاطيء السور، ملاذه المقدس والأخير.

ويسير إلى شاطيء الضياء، يشق بزورقه لجة الظلام. وكلما شعر بالاقتراب منه، تذكر خطاياه وذنوبه ومعاصيه وازداد ارتجافا وخشية من الله. وكلما استحضر رقابة الله، أحس بوجوده حتى في أبسط شعور أو تصور أو سلوك .واعترف بكل سيئة وسريرة كبيرة كانت أم صغيرة، مؤكدا حسن هذا الاستعشار من قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2].

ويسري الشاعر نحو الله ليلا غريبا متحمسا، متبتلا نحو شاطئ التوبة ومعه نفسه الجريئة والمتألمة، ومعاصيه التي تعوي وتدمدم. وكأن ذلك العواء الذي يهز حاياته وأعماقه صوت ذئب، أو فحيح أفعى أو نوح ثكلى، أوصرخة يتيم، أو وخزة ضمير. ويعبر بذلك صراعه النفسي المحتدم بمشاعر الندم والتوبة بالصراخ والنواح حينا،والأنين والنشيج حينا آخر،والتأوه والتحسر أحيانا أخرى :

وَشَاطِئِي فِي يَدَيْهِ كَفَّارَةٌ لِلْخَطَايَا
ذَهَبْتُ يَوْمًا إِلَيْهِ بِأَدْمُعِي وَشَقَايَا
وَبِالْمَعَاصِي الَّوَاتِي صَحِبْتُهَا فِي سَرَايَا
وَرُحْتُ أُلْقِي عَلَيْهِ تَبْتِلِي وَهُدَايَا
فَصِرْتُ قَبْلَهُ غَرِيبًا، تَنَاهَشَتْهُ الْمَنَايَا
وَصِرْتُ بَعْضَ صَلاَتِهِ. تَصُمُّ بَعْضَ الْخَطَايَا

---

(1) ديوان أبي نواس، دار بيروت بيروت 1402هـ 1982م ص587.
(2) ق 16.

وَتَوْبَةٌ فِي خُطَاهَا تَمْشِي الذُّنُوبُ عَرَايَا...
ذَهَبْتُ يَوْمًا وَنَفْسِي جَرِيحَةٌ تَتَعَايَا(1)
وَلِلْمَعَاصِي عُوَاءٌ مُدَمْدِمٌ فِي الحَنَايَا
كَأَنَّهُ صَوْتُ ذِئْبٍ تَغَافَلَتْهُ العَشَايَا(2)
أَوْ فَحُّ أَفْعًى، شَوَتْهَا مِنَ الهَجِيرِ شَظَايَا
أَوْ نَوْحُ ثَكْلَى أَهَاجَتْ لَهَا القُبُورَ خَفَايَا
أَوْ وَخْزَةٌ مِنْ ضَمِيرٍ لِلْعَارِ فِيهَا بَقَايَا
أَوْ صَرْخَةٌ مِنْ يَتِيمٍ تَلَقَّفَتْهُ الرِّزَايَا
حَمَلْتُهَا وَكَأَنِّي حَمَلْتُ هَوْلَ المَنَايَا(3)

ومثلما حمل معاصيه وآثامه معه أثناء المسير نحو المتاب. فإنه حمل ندمه، وبكاءه الذي يلهج به لسانه وصدره. وكمستغيث و ضارع ألقى أمام ربه إثمه وتقواه، ودربه وعصاه، مؤكدا له في ضراعة. أنه لم يكن أعمى، وقد أدرك دربه قبل فوات الأوان،وغير قانط من رحمة الله، وغير معرض عن ذكره، وغير راض بمعيشة الضنك ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(4) وغير منتظر ذلك اليوم الذي يكون فيه أعمى ويقول ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾(5) يقول:

وجِئْتُ نَدْمَانَ، أُزْجِي إِلَى المَتَابِ خُطَايَا
حَيْرَانَ..ضَلَّ أَمَامِي وَضَلَّ خَلْفِي وَرَايَا
وَضَلَّ أُفْقِي، وَضَجَّتْ أَرْضِي لَهُ وَسَمَايَا
أَبْكِي، وَتَبْكِي، وَيَبْكِي دَمْعِي، وَيَبْكِي بُكَايَا
وَفِي يَدَيَّ عَنَاءٌ مُؤَلَّلٌ مِنْ أَسَايَا
وَحَفْنَةٌ مِنْ دَعَاءٍ عَرَفْتُهُ مِنْ دِمَايَا
مُدَمْدِمٌ فِي صَبَاحِي، مُزَمْزِمٌ فِي مَسَايَا
كَأَنَّهُ صَوْتُ رُؤْيَا، سَجِينَةٍ فِي الخَفَايَا
أَوْ حُزْنُ طَيْرٍ غَرِيبٍ فِي اللَّيْلِ يَنْفُخُ نَايَا

---

(1) تتعايا : عيّ بالأمر عيا وعييّ وتعايا واستعايا أي عجز عنه،و لم يطق إحكامه .

(2) العشايا : من العشي والعشية آخر النهار،ويقال العشي والغد والعشايا والغدايا .

(3) قاب قوسين:ص114-115.

(4) طه-124.

(5) طه-125 126.

أَوْ مُسْتَجِيرٌ، تُلَبِّي صَدَاهُ نَفْسُ الرَّزَايَا
أَوْ مُسْتَغِيثٌ، عَلَيْهِ يَرِدُّ صَوْتُ البَلاَيَا
أَوْ صَارِعٌ فِي زَوَالٍ، دُعَاؤُهُ مِنْ دُعَايَا
يَقُولُ: يَارَبِّ هَذَا إِثْمِي وَهَذِي نُفَايَا
وَذَاكَ دَرْبِي وَهَذِي عَلَى الطَّرِيقِ عَصَايَا
مَاكُنْتُ أَعْمَى. وَلَكِنْ أَعْمَى المُنَى شَحَّايَا
دَقَّ الدُّفُوفَ، فَطَارَتْ إِلَيْهِ دُنْيَا هَوَاهَا
وَطِرْتُ عَبْدًا أُنَادِي فِي سِحْرِهِ مُشْتَهَايَا[1]..

وصور الشاعر في هذه القصيدة رحلته إلى الله << كأروع ما توصف رحلات الروح، كأن الشاعر ذاب في الوجود الشفاف المشع بالصفاء المورق بالضياء، وكأني أشعر بالدموع ترطب الكلمات براثحة المتاب، وهي تفوح من خلال الألفاظ التي لم تستطع أن تعبر عن روح الشاعر كما كان يجب.>>[2] وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع من خلال هاتين الصورتين المتقابلتين -صورة الآثم العاصي وصورة النادم الباكي- أن يصور مواقف روحية نادرة لما أظهر في هاتين الصورتين المتضادتين المتصارعتين توتره واضطرابه وبكاءه، وحزنه، وندمه، وخوفه ورجاءه والتي احتدمت في أعماقه وضجت لها آفاق الأرض والسماء. واستطاع بذلك أن يجسد صورة أرقى وأنقى للتائب، العائد إلى الله، مادا إليه يديه طالبا، راجيا العفو والمغفرة والرحمة ، مؤمنا، موقنا بأنه مجيب الدعاء:

رَبَّاهُ عَفْوَكَ.. إِنِّي لِلنُّورِ مَدَدْتُ يَدَايَا
نَزَعْتُ أَسْرَارَ قَلْبِي وَجِئْتُ أُلْقِي أَسَايَا
وَأَشْتَكِي طَيَّ صَدْرِي دَرْبًا سَحِيقَ الطَّوَايَا
بِهِ بَدَأْتُ، وَلَكِنْ لَمْ أَدْرِ مَا مُنْتَهَايَا
لَمْ أَدْرِ يَأْسِي فِيهِ، وَلاَ عَرَفْتُ هُدَايَا
وَلاَ عَرَفْتُ ظَلاَمِي، وَلاَعَرَفْتُ ضُحَايَا
وَلاَ لِغَيْرِكَ دَوَّى، يَا رَبِّ يَوْمًا نِدَايَا..
إِلَيْكَ أَنْتَ صَبَاحِي، مُعَصَّفًا فِي مَسَايَا

---

(1) قاب قوسين-ص116-117.

(2) صابر عبد الدائم-محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة-ص267 .

المبحث الرابع
الذكر

1- الشعائر.

2- الخلوص الكلي إلى الله.

3- الوصول إلى الحقيقة الكبرى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عَبْدَانِ فِي الشَّوْقِ تَاهَا، وَتَهْتَهَا[1] بِالخَطَايَا
فَاسْكُبْ ضِيَاءَكَ. إِنَّنِي ظَمْآنُ ضَلَّ صَدَايَا
لَمْ أَدْرِ مِنْ أَيِّ نَبْعٍ أَسْقِي حَنِينَ الرَّكَايَا[2]
وَالشَّطُّ لاَ مَاءَ فِيهِ. يُطْفِي اللَّظَى فِي حَشَايَا
رُحْمَاكَ يَا رَبِّ.. إِنِّي، وَرَوِّنِي، وَالخَطَايَا
فِي لُجَّةٍ.. لَيْسَ فِيهَا مِنَ العِبَاءِ بَقَايَا
جَفَّتْ، وَغَاضَتْ، لَكِنْ مَازِلْتُ أَرْجِي رَجَايَا
غَفَرْتَ، أَمْ لَمْ.. فَإِنِّي مَازِلْتُ أَدْعُوكَ..يَا، يَا
...يَا رَبِّ[3]

وتتخذ توبة الشاعر شكل الانسحاق والاحتراق، والظمأ والذوبان، والتجرد والخلوص إلى الله، وقد شعر في آخر مطافه أثناء عبوره الشاطيء بأنه لا ماء فيه ولا ضياء وقد جف وغاض. إنه لم يشأ أن يعثر على أي مدى أو نهاية للإرساء والنجاة، بل يصر بإيمان أن يظل يرجي دعاءه ورجاءه وقد انتهى إلى الحقيقة الأزلية وهو حب الله، لا لشيء، لا لغفران، ولا لمثابة ولكن لأنه إلهه ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ.﴾[4] وراح ينادي ويدعو "يا رب".يا..يا...حتى << خيل أن نفس الشاعر الشعري كاد أن ينقطع في آخر القصيدة، وأن القافية اضطرته إلى أن يكرر يا...يا، ولا يذكر شيئا. وأعتقد أن هذا توفيق في غير مقصود... فالنداء هنا يتوجه إلى جميع المعاني الكاملة التي يتصورها الإنسان وهو في طريقة إلى النور، فعدم ذكر المنادي هنا يفسح مجال الرؤيا والتخيل أمام القارئ.>>[5]

---

(1) تهته: والتهتهة التواء في اللسان مثل اللكنة والتهاته : الأباطيل والزهات .

(2) الرّكايا : الركيّ: الضعيف، ركا وأركى : أتى حاجا إلى الله أو لجأ إلى التجوء إليه.

(3) غاب توسين-ص117 118.

(4) الليل- 19-20

(5) صابر عبد الدايم –محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة-ص268 .

الذي يبلغ بالنفس درجة الاطمئنان والأمن والسكينة...هو حين تصل وجودها بربها بالإيمان به، واستحضار ذكره في كل حال، واستمداد الرضا منه، والأنس به، والاستظلال بظل رعايته وقدرته. فالذكر[1] هو الباب الأعظم المفتوح بين الله وبين عبده. وتورد كثير من الآيات الكريمة علاقة الذكر بشتى حركاتها وسكناتها، ولحظاتها وروحانيتها منها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾[2]، ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[3]، ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا. وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾[4]، ﴿ الَّذِينَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ - أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[5].

فهذه القلوب كما يصفها سيد قطب << تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه، تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير، وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة.>>[6].

وتزكية النفس بذكر الله ليس كلمة تجري على اللسان فقط، بل هو ذكر تهمس به النفس لنفسها ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ. إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾[7]. ويتمثل هذا الذكر إذن في التضرع إلى الله تعالى والابتهال إليه وفي الخوف والخشية منه دون الاستكبار عن التعبد له والتسبيح بحمده والسجود له. فتقوى الله تؤدي بالضرورة إلى الذكر الدائم له، فهو << جلاء القلوب وصفاؤها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقا ازداد المذكور محبة إلى لقائه اشتياقا>>[8]. وتتحقق غاية خلق الإنسان الذي لم يخلق عبثا، بل لحكمة أرادها الخالق سبحانه في خلقه، وهو تحقيق العبودية التي تريح عن طريق النفس الضعف والعجز، والازدراء والذم، والذل والانكسار، والضياع والافتقار الروحي. و<< يقع التوازن في الضمير بين الخوف والطمع، والرهبة والأنس، والفزع والطمأنينة. ويسير الإنسان في حياته، يقطع الطريق إلى الله، ثابت الخطو، مفتوح العين، حي القلب، موصول الأمل، حذرا من المزالق، صاعدا أبدا إلى الأفق

---

(1) الذكر: الشيء الذي يجري على اللسان والذكر تمجيد الله وتقديسه وتسبيحه وتهليله والثناء عليه بجميع محامده- ابن منظور- لسان العرب- ج3- ص1507.

(2) الأعلى-14-15.

(3) آل عمران-41.

(4) طه-33-34 .

(5) الرعد-28.

(6) في ظلال القرآن- ج 13-ص2060.

(7) الأعراف -205-206 .

(8) أحمد الشرباصي-موسوعة أخلاق القرآن- ج5-ص85.

الوضيء، لا يستهتر ولا يستهين، ولا يغفل ولا ينسى، وهو في الوقت ذاته شاعر برعاية الله وعونه، ورحمة الله وفضله.>>[1].

ويعدّ الله لكل ذاكر، تائب، عابد، راكع، ساجد كل المغفرة والأمان والإطمئنان والأجر، وقد قال تعالى ﴿ التَّائِبُونَ، العَابِدُونَ السَّائِحُونَ .الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾[2]، ﴿ والذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتِ، أَعَدَّ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا كَرِيمًا ﴾[3].

فالذكر هو المعنى الكلي للعبادة الذي حدده قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾[4]، ونفهم من هذه الآية أن العبادة هي غاية الوجود الإنساني بإخلاص القلب والضمير لله، والتوجه إليه وحده بيقظة الإيمان والالتزام بالشرائع والشعائر.

1-**الشعائر** : لها مكانتها الأساسية في مفهوم العبادة، فهي أركان الإسلام وفرائضه التي لا يصح إسلام المرء إلا بالتوجه إلى الله بها، وهي عبادات مخصوصة للإعداد الروحي للعبادة الكبرى، ألا وهي الخلافة في الأرض، حيث ينطلق المؤمن من محراب الصلاة إلى فجاج الحياة بالعدة الإيمانية التي تؤهله لأداء الأمانة الكبرى[5].

وكانت للشاعر وقفات جليلة مع هذه الشعائر كالصلاة والصيام والزكاة والحج تجاوز بها الحدود الزمانية والمكانية لتأدية هذه العبادات وتعهد بالصلة الروحية الدائمة بالله وما لها من تجليات وآفاق.

فوجد في الصلاة شعيرة روحية يتوجه بها إلى الله كل يوم خمس مرات أو أكثر بالتسبيح والركوع والسجود والخشوع والدعاء والرجاء، ليفتح له باب السماء بالمغفرة والرحمة والنور الإلهي، مؤمنا بأثرها الباطني والظاهري، وقد قال تعالى ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ. إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ. وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ. ﴾[6].

ففي قصيدة "آذان الله" يصور النداء الإلهي للصلاة ألا وهو الآذان الذي يصدح في القلوب والأكوان إيذانا بموعد اللقاء مع الله. فهو صوت الحق والسماء، وصوت الله، وهو لحن الهدى، ورحيق اليقين :

يَا أَذَانَ الحَقِّ يَا صَوْتَ السَّمَاءْ
طُفْ عَلَى الدُّنْيَا، وَرَفْرِفْ بِالنِّدَاءْ

---

(1) سيد قطب- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته- ص136-137 .

(2) التوبة-112.

(3) الأحزاب - 35 .

(4) الذاريات-56-57 .

(5) محمد عادل الهاشمي -الإنسان في الأدب الإسلامي- ص353 .

(6) العنكبوت-45 .

وامْلأ الأرْوَاحَ مِنْ نُورِ الرَّجَاءْ
أَنْتَ لَحْنٌ عَاطِرٌ يَهْدِي قُلُوبَ الحَائِرِينَا
وَرَحِيقٌ طَاهِرٌ، يَرْوِي يَقِينَ المُؤْمِنِينَا
فَانْشُرِ الرَّحْمَةَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءْ
واسْكُبِ التَّوْحِيدَ واصْعَدْ بَيْنَ أَحْوَازِ الفَضَاءْ
أَنْتَ صَوْتُ اللهِ يَهْدِي بِهُدَاهُ الغَافِلِينَا[1].

وتستجيب الحياة وتلبي الحق والهدى، وترتفع الأيادي بالدعاء وتأهب النفوس للصلاة وللحظات الصفاء والضياء :

رَبِّ سُبْحَانَكَ لاَ تُحْصَى أَيَادِيكَ صِفَاتْ
لِلْهُدَى وَالحَقِّ نَادَيْتَ فَلَبَّتْكَ الحَيَاةْ
وَإِلَى عَرْشِيكَ طَارَتْ كُلُّ أَسْرَابِ الدُّعَاءْ
فَاسْقِنَا مَا شِئْتَ.. مِنْ عَفْوٍ وَصَفْوٍ وَصَفَاءْ
فَالهُدَى مِنْكَ، وَمِنْ نُورِكَ تَجْرِي الرُّحَمَاتْ[2]

ويشدّ الشاعر هذا الصوت الروحي العميق الذي يهتف من القباب والمآذن، فيهتز الكون بأطيافه الروحية الشفافة وبخاصة مع أذان الفجر الذي ينبعث في أجواء الصمت والسكون ومع شعاع الشفق وصاحب هذا الصوت، المؤذن الذي لقبه بالداعي إلى الله، وبشاعر الفجر[3]، الذي ينساب من ثغره فَوْحُ التقى والطهر بألحان وترانيم عفيفة معبرة :

وَشَاعِرُ فِي الفَجْرِ يَسْبِي النُّهَى
بِسُورَةٍ حَلَّتْ عَنِ المَآثِمِ
خَيَالُهُ مِنْ سِدْرَةِ المُنْتَهَى
وَلَحْنُهُ مِنْ وَتَرِ الأَنْجُمِ
عَفُّ التَّرَانِيمِ.. إِذَا نَصَّهَا
كَادَتْ تُضِيءُ الطُّهْرَ فَوْقَ القِيَمِ
مُعَبِّرُ اللَّحْنِ.. إِذَا مَا شَدَا
وَرَجَّعَ الأَنْغَامَ فِي فَجْرِهِ

---

(1) صوت من الله- دار الشروق- القاهرة- ط1- 1980م ص96

(2) المصدر نفسه- ص96 97.

(3) الداعي إلى الله- قصيدة في ديوان صوت من الله وهي نفسها في ديوان أغاني الكوخ بعنوان "شاعر الفجر".

تَحَالُهُ مُحْمَرَةً، وَالعُنْدَى
فَوْحُ التُّقَى يَنْسَابُ مِنْ ثَغْرِهِ
وَسَائِرُ الكَوْنِ لَهُ مَعْبَدًا
أَتْرَعَهُ الإِيمَانُ مِنْ طُهْرِهِ[1].

ويجد الشاعر في قصيدة "صلاة" معنى أوسع وأعمق من التوجه إلى الكعبة الشريفة ببعض اللحظات المفروضة. فقد كان للركوع والسجود والتسبيح والتسليم معان لصلاة روحية أسمى وأعمق، أعلنها أمام الله بالسر تارة،وبالجهر تارة أخرى لتنهيه عن الفحشاء والمنكر الذي يراود نفسه ونفوس الآخرين. ولهذا يعترف أمام الله، وقد منع لوقوفه أمام الله صورة أروع من صورة أي ناسك أو عابد أو مصل إذ ترك المسجد والمصلى والسجاد والقبلة واختار صورة عابد من الغيب يقف ذلك الوقوف الطويل على سدة الله. وينادي ربه، علّه يدرك سدرته ويرى نوره، ويشعر في ذات الحين أنه يصغر ويصغر أمام هذا الجلال الإلهي حتى يغدو كأنه سبابة تومئ من بعيد، فينادي، وجأر، ويهدر في صمت أمام حضرته حتى يشعر مرة أخرى بعد الانسحاق بالانشطار إلى ذاتين أو نفسين،ذات تبكي ندما وخوفا من الحساب، وأخرى تسبح إيمانا وخشية منه، فيقول مخاطبا ربه مصورا هذه الصلاة :

وَقَفْتُ طَوِيلاً عَلَى سُدَّتِكْ[2]
أُنَادِي رَبِّي النُّورُ فِي سِدْرَتِكْ[3]
كَأَنِّي سَبَّابَةٌ، أَوْمَأَتْ
بِغَيْبِ المُصَلَّى إِلَى كَعْبَتِكْ
أُنَادِي وَأَجْأَرُ.. فِي حَوْمَةٍ
مِنَ الصَّمْتِ. تَهْدِرُ فِي حَضْرَتِكْ...
وَأَنْشَقُّ ذَاتَيْنِ، ذَاتًا تَنُوحُ
وَأُخْرَى تُسَبِّحُ مِنْ خَشْيَتِكْ...
وَكِلْتَاهُمَا مِنْ رِيَاحِ العَمِيمِ
صَدًى ذَائِبٌ فِي صَدَى مَوْجَتِكْ

---

(1) صوت من الله-ص100-101.

(2) سدتك : السُّدَّة: فناء البيت أو الظلة التي تكون بباب الدار

(3) سدرتك : واحدة سدرة، وهو شجر النبق، وهو شجر شائك له ثمر فيه حلاوة وسدرة المنتهى: شجرة في الجنة.

تَعِيحَانِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرٍ. وَلاَ
صَلاَةٌ تَؤُوبُ فِي خَيْمَتِكْ[1]...

وفي قصيدة أخرى "مع الصلاة"[2] يكشف عن وجه آخر لصلاة الكون فيها تقديس وإجلال وإعظام لله، وصيرورة كل جامد أو متحرك، صامت أو ناطق إليه خشوعا وتسبيحا وسجودا. ولصلاة الإنسان الذي يهفو في سمو روحي لمعانقة نور الإله بصلاته ونسكه وحياته ومماته :

صَلاَتِي حَيَاةْ
وَنُسْكِي حَيَاةْ
وَمَحْيَايَ مَهْمَا يَكُنْ فِي حَيَاتِي صَلاَةْ
فَإِنْ عَزَفَ النَّايُ.. طُوبَى لِتَسْبِيحَةٍ فِي صَدَاهْ
تُكَبِّرُ لله.. لاَتَسْتَفِيقُ مِنَ الحُبِّ وَالشَّوْقِ
حَتَّى تُعَانِقَ نُورَ الإِلَهْ[3]...

وهذا المقطع تؤكده الآية الكريمة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]. وهذه الآية تسبيحة التوحيد المطلق والعبودية الكاملة، تجمع الصلاة والاعتكاف، والمحيا والممات، والخلوص لله وحده[5].

والشعيرة الثانية التي صور رحابها الروحية هي الصيام الذي يرتفع بأخلاق البشر من نوازعهم الترابية إلى الامتثال للصبر والطهر والطاعة والتقوى. وكان شهرا يرفرف كل عام على المسلمين بالمكارم والفضائل والصلوات، وقد قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[6]. وفي قصيدة "الله والزمن" يستقبل الشاعر هذا الشهر كضيف وزائر يأتي في زمن معين من كل عام ويعدد مآثر هذا الزمن الروحية، فهو شهر للتوبة والغفران إذ تصفد الشياطين، وتفتح أبواب الجنة للتطهر من الخطايا والآثام،وهو زمن يأوي ويطلق العاصين واليائسين والحائرين على الرغم من رجسهم ودنسهم وأوزارهم :

أَشَهْرٌ أَنْتَ أَمْ رُؤْيَا مَتَابْ
تَأَلَّقَ طَيْفُهَا مِثْلَ الشِّهَابْ

---

(1) صلاة ورفض-ص142-143 .

(2) ورد ذكر بعض مقاطعها في فصل الرؤية الكونية- مبحث عبادة الكون .

(3) نهر الحقيقة-ص160 .

(4) الأنعام-162 .

(5) سيد قطب-في ظلال القرآن- ج8-ص1241

(6) البقرة-183 .

تَمَرَّغَ فِي ظِلَالِكَ كُلُّ عَاصٍ
وَكُلُّ مُرَجَّسٍ دَنِسِ الإِهَابْ
فَأَنْتَ مُحَمَّ الآثَامِ.. نَجْرِي
فَنَلْحَقُهَا بِأَحْلَامِ العَذَابْ
تَرَاكَ شَفِيعَ تَوْبَتِهَا، فَتُحْزَى
وَتُوَأَدُ تَحْتَ أَحْيَنِهِ الشَّبَابْ
وَأَنْتَ مَنَارَةُ الغُفْرَانِ، مَأْوَى
إِلَيْكَ اليَائِسُونَ مِنَ المَتَابْ
وَعِنْدَ اللهِ سُؤْلُكَ مُسْتَجَابْ
وَلَوْ حَمَلَتْ أَوْزَارَ التُّرَابْ(1)

وهو أيضا شهر للمساواة الإنسانية، لأن كل النماذج الاجتماعية تتساوى في الأجر والثواب عند الله. كما تتساوى في وقت الإفطار عند المغيب أو آذان المغرب،على الرغم من اختلاف الطعام والشراب. وتتمدد بينها أواصر التراحم والتعاطف ليكون الكريم قبل البخيل، والفقير قبل الغني أقرب إلى الله بالزهد والقناعة :

وَقَفَتْ خُطَاكَ عِنْدَ البَائِسِينَا
فَكُنْتَ لِلَيْلِهِمْ فَلَقًا مُبِينَا
تُسَاقُ إِلَيْكَ أَمْوَاجُ النَّحَايَا
فَتَدْفَعُهَا لِبَابِ المُعْوِزِينَا
فَكَمْ آهَاتِ مُحْتَرِمٍ حُدَاهَا
إِلَيْكَ البُؤْسُ فَانْقَلَبَتْ رَنِينَا
فَأَنْتَ مُفَزَّعُ البُحَالِ.. نَجْرِي
خُطَاكَ عَلَى حِجَارَتِهِمْ مَعِينَا
وَأَنْتَ مُلَقَّنُ الأَيْدِ نَدَاهَا
وَمُكْسِبُهَا التَّرَاحُمَ وَالحَنِينَا
يُخَافُكَ كُلُّ قَارُونٍ شَحِيحٍ
فَيَحْتَلُ أَنْ يَرُدَّ السَّائِلِينَا(2).

وهو شهر الصلاة والقيام بتراتيل القرآن، ونداءات المآذن وصلوات التراويح والتهجد، وازدحام المساجد بحشود المصلين والذاكرين والمتهجدين :

---

(1) صوت من الله-ص106-107 .

(2) المصدر نفسه -ص107-108 .

تَلَفَّتْ لِلْمَآذِنِ حَالِيَاتٍ
كَحُورِيَّاتِ خُلْدٍ سَافِرَاتِ
تَفُوحُ مَبَاخِرُ النُّسَّاكِ مِنْهَا
فَتَحْسَبُهَا غُصُونًا عَاطِرَاتِ
تَلأْلأَ حَوْلَهَا وَحْيًا إِلَيْهَا
وَقَفْنَ لِسِحْرِهِ مُتَلَهِّفَاتِ
إِذَا صَاحَ لِلأَذَانِ بِهَا أَرَنَّتْ
بِإِلْهَامٍ كَمَوْجِ البَحْرِ عَاتِ
يُذَكِّرُ بِالهِدَايَةِ كُلَّ نَاسٍ
وَيُوقِظُ كُلَّ غَافٍ فِي الحَيَاةِ[1]

وهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن الكريم الذي يتحدد بالتدبر والتلاوة والذكر في كل زمن، وقد قال تعالى فيه ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ...﴾[2] :

وَهَذَا المُعْجِزُ العَالِي الرَّحِيمُ
أَذَانُ اللهِ وَالذِّكْرُ الحَكِيمُ..
تَلاَهُ فِي سُكُونِ اللَّيْلِ تَالٍ
فَكَادَ لِهَوْلِهِ تَهْوِي النُّجُومُ..
نِدَاءٌ تَفْزَعُ الأَفْلاَكُ مِنْهُ
وَيَخْشَعُ فِي مَسَارِبِهِ السَّدِيمُ
عَلَى سَمْعِ الهُدَاةِ يَضُوعُ عِطْرًا
وَتَقْذِفُ مِنْهُ لِلغَاوِي رُجُومُ..
أَصَاخَ الكَوْنُ مَسْحُورًا إِلَيْهِ
وَخَرَّ لِبَاسِهِ الأَزَلُ القَدِيمُ
تَنَزَّلَ فَوْقَ صَدْرِكَ مِنْ عُلاَهُ
يُنِيرُ الوَحْيَ، وَالدِّينُ القَوِيمُ[3].

وهذا الشهر أيضا رمز للقوة والاتحاد، والخلق الكريم، والزاد الروحي في زمن الأمة الإسلامية التي سادها التفرق والفساد :

---

(1) صوت من الله - ص109-110 .

(2) البقرة-185 .

(3) المصدر نفسه - ص110 .

طَلَعْتَ مُنوِّرًا فَوْقَ العِبَادِ
فَأَيقِظْ مَنْ تَشَبَّثَ بِالرُّقَادِ ..
وَقُلْ لِلشَّرْقِ: إِنَّ الكَوْنَ تَمْشِي
عَلَى سُبُلٍ مُغَيَّبَةِ الرَّشَادِ
فَخُذْ لِزَمَانِكَ الزَّادَ المُرَجَّى
مِنَ الخُلُقِ القَوِيمِ وَالإِتِّحَادِ
لَقَدْ مَلَّتْ تَقَلُّبَنَا اللَّيَالِي
عَلَى وَضَرِ التَّنَعُّمِ وَالفَسَادِ[1]

والشعيرة الأخرى هي قصد بيت الله الحرام للحج، الذي حوى معانيه الروحية الأدب أو الشعر بخاصة[2]. حيث يتم التطهر من الذنوب والابتعاد عن مشاغل الدنيا وملهياتها، وجني المنافع الثرة من التقاء المسلمين في مكان قدّسه الله بقوله ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[3]. ويسعى الشاعر إلى الله في قصيدة "بيت الله" ويتشوق إلى زيارة هذا البلد الطيب، ويحلم بالوصول إلى نور الله وأرض النبي التي امتلأت بآثاره الدينية الخالدة :

إِلَهِي سَعَيْنَا مَعَ المُتْعِبِ
هُيَامًا إِلَى البَلَدِ الطَّيِّبِ
ظَمِئْنَا وَفُزْنَا بِحَظِّ الوُصُولِ
وَمِنْ غَيْرِ نُورِكَ لَمْ نَشْرَبِ
ظَمِئْنَا فَقَرِّبْ إِلَيْنَا الرَّحِيقَ
وَجُدْ بِالمَتَابِ عَلَى المُذْنِبِ
وَلَبَّيْكَ.. لَبَّيْكَ رَبَّ السَّمَاءِ
فَقَرِّبْ خُطَانَا لِأَرْضِ النَّبِي[4]

ويستشعر لحظات تأدية مناسك الحج، فيصور الطواف في الحرم والكعبة، والسعي في الصفا والمروة، والصلاة في الروضتين، وتهزه مشاعر الحنين والشوق والبكاء، وتسمو روحه بتلك المشاهد النورانية :

وَلَمَّا نَزَلْنَا بِأَرْضِ الهُدَى
وَرَدَّ السَّلَامَ حَمَامُ الحَرَمِ

---

(1) صوت من الله - ص 111-112 .
(2) انظر- عبد العزيز الرفاعي- الحج في الأدب العربي- المكتبة العصرية- ط1- (1395هـ-1975م)- ص24-56 .
(3) آل عمران-96-97 .
(4) المصدر نفسه-ص130 .

وَطِفْنَا مَعَ الشَّوْقِ حَوْلَ السُّوَرِ
وَرُحْنَا بِأَرْوَاحِنَا نَسْتَلِمُ
دَعَوْنَا وَمَاذَا تَقُولُ الشِّفَاهُ
إِذَا الرُّوحُ غَنَّتْ سِحْرَ النَّغَمِ
فَغَابَتْ ذُنُوبٌ وَذَابَتْ قُلُوبٌ
مِنَ الْعَيْنِ تَنْسَكِبُ دَمْعَ النَّدَمِ
هُنَا النُّورُ مُشْرِقُ فِي كُلِّ عَيْنٍ
هَذَا الْعِطْرُ يُسْتَنْشَقُ فِي الرَّوْضَتَيْنِ
هُنَا الرُّوحُ فِي عَتَبَاتِ الضِّيَاءِ
وَفَوْقَ الصَّفَا وَعَلَى الْمَرْوَتَيْنِ[1].

ويستوقفه أهم منسك في الحج وهو الوقوف بجبل عرفات فيعلن شوقه ووجده الروحي لرؤيته. وذلك في قصيدة "الله والجبل" ويخاطبه وهو يزدحم بالحجيج من كل حدب وصوب بقلوب نادمات، وأيد ضارعات وصدور حانيات، ونفوس قانتات تائبات عابدات.. وكان جبل النور الذي تفرد عن جبل ابن خفاجة الذي كان جبلا للعزلة والحزن :

أَيُّهَا النُّورُ... سَلَامًا قُدْسِيَّ النَّفَحَاتِ
تُرْبُكَ الْمَيْمُونُ قُدْسُ شَاهِقَيِّ الْحُرُمَاتِ
كُلُّ مَنْ مَرَّ عَلَيْهِ مَرَّ مَسْحُورَ السِّمَاتِ
هُرِعَ النَّاسُ إِلَى بَابِكَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ
طَرَحُوا الدُّنْيَا وَخَفُّوا بِقُلُوبٍ نَادِمَاتِ
حُسَّرًا يَمْشُونَ لِلَّهِ بِأَيْدٍ ضَارِعَاتِ
وَصُدُورٍ حَانِيَاتٍ مِنْ عَذَابِ الْمَعْصِيَاتِ
وَقُلُوبٍ حَارَتْ أَسْرَارُهَا بِالتَّلْبِيَاتِ
وَجُفُونٍ مِنْ ضِيَاءِ اللَّهِ دَارَتْ مُسْبِلَاتِ
وَنُفُوسٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتِ
ذَائِبَاتٍ فِي رَحِيقِ النُّورِ نَشْوَى فَانِيَاتِ
عَاشِقَاتٍ مَنْبَعَ الطُّهْرِ مَنَارَ الْكَائِنَاتِ[2]

ويدعو ربه في هذا الجبل المبارك أن يبعث أمته حياة النور والحرية، ويكون قد وصل بين الله وعباده في أمور حياتهم اليسيرة والعسيرة :

---

(1) صوت من الله -ص 131.
(2) المصدر نفسه ص 81 82.

رَبِّ بَارِكْنَا بِهِ... أَصَالَتَا وَالْغَدَوَاتِ
وَابْعَثِ الشَّرْقَ بِنُورٍ مِنْكَ ضَاحِي اللَّمَحَاتِ
وَيُعِيدَ الْمَيِّتَ الْهَامِدَ حَيًّا لِلْحَيَاةِ
بَعْدَمَا شَابَتْ بِهِ الْأَغْلَالُ فِي أَسْرِ الطُّغَاةِ[1].

2- الـــخلوص الكلـــي إلى الله

ويستشعر الشاعر ظمأ نفسه العـادي لهـدى الله الـذي تمنحهـا الطمأنينـة والقـرار. وينجيهـا مـن القلـق والفزع والانحراف النفسي. وترتعش بالأنين والأمل وهي تجتاز مرحلة التأثم والندم والحيرة لتسترجع الصفاء والهدى والتقى واليقين، وتحظى بالحقيقةوالرضا والأمان.

وتغمر الشاعر فرحة الوصول، بعد أن راودته رغبة الوصول مرارا وواجهـه عسـر الطريـق، وطـول المعانـاة، وتفيض مشاعره بالمواجد، متفانيا في حب بارئه. ويستشرق عوالمه المشرقة مبتهلا إليه، ناشدا القرب منه طامعـا في المغفرة، مشوقا إلى الرحمة، مشفقا من العذاب، مؤملا بالثواب مخلصا النجوى. وتجلى كـل ذلـك في صـورة من التمجيد والتسليم المطلق له. وقد أشرق قلبه الإيمان وسطعت أنوار الله فيه كمـا تسـطع في آلائـه وأكوانـه. واستيقن أنه خُلِقَ ليعبد الله، فحقق بذكـره لله تجربـة إيمانيـة ثريـة بالتشـويق والمتعـة الروحيـة . وكـانت وسـيلة وصول أخرى عن طريق التطهر والتبتل والسجود والخشوع،وهذا ما تبينه بقية أشعاره.

بعد أن شعر بأن نفسه أصبحت مهيـأة لتقبـل أوامر وشـعائر الطاعـة والـولاء والعبـادة لله عـز وجـل، راح يخاطبها في هدوء ورفق لتقترب من الله، عابدة، ساجدة مع كل ما في الكون في كل لحظة، وكل همسـة، وعند كل مشهد وكل موقف، وفي كل صباح مع هفوة البلابل، ورنات المآذن، ورقصات الورود :

كُلَّمَا هَلَّ صَبَاحْ
وَهَفَا كُلُّ جَنَاحْ
وَعَلَى الوَرْدَةِ صَاحَ، بُلْبُلٌ يَشْكُو هَوَاهْ
رَدِّدِي شَكْوَاهُ، وَاسْجُدِي لِلّٰهْ..
كُلَّمَا رَنَّ أَذَانْ
مُوقِظًا سَمْعَ الزَّمَانْ
وَشَدَا كُلُّ جَنَانٍ ضَارِعًا يَدْعُو سَمَاهْ
فَاسْمَعِي نَجْوَاهُ وَاسْجُدِي لِلّٰهْ...
كُلَّمَا رَفْرَفَ عُودْ
رَافِضًا بَيْنَ الوُرُودْ

---

(1) صوت من الله-ص82.

وَمَضَى فَوْقَ الوُجُودْ، هَاتِفاً بِحَيِّ رُبَاهْ
بَارِكِي دُنْيَاهُ، واسْجُدِي للهْ[1].

وفي كل مساء مع غفوة أجفان الضياء، وعودة كل الكائنات إلى محاريبها ، يدعوها أيضا للتسبيح والسجود،وفي كل مقطع يكرر عبارة "اسجدي لله") وفي هذا التكرار دعوة للنفس خالصة للتعبد والتخلص من كل ما يمنعها،ويحجبها عن اللقاء الدائم،المتجدد مع الله:

كُلَّمَا عَادَ المَسَاءْ
وَغَفَا جَفْنُ الضِيَاءْ
وَغَدَا طَيْرُ المَسَاءِ، عَارِفاً مَلَّ الغِنَاءْ
سَبِّحِي أَنْتِ وَعُودِي فِي مَحَارِيبِ الوُجُودِ
حُرَّةً فَوْقَ القُيُودْ
حُرَّةً فَوْقَ السُّدُودْ
تَسْمَعِ السِّرَّ وَتَسْمُو. وَلِكُلِّ الكَوْنِ نَجْمُو
فِي طَرِيقٍ لاَ يَزَالُ،نُورُهُ فَوْقَ الزَّوَالْ
فَاتْبَعِي مَسْرَاهُ، واسْجُدِي للهْ[2].

هذا التقرب الشعري الجميل الذي اختار له الشاعر المناظر والمشاهد واللحظات والحركات التي توحي بالهدوء والتناسق، والخشوع والسجود، وتستدعي حقا التأمل بإجلال في بدائع عظمة الله عز شأنه،واستلهام أسراره في الكون كله،خاصة مع لحظات الشروق والغروب حيث السور الشفقي وأصوات المآذن، وتغريد البلابل، ونضرة الورود، وسكون الليل،وهجوع الكائنات. وهي أمتع لحظات الذكر التي أشار إليها الهدى القرآني ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾[3]، ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[4]، ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾[5]. فهي لحظات تمنح للنفس الشعور بالتحرر من كل القيود الدنيوية الزائلة ومظاهر الزائفة الزائفة. وتسمو بها متطهرة متجردة لله بالخشوع والسجود والتسبيح والحمد والشكر. وتسري بها حتى في جنح الظلام إلى أنوار الله الأزلية.

ففي قصيدة "الحمد لله" يستشعر الشاعر حمد الكون والإنسان وكل الحياة لله عز وجل، فهو رحمة للتائبين وموئل للحائرين، وغوث للعالمين.

يَا رَبَّنَا لَكَ الصَّلاَهْ
وَالحَمْدُ مِنْ كُلِّ الحَيَاهْ

---

(1) نهر الحقيقة -ص142-143

(2) المصدر نفسه -ص143-144 .

(3) غافر-55.

(4) الأحزاب-42 .

(5) الإنسان 26 .

يا رَحْمَةً للتائبين
للعفو لا نرجو سِوَاكْ
يا مُؤْنِساً للخائفين
طُوبَى لِمَنْ يَلْقَى هُدَاكْ
يا غَوْثَ كُلِّ العَالَمِينْ
حَمْداً لِمَا تُعْطِي يَدَاكْ
بِكُلِّ مَا فِينَا الحَيَاةُ نَعْبُدُكْ
وَكُلُّ مَا فَوْقَ الثَّرَى يُوَحِّدُكْ
وَكُلُّنَا نَدْعُو يَا رَبَّاهْ
يَا رَبَّنَا لَكَ الصَّلاَةُ وَالحَمْدُ مِنْ كُلِّ الحَيَاهْ[1]

واستطاع الشاعر بلغته الشفافة أن يصوغ سورة الفاتحة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.﴾[2] هذه الصياغة الشعرية مؤكدا أن الله هو المالك والمعبود والرحيم والمعين.

وفي قصيدة أخرى "سبحان الله" يستلهم قوله تعالى ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]. إذ يغمر الضياء والصفاء الكون والدنيا هذا التسبيح والحمد في الكون والنفس وتسمو القلوب والشفاه بالرجاء والرضا وتمتلئ النفوس بالأمل والهدى :

حَيَّ اللَّيْلُ فَنَادَيْتُ ... إِلَهِي
فَإِذَا الكَوْنُ ضِيَاءْ
وَجَرَى الدَّمْعُ فَنَادَيْتُ إِلَهِي
وَالرِّضَا يَغْمُرُ قَلْبِي وَشِفَاهِي
وَتُنَاجِينِي السَّمَاءْ
رَبِّ سُبْحَانَكَ فِي أَعْلَا عُلاَكْ
كُلَّمَا نَدْعُوكَ تُعْطِينَا يَدَاكْ
كُلَّمَا تُشْرِقُ شَمْسٌ أَوْ تَغِيبْ
تَمْلأُ القَلْبَ ضِيَاكْ
وَإِذَا ضَاقَتِ مِنَ اليَأْسِ القُلُوبْ
يَغْمُرُ الرُّوحَ هُدَاكْ

---

(1) صوت من الله-ص123.

(2) الفاتحة-2 6

(3) التغابن 1

وإذا مَلَّتْ من العفو الذُّنوبْ
صافحَ النفسُ رضاكْ
-ربِّ سُبْحانكَ في أعلا عُلاكْ
كُلَّمَا نَدْعُوكَ.. تُعْطِينَا يَدَاكْ[1].

كلما شعر الشاعر بوحدته وعزلته، وتذكر بعض زلّاته وذنوبه، لجأ إلى الله محتميا بذكره راجيا رضاه، طالبا وده، آخذا من الطهر والمتاب والصلاة والإيمان قداسة اللقاء.

وامتازت قصيدة "تسبيحة" بابتهالات لله، استلهمها بنداءات قلبه الخاشع، وكانت ذات رقة في النداء والخطاب،ورهبة في الخشوع والدعاء. حيث كان اللقاء بعد أن عم نور الله كل الكون من أرض وسماء، وغمر كل قلب، وانسجم مع الكون النوراني،والقلوب الذاكرة للتقرب إلى الله،والتواصل معه بالاستغفار والتسبيح والرجاء والدعاء. ومن خلال شغفه بدعائه الشعري الرقيق الخاشع، تجلت عظمة الله وقدرته ووحدانيته وجلاله وفضله ورحمته وتفرده بالعبادة، لأنه هو يقين كل روح، وملاذ كل نفس حائرة بريئة. وقد رمز إليها بالنضح الذي يبسط كفيه إلى الله كل صباح، وفي ذلك إشارة لصلاة ودعاء الفجر التي تصل الأذكار فيها والأدعيات إلى السموات العلا، يسمع همسها سبحانه وتعالى، وفي ذلك يقول عز شانه ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[2] ويدعو الشاعر ربه أن يمحو عنه الأسى واليأس والظلام، ويلهمه السكينة واليقين:

عَلَى الأَرْضِ نُورٌ.. وَفِي الأُفْقِ نُورْ
وَفِي كُلِّ قَلْبٍ شُعَاعٌ يَلُوحْ
وَلَحْنٌ يُسَبِّحُ طَيَّ الصُّدُورْ
وَيَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ كُلِّ ذَنْبْ
وَيَدْعُوكَ يَا رَبِّ أَنْتَ المُلَبَّى
وَلَبَّيْكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الغَفُورْ
إِلَهِي.. تَبَارَكْتَ رَبَّ السَّمَاءْ
مَعَ اللَّيْلِ تَبْعَثُ فَجْرَ الضِّيَاءْ
وَتَفْتَحُ لِلْيَائِسِ بَابَ الرَّجَاءْ
وَمَا خَابَ فِي خَطْوِهِ مَنْ دَعَاكْ
فَأَنْتَ السَّمِيعُ لِهَمْسِ الدُّعَاءْ
لَكَ المُلْكُ وَالحَمْدُ، أَنْتَ العَلِيمْ
وَأَنْتَ الأَمَانُ لِمَنْ يَسْتَجِيرْ
وَأَنْتَ لِمَنْ قَالَ : يَا رَبِّ نُورْ

---

(1) صوت من الله ص126-127.
(2) إبراهيم 39

تَرُدُّ السَّكِينَةَ لِلْحَائِرِينْ
وَتَسْكُبُ لِلرُّوحِ نُورَ اليقينْ
وَتَمْحُو الأَسَى مِنْ ظَلاَمِ الصُّدُورْ
إِلَهِي.. دَعَوْتُكَ فَاقْبَلْ دُعَائِي(1)

وكان دعاء الشاعر رغبة إلى الله تعالى، فيما عنده من الخير والنور، وابتهال إليه بالسؤال. دل على الخضوع والتضرع إليه،وحسن الرجاء وصدق الظن فيه وانتظار الخير على يقين(2). وحمل بذلك هذه الأماني والمشاعر واللطائف، وقد كان لأسماء الله الحسنى الأثر القوي في القصيدة، الغفور، الرحيم، السميع، النصير، المعين، المجير ...استعان بها الشاعر في دعائه وقد قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾(3)

كما كان في لفظة الدعاء "إلهي " المكررة في كل مقطع تعبيرا عن امتداد نفسه الشعري الإنساني حتى يشعر باقترابه من الله ويتحسس هذا القرب أمامه وخلفه وبين حناياه وجوانحه. وفي رفرفة أجفانه، ونبض قلبه.

ولعل في هذا التكرار استجابة للدعاء، فالله يجيب الدعاء، وفي ذلك يقول ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب .أجيب دعوة الداع إذا دعاني** ﴾(4) ﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء في الأرض ؟ أإله مع الله** ﴾(5) ومن آثار محبة الله لعبده وفرحه بتوبته ، ماورد في الحديث القدسي ﴿أنا عند ظن عبدي، وأنا معه إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه. وإن تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا. وإن تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة.﴾ (6)

لماذا يدعو الشاعر الله؟ إنه يدعوه أن يجيره من كل ما يصد طريقه إلى ميضه، ومن كل ما يربطه بهذه الدنيا من هالات وغوايات، من الليل والهجر، والخطو والشذوذ، والحب والطهر، والعقل والنفس، والناس. ومن كل مايجعل هذه المدلولات الكونية والحياتية حجابا بينه وبين ربه :

أَجِرْنِي يَا رَبِّ.. مِنْ كُلِّ شَيءْ
يَصُدُّ طَرِيقِي إِلَى زَمْزَمِيَّتِكْ
مِنَ اللَّيْلِ، يَسْتَحِقُّ فِيهِ الظَّلاَمْ
خُطَايَ الصَّرِيرَاتِ، عَنْ نَظْرَتِكْ
مِنَ الفَجْرِ.. يَفْتَقُ مِنْهُ الضِّيَاءْ

---

(1) قاب قوسين-ص143-145 .

(2) أحمد الشرباصي-موسوعة أخلاق القرآن- ج6-ص29 .

(3) الأعراف-180 .

(4) البقرة 186.

(5)النمل-62

(6) العسقلاني- فتح الباري شرح صحيح البخاري- كتاب التوحيد باب "ويحذركم الله نفسه- ج13- ص384

فَيُغْرِقُ دُنْيَايَ فِي هَالَتِكْ...
مِنَ الخَطْوِ يُوغِلُ طَيَّ الدُّرُوبْ
وَيَنْتَمِي انْحِنَائِي إِلَى سَاخَتِكْ
مِنَ الشَّدْوِ أَعْصُرُهُ لِلْجَمَالْ
وَأَنْتَابُ هَيْمَانَ فِي نَشْوَتِكْ
مِنَ الحُبِّ تَسْتَهْوِنِي نَارُهُ
رَمَادًا شَقِيًّا عَلَى ضِفَّتِكْ
مِنَ القَلَقِ السَّابِحِ المُسْتَطِيرْ
عَلَى زَوْرَقٍ ذَابَ فِي لُجَّتِكْ
مِنَ الطُّهْرِ.. يَعْرِفُ مِنِّي العَبِيرْ
عَذَابًا يَضُوعُ لَدَى حَنَّتِكْ.
مِنَ الإِثْمِ.. طَيْفٌ شَجِيُّ المَتَابْ
يُغَنِّي، وَيَنْدَسُّ فِي رَحْمَتِكْ
مِنَ النَّفْسِ.. تُورِقُ عِنْدَ الدُّعَاءْ
وَيَقْطِفُهَا العَقْلُ مِنْ سَاحَتِكْ...
مِنَ العَقْلِ يَحْمِلُ نَعْشَ الضَّمِيرْ
وَيَهْرُبُ حَيْرَانَ مِنْ سِكَّتِكْ...
مِنَ النَّاسِ، مَا أَنَا فِيهِمْ سِوَى
رُؤَى عَابِدٍ، ضَلَّ عَنْ آيَتِكْ[1].

ويشعر الشاعر بالتجرد الكلي لله في قصيدة "هو الله" باقترابه ووصوله وانكشاف الحجب أمامه، بعد أن عرج عليه في رحلة روحية توازت مع رحلة واقعية بالطائرة. إذ في أعلى مراقي الارتفاع تلاشى إحساس الشاعر بالأرض وعالمها وسمع كل ذرة حوله تردد " هو الله" وآمن بعمق وجود الله في أعماق النفس والكون:

عَرَجْتُ إِلَيْهِ فَوْقَ جَنَاحِ طَيْرٍ
هُوَ الغَيْبُ الَّذِي بِيَدِهِ يَسْرِي
دَلِيلُ وُجُودِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ
وَفِي أَعْمَاقِ أَعْمَاقُ لِسِرِّي
صَلَلْتُ أَدُقُّ بَابَ العُمْرِ عَلَّى

---

(1) صلاة ورقص-ص143-145

أُشَاهِدُهُ عَلَى رَعَشَاتِ ظِلِّي
وَطَارَ الطَّيْرُ وَانْكَشَفَ الْحِجَابُ
وَغَنَّى فِي مَسَارِحِهِ السَّحَابُ[1]

وطار في السماء وتلاشى مع ذرات الفضاء، وتحرر وتجرد من كل القيود والحدود،وذاب متوحدا ومندمجا في أي مظهر من مظاهر الكون وعانق روحه في عالم الله الأرلي،حتى أصبح يشعر بأنه بعض من النور مضيء أو بعض بياض ناصع أو بعض انعتاق خلف السدم . وهذه الصور المجردة عبرت عن الصفاء الإيماني الذي تجاوز حدود الزمان والمكان، وكل المرائي المحسوسة الزائلة، وقد انتهى إلى علاقة سرمدية بين الله وعبده بعيدة عن فكرة الاتحاد والحلول التي أولع بها الصوفيين :

يَا نَفْسُ لَا حُدُودْ!
لَا قَيْدَ، لَا سُدُودْ!
لَا جِسْمَ، لَا وُجُودْ!
تَبَخَّرَ الطِّينُ الَّذِي فِي بَدَنِي
وَانْصَهَرَ السُّورُ الَّذِي حَدَّنِي
وَانْسَحَقَ الْقَيْدُ الَّذِي بَدَّنِي
وَصِرْتُ بَعْضَ النُّورِ.. بَعْضَ الزَّمَنِ
بَعْضَ ضِيَاءٍ.. كَانَ قَدْ ذَوَّبَنِي
عَلَى تُرَابِ مَظْلِمٍ عَذَّبَنِي
بَعْضُ بَيَاضٍ حَاشِعٍ لِرَبِّهِ
كَالْحُلْمِ يَغْيَا الصَّحْوُ دُونَ دَرْبِهِ..
بَعْضُ انْعِتَاقٍ مُوغِلٍ الْخُطْوَةِ خَلْفَ السُّدَمْ
كَأَنَّمَا خَدَّثَ اللهَ بِغَمِّ مَا فَمْ..
تَجَرَّدَتْ نَفْسِي مِنْ نَفْسِي، إِلَى
كَوْنٍ يُذِيبُ فِي مَدَاهُ الْأَرَلَا[2]..

ويشعر الشاعر بالأمان بعد الخلوص والتحرد الروحي لله بالعبادة من صلاة وحمد وتسبيح وخشوع ودعاء، وبإدراك منابع النور في النفس الإنسانية. وتتكرر لفظة " أمان الله " في القصيدة لتشيع جوا عبقا بالإيمان والإشراق والصفاء والحبور. وحقق بذلك اطمئنانه الروحي ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[3]:

---

(1) صوت من الله- ص25
(2) المصدر نفسه -ص25-27
(3) الرعد-28

وكبّره.. للذي خشعت له الأكوان !!
ولاذت حوزة القلب !!
تنادي ربّها. ربّي.. أمان الله....
بحق علاك يا ربّي
سألقي النور في دربي
ويهتف دائما قلبي
... أمان الله.. تملأ كل ساحاتي
وفي محرابها بحقيقتي أخشع
أمان الله يا قلبي.. أمان الله
أمان الله يا ربّي.. أمان الله(1)

وراح يتحسس وجود الله في نفسه بعد أن شعر بأن ذنوبه أحدث تتوارى،وبخطوات نفسه نحو الله قد تاهت في العبير، فكانت رمزا للنفس المطمئنة. وكان العبير رمزا للإيمان والتقوى والحب الإلهي. هذا الحب الإلهي الفياض الذي يعيشه الشاعر بشتى حالاته وتصوراته وجوارحه، فخطواته هي لله حمد ومتاب وحنين، وشفاهه تجري منها الدعاء والصلاة والتسبيح والتعظيم الدائم لله. وتتردد أشواقه الكبرى له عز شأنه، حتى تتشكّل روحه من حب الله، فيسمو بهذا الحب نحو سماواته العلى ويقف عند بابه ليشاهد سناه ويستمد منه قوة الإيمان:

إن يكن ذنبي توارى في ضميري
وخطا نفسي تاهت في العبير
فأنا في كل خطوي لك حمد ومتاب
وحنين رددته حول أيامي الشعاب
فاسكب النور لقلبي. وارو يا حب شفاهي
فاغني ربي سبحانك.. دوما يا إلهي
كلما رفرف بالإيمان صدري
وسرت أشواقه الكبرى بشعري
ملت روحي من الحب.ولاذت عند بابك
ورنا قلبي. فشاهدت السنا خلف حجابك..
فوقي منك، ومنها تنهل الحمد شفاهي
وتغني.. رب سبحانك دوما يا إلهي (2).

---

(1) صلاة ورقص 148-149

(2) قاب قوسين ص 134 135

ولم يكن الحب الحسي عند الشاعر هو أساس الحب الروحي، كما هو معروف عند الشعراء الصوفيين كابن الفارض الذي عبر عن شوقه إلى الذات الإلهية برموز حسية كرموز عشق المرأة والخمر، فالهيام الإلهي عنده لايقع إلا بعد الهيام الحسي. فالذات الإلهية يرمز إليها بالمحبوبة التي يتمثل فيها الحب والسمو والقداسة:

وَإِنْ ذُكِرَتْ يَوْمًا فَحَرُّوا لِذِكْرِهَا - سُجُودًا وَإِنْ لاَحَتْ إِلَى وَجْهِهَا صَلُّوا

وَقُلْتُ لِرُشْدِي وَالتَّنَسُّكُ وَالتُّقَى - خُذُوا. وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْهَوَى خَلُّوا

وَفَرَّغْتُ قَلْبِي عَنْ وُجُودِي فَخُلْتُهَا - لِعَلْيَ بِي أَسْلُي بِهَا، مَعَهَا أَحْلُو

وَفِي حُبِّهَا بَعْضُ السَّعَادَةِ بِالشَّقَا - ضَلاَلاً وَعَقْلِي عَنْ هُدَايَ بِهِ عَقَّلْ(1)

إني أرى أن التعبير عن الحب الإلهي لابد أن يتسامى عن الحب البشري بإيجاد الوسائل الروحية والتعبدية التي تمنحه إجلالا وقداسة،والرموز ذات الأبعاد والدلالات اللغوية والدينية المرهفة وغير المشوبة بالدلالات الحسية العادية المتداولة بين البشر << أليس من العجب أن تعجز جماهير الصوفية في طول الأزمان عن خلق لغة للحب الإلهي تستقل عن لغة الحب الحسي كل الاستقلال .>>(2)

3-الوصول إلى الحقيقة الكبرى :

إن الله هو الحقيقة الكبرى التي شملت كل ما في الأرض والسماء، وصل إليها الشاعر بعد رحلة مضنية وشاقة رسم من خريطته التي كفر بها أدونيس،وأعلن رفضه المطلق للخالق:

مُسَافِرٌ تَرَكْتُ وَجْهِي عَلَى

زُجَاجِ قِنْدِيلِي

خَرِيطَتِي أَرْضٌ بِلاَ خَالِقْ

وَالرَّفْضُ إِنْجِيلِي(3)

واختار دربه على أن يكون أبعد من دروب الله والشيطان :

دَرْبِي أَنَا أَبْعَدُ مِن دُرُوبِ الإِلهِ وَالشَّيْطَانِ (4)

بينما محمود حسن إسماعيل أدرك دربه بعد مرحلة روحية بدأت من أجل الله وانتهت إلى الله،إذ يزاحمنا إيمان عميق للشاعر في قصيدة "موسيقا من الإيمان " وتمثلت أسرار هذا الإيمان في أعماق نفسه ، وكلما عرف سرا لمانيا اشتاق إلى سر آخر، حتى أوغل فيها من أجل الكشف عن كل الأسرار، فصدته أستار الغيب وزحرته، وصاحت فيه أعماقه ليكف عن الاستمرار في التوغل فيها، لأنه لايمكن أن يسبر كل أغوارها :

ظَمِئَ الإِيمَانُ فِي أَعْمَاقِ رُوحِي.. ذَاتَ مَرَّةْ

وَأَنَا جَاثٍ عَلَى الأَعْتَابِ لاَ أُدْرِكُ سِرَّهْ

---

(1) ديوان ابن الفارض دار بيروت بيروت (1404هـ 1983م) ص137-138 .

(2) زكي مبارك- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ص249 .

(3) علي أحمد سعيد- أدونيس- الآثار الكاملة دار العودة بيروت ط1-1971م-مج 1- ص415 .

(4) المصدر نفسه- ص368 .

كَبَّلَ العِشْقُ ضِيائِي بِقُيُودٍ مُسْتَمِرَّةْ
إِنْ تَمَنَّى هَذَا، أَتَى هَذَا، وَلا أَعْرِفُ أَمْرَهْ...
إِنْ تَمَنَّى يَأْتِي بِسِوَاهُ، حَامِلاً لِلسِّرِّ غَيْرَهْ
كُلَّمَا أَوْغَلْتُ صَدَّتْنِي عَنِ الأَسْتَارِ زَجْرَهْ
فَتَرَاجَعْتُ، فَتَاحَتْ مِلْءَ أَعْمَاقِي تَبَرَّهْ
خُضْ فَبَاحَ السِّرُّ مَا شِئْتَ.. فَلَنْ تَسْبِرَ غَوْرَهْ(1).

ويدعوها للإكتفاء بتلك الأسرار القريبة منه، التي يعيشها ويراها، ففيها من الدلائل القوية للإيمان بالله وقدرته وعظمته... هذه الأسرار المبثة في الإنسان والحياة والكون... ففي الإنسان مثلا تتجلى عظمة وقدرة الله، فالخلية أصغر شيء لا يمكن أن يرى بالعين المجردة، لكنها تمثل قوة الحياة ودقومتها، والنفس أخف حركة استنشاق لا يمكن أن ترى أو تلمس لكنها تلك حشاشة الروح، وتجدد وتبعث الحياة. كذلك سر الله مبث في الكون في كل الذي يمكن أن يُعتبر، في حركته وسكونه، في نضرته وذبوله.. في الحياة بسعادتها وشقائها، وخيرها وشرها:

فَهُوَ يَجْرِي فِي حَلايَاكَ دَلالاتٍ وَفِكَرَهْ
وَهُوَ فِي تَرْدَادِ أَنْفَاسِكَ.. يَجْرِي كُلَّ دَرَّهْ
وَهُوَ فِي كُلِّ الَّذِي تُبْصِرُ.. إِنْ أَلْفَيْتَ نَظْرَهْ
فَإِذَا دَاهَمَكَ الصَّمْتُ.. هُنَا تَعْرِفُ سِرَّهْ
فَامْضِ ظَمْآنَ.. وَلَوْ شَقَّ لَكَ المَجْهُولُ صَدْرَهْ
وَاشْرَبِ السِّرَّ مِنَ السِّرِّ.. وَلَوْ لَمْ تَدْرِ سِرَّهْ
وَاشْرَبِ الكَوْنَ هَشِيمًا كَانَ، أَوْ سَلْسَالَ نُضْرَهْ
وَاشْرَبِ الدُّنْيَا سَوَاءً.. حُلْوَهَا نَقْنَاتُ مُرَّهْ
وَاشْرَبِ الأَيَّامَ أَنْغَامًا لِمَا تَرْضَى، وَنَكْرَهْ
وَاشْرَبِ النَّاسَ، تَصَاوِيرَ لآحَادٍ وَرُمْزَهْ(2).

هذه الأسرار الإلهية في أبسط وأعمق ما في الإنسان والحياة والكون تدعو أعماقه المؤمنة لتشرب من نبع الإيمان الصافي المنساب في كل شيء وتذوق حلاوته بالتسبيح لله في كل حين، فنور الإيمان يملأ النفس، والأكوان، وضياء الله يغطي كل السبل، وكل شيء يدعو الارتشاف من هذا الإيمان، فلا عطش أو ظمأ بعده-أي الظمأ الروحي :

---

(1) موسيقا من السر-63-64.

(2) المصدر نفسه- ص64.

والأكوان، وضياء الله يغطي كل السبل، وكل شيء يدعو الارتشاف من هذا الإيمان، فلا عطش أو ظمأ بعده-أي الظمأ الروحي :

واشربْ الإيمانَ تَشْفِي العَفْوَ مِنْ آهَاتِ خَسْرَهْ
لَيْسَ لِلإيمَانِ أَسْوَارٌ وَأَصْفَادٌ بِذَاتِكْ...
لاَ وَلاَ فِيهِ مَكَانٌ وَزَمَانٌ لِحَيَاتِكْ...
هُوَ كُلُّ النُّورِ.. أَنَّى ذُقْتَهُ فِي سَبَحَاتِكْ
فَتَرَشَّفْ فَيْضَاءَ اللَّهِ غَطَّى طُرُقَاتِكْ(1)

إن القصيدة تمثل الإيمان بالله الذي دعا الشاعر إلى ارتشافه من نفوسنا ، فهو خالق خلايانا وأنفاسنا،وسكوننا ،فهو خالق الأغصان والزهور والشلالات. ومن الحياة،فهو مدبّر حلوها ومرها، خيرها وشرها.

فالإيمان المتكامل إذن يبدأ من الإنسان،إلى الكون،إلى الحياة، وهذه الشمولية هي التي جعلت للإيمان فضاءات روحية رحبة. فدعوة الشاعر إلى هذا الإيمان، تؤكد المدى البعيد للتصور القرآني الذي يؤمن به الشاعر ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ...﴾(2)، وتكشف القصيدة عن صراع أي إنسان يريد أن يتجاوز مرحلة تعب وظمأ فكري وروحي،إلى مرحلة انفراج واهتداء تحببا إليا الإيمان،متعظا بقوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(3).

ويصل الشاعر إلى نهر الحقيقة ونشهد قمة إيمانه وسروره وهو يسبح فيه بحرية،وشراعه النورالذي قاده إلى هذا النهر << وكان الشاعر بديوان نهر الحقيقة قد أراحا وأراح نفسه، وسحق أكمام الضباب التي سحقت نفسه طيلة المدة السابقة. وبعد تلال الدخان الذي حنقه طويلا. فهاهو الآن يذيب عناءه بين موج الحقيقة، غناء الحقيقة التي طالما نشدها .>>(4)

واهتدى إلى السر الذي طالما أرّقه وعذبه والسر هو نور الحقيقة، حقيقة تجمع كل شيء الله والكون والإنسان والحياة والموت :

وُجُودِي حَقِيقَهْ
وَذَاتِي حَقِيقَهْ
وَإِنِّي عَلَى الأَرْضِ طَيْرٌ يُغَنِّي حَقِيقَهْ
وَنُورُ الحَقِيقَةِ، سِرُّ الحَيَاةِ وَسِرُّ الأَمَلْ (5).

---

(1) موسيقا من السر ...ص64-65.

(2) فصلت-53 .

(3) الحجرات 7

(4) صابر عبد الدايم محمود حسين رمضان في الأصالة و معاصرته ص276

(5) نهر الحقيقة ص12

ويحذر الشاعر من الانحراف عن الحقيقة الأزلية أو الشك فيها ويلقي أمام من يتمرد على هذا النور صورة مجسدة للجزاء الصارم، والخيبة التي يصل وسط أوهامه في آخر المطاف :

وَمَنْ لَمْ يَسِرْ فِي ضِيَاهْ
سَيَمْشِي، وَيَمْشِي
وَلَوْ دَاسَ حَدَّ الجَبَلْ
وَشَقَّ الرِّيَاحَ بِعِنِّ الخَيَالْ
وَوَهْمِ المُحَالِ، وَحُلْمِ الأَزَلْ
سَيَمْشِي، وَيَمْشِي
وَيُلْقِي عَصَاهُ أَخِيرًا عَلَى تُرْهَاتِ الفَشَلْ[1]

ولا يترك الشاعر مجالا للشك والحيرة أمامه لتموت الحقيقة، فهو يغني للسراب،لتنشق منه ضفاف النور، ويسرج للوهم خيلا من الروح، تتبع أثر الإنسان الضال وتأتي به راكعا للحقيقة. نادما على ضلاله وتيهه، والوهم رمز لذلك الإنسان المتمرد الذي أصبح وهما كبيرا، لضلاله عن الحقيقة،لأن المنحرف عن الحقيقة لن يحقق شيئا قيما ومقنعا مهما بذل من جهد :

وُجُودِي حَقِيقَةْ
وَشَدْوِي حَقِيقَةْ
وَمَا اشْتَقْتُ دَرْبًا عَلَى سَاعِدَيْهِ تَمُوتُ الحَقِيقَةْ
أُغَنِّي السَّرَابَ
لِتَنْشَقَّ مِنْهُ ضِفَافٌ مِنَ النُّورِ
تُجْلِي طَرِيقَهْ..
وَأُسْرِجُ لِلْوَهْمِ خَيْلاً مِنَ الرُّوحِ
تَخْطِفُ مِنْ رَاحَتَيْهِ بُرُوقَهْ
وَتَفْنِي شُقُوقَهْ
وَتَأْتِي بِهِ رَاكِعًا لِلْحَقِيقَةْ !!
عَلَى وَجْهِهِ زَفَّةٌ لِلنَّدَامَةْ
وَفِي خَدِّهِ مِنْ ضَحَايَا الضَّلاَلَةْ..
وَالتِّيهِ.. أَحْرَى عَلاَمَةْ
فَمِنْ غَيْرِ سِرِّ، جَنَا لِلْغُبَارْ

---

(1) نهر الحقيقة ص12 13

وَمِنْ غَيْرِ نُورٍ، بَكَى وَاسْتَدَارْ
وَخَرَّ عَلَى الأَرْضِ عَبْدَ الجَدَارْ (1)

وهذه حقيقة واقعية يعيشها كثير من الضالين والغافلين،حين تسطع أمامهم الحقيقة متجلية أمامهم في كل شيء، وفي كل حين، فيهرعون إلى الله نادمين وقد استمد الشاعر ذلك من آيات القرآن الكريم، التي وردت في أكثر من موضع للتذكير ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(2)، ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾(3)، كذلك الدعوة إلى الهداية ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾(4)، وإلى نور الله ليتجلى في كل القلوب والنفوس ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾(5).

إن الشاعر ينكر ويرفض هذا الوضع الذليل للإنسان ويحزن ويأسف لحاله ويطلب للمغفرة، لأن كل ما في هذه الدنيا هو عبد الحقيقة،والله هو نور الحقيقة الذي صاغ كل كيان الحقيقة . فحقيقة الألوهية كامنة في كل عقل وقلب :

وَمَالِي .. وَمَنْ يَرْضَعُ النُّرْجِسَاتِ ؟
وَيُطْلِعُ بِاللَّيْلِ نُورَ القَمَرْ!
وَكُلُّ الذِي حَوْلَ دُنْيَاهُ.. عَبْدَ الحَقِيقَهْ
وَعَبْدُ الذِي صَاغَ كُلَّ كِيَانِ الحَقِيقَهْ
هُوَ اللهُ
فِي كُلِّ قَلْبٍ مَضِيءٍ.. حَقِيقَهْ(6)

وهذه الحقيقة الكبرى هي سر كل المعاني والقيم في الحياة. فالحب والخير والحق والأمل والجمال ليس لها أي قيمة أو بريق بدونها :

بِغَيْرِ الحَقِيقَةِ كُلُّ المَعَانِي سَرَابْ
وَمِنْ دُونِهَا كُلُّ شَيْءٍ خَرَابْ
عَلَى الحُبِّ قَامَتْ أُصُولُ الحَيَاةِ.. حَقِيقَهْ
وَبِالخَيْرِ يَسْقِي هَوَاهَا هَوَاهُ.. حَقِيقَهْ

---

(1) نهر الحقيقة -13-14 .
(2) الأنبياء-97 .
(3) الفجر-24 .
(4) الإسراء-15.
(5) النور-35 .
(6) المصدر نفسه-ص14-15 .

وبالأمل الحلو تغذو خطاها
بستانين.. يستكر قلبي شذاها
ونهرا.. تنوف الرؤى كل آن رحيقه
وخضرة في شاطئيه زهور الحقيقه(1)

ويطرب ويشدو الشاعر نشوانا في نهر الحقيقة المحفوف ببستاني الحب ورهور الأمل، وخضرة الحق، ويصر على الغناء -ويقصد الشعر- مادامت هذه الحقيقة هي سر الكائنات والموجودات في الكون، وسر المعاني والقيم في الحياة، وسر ذات ووجود الإنسان :

وجودي حقيقة
وذاتي حقيقة
ونايي يغني لأضوائها لا تمل
فنور الحقيقة
سر الحياة، وسر الأمل(2).

وفي قصيدة أخرى " التزام " يتراءى لنا إيمان الشاعر بهذه الحقيقة الكبرى. فهو وإياها متلازمان متعانقان في كل آن وآن ولا يتفارقان. فهذا التلازم الدائم، يؤكد قوة إيمان الشاعر،وقد جسد هذه الحقيقة في أغوار نفسه وكيانه، وفي كل كائنات وموجودات الكون.

فراح يصور هذه الحقيقة الماثلة في الإنسان الذي خلقه الله عز وجل وكساه لحما وعظما ودما، ونفخ فيه من روحه وكانت ريشته الخفية أبدع من ريشة أي فنان :

أنا والصدى.. بيد الحقيقة نعمتان
من عارف. مايي بريشته الخفية آتي شان
هو في دمي، وعلى فمي
وعلى انسكاب الروح مسحور الدنان
نمشي ونشرب لا نمد يدا
ولا نجري لشهوته لسان(3).

والحقيقة الماثلة في الكون الذي أنشأ كائناته وظواهره وسحرها ورسم آفاقها غير المحدودة بالإدراك البشري :

---

(1) نهر الحقيقة-ص14-15 .
(2) المصدر نفسه-ص15-16 .
(3) المصدر نفسه - ص25 .

...وَلَهُ الكُرُومُ كَمَا تَشَاءُ غُصُونُهَا

لَا مَا يَشَاءُ لَهَا بَنَانٌ !

تُعْطِي، فَيَقْطِفُ لَا تَمَسُّ، وَلَا يُحَسّ

وَمِنْهُ تَهْدِرُ مُوجَتَانْ

تَغَمُ وَسَاقِيَةٌ تَدُورُ وَجَدْوَلَانْ

مُتَلَازِمَانْ، مُتَعَانِقَانْ

ظِلُّ الوُجُودِ، وَذَاتُهُ لَهُمَا كِيَانْ[1].

إنه يتحد في الأخير مع هذه الحقيقة -حقيقة المعرفة والإدراك الإيماني - بحيث لا يشعر بأي انفصال معها أو افتراق وقد وصلا إلى ضفاف النور، ولمحا سنا الإله، وغرقا في نشوة روحية مع الصلاة والتكبير والسجود:

فِي كُلِّ سِرٍّ لِلإِلَهْ،

مُتَلَازِمَانْ مُتَعَانِقَانْ

ذَاتًا مُوَحِّدَةَ الكِيَانْ

فِي اللهِ لَا يَتَفَارَقَانْ [1]

وتظل القصيدة طويلة بعيدة الصدى والخيال، ذات نزوع روحي وصوفي أمام هذه الحقيقة الإلهية السرمدية التي تمنح القوة والعجز والوضوح والغموض والاقتراب والابتعاد منها، وتجعل كل إنسان في شوق دائم لإتحاد متجدد فياض . وعند تحليلنا لبعض جوانب هذه القصيدة، لاحظنا وكأن سورة الرحمان امتثلت أمامه ملهمة إياه معانيها وغاياتها، وأساليبها وصورها، وأنغامها وموسيقاها. وقد كانت سورة لله عز وجل وحده، بعظمته وآلائه وبقائه وخلوده، وشملت حقيقة إلهية كبرى كانت دلائلها من الإنسان أوالنفس، والكون أوالطبيعة وإن اقترب من المعنى الصوفي فإنه نزّه الحقيقة الإلهية على أن توصف أو يرمز إليها بأي شيء مادي كالخمر -حتى التي لا تشبه الخمر- وقد عبر ابن الفارض عن خمر الحقيقة بالخمر العالية التي تقول للشيء كن فيكون والتي ها وصف وسكر آخر :

وَإِنْ خَطَرَتْ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ - أَقَامَتْ بِهِ الأَفْرَاحَ وَارْتَحَلَ الهَمُّ

وَلَوْ نَفَحَتِ النَّدْمَانَ حَتْمَ إِنَائِهَا - لَأَسْكَرَهُمْ مِنْ دُونِهَا ذَلِكَ الحَتْمُ

وَلَوْ نَضَحُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ بَوْصِفِهَا - لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَانْتَعَشَ الجِسْمُ...

يَقُولُونَ لِي:صِفْهَا فَأَنْتَ بِوَصْفِهَا - خَبِيرٌ، أَحَلَّ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ

صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ، وَلَطْفٌ وَلَا هَوَا - وَنُورٌ وَلَا نَارٌ، وَرُوحٌ وَلَا جِسْمُ

تَقَدَّمَ كُلَّ الكَائِنَاتِ بِحَدِيثِهَا - قَدِيمًا وَلَا شَكْلٌ هُنَاكَ وَلَا رَسْمُ[2]

---

(1) نهر الحقيقة -ص 25 26 .

(2) المصدر نفسه -ص 22 23 .

(3) [illegible] ص 141 142 .

وعلى الرغم من أن لكل من الشاعرين أسلوبه الشعري، فإن دواعي هذه الموازنة البسيطة هي :

1- الالتفات إلى ما وقع فيه بعض الصوفيين من أدوات لغوية وفنية شوهت في كثير من الأحيان سبل المعرفة الروحية.

2- إظهار ميزة التصور الإسلامي في ربطه بين عالم الغيب وعالم الشهادة، غير المغلف بالتصور الصوفي- وإن سار على بعض مبادئه وغاياته- واقتبس من بعض رموزه ووسائله، من أجل الوصول إلى الحقيقة الإلهية.

3- إبراز تميز وسائل وصول محمود حسن إسماعيل إلى الله ، وإن أحد من صفات الصوفي ولحظاته، التي ارتبطت بالانعزال والانشطار والانسحاق والذوبان والتجرد والتحرر والتأمل والغوص في عمق النفس والكون ورحلته المحفوفة بالآلام والأشواق والأسرار.

4- التأكيد على نزعة الشاعر الصوفية التي اتخذت منحى قريبا جدا من واقعية التصور الإسلامي واعتداله.. لما حقق من خلال عزلته وتوتره، وعدم تخطيه حدود المعرفة الإنسانية،وحسن استعماله لأدوات الاستدلال والاستشهاد، تصورا إسلاميا نقيا له أبعاده العقدية والإنسانية.

5- إجلاء مدى نجاح الشاعر في تحقيق المعادلة الإنسانية بالتأمل في الأنفس والآفاق(2) وما يتخللها من مسالك عميقة ومتشعبة، يسهل ويجلو بعضها، ويعسر ويخفي بعضها الآخر عن الإدراك البشري.

6- إدراك مدى تفرده الفني في تصوير عمق مشاعره، وشوقه المتزايد لاكتناه أسرار الغيوب الإلهية . هذه الأسرار الغامضة والواضحة، القصية والقريبة التي لا يمكن أن تنال بسهولة لأنها عالية، عزيزة المنال، تحتاج للتواصل الدائم معها،والاقبال عليها،وإلى الطهر الباطني والصفاء الروحي. وقد لمس الشاعر لمس هذه الأسرار بعد تجارب مضنية في عالم الذات،وبعد وقفات تأملية في عالم الكون والحياة، فأدرك الحقيقة الإلهية التي تفرّعت منها حقيقة أخرى ضخمة وهي الحقيقة النبوية أو المحمدية .

---

(2) انظر فصل الرؤية الكونية .

الـــفـــصـــل الـــثـــانـي

الـــرؤيـــــة النـــبـــويـــــــة.

- تـــــمـــــهيد.
- المـــبـــحث الأول : دواعـــي البـــعـــثة.
- المـــبـــحث الـــثـانـــي : مظـــاهر البعـــثـــة.
- المـــبـــحث الـــثالـــث : آثـــار الـــبـــعـــثة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تـــوطـئـــــة :

الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو صاحب آخر وأعظم رسالة سماوية عرفها البشر و﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾(1) وكانت الشهادة في شطرها الثاني حيز إثبات وتعظيم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فإقرار الشهادة بالوحدانية والاعتراف به كرسول يعني أنه أرسل لجميع البشر ليعلموا فيهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(2) وليطاع بما يحمل من وصايا وشرائع ﴿ وَمَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾(3). وليكون مبعوث رحمة للناس جميعا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾(4) وليحمل هدية السماء إلى العالمين ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(5) وينشر كتاب الله في رفق ولين ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(6) وما فتئ أن سطر في أفق الحياة اسم محمد صلى الله عليه وسلم، وارتسمت على صفحة الكون صورة الجلال الإلهي برسالة الإسلام السمحاء التي بشر بها واهتدت القلوب المؤمنة إلى سنا طلعته ولألأته. وراحت تتطلع إلى سيرته العطرة وقد ارتبطت بالعبادة والفقه والأخلاق والسلوك، والحياة والقيم، والتاريخ والأدب والفن عموما . واشتدت حاجة المسلمين في كل زمان إلى الأسوة الحسنة في روعة شخصيته وسيرته وسنته وقرآنه. وقد أصبح ينبوع الحقيقة والهدى والرحمة .

اتخذت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم نبراسا اقتبس منه كل عصر مشكاة الطريق، وأكرم الشمائل،فلا غرو أن نجد الشعر ينساب عبر العصور رفرافا بتصوير شمائل وخصاله ودعوته الربانية.وظهر ما يسمى بالمدائح النبوية والمراد منها التقرب إلى الله بنشر محاسن الدين وإشاعة على شمائل الرسول، ولم يكن هذا النوع من المديح فنا ظاهرا بين الفنون الشعرية كالرثاء والوصف والنسيب، وإنما هو فن نشأ في البيئات الصوفية فيه بدائع من القصائد والمقطوعات ، وله شمائل غير شمائل المديح، ولأصحابه غايات دينية وأدبية خالصة(7).

وما فتئ يشكل بابا كبيرا من أبواب الشعر الإسلامي، قال فيه الشعراء على مختلف العصور الكثير، وأجادوا إجادة بارعة، امتازت بصدق العاطفة وحرارة الشعور، وسعة التناول. فكان تطويرا كبيرا لشعر المدح العربي .(8) حيث اتخذ منحنى جديد بالتوجه الشعري إلى مديح الإسلام المتمثل في شخص رسول الله صلى

---

(1) الأحزاب - 40 .

(2) الأعراف -158 .

(3) النساء -80 .

(4) الأنبياء -107 .

(5) التوبة -128 .

(6) فصلت -41.

(7) زكي مبارك- المدائح النبوية في الأدب العربي- منشورات المكتبة العربية-صيدا-لبنان-ص 17-18 .

(8) محمد عبد المنعم خفاجي - الأدب في التراث الصوفي ص 243 .

الله عليه وسلم، وارتقى بسمو الفكرة التي صار يدور حولها ويسعى إلى تمجيدها[1] .

وراح الشعراء في مختلف البيئات الإسلامية يمدحونه، ويديعون سيرته العطرة وصفاته الكريمة، ومزايا شريعته الغراء. ووجدوا في ذلك ينبوعا صافيا يتجدد فيضه دفاقا قويا على إختلاف البيئات والعصور، ويتلون بالأذواق المختلفة والخصائص الفكرية والفنية للشعر. وكما يقول ابن الفارض :

وَعلى تَفَنُّنِ وَاصِفيهِ بِحُسْنِهِ - يَفْنَى الزَّمانُ وفيهِ ما لَمْ يُوصَفِ [2]

وأبدعوا تراثا غنيا من المدائح النبوية، بدأها حسان بن ثابت وكعب بن زهير، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، والنابغة الجعدي[3] بروح الإيمان والحب والإخلاص على الرغم من طرائقهم الجاهلية وشاعريتهم المحضرمة. وتألقت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في العصر الأموي وقد درج الشعراء على الجمع بين مدحه ومدح آل البيت عند كل من الكميت بن زيد ودعبل الخزاعي، والشريف الرضي ومهيار الديلمي[4] .حتى إذا كانت العصور المتتالية دوت شهرة البوصيري [5] الذي أفاض في مدائحه حتى استغرقت الشطر الأكبر من ديوانه أشهر قصائده البردة والهمزية. ثم اتجه الشعراء منذ القرن الثامن الهجري، ينظمون البديع في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ويحصرون فنونه في قصائد أطلق عليها اسم البديعيات منهم حجة [illegible] ماذن ناتة المصري، وصفي الدين الحلي"[6].

وواصل الشعراء في العصر الحديث الوقوف أمام سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم منفعلين بأحداث حياته مستلهمين منها ما يطابق تصورهم واستيعابهم وفهمهم، وإن اختلفوا في أساليب تناول شخصية النبي صلى الله عليه وسلم . فوجدنا من أحاط بسيرة النبي وقدمها في صورة شاملة، وهناك من آثر التوقف عند موضوع أو أكثر، ولعل في هذا التنوع ما يوضح لنا نوع التجربة، وشكل الانفعال بأحداث السيرة وشمائل النبي عند شعرائنا. وهناك - من اتجه إلى محاكاة البوصيري كما فعل محمود سامي البارودي"[7] بمطولة شعرية تضمنت سيرة النبي من حين مولده إلى يوم إنتقاله إلى جوار ربه، أسماها " كشف الغمة في مدح سيد الأمة"[8] . كذلك

---

(1)نايف معروف-الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين-دار النفائس-بيروت-ط1-(1410هـ-1990م) ص 246 .

(2) ديوان ابن الفارض - ص 154 .

(3) انظر - د/شوقي ضيف - العصر الإسلامي- ط2- دار المعارف- مصر-ص 68 وما بعدها .

(4) انظر - زكي مبارك- المدائح النبوية- ص 61 وما بعدها .

(5) انظر المرجع نفسه - ص 171 وما بعدها.

(6) انظر - زكي مبارك- المدائح النبوية- ص 208 وما بعدها .

كذلك :محمد عبد المنعم خفاجي- الأدب في التراث الحلولي- ص 243 وما بعدها .

(7) انظر -سعد الدين الخيراوي-أصداء الدين في الشعر المصري الحديث-مكتبة نهضة مصر-الفجالة -ط1-ص 101-108.

(8) مطبوعة مستقلة عن الديوان تحتوي على 447 بيت على وزن بردة البوصيري.انظر-مطبعة الجريدة سنة 1327هـ .

أحمد شوقي الذي نسج على منواله قصائده الهمزية النبوية ونهج البردة ، وذكرى المولد، وسلو قلبي.[1] وهناك من أنشأ قصائد طويلة اتجهت اتجاه المطولات والملاحم[2]، مستوحية السيرة النبوية الشريفة، كما فعل أحمد محرم[3]، الذي عكف على وضع ملحمة شعرية عن الإلياذة الإسلامية أو ديوان مجد الإسلام،محاولا تصوير مسيرة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام الخلقية والدعوية .

وهكذا كثر الشعراء الذين ذهبوا في تناولهم مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مذاهب شتى تتماشى مع شخصية كل شاعر ومدى ثقافته، وتتطبع بالذوق الفني العام للعصر الذي قيلت فيه. وأهم ما أثاره الشعراء منذ عصر النبوة حتى يومنا هذا، على الرغم من اختلاف الأغراض والأساليب وظواهر التقليد والتجديد ما يلي:

1- إبراز حاجة البشر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بتصوير ما كانت عليه العصور الجاهلية من ظلمات ومظالم، وصار هذا المحور أساسا لكل من يريد تبيان فضل الرسول عليه الصلاة والسلام.

2- الابتهاج بمولده بتصوير الخوارق التي صاحبت مولده ومعجزاته كحادثة شق الصدر وتظليل الغمامة والإسراء والمعراج ونسيج العنكبوت على الغار، والإشادة بأخلاقه وشمائله وسيرته.

3- الحديث عن بعثته بتصوير لحظات وحيه في غار حراء والجهر بدعوته وأعباء رسالته، وهجرته وجهاده وغزواته ووفوده.

4- تتبع أثر البعثة بالتنويه بخصائص الرسالة المحمدية كإشاعتها للطمأنينة والخير والحكمة، والعدل بين الناس، وامتدادها الدنيوي والأخروي وخلودها في كل زمان ومكان.

5- عدم اقتصار بعضهم في العصر الحديث على ما سبق، بل ربطوا بين الماضي والحاضر ودعوا إلى الاقتداء بما في السيرة النبوية من بعث وقوة، والذي أوحى بذلك هو تأثير الحملات والمطاعن ضد الإسلام، فانعكست أصداء الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية في مدائح هذه الفترة[4]. وكانت أشعارهم متنفسا لمشاعر الحرية والاستقلال، ومستلهما لمعاني القوة والاستعلاء الإيماني والعقدي في الرسالة الإسلامية.

6- بقاء العامل الديني هو الرصيد الشعوري المتجدد، الباعث على هذا اللون من الشعر الزاخر بمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وما يرجى من التوسل بجاهه الكريم وشفاعته العظمى، وطريقه الرباني الذي

---

(1) انظر: أحمد محمد الحوفي - الاتجاه الروحي في شعر شوقي- مطبعة لجنة البيان العربي-مصر- 1967-ص64.
كذلك :علي النجدي ناصف -الدين والأخلاق في شعر شوقي-مكتبة نهضة مصر-الفجالة-ط2-1964م-ص32وما بعدها.

(2) انظر-قائمة للمطولات والمعاجم - سعد الدين محمد الخيراوي- العامل الديني في الشعر المصري الحديث-مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب - القاهرة -(1384هـ-1964م)- ص 520.

(3) انظر- المرجع نفسه- ص 422-460 .كذلك محمد إبراهيم الجيوشي- شاعر العروبة والإسلام -أحمد محرم - ط 1-(1381هـ-1961م)-مكتبة دار العروبة- القاهرة-ص59 وما بعدها.

(4) سعد الدين الخيراوي - العامل الديني في الشعر المصري الحديث- ص 256-257.

سلكه في تكوين الأمة الرائدة للبشرية حضارة وهديا وقد قال تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (1) ونستخلص المقصود من امتداح النبي،هو استخلاص العبرة من سيرته وتمجيد فضله على العالمين، والاستدلال إلى قدرة الله وحكمته وتأييده لنبيه.

وظلت سيرته أعظم من أن تشملها دراسة أو وصف ولا يظن أحد أنه قد ظفر منها بكل شيء، ويدّعي أنه لم يبق للآتين إلا الإعادة والتكرار،بل كل مبدع قادر على أن يستلهم منها رؤية جديدة .

لقد ردد الشاعر محمود إسماعيل إيمانه بالأنبياء بعامة، فهم ينابيع الحقيقة الإلهية الكبرى، المبلّغون عن الله سبحانه وتعالى، وقد أرسلهم إلى عباده هدى ورحمة وكثيرا ما تردد في ثنايا قصائده حديثه عن موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وقد أقر لهم بالتمجيد والتوقير والإكبار إلا أن حديثه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كانت له الحظوة الكبرى أكسبه إياها الشاعر لارتباط وجوده ودعوته بضرورة إنسانية استوعبتها آخر رسالة سماوية وهي الإسلام . ولم تخرج رؤية محمود حسن إسماعيل عن الإطار العام الذي كونه الواقع الشعري عموما، إلا أنه استقل بنظرته العامة إلى شخصية وسيرة النبي وكل الظواهر والعوامل المرتبطة به. إذ لم يعن بسرد كل التفاصيل والأحداث والوقائع وترتيبها وعرضها وبسطها فلم يعتمد الترتيب التاريخي في السيرة وإنما اختار أبرزها وأقواها أثرا وتأثيرا، ولم يقلد في ذلك بردة كعب بن زهير ولا البوصيري ولا شوقي ولا ملحمة محرم،وإن اعتمد في بعض قصائده على طابع المطولات والملاحم(2).

لم يكن شاعرا ملحميا كأحمد محرم بإيادته الإسلامية ذات الطابع الملحمي(3)، وإنما شاعرا غنائيا قصصيا، لأنه لم يتجه نحو السرد والبسط والتفصيل، وابتعد عن الجفاف والسأم الشعري بإدخاله عنصر الخيال بشكل قوي، والذي حرّك العاطفة، نحو إبداع شعري امتاز برؤى جديدة.كما أن قصائده حول السيرة النبوية على الرغم من طول بعضها، واجتماع معظمها تحت عنوان "نبي الحرية" في ديوان نار وأصفاد ومتسلسلة تسلسلا فكريا لا ملحميا، فهي تتفرق في دواوين أخرى،واعتماده على النوع الشعري، لم يجعله يشوه التاريخ أو يزّرفه، وإنما مثل حقائقه بالاستمداد من خياله وثقافته الدينية.ففي شعره << نحن بالشاعر الذي لا يعني بنقل الألفاظ أو سرد الأحداث وصوغها شعرا،بل إن الشاعرية تغلب دائما وتبرز واضحة في شعره>>(4)

كان ديوان" نار وأصفاد" زاخرا بقيم الحرية الكبرى،وهي حرية الإنسان من الشرك والجهل والظلم. هذه الحرية التي بدأها بحرية إلهية نشرها النبي صلى الله عليه وسلم وقادها بوحي الإله. فحرر الإنسان من قصة جاهلية مظلمة متخمة بالشرور والمنكرات والعقائد الفاسدة.

---

(1) آل عمران - 31.

(2) انظر - سعد الدين محمد الخيراوي- العامل الديني في الشعر المصري الحديث- ص 520.

(3) انظر- شوقي ضيف- دراسات في الشعر العربي المعاصر- دار المعارف- القاهرة- مصر-ط7-ص55-57.

(4) سعد الدين محمد الخيراوي- العامل الديني في الشعر المصري الحديث-ص 519.

المبحث الأول

دواعي البعثة

1- تصوير الواقع العقدي.

2- تصوير الواقع الاجتماعي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويروي المحور الأول في الديوان " بني الحرية " مسيرة النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان حياة جديدة، غيرت واقعا أرضيا من جذوره. ومن هذا المحور كانت انطلاقة الشاعر نحو رؤية شعرية تربط سيرة النبي بأبرز دواعيها وذكرياتها ومناسباتها ومظاهرها وآثارها، وبرسالة الإسلام وما حملته من قيم روحية وإنسانية كما تربط بالواقع الغائب والحاضر والآتي،مما سنكشف عنه فيما يلي :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمة كانت صورة مصغرة لأمم العالم بأسره، على الرغم ما تميزت به هذه الأمة من فصاحة وبيان، وأنفة وشجاعة، إلا أنها ابتليت أيضا بانحطاط ديني شديد، ووثنية سخيفة، لمّا هانت عليها إنسانيتها وأمست عابدة لأي شيء في السموات والأرض، فسجدت للحجر والشجر والشمس والقمر... وكل ما لا يملك نفعا ولا ضررا، متجاهلة وجودها الحقيقي بمعرفة الله زاعمة التقرب إليه بها زلفى، منغمسة في عبادتها بأبشع الأشكال والصفات. وقد وصل عدد الآلهة في جوف مكة وفنائها ثلاثة مائة وستين صنما[1]. وأفسدت عقلها وذوقها وخلقها باستحلاء المر، واستيطاب الخبيث، ومعاقرة الخمر، والخلاعة والفجور، ومعاطاة الربا والميسر والأزلام، واشتهاء المال والنساء، وإباحة الغارة والثأر، والرق والوأد. وأصبح الطالح فيها راعيا سيدا، والصالح ذليلا مستعبدا.[2]

وكانت كل الأمم تعيش هذه الحياة بعد أن غابت أنوار التوحيد، وأصبحت الديانات السماوية لعبة المحرفين والمشوهين والعابثين. وقد فقدت روحها وصدقها، وران الظلام في كل الأرض، وأصبحت الإنسانية في فوضى رهيبة، واحتضار روحي. [3]

ولقد صوّر الشاعر محمود حسن إسماعيل حاجة البشر الشديدة إلى منقذ يرتفع بها إلى السمو الروحي والأخلاقي. فردد ما سجله التاريخ من مظالم ومفاسد عقائد وطقوس ناءت بها الأرض قبل البعثة المحمدية زعزعت روح الإنسان ونفت عنه ميزة العقل والرشد، وسلامة الوجدان وأمنية الخلافة فيها.

كان "أحمد شوقي" قد استأثر بالأسبقية والتفرد في وصف هذا الواقع الجاهلي في ثنايا مدائحه النبوية بمقاطع وصفية لفوضى الناس حياة وعقيدة. يقول في مقطع من إحدى قصائده :

أَظْلَمَ الشَّرْقُ بَعْدَ فَيْضَةِ نُورٍ ... وَتَغَشَّى البَرِيَّةَ الإِدْجَاءُ[4]

فَالوَرَى فِي ضَلَالِهِ مُتَمَادٍ ... يَفْتِكُ الجَهْلُ فِيهِ وَالجُهَلاَءُ

عَرَفَ اللَّهُ ضُلَّةً : فَهُوَ شَحْطٌ ... أَوْ شِهَابٌ أَوْ صَخْرَةٌ صَمَّاءُ

وَتَوَلَّى عَلَى النُّفُوسِ هَوَى الأَوْ ... ثَانِ حَتَّى انْتَهَتْ لَهُ الأَهْوَاءُ

جَاءَ لِلنَّاسِ وَالشَّرَائِرُ فَوْضَى ... لَمْ يُؤَلِّفْ شَتَاتَهُنَّ لِوَاءُ

وَحِمَى اللَّهِ مُسْتَبَاحٌ وَشَرْعُ اللَّهِ وَالحَقُّ وَالصَّوَابُ وَرَاءُ[5]

---

(1) انظر – أبو الحسن الندوي- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- دار الشهاب- باتنة-الجزائر-ط5-1987م-ص 77-80.

(2) انظر-المرجع نفسه-ص 82-91.

لكن شاعرنا أطال الوصف والتأمل في هذا الواقع بقصائد كاملة،لا بمجرد مقاطع وصفية مختصرة.مثلما في قصيدتي " قصة الظلام" و"حادي التغيير" اللتين قدم من خلالهما صورا واقعية لحياة الجهالة والضلالة لذلك العصر.

1- تصوير الواقع العقدي :

صور في القصيدة الأولى قصة ظلام الأرض على أنها كانت إعصارا قائما وجنونيا لا ينحو من قبضته وأسره أي أحد:

كَانَتِ الأَرْضُ قِصَّةٌ مِنْ ظَلاَمِ
رَدَّدَتْهَا قَوَافِلُ الأَيَّـــــامِ
وَاسْتَطَارَتْ لَهَا نُفُوسُ الأَنَامِ
فَهِيَ إِعْصَارُ جِنَّةٍ فِي قَتَامِ -- وَالبَرَايَا فِي قَبْضَتَيْهِ أَسَارَى..(1)

ومضى الشاعر يصور في القصيدة العقيدة المشوهة والعقيمة وحيرة العباد في معرفة وعبادة الخالق، فهو نار عند البعض،وهو شمس أو نجم أو أي كوكب عند البعض الآخر، وهو حجر أو صخر عند آخرين . وبأسلوب شعري ساخر، استحضر تلك المعبودات وراح يخاطبها نافيا قداستها ومكانتها القديمة، مؤكدا تفاهتها وجهدها وزيفها. وبدأ بالنار التي عبدها أهل المجوس ، وطافوا حول لهيبها سكارى، تستميلهم نحوها نشوة الخمرة وأهواء إبليس :

وَيْكِ يَا نَارُ.. أَيُّ سِرٍّ خَبِيثِ
فِي لَظَاكِ، رَآهُ أَهْلُ المَجُوسِ
رَمَّزُوا بِالصَّلاَةِ وَالتَّقْدِيسِ
وَأَرَاقُوكِ فِي شِعَابِ النُّفُوسِ
حَمْزَةُ الحُبِّ مِنْ يَدَيْ إِبْلِيسَ - ثُمَّ طَافُوا حَوْلَ اللَّهِيبِ سُكَارَى(2)

ثم ينتقل إلى عابد النجم، ولا يعفيه من عذاب الجواب والعتاب عن عبادة كوكب ضئيل، يبدو عبدا لمن هو أكبر منه من الكواكب والبروج، ويسخر من صلاة الصياغ والغفلة لهذا العبد النوراني، الذي هو عبد للذي خلقه وبثه في الفلوات، وسخره ليضيء الظلمات . إنه بذلك يشير إلى المعبود الأكبر خالق كل شيء:

---

(1) نار وأصفاد -مكتبة الأنجلو المصرية-1959م-ص12.

(2) المصدر نفسه -ص12.

تعابدَ النَّحيم ...لاَ تَرُغْ(1) مِنْ عِتابي
لَسْتُ مُعْفيكَ مِنْ عَذَابِ الجَوَابِ..
مَا الذي فيكَ مِنْ عَطَايَا الشَّهَابِ؟
كَوْكَبٌ يَسْتَعيرُ ضَوْءَ الثِّيَابِ
كَيْفَ يُعْطيكَ...؟ وَهُوَ عَبْدٌ يُحَابي - دَوْرَةَ الشَّمْسِ،والبُرُوجَ الكِبَارا
أَيُّهَا العَابِئُ الشَّرِيدُ الصَّلاَةِ
ضِعْتَ مَابَيْنَ غَفْلَةِ اللَّفَتَاتِ
تَعْبُدُ النُّورَ... وَهْوَ عَبْدُ الحَيَاةِ
عَبْدُ مَنْ بَتَّهُ بِتِلْكَ الفَلاَةِ
ثُمَّ أَلْقَاهُ فِي يَدِ الظُّلُمَاتِ - فَغَدَا لِلغُيُوبِ فُلْكًا مُدَارًا (2)

ويتعجب من ذلك الصخر المجسد في إحدى زوايا المعابد، ومن تكوينه الطيني الهزيل،ومن العباد الذين تراموا حوله خاشعين،على الرغم من عماه وصممه وبكمه وجموده إلا أنه يزعم الربوبية :

وَيْكَ يَا صَخْرُ...أَنْتَ رَمْلٌ وَمَاءُ
جَبَلَتْهُ(3) الرِّيَاحُ وَالأَنْوَاءُ
كَيْفَ هَلَّتْ مِنْ طِينَتِكَ الأَضْوَاءُ
كَيْفَ صَبَّتْ بِكَ الغُيُوبَ السَّمَاءُ
وَأَتَاكَ العُبَّادُ وَالخُشَّعُ - وَتَرَامَوْا عَلَى يَدَيْكَ صَغَارَا
صَنَمٌ أَنْتَ أَمْ صَفَاةٌ(4)؟ أَجِبْنِي:
مَا لِجَفْنَيْكَ سَاهِتَانِ (5) لِجَفْنِي!
مَا لِكَفَّيْكَ فِي هَوَانٍ وَحُسْنِ
شُلَّتَا ؟ يَا أَصَمُّ بِاللَّهِ!دَعْنِي
مِنْ رُبُوبِيَّةٍ زَعَمْتَ وَفَنِّ- كَيْفَ يَا شَيْءُ ...قَدَّسَتْكَ العَشَارَى!(6)

ويسخر أكثر من هذا المعبد المظلم الذي يأوي إليه الكهنة والسحرة والعباد حانين رؤوسهم، خاشعين لمعبود

---

(1) ترغ : تروغ : تحيد وتميل وتخادع

(2) نار وأصمادحص 14.

(3) جبلته: ما جبلت عليه أي خلقت عليه وطبعت عليه .

(4)صفاة جمع صفوات وأصفاء : وهي الحجر الصلب الصخور الأملس الذي لا ينبت شيئا .

(5) ساهتان : ساهيتان .

(6) المقصود سورتي 12 13 .

يخضع لهمس الخفافيش، تزعزعه الرياح، فتكبكبه على وجهه، ويتلاشى إلى حصى متناثر. فيزداد ألم الشاعر الروحي، ويشتد إحساسه بالله فيدعو عز شأنه لكي يجعل لهذا الظلام نهارا:

مَعْبَدٌ لِلْعِبَادِ يَحْنُو وَيَخْشَعْ
وَلِهَمْسِ الخُفَّاشِ يَعْنُو وَيَخْضَعْ
وَإِذَا الرِّيحُ فِي الدَّيَاجِي تُزَعْزِعْ
كَبْكَبَتْ وَجْهَهُ الْمُعَارِ الْمُرَقَّعْ
فَتَلَاشَى حَصَاهُ مِنْ كُلِّ مَوْضِعْ - رَبِّ إِهْدَا الظَّلَامُ يَبْغِي نَهَارَا[1]

وفي قصيدة " حادي التغيير"، يصور اضطراب وحيرة هذا الإنسان الجاهلي في معرفة واختيار معبوده. إذ كلما لاح أمامه عنصر قوة واستعلاء وغموض حتى بدا خاشعا لنار أو شمس أو قمر أو نجم، على الرغم من مشاعر الخوف والألم، والشك والنفاق والجهل:

يُهِيلُ النَّارَ خَفَايَا ذَاتِهِ
لِتَسْكُبَ الطُّهْرَ عَلَى حَيَاتِهِ
وَيَعْزِفُ النَّحْسَ عَلَى عُيُونِهِ...
لَحْنًا يَصُبُّ اللَّيْلَ فِي يَقِينِهِ
إِنْ مَرَّ فِي خَيَالِهِ جَبَّارْ
عَلَى شَظَايَا طَيْفِهِ يَنْهَارْ
مَدَّ النِّفَاقَ تَحْتَهُ رُوَاقَا[2]
وَأَسْكَرَ الشُّعُورَ وَالأَحْدَاقَا[3]

بل قادته هذه المشاعر بكل مرارة لأحقر شيء وهو الطين، ليصنع منه إلها يعظمه فيما بعد ويصلي ويسجد له، ليضل في آخر مطافه الحائر إلى عدم المعرفة الإلهية والانشطار مرة أخرى في الكون بحثا عنه في الأشياء والظواهر والكائنات دون جدوى أو دليل مقنع أو إيمان مضيء:

أَبَلَى شِغَافَ نَفْسِهِ وَجَاءَ
لَيْلٌ يُرِيقُ لَيْلَهُ ظَمْآءَ[4]

---

(1) المصدر السابق: ص 13.

(2) رواقا: الرواق: صفة لكل شيء واسع كالبيت.

(3) لا حد: دار المعارف، القاهرة 1980م، ص 35 36.

(4) نص: الظمأ، العطش.

يَبْنِي مِنَ الطِّينِ عَلَى هَبَائِهْ
آلِهَةً عَرْمَسَاءَ فِي فَضَائِـــهِ
يُزْجِي لَهَا الصَّلَاةَ وَالتَّعَبُّـــدَا
وَيُوزِّعُ الرُّوحَ لَهَا أَنْ تَسْجُدَا
يَفْهَقُ فِي ضَلَالِهِ لِلصَّنَـــمِ
وَيَسْتَجِيرُ بِضُحَاهُ المُظْلِـــمِ ...
وَالشَّمْسُ فِي إِحْسَابِهِ وَالقَمَرُ
مَعَابِدٌ غَنَّى هَوَاهَا الوَتَـــرُ
لَا يَعْرِفُ اللَّهَ، وَلَوْ مَرَّ بِـــهِ
خَلْدٌ يُضَيِّءُ كُلَّ مَا فِي قَلْبِـــهِ
تَقَسَّمَتْ عُرُوقُهُ أَكْوَانَـــا
وَانْشَطَرَتْ وُجُوهُهُ ألْوَانَـــا...(1)

2- تـــصـــويـــر الواقـــع الاجـــتـــمـاعـي:

بعد تصويره لفساد العقيدة وانحرافها بمظاهر الشرك والوثنية، راح يصور انحطاط التقاليد والأخلاق المتغلغلة في الحياة الجاهلية، مؤكدا وجوب انهيارها لرجسها وسحافتها وآثامها وعواقبها، كتقديم القرابين ونحر الذبائح على الأنصاب(2) -أي الأصنام -ونضحها بدمها طلبا للود والقربى والأمان، وهي من ذلك براء :

وَيُرَوِّي كَغَفْلَةِ الخَطِيئَـــةْ
عَلَى صَفَاةِ الصَّنَمِ البَرِيئَـــةْ
وَيَذْبَحُ الرُّوحَ لَهَا قُرْبَانَـــا
يَسْتَلُّ مِنْ رَمَادِهِ الأَمَانَـــا(3)

ويخاطب لاعبي الميسر وضاربي الأزلام (4) متسائلا متعجبا من جدوى هذا التراشق والتكهن بالحظوظ والتعرض لعلم الغيب، وهو لعب سخيف وضلالة وهلاك لا نبأ فيه ولا علم ولا حظ :

---

(1) لابد -ص 37- 38.

(2) انظر -ابن هشام-السيرة النبوية-تحقيق-مصطفى السقا -إبراهيم الأبياري-عبد الحفيظ شلبي-تراث الإسلام-ج 1-ص 76. وما بعدها

(3) لابد -ص 35- 36.

(4) انظر -ابن هشام-السيرة النبوية-ج 1 -ص 152- 153.

مَا لَدَيْكُمْ يَا ضَـــارِبِي الأَزْلاَمِ..؟
أَنَا أَشْكُو الطَّرِيقَ...مَاذَا أَمَامِي؟
مَا وَرَائِي؟ مَا بَدْأَتِي؟ مَا خِتَامِي؟
اسْأَلُوا السَّهْمَ لَيْسَ فِيهِ لِيَـــرَامِ..
نَبَأٌ يَشْتَقُّ لَدَيْهِ أَوَامِي- إِنَّهَا صُلْفَةٌ سَفَتْكُمْ تَبَارَا (1)

ومن المظاهر الجاهلية، أيضا صورة تلك الوليدة البريئة التي ما تفتأ ترى نور الحياة حتى توأد في التراب دون ذنب أو خطيئة، وقد قال تعالى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(2)، وكان وهم الفقر والعار والتشاؤم،هو الذي صير تعذيبها ووأدها حكمة :

مَا لِتِلْكَ الوَلِيدَةِ المُسْتَضِيمَـــــةِ
وُورِيَتْ فِي التُّرَابِ...وَهِيَ بَرِيئَةْ !
أَيُّنَا سَوْءَةٌ ؟ وَأَيُّ خَطِيـــئَـــةٍ ؟
يَا لِتِلْكَ الآثَامِ هَبَّتْ حَرِيـــقَـــةْ
صُرِعَ القَوْمُ أَمْ دَهَتْهُمْ خَبِيئَةْ؟ صَيَّرُوا حِكْمَةَ السَّمَوَاتِ عَارَا(3)

ويصور كيف عمت مظاهر الرق والظلم حياة كثير من الأمم التي لا تقودها قوانين أو شرائع، ولم تفلح فيها دعوات ومعجزات الأنبياء والرسل السابقين-وفي ذلك إشارة إلى الأديان السابقة-، فالصورة القاتمة لفساد الأخلاق والعقائد،وسيادة النوازع والأهواء وسلطة الطغيان ، جعلت الكون مشلولا ضريرا:

عَبْدٌ يَدُورُ فِي غُبَارِ سَيِّدِ
وَسَاجِدٌ يَخِفِنُ ذُلاًّ بِاليَدِ
وَأُمَمٌ تَرْعَى بِدِينِ الغَنَمِ
لَفَّتْ بِهَا الأَغْلاَلُ أَعْتَى الظُّلَمِ...
أَعْيَتْ خُطَاهَا كَلِمَاتُ الرُّسُلِ
وَمُعْجِزَاتُ المُرْسَلِينَ الأُوَلِ
وَغَابَ وَجْهُ اللَّهِ عَنْ أَعْمَاقِهَا
وَرَمْزَمَ الشَّيْطَانُ فِي أَحْدَاقِهَا...
تَنْعَى بِهَا مَوْؤُدَةٌ... مَا سُئِلَتْ

---

(1) شاعرا المصر الجاهلي، ص المصدر السابق، ص 14.

(2) النحل 58 59.

(3) مصدر سابق، ص 13.

بِأَيِّ ذَنْبٍ دُونَ ذَنْبٍ قُتِلَتْ
وَبِنْتُ كِيهَا جَائِعٌ فَقِيرْ
أَنْفَاسُهُ بِالوَهْمِ تَسْتَجِيرْ...
وَرَاسِفٌ فِي ظُلْمِهِ يُوَلْوِلُ
وَالبَأْسُ مِنْ أَنِينِهِ يَرْتَحِلُ
ظَلَّتْ عَلَى طُغْيَانِهَا تَدُورْ
وَالكَوْنُ مَشْلُولُ الخُطَا ضَرِيرْ(1)

وبذلك كان ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ضرورة إنسانية،فرضتها تلك الأوضاع والمظاهر لإنقاذ البشرية. فكان في خطاه الفجر، وبكفيه كانت النجاة ،كانت استجابة الله بهذه البشرى للأرض :

رَبَّتْ هَذِي مَضَارِبُ الجَاهِلِيَّةْ
حَيَّمَتْ فَوْقَهَا العُصُورُ الشَّقِيَّةْ
جَاءَهَا الزَّمَانُ يَجْتَرُّ غَبَّهْ
قَادِمٌ...فِي خُطَاهُ فَجْرُ البَرِيَّةْ
وَبِكَفَّيْهِ نَجْوَةُ البَشَرِيَّةْ - مِنْ قُرُونٍ صَبَّتْ عَلَيْهَا الخَسَارَا(2)

---

(1) لابد ص 39 40

(2) نار وأصفاد ص 15 .

المبحث الثاني
مظاهر البعثة

1- الميلاد.

2- الوحي.

3- الإسراء والمعراج.

4- الهجرة.

5- بدر الكبرى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بِأَيِّ ذَنْبٍ دُونَ ذَنْبٍ قُتِلَتْ
وَبِنْتُهَا حَائِعٌ فَقِيرٌ
أَنْفَاسُهُ بِالوَهْمِ تَسْتَجِيرُ...
وَزَاسِفٌ فِي ظُلْمِهِ يَتَوَلْوَلُ
وَالْيَأْسُ مِنْ أَنِينِهِ يَرْتَحِلُ
ظَلَّتْ عَلَى طُغْيَانِهَا تَدُورُ
وَالكَوْنُ مَشْلُولُ الخُطَا ضَرِيرُ[1]

وبذلك كان ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ضرورة إنسانية،فرضتها تلك الأوضاع والمظاهر لإنقاذ البشرية. فكان في خطاه الفجر، وبكفيه كانت النجاة ،كانت استجابة الله بهذه البشرى للأرض :

رَبَّ هَذِي مَضَارِبُ الجَاهِلِيَّةْ
حَيَّمَتْ فَوْقَهَا العُصُورُ الشَّقِيَّةْ
جَاءَهَا الزَّمَانُ يَجْتَرُّ غَثَّهْ
قَادِمٌ...فِي خُطَاهُ فَجْرُ البَرِيَّةْ
وَبِكَفَّيْهِ نَجْوَةُ البَشَرِيَّةْ - مِنْ قُرُونٍ صَبَّتْ عَلَيْهَا الخَسَارَا[2]

---

(1) لابد ص 39 40

(2) نار وأصفاد ص 15 .

كان المبعوث نبيا أميا يتيما، وكان موطن بعثته مقفرا مجدبا لأقوام أعراب، رعاة، أميين، يعيشون حياة غليظة، جافة، ضائعة ولكن من مفارقات هذا الواقع، حدوث آيات ومعجزات بينات، أدت إلى انقلاب شامل في ماديات تلك الحياة ومعنوياتها، واستطاعت أن تنحب أكرم مواليدها، تتفجر من فمه الطاهر ينابيع الحكمة، وتقع في عقول الناس،وفي قلوبهم موقع الماء الغدق في الأرض القفر .فإذا الناس غير الناس، وإذا الحياة غير الحياة، وإذا أعراب البادية ورعاة الإبل شامة في الناس، وأساتذة في العلم، وساسة للأمم، وإذ هذا البلد المقفر مطلع النور ومشرق الهدى، ومهوى الأفئدة وقبلة أنظار العالم.(1)

إذن من هذا الموقع – ومن حيث لا يتوقع أحد اصطفى الله محمدا صلى الله محمدا لأعظم رسالة،وخصه بأفضل دعوة، وأفسح له موكب النبوة الفياض بالنور والجلال بشواهد وصفات بارزة وأخلاق عالية قبل بعثه، رفعت من مقامه، وأعلت من سيرته منذ مولده وصباه وشبابه وكهولته حتى تلقى رسالة السماء وحمل الكلمة الأخيرة إلى الأرض، وأعلن أنه رسول ومبعوث للناس كافة. ووقع الانقلاب الشامل الذي لم تشهد له الحياة مثيلا، وكان النبأ العظيم للإسلام، وكانت صدمة المفاجأة لدى الكثيرين، فاضطربوا وهاجوا،وارتفعت أصواتهم بجلجلة،رافضة،متحاوزة صداها حدود مكة، وتتابعت أصواتهم وتمارجت وانفجرت بركانا عظيما فتح فوهته،يرمي باللهب والحمم.

وككل شيء له نهاية، فقد انتهى الغليان إلى غايته، وبلغ مداه، وهدأ وسكن البركان، وصنع الله للبعثة المحمدية من هذه المحنة خيرا وإنها << لمعجزة من معجزاتها، وآية من آياتها أن تثمر على فوهة هذا البركان الجاهلي، وأن تمتد جذورها وفروعها في هذه الأرض>> (2).

وتحدثت كثير من كتاب السيرة ورواتها ومؤرخيها عن خوارق ومعجزات ومشاهد وظواهر وأحداث ووقائع صحبت مولده صلى الله عليه وسلم، وسايرت مراحل حياته الدعوية وكانت لها آثار جليلة في مسيرة هذه البعثة. وأختار أبرز مظاهر هذه البعثة التي تشهد له بالنبوة والخلود والتفرد كالميلاد والوحي، والإسراء والمعراج، والهجرة وبدر الكبرى... ليبين الصراع بين التوحيد والشرك،والخير والشر، والحق والباطل، وكيف كان التحدي والصمود والانتصار لهذه البعثة،وكيف صار ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عاليا في فم الوجود لم ينقطع إلى يومنا.

1-الـــمـــيـــلاد

إن النبوة صلة مباشرة بين السماء والأرض، فحين يظهر نبي يكون معناه أن السماء قد التقت بالأرض، أو أن الأرض قد تلاقت مع السماء، على يد إنسان من الناس، يتناول من السماء بعض ما فيها من رحمة ونور، ليأخذ الناس بحظهم من هذه الرحمة ، ومن هذا النور. (3)

---

(1) د/ عبد الكريم الخطيب النبي محمد ط الفكر العربي ط 2 1976 ص 165.

(2) المرجع نفسه ص 168 169.

(3) المرجع نفسه ص 200.

فإذا آن أوان هذه النبوة، وأطل زمانها، كانت تلك الإرهاصات الملموسة والكوامن الروحية التي تنبيء بهذا الأمر العظيم، وهو ظهور نبي في الحياة والذي لا يمكن أن يقع دون أن تكون له دلائل نبوة يتلمسها ويعلنها بعض ذوي النفوس المتيقظة والمشاعر المؤمنة.

وما النبي في جلاله وهيبته إلا كالشمس << تراها تطلع في الأفق من الآفاق دون أن تسبقها أضواء الصباح، ودون أن تقوم بين يديها أنسام الفجر لتوقظ الأحياء لها، وتهيئهم لاستقبالها، وتملأ عيونهم نورا وهاديا مترفقا قبل أن يغمرهم ضوؤها ويغشي أبصارهم شعاعها. >>(1)

وحدث هذا حين بدأت الخيوط الأولى من أشعة فجر إثني عشر من عام الفيل (2) تظهر في آفاق الجزيرة العربية مؤذنة بأن مطلع شمس النبوة سيجيء بعد هذا الفجر الوليد.

وتحدث كثير من كتاب السيرة ورواتها عن أنباء مستفيضة ومشاهد مثيرة صحبت مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، تؤكد نبوءته، كسقوط الأصنام من أماكنها وخمود النيران، وارتجاج إيوان كسرى، ودنو النجوم، وظهور النور الذي شوهد في المنزل الذي ولد فيه مشعا بين أسوار مكة ومضيئا قصور الشام.(3)

ورسم الشاعر من هذا الميلاد لوحات مضيئة لونها بتجربته ورؤيته فجعل من يوم مولده إشراقا كونيا واهتزازا روحيا احتفت وشعرت به الأرض والسماء وكل موجود، وعكس الآيات التي وقعت أثناء ميلاده.

فجعل السماء تبشر بهذا المولود وتسميه محمد، فتعلن الأرض وصول هذا المولد الذي سيدك الأوثان، ويزعزع إيوان كسرى، ويتهادي كالفرقد ينير بنوره كل زمان ومكان:

قِيلَ بُشْرَى السَّمَاءُ..قَالَتْ:مُحَمَّدْ
فَأَكَبَّتْ أَوْثَانُهُمْ وَهِيَ تُعْبَدْ
وَاسْتَحَارَتْ نِيرَانُهُمْ وَهِيَ تُخْمَدْ
وَتَهَاوَى إِيوَانُ كِسْرَى الْمُمَرَّدْ...
وَتَهَادَى مِنْ سِدْرَةِ اللَّهِ فَرْقَدْ - دَكَّ بِالنُّورِ كُلَّ لَيْلٍ وَسَارَا..(4)

واستطاع الشاعر من حادثة سقوط الأصنام الواردة في السيرة أن يتحيل قصة شعرية خيالية تمثل الصراع بين التوحيد والشرك والحق والباطل، وهي قصيدة " حجارة الوثنية "، والتي قال في مقدمتها << مع أول شعاع أومض في محاريب الوثنية من نور المبعوث العربي الذي اصطفته السماء ليرد ذاتية الإنسان، ويسحق الطاغوت

---

(1) المرجع السابق - ص 201 .

(2) ابن هشام - السيرة النبوية - ج1-ص 158.

(3) انظر-ابن كثير-السيرة النبوية- تحقيق- مصطفى عبد الواحد -دار إحياء التراث العربي -بيروت-لبنان- ج1-ص 211 وما بعدها. وانظر كذلك-البيهقي-دلائل النبوة- تحقيق عبد الرحمان محمد عثمان-دار الفكر -ط2(1403هـ- 1983م)- ج4- ص 68 وما بعدها.

(4) ظل وأزهار - ص 15.

والطغيان، ويحرر الحياة من الخضوع والمذلة لغير الله، ويطهر القلوب من أرجاس الشرك والضلال وهوان الرق والعبودية...

ومع أول هزة للأصنام وهي تتهاوى أمام النور الجارف يوم مولده الخالد...أسطورة من وحي الفزع الذي حل بأصنام المشركين على ألسنة الجبابرة والخرس من آلهتهم الحجرية،اللات والعزى ومناة في احتماع لهم غداة أشرق في ظلمة محاربيهم شعاع من نور محمد .>> (1)

وكشفت هذه القصيدة بطابعها الحواري والقصصي الشيق بين أشهر آلهة العرب " مناة واللات والعزى"، ومشاهدها النابضة بالحركة والحياة،وصورها المتهكمة الساخرة عن حقيقة عقيدة مليئة بالمهازل والسخافات...هذه الحقيقة التي اعترفت بها الآلهة نفسها وباحت بالأسرار الدفينة في أعماق الحياة الجاهلية، على الرغم من صممها وخرسها، لكن الشاعر جعلها ناطقة بعد أن بث فيها الحياة فيا.

واستطاع في بداية القصيدة إبراز الصراع القائم بين النور والظلام والحق والباطل من خلال تنويع شخصيات الآلهة. ففيهم الإله المتكبر والمتواضع، والجاهل والمدرك للحق، والجاحد والمعترف بالضلال، وتنويع حواراتها بين الذي يصر على الباطل والذي يعترف بالحق ببراهين المنطق وأدلة الواقع، وينهي هذا الصراع بانتصار الحق على النور، وانزهاق الباطل واندثار الظلام.

في المشهد الأول يتراءى أمامنا الإله "مناة" في حال من الكبرياء والجبروت، في آخر الليل،بعد أن انفض من حول ساحتهم المشركون،وقد طال سجودهم بخطاب رفقيه اللات والعزى:

سَلاَمٌ الأُلُوهَةَ يا صَاحِبَتِي - وَحَيَّتْكُمَا عِزَّتِي العَالِيَهْ!
وَحَيَّتْكُمَا مِنْ شِعَابِ الجِبَالِ - قُلُوبٌ لأَصْنَامِنَا جَانِيَهْ
وَشَعْبٌ عَلَى الأَرْضِ عَاتِي الجَبَاهْ - تَخِرُّ لَنَا رُوحُهُ العَانِيَهْ...
وَأَلْقَى الزَّمَانُ عَلَى خَطْوِهِ - حَدِيثًا لأَمْجَادِهِ السَّارِيَهْ
صَحَارَاهُ أَنْشُودَةُ الأَنْبِيَاءِ - وَمَسْرَى شُعَاعَتِهَا الهَادِيَهْ
وَحَقْلُ السَّمَاءِ الذي فَجَّرَتْ - عَلَيْهِ يَنَابِيعُهَا الصَّافِيَهْ
بَنُو السَّيْفِ وَالبِيدِ أَهْلَ الوَغَى - وَأَبْطَالُ دَوْرَتِهَا الحَامِيَهْ
فَمُ الدَّهْرِ يَتْلُو وَأَشْعَارُهُمْ - تَظَلُّ الغُيُوبُ لَهَا رَاوِيَهْ
أُولَئِكَ مَنْ طَوَّفُوا حَوْلَنَا - خُشُوعًا لِصَوْلَتِنَا الطَّاغِيَهْ
وَمَنْ قَدَّسُونَا فَكُنَّا لَهُمْ - حَيَاةً لأَعْمَارِهِمْ ثَانِيَهْ...(2)

وما إن سمع اللات اعتراف مناة، وبالمكانة التي احتلوها في أرض العرب بعد امتلاك أرواحهم وأفكارهم، وإشادته بأمجاد وسمات هذه الأرض التي اختارها الله تكون مهبط الأنبياء ومستقبلا لكلمات السماء، وهذا

(1) نار وأصداء ص 17

(2) المصدر نفسه ص 18 .

المجتمع الذي اتصف بالشجاعة والقوة والكرامة والشعر ، وعلى الرغم من هذا المجد والصيت كانوا لهم قبلة للخشوع والسجود والعبادة. حتى تعجب في سخرية وتحقير له بعد خطاب الغرور والكبرياء،لأنه غالى في ذكر العرب وتمجيدهم ومدحهم، وهم لا يستحقون قداسته التي يخلعها على رجسهم . وكأن الشاعر يريد أن يبين السقوط الروحي للعرب على الرغم من مجدهم وأفضليتهم وفضائلهم ماداموا قد انحرفوا وراء عبادة الأوثان، قائلا :

أَرَاكَ تَغَالَيْتَ فِي ذِكْرِهِمْ - وَكُنْتَ فِي الوَرَى دَاعِيَهْ

إِلَهٌ يُمَجِّدُ عُبَّادَهُ - وَيَكْسُوهُمُ المِدَحَ الغَالِيَهْ

وَيَخْلَعُ مِنْ قُدْسِ أَوْصَافِهِ - عَلَى رِجْسِهِمْ حُلَلاً ضَافِيَهْ(1)

لِيُنْسِ الهُدَى عِنْدَهُ وَالرَّشَادُ - وَتَبًّا لِشِرْعَتِهِ الغَاوِيَهْ(2)

ويصرخ " مناة " في وجه " العزى" الذي كان في إطراق عميق يشكو من تغيير نظرة "اللات" المفاجئة ومن سخف كلامه ويطلب منه أن يدافع عن حق الألوهية ولا يرضى بالهوان والصمت :

سَمِعْتُ مِنَ اللاَّتِ هَجْرَ الحَدِيثِ - وَسُخْفَ المَلاَمِ وَزَيْفَ الكَلِمْ

وَأَطْرَقْتَ لَمْ تُلْقِ بِالإِلَـــــهْ - وَلَمْ يَسْتَثِرْكَ انْتِهَاكُ الحُـــرَمْ

إِلَهٌ وَتَرْضَى بِهَذَا الهَـــوَانِ - وَتُغْرِقُ فِي الصَّمْتِ مِثْلَ الصَّنَمْ(3)

ويبدو العزى أكثر هدوء وتواضعا وتفهما لحقيقة واقعه، فيجيب مناة في دهشة واستغراب عن سر معاتبته لصمته وإطراقه، واستنكار لعدم احتجاجه على ادعاءات اللات الباطلة ، مؤكدا وصفه له بأنه صنم خاو أصم جامد .فيقول :

وَمَا أَنَا إِلاَّ كَمَا قَدْ نَعَتَّ - جَمَادٌ عَلَى الأَرْضِ خَاوٍ أَصَمّْ

وَمَا أَنْتَ يَا صَاحِ!..(4)

ويقاطعه مناة بكل قسوة وغضب وتحد لما اصطدم به مرة أخرى،ليكمل ما يريد أن يسمعه دائما على أنه الرب العظيم، ذو القوة والجلال، والنعم، والمنى والقسم، واقتباسه كل صفات الإله .قائلا :

.....رَبُّ عَظِيـــمٌ - تُرَجَّى لَدَيَّ المُنَى وَالنِّعَـــمْ

وَتَمْشِي بِعَوْلَجِي السَّافِيَاتُ(5) - وَتَنْهَلُ مِنْ رَاحَتَيَّ الدِّيَـــمْ(6)

---

(1)ضافيه : واسعة.

(2) نار وأصفاد-ص 18.

(3) المصدر نفسه- ص 18-19.

(4) المصدر نفسه - ص 13.

(5) السافيات : السوافي ج السافية هي الرملة المرتفعة.

(6) الديم : ج الديمة : المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق.

وَباسْمِي تَغَنَّتْ حُذاةُ الجِمَـال - ومَالُوا نَشَاوَى بِسِحْرِ النَّغَمْ
وَفِي الرَّوْعِ تَحْتُو لَدَى السُّيُوفُ - وَبِي تَسْتَجِيرُ وَلِي تَحْتَكُمْ
وَبِي تُقْسِمُ الْيَدُ فِي عَـهْدِهَا - حِلَالاً...[1]

ويقاطعها أيضا العزى رافضا تماديه في فرض الوهية مزعومة كاذبة وتناسبه أصله وحقيقته، مواجهها إياها بهما بكل حدة وحراة وألم وسخرية، للكف عن مغالطاته وخداعه، مؤكدا أنهم مجرد أصنام من حجارة خرساء، صنعهم الناحتون في ساعات لهوهم ليعبدونهم بعد ذلك،ويقدمون لهم القرابين والذبائح وهم لا يسمعون إلا صوت العدم، ولا حول ولا قوة لهم منذ القدم وهم قابعون في زوايا مظلمة، تحوم حولهم الخفافيش وتبول عليهم الثعالب. وأفلح العزى في تذكير صاحبه بأقوى صور الاشمئزاز والتحقير لواقعهم غير الصالح للعبادة والتقديس فيقول :

كَذَبَتْ!أَلَسْنَا هُنَا ثُلَّـــةً - مِنَ الصَّخْرِ حَرْشَاء مُنْذُ القِدَمْ ؟
تَلَهَّى بِأَحْجَارِنَا النَّاحِتُـــونَ - وَأَلْقَوْا بِنَا فِي مَهَاوِي الظُّلَـــمْ
سَكَنَّا الحَفِيضَ أُسَارَى البِلَى - وَكَانَتْ مَرَابِعُنَا فِي الْقِـــمَمْ...
...أَقَمْنَا بِزَاوِيَةٍ أَهْـــلُهَـــا - ذُبَابُ الفَنَاءِ، وَدُودُ الرِّمَـــمْ!
وَخُفَّاشُهَا وَثْنِـــيُّ الصَّـــدَى - يَرْصُوصُ فِي جَانِبِهِ الْبَكَـــمْ!
مَعَ الصَّمْتِ صَمَّاءُ...لاَ هَمْسَةٌ - وَلا هَمْسَةٌ غَيْرُ صَوْتِ العَدَمْ
نَصَبْنَا مَذَابِحَ لِلسَّائِمَـــــاتِ[2] - وَمَجْزَرَةً لِضَحَايَا النَّعَـــمْ
تَنُولُ الثَّعَالِبُ فِي سَاحِنَـــــا - وَتَسْلَحُ فَوْقَ الجِبَاهِ الرُّخَـــمْ[3]
كَـــفَانَـا خِـدَاعَـــا!..[4]

وأصبح أي إله فيهم غير مستعد للرد أو الاستمرار في التحجر بهذه الوثنية الضالة والدفاع عن هذا الواقع التعبدي المنحرف، واستولت عليهم مشاعر الذل والألم والأسى والندم، وداهمتهم لحظات الفشل والانهزام والمصير المحتوم،وكان باللات والعزى يتأهبان للتوبة عن هذا الماضي وانتظار التغيير ولكن مناة بدا واجما نادما والعزى مازال يوبخه بقسوة وحدة :

الـــــلات :
كَفانَا هَـــوَانَـــا !
مـــنـــــاة :

---

(1) المصدر السابق ص 93.

(2) السائمات من السأمة : وهي الملل والضجر .

(3) الرخم : نوع الرخم نوع من النسر ... وتعيش ...

(4) المصدر السابق ص 19 20.

.....[1] - أحِسُّ بِجَنْبَتَيَّ عَصْفَ الأَلَمْ .

يَدُورُ عَلَى عِزَّتِي بِالفَنَاءِ - وَيَهْوِي بِهَا فِي سَعِيرِ الضَّرَمْ

أَعِينَا صَفَاتِي عَلَى هَوْلِهَا .....

الـعـــــزى

..... تَجَرَّعْ لَهِيبَ الأَسَى وَالنَّدَمْ[2]

وبدوا جميعا عراة من أقنعة الزيف والخداع، والجهل والغرور متفرقين متقسمين بعد اختلاف مواقعهم وآثارهم وادعاءاتهم،وانتفاء صفات الألوهية عنهم أمام مصير ومآل لم يكن مرتقبا بالنسبة لهم.

ويبدأ المشهد الثاني بسكون يخيم على الكعبة المزدانة بصفوف الأصنام الصغيرة والكبيرة ومعهم اللات والعزى ومناه وهم في ذهول ودهشة وحيرة من إشراق نوراني يتراءى لهم بمنظر غير عادي.

وراح اللات الذي امتاز بذلك الشعور المؤمن يصف ذلك القبس العجيب ويتحيل دقائقه ولمحاته في الكون، فهو نور كشف عنه الغيوب، لا يشبه الشموس والكواكب والأفلاك، يتدفق على الأرض فيكسب الرمال طهرا وطيبا، ويخيل الصخور قلوبا نابضة. ويزداد استغرابه من هذا النور الذي ما يكاد يلامس جلده، حتى يوشك أن يذوب رهبة وخوفا،ويهرع إلى العزى متسائلا حائرا :

أَرَى قَبَسًا فِي حِمَانَا غَرِيـــبًـــا - وَلَمْحًا فِي الأُفُقِ ضَوْءًا عَجِيـــبًـــا

عَلَى الأَرْضِ دَفَّقَ أَنْـــوَارَهُ - فَسَالَتْ عَلَى الرَّمْلِ طُهْرًا وَطِيبَا

وَأَذْهَلَ بِاللَّمْحِ قَلْبَ الشُّمُوسِ - وَدَارَاتِ أَفْلاَكِـهَا وَالغُيُـوبَا

وَرِيعَتْ صُخُورُ الفَلاَ فَارْتَمَتْ - عَلَى خَطْوِهِ وَاسْتَحَالَتْ قُلُوبَـــا

أَهَلَّ عَلَى جَلْدِي فَاسْتَطَـارَ - وَأَوْشَكَ مِنْ رَهْبَةٍ أَنْ يَذُوبَـــا

أَعُزَّايَ مَـاذَا ؟ ....[3]

و يجيبه اللات في حدود إدراكه البسيط الذي أوحى له بأنه شعاع الضحى المعتاد،إلا أنه توهج هذه المرة بثوب جديد:

.....شُعَاعُ الضُّـــحَـــى - تَوَهَّجَ فِي الْبِيدِ غَضًّا فَتِيًّا[4]

ويستدرك مناة واصفا هذا النور بالنجم الساحد لهم، وأفكاره القديمة مازالت تسيطر عليه وتحرك مشاعر الألوهية فيه:

---

(1) هذا الانقطاع الشعري يبدو مقصودا حيا وهو إكمال الحوارات بالأشطر، وغير مقصود حيا آخر وهو التوقف الشعري العفوي الذي لا يريد أن يكمله نظما وصنعة.

(2) نار وأصفاد -ص 20 -21 .

(3) المصدر نفسه - ص 21 .

(4) المصدر نفسه ص 21 .

هُوَ النَّجْمُ خَفَّ لَنَا سَاجِدًا(1) - .....

ويقاطعه اللات ككل مرة موبخا مهاتراته وخيالاته وظنونه، معلنا سر النور الحقيقي، وإن لم يدرك أنه نور محمد صلى الله عليه وسلم الذي أضاء الكون يوم مولده ولكنه نور لا يشبه نور الشموس والنجوم، انبعث من السماء يهدي الحيارى ويمحو الذنوب ماإن رآه الشرك حتى خر معترفا منيبا ومضت جنازته تطوي القفار والسهوب، فيدعو صاحبيه أمام نهاية الوثنية إلى التوبة والإيمان، وأداء صلاة الجهاد، فما من مخلوق جامد أو متحرك إلا وفطر على نور الله :

يقول اللات :

..... - خَسِئْتَ وَخَيَّلْتَ ظَنًّا كَذُوبَا !
فَمَا النَّجْمُ إِمَّا ضَوْءُ الْكَوْكَبِ - وَكَمْ لاَحَ يَطْفِي الأَسَى وَالشُّحُوبَا
وَمَا الشَّمْسُ؟ كَمْ عَصَبَتْهَا السِّنِينُ - وَكَادَتْ نَضَارَتُهَا أَنْ تَشِيبَا
ضَلَلْتَ وَضَلَّ الَّذِي خَالَهُ - عَلَى الدَّهْرِ يَوْمًا سَيَلْقَى غُرُوبَا
هُوَ النُّورُ قَدْ رَفْرَفَتْهُ السَّمَاءُ - يُهْدِي الْحَيَارَى وَيَمْحُو الذُّنُوبَا
رَأَى الشِّرْكُ أَبْهَتَهُ فَارْتَمَى - وَخَرَّ عَلَى صَفْحَتَيْهَا مُنِيبَا
وَهَذِي جَنَازَتُهُ فِي الْفَلاَ - تَخُوضُ الْقِفَارَ، وَتَطْوِي السُّهُوبَا
فَهَيَّا نُؤَدِّي صَلاَةَ الْجِهَادِ - وَنَسْجُدُ فِي الأَرْضِ حَتَّى نَذُوبَا
وَيَسْجُدُونَ...(2)

وينتهي المشهد وهم يسجدون لنور السماء، حتى غمرهم النور وهم سجود،وذابوا في الأرض يطوون نهايةالجاهلية، وعقيدة الوثنية والشرك، وتنتهي القصيدة بلحظات إيمانية مشرقة بانتصار النور على الظلام، والذي قادته الدعوة اللينة، والحوار المقنع نحو الكون حتى حدث الاستسلام الإرادي والإيجابي لنور الإسلام. وقد شاء الشاعر أن تهتدي إليه حتى الجمادات، وجعل من حادثة سقوط الأصنام قصة حوارية مليئة بالحكم والعبر.

ب - الـــوحـــي :

أي مؤشرات للسمو والجلال قد لا تضيف لرفع منزلة النبي صلى اله عليه وسلم بعد أن رفعه الله وأعلى مقامه وهو يخاطبه ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾(3) بهذا العطاء الموعود تحولت حياة محمد صلى الله عليه وسلم، وأصبح مقامه فوق كل مقام ومنزلة.

---

(1) نار وأصفاد -ص 21.

(2) المصدر نفسه-ص 23.

(3) الضحى - 5 .

ووجدنا في سيرته أن تجربة التحول أحاسيس نفسية وروحية لم تقتصر على << اللحظة التي نزل فيها الوحي على محمد وهو يتعبد في غار حراء، فقد سبقته مراحل وتطورات انتقل معها محمد من حال إلى حال . كان الخوف والحيرة والقلق ينتابه حالا بعد حال حتى استوثق آخر الأمر أنها رسالة إلهية اختصه الله بها.>>(1)

وهذه الحالات والتمهيدات كانت إعدادا نفسيا وروحيا لتلقي الرسالة، وتحمل أعبائها، فنشأته الطيبة وخلقه الجميل وحبه للعزلة والانفراد في إحدى مغاور الجبال للتحنث والتأمل والبحث عن الحق، كلّها كانت خطوات الدخول في الوحي والنبوة.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها << أن أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة (2)، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه، إلا جاءت كفلق (3) الصباح . قالت : وحبب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده.>> (4)

حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، حيث جاءه الحق الملك في إحدى ليالي تعبده :

فقال : إقـرأ

قال : قلت ما أقرأ

قال : فغتني (5) به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني

وتكرر ذلك ثلاث مرات حتى

قال : إقـرأ

قـال : قلت مـاذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي.

فقـال : ﴿ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن عَلَقٍ. إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.﴾ (6)

قـال : فقرأتـها

---

(1) د/حسن مؤنس-دراسات في السيرة النبوية-الزهراء للإعلام العربي-القاهرة-مصر-ط2-(1405هـ-1985م)-ص 72.

(2) الرؤيا الصادقة أو الرؤيا الصالحة،والمراد بها رؤيا جميلة ينشرح لها الصدر، وتطرب لها الروح .

(3) فلق : هو ضياء الصبح إذا انبلج.

(4) ابن هشام-السيرة النبوية-ج1-ص 234.

(5) غتني أو غطني : والغت أو الط حبس النفس.

(6) العلق 1 5.

قال فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل، سمعت صوتا من السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل...[1]

وفي هذا الوصف الدقيق الموجز أعظم مشهد في تاريخ البشر، إنه مشهد ميلاد القرآن الكريم، الذي رجع بعده مرتجفا الفؤاد إلى خديجة بنت خويلد. قائلا : زملوني زملوني[2] فرملته حتى ذهب عنه الروع . وانطلقت به عند ابن عمها ورقة بن نوفل الذي قال له : والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذبنه، ولتؤذينه، ولتخرجنه، ولتقاتلنه.>>[3]

وبعد مشاهد الوحي بدأت رحلة نزول القرآن الكريم آية بعد آية وسورة بعد سورة فكان معجزة الانتقال الزمني إلى الدعوة والتبليغ ونشر قيم الإسلام والتحول العظيم إلى حياة الحضارة.

واستلهم الشاعر من الوحي باشراقاته وروحانيته فيضامن الشعر الرفيع بصوره ورموزه بعد احتفائه بخير مولود، الذي كان نورا مشرقا بالجلال والجمال والإيمان والرشد،وانطلق إلى غار حراء، حيث كان النبي يخلو إلى ربه بعيدا عن شرور الحياة ولوثاتها،مصورا استحالة هذا الغار إلى مبعث وحي ومنطلق نور ومصورا لحظات استلام النبي عليه الصلاة والسلام للأمانة الكبرى والرسالة العظمى من السماء.

وتمضي قصيدة " مع النور الأعظم " في ثوب رمزي متناغم، تعبر عن لحظة نزول الوحي على رسول الله في فيض من نور غامر، يشع هنا وهناك، ليلتحم من كل الحايا نور مع نور، وينبثق النور الأعظم. وكان النبي أول نور بدأ ينتشر في حفوت منذ مولده حتى تألق في كل الأجواء يسكب النور الأعظم من شفتيه إلا وهو الوحي الذي كان نورا من كلمات الله ألقاها عليه جبريل الذي خف إليه بالشوق والتكبير معلنا نبوته مائلا صدره وقلبه وفمه بنور عظيم فيقول :

يَا أَوَّلَ نُورٍ
سَكَبَ اللَّهُ النُّورَ الأَعْظَمَ مِنْ شَفَتَيْه
يَا أَوَّلَ نُورٍ
كُلُّ النُّورِ تَأَلَّقَ مِنْهُ، وَحَبَا الكَوْنَ عَلَى كَفَّيْه
يَا أَوَّلَ نُورْ
خَفَّ إِلَيْهِ الرُّوحُ القُدْسُ وَكَبَّرَ شَوْقًا بَيْنَ يَدَيْه
يَا أَوَّلَ نُورٍ[4]...

---

(1) ابن هشام-السيرة النبوية- ج1-ص 236-237.

(2) زملوني: دثروني، غطوني.

(3) ابن هشام-السيرة النبوية- ج1-ص 236 237.

(4) نهر الحقيقة ص 190.

وليس انبثاق هذا النور من مصدر إلهي، بـالأمر الهين أو العـادي، بـل إن أمـر الوحـي كـان ثقيـلا ومخيفـا ومفرحا للرسول صلى الله عليه وسلم، فصور الشـاعر لحظـات هـذا الإشعاع على الكـون، فعكـس ارتعـادة الرسول على الكون عندما تفجر سنا الله في الغار، وانشـقت سـتائر الظـلام والسـكون، وكـانت ارتعـادة تحمـل بشرى للأرض " وهي مجيء النور ":

اللّهُ الحَقُّ، تَعَـــالَى الـــلّـــهُ
سَنَاهُ تَفَجَّرَ فَوْقَ الغَـــــارْ
وانْشَـــقَّ سِـتَـــــارْ
وارْتَعَدَتْ كُلُّ حَنَايَا الكَوْنِ الغَارِقِ
فِي لَيْلٍ مَـــــسْـــحُـــورِ[1]
بُشْرَى لِلأَرْضِ، أَتَـــاهَا النُّـــورُ!
يَـــا أَوَّلَ نَـــــورٍ...[2]

وفي قصيدة أخرى " سجدة في طريق النور " حمل من الوحي مهرجان نور يهل على الوجود، فيبعث الحياة والتوقد والتيقظ والتعبد في الكون، فيلوح بما فيه متأهبا لاحتضان النبوة ، مستعدا للإيمان ، مسبحا، مكبرا، مرتقبا أولى خطوات النبي خارج الغار حيث يسفر الحق، وتتوارى الظلمات، ويتحدد الزمن.فيقول :

كُلُّ حَصَاةٍ فِي الطَّرِيقِ أَوْ مَاتَ تَنْتَظِرُ
وَكُلُّ ذَرَّاتِ الأَثِيرِ أَقْبَلَتْ تُكَـــبِّـــرُ
وَالرِّيحُ مِنْ كُلِّ اتِّجَاهٍ أَيْقَظَتْ رَبَابَهَا
وَأَقْبَلَتْ عَلَى جَبِينِ أُفْقِهَا أَهْدَابَهَـــا
وَاسْتَرْسَلَتْ تَعْزِفُ لِلسُّكُونِ مِنْ صَلَابَتِهَا
وَتَسْتَفِيدُ شَحْوَهَا هَمْسًا عَلَى لَهَاتِهَـــا
وَتُسْمِعُ الجِبَالَ مِنْ تَسْبِيحِهَا أَنْغَامَـــا
لَمْ تَدْرِ كَيْفَ اخْتَدَرَتْ مِنْ قَبْلِهَا إِلْهَـــامَا
وَالفَجْرُ مِنْ مَزَارِهِ العَنْتَانِ فِي وَجْهِ الوَثَنْ
رَدَّ خُطَاهُ لَخْطًا حَدِيدَةٍ عَلَى الزَّمَـــنْ[3]..

وكأن الشاعر بهذه الصورة المتخيلة يؤكد صورة واقعيـة وردت في السـيرة قبيـل بعثتـه، حـين يقضـي النبـي الكريم إلى شعاب مكة فلا يمر بحجر أو شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت رسول الله صلـى

---

(1) مسحور: المملوء وهنا المملوء بالظلام.

(2) المصدر السابق ص 192.

(3) الأعمال ص 83 84.

الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه، فلا يرى إلا الشجر والحجارة[1]. فهذا التسليم الذي أنطق الله به الحجر والشجر، يؤكد حقيقة تجاوب الكون وإيمانه .

وهبط عليه الوحي بكتاب النور والهدى والرحمة والحكمة وبدأت خطوات النبي الكريم تصدع بالدعوة إليه على الرغم من العنت والأذى، وتحققت غاية الكتاب الذي أنزل كما قال عنه تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[2] ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[3] . هذه الدعوة التي عرج بها إلى أفق الإله. ثم نزل وراح يدق ويطرق في الأبواب ويعيد الطرق، ويعلن عن فجر جديد، ويدعو الناس لرؤية توهج هذا الفجر، وتصدع وذوبان الليل، ويرى توهج الإيمان في أعماقهم بعد روح من الضلال والظلام:

عَرَجَ الأُفْقَ، وَأَذَّنَ مِنْ أَعْلَى اعْتِلاَهْ
وَرَاحَ يَدُقُّ، يُطْرِقُ... وَيُطْرِقُ عَلَى الأَبْوَابْ
الفَجْرُ تَوَهَّجَ يَا سَارِينَ عَلَى الأَعْتَابْ
اللَّيْلُ الضَّارِبُ حَوْلَ الكَوْنِ
تَصَدَّعَ فِي شَفَتَيْهِ وَذَابْ[4]

انطلقت هذه الخطوات من ذلك الغار لتحرر الإنسان فتنزع عنه الوهم والجهل، والهوان والذل، وترد عنه الظلم والرق، والشرك والضلال، وتحرر الكون فيسود تلك اليد والصحارى النعيم والسيادة، وتمتد خطاه بأسلوب تكرار المجيء للتأكيد على ضرورة الدعوة المحمدية :

جَاءَتْ تَهُزُّ مُطْرِقًا أَمَامَ رَبِّ مُطْرِقِ
كِلاَهُمَا وَهْمٌ لِوَهْمٍ جَاهِلٍ، مُلَفَّقِ!
جَاءَتْ .. تَرُدُّ الظُّلْمَ مَذْحُورًا إِلَى طَاغُوتِهِ
نَدَامَةً مَذْعُورَةً تَصْرُخُ فِي تَابُوتِهِ
جَاءَتْ... تَوُجُّ[5]، نَارُهَا تَأْوُهَ المُعَذَّبِ
وَالكَوْنُ يَسْتَافُ[6]، عَبِيرَ الصَّحْوِ مِنْ شُرُوفِهْ
وَاليَدُ لَيْلٌ ضَارِعٌ فِي القَيْدِ حَوْلَ الصَّنَمِ
وَالنَّاسُ أَوْهَامٌ تَدُورُ فِي ضَلاَلِهَا المُلَثَّمِ!

---

(1) ابن هشام- السيرة النبوية - ج1 -ص 234 235.

(2) النساء-174.

(3) إبراهيم-1.

(4) نهر الحقيقة ص 191 192.

(5) تاج : من الأجيج، لهيب النار.

(6) يستاف : يستنشق.

في خيمةٍ خيّم فيها الرّقُ منذُ الأزلِ
وغمغم[1] الإنسانُ حوْلَ قيْدِهِ المكبّلِ
جاءتْ إليْهِ، تنزعُ الهوانَ مِنْ جبينِهِ
وتحصدُ الإطراقَ والذّلةَ مِنْ حُفُونِهِ
جاءتْ مِنَ الغارِ مِنَ النّورِ خُطا محمّدِ
طوبى لِمَنْ خفّ إليْها بالضياءِ يهتدي [2]

وكان كتابا سماويا حمل كلام الله الأزلي وكان في كل كلمة وكل حرف سر وبركة، وبه كانت معجزة النبي، المعجزة التي قامت عليها دعوته واستقامت بها حجته وانتمت إليها شريعته، واختلفت عن معجزات الأنبياء السابقين، لأنها لم تكن وقتية محسوسة، بل معجزة خالدة لها تأثيرها الدائم في كل زمان ومكان.

وكان للقرآن سحره وإعجازه بتشريعاته الدقيقة وأنبائه الغيبية وعلومه الكونية. وهذا السحر والإعجاز <<كان في صميم النسق القرآني ذاته لا في الموضوع الذي يتحدث عنه وحده. وإن لم نغفل ما في طبيعة العقيدة الإسلامية من قوة وجاذبية. فهذه الخصائص إنما تتجلى من خلال التعبير الجميل المؤثر المعبر المصور.>>[3]

واستطاع القرآن أن يغذي الفكر والشعور بأسراره وبيانه، ويتحدى المعرضين عنه ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[4] ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾[5]. ولكنهم لم يأتوا بعشر سور ولا بسورة مفردة وقد عجز المشركون على الرغم من فصاحتهم، والشعراء من بيانهم، والكهان من سجعهم، وكان التحدي موجها للجن ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[6] وهذا التحدي للجن والإنس هو الذي يقطع كل جدل، بأن القرآن هو كلام الله، وأنه معجزة الرسول الخالدة.

ووقف الشاعر عند هذه المعاني مؤكدا أن القرآن بلا خلاف أعظم المعجزات وأبقاها على الزمن حجة الله على الناس، بعقيدته وشريعته وشموليته، ونظمه البياني وسر المعجز، راصدا بصوره الوجيزة آثار هذا الهدي الإلهي الذي انبعث من غار حراء مضيئا بنوره أقطار الأرض، هاديا للتي هي أقوم ﴿إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[7]. فهو كتاب من ضياء سرمدي نور الأحقاب، وحجب ظلمة الليالي وأمجد الأرواح، وهو

---

(1) غمغم : تكلم دون إبانة عن معنى كلامه (الكلام الذي لا يبين).

(2) لامية - ص 84-86.

(3) سيد قطب- التصوير الفني في القرآن الكريم ص 17.

(4) هود-13.

(5) يونس-38.

(6) الإسراء-88.

(7) الإسراء 9.

بحر من الهدي والأمان، سقى العالمين من عبابه وهو إعجاز من الله لا يمكن لأي بشر إدراك أغوار وأسرار معانيه:

وَبِيَمْنَاهُ لِلدُّهُورِ كِتَابُ
نَوَّرَتْ مِنْ ضِيَائِهِ الأَحْقَابُ
وَسَقَى العَالَمِينَ مِنْهُ عُبَابُ
فِيهِ لِلرُّوحِ نَجْدَةٌ وَإِهَابُ[1]
فِيهِ عَنْ ظُلْمَةِ اللَّيَالِي حِجَابٌ - سَرْمَدِيٌّ يُفَخِّرُ الأَنْوَارَا
أَعْجَزَ المُشْرِكِينَ مِنْهُ بَيَانٌ
كَبَّرَتْ مِنْ جَلَالِهِ الأَزْمَانُ
وَتَنَاهَوْا لِسِرِّهِ الكُهَّانُ
وَجَثَا الجِنُّ رَوْعَةً وَاسْتَكَانُوا
فَهُوَ نَجْمٌ مِنَ الهُدَى..وَأَمَانٌ - كُلُّ حَيٍّ إِلَيْهِ يَبْغِي الفِرَارَا[2].

والقرآن أيضا شراع نوراني حرك الزمن مغير دورته واتجاهه، وزعزع الكون فأيقظ كائناته، إلا أنه كان تحريكا هادئا ومضيئا، أعاد تشكيل مسيرة حياة بشرية مظلمة بحروفه وسطوره ونيراته وأضاء حيرة الزمان، وردد للأرض صوت السماء،وتتبع الشاعر أثر هذا الشراع القرآني في قصيدة طويلة "القرآن شراع الوجود" قائلا:

صَحَا الكُلُّ...حِينَ أَهَلَّ الشِّرَاعْ
وَدَوَّى نَفِيرُ بِدُنْيَا الصِّيَاعْ
هُنَا النُّورُ يَمْخُرُ لُجَّ العَذَابْ
بِنُورٍ تَجَسَّدَ مِنْهُ...كِتَابْ
عَلَى كُلِّ حَرْفٍ بِهِ كَوْكَبَانْ
يُضِيئَانِ حَيْرَةَ هَذَا الزَّمَانْ...
..وَفِي كُلِّ سَطْرٍ تَصَدَّى صَبَاحْ
وَمَدَّ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ جَنَاحْ
..وَفِي كُلِّ نَبْرٍ، تَحَدَّى نِدَاءْ
يردد للأرض صوت السماء[3]

---

(1) إهاب : الجلد أو الشيء الظاهر.

(2) نار والصحراء ص 16.

(3) مجلة الفيصل ع 12، 1390هـ 1970م، ص 17.

ج- الإسراء والمعراج

بعد أن ابتلي النبي الكريم في زوجه خديجة رضي الله عنها وعمه، وأفرغت يده من كل قوة، كانت تسانده في دعوته وتشد من أزره. وبعد أن بلغ الأمر أشده بين المشركين والنبي، وأصبح في حاجة إلى المزيد من المدد الروحي حتى يقوى على مواصلة الجهاد والصمود في وجه المعاندين والكائدين...

كانت تلك الرحلة العجيبة التي دبرتها السماء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهي رحلة الإسراء والمعراج التي قال فيها تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى. الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (1).

فحدود الرحلة من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس ورمانها لحظة من لحظات الليل. حيث انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى ونفر من الأنبياء، فأمّهم رسول الله صلة الله عليه وسلم وصلى بهم..(2)

ثم عرج إلى السماء حيث رأى من آيات الله ومن دلائل قدرته وعجائب ملكوته، ما تذوب فيها كل شرور العالم الأرضي وآلامه(3). وقد أشار إلى ذلك في سورة النجم ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (4). ففي هذه السورة نعيش لحظات مع قلب محمد صلى الله عليه وسلم مكشوفة عن الحجب، مراحة عن الأستار، يتلقى ويرى ويسمع من الملأ الأعلى، وقد وصف الله هذه اللحظات وصفا موحيا مؤثرا يبقى أصداءها وظلالها وإيحاءها إلى القلوب (5). وقد كان من آيات الله بلاء وتمحيص، وهدى ورحمة، وحكمة وعبرة لأولي الألباب،ومنها كانت فريضة الصلاة على المؤمنين كتابا موقوتا.(6)

على الرغم مما أحدثته هذه الرحلة من ردود أفعال، أدت حتى إلى إرتداد البعض، إلا أن أبا بكر رد عنهم تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم معتقدا إياه بكل ما قال وشاهد ولقب حينها بالصديق (7). وإن هذا

---

(1) الإسراء -1.

(2) ابن هشام-السيرة النبوية- ج2 ص 398 .

(3) انظر-المصدر نفسه-ص 403-407 .

(4) النجم - 1-18 .

(5) في ظلال القرآن - ج27 -ص 3406

(6) انظر ابن هشام السيرة النبوية ج2 ص 407 408

(7) انظر المصدر نفسه ص 398 399

الحدث المعجز على أية صورة وقع << لم يكن فيه ما يخرج الرسول عن بشريته، ويباعد ما بينه وبين الإنسان الذي يعيش فيه. فقد عاد الرسول، ولم ينكر الناس من ظاهره شيئا من أعدائه أنفسهم لم يروا عليه إمارة من إمارات هذه الرحلة المباركة فإن خيرها كله محبوءا في كيانه، ومنطويا في صدره وساريا في روحه إنه شأن من شأن الله مع نبيّه، وزاد روحي زوده به تكريما له وترويحا عن كيانه .>>(1).

وقد كانت حادثة الإسراء والمعراج بملامحها الغيبية منهلا خصبا اغترف منه الأدباء والشعراء موضوعات فنية وموحية، نذكر من أشهرها رسالة الغفران لأبي العلاء المعري،والتي أفاد في نواحيها القصصية والفنية من هذه الحادثة (2). كذلك رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي التي كانت رحلة أدبية إلى عالم آخر يشبه عالم الإسراء والمعراج.(3)

في حين اتجه الشعراء المعاصرون خاصة إلى إبراز هذه المناسبة وما فيها من عبر وحكم إلهية، يروونها في كثير من المواقف نظما كما ترويها السيرة نثرا، ولم يكن فيها مجال للإبداع والخيال(4)، وأكثرهم اتخذها معرضا فنيا أو مصدرا دينيا لقضايا معاصرة وربطها بقضية فلسطين بعد ضياعها،بحثا عن الإيمان والتحلّي والقوة الروحية في مجمع الأنبياء وأولى القبلتين، وأملا في النصر.

وبدت في أكثر من قصيدة للشاعر محمود حسن إسماعيل رؤى الإسراء والمعراج، واسترجاعه لهذه الذكرى منحته رافدا غنيا لإثراء رؤيته النبوية من جهة ،والانتقال بها في ثنايا شعره لإثراء قضية فلسطين من جانبها الديني من جهة أخرى(5).

وهنا علينا أن نعرض كيفية استلهام هذه المناسبة التي ارتبطت بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم،وكيف أوحت له بعض تفاصيلها الواردة في السيرة بمعاني النبوة والنور، والحق والغيب، والإيمان والصلاة.

ويتخيل أنه يقف أمام المسجد الأقصى، وهو يهدر من وراء السكون والأغلال، ويشير بذلك إلى حالته الراهنة وتمنحه مددا من القوة الروحية بتذكيره بمظهر بارز من مظاهر بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ألا وهو الإسراء والمعراج. ويصف له هذا الإسراء الذي غير فجر الأرض بضياء جديدبعد خطوات النبي المقدسة:

تَلفَتْ ... فَمَا زَالَ خَطْوَ النَّبِيّ.
يَرُشُّ لَكَ النُّورَ بِالرَّاحَتَيْـــنْ
وَيَسْقِيكَ إِسْرَاؤُهُ فِي الظَّــلاَمِ

---

(1) عبد الكريم الخطيب- النبي محمد-ص 264.

(2) انظر- محمد غنيمي هلال- في الأدب المقارن ص 228-229.

(3) انظر - المرجع نفسه - ص 229 - 230.

(4) انظر- علي البحراني بعنوان الليل والأحلام في شعر شوقي ص75-77.

(5) انظر- فصل الرؤيا المناسبة [illegible]

رَحِيقَ القَدَاسَةِ مِنْ خَطْوَتَيْنْ
أَلَمَّتْ شُعَاعَاتُهُ بِالتُّـــــرَابْ
وَخَطَّتْ بِهِ أَوَّلَةَ القِبْلَتَـــــيْنْ
وَأَوَّلُ إِصْغَـاءُ هَذَا الـوُجُودِ
لِرَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْسَابَ فجر
جَدِيدَ الضِّيَاءِ إِلَى كُلِّ عَـــيْنْ(1)

ويصف للمسجد المعراج بانطلاق خطوات النبي المشعة من ترابه، وطيرانها إلى بحر سماوي وضيء لا شاطيء له ولا ضفاف، على طائر نوراني غيبي .حيث راح النبي ينشد جنة الخلد وعرش الله وحوله مواكب من الملائكة والأنبياء تزف التسبيح والصلاة، حتى أدرك سدرة المنتهى ورأى من آيات ربه الكبرى، وكاد أن يكون قاب قوسين من نور الله السرمدي أو أدنى:

وَطَارَتْ بِمِعْرَاجِهَـــا فَوْقَ بَحْـرٍ
وَضِيءِ العُبَابِ بِلاَ شَاطِئَيْـــنْ
عَلَى طَائِرٍ (2) مِنْ هُيُولَى غُيُوبٍ
شَذَا الخُلْدِ يَحْدُوهُ مِنْ جَنَتَـــيْنْ
وَحَشْدُ المَلاَئِكَةِ مِنْ حَوْلِـــــهِ
يَزُفُّ التَّسَابِيـــحَ فِي مَوْكِبَيْـــنْ
وَرَكْبُ النَّبِيِّينَ..عِطْرٌ وَنُـــورٌ
وَرِيَّا (3) صَلاَةٍ عَلَى الجَانِبَيْنْ
وَيَرْقَى..فَيَفْتَرُّ (4) عَرْشُ الإِلَـهْ
وَلِلذَّاتِ يَهْرَعُ فِي وَمْضَتَيْنْ
إِلَى قَـابِ قَوْسَيْنِ..أَوْ مِنْهُ أَدْنَى
وَمِنْ بَيْنِهِ لاَ وُجُودٌ لِبَيْـــنْ!
عِنَاقُ المَدَى، وَانْعِتَاقُ العَـدَى
وَفَخْرٌ يُضَوِّئُ لِلْكَوْكَبَيْـنْ...(5)

---

(1) صلاة ورفض – ص 90 .

(2) هذا الطائر اسمه " البراق" وهو فرس جبريل ركبها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء .

(3) ريا : الريح الطيبة.

(4) يفتر: أقام وسكن .

(5) المصدر نفسه – ص 91 92 .

وفي إحدى ذكريات ليلة الإسراء و المعراج، يقف مرة أخرى أمام المسجد الأقصى بعد أن داست بغايا التائهين في مصلى الأنبياء، ومرقى عروج محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء،وعاثوا بفجورهم في ترابه المقدس، وتهتكت عراياهم على أعتابه، وهو صابر كظيم. ويتذكر هذه الليلة المعجزة في قصيدته " المسجد الصابر" ويصور فيها بعض مشاهد ووقائع هذه الرحلة النبوية، فيبرز أهم مشهد في الإسراء وهي صلاة النبي صلى الله عليه وسلم مع الأنبياء في هذا المسجد، وقد اجتمعوا في غير موعد، وإمامهم محمد وهم خلفه زمرا في سجود وتهجد، يقول:

لَسْتَ فِي عَالَمِ القَدَاسَاتِ مَسْجِدْ
إِنَّمَا أَنْتَ هَالَةٌ مِنْ مُحَمَّدْ
فِيكَ رَاحَ النَّبِيُّ لِلَّهِ يَسْجُدْ
قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ البِنَاءَ المُمَرَّدْ
والنَّبِيُّونَ خَلْفَهُ فِي تَهَجُّدْ
زُمَّرًا.. صَاحَبَتْهُ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدْ(1)

وأبرز أيضا أهم المشاهد في المعراج، بتصوير البراق والرحلة المعجزة التي أعلن فيها النبي شوقه إلى السماء فهتك الحجب، واجتلى أمامه الغيب، وكان اللقاء المقدس مع الله، وكانت الآيات الكبرى و دلائل قدرته ورحمته للعباد والأكوان،وكانت فريضة الصلاة التي عانق بها الأفق،وعاد بها من السماء إلى الأرض ضياء في كل شبر:

لَسْتَ فِي عَالَمِ القَدَاسَاتِ مَسْجِدْ
إِنَّمَا أَنْتَ..هَالَةٌ مِنْ مُحَمَّدْ
مِن تُرَاكِ الطُّهُورِ حَفَّ بُرَاقَهْ
يَهْتِكُ الحُجْبَ لِلسَّمَاءِ اشْتِيَاقَهْ
فَوْقَ طَيْرٍ أَذَابَ كُنْهَ الوُجُودِ
سِرُّهُ فِي الخَيَالِ وَالتَّحْيِيدِ
كَيْفَ يَرْقَى ؟ وَكَيْفَ يَهْفُو جَنَاحُهْ؟
كَيْفَ شَقَّ الدُّجَى..وَعَلَّى صَبَاحُهْ ؟
رَبِّ سُبْحَانَكَ... اجْتَلَى العَيْنُ أَمْرُكْ
وَدَنَا نُورُكَ المُصَفَّى وَسِرُّكْ
يَا لِقُدْسِ اللِّقَاءِ... كُلُّ ضِيَاءٍ
شَعَّ فِي الكَوْنِ دُونَهُ فِي العَشَاءِ

---

(1) صلاة و رفض ص 96.

قَبَسَ النُّورَ لِلْحَيَاةِ... وَشَـــقَّـــا
لِعِنَاقِ الصَّلَاةِ بِاللهِ.. أُفْـــــقَا
فِيهِ آيَـــاتُ رَبِّهِ قَدْ تَرَاهَـــــا
لِسَلَامِ الْأَكْوَانِ تَجْرِي سَـــنَـــاهَا
ثُمَّ عَادَ الضِّيَاءُ.. لِلْأَرْضِ بَشْرِي
بِصَلَاةِ الْوُجُودِ فِي كُلِّ شِبْـــرِ(1)

على الرغم من أن الشاعر لم يوظف خيالا إبداعيا واسعا في هذه الحادثة التي بإمكانهـا أن ترحـز بأيضـا عالم شعري أكثر رحابة إلا أنه لم يمنع تحليقه الشعري الجميل من منحنا صورة دينيـة رائعة، على الرغـم م تركيزه على تجسيدها في قالب فني موجز حيث لم يتعرض إلى السرد والنظم،واكتفى بتجسيد صـور ومشـا استخلصنا منها المعجزة الربانية، والعبرة من الرحلة التي جسدتها الصلاة بإعطاء هذه الشعيرة صورتها الرو- بعد اقترانها بالصفاء والطهارة والثرى والفضاء والمسجد والقبلة والسجود والتهجد.

---

(1) ديوان وراء الغمام ص 100 101.

د- الهـــجـــرة :

كانت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حدثا جليلا في سيرته ومستقبل رسالته، ومنطلقا جديدا للإسلام ونقطة فاصلة بين طورين، طور بناء وتأسيس الحياة الإسلامية جميعها،بعد طور الدعوة والتكوين في مكة واحتمال الأذى ومصابرة الأهوال، التزاما بأدب الله في الأمر بالصبر والدعوة إلى الإسلام بالموعظة الحسنة والحكمة.

وأصبح يوم الهجرة وعامها مستهلا للتاريخ الإسلامي بعد أن أقرها عمر رضي الله عنه وقد جاء في الهجرة ذيوعا وظهورا لدعوة الرسول أكثر من مولده أو مبعثه أو وفاته[1]. وخلدت عنى مرّ الأزمان هذه الحادثة التاريخية التي تعد انقلابا وتغييرا وفتحا جديدا لحياة ربانية لا مثيل لها في تاريخ البشرية،وأصبحت لها دلالات عميقة في السيرة والتاريخ، والأدب والفن.

فمن ذكرى الهجرة، راح الشعراء المحدثون يرسمون مواقفها ووقائعها، ويستلهمون روائع أحداثها، متخذين من بعض صورها وسيلة لا لمجرد وصف الحادث، وإنما للتذكير والعبرة والاقتداء ومتنفسا للتعبير عما يضطرم في واقعهم من آمال وآلام [2].

وقد تناولها كل على طريقته وأسلوبه فمنهم من قص في شعره أحداثها بجملة،ومنهم من توقف عند حادث بارز فيها،ومنهم من طاب له السرد والاستقصاء.

وكان لشاعرنا وقفات شعرية أحيا بها هذه الذكرى، منفردا بوقائع ومواقف استرعت خياله وعاطفته ذكرت في السيرة، لكنها مرت بين سطور الأدب والشعر مرورا عابرا، لكن الشاعر وقف عندها ليؤدي وظيفته الفنية التي لا تخلو من المشاعر الإسلامية الصادقة والقيمة التاريخية لهذه الحادثة.

واصطفى الشاعر موقف الغار وهو غار ثور[3]الذي شهد أبرز وقائع الهجرة - كما روتها كتب السيرة - ووقف أمامه مصورا تلك الوقائع لما فيها من أبعاد دينية ووجدانية وإنسانية، ووقوفه المتكرر في غار حراء ثم في غار ثور كان له مصدر إلهام ووحي شعري،بعد أن كان الغار مصدر معجزات ووحي إلهي .

وبدأ الشاعر حديثه عن الهجرة عندما انتهى رسول الله وأبو بكر رضي الله عنه إلى الغار ليلا هروبا وخوفا من أذى المشركين الذين اقتفوا أثرهما، وعندما دخل أبو بكر قبل الرسول صلى الله عليه وسلم ليقي رسول الله بنفسه،ودام فيه ثلاث ليال وقد نسجت العنكبوت في فم الغار،ووضعت حمامتان عليه لحمايتهما وسترهما.[4] وأمام هذا المشهد المعجز، مشهد المشركين بباب الغار والعنكبوت ناسجة خيوطها وحمامتين

---

(1) ابن كثير - السيرة النبوية - ج2 ص 287.

(2) انظر سعد الدين الجيزاوي- أصداء الدين في الشعر المصري الحديث- ج1 ص 247-256 .

(3) ثور : جبل بأسفل مكة.

(4) ابن كثير السيرة النبوية ج2 ص237 241 .

معششتين أمامه، وقد شاء الله أن يعمي ويضل بصيرة البغي. ونسج من خلال قصيدته " معجزة العنكبوت قصة شعرية على نسق غنائي مسرحي .

بدأ المشهد في القصيدة بانبعاث النشيد أو الغناء من الغار،وأبطال المشهد العنكبوت والحمامتان والثعبان، وقد جمع هذه الكائنات الغريبةو المخيفة والأليفة لتشكيل عناصر القوة والنجاة لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم. وتبدأ العنكبوت تنشد وهي تنسج خيوطها بعد أن دخل النبي وصاحبه الغار:

فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُورِي - يَا خُيُوطِي فِي الأَثِيرْ
أَنَا نَسَّاجُ الحُصُونِ الشُّمِّ مِنْ أَوْهَى الشُّعُورْ
وَقَفَ الدَّهْرُ عَلَى بَابِي مَذْعُورَ الضَّمِيرْ
وَحِجَابُ الشَّمْسِ لاَ فَانِي بِأَجْفَانِ الغَرِيرْ...
أَنَاشَكُّ جَاءَ يَحْمِي - كُلَّ إِيمَانِ الدُّهُورْ
أَرْسَلَتْنِي قُدْرَةُ اللَّهِ أَمَانَ المُسْتَجِيرْ
قَدْ وَهَى بَيْتِي..وَلَكِنْ صَارَ مِحْرَابَ العُصُورْ
بِالَّذِي أَخْفَى مِنَ الأَنْوَارِ فِي وَجْهِ البَشِيرْ
فَارْفَعِي يَا حِكْمَتِي سَدًّا - عَلَى بَطْشِ المُغِيرْ
وَتَغَنَّيْ يَا خُيُوطِي - ثُمَّ دُورِي، ثُمَّ دُورِي![1]

وتسمع الحمامتان نشيد العنكبوت وهي تفصح عن إيمانها بالله ونبيّه،وتعتز بخيوطها الواهية الضعيفة التي كانت حمايةً استحار بها النبي صلى الله عليه وسلم وشكًا وحكمةً ردت بطش المغيرين، وتسائل حمامة أختها حائرة،وقد وجدتا نفسيهما فجأة تدفان[2] على باب الغار وتعششان أمامه، فتقول :

أُخْتَاهُ مَاذَا دَهَانَا - فَلَمْ نَعُدْ فِي حِمَانَا
مَاذَا ؟ رِمَالٌ وَنُورٌ - وَعَنْكَبُوتٌ شَجَانَا
وَاليَدُ قَلْبٌ تَرَامَى - عَلَى الثَّرَى حَيْرَانَا
وَسَامِعٌ،وَمُسَادٍ - وَأَعْيُنٌ لاَ تَرَانَا
وَضَجَّةٌ فِي الفَيَافِي - حَسِبْتُهَا بُرْكَانَا
لَعَلَّ رِيحًا عَتِيَّا - عَلَى الصُّخُورِ رَمَانَا
فَضَلَّلَتْ حُطَّانَا - وَأَوْحَشَتْنَا رُبَانَا
أُخْتَاهُ مَاذَا ؟[3]

---

(1) نار وأصفاد-ص 23.

(2) تدفان : تعرّكان حناجرهما على بعض.

(3) المصدر نفسه ص 24.

وتهدئ من روعها الحمامة الثانية،بجبية عن تساؤلاتها الحائرة،موضحة سبب مجيئهما قائلة:

.....رُوَيْدًا - فَقَدْ ضَلَلْتُ الْبَيَانَا
فَمَا تَرَكَنَا رُبَانَا - لَكِنْ هَجَرْنَا الزَّمَانَا
لِذَلِكَ الْغَارِ جِئْنَا - نُلْقِي عَلَيْهِ الأَمَانَا
فِيهِ هَالَةُ نُورٍ - تُفَجِّرُ الإِيمَانَا
طَافَتْ بِمَكَّةَ حِينًا - فَذَكَّتِ الطُّغْيَانَا
وَلاَحَ مِنْهَا شُعَاعٌ - يُكَبْكِبُ الأَوْثَانَا
فَالْمُشْرِكُونَ لَدَيْهَا - مُسْتَهْمَوْنَ[1] حَيَارَى
خَرُّوا سُجُودًا وَأَرْخَوْا - لِعَفْخَتَيْهَا الْعِنَانَا
إِلاَّ بَقَايَا ضَلاَلٍ - تُسَاوِرُ الْعُمْيَانَا
سَاقَتْ إِلَى النُّورِ جَيْشًا - مُفَزَّعًا غَضْبَانَا
فَهَاجَرَ النُّورُ حَتَّى - أَلْقَى الْعَصَا فِي جِمَانَا
ضَيْفُ أَوْكُلُّ الْبَرَايَا - فِي حُبِّهِ تَتَفَانَى...
فَالْعَنْكَبُوتُ يُغَشِّي - وَيَنْسُجُ النِّسْيَانَا
وَنَحْنُ نُلْقِي نَشِيدًا - نَشْجِي بِهِ الأَكْوَانَا
هَيَّا نُغَنِّي ....[2]

وتستجيب الحمامة الأولى لنداء النشيد بحبور وفرح لنجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعتزان بالتشريف الإلهي،وهما تحرسان النبي بالنشيد المقدس الذي ابعث فيه يذيب العتم وينعش الدين.فتنشدان معا :

نَحْنُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ - حَارِسَتَانِ لِلنَّبِي
مِنْ وَحْيِهِ وَطُهْرِهِ - وَنُورِهِ الْمُحَبَّبِ
نُذِيعُ لِلدُّنْيَا صَدَى - يِمِثْلِهِ لَمْ تَطْرَبِ
نَحْنُ لِمَبْعُوثِ السَّمَا - أَقْدَسُ طَيْرٍ رَنَّمَا
غَرِيبَتَانِ حَلَّتَا - أَطْهَرَ وَادٍ فِي الْحِمَى
فَغَنَّتَا لِدِينِهِ - لَحْنًا يُذِيبُ الْعَتَمَا...[3]

---

(1) مسهمون : ساهمي الوجود أي تحيرت ألوانها وذهبت شعاعها .

(2) نار وأصداء - ص 24 25 .

(1) المصدر نفسه ص 25 26 .

وداخل الغار يبدو مشهد الثعبان حاشعا مطرقا بين يدي المصطفى مؤمنا منشدا لهديه ونوره، معتذرا معترفا بذنبه بعد أن لدغ صفيه أبي بكر، مبررا ذلك بسوء فهم أبي بكر له الذي هفا لإبعاده ولم يدر أنه جاء متلهفا ليميت نوافث سمه. ويرى طيف الهادي طالبا الغفران والإيمان والطهر والأوراد قائلا :

نَبِيَّ اللَّهِ .... يَا هَادِي - وَيَا تَرْنِيمَةَ الحَادِي
وَيَا تَسْبِيحَةَ الكُثْبَانِ - وَالرَّكْبَانِ فِي الوَادِي
وَيَا تَوْبَةَ آثَامِ اللَّيَالِي..... تَابَ إِنْشَادِي
وَجِئْتُكَ خَاشِعًا.....مَاتَتْ نَوَافِثُ سُمِّيَ العَادِي
وَصَاحَ بِقَلْبِي الغُفْرَانَ صَيْحَةَ مُغْرِقٍ صَادِ[1]
أَغِثْ لَهْفِي... وَطَهِّرْ نَارَ تَسْبِيحِي وَأَوْرَادِي[2]
لَدَغْتُ[3] صَفِيَّكَ الصِّدِّيقَ حِينَ هَفَا لِإِبْعَادِي
وَجِئْتُ أُغِيثُ جِرْمَانِي - بِطَيْفِ شُعَاعِكَ الهَادِي [4]

ولعل الشاعر اقتبس هذه الحادثة من رواية في السيرة تقول أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع رأسه في حجر الصديق، فنام على ركبتيه، وقد بقي في الغار شقاء فوضع الصديق قدميه فيه فلدغته الحية فاحتمل أذاها وكره أن يتحرك فيوقظ النبي [5].

ومهما يكن من أمر الاختلاف في بعض أخبار وحوادث الهجرة، فإن محمود حسن إسماعيل قد أخذ من الرواية كلها مغزى عميقا من لحظة لدغ الثعبان لأبي بكر، وتوجه به وجهة أخرى بموقف الثعبان التائب وحواره مع النبي صلى الله عليه وسلم واستقباله لنوره، محققا مشاركة كائنات الطبيعة في هذا السير الخالد، ومخففا من معاناة النبي وصديقه في الغار.

ويقف الشاعر أمام مشهد آخر لنجاة الرسول صلى الله عليه وسلم في قصيدة "الفارس المندحر" أو "خيبة سراقة"[6]. وهو أحد الأشرار الذي خرج في إثر الرسول طامعا في مائة ناقة التي جعلتها قريش لمن يقتل النبي أو يرده مأسورا. لكن حدث ما لم يكن يتوقعه لما أصر على متابعة النبي، فعثر به فرسه وسقط وساخت[7] قوائمه في الأرض، فزجره ونهض نازعا يديه من الأرض، فتبعهما غبار ساطع في السماء مثل الدخان

---

(1) صاد : صديان، كثير، شديد العطش.

(2) أوراد : الورد : النصيب من قراءة القرآن.

(3) لدغت : لسعت.

(4) نار وأصداء-ص 26.

(5) انظر : الشهابي، ثلاثة سعداء، ج 2، ص 210.

(6) هو سراقة بن مالك بن جعشم، وهو من بني مدلج، وهو بطن من كنانة.

(7) ساخت : غرزت في الرمل.

كالإعصار[1]» . واشتد هلع سراقة، فاعتذر للنبي الكريم، وعاد إلى المنظرين مبهوتا، كائما أمر جواده حتى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واعدا نفسه بالإسلام وقد أسلم فيما بعد عند فتح مكة.[2]

ويصور الشاعر مشهد الخيبة والحيرة، فيبدو سراقة أول الأمر أمام الغار وهو في حالة سكون واليد حوله مبهورة بمن فيه متيقظة الجفون.ويقف رائغ العينين، مسمر المقلتين، مستوثق السيف بيمينه، ومعه جواده بعد أن تهاوى في الثرى وسرعان ما يعود مبهورا، ذهلا، يهذي، ويحدث نفسه بما سمع ورأى، يجر أذيال الخيبة والخزي واللعنة والعذلال متسائلا، حائرا، موبخا، ومحقرا نفسه بعد هول الحادثة، حاشدا صورها من الذهول والخيبة والفشل فيما أصابه أمام آيات باهرة، لم يدر بعد أنها من سر الله ومعجزاته :

وَيْلاهُ مِمَّا سَطَّرَتْهُ الرِّمَالْ - آثَارُ وَهْمٍ فِي مَعَانِي خَيَالْ...
أَرْكُبُ جِنٌّ جِنَّ مَلَّ السُّرَى - فِي عَالَمِ النَّاسِ تُوَارِي وَمَالْ!
أَمْ مَوْكِبٌ لِلنُّورِ أَقْدَامُهُ - خَلْفَ فَوْقَ الأَرْضِ رُؤْيَا رَوَالْ
أَمْ قَافِلاَتُ الرِّيحِ كَانَتْ هُنَا - تَمْشِي وَأَلْقَتْ رَحْلَهَا فِي الجِبَالْ!
أَمْ حُلْمٌ مَرَّ، وَهَذَا الثَّرَى - وَادِي كَرَى نَامَتْ عَلَيْهِ اللَّيَالْ!
أَمْ نَغَمٌ سَارَ وَأَشْبَاحُهُ - مَسَتْنَ صَدْرَ البِيدِ مَسَّ الظِّلاَلْ
أَمْ فَارِسٌ لِلْغَيْبِ عَانِي الخُطَا - جَوَادُهُ المَسْحُورُ تِلْكَ التِّلاَلْ
جَرَى عَلَيْهَا وَهِيَ تَجْرِي بِهِ - كَمَا جَرَى بِالرُّوحِ عَصْفُ المَلاَلْ
سُبْحَانَ مَنْ عَلَّمَ أَرْسَانَهُ[3] - خَطْفُ الوَحْيِ، وَبُعْدَ المُحَالْ[4]

وفي غمرة هذا الذهول يزداد وخز الخيبة والندم في نفسه وتتراءى أمامه لحظة الانتكاسة والسقوط أمام قوائم مغروزة في الرمال ولظى وريح ينبعث بالذل واليأس، ويعترف بأنه أقام مع فرسه في تلك الفلاة تمثال حسرى، ذكرى وعبرى لكل خائب، ضال في أي زمان:

عَدَا جَوَادِي خَلْفَهُ فَانْظُرِي - يَا خَيْبَتِي : كَيْفَ خَطَفْنَا الرِّحَالْ
قَوَائِمٌ يَنْهَشُ[5] مِنْهَا الثَّرَى - مَا دَسَّهُ لِلَّهِ غَدْرَ الرِّحَالْ
مَغْرُوزَةٌ[6] فِي الرَّمْلِ تَلْهُو بِهَا - طَرَائِدُ[7] الوَحْشِ، وَرِيحُ الشَّمَالْ

---

(1) الإعصار : ريح معها غبار.

(2) ابن هشام - السيرة النبوية - ج2 ص 489 490 .

(3) أرسانه : ج رسن : الحبل . رسنت الفرس : أي شددت حزامه .

(4) نار وأصفاد - ص 27 28 .

(5) ينهش : نهش، ينهش نهشا .

(6) مغروزة : غرز الشيء في الأرض ونحوها .

(7) طرائد : ج طريدة ما تصطاد من الصيد ونحوه .

نَاحَتْ عَلَيْهَا صُهْوَةٌ[1] طُهِّمَتْ[2] - وَطْعَمَتْ بِاليَأْسِ قَبْلَ السَّعْسَالْ
تُذِيبُ سَافَيَّ بِأَفْوَافِهَا[3] - كَأَنَّهَا مَحْشُوَّةٌ بِالنِّصَالْ[4]
أَحَرُّ فَخِّي مِنْ جَحِيمِ اللَّظَى - وَوَخْزَةُ الذُّلِّ وَفَحُّ الصِّلَالْ[5]
كَأَنَّنَا قُمْنَا بِشَطِّ الفَلَا - تِمْثَالَ خِزْيٍ، عَبْقَرِيَّ المِثَالْ
رَبَّاهُ، مَاهَذَا ؟ جَوَادٌ مُتَرَى - أَمْ لَعْنَةٌ، أَمْ خَيْبَةٌ، أَمْ ضَلَالْ[6]

وينتهي وقوف الشاعر أمام الغار بعد مشهد العنكبوت والحمامتين والثعبان،ومشهد سراقة، بمشهد أخير لقصة النجاة بقصيدة " نشيد الغار "، الذي راح ينشد نشيد النجاة والنصر والنور،بعد أن سمع حديث سراقة مع نفسه وشاهد خيبته.وتلاقى هتاف العنكبوت والحمامتين والثعبان في هذا النشيد،بعد أن شاهدوا أيضا منذ البداية كل الخطوات المطاردة للنبي صلى الله عليه وسلم. وراحوا ينشدون جميعا :

سَمَاءُ اليَدِ بُشْرَانَا - سُرَاقَةُ عَادَ خَيْرَانَا
أَتَى وَالكُفْرُ يَرْعَاهُ - وَنُورُ اللَّهِ يَرْعَانَا

• • •

أَتَى يَقُدُّ أَنْهَارَا - فَحَزَّنَ اليَدَ أَنْهَارَا
فَقَدَّ اللَّهُ مَسْعَاهُ - وَذَاقَ الذُّلَّ وَالعَارَا

• • •

بِسَيْفٍ كَافِرٍ ظَلَّامْ - جَرَى لِيُطَارِدَ الإِلْهَامْ
هَتَفْنَا إِذْ رَأَيْنَاهُ - رَمَاكَ اللَّهُ بِالإِظْلَامْ

• • •

فَعَادَ يُقَلِّبُ الكَفَّيْنْ - كَفِيفَ القَلْبِ وَالعَيْنَيْنْ
تَرَى الأَشْبَاحَ عَيْنَاهُ - وَيَسْأَلُ أَيْنَ نَفْسِي أَيْنْ؟

• • •

وَلَاذَ بَيْنَنَا بِالغَارِ - لِيَسْطَعَ مُشْرِقُ الأَقْمَارِ[7]

---

(1) صهوة : صهوة كل شيء أعلاه، وهي من الفرس موضع اللبد من ظهره.

(2) طهمت : الخيل المطهمة، فإنها المقربة المكرمة العزيزة.

(3) أفواف : ج الفوفة : القشرة الرقيقة .

(4) النصال : ما يخرج من النبات أو أي شيء آخر .

(5) الصلال : أصلال: الحيات . ج الصل : وهي الحية التي تقتل ولا تسعى فيها الرقيبة .

(6) تار وأصعد ص 28 .

(7) المصدر نفسه ص 29 .

وبعد مشاهد الغار انتهى إلى مشهد أخير وهو خروج النبي من الغار بعد نجاته واطمئنانه سائرا نحو غايته المباركة من أجل تحقيق حلم الهجرة المنشود، إذ راح يصور لنا في قصيدة " النور المهاجر " مشهد حبور الكون وشوقه لرؤية هذا النور المهاجر واستقباله- وقد بارك الله مسعاه وخطاه. فمضى يشق الصحارى، فحيته سباسبها حالمة باللقاء في جنة الخلد، وترعرعت القفار واخضرت ورمزمت مرتلة ومسبحة وداعية له بالأمان، واستطارت الحيام شوقا ولهفة، ورفرفت كطير هاديا جناحيه إليه، ونسي الثرى عزلته وانبرى هامسا به على السفوح لكل الذرا، واستيقظ الليل من سنته وغفلته، وكل حي في الفلاة ماد كفيه إليه، وكل الأرض مبتهجة بمرآه يقول :

سَارَ عَلَى البِيدِ، هَزَّ الكَوْنُ مَسْرَاهُ - صَلَّى عَلَيْهِ وَحَيَّا نُورَهُ اللَّهُ

شَقَّ الصَّحَارِي...فَحَيَّتْهُ سَبَاسِبُهَا[1] - وَأَوْشَكَتْ بِرِيَاضِ الخُلْدِ تَلْقَاهُ

تَرَعْرَعَتْ قَفْرَةٌ، وَاخْضَوْضَرَتْ جَبَلاً - وَنَبَّتَ فِيهَا ضُحَى الدَّنْبَا مُحَيَّاهُ

وَرَمْزَمَتْ ..[2] فَهِيَ تَرْتِيلٌ وَمِسْبَحَةٌ - وَدَعْوَةٌ بِأَمَانِ اللَّهِ تَرْعَاهُ

وَمَا لِلْحِيَامِ اسْتَطَارَتْ فِي مَرَابِعِهَا - مَحْرُورَةً[3] مِنْ عَذَابِ الشَّوْقِ نَهْوَاهُ

وَمَا لَهَا رَفْرَفَتْ، وَالرِّيحُ تَجْذِبُهَا - طَيْرًا إِلَى الفَجْرِ يَهْدِيهِ جَنَاحَاهُ..

تَنَبَّهَتْ غَفْلَةٌ، وَاسْتَيْقَظَتْ سِنَةٌ - وَهَبَّ نَعْسَانُ لَيْلُ الدَّهْرِ غَشَّاهُ

وَفِي ضَمِيرِ الفَلاَ مَا شِئْتَ مِنْ لَهَفٍ - تَكَادُ تَمْتَدُّ لِلأَنْوَارِ كَفَّاهُ

تَبَارَكَ اللَّهُ كُلُّ الأَرْضِ نَاظِرَةٌ - وَكُلُّهَا مُهَجٌ تَهْفُو لِمَرْآهُ

تَلَفَّتَ الغَيْبُ، وَالتَفَّتْ عَنَايَتُهُ - بِمَنْ تَحَمَّلَ سِرَّ الغَيْبِ جَبَّاهُ[4]

وحمل محمد صلى الله عليه وسلم سر الغيب بين جنبيه ومضى في موكب جليل ومعه صاحبه الصديق متحملا معه الأهوال والمتاعب وقد قال تعالى عنهما ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...﴾[5]. وانطلقا وكان الله معهما نحو بلد الأنصار المدينة المنورة حيث الخير والسعي والأمان والبشرى لمواصلة تحقيق رسالة السماء من أجل إنقاذ الكون، يقول :

سَرَى مُحَمَّدٌ، تَطْوِي الشَّمْسُ رَايَتَهُ - فِي مَوْكِبٍ قَبْلَ هَذَا مَا سَمِعْنَاهُ

تَمْشِي وَصَاحِبُهُ الصِّدِّيقُ وَحْدَهُمَا - فِي مُهْمَةٍ تُفْرِعُ الأَيَّامُ لُقْيَاهُ

عَقِيدَةٌ جَنَّبَتْهَا الإِيمَانَ تَمْلَؤُهَا - صَفْوًا وَتَمْلأُ بِالبُشْرَى حَنَايَاهُ

(1) سباسبها : ج السبسب : المغارة أو الأرض القفر البعيدة.

(2) رمزمت : الزمزمة : صوت خفي لا يكاد يفهم .

(3) محرورة : تجد حرارة في صدرها فتهيم وهنا تشوق .

(4) نور والصعاد ص 30 31.

(5) سورة 40 .

وخطفان التزى نصرًا إلى بلـــــد لا حيّك الله مَنْ يسعى بمعتادُ
يمشي فتحسبُه الأقدارُ جاريـــة لها من العيش ما العيشُ ترصادُ
يُبشّرُ بضحًى للكونِ يقبـــلُهُ من ظلمةٍ ليلُها سجّتْ حصاياهُ(1)

واقتفى الشاعر أثر الهجرة التي كانت انعطافا في مسيرة البعثة المحمدية وتغيّرا جذريا لحياة أمم جانية لليل الدهور. فشعشعت في دربها الضياء، وأترعت في قلبها نداء السماء، وبدأت مرحلة الهداية والتنوير. وقد أتاها مغرم التغيير محمد صلى الله عليه وسلم برسالة لا تخص أمة من الأمم، ولا قلب من القلوب، ولا تنتهي عند زمن من الأزمان، فهي رحمة لكل الناس، وحظ لكل الأزمان، ونور لكل القلوب، مؤكدا دعوة الله ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(2) محققا بالهجرة وحكمتها الربانية كل هذا الأثر الروحي:

...حَتَّى أَتَاهَا مُغْرَمُ التَّغْيِيـــرْ
فِي لَيْلِهَا الجَاثِي عَلَى الدُّهُـــوزْ
شَدَّ خُطَاهَـا فِي الدُّجَى عَلَى الدُّهُورْ
فِي هِجْرَةٍ شَقَّتْ لَهَا النَّهَـــارَا
وَشَعْشَعَتْ فِي دَرْبِهَا الضِّيَـــاءَ
وَأَتْرَعَتْ فِي قَلْبِهَا الـــسَّمَاءَ
أَعْتَى شُعَاعٍ فِي ضَمِيرِ الزَّمَـــنِ
يَهْدِي بِنُورِ اللهِ كُلَّ مُـــؤْمِنِ(3)

أدركنا من خلال هذه المشاهد التي استوحاها الشاعر من حوادث الهجرة سر التفرد والتجديد الشعري، بابتعاده عن السرد والتكرار والوصف التقريري والأسلوب الخطابي الذي وقع فيه كثير من شعراء عصره، مثل أحمد محرم الذي سجل حوادث هذه الهجرة، وكان الفرق الشعري لا الفرق الذهني بين تصوير الحادثة والحادثة عند كل منهما كموقفه من أبي بكر وحية الغار قائلا:

لَيْتَ شِعْرِي أَصَبْتَ حَيَّةَ وادٍ نَفَثَتْ السُّمَّ أَمْ أَصَبْتَ حَـــرِيرًا
نَفَثَتْ سُمَّهَا فَمَا هَرَّ رِضْوَى مِنْ وَقَارٍ وَلَا اسْتَخَفَّ ثَبِيـــرًا(4)
خِفْتَ أَنْ تُوقِظَ النَّبِيَّ فَمَـــا يُرْ ضِيكَ أَنْ تُضْعِفَ القَوِيَّ أَوْ تَخُورَا
أَكْرَمَ اللهُ رُكْبَتَيْكَ لَقَدْ اعْـــتَقَلَكَ سُبْحَـــانَهُ، فَأَعْطَى شَكُورَا(5)

(1) نار وأصفاد - ص 31-32 .

(2) الأعراف 158 .

(3) لابد - ص 41 .

(4) رضوى وثبير : جبلان بالجزيرة العربية .

(5) الإنسانة الإسلامية ... ص 55 .

هـ - بـــدر الـــكـبرى :

بعد الهجرة بدا وجه آخر لهذه الرسالة المحمدية، هذا الوجه العنيف القوي الذي فرضه قوم غلاظ، سراع إلى الفتنة، شديدو التمسك بالعصبية الجاهلية ،عارضوا بمعسالحهم وأنانيتهم شريعة الحق والحرية والعدل والكرامة، حتى أوقدوها حربا شعواء ضد الرسول والرسالة، والإسلام والمسلمين، محاولين بث روح الشك في العقيدة والشريعة التي جاء لتقريرها ونشرها. في وقت كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح على الجاهل، وكان إصرارهم شديدا على اضطهاد أتباعه وفتنهم في دينهم، ونفيهم من بلادهم من الحبشة إلى المدينة إلى وجهة أخرى..بل سرعان ما ابتلوا بأقوام أخرى أشد عداء كأهل الكتاب من يهود ونصارى.

وبازدياد المحنت والعناد والأذى، أذن الله بالحرب والقتال لمن يبغي عليهم، دفاعا عن أنفسهم المؤمنة، وحماية لدينهم الفتي، قائلا : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ... ﴾(1) كما أمرنا عليهم ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (2)

وكان الغرض من الإذن بالقتال ألا يعبد سوى الله، ولا يفتن مؤمن عن دينه ولم يكن الغرض هو الإكراه على الدين لأن من هذه الآية ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ. وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا. وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (3). يتضح لنا أن الدين قائم على تفتح القلوب له لا على الإكراه، لأن الدين << هو إيمان، والإيمان حب وتقديس وإجلال لما يقع الإيمان به، فكيف بدين يدخل من طريق الإرهاب والتهديد. فالسيف لم يستعمل إلا ليفسح الطريق للدعوة حتى تبلغ أسماع الناس . وحتى يدفع عنها حملات التضليل التي كان يقوم بها أعداء هذه الأمة من المشركين ومن أهل الكتاب >>(4).

وكانت للرسول صلى الله عليه وسلم غزوات ومعارك خاضها في وجه الظلم والشرك، أولها معركة بدر الكبرى التي ذاعت أكثر من غيرها، لأنها كانت فاصلة بين عهدين ظروف تعيشها قلة إسلامية في مواجهة كثرة وثنية استغلالية.

---

(1) الحج -39-40.

(2) البقرة-193.

(3) البقرة -256.

(4) عبد الكريم الخطيب - النبي محمد -ص 384.

وكثر الحديث عن موقعة بدر في السيرة وفي الشعر أيضا، على أنها أروع نصر مؤزر كسبه الإسلام،وأول الطريق للعزة والهداية والخير والسيادة في الدنيا، والسعادة والخلود في الآخرة. بخاصة في عصر البعثة حيث كانت أحداثها معيشة وصورها حية بالتهليل والتكبير، والحس الجهادي الفياض[1].واستمر إحياء ذكرى بدر الكبرى من معالم الاعتزاز بمفاخر البعثة المحمدية حتى العصر الحديث،وأمتنا تمر بمحن وأزمات ومخاطر. ولهذا راح المسلمون بشتى أصنافهم - المفكرون، الشعراء- كما يرى المؤرخ حسين مؤنس، يلتمسون القوة المعنوية في انتصارات الإسلام الماضية،وبخاصة بدر التي كانت كبرى،لأن الذي قادها كان الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي علم كيف يكون النصر بالصدق والإيمان والفداء وحسن القيادة.[1] وهذه الحقائق التاريخية والروحية لهذه المعركة، لفتت شاعرية محمود حسن اسماعيل،ولم تفته فرصة تسجيلها شعريا كغيره من شعراء عصره.بخاصة أحمد محرم [2] الذي أفاض في ذكر وقائعها وأبطالها،بل سجل جل غزوات العصر النبوي الفريدة في إلياذته الإسلامية، بينما شاعرنا اكتفى بهذه الغزوة دون غيرها. وكما ذكرنا منذ بداية رؤيته النبوية،ولوعه بالوقوف شعريا أمام أبرز الحوادث والوقائع في هذه البعثة ذات المغزى العظيم .

وكانت قصيدة ثورة الإسلام في بدر [3] تصويرا واقعيا لهذه الموقعة التي اتخذت طابع الصراع والتحدي، والمواجهة والدفاع، فكانت ثورة على الشك والوثنية، وعلى الواقع الروحي والاجتماعي المتردي. واستطاع الشاعر بقدرته الفنية أن يستمد حقائق بدر الصادقة من السيرة الواردة، ويخضو معها خطواته الشعرية بحرارة وصدق، يجسد صورتين متناقضتين متقابلتين للظلام والنور، والضلال والهدى، والباطل والحق... بدأها بمقدمة شعرية عبر فيها عن خفقان قلبه بالنشيد المطهر والتكبير لذكريات الإسلام،وتهيؤ روحه جلالة للنظر إلى الغيب وتفجر وحي الشعر بين جنباته المرتجفة غليانا ورثيرا أمام الإعلان عن ثورة في الرمال، هبت ذات صباح مزمجرة هائجة من فجاج الغيوب، أعلنتها قريش في بدر[4] وأقبلت مسرعة مستنفرة في هول وحشد قائلا :

تَحَقَّقَ القَلْبُ بِالنَّشِيدِ المُطَهَّرْ - فَدَعِ الشِّعْرَ وَالأَغَانِي..وَكَبِّرْ

---

(1) انظر/ مصطفى الشكعة- الأدب في موكب الحضارة الإسلامية- دار المعارف- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة-1968م-ص53 .

(2) حسن مؤنس-دراسات في السيرة المحمدية-ص 143.

(3) القصيدة الوحيدة التي أنشدت في ذكرى غزوة بدر سنة 1937-17 من رمضان بجمعية الشبان المسلمين، ويصل عدد أبياتها إلى 64 بيت.

(4) كلمة بدر: علم على بئر ماء من مياه العرب، حفرها رجل من غفار اسمه بدر وهي على أربع مراحل من المدينة. وفي هذا الموضع كان موسما من مواسمهم تجمع لهم سوق كل عام.

وَإِذَا شِئْتَ نَغْمَةً..فَدَعِ الشَّـ ... ـرَّ جَلاَلاً مِنْ شُرْفَةِ الغَيْبِ تَنْظُرْ
وَتَهَيَّأْ لِلْوَحْيِ يَأْتِيكَ بِالشِّعْـ ... ـرِ كَسَيْكَابِ[1] دِمْنَةٍ تَتَفَجَّرْ
رَجَفَتْ فِي الجَنَانِ كَالزَّعْزَعِ[2] القَصَّافِ - تَعْلِي بَجَانِبِي وَتَـزَأَرْ
مِنْ فِجَاجِ الغُيُوبِ هَاجَتْ صَبَاحًـا - ثَوْرَةٌ فِي الرِّمَالِ هَبَّتْ تُزَمْجِرْ[3]
قِيلَ بَدْرٌ، فَزُلْزِلَتْ هَذْأَةُ النَّـا - سُ وَكَادَ الشَّدِيدُ بِالدَّمِ يَقْطُرْ
أَقْبَلَتْ كَالعَجَاجِ[4] فِي هَبْوَةِ الحَـرْ - بِ فَرِيشٌ عَلَى الجِيَادِ تَنْفُرْ
كُلُّ ذِي سِحْنَةٍ[5] كَعَاشِيَةِ اللَّيْـ - ـلِ وَهَوْلٍ يَرْتَاعُ مِنْهُ العَضَنْفَرْ[6]

تجهزت قريش للخروج وأوعبت[7]، ولم يتخلف من أشرافها أحد واجمعت على المسير بحشود هائلة ومعها الخمور والأطعمة، والمغنيات والدفوف، واستقرت بالعدوة بالقرب من بدر، وكان من زعمائها أبوجهل الذي رد على أبي سفيان لما طلب الرجوع عن هذا الأمر قائلا : والله لن نرجع حتى نرد بدرا. فنقيم عليه ثلاثا، فننحر الجزر[8]،ونطعم الطعام ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان[9]، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها [10].

ويصف الشاعر هذا الموكب الحاشد بموكب الموت والهول والهلع،والمشركون يتراءون بقوتهم وغوايتهم وحقدهم وحماتهم كالصواعق تارة، والشياطين تارة أخرى، يزرعون الروع والذعر في كيان الكون والشرك بينهم متسعر هائج ينذر بالموت،ويتأهب لإطفاء نور الله :

حَشَدُوا مَوْكِبَ المَنَايَا وَخَفُّـوا - لِإِطْفَاءِ اللَّهِ غَاوِينَ فُجَّـرْ
يَتَرَاءَوْنَ كَالصَّوَاعِقِ فِي الرَّمْـ - ـلِ وَوَجْهُ الضُّحَى مِنَ الرَّوْعِ أَغْبَرْ

---

(1) كسيكاب : سيكاب: ماء سيكب : يجري على وجه الأرض من غير حفر .

(2) الزعزع : ريح زعزع أي ريح قوية شديدة .

(3) تزمجر : الزمجرة : الصوت الكثير الصخب والصياح .

(4) العجاج : الغبار أو الدخان .

(5) سحنة : السحنة : وهي بشرة الوجه، ويقصد بها الهيئة والحال واللون .

(6) الغضنفر: الأسد، الليث، وكلها مترادفات .

(7) أوعبت : أوعب القوم إذا خرجوا كلهم إلى الغزو .

(8) الجزر : الذبائح .

(9) القيان : الجواري .

(10) ابن هشام - السيرة النبوية-ص 609 620 .

كَالشَّيَاطِينِ خَلْخَلَتْ فِي ضُحَى اللَّبْـ - ـلِ وَهَاجَتْ فِي الْبِيدِ تَعْوِي وَتُصْفِرْ
أَرْزَمَتْ (1) فَوْقَهُمْ سُيُوفٌ وَرِيعَتْ - مَنْ تُنَادِيهِمْ أَضَاةٌ (2) وَمِغْفَرْ (3)
زَلْزَلُوا رَاسِيَ الْجِبَالِ وَرَاحَتْ - مِنْهُمُ الْبِيدُ تَقْشَعِرُّ وَتُذْعَرْ
وَمَضَى الشِّرْكُ بَيْنَهُمْ مُزْعِجَ الْهَبْـ - ـةِ طَيْشَانَ كَاللَّظَى الْمُتَسَعِّرْ
جَمَعَ الْهَوْلَ كُلَّهُ فِي يَدَيْـ - ـهِ وَمَضَى بِالْحِمَامِ فِي الْهَوْلِ يُزْفِرْ (4)
إِنْ يَكُنْ كِبْرُهُ أَحَنَّ (5) الْبَلَايَـ - ـا لِنَبِيِّ الإِسْلَامِ ... فَاللَّهُ أَكْبَرْ (6)

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان مع أصحابه وأنصاره وأتباعه، حتى جاءوا أدنى ماء في بدر نزلوا به، بعد أن أشار عليه أحدهم بنزوله وتغوير(7) ما وراءه من القلب ثم بناء عليه حوضا يملأ بالماء، حتى يقاتلون الأعداء ويشربون ولا يشرب الآخرون. وبنوا في تل قريب عريشا(8) للنبي صلى الله عليه وسلم للراحة والإعداد والاجتماع . هذا العريش الذي أوى إليه الرسول عليه الصلاة والسلام عند اقتراب إلتقاء الجمعان عندما رأى إقبال قريش داعيا ربه << اللهم هذه قريش أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك(9) وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم (10) الغداة >>. وكان أبو بكر وليس معه غيره يقول له : يا نبي الله : بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك وعدك. وقد خفق (11) رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو في العريش، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع(12). فخرج إلى

---

(1) أرزمت : الرزمة: الصوت الشديد مثل أرزم الرعد : اشتد صوته.

(2) أضاة : المستنقع من سيل أو غيره ويشبه الدرع بالأضاة فيقال عليه درع كالأضاة .

(3) مغفر : زرد يسبغ يلبس تحت القلنسوة يلبس الحرب.

(4) يزفر : الزفر، الزفير: أن يملأ الرجل صدره غما ثم يزفر به، أي يزمه، ينفسه .

(5) أحن : ستر وأخفى.

(6) هكذا أغني – ص 151-152 .

(7) التغوير : الدفن والطمس، والتعوير (عون مهملة) : الإفساد .

(8) العريش : يشبه الخيمة، يستظل به .

(9) تحادك : تعاديك .

(10) أحنهم : أهلكهم .

(11) خفق : نام نوما يسيرا وهنا حفقة الوحي .

(12) النقع : الغبار .

الناس مبشرا محرضا.[1] وتهدأ مشاعر محمود حسن إسماعيل حينا بعد احتدامها أمام هول قريش، وتسمو هناك في عريش ذلك التل، حيث النبي خاشع بنوره وطهره وطيبه وهالته، يسكب الجلال والهدى، والإيمان والتقوى، ويدعو ربه ناشدا حماية ونصرة دينه، شاكيا قلة العدد وكثرة العدو، مستعصما برحمة الله، ومسرعان ما أبرق الوحي أمامه مهنئا مبشرا.ومن خلال تصوير حالة الرسول صلى الله عليه وسلم النفسية والروحية، ولحظة الدعاء والاستجابة وما فيها من سمو غيبي وروحي ، نستطيع أن ندرك الفارق الشاسع بين الصورتين، صورة الضلال، وصورة الهدى وما بينهما من دناءة وفداسة الغاية، وغشاوة ونقاوة المسير، وكثرة المشركين، وقلة المؤمنين .فيقول :

وَعَلَى التَّلِّ خَاشِعٌ فِي عَرِيـــــشٍ - قُدْسِيِّ الطِلَالِ زَاكٍ [2] مُنَـوَّرْ

كَادَ مِنْ طِيبِهِ الجَرِيدُ[3] المُحَنَّى[4] - مِنْ ذُبُولِ البِلَى يَمِيسُ وَيُزْهِـرْ

هَالَةُ تَسْكُبُ الجَلَالَ وَتَنْـــدَى - بِوَمِيضِ الهُدَى يَفِيقُ وَيُسْحِـرْ

لَوْ رَمَتْ كَالِيفَ البَصِيرَةِ أَعْمَى - عَادَ مِنْهَا مُبْلِجَ[5] القَلْبِ أَحْوَرْ

بَاسِطٌ كَفَّهُ إِلَى اللَّهِ يَدْعُـــــو - رَبَّ احْمِ القَضَا لِدِينِكَ..فَانْصُرْ

إِنَّ أَحْنَادِي التَوَاصِلَ فُـــــلٌّ - وَجَمِيسُ [6] العَدُوِّ كَالفَوْجِ يَزْخَرْ

خَفْقَةٌ مِنْ كَرَى تَخَلَّتْ عَلَيْـــهِ - مَالَ مِنْ طُهْرِهَا الرَّدَاءُ المُحَبَّرْ[7]

وَإِذَا الوَحْيُ بَارِقٌ مُسْتَهِـــــلٌّ - مِنْ سَمَاءِ الغُيُوبِ هَشَّ وَبَشَّـرْ[8]

والتقى الجمعان في بدر يوم الجمعة من صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان المبارك، ودنا بعضهم من بعض مستفتحا أبو جهل بالدعاء قائلا : اللهم أقطعنا الرحم وأتانا بما لا يعرف فاحنه [9] الغداة،

---

(1) ابن هشام - السيرة النبوية- ج 2- ص 619-627.

(2) زاك : طاهر.

(3) الجريد : ج .جريدة : وهي سعفة طويلة يابسة وسي بها العريش النبي صنعو.

(4) المحنى : من الحناء، أي له لون وطيب الحناء والمقصود طبعا سعف النخيل.

(5) مبلج : مشرق، مضيء .

(6) جميس : الجناح القوي من الجيش .

(7) المحبّر : المزين المنمق .

(8) هكذا أغني-ص 154 155.

(9) احنه : اهلكه .

فكان هو المستفتح (1) بينما أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصباء (2) نافحا بها قريش قائلا شاهت الوجوه، آمرا أصحابه: شدوا وبدأ النزال وجنود من السماء هي الملائكة تدنو كالسحاب، تضرب رؤوس المشركين، حتى أن بعض من شهود بدر قال : إني لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري. وكانت الهزيمة،وقد قتل الله تعالى من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم .(3)

وانتقل الشاعر من موقع المعركة بعد أن أعلن أوان اندلاعها في بداية قصيدته، ليشهد بشرى السماء التي منحت الأمان والأمل للرسول صلى الله عليه وسلم والمضاء والقوة السرمدية لسيفه، وهب إلى الغارة ينفخ قوم الشرك بالحصى،ومضى ومن معه يحققون النصر المؤزر، وجنود السماء هبت مجندة متحفزة،تشعل نارا متأججة،وتذيب حديدا مشهرا في وجه الحق، يقول :

فَانْتَضَى (4) سَيْفَهُ وَهَبَّ إِلَى الغَا - رَةِ بِالسَّرْمَدِ القَوِيِّ مُشَوَّرْ
يَنْفُخُ القَوْمَ بِالحَصَا، فَتُدَوِّي - أَصْلَاتُ الإِسْلَامِ مِنْ كُلِّ مِنْحَرْ(5)
وَجُنُودُ السَّمَاءِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ - غُبَّبٌ لِلْعِبَادِ فِي القَلْبِ حُضَّرْ!
تُشْعِلُ النَّارَ فِي قُلُوبِ المَذَاكِي(6) - وَتَوُحُّ الرِّجَالَ نَارًا تَسَعَّرْ
قُوَّةٌ مِنْ حَوَانِبِ العَرْشِ هَبَّتْ - ذَابَ مِنْ بَأْسِهَا الحَدِيدُ المُشَهَّرْ(7)

الشاعر هنا يؤكد دور الملائكة التي سخرها عز شأنه للتأييد والتثبيت، وكانت بشرى ألقت في قلوب المؤمنين السكينة والطمأنينة والثقة بالنصر وما يساوي أنها من الملائكة تقاتل معهم في صفوفهم ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ إِنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ..﴾ (8)، وكما ألقى بهذا الإمداد السماوي الطمأنينة والسكينة في قلوب المؤمنين . وألقى الرعب والفزع في قلوب الكافرين ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ . فَثَبِّتُوا الَّذِينَ

---

(1) المستفتح : الحاكم على نفسه بهذا الدعاء .

(2) الحصباء : الحصى.

(3) ابن هشام- السيرة النبوية- ج2- ص626-633

(4) انتضى : نضا السيف : سله من غمده .

(5) منحر : من النحر، موضع في أعلى الصدر.

(6) المذاكي : ذكت النار، اشتد لهيبها.

(7) هكذا أغني - ص 155-156.

(8) الأنفال - 9- 10.

آمَنُوا، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ (1) ويزيد من معنى الإمداد قوة قوله جل شأنه ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (2)

وسجل الشاعر من أحداث المعركة روائع ونماذج حية لصورتين متقابلتين هما صورة الكفر والهزيمة، وصورة الإيمان والنصر، وتتجلى من خلالهما حقيقة الصراع بين الحق والباطل ونهاية هذا الصراع، واختار لنا من السيرة نماذج ومشاهد طريفة من كلا الصورتين يبرز الحس الإيماني والبطولي والاستشهادي الذي قضى على أشراف وأقوياء قريش وأتى بالنصر الخالد . وكان مشهد أمية بن خلف على يد بلال بن رباح الذي كان يعذبه بمكة على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء(3) مكة إذا حميت، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر الصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ويقول له : لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد. فيقول بلال : أحد أحد. فما إن رآه بلال متذكرا تعذيبه له حتى صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. وتابعه حتى بهره(4) بسيفه(5)، يقول:

وَبِلاَلٌ يَلْقَى أُمَيَّةَ غَضْبَا - نَ..فَيَشْفِي الغَلِيلَ مِنْه وَيَثْأَرْ
أُمَيِّ..كَمْ حُمِّلَ الصُّخُورَ الذَّوَاكِي - مِنْ لَهِيبِ الرَّمْضَاءِ تَغْلِي وَتَسْعَرْ
ضَجَّ مِنْ هَوْلِهَا الأَذَانُ وَكَادَتْ - تَتَهَاوَى لَهَا أَوَامِيُّ المُبْتَرْ
وَهُوَ اليَوْمَ قَاذِفٌ صَخْرَةَ المَوْ - تِ عَلَيْهِ تَهْوِي، فَتُرْدِي وَتَقْبُرْ(6)

وكذلك مصرع أبي جهل على يد معاذ بن عمرو بن الجموح الذي صمد (7) نحوه وضربه ضربة أطنّت(8) قدمه بنصف ساقه، وما فتيء ابن أبي جهل عكرمة يضرب معاذ على عاتقه، فطرح يده فتعلقت بجلده من جنبه، وأجهضه(9) القتال عنه. لكن حكمة الله شاءت أن يلفظ أنفاسه الكافرة على

---

(1) الأنفال-12-13 .

(2) الأنفال -10.

(3) الرمضاء : الرمل الحار من الشمس .

(4) بهره : قطعه.

(5) ابن هشام- السيرة النبوية-ج2-ص 632 .

(6) هكذا أغني-ص 156 .

(7) صمد : قصد .

(8) أطنت قدمه : أطارتها.

(9) أجهضه : غلبه واشتد عليه .

يد مؤمن آخر، هو "معوذ بن عفراء" الذي مر بأبي جهل فضربه فأثبته وتركه وبه رمق أخير (1).

وهكذا وقف الكفر أمامه يندب ويهذي ويهدر على رفاته، وقد أخرست فاه طعنة معاذ بعد أن كان الآمر الناهي، وهو صاحب الجاه والمال والشرف، وهو الكفر نفسه، ولم تبق إلا عظامه الممزقة تصطك من الأسى والتحسر وشظايا لسانه ندمانه لخزي صاحبها وحبيبها لنور الهدى :

وَقَفَ الكُفْرُ فَوْقَهُ يَنْدُبُ الكُفْـ - ـرَ وَيَهْذِي عَلَى الرُّفَاتِ وَيَهْذِرْ
يَا عَدُوَّ الإِسْلَامِ! خُذْهَا مِنَ الإِسْـ - ـلَامِ.. رَدَّتْكَ كَالقَنَا المُتَكَسِّرْ
طَعْنَةٌ مِنْ مُعَاذٍ أَحْرَسَ فُوهَـا - فَاكَ... بَعْدَ مَا كُنْتَ تَنْهَى وَتَأْمُرْ
لَكَأَنِّي بِعَظْمِيكَ الآنَ يَعْتَظِـكُ - وَيَعْلِي مِنَ الأَسَى وَالتَّحَسُّرْ
وَشَظَايَا اللِّسَانِ نَدْمَانَةٌ كَـ - ـا - دَتْ لِنُورِ الهُدَى تَحِينًا تُكَبِّرْ (2)

ثم أضاف مشهدا آخر لبعض المواقف الجهادية والإيمانية الكثيرة التي منحت هذه الموقعة ذيوعا وخلودا . وهو موقف "عمير بن الحمام" الذي ما إن سمع تحريض رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم عند بدء المعركة قائلا : والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الجنة. حتى قال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ (3) أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل (4).

ويفخر الشاعر بهذا الذي رمى التمرات متشيعا لله، حريصا لتأخره عنه، متحمسا للنصر والشهادة بعد دعوة النبي الكريم، سالا من روحه حساما ومن إسلامه جنجرا، ناسيا الوهن والجوع :

تَمَرَاتٌ فِي كَفِّ أَعْزَلَ جَـوْعَـا - نَ، هَضِيمٍ بَيْنَ الوَغَـى مُتَعَثِّرْ
عَرَبِيٍّ مِنْ شِيعَةِ اللَّـهِ وَانٍ (5) - عَنْ صِرَاعِ الهَيْجَاءِ - حُزْنًا - تَأَخَّرْ
حِينَمَا شَاهَدَ البَيِّنَ تَلَظَّتْ - جَمْرَةُ النَّصْرِ فِي حَشَاهُ المُفَتَّرْ (6)
سَلَّ مِنْ رُوحِهِ حُسَامًا وَمِنْ إِسْـ - ـلَامِهِ فِي مَسَابِحِ الرَّوْعِ (7) جِنْجَرْ

---

(1) السيرة النبوية- ج2-ص 634-635.

(2) هكذا أغني - ص 157.

(3) بخ ، بخ : بكسر الخاء وإسكانها، كلمة تقال في موضع التعجب .

(4) ابن هشام- السيرة النبوية- ج2 ص627.

(5) وان : متثاقل .

(6) المفتر : الضعيف، الواهن .

(7) الروع : تعني الحرب. وأصله الفزع .

هَكَذَا تَعْتَدُّ السَّمَاءُ أَحَـــالَتْ - وَاهِنَ الجِسْمِ كَالعَتِيِّ(1) المُدَمَّرْ(2)

وأصبحت موقعة بدر منذ ذلك اليوم صيحة في وجهة المشركين الذين اعتزوا بمساواة الرسول، وإحباط جهاده الدعوي بوفرة العدد وكمال القوة.وفخرا للنبي وأصحابه الذين لاذوا إلى الله للحفاظ على دينهم، يلتمسون منه العون والتأييد، وأعدوا كل ما في طاقتهم من عزم ومضاء وحكمة وثبات وإخلاص. فكان لهم النصر والعزة، ولأعدائهم الخذلان والهوان ،ومددا لانتصارات الإسلام وغزواته وفتوحاته التي راعت لها بروج كسرى وقيصر. كما أصبحت تذكيرا للعبرة والقدوة والنهوض لما في هذه الموقعة وغيرها التي يعج بها تاريخنا الإسلامي من مآثر كبرى فيها معاني القوة والدفاع عن الحق، ومقاومة الشر والضلال، ومعانقة الإنسان لحب الله والنبي والشهادة واخوة وبناء صرح الإسلام. وهذه المعاني الجليلة يحتاجها مسلموا اليوم، وهي التي جعلت الشاعر يقول في نهاية قصيدته:

فَإِذَا النَّصْرُ صَيْحَةٌ هَـــزَّتِ الـــدُّنْـــيَا وَرَاعَتْ بِرُوحِ كِسْرَى وَقَيْصَرْ

وَإِذَا بَدْرٌ حَفْقَةٌ فِي لِسَانِ الـــشَّـــــ - ـرْقِ يُزْهَى عَلَى صَدَاهَا وَيَفْـــخَرْ(3)

وقد استطاع شاعرنا أن يظهر اقتداره على استيحاء انتصار المسلمين وهم قلة في موقعة بدر، بحيث نستمد من "ثورة الإسلام في بدر" كثير من المثل والعبر... وقد كانت هذه القصيدة في بدايات نضجه الشعري والتي سجلت في ديوانه الثاني "هكذا أغني"، ولهذا نلاحظ على الرغم من قوته الشعرية، إلا أن خياله كان محدودا ومباشرا، على الرغم من إمكانية توظيفه توظيفا رائعا كما وظفه مع الأصنام والعنكبوت والحمام وغيرها... بخاصة مشهد مشاركة الملائكة في موقعة بدر التي تتيح له كثيرا من المشاهد الشعرية النادرة. وقد كان أحمد محرم الذي عرف بسطحية خيالية أكثر تحليقا عند تصويره لمشهد الملائكة وهي تحارب وتضرب بأعناق المشركين، فيقول :

اللَّهُ أَرْسَلَ فِي السَّحَابِ كَتِيبَةً(4) - تَهْمِي(5) كَمَا هَمَتِ البُرُوقُ اللُّمَّعُ

تَهْوِي مُخَلْخِلَةً(6) تَلْهَبُ أَعْيُـــنٌ - مِنْهَا، وَتَقْذِفُ بِالعَوَاصِفِ أَجْـــنُعُ(7)

لِلْخَيْلِ حَمْحَمَةٌ تُرَاعُ لِهَوْلِهَـــــا - صِيدُ الفَوَارِسِ، وَالعِتَاقُ القُـــرَّحُ(8)

---

(1) العتي: القوي، الشديد.

(2) هكذا أغني -ص157-158 .

(3) هكذا أغني -ص 158.

(4) كتيبة: قطعة من الجيش.

(5) تهمو: تسرح.

(6) مخلخلة : مرعدة .

(7) أجنع : ج جناح .

(8) القرح : الخارج من أول نتاجه ثم ...

حَيزُومُ(1) أَقْدِمْ، إِنَّمَا هِيَ كَـــرَّةٌ - عَجْلَى تُخَاذِلُكَ العِنَانُ فَتَـــمْرَحُ
جِبْرِيلُ يَضْرِبُ وَالمَلَائِكَةُ حَـــوْلَهُ - صَفٌّ تَرُضُّ بِهِ العُفُوفُ وَتَرْضَحُ(2)
تِلْكَ الحُصُونُ المَانِعَاتُ بِمِثْلِهَـــا - تَذْرِي المَعَاقِلُ وَالحُصُونُ وَتَـــدْرَحُ(3)
لِلْقَوْمِ مِنْ أَعْنَاقِهِمْ وَبَنَـــانِهِمْ - نَارٌ تُرِيكَ الدَّاءَ كَيْفَ يَـــبْرَحُ(4)

ويؤكد الشاعر في النهاية أن العالم انضوى بسرعة البرق تحت راية الإسلام الذي أصبح هو نور الهداية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بعد مراحل حاسمة من المواقع والفتوحات، يقول :

يَا هَادِمَ ظُلَمِ الأَيَّـــامِ - وَمُبِيدَ جِبَاهِ الأَصْنَامِ
وَمُبَدِّدَ أَكْوَانٍ رَكَعَتْ - لِسِبَاطِ قُوَى ظَـــلَّامِ
يُغْرِيهِ سَرَابُ لِلْبَـــاسِ
فَيَقُولُ أَنَارَتْ لِلنَّاسِ
وَيَظَلُّ يَتِيهُ بِمَا عَرَفَتْ - خُطَاهُ أَكُفُّ الأَوْهَامِ
حَتَّى أَقْبَـــلْتَ بِالْـهَامِ
لاَ سَيْفٌ وَلاَ حَدُّ حُسَامِ
وَلَطَمْتَ عُلاَهُ بِمَا حَمَلَتْ - يُمْنَاكَ مِنَ الأَلَقِ السَّامِي
فَانْدَكَّ إِلَهُ الأَرْجَـــاسِ
بِشُعَاعٍ مِنْ نُورِ مُحَمَّدْ
يَا سُطْفِئَ نَارِ عَمِيَّتِهِ - فِي المَوْقِدِ لاَحَتْ أَبَدِيَّـــهْ
عَمْيَاءُ لَهُمْ نِعَمٌ سَكَبَتْ - بِيَدِهِ صَلاَةَ الوَثَنِيَّـــهْ
فَحَثَا لِقَدَاسَتِهَا كِسْرَى
وَالنَّاسُ ظَلُّوا لَهَا أَسْرَى
حَتَّى أَشْرَقْتَ..فَمَا سَمِعَتْ - إِلاَّ بِرِيَـــاحِ أَرِيَّـــهْ
خَلَعُوهَا شُهُبٌ قُدْسِيَّهْ
رَأَرَتْ بِسَمَاءٍ عَرَبِيَّـــهْ...(5)

---

(1) حيزوم : اسم فرس جبريل .

(2) ترضح : تكسر .

(3) تذرح : ذرح الشيء في الريح: ذراه. تذرح : تذري .

(4) ديوان مجد الإسلام ص88 .

(5) نار وأصداء ص 40 41 .

المبحث الثالث

آثار البعثة

1- البعثة والتغيير.

2- البعثة وروح العصر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لم يبعث محمد صلى الله عليه وسلم، لينسخ باطلا بباطل، ويبدّل عدوانا بعدوان، ويحرم شيئا في مكان، ويحله في مكان آخر، ويبذل أثرة أمة بأثرة أمة أخرى، ولم يبعث زعيما وطنيا أو قائدا سياسيا، يخرج الناس من حكم الفرس والرومان إلى حكم عدنان وقحطان. إنما أرسل إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، وسراجا منيرا ليخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم وأغلالهم. ولم يكن خطابه لأمة دون أمة، ووطن دون وطن، ولكن كان خطابه للضمير الإنساني، وكانت أمته العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته، وخير داعية لرسالته، وأحق من يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم [1].

وراح يفرض سلطان آخر الشرائع السماوية، وهو الإسلام ويدعو إلى أهم أصل في هذه الشريعة، وهو الإيمان بوحدانية الله وتوحيده ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[2]. فلا عبودية لغير الله من أوثان وأحجار أو كواكب. فهو رب العالمين وليس إله قبيلة أو شعب بل رب كل شيء في الكون ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [3] ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ. وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[4]

ولم يصحح معالم العقيدة، ويرسم فروضها الروحية فحسب. وإنما توغل في النفوس البشرية، واقتلع جرثومة الفساد والمنكر، وغرس فيها حب الخير والفضيلة ومخافة الله، وغير اتجاهها من الشر إلى الخير، ومن الفساد إلى الصلاح، متجاوزا بذلك دور المصلح الذي قد يقضي عمره كاملا في معالجة عيب من العيوب أو تهذيب عادة من العادات، مدركا طبيعة هذه النفوس وتركيبها الإنساني المعقد، جاعلا مسؤوليتها إليها ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[5] ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[6] ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[7] ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾[8]

وراح يرسم طريق الفضيلة والخير والعمل الصالح وكيفية التحلّي بذلك في السلوك والحياة وذلك بتحريم جملة من الفواحش والكبائر والآفات ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ.

---

(1) الندوي- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- ص 118-119.

(2) الإخلاص -1-4.

(3) الشورى - 11.

(4) الأنعام -103.

(5) الكهف-29 .

(6) الإسراء-7 .

(7) المدثر-38 .

(8) النساء 111.

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(1)، ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ. إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً. ﴾(2)

والدعوة إلى طهارة النفس بنبذ كل الرذائل والارتفاع عن الدنايا والنقائص، ومراقبة الله في كل قول وفعل، وتذكيرهم في كل حين بأن الله يحب المتقين والمحسنين،ولا يحب الظالمين والمفسدين. ودعوتهم إلى الخير والعدل والتعاون والبر والتعاطف ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ.وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ. وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.﴾(3) ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾(4) ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(5) والدعوة إلى إزالة الفوارق الاجتماعية والطبقية والجنسية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى. وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ.﴾(6)، وإلى اعتناق الأخوة والسلم والسلام ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ.﴾(7) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً. وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ.﴾ (8) وغيرها من القيم الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية التي حوتها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

واستطاع أن يبرز جانبها الإعجازي، الذي كان لابد لها من قوة تنكشف فيها الآيات وكانت في الرسول الكريم هذه القوة الكامنة في أفعاله وأقواله.فكان صلوات الله وسلامه عليه عنوان هذا الكتاب الكريم << قرأ فيه الناس.قبل أن يقرأوا آيات الكتاب، آيات محكمة معجزة من الخلق العالي والأدب الرفيع >>(9).

وكان كما قال عن نفسه ﴿ أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي.﴾ (10) وكما وصفه القرآن الكريم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.﴾ (11)

---

(1) المائدة-90.

(2) الإسراء-31.

(3) آل عمران-104.

(4) الأعراف-181.

(5) المائدة -2.

(6) الحجرات-13.

(7) الحجرات-10.

(8) البقرة-208 .

(9) عبد الكريم الخطيب-النبي محمد-ص 279.

(10) السيوطي الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير القاهرة ط1 (1401هـ 1981م) مج2-ص478 .

(11) القلم 4.

ولم يترك دعوته لحظة حتى شعر بآثارها لامسة القلوب، قاطعة الدروب بالكلمة الصادقة المثمرة لا بحد السيف والعنف، حتى قال في خطبة وداعه المؤثرة الخالدة << ...اعقلوا أيها الناس قولي.فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا، كتاب الله وسنة نبيه... اللهم هل بلغت، اللهم اشهد. >>(1)

وكان لبعثته الأثر الخالد على مر الأزمان، وقد أحدثت أغرب انقلاب في تاريخ البشر << وكان هذا الانقلاب غريبا في كل شيء، كان غريبا في سرعته، وكان غريبا في وضوحه وقربه إلى الفهم . ولم يكن غامضا ككثير من الحوادث الخارقة للعادة، ولم يكن لغزا من الألغاز.>>(2)، وإنما حقيقة كبرى نعيشها إلى اليوم، وذكره يتعالى في الصوامع، ويتوارد في القلوب .

وكان من البديهي أن يشمل الشعر هذا الأثر المرتبط بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم متبعا أثر هذه البعثة في المجتمع الإنساني، مبيّنا هذا الأثر من خلال القيم التي نشرها، والتغيير الذي فرضه برفق ولين، منه شعر محمود حسن إسماعيل الذي شدّه أثر هذه البعثة النبوية بتصوير السقلة الهائلة لحياة جافية إلى حياة فرضتها سيادة الحق والعدل،وتصوير أنوار هذه البعثة التي غمرت الوجود بقيمها الروحية والإنسانية،وحررت الدنيا وملأتها هديا ونورا .

1-البعثة والتغيير :

ونعود مرة أخرى إلى القصيدة " حادي التغيير" لتتبع أثر التغيير الذي أحدثه هذا النبي الكريم،وتقبله كل ما في الكون من عصور ورياح وأجواء وسواكن بأروع صور الانتفاضة والانطلاق والعبور إلى الضياء،وإلى حياة جديدة بعيدة عن غوائل وضلالات الأمس:

دَوِّيَ عَلَى طَرِيقِهِ التَّغْيِيـــــرُ
وَانْتَفَضَتْ مِنْ كَهْفِهَا القُصُورُ
وَهَبَّ كُلُّ سَاكِنٍ يَثُـــورُ
وَلِلضِّيَاءِ انْطَلَقَ العُبُـــورُ
وَكُلُّ رِيحٍ غَيَّرَتْ مَسَـــارَهَا
وَأَضْرَمَتْ فَوْقَ الهُدُوءِ نَارَهَا
وَكُلُّ أُفْقٍ كَانَ فِي وِسَـــادِهِ
يَلْفِظُ سِحْرَ الأَمْسِ مِنْ مِهَادِهِ

---

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ج4 ص 604.

(2) المنوفي: هادي خير العالم بالخطاط المسلمين ص 127.

انْتَفَضَ النُّورُ عَلَى جَبِينِـــهِ
فَتَحَرَّكَ الدَّهْـــرُ عَلَى يَمِينِـهِ[1]

كما نعود إلى قصيدة " النور الأعظم " رمز هذه البعثة النورانية وعظيمها،لنرى كيف استطاع أن يبعث هذه الحياة الجديدة بقوة روحية فيها الرضا والاطمئنان لا الارغام والهلع، فكان الاستقبال لا الصدود من أجل هدم مسّ هيكل الحياة الروحي والأخلاقي والاجتماعي.وأعاد العزة والكرامة للإنسان من يد عطشى ، حائرة ارتوت منه وراحت تسقي كل لاهث ظمآن في هذا الكون. وبذلك يشير إلى منبع هذا النور الأول صحراء الجزيرة العربية،التي أصبحت الرائدة والداعية كل الأمم إلى هذا النور:

يَا أَوَّلَ نُـــــــورٍ
عَطَشُ الدُّنْيَا حُنَّ عَلَيْهِ،وَرَوَّى الخَيْزَةَ مِنْ قَدَمَيْهِ!
اليَدُ الظَّمْآى شَرِبَتْ مِنْهُ
وَرَاحَتْ تَسْقِي...الظَّمْآ اللاَّهِثَ فِي الأَكْـوَانْ...
وَأَوْغَلَ، أَوْغَلَ حَتَّى شَعْشَعَ فِي الإِنْسَانْ
رَشَّ اليَقْظَةَ وَالتَّوْحِيدَ عَلَى رِئَتَيْهِ
وَمَحَا الذِّلَّةَ وَالإِطْرَاقَةَ مِنْ جَفْنَيْهِ
وَدَهَى الرِّقَّ وَكَانَ مُحَالاً لاَ يَتَزَحْزَحُ عَنْ كَيْفَيْهِ
وَمَضَى يَسْحَقُ كُلَّ ظَلاَمٍ
عَبَرَ الدَّهْرَ وَمَرَّ عَلَيْهِ...[2]

وأوغل هذا النور برفق وحنو في أعماق الإنسان، وقد قال عليه الصلاة والسلام << إن هذا الدين متين. فأوغلوا فيه برفق.>>[3]. وهكذا تمتد القصيدة بأسلوب التكرار مع الفعل رفض، تمنح هذا الرفض المكرر نغمة قوية من الاحتجاج والصراخ الشعري،جسدت مبادئ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. حيث كان الرفض للخضوع والخشوع لغير الله والرفض للمنكرات والفواحش والرذائل، الرفض للظلم والإثم،والضعف والكسل، والجهل والشقاء، والذل والكبر، والزور والغش، والنفاق والكذب... وكانت صيغ الرفض تحمل دعوته إلى التوحيد والحق والعدل، والعمل والحرية، والصدق والكرامة...وما إليها من مكارم الأخلاق والتعامل الإنساني،مؤكدا بعثته من أجلها بعد توحيد الله.وفي ذلك يؤكد أيضا صلى الله عليه وسلم << إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.>> [4]ويردد الشاعر قائلا :

---

(1) لابد – ص 33-34.

(2) نهر الحقيقة ص 190 191.

(3) أحمد بن حنبل المسند دار الفكر ج 3 ص199.

(4) السيوطي الجامع الصغير ج 1 ص 51.

رَفْضَ الظُّلْمِ
رَفْضَ خُضُوعَ الحقِّ لِبَاغٍ
غَنِيٍّ الحقِّ وَحَلِّقْ بِالأَعْلَالِ عَلَيْهِ
رَفْضَ خُنُوعَ المَظْلُومِيـــــنَ
رَفْضَ صَلاةَ الأَوَّابِينَ لِغَيْرِ اللَّهْ
رَفْضَ خُشُوعَ الكَذَّابِينَ بِغَيْرِ شِفَاهْ
رَفْضَ الرِّزْقَ إِذَا لَمْ يَأْتِ
أَبِيَّ الخَطْوَةِ غَيْرَ هَجِينْ
رَفْضَ الكَلِمَةَ
إِنْ لَمْ تَسْحَقْ كَمَدَ الذُّلِّ بِكُلِّ حَنِينْ
رَفْضَ اللُّقْمَةَ
إِنْ لَمْ تَأْتِ حَصَادَ العَرَقِ لِكُلِّ يَمِينْ
رَفْضَ خُفُوتَ المَغْلُوبِينَ
رَفْضَ سُكُوتَ المَسْلُوبِينَ
رَفْضَ هَمِيسَ [1]الرَّشْوَةِ
حِينَ تَفُحُّ[2]. وَتَمْرُقُ كَالثِّنْ
رَفْضَ البَسْمَةَ حِينَ تَرُوغُ
لِتَحْلِيلِ صَيْدِ الغَشَّاشِينْ
رَفْضَ حَيَاةْ
شَبَقَ الرَّفْضُ عَلَيْهِ غَضَبًا لِلْعَافِينْ[3]

وانتشر النور المحمدي وتدفق في الزمن والكون، والقيم والناس، مغيرا حياة أخرى. وعلى راحتي هذا النور تهادى شراع، والشراع هو القرآن الكريم الذي يمحو العباب ويفض الحجاب -أي الظلام- :

بُشْرَى شُعَاعٍ عَلَى رَاحَتَيْهِ تَهَادَى شِرَاعْ...
مَضَى ثَوْرَةً فِي خَفَايَا العُبَابْ
تَمُرُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَــــدَاهْ
حَيَاةٌ تُغَيِّرُ فِيهَا الحَيَاةْ....
فَلاَ يَاهِبٌ غَطَّ فِيمَا حَوَاهْ...

---

(1) همس : الكلام الخافت الذي لا يفهم .

(2) تفح : من الفحيح وهو صوت الأفاعي .

(3) هو حفيظة ص 193 195 .

وَلاَ سَالِبٌ شَطَّ فِي مَا ادَّعَاهُ...
وَلاَ جَالِبٌ رَبِّهِ مِنْ دُمُوعْ
وَلاَ عَاصِرٌ خَمْرَهُ مِنْ نَجِيعْ...
وَلاَ خَاطِفٌ نَحْتَهُ مِنْ شُمُوعْ..
وَلاَ شَامِخٌ..جَابَ فِيهِ وَضِيعْ..
وَلاَ صَارِخٌ..غَابَ فِيهِ سَمِيعْ..
تَسَاوَى عَلَى النُّورِ حَفْنُ الجَمِيعْ
فَلاَ جَائِعُونَ، وَلاَ مُتْخَمُونْ
وَلاَ تَائِعُونَ، وَلا سَيِّدُونْ
وَلاَ خَائِفُونَ، وَلاَ زَائِفُونْ
وَلاَ عَاثِرُونَ وَلاَ قَاهِرُونْ
وَلاَ قَاسِيُونَ وَلا مُفْسِدُونْ
وَلاَ هَامِدُونَ، وَلاَ سَامِدُونْ..(1)

وقد كان لهذا النور كل الأثر في بعث الخير والمجد لكل الكون والأرض،بالإنقاذ والتطهير والهداية والتحرير، والسيادة والفتح:

طَهَّرَ الكَوْنَ مِنْ ضَلاَلٍ وَرِجْسِ
أَنْقَذَ النَّاسَ مِنْ ظَلاَمٍ وَبُؤْسِ
وَسَرَى نُورُهُ إِلَى كُلِّ نَفْسِ
مِثْلَ الشَّمْسِ بَيْنَ مَاءٍ وَغَرْسِ
يُثْبِتُ الخَيْرَ وَيُرْسِي - مَجْدَا أَيْنَمَا عَلَى الأَرْضِ سَارَا(2)

ب- البعثة وروح العصر

ما يجب أن نشير إليه كذلك نظرة الشاعر الواقعية لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالته وذلك بربط الذكرى بالواقع واستلهام روحه الخالدة واقتباس وسائله الروحية من أجل واقع عربي إسلامي، أصبح ذليلا، مهزوما، حائرا، بعد أن فقد من آثار البعثة المحمدية كل السيادة والعزة والقوة بتهاونه وغفلته، وامتداد أيدي الشر والعدوان إليه.

---

(1) نجمة الهلال - القصيدة المنسقة للعلم ص 16 17.

(2) نار وأنغام ص15.

وكانت في شعره لغة العطف والشوق والتمني،والاستحداء والاستجارة،والتوسل بالإجلال له والثناء عليه، والاعتراف بعظيم قدرته، والاقرار بفضله ورحمته،واستشعار الخشية منه، وحسن النزوع بالإنابة إليه، وابتغاء منه الوسيلة وتجديد الأماني.

ويتمنى الشاعر أن يطلع نور محمد صلى الله عليه وسلم من جديد ليحرر الواقع الذليل، ويمسح جبين حاضره، ويعيد إلى وجوده الذابل ماضيه الناضر، وينفخ في روحه المشتتة حياة الإيمان. ملونا خطابه للنبي صلى الله عليه وسلم هذه المرة بدوافع وظروف ومشاعر هذا الواقع، مصورا انتكاسة القيم والمبادئ والفضائل. والكون يستجير بمحمد صلى الله عليه وسلم، متأسفا خجلا، يقول :

يَا حَامِلَ شَرْعِ لِلْأَمِيـــنِ - سَوى القِيعَانَ مَعَ القِيـــمِ
الأَرْضُ بِمَنْ فِيهَا سَلَكَتْ - لَيْلاً يَتَرَاشَقُ بِالظُّلَـــمِ
فَالعَدْلُ بِهِ عَيِيَتْ(1) سُبُلَهْ
وَالحَقُّ بِهَا شَقِيَتْ جِبِلَّـهْ
وَالمَجْدُ لِرَكَـــابٍ صُلِبَتْ - كَتِفَاهُ بِذُلٍّ فِي القَـــدِمِ
وَالظُّلْمُ قَرِيرٌ بِالعَتَمِ
وَالعَهْدُ نُعُـــوشٌ لِلذِّمَمِ
وَنِفَاقُ الوَحْيِ كَمَا اخْتَلَجَتْ - حَوْلاءُ بِصَوْتٍ مُنْقَـــسِمِ
وَالكَوْنُ يُنَادِيهِ خَجِلَهْ
يَا رَبِّ أَجِرْنَا بِمُحَمَّدْ(2)

وتسير مقاطع هذه القصيدة "هادم الظلم" على نمط التوسل والاستجارة وطلب الشفاعة وقد ضعف الإيمان وتفرق الشمل، وساد التحير والأسى، والتمزق والروع، واستولت أطماع الغرب وأحقاده على وطن الإسلام وفتكت به. وما الأمل في النصر والحرية، والأمان والوحدة،إلا العودة بالاحتماء بظل وكيان النبي صلى الله عليه وسلم،وكان تكرار كلمة محمد رمزا عظيما لإثارة النفوس في العصر الحاضر:

يَا رَاقِيَ دَمْعَ البَاكِيـــنَا - وَمُشَفِّعَ ذَنْبَ العَاصِيـــنَا
جِئْنَاكَ حَيَارَى قَدْ نَفَرَتْ(3) - أَعْنَاقُ الجُرْحِ بِوَادِيـــنَا
جِئْنَـــا عَنْ نُـــورِ الإِيمَانْ
فَعَدَوْنَـــا عَبْرَ الأَزْمَـــانْ
وَطَنُ الإِسْلاَمِ بِهِ فَتَكَتْ - أَطْمَاعُ القَوْمِ الطَّاغِيـــنَا
قَدْ مَزَّقْـــنَاهُ بِأَيْدِيـــنَا

---

(1) عيت : من العنا وهو سوء التصرف من حيث تعلم - أي ضلت السبل.

(2) نار والصفحة ص 41.

(3) نفرت : انتشرت وتفرقت.

وَجَبهَنا (1) الغَرْبَ مَساكِينَا
مَزَّقَنَا الأَنفُسَ وَاختَلَفَتْ - حَتَّى فِي الرَّوْعِ أَمَانِينَا
يا رَبِّ أَعِدْنَا لِكِيَانٍ
أَبَدِيٍّ فِي ظِلِّ مُحَمَّدْ(2)

ولا يمكن لذلك الواقع أن يستعيد قيمه وأمجاده إلا بعودة نور محمد صلى الله عليه وسلم هذا النور الخالد ترفة أمامه بكل صدق وألم عن الحيرة والتيه والذل التي أخرّت عن الابتعاد عنه والتهاون بقداسته ومثله معلنا الشوق الكبير والحاجة العميقة له بتكرار عبارات العودة (3).

رَفَعَ النُّورَ حُدَاءَ الدَّرْبِ
وَنَهَانَا عَنْ نَغْمَةِ قِدْحَيْهِ
فَشَرِبْنَا الخَيْزَةَ لَمْ يَرْحَمْنَا نُورُ يَدَيْهِ...
يَا أَوَّلَ نُورٍ
سَكَبَ اللَّهُ النُّورَ الأَعْظَمَ مِنْ شَفَتَيْهِ
عُدْ لِخُطَانَا
عُدْ لِهَوَانَا
يَعُدُ النُّورَ لِرُوحِ الحَائِرِ فِي كَهْفَيْهِ(4)

نعلم أن التوسل لا يكون إلا لله، ولكن لا ضير من التوسل لنبيه الكريم، فهو أصل من أصول الإيمان بالله، وليس بمؤمن من لا يحب الله ورسوله حبا لا يضاهيه حب في العالمين، وهذا الشعور هو أساس المدح والإعجاب والعرفان بالفضل، وطلب المدد والرجاء عند الزلل والخطأ.

وأدرك محمود حسن اسماعيل بكل يقين - إلى أين يتجه في بحثه عن الرمز الحي الكامل، الذي يلتمس فيه ضياء الحياة والنور والهدى والعدل والحق، فهو يتجه إليه بالسلام والصلاة، ليس وحده، بل كل ما في الكون والحياة، يصلي عليه ويسلم، حتى الله عز شأنه:

أُصَلِّي عَلَيْكَ ...
وَكُلُّ الوُجُودِ صَلاةٌ وَشَوْقٌ إِلَيْكْ
أُصَلِّي عَلَيْكْ...
وَنُورُ الهُدَى سَاطِعٌ بَيْنَ يَدَيْكْ

---

(1) جبهنا : واجهنا.

(2) نار وأصفاد-ص 42.

(3) هذا المقطع خاتمة قصيدة " مع النور الأعظم" التي أستشهد من خلالها أن يتوسل بها على كثير من المحاور في هذه الرؤية.

(4) نهر الحقيقة ص 195.

وَرُوحِي نَشِيدٌ مِنَ الحُبِّ يَهْفُو لَدَيْكْ
أُصَلِّي بِقَلْبِي، وَأَعْمَاقَ حُبِّـــي
وَأَمْـــنِي وَأَنْتَ الضِّيَاءُ لِدَرْبِـــي
وَكُـلِّي حَنِيـــنٌ وَشَـوْقٌ إِلَيْكْ
أُصَلِّي عَـلَيْكَ...وَصَلَّى وَسَلَّمَ نُورُ الإِلَهْ
وَصَلَّتْ عَلَيْكَ جَمِيـعُ الحَيَـــاهْ
عَـلَيْكَ الـصَّلاَهْ
عَلَيْكَ السَّلاَمْ[1]

وفي الاهتداء بنهجه وفي الصلاة القدسية الطاهرة عليه، إفضاء إلى الحلم والرجاء والنصر والإباء وإحساس بالرسالة النبوية المنقذة للحاضر والمستقبل من التيه والضلال :

أُصَـلِّي عَلَيْكَ .. ضِيَـاءً وَطُهْرًا لِأَحْـلاَمِنَا
أُصَـلِّي عَلَيْكَ.. إِبَـاءً وَنَصْرًا لِأَيَّـامِنَا
فَمِنْ نُورِ خَطْـوِكَ شَعَّ الـفِـدَاءْ
وَمِنْ نُورِ هَدْيِكَ يَأْتِي الرَّجَـــاءْ
أُصَلِّي عَلَيْكَ وَصَلَّى وَسَلَّمَ نُورُ الإِلَهْ
وَصَلَّتْ عَلَيْكَ جَمِيعُ الحَيَـاهْ
عَلَيْكَ الصَّلاَهْ
عَلَيْكَ السَّلاَمْ[2]

ويبقى لكل شاعر أسلوبه في التوسل، فشاعرنا ابتعد عن توسلاته الشخصية بعد أنْ عرضها فيما سبق لله عز وجل،[3] وتوسلاته للنبي الكريم فرضها الموقف الفكري والشعري للشاعر، بحيث كانت توسلاتُ من أجل الجماعة لا من أجل نفسه، لا كتوسلِ البوصيري في بردته التي نظمها وهو مريض يائس، فبمثل في بعض توسله هما وذنبا، لم يجد لذلك ملجأ ولا مجيرا إلا الرسول الكريم[4] فيقول :

... إِنْ أَتَتْ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمُنْقَبِضِ - مِنَ النَّبِيِّ وَلاَ حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ[5]
فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَتِـــي - مُحَمَّدًا، وَهُوَ أَوْفَى الخَلْقِ بِالذِّمَمِ

---

(1) صوت من الله-ص 114.

(2) المصدر نفسه -ص 115.

(3) انظر-فصل الرؤية الروحية مبحث "التأثر".

(4) انظر زكي مبارك المدائح النبوية في الأدب العربي ص 178 179.

(5) منصرم : منقطع.

إنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذاً بِيَدِي - فَضْلاً وَإلاَّ فَقُلْ يَا زَلَّةَ القَـدَمِ
حَاشَاهُ أَنْ يَحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَـهُ - أَوْ يَرْجِعَ الجَارُ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمِ
وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَـهُ - وَجَدْتُهُ لِخَلاَصِي خَيْرَ مُلْتَـزَمِ
وَلَنْ يَفُوتَ الغِنَى مِنْهُ يَدًا تَرِبَتْ(1) - إِنَّ الحَيَا(2) يُنْبِتُ الأَزْهَارَ فِي الأَكَمِ(3)

وكذا الحال مع أحمد شوقي(4) الذي نهج في توسله للرسول صلى الله عليه وسلم الطريقة البوصيرية مقدما إليه اعترافه بذنوبه وندمه عليها، متفائلا بطلب الشفاعة في يوم لا عز فيه بقرابة ولا نسب إلا بقرابة وعز النبي صلى الله عليه وسلم، يقول :

لَزِمْتُ بَابَ أَمِيرِ الأَنْبِيَاءِ وَمَـنْ - يُمْسِكْ بِمِفْتَاحِ بَابِ اللَّهِ يَعْتَصِـمِ
فَكُلُّ فَضْلٍ وَإِحْسَانٍ وَعَارِفَةٍ - مَا بَيْنَ مُسْتَلِمٍ(5) مِنْهُ وَمُـلْتَزِمِ(6)
عَلَّقْتُ(7) مِنْ مَدْحِهِ حَبْلاً أَعُزُّ بِهِ - فِي يَوْمِ لاَ عِزَّ بِالأَنْسَابِ وَاللُّحَمِ(8)

اتسمت رؤية محمود حسن إسماعيل النبوية - من خلال ما عرضناه- بما يلي :

1- ركز الشاعر على إبراز الجانب العقدي بإظهار فساد التصور الجاهلي، وانحرافه عن الألوهية والعبودية الحقة، وإصرار النور المحمدي على اجتثاث تلك الجذور الفاسدة والدعوة إلى الهداية إلى الله الحق. فحين يعرف البشر الله الواحد تتهيأ نفوسهم إلى ما يأمرهم به وينهاهم ، لأن عقدة الفطرة البشرية، -كما يقول "سيد قطب"- هي عقدة العقيدة، وما لم تنعقد هذه العقدة أولا، فلن يثبت فيها شيء من خلق أو تهذيب أو إصلاح اجتماعي.(9)

2- عرض أهم المحاور الكبرى في الدعوة والبعثة المحمدية، واستطاع أن يصوغ المعاني الإسلامية على طريقته، باختيار مادته من السيرة والتاريخ ثم يلونها بخواطره ،كي يبرز منها عظة لنا على النحو المطلوب من الدين. وإن كان قد همش بعض الأحداث الصغرى في السيرة، وهذا ما لا يمكن أن نجبره عليه.

---

(1) تربت : افتقرت، كأنها لصقت بالتراب .

(2) الحيا : المطر .

(3) ديوان البوصيري-تحقيق محمد سيد كيلاني-مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر-ط1-(1374هـ-1955م) -ص 200.

(4) ديوان الشوقيات -ج1-ص194 .

(5) مستلم منه : مكتسب .

(6) ملتزم : ملازم له .

(7) علقت : تعلقت .

(8) اللحم: والمحمة: القرابة .

(9) في ظلال القرآن -ج7 ص973 .

3- وظف عناصر الكون الطبيعية لإثراء مواقفه الشعرية، فعبرت تعبيرا عفويا وصادقا عن إيمانها واستجابتها للدعوة المحمدية، كما أفسح لخياله المجال لتحقيق شاعرية تلك المواقف، على الرغم من إهمال هذا الخيال الشاعري في حادثة الإسراء والمعراج والملائكة في بدر.

4- بادر إلى المسرح والقصص الشعري متخذا الطابع الحواري والغنائي والانشادي لبناء هيكل شعري جديد. وقد ظهرت كل هذه الألوان في الشعر الحديث، وحبذا لو أكثر من ذلك الشاعر لأنه قلما نجد مثل هذه الظواهر التجديدية في الموضوعات ذات الصبغة الدينية أو الشعر الديني بعامة.

5- لم يحاول الشاعر أن يقف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم،كشخص متفرد بصفاته وأخلاقه وحسن جماله، ولو أراد أن يصفه لما وجد ما يقول، كما لم يجد "حسان" قبله ما يقول سوى :

وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَرَقَطُّ عَيْنِي ... وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ... كَأَنَّكَ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ[1]

لقد تسامى محمود حسن إسماعيل بهذا الرسول الكريم إلى صورة النور المادي والمعنوي، فكان النور هو وضاءة وجهه وعظيم خلقه، النور هو رسالته ومسيرته، النور هو قرآنه وكتاب الله، ولهذا لم يجد إلا رمز النور للتعبير عن الرسالة المحمدية التي قضت على الوثنية ببعديها الإلهي والإنساني، وبها اكتسب الإنسان النبيّ بعد النور، لأنه << أول من استوعب الهداية كاملة وحملها للبشر، قاضيا على الترهات، ومفرقا بين الجهل والعلم والظلام والنور، والعبودية والحرية، مبلغا دستوريا سماويا، يحقق الاتزان في كل شيء، والتمام في كل نعمة.>> [2]

وبذلك يكون قد ابتعد عن الأوصاف التقليدية التي تداولها الشعراء، فوصفوا الرسول صلى الله عليه وسلم بالشمس، النجم والبدر، واللؤلؤ والزهر، والبحر والليث، كما وصفه "البوصيري":

أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ ... بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٌ بِالْبِشْرِ مُتَّسِمُ[3]

كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالْبَدْرِ فِي شَرَفٍ ... وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالدَّهْرِ فِي هِمَمِ

كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ جَلَالَتِهِ ... فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمِ

كَأَنَّمَا اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدَفٍ ... مِنْ مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسَمِ[4]

لَا طِيبَ يَعْدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أَعْظُمَهُ ... طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِمِ

---

(1) ديوان حسان بن ثابت- ص10.

(2) مصطفى السعدني-التصوير الفني في شعر محمود حسن اسماعيل-ص170.

(3) متسم : سمة - علامة.

(4) ديوان البوصيري- ص194.

وردد "شوقي" هذه الأوصاف [1]:

البَدْرُ دُونَكَ فِي حُسْنٍ وَفِي شَرَفٍ - وَالبَحْرُ دُونَكَ فِي خَيْرٍ وَفِي كَرَمِ
شَمُّ الجِبَالِ إِذَا طَاوَلْتَهَا انْخَفَضَتْ - وَالأَنْجُمُ الزُّهْرُ مَا وَاسَمْتَهَا تَسِمِ[2]
وَاللَّيْثُ دُونَكَ بَأْسًا عِنْدَ وَثْبَتِهِ - إِذَا مَشَيْتَ إِلَى شَاكِي السِّلَاحِ كَمِي[3]

ويكون بذلك محمود حسن اسماعيل قد اقترب من الذين عاشوا حقيقة وواقع هذا النور، "كحسان" الذي يصف صلى الله عليه وسلم بالسراج المنير، وأخذ من السراج والسيف علاقة اللمعان والبريق قائلا :

نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ - مِنَ الرُّسْلِ وَالأَوْثَانُ فِي الأَرْضِ تُعْبَدُ
فَأَمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا - يَلُوحُ كَمَا لاحَ الصَّقِيلُ المُهَنَّدُ[4]

ويصفه "كعب بن زهير" بالنور والسيف أيضا :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ - مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ[5]

6- أثار بعض الجوانب في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم التي وقع فيها اختلاف واضطراب بين رواة ومؤرخي السيرة النبوية كالخوارق التي صاحبت مولد النبي صلى الله عليه وسلم والظواهر التي سايرت بعثته (كسقوط الأصنام، ولدغ الثعبان لأبي بكر، وتعشيش الحمامتين وغيرها..) وهذا الاختلاف بين الرواة لم يكن غرضهم تشويه سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وإلحاق الخرافات والأساطير بها، وإنما تغلبت رؤيتهم العاطفية على رؤيتهم التاريخية - كما يرى "حسين مؤنس" - فتقبلوا النقد والتمحيص في الأحاديث الواردة والأسانيد،وهالهم التمجيد والاعتزاز بهذا النبي. وتوارد هذا الاختلاف على مر العصور،وعلق بالخيال الشعبي كثيرا من الإضافات والمبالغات بخاصة،لما ظهرت مناسبة الاحتفال بالمولد النبوي، وقصائد الموالد الشعبية.[6]

وبهذا لم يكن غرض الشاعر التشويه بقدر ما قصد الإكبار من شأن سيرة النبي صلّى الله عليه وسلم والخروج من التكرار الفني والتقريرية السائدة في شعر المدائح والمناسبات المشهورة في سيرة النبي، وإثرائها بخياله وفنه من جهة أخرى، ولم ينتهج المنهج الأسطوري، الذي راح بعض الشعراء يستعملونه استعمالا تضليليا مغرضا.

كما تورط "السياب" في اتخاذه شخصية أسطورية، فأساء إليه صلى الله عليه وسلم حين قرنه بالشخصيات الأسطورية وأدخله هذا النحو الغريب من التصور الإسلامي، حين جعل منه بطلا أسطوريا وأخطأ في طبيعة

---

(1) ديوان الشوقيات- ج1- ص200.

(2) ما واسمتها : ما غالبتها في الوسامة تغلبها فيها.

(3) شاكي السلاح كمي : شاكي السلاح : حديده، كمي : لابس السلاح أي شجاع .

(4) ديوان حسان بن ثابت - ص47.

(5) ديوان كعب بن زهير - شرح السكري - مجموعة مخطوطة و بشرح مصورة (1385هـ 1965م) ص23 .

(6) انظر دراسات في السيرة المحمدية ص13 17.

الإسلام ومنهجه وموقفه من رسوله[1]. ومن ذلك قوله عن واقع هذا النبي الذي فقد قداسته وجوهره في العصر الحاضر، مؤكدا في ذلك نفوره من الدين، وعبثه بالمصطلحات الإسلامية كالله. ومحمد والمسجد وغيرها . يقول :

كَمِئْذَنَـــةٍ تُرَدِّدُ فَوْقَهَا اسْمُ اللَّهْ
وَحَطَّ اسْمٌ لَهُ فِيهَا
وَكَانَ مُحَمَّدٌ نَقْشًا عَلَى آجُرَّةٍ خَضْرَاءْ
يَزْهُو فِي أَعَالِيهَا
فَأَمْسَى تَأْكُلُهُ الغَبْرَاءْ
وَالنِّيرَانُ مِنْ مَعْنَاهْ
وَيَرْكُلُهُ الغُزَاةُ بِلاَ حِذَاءْ
بِلاَ قَـــدَمْ
وَتَنْزِفُ مِنْهُ دُونَ دَمْ
جِرَاحٌ دُونَمَا أَلَمْ
فَقَدْ مَـاتَ
وَمِتْنَا فِيهِ مِنْ مَوْتَى وَمِنْ أَحْيَاءْ
فَنَحْنُ جَمِيعًا أَمْـوَاتُ
أَنَـا وَمُحَمَّدٌ وَاللَّهْ
وَهَذَا قَبْرُنَا : أَنْقَاضُ مِئْذَنَةٍ مُعَفَّرَةٍ
عَلَيْهَا يُكْتَبُ اسْمُ مُحَمَّدٍ وَاللَّهْ[2]..

وبينما كان حديث محمود حسن إسماعيل عن شخصيات الأنبياء بخاصة عيسى وموسى عليهما السلام، فيه طيبة ورحمة وطهارة وبخاصة شعره في حادثة الإسراء والمعراج - وقد رأينا ذلك-وشعره في قضية فلسطين.[3]

7- لم يكن غرضه من هذه الرؤية تحيزا لمذهب سياسي أو ديني معين كالشعراء الذين تشيعوا وأيدوا آل البيت، أو تحقيقا لأهداف بلاغية محضة كأصحاب البديعيات، وإنما كانت رؤيته للرسول صلى الله عليه وسلم ذات غرضين رئيسين . تمثل في غرض إنساني باستحضار مرحلة خالدة من تاريخ البشرية، وبعث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من جديد من أجل العبرة والعظة، والتذكير والتنوير، بربط أمجاد أمة هذا النبي الماضية

---

(1) محمد عادل الهاشمي الإنسان في الأدب العربي الإسلامي ص 171

(2) ديوان بئر شاكر الفيفاء مج 1 ص 395.

(3) [illegible]

الفـــــصل الثالـــث

الـــــرؤية الكـــــونـــية

تـــوطـئـــة

- المبحث الأول : جمال الكون.
- المـبحث الثانـي : عبادة الكون.
- المبـــحث الثالث : تسخير الكون.
- المبحـــث الرابع : فناء الكون.
- المبحـــث الخامـس: الله والكون.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بمآسي حاضرها. وفي غرض عقدي بتأكيد وإجلاء حقيقته إلى جانب الحقيقة الإلهية الكبرى وإعلان الحب والإيمان لله وللرسول صلى الله عليه وسلم. يقول :

مَحَمَّدٌ وَصَلاَةُ اللَّهِ..بِالقِسَمِ - صَلَّى وَقَلْبٌ عَلَى التَّوْحِيدِ نَاحَاهُ

حَقِيقَتَانِ، وَهُمَا حَقٌّ وَلَوْ فُدِّرَتْ - نَفْسِي، لِمَا شَرِبَتْ فِي الحُبِّ إِلاَّهُ (1)

8- إبراز الدور الإيجابي للنبي صلى الله عليه وسلم -الإنسان- في الصراع بين الحق والباطل والنور والظلام على الرغم من أن الانتصار فيه يتم بفعل سماوي علوي أقوى من إرادة الإنسان. فإن الشاعر حرص على إبراز هذا الدور.لكي يتحلى في فعل إنسان كل عصر وهو يعاني اقتحام العقبات الإنسانية، لاستشراف واقع بشري أكثر وضاءة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) نار وأصداء ص 31.

تـــوطـــئة :

أجمعت الآراء النقدية الحديثة على أن الشعر العربي عبر عصوره المختلفة احتفى كثيرا بالطبيعة ، فتغنى بها الشعراء ، ووصفوا مظاهرها المتنوعة ، إلا أنهم لم يتجاوزوا المحسوس ، ولم يستعينوا إلا بالأنواع الوصفية البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز وبديع ، ولم يعتنوا بروح الطبيعة ذاتها. وغاب في كثير من الأحيان ذلك الوصف الذي يدل على مدى تأثرهم بما في الطبيعة من جمال وقوة وعظمة ، ومدى إدراكهم لأسرار الوجود وحقائق الأشياء ، وشعورهم ببهجة الكون وجلاله(1).

وكان هذا الاتجاه الشعري ساريا وموازيا في ذات الحين لاتجاه بعض الشعراء الصوفيين،الذين اختلفوا في شعر الطبيعة عن هذا الشعر التقليدي ، باستعمالهم معانيها الحسية للدلالة على المعاني الروحية،على الرغم من الرداء المادي الذي تظهر فيه وبرع فيه ابن الفارض(2).

و فعلوا بشعر الطبيعة كما فعلوا بشعر الغزل وقد " تحول لديهم إلى مكافىء رمزي لأسرار غنوصية تدور على الحكمة المقدسة والتجلي الإلهي في الصور ، والتضايق بين الفعل والانفعال ، بنسق رمزي أشرب الكون تصورا لوحدة الوجود ، سواء في شكلها الميتافيزيقي المجرد ، أم في مظهرها الوجداني المتدفق بالصور والمجازات. ويتول هذا الى فرق جوهري يحيل على اختلاف أساسي بين نمطين ، الأول عيني حسي حابس في وضع لا تجاوزي ، والثاني عيني حسي لكنه يتعالى بواسطة الكيف الحسي الخيالي ، الى تركيب شهود عياني لسريان الألوهية في الطبيعة . >> (3)

أما في العصر الحديث ، لم نجد سوى قطع شعرية ملونة ببعض التلوينات الطبيعية عند كل من"البارودي وشوقي وحافظ وصبري ومحرم"وغيرهم ...إذ لم يكن تصور هؤلاء في الغالب << إلا وصفا حسيا للمرائي دون الحالات النفسية ، ودون إبراز تجارب فنية في هذه الناحية المتعلقة بالطبيعة ، وتناولها التناول الفني الذي يرضى عنه أصحاب الذوق الأدبي الرفيع >>.(4)

وسرعان ما ظهرت بعد هذه الفئة فئة أخرى من الشعراء لقبوا بالشعراء الرومانتيكيين،أو الرومانسيين،أو الوجدانيين. فروا إلى الطبيعة وارتموا في أحضانها هروبا من أنفسهم ومجتمعاتهم ، ووجدوا في صفائها وجمالها ورحابتها ما افتقدوه في حياتهم الباطنية والظاهرية المليئة بالصراعات والاضطرابات . وكانوا <<منطوين إلى ذات أنفسهم ، ضائقين ذرعا بما تضطرب به المجتمعات من حولهم ، فولعوا بترك المدن إلى الطبيعة،وكانت

---

(1) انظر-أبو القاسم الشابي - الأعمال الكاملة الخيال الشعري عند العرب - الدار التونسية للنشر - 1984م - ج1 - ص67 كذلك د/ كمال نشأت - أبو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث - دار الكاتب العربي -1967م - ص 307 .

(2) انظر - محمد عبد المنعم خفاجي - الأدب في التراث الصوفي - ص182

(3) عاطف جودة نصر - الرمز الشعري عند الصوفية - ص 298 - 290.

(4) انظر-مصطفى عبد اللطيف السحرتي - أدب الطبيعة - مطبعة التعاون - الإسكندرية - مصر 1937م- ص95.

تروقهم الوحدة بين أحضانها >>(1) . كما أنهم كانوا لا يختلون بالطبيعة << ليفكروا أو يستحلصوا الحجج، أو يحلوا المشكلات،كلا ! ولكن ليحلموا ويستسلموا لمشاعرهم . >>(2) كما عكسوا عليها أحوالهم النفسية والعاطفية والفكرية،فيتلون جمال الطبيعة عندهم حسب مزاج الشاعر وأحواله النفسية. وتوشك عناصر الطبيعة أن تفقد لديهم وجودها الطبيعي، فيصبح المشهد الواحد في قصيدة غيره في قصيدة أخرى ، سواء في مظهره الخارجي أم في دلالته النفسية والعاطفية. و قل أن تجد لديهم تصويرا لجمال الطبيعة خالصا لذلك الجمال وحده ، بل لا بد أن تتسلل إليه بطريقة أو بأخرى حالات الشاعر وتذبذبه بين الفرح والكآبة،وبين اليأس والأمل.(3)

كما أن بعضهم تعتريهم أمام الطبيعة نشوة مشوبة بشعور ديني عميق هو الشعر الإلهي ، فهي صنع الله الدال عليه ، وهو كتاب منشور يقرأ صفحاته ذوو البصيرة (4).وهي الحرم المقدس الذي يلجأون إليه في ابتهالات روحية ضارعة ، وقد وجدوا في أحضانها رادا ورحمة وحنانا (5). ومنهم من كان يضيق بها ذرعا في أنها لا تأبه لهم ، ولا تتأثر بشعورهم ومنهم من بالغ في الحقد على الطبيعة كما بالغ آخرون في تمجيدها.(6)

وامتزج المنظور الأدبي للطبيعة مع المنظور الأسطوري، ففي عهود الحضارات الأولى والديانات القديمة ،دل البحث في الكون لفهم أصوله وظواهره على طفولية الإنسان القديم ودهشة تساؤلاته المثيرة لإجابات مفسرة لما يحيط به. حيث وقف إزاء عناصر الطبيعة وظواهرها المختلفة << حائرا لا يدرك كنهها ، ولا حقيقة العلاقة بينه وبينها ، ولذلك اشتط به الخيال وتصور فيها أو وراءها قوى حية ، يمكن أن تصيبه بشر أو بخير ، ثم راح يغلو به الخيال ، حتى جعل لكل مظهر من مظاهرها إلها في الغالب . ونتيجة المفهوم الميثولوجي صار يعبدها ، ويتقرب إليها طمعا في خيرها ودفعا لشرها >>(7)

وتكون المفهوم الأسطوري نتيجة من التأمل والسحر ، والحلم والخرافة ، والخيال والواقع . وكان أقدم مصدر مارس فيه الإنسان تأمله لسر وجوده بين الظواهر الكونية ، وعلل به نظرته إلى الكون الذي ألف كثيرا من مظاهر الطبيعة المرئية وغير المرئية لاعتقاده بوجود قوى هي فوق الطبيعة ، كما كان أقدم مبدإ للاعتقاد

---

(1) د/ محمد غنيمي هلال - الرومانتيكية - دار العودة - بيروت ط 6 - 1981 - ص169.

(2) المرجع نفسه ، ص178.

(3) د/ عبد القادر القط- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر- دار النهضة العربية- بيروت- ط2- (1401هـ- 1981م)- ص300.

(4) محمد غنيمي هلال - الرومانتيكية- ص178.

(5) د/ محمود شوكت- رجاء عيد- مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر- دار الفكر العربي- 1975م- ص269.

(6) الرومانتيكية- ص180.

(7) د/ كاصد ياسر الزيدي- الطبيعة في القرآن الكريم- دار الرشيد- بغداد- العراق-1980م- ص13.

بأن للطبيعة آلهة . فالشمس إله، والقمر إله ، والنهر إله والزهر إله ... وكذلك البرق والرعد والمطر ، والنجم والشجر ، وغيرها من الظواهر الطبيعية ، النباتية والحيوانية والتي كانت عبادتها هي جوهر العقائد. (1)

و بدت الطبيعة بهذا المفهوم الأسطوري << شيء ما زاخر بالحياة والقداسة والجلال مفعم بالمعنى والعظمة والقوة. و أفضى هذا المظهر القدسي إلى عبادة الطبيعة متمثلة في ظواهرها المختلفة ، وقواها الجياشة، وارتبطت بتلكم العبادة شعائر التطهر والتحريم والكفارات >> (2).

و ما لبثت الطبيعة أن تخلت عن مظهرها الأسطوري بانبثاق الحياة العقلية للإنسان وأدرك أنها لم تعد تفهم لغته، أو تستجيب لشعائره وطقوسه ، واتجه إلى تفهمها من خلال نظرة فلسفية تأملية مثلتها النظريات العلمية والتجريبية ، ونظرة دينية روحية احتوتها بعض الكتب السماوية .(3)

ولكن سرعان ما اكتنف العالم التناقض والتذبذب ، والشك والتوهم والقلق والأرق ، ورجع الإنسان يبحث عن أطواره الأولى. و لم يجد غير الدعاء الأول ألا وهي الأسطورة لتجسيد تأهله الطفولي للكون والعالم من الحكايات

وكانت الأسطورة مصطلح العودة إلى توظيف فكرة تأليه الطبيعة << بمجموعة الطريفية المتوارثة منذ أقدم عهود الإنسانية الحافلة بضروب الخوارق والمعجزات التي يختلط فيها الخيال بالواقع ، ويمتزج عالم الظواهر بما فيه من إنسان وحيوان ونبات ومظاهر طبيعية بعالم ما فوق الطبيعة ، من قوى غيبية اعتقد الإنسان الأول الوثني بألوهيتها ، فتعددت في نظره الآلهة ، تبعا لتعدد مظاهرها المختلفة>>(4)

وكانت العودة تجسيدا لتلك العبادة بشتى أبعادها وطقوسها ومراسيمها الأسطورية والوثنية في الأدب والشعر والرسم والنحت وغيرها من الفنون . ونتيجة لظروف أشارت إليها بعض الدراسات النفسية والفلسفية والنقدية ، ودعمت ضرورتها الفكرية والفنية ، كما أشار بعض الباحثين إلى << أن عودة شعراء العالم في القرن العشرين إلى الأسطورة هو تعبير ملح على الإحساس الجديد بالماضي إحساسا طاغيا ، يفسر أزمة الإنسان الحديث في ظل الحضارة العلمية الصاخبة ، ولذلك كان إليوت إنسانا ممتازا في تجسيد هذه الأزمة . حين أعلن بوضوح أنه لا خلاص لنا من الأرض الخراب إلا بالعودة إلى الدين .>>(5) وأصبحت الأسطورة عند الغربيين هي العامل المشترك بين الشعر والديانة (6).

---

(1) انظر عباس محمود العقاد- الله (كتاب في نشأة العقيدة الإلهية)- دار المعارف- مصر- ص39-40.

(2) د/ عاطف جودة نصر- الرمز الشعري عند الصوفية- ص259.

(3) انظر- يوسف كرم- الطبيعة وما بعد الطبيعة- دار المعارف- مصر- ص33.

(4) د/أنس داود- الأسطورة في الشعر العربي الحديث- مكتبة عين شمس- القاهرة- 1975م- ص19.

(5) د/ غالي شكري- شعرنا الحديث إلى أين ؟- ص132.

(6) أوستن وارين- رينيه ويلك- نظرية الأدب- ترجمة محي الدين صبحي- المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب- سورية- 1972م- ص248.

و<< هم الذين أوحوا إلى كتابنا وشعرائنا بالعودة إلى عالم الأساطير ، لأن الدلائل كلها تشير إلى أن استخدام الشعراء العرب وتوظيفهم للأسطورة جاء نتيجة تأثرهم الواضح والمباشر بالكتاب الغربيين على الرغم من أن هذا التأثر لم يأت إلا متأخرا وبفضل رواد حركة التجديد ، الذين جاء تأثرهم إعجابا ومحاكاة في أول الأمر، ثم ما لبث أن تطور إلى الشكل الاستلهامي الجديد في الصياغة على يد رواد مدرسة الشعر الحر.>> (1)

ولهذا فاستخدام المنظور الأسطوري من طرف بعض شعرائنا بكل ما يحمل من ضعف في التصور والإدراك، وقوة في الشك والإلحاد ، يعد نهجا تغريبيا وثنيا وهميا ، والاستمداد منه يشكل خطرا في أنه يعكس عقائد القدماء الذين كانوا يتوهمون الآلهة في مظاهر الطبيعة كلها ، وفي قوة الكون كله.(2) ولذلك فالأساطير لا تصلح لأن تكون عقيدة أو دين . ولا أن تكون أساسا فكريا وتأمليا لأدبائنا وشعرائنا بخاصة(3). فلا يمكن إذن لأحد من نقادنا أن يقنعنا بأن الأساطير بما فيها من شخوص ومواقف وعلائق تمس جوهر التجربة البشرية، وسمة الإنسانية ، إذ << تلخص وجها من وجوه التجربة الإنسانية الشاملة المعتدة ... عبر بها الإنسان ... عن تلك العلاقات التي تربطه بالله والكون ونفسه وما تضمنته هذه العلاقات من معاني الحياة والموت ، والخلود والفناء والشجاعة والخوف . >> (4)

قام المنظور القرآني للطبيعة على أساس إثبات الخالق وتوحيده وعلى استبعاد كل تصور أسطوري يتصل بها، فكانت << آيات الطبيعة التي تربو على السبع مائة محورا لتصحيح فكري على نطاق واسع،وذلك حين حول الفكر الإنساني من الميثولوجية الحائرة إلى الحقيقة المطمئنة.>> (5)

كما استطاع هذا المنظور أن يبيّن حقيقة هذا الكون الذي احتار فيه الفكر الأسطوري الأول ، والفكر الديني القديم ، وحتى الفكر الفلسفي الحديث . حيث يقول الدكتور محمد يوسف موسى «أتعب المفكرون والفلاسفة في قديم الزمان وحديثه عقولهم في البحث عن المبدأ الأول لهذا الكون سمائه وأرضه ، وكيف صار هذا العالم عنه ، إن كان يرجع حقا في وجوده إلى مبدأ واحد . وقد اختلفوا في هذا وذاك أشد الاختلاف ولا يزالون مختلفين حتى اليوم. ولكن القرآن جاء في كل هذه المشاكل بالقول الفصل ... من أن العالم لم يتكون وحده كما يقول الدهريون أو الطبيعيون وأنه نشأ بعد عدم . وأنه صنع إله واحد لا شريك له ولا معين سبحانه وتعالى >>(6) .

---

(1) عبد الرضا علي-الأسطورة في شعر السياب- دار الرائد العربي- بيروت- ط2- 1984م-ص21.

(2) انظر - الأسطورة في الشعر العربي الحديث- ص36-37.

(3) انظر- محمد عادل الهاشمي- الإنسان في الأدب الإسلامي- ص169.

(4) د/ عز الدين إسماعيل- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية- دار العودة ودار الثقافة -بيروت-ط3- 1981م- ص204.

(5) كامل الزيدي- الطبيعة في القرآن الكريم- ص46.

(6) د/ محمد يوسف موسى- القرآن والفلسفة- دار المعارف- مصر- 1958م- ص16-18.

وأصبحت الطبيعة في المفهوم القرآني عابدة ، خاضعة لإله واحد هو الله ، المعبود ، المتحكم في الكون كله. وكل عناصرها وظواهرها ليست آلهة بل هي مفتاح لمعرفة الله ، وآيات طبيعية للاستدلال والتأمل والإيمان ... وهي ليست أزلية ، أبدية ، بل هي مخلوقة، وخالقها هو الله ، وفانية وزائلة تبعا لسنة الله في الكون ، وليست مخيفة قاسية ، جامدة ، متصارعة ، متعادية مع الإنسان بل هناك وشائج مادية ومعنوية وجمالية وروحية؛ تحقق المنفعة والبركة والخير والهدى. (1)

إذن فالتأمل في صفحة الكون ، وما امتلأت به آفاق السموات والأرض من آيات يعني أداء عبادة فكرية ووجدانية سامية ، حددتها كثير من الآيات الكونية كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ.﴾(2) ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(3) ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ. ؟﴾(4) ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ. وَالَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾(5)

إن هذا التعبير القرآني << يرسم لنا صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثرات الكونية في الإدراك السليم ، وصورة حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار في صميم الكون ... وأولوا الألباب، أولوا الإدراك الصحيح ، يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية ... ويتوجهون إلى الله بقلوبهم تتفتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه ، وتدرك غاية وجوده وعلة نشأته وقوام فطرته بالإلهام الذي يعمل بين القلب البشري ونواميس هذا الوجود.>> (6)

فصورتا الاستقبال والاستجابة - كما اصطلح عليها سيد قطب - تمثل لحظة للتأثر والانطباع يتحلى فيها صفاء القلب وشفافية الروح ، وتفتح الإدراك، ولحظة للعبادة ، يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر ، ولإدراك أنها لم تخلق عبثا ولا باطلا. ومن ثم تكون الحصيلة المباشرة لهذه الخطة الواصلة أن هذا الكون<< حقيقة فهو ليس عدما كما تقول بعض الفلسفات ! وهو يسير وفق ناموس ، فليس متروكا

---

(1) انظر- كاصد الزيدي- الطبيعة في القرآن الكريم- ص48-49.

(2) الغاشية- 17-20.

(3) فصلت- 53 .

(4) الذاريات- 20-21.

(5) آل عمران- 190-191.

(6) سيد قطب- في ظلال القرآن- ج4-ص 544-545.

للفوضى ، وهو يمضي لغاية فليس متروكا للمصادفة،وهو محكوم في وجوده وفي حركته ، وفي غايته بالحق لايلتبس به الباطل >>(1).

وتتسع أبعاد هذه الرؤية الكونية لما يتحول التأمل والاستغراق والاستبصار والاستحابة للطبيعة-هذا التشكل الإلهي الفذ- لدى الإنسان العالم والفنان بالخصوص من حدس وإعجاب وإمعان إلى فعل مرئي أو حمالي أو أداء تعبيري مرسوم أو منظوم.وتتبين الهزة التي فجرتها الطبيعة في وجدانه وعقله،وتتحول عبادته من تسابيح وصلوات ومواجد الى ممارسات حياتية وفنية أيضا ما دام الإنسان يتعبد الله بسمعه وبصره بعقله وبصيرته بروحه وقلبه فأحرى بالفن هذا الفاعلية المركزة الشاملة المحتوية لقوى الإنسان أن يكون ميدانا رائعا لتنفيذ فكرة العبادة التي جاء بها الإسلام .(2)

ومن هنا نلاحظ أن الطبيعة لا تقف عند إحداث اهتزازات روحية في النفس فحسب،بل تدفع للتعبير عن تلك الاهتزازات بأشكال وأنماط فنية. ومن هذا المعنى العميق للتمعن والتأمل ينبثق موقف الفنان المسلم وغايته من الطبيعة،وهو تحقيق وحدة ذات أبعاد مرئية ولا مرئية يتحد فيها عالم الغيب مع عالم الشهادة.فهي << الوحدة التي تضم كل الجزئيات والتناقضات الظاهرية ، والقيم المتعارضة في كيان واحد متماسك أو عالم متناغم جميل ... الوحدة والتوافق بين الإنسان والعالم والطبيعة والكون ... الوحدة التي ترفض الذوبان السالب والفناء،كما ترفض التمزق والتبعثر والازدواج والعصيان ، ومن ثم يجيء موقف الفنان المسلم من الطبيعة حلقة رائعة من حلقات الكفاح البشري من أجل المصير ... ذلك المصير الذي يضم جناحيه على كل القيم والخلائق والنواميس ويحركها جميعا صوب الله >>(3).

ونخلص إلى أن التأمل الشعري للطبيعة من خلال التصور الإيماني للشاعر المتأمل يجعل من ظاهر الطبيعة وعناصرها شواهد حية على وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته لما فيها من الجمال والحركة والعطاء ليصل إلى إدراك كنه عبادتها لله ويحقق الانشراح والائتلاف والتواصل الذي يقود إلى المصير العظيم ألا وهو الوصول إلى الله لأن الشعر له علاقته الفطرية والفنية مع الطبيعة فهي <<عود الثقاب الذي يشعل الروح الشاعرة ويدفع بالينبوع الكامن في أعماق النفس إلى التفجر والتدفق والانطلاق ويقدر اتصاله الروحي بموجودات هذا العالم يكون حظه من التعرف على أسرارها ويكون نصيبه من المتعة الروحية.>>(4) والشعر في هذه الحالة بمثابة " << صلاة كونية للخالق المبدع وهذه الصلاة مشتركة حالما يقع على مفاتيحها القارئ >>(5) .

---

(1) المرجع السابق-ص 145.

(2) د/ عماد الدين خليل- الطبيعة في الفن العربي والإسلامي- مؤسسة الرسالة- بيروت-ط2-(1401هـ-1981م)- ص72.

(3) المرجع نفسه - ص82.

(4) د/ محمد زكي العشماوي- الرؤية المعاصرة في الأدب والنقد- دار النهضة العربية- بيروت- ص158.

(5) أحمد مرتضى عبده - قراءات في الشعر المعاصر- الهيئة المصرية للكتاب- مصر- 1985م- ص53.

بعد هذا العرض التصنيفي لبعض الرؤى حول الطبيعة ، تمكننا أن نتبين مواقف الشعراء المختلفة من الطبيعة، وأن نخرج بعضهم من دائرة السلبية والانطوائية ، والعبثية والأسطورية.وتحدد دائرة أخرى لشعراء كان تعاملهم مع الطبيعة تعاملا فنيا إنجابيا،وتأملهم تأملا فكريا ووجدانيا.فلم يكن الفرار إليها هروبا وانهزاما ، والإرتماء في أحضانها ارتماءا مضطربا بالحيرة والأوهام والطلاسم،وإنما لمعانقة حقيقتها،واكتشاف أجوائها وظواهرها وعناصرها وامداداتها والإقبال عليها لم يكن مجرد نزوة فنية جامحة أثارتها الطبيعة في نفوسهم دون أي غاية أو إيحاء،بل كانت تلح عليهم دلالاتها فينفذون إلى سرها المغلق. لتكون لهم ملاذا روحيا للتفكير في الله والكون والحياة والموت.ومرتعا خصيبا للتعبير عن كل تلك الحقائق الكبرى وتتسلل إليهم حالاتهم الإنسانية،فيدخلون معها في حوار خلاق ونشوة صوفية.فإذا كان بعضهم مارال يود عبادتها والبعض الآخر يخلع عليها كآبته وحزنه أو حيرته وقلقه أو تساؤله الغامض عنها ، ألا يمكن أن يخلع عليها آخرون إيمانهم ورؤيتهم الدينية (الإسلامية) ؟!. هذه الرؤية التي هي << تبصير حيوي للإنسان بطبيعة وجوده في الكون وأبعاد هذا الوجود، وحدود الحياة الدنيا وزوال هذه الحياة ... وانبثاق عفوي عن النفس المؤمنة والبصيرة المسلمة والوجود التواق إلى الله ... انبثاق يؤدي بتوحد رائع إلى هدفين إثنين : الاستجابة لحاجة الفنان الملحة إلى التعبير والتقرب إلى الله.>> (1)

ولكي نُدخل الشاعر محمود حسن اسماعيل إلى هذه الدائرة الشعرية،علينا أن نجيب على كثير من التساؤلات، بخاصة إذا ما أكدنا عدم سلبيته وابتعاده عن المنظور الأسطوري في علاقته مع الطبيعة والكون ، فهل استطاع أن يحقق الرؤية الإسلامية للكون بالتوجه من خلالها نحو المصير العظيم وبأداء الصلاة الشعرية معها ؟ وهل استطاع الاستجابة للتعبير بهذه الرؤية ؟ التي تزيل الشعور بالألم والقلق . وتقضي على عوامل الانفصال والكراهية وعدم الانسجام مع نسق ونسيج الكون ونظام العلاقات بين هذا الكون والله والإنسان. وتخلق في أعماقه ووجدانه توترا من نوع جديد ، وتضع أمامه غايات وأهداف تثير وجوده.

للإجابة على هذه التساؤلات وغيرها ، التي تستثير فينا وجوب معرفة مدى اقتراب أو وصول الشاعر إلى هذه الرؤية الشاملة ، أو مدى انحطاطه إلى التواءات أخرى قد تردم في أعماقه إحساس المسلم المؤمن الذي يفجّر منابع الرغبة العميقة للبحث عن حقيقة هذا الكون، لا يسعنا إلا أن نتناول شعره مستقصين بعض منافذ رؤيته ، لنرى مدى توافقها أو تعارضها مع الرؤية الإسلامية .

إن علاقة محمود حسن إسماعيل بالطبيعة ،كانت آسرة فيها صفاء وألفة ورضا ، وحوار بديع خلاق ، وقفر هائل من التجارب والرؤى وقد << أطال صحبة الطبيعةالصامتة والناطقة على اختلاف لحظات الليل والنهار ، وتقلب الفصول ، ووجد فيها معلما عظيما أحسن فهم لغته والاستفادة منه ، حتى ليمكن أن يقال أن محمود حسن إسماعيل من أعظم من تأثروا بالطبيعة تأثرا حواريا خالقا في تاريخ الشعر العربي.>>(2)

---

(1) عماد الدين خليل- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي- ص58.

(2) د/ أحمد درويش- في النقد التحليلي للقصيدة المعاصرة- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- 1988م- ص39.

وبدا تأثر محمود حسن إسماعيل بالطبيعة ، واستغراقه في تأملها واضحا منذ باكورة أشعاره الأولى " أغاني الكوخ" << هذا الديوان الذي لم يكن في الحقيقة أغاني للكوخ والريف ، بل أغان للطبيعة والكون عبر فيه عن امتزاجه الروحي بهذا الكون الشاسع ، إحساسه بمظاهر الطبيعة كلها ، حيث كان شعر أغاني الكوخ صلاة في محراب الطبيعة ، يسعى إلى الامتزاج فيها ، والحلول بها توسلا لاكتشاف الحقيقة الكبرى الكامنة فيها وكان هذا أول طريق المجاهدة الصوفية لتغني بمفردات حقيقة الوجود بالحقل والثور والزهرة وغيرها من مفردات وجوده الطبيعي>> (1).

وتابع هذه المسيرة في دواوينه الأخرى ، بل في كل ديوان نعثر على زخم شعري يتدفق من أعماقه بصور الطبيعة المشعة ، المتناغمة المتحاورة وفي كل ديوان لا يبدو تأمله للطبيعة << تأملا سلبيا يكتفي برصد فوتوجرافي للواقع كما كان يحدث عند بعض الشعراء المجيدين من الجيل الذي سبق محمود حسن إسماعيل من أمثال الشاعر خليل مطران ، ولا يكتفي بالحوار الفلسفي الهادئ مع عناصر الطبيعة كما كان يحدث لدى الشاعر المهجري إيليا أبي ماضي .. ولكننا هنا نجد حوارا عنيفا ، وأخذا وعطاء ونفاذا من وراء ستائر الكون إلى دقات قلب البشر . >> (2)

ولايبدو تصويره لها كما << تفعل آلة التصوير، لأنه لا يميل إلى مجرد الاقتصار على تسجيل المظاهر الحية، أو التعبير عن الحقائق الموضوعية، وبناء على ذلك فهي بداية أو نقطة انطلاق لاكتشاف الظواهر والعلاقات التي تربط بعضها ببعض.>>(3).

وحدّد الحضور العريض للطبيعة في شعره رؤيته على أنها << رؤية مستمدة في أساسها من الحقائق التي تبسطها الإلهيات العرفانية في النص الإسلامي الأصيل >>(4).

ومن خلال هذه الرؤية يمكن تحديد البعد العقدي والإيماني للشاعر وتوسيع المدى التصوري والتصويري عنده من خلال المحاور الآتية (5):

---

(1) السعيد الورقي- دراسات نقدية- ص113.

(2) أحمد درويش- في النقد التحليلي للقصيدة المعاصرة - ص46 .

(3) مصطفى السعدني- التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل- ص71.

(4) إبراهيم رفاعة - شاعرية محمود حسن إسماعيل من خلال ديوانه " صوت من الله"- "قراءة روحية في كتاب الطبيعة"- مجلة العالم-لندن- باريس- ع489- (1993م-1414هـ)-ص50.

(5) اخترت مصطلح الكون بدل الطبيعة، لأن هذا المصطلح الأخير ذو مفهوم مادي محدود، لا يتعدى ما وراء الطبيعة بينما المصطلح الأول ذا مفهوم واسع يشمل الكون المشهود والكون الغيبي. ويتلاءم مع المفهوم الإسلامي للطبيعة. وإن كان هناك مصطلح آخر أكثر رحابة وإسلامية وهو الملكوت، غير أني وظفت مصطلح الطبيعة أثناء التحليل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول :
جمال الكون

1- الإبداع والتناسق

2- الحركة والسكون

3- الطهر والسمو

حث القرآن الكريم على الرؤية الجمالية للكون في كثير من الآيات الداعية إلى تأمل القيم الجمالية التي<<تبدو في أكثر من جانب من تصميم الكون وبنية العالم والطبيعة في إحكام الصنعة،وتوزيع المساحات والأبعاد وتشكيل الكتل ، وضبط النواميس والسنن، كما أنها تبدو في التدفق الدائم ، والتحدد المستمر ، والانبعاث الأبدي ، والعطاء النامي،والاتساع الذي لا تصدد حدوده(1) وهذا الخلق الجمالي في الكون والعالم والطبيعة << ليس هدفا بحد ذاته،وإنما هو وسيلة أريد بها تمكين الإنسان من التحقق بعلاقة أكثر حيوية وتدفقا وصميمه بالكون ... الأمر الذي يقوده إلى خالق الكون من خلال أشد نقاط الارتكاز في شخصيته قدرة على التواصل والفاعلية >>(2).

فجمال الكون كما يراه -سيد قطب- << هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود ، وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكنه أن يبلغه ، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التي يتهيأ فيها للحياة الخالدة في عالم طليق وجميل وبريء من شوائب العالم الأرضي ... وإن أسعد لحظات القلب البشري ، لهي اللحظات التي يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي في الكون ، ذلك أنها هي اللحظات التي تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه >> (3).

والسمات الجمالية التي يمكن لأي شاعر مسلم أن يتطلع إليها هي الدقة التي تبدو في كل عناصر الكون في مطلع الصبح ومغرب الشمس،في لون الزهرة وريشة الطائر . والتناسق الذي يبدو في توزيع الألوان والظلال والأضواء والكائنات.والترابط الذي يبدو في اجتماع هذه الخلائق والمكونات على أصل واحد ومصير واحد ، واشتراكها في نشاط واحد يربط بينها جميعا ، كارتباط في المنشأ ، وارتباط في صفة الحياة ، وارتباط في العبادة والمصير ، والحركة التي تبدو في كل شيء حركة النبات والحيوان والطير وحركة النهر والبحر ، والشمس والقمر والليل والنهار . والتجدد الذي يلون حقيقة الكون،فتكاد كل زاوية منه تنفح بمشهد جديدوتمدنا كل آونة بجمال جديد . والتطهر الذي يبدو في سمو مظاهر كائنات الكون إلى الآفاق العليا شوقا إلى الجمال العلوي (4) .

---

(1) عماد الدين خليل- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي- ص9.

(2) المرجع نفسه- ص10.

(3) في ظلال القرآن- ج26- ص3634.

(4) انظر: محمد قطب- منهج الفن الإسلامي- ص89-91.

ومحمد عادل الهاشمي- الإنسان في الأدب الإسلامي- ص339-346 .

وقف محمود حسن إسماعيل أمام الجمال مؤمنا متأملا ، متفكرا في عظمة الله متحسسا أسرار الجمال والإبداع الإلهي مختفيا بمشاهد الطبيعة وسماتها الجمالية المتناسقة الدقيقة ، مازجا سحرها بالسمو والطهر والخشوع والسجود لله مستلهما قول الرسول صلى الله عليه وسلم :« إن الله جميل يحب الجمال »(1) .

ووجد الشاعر الريف رمزا للطبيعة الخالصة ، وصورا متكاملة لجمال الكون ففيه مبعث إلهامه وتعبده ، فما يكاد يفارقه إلا ليعود إليه مجددا إتقانه ، مكتشفا أسراره المحبوءة والتي نبذها« أكبر الأدباء والشعراء في مصر ذيوعا وشهرة إما لعسلف في الأقلام ، أغرتها به نزعة التحضر ، ومصانعة المدنية العصرية الزائفة ، حرصا على مسايرة أذواق الجماهير .. وإما لموات الإحساس الفني الصادق الذي يتحاوب هو والبيئة ، ويترجم عن أثرها فيه، وإما لهما مجتمعين ، وقد كان للشاعر بحكم الوضع والنزع اللذين هيأتهما له الطبيعة المصرية ، بتفتح روحه على شطها الرائع ، أن تكون بواكير ألحانه في التغني بسحرها »(2)

1- الإبداع والتناسق :

تمثل هذا الإبداع في الطبيعة الريفية التي غدت عنده كأنها جنة فوق الأرض،تلهم الخيال،وتوحي بكل مشهد، لكن شغل القوم عنه حيث يقول :

جَنَّةٌ تُلْهِمُ الخَيَالَ وَتُوحِي ـ عَبْقَرِيَّ الفُنُونِ مِنْ كُلِّ مَشْهَدْ

شُغِلَ القَوْمُ عَنْ هَوَاهَا ـ لِلأُوَلَى تَيَّمُوا الحَضَارَةَ مَعْبَدْ (3)

وتراوده أيضا صورة الجنة أمام صورة الطبيعة المهجورة -على الرغم من بديع صنعها- فسمّاها " الفردوس المهجور" يقول فيها :

تَتَفَجَّرُ فِي صَفْحَتَيْهِ الجَمَالُ ـ وَرَفَّ عَلَى جَانِبَيْهِ الخُلُودْ

وَطَوَّفَ رَيْحَانُهُ فِي الجِنَانِ ـ وَفِي كُلِّ مَنْظُورَةٍ بِالوُجُودْ

يُفَتِّشُ عَنْ رَوْضَةٍ بِسَتَرَةٍ ـ وَفِي الظِّلَالِ الرَّطِيبِ الرَّغِيدْ

وَتَعِدُّ سِحْرَهَا فِي رِكَابِ الضُّحَى وَقَدْ لَبِسَتْ أُرْجُوَانَ الوُرُودْ

تَتَأَطَّرُ فِي حُلَّةٍ مِنْ شُعَاعٍ ـ مُوَشَّى بِطَلِّ العَبَاءِ النَّضِيدْ

وَتَرْفُلُ فِي سُنْدُسٍ ضَاحِكٍ ـ تَرَنَّحَ مِنْ سَكْرَةٍ بِالنَّشِيدْ

إِذَا شِئْتَ (4) الخُلْدَ فِي مَجْدِهِ ـ فَخُذْ عَلَى الخُلْدِ ضَاحِي البُرُودْ

فَمَا هَزَّهُ لِلمُقَامِ الهَجِيرْ ـ سِوَى جَنَّةٍ فَوْقَ هَذَا الصَّعِيدْ (5)

---

(1) أحمد بن حنبل- المسند - ج4 ص133 134.

(2) تعليق في ديوان هكذا أغني - ص217 .

(3) أغاني الكوخ- ص99 .

(4) شامت: رأت.

(5) المصدر نفسه ص28 29 .

نرى بأن هذه الجنة الأرضية المهجورة قد هيأ لها الأنفس لتأملها وشوق إليها الأنظار بما منحها من صفات الجنة الموعودة حيث تطوف بها الرياض والظلال والرياحين والورود وتتوشى بالشعاع والطل وترفل في السندس وترنو إلى الخلد والخلود ... إلى صفات أخرى تتبين في ثنايا أبيات أخرى عندما يصف الزهر والطير والنهر بمظاهر جمالية أخرى .كما أنه ربط نعمة الجمال الظاهرة بنعمة أخرى غيبية لما جعل صورة الجمال الحاضرة حافزا إيمانيا لتلك الصور المتأملة في عالم الغيب التي وعد الله بها عباده ألا وهي الجنة لأن الجمال صفة من صفاتها ، وعلى الرغم مما يذكر عن جمال قصورها وخيامها وحورها وولدانها وأنهارها وأزهارها وثمارها،[1] فهي تبقى مثار تطلع لشوق روحي لأن فيها كما قال" رسول الله صلى الله عليه وسلم" << ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.>>[2] وإنما ربط الجمال بالجنة على الرغم مما نعرفه وما نجهله عنها لندرك جلال ذلك الجمال المثبت في الطبيعة وقدسيته .

وأراد أن ينبه إلى نعمة الله في الأرض بإمكان تحقيق صورة الجنة في طبيعة خالصة ، نقية بعيدا عن النفاق والزيف والصراع ... مادام هذا الجمال يوحي بالصدق والصفاء والبراءة حيث استحضر في إحدى قصائده سورة "الغاشية" التي تزخر بجمال ونعيم وصفاء وهناء الجنة ، وتحس بعض معاني هذه السورة وألفاظها وأنغامها التي يقول الله تعالى فيها : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ... ﴾[3] ويقترب الشاعر من هذه السورة القرآنية حينا ، ويبتعد عنها حينا آخر ببعض صوره المثالية والواقعية قائلا :

تَعَالَى نَطِرْ فِي سَمَاءِ الخَيَالِ ... وَنَهْفُ بِجَنَّتِهِ النَّائِيَةْ
بَعِيدًا عَنِ الكَوْنِ حَيْثُ المُنَى ... تَزَفُّ بِأَظْلَالِهِ هَانِيَةْ
وَحَيْثُ الشَّذَى مِنْ أَزَاهِيرِهِ ... أَفَاوِيحُ مِنْ حُلُمٍ طَافِيَةْ
وَنَبْرُ العَنَادَى عَنْ مَطَارِيبِهِ ... طُيُوفٌ عَلَى أَيْكَةٍ شَادِيَةْ
تُرَوِّحُ عَنَّا شُجُونَ الحَيَاةِ ... وَتُطْفِي لَظَى الكَبِدِ الوَارِيَةْ
هُنَالِكَ لَا أَدْمُعٌ ثَرَّةٌ ... تَهَاوَى وَلَا مُهْجَةٌ شَاكِيَةْ
وَلَا عَالَمٌ بِالأَذَى صَاخِبٌ ... وَدُنْيَا بِأَشْبَاحِهَا زَارِيَةْ
رَبِيعُ حَيَاةِ الهَوَى كُلُّهَا ... بِأَفْيَائِهِ البَرَّةِ السَّاجِيَةْ
فَهَيَّا نُهَلِّلُ فِي ظِلِّهَا ... فَنَطْفُو بِغُدْرَانِهَا الجَارِيَةْ

---

(1) انظر: عدنان النحوي- الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق- ص267 .

(2) العسقلاني-فتح الباري شرح صحيح البخاري-كتاب التوحيد- باب "يريدون أن يبدلوا كلام الله"-ح13-ص465 .

(3) الغاشية- 8-12 .

وَتَنْسَى الدُّنَا وَأَهَـاوِيـلَهَا - وَآلاَمَهَا المُرَّةِ الغَاشِيَـــةِ
وَتَفْنِي أَسَـــانَا بِأَنْدَائِيـــهَا - شُعَاعًا مَعَ النَّسْمَةِ الهَافِيَـةِ (1)

هذه الجنة التي ينشدها الشاعر بما فيها من صفاء وهدوء وحب ونور وحبور . هل هو هـروب من واقع اشتدّ تأزمه ، وثقلت أوزاره ورزياه وتشوهت صوره ؟ فنشدان هـذا الجـو الطبيعي بما يتسم من تنوع وثراء وجمال ، لا يعني الرفض السلبي التشاؤمي لما يراه ويعيشه،بل يعني البحث عن عالم جديد يعادل القيم المتردية في المجتمع ومحاولة لصنع أو إيجاد عالم آخر بعيدا عن البؤس والحزن والألم . فارتباط الجنة بالعالم الذي يحلم به الشاعر،ويتطلع إليه ليس عالما خياليا.لأن الخيال الشعري الذي يحاول أن يبني به عالمه الطبيعي ليس خيالا أسطوريا أو سرياليا ، إنما هو خيال استمده من عالم غيبي شدّه إليه إيمانه وأشواقه الروحية ، ولا يتمـاهى التخيل بقدر ما حاول إتمام نقائص هذا الواقع بعالم يؤمن به ويتمناه ألاوهي الجنة ، بكل ما تحمل من معطيات السعادة والجمال الممكنة الوجود في هذا الكون.ولأنه آمن بأن الجميل في هذه الطبيعة << هـو ذلـك الإبـداع الذي يتضمن قدرامن التناسب والتناظر والإحكام والإثـارة ... والـذي يبعث في النفس الدهشة والتحـاوب والإعجاب والانسجام ويمنحها قدرا من التوحد والتناغم والامتلاء ... ويمكنها من التجاوز الذي يرفعهـا فـوق مستويات الحزن والقهر والألم والتعاسة والقبح والفرق والشقاء.>>(2)

وتظل صورة الجنة تلهمه من فيضها الخالد وتمنحه رونق وجمال الكائنات والأشياء في الطبيعة بمر بالريحان(2) المخضر فيتذكر ريحان الجنة بعيدان زبرجدية،وبرود عسجدية وأكمام معنبرة:

وَكَأَنَّ الرَّيْحَانَ(3) مِنْ زَوْنَقِ الخُضْرَةِ - صِيغَتْ عِيدَانُهُ مِنْ زَبَرْجَـــدْ
ضَاعَ مِنْ كُمِّهِ العَبِيرُ كَـعَذَارَى - بَزَّهَا السَّهَرُ فَرَاحَـتْ تَنَهَّدْ
وَتَخَالُ الضُّحَى عَلَيْهِ بُـــرُودًا - فَصَلَتْ مِنْ سَنَا شُعَاعٍ عَسْجَدْ(4)

ويشدّه منظرالزهرة فتتراءى أمامه الجنة والروح والنور والطهر والحنان فهي تومض وشيا وتزخر فتنة وتبلغ هالات . كأنها نفحة من نفحات الخلد وعطرها عطر جنة يتراءى بوائح الأطياف والأحـلام ، ونداهـا نـدي يسكر الروح ويطهرالآثام والأرجاس ، وحنانها حنان يشع في الروح كما يشع نبراس في جنح الدجى فهو لـم يصف الزهرة وصفا ظاهريا لا يتعدى عرض لونها أو شكلها أو شذاها ، وإنما بث الحياة السامية فيهـا ، لمّـا امتزجت بروحه وكانت باعثا للإلهام والسكينة والطهارة والإيمان :

وَلِي زَهْرَةٌ طَيَّبَتْ مِنْ عِطْرِهَا دَمِي - وَضَمَّخَتْ رُوحِي مِنْ شَذَاهَا وَأَنْفَاسِي
مُكَلَّلَةٌ بِالنُّورِ تَحْسَبُ وَشْـــيَهَا - وَمِيضًا مِنَ الصَّهْبَاءِ يَشْرَقُ فِي كَأْسِ

---

(1) أغاني الكروح - 214-216.

(2) عماد الدين خليل - مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي - ص 9 .

(3) الريحان نبات ريحاني ذات طعم أو نكهة.

(4) أغاني الكروح - ص 97 98.

غَذَّاهَا السَّنَا مِنْ رَاحِ اللَّمْحِ فَاغْتَدَتْ تَبْلَجُ فِي هَالَاتِهَا فِتْنَةَ النَّاسِ
كَأَنِّي بِهَا تَنْفُخُ مِنَ الخُلْدِ رَوْحَتْ - أَفَاوِيحُهُ عَنِّي ضَنَى عُمْرِيَ الآسِي (1)
يُرَوِّحِي مِنْ أَنْفَاسِهَا عِطْرُ جَنَّةٍ - تَرَاءَتْ بِحُلْمِ رَائِعِ الطَّيْفِ مُبْتَاسِ
وَأَنْدَاءُ فَجْرٍ أَسْكَرَ الرَّوْحَ نَسْمُهُ - وَطَهَّرَ بِالأَعْطَارِ إِبْسِي وَأَرْجَاسِي
يُرَوِّحِي حَنَانٌ شَعَّ مِنْ حَبَبَاتِهَا - كَمَا فَاضَ فِي حُنْجِ الدُّجَى ضَوْءُ نِبْرَاسِ (2)

وكان لهذه النبتة الصغيرة عبقها الإيماني بأعطارها الطاهرة وأشكالها النورانية ، وأجوائها الروحية . واردادت قداسة وجمالا لما منحت الشاعر لحظات للسجود أمام بديع صنع الله ، وقد تعددت أجناس الزهور، وتنوعت مسمياتها ومناظرها . فعن زهرة القطن يقول :

يا عَرُوسًا لَمْ تُزَيِّنْهَا يَدٌ - غَيْرُ كَفِّ المُبْدِعِ الفَنِّ الفَتَّاحْ !
عَقَدَتْ إِكْلِيلَهَا مِنْ سَوْسَنٍ - بَاهِيَ الأَفْوَافِ ، تِبْرِيٌّ القِنَاعْ
يَسْجُدُ الشَّاعِرُ مِنْ فِتْنَتِهِ - سَجْدَةَ الفَنِّ زَهَا حُسْنًا وَرَاعْ !(3)

فكما منحه الجمال لحظات للسجود ، منحه لحظات أخرى للتسبيح بهذا الجمال ، وقد رأى فيه الإبداع والإتقان، وقاده في الأخير إلى الاقتراب من الله ، ورؤية صورة الله من خلاله فعن الزهرة أيضا يقول:

... فَفِيكِ الإِلَهُ الذِي أَعْبُدُ
وَفِيكِ الخَيَالُ الذِي أُنْشِدُ
وَفِيكِ الهَوَى وَالصِّبَا وَالغَدُ
... دَعِينِي أُسَبِّحُ بِهَذَا الجَمَالْ !(4)

كما استلهم للنهر المتدفق صورة من أنهار الجنة صورة السندس الأخضر والنخيل المثمر، وصفاء وعذوبة نهر الكوثر ، وخرير هازج منشد بألحان إلهية ، هي من وتر الخالق:

وَالشَّاطِئُ المَسْحُورِ مِنْ رَوْعَةٍ - يُسَبِّحُ فِي مَوْكِبِهِ الغَـــارِقِ
كَأَنَّ دُنْيَا المُنَى أَقْبَلَتْ - تَلْمَحُ فِي لَيْلِ الشَّجَى الغَـــايِقِ

---

(1) الآسي: الحزين .
(2) أغاني الكوخ- ص208-209 .
(3) المصدر نفسه- ص24 .
(4) أبي المقر- ص114.

تَمْتَعُ بِالجَـــنَّةِ مِـــنْ مَنْهَلٍ - صَافٍ كَرِيقِ الْكَوْثَرِ (1) الدَّافِقِ
يَنْسَابُ فَوْقَ التِّبْرِ فِي سُنْـدُسٍ - نَـضْرٍ وَنَـــخْلٍ مُثْمِرٍ بَاسِقِ
يَهْزِجُ فِي الوَادِي بِأُنْشُـــودَةٍ - أَلْحَانُهَا مِنْ وَتَـــرِ الخَالِقِ (2)

ويستوقفه جمال النهر مرة أخرى ويغمر كيانه الروحي " النيل " (3) فيشعر بالارتواء والنشوة والإلهام والإيمان أمام سحره وجمال وفيضه وأسراره التي تبعث على التغني والتكبير والذهول والاعتراف بالعجز البشري أمام عظمة الخالق :

يُسْتَمْتَعُ النِّيلُ وَهُوَ الَّذِي - يُنِيلُ وَيُشْفِي صَدَى الظَّامِئِينَ
سَقَى الدَّهْرُ مِنْ حَالِهِ فَارْتَوَى - وَرَوَّى بِخَمْـــرَتِهِ المُلْهِمِينَ
فَغَنَّى بِأَسْرَارِهِ الشَّاعِرُ
وَكَبَّرَ فِي شَطِّهِ الكَـــافِرُ
وَخَرَّ لَهُ السِّحْرُ وَالسَّاحِرُ (4)

2- الحركة والسكون :

وتمضي الشاعر في تحليل أسرار الجمال الذي يبدو سافرا للأبصار منتشرا في كل مكان وزمان ولعل أجمل المناظر الطبيعية التي استوقفته طويلا هي تلك المناظر التي يتعاقب عليها الليل والنهار بلحظات الشروق والغروب ، وبإشعاعات الشمس والقمر والنجوم ، وبآيات النعمة الرحمة والخير ... وقد قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ . فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾(5) وقال ايضا ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.﴾(6)

فاقتران النهار بالازدهار والحركة واليقظة والحياة والليل بالصمت والهجوع والسكون والاطمئنان جعلت الشاعر يستشعر من هذا الاختلاف الطبيعي بينهما بديع صنع الله ، ويستشف منهما أجلّ المعاني الدالة على

---

(1) الكوثر: ذهب المفسرون على أنه نهر بالجنة.

(2) أغاني الكوخ- ص53-54 .

(3) النيل: أشهر نهر في الوطن العربي، له آثار دينية وتاريخية وجغرافية واقتصادية وفنية وأدبية. غمره الفنانون والشعراء بإبداعاتهم. انظر د/ نعمات أحمد فؤاد- النيل في الأدب المصري- دار المعارف- مصر-1962م.

(4) أبي المهر- ص57 .

(5) الإسراء- 12 .

(6) يونس- 67 .

وحدانيته وقدرته. إن منظر الغروب والليل التي تسهم في تكوينه تلاشي الشمس الوانية وحمرة الشفق ، وجلال الجبال ، وسنا النجوم لهي لوحة نادرة حقا ! تلقى في القلوب والعقول رعشة الجلال والجمال وهزة الغبطة والإيمان (1).

وهذه الحقائق الكونية التي لم يشعر بها الشعراء كبدر شاكر السياب الذي لم نجد في تلك الرواسي مثلا، أي معنى إلا الصمم والجمود، يقول :

تِلْكَ الرَّوَاسِي كَمْ أَحَطَّ النَّهَارُ لَهَا عَلَى - أَقْصَى ذُرَاهَا وَكَمْ مَرَّتْ بِهَا الظُّلَمْ
فَمَا فَرِحْنَ بِآلافِ الشُّمُوسِ، وَلاَ - مِنْ أَلْفِ نَجْمٍ تَرَدَّى مَسَّهَا أَلَمْ
صَمَّاءُ، بَكْمَاءُ. لَمْ تَأْخُذْهَا وَلاَ هَبَّةٌ - وَلاَ تَرَصَّدَهَا مُوْتٌ وَلاَ هَرَمْ(2)

وفي قصيدة الشاعر " القرية الهاجعة في ظل القمر " ترتدي الطبيعة ثوب الليل الهادئ المضيء بالقمر اللامع بوجناته الزاهية،وتشرق أمواج النور في ترابها،وتهمس الأحلام والرؤى بشتى المعاني الخفية،وتغرق الروح في جلال هذاالجمال :

لَفَّهَا اللَّيْلُ فَاسْتَرَاحَتْ مِنَ الأَيْـ - ـنِ عَلَى حُضْنِهِ الرَّفِيقِ الْهَنِيءْ
وَسَدَتْهَا الأَضْوَاءُ مِنْ لَمْحِهَا الغَـ - ـوَّاصِ وَسَادَ الطَّبِيعَةِ العَبْقَرِيّْ
وَحَيَتْهَا الْمِهَادُ مَوْجَةُ نُـ - ـورٍ أَشْرَقَتْ فِي تُرْبِهَا الْقُرْمُزِيّْ
لَمَعَاتٌ مِنْ وَحْنَةِ الْقَمَرِ الزَّاهِـ - ـي وَفَيْضٌ مِنْ نَعْرِهِ الْعَسْجَدِيّْ
غَرَقَتْ فِي جَلاَلِهِ الرُّوحُ سَكْرَى - مِنْ طَلاَ جَامِهِ الوَضِيءِ الشَّهِيّْ
تَنْهَلُ الْحُلْمَ مِنْ رُؤَى تَتَحَلَّى - هَامِسَاتٍ بِكُلِّ مَعْنًى خَفِيّْ(3)

وغرقت روح الشاعر في جلال هذا الجمال ، وفيه ما يبهر العقول،ويرشد العقول،ويسوق الإيمان لكل ملحد جاحد غوي.كما كشفت تلك المعاني الخفية عن قدرة الله ومعجزاته ، وفن السماء الأزلي :

صَدَحَتْ بِالْجَلاَلِ فِي صَمْتِهَا السَّاجِي - لِيَبْتَرَ مُحْتَجَّ أَرْلِيّْ
بُهْرَةٌ لِلْعُقُولِ تُمْلِي عَلَى الكَوْنِ - نِدَاءَ الطَّبِيعَةِ الْعُلْوِيّْ
تُلْهِمُ الرُّشْدَ لِلضَّلُولِ وَتُلْقِي - مُعْجِزَاتِ الْهُدَى لِكُلِّ غَوِيّْ
وَتَسُوقُ الإِيمَانَ لِلْجَاحِدِ الغَا - وِي فَتَنْضُو مِنْ قَلْبِهِ كُلَّ غَيّْ

---

(1) انظر- عماد الدين خليل- الطبيعة في النص العربي الإسلامي- ص46.

(2) انظر- المرجع نفسه - ص 46.

(3) أغاني الكوخ- ص60-61.

فَضَحَتْ كُلَّ مُلْحِدٍ حِينَ أَضْفَتْ - قُدْرَةُ اللَّهِ مِنْ سَنَاهَا الْعَلِيِّ !
هِيَ فَنُّ السَّمَاءِ لاَحَ عَلَى الأَرْضِ - يَلُوحُ مُسْتَمَدٍّ مُوشِيٍّ (1)

وبعد أن أخذ الشاعر من الليل روعته وسكونه وجلاله . استجلى ملامح الفجر ، وقد مزق سدوله صوت المؤذن ، معطرا الفضاء بالتكبير والابتهال ، وسرى النور يعلن الإشراقة الأولى للكون ، وبداية انبعاث الحياة لدى كل الكائنات . وراح يدعو نفسه ككل مرة للتأمل والتدبر والاعتبار أمام لوحة الفجر الكونية لترى محاريب الجمال وتسابيح الجلال وترى سحر الكون ، سحرا وفتونا وصلاة وابتهالا:

وَإِذَا مَا الْفَجْرُ أَضْفَى نُورَهُ فَوْقَ التِّلاَلِ
وَرَكَتْ مِقْدَنَةُ النَّاعِيكِ مِنْ عِطْرِ الهِلاَلِ
وَإِلَى اللَّهِ رَغَا الدَّاعِي بِطُهْرٍ وَابْتِهَالِ
وَأَفَاقَ الدِّيكُ يَنْعَى حَلْفَ تَابُوتِ اللَّيَالِي
وَانْتَشَى الْوَادِي مِنَ النَّوْرِ وَصَهْبَاءِ الظِّلاَلِ
وَمَضَى الرَّاعِي إِلَى دُنْيَاهُ فِي سَفْحِ الجِبَالِ
وَاخْتَسَى الْعُصْفُورُ فِي الرَّوْضِ عَبِيرَ الْبُرْتُقَالِ
وَتَنَاغَى هَزَجُ النَّحْلِ بِأَفْيَاءِ الدَّوَالِي
وَغَدَا النَّهْرُ هَوَى يَجْرِي عَلَى صَدْرِ الرِّمَالِ
فَانْظُرِي تِلْكَ الْقَرَابِينُ بِمِحْرَابِ الجَمَالِ
تُسْكِرُ الدُّنْيَا لِمَرْآكِ تَسَابِيحُ الجَلاَلِ
وَتَرَيْنَ السِّحْرَ سِحْرَ الْكَوْنِ يَفْنَى فِي خَيَالِي
أَنْتَ سِحْرِي وَفُتُونِي وَصَلاَتِي وَابْتِهَالِي (2)

ويكبر إحساس الشاعر بالجمال الممزوج بالحياة والعبادة فراح يتتبع بعض كائنات وعناصر الطبيعة ، كيف بدأت تتحرك وتتفاعل،ويعتريها الإحساس بالتألق والزينة.فيمد الحسن أزهار الأقحوان بالعطر الذي اختلسه من جيوب العذارى ومن ريقهن يفجر الكوثر العذب في الثرى.وتبدو على الزهر والفول والسنبل والنخل مظاهر الانتعاش والارتواء والشمالة والنشوة والطهر والسجود :

طَلَعَ الْحُسْنُ فِي ثَرَى الرِّيفِ رَوْضًا
حَالِي الأَيْكِ بِالأَزَاهِرِ وَالنَّدْ

---

(1) أغاني الكروح- ص64

(2) قاب قوسين- ص164-165.

تَرَقَ العِطْرُ مِنْ جُيوبِ العَذَارَى
وَحَيَاةً لِلأُقْحُوَانِ المُنَضَّدْ
وَسَطَا فِي ثُغُورِهِنَّ فَأَحْرَى
كَوَتْرِ الرَّبِيعِ فِي ثَرَاهُ المُعَبَّدْ
ثَمِلَ النَّبْتُ مِنْ طِلاَّهَا فَرَقَّتْ
كُلُّ مَيَّاسَةٍ بِهِ تَتَأَوَّدْ
فَهُنَا السُّنْبُلُ المُرَنَّحُ يَهْفُو
فِي مَهَبِّ النَّسِيمِ حِينًا وَيَسْجُدْ
وَقُدُودُ النَّخِيلِ قَامَاتُ غِيدٍ
سَاكِرَاتٌ مِنْ حَمْزَةِ الطَّلِّ صَيِّدْ
وَهُنَا الفُولُ أَبْيَضُ الزَّهْرِ نَضْرٌ
كَسُدُولِ العَفَافِ لاَحَتْ بِمَشْهَدْ (1)

وفي مشهد مشابه له تبدو خصائص الجمال والفرحة والعبادة على بعض أشياء الطبيعة المحسوسة والمعنوية . فالزهر الخاشع،والنسيم الندي ، والصبا اللاثم ، والأكمام المنتشية ، والعبير الخافق،كلها تجاوبت مع بعضها بتأثير البعض في البعض الآخر ومنحت كل تلك العناصر صورة جمالية حية ممزوجة بالخشوع والغبطة والوداعة والبراءة والصبا :

خَشَعَ الزَّهْرُ فِي نَوَاحِيهِ رَيَّانَ - رَطِيبًا مِنَ النَّسِيمِ النَّدِي
لَثَمَتْهُ الصَّبَا فَهَزَّ مِنَ النَّشْوَةِ - أَكْمَامَ كَأْسِهِ العِطْرِي
وَأَذَاعَ العَبِيرَ يَخْفِقُ فِي الحَقْلِ - بِنَفْحٍ مُطَيِّبٍ مِسْكِي
سَارَ فِي خَاطِرِ الرُّبَى وَادِعَ - الأَنْفَاسِ يَحْكِي تَنَهُّدَاتِ الصَّبِيِّ (2)

وفي مشهد آخر التقط الشاعر من أحواء تلك الرياض أسرار نمو وتحرك وتكامل كائناتها وعناصرها . وصور حياتية من التحارب والتناغم والتعاطف بينها . حيث يداعب النسيم أعطاف بعض أزاهير الربى من فل وبنات أقاح ، ويعطف عليها الجدول الرقراق ، فتتفتق ألوانها ، وترف نعومة ، وينتشر طيبها وعطرها مضمخا النجود . وتتلاقى وتتجاوب العصافير والنحل والفراش في موكب الطبيعة الزاهية :

---

(1) أغاني الكوخ- ص96-97 .

(2) المصدر نفسه- ص65 .

وَرَيْـــانَةٍ فَـــوْقَ حَـــدِّ الرُّبَى - تَـــــرَعْرَعُ مِنْ عُجْبِهَا أَوْ تَمِيدْ
إِذَا دَاعَبَ النَّسِيمُ أَعْطَافَهَا - تَـــفَتَّقَ عَنْ لُؤْلُؤٍ فِي الـــخُدُودْ
مِنَ الفُلِّ أَوْ مِنْ بَنَـــاتِ الأَقَاحِ - تُضَمِّخُ بِالطِّيبِ جِيبَ النُّحُودْ
تَرَفْرَقَ فِي مَهْدِهَا جَـــــدْوَلٌ - عَطُوفٌ عَلَى الزَّهْرِ عَذْبٌ بَرُودْ
تَسَلْسَلَ مِنْ نِيلِهِ كَالأَمَانِـــــي - تَرُفُّ عَلَى نَاعِمَاتِ الـــهُجُودْ
سَمِيرُ العَصَافِيرُ لاَ يَأْتَـــــلِي - يُجَاوِبُ تَغْرِيدَهَا بِالنَّـــــشِيدْ
وَيَخْلُو مَعَ النَّحْلِ فِي رَبْـــــوَةٍ - مُنَغَّمَةِ الصَّوْتِ مِنْ غَيْرِ عُـــودْ
تَرُفُّ الفَرَاشَةُ فِي حَـــــوْضَةٍ - رَفِيفَ المُنَى فِي خَيَالِي السُّعُـــودْ
غُيُومٌ فِي مَوْكِبٍ رَاخِـــــــرٍ - مِنَ الضَّوْءِ غَشَّى عَلَيْهِ الهُـــمُودْ
تَرَاهَا وَقَدْ كُلِّلَتْ بِالضِّـــــيَاءِ - عَرُوسًا تُزَفُّ لِـــــزَاهِي الوُرُودْ (1)

وتكثر المشاهد الطبيعية التي تخلق هذا النموذج الجمالي الفذ ، الذي يبث روح الحياة في تضاعيف الطبيعة بأصغر جزئياتها وكائناتها . ويخلق كونا يوحي بالحكمة والقدرة . وجمالا يجعل لهذا الكون قيمة وغاية . بابتعادة عن المشاهد الزائفة والعابثة ، والجامدة والعمياء . وارتباطه بالحب والصفاء ، والطهر والبراءة، والسجود والخشوع ، والحق والنور ، والجنة والغيب والأزل . وارتباطه في نهاية المطاف بالله خالق هذا الكون بقيمه وجماله .

3- الطهر والسمو :

ومن خلال تحسس الشاعر لجمال الكون في سموه وطهره ، استطاع أن يصل إلى الجمال الإلهي هذا الجمال الممتد في الكون كلّه ، في السموات والأرض ، والحياة والإنسان ، والدنيا والآخرة ، والعصور والآباد، وعالم الغيب والشهادة ... هذا الجمال صفة الله سبحانه وتعالى ، يتطلع إليه المؤمنون بحقيقة الوعي والإدراك والإيمان لا بحقيقة السكر والغيبوبة المرتبطة بالمبدأ الصوفي.(2) وقصيدة " صلاة الجمال " تصور افتتان الشاعر بالجمال اللامتناهي المنثور في الكون في قالب متنوع الصور والنغم:

... وَالضُّحَى وَالغُرُوبْ - وَالرُّبَى وَالقُنَنْ
- وَاخْتِلاَجِ الظِّلاَلْ
- وَانْسِلاَخِ الزَّمَانْ
- كُلُّهَا أَيْنَ مَـــانْ

---

(1) أغاني الكوخ ص 31-32 .

(2) انظر عبدالله الطحاوي الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق ص 266 267 .

- واعْتِلاَجِ الرِّمَـالْ
- كُلُّهَا أَيْنَ مَـــالْ
مُـــنْخَدَعٌ لِلْجَـــمَالْ - عَبْقَرِيُّ الشَّكَنْ (1)

ويشعر بقدسية هذا الجمال متحاوبا مع الإيمان متناسقا مع الطهر متساميا به عن أي جمال ظاهري زائف زائل،مشوه بالرياء والغرور والضلال والباطل. ليظل الجمال الإلهي فائضا على الكون،مشعا في كل ماهو موجود ،مصدره الحق والكمال :

- ذُقْتُ سِرَّ الرَّحِيقْ
- وَعَرَفْتُ الطَّرِيقْ
لِلْجَمَـــالِ المُفَيَّقْ - مِنْ سُبَاتِ الغُرُورْ
لاَ تَقُلْ كَيْفَ كَانْ- وَتَلاَشَى الضِّيَاءْ
كُلَّـــــهَا لِلزَّمَانْ -أَوْجُهٌ كَالرِّيَاءْ
كَمْ ظَلاَمٍ مُـــتَهَانْ - وَهُوَ عَاتِي الخَفَاءْ
وَضِيَاءٍ مُـــعَانْ - بِاللَّظَى وَالدِّمَاءْ
لَوْنُهُ يَـــــدَانِ - تَمْتَهِلاَنِ الحَيَاءْ
- وَجَمَالُ الحَيَاةِ
- شَاطِئٌ لاَ نَرَاهُ
- بَثَّ فِيهِ الإِلَهُ
كُلُّ سِحْرٍ طَـــوَاهُ -غَيْرَ هَذَا الظَّلاَمْ !!(2)

فالجمال الإلهي إذن هو ذلك الشاطئ الغيبي الذي بث فيه الله كل سحر خفي ، وهو جمال ثابت خالد . لاينتهي بانتهاء كل الكائنات والمحسوسات والجمادات . جمال لا ضفاف له ، يشب في كل زمان ومكان، ويظل وجه الله الخالد صورة الجمال المطلق الذي يرنو إليه الشاعر:

رَبِّ سِحْرُ الجَمَالْ - شَبَّ فِي جَانِبَيَّ
أَيْنَمَا مِلْتُ مَـــالْ - بِلَظَاهُ العَتِي
فَطَلَبْتُ المُحَـــالْ - مِنْ زَمَانِ الشَّقِي
وَصَحِبْتُ الخَيَـــالْ - فِي الضُّحَى وَالعَشِي
وَإِذَا بِالـــــتِمَالْ - حَفْنَةٌ فِي يَدِيَّ

---

(1) قاب قوسين- ص136-137.

(2) المصدر نفسه ص138 139.

المبحث الثاني
عبادة الكون

1- صورة العبادة في الليل.

2- صورة العبادة في النهار.

3- خلوص الكون إلى الله.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- مِنْ رُفَاتِ الظُّنُونْ
وَهَشِيمِ الغُصُونْ
— رَبِّ مَهْمَا تَمَضِّي السِّنُونْ
وَلْيَكُنْ مَا يَكُونْ- حِينَ تَرْنُو إِلَيَّ (1)

لم يبق للشاعر في النهاية إلا أن يؤمن برؤية وجهه تعالى . فرؤية المؤمنين لله عز وجل ستكون في يوم ناضر ، خالد . يوم تعجز الكلمات عن تصويره ، ويعجز الإدراك عن تصوره بكل حقيقته ، ولكن أكده القرآن ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ.﴾(2) وفي هذه المرحلة الجديدة من مراحل التأمل والاستشفاف عند الشاعر نراه يتخلص من جمال الجسد وجمال الطبيعة إلى طلب الجمال الأعلى.<< ذلك الجمال الذي يمد كل جميل في الحياة، بإشراقة نوره ونفح عبيره ، فهو متطلع دائما إلى الذرا العالية ، وهو مشتاق إلى التجلي الإلهي من وجه الله كما تجلى رب موسى للجبل، وقد كان تجليّ الإله للجبل قوة لم يحتملها ذلك المارد ،الأصم،الوقور على ظهر الفلاة ... فهل يطيق شاعرنا أن يتجلى الله له ، أو يرنو إليه ؟! لقد ألح صاحبنا في طلب ذلك وليكن بعدها ما يكون !.>>(3)

---

(1) قاب قوسين - ص142.

(2) القيامة- 22-23 .

(3) محمد عبد العني حسن : قاب قوسين مجلة تجليات العرفان ع19 ص20.

الكون خليقة حية ذات روح تختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن ولكنها في حقيقتها واحدة حركة هذه الروح التي تمثلها القرآن في آيات كثيرة ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾(1) ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾(2) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾(2) في هذه الآيات تبدو دعوة القرآن صريحة للنظر في خلق السموات والأرض وهم يسبحون لله . وتبدو الذات الإلهية متفردة بالعبادة والقدرة وكل ما في الوجود ظاهره وخفيه يتجه إليها في تسبيحه شاملة تشترك فيها الأشياء والأحياء، ويبدو الكون خاشعا متجها إلى خالقه مسبحا بحمده قائما بطاعته وولائه وصلاته .

<<وإنه لمشهد كوني فريد حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر كل حبة، كل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة،كل حيوان وكل إنسان، كل دابة في الأرض،وكل سابحة في الماء والهواء،ومعها سكان السماء كلها تسبح الله، وتتوجه إلى علاه>> (3)

و<< تأمل هذه الحقيقة ومتابعة الكون في عبادته وتسبيحه ، تمنح القلب البشري متاعا عجيبا، وهويشعر بكل ما حوله حيا يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه ، وهو في وقفته بين أرواح الأشياء كلها ، وهي تدب فيها جميعا وتخيلها إخوانا له ورفقاء !>>(5).

ومن هذه الحقيقة تتكون الرؤية الكونية التي لا تحيد عن معاني هذه الآيات ، وتشعر بعبادة الكون ، ويبض روحه ،وهو يتوجه إلى الله بكل كائناته وأجزائه ، وحركاته وسكناته . وتدرك أن الكل يسبح بطريقته ولغته، وتنجذب كل ذرة من ذرات هذا الكون إلى نواميس هي من خالق ومدبر هذا الكون .

وشَعَرَ محمودحسن إسماعيل بصفاء روحه وشفافيتها ، فأدرك هذه الرؤية بصدق وعمق ، وتراءت له آفاق روحية مشرقة فارتادها ليرى حياة وروح هذا الكون وتوجهه إلى خالقه بهذا التسبيح والصلاة وهذاالكون الداخل في صلاة وتعبد لم يفرد له قصائد مستقلة،بل بث هذه الصور المتحركة الشاخصة في ثنايا قصائده، فجاءت بيتا أو بيتين،أو صورة أو لوحة واحدة منفردة .

ولعل اللحظات التي كانت تمنحه هذا الشعور الإيماني وتملأ قلبه بفيض غامر من الشعور بوجود الله هي لحظات الشروق والغروب حيث يؤوب برصيد من التأمل والتدبر والنظر في المشارق والمغارب ويزداد شعوري تفيض به جوانحه وتذخره روحه(6). وقد قال تعالى في ذلك ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾(7).

---

(1) الرحمان-6 .

(2) الإسراء-44.

(3) النور- 41.

(4) في ظلال القرآن- ج27- ص2230-2231 .

(5) المرجع نفسه-ص3449 .

(6) المرجع نفسه ص3452 .

(7) الرحمان 17 .

في هذين الزمنين يمتد به النظر في هذه الآفاق ليرى ويشعر بأن الله هناك عند تحرك الكون بعناصره وموادد بالحياة والجمال والجلال والعبادة. فعند الإشراق تبدأ الحياة ، ويشعر كل ما في الكون بالحركة والفرحة والطهارة والبراءة والنور والدفء والقوة والوداعة ، ويشعر بتلك النعم والقيم فتبدو عليه مسحة الإيمان والخشوع والسجود والتسبيح لله. وعند الغروب يشعر الكون بالليل والصمت والهجوع ، فتبدو على كائناته وإيقاعاته هيئة وخفقة الزاهد أو الناسك أوالمتصوف في لحظات طويلة من التأمل والتعبد. ويصطفي الشاعر من عناصر الكون وموادد أبرزها أثرا في الوجود ليستمع إلى تسبيحها ودعائها ، ويرى سجودها وخشوعهاويتتبع حركاتها وسكناتها مع الضحى والأصيل ، والشروق والغروب ، والنهار والليل.

1-صورة العبادة في الليل :

تمتد لحظات الشاعر الروحية في الليل فيلبسه الإحساس الروحي على الرغم من الوحشة والظلام والسكون واستبهام الأشياء والكائنات وتبدو الأسرار الليلية الجميلة لما تهتز روح الطبيعة العميقة ، وتتحرك خشوعا وسجودا وتسبيحا وصلاة ... ويمتد الليل بصور العظمة والجلال والحكمة والقدرة لا بصور الخوف والرعب والشر وتعتري الشاعر حالته الروحية ليستكين فيها هادئا وادعا متأملا ، راجعا إلى نفسه تارة وإلى الكون تارة أخرى .

وتشده أشجار النخيل بالخصوص ، وكذا أشجار السدر والدوم والدوح، التي تتجلى في النهار برونق خضرتها ، وكثافة أغصانها وأوراقها وطول فروعها وذوائبها . وعندما يخيم الليل بظلامه وصمته وسكونه يتراءى جمالها أمام الشاعر صادحا بالجلال حيث تتنحى وترتدي صفات وأردية المتصوفة والزهاد والرهبان والعذارى.تتأمل وتتعبد وتتفكر في الله باحثة عن إشعاعات نورانية تبعثها أنوار الأقمار والنجوم فتهفو بلهفتها ونشوتها نحو ذلك النور ، ويزداد نجواها وهيامها به وهو يمتد إلى وميض قصي وفيض حي ، هو في الحقيقة النور الإلهي :

لاَحَ فِيهِ خَيَالُهَا خَطَافِقَ السَّرَابِ - كَطَيْفٍ فِي خَاطِرِ الصُّوفِيِّ
وَصَفَى السِّدْرُ(1) لِلسُّكُونِ كَرُهْبَانٍ - أَصَاخُوا فِي مَعْبَدٍ قُدْسِيِّ
لَفَّتْهُ الأَنْوَارُ مِنْ بُرْدِهَا الشَّاحِي - بِثَوْبٍ مِنَ السَّنَا مَوْشِيِّ
وَرَنَا الدَّوْمُ (2) لِلشُّعَاعِ كَمَلْهُوفٍ - صَبَا إِلَى نَهْرِهِ الفَيَّاضِ
فَاسْتَطَالَتْ سِيقَانُهُ تَقْتُلُ الشَّجْوَى - وَتَهْفُو إِلَى الوَمِيضِ الخَفِيِّ
كَعَذَارَى سَجَنَّ فِي جُنَّةِ النُّورِ - هُيَامًا بِفَيْضِهِ اللَّجِّيِّ (3)

---

(1) السدر: ويسمى بشجر النبق، منها سدرة المنتهى وبقال هي شجرة تنبت على يمين العرش.

(2) الدوم: شجر ضخم من فصيلة النخيليات، ينمو في الجزيرة العربية ومصر والسودان

(3) أغاني الكوخ ص62.

وفي موضع آخر يقول :

وَأَطْرَقَتْ نَسْمَةٌ فَامَتْ بِتَيْلَغَتِهِ - كَأَنَّهَا زَاهِدٌ فِي اللَّهِ يَفْتَكِرُ
إِنْ هَفَّ نَسْمٌ بِهَا يَحِلَّتْ ذَوَائِبَهَا - أَنَامِلاً مُرْعَشَاتٍ هَزَّهَا الكِبَرُ
الرُّوحُ (1) نَشْوَانُ فَاخْشَعْ إِنْ مَرَرْتَ بِهِ - فَضِيقُهُ البَاطِشَانِ اللَّيْلُ وَالقَدَرُ (2)

وسرى مع الليل يستشعر إيمان وسجود وتسبيح الكائنات والموجودات لله عز وجل.وشده النهر بما يحمله من رموز عميقة من الطبيعة والتاريخ والدين.، حيث رآه يسبح في السكون والصمت،تحوم فوقه الأحلام والأسرار.فشعر برهبته وقوته وصمته وامتداده،وأوحى له بصوت الروح العميق وأسرار الغيب المغلقة وصدى الغيب،إلا أن هذا الوحي الشعوري لم يستبد به القلق والأرق لأنه شعر بوداعته وطهره وخشوعه وتسبيحه أمام قدرة الله العظمى في الخلق المعجز.وألبسه صورة جميلة نادرة ، صورة مصحف مفتوح تتراءى فيه آيات الله لتعظم صورة النهر مرة أخرى،وتبقى صورة معجزة من الغيب يقول :

ذَهَبْتُ لَهُ وَالأَنْجُمُ البِيضُ حُوَّمٌ - عَلَى غَمْرِهِ كَالطَّيْرِ تَحْسُو وَتَرْشِفُ
لَهَا رَعْشَةٌ مَسْحُورَةٌ فِي عُبَابِهِ - وَهَمْسُ حَدِيثٍ فِي الحَنَايَا مُرَفْرِفُ
فَكَيْفَ تَغَشَّاهُ الكَرَى وَسَحَابِهِ - وَسَجَّادُهُ فِي الأَحْلَامِ سِرٌّ مُغَلَّفُ
خُشُوعٌ وَتَسْبِيحٌ وَطُهْرٌ كَأَنَّهُ - بِكَفِّ اللَّيَالِي أَوْ بِكَفَّيْ مُصْحَفُ
وَصَمْتٌ عَلَى الشَّطَّيْنِ أَسْمَعُ خَلْفَهُ - صَدَى الأَبَدِ المَكْتُومِ لِلرُّوحِ يَعْزِفُ
فَيَا نِيلُ كَاشِفْنِي السَّرِيرَةَ وَاسْقِنِي - مِنَ الغَيْبِ سُلْوَانِي إِذَا كُنْتَ تَعْرِفُ (3)

وفي مشهد ليلي آخر يتراجع الشاعر عن لهفته نحو الغيب عائدا إلى واقعه الإيماني،ليصور النهر ذلك التصوير الرائع للتطهر والتعبد.فهو ذلك الكائن المؤمن الذي يمنح المؤمنين أمواجه الطاهرة الصافية،ويؤمن معهم ويشاركهم الهدوء والصمت والوضوء والصلاة والعبادة:

... وَالمَوْجُ فَوْقَ صَدْرِهِ صَلاَةْ
حِينَ تَنَامُ الرِّيحْ
وَالمَوْجُ يَسْتَرِيحْ
أَقْدَاحُهُ وُضُوءْ
لِلصَّمْتِ وَالهُدُوءْ
أَمْوَاجُهُ سَجَّادَةْ
لِلطُّهْرِ وَالعِبَادَةْ

---

(1) الروح: ج. روحة،شجر عظام مستقيم.

(2) أنين المطر - ص 89.

(3) قالت فيروز - ص 176 178.

كُلٌّ رَوَّاهُ حُبٌّ

وَمَعْبُدٌ وَرَبٌّ (1)

2-صورة العبادة في النهار :

وتنكشف أعماق الشاعر المؤمنة أمام إتمام الليل بإلقاء زيته النورانية ليشعر بالفجر << في ذلك الغبش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعورا نديا كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ، ليتنفس من يبس ، ويرق من غلظة ، وكأنما جاءوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءً بالرحمة مفتتحا بالجمال فإذا كان شاعر النفس التقى فيه نور السماوي بالنور الإنساني،فإذا هو يتلألأ في روحه تحت الفجر>>.(2)

وتتدفق روحية الكون ويهتز الجو بطيوف شعرية هفافة بذلك الصوت العميق الذي يهتف في صمت السحر من القباب والمآذن.ويشق سدفة الليل بصوت << على ترتيب عجيب في نغماته يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة.ويضطرب اضطرابا روحانيا كالحزن اعتراه الفرح على فجأة يصيح الصيحة تسترجع في الجو وفي النفس وتتردد في المكان وفي القلب ويتحول بها الكلام الإلهي إلى شيء حقيقي ... يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم. واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى في كلامه ، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضيء من هذا النور.>>(3).

وراح ينصت لصوت المؤذن وقد لقبه بشاعر الفجر ويتأمل صوته المنبعث من سدرة المنتهى بجليل الصور، عف الترانيم،معتبر اللحن،من ثغره ينساب بالطهر والتقى.ويتأمل شعور الكون بهذا الصوت الإلهي الذي أترعه بالطهر والإيمان وأذان الفجر معاني شعرية ساحرة :

وَشَاعِرِ الفَجْرِ يَسْبِي النُّهَى - بِسَوْرَةٍ جَلَّتْ عَنِ المَآثِمِ

خَيَالُهُ مِنْ سِدْرَةِ المُنْتَهَى - وَلَحْنُهُ مِنْ وَتَرِ الأَنْجُمِ

عَفُّ التَّرَانِيمِ .... إِذَا نَغَّمَا - كَادَتْ تُضِيءُ الطُّهْرَ فَوْقَ الفَمِ

مُعْتَبِرُ اللَّحْنِ إِذَا مَا شَدَا - وَرَجَّعَ الأَنْغَامَ فِي فَجْرِهِ

تَخَالُهُ مُجْمِرَةً وَالصَّدَى - فَوْحُ التُّقَى يَنْسَابُ مِنْ ثَغْرِهِ

وَسَائِرَ الكَوْنِ لَهُ مَعْبَدًا - أَتْرَعَهُ الإِيمَانُ مِنْ طُهْرِهِ (4)

وهلل الكون فرحا بذلك الصوت، فهذه النجوم سبحة من حبات نور جوهرها الله ، وهذه الطيور البيضاء المرفرفة تعانق التسبيح المنبعث من المسجد وحتى سبحة المؤذن غدت ناسكة في يده متشوقة ضمآن إلى الإيمان،

---

(1) نهر الحقيقة- ص116-117.

(2) الرافعي وحي القلم ج3 ص 29.

(3) المرجع نفسه ص30 31.

(4) أحلى الكلام ص 166 167.

وامتد هذا الصوت إلى السماء،وصعد إلى سدرة الله،وحوم في قدسه،وارتوى من منبع رحمته :

تِلْكَ النَّحُومُ الغُرُّ لَمَّـــا زَارَنَا - وَطَنَّيْرِ النَّـــجْوَى لَهَا نَغْمَةْ

حَبَّاتُ نُورٍ ضَافِيَاتٌ (1)، السَّنَا - حَـــوَّهَرَهَا اللَّهُ لَهُ سُبْـــحَةْ

وَقَالَ: يَا هَتَّافُ إِنِّي هُنَـــا - أَسْمَعُهَا مِنْكَ مُنَى عَـــذْبَةْ ...

جَنَّحْتُهَا بِالطُّهْرِ حَتَّى غَـــدَتْ - أَزْكَى مِنَ الزَّهْرِ غَذَتْهُ النَّطَفْ

رَيَّانَةَ الأَصْدَاءِ إِمَّا شَـــدَتْ - جَلَّى لَهَاالعَرْشُ رَجِيَّ السُّجُفْ (2)

فَحَوَّمَتْ فِي قُدْسِهِ وَارْتَـــوَتْ - مِنْ مَنْبَعِ الرَّحْمَةِ عَذْبِ الرَّشَفْ (3)

ويصاحب هذه اللحظات الفجرية كائن لا يتأخر ولا يتواني عند كل فجر عن أداء عبادته،وعن مباركة النور.فما يكاد يسمع صوت المؤذن إن لم يسبقه بسر صوته،حتى يخف بالتهليل والتكبير والترتيل. إنه طائر لا ندرك سر حكمته إلا عند كل فجر إذ يقول عنه :

وَالدِّيكُ لَمَّا رَنَّ فِي سَطْحِهِ - صَوْتُ نَبِيِّ اللَّحْنِ رَاعِي النَّغَمْ

كَبَّرَ حَتَّى خَفَّ مِنْ صَدْحِهِ - مَـــنْ نَامَ فِي الكُوخِ وَمَنْ لَمْ يَنِمْ

وَرَتَّلَ الأَنْغَامَ فِي صَبْـــحِهِ - يُطْرِي بِهَا النُّورَ وَيَمْحُو الظُّلَمْ (4)

وفي موضع آخر يصف الشاعر صوت الديك بأرجوزة كونية تواكب سير الدجى والإصباح وسيرة الدهر والملإ في لحظات من الحكمة والعبرة :

يُلْقِي عَلَيْهِ الدِّيكُ أُرْجُوزَةً(5) - غَنَّى بِهَا إِصْبَاحُهُ الشَّافِـــرُ

كَأَنَّهُ يُنْعِي تَمَاتَ الـــدُّجَى - وَنَـــعْشُهُ فَوْقَ الرُّبَى سَائِـــرُ

أَوْ أَنَّهُ يَشْدُو لِعُرْسِ السَّـــنَا - وَنُورُهَا ضَافٍ وَالثَّبَا طَافِرُ(6)

أَوْ أَنَّهُ يَسْمَعُ رَكْبَ المَـــلَا - كَذَا يُذَيِّلُ الأَوَّلَ الآخِـــرُ(7)

---

(1) أغاني الكوخ –ص168-169.

(2) ضافيات: ج. ضافية واسعة .

(3) السجف: ج. سجفة، الستار

(4) المصدر نفسه – ص168.

(5) أرجوزة: من الرجز: بحر من بحور الشعر معروف وتسمى قصائده أراجيز.ج. أرجوزة وأشعار الأراجيز كثيرا ما يقولها الزهاد والمتصوفة من الشعراء وهنا رمز بها إلى صياح الديك.

(6) طافر : متوثب في ارتفاع.

(7) المصدر نفسه – ص16-17 .

وتؤدي كائنات وظواهر الطبيعة صلاة الفجر مع الذاكرين والساجدين من بني البشر منها الطير والنحيل وحتى الفجر أو لحظة الفجر نفسها. وقد استوعب الشاعر الوجود من حوله في علاقة حميمة تشكر الله وتسبح بحمده، بعد أن اجتمع طهر وتقوى البشر مع طهر وتقوى الكون يقول :

غَرَفْتُ عَبِيرَ الطُّهْرِ مِنْ كُلِّ سَاجِدٍ
وَمِنْ كُلِّ أَوَّابٍ، وَمِنْ كُلِّ ذَاكِرِ
وَمِنْ كُلِّ طَيْرٍ مَرَّ بِالْخُلْدِ تَائِهٌ
وَأَصْغَى لِهَمْسِ الْحُورِ بَيْنَ الْمَخَاضِرِ ...
وَمِنْ كُلِّ فَجْرٍ كَلَّمَ اللَّهُ قَلْبَهُ
بِآيَاتِ نُورٍ مِنْ يَدِ اللَّهِ غَامِرِ
وَمِنْ كُلِّ نَبْرٍ لِلْمُصَدَّى مِنْ مُرَتِّلٍ
بِمُصْحَفِهِ رَنَّتْ صَلاَةُ الْمَشَاعِرِ
وَمِنْ صَلَوَاتٍ لِلنَّحِيلِ رَأَيْتُهَا
تُرَنِّمُ لِلأَضْوَاءِ قُدْسَ الشَّعَائِرِ
تُهَلِّلُ بِالإِصْغَاءِ تَائِبَةَ الضُّحَى
كَمُسْتَغْفِرٍ لِلَّهِ سَاجِي النَّوَاظِرِ ...
وَفِي وَجْهِهَا صُوفِيَّةٌ .. لَوْ تَكَلَّمَتْ
لَكَانَتْ حَدِيثَ الطُّهْرِ فِي كُلِّ خَاطِرِ (1)

ويتوحد كل من في السماء والأرض بالتضرع والقنوت والعبادة لله عز وجل بعد ترديد أصداء الآذان، حتى أنفاس الهواء والسموات العلا، وذلك في قصيدة " أذان الله ":

سَبَّحَتْ بِاسْمِكَ يَا رَبِّ شِفَاهٌ وَقُلُوبْ
وَالسَّمَوَاتُ الْعُلاَ وَالأَرْضُ وَالْكَوْنُ الرَّحِيبْ
وَجَرَتْ بِالْحَمْدِ وَالإِيمَانِ أَنْفَاسُ الْهَوَاءْ
قَانِتَاتٍ عَابِدَاتٍ ضَارِعَاتٍ لِلسَّمَاءْ
رَبَّنَا افْتَحْ قَلْبَنَا لِلْحَقِّ ،، أَنْتَ الْمُسْتَجِيبْ !! (2)

---

(1) لابد- ص76-77.

(2) صوت من الله- ص97.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وتستيقظ بقية الكائنات مع انتهاء الفجر والصلاة وبداية إشعاعات الشمس . ويبدأ شعورها بالنهار والحياة وتنطلق في رحاب الجمال والعبادة بهدي من الفطرة الإلهية ووحي من السماء.كذلك الطائر المرفرف الطروب،الصداح،المتناغم مع غيره من الطيور في ألفة ووجد الذي يبدو كملاك سماوي ، وهو يؤدي صلاته وترتيله بذلك الصباح والتناغم الذي لا يدرك أسراره الخفية إلا من أدرك أسراره سر عبادة الله :

وَتَرَى الصَّادِحَ الطَّرُوبَ مِنَ الطَّيْرِ - يُنَاغِي أَلِيفَهُ المُتَوَحِّدْ

يَتَمَطَّى تَرْتِيلُهُ فِي ذُرَا الـــــمَوْجِ - صَلاَةً مِنَ المَلاَئِكِ تُنْشِدْ (1)

وتلك الفراشة التي لقبها " براهبة الضحى " فهي كائنة جميلة طاهرة راهبة عابدة صابئة ، تعيش حياة روحية مع الزهر والعبير تصلي وتركع وتسجد فوق تلك الغصون والروابي،تبغي الهدى والنور في غدوها ورواحها :

وَرَاهِبَةٍ فِي الضُّحَى أَوْ مَشَتْ - مِنَ الزَّهْـــرِ مُخْتَزَةٌ ذَاكِيَهْ

إِذَا فَاحَ مِنْهَا العَبِيرُ الـــنَّدِيُّ - وَطَوَّفَ فِي الأَيْكَةِ الضَّاحِيَهْ!

تُصَلِّي.فَتَرْكَعُ فَوْقَ الـغُصُـــونِ - وَتَسْجُدُ فِي مَعْبَدِ الرَّابِيَهْ ...

أَعَابِدَةُ النُّورِ .. مَـا لِلسَّـــنَا - أَطَارَ تَسَابِيحَهُ الصَّابِيَهْ ؟

وَحَجَّبَهَا فِي ضَمِيرِ الضُّـــحَى - سَرَائِرُ فِي حَيِّهِ خَافِيَهْ

أَصَابِئَةٌ أَنْتِ تَبْغِي الهُـــدَى - صَلاَةً بِسَمْتِ الرُّبَى الحَالِيَهْ ؟!

تَرُوحُ وَتَغْدُو عَلَى ضَوْئِـــهَا - وَتَمْرَحُ فِي ظِلِّهَا لاَهِيَـــهْ

بِسِقْطَيْنِ (2) زَفَّا كَحُلْمِ الصَّبَاحِ - تُنَاجِيهِ سَوْسَنَةٌ زَاوِيَـــهْ

صَلاَةٌ مِنَ الصَّمْتِ مَكْـــبُوتَةٌ - بِرُوحِكِ هَفَّافَةً نَازِيَـــهْ

أَفِيضِي عَلَى مَهْجَتِي طُـــهْرَهَا - وَرَوِّي بِهَا غُلَّتِي الصَّادِيَهْ

فَإِنِّي إِلَى سِـــرِّهَا ظَـامِـــئٌ - لَعَلَّ بِهَا رَشْفَةً شَافِيَـــهْ (3)

نلاحظ تركيز الشاعر وإلحاحه على هذه الدلالات الروحية بما يرسم من صور شعرية مركبة يمتزج فيها الإحساس الديني بمظاهر الكون،حتى ينتهي إلى لوحة متكاملة الأجزاء والدلالة.ابتعد فيها عن الوصف السردي،وعن التساؤل الغامض غير الإيحائي. كما وقع فيه بعض معاصريه.كالهمشري الذي يقول عن هذه الفراشة :

يَا طَائِرًا لاَ يَسْـــكُنُ - هَلْ أَنْتَ جِسْمٌ يَرْفُ

أَمْ أَنْتَ خَطْفَةُ نُـــورٍ - أَمْ أَنْتَ قَلْبٌ يَخِفُّ

تَطِيرُ نَدْبًا طَـــرُوبًا - فَوْقَ الزُّهُورِ تَـــدُفُّ

قَدْ كَانَ رِيشُ جَنَاحِي - مِنْ عَسْجَدٍ يَتَشِفُّ

---

(1) أغاني الكوخ - ص 97.

(2) سقطين : جانبين .

(3) المصدر نفسه - ص 212 213 .

وَكُنْتِ بِالدَّهْرِ دَوْمًا - مُسْتَهْزِئًا اسْتَحَفْ
حَتَّى لَقِيْتِ شَدِيدًا - مِنَ اللَّيَالِي يَشِيفْ[1]

ويجعل الكون معبدا لهذه الكائنات الحية والصامتة، يوحي لها بالطهر والتسبيح والترتيل والصلاة،فحتى تلك الشياه الوديعة لها ملك وأماني في تلك الروابي،تحلم بالشمس والزهور والعشب،وتستأنس بجلاسات الراعي الحريصة،وبأغاني نايه الساحرة،وتهيم بفتنة الكون،وتعيش عيشةالنساك في تلك البوادي الطاهرة، ففي ثغائها تسبيح وتهليل لباريها وخالقها ويشاركها عبادتها ناي راعيها الذي يتعالى من بعيد بالتراتيل:

لَنَا مَلْكٌ يَشُوقُ الشَّمْسَ لَوْ غَبَرُ بِنَادِيهْ
مِنْكَ الزَّهْرُ بَيْنَاهُ وَشِدْنَا مِنْ أَوَاسِيهْ[2]
وَبَعْثَرْنَا أَمَانِينَا شُعَاعًا فِي رَوَابِيهْ
إِذَا غَنَّى بِهِ الرَّاعِي،وَأَلْقَى السِّحْرَ مِنْ فِيهِ ،
يَعِيشُ الكَوْنَ مَفْتُونًا بِمَا تُوحِي أَغَانِيهِ
وَعِشْنَا عِيشَةَ النُّسَّاكِ فِي طُهْرِ بَوَادِينَا
ثُغَاءُ الشَّاءِ تَسْبِيحٌ، وَتَهْلِيلٌ لِبَارِينَا
وَصَوْتُ النَّايِ تَرْتِيلٌ بِهِ طَارَتْ أَمَانِينَا
إِذَا رَنَّتْ خِلَالَ العُشْبِ مِنْ وَحْيِ أَغَانِينَا
فَقُلْ يَا مَعْبَدُ الرِّيفِ،لَقَدْ هَامَ المُصَلُّونَا[3]

فهذا الوصال الروحي والتعبدي بين الشاة والناي والراعي، من أدق العلاقات الكونية والإنسانية التي قلما نجدها في شعر كثيرين. فموازنة هذه الشياه بشياه أبي القاسم الشابي، تُجلي الفارق بينهما ليس في الملكة الشعرية فحسب،بل في الملكة الدينية،إذا قبلنا هذا المصطلح. حيث يخاطبها بلغة نداء وأمر متكررة،فشكل لها صورة لا تبدي فيها حراكا أو صوتا بمحاولة تحسيسها بجمال محيطها،وإشعارها بوجودها،وبقيمة صوتها دون التفكير في توجيهها إلى الله بالعبادة،كما فعل محمود حسن إسماعيل في كثير من المواقف والمشاهد،بل إنه لا يتدخل في منح تلك الكائنات كيفية الشعور بالجمال والحياة والعبادة،وإنما هي عنده كائنات واعية،عاقلة،مؤمنة،مستقلة،بينما يخاطب أبو القاسم الشابي شياهه:

وَاتْبَعِينِي يَا شِيَاهِي بَيْنَ أَسْرَابِ الطُّيُورْ
وَامْلَئِي الوَادِي ثُغَاءً،وَبِرَاحًا وَحُبُورْ

---

(1) ديوان الهمشري- وزارة الثقافة بمصر- 1974م-ص 176.

(2) أواسي: ج. آسية: البناء المحكم.

(3) أغاني الحياة ص143.

(4) الأعمال الكاملة ج1 ص 217.

واسْمَعِي هَمْسَ السَّوَاقِي وَانْشُقِي عِطْرَ الزُّهُورْ
وانْظُرِي الوَادِي،يُغَشِّيهِ العَبَابُ المُسْتَنِيرْ
وَاقْطُفِي مِنْ كَلأِ الأَرْضِ وَمَرْعَاهَا الجَدِيدْ
واسْمَعِي شَبَّابَتِي تَشْدُو بِمَعْسُولِ النَّشِيدْ
نَغَمٌ يَصْعَدُ مِنْ قَلْبِي،كَأَنْفَاسِ الوُرُودْ(1)

ومن الكائنات النباتية التي ميزت طبيعة الشاعر العابدة عند كل صباح أو مساء،هي زهور القطن إحدى عرائس الحقول التي تبدو عند كل أصيل حانية الرأس كئيبة لزوال سحر الشمس،إلا أن حزنها وإطراقها فيه رضى وخشوع لتلك اللحظات الغاربة:

عَانَقَتْ طَيْفَ الضُّحَى وَاكْتَأَبَتْ - لأَصِيلٍ لاَحَ تَحْتَ الشُّعَاعْ
وَرَنَتْ لِلشَّمْسِ يَخْبُو سِحْرُهَا - بَعْدَمَا أَدْهَلَ أَجْفَانَ القِلاَعْ
فَبَدَتْ خَانِيَةَ الرَّأْسِ أَسَى - تَرْمُقُ الغَرْبَ بِغَضٍّ وَالْتِيَاعْ
مِثْلَ صُوفِيٍّ تَرَاءَى خَاشِعًا - مُطْرِقَ الرَّأْسِ بِمِحْرَابِ التِّلاَعْ(2)

كذلك السنبلة،وهي إحدى ملكات الحقول التي تبدو أكثر إيمانا وخشوعا لهذه اللحظات، التي يلوح فيها الجمال الإلهي من بعيد ولا يكاد يتوارى،إذا تخفق أهدابها،وتهفو ذوائبها للسجود،وتتهجد فوق صدر الكثيب:

وَسُنْبُلَةٍ فَوْقَ صَدْرِ الكَثِيبِ - تَبِيحُ(3) لأَحْلاَمِهَا فِي هُجُودْ
تَهُبُّ لإِيقَاظِهَا فِي السَّمَاءِ - رِيَاحُ الصَّبَا،وَالنَّسِيمُ الوَئِيدْ
فَتُخْفِقُ أَهْدَابُهَا لِلرِّيَاحِ - وَتَهْفُو ذَوَائِبُهَا لِلسُّجُودْ
فَتَبْدُو كَخَاشِعَةٍ لِلْجَمَالْ - وَقَدْ لاَحَ مِثَالُهُ مِنْ بَعِيدْ(4)

وفي مشهد آخر سنبلة أخرى تغني،وفي غنائها تسبيح وحمد وشكر لله على نعمة الملك الشاسع في هذا الكثيب،وعلى نعمة الحياة والماء والهواء والثرى،وعلى الجمال والطهر والنور،فهي تصلي لله عند كل شروق وغروب،وتعتز بهذه الصلاة وهذا اللقاء الإلهي الذي هو خير من صلة الرهبان،وطقوس الديرة،وهي تعتز بعذريتها وعفافها وطهرها لأنها من صفات العباد الأتقياء.فهاهي تغني وتصلي:

مَنْ لَهُ فِي الأَرْضِ مُلْكٌ - مِثْلَ مُلْكِي فِي الكَثِيبْ
مَوْرِدِي النِّيلُ وَوَادِي - مِنْ ثَرَى النِّيلِ الحَبِيبْ

---

(1) الأعمال الكاملة - ج1- ص 217 .

(2) أغاني الكوخ- ص24-24.

(3) تصبح: تصغي وتنصت .

(4) المصدر نفسه ص34 .

كَلَّلَ الفَجْرُ جَبِينِي - بِالنَّدَى الغَضِّ الرَّطِيبِ
وَالأَصِيلُ البِرُّ أَلْقَى - بِشْرَهُ بَيْنَ حُبُوبِي
وَشُعَاعُ الشَّمْسِ حَبَّا - فِي شُرُوقٍ وَغُرُوبِ
لَوْ رَآنِي الرَّهْبَانُ طُهْرِي - وَصَلَاتِي فِي المَغِيبِ،
هَجَرُوا الدَّيْرَ،وَخَرُّوا - سُجَّدًا فِي كَنِيسِي!
أَنَا عَذْرَاءُ تَحَلَّى - سِحْرُهَا بَيْنَ الحُقُولِ
الصِّبَا حَنَّتْ غَرَامًا - بِشُحُوبِي وَخُمُولِي
فَأُنَاغِيهَا بِهَمْسٍ - رَقَّ عَنْ نَفْحِ الأَصِيلِ
كَمْ رَبِيعٍ نَاعِمٍ الآ - صَالِ طَلْقِ العَدَوَاتِ
مُتُّ فِيهِ عَفَّةَ المَهْدِ - بِغُضِّ الرَّبَوَاتِ
بَيْنَ تَرْتِيلِ السَّوَاقِي - وَرَفِيفِ النَّحَلَاتِ(1)

3-خلوص الكون إلى الله:

فعبادة الكون إذن،تجلت في إدراك تلك الكائنات والعناصر الطبيعية سر خلقها ووجودها،وسر تشبعها بالدوافع والشمائل الإنسانية،واعتناقها لفكرة الإيمان بالله وشروط العبادة،وعشقها لحياة النساك والزهاد. وتأديتها لفرائض التقديس لله عز وجل وشعورها بمعاني الخير والحق،والموعظة،والطهر والعفة،والتقوى والقنوت والتهجد والصلاة. إلا أنه هناك وجه آخر لعبادتها وهو امتلاكها لذلك الشعور الحياتي المتصارع،مع السقوط والزلل حينا،والتوثب والتسامي حينا،والتطهر والتعبد حينا آخر،حيث يصيبها الإلحاد والجحود والخطأ، وينتابها الندم والتوبة والرجوع والإذعان والتقرب إلى الله، فتستبشر بالنور والهدى،وتبايع وتناصر الرسالات والأنبياء(2). وقد عرض الشاعر هذا الشعر الكوني الرحب من خلال عرضه لبعض النماذج الكونية.

أوحت له أجواء الصيف الملتهبة،الخانقة الجافة بالأحزان والهواجس والشكوك والآثام والمعاصي،ولونت هذه الأجواء مشاعره وصوره،وملأت بها مظاهر الطبيعة فانتابت النحل في وقت الظهيرة خطات قيظ

---

(1) أغاني الكوخ- ص90-92 .

(2) انظر فصل رؤيته النبوية الذي يبدأ فيه مشاركة الكون في استقبال نبي الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك الإيحاء به عند الحديث عن الوحي والهجرة.

وضيق،وشعر بأنه ألحد وكفر بهذا الجو بعد أن كان صوفيا متبتلا..إلا أنه شعور فيه تأنيب ضمير،واعتراف بخطأ ذلك الشعور الآني،وراح ينتظر الجزاء والقدر والحكم الإلهي في صورة رائعة:

وَجَوٌّ غَضُوبٌ الذَّرُّ يَكْظِمُ نِسْمَةً - وَيَكْتُمُ غَيْظَ الشَّاخِطِ الْمُسْتَبِرِّمِ
شَمَمْتُ بِهِ رِيحَ الْمَعَاصِي سَخِيمَةً - مُخَمَّلَةَ الأَنْفَاسِ مِنْ كُلِّ مَأْثَمِ
بِفَمٍّ كَجَرَّاعٍ (1) الشُّكُولِ هَوَاجِسًا - لَهُنَّ دَبِيبُ السُّمِّ فِي رَأْسِ أَرْقَمِ
وَأَلْحَدَ صُوفِيُّ التَّخَيُّلِ فَسْمَا رَأَى - بِهِ هَزَّةً كَانَتْ إِلَى النُّسْكِ تَنْتَمِي
لَقَدْ كَانَ رَعَّاشَ الأَيَادِي تَبَتُّلاً - إِلَى اللَّهِ لَمْ يَدْنَسْ وَلَمْ يَتَأَثَّمِ
وَلَمْ يَجْنِ ذَنْبًا يَتَّقِي عَنْهُ تَوْبَةً - مَعَ النَّاسِ يَدْعُوهَا بِكَفٍّ وَمِعْصَمِ
أَمَا قَامَ فِي الْفَجْرِ الرَّطِيبِ مُؤَذِّنًا - يَصِيحُ بِتَكْبِيرٍ عَلَى التَّلِّ مُبْهَمِ
فَمَا بَالُهُ أَصْغَى وَأَصْغَتْ ظِلَالُهُ - كَمُنْتَظِرٍ حُكْمَ الْقَضَاءِ الْمُحَتَّمِ!
وَأَلْقَى عَلَى الأُفْقِ الْمُعَفَّدِ نَظْرَةً - كَأَصْفَادِ عِيسَى وَالْتِفَافَاتِ مَرْيَمِ(2)

كما أوحت له تلك البومة النافرة،العابسة،المتشائمة،المكررة للناس والحياة والكون والنور، بصورة الملحد،الجاحد،الجاهل لنور الإيمان.حيث لا ترى النور ولا تعيشه على الرغم من النور الذي يعم أجواء الكون والنور الذي يملأ القلوب والبصائر. فيقارن بينهما وبين ذلك الملحد، وقد وجد أوجه ودواعي التشابه والاقتراب. لينقلب الرمز الشعري،معبرا عن وضع الإنسان الملحد الذي هو أحط وأفظع من إلحاد بومة هي في الأخير وجه للشبه التحقيري لإنسان يملك العقل والقلب،ولكنه أجهل وألحد من بومة لا تملك من أمرها إلا تلك الحياة الغائمة. ونجد نقيضها ونقيضه في الكون،وهو الهدهد دليل التقى والهدي ووداعة وسمة النسك:

وَشَيْخَةٍ عَابِسَةٍ فِي الضُّحَى - عَبْرَاءَ تَحْكِي سِحْنَةَ الْمُلْحِدِ
كِلاَهُمَا فِي غَيِّهِ حَائِطٌ - ضَلَّ الْهُدَى جَهْلاً وَلَمْ يُرْشِدِ
فَهِيَ مِنَ الأَضْوَاءِ فِي بُلْجَةٍ - صَحْيَاءَ أَنْهَى مِنْ سَنَا الْفَرْقَدِ
النُّورُ ضَحَّاكٌ عَلَى وَجْهِهَا - ضَافٍ يَوَهْدِ الأَرْضِ وَالأَجْدِ
لَكِنَّهَا عَمْيَاءُ فِي حَالِكٍ - مِنْ غَيِّهَا مُتْفَهِقٍ نَدْأَرِ(3)
وَهُوَ مِنَ الإِيمَانِ فِي هَالَةٍ - قُدْسِيَّةٍ رُوحِيَّةِ الْمَشْهَدِ
لَكِنَّهُ أَعْمَى غَوَاهُ الْهَوَى - فَضَلَّ عَنْ جَهْلٍ وَلَمْ يَهْتَدِ

---

(1) جرّاع: من جرع. أي تابع الشرب مرة بعد أخرى متكارها لذلك الشراب.

(2) أبو الطفر - ص28 .29

(3) ندرأ: تعني أشام ، وردت في القصيدة لغاية مختصة، ولا ندري هل هو خطأ مطبعي في الديوان أم هفوة عروضية للشاعر.

أَلْحَدَتْ بِالنُّورِ وَكُلُّ الوَرَى - لَوْلاَهُ مَاخَفُوا إِلَى مَـــوْرِدِ
حَيَاتُهُمْ مِنْ لَمْحِهِ وَمْضَـــةٌ - لَـــوْلاَهُ لَمْ تُخْلَقْ وَلَمْ تُوجَدِ
إِنْ عَزَّ فِي الدُّنْيَا دَلِيلُ الْهُدَى - فَحَسْبُكَ اليَوْمَ تَقَى الْهَـدْهُدِ (1)

وتستولي على الشاعر حالة الندم والتوبة والورع والصفاء وهي حالة الإنسان المومن وتنعكس تلك الحالة على مظاهر الكون ،فتلوح أمامه سفوح وضيئة بإيمان عبير الأزاهير،وقنوت زحل الأطيار وندم وتوبة الأنهار وقد وجد في كل شيء قابلية الانتقال الروحي والإيماني،حيث يقول:

فَلاَحَتْ لِقَلْبِي سُفُوحٌ وِضَاءُ
وَرَوْضٌ عَرَفْنَاهُ مُنْذُ الأَزَلْ
أَزَاهِيرُهُ مُؤْمِنَاتُ العَبِيرِ
وَأَطْيَارُهُ قَانِتَاتُ الزَّحَلْ
وَأَنْهَارُهُ مِنْ ضِفَافِ المَتَابِ
تَحَدَّرْنَ بِالنَّدَمِ المُشْتَعِلْ (2)

فمن خلال تتبع الشاعر لمشاهد الهدى والنور والإيمان والطهر والعبادة في الكون الفسيح تجلت<< حقيقة وجود الله، وسرمديته ووحدانيته وقدرته وهيمنته وتدبيره لأمر الخلق،وطلاقة مشيئته ..إلى آخر صفات الله الفعالة في الكون والحياة والناس .>>(3)

فتفرد الله عزّ وجل بالعبادة يعني أن كل شيء في هذا الكون كبير أو صغير ،متحرك أو جامد،ناطق أو صامت . هو ملك يديه ،يؤول إليه ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾(4)، ويقر له بالعبودية والطاعة والقنوت ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾(5).

فالكون عند الشاعر ما يفتأ يصارع رياح الحجب ،ويتفجر من كل شيء جنب بالخير والرزق والنماء .. ليعبر عن دعائه وشوقه وحبه لله عز وجل :

... وَإِنْ صَارَعَتْهُ رِيَاحُ الحُجُبْ
تَفَجَّرَ مِنْ كُلِّ جَنْبْ
نَمَاءٌ وَمَاءٌ وَحُبّْ

---

(1) أغاني الكوخ- ص184-185.

(2) قاب قوسين- ص131.

(3) سيد قطب- خصائص التصور الإسلامي- ص74.

(4) المائدة- 17.

(5) الروم 26.

المبحث الثالث

تسخير الكون/ فاعلية الكون

1- السماء.

2- الأرض.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَنداكَ مِنْ كُلِّ غَيْبْ
دُعَاءً وَشَوْقاً وَحُبْ
إِلَيْكَ ،وَأَنْتَ لِكُلِّ المقَادِيرِ رَبْ (1)

ولايستفيق من الحب والشوق، حتى يعانق نور الإله بالخشوع والتسبيح والصلاة ...وتتوالى مقاطع الصلاة والدعاء لله في ثوب شعري .متأمل خاشع ،رفيق جميل ،يوحي بصيرورة كل شيء إليه في النهاية ،والسمو نحو الله بالتقديس والصلاة ،وهو سر كل ما في الوجود والحياة ،فمنه السكون والحراك والضياء والخفاء ،وهو المدى والصدى والوتر وهو الحياة والصلاة والإله ...وقصيدة " صلاة" تعبر عن هذا التفرد الإلهي ،وعن هذه الصلاة :

يِكُلِّ الوُجُودِ ،وَكُلِّ الحَيَاةْ
يُسَبِّحُ فِي كُلِّ شَيءٍ هَوَاهْ...
وَفِي كُلِّ نُطْقٍ
وَفِي كُلِّ صَمْتٍ
لَهُ خَشْعَةٌ لِجَلاَلِ الإِلَهْ
تَعَالَيْتَ رَبِّي
فَمِنْكَ السُّكُونُ ،وَمِنْكَ الحِرَاكُ لِخَطْوِ البَشَرْ
وَمِنْكَ العُيُونُ ،تُطِلُّ بِهَا مَرْكَبَاتُ القَمَرْ
وَتَرْحَفُ ..حَتَّى كُهُوفُ القَمَرْ
لِكَيْمَا تَرَاكَ.وَأَنْتَ الضِّيَاءُ وَأَنْتَ الخَفَاءْ
وَأَنْتَ المدَى،وَالصَّدَى،وَالوَتَرْ.
وَأَنْتَ الحَيَاةْ
وَأَنْتَ الصَّلاَةُ.وَأَنْتَ الإِلَهْ.
تَعَالَيْتَ..يَارَبُّ(2)

---

(1) نهر الحقيقة ص156 .

(2) المصدر نفسه ص163 164.

تتسع الرؤية الكونية لكل محور لتضع لبنات هذا الكون بكل نواميسه وتحقق أصول الحكمة من وجوده بتحديد فاعلياته وإيجابياته. وسر اتساع هذه الرؤية هو القرآن الكريم الذي يظل مصدراساسيا للتعريف <<بطبيعة الكون وخصائصه،وارتباطه.خالقه،ودلالته على خالقه،واستعداده لنشأة الحياة فيه...وتسخيره لهم بإذن الله.في أسلوب مفهوم للفطرة،مفهوم للعقل يجد مصداقه في الواقع المحسوس.كما يجد مصداقه في الفطرة المكنونة>>.(1)

ركز القرآن عند تحديد فاعليه أوإيجابية الكون على فكرتي التسخير،والنعمةوكرر مدلوليهما بشتى الأساليب واللفتات المتجددة <<لأن هذا الكون لايزال يتجدد في الحس كلما نظر إليه القلب،وتدبر أسراره.وتأمل عجائبه التي لاتنفذ...وهي تبدو في كل نظرة بلون جديد.وإيقاع جديد >>(2)، ويتضح هذان المدلولان بصورة شاملة في هذه الآية الكريمة : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً. وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾(3).

وتعرض الآية << هذا الدليل الكوني مرتبطا بالناس متلبسا بمصالحهم وحياتهم ومعاشهم ، متعلقا بنعم الله عليهم . وقد سخر لهذا المخلوق الإنساني ما في السموات،فجعل في مقدوره الانتفاع بشعاع الشمس وهدى النجوم ونور القمر وبالمطر والهواء والطير السابح فيه .وسخر له ما في الأرض،ومكنه من كل ما تذخر به من كنوز،ومنه ما هو ظاهر،ومنه ما هو مستتر، ومنه ما يعرفه الإنسان،ومنه ما لا يدرك إلا آثاره،ومنه ما لم يعرفه أصلا من أسرار القوى التي ينتفع به دون أن يدري وإنه لمغمور كل لحظة من لحظات الليل والنهار بنعمة الله السابغة الوافرة التي لا يدرك مداها ولا يحصى إنماطها >>(4).

وبالتالي فعناصر الطبيعة ومكوناتها وموجوداتها في المفهوم القرآني نعمة من نعم الله عز وجل ،وتجسيدا لإحسانه وفضله فهي تتصل بوجود معنوي للإنسان بما تمنحه من زينة وجمال وبهجة وسكون وطهر ورحمة. وبوجودمادي بما تمنحه من منفعة وورق وبركة وحياة. كما أنها مفتاح لمعرفة الله عز وجل وماله في السموات والأرض،وقد قال تعالى ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.(5)

وقد اتخذ محمود حسن إسماعيل هذا المفهوم كمفتاح للكشف عن سر تلك العناصر والظواهر . يتحسس من خلالها قدرة الله العظمى في خلقها وجعلها كائنات مسخرة تمنح الحياة والحركة والرزق والخير .

---

(1) سيد قطب- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته- ص100 .

(2) في ظلال القرآن- ج21- ص2792 .

(3) لقمان- 20 .

(4) المرجع نفسه - ص 2792 .

(5) لقمان- 26 .

ويتأمل نماءها وفاعليتها وتجددها في ظل ناموس الله وحاول أن يتابع خطو الفنان المسلم << الذي يحمل قبولا لقيم الطبيعة وأشكالها ونسبها وانسجاما مع نواميس الكون،وعناقا لقدر الله وقضائه،وفرحا واستبشارا بحكمه، وركضا إلى مصائرنا المجهولة وأحلامنا المشتهاة>>[1].

واستوقفت الشاعر العناصر والظواهر الكبرى في السماء والأرض لما من الأثر الفعال والكبير في التسيير والتغيير الكوني والحياتي.

1-السماء :

في المعرض الكوني للشمس والقمر وما في طياتهما من حقائق بعيدة الأمد عميقة الأغوار يقول تعالى:﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]، ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3] ضمن هذا التناسق والتوازن ،والتكوين والتقدير والتسخير الكوني ،تبرز فكرة ارتباط الشمس العميق بالحياة والعطاء والخير والنور واعتناق فكرة هذا الارتباط سمحت الشاعر نزعة إسلامية ذات شفافية رائعة وصوفية عذبة ،استطاع من خلالها أن يوسع من أبعاد الشمس ويبتعد عن مفاهيمها القديمة الأسطورية التي حاول كثير من الشعراء المحدثين توظيفها في أشعارهم .حيث أصبح ذلك الارتباط لا يمكن تفسيره بمعزل عن فكرة التقديس والعبادة ،و<< لا يمكن أن نوضح الموقف الإنساني من الشمس بمعزل عن هذه العلاقات والفروض التي نستطيع بواسطتها أن نرى ما قد يرتبط بالشمس من عنصر العبادة .والعبادة تنطوي في داخلهاعلى بواعث الشعور بالخوف والرهبة والخصومة الخافية.>>[4]، فانطواء الشمس على تلك المشاعر كانت في طقوس العبادة القديمة سرا غامضا كامنا في بواعثها وقوتها وعلوها . إلا أنها عند الشاعر انطوت- على التصالح مع العبادات والطاعة المطلقة لله خالق الشمس والكون وإيمانه بالله قد عدل في المسار الأسطوري للشمس.وجعلها قادرة على الكشف والإبانة بينها وبين البشر بالمصالحة والهداية.وحول فكرة الشك والعداوةبين عناصر الطبيعةوالإنسان إلى نعمة تسحر لنفعه وتفتح أمامه أبواب جديدة للأمل[5].

وأصبحت الشمس المعبودة عند آخرين عابدة لله.تدعووتهدي بني البشر ومنهم الشاعر إلى عبادة الله والسجود والصلاة له.وأصبحت إنسانة بخصالهاالانسانيةوقوتهاونورهاوعطائها :

---

(1) عماد الدين خليل- الطبيعة في الشعر العربي والإسلامي- ص42.

(2) النحل-12

(3) ياسين- 38-40

(4) د/مصطفى [illegible] ص150

(5) الشاعر مصطفى السحراني [illegible] ص 142 143

وَمَاكُنْتُ أَدْرِي الْهَوَى وَالْحَيَاةْ
وَلَاالسِّحْرُ فِي أُغْنِيَاتِ الشِّفَاهْ
وَلَاكُنْتُ أَعْلَمُ سِرَّ الْإِلَـــهْ
سِوَى بَعْدَ مَالُحْتِ لِي فِتْنَةٌ - أَقْبَلْتِ لِي مَرَّةً تَبْسِمِينْ!
وَعَيْنَاكِ عَلَّمَتَانِي السُّجُـــودَ - وَكَيْفَ أَحِرُّ مَعَ الْعَابِدِينْ
لَهُمْ دِينُهُمْ فِي رِحَابِ الصَّلَاةِ - وَدِينِي الْغَنَاءُ الَّذِي تَنْشُرِينْ
عَبَدْتُ بِكِ اللَّهَ...مَافِي دَمِي - وَلَافِي فَمِي غَيْرُهَذَاالرَّنِينْ(1)

والشمس تحمل رسالة للكون.منحهاإياهاالله عزشأنه والتي تشبه رسالات الانبياء إذا ماأستعرنامايوضح جوهر هذه الظاهرة أوغيرها من الطواهر من وحي قلم الرافعي << فكما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار؛يولد النبي.فيوجد في الإنسانية ينبوع النورالمسمى بالدين وليس النهار إلايقظة الحياة تحقق أعمالها وليس الدين إلايقظة النفس تحقق فضائلها .والشمس خلقها حاملة طابعها الالهي في عملهاللمادة تحول به وتغير..والنبي يرسله حاملامثل ذلك الطابع في عمله تترقى فيه وتسمو.ورعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية لإنسان الكون في نور من الكلام>>.(2)

فهي إذن صاحبة رسالة .قادرة على العطاء .وتحمل مسؤولية إنارة الكون وتجديده وإيقاظه .وإحيائه وقدرتها تجذب الأرض إلي السماء تعاصر البداية والنهاية تستنهض وتوقظ الخامل والنائم .وتنبه الحيران واليائس .وتحي الزهوروالكروم وتدعو إلي العمل والأمل وقد اكتسبت من الله صفات السائل والمحاسب والمعطي والواهب والحكيم. وهذا الانجذاب بين الارض والسماء الذي تقيمه الشمس ينفي فكرة خصومتها وعدائيتها. وهذا التباعد بينهما يؤكد مدى انسجامها وتعاطفها .وتوحدها مع قدرات أخرى مصدرها الله . وعطائها اليومي الذي يبدأمع إنتهاء الفجر والصلاة بإشراقها :

رَأَيْتُهَا تَجْرِ مِنَ الدِّمَاءْ
أَمْوَاجُهُ تَخْتَرِقُ الْفَضَاءْ
وَتَجْذِبُ الْأَرْضَ إِلَى السَّمَاءْ
تَحْكِي لِكُلِّ كَائِنٍ حِكَايَةْ
خِتَامُهَا يُصَوِّرُ الْبِدَايَةْ

---

(1) أين المفر - ص54-55 .

(2) وحي القلم - ج2- ص5 .

تَقُولُ لِلزَّهْرَةِ: أَيْنَ عِطْرُكِ؟
تَقُولُ لِلْكَرُومِ: أَيْنَ خَمْرُكِ؟
تَقُولُ لِلسُّنْبُلِ: أَيْنَ عُمْرُكِ؟
قُمْ لِلْحَيَاةِ أَمَلاً جَدِيدًا
يُذَوِّبُ الأَغْلاَلَ وَالقُيُودَا
تَقُولُ لِلْحَيْرَانِ: لاَحَتْ سُبُلُكْ
تَقُولُ لِلْيَائِسِ: هَذَا أَمَلُكْ
إِنْ لَمْ تَسِرْ دَارَتْ بِكَ السَّاعَاتْ
عَلَى خُطًا تَعْرِفُهَا الحَيَاةُ.(1)

ويغمره الشعور بالحياة التي تمنحها الشمس.فيتمنى أن نكون مثلها قادرين على العطاء،ما دامت تشبهنا،وتملك بعض قسماتنا ،إلا أنها تظل تمتاز عنا بقوة الحياة التي تسري فيها،وتبعثها فينا،وتزرعها بالحب والإيمان والصلاة:

...يَا لَيْتَنَا كَالشَّمْسِ نَبْعَثُ الضِّيَاءَ لِلْحَيَاةْ.
وَالحُبَّ وَالإِيمَانَ وَالحَيَاةَ،وَالصَّلاَةْ
حَيِينَهَا حَيَاةْ
وَوَجْهُهَا حَيَاةْ
وَخَطْوُهَا حَيَاةْ
تُمْسِكُ كُلَّ هَامِدٍ .فَتُنْبِتُ الحَيَاةْ
وَتُورِقُ العُيُونْ وَالأَحْلاَمُ وَالشِّفَاهْ ...(2)

يتفرع الحديث عن الشمس إلى آية أخرى في العالم العلوي السماوي هو القمر . وهما آيتان من آيات الله التي يقع عليها الحس كثيرا، لم يخلقا عبثا، ولم يقعا صدفة. ولو تأمل فيهما الإنسان بشفافية وتفاعل،لعلم أن وراءهما قوة وقدرة وحكمة بالغة (3).

فكما أن الشمس ضياء ونعمة فالقمر نور ورحمة، ارتبط أيضا بفكرة التسخير والنعمة والرحمة والنظام العجيب المرتبط بالليل والنهار والأشهر والسنين، والمواعيد والمواقيت . وتأثر الشاعر كعادته بهذا المفهوم الديني الذي ابتعد عن المفهوم الأسطوري . وحاد عن الذين استعاروا له من تغيراته واستدارته وظهوره واختفائه صورة قديمة للقمر الإله .الذي ارتبط هو الآخر بالليل والظلام والرعب والخوف والخصب والنماء، حيث لاحظ الإنسان القديم << ما يتعرض القمر من تغير في شكله حين ينمو ويستدير ثم يصغر ويموت .هذا

---

(1) نهر الحقيقة- ص 131 132.

(2) المصدر نفسه 133.

(3) ينظر كتابنا الرمز الشعري عند الصوفية في تجربة [illegible] ص 249.

المثل السماوي يرى فيه كل ما في الحياة الأرضية من نمو وتراجع. فإذا أشرق القمر ونما نمت النباتات وتجف وفقا لحالات القمر المتعاقبة، ولهذا يعتقد أن في القمر قوةهائلة تسبب ما يتعرض كل شيء من الحياة أو الموت. وأن الإله القمر يدبر أمر النجاح والإخفاق أو الاردهار والانهيار الذي يتمثل في العالم>>.(1)

ومن فكرة الخصب والنماء نبعت فكرة الحصاد،وهي فكرة قديمة تداولها المعتقد الشعبي،متعلقة بظهور القمر ونموه وتضاؤله وفكرة القمر الإله،الطائر الحراقي الذي لا يراه أحد لكنهم يحذرون غضبه،ويرهبون المصير الذي بيده(2) وإن كانت هذه الأفكار تدور في لا شعور الشاعر واستمد منها عنوان قصيدته "حصاد القمر" ،إلا أنه حقق أفكارا ورموزا أخرى حيث << أترع لفظة القمر بحقيقته النفسية والفكرية ورؤاه الكونية،فتوحدت بالحس الشعري وقدرت على أن تقتنص مالم تتعود اقتناصه،فغدت توحي بالحنين الشفيف،وبالرقة المفرطة في تخفيف آلام الليل،كما توحي بالقدرة على التحقق والطهور،ومن ثم بالقدرة على عطاء الراحة والخير.>> (3) وأكد نزعته الإسلامية لما خلع عليه قدرة الله عز وجل،ووضح مدى ارتباطه بالكون والإنسان الذي سخر له باستعماله للمقابلات كالنور والرحمة والسكينة والخير والهدى في مقابل الظلام والخوف والحيرة والألم والشر والظلال.

ومهد الشاعر لدخوله عالمه الهامس الورع برسم صورة عامة للكون، حدد فيها الزمان والمكان بين امتداد الأرض والسماء ، وتتبع أحوال الكائنات والأشياء في ليل من أيام الحصاد تحت ضوء القمر :

يَبِيتانِ فِي حِضْنِ الإِغْفَاءُ وَالسَّهَرُ - نَامَتْ سَنَابِلُهُ وَاسْتَيْقَظَ القَمَرُ
نَعْسَانُ يَحْلُمُ وَالأَضْوَاءُ سَاهِدَةٌ - قَلْبُ النَّسِيمِ لَهَا وَلْهَانُ يَنْفَطِرُ
مَالَ السَّنَا حَانِياً يُلْقِي بِمَسْمَعِهِ - هَمْسَ الوَحِي لاَ يُدْرِي لَهُ خَبَرُ(4)

ووسط هذه الأجواء التي امتزج فيها السهر مع الإغفاء ، والحلم مع السهاد، والظلام مع السنا ، والهمس مع الوحي: استيقظ القمر ، ليبعد شبح الليل برعبه وخوفه ، وهمومه وأشجانه ، بما يشعه من نور ، لا تفري منابعه سوى أنه زورق من الخلد ،رحل إلينا من ضفاف الحور . وهو بصورته النورانية الآتية من جلال وسحر الجنة والحور ، يؤكد منبعه السماوي الإلهي ، وينمي صورة الطائر الحراقي المرعب الملتثم بصورة القمر الطائر الوديع ، الذي تكشف عن نوره كل الأسدال والستر، وتظمأ إليه الأرواح والأبصار لأنها تدرك سر تلك الأنوار:

---

(1) مصطفى ناصف- نظرية المعنى في النقد العربي- ص151-152 .

(2) مصطفى السعدني-التصوير الفني في شعر محمود إسماعيل- ص149.

(3) المرجع نفسه- ص147.

(4) أبي المفر- ص48.

يا تاكيت النّور لايثري متابعة - لأنت قلب يشيّ الحبّ،لاقتمر
هيهات تحميل وجد اللّيل أضلعه - واللّيل تقتله الأشجان والفكر
كأنّه زوزق في الخلد رحلته - تارة من ضفاف الحور منحدر
يا طائرا في ربى الأفلاك مختفيا - تمشي على خطوه الأحقال(1) والحذر
أرخ اللّثام فمهما سرت محتجبا - تمت على نورك الأسدال والستر
علام ضنك بالأنوار في زمن - إليك يطمأ فيه الرّوح والبصر(2)

وحط الطائر السائح المتحول ليلا في ربى الأفلاك على الأرض ، ليخلع عليه البعد الإنساني بصفاته وخصائصه الحسية والمعنوية . فغدا ذلك الطائف المرهف ، الرحيم ، الرقيب الذي يشع بالراحة والسكينة والسنا تخفيفا لآلام ومآسي البشر، ويبعث الأمل المتجدد دفعا للاستمرار في الحياة والتفاؤل بمعانيها وقيمها . وذلك المتأمل ،الذي يدعو إلى النظر في أسرار وإيحاءات الكون ، والإيمان بالله خالق كل شيء ، هذه الأسرار التي يتجاهلها ويكفر بها كثير من البشر . وذلك النبيّ الذي يحمل رسالة تبشير وهدى مثل رسالات الأنبياء ، يدعو إلى سبل الحكمة والموعظة والهداية وينشر النور في كل العوالم:

يا طائفا لم يتم يسر على كبد - إلاّ وخفق من أحلامه أثر
تمشي الهوينا، كما لو كنت مقتفيا - آثار من دنسوا تقناك واستتروا
ليلاتك البيض والأيام تحسدها - عرائس عن صباها انجلت الأزر
سمعت سحرك في الأضواء أغنية - حيرى تاوه عنها الرّيح والشجر
وعينها ونقلت السرّ عن فمها - لمن أبوح به والنّاس قد كفروا ؟
آمنت بالله ، كلّ الكون في خلدي - هاد إليه اختفى، والنّور والحجر
ذرت عيونك دمعا ليس يعرفه - إلاّ غريب يصدري خاطر ضجر
قلب كقلبك مسحور وفي دمه - هالات نور إليها نعيت البشر
كأنّ وجهك في الشطآن حين غدا - إليك يومىء من أدواحها نضر
مبشّر بنبيّ ... ذاع مؤتلقا - على العوالم من أضوائه الحبر
الله أكبر يا ابن اللّيل يا كبدا - لم يثن أسرارها التطواف والسّهر(3)

وهكذا تتجلى كثير من الرؤى العميقة والحقيقية للشمس والقمر، والتي لا تخرج عن النطاق القرآني، فارتباط الشمس بالضياء، والقمر بالنور. وما يتبع ذلك من معاني وقيم عند الشاعر،تؤكد الأثر القرآني في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾(4)

---

(1) الأحقال: هو السحاب الذي أراق ماءه ثم ذهب حافلا أي مسرعا .

(2) أبن المقر – ص90-91 .

(3) المصدر نفسه ص 91 93 .

(4) يونس 5.

2-الأرض :

الأرض أقرب للإنسان من السماء،والاستدلال بها،استدلال بما هو أقرب إلى الحس.والإنسان نشأ في أحضان الأرض وتربى عليها ،وألفها هذه الألفة الطويلة.ففيها قراره وسكناه، فيها معاشه ومسعاه،وفيها هذه النعم الكثيرة المتباينة والمتفرقة في أرجائها وبين جنباتها فالاستدلال بالأرض على وجود الخالق القادر الحكيم، انما هو استدلال بما هو ألصق بحياة الإنسان من عناصر الطبيعة وبما هو أظهر للقدرة والنعمة منها .(1)

وبدت الأرض باتساعها وغناها وسحرها أكبر وأقوى رمز للحياة وللقيم،وحملت شتى الرموز والرؤى المتعلقة بالعيش والرزق والخير والأمل لتؤكد فكرة التسخير الإلهي ، والتي أبرزتها العديد من الآيات القرآنية كقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ.﴾(2) ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ.﴾(3) ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ.وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ.وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ.﴾(4) ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى.﴾(5) ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(6)

استطاع الشاعر محمود حسن إسماعيل من خلال هذه المعاني القرآنية الجليلة أن يجسد الحياة في الأرض ويثبت ارتباط حياة الإنسان بها ويكتشف خصائصها ويبرز نعمها التي تقود لا محالة لإدراك سر هذا الوجود وخالقه .

فالأرض عند الشاعر في صورتها الكبرى هي منبت الحياة بترابها ومائها وعشبها ونسيمها . وهي قيمة الحياة باخضرارها ونورها وأملها . وهي قداسة الحياة بجمالها وعظمتها حيث يقول :

أَرْضِي ... وَمَا أَقْدَسَهَا حَيَاةْ
تُرَابُهَا حَيَاةْ ...
وَمَاؤُهَا حَيَاةْ ... وَعُشْبُهَا حَيَاةْ
نَسِيمُهَا قُبَلْ
وَأُفْقُهَا أَمَلْ

---

(1) كاصدي الزبيدي- الطبيعة في القرآن الكريم- ص246 .
(2) الحج- 65.
(3) الملك- 15.
(4) الحجر- 19-20.
(5) طه- 53
(6) الرحمان- 10-16.

جَمِيلَةٌ فِي وَجْهِهَا الحُقُولُ وَالجَنَائِنْ
عَظِيمَةٌ فِي جَوِّهَا القِبَابُ وَالمَآذِنْ
رَهِيبَةٌ فِي سَمْعِهَا الأَمْوَاجُ وَالسَّفَائِنْ
خَضْرَاءُ مِثْلَ الحُبِّ مِثْلَ الأَمَلِ
وَضِيئَةٌ مِثْلَ جَبِينِ الرُّسُلِ (1)

وتبدو عظمة التسخير الإلهي لما هيأها ومهدها لتكون معاشا وحياة،حتى لأبسط وأصغر الكائنات كالطيور الصغيرة :

كُلُّ الحَيَاةِ فَوْقَهَا لِطَائِرِي الحَيَاةْ
مِنْ عِطْرِهَا وَشَوْكِهَا وَعُشْبِهَا يَفْنَاتْ
أَرْضِي وَمَا أَقْدَسَهَا حَيَاةْ
تُرَابُهَا حَيَاةْ ... وَمَاؤُهَا حَيَاةْ
وَكُلُّهَا لِمُهْجَتِي حَيَاةْ (2)

وفي أصغر صور الأرض مع التراب والطين والفأس والفلاح ، اكتشف أيضا سر الحياة والخير الكامن فيها هذا السر الذي يحمله فلاح ناسك هيمان في الأرض ، يتحلى تربتها بدعواته وبفأس بسيطة الصنع والتركيب، لكنها كانت آية محملة بالأسرار والكنوز والغنى والخصوبة . منحها الله عز وجل قدرة عجيبة،فتمس الصخر والحجر أو أي يابس،فإذا هو يزهو بألوان النبات وتستحيل الأرض إلى جنة زاهية الورود ، برة الأفانين.تلهم الرشد والهدى :

نَاسِكٌ فِي الحُقُولِ هَيْمَانُ بِالأَرْ - ضِ يَتَحَلَّى بِتُرْبِهَا دَعَوَاتِـهْ
حَمَلَتْ فَأْسُهُ مِنَ الغَيْبِ سِرًّا - حَيْثُ العَقْلُ كَامِنٌ مِنْ صِفَاتِـهْ
حَطَبٌ يَابِسٌ تَمُرُّ عَلَى الصَّخْـ - ـرِ فَتَزْهُو الوُرُودُ عَلَى جَنَبَاتِـهْ
رَصَدٌ فِي الحَدِيدِ لَوْ أَنَّ هَـارُو - تَ رَقَاهُ لَظَلَّ فِي فَتَسَمَا فِنِيهْ
حِكْمَةٌ تَبْهَرُ النُّهَى حَطَّمَ العِلْـ - ـمُ لَدَيْهَا العَظِيمُ مِنْ مُعْجِزَاتِـهْ
لَوْرَنَا المُلْحِدُ العَنِيدُ إِلَيْـهَا - وَهُوَ جَمُّ الضَّلَالِ مِنْ نَزَعَاتِـهْ
رَحِمَتْ غَيَّهُ وَكَادَتْ حَـلَالاً - تَسْكُبُ الرُّشْدَ وَالهُدَى مِنْ لَهَاتِهْ
جَنَّةٌ بَرَّةُ الأَفَانِينِ لَفَّـ - ـءُ تَمَاهَا مُعَذَّبٌ فِي حَيَاتِـهْ (3)

ويزداد اقتراب الشاعر من هذه الصور الجزئية للأرض ليحد في الطين أفصح المعجزات . وقد تلاحم الطين والفأس والفلاح،وغيرها من أشياء وكائنات الحقل تلاحما مقدسا ورحيما.لتتحقق حكمة الأرض

---

(1) نهر الحقيقة- ص112 .

(2) المصدر نفسه - ص114 .

(3) هكذا أغني - ص219 220.

وقد تراءت بالنحل والسنبل والتمرد والأعواد وكل نبات، والثمر.

انظُرِيهِ تَمُسُّ جَاهِيَـــلَةَ الطَّـــينِ - فَيَأْتِي بِأَفْتَحِ المُعْجِزَاتِ

رَاكِعًا فِي الحُقُولِ وَالنَّحْلُ حَوَّالَيْهِ - كَقَوْمٍ تَهَيَّأُوا لِلصَّـــلاَةِ

يَضْرِبُ الفَأْسُ بَاكِيًا فَتَرَيْنَ الحَقْلَ - فِيهَا مُهَذَّلَ الثَّمَـــرَاتِ

وَتَرَيْنَ الأَعْوَادَ وَالسُّنْبُلَ المِيَـــادَ - وَالبُرَ مَوْكِبًا مِنْ حَيَـــاةِ (1)

وانعطف الشاعر إلى ثمار هذه الأرض وورودها ليجد في نمو وحركة وفائدة هذه الكائنات النباتية نعمة ورزقها للعبد ومواصلة لوجودهم في الحياة وتوكيدا لعظمة الله وقدرته وعظمته . حيث شدته زهرة القطن في بداية ظهورها الجمالي . وتتبع حركة ظهورها ونموها واستطاع أن يؤول أدق الحركات اليومية والفصلية بالحبور حينا والاكتئاب حينا والخشوع حينا آخر . ولازم تغيراتها كل ضحى وكل أصيل حتى بلغت ذروة نضجها الزمني في الصيف :

يَا عَرُوسًا لَمْ تُزَيِّنْهَا يَـــدٌ - غَيْرَ كَفِّ المُبْدِعِ العَبْقَـــرِيِّ

عَقَدَتْ إِكْلِيلَهَا مِنْ سَوْسَنٍ - بَاهِتِ الأَطْرَافِ بَيْنَ القِنَاعْ

عَانَقَتْ طَيْفَ الضُّحَى وَاكْتَأَبَتْ - لأَصِيلٍ لاَحَ مَخْنُوقَ الشُّعَاعْ

وَزَنَتْ لِلشَّمْسِ بَخْسًا سِـــحْرَهَا - بَعْدَمَا أَذْهَلَ أَجْفَانَ القِلاَعْ

فَبَدَتْ حَانِيَةَ الرَّأْسِ أَســـــى - تَرْمُقُ الغَرْبَ بِغَضٍّ وَانْتِبَـــاعْ

مِثْلَ صُوفِيٍّ تَرَاءَتْ حَاشِـــعًا - يَطْرُقُ الرَّأْسَ بِمِحْرَابِ النِّـــلاَعْ

وَأَتَاهَا الصَّيْفُ وَهَّاجَ الشَّتَـــا - يَضْرِمُ الأَنْفَاسَ نَارًا فِي اليَفَـــاعْ

فَارْتَدَتْ بُرْنُسَهَا مِنْ ذَهَـــبٍ - أَبْيَضٍ تَوَّجَ هَامَاتِ الضِّيَاعْ (2)

واستحالت زهرة القطن قطنا وتحولت هذه النبتة من حال إلى حال وتحول الشاعر من مخاطبة المؤنث الزهرة إلى مخاطبة مذكر القطن، الذي رها وارتدى حلة بيضاء :

وَرَهَا القُطْنُ وَارْتَدَى حُلَّةً بَيْضَـــاءَ - كَالطُّهْرِ فِي جَبِينِ النَّبِـــيِّ

نَسَجَتْهَا بَنَـــانَةٌ خَيَّرَ العَقْـــــلُ - مَدَى فَنِّهَا الخَصِيبِ السَّرِيِّ

مِنْ تُرَاثِ العَزِيزِ غَذَّتْ جَنَى الرَّوْضِ - فَاغْرِي لِقَطْفِهِ كُلَّ حَـــيِّ (3)

وتركيز الشاعر على انتقال النبتة من حال إلى حال ، وعلى إظهار هاتين الحالتين ألا وهي البداية والنهاية للدلالة على القدرة الإلهية المبدعة.مصداقا لقوله تعالى ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.﴾(4) حيث تدرك الثمار والأزهار تمامها وكمالها بعدم بقائها على حالتها ومواصفاتها .

---

(1) نار وأصفاد- ص116 .

(2) أغاني الكوخ- ص24-25 .

(3) المصدر نفسه ص67.

(4) الأنعام 99 .

وتمثل السنبلة أيضا امتداد الحياة بينها وبين بقية الكائنات،وقد تتبع كذلك حركتها ونموها . فهي تسمو بحضن الربوات بين ترتيل السواقي ورفيف النحلات وترانيم الصبايا وأناشيد الرعاة وتعيش لحظات الربيع ، تعني شبابها في صفاء وعفاف . حتى يحين الصيف وتغدو ثمرة،وتحين نهايتها لتمنح حياتها للآخرين ، وتكون رمزا خالدا للتضحيات،ومثلا أعلى لقدرة الله الذي يقول :﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ . وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾.(1)

حاول الشاعر أن يبين هذا المعنى عندما بيّن ظهور الحياة وسط هذه السنبلة التي تبدو كأنها ميتة لا حياة فيها من جهة،وهي تنبض بالحياة من جهة أخرى،فعملية الحياة كامنة في الحبة، التي يبدو عليها كأنها ميتة لا علاقة لها بالوجود . هذه الصورة تحرك الحس،وتستحيش الشعور،وتدفع الفكر إلى التأمل إلى ما وراءها من قدرة وحكمة :

أَنَا عَذْرَاءُ تَجْلَى سِحْرَهَا بَيْنَ الحُقُولْ
كَمْ رَبِيعٍ نَاعِمِ الأَصْيَالِ طَلْقِ الغَدَوَاتْ
نَمْتِ فِيهِ عَفَّةَ المَهْدِ بِحُضْنِ الرَّبَوَاتِ
بَيْنَ تَرْتِيلِ السَّوَاقِي وَرَفِيفِ النَّحَلاَتِ
وَتَرَانِيمِ العَذَارَى فِي سُكُوتِ الطُّرُقَاتِ
وَالصَّدَى المَشْبُوبِ حَوْلِي مِنْ أَنَاشِيدِ الرُّعَاةِ ...
وَدَنَا الصَّيْفُ فَشَابَتْ مِنْ لَظَاهَا سُنْبُلاَتِي
وَذَوَى عُودِي وَلَفَّ المِنْجَلُ القَاسِي حَيَاتِي
وَتَحَطَّمْتُ ... فَأَحْيَا النَّاسَ عَيْشٌ مِنْ رُفَاتِي
أَنَا فِي غَرْسِي وَحَصْدِي وَحَيَاتِي وَمَمَاتِي
مَثَلٌ أَعْلَى وَرَمْزٌ خَالِدٌ لِلتَّضْحِيَاتِ (2)

إن رؤية محمود حسن إسماعيل لهذه السنبلة لها ميزتها الفكرية والفنية التي تختلف عن رؤى بعض الشعراء، بحيث لو أجرينا موازنة بسيطة بينه وبين الشاعر إيليا أبي ماضي في الموضوع نفسه،لأدركنا الفرق بينهما بكل يسر وموضوعية بين سنبلة محمود إسماعيل التي عدها جزء من لوحة متكاملة الأجزاء من مشاهد الطبيعة وعناصرها التي سحرت للعطاء وللحياة.وقد جسد فيها معنى الحياة بجمالها وغبطتها وطهارتها وسحائها ورضاها وإيمانها . وسنبلة إيليا التي أحاطها برؤية فلسفية ورموز غامضة،فهي مثله ناسكة، راهبة في محراب الفكر الذي يبحث عن وحدة الزمان والمكان والحياة في عالم مجهول حيث تبدو قلقة حائرة من وجودها متجاهلة غايتها منزعجة من نهايتها يلتقطها تارة،ويذريها تارة،ويشويها تارة أخرى . وهي تصيح رافضة احتراقها من أجل الآخرين،رافعة هامتها للعلاء تكبرا وعناء،إذ يقول في قصيدته "ناسكة":

---

(1) الأنعام 95.

(2) أغاني الكوخ ص72 ، 73 .

فَمِلْتُ عَنْ رَاهِبَةِ الحَقْلِ
وَبِتُّ لاَ أَلْوِي عَلَى ظِلِّي
أَلْتَقِطُ الحَبَّ وَأَذْرِيهِ
وَتَارَةً فِي النَّارِ أُلْقِيهِ
مُسْتَخْرِجًا مِنْهُ لِجِسْمِي غِذَاءْ ...
وَإِنَّنِي فِي مَرْحِي وَالدَّدِ(1)
إِذْ صَاحَ بِي صَوْتٌ بِلاَ مَوْعِدْ
مَا الحُبُّ يَا هَذَا وَلاَ السَّنْبَلْ
مَا تَأْكُلُ النَّارُ وَمَا تَأْكُلْ
وَإِنَّمَا أَسْلاَفُكَ الأَصْفِيَاءْ
لاَ بَشَرٌ لاَ طَائِرٌ مَاثِلْ
يَا عَجَبًا نُطْقٌ وَلاَ قَائِلْ
مِنْ أَيْنَ جَاءَ الصَّوْتُ ؟ لاَ أَدْرِي
لَكِنَّمَا نَاسِكَةُ البِرِّ
قَدْ رَفَعَتْ هَامَتَهَا لِلْعَلاَءْ (2)

نستشف أنّ "أبا ماضي" قد اتخذ من السنبلة مجرد مدخل إلى فكرته فلم يفض في تصويرها ثم انتقل فجأة إلى فكرته التي هي في الحقيقة محور المقطوعة أما محمود حسن إسماعيل فقد أفاض في حديث السنبلة عن نفسها وأحاطها بكل عناصر الصور الطبيعية وبأوقات الشروق والغروب ومعاني الرقة والوداعة والجمال وانتهى إلى خاتمة فيها عبرة وفكرة.(3) وتمتزج معاني السخاء والتسخير عند الشاعر لتؤدي دائما معنى النعمة والحكمة والقدرة الإلهية إذ تستوقفه النحلة ليتأمل بإعجاب وإيمان سموحها نحو السماء واستعدادها الفطري بنعطاء بحيث تسخو بما حباها الله عز وجل من ثمر وظل في غير مَنٍّ أو تغيير وسما بفكرة السخاء الإلهي التي تعم كل الأرض وكل الناس ... وعرج بها إلى فيض رحمته التي تكون إلا لمحسنين وقد قال تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(4) ولا يمكن أن تكون لمن أرادوا امتلاك هذه النعمة بأنانيتهم وطمعهم من أصحاب الإقطاع والقصور، إذ يقول :

وَنَحْلَةٌ فَوْقَكَ ... تَهْذِي الجَنَى - وَالظِّلُّ يَسْتَذْرِي (5) بِهِ القَابِـــرُ

---

(1) الدد : اللهو واللعب .

(2) ديوان إيليا أبو ماضي - ص118-119 .

(3) انظر عبد القادر القط- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر- ص278.

(4) الأعراف - 56.

(5) يستذري : يستظل .

تَهْتَزُّ لِلسَّارِي وَتَخْتَالُ الثَّرَى - فِي القَصْ مَرْهُوبُ الحِمَى كَاشِرُ!
وَحَنَّةٌ حَوْلَكَ غَيْرَى بَانَةٌ - رَجْعَانُهَا مُشْفِقٌ زَاهِرُ
وَحَوْلَ تَرْوِيكَ مُسْتَعْذَبٌ - سَلْسَالُهُ مُصْطَفِقٌ زَاخِرُ(1)

إذن فمن النخيل نجد نعمة الثمر ونعمة أخرى للإنسان وهو الظل الذي مدد الله عز شأنه رحمة بالإنسان من الوهج والضنى وقد قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا ﴾(2)، وقال أيضا ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾(3)، وتورد الأبيات بقية النعم المادية حينا والمعنوية حينا آخر، فمن نعمة الثمر والغذاء إلى نعمة الراحة والاستظلال ومن نعمة العطر والاسترواح إلى نعمة الماء والارتواء. وتتوالى نعم الله في الأرض التي لا تحصى . ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(4).

من خلال عرض الشاعر للمعالم البارزة في الأرض،وجد من بين كائناتها حيوا هو رمز للمعاناة الصامتة والجهد الحيواني الذي لم ينل أي نظرة عطف أو وقفة تأمل . ولم يسترع انتباه الكثيرين على الرغم مما يقدمه من الخدمات الجليلة للإنسان . لكن الشاعر أحس بهذا الحيوان " الثور " إحساسا متضحما كالإحساس بالإنسان المتألم الشقي الدؤوب في الأرض . ولقد وقره ولقبه بعاهل الريف ورفع من قيمة معاناته وجهده المسخر للأرض والإنسان . ونسخ الشاعر بفكرة التسخير مفاهيم العهود الأسطورية الفرعونية السالفة وما سادها من معتقدات ضالة لما كان الثور أبيس هو الإله المعبود المقدس حيث قال ساخرا محقرا تلك العبادة :

أَبِيسُ (5) أَيَّ سَرِيرَةٍ بَلَّسْتَهَا بِي - عِطْفَيْكَ قَدْ أَعْيَا الحِجَا مَعْقُودُهَا
حُمِّلْتَ مِنْ هُورُوسَ (6) أَقْدَمِ آبِهِ - عُبِدَتْ وَقُدِّسَ فِي حِمَاكَ عَبِيدُهَا!
أَذْكَى لَهَا الكُهَّانُ نَارَ بُخُورِهِمْ - فِيهَا مَنَفٌ يَسْطَعُ فِي المَعَابِدِ عُودُهَا
أَرْوَاحُ ضُلَّالٍ حَبَتْكَ رَشَادَهَا - وَحَثَتْ لَدَيْكَ عَلَى التُّرَابِ وُفُودُهَا
بَذَلَتْكَ تَقْدِيسَ النُّهَى لَوْ أَنَّهُ - لِلصَّحْرَةِ الصَّمَّاءِ رِيعَ صُلُودُهَا
عَبَدَتْكَ أَبْلَهَ لَا تَعِي! يَاضَلَّةً - لَوْ تَسْتَطِيعُ دَرَا هُدَاكَ جُحُودُهَا (7)

---

(1) أغاني الكوخ- ص18.

(2) النحل- 81 .

(3) الفرقان- 45 .

(4) النحل- 18 .

(5) اسم العجل الذي عبده الفراعنة قديما.

(6) في أساطير الفراعنة أن هوروس هو الإله الذي حلت روحه في أبيس.

(7) هكذا أعني : ص220 230 .

إلا أنه لم يحاول أن يهيمن أو يحقر من شأنه بل أراد أن يبين الحكمة والغاية من وجوده،وهو الذي ذلل جهد العباد،وغيّر وجه الأرض،ووصل الحياة بغيرها . وكان جهاده آية وعبرة :

يَا حِكْمَةً فِي رَوْقِكَ العَاجِيِ! كَبَتَـــا - فِي العَقْلِ نَاهِضُهَا وَطَاشَ سَدِيدُهَا
زَعَمُوكَ تَحْمِلُ أَرْضَهُمْ ... وَلَوَ انَّهَا - عَقَلَتْ بَمِيدُ وِهَادُهَا وَنُجُـــودُهَا!
مَا العَاهِلُ الجَبَّارُ مِنْ ذَا دَوْلَـــــةٍ - وُقِيَتْ عَلَى ذُلِّ العِبَادِ جُـــهُودُهَا ؟
هُوَ أَنْتَ ! مِنْ خَجَلِ المُرُوَّةِ حَائِـلاً - عَيْدَانَةٌ يُسْبِي النُّفُوسَ شُـــهُودُهَا
فِي كُلِّ حَقْلٍ مِنْ جِهَادِكَ آيَـــــةٌ - يَعْفُو عَلَى الرِّيفِ الشَّفِيِّ حُلُودُهَا (1)

وانتقل إلى النهر ليحسد قدرة الله المعجزة في الخلق والصنع والإبداع والتسخير فهو جزء لا يتجزأ من خلايا هذا الكون ، وهو الماء الذي يسري في كل كائن ، وقد جعله الله نعمة وآية كبرى للحياة، وقد قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(2) وارتبط الماء المسمى نهرا بالخصب والرزق والخير والعطاء وقد أكدت كثير من الآيات على علاقة الماء بالمطر والنهر . كقوله تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ.وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ.﴾(3)

والنهر عند الشاعر هو النيل طبعا ، هذا الذي عرف منذ القديم بأنه الرازق العلوي ، وارتبط بالاخضرار والانتصار، والقوة وبعث الحياة.ورسخت في أذهان المصريين القدماء "صورة النيل الإله" ، إلا أن الشاعر تخلص من هذا المفهوم السلفي الأسطوري بطقوسه وشعائره وتعاويذه وقرابينه . (4) معتبرا إياه قدرة إلهية فوق الأرض، ونعمة من نعم الله تسري في الحياة - ومنها حياة مصر.- وصورة النيل القديمة عنده أكدت المفهوم الديني،لا المفهوم السطوري، على الرغم من إشارته إلى النيل القديم ، إلا أن فكرة النعمة كانت غرض الشاعر تاريخيا ودينيا:

حَيَّاكَ قَلْبُ الوُجُـــودْ - يَا فِـــــتْنَةَ الكَوْنْ
يَا نِيلُ يَا ابْنَ الخُلُـــودْ - يَا حُمْرَ فِرْعَـــــوْنْ
يَا قِصَّةً فِي الدِّيَـــارْ - تَرْوِي حَدِيثَ الزَّمَنْ ...
البِيضُ أَهْلُ الشَّمَـــالْ - حَرُّوا عَلَى بَـــــابِكْ
وَالسُّمْرُ خَلْفَ الجِبَـالْ - صَلُّوا لِأَمْوَاجِـــــكْ

---

(1) هكذا أغني - ص230-231 .

(2) الأنبياء- 30 .

(3) إبراهيم 32 .

(4) انظر دعمات أحمد فؤاد النيل في الأدب المصري ص51 وما بعدها .

مِنْ عَهْدِ خُوفُو القَدِيمْ - وَأَنْتَ رأي الذِّمَمْ
فَجْرِي لِمِصْرَ النَّعِيمْ - مِنْ عَالِيَاتِ القِمَمْ[1]

ولم ينتزع الشاعر من النيل صفات التقديس والعبادة ،وإنما اكسبه طهر الكلمات ومنحه رسالات الأنبياء، هي في الحقيقة رسالة من الله تحمل الخشوع والآيات والخصب والنماء والجمال والربيع والحب والشباب وغيرها من رموز الروح والحياة:

مِنْ رَوَابِي الشَّمْسِ تَمْشِي وَتُغَنِّيهْ الشِّعَابْ
وَالجِبَالُ الشُّمُّ أَهْلُوهُ المُقِيمُونَ الغِضَابْ
وَقِفُوا صَفَّيْنِ...وَالأُفْقُ خُشُوعٌ وَارْتِقَابْ
وَهُوَ فِي أَبْرَادِهِ الخُضْرِ نَبِيٌّ فِي الشُّهُولْ
نَوَّرَتْ آيَاتُهُ بِالسِّحْرِ فِي كُلِّ الحُقُولْ
أَيْنَمَا حَلَّ ..فَعِطْرٌ وَرَبِيعٌ وَشَبَابْ
وَالرُّبَى أَعْرَاسُ حُبٍّ ، وَنَدَامَى وَشَرَابْ[2]

ويتسع النهر للحياة ويحتويها بسكونه ونطقه وموجه وشطه ويمنحها لكل كائن وكل حي. وبرزت فكرة الحياة عميقة في جزء من أجزاء نهر الحقيقة الذي نهل منه الشاعر،ليصل إلى الحقيقة الإلهية الكبرى قائلا:

سُكُونُهُ حَيَاةْ
وَنُطْقُهُ حَيَاةْ
وَكُلُّ مَا فِي شَطِّهِ حَيَاةْ
وَخَطْوُهُ تُحَرِّكُ الحَيَاةْ
لَوْ لَاهُ زَهْرُ الحَقْلِ مَا تَبَسَّمْ
لَوْ لَاهُ طَيْرُ الرَّوْضِ مَا تَرَنَّمْ
فِي صَدْرِهِ الأَسْرَارُ،غَنَّتْهُ الأَشْعَارْ ...[3]

وقدم لنا الشاعر من معاني الحياة النعم والهبات والخيرات التي يمنحها النهر للإنسان نماذج حية من الواقع الحياتي لحركة الصياد وهو يطوف بسفينته في عبابه يلقي الشباك مؤمنا مؤملا صابرا إلى أن يصافحه الفجربالرزق والخير والأمل الموعود،ويعود حامدا الله على النعمة:

سَفَائِنٌ وَلَهَّانَةٌ ، وَعَاشِقٌ مُطَوِّفُ
وَصَائِدٌ أَيَّامُهُ فِي خَيْطِهِ مُعَلَّقَهْ

---

(1) صلاة ورفض- ص 129-130 .

(2) نار وأصداء ص 65 .

(3) نهر الحقيقة ص 117 118

يُلْفِي الشَّبَاكَ مُؤْمِنًا مُؤَمِّلاً أَنْ تَرْزُقَهْ
وَاللَّيْلُ حَوْلَ طَرْفِهِ
لِلصَّبْرِ مَدَّ طُرُقَهْ
أَوْتَادَ ..وَظَلَّ سَاكِنًا يُرَاقِبُ الغُيُوبَا
كَأَنَّهُ مَدَلَّةٌ تَنْتَظِرُ الحَبِيبَا
وَفَجْأَةْ...
صَافَحَهُ الفَجْرُ
وَالأَمَلُ المَوْعُودُ وَالنَّهْرُ
فَعَادَ لِلْكَوْخِ بِحَمْدِ اللَّهِ
وَالحُبِّ وَالإِيمَانِ وَالحَيَاةْ(1)

كذلك حركة الفلاح مع شادوفه(2)،وهو يسبّح معها الله على نعمة نهر النيل،الذي غمر تربته بالماء الوفير، وأنعش أرضه،وأوحى زرعه وثماره،وفاضت عليه بالبركة والخير،وأضحى يفكر في زكاة هذا الفائض الوفير:

وَتَرَيْنِي أَنَّهُ الشَّادُوفُ ضَارِعَةْ
سُبْحَانَ مَنْ رَشَّ أَضْلاَعِي بِرَحْمَتِهِ...
المَاءُ يَجْرِي بِهَا وَالنِّيلُ يَغْمُرُهَا بِالجُودِ،لَكِنَّهَا تُشْجِي لِأَنَّتِهِ
تَظَلُّ تُشْقِيهِ مَضْدُودًا ومُنْكَسِرًا
مِنَ التَّذَلُّلِ،إِنْقَاذًا لِتُرْبَتِهِ..
سُبْحَانَ مَنْ سَيَّجِيلُ النَّهْرِ فِي يَدِهِ
جَدَاوِلاً تَتَبَارَى تَحْتَ خَطْوَتِهِ
تَجْرِي كَمَا شَاءَ،أَوْ إِنْ شَاءَ يَحْسَبُهَا
حَتَّى تَصِيرَ زَكَاةً فَيْضَ خَاتِمَتِهِ(3)

وتمتد علاقة النهر بالأرض ويكبر شعوره بمسؤولية الإحياء والإرواء،ويزداد تفكيره في بديع صنع الله في تلك الصحاري الممتدة في الأرض،والتي ليس لها سوى الظمأ والقيظ والرمل والحصى.ويؤمن برسالة الله إليه، ويتحدث عن نفسه بلغة المؤمن العابد المتمسك بقدرة الله...ونستنبط من قصيدة معجزة النهر(4)، إيمان الشاعر بأن هذه الموجودات من أشياء الله العظيمة ونعمه التي لا تحصى:

فَتَمْتَمَ النِّيلُ...وَاهْتَاجَتْ شَوَاطِئُهُ

---

(1) نهر الحقيقة- ص118-119.

(2) الشادوف: آلة من خشب، تستعمل لسقي .

(3) قلب الوردة ص66 68.

(4) قيلت هذه القصيدة في عطفة نهر [illegible]

كَمَعْبَدٍ هَبَّ مِنْ أَعْمَاقِ نَشْوَتِهِ
وَرَاحَ يَحْكِي عَنِ السِّرِّ الذِي تَجَلَّتْ
بِهِ اللَّيَالِي وَلَمْ تَفْصِحْ بِآيَتِهِ...
إِنْ كُنْتَ نَضَّرْتَ غَرْسًا أَوْ سَقَيْتَ رُبًى
أَوْ خَلَّدَ الطَّيْرُ آلاَئِي بِسَحْقَتِهِ،
يَامَا صَحَارِي عِطَاشًا وَدَّ سَالِكُهَا
لَوْ يَشْرَبُ المَوْتَ إِنْقَاذًا لِلَهْفَتِهِ!
مَرَّتْ عَلَيْهَا دُهُورٌ وَهْيَ لاَهِثَةٌ
يَشْوِي الهَجِيرُ عَلَيْهَا نَارُ جَمْرَتِهِ
تَمُدُّ لِي يَدَهَا ظَمْآى وَتَسْأَلُنِي كَنَاكِلَةٍ
لَمْ يَعْطِهَا اللَّيْلُ إِلاَّ صَمْتَ ظُلْمَتِهِ
وَاللهُ أَرْسَلَنِي أَحْيِي الوُجُودَ لَهَا
وَأَخْلُقَ الخُلْدَ مِنْ حَصْبَاءِ رَمْلَتِهِ[1]..

وفي قصيدة أخرى تشكل فكرة التسخير صورة حية نابضة بالنعمة والرحمة لاستجابة النهر لنداء الصحراء العطشى وزرع الأمل والنماء والحياة فيها وتجلت قدرته وقوته في تغيير وجودها وجماداتها . وقد استحال ليلها أي معاناتها وأنينها إلى نهار أي إلى فرح وحبور وحصاها إلى عطر ورهور وثمار . وتحقيق المعنى الحياتي الحكيم الذي أراده الله عز وجل لعناصر الكون فيما بينها وبين الإنسان ﴿ومن آياته أنّك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إنّ الذي أحياها لمحي الموتى . إنّه على كلّ شيء قدير﴾[2] ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها﴾[3] وقال الشاعر موكدا ذلك بلغته الشعرية فهاهي الأرض تنادي :

ظَلَّتِ الأَرْضُ تُنَادِي مِنْ قَدِيمِ الأَزَلِ
أَيْنَ مَاءُ النَّهْرِ يَرْوِينِي وَيُحْيِي أَمَلِي؟...
ظَلَّتِ الأَرْضُ تُنَادِي
وَسُكُونُ الصَّخْرِ يَسْتَمِعُ[4]

ويتعالى صوت النيل بأمواجه المتدفقة القوية،وتستولي على الكون لحظات الخشوع الرهبة لقوته وإصراره على تلبية النداء ،ومواجهة الصحراء بحقيقة الماء والنماء:

---

(1) المصدر نفسه - ص64-65 .

(2) فصلت- 39.

(3) الروم 50 .

(4) نهر الحقيقة ص176 177 .

...أنا صوت الله .

أسقاها جوار الماء

من قطرة ماء لم تزود

أنا صوت القدر المختوم

من حاربت صوتي يتبدد(1)

وتحقق حلم الصحراء ببأس وقوة وثورة. وأصبح حقيقة يجهربها النهر لكل الدنيا،وتكررت مقاطع النشوة والتغني والإيمان في القصيدة:

يا صحارى

أصبح الليل نهارا

والحصى أصبح عطرا

وزهورا وثمارا (2)..

كما أن الماء أو النهر هو الحياة والقوة والخير والرزق هو الطهر أيضا وتتجلى نعمه الماء في كونه طهارة وطهورا للإنسان وقد قال تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ.﴾(3) وقال ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا.﴾(4)

ووجد الشاعر في الماء هذا المدد المادي والروحي فهو منبع الصفاء والطهر،وقد قال :

وعلى النيل للسفائن همس - لطيوف الأحلام تهمو بقرقد

سبحت في عبابه الشمس تبغي الطهر - في مائه التطهير وتنشد(5)

وهذا الماء الطهور هو عنصر الوضوء وسر الصلاة والعبادة، وهذه هي الوظيفة الروحية للنهر التي تسمو بها نعمه وتكتمل غاية وجوده:

أقداحه وضوء

أمواجه سجادة

للطهر والعبادة(6)

---

(1) نهر الحقيقة- ص177-178.

(2) المصدر نفسه- ص179.

(3) الأنفال- 11.

(4) الفرقان- 48.

(5) أغاني الكوخ- ص99 .

(6) نهر الحقيقة- ص116-117.

المبحث الثالث
فناء الكون

1- الذبول.

2- التعاقب.

3- الكوارث.

4- النشور.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أكد القرآن الكريم من غير تحديد زمني أن لهذا الكون نهاية ولا بد سيفنى يوما ما. هذا اليوم الذي سماه القرآن يوم القيامة أو ويوم الدين أو يوم النشور ... وفي انتظار ذلك اليوم وجدنا في عناصر الطبيعة وما يطرأ عليها من تجدد وتغير وتحلّل وانتهاء،وما ينتابها من حالات للاستقرار والإنارة والإنعاش والإثمار تقابلها حالات للاضطراب والتعتيم والسقوط والذبول،إشارة إلى القانون الطبيعي الذي وضعه الله بحفظ الكون على ما هو عليه من تناسق وارتباط وبقاء ... الذي لا بد أن يتغيّر ويتبدل بفعل القوة الغيبية التي تملكه.(1) وإلى القدرة الحكيمة المتصرفة في الكون جميعه لا يعجزها في الأرض ولا في السماء أن تزرع الوجود بعد عدم وتنفث الحياة في الأموات والرمم (2).

وكثيرة هي العناصر الطبيعية التي استدل بها القرآن للإيمان باليوم الآخر،ولإثبات البعث والنشور ، ولتوكيد الزوال والانمحاء الكوني والبقاء والخلود الإلهي . مستدلا على ذلك بأحوال الحيوان والطير والنبات والشجر والشمس والقمر والليل والنهار(3)، وقد قال تعالى: ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾(4) ﴿وهو الذي يحي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾(5). ﴿ إذا الشمس كورت.وإذا النجوم انكدرت.وإذا الجبال سيرت.وإذا العشار عطلت.وإذا الوحوش حشرت وإذا البحار سجرت. ﴾(6) ﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت.وإذا الأرض مدت.وألقت ما فيها وتخلت.﴾(7) ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان مالها يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها.﴾(8) ويقول عن كل ذلك أيضا ﴿ ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو أقرب إن الله على كل شيء قدير.﴾(9)

---

(1) كاصد الزيدي- الطبيعة في القرآن الكريم- ص411 .

(2) المرجع نفسه- ص349.

(3) انظر-المرجع نفسه- ص341 وما بعدها .

(4) الحج-5-7.

(5) المومنون- 80 .

(6) التكوير- 1-6.

(7) الإنشقاق-1-4

(8) الزلزلة- 1-5 .

(9) النحل 77 .

فمشاهد تعاقب الفصول من ربيع إلى خريف، ومن شتاء إلى صيف، وتميز الكائنات الطبيعية بالنضارة والإيناع والذبول والاندثار، ومشاهد الأحداث والانقلابات الكونية من رعود وعواصف وزلازل وبراكين توحي بذلك << الإيحاء الذي يتسرب إلى الحس من رؤية هذا الكون تتناوله يد القدرة بالتغيير، وتهزه هزة الانقلاب المثير، فلا يبقى شيء على حاله في هذا الكون الكبير، وهذا الإيحاء يتجه إلى خلع النفس من كل ما تركن إليه في هذا الوجود إلى الله سبحانه خالق هذا الوجود الباقي، بعد أن يفنى كل موجود.>>(1)

فهذا الإيحاء لوّن رؤية الشاعر محمود حسن إسماعيل لفناء الكون. واتصاله الروحي بكل المحسوسات والتغيرات الكونية، خلق فيه شعورا قويا مؤمنا بحقيقة القدرة الإلهية في التصرف والتحكم في هذا الكون وفق نواميس وسنن وآجال غيبية، وبحقيقة المصير الكوني والإنساني المرتبط بالتغير والتبدل والتعاقب وانهيار والإظلام والطفولة والشباب والشيخوخة والموت والبعث والحياة من جديد. وبحقيقة التفرد الإلهي بالديمومة والبقاء والخلود. وعبر عن هذه الرؤى بشتى الرموز المحسوسة وغير المحسوسة، التي عكست الأبعاد الدينية والصوفية والتأملية الواقعية، وكانت غايته هي الوصول إلى تلك الحقائق.

1-الذبـــول :

وعاد الشاعر إلى السنبلة - وقد ذكرها في المحاور السابقة - مجددا الحديث عنها بصياغة فكرية وفنية أخرى. فكما أوحت له تأملاته المتكررة لها بحالة تعبدها ونموها وإزهارها وإثمارها كذلك بحالة احتضارها ونهايتها. فعبر مشهد سنبلة تحتضر فتذكر حياتها الزاهية التي مرعان مالفها الفناء لتستقبل الموت مؤمنة بالحكمة الإلهية وبالبعث والنشور، راضية بالمصير الذي يزرع الحياة للآخرين وبالحياة التي تبعث مرة أخرى. وتعبر عن احتضار شعورها بالحياة في الأزمنة الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل، وبالواقع المحسوس والغيبي، وبالتساؤلات التي تحمل إجابة الإيمان. إذ تقول :

كَانَ لِي عَرْشٌ عَلى الرَّبْوَةِ - مَمْـــدُود الظِّـــلاَلِ
تَهْجَعُ الشَّمْسُ إِذَا هَلَّـــتْ - بِه فَوْقَ التِّـــلاَلِ
وَالضُّحَى يَخْشَـــعُ، وَالآ - صال تَخْتُو،وَاللَّيَـــالِي
عَابِدَاتٍ سَاجِـــــدَاتٍ - فِي ثَرَى النِّيلِ حَيَـالِي ...
وَلِفَلاَّحِي بِهِ ..وَيْـــلاَ-هُ أَفْـــنَّ أَيُّ فَـــنِّ
قَبْلَ أَنْ تَصْحُو شَمَـــسِي فِي الثَّرَى يُوقِظُ جَفْنِي
وَيُغَنِّي ...فَيُسَاقِينِي الْهَوَى مِنْ كُـــلِّ حَـــنِّ
وَإِذَا نُرْمِضُهُ فِي الْـــحَقْلِ - أَنْفَـــاسُ الْهَجِـــيرِ
تَشْتَكِي تَحْتَ ظِـــلاَلِي - غَافِيًا مِثْلَ الطُّـــيُورِ
حُلْـــمُهُ: سُنْبُـــلَةٌ تَرْ - قُصُ فِي شَطِّ الْعَبِـــيرِ

---

(1) في ظلال سورة [illegible] ص 3855 .

فإذا استيقظ صاحت - بي الربى :حان مصيري
وإلى أين ستمضي - نعش عودي ويسير؟
إن موتي لو درى الإنسان بعث ونشور
فاسألوا "المنحل "عني -فهو بالسر خبير
واسألوا "النورج "ينبيكم بغد المصير (1)

وفي قصيدة " هكذا قال النورج"(2) يتحدث عن لسان النورج عن السنبلة ونهايتها ومصيرها :

تحت حدي قصة السنبل يرويها الفناء
غرسة صلى لها الصبح ،و حياها المساء
واحتسى حمر هواها في الضحى ظل وماء
وانتشى من سحرها طير الربى والشعراء...
عانقت حدي ...وقالت:أنا للكون فداء
هات لي الموت ..فعيشي لبني الدنيا غذاء..(3)

2- التعاقب :

أمام تعاقب الفصول،صور الشاعر شتى المشاهد الطبيعية المتغيرة ففصل الربيع عنده رمز للجمال والفرحة،والحب والشباب،والتتابع والتجدد،والبعث الكوني.حيث يقول عنه :

بالله يا طائفة بالبعث حول موطني
قولي :من الساري الذي بالسحر قد أيقظني؟
وجمع الأنقاض من قبلي الذي شتتني..
وجاء لي بالناي والحب.وقال: غني!...
أواه من خطاه من سحرها أرعشني
الجو سكران.ألا من رشفة تسكرني
والتوح نشوان.ألا من نشوة تنعشني
والطير مبهور الجناح .كحفون المدمن
والعشب منضور الصباح كجبين المؤمن
والأفق أبكار عذارى في رحيق الوسن
والنحل مزمار شفي في بمين أرعن
تهاترت أرجاله في فرحة لم تبن

---

(1) هكذا أغني - ص258-260 .

(2) النورج : هو سكة الحرث التي المقاطع التي يتم به تقطيع حقيقة الأرض حتى

(3) المصدر نفسه - ص260 .

والنَّحْلُ في غَرِّ الضِّبَاءِ كَصَوَارِي سُفُنِ
طَارَتْ بِأَعْرَاسِ القُرُونِ فَوَقْظَنَّ الأَعْيُنِ (1)

ويشتد افتنان الشاعر بالربيع في صوفية عميقة،فيمنحه قيمة ومغزى النور الذي يعم كل الحياة، ولا يكاد يفيق من الحب والحلم والنغم :

حَبِيبِي وَمَازَالَ نَايُ الرَّبِيعِ
يُرَدِّدُ لِلْحُبِّ أَنْغَامَنَا
وَيَرْوِي حِكَايَاتِنَا لِلْعَابِرِينْ
وَيَشْرَحُ لِلزَّهْرِ أَحْلَامَنَا
غَزَا النُّورُ كُلَّ دُرُوبِ الحَيَاةْ
فَهَيَّا نُوَدِّعُ أَوْهَامَنَا (2)...

إلا أن هذا الافتنان بالجو الربيعي لا يدوم ولا يطول،فسرعان ما يزول ويغيب الربيع، ليعبر الخريف عن فصل غامض،يشعر الشاعر فيه بقوة السؤال عن سر الغيب،عندما تنتاب الروض بأغصانه وأوراقه وظلاله وطيوره وحمائمه حالة من الصمت والكآبة والرهبة والخشوع والحكمة والنهاية:

مَا بَالُكَ يَا رَوْضُ حَزِينَا - عُرْيَانَ الرَّبْوَةِ مِسْكِينَا ؟!
هَجَرَتْكَ أَغَانٍ وَظِلَالُ - بِهَوَاكَ ظَلَلْنَ يُغَنِّينَا
وَيَطُفْنَ لَدَيْكَ مُصَلِّينَا ...(3)
حَيَّرَنِي لِلْغَيْبِ سُؤَالُ -
وَمَلَلْتُ،وَلَمْ يَدْنُ حَيَالُ - عَنْ سِرِّ عَذَابِكَ يُنْهِينَا
وَهُنَاكَ رَأَيْتُ الأَوْرَاقَا - فَرَأَيْتُ لِقَاءً وَفِرَاقَا
وَسَمِعْتُ أَنِينَ مُكَفَّنَةٍ - لِلْقَبْرِ تَلَمَّسَ آفَاقَا
- تَرَكَتْ فِي الأَغْصُنِ أَشْوَاقَا
وَهَوَتْ فِي التُّرْبِ كَمَعْصِيَةٍ...
هَرَبَتْ مِنْ نَفْسٍ مُنْحَنِيَةٍ - بِجِرَاحٍ تَطْلُبُ تِرْيَاقَا
وَرَأَيْتُ خَيَالاً كَذَّابَا - يَهْتَزُّ فَيَرْفَعُ أَحْطَابَا
كَمْ حَامَتْ فِيهِ فَرَاشَاتٌ - صَيَّرْنَ ذُرَاهُ أَكْوَابَا
... - وَعَصَرْنَ شَذَاهُ أَحْبَابَا

---

(1) قاب قوسين- ص155-156.

(2)المصدر نفسه - ص182.

(3) نلاحظ هذا التراوح في بعض أشعر الأبيات، وهي سمة في شعر بشاعرنا حيث يترك القصيدة على صورتها الأولى، لا يضيف لها بعد انتهائه منها.

وَاليَوْمَ تُغْوِمُ أهَاتُ ...
وَتُسَـــوَّحُ فِيهِ حَمَامَاتُ - يَنْدُبْنَ صِبَاهُ أَسْـرَابَا (1)

وتطول القصيدة بتساؤلات الشاعر عن سر الخريف الحائرة المتلهفة للمعرفة الغيبية إلى حد الشعور بتقمص سيرة الأنبياء وقوة النبوة على الرغم من شعوره بنور اليقين الساطع إلا أنه عجز عن الإدراك الكلي:

أَطْلَقْتُ هُنَاكَ تَسَايِيحِي - وَسَجَدْتُ بِرُوحِي كَمَسِيحِ
أَخَذَتْهُ غُيُوبُ نُبُـوَّتِهِ - فَأَهَـــاجَ بِهَا كُلَّ ضَرِيحِ
... - سَـطَعَتْ بِالنُّورِ مَصَابِيحِي
فَإِذَا بِالسِّرِّ وَيُقْطِينِهِ...
وَالقَلْبِ وَطُـولِ تَلَفُّتِهِ - حَلَحَاتٌ فِي قَصَبِ الرِّيحِ(2)

إلا أن هذا الشعور المتأمل الحائر الحزين ،ممتزج بالحسّ الروحي في قصيدة أخرى"ربيعنا لا يموت"حيث كشفت عن يقين الشاعر،الذي يكبر أمام خطات الشيخوخة والزوال،ومساحات الذبول الموحشة والفار ،ويزرع الأمل والإيمان والاستمرار والتجدد والانبعاث عند كل ربيع آت:

وَقَالَتْ:لَقَدْ غَاضَ سِحْرُ الرَّبِيعِ
وَأَمْرَعَ فِي شَاطِئَيْهِ السُّكُوتُ
وَمَا عَادَ يَخْشَعُ سَاقِي العَبِيرِ
إِذَا نَسْمَةٌ مِنْ يَدَيْهِ تَفُوتُ
تَوَلَّتْ طُيُورٌ،وَمَاتَتْ زُهُورٌ
وَخَيَّمَ فِي الرَّبْوَةِ العَنْكَبُوتُ
وَأَفْدَاحُنَا غَادَرَتْهَاالرِّيَاحُ
مَزَامِيرَ مَاضٍ صَدَاهَا شَتِيتُ
وَلَمْ يَبْقَ..حَتَّى خُطَا الذِّكْرَيَاتِ
وَلاَ طَيْفُهَا الهَالِعُ المُسْتَمِيتُ
تَبَدَّدَ فِي رَوْضِنَا كُلُّ شَيْءٍ
وَحَلَّ الفَرَاغُ البَلِيدُ المَقِيتُ...
فَقُلْتُ :اتْرُكِينِي لِيَسْرِ الزَّوَالْ
فَإِنِّي بِهِ مِنْ زَمَانٍ بُلِيتُ
فَلاَ حُضْرَةُ الرَّوْضِ كَانَتْ رَحِيبِي

---

(1) أبي المطر - ص(69-70) .

(2) المصدر نفسه - ص72 .

وَلاَ مِنْ تَدَاوِلِهَا قَدْ رُوِيتْ
وَلاَ العِطْرُ ،وَهُوَ نَدِيمُ الشَّبَابِ
عَلَى كَأْسِهِ أَيَّ صَفْوٍ لَقِيتْ
وَلاَ الطَّيْرُ وَهُوَ رَخِيمُ الرَّبَابِ
بِأَلْحَانِهِ البِيضُ يَوْمًا شَجِيتْ
هَوَاكِ وَأَنْتِ ،وَهَذَا الوُجُودُ
رَبِيعٌ يُجَدِّدُنِي مَا حَيِيتْ
فَلاَ تَفْزَعِي إِنْ أَطَلَّ الخَرِيفُ
وَلَمْ يَبْقَ فِي اللَّحْنِ إِلاَّ حُفُوتْ
فَلَوْ مَاتَ فِي رَوْضِنَا كُلُّ شَيْءٍ
فَإِنَّ رَبِيعَ الْهَوَى لا يَمُوتْ (1)

فالربيع لايموت،والكائنات الطبيعية لاتموت الموت المطلق . لأنها اقتنعت هي أيضا بأن قدرة إلهية تحكمها وتسيّرها بمشيئتها وتمنحها الحياة والسير والعطاء والتواصل والتجدد . إلى أن تنتهي إلى موعد وأجل مقدور. حيث تنتهي كل الخلائف إلى صورة أخرى من الكون والحياة. كهذه الزهرة، على الرغم من حزنها وارتياعها وهي ترى ستور الظلام الزاحفة بالقتام والعمام والهجير، وترى موت الزهور والطيور والظلال والعطور . إلا أنها مؤمنة بقضاء المسير والرحيل الأخير . وحياة تؤول إلى الموت،هو مقدمة نهائية للوصول إلى نور الحياة الحقيقية :

وَإِنْ مَاتَ حَوْلَكِ سَاقِي النَّدَى - وَفَتَحَتْ لَدَيْكِ أَفَاعِي الهَجِيرْ
فَلاَتَجْزَعِي..إِنَّ رُوحِي مَعَهَا - لأَهَاتِ رَوْضِكِ نَبْعٌ غَزِيـــرْ
يُفَجِّرُهُ عَابِثًا سِحْرُكِ
وَيُسْكِرُ أَمْوَاجَهُ عِطْرُكِ
فَتَجْرِي وَتَجْرِي بِهَا نُـــورِكِ
..... إِلَى أَنْ تُلاَقِي الزَّكَاتِ الأَخِيـرْ!
وَإِنْ مَاتَ حَوْلَكِ زَهْرُ الرُّبَى - وَكُنْتِ البَتِيمَةَ فَوْقَ الهِضَابْ
فَلاَ تَذْرِفِي دَمْـــعَةً...إِنَّنِي - حَلَفْتُ لأَجْمَلِ عَنْكِ العَـذَابْ

---

(1) قاب قوسين- ص198-200 .

كِلاَنَا غَرِيبٌ يَتِيمُ الزَّمَانْ
فَنَيَّا نُخَلِّدُ زَهْرَ الجِنَانْ
وَنَقْطِفُ مِنْ قَبْلُ تَمْضِي الأَوَانْ
وَنَقْطِفُنَا قَبْضَةٌ مِنْ تُرَابْ (1)

ويبقى شعور الزهرة مشبعا بإيمان الشاعر بصورة الجمال الإلهي والبقاء الإلهي. فكل انهيار ذبول أوسقوط، يوحي بالخلود لا خلودالطبيعة وإنماخلود الخالق المعبود.إذ يخاطب الزهرة في نهاية القصيدة،بذلك الإيمان على الرغم من مشاهد الفناءوالزوال:

وَإِنْ مَاتَ حَوْلَكِ مَنْ فِي الثَّرَى - وَأَصْبَحْتِ مُفْرَدَةً فِي الجِبَالْ
فَلاَ تَنْدُبِي فَانِيًا..إِنَّنِي - أَرَى فِيكِ كَوْنًا يُحَيِّيهِ الزَّوَالْ
فَفِيكِ الإِلَهُ الَّذِي أَعْبُدُ
وَفِيكِ الخَيَالُ الَّذِي أَنْشُدُ
وَفِيكِ الهَوَى وَالصَّبَا وَالغَدُ
دَعِينِي أُشَيِّعُ بِهَذَا الجَمَالْ (2)
.....

ولهذا فالخريف لايوحي بالنهايةالمطلقةلكائنات ومكونات الطبيعةلأن الربيع سيعقبه لامحالة فيعث فيها الحياة مرة أخرى. وفي هذا التعاقب الفصلي والانتقال الكوني، دلالات قدرة الله على تصريف الكون وعلى الإحياء والإماتةوعلى البعث والجزاء والآخرة والخلود الإلهي.

3- الكـــوارث :

ومن ظواهر الفناء التي استمد منها الشاعر لوحاتهاالشعرية،هي كوارث الطبيعةوبخاصة الزلازل فهي تمثل انفراط عقد نظام الكون وتناثر أجزائه وفناء مدائنه وبشره. والزلازل صورة مصغرة لزلزال يوم القيامة،وقد عمل الشاعر في قصدته"ثورة الطبيعة"على المزج بين الصورتين،زوال مفاجيء شبيه ومرتبط بزوال منتظر رهيب وهائل. وسار على نمط السورة القرآنية "الزلزلة"الإيقاعي والتصويري،مصورا مفاجآت الزلزال وهلع وذعر الكائنات،واضطراب وانهيار الجمادات.وزوال ظواهر الطبيعة،وفناء أصناف البشر بصور تشبه لحظات يوم القيامة .يوم الهول والرعب والموت والنهاية والحسم والمصير.(3)

---

(1) أبي المعر- 113-114.

(2) المصدر نفسه- ص114.

(3) انظر - سيد قطب- مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق- القاهرة ط11 (1413هـ-1993م)-ص242.

بينما الأرض في نشوة السكينة ،تترقب شروق الفجر. فجأة تثور الطبيعة ،وإذا بقلبها يرجف رجفة ،ليطوى كل شيء في ثواني معدودة بكل ما فيه،الصباح والنور، المدائن والقرى، الأثير والثرى، الحياة والزمان:

...وَإِذَا بِقَلْبِ الأَرْضِ تَرْجِفُ رَجْفَةً
دُكَّ الصَّبَاحُ،وَذَابَ فِي خَفَقَاتِهَا
وَانْشَقَّتِ الدُّنْيَا لَدَيْهِ.فَلَمْ تَجِدْ
أَرْضًا يُغِيثُ النُّورَ فِي رَبَوَاتِهَا
فَطَوَى المَدَائِنَ،وَالقُرَى.وَهَوَى بِهَا
فِي سُدْفَةٍ تَهْوِي عَلَى ظُلُمَاتِهَا
وَطَوَى الأَثِيرَ.فَلَمْ يُغَادِرْ ذَرَّةً
فِي الجَوِّ سَابِحَةً إِلَى غَايَاتِهَا
وَطَوَى الحَيَاةَ شَقِيَّهَا بِسَعِيدِهَا
وَصَفَاءِ فَرْحَتِهَا بِدَمْعِ شَكَاتِهَا
وَطَوَى المَرُوجَ فَمَاتَ مِنْ أَحْلَامِهَا
خَطْوَ الرَّبِيعِ الغَضِّ نَحْوَ نَبَاتِهَا
وَطَوَى الزَّمَانَ .فَكَانَ عَقْرَبَ سَاعَةٍ
سَبَقَتْ خَيَالَ الجِنِّ فِي دَوَرَاتِهَا...
زَأَرَتْ جِرَاحَ الأَرْضِ فَاهْتَاجَ العَدَى
وَتَنَهَّدَ الزِّلْزَالُ فِي سَاحَاتِهَا ...(1)

وصور في لوحة أخرى حالة تهاوي الكون بمافيه،وانتشار كل شيء،إذ هوت القباب والقصور والبروج، وهوت المساجد والمآذن والكنائس والأجراس،وهوى الكهول والأطفال والأجنة والعذارى والأمهات ذهولا وفزعا وموتا أمام "عزرائيل " ملك الموت وقابض الأرواح :

---

(1) قاب قوسين- ص208-209 .

فَهَوَتْ غِيَابُ كُنَّ أَشْمَخَ عِزَّةً
مِنْ أَنْجُمِ الجَوْزَاءِ فِي دَارَاتِهَا
وَهَوَتْ قُصُورٌ تَرْقُصُ الدُّنْيَا بِهَا
وَخَرِيرُ حَانِيَةً عَلَى عَتَبَاتِهَا
وَهَوَتْ بُرُوجٌ عَرَّشَتْ فِيهَا المُنَى
وَأَطَلَّ وَجْهُ الدَّهْرِ مِنْ شُرُفَاتِهَا
وَهَوَتْ مَغَانٍ لَمْ يَعُدْ سِتْرُ الهَوَى
فِيهَا، وَعَاثَ المَوْتُ فِي رَحَبَاتِهَا
وَهَوَى بِهَا عِزْرِيلُ فِي جَوْفِ الثَّرَى
فَزِعَ الجَنَانُ مُرَدِّدًا آهَاتِهَا
وَاهًا عَلَى فِتَنِ العَذَارَى... وَالصِّبَا
وَالطُّهْرُ يَنْتَحِبَانِ مِنْ نَظَرَاتِهَا!...
وَاهًا عَلَى الطِّفْلِ المُهَدْهِدِ فِي الكَرَى
حَمَلَتْهُ كَفُّ الرِّيحِ فِي لَطَمَاتِهَا
يَا رَبَّ ثَاكِلَةٍ تَدُورُ بِهَوْلِهَا
فَتَرَى حَشَاهَا انْسَلَّ فِي طُرُقَاتِهَا
صَرَعَتْ فَلاَ مَدَّتْ يَدًا لِوَحِيدِهَا
عِنْدَ الفِرَاقِ وَلاَ مَوْتَ عَبَرَاتِهَا ...
وَيْحَ المَسَاجِدِ مَادَهَا أَرْكَانَهَا
فَهَوَتْ مَنَابِرُهَا سُدَّاتِهَا؟
أَيْنَ المَآذِنُ؟ أَيْنَ صَوْتُ أَذَانِهَا
فِي الفَجْرِ؟ أَيْنَ مَقَصِّ رَنِينُ دُعَاتِهَا؟
أَبَادَ كُبْكِبَ عَابِدُوهَا وَانْتَهَتْ
بِهِمِ جِرَاحُ الأَرْضِ فِي رَعَشَاتِهَا!
وَكَنِيسَةٍ كَانَتْ نَمِيمَةَ رَاهِبٍ
سَهْرَانَ يَرْقُبُ فِي الدُّجَى دَقَّاتِهَا
أَجْرَاسُهَا قَرَعَتْ، فَحَفَّ لِعَتْوِهَا
رُهْبَانُ بَيْعَتِهَا، وَأَهْلُ صَلاَتِهَا!...

---

(1) المصدر السابق ص210 213

لقد انطلق الشاعر من هذا الوضع الجزئي الطارىء، ليعبر عن وضع حتمي سيعم الكون ، قد يبدو وقريبا من حواسنا ومداركنا .إلا أننا لا ندرك كل أبعاده الكونية الغيبية على الرغم من تصوير بعض مشاهد يوم القيامة(2)،ورغم تكرار ألفاظ الطي والتهاوي والذبول والسقوط والتحلل والاندثار والدالة على قدرة الله وعظمته. يبقى كل شيء من علم العليم.

وأعمق ما في القصيدة(1) ما شكله للأرض من لوحتين كبيرتين تجسد حالتها الكونية والحياتية ما قبل الزلزال وما بعده.لوحة للأرض في حالة نشوتها وحركتها،واستقرارها وهدوئهاوغفلتها وشهوتها. ولوحة أخرى في حالة اضطرابها وذهولها وهيجانها وذعرها وندمها تحسرها ومواجهتها لحقيقة الفناء الأكيدة والمفاجئة. هاتان اللوحتان تجسدان قيمتين كبيرتين هما الحياة والموت ،وما يملأهما من فواصل حياتية متناقضة،فيها الخير والشر والظلام والنور،والإثم والتوبة والبداية والنهاية. ومفاجأة النهاية في القصيدة صورة لجهنم بدخانها ودخانها وهولها . لكن فيها مغفرة وعبرة لتدرك الأرض درب الحق والهدى والخلود منها:

يَا أَرْضُ :وَاسْتَمِعِي،رُوَيْدَكِ إِنَّهَا
دُنْيَا يَحَارُ العَقْلُ فِي حَالاَتِهَا
تَشَرَتْ عَلَيْكِ مَعَ السَّمَاءِ هُدُوءَهَا
وَأَتَى الصَّبَاحُ يَئِجُ مِنْ ثَوَرَاتِهَا
بَغَتَتْهُ أَشْعَثَ حَامِلاً هَمَّ الوَرَى
وَمَآتِمَ الدُّنْيَا وَإِثْمَ جُنَاتِهَا
أَنْفَاسُه لَهَبُ الجَحِيمِ وَخَطْوُهُ
خَطْوُ المَنَايَا السُّودُ فِي فَحَآتِهَا...
وَدُجَى دُخَانٍ مِنْ جَهَنَّمَ فَائِرٍ
سَبَقَتْ الرِّيَاحَ الهَوْجَ فِي فَلَوَاتِهَا ...
يَا بِنْتَ أَهْوَالَ الطَّبِيعَةِ...إِنَّهَا
أَمْ تَلَذُّ العَفْوَ عَنْ هَفَوَاتِهَا
حَسْنَاءُ سَاجِرَةٌ يُعَابِثُ سِحْرَهَا
بِالمَوْتِ ،فَاغْفِرِي لَهَا زِلاَّتِهَا
غَنَّى أَسَى الزِّلْزَالِ فِي أُنْشُودَةٍ
سَوْدَاءَ قَانِيَةٍ عَلَى آهَاتِهَا

---

(1) قصيدة " ثورة الطبيعة" طويلة من 76 بيت لا نملك عرضها كلها.

صُوَرُ الفَنَاءِ تَطُوفُ حَوْلَ رَبِيبِهَا
وَصَدَى الخُلُودِ يَرِنُّ مِنْ أَبْيَاتِهَا(1)

4- النشـــور:

ومن خلال استعراضه لطي صفحة الكون ، ورسمه لمشاهد الفنـاء المرتبطة بـالخواء والجفـاف والسـقوط والذبول والبكاء والذهول والصمت والسكون ،واختفاء وتواري كل المشاهد والخلائق بعد الحركة والازدهـار والحياة. تجلى الله عز وجل متفردا بالبقاء ومتفردا بالجلال . واستقرت في حس الشاعر حقيقة البقاء الإلهـي وهو يشهد ظلال الفناء ﴿...كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ.﴾(2) في ظل هذا النصر القرآني تخفت الأنفاس وتخشع الأصوات،وتسكن الجوارح،وظل الفناء يشـمل كل حي ويطوي كل حركة ،ويغمر آفـاق السـموات والأرض وجـلال الوجـه الكريـم البـاقي يظلـل النفوس والجوارح والزمان والمكان ،ويغمر الوجود كله بالجلال والوقار(3).واستشف الشاعر حقيقة البقـاء الإلهـي مـن حقيقة الفناء ،وكانت قصيدته "البقاء"تعبيرا روحيا باحي الباقي الذي يخلق ويبدع ويحي ويميت. ويبقى عندما تفنى كل الزهور والعطور والطيور والظلال والأحفان. وهو الربيع والعبير والشـعاع أي النـور،وكلهـا رمـوز عبرت عن البقاء الإلهي :

.إلهي
وَإِنْ ذَبُلَتْ فِي يَدَيَّ الزُّهُورْ
وَجَفَّتْ حَوَالَيَّ كُلُّ العُطُورْ
وَلَمْ يَبْقَ حَتَّى خَرِيفُ الغُصُونْ
وَأَحْلَامُهُ فِي رَبِيعِ الظُّنُونْ..
وَلَمْ تَبْقَ لِلظِّلِّ رُؤْيَا سُفُوحْ
عَلَى فَرْعِهَا مَالَ طَيْرٌ جَرِيحْ
وَآنَاً يُغَنِّي
وَآنَاً يَنُوحْ
وَآنَاً عَلَى صَمْتِهِ يَسْتَرِيحْ
وَإِنْ غَامَ كُلُّ السُّطُوعْ

---

(1) المصدر السابق- ص214-216 .

(2) الرحمان- 26-28 .

(3) في ظلال القرآن- ج27-ص 3457 .

المبحث الرابع
الله والكون

1- الله ودلائل وجوده.

2- الله والنور.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَأَغْمَضْتِ الجَفْنَ كُلُّ الشُّمُوعْ،
فَأَنْتِ العَبِيرُ، وَأَنْتِ الرَّبِيعْ
وَأَنْتِ الغَدِيرُ، وَأَنْتِ الشُّعَاعْ (1)

تجسيد الشاعر لحقيقة البقاء مقابل الفناء، منحه الشعور اليقيني والإيماني بالبعث والخلود. فتجددت روحه بعمر جديد ،وربيع جديد وضياء جديد وبدت له روضة أخرى ودنيا أخرى من السحر والنور والحب والرجاء ويسبح فيها الله ، ويعيش فيها الجميع . إنها الجنة بلاشك رمز أعمق وأشمل لفكرة البقاء ويبقى الله أقوى رمز للخلود والسمو والعلو المطلق . وقد انتهت القصيدة بالاجلال والتعظيم له :

تَرْتَدُّ رُوحِي ...بِزَهْرٍ جَدِيدْ
وَبُسْتَانِ عِطْرٍ وَطِيدْ
بِهِ فَتَّحَ الوَرْدُ لَهْفَانُ يَرْنُو إِلَيَّ
بِهِ صَبَّحَ الطَّيْرُ يُلْقِي الهَوَى فِي يَدَيَّ
بِهِ كُلُّ غُصْنٍ...رَبِيعٌ يَرِفُّ
بِهِ كُلُّ طَيْرٍ ...غِنَاءٌ وَدِفُّ
بِهِ العُمْرُ فَجْرٌ جَدِيدُ الضِّيَاءْ
وَدُنْيَا السِّحْرِ غَرَّدَ فِيهَا الرَّجَاءْ
وَذَابَ عَلَى نُورِهَا كُلُّ لَيْلٍ وَكَرْبْ
وَسَبَّحَ لِلَّهِ فِي رَوْضِهَا كُلُّ قَلْبْ
وَفِي أَرْضِهَا كُلُّ سَارٍ وَدَرَبْ
تَعَالَيْتَ يَا رَبِّ!
تَبَارَكْتَ يَا رَبِّ!(1)

---

(1) نهر الحقيقة- ص154-155 .

(2) المصدر نفسه - ص156-157 .

<< إن الله ذات واحدة ،تتعدد مظاهرها في العالم وأشيائه. فالله ليس فكرة يتأملها الشاعر ،وإنما هو معنى كل وجودنا ،يسري في الكون بأسره.>>(1) ولذا كانت رحلة الشاعر الكونية لمعرفة الله شاقة وعسيرة .<< من خلال تعقيد النظام الكوني ، وغموض تفاصيله،واختلاف الظواهر واتفاقها في شعره>>.(2)

وكان الكون مدخلا شائكا وشاسعا ،ومسلكا طويلا وشاقا. إلا أنه كان معبرا رحيبا ومضيئا ، وموصلا إلى الله وكانت تلك المحاور الكبرى لرؤية الشاعر الكونية مؤشرات الوصول إلى الحقيقة الإلهية الكبرى تجلّت من خلالها <<حقيقة وجود الله ،وسرمديته ووحدانيته وقدرته وهيمنته ، وتدبيره لأمر الخلق وطلاقة مشيئته إلى آخر صفات الله الفاعلة في الكون والحياة والناس >>(3)

1- الله ودلائل وجوده :

لقد أقام الشاعر علاقة مباشرة ورحبة بين الله والكون تتسم بالتجريد حينا والتجسيد حينا آخر . فكانت العناصر والظواهر والكائنات في الطبيعة وسيلة لاستيعاب المضمون الخاص بأشواق الشاعر الروحية وأحاسيسه وأفكاره المجردة . وتتسع صورة الله في الكون باتساع مظاهر الوجود الإلهي في الأرض والسماء ، في الكائنات والموجودات ، في المعاني والقيم(4) . وتكبر فكرة الإيمان بالبحث عن الله في كل شيء . والإيمان بوجود الله المطلق لا يتحقق عند الشاعر إلا بالعثور على السر الإلهي من خلال الرؤية والمشاهد كوسيلة استكشاف هذا السر الكامن في مظاهر الوجود ،كما هو كامن في الذات ووسيلة وصول إلى معرفة الله على الرغم من أن ذلك السر يظل عميقا ومحجوبا عن الإدراك البشري.ويتتبع هذا السر الإلهي في قصيدة طويلة "نار السكينة":

إِلَهِي ..وَمَازَالَ فِي الثَّانِي سِرٌّ
وَشَطٌّ مِنَ الوَحْيِ مَا زُرْتُهُ
عَمِيقٌ كَحُلْمِ الرُّؤَى فِي خَيَال
عَلَى غَفْوَةِ الرُّوحِ كَفَّنْتُهُ ...
عَمِيقٌ ...وَلَكِنَّهُ سَابِحٌ
قَرِيبٌ ، إِذَا مَا تَذَكَّرْتُهُ
وَذِكْرَاهُ فِي كُلِّ مَا أَشْتَهِي
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ تَعَشَّقْتُهُ

---

(1) مصطفى السعدني - التصوير في شعر محمود حسن إسماعيل - ص43 .

(2) المرجع نفسه- ص43 .

(3) سيد قطب - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته- ص74 .

(4) انظر فصل الرؤية في رحلة [illegible]

أَرَاهُ عَلَى الزَّهْرِ لَكِنَّنِي
إِذَا صَافَحَ العِطْرُ غَافَلْتُهُ
أَرَاهُ عَلَى النَّهْرِ لَكِنَّنِي
إِذَا عَانَقَتْ المَوْجَ غَادَرْتُهُ
أَرَاهُ عَلَى الدَّوْحِ لَكِنَّنِي
إِذَا مَايَلَ الغُصْنُ زَايَلْتُهُ ..
أَرَاهُ بِذَاتِي فِي كُلِّ هَمْسٍ
وَفِي كُلِّ طَيْفٍ خَيَلْتُهُ...
وَفِي كُلِّ ذَرَّاتِ هَذَا الوُجُودِ
أَرَاهُ زَيْنًا تَسَتَّعْتُهُ
وَأَضْفَيْتُ فِيهِ ،وَكَرَّرْتُهُ
وُجُودًا لِذَاتِي أَحْفَيْتُهُ(1)

وفي قصيدته أخرى مع "الله" يبحث عن دلائل وجود الله في ثنايا الكون الواسع، فالظل والهجير والعطر والعبير، والسنابل والمناجل، والريح والصحارى، والخفق والرزق، والليل والفجر، كلها << كانت معادلا خارجيا محسوسا لفكرة ذهنية تسيطر على كيان الشاعر، مؤداها أن هذا الكون ليس إلا ظلا لله تنعكس عليه الذات الإلهية، فتنبض فيه الحياة والحركة.>>(2) إذ يقول :

... هُوَ الظِلُّ إِنْ مَسَّ قَلْبِي الهَجِيرْ
هُوَ العِطْرُ إِنْ غَابَ عَنِّي العَبِيرْ
هُوَ الخَفْقُ بَيْنَ السَّنَابِلْ
هُوَ الرِّزْقُ يَهْوَاهُ حَدُّ المَنَاجِلْ
هُوَالَّيْلُ يَسْتُرُ دَمْعَ الحَيَارَى
هُوَ الرِّيحُ تُؤْنِسُ صَمْتَ الصَّحَارَى
هُوَ الفَجْرُ يُوقِظُ لَيْلَ الغُفَاةْ...(3)

ويكاد في حالة من الجد الشعري أن يسوي بين الله والكون عن طريق هذا العرض الكوني . إلا أنه سرعان ما يفيق من ذهوله الإيماني ليجد في نفسه قوة هائلة من الإيمان القوي بوجود الله ،ووقد أصبح يراه ويسمعه في كل شيء . وبلغة جميلة وشفافة ،وإيقاع خفيف وهادي يوحي بالتسبيح والخشوع ، وبتكرار لفظة "إلهي " شكلا وبناء ونداء تفضي بالنداء المتضرع المؤمن وبالتقارب والتواصل مع الله :

---

(1) لابد -ص 153 .

(2) مصطفى السعداني المقدس العربي في شعر [illegible] ص 33 .

(3) نهر حقيقة ص [illegible] .

إلهي رأيتك
إلهي ...وفي كل شيء رأيتك
إلهي .... سمعتك
إلهي ، وفي كل شيء سمعتك
رأيتك في كل حي
سمعتك في كل شيء
وفي أفق بروحي شهدتك (1)

2- الله والـــنور :

ويتعالى وجود الله عن أي مشهد أو صوت ، ليغدو نورا يشع في كل فج وظل ،وفي كل قلب ووجه.
وينزّه الشاعر الله عن الإدراك الحسي سواء بالعين أم بالأذن.ويثبت الإدراك القلبي الذي يليق بالله تعالى:

هُوَ النُّورُ،في كُلِّ فَجٍّ يَسِيرْ
وَيَمْحُو الدُّجَى مِنْ خَفَاءِ الصُّدُورْ
هُوَالنُّورُ ...
في كُلِّ قَلْبٍ حَيَاهْ
وَفي كُلِّ وَجْهٍ صَلاَهْ
وَظِلٌّ لِنُورِ الإِلَهْ
إلهي ..وفي كُلِّ شَيْءٍ رَأَيْتُكْ
إلهي رَأَيْتُكْ ،إلهي سَمِعْتُكْ
تَعَالَيْتَ ...لَمْ يَدْنُ شَيْءٌ لِعَيْنِي
تَعَالَيْتَ ...لَمْ يَهْفُ صَوْتٌ بِأُذْنِي
وَلَكِنَّ نُورًا بِقَلْبِي يُطِلُّ ..
وَمِنْ طَيْفِهِ كُلُّ نُورٍ يَهِلُّ (2)

فالله هو النور الإلهي،لا النور الحسي الذي يتسامى عن النظر والبصر، ويدرك بالمعرفة الروحية لا الحسية.
من خلال قصيدته " موسيقا من النور" :

وَلاَ وَمِيضَ النُّورِ، وَهُوَ نُورُ
أَخْفَتْهُ اللَّيْلُ بِلاَ مُسْتَوِرْ!
فَعَالَمِي لَيْسَ هُوَ المَسْطُورْ

---

(1) نهر الحقيقة ص(٧٨) .
(2) المصدر نفسه ص(٧٤) .

وَلاَ مَرَايَا البَحْرِ المَبْهُورْ...
لَكِنَّهُ فِيثَارَةٌ لِلرُّوحِ، فِي تَعْرِيفِهَا كَلاَمْ
يَسْتَمْتِعُ مِنْ يَسْتَمِعُ الأَسْرَارَ مِنْ غِبَاوَةِ الأَحْسَامْ
وَمَنْ يَرَى بِحِسِّهِ تَحَرُّكَ الرَّنِينِ فِي الأَنْغَامْ...(1)

فمن خلال عناصر الكون يدخل إلى التعرف على السر الإلهي والالتقاء بجمال النور الخفي وراءها. فهي بالنسبة له << مجال المعاني الإلهية ومظاهر للصفات الربوبية، تفضي بالمرء - إذا قرأها واستجلاها- إلى نور معرفة خاصة تنكشف له من ورائها غلالات الأسرار، وتقبل عليه من أطوائها حياة روحية نفاذة، تعطر باطنه وتنوّ ره من الداخل، نورا يحسّ ولا يوصف. وعندها يصير إلى قناعة ضرورية أن هذا هو المعنى القيم الوحيد الذي لا ينبغي أن ينفق أيام العمر إلا في طلبه والوصول إليه، وأن ماعداه باطل لا يستحق إلا إلى الوهم والرماد.>>(2)

ويتغلغل النور الإلهي في ذرات الوجود ليصوغ الشاعر كل كيان الحقيقة،ويدرك سر هذا النور الذي يمثل سر وجود الله كشيء أكبر من التصوير أو التجسيد.وتتجاذب مرايا الكون الدائرة في فلك الله خيال الشاعر المحنح لا تهويماته ، فيسبح في فضاء الأكوان والأزمان ليدرك شيئا عميقا من حقيقة كبرى تكبر عن هذا الإنسان وتمتد عنه امتدادا،لا نهائيامطلقا . أو ليمسك خيطا سريا من أسرار تحمل ضخامة وجلالة هذا الكون. ويومض النور في أعماقه بشتى الألوان والأحاسيس والصور الموجودة في الكون والحياة:

فَنُورُهُ غَمْرَ الدُّهُورْ...
فِي الحُبِّ ، فِي الأَمَلِ المُحَلِّقِ ...فِي الأَجِنَّةِ فِي البُذُورْ
فِي الرِّيحِ ...فِي النَّسِيمِ المُرَنِّحِ ، فِي العَشَايَا وَالبُكُورْ
فِي الطَّيْفِ ..تَلْمَحُهُ ظِلاَلُ ظِلاَلِهِ فَوْقَ الغَدِيرْ
فَفِي الشَّفِيحِ ، فِي ضَجِرِ المَقَاوِرِ،فِي البَرَارِخِ،فِي البُحُورُ ...(3)

وتغمر الشاعر نشوة النور . فيرى الكون كله مغمورا بأمواج دفاقة من النور ، ويسمو بعالمه المحسوس ، وبحواسه المحدودة بمقدار ما يوصله إلى عالم النور ، ليحوض في التحريدات المتعلقة بالسرمدية والأزلية والمطلقة.

ويواصل البحث عن النور بصفات النور من ضوء وضياء،وسنا وشعاع ، فيقول :

---

(1)موسيقا من السر - ص56

(2) مجلة العالم - المقال السابق- ص50

(3) موسيقا من السر - ص16

عَلَى الأَرْضِ نُورٌ وَفِي الأُفْقِ نُورٌ
وَفِي كُلِّ قَلْبٍ شُعَاعٌ يَدُورُ (1)

ويهتدي الشاعر إلى أن الله نور السماوات والأرض . وهذه هي الحقيقة النهائية والأكيدة التي تحقق قمة التسامي والإشراق،خاصة لما نقرنها بقوله تعالى ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ...﴾(2) حيث يفيض النور الهادئ الوضيء،فيغمر الكون كله وإذا هو بما فيه ومن فيه نور طليق من القيود والحدود ، تتصل فيه السموات والأرض ، والأحياء والجماد ، والبعيد والقريب ، وتلتقي فيه الشعاب والدروب ، والخوالج والظواهر، والحواس والقلوب. (3)

وإقرار الشاعر على أن الله نور. يعني التخلص من تصور ذات الله في صورة ما. فإطلاق النور على الذات الإلهية ، يؤخذ على أنه إشارة إلى أن الذات الإلهية مطلقة، لاعلى أنه يوحي بخلوها في كل شيء. فالذات الإلهية مطلقة في ذاتها ، ولكن حين تتنزل إلى مفاهيمنا يجب أن تكون على صورة ما ، ويجب أن تكون تلك الصورة على أكمل ما يكون الكمال نور على نور. (4)

على الرغم من إحساس الشاعر بالعجز عن إدراك الحقيقة الإلهية المطلقة في الكون ، فإن هذا الإحساس دليل الإيمان الراسخ الذي لا يتأثر ولا يضطرب بأي تقلبات أو شكوك أو أوهام... فقد أدرك أن الله ليس ذاتا مبهمة مجهولة ، كما أنها ليست محدودة ، مجسدة . حاول أن يجعلها فوق الإدراك ، وفوق أي تحديد على الرغم من استدلاله على وجود الله، بدلالات كونية واضحة وشواهد ناطقة تشهد بجلاله وعظمته وقدرته. ومحاولة تجسد الله في الطبيعة والكون ، كانت له في ذلك طريقة جارفة في التصوير. فلمّا يقول :

كُلَّمَا أَبْصَرْتُ شَيْئاً
كُنْتَ فِيهِ كُلَّ شَيْءْ
أُبْصِرُ اللَّيْلَ ، فَأَلْقَاكَ بِهِ سَلاَلَ ضَوْءْ
أُبْصِرُ الظِّلَّ ، فَأَلْقَاكَ بِهِ أَنْهَارَ فَيْءْ...
أُبْصِرُ الزَّهْرَ ..فَأَلْقَاكَ بِهِ مَوْجَ عَبِيرْ

---

(1) قاب قوسين - ص143 .

(2) النور - 35.

(3) في ظلال القرآن - ج18 - ص2819 .

(4) عبد الكريم الخطيب-- الله ذاتا وموضوعا- ص455 .

أُبْصِرُ الرَّوْضَ ..فَأَلْقَاكَ به شَطَّ غَدِيرْ
وَإِذَا أَسْمَعُ..يُشْجِينِي صَدَى مِنْكَ مُثِيرْ»(1).

فهو لا يقصد البصر الظاهري الحسي. وإنما يقصد من البصر عمق البصيرة ومن النظر بعد الرؤية .فشلالات الضوء ، وأنهار الفيء ، وأمواج العبير ، وشط الغدير ، والصدى المثير والتي تقابل الليل والظل والزهر والروض . كانت رموزا لإدراك بعض الملامح بالتشبيه والتجسيم وفي ذات الحين رموزا لمعاني غير محسوسة وموجودة بتلك الصورة في واقع الحس ، فهي صور تسمو على تجسيد العقل والخيال. فالشاعر ببصيرته النافذة مترجم للإشارات الإلهية التي يتعرف عليها من خلال الأشياء المحسوسة أو يعيد تكرارها أو تذكرها دون الاعتماد على الحس.(2)

وتبقى صورة الكون، وصورة النور نور الله ، تؤكد على أن الله ﴿ليس كمثله شيء﴾(3) وتبقى نغمات مقاطعه الشعرية الأخيرة"تعاليت يا رب"،" تباركت يا رب"، " سبحانك يا رب"، ... دلالات روحية أعمق من كل تجسيد أو تجريد. وياخذ كل تشكل كوني في الذوبان أمام قيمة الله.

ويبقى الكون منهجا مرسوما ، يسلكه الإنسان للتعرف على الله << إذا كانت الإشارات التي تشير إلى الله، أكثر من أن تقع تحت بصر إنها تنبعث من كل موجود ،من البقة الصغيرة ، إلى النحلة الباسقة ، ومن النمل يدب على الأرض ، إلى النسور المحلقة في الجو. ومن كل كائن في الأرض إلى كل كوكب أو نجم في السماء ، ففي كل كائن من كائنات الوجود أكثر من إصبع تشير إلى الخالق العظيم ، وتدعو إليه. ولكل إنسان موقفه إزاء هذه الموجودات وتفسيره .>> (4)

فإذا أردنا أن نعرف الله . فلسنا نجد أكمل من هذا المنهج << الذي يجعل الوجود كله كتابا ، يقرأ الإنسان في حروفه وكلماته وأسطره ، وفصوله وأبوابه الآيات الدالة على وجود الله ، والمحدثة عن جلاله وعظمته وقدرته وحكمته.>>(5) ودعوة المعرفة هذه هي من الله عز وجل لأن << العقيدة تعظم في الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون ، وعظمة أسراره وخفاياه . فمبلغ الإحساس بالعظمة هو مبلغ الإحساس بالعقيدة الدينية.>> (6)

والشاعر في جميع هذه الحالات يفر من مظاهر الكون التي تبدو أمامه خرساء وصامتة لا توحي له بشيء لأنها << تكون عندئذ حجابا قد انسدل أمام بصيرته حجبه عن رؤية جمال الله الكبير المتعالي من الخير له

---

(1) موسيقا من السر – ص 1

(2) انظر- مارتن هيدجر – الفلسفة والشعر – ترجمة د/عثمان أمين – الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة- ص102 .

(3) الشورى-11.

(4) عبد الكريم الخطيب- الله ذاتا وموضوعا- ص 295 .

(5) المرجع نفسه ص 296 .

(6) المرجع نفسه ص 14 .

إذن أن يهجرها مستعيذا منها حين تقطعه عن الله،وتبتر من قلبه حبل الوصال .ومن هذا المنطلق يفر إذن محمود حسن إسماعيل من ظلمة العالم والحجاب ، ويأجر إلى الله من عذابه ويجأر>>(1) وفي قصيدة " الله والذات" صور نفوره من الطبيعة الحجاب،<< التي تحرمه أغلى متعة في وجود الإنسان على الإطلاق : متعة الاتصال بمصدر الفيض ومبدع الجمال.>>(2) حيث عبر عن نفوره من بعض المعطيات الكونية -كالليل والفجر والنور- إذا ماوقفت بينه وبين تواصله مع الله كما نفر سابقا من العقل والنفس والناس. إذا حالت هذه المعطيات الإنسانية بينه وبين الله(3):

أَجِرْنِي يَا رَبِّ .. مِنْ كُلِّ شَيءْ
يَعُدُّ طَرِيقِي ...إِلَى وَحْدَتِكْ
مِنَ اللَّيْلِ .. يَسْحَقُ فِيهِ الظَّلَمْ
خُطَايَ الضَّرِيرَاتِ عَنْ نَظْرَتِكْ
مِنَ النُّورِ ..يَفْضَحُ سِرَّ الطَّرِيقْ
إِذَا جِئْتَ أَشْرَبُ مِنْ كَرْمَتِكْ ..
مِنَ الفَجْرِ ..يَمْهَقُ فِيهِ الضِّيَاءَ
فَيُغْرِقُ دُنْيَايَ ..فِي هَالَتِكْ(4)

وبقي أن نشير إلى أن ربط الشاعر إيمانه بالله والكون ليس من باب إيمانه بوحدة الوجود ، فلم تكن هذه النظرية تدور في خاطره ، إنما الذي كان يدور فيه أن الله مبدع كل شيء، وأن نوره يتمثل في الوجود لا لأنه يفنى فيه أو يتحلى ، بل لأنه صانعه وخالقه . وبذلك كانت رؤيته الكونية لا تتعارض مع المفهوم الإسلامي في أي وجه من الوجود .

وهو بذلك يختلف عن بعض الشعراء الصوفيين . وإن اقترب هنا من ابن الفارض الذي لم يكن في أغلب الأحيان << فيلسوفا من فلاسفة وحدة الوجود،بل كان شاعرا صوفيا مؤمنا مغرقا في الإيمان.>>(5) فلم يتعارض تصوفه وجهاده الروحي مع الشريعة على الرغم مما غلب عليه من أسلوب عصره،الذي امتاز بالصناعة البديعية.(6) حيث توصل إلى الحقيقة الإلهية التي تؤكد أنه لا يوجد سوى الله مدبر الكون ومنشئه ومبدعه بكل ما فيه من مشاهد كونية يقول :

---

(1) مجلة العالم- المقال السابق- ص50 .

(2) المرجع نفسه- ص50 .

(3) انظر- فصل الرؤية الروحية- مبحث التذكر- الجوص الكبير إلى الله.

(4) صوت من الله- ص30-31 .

(5) محمد عبد المنعم خفاجي- الأدب في تراث الصوفية- ص227 .

(6) انظر- شوقي ضيف- فصول في الشعر ونقده- ص197 ، وما بعدها.

تَرَاهُ إِنْ غَابَ عَنِّي كُلَّ جَارِحَةٍ - فِي كُلِّ مَعْنًى لَطِيفٍ رَائِقٍ بَهِجِ
فِي نَغْمَةِ العُودِ وَالنَّايِ الرَّخِيمِ إِذَا - تَآلَفَا بَيْنَ أَلْحَانٍ مِنَ الهَزَجِ (1)
وَفِي مَسَارِحِ غِزْلَانِ الخَمَائِلِ فِي - بُرْدِ الأَصَائِلِ (2) وَالإِصْبَاحِ وَالبَلَجِ (3)
وَفِي مَسَاقِطِ أَنْدَاءِ الغَمَامِ عَلَى - بِسَاطِ نُورٍ مِنَ الأَزْهَارِ مُنْتَسِجِ
وَفِي مَسَاحِبِ أَذْيَالِ النَّسِيمِ إِذَا - أَهْدَى إِلَيَّ سَحِيرًا أَطْيَبَ الأَرَجِ (4)

<< فالله ذو الجمال والجلال منبث في كل مظاهر الكون ومشاهده.في أنغام الناي والعود،وفي مشهد غزلان الرياض تمرح في المساء والسحر،وفي الطبيعة متبرجة،وفي أزهارها وأنوارها،وفي النسيم يتهادى بأرجه حين تنفلت أضواء الصباح في الآفاق.وابن الفارض لا يعبر بذلك عن إيمانه بوحدة الوجود التي كان يؤمن بها ابن العربي معاصره >>.(5)

ووصل إلى أن الله عز وجل هو النور كما وصل شاعرنا المعاصر،فهو النور النهائي الأزلي الخالد،أصل لكل الكون،ومنبع الإبداع الخالق.وبذلك وصل إلى معرفة الله :

وَمِنْ نُورِهِ مِشْكَاةُ(6) ذَاتِي أَشْرَقَتْ - عَلَيَّ فَنَارَتْ فِي عَشَائِي(7) كَفَجْوَتِي
فَأَشْهَدْتَنِي كَوْنِي هُنَاكَ فَكُنْتُهُ - وَشَاهَدْتُهُ إِيَّايَ وَالنُّورُ بَهْجَتِي (8)

ونستنتج من المحاور التي عرضناها بعض سمات رؤيته إلى الكون:

1- الطبيعة في شعره لا تكاد تلتئم إلا لتعبر عن انسياح هذا الكون بروح متشبعة بالإيمان،وبصور القدرة والحكمة الإلهية التي ليس لها مدى أو نهاية. فكل ما يتصل بالكون سماء أو أرضا، جمادا أو متحركا، حيوانا أو نباتا، يرتبط عنده بالخير والعطاء، والطهر والسمو، والحياة والحركة، والهدوء والسكون، والتجدد والبعث، والجمال والعبادة، له إحساس ومصير الكائن البشري. ولم يترك صغيرة ولا كبيرة في الكون،إلا وأضفى عليها صورة ضخمة من المشاعر والأحيلة وشتى المعاني الكونية والإنسانية والروحية.

---

(1) الهزج: نوع من الأغاني العربية القديمة .

(2) الأصائل:ج. أصيل مابين العصر إلى المغرب

(3) البلج: الإشراق.

(4) ديوان ابن الفارض- ص 146-147 .

(5) شوقي ضيف- فصول في الشعر ونقده- ص217 .

(6) المشكاة : الكوة غير النافذة

(7) عشائي: عشيتي .

(8) ديوان ابن الفارض- ص 115 ،116 .

2- كان للزهر والسنبل والطير، والجدول والشمس والقمر والنجم طابع ديني،روحي،أوحى بمنطلق الشاعر الديني، فوصفه للطبيعة كلها كان وصفا ممزوجا بذاته. هذه الذات التي يغلفها حسه الديني، فينطلق عند الوصف من الأرض ليسمو نحو السماء، فتبدو الأشياء والمحسوسات والظواهر والكائنات تتحرك حياة، حيث جعلها تشعر وتتكلم، تتألم وتتعذب، تمنح وتغدق، تتطهر وتتعبد .ويلفها ستار رقيق من القداسة والإيمان حيث نراها في النهاية،كما أراد لها في البداية وسيلة روحية للوصول إلى الله، والتقرب منه وتحسس عظمته ووحدانيته.

3- لم يكن حديثه عن الجمال في الكون هدفا بحد ذاته -كما يدعو مذهب الفن للفن- وإنما هو وسيلة حيوية مؤثرة لتحقيق أهداف مادية ومعنوية للإنسان وقيمة إيجابية تتجاوز الشكل الخارجي للأشياء وصولا إلى الجوهر من خلال اختيار مواقع التناسق والانسجام والحركة والنعمة،والابتعاد عن مواقع الخلل والتفكك والقبح والتنافر والجمود.

4- ابتعد تصويره للطبيعة عن المنظور الأسطوري القائم على تأليهها وتشويه حقيقتها، محققا مفهوما جديدا في شعر الطبيعة هو مفهوم العبادة التي يشترك فيها كل مخلوق. كما استطاع أن يتجاوز الأفكار الصوفية كفكرة الاتحاد والحلول بين الله والإنسان والطبيعة. وإنما حقق صياغة شعرية إسلامية لدعوة الله المأثورة في قوله صلى الله عليه وسلم:((تفكروا في آلاء الله. ولا تفكروا في الله))(1).

5-لم تكن تجربته مع الطبيعة مجرد وجد روحي وتصور جمالي، بل كانت إطارا فنيا بارعا جمع في داخله شتى الأدوات الفنية التي انعكست من خلال تعبيره وتصويره على معظم رؤاه الشعرية، حيث كانت مصدر إلهام فكري وفني (2).

---

(1) السيوطي- الجامع الصغير- ج2- ص514.

(2) انظر فصل الرؤية الحسية المجلى في معجمه الشعري وصوره الشعرية.

الـــفـــصـــل الرابـــــع
الـــرؤيـــة الاجـــتـــماعـــية

تـــــوطئـــة.

المبحث الأول : العـــدالة الاجـــتـــماعـــيـــــة .

المبحث الثانـــي : الأخـــــلاق .

المبحث الثالث : المـــــرأة.

المبحث الرابـع : ملامـــح المـجتمع الإســلامي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تـــوطـئـة :

<<إن المعطيات الأدبية والفنية، تشكل في كل مجتمع ولاسيما في مجتمعات اليوم قطاعا من أهم القطاعات الاجتماعية، فهي التي تسهم إلى حد كبير في تحديد صورة ذلك المجتمع،والأسس العميقة التي تنبثق عنها، والمصادر الأولية التي يتلقى عنها معرفته ونظرته للحياة والأشياء. إنها بمثابة الضوء والظل الذي يجسد معالم الأشياء ويبرزها واضحة للعيان، وهي الألوان التي تحدد طبيعة كل بقعة من بقع المجتمع والخلفية التي يقوم عليها الوجود الاجتماعي والحضاري بشكل عام. >>(1)

هذه الطروحات تجعلنا نتجاوز بعض الرؤى المستهلكة والمستوردة حول تحديد وظيفة الأدب ومدى ارتباطه بالواقع. إذ نلتمس وجهة نظر بدت جوهرية في تحديد معالم الرؤية الاجتماعية في الأدب عموما، وذلك بإبراز علاقة الترابط العميق والصادق بين الأديب والمجتمع ودور المضمون الاجتماعي في بناء القيم النبيلة والمبادئ القويمة،وكشف الحقائق والعيوب،وربط قضايا المجتمع بمرجعية وجوده التاريخي والديني والحضاري، وربطها بقضايا سائر المجتمعات التي تشاركها إنسانيتها.

إلا أنه وجد نمط من الأدباء، خلق اضطرابا في السير العام للأدب وقد حمل شتى المصطلحات والفلسفات والقيم. وأحدث صراعا وصداما في الأفكار والمبادئ باعتناقه المذهب الواقعي واتهامه المذاهب الأخرى باحتقار الماضي والتقاليد القديمة الموروثة، والاهتمام بالزخرفة الشكلية، والتلاعب بالألفاظ،والإغراق في الغرابة والغموض،والابتعاد عن البحث عن المضامين الجديدة، والأشكال العصرية، والحلول الجذرية التي تلائم قضايا المجتمع.

وتصدر زعامة بناء المجتمع الجديد الذي دعا إلى واقعية التصوير والتعبير، واتخذ مسالك فكرية وفنية.وارتدى شتى الواقعيات التي كانت صدى للاتجاهات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية التي سيطرت على الفكر الأوربي منذ القرن التاسع عشر.(2)

إلا أن عيوب هذا المذهب قد اتضحت وظهرت جلاء، ولم تعد تخفى حتى على أصحابها الشرعيين،كالناقد المجري الماركسي "جورج لوكاتش" الذي يرى أن الواقعية الاشتراكية تصل إلى حد الرومانسية في تجاهلها لكثير من جوانب المجتمع، وأن الأدب الذي تحتضنه الواقعية الاشتراكية أدب يمتاز بالجمود وضيق الأفق. ويرجع هذا إلى أن الكتاب الواقعيين يميلون إلى المبالغة في تبسيط المشكلة الواقعية في الأدب، لأنهم يغمضون أعينهم عن التناقضات القائمة فعلا في المجتمع الاشتراكي.(3)

---

(1) عماد الدين خليل-في النقد الإسلامي المعاصر-ص 21-22.

(2) انظر-محمد غنيمي هلال-الأدب المقارن-ص 392-398 كذلك حلمي مرزوق-الرومانتيكية والواقعية في الأدب-ص 51-96.

(3) جورج لوكاتش-معنى الواقعية المعاصرة-ترجمة-أمين العيوطي-القاهرة-1971-ص8.

وحتى في أدبنا العربي فرضت قضايا وحلولا لم تساهم في شد أزر الواقع العربي الإسلامي[1]، بل كادت تشوّه حقيقته بتلك الفلسفة الدخيلة، وتجاهلت الخطاب الذي يمكن أن يحرك ظلامية وجمود ذلك الواقع، والمرجعية التي تكون أساس البناء الاجتماعي. حيث شهد تحررا من حرفية التطبيق الواقعي الاشتراكي وقد وجدنا << أن الالتزام بمعناه المستورد لا يتحقق عند شعرائنا، ولم تخضع الواقعية العربية عندهم الخضوع التام للعالم الخارجي، الذي يذيب شخصية الفرد إذابة تامة >>.[2]

ويمكننا أن نضيف أن من أسباب فشل الواقعية في أدبنا وأدبهم هو أن << كل رد فعل حركة متطرفة يجنح بدوره إلى التطرف، ولا يقف عند نقطة التوازن لأنه يحاول في حركة محمومة، أن يزيل آثار الحركة الأولى ويمحوها من الوجود، يحاول أن يبعد عنها إلى أقصى ما في طاقته من البعد... فتكون النتيجة أن يبتعد أيضا عن نقطة الوسط الموزون.>>[3]، كما أن أهم سبب هو أن الواقعية الاشتراكية واقعية ممسوحة في حقيقتها، لأنها تأخذ في حسابها الوجه المنظور والوجه الروحي الميتافيزقي[4].

البحث عن الموقع الاجتماعي للشاعر محمود حسن إسماعيل، يفرض علينا أن ندرك إلى أي مدى كان الشاعر واقعيا وملتزما بقضايا المجتمع الإنساني، ومؤمنا بالتصور الإسلامي أثناء عرضها وتحليلها ؟ لنؤكد أن <<المضمون الاجتماعي للعمل الأدبي بهذا المعنى لا يستمد في الحقيقة من واقع الحياة في المجتمع، بل من موقف الأديب الفكري من الحياة في هذا المجتمع، والمضمون في ذاته قيمة، وهو قيمة تتولد عن موقف الأديب الفكري من القيم الأخرى السائدة في المجتمع>>[5]. ونلفي في الوقت ذاته الادعاءات القائلة بانفصال الشاعر عن مجتمعه[6]، بإثبات واقعيته المختلفة عن المفهوم النقدي الرائج عند كثير من الشعراء والنقاد وخاصة بعدما عرفنا كيف شهد له بعض النقاد برومانسيته، ولكن رأينا كيف استطاع أن يخلق رومانسية أخرى تجاوزت الأطر السلبية والتشاؤمية والانطوائية -التي اتهموه بها- حيث سما بذاته نحو رؤية روحية عميقة وسامية، مبتعدا عن مبادئ الوجوديين كالاغتراب والعبث، واليأس والقلق، وكشف انبهاره وتعلقه بالطبيعة عن رؤية كونية رحبة شملت دقائق وخفايا الكون. لأن هذا الحكم النقدي الذي يتبنى الفلسفة الواقعية فكرا وفنا ونقدا ومنهجا، كادعاءات محمود أمين العالم الذي لم يستطع أن يثبت هذه الانفصالية الاجتماعية، لأن الحقيقة

---

(1) انظر- محي الدين صبحي- دراسات ضد الواقعية في الأدب العربي- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت- ط1- 1980م.

(2) د/ محمد زكي العشماوي- الأدب وقيم الحياة المعاصرة- دار النهضة العربية- بيروت- 1980م- ص126.

(3) محمد قطب - منهج الفن الإسلامي- ص45.

(4) أحمد بسام ساعي- الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد- ص 17.

(5) نجيب الكيلاني- مدخل إلى الأدب الإسلامي- ص117.

(6) انظر- المدخل- رؤيته من خلال آراء النقاد والدارسين له.

الشعرية غير ذلك، وكذلك الحقيقة الدينية التي يعتنقها الشاعر[1]. وهنا يتحدد تميز التصور الإسلامي للواقع[2]، إذ أن الشعر ذو الطابع الإسلامي لم يقتصر على الموضوعات ذات الصبغة الدينية، بل تنوعت بواعثه ومظاهره وغاياته، وامتدت رؤيته الشمولية عند كثير من شعرائنا المحدثين، وقد سيطرت الحاسة الدينية على أفكارهم ومشاعرهم بحكم البيئة والثقافة ، وطغت على إنتاجهم الشعري عاطفة التدين أثناء تصويرهم نفوسهم ومجتمعاتهم وهذا ما يجعلنا نؤكد أيضا الإنتاج الشعري بعامة يصدر عن عوامل ومثيرات مختلفة تنطبع على هذا الإنتاج، فتكسب كل لون من الشعر سمته.<<والالتزام بالإسلام لا يعني أن يعيش الأدباء المسلمون إحساسا واحد،واهتمامات متشابهة،وعواطف وتصورات وانفعالات نفسية واحدة. إن وحدة الفكر لا تعني أبدا وحدة الفن، وبلغة أخرى مسخ الفن، فالأديب أولا هو ابن ذاته، والمعادلة المتحققة من لقاء الاقتناع الإسلامي أو العقيدة الإسلامية بالذات الإنسانية،ستتفجر حتما في شكل فني جديد، وخيال جديد، ومسارات فكرية جديدة، لأن النفوس الإنسانية لا يمكن أن تتشابه وما دام أحد طرفي المعادلة مختلفا في كل مرة، فلا بد أن تكون نتيجة التفاعل دائما مختلفة،وإن كان الطرف الآخر للمعادلة ثابتا لا يتغير في كل الحالات.>>[2]

ولهذا لم يتفرغ شاعرنا لإنشاء شعر ذاتي أو ديني محض، بل ارتادت رؤيته الإسلامية اتساعا وفاعلية،بعد أن خرج من التأمل في الطبيعة والكون والتطلع إلى عالم الغيب والروح والنفس إلى واقع الحياة الاجتماعي والإنساني. فعندما << تكشفت الحقيقة الكبرى أمام الشاعر تحول إلى الوجود البشري من حوله، وإلى صراعاته ومآسيه محاولا الاندماج مع ما في الوجود من موجودات .>>[4]

وتكونت رؤيته الاجتماعية والسياسية، وكانت ثمرة لنصلة الحميمة التي عقدها بين نفسه ونفوس الناس التي تحكمت فيها شتى المآسي والأخلاقيات، والأحكام والأنظمة في عصره. فاتجه من خلال هذه الصلة إلى صياغة وجدان جماعي بعدة مضامين اجتماعية وأخلاقية ووطنية وسياسيةو إنسانية.

إن رؤيته الاجتماعية أكدت اجتماعيته،وإحساسه بالحياة إحساسا شديد العمق والتكشف، وأبعدته عن الانطوائية –التي زعمها البعض– لأنه << ليس هناك شاعر يعيش ويكتب في عزلة، فهو شخصية حية في فترة زمنية معينة، ومكان معين، وبيئة اجتماعية معينة، فهو فرد المجتمع،ولا بد للمجتمع من أن يلعب دوره في شعره. وقد يكون الشاعر متعاطفا مع بيئته الاجتماعية أو ثائرا ضدها، وقد يذهب إلى حد إنكارها، ولكن تأثيرها، سيظل منطبعا على شعره>>[5].

وامتلك محمود حسن اسماعيل المشاعر والأحاسيس المرهفة التي تتأثر بسرعة بالمشكلات والقضايا الحياتية سواء أكانت وليدة بيئته،أم كانت وليدة الإنسانية العامة. وخرج من مشاركته الهموم والتطلعات، بتفرد عالمه

---

(1) انظر– محمود أمين العالم– عبد العظيم أنيس– في الثقافة المصرية– ص118-122.

(2) انظر– المدخل– الرؤية الشعرية– المنظور الإسلامي (خصائص الرؤية الإسلامية– الواقعية) .

(3) أحمد بسام ساعي– الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد– ص35.

(4) السعيد الورقي–دراسات نقدية ص114.

(5) إليزابث درو–الشعر كيف نفهمه ونتذوقه– ص189.

الشعري << فقد كان منذ دواوينه الأولى رؤية تملك اجتماعية على قدر كبير من الوضوح، ومن النفاذ، بل من الحدة أحيانا.>>(1)

لقد اقتنع بأهمية المسؤولية على عاتق كل شاعر عربي مسلم صادق غيور،وشعر بخطورة المرحلة والظروف التي تمر بها المجتمعات العربية الإسلامية التي استفاقت على واقع مهين، منهك بالمعوقات والمفاسد الاجتماعية والخلافات المحلية و الأحداث السياسية،والتي حاولت أن تقهر فيه عزيمة التطلع والتغني نحو الأفضل وأدرك رسالته الاجتماعية،وهو يشهد مطالبة شعوب أمته المطحونة بحقوقها لتصنع حياتها الاجتماعية والسياسية.وأصبح لزاما عليه أن يعي الصراع القائم في هذا العالم،ويحدد موقفه منه لكي يسهم في إثراء وعي أمته الروحي والإنساني للتغلب على مشكلاتها وحل قضاياها. على الرغم من أن شعره كان مزيجا من الوجدانية الذاتية والوجدانية الجماعية، وكانت رؤيته الثنائية بما فيها من قلق وتمرد ورفض، تتصارع أحيانا وتتلاقى أحيانا أخرى. فإنه كما كان متمردا على الذات، كان متمردا على الواقع، رافضا خطاياه وشكوكه واغترابه الروحي، رافضا خطايا مجتمعه وهزائمه وتناقضاته،ثائرا عليه من أجل إرساء حقيقة الروح والأخلاق،لا ثائرا من أجل القضاء عليها. ولهذا فتمرده ورفضه، أحد طابعا إيجابيا،لأنه يريد أن يتأقلم في مجتمعه مع أجوائه الدينية والأخلاقية،لا أن يعلن نشوزه وهروبه منها - كما فعل كثير من الشعراء الثائرين والمتشبعين بفلسفات دخيلة،ورؤى خاصة تساير ميولهم وضعفهم وحتى إلحادهم.

ومن خلال العناصر المشوهة في مجتمعه-وكل المجتمعات الإنسانية- بدأ عمق تمرده ورفضه ومقدار وعيه، لكي يغير الواقع،ويخلصه من الطواهر المشوهة والمنحرفة. ومن هنا بدا توتره الذي حدد موقفه ورؤيته الشعرية. هذا التوتر يعود أساسا إلى المظاهر السلبية التي يطبع بها المجتمع العربي في كافة المستويات، وبدا موقفه الإسلامي جليا لمّا راح يحاول أن يعيد << تشكيل هذا الواقع مهما كان على درجة من القلق والصمود، من زوايا رؤياه الجديدة وقيمه الإنمائية، ومن ثم يضع كل شيء في مكانه الطبيعي >>(2). وأن يرسم << صورة للعالم تنبثق عن فهم عميق لمنطق الكون والوجود القائم على العدل والخير والجمال، وعلى التناغم الوجداني بين كل القيم والحياة والأشياء.>>(3) وأن يثور << على الواقع اللاإسلامي لكي يخلق الجدوى والأمل والصفاء والانسجام.>>(4)

ولم يتجرد من واقعيته بل الحل الواقعي.الذي رآه حلاصا لمصير الإنسان في عالم مظلم بلا إنسان،هو العودة إلى الأشياء المؤثرة فينا، مؤمنا بأنه << قد يكون الماضي لا المستقبل هو مصدر الخصب والسعادة...العودة إلى الماضي لمواجهة المستقبل بقلب متفتح.>>(5)

---

(1) علي عشري زايد-قراءات في شعرنا المعاصر-دار العروبة-الكويت-ط1-1982-ص20.

(2) عماد الدين خليل-في النقد الإسلامي المعاصر-ص86.

(3) المرجع نفسه-ص199.

(4) المرجع نفسه-ص207.

(5) إليزابث درو-الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ص 301.

ولم يجد إلا الحل الإسلامي بالرجوع إلى مناهجه وضوابطه، وتشريعاته وأخلاقياته وأمجاده، فالإسلام عنده ثورة جذرية على ما كان قائما قبل بزوغه،والتي تغير معها كل شيء، وكان شريعة كاملة للحرية والكرامة والسؤدد.

ولم يكن أي موضوع من موضوعاته الاجتماعية والسياسية حاليا من الإشارة العميقة للاهتداء بهديه، والتمسك بأحكامه وحلوله، واتخاذه نبراسا يضيء مسارب الحياة،التي أظلمت بعد أن أنارها، مؤكدا صلاحيته وجدواه عبر الزمان والمكان.

لقد كان ارتباط الشاعر بالإسلام دافعا قويا لإنشاء شعر لا يوقعه في الإحساس بالجذب الروحي.أو الإحساس بالإخفاق في تكوين علاقات نافعة ونامية، روحية وانسانية مع الله والكون، والحياة والناس وبهذا كان الدافع الذي بعث شعره للاتصال بالطبيعة، والكون، والتأمل العميق في النفس الإنسانية هو الدافع نفسه الذي جعله يتجه برسالته الشعرية مباشرة إلى الواقع الاجتماعي، باحثا عن الأسباب والظواهر الإنسانية التي لا تجعل الحياة في غموض من بين يديه. وحتى تكون أعمق إحساسا،وأبعد رؤية اقتنع بأنه << لا يستطيع إلا أن يكتشف لتوتره وانفعاله أسبابا إنسانية،مصدرها القوى الاجتماعية المتناقضة والمتصارعة. وهو لا يستطيع في هذه الحالة أن يرد أسباب الأحداث التي تقع له ولغيره إلى قدر غامض يصب المصائب على فريق من البشر، ويمنح الخيرات لفريق آخر، وينتفي من عمله الفني بالضرورة تفسير الفعل الإنساني بالقدر أو المصادفة أو الحظ، فهو مؤمن بالضرورة السببية وبأن المواقف الإنسانية ليست إلا ردود فعل لأفعال الإنسان.>>(1)

فاتجه إلى الإنسان قوام المجتمع الإنساني داعيا إياه إلى التغيير والإصلاح، لأنه هو سبب الطغيان والتخلف والفقر والزيف والتردي.. واضعا أمامه إطار التغيير الإرادي الذي منحه الله عز وجل ﴿...إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ.﴾ (2) فامتزجت هذه الآية برؤيته الاجتماعية من أجل البحث عن الإنسان وكشف حقيقته. وبذلك اتخذت رؤيته طابعا دينيا،حيث امتزج البعد الديني مع البعد الاجتماعي، وحرص الشاعر على << إبراز جوهر الإسلام الوضيء، وتنقيته مما قد يرينُ عليه من صدإ الزيف والتكلف والرياء، وإظهار طابعه الإنساني وعمق حرصه على كرامة الإنسان وسعادته ...وهكذا يمتزج البعد الديني والبعد الاجتماعي على هذا النحو البارع الذي يحمل فيه البعد الديني ملامح اجتماعية واضحة.>>(3)

---

(1) عبد المحسن طه بدر–حول الأديب والواقع–دار المعرفة–القاهرة–ص5.

(2) الرعد–11.

(3)علي العشري زايد–قراءات في الشعر المعاصر–ص34-35.

المبحث الأول

العدالة الاجتماعية

1- وضعية الفلاح الاجتماعية.

2- الفوارق الاجتماعية.

3- الحل الثوري.

4- الحل السلمي.

5- التقويم النقدي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وتغير مفهوم الالتزام عنده، عندما بدأ دعوته للتغيير والثورة من الداخل، وكان التزام الشاعر التزاما عفويا صادقا صادرا عن ذات نفسه، متأثرا بمجتمعه وما فيه، ولم يأخذ الإلزام والإملاء من قبل جماعة أو حزب الذي قد يؤدي سلب حريته الشعرية، فلا ينهض بهذا الضرب من الحقيقة وأشم دائما إلى مذهب الواقعية وأن تبدأ الثورة من الداخل،يعني أن يعمر الإيمان قلب المسلم ليرتفع به فوق الطين،وليحرر روحه من قيود الأرض ونوازع الدنيا. فيدعو إلى شق الصدور لتطهير المشاعر والرؤى،ومن ثم تبدأ ثورة اليقين:

وَشُقِّ الصُّدُورَ

وَأَضْرِمْ بِهَا غَفْلَةَ الوَاقِفِينْ

وَغَيِّرْ هَـــوَانَا

وَغَيِّرْ رُؤَانَـــا

واشْعِلْ مِنْهَا ثَوْرَةً لِلْيَقِينْ.(1)

فالبعد الإسلامي هو تحقيق التوازن بين طرفي المعادلة أي بين الفرد والجماعة دون الإخلال بها، ولهذا كان عليه << أن يلجأ إلى عنصر الإنسان في الذات البشرية، فيحاول أن ينميه ممجدا الإنسان في المسلم نائيا به عن المذلة والصغار اللذين انتهى إليهما في المذاهب الاشتراكية تحت شعار الجماعة لا الفرد، فلا يمكن للجسم إذا فسدت خلاياه أن يصلح بناؤه،ولايمكن للجماعة إذا فسد أفرادها وذلوا أن تكون جماعة قوية معافاة.>>(2)

وذات الشاعر التي واجهها بشعاع النور والإيمان،هي ذات الآخرين،ذات الأمة الإسلامية جمعاء. وانطلاقه من ذاته كان مرحلة جوهرية للانتقال إلى ذات الآخرين. وبتصوره الإسلامي استطاع أن يوحد بين الفرد والجماعة، أو بين "الأنا" و"النحن".

وباستقراء مسيرته الشعرية نجد التزامه كان ذا طابع إسلامي إيجابي،على الرغم من عدم وضوح عنده بعض القضايا المعقدة في عصره، وعجزه عن تفهم الضغوط الاجتماعية والسياسية أحيانا.

واقترب كثيرا من الواقعية البسيطة الصادقة، التي تنقلب فيها << الحادثة اليومية التافهة...إلى حقيقة أزلية كبيرة من حقائق الحياة والموت والحساب والخلود، وعبادة الله وتحقيق وحدانيته، من غير أن يوحي لنا بأنه يحاول إرغامنا على النظر إلى الحياة بمنظاره.>>(3)

---

(1)-صلاة ورفض-ص 82.

(2) أحمد بسام الساعي-الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد-ص84.

(3) المرجع نفسه -ص30 .

ظهر المجتمع الطبقي منذ أن حاد الإنسان عن فطرته السليمة في التعاون والتعاطف والتكافل مع أخيه الإنسان من أجل تحقيق أهداف الحياة الكريمة. وأتيحت للبعض فرصة السيطرة والاستعباد والامتلاك، فظهر ذلك التناقض الغريب بين قوم يشقَوْنَ عاملين، منهكين، ولا ينالون سوى الجحود والجهل والفقر. وقوم لا يكلفون أنفسهم عناء، ينالون كل شيء بسلب جهد الآخرين، واستنزاف عرقهم، فيزدادون ثروة وأنانية.

وقد أصيب الإنسان المصري بهذا الاستيلاب منذ عهد الأسر الحاكمة الأولى، وحتى قيام ثورة يوليو 1952م. حيث كانت القاعدة الأساسية للثورة المصرية "الأرض" ملكا للحكام والباشوات، بينما أصحاب الأرض مسخرون للعمل فيها لا أكثر.(1)

وما فتئت أن ظهرت الرأسمالية أيضا بظهور الملكية الخاصة، ومن ثم ظهور كبار الملاّك وتوسيع الفوارق الطبقية. وكان للنفوذ الاستعماري أثره في تغلغل الرأسمالية طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد تحالفت الرأسمالية والإقطاع مع الاحتلال لضمان مصالحهم وتأكيد سيطرتهم.(2)

وغرقت القرية المصرية في الهوان والاستسلام والفقر والتواكل وكانت مرتعا خصبا لهؤلاء المتسلطين، كما كانت في الوقت نفسه مثارا لسخريتهم واحتقارهم، يستنزفون خيراتها، ويستعبدون أبناءها دون أن يرعوها أدنى رعاية.(3)

وظلت نظرة الاستغلال إلى الأرض، والاستعباد والازدراء إلى الفلاح المصري، وتوارث هذه النظرة أيضا إلى العامل المسخر طوال اليوم في المصانع وورشات السكك الحديدية وسفن الصيد.. حتى كانت ثورة "يوليو1952م"، التي أتت بقانون الإصلاح الزراعي، وتحديد الملكية، وتمثيل الفلاحين في مجلس الأمة أو الشعب والنهوض بالريف، والعناية بالتصنيع، وتحويل الأجراء إلى ملاك، وتحرير العمال من استبداد أصحاب رؤوس الأموال.(4)

وواكبت قبل الثورة وبعدها أصوات التغيير والدعوة إلى العدالة الاجتماعية من دعاة ومصلحين وزعماء، وتغيرت منابع أصواتهم بظهور شتى التيارات، تيار ليبرالي رأسمالي، وتيار اشتراكي شيوعي، وآخر أصولي إسلامي...(5)

---

(1) انظر- محمود عودة- الفلاحون والدولة- دار الثقافة- القاهرة- 1979م- ص109-119.

(2) انظر- المرجع نفسه- ص127.

(3) ثابت محمد بداري- قضية الفلاح في شعر محمود حسن إسماعيل- ص10.

(4) انظر- جلال يحي- الثروة والتنظيم السياسي- دار المعارف مصر- 1977- ص295 297.

(5) انظر- قضية الفلاح في شعر محمود حسن اسماعيل- ص16-20.

أما صوت الأدباء فلم يكن إلا صدى للتيارات السياسية والاجتماعية والدينية السائدة في المجتمع المصري، الذي غلبت على قدراته عوامل القهر والظلم الاجتماعي، والصراع الطبقي، والامتيازات الأجنبية، والتعاون بين القصر الإقطاعي والمحتل الغاصب.(1)

فما هو موقع محمود حسن اسماعيل في محيط هذه الأوضاع؟بعد أن صنفوه مع جماعة المبدعين والرومانسيين الذين عرفوا بعزلتهم عن المجتمع، واستبطانهم ذواتهم وتضحيمهم من شأنها، ومن ثم عجزوا عن الرؤية الموضوعية للعلاقات المتشابكة والمتداخلة والمتضاربة في المجتمع .وترتب على ذلك اهتزاز كثير منهم في إدراك الواقع، واكتشاف إمكان التغيير من حولهم.(2)

وعلى الرغم من انتسابه إلى هذه الجماعة، ونشره في مجلتها " أبولو " بعض نتاجه، فإنه كان صوتا فريدا ووترا مميزا منذ صدور ديوانه الأول أغاني الكوخ. إذ خرج فيه عن سُنّة بعض الشعراء الذين لاذوا بأصحاب السلطان،وغنوا رغباتهم ولهوهم، وآثروا وصف بركهم الصناعية، وقصورهم الفارهة، وراح هو يغني الكوخ والقرية والفلاح.

وكان ذلك في وقت سيطر فيه القصر الحاكم، والإقطاع الكريه، والرأسمالية المتسلطة،والاحتلال البغيض على الطاقات الحيوية في مصر الأمر الذي جعل قلوب ضعاف النفوس من الأدباء تهفو إليهم، تلتمس لديهم العيش الرخيص،والأمن الزائل، والشهرة الزائفة(3).

وقد استقبل بعض النقاد الموالين للسلطة هذا الديوان بالهجوم والسقمة والإنكار والإنتقاد على صفحات الصحف -كجريدة كوكب الشرق- فكتبوا عنه، أنه شاعر النظم والطبيعة والجمال، شاعر يكتب عن أسباخ(4) القرية، ولم يغن أغاني القصر(5).

وقد ردّ عليهم بعض المناصرين والمنصفين للشاعر بعد زمن من استقراء واقعه الشعري << إن الشاعر أو الكاتب لا يكون شاعرا أو كاتبا حقا، إلا إذا كتب عن جمال القمر في القرية مثلا، أما الأسباخ والأتربة والإنسان المتمرغ فيها، فلا يليق أن يتناولها من يحترم نفسه...إنه صوت جديد على أسماع القاهرة، كان المترفون من أهلها أدباء وفنانون، يتغنون بجمال الريف، وما أحلاها عيشة الفلاح،

---

(1) المرجع السابق،ص21-32.

(2) أحمد هيكل -تطور الأدب الحديث في مصر-دار المعارف-ط3-1971-ص323.

(3) محمد ثابت بداري-قضية الفلاح في شعر محمود حسن اسماعيل-ص53.

(4) أسباخ : ج سباخ: وهو سماد الأرض أو منطقة مستنقعية ذات ملوحة.

(5) انظر:المرجع نفسه-ص53.

وكان هو مشغولا بما تحت القشرة الزائفة،كل ما يقال كلام مكرر، يقلد فيه اللاحق السابق. وكان هو يريد أن يقول شيئا جديدا، يعبر به عن الواقع، وهو غير ما يقولون.>>(1)، وقال آخر: << لم يكن أغاني الكوخ تغنيا بجمال الريف. وإنما كان تصويرا لواقعه المر، وصيحة من أجل الفلاح المسكين...أول صيحة في وجه الظلم الاجتماعي،الذي طالما عاناه الفلاح المصري في تاريخه الطويل، وقد أحد شاعرنا بعمقها،ويعمق شعورنا بها >>(2)

وصدر ديوان أغاني الكوخ، ولم تكن الكتابة عن الفلاح والكوخ والريف كمنهج،إلا عند شاعرنا الذي كان تحديا للأثرياء والمترفين من أجل تحسين مستوى الفلاحين، وثورة على الواقع الذي يرسف فيه الفلاح، لا تغنيا بجمال وسحر الريف المصري فقط. وقد قال في مقدمة ديوانه << .... من عويل السواقي وهي تذرف حسرة الإنسان لتراب الكوخ... من إطراق الوجوه العطيبةالتي طحنت إباءها مسيرة الظلم على أيامها العابرة، وجرّعتها غفلة الرق وطمأنينة الهوان...من الضجر القانت على الذي أخنى على كاهل الفلاح بألفة الفقر والقهر، وقناعة الحرمان... ومن أعماق ليل هذا الشجن المحنوق الأوار في صدر القرية، نزح مع الشاعر من قريته في صعيد مصر ناي أخرس الغناء...ولم يكن ينشق لهات المدينة في أكتوبر 1932م حتى هزجت ناره بهذه الأنغام التي حملتها أوراق أغاني الكوخ وطلعت بها للناس أول من عام 1935م.>>(3)

وبذلك توجه الشاعر إلى هذا الجزء من المجتمع للنظر في واقعه المؤلم منبها إلى أن رقي المجتمع الحقيقي رهين بتقدير الأفراد وأن الحياة حق للجميع بحرصهم على حقوقهم وشعورهم بكرامتهم، وإبائهم الذل والخضوع والاستبداد والظلم...

ولم يكن غرضه من وصف الريف،وإثارة قضية الفلاح << الدعاية السياسية أو الإتجار بالقضية بغية تحقيق نفع شخصي، بل هو يرى بؤسا،وفلاحا كادحا مهيض الجانب،وعالما للجمال الطبيعي، يهضم حقه، ويجحد فضله، ويضن عليه بالحياة الكريمة، فيصور ذلك في شعره ويلقي باحتجاجه في وجه الطبقة الإقطاعية. كما ينحى باللائمة على الشاعر، ينصرف عن مادة الشعر الحية في الريف، وينبوع الفنون الثرّ إلى البحث عن أثر قديم يقلده،أو مذهب غربي يبشّر به.>>(4)

لقد التفت إلى إبراز الجوانب المظلمة في المجتمع بالتفاته إلى الريف المصري الذي يحيا حياة البؤس والعبيد، دون مراعاة لإنسانيته التي توجب لهم حق الرعاية والتكريم، مصورا بؤسه وشقاءه، مجسما ما يقع على كاهله من ظلم وقهر وهوان وحرمان..داعيا إلى إنصافه اجتماعيا وتحقيق عدالة الحق والرحمة والتعاطف والتعاون...

---

(1) عباس حضر- هؤلاء عرفتهم محمود حسن اسماعيل-مجلة الثقافة - ع45- 1977 -ص65-66.

(2) كامل البوهي- ديوان لا بد- مجلة الكتاب العربي- ع29- 1966 ص35.

(3) أغاني الكوخ-ص7.

(4) محمد على هدية-شعر محمود حسن اسماعيل في ضوء قضا ص95.

وتلك رسالة إصلاحية ترتفع بالشعر إلى درجة عالية من الواقعية، ويكفي أنه ولد بقرية النخيلة، ورأى فيها الفلاح،وما يعانيه من قسوة الحياة. فكانت له تجربته ومعاناته .وكان شعره صدى لما رأى وشاهد، وفي كل ديوان ينحو هذا الاتجاه المتفرد، متعمقا في نظرته.

ومن أجل الدعوة إلى العدالة الاجتماعية ركز على إظهار الظلم والإقطاع اللذين كانا عاملين من العوامل الكثيرة،التي تركت المجتمع العربي يرزح في مشاكل اجتماعية لا حصر لها، مصورا انعكاساتها على الواقع العربي، ومبينا آثارهما الضارة القائمة على الاستغلال والاستعباد والتعسف والتحكم في الإنسان، ناقلا إلينا بأمانة صورا للممارسات الإقطاعية، والاستغلال البشع لقدرات الإنسان بجهده وكل مجهوداته وخيراته،وصولا إلى الرفاهية المطلقة. مما أسهمت في تردي أحوال المجتمع بانتشار الفقر، الذي كان من أبرز المشكلات الاجتماعية من حيث الفاعلية والتأثير والعواقب والنتائج، والآفات التي تنجم عنه،وتحدّ من التطور الإنساني. وقد أولى الشاعر هذه المشكلة اهتماما زائدا، وغاص في أبعادها الاجتماعية والإنسانية، محاولا أن يرسم معالم الطريق للخلاص منه ويحدد أدواء المعالجة بالتخلص من آثار النفس والمادة،ومن نظرات التفاوت والتعالي، ملتحما بالفقراء وواقعهم،وملتزما بقضاياهم وتطلعاتهم.

1- وضعية الفلاح الاجتماعية

لجأ الشاعر إلى عناصر الكون باعتبارها مادة أساسية فرضت نفسها عليه في مختلف تجاربه الشعرية للتعبير عن واقع الفلاح ومعاناته فتجاوبت معه <<وكانت مرآة صادقة، عكست مأساته، وشاركته فيها بالرثاء والتعاطف والتساؤل والتأمل المفضي إلى رفض هذه الأوضاع الشاذة، التي تحرم الباذل المنتج، وتمنح المتعطل الكسول. وكانت هذه الطبيعة عزاءه الوحيد،وملاذه من ظلم النظام الاجتماعي السائد، وغفلة القادرين والمصلحين والنابهين من أبناء الشعب عن حقوق هذا الفلاح الكادح.>>(1)

فهو لم يكتف باستعارة عناصر الطبيعة، وإنما بتجسيد من خلالها عناء الفلاح وهمومه بمشاركته بلواه والتعاطف معه، والرثاء لحاله، والتألم لآلامه والتنبيه لأوضاعه. وقد وقفت كل هذه الكائنات والعناصر والأدوات " الفأس والشادوف والساقية والغدير والطير والثور والسنبلة والزهر... هذا الموقف المناصر لقضية الفلاح، وراحت تعبر عن ذلك :

تَبْدُنَا عِشْرَةَ الإِنْسَانِ - ذَاكَ الأَثِيمُ القَاجِرْ
خَلِيفُ الظُّلْمِ، كَمْ أَلْوَى - عَلَى المُسْتَضْعَفِ خَائِرْ!
وَكَمْ مَالَ فَلَمْ يَدْفَعْهُ إِلاَّ حَتْفُهُ القَاهِرْ

---

(1) محمد ثابت بداري- قضية الفلاح في شعر محمود حسن إسماعيل-ص63.

سواءٌ ذَلِكَ الطّـــاغـــي - وَوَحْشُ الغَيْضَةِ الكاسِرْ
إذا هَاجا مِنَ البَـــغْي - فيَا وَيْلاهُ لِلْعَاثِـــرْ[1]

وفي موضع آخر، تبكيه وتواسيه نبتة الحقل، وتتفجع وتضج لبؤسه الشواديف والسواقي، معلنة سوء حاله نتيجة الظلم المسلط عليه:

وَبَكَى النَّبْتُ شَجْوَهُ حِينَ غَنَّى - وَأَذَاعَ الشُّجُونَ فِي نَبَرَاتِـــهْ
هَلْ رَأَيْتَ النَّدَى مَدَامِعَ زَهْـرٍ - فِضَّةً مِنْ رِقَّةٍ عَلَى وَجَنَاتِـــهْ؟
أَتُوَاسِيهِ فِي العَشَى نَبْتَةُ الحَقْـــ - ـلِ وَيُغْضِي الإِنْسَانُ عَنْ حَسَرَاتِهْ؟
تِلْكَ أُعْجُوبَةُ الوَفَـاءِ! فَيَا وَيْـ - ـحَ لِشَعْبٍ يَهِيمُ فِي غَفَـــلاَتِهْ!
والسَّوَاقِي مُفَحَّعَاتٌ عَـلَيْـــهِ - نَائِحَاتٌ تُرِيقُ مِنْ عَبَرَاتِـــهْ
عِنْدَهَا الثَّوْرُ قَيَّدَتْهُ يَدُ الظُّلْـــمِ - وَهَذَا حَلِيفُهُ فِي سِمَاتِـــهْ!
وَالشَّوَادِيفُ كَمْ أَرَنَّتْ بِأُذْنَيْـــ - ـهِ وَصَاحَتْ تَئِنُّ فِي مَزْرَعَاتِهْ[2]

وكان كثير الذكر لشكوى هذه الكائنات،وخاصة السانية التي تبكي ألما لحال الفلاح الذي يشبه رفيقها الثور المغمض العينين،والذي يدأب ويشقى،ولا يمكنه أن يئن أو يشكو :

لَهَا عُيُونٌ ذَائِمَاتُ البُكَـــا - يَتَدَمَّعُ كَالسَّيْلِ فِي رِفْـــدِهِ
تَفْنَى دُمُوعُ النَّاسِ مِنْ فَيْضِهَا - وَدَمْعُهَا بَـاقٍ عَلَى عَهْدِهِ...
دَوْبَةُ الشَّكْوَى عَلَى رَاسِفٍ - فِي الذُّلِّ مَفْجُوعٍ عَلَى جَدِّهِ
دَارَتْ بِهِ البَلْوَى، فَمَا رَاعَهُ - إِلاَّ عَمَاءٌ غَـالَ مِنْ رُشْدِهِ[3]

لقد جعل الشاعر من الثور رفيق الفلاح، رمزا لمعاناته وجهده، واضطهاده وذله. هذا الثور الذي لقبه بعاهل الريف، يقول :

ثَاوٍ هُنَالِكَ كَبَّلَتْهُ يَدُ الأَسَى - وَثَنَتْهُ عَنْ عَبَثِ المِرَاحِ قُيُـودُهَـا
شَيْخٌ أَصَمُّ تَكَفَّنَتْ أَطْرَافَـــهُ - سَوْدَاءُ مِنْ صُلْبِ الزَّمَانِ حَدِيدُهَا
أَحْكَامُ ذُلٍّ لُفَّ فَوْقَ جَبِينِهِ - سُودًا، تَكَتَّمَ بِالشَّبَاطِ وَعِيدُهَـا
سَحَنَتْهُ فِي رَحْبِ الفَضَاءِ، وَحَلَّدَتْ- آذَانَهُ رَهْنَ الجِبَالِ حُنُودُهَـــا
عُكَّارُهُ سَوْطٌ تَلَهَّبَ فَوْقَـــهُ - نَارٌ يَشُبُّ عَلَى حَشَاهُ وُقُودُهَـا
رَقَمَتْ عَلَى أَضْلاَعِهِ أُسْطُورَةً - دُفِنَتْ بِأَسْرَارِ الدُّهُورِ عُهُودُهَـا[4]

---

(1) أغاني الكوخ- ص142 143.
(2) هكذا أغني- ص221 222.
(3) أغاني الكوخ-ص78 79.
(4) هكذا أغني ص226.

كذلك الشادوف جعله الشاعر رمزا للفلاح الفقير العاري، المتحسر المتذلل الذي يقدم الحياة والرواء للزرع والزهر، ويظل صاديا، صامتا، حزينا، إنه يشبهه في العطاء والحرمان، يقول في قصيدته "الشادوف":

صَدْيَانُ[1] مُقَدَّمٌ لِلوُرُودِ شَرَابَـهُ - وَأَغَارَ أَدْمُعَهُ لِقَلْبِ الرِّيـفِ
فَيَظَلُّ مُظْمَأً عَارِيًا وَالزَّهْرُ فِي - رِيِّ، وَنَبْتُ الحَقْلِ فِي تَفْوِيفِ
ثَاوٍ عَلَى الجُبِّ العَمِيقِ كَأَنَّـهُ - أَعْمَى عَلَى حَرْفٍ هُنَالِكَ مُوقِّ...
يَا صَامِتًا وَالرِّيحُ تَخْفُقُ حَوْلَـهُ - وَالنَّبْتُ يُطْرِبُهُ بِسَجْعٍ حَفِيفِ
هَلاَّ شَحَنْتَكَ نَفَاثَةٌ[2] مِنْ بَائِسٍ - لَهْفَانٍ فِي كَنَفِ الطَّوَى[3] مَلْفُوفِ
رَوَّى الزُّرُوعَ بِصَيِّبٍ[4] مِنْ دَمْعِهِ - وَثَوَى بِقَلْبٍ فِي الظَّلاَمِ هَـيِفِ[5]

2-الـفـوارق الاجـتـمـاعية :

وبعد تمهيده للدخول إلى صميم الواقع، راح يبرز الصراع الطبقي داخل هذا المجتمع وكيفية استغلال طبقة لطبقة أخرى بتصوير حالة الفلاح والظلم الواقع عليه من طرف النظام الإقطاعي والاحتلالي، والمفارقات الشنيعة بين حال القرية والمدينة، وبين حال الكوخ والقصر، وحال الفقير والغني.وقد أقلقته هذه المفارقات الاجتماعية،وكانت سببا في إصدار ديوانه الأول "أغاني الكوخ" [6] وأبرزها في شعره عندما اهتم بتصوير طعام الفلاح وشرابه وملبسه ومهده.

فأما طعامه فكسرة معفرة يابسة، وأما شرابه فماء آسن مكدر، وأما مهده فهو أقرب إلى عش الهوام وأبيات العناكيب، ولا يستحق أن يأخذ صفة الفراش.

طَعَامُهُ لُقْمَةٌ عَـفْرَاءُ يَابِسَـةٌ - وَالمَاءُ مِنْ أَكْدَرٍ فِي الزَّمْزَبُوبِ[7]
وَمَهْدُهُ لاَ تَسَلْ إِنْ لَفَّهُ وَسَنٌ - عُشُّ الهَوَامِ، وَأَبْيَاتُ العَنَاكِيبِ[8]

---

(1) صديان : شديد الجوع.

(2) نفاثة : ج نفثات: ما يفثه المصدور من فمه، أو ما يلقى من الفم من بصاق وغيره.

(3) الطوى : الجوع .

(4) صيّب : سحاب كثيف، قاتم، تصحبه عواصف الرعد المطيرة .

(5) هكذا أغني-ص254-256 .

(6) انظر-الفصل التمهيدي-مبحث رؤيته من خلال آرائه وأحاديثه.

(7) الزمزبوب : الزج: زرور وهو المكان الذي يتجمع وينحبس فيه الماء .

مربوب : ما انعقد من عصارة الثمار المطبوخة كالبلح والعنب والرمان، ج.ربوب من رب ومنها مربيات: ثمار مطبوخة بالسكر.

(8) أغاني الكوخ-ص154.

فَرَنَتْ لِلْقُصُورِ غَيْرَى شَجَاهَا - أَخْيَلُ مِنْ لَوَاحِظِ الكَهْرَبَاءِ
سَادِرٌ فِي البُرُوجِ كَادَ مِنَ الِفتْ - نَةِ يَرْقَى إِلَى بُرُوجِ السَّمَاءِ(1)

وعلى الرغم من هذه الهوة الاجتماعية التي يعيشها الفلاح، أراد الشاعر أن يبرز من خلال هذه الفوارق قيمة هذا الإنسان الروحية التي تعلو فوق كل قيمة مادية. لأن حقيقة الناس من أصل واحد،ومن ثم فهم من هذه الناحية متساوون، وأن القيمة الوحيدة التي يتفاضلون بها هي التقوى والعمل الصالح،مؤكدا قوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.(2)

فراح يرسم ملامح هذه التقوى التي يتفاضل بها الفلاح،ويتميز عن غيره الذي نال السلطة والأرض، والغنى والمال..حيث أبرز براءته وصدقه وصبره وقناعته .

- تَلَمَّ الغَرِيرُ وَنَعَّشَهُ(1) بَرَاءَتُهُ - إِلَى جِمَّةِ رَائِعٍ ثَرٍّ(2) الأَعَاجِيبِ
فِيهِ مِنَ الحُلْمِ دُنْيَا عَزَّ مَطْمَعُهَا - إِلاَّ عَلَى طَامِعٍ عَفِّ الأَسَالِيبِ
صَافِي السَّرِيرَةِ مِنْ رَيْفِ الوَرَى وَرِعٌ - مُحَصَّنُ النَّفْسِ مِنْ شَتَّى الأَكَاذِيبِ(3)

- أَزْرَقُ الثَّوْبِ أَبْيَضُ القَلْبِ حَمَتْهُ - لُ جُورِ الخُطُوبِ وَالنَّائِبَاتِ(4)
- وَفِي مَرْجِهِ الفَلاَّحُ يَشْدُو قَنَاعَةً - وَتَشْدُو بِعَفْيِهِ الدُّمُوعُ الهَوَامِرُ(5)
- عَرَّجْ عَلَيْهِ سَاعَةً، وَاتَّخِذْ - فِي ظِلِّهِ مَأْوَاكَ بَا عَابِرُ
وَطُفْ حَوَالَيْ رُكْنِهِ وَالتَّيَمْ - نُورَ الهُدَى وَالرُّشْدَ يَا حَائِرُ
ضَمَّتْ حَوَاشِيهِ عَلَى عَابِدٍ - مِحْرَابُهُ مِنْ فَاقَةٍ دَائِرُ(6)

---

(1) هكذا أغني-ص91-92.
(2) الحجرات-13.
(3)نعشه:رفعه.
(4) ثر : كثير النهاويل التي تصورها الأحلام .
(5) أغاني الكوخ-ص156-157 .
(6) نار وأصفاد-ص115.
(7) هكذا أغني-ص190.
(8) أغاني الكوخ-ص13-14.

فَرَنَتْ لِلْقُصُورِ غَيْرَى ضَحَاهَا - أَخْيَلُ مِنْ لَوَاحِظِ الكَهْرَبَاءِ
سَادِرٌ فِي البُرُوجِ كَادَ مِنَ الفِتْ - نَةِ يَرْقَى إِلَى بُرُوجِ السَّمَاءِ(1)

وعلى الرغم من هذه الهوة الاجتماعية التي يعيشها الفلاح، أراد الشاعر أن يبرز من خلال هذه الفوارق قيمة هذا الإنسان الروحية التي تعلو فوق كل قيمة مادية. لأن حقيقة الناس من أصل واحد،ومن ثم فهم من هذه الناحية متساوون، وأن القيمة الوحيدة التي يتفاضلون بها هي التقوى والعمل الصالح،مؤكدا قوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.(2)

فراح يرسم ملامح هذه التقوى التي يتفاضل بها الفلاح،ويتميز عن غيره الذي نال السلطة والأرض، والغنى والمال..حيث أبرز براءته وصدقه وصبره وقناعته .

- تَلَمَّ الغَرِيرُ وَنَعَّشَهُ(1) بَرَاءَتُهُ - إِلَى حِمَّى رَابِعٍ ثَرٍّ(2) الأَعَاجِيبِ
فِيهِ مِنَ الحُلْمِ دُنْيَا عَزَّ مَطْمَعُهَا - إِلاَّ عَلَى طَامِحٍ عَفِّ الأَمَالِيبِ
صَافِي السَّرِيرَةِ مِنْ رَيْفِ الوَرَى وَرِعٌ - مُحَصَّنُ النَّفْسِ مِنْ سَنَّى الأَكَاذِيبِ(3)

- أَرْزَقُ الثَّوْبِ أَبْيَضُ القَلْبِ حَمَّلَهُ - لُ جُورِ الخُطُوبِ وَالنَّائِبَاتِ(4)
- وَفِي مَرْجِهِ الفَلاَّحُ يَشْدُو قَنَاعَةً - وَتَشْدُو بِجَنْبِهِ الدُّمُوعُ الهَوَامِرُ(5)
- عَرَّجْ عَلَيْهِ سَاعَةً، وَاتَّخِذْ - فِي ظِلِّهِ مَأْوَى الْقِيَا عَابِرُ
وَطُفْ حَوَالَيْ رُكْنِهِ وَالتَّيَمْ - نُورَ الهُدَى وَالرُّشْدِ يَا حَائِرُ
ضَمَّتْ حَوَاشِيهِ عَلَى عَابِدٍ - مِحْرَابُهُ مِنْ فَاقَةٍ دَائِرُ(6)

---

(1) هكذا أغني-ص91-92.

(2) الحجرات-13.

(3)نعشه:رفعته.

(4) ثر : كثير النهاويل التي تصورها الأحلام .

(5) أغاني الكوخ-ص156-157 .

(6) نار وأصفاد-ص115.

(7) هكذا أغني-ص190.

(8) أغاني الكوخ-ص13-14.

وعلى الرغم من الظلم والذل، الفقر والشقاء، نخلص إلى أن الشاعر يؤكد على << ألا يتخذ المرء من الفقير عبدا اجتماعيا لفقر هذا، ولمال ذاك، بل هي المساواة النفسية لا غيرها، وإن اختلفت طبقات المجتمع، والأكرم هو الأتقى لله بمعنى التقوى.>>[1] وتزداد هوة المفارقة عمقا، لما يجسد الشاعر الأرض نخسيدا حيا لإثبات ذات الفلاح المتفاني في الارتباط بها وإدراكه لخصائص نفسه باكتشاف خصائصها .>>[2]

إذ يبدو ناسكا في أرض مسحرة له بالإنبات والإزهار والإثمار[3]، وموسّنا بهذه الأرض التي تمثل له الخير، بدعائه وقناعته وصبره في العمل، واستجابة الله له، يقول :

جَنَّةٌ نَضْرَةُ الخَمائِلِ في التُّرْ - بِ فَيا مَاهَا مَعَذَّبَ في حَيَاتِهْ
نَامِيكٌ في الحُقُولِ، هَيْمَانُ بالأَرْ - ضِ يُحَلِّي بِرُّ بِهَا دَعَوَاتِهْ
حَمَلَتْ فَأْسُهُ مِنَ الغَيْبِ سِرًّا - حَقَّ العَقْلَ كَامِنٌ في صِفَاتِهْ
تَحْطَبُ يَابِسَ يَمُرُّ عَلَى العَشْـ - ـرِ فَتَزْهُو الوُرُودُ في جَنَبَاتِهْ[4]

ثم يبين وضعية الفلاح، الذي فقد إحساسه بالأرض حقه في الحياة على الرغم من تحاورها معه، ولقد استحالت جنة حافلة بالخيرات والنعم، بإخلاصه وعمله الدؤوب، إذ يقول :

يَابِسُ الكَفِّ مِنْ عَنَاءٍ وَبَرْجٍ - شَقَّقَ الكَدُّ بالعَشِيِّ أَنَامِلَتُهْ
وَهُوَ إِنْ مَسَّ زَهْرَةً ثُمَّ تَفَتَّحْ - نَفَحَتْ عِطْرَهَا عَلَى رَاحَتِهْ
كَمْ صَبَا السَّنْبُلُ الحَبِيبُ إِلَيْهِ - سَاكِبًا بَيْنَ رَاحَيْهِ قُبْلَاتِهْ
وَهَفَتْ نَوْرَةٌ مِنَ الفُولِ بَيْضَا - ءُ كَطَيْفِ الإِيمَانِ في صَلَوَاتِهْ
عَيْشَقَ الزَّهْرُ كَفَّهُ فَتَمَنَّى - خُلْدَ أَصْرَافِهَا عَلَى وَرَقَاتِهْ[5]

وتمسك الفلاح بأرضه هو تمسك بالحق وذاته المسلوبة، دلّت علاقته بها << على حيوية التبادل والتأثير والتأثر بجهد الفلاح وحسن استخدامه للتربة،ويؤكد بذلك ارتباطه بها >>[6].

إلا أن هذا الحبور والأمل والخير، سرعان ما يؤول إلى الإقطاعي الحاكم المستحوذ على أرضه وحياته فيخاطب الشاعر هذه الأرض مصرّحا بالعنوان الواقع على الفلاح باغتصاب أرضه، وهضم حقوقه، وهدر كرامته، مصورا المتناقضات الغريبة والأحكام الطاغية التي جعلت الأرض سبب سعادة المتسلطين وشقاء الكادحين،بعد أن ارتوت من عرق جباه معفرة بالتراب، رضخت لأطماع عبدة المال :

---

(1) مصطفى صادق الرافعي-وحي القلم-ج2-ص57-58.

(2) مصطفى السعدني-التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل-ص27.

(3) انظر-فصل الرؤية الكونية-تسخير الكون-الأرض- .

(4) هكذا أغني-ص219-220 .

(5) المصدر نفسه-ص222-223 .

(6) مصطفى السعدني-التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل-ص79 .

مِنْ ثَرَاكِ العزيزِ، غذّتْ حَنَى الرَّوْضِ - فأغرَى لِقَطْفِهِ كُلَّ حَيِّ
وارْتَوَى نَبْتُهَا مِنَ العَرَقِ الهَامِي - عَلَى تُرْبِكَ الطَّهُورِ الزَّكِيِّ
مِنْ جِبَاهٍ تَعَفَّرَتْ فِي ثَرَى الذُّلِّ - عَلَى مَوْطِنٍ ظَلُومٍ قَسِيِّ
رَضِخَتْ لِلسَّرَاةِ مِنْ كُلِّ فَظٍّ - عَبْدَ المَالِ فِي طَمَتِعِ زَرِيِّ
أَنْتِ أَسْعَدْتِهِ، وَأَشْقَيْتِ أَرْوَاحًا - تَهَاوَيْنَ فِي حِمَاكِ الشَّقِيِّ
- نِمْتِ فِي الضَّنْكِ وَالهَوَانِ، وَأَغْفَى - رَافِهَ النَّفْسِ فِي حَرِيرٍ قَطَرِيِّ!
فَاسْتَفِيقِي مِنْ هَجْعَةٍ تَخْرَعُ الرُّوحَ - رُؤَاهَا بِكُلِّ طَيْفٍ فَسِرِيِّ(1)

إن يدعوها للاستفاقة والانتباه من أي خداع أو افتراء، وقد شفّه هؤلاء الفلاحين الذين يلقي عليهم الغاصب الفضلات والفتات، بعد أن يقطف اليانع والشهي، ويحرم حقهم قهرا وظلما.لا كسلا وتواكلا، يقول:

شَفَنِي فِي حِمَاكِ قَوْمٌ حَيَارَى - نَدَبُوا حَسْنَهُمْ عَلَى صَفَحَاتِهْ
نَضَّرُوا غَرْسَكِ الرَّطِيبَ، وَنَامُوا - فَعَدَا غَاصِبٌ عَلَى ثَمَرَاتِهْ
قَطَفَ اليَانِعَ الشَّهِيَّ وَأَلْقَى - لِبَنِيكِ الجِيَاعِ، فَضْلَ فُتَاتِهْ(2)

وتكبر فكرة الأرض والرزق، والحرية والكرامة، والحق والعدل، لما يربطها بدلالات الرق وصراع الإنسان معه عبر الأزمان، مجسدا بذلك ألوان الظلم والاستعباد التي ضربت على حياة الإنسان المصري،وبخاصة الفلاح الذي عشعش الرق في أرضه،حانقا كل الأحلام و الأماني والرؤى.

ويرسم صورة أكثر صدق وواقعية للإقطاعي النطاعي، الطماع، المغتصب، الذي أغراه التيه والكبر والزيف، مقابلا بها صورة الفلاح الجائع، الصابر، القانع، المؤمن:

عَلَى ظَهْرِهِ بَاغٍ، تَوَرَّمَ حَتَّهُ
مِنَ التِّيهِ، مَوْصُوفٌ بِنَسْلِ الأَكَابِرِ
عُتُلٌّ، إِذَا شَقَّ الطَّرِيقَ،تَرَى لَهُ
تَأَلُّهَ مِثْقَالٍ عَلَى العَمْتِ سَادِرِ
عُصَارَةُ أَحْيَالٍ مِنَ السَّطْوِ، لَمْ تَجِدْ
لَهَا زَبَدًا إِلَّا ضَجِيجَ المَظَاهِرِ
وَعَيْنَاهُ تَرْنُو لِلْعِبَادِ بِنَظْرَةٍ
مُزَوَّرَةِ الأَلْحَاظِ(3)، فِي كُلِّ سَامِرِ
تَمُصُّ حُشَاشَاتِ الأَجِيرِ وَيَرْتَوِي

---

(1) أغاني الكوخ-ص67-68 .

(2) هكذا أغني-ص223-224 .

(3) الألحاظ : لواحظ، لاحظة : تنظر .

بِـدَمْعِ الخيارَى، مِنْ شَقِيٍّ وعاثِـرِ...

وَنُهّابُ أَقْوَاتٍ، يَلُمُّ حَصَادَهَـا
لِيَنْجَمَ بِالأَسْلاَبِ جِيْبَ المَقَاصِـرِ
يَنَامُ قَرِيرَ الظُّلْمِ فِي بَهْوِ قَصْـرِهِ
وَغَارِسُهَا المَحْرُومُ بَيْنَ الحظَائِـرِ
أَذَلَّ يَدِي يَوْمَ الحَصَادِ، فَلَمْ يَدَعْ
لَهَا ثَمَرًا، إِلاَّ هَشِيمَ الـمَعَابِـرِ
وَإِلاَّ بَقَايَا، خَلْفَ الجُوَرِ عُـودُهَا
لِلسَّبَلِ المَبْوُذِ بَيْنَ الحَـفَائِـرِ
سَنَابِلُ أَلْقَتْهَا المَنَاجِـلُ غَـفْـلَةً
وَكِيزَانُ[1] حَبِّ خَاوِيَاتُ الصَّفَائِرِ
يُفَتِّشُ عَنْهَا الكَادِحُـونَ بِوَهْـمِهِمْ
وَيَبْحَثُ عَنْهَا جُـوعُهُمْ بِالأَظَافِرِ[2]

ثم يبرز أخلاقيات هذا الإقطاعي غير الإنسانية الذي أنكر الرأفة والرحمة،ورفض سماع الشكوى والمناداة بالحق، ووصلت به قسوته إلى الحد الذي يُؤثِرُ فيه كلبه على هؤلاء الآدميين وقد أتخمه وأكرمه ودلّله، وهم من حوله غارقين في المرض والبؤس.ورفض حكمة الله الذي يرزق ويمنع الجميع وأصبح هو سارق قوتهم، المعطي والواهب إذا شاء، معاندا الله في ذلك، آثما بكل الآثام والكبائر، وقد وصل به الأمر بعد لؤمه وسرقته إلى المقامرة والربا:

فَلاَ هُوَ وَاسَى دَمْعَ شَاكٍ وَلاَ أَسَا
جِرَاحَاتِ مَظْلُومٍ شَقِيِّ النَّوَاظِـرِ
أَتَاهُ يُنَادِي الحَقَّ، فَانْشَقَّ قَلْبُـهُ
عَلَى خَيْبَةٍ تُدْمِي إِبَاءَ السَّرَائِـرِ
رَأَى كَلْبَهُ خَلْفَ السِّيَاجِ مُكَرَّمًا
قَرِيرَ الخُطَا، وَفِي كُلِّ نَادٍ وَسَامِرِ
إِذَا أَنَّ[3]..دَاخَ الطِّبُّ حَوْلَ مَزَارِهِ

---

(1) كيزان : أو أكوازه ج كوز: إناء من فخار أو عيدان له عروة يشرب به .

(2) قاب قوسين-ص54-56 .

(3) أنّ : نام .

وَأَرْخَى لَهُ التَّذْلِيلُ حَزَّ السَّنَائِرِ
وَمِنْ حَوْلِهِ الإِنْسَانُ فِي البُؤْسِ وَالضَّنَى
وَطِبْتَ الرُّقَى... يُزْجِي دُخَانَ المَبَاخِرِ
تَنَاهَشَهُ الطَّاغُونَ... مِنْ كُلِّ مُغْرِقٍ
دُمُوعَ الحَيَارَى فِي رَحِيقِ الكَبَائِرِ
وَكُلِّ لَئِيمِ الكَفِّ يَسْرِقُ قُوتَهُ
لِكَنْزِ مَرَابٍ، أَوْ لِكَفِّ مُقَامِرِ
وَكُلِّ أَثِيمٍ عَانَدَ اللهَ ظُلْمُهُ
فَقَالَ : أَنَا المُعْطِيكَ قَبْلَ المَقَادِرِ[1]،

وهكذا تجرأ الشاعر على فضح النظام الإقطاعي المتحجر الذي خيم على مصر كلها فحرم أبناءها نعمة الحياة الكريمة، وسلبهم نعمة الحرية، وآثر عليهم كلابهم المدللة. ورأى فيهم أدوات يحركها لإشباع نهمه للمال والمتع الرخيصة، مخلفا إياهم غارقين في جهالتهم وأمراضهم وعريهم وحرمانهم[2]، مؤكدا بذلك وجوب الحرية التي تنعكس على الذات الإنسانية وتضفي على مجالات العمل والحياة طابعها الذي يجعل الإنسان أكثر تمسكا وتحسسا بما تبذر وتغرس يداه، وأكثر استياء لما يحصد الشقاء والفقر والحرمان. ومؤكدا أهمية امتلاك الإنسان لإرادته وأرضه، مما يحقق العدل والشعور بالطمأنينة. والقضاء على التفاوت الاجتماعي والمعيشي بين أبناء المجتمع.

3-الحـــل الـــثوري

إن تصوير الحرمان الذي تعاني منه أكثرية معذبة من المجتمع، لن تنتهي مظاهره وأسبابه إلا عندما توضع الحلول المناسبة التي تكفل لهم حقهم في امتلاك الأرض، وتخلصهم من كافة أشكال السيطرة. فهذا لم يكتف الشاعر بالبكاء والحزن على مأساة الفلاح الاجتماعية، والتصوير الجريء للإقطاعيين والظالمين...؟ لأن حجم الاستعباد والاستغلال. لا بد له من تفكير ضروري لوضع حلول جذرية تقضي على الفقر والظلم والفوارق الاجتماعية، وتحقق العدالة المرجوة.

إن هذا الظلم والحرمان الذي تعاني منه فئات كثيرة من المجتمع المصري، سوف لن تنتهي أسبابه إلا عندما توضع الحلول الملائمة التي تكفل لها حقها في امتلاك الأرض والتخلص من كافة أشكال السيطرة. والتحرر عن الجوع والحرمان. لن يتم إلا بالثورة التي يجب أن تحمل تلك الفئات المحرومة عبئها ومسؤوليتها. حيث أصبح تغيير الواقع أمرا ضروريا، ولا يحتاج إلا للتضحية التي تعيد الحق إلى نصابه، وتحرر الإنسان بتشبثه بأرضه كتشبثه بالحياة وتطلعه إلى الحياة الكريمة. وكانت الثورة وليدة القهر الاجتماعي من أجل انتزاع حقه

---

(1) قاب قوسين-ص58-59 .

وكرامته ومادامت الحياة والرزق والحرية حقا للجميع، فقد أدى هذا الشعور إلى إعلان الرفض ضد الزيف والخداع والمظاهر البراقة والطغيان والاستغلال الذي أحدث ذلك التفاوت بين أصحاب الغنى والجاه، وأصحاب الفقر والحرمان، وإعلان الثورة من أجل التغيير والوصول إلى صنع الحياة الإنسانية اللائقة.<<فكل الثورات الإنسانية التي تفجرت في عالمنا المعاصر، إنما هي وليدة المشكلات الاجتماعية التي كان الفقر أبرزها دافعا، وأقساها نابا وأشد إيلاما، وبالتالي كان المحرك الأول لتفجر الثورة الإنسانية المطالبة بالعدالة الاجتماعية، والمساواة بين جميع أفراد المجتمع، وإزالة الحيف والظلم عن الإنسان.>>(1)

وقد آمن الشاعر بأن العدالة لن تتحقق إلا في إطار القوة التي تنصف المظلوم من الظالم،وتفصل بين الحق والباطل، وكان في شعره الإرهاصات المبشرة لولادة الثورة التي تضع حدا لهذه المعاناة.

فمنذ بدايات شعره الأولى عن حياة الفلاح والكوخ، كان التلويح والتلميح للثورة،حيث كان يتساءل عن ايحاءات ذلك الدخان المنبعث من الكوخ،والذي أوحى له بثورة دخان ثائر على حياة الضنك والبؤس:

وَثَوْرَةٍ مِنْ دُخَانِ الكُوخِ فَائِـــرَةٍ - تُغْلِي عَلَى يَائِسٍ فِي الكُوخِ مَحْزُوبُ

كَمْ بَعْثَرَتْ وَجْدَهَا فِي الجَوِّ صَاخِبَةً - فَطَارَ وَالرِّيحُ فِي شَتَّى الأَهَاضِيبِ

تَنَفَّسَتْ بِضَنَاهُ المُرِّ شَاكِيَـــــةً - أَلامَ شَيْخٍ(2) رَقِيقِ العَيْشِ مَغْلُوبِ(3)

وقد أفصح أكثر من تساؤلاته هذه، عندما رسم لوحته الشعرية المعبرة عن شقاء وبؤس الفلاحين في مقابل بذخهم وعطائهم. فيسائل السنبل والقمر، هذا الأخير الذي يشهد على -الدوام- كدحهم وعناءهم،مستنبطًا الفجر الجديد، مُؤَخِرةً دهورا طويلة، يقول مخاطبا القمر :

سَاءَلْتُ سُنْبُلَهُمْ مَا مِرَّ شِقْوَتِهِمْ - وَمِنْ غُبَارٍ يَدَيْهِمْ مَرْحُكَ(4) العَطِرُ؟

فَمَالَ وَاسْتَرْجَعَتْ عِيدَانُهُ نَغَمًا - يَلْغُو مِنَ المَوْتِ فِي أَصْدَائِـهِ سَمَرُ

وَإِذَا بِهَا فِي تُرَابِ الحَقْلِ نَائِمَةٌ - تَحْكِي تَوَابِيتَ،لَمْ تُوجَدْ لَهَا حُفَرُ

بَكَى الحَصِيدُ عَلَى أَحْزَانِ غَارِسِهِ - مَتَى سَيَحْصُدُ هَذَا الدَّمْعُ يَا قَمَرُ؟(5)

وبدأت الدعوة الصريحة إلى الثورة،بدعوته إلى تلك القرية النائمة في الضنك والهوان،لليقظة والانتباه إلى أي خداع،أو إفتراء الذي يخفي وجه الحق:

-غَنَّتْ فِي الضَّنْكِ وَالهَوَانِ وَأَغْنَى - رَافِهَ النَّفْسِ فِي جَرِيرٍ قَطِرِيِّ

فَاسْتَفِيقِي مِنْ هَجْعَةٍ تَخْدَعُ الرُّوحَ - رُؤَاهَا بِكُلِّ طَيْفٍ فَرِيِّ(6)

---

(1) عبد القادر القط-الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر-ص128.

(2) أشيخ : المقصود الفلاح المحروم .

(3)أغاني الكوخ-ص153-154.

(4) مرحك : مروج : وهي أرض واسعة ذات نبات ومرعى .

(5) أنين المطر-ص95 .

(6) أغاني الكوخ- ص 68 .

ويدعو الفلاح صاحب الحق لكي يفيق من عبوديته،ويفك إساره، وينبذ خضوعه واستسلامه، ويتطلع الى حريته وكرامته وحقوقه:

أَفِقْ يَا خَالِقَ الفِرْدَوْسِ .. تِلْكَ جِنَانَهُ الفَأْسِ
أَعَبْدٌ أَمْ نَبِيٌّ أَنْتَ مَنْبُوذٌ مِنَ النَّـــاسِ؟
أَلاَ دَعْ سِخْرَكَ الجَوْعَانَ..وَاضْرِبْ أَيْنَمَا سَارُوا
وَلاَ يَخْدَعَنَّكَ دَمْعُ القَوْمِ..إِنَّ الدَّمْعَ حَدَّارُ
زَمَانُ الرِّقِّ مَاتَ، وَأَنْتَ حَشْرَجَةٌ عَلَى أَجَلِهْ
وَدِينُ الذُّلِّ إِلْحَادٌ سَيَمْحُوهُ الوَحِيُّ مِنْ رُسُلِهْ(1)

حتى كانت الثورة التي شاهدتها مصر في يوليو1952م،فوجد فيها المخرج والخلاص والفرج للأزمة الاجتماعية المعيشة. وكانت أولى قصائده الثورية قصيدة "الأرض".التي انتفضت لنور الثورة،وهو يهدر على زروعها وأكواخها بنغم البعث والحياة.كما يقول في مقدمة القصيدة، ويشير بذلك إلى الأرض التي تحتوي الفلاح بحياته وشقائه وذله،والتي كانت منها الشرارات الأولى للثورة بعد مسيرة الأرض الطويلة في ظل الرق، فيقول :

بَيْنَ ذُلِّ الثَّرَى... وَدَمْعُ الحُفَاةِ - هَبَّتِ الأَرْضُ مِنْ عَمِيقِ السُّبَاتِ
نَفِخَ الصُّوَرُ فِي رُبَاهَا، فَقَامَتْ - تَحْصُدُ الظُّلْمَ فِي صُدُورِ الطُّغَاةِ
ضَرَبَ اللهُ لَيْلَهَا بِضُحَى البَعْثِ - فَضَحَّتْ قُبُورَهَا بِالحَيَاةِ
وَأَفَادَتْ مِنْ غَشْيَةِ الأُفْقِ المَلْطُومِ - بِالسَّوْطِ مِنْ جَمِيعِ الجِهَاتِ. (2)

ثم يبين ضرورة هذه الثورة، ويأمر الأرض بالنهوض، وقد طال فيها الهوان والذل، والبغي والظلم... وآن الأوان لكي يقرع الحق الأبواب، يغير الموازين والأحكام والأرزاق التي فرضها الطغاة والأسياد الغارقين في الشهوات، وينهر درب المساكين والمظلومين:

نُفِخَ الصُّورُ..فَانْهَضِي..فَلَقَدْ طَالَ يَحْتَبِكْ دَمُ ثَارِ الشَّـــكَاةِ
طَالَ فِيكِ الهَوَانُ وَالذُّلُّ وَالتَّسْبِيحُ لِلْغَارِقِينَ فِي الشَّـــهَوَاتِ
كُلُّ ذِي شَارِبٍ عُتُلٍّ تَمَطَّـــتْ - ذِرْوَتَاهُ عَلَى زَنِيمٍ(3) القَفَاتِ...
عَرَقُ الكَادِحِينَ خَمْرٌ بِكَفَّـــيْهِ - وَأَنْفَاسُهُمْ رَمِيمُ(4) الشَّقَـــاةِ!
حَبَّ(5) فِي البَغْيِ وَالمَظَالِمِ حَتَّى - أَيْقَظَتْهُ فَوَاجِعُ الحَادِثَاتِ
فَرَعَ الحَقُّ بَابَهُ...فَإِذَا الظُّلْـــمُ مِـــنَ الرَّوْعِ ذَرَّةٌ فِي فَـــلاَةِ

---

(1) أبي المفر-ص160.

(2) نار وأصفاد-ص15.

(3) زنيم:ج زعماء، لقيم علامة من علامات الشر تميزه.

(4) رميم : زمر: أي عمى بالمعج في القصب ونحوه.

(5) حب: ج أحباب: حداع وحشاش.

وإذا الظالمون صرّعنى... عليهم -- كفن الظلم شانه[1] المحزيات
قرع الحق بابه... فإذا الطغـــاغوت وهم على بقايا رفات
وإذا قصة المواكب و الأسيـــاد تهوي ذليلة الكلمات
قرع الحق بابه.. فإذا الأرض - حوالية بغتة للمطعـــاة
وظلام لكل باغ ونـــور - للمساكين ساطع الرحمات[2]..

وراح يغني للحرية والأرض والفلاح والكوخ، وقد أصبحت الأرض أحق بالفلاح من ذلك المتسلط، المترف في ظل هذه الثورة، التي قامت من أجل العدل والحق :

غنّ للأرض التي عادت لمن أحيا رباها
حرّة تعطيه من أثمارها أشهى جناها
غنّ للثورة.. و لم تترك عريناً في حماها
ينهب الزهر، ويبقي شوكه للغاريسنا[3]

وأكد بذلك أن الحرية هي التي تنعكس على الذات الإنسانية، وتضفي على مجالات الحياة والعمل طابعا حيويا، تجعل ذلك الفلاح أكثر تمسكا وحسا بما تخلق يداه وبما تبذره وتغرسه، فالأرض ليست ملكا للمكابرين والعاطلين والدخلاء، وإنما هي ملك للعاملين فيها، يقول :

هي الأرض: أرض الفأس والعرق الذي
سقاها، وليست للفراغ المكابـــر
ملايين غشاها الضياع، فأطرقت
على ثورة مكبوتة في العمائـــر[4]

ومافتىء أن تبدل حال الكوخ والفلاح، بعد أن حققت الثورة مبتغاه وأمله، وقضت على الاحتلال والإقطاع، وشهد الشاعر الفلاح، وقد استعيدت كرامته، وارتفعت قامته، وتحرر من أثقال كاهله، وصار ظلامه وأغلاله بقايا رفات، تتضوأ على زوالها كرامة الإنسان. فسجل عهد الكوخ الجديد في عهد الحرية والكرامة والمساواة والعدالة، والعزة والإباء ، يقول في قصيدته "ساعة مع الكوخ" الذي عاد إليه الشاعر، زائرا بعد بعث جديد، وقد تغير ما كان يرزح فيه من زمن طويل، فيحي الكوخ، مخاطبا فيه واقعه الجديد، ويرمز به كذلك إلى الفلاح:

سلاما ترابَ الكوخ... ما عدت صاغرا
لعتوله جبار، ولا خطو جائـــر
تفجر فيك البعث من كل جانـــب

---

(1) شاه الشيء: قبح.
(2) نار وأصفاد-ص117.
(3) لابد-ص93.
(4) قاب قوسين-ص53.

وَدارَتْ رَحَـــــاهُ فِي الرَّبَـى وَالمحَاضِرِ
وَما عادَ رَكْبُ البَغْيِ يَمْشِي، كَـــــأنَّهُ
عَلَى وَجْهِكَ المِسْكِينِ رَوْبَـــا مُحَـازِرِ
وَأفْـنَى جَوَادُ الظُّـلْمِ لاَرْمَـتَحَ فَـارِسٍ
وَلاَصَكَّ مِهْمَازٌ[1] زَنِـيـمِ الحَـوَافِـرِ
وَلاَ شَـارِبٌ كَالعَشَـقْـرِ، يَرْمِي بِنَظْرَةٍ
تَلُسُّ فُـنُـونَ الخَتْـلِ[2] طَيَّ المَحَاجِـرِ
وَلاَرْمَحَ عَبْدٍ خَلْفَهُ، تَـابِعَ الـحُـسَـقَا
يُؤَدِّي صَـلاَةَ الرَّقِّ حَسْبَ الحَوَافِيـــرِ[3]

وفي غمرة توديع الشاعر لزمن الرق، ونشوته بالثورة والنصر، كان لمانه جليا وحاضرا بإرجاع ذلك البعث إلى مشيئة الله وإذنه، وحرصه على تحقيق غاية الحق والنصر، بقوته الغيبية العادلة،وحكمته التي تدعو إلى الحق والمساواة بين الناس، وتقدر حرية الفرد وكرامته، وتؤكد شريعة السماء، فذلك الثائر الذي أعلن صدى التغيير كانت معه مشاعره الروحية والإنسانية، تحميه وترعاه لإيمانه بالله الذي سانده وآزره في رد أرضه وإبائه:

وَمَادَى اللَّيْلُ حَتَّـى دَهَمَ الفَـجْرُ ظَلاَمَـهْ
وَإِذَا صَـوْتٌ مِنَ اللهِ يُـدَوِّي كَالـقِيَامَـهْ
رَدَّ لِـي أَرْضِي تَهْـتَـزُّ إِبَـاءً وَكَرَامَـهْ
وَضُـحًى يَهْدِرُ بِالثَّوْرَةِ فِي كُـلِّ الـعُيُـونْ[4]

وصور الشاعر من قبل ثورة الإسلام على الرق، وأجلى ما نهض به محمد صلى الله عليه وسلم من حركة تحريرية للإنسان، أذابت الطغيان وألقت إنسانية الإنسان. وهو بذلك يدعو الإنسان المعاصر لتسلم دوره من جديد مستنهضا فيه ثقة الإيمان وحنين الماضي، مؤكدا أن الفقر والحرمان هو نتيجة للتسلط والاستغلال الإنساني. ليس كما يرجع البعض أسبابه إلى الله والقدر والغيب الذي قسم الأرزاق، فأعطى فلانا،ومنع عطاءه عن فلان،لأن الله سبحانه وتعالى لا تميز بين الخلق، ولا يفضل بعدله إنسانا عن آخر، بل لولا يد الله الرحيمة،لظل الرق إحدى الشعائر، يقول :

وَكُـلُّ يَدٍ لَوْلاَ يَـدُ اللهِ حَبَّتْهَا
لَظَلَّتْ لِدِينِ الرِّقِّ إِحْدَى الشَّعَائِرِ
أَتَاهَا بِنَارِ الغَيْبِ إِعْصَارُ حَاصِـدٍ

---

(1) مهماز : ج.مهامز: كل ما يهمز به وهي حديدة في مؤخر حذاء الراكب يهمز بها حسب الدابة .

(2) الختل : الخداع.

(3) قاب قوسين–ص53-54 .

(4) لابد–ص89-90 .

محا سيرة الأغلال عن كل سائر[1]

على الرغم من مبايعة الشاعر للثورة، والتغني بفضلها في تحرير الأرض والفلاح من ربقة الاستغلال والاستعباد. إلا أنه أدرك أن التنازل ليس سهلا بمجرد الإعلان عن شعارات هذه الثورة التي تنادي بحقوق الإنسان، وتكافؤ الفرص، والعدالة الاجتماعية، ولهذا لم يواكب حياة الفلاح الجديدة في ظل المجتمع الثوري، لأن الفقر بقي متفشيا، ساريا في الحياة الاجتماعية، وإن لم يتخذ الصورة القديمة القاسية جدا. إذ بعد الثورة لم توجد إلا شعارات وقوانين، لم تحقق العدالة المرجوة وبخاصة شعارات دعاة الاشتراكية، وظهرت أنواع أخرى من الأنانية والاستغلال بسوء توزيع الثروة، وبقاء ترف أقلية على حساب الأكثرية، وظلم بعض الناس لبعض. مما أدى إلى بقاء الفقر والاضطراب والحقد والبغض،التي قوضت أركان المحبة والإخاء بين الناس.

إن هذه الثورة كان بإمكانها ألا تحيد عن الحق والعدل الذي شرعتهما مفاهيم الشريعة الإسلامية بعد تحقيق الحرية، التي هي من مقومات تكريم الإنسان، وهي من خلال التصور الإسلامي، هبة ربانية، ومناط تميز الإنسان على غيره من المخلوقات. لأن الله جعل الإنسان سيد هذا الوجود، وجعل الكون كله مسخرا لخدمته، وجعل جميع المخلوقات تتطاطئ رأسها لهامته فلا ينبغي التفريط في هذه الهبة الربانية لأي متسلط جبار.[2] ومن مظاهر تمتع الإنسان بحريته في ظل القيم الإسلامية حمايته في دمه وماله وعرضه، فلا يصيبه قهر أو ظلم اجتماعي. وقد قال عليه الصلاة والسلام ﴿ فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ﴾[3] وكذلك تكريمه وتفضيله في الحياة ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[4] وباستخلافه في الأرض وأمره بتعميرها ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[5]

لو كانت إعادة الأراضي وتقسيمها بين الناس، إعادة منصفة للفقراء والفلاحين، لكان بإمكانهم بعد شعورهم بالأرض التي قيدها الإقطاع والاحتلال،ومنعهم عن معانقة الرغائب والأماني عليها،أن يحققوا مجال الإنطلاق والعمل في ظل الحرية والكرامة، والاستغناء عن الاستجداء مهما كان جنس عملهم،﴿ حتى لأن يأخذ أحدهم حبله، فيأخذ بحزمة حطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه،خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه ﴾[6] ولكن لم يتحقق معنى تكافؤ الفرص، الذي لا يخرج عن معنى العدل الاجتماعي، حيث << تكون مجالات الحياة متاحة لأفراد المجتمع على السواء، ومعنى تحقيق هذا التكافؤ هو أن تزال العوائق والحواجز التي تفرق بين الأفراد في المجتمع الواحد >>[7].

---

(1) قاب قوسين-ص60.

(2) محمد حمد حضر-الإسلام وحقوق الإنسان-دار مكتبة الحياة-بيروت-1980-ص25.

(3) فتح الباري- كتاب العلم- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "رب مبلغ أوعى من سامع"- ج1-ص157-158.

(4) الإسراء-70.

(5) هود-61.

(6) فتح الباري- باب بيع الحطب والكلأ- ج5- ص46.

(7) محمد المهدي: الدين والحضارة الإنسانية- الفكر- بيروت- ج2 (1394هـ 1974م) ص 243

4-الحل السلمي

ولجأ الشاعر إلى حل آخر إنساني وإسلامي يقيم دعائم الحياة الاجتماعية على أسس من القيم الإسلامية الهادفة إلى بناء الفرد والمجتمع بناء سليما،بتشريع مبادئ التكافل الاجتماعي لإرساء قواعد العدالة الاجتماعية مؤمنا بأنه << لن تتحقق عدالة اجتماعية كاملة، ولن يضمن لها التنفيذ والبقاء، ما لم تستند إلى شعور نفسي باطني باستحقاق الفرد لها،وبحاجة الجماعة إليها، وبعقيدة في أنها تؤدي إلى طاعة الله، وإلى واقع إسلامي أسمى. وما لم تستند كذلك إلى واقع مادي يهيء للفرد أن يتمسك بها، ويتحمل تكاليفها ويدافع عنها، ولن يستحقها الفرد بالتشريع قبل أن يستحقها بالشعور وبالقدرة العملية على استدامة هذا الشعور.>>(1)

لقد نجح الإسلام في إرساء قواعد العدالة الاجتماعية بالنظر إلى الفقير بعين العادل بمشاطرته في الخير، وإعانته في الشدة، وضمان له مستوى معيشيا لائقا بكرامة الإنسان. وكانت الزكاة أول تشريع منظم في سبيل ضمان اجتماعي يحقق الكفاية لكل محتاج، فهي حق ثابت، وفريضة من الله، إن أهملتها الحكومات، ولم تطالب بها، فإن المسلم لا يصح إسلامه، ولا يتم إيمانه إلا بإخراجها إرضاء لربه وتزكية لنفسه، وتطهيرا لماله. ففرض الزكاة لم يكن فرضا عارضا ثانويا،بل كانت ركنا ثالثا من أركان الإسلام،جعلها موردا ضخما،لا موردا ضئيلا، أو هينا لعلاج الفقر.(2) وقد قال عز وجل ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ، فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ.وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.﴾(3). إلا أن الله تعالى لم يجعل الزكاة فرضا من أموال القادرين فقط، وإنما جعل أداءها ضرورة من ضرورات الإيمان ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ.﴾(4)، كما كانت الزكاة وسيلة من وسائل الحصول على رحمة الله ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.﴾(5) وهي حق يوجد لا فضل يعطى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(6)، تسد حاجة الفقراء والضعفاء، وتحفظ كرامتهم. وإلى جانب هذا الحق المفروض بقوة الشريعة والمقدار في المال بحساب معلوم،جعل الله الصدقة، وهي موكولة ضمير الفرد بلا حساب، وهي وحي الشعور والوجدان، وثمرة التراحم والإخاء لتحقيق الترابط الإنساني والتكافل

---

(1) سيد قطب-العدالة الاجتماعية في الإسلام-دار الشروق-ط9-(1403هـ-1983م)-ص32

(2) انظر-يوسف القرضاوي-الحل الإسلامي فريضة وضرورة-ط13-1408هـ-1988م-مكتبة رحاب-الجزائر-ص 64-71

(3) التوبة-60 .

(4) البقرة-177.

(5) النور-56 .

(6) الذاريات-19.

الاجتماعي عن طريق الشعور الشخصي بالواجب والإحساس النفسي بالرحمة.[1] وبذلك عني الإسلام بالجانب الإنساني والأخلاقي إلى جانب القوانين والفرائض،ليحقق التكافل بين الناس، ويكوّن << النفس الخيرة، المعطية، البادلة، التي تنفق في السراء والضراء، سرا وعلانية، وترى المال وسيلة لا غاية، وسيلة للخير والبر وابتغاء وجه الله، وجاءت آيات كثيرة داعية إلى البذل والعطاء والرحمة، ومحذرة من البخل، والشح وعدم الإنفاق، ونذكر بعض من هذه التوجيهات الرائعة،﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ، وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [2].

وفي مقابلها آيات أخرى محذرة من البخل والشح وعدم الإنفاق، بوصف الممتنع عن الإنفاق بالجاحد لنعم الله الذي يعيش من أجل نفسه تأسيا ما حوله من المساكين والمعوزين ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ .﴾[3] ويؤدي ذلك إلى التهلكة ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.﴾[4]. هذه التهلكة التي تنقسم إلى << التهلكة الفردية بتعريض النفس للعذاب في الآخرة من الله، والنقمة في الدنيا من الناس، والتهلكة الجماعية،بما يشيعه عدم الإنفاق في المجتمع من تفاوت وظلم، وفقر وإحقاد.>>[5].

وكانت آيات أخرى كذلك حريصة على التنويه بهذه الصدقة عن الرياء والتظاهر والمن والأذى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ. وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ. وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.قَوْلٌ مَعْرُوفٌ.وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى.وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ.يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ[6] وَالْأَذَى. كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ[7] النَّاسِ .وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا [8]. لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ.﴾[9] وهذا كان استحسان إخفاء الصدقة عند تقديمها للمحتاجين

---

(1) سيد قطب-العدالة الاجتماعية في الإسلام-ص66.

(2) الحديد-18.

(3) الماعون-1-3 .

(4) البقرة-195.

(5) المرجع نفسه-ص69.

(6) رئاء : رياء.

(7) صفوان : من الصفا وهو الحجر الأملس من الحجارة وواحدته صفاة وصفوان. انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم-مج2- ص77-78.

(8) صلدا : ج أصلاد: حجر صلد : أي صلب شديد .

(9) البقرة -261 -264

حفظا للكرامة، ومنعا للاختيال والافتخار ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ. وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ.﴾[1] وبذلك كان للصدقة << آدابا ترفعها عن أن تكون تفضيلا واستعلاء من الواحد على المحروم أو أن تكون رياء صادر عن شعور غير كريم.لأن الصدقة قد هبطت دوافعها أو تبعها المن على آخذها. استحالت عملا خسيسا يؤذي النفس والخلق والضمير، ويؤذي المجتمع كذلك في أفراده وروابطه، وليس كالمن بالإحسان شيء يمقته النفس ويذفها، أو يصرفها عن قبول الإحسان، وليس كالرياء بالصدقة مفسد للضمير، حقير في عرف الأخلاق.>>[2]، وبذلك قاوم الإسلام غريزة حب المال، وحب الذات، وعالج ذلك علاجا نفسيا وروحيا،بعرض صور من الترغيب والتحذير، والحض والنداء، التي تجعل النفس تجود بما هو حبيب إليها ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[3].

وإن لم نتطرق إلى حلول وعلاجات أخرى -لا مجال لذكرها- فإنها جميعا تؤكد أن نظام التكافل الاجتماعي في الإسلام،لا يعني مجرد المساعدات المالية، وإنما عني بالتكافل الاجتماعي لأن يكون نظاما لتربية روح الفرد وضميره وشخصيته وسلوكه الاجتماعي. ويكون نظاما للعلاقا ت الاجتماعية والعلاقات الاقتصادية التي تسود المجتمع الإسلامي.[4]

هذا النظام الذي رسمه الإسلام للتعاون والتكافل في الحياة، يجعل المؤمنين في المجتمع الإسلامي كالجسد الواحد. وهي صورة جميلة آخاذة رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد.إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ﴾[5]. وصورة أخرى معبرة ﴿ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا﴾[6]. وفي مقابل هذا الحب والتعاون والتراحم والتوادد، يزول الحقد والصراع الطبقي والفوارق الاجتماعية، وتتوطد أواصر الألفة والمحبة والإخاء والتسامح وترفرف ألوية الحق والعدل.

ولقد بدا اقتناع الشاعر واضحا بضرورة هذا الحل،وهو الرجوع إلى تعاليم الشريعة الإسلامية من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية بدعوته منذ بدايات شعره عن هذا الفلاح، الذي رمز به لكل إنسان بسيط محروم بحاجة إلى التعاون والتراحم والتكافل،واعتبار قيمة الزكاة والصدقة حق اجتماعي في مجتمع مسلم، يجب أن تفرضها الأطر المشروعة والسليمة والإنسانية. وتجلى هذا الأثر الإسلامي في عدة قصائد من ديوانه "لابد".

---

(1) البقرة-271 .

(2) سيد قطب - العدالة الاجتماعية في الإسلام-ص73 .

(3) آل عمران-92 .

(4) المرجع نفسه-ص74 .

(5)النووي- شرح صحيح مسلم - كتاب البر- باب النهي عن السباب- ج16-ص140 .

(6) المصدر نفسه- ج16-ص139.

استطاعت أن تصل إلى درجة رفيعة من النضج الفني والفكري بإصراره على ذلك الحق وأحل المشروعين دينيا وإنسانيا، مبينا فيها انحراف المجتمع عن تلك المفاهيم والقيم، منددا بالنداءات والشعارات الرائفة والبراقة البعيدة عن النية الحسنة والتطبيق الفعلي والحس الإيماني.

ويخاطب في قصيدة "بين الله والإحسان" أولئك الذين دميت جباههم من السجود، وعميت قلوبهم عن الإنسان. هكذا يقول في مقدمتها، ويكشف عن الإيمان الحقيقي الذي يخرج من اللسان والقلب إلى الفعل والتطبيق، ويمجد التحول الروحي الكيفي مع التحول المادي الكيفي، فينزل الإيمان من مفهومه الفردي إلى مفهوم اجتماعي أكثر فاعلية واتساعا باقتران الصلاة والتقوى بالرحمة والعطاء... وإلا فلا معنى للصلاة دون إدراك سر دمعة ذلك المعور الفقير، وجدد بذلك هذه العلاقة التي نادى إليها صلى الله عليه وسلم ﴿ ما آمن بي من بات شبعانا وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم به.﴾(1)

ويقف أمام أحد الموسرين، المسرعين الخطو نحو الله، المتظاهرين بالتقوى ويسائله وهو يصلي ويدي خشوعه ودعاءه، متعجبا من سر سجوده قائلا :

يَـا مُسْرِعًا فِي خَـطْوِهِ لِلَّـهْ
خَفْقَةُ قَـلْبٍ تَنْقُذُ الحَيَـاهْ
وَتَخْـدَعُ الْمَحْـرُومَ عَنْ أَسَاهْ
إِنْ كُنْتَ لاَ تُبْصِرُ هَذَا السِّرَّ فِي خُشُوعِكَ الْمَرِيرْ
فَأَيُّ شَيْءٍ نَحْوَهُ سَبَابَةٌ كَذَابَـةٌ تُشِيـرْ؟
إِنْ كُنْتَ لاَ تَسْمَعُ سِرَّآهَةٍ عَلَى فَمِ الْيَتِيمْ
تَسْمَعُهَا لَكِنَّهَا تَمْرُقُ مِنْ رِيَائِكَ الرَّحِيـمْ
أُنْشُودَةٌ مِنْ وَتَرٍ عَاشَتْ عَلَيْهِ رَعْشَةُ النَّسِيمْ
يَعْزِفُهَا تَـلَفُّتٌ سَـــحِينْ
مِنْ نَظْرَةٍ شَلَّتْ عَلَى الجَبِينْ
يَغْتَالُهَا الْمَلاَلُ، وَالْحَيْرَةُ، وَالتَّوَجُّعُ الدَّفِينْ
وَيَشْتَكِي إِبَاؤُهُ الشَّقِي مِنْ سُخْرِيَةِ الْعُيُونْ
يَعِيشُ مِنْ أَغْلاَلِهِ رَبَّـاهُ (2)

ويتعجب أكثر من سجوده الذي امتزج بالرياء والتظاهر واللامبالاة بحيرة وشقاء وشكوى وذل ذلك المحتاج الفقير، مدّعيا الطاعة لله، متجاهلا بأن الله قد جعل له الرزق والنعمة من أجل تطهير النفس أيضا -كالقيام إلى الصلاة- والإحساس بالآخرين والتجاوب معهم بالاستماع إلى أسرار آلامهم، ومد يد الرحمة إليهم، مكررا صيغة النداء لإبراز ضرورة الموقف الإيماني والشعوري في واقع الحياة:

---

(1) السيوطي - الجامع الصغير - ج2 ص478

(2) لاند ص109 111

يَـا مُسْرِعًا فِي خَـطْوِهِ بِلَهْ
خَفْقَةُ قَلْبٍ تَنْقِدُ الحَيَـــاهْ
قَبْلَ اتِّـحَادِ الخَطْوِ بِالصَّلَاهْ
إِنْ كُنْتَ لَا تَسْمَعُ هَذَا السِّرَّ فِي بُكَائِهِ الأَلِيمْ
فَـأَيُّ رَبٍّ خَوْهُ اتَّجَهْتَ فِي سُجُودِكَ العَظِيمْ؟
إِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي بِأَنَّ اللهَ لَمْ يُظَلِّلْكَ فِي نِعْمَتِهْ
إِلَّا لِتَمْتَدَّ بِهَا لِلْيَائِسِ المَحْرُومِ مِنْ لُقْمَتِهْ.(1)

وفي قصيدة أخرى " فَتْوَة الإحسان " يخاطب فيها، كما يقول أولئك المرابين بالصدقات في خريف المساكين. ويعني الذين يهربون من حق إلهي شرعي وإنساني،ألا وهي الزكاة أو الصدقة أو الإحسان، ويتعذرون ويتكبرون ويراءون ببعض منها،بعد أن يسرفوا ما يشاءون في شؤون أخرى في أكثرها لا تثمر خيرا بل خزيا. ولعل العنوان وصيغة التشاؤم والتحقير أكثر إيحاء ووصفا لهؤلاء الذين يدعون الإحسان، وما هو بإحسان بعد أن تبعه الرياء والمن والأذى.

ويصور الصدقة كيف تأتي، وكيف تمنح بشعور الاختيال والاستعلاء، والتظاهر والرياء، تحاول أن تبل بعض البؤس، أو ترش قليلا على كمد النفس بفضلات من الرزق،تذهب الكرامة،وتمنح ذلا وأغلالا بهذه الصدقة الكاذبة الرخيصة :

تَتَحَـدَّرُ مِنْ كَـفٍّ عُـلْبَا
خَـاشِعَةِ الوَخْـزَةِ كَالدُّنْـيَا
لِتُبِـلَّ بِهَا صَـدَأَ البُـؤْسِ
وَتَـرُشَّ عَـلَى كَمَدِ النَّـفْسِ
ذُلًا بِغَـيَـابِهِـهِ أَحْـيَـا..!
كَالرُّوحِ أَتَتْنِي..كَالبَغْتَـةْ
تَتَسَاقَـطُ حَـوْلِي مِنْ نَبْتَةْ
كَـاذِبَةِ الرَّحْمَةِ مُنْبَتَّـةْ
نَـفَـذَتْ بِالحَسْرَةِ فِي كَبِدِي
أَغْلَالًا قَـابِعَةِ الأَبَـدِ
تَـعْلُو.. وَتُخَفِّضُ نَـظَـرَاتِي
وَتُغْرِيءُ الـذُّلَّ بِدَعْـوَاتِي
هَـالَاتِ رِيَـاءٍ لِأَحِـبِّهَا

---

(1) لامية -ص111 .

ولِمَنْ لِلأعيـــــنِ يُعْطِـــيهَا
لِتَحُـوتَ الأرْضَ على لَفْتَةْ(1)

ويعلن على لسان هذا الفقير بأن الحق في الحياة والرزق، مادام رزق الله للجميع، فلديه الحق حتى من ذلك المرائي،وهو حق طبيعي وإنساني لا مجال فيه لدعوى الاستحقاق أو عدمه إن تخطى ذلك المؤسِّرداثرة الرياء والشح، والنظرة الفوقية المانعة،أو الماخة بإرادة واختيار،فيه أنانية وإذلال وتطلع نحو معاناة وحاجة ذلك الفقير، بمشاعر الأخوة والرحمة والصفاء،دون انتظار منه دعاء مقهورا،أو ابتهالا وَجِلاً، أو استحداء وزحلا :

خطَتْ .. وضِقْتُ لَهَا زَحْـلَا
ضَمَّنِي عَبْـدًا مُبْتَهِـــــلَا
وَدُعَـاءً مَقْـهُورًا وَجِـــــلاَ
.. تَدْعُـو لِيَمِينٍ تُعْـطِيـنِ
وَلِـقَطْرَةٍ ذُلَّ تَـــكْوِيـــنِ
وَأَنَـــا الظَّمْـآنُ إِلَـى حَقِّي
فِي دَرْبٍ.. لاَ يَـعْرِفُ رِقِّـي
وَلِشَيْءٍ.. سَمَّوْهُ رِزْقِـــي
.. سَأُوَاصِلُ سَيْـرِي لأَرَاهُ
حُـرًّا.. لاَ تُـطْرِقُ عَيْنَـاهُ
وَسِـــوَاهُ.. لاَ أَعْرِفُ بَـدَلاَ(2)

وبذلك كشف الشاعر وواجه أولئك الذين يدعون التدين وقلوبهم مغلفة قاسية، وأولئك الذين يمتنعون عن أداء حق الزكاة.ويراءون ببعض الصدقات معلناً رفضه لهذه المواقف غير الإسلامية والإنسانية، متحديًا غرورهم وجحودهم وغناهم وحتاهم،محاججا إياهم على أن الفقر لا يعالج بالشعارات والنداءات، بل تستوجب معالجته عُلاجها إنسانيا وإيمانيا مخلصا، يتخطى المشاعر المرائية والمثل الرنانة والنقمة المزيفة، والإنسانية المفقودة،وداعيا إلى الاقتناع بحق الفقراء اقتناعا شعوريا وفكريا من أجل تحقيق التعاون والتكافل والإحسان الحقيقي.وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه،فإن لم تكن تراه فإنه يراك.﴾(3) ومن أجل ابتغاء وجه الله وابتغاء نعمه ورحمته وعفوه، والتي لن تكون إلا بعد تحقيق

---

(1) لابد-ص117-118.

(2) المصدر نفسه-ص119 .

(3) صحـ شرح صحيح مسلم - كتاب الإيمان- باب تعريف الإسلام والإيمان- ج1- ص157-158.

الرحمة المادية والمعنوية ﴿ الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء ﴾(1).

وبعد مواقف التحدي والرفض لتلك الأوضاع والمعاملات وتعريه النوايا والأفعال وتجلية الحقائق. اتجه اتجاها آخر، ليخاطب الفقراء بإحساس ديني قوي يربط معاناتهم بشعورهم بالطمأنينة والثقة بالله، وبحكمة وقدر ووعد الله ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ. وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. ﴾ (2). لعله من هذه الآية الكريمة استلهم صيغة تقديم قصيدته "فقراء" التي صور فيها نظرة الفقير، وهي تعتز بالسكينة وترفض الذل.

لقد استطاع أن يجد صياغة شعرية لتحرر الوجدان الإنساني من شعور الخضوع والعبادة لعبد من عباد الله، وامتلائه بالشعور بالله الذي يمنح شعورا آخر مواريا له وهو عدم الخوف على الحياة أو الخوف على الرزق، لأن الحياة بيد الله، وليس لمخلوق قدرة أن ينقص منها ساعة ، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا. هُوَ مَوْلَانَا ﴾ (3)، ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾(4)، ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾(5)، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ. هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾(6).

وهذا كان الخوف من الفقر والخوف من الموت من إيحاءات الشيطان لإضعاف النفس، وصدها عن العمل والخير والثقة بالله ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا. وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(7)

ومن هنا حاول الشاعر أن يقنع هؤلاء الفقراء وغيرهم بأنه لا يجوز أن يذل الاسترزاق رقاب الناس، فإنما رزقهم بيد الله، ولن يملك أحد من عباده الضعفاء أن يقطع رزق إنسان، ولا يضيق عليه في الرزق شيئا. وهذا لا ينفي الأسباب والعمل، ولكنه يقوي القلب، ويشجع الضمير، ويجعل الفقير المسترزق، يواجه من يظن أن بيده رزقه بكل قوة وشجاعة. فلا يقعده شعور الخوف عن المطالبة بحقه، وعن الاعتزاز بنفسه.>>(8)

---

(1) الألباني -صحيح سنن الترمذي- مكتب التربية العربي لدول الخليج- الرياض-ط1- (1408هـ-1988)- باب رحمة الناس- ج2- ص180.

(2) الفتح- 4.

(3) التوبة-51.

(4) الرعد-26.

(5) التوبة-28.

(6) فاطر-3.

(7) البقرة-268

(8) سيد قطب-العدالة الاجتماعية في الإسلام-ص37.

ولهذا فعلى الرغم من جوع هؤلاء الفقراء وبؤسهم وعذابهم، وعلى الرغم من الظلم والاحتقار والإذلال المسلط عليهم، فإن شعورهم بالله الذي لا يضيع عملهم وأجرهم وثوابهم قوي ،وكذلك شعورهم بالقناعة والصبر والحمد لله على كل شيء، فإيمانهم بالفرج الإلهي كبير، وغناهم النفسي والروحي أفضل من أي افتقار حسي أو معنوي، مؤكدا بذلك أن الفقر الحقيقي هو فقر النفوس ولهذا فهم أغنياء عند الله.والغني هو الله وحده ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(1) وأن الإنسان ليس له أثر في خلق أو إنشاء ذرة من أرزاق هذا الكون، ويصور الشاعر غنى هؤلاء الفقراء النفسي :

فَـقَـرَاءُ ؟
لاَ وَالـلَّـه !!
بَلْ نَـحْنُ الذيـــنَ شَدَا الإِلَـهِ يَضُوعُ فَوْقَ تُرَابِهِـمْ
يَسْقِيهِمُ لَهَبَ الحياةِ حَدَاوِلاً
خُضْرًا تُغَرِّدُ كَأْسُهَا لِرِبَابِهِمْ
وَيَزُورُهُمْ رِزْقُ السَّمَا بِيَمِينِهِ
عَرَقُ الطَّرِيقِ يَدُقُّ حَسْرَةَ بَابِهِمْ...
مَـنْ هَـؤُلاَءِ ؟
هَـمُ الذِينَ تَبَرَّجَتْ أَعْرَاسُ كُلِّ مُنَعَّمٍ بِعَذَابِهِمْ
مَنْ هَـؤُلاَءِ؟!
هُمُ الذينَ تَـكَلَّمَـتْ
لِلظُّلْمِ شَاهِقَةٌ بِذُلِّ رِقَابِهِمْ!
مَنْ هَـؤُلاَءِ؟!
هُمُ الذِينَ تَزَغَّمَتْ
أَوْتَـارُ سَطْوَتِهِ بِدَمْعِ رَبَابِـهِمْ !
مَنْ هَـؤُلاَءِ؟!
هُمُ الَّذِينَ تَسَلَّلَتْ
نَظَـرَاتُهُ الشَّمَّاءُ مِنْ أَهْدَابِهِمْ...
أَحْبَابُ جُوعِ الطيرِ..جَاعَ زَمَانُهُمْ
وَتَسَاقَطُوا فَمَزًا عَلَـى أَحْبَابِهِـمْ
صَـهَرُوا الحَـيَاةَ لِغَيْرِهِمْ وَتَوَكَّلُوا

---

(1) فاطر-15.

وَاللهُ يَصْهَرُ دَمْعَهُمْ بِثِيَابِهِـــمْ
وَالحَمْدُ للهِ اسْتَمَرَّتْ نِعْـــمَةً
تَشْدُوا الرَّضَا لِطَعَامِهِـمْ وَشَرَابِهِمْ
لَمْ يَقْطِفُوا إِلاَّ خَرِيـــفَ عُرُوقِهِمْ
وَتَهَدَّلَ (1) الثَّمَرَاتِ مِنْ أَعْصَابِهِمْ
فَقَرَاءُ ؟
لاَ وَاللّـهِ
نَحْـنُ رَبَابَةٌ لِلصَّابِـرِينْ
نُوَاحُـهَا غَنَّى بِـهِـمْ (2)

5-التقديم النقدي للشاعر

على الرغم من اتساع رؤية الشاعر وشموليتها في كثير من المحاور، وانغماسها في هذه القضية الاجتماعية وغيرها بإخلاص. إلا أنه اتهم بعدم نضج وعيه السياسي والاجتماعي، وعدم التحامه بالمجتمع وانفصاله عنه، وعجزه عن الرؤية الموضوعية للعلاقات المتداخلة والمتشابكة فيه، وتضخيمه لذاته وغروره بشعره، وعدم دفاعه عن قضايا الإنسان المصيرية. وبذلك فهو لم يدافع عن الفلاح، ولم يحاول أن يقدم الحلول الجذرية،والاقتراحات والأدوات المغيرة، وانتقد بشدة في كثير من مواقفه الشعرية.

فالدارس محمد ثابت بداري، على الرغم من إنصافه في بعض مواقفه ورؤاه، إلا أنه وسم رؤيته الاجتماعية بالرؤية العاطفية، حيث رأى أن قضية الفلاح كانت رثاء وإشفاقا نتيجة لنشأته المعسرة، ومشاهدته لآلام أهله، ولم يحاول تعميقا بتلك المستندات الفكرية والفلسفية التي تضيء له سبل العلاج، وترسم له صورة المستقبل.(3)

وعدم التزامه الدقيق بهذه القضية-كما يرى- أنه لم تمهد لثورة 1952م، ولم يبين وسائل الخلاص في ظلها، مكتفيا بالتغني بها، وحتى ذلك التغني لا يرى حاجة إليه أو فائدة منه، لأنه فقد فاعليته،بعد أن جاء بعد فوات الأوان أي بعد أن اندلعت وشبت نيران أفكارها في مصر. وكذلك لمّا اكتفى بالرثاء وتسجيل المظالم بصيغة الماضي، ولم يرق إلى مستوى اقتراح الحلول، حتى تسجيل فضل الثورة في توزيع الأرض، ومشروعاتها في النهوض بالقرية، ثم يتساءل ويجيب متناقضا في أحكامه على الشاعر، لأن الثورة لم تتحمر في ذهنه وقلبه ،أو لأنه لاحظ إغفاله الشؤون الداخلية،وقد واجهتها عقبات وأخطار داخلية وخارجية ؟،أم أن

---

(1) تهدل : تهدل الشيء: استرخى وترسل نحو الأسفل.

(2) لابد-ص99-105.

(3) قضية الفلاح في شعر محمود حسن اسماعيل-ص126.

تلك المناصرة التي بدت في شعره، أراد أن يحقق في ظلالها بعض المكاسب المادية والمعنوية، بعدما أخفق في تحقيقها إبان لواذه برحال العهد البائد ولكنه أخفق أيضا ويحكم عليه بالعجز والتراجع في لجوئه إلى بعض الشخصيات السياسية ومدحها من أجل النظر إلى قضية الفقراء والبؤساء، لكن تلك الشخصيات،وبخاصة الملك فاروق لم يكن في مستوى المسؤولية الحاكمة والراعية، أو في مستوى المدح والإطراء[1]. وأكد ذلك أيضا الدكتور عبد المنعم تليمة" أن عجز شاعرنا عن الوعي بما يحكم مجتمعه من قوانين التسلط والاستغلال، جعله خاضعا لهذه القوانين، ودفعه إلى مسايرة القوى المستغلة القاهرة.[2]

أما التراجع فكان تراجعا عن موقفه نحو عدالة وإنصاف الفلاحين لما اعتبر الفقر لونا من الحظ والقدر،أي لا يقوم على قهر أو استغلال أو صراع طبقي، وخلص بذلك ثابت بداريّ إلى أنه لم يؤمن بقضية الاشتراكية في ظل الثورة، وأن القيم التي ردّدها في أبياته كانت مسايرة، دون أن يكون اشتراكيا حقيقيا،لأنه يرى بأنه في قصيدتي "فقراء"، و"بين يدي الله والإحسان "مثلا، مازال يغبط الفقراء، وينتقد المحسنين الميسورين المراثين، الذين لا يؤمنون بالبر والعطف والصدقة والإحسان. وهذا الفهم-كما يراه -بعيدا كل البعد عن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية التي نادت بها الثورة.[3]

لكن من خلال الاستقراء المتأني لشعره والآراء النقدية الواردة في هذه القضية تبيّن مايلي:

1- أن نزعته الإسلامية التي برزت في كل موقف تقريبا، هي التي كانت مرفوضة في عرف بعض النقاد والدارسين. إن محمود حسن اسماعيل كان بعيدا كل البعد عن مبادىء الواقعية ودعواتها الارتجالية،وإن أدى دوره الشعري كشاعر،لا كمصلح أو مفكر أو زعيم فقد كانت له رؤيته النابعة من واقعه الايديولوجي، ومن خلال الواقع الحياتي، علل المساوئ، وساهم في الوعي، ودعا إلى التغيير، دون اعتناق المذهب أو الفكر الاشتراكي أو بالأحرى الشيوعي.

2- لقد كانت لهجة الشاعر عنيفة قبل وأثناء قيام الثورة باكتشافه للتحالف الإقطاعي والاحتلالي، وتصويره للظلم والفقر والفساد الاجتماعي. ولم ينكر دورها وهدفها في كشف الظلم والإقطاع،وتحقيق الحرية والوحدة بين صفوف الشعب،حيث بايعها منحذا نمطه الإسلامية " المبايعة " للتعبير عن الجذور التاريخية، لهذا المصطلح وماله من مساهمة في التغيير،وممارسة فعلية في تحقيق الحكم العادل،إلا أنه تراجع وسكت بعد الثورة، لأنها حادت عن ذلك الدور والهدف لتشبع مسيّريها وقوادها بأفكار لا تلائم وطبيعة المجتمع، ولا تحل قضاياه، ولا تحقق العدالة المنشودة. وعايش تداخل القيم في ظل هذه الثورة وفي ظل المتاجرين بالشعارات، وفي ظل الاشتراكيين،وتناقض أقوالهم مع أفعالهم، وهذا الاضطراب والتداخل اعترف به أيضا ذلك الدارس، ومن هنا كان التناقض في أحكامه.

---

(1) المرجع السابق-ص119-121.

(2) مقدمة في نظرية الأدب-دار العودة-بيروت-ط2-1979- ص78.

(3) قضية الفلاح في شعر محمود حسن إسماعيل- ص126 127.

3- اتهامه بلواذه برجال السياسة،وبالخصوص الملك فاروق، إلا أن مدحه لم يكن طمعا في رصيد من المال أو منصب في القصر، بل كان يمدح من أجل هؤلاء الفقراء والمحتاجين للرفق والرحمة بهم، وتحسين أحوال معيشتهم. وقد شمل ديوان الملك سائر الطبقات الفقيرة في مصر، وكان مدحه على هذا الأساس الاجتماعي في مرحلة كانت المطالبة لحل قضية الفقر تعتمد على اللين والتعقل والتعاطف. وعلى الرغم من اعتبار أن هذا المدح انزلاق خطير، وهوان شعري وقع فيه الشاعر، إلا أن بعض الدارسين - كما أورد ثابت بداري- تلمسوا له الأعذار لمسايرته هذا الملك، لما أشيع حول تقواه ورحمته ومبادرته الطيبة لخدمة الشعب مما خلق تيارا شعبيا وقف إلى جانبه[1]. وكان منهم شاعرنا الذي انساق بعفوية مع هذا التيار،وسجل في مدائحه مواقف حقيقية لا وهمية، لملك لابد من إعادة نظر في مسيرة حياته السلبية والإيجابية .[2]

4- عدم اقتناعه بالاشتراكية،جعله يختلف عن الشعراء الواقعيين الذين لا يعترفون بمعالجة القضية من زوايا الإشفاق والإحسان وعمل الخير،بل بإثارة الحقد والبغض والصراع الطبقي،حيث عثرنا على نماذج من التعميم من هذه العلاقات الإنسانية الحاقدة والمتصارعة والرافضة للحب والتعاون،ومن نماذج ذلك يقول شوقي بزيع :

فَلْيَبْلُغِ الحِقْدُ حَدَّ الإصَابَةِ والرَّفْضُ حَدَّ التَّمَـــاءْ
فَلاَ شَـــيْءَ يَبْقَى سِـــوَانَا عَلَى الأَرْضِ
لاَ شَيْءَ إلا مَنَادِيلُنَا وَاحْتِمَالِ الدِّمَـــــــاءْ[3]

ومن هنا كان الاختلاف لاستعانة الشاعر بالمفاهيم الإسلامية،بعدما أفلست مبادئ دعاة الاشتراكية،وبقية الأنظمة العالمية،ومنها الرأسمالية أمام الإسلام الذي قدم تصورا كاملاوشاملا عن الوجود والحياة، ونظاما عمليا واقعيا للمجتمع، وشريعة مفصلة وقابلة للنمو التفريعي،الذي يقابل حاجات المجتمع المتجددة،يرفض التفكير المادي، والمقيمة للسلوك على أساس العنصر الروحي والأخلاقي.[4]

ولهذا راح الشاعر يحرك هذا الوازع الديني في النفوس، فأكد أول الأمر إلى حق الفقير بالدعوة إلى حرية الرزق، وإتاحة الفرص، والابتعاد عن براثن الاستغلاليين والاحتكاريين. وحث على المساواة والعدالة بإظهار الفوارق المادية والمعنوية،ودعا إلى أحقية الإحسان، ووجوب الزكاة، وانتقد أولئك المحسنين المرائين الذين يشبعون غرورهم ورياءهم بإذلال الفقير. وأراد إخضاع الحياة للعقيدة حيث <<يكون الفقير معدما ومتعفف، ويكون الغني موسرا ويتصدق، ويكون الشره طامعا ويمسك، ويكون القوي قادرا ويحجم.>>[5]. وهذا

---

(1) قضية الفلاح في شعر محمود حسن إسماعيل -ص 112.

(2) انظر-مدحه لبعض الشخصيات ومنها الملك فاروق في فصل الرؤية السياسية- مبحث قضايا وطنية .

(3) محمد عادل الهاشمي -الإنسان في الأدب الإسلامي -ص402-403 .

(4) سيد قطب- العدالة الاجتماعية في الإسلام-ص215.

(5) مصطفى صادق الرافعي -وحي القلم- ج2 ص544 .

كانت مطالبته بالإحسان والزكاة والصدقة . ليست تأدية واجب ديني مفروض فقط،بل لنشر الحب والتعاون الذي يزيل الحقد والصراع الطبقي.لأن << الإسلام لم يرض حلولا تمزق المجتمع وتزرع بين أبنائه الفرقة والحقد، وتسود طبقة على أخرى، فليس هذا علاجا إنسانيا،إن العلاج الإنساني يشمل الجميع.>>(1).

وكذلك غبطة الفقراء على قناعتهم وطيب شمائلهم ليس رضا بالقدر أو اعتبار الفقر لون من الحظ أو الغنى - كما يفهمه الذين يجهلون فلسفة القيم في الإسلام التي تدفع الإنسان إلى ترقية النفس،وترى بأن القناعة مصدر غنى النفس،وعزتها ووسيلة البلوغ إلى مستوى الغنى والكرامة الإنسانية والارتفاع فوق منازل الضعفاء والأذلاء(2)، وفي ذلك يقول تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(3).

ولو نظرنا إلى الفقر نظرة عميقة لشدنا معناه الفطري ألا وهو الافتقار إلى الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ. وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. ﴾(4) وهو افتقار حسي روحي، والفقر الذي تقرره الآية فقر فطرة، فالملك والقدرة والإيجاد من العدم، والإبداع والغنى،ونحوها صفات ثابتة لله عز وجل. أما العجز والفقر والسلب والاستسلام صفات لبني البشر والإحساس بالافتقار إلى الله هو إحساس بالحاجة إليه في كل شيء وضرورة الإقبال على الله وحده،والرغبة فيما عنده،والاستمداد من فضله لملء خواء النفس.لأن الله هو مصدر قوة المرء ونصره وعزته وغناه.(5)

والغنى بمفهومه البسيط هو ما يمتن به الله على عباده وقد قال عز شأنه ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ (6). ولهذا فالفقر ليس صفة ثابتة،بل عارضة لأخلاق الناس وإيمانهم،كما أوجد لها العلاجات المادية والروحية التي تغني كل نفس، وتجعل كل شيء هيّنا زائلا.

5- ولهذا لا يمكن أن نقرر أمام هذا الرفض لفهمه الإسلامي، والتشكيك في رؤيته الدينية، أنه حاد في أشعاره عن مفهوم العدالة الاجتماعية الحقة، والتكافل الاجتماعي، بل عثرنا على كثير من الأفكار الإسلامية التي تؤكد تغلغلها في أعماقه حيث كان العامل الديني ذا أثر فعال في توجيه بعض هذا الشعر وجهات خاصة تهدف إلى الإسهام في بناء أمة متماسكة قوية لها شخصية جديدة بالوقوف في الحياة على أسس إسلامية فيها كل ما يؤدي إلى إصلاح البشرية وبناء خير المجتمعات>>(7).

---

(1) محمد عادل الهاشمي-الإنسان في الأدب الإسلامي-ص403.

(2) انظر-محمد البهي-الدين والحضارة الإنسانية- ص187-189.

(3) المنافقون-8 .

(4) فاطر-15.

(5) انظر- المرجع نفسه-ص51-52.

(6) الضحى-8 .

(7) سعد الدين الجيزاوي-العامل الديني في الشعر المصري الحديث-ج2-ص255.

المبحث الثاني

الأخلاق

1- فلسفة الخير والشر.

2- نقد بعض النماذج الاجتماعية.

3-نقد بعض العادات السيئة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد عني الإسلام أتما عناية ببناء شخصية الإنسان فردا وجماعة على أساس من التوازن في مطالبه الروحية والمادية ويرادف هذه العناية ما شرعه من ظوابط وحدود ومعاملات، توضح الروابط التي تربط بين الأفراد، وتتحكم في علاقاتهم وتبين في الوقت ذاته تلك الصلة الوثقى القائمة بين الدين والأخلاق في الشريعة الإسلامية، التي أعتبرت الأخلاق الفاضلة شكلا من أشكال العبادات المختلفة ومظهرا من مظاهر الإخلاص والطاعة له إذ أن << أحسن أنواع الشكر لله الخضوع لقوانين الأخلاق والعمل بما تقتضيه، ذلك لأن الله خلق هذا العالم، و جعل سعادته مرتبطة بأشياء،من صدق وأمانة وعدل ونحوها وشقاءه وفناءه في أضدادها، ثم أمر بما يوصل إلى السعادة وسمّاه خيرا، ونهى عما يجلب الشقاء وسماه شرا.>>(1)

وإذا امتلأت النفس بذلك الترابط بين قوانين الأخلاق وأوامر الله، ابتعدت الأعمال الإنسانية عن أن تكون مجرد حركات وصور لا روح لها، وصدرت عن قوة إيمانية جعلته أقوى أثرا وأقوى نفعا في الحياة والواقع الاجتماعي.

وتكمن أهمية الرجوع إلى قيم الدين في سلوكات الحياة إلى أن << الدين هو الأفكار والمشاعر والآمال التي تستعر مشبوبة في صدر المؤمن، لما تحمله من قيم تفوق القيم جميعا، وتكمن أهمية الدين في عمق الشعور بتلك القيم وشدة الاقتناع بها... ويقف الإحساس بوجود تلك القيم على قدم المساواة مع إحساس المؤمن بوجوده هو نفسه. فالدين هو الوعي بتلك القيم والغايات والسعي دوما إلى تدعيمها والتوسع في نشر أثرها.>>(2)

هذا المفهوم الأخلاقي يجعلنا نتجاوز إشكالية اختلاف الفضائل في أمة من الأمم، أو عصر من العصور، والتي رتبت حسب الظروف الاجتماعية المحيطة بأي مجتمع،والأمراض الأخلاقية المتفشية فيه، وحسب أشكال معتقداته وشعائره وطقوسه(3).

ونؤكد في الوقت ذاته على لسان الرافعي الذي يقول << لو أني سئلت أن أجمل فلسفة الدين الإسلامي كلّها في لفظين لقلت : إنها ثبات الأخلاق.>>(4) لأن الإسلام لا يمكن أن يدعو إلى تبدل الأخلاق بتبدل أحوال الحياة، لكنه << يقرر ثبات الخلق، ويوجبه وينشيء النفس عليه، ويجعله في حياطة المجتمع وحراسته، لأن هناك حدودا في الإنسانية تتميز بخلود في الحياة.>>(5).

وكان الشاعر محمود حسن اسماعيل من الذين آمنوا بأن قوة أي مجتمع إنما تكمن إلى حد بعيد في صحة العقيدة، وسمو الأخلاق، لما لذلك من أثر حميد في بناء شخصية الأفراد ووقايتهم مما قد يصيبهم من انحراف

---

(1) أحمد أمين- الأخلاق-دار الكتاب العربي-بيروت-ط3-1984-ص186.

(2) صلاح قنصوة-نظرية القيمة في الفكر المعاصر-ص236.

(3) انظر-أحمد أمين-الأخلاق-ص191 وما بعدها.

(4) محمود صادق الرافعي-وحي القلم-ج2-ص73.

(5) المرجع نفسه-ص74.

حقي ويؤثر تأثيرا سيئا على قواعد الزوجية ويؤدي إلى انحلال بنية المجتمع وتدهور أخلاقه . حيث وكان مع تراكم الأمة وسكرين وسفهاء الذين سخروا طاقاتهم الجسدية والعقلية والنفسية لخدمة الرجل والأخلاقي عموم المفاسد الاجتماعية وتشجيعها وبيان مخاطرها على المجتمع وما آل إليه من انحطاط في الأخلاق وما صار فيه سلوك كثير من الناس وهم جمهور سطحية والانحراف الاجتماعي.

وكانت الأخلاق عند محمود حسن مرتبطة جدا بالروحية في سلوك المجتمع وتتفق مع هدف الفقيه في رقي حياة المجتمع التي عاشت فيها الفضيلة وضاعت الرذيلة. وتحكمت فيها الأنانيات والأحقاد والوجوه المرتبطة بالمصالح الخسيسة والسلوكات الحقوقية ملعونة في العقيدة الإسلامية لأنها قامت ولا تزال تقيم الأخوة الصادقة بين الإنسان وأخيه الإنسان وجعلت ذلك قواعد الأخلاق.[1]

فجاءت شعره في التعبير بالسلوك الاجتماعي. وكانت فكرته الإسلامية تتمثل في التحلي بما يرغب به الدين الإسلامي من سلوك قويم وجانب ما ينهى عنه من خلق ذميم وحرصه على تقوية الوازع الديني من أجل تأصيل جملة من الفضائل كالشعور بالواجب وإيثار المصلحة العامة والكرم والتسامح والاخلاص والصدق والإحسان والتعاون والاستيقاظ على العمل الخير والصالح.

وكان يطلق في هذا الشعر من مفهوم أن الأخلاق على أنها ليست قواعد نظرية تجريدية وإنما هي منهج عملي يتحلى في الحياة العملية في سلوك الفرد وموقف المجتمع تجاه عن الفضائل ورذائل. وأحب ما يظهر النفس الإنسانية ويحط من مروءتها. ويتسبب في مضار الرقي الإنساني.

وما يشعره أن أسباب فقد على الصالحة والإرشاد وما هو نتج من كلمات الإخلاص والتضحية والتعاون نحو مستقبلة والتضحية. وكانت أسبابه ذات مرونة وبعد حيث وبعده وعند حلي حيث أخرى في مصلحة النفس الإنسانية وفي مصلحة غيره. وتعبير السوء الوقوع تعبيره وبرسم بعده بوصفة في أعماق حقيقة نفسية.

وتشترط رؤيته الأخلاقية مع رؤيته الروحية هدأ أن صفات عمله الذي يعيش به من المجتمع لتبني يعيش به من فضائل في الأخلاق وتمكنت في علاقته الاجتماعية والروحية وواقع حكمه ما في نفسه من خير إصلاح. نفسها خلاق لتنمية واحتفظ بالغير. وأثرت وهو رغم كل الرضا عن مسلكه في حياته وإنما تجاه نحي وقيمة وجوده وأحد مرة أخرى وبيته لغية الرحمة. فعند رحلته إلى الله تشهد رحلته بين عمله لتنمي حيث اكتشف عاد من الأمة لتربيته وتنمي لمظهر والسلوكات غير الأخلاقية والإنسانية وعمل على أحد الفاصل بين الخير والشر.

---

1. انظر محمد الزاوية السوسنت ثار الحة

فبعد شغفه بالجمال الكوني الخالص، راح يبحث عن الجمال البشري بنفوره من الذمامة والسلوك والصلات الاجتماعية، وبغضه للفقر والظلم، وغلظة الطبع،وقسوة المعاملة،وفساد الفطرة. وهذا النفور لم يصدر عن مفهوم سياسي أو فلسفة اجتماعية بقدر ما صدر عن فطرة سليمة ووجدان مرهف، استطاع من خلال ذلك أن يدرك ما في مجتمعه من متناقضات ويجد في كثير من المظاهر الاجتماعية رذائلا وفواحشا وآثاما، ويدينها بمعيار خلقي وإنساني، وروحي وديني، شعاره ﴿ المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره.﴾ (1)

وتجلت نظرته الأخلاقية منذ بدايات رؤيته الإجتماعية عند حديثه عن العدالة الاجتماعية من خلال تصويره للمتناقضات الخلقية بين الريفي الذي امتاز بالصبر والقناعة، والصفاء والصدق، والعبادة والتقوى، والمدني الذي وصفه بالأنانية والظلم والحقد والإقطاع، معارضا طمعه وانحرافه الذي يطمس معالم الرحمة في النفس، محاولا أن يوقظ ضميره الإنساني، ويرده إلى الفطرة الإنسانية الطيبة. ومن دعوته الصارخة إلى العدل ، وهي قيمة ترسي الحق والتوازن في المجتمع، وترسي كرامة الإنسان وحريته وتكف الأذى وتحجبه عن الآخرين.

وتتسع دائرة دعوته الأخلاقية بنزوله إلى المدينة، عندما تمتلئ ذهنه صورة جديدة، وأمل جديد للحياة والنفس الإنسانية، وتمتزج لحظاته وأنفاسه بها، ويقع الصدام بين الفطرة الريفية السمحة، وتعقد المدينة وفساد مجتمعها.

وعلى الرغم من هذا الاصطدام بالواقع الاجتماعي للمدينة، والإحساس بالغربة والضيق داخل أجوائها وأوضاعها، فقد لاحقه بعض منه في القرية على السواء على الرغم من هدوئها وإخلاصها، والمتسبب في ذلك أفكار وأخلاقيات المدني، الذي تطبع بشتى العادات والسلوكات،خاصة بعد احتكاكه الإرادي وغير الإرادي بالمجتمع الغربي الدخيل، وبعد انغماسه وراء التقليد الأعمى له، الذي ساهم في تفشي كثير من الانسلاخات عن الجذور الروحية للإنسان العربي المسلم.(2)

1- فلسفة الخير والشر:

تجاوز الشاعر المفاهيم الفلسفية لفكرة الخير والشر، واستطاع بحسه الإيماني والشعري المتيقظ أن يتوقف عند الطفولة الأولى في مسيرة الحياة الإنسانية عندما انبثقت فكرة الخير والشر منذ نزول آدم عليه السلام إلى الأرض بعد أن عصى ربه مستجيبا لأمره تعالى ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (3)

---

(1) النووي- شرح صحيح مسلم- كتاب البر- باب تحريم ظلم المسلم- ج16- ص120.

(2) انظر - محمد محمد حسين-الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر-دار النهضة العربية-بيروت-ط3-1394هـ 1972م) - ج2-ص205-216 .

(3) البقرة-36.

وبدأت مسيرة الإنسان تتنازعه هاتين النزعتين،وتفصل بينهما الشرائع السماوية، ودعوات الأنبياء والمفكرين والمصلحين،وحتى الفنانين والشعراء. ولا يكاد يختلف اعتناقهما عند الإنسان القديم أو الحديث،وإن ظهرا بمصطلحين آخرين هما الفضيلة والرذيلة[1]. وكانت قصيدة الشاعر " راهب النحيل " تلخيصا فنيا لفلسفة الخير والشر في الحياة << وراهب النحيل هو الغراب، عطف عليه محمود، فكان له منه ملحمة في مائة وثلاثة وثلاثين بيتا من الشعر الفني البديع، فيها معاشرته للغراب ومصادقته ومعايشته، جعل منه صديقا حميما، وفيلسوفا حكيما يأخذ عنه ويتلقى منه، ويدافع عنه، ويزيف رأي الناس فيه، الذين يرونه شؤما ويتطيرون منه ويصفونه بالأعور، وهو الذي يملك نظرا حادا وينفرون منه وهو الذي أوهم إلى طريقة دفن الموتى ثم هو بعدُ لشمائل تتلاقى مع شمائل الشاعر فكل منهما يحب العزلة، وكل منهما له فهم وفطنة في مرامي الحياة، من الحظ العاثر والحظ الناجح، من الثراء الفاحش إلى الفقر المدقع، من الدعة وخفة العيش إلى الشظف والحرمان الأليم، من الإقبال والتكريم إلى المطاردة والتحطيم.>>[2]. إن اختيار الشاعر لهذا الطائر القديم بقدم الإنسان والزمن، الذي لا يوحي بالجمال والرقة والغناء، وإنما يبعث على التشاؤم والتطير والتذمر بالموت والفناء، يعد طفرة شعرية قلّما نجدها في الشعر العربي، وقد ارتبط الغراب عنده بالحكمة والعبرة والتأمل، يقول :

أَشَيْخٌ مِنَ الأَزْمَانِ وَالنَّاسِ سَاحِرُ - هَوَى الذِّي كَابَدْتَ أَمْ أَنْتَ طَائِرُ؟

تَطَيَّرَ مِنْكَ الغَالِمُونَ فَأَرْجَفُوا - بِتَخْسِيكَ حَتَّى قِيلَ بِالحَظِّ كَافِرُ

وَمَازَالَ فِيهِمْ مَنْ يَرَاكَ كَأَنَّمَا - أَحَسَّتْ دَبِيبَ المَوْتِ فِيهِ المَشَاعِرُ

وَمَنْ يَهْجُرُ الدُّنْيَا إِذَا كُنْتَ ضَيْفَهَا - وَأَنْتَ بِهَذَا الكَوْنِ سَأْمَانُ هَاجِرُ

تُطِلُّ بِعَيْنٍ مِلْؤُهَا السُّحْرُ بِالرُّؤَى - وَأُخْرَى بِهَا لِلنَّاسِ لَحْظٌ مُحَاذِرُ[3]

وبعد أن يسوق لواعج أسى الغراب وصراعه مع الناس والكون فهو منبوذ مطرود، تعب عليه المعنات، محروم من الفيء الظليل والنبع والثمر والمرج الخصيب، يؤكد أن لديه الغار وأحاجي عن فلسفات الناس التي ظلت رشادها، وعجزت عن كنه أسرار الحياة، وما يعرف السر إلا الغراب الذي يفضي به إلى الشاعر بعد أن كشف له ارتباطه الوثيق به وحبه العارم وأشواقه نحو كشف المجهول ومعرفة المستقبل، يقول :

فَيَا رَاهِبَ الأَزْمَانِ كَشِّفْ سُتُورَهَا - وَأَفْصِحْ، فَإِنَّ القَفْلَ حَيْرَانُ صَادِرُ

وَدَعْنِي وَسِرًّا فِي اللَّيَالِي دَفَنْتُهُ - سَيَبْعَثُهُ نَاءٍ بِكَفَّيَّ صَافِرُ[4]

وَإِلْمَامُ شِعْرٍ بَيْنَ حَيِّي دَافِقٍ - عَلَيْهِ رَجِيعُ الخُلْدِ مُتْرَانُ سَاكِرُ

إِذَا لَمْ أَكْشِفْ سَرَائِرَكَ الَّتِي - شَهِدْتَ بِهَا الدُّنْيَا فَمَا أَنَا شَاعِرُ[5]

---

(1) انظر- ثريا ملحس-القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه-ص130.

(2) حسن قرون-راهب النحيل رؤية شعرية للشاعر- مجلة الأزهر- ج 54-(1402هـ-1982م)-ص1094-1095.

(3) هكذا أغني-ص232-233 .

(4) صافر : كل ما لا يصيد من الطير.

(5) المصدر نفسه ص240 .

ويستحيب له الغراب ،ويجيبه بما عنده من أسرار وماعنده كثير، إلا أن إلحاح الشاعر أغراه واستدرجه في الحديث :

تَعالَى فَطارِحْنِي الأَحادِيثَ في الـــوَرَى - فَما دَهْرِهِمْ فاضَتْ لَذَيْكَ النَّوادِرُ
عَبَرْتَ فَضاءَ اللهِ مِنْ عَهْـــــدِ آدَمٍ - وَمِنْ قَبْلِهِ مَلَّتْ خُطاكَ المَسـافِرُ
وَجُبْتَ بِأَمْرِ اللهِ في الأَرْضِ هـــادِيًا - تُدارِي وَتأسُو ما جَناهُ التَّناحُـرُ...
فَيا كاهِنَ الأَيّامِ جِئْتَ مُعَلِّـــمًا - لِقابِيلَ يَقْفِي بِالَّذي أَنْتَ آمِـرُ
دُعِيتَ بِأَمْرِ اللهِ تَحْفِرُ في الثَّـــرى - فَتَسْكُبُ نُورَ الرُّشْدِ مِنْكَ الأَظافِرُ
نَقَشْتَ عَلَى الكُثْبانِ خُطًا تَهَلَّـلَتْ - وَقَرَّتْ لِمَرْآهُ النُّفُوسُ الحَوائِـرُ
فَوارَيْتَ لِلإِنْسانِ في مِثْلِهِ أَسَـــى - وَبِأْسًا وَسُوءًا ما وَعَتْهُ الكَبائِـرُ
وَأَصْبَحَ تابُوتَ الزَّمانِ وَمَضْجَعًـــا - عَلَى مَهْدِهِ يَغْفُو الأَبِيُّ وَالأَواخِـرُ(1)

إنه يذكره في هذه الأبيات بما فعل منذ عهد آدم،حين ألهم قابيل لما قتل أخاه هابيل،وحار في أمر دفنه ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ. قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي.فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(2) وهنا تظهر فلسفة الخير والشر ببداية القتل والحسد والغيرة والحيرة والحزن والندم... وكان صراع قابيل وهابيل أول خطوة بشرية من أجل النزاع الدنيوي الزائل،الذي مازال يهدد المثل العليا والمبادئ الإنسانية السامية.

ويدخل الشاعر والغراب في مطارحة أخرى بعد سلسلة أخرى من تساؤلات الشاعر عن حقيقة الناس في هذه الدنيا، فيكفّر الغراب المحلوقات جميعا،لأنهم ضلوا السبيل، وعبثوا بكل جميل، وعكّروا الصفو، واتخذوا الشر مركبا للحياة، وأحلّوا العداوة والبغضاء محل المحبة والصفاء بعد الخطيئة الأولى لبني آدم. والتي امتدت وتلونت بألوان الحضارة المزيفة وأوضارها وأوزارها،وأطماع الناس فيها ومهاتراتهم ونزواتهم وفجورهم. وأصبحت الحياة غابة وهم فيها قطعان إنس، يقول الغراب :

أَنا القِسّيسُ وَالكَوْنُ مَعْبَـــدِي - وَبالشَّرْعِ في دِينِي وَالنِّرْبا كَوافِـرُ !...
تَغَنَّى طَوِيلاً بِالأَسَى في ظِلالِـــهَا - فَغَصَّتْ بِأَنّاتِ اللُّحُونِ الحَناجِـرُ
وَمالَ إِلَى دُنْيا الحَضارَةِ نَحْـــمُهُ - فَأَشْحَنَهُ أَطْماعُ بِهَا وَتَهاتِـرُ
وَقَوْمٌ عَلَى رَيْفِ المَناصِبِ حَوَّمُـوا - وَهاجُوا عَلَى بُهْتانِهَا وَتَناحَـرُوا...
فَلُولٌ مِنَ الأَبْشارِ مَتاقَ حُطامَـهَا - وَأَغْرَقَهُ لُجٌّ مِنَ الظُّلْمِ زاخِـرُ
فَرُوِّعَ قَلْبُ الطَّيْرِ مِنْهَا،وَأَصْبَحَتْ - قَيافَةُ حُرْسُ الأَغانِي حَـوائِرُ
فَمالَ إِلَى عُشٍّ تَحِنُّ لِطُهْـرِهِ - وَتَهْفُو إِلَيْهِ في البُرُوجِ الخَزائِـرُ(3)

---

(1) هكذا أغني-ص 241-244- القصيدة طويلة وعدد أبياتها 132 بيت.

(2) المائدة- 31 .

(3) المصدر نفسه ص 250 251 .

إن القصيدة طويلة، لعلها أطول قصيدة في ديوان "هكذا أغني"، فيها وقفات تأملية عميقة مع هذا الطائر الراهب الزاهد، الذي شاخ في هذه الدنيا،وهو ينظر إليها نظرة الحكمة والحنكة وانعكس هذا الطائر على نفس الشاعر،وهو يتأمل واقعنا المليء بالزيف والظلم في قرن يدعّى الحضارة.

2- نقد بعض النماذج الاجتماعيـــة :

رأى الشاعر باحتكاكه مع أفراد مجتمعه المدني عيوبا اجتماعية، تنخر عظامه، وتقوّض دعائمه، فهب يكشف عنها،وينتقد سيئاتها،ويصور قبحها. و لم يحاول أن يرسم مظاهرها وآثارهـا الخارجية، وإنما توغل إلى باطن النفس الإنسانية لإدراك خفايا ومكونات سلوكاتها. وبهذا التوغل خلق أجواء شعرية غرسة بأسلوبه القصصي والرمزي المعهود .

فاصطحب الشاعر معه نفسه في قصيدة " العنباب الأخضر"، وتوغل في نفوس بعض البشر،بحثا عن حقيقتهم المغلّفة بالطيبة والوداعة والاستقامة والطاعة لله، وهم بعيدون عن تلك القيم. وينطلق الشاعر من وجوه أولئك العباد، ويوغل في ضمير الضمير،حتى يجد كهفا فيه كائنات وأناس وقيم وحياة غريبة مخيفة قاتمة، تجمع شتى المتناقضات.وجسد صورة كبرى للنفاق الإنساني،أوحت بأن ما يبطنه بعض الناس غير ما يعلنونه، كالذين يظهرون التدين والتقشف والصلاة والتقوى، ونفوسهم منطوية على حب متع الدنيا وزينتها، وألسنتهم منشغلة بتوحيد الله،وقلوبهم تخفي شتى الخطايا والذنوب، والأهواء والغايات عن طريق النفاق والكذب والرياء والزور والخداع :

عَبَرْتُ بِهَا فِي وُجُوهِ الْعِبَادِ
وَأَوْغَلْتُ حَتَّى ضَمِيرِ الضَّمِيرْ
فَأَبْصَرْتُ كَهْفًا،عَلَى رَاحَتَيْهِ
خَرِيفٌ تُهَلِّلُ فِيهِ الطُّيُورْ
وَقَوْمًا مَا يُصَلُّونَ مِنْ حَوْلِهِمْ
جَنَادِبُ(1) مَشْبُوحَةٌ فِي الْعَرِيرْ(2)
يُغَشِّي صَدَاهَا عَبِيرُ الذُّنُوبِ
وَتُقْفَى الْخَطَايَا عَلَى أَرْضِهَا(3)

---

(1) جنادب: ج جندب : الصغير من الجراد.

(2) العرير : الشيء المصرور : المشدود والمجموع في شيء كصرة مثلا .

(3) قاب قوسين-ص35-36.

ويطوف الشاعر في ذلك الكهف،ليرداد اكتشافه ما بداخل تلك الضمائر عن طريق خياله الأسطوري الذي واءم طبيعة أولئك الذين يعيشون في ضباب وحيرة وانحراف وانحلال،متحفّين بالصفاء والحياء والضياء، نافيا ومستنكرا تجاورِ نقيضين في نفس واحدة، وتشكّلِ نمطين من إنسان في وجه واحد، وانسجام الإثم مع الصلاة، أو الضلال مع الهدى،أو الظلام مع النور في درب واحد.

ويمر على هؤلاء العباد، ويسلم عليهم، وينعتهم بشتى الألقاب والأوصاف، وكأنه لا يريد أن يعرفهم، إلا أنه في نهاية القصيدة تراءى أمامه ذلك الكهف متحركا، وبدت ملامحه في صورة آدمية، وكأنه يؤكد أن تلك الوجوه الأسطورية ماهي إلا وجوه حقيقية لواقع حقيقي إنساني لا خيالي أسطوري :

تَلفّتُّ... وَاهاً عَـلَى مُقْلَتِـي
مَشَى الكَهْفُ نَحْوِي وَأَصْغَى إليّْ
جَبِينٌ وَعَيْنَانِ... شَأْنَ الوُجُـوهِ !
وَسَمْتُ ابنِ آدمَ حَـيّاً لَدَيّْ
فَكَبّرْتُ إسْبْحَانَ خَادِي الوُجُـوهْ
بِرَبّيْنِ.. مَيْتٍ بِأَضْلاَعِ حَـيّْ[1]

ويستمر الشاعر مع رؤاه الخيالية، ليحلق واقعا ماهو إلا سمو في لكشف أدران واقعنا ، والسمو به نحو القيم والمثل. وإن كانت تلك الرؤى تمنح عمقا وحدة،فإنها منحت غموضا وغرابة وصعوبة في التوصل إلى مقاصده الكبرى، وشواطئ نفسه الشاعرة،التي لا تعرف إلا الامتداد حتى نحو المجهول،الذي يكتنف حياة هؤلاء البشر. ويبقى مع رحلاته ومغامراته ومصادفاته، ومع الوجوه المستعارة، ويبدو أكثر واقعية -من قبل- بعد أن تعكس هذه الوجوه ظلالها القاتمة، لتكوّن علاقات إنسانية بعد أن تهاوى زيفها أمام خالقها سبحانه، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. وفي قصيدته "صحراء العجائب" رمز للوجه الإنساني بالصحراء،لما لمس فيه من اتساع وتنوع في الملامح والتقاسيم تشبه الصحراء ذات الامتدادات البعيدة الأغوار والدلالات. وبعد رحلته إلى ذلك الكهف-رمز العمق الإنساني الذي يخفي ويطمس ما لا يطفو على سطحه- انتقل إلى الصحراء رمز لشتى الوجوه الإنسانية التي لا يمكنها أن تخفي حقيقتها،أو ترسم على بساطتها ملامحا مزيفة.

ووظف الشاعر رموزا عميقة وغريبة في كثير من الأحيان لتصوير تلك الوجوه، وقد راح يصور كل وجه ويمنحه صورة واقعية ذات لون وحركة ومعنى، وفيها نقد وسخرية ورفض، بعد أن جمعت شتى الصفات المنكرة من نفاق ورياء، وكذب وزور، وغش ووشاية، وخيانة وضلالة، وبهتان وغرور... ورمز بصحراء العجائب إلى مجتمعه الذي وجد فيه عجائب إنسانية يجب فضحها وانتقادها. استطعنا أن نحدد منها ستة وجوه إنسانية بعد تفكيك رموزه وصوره التي اعتمد فيها على عالم الحيوان كالذئاب والثعالب والعناكب والحيات والأفاعي... وكلها أظهرت بقوة اجتماعية وفية ما يريد أن يعبر عنه.

---

(1) قاب قوسين -ص 41 .

من هذه الوجوه، الوجه الحقود الذي يخفي في أعماقه سموم الحقد والضغينة،وينفثها أحيانا ظلما واعتداء بابتسامة قاتلة، وهو يبدو كربوة من الجمال والأمان:

أَمَانَكَ رَبِّي : ذَلِكَ الوَجْهُ رَبْوَةٌ - تُعَنِّي بِهَا الأَطْيَارَ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

مُزَنَّرَةُ(1) الأَغْصَانِ بِالعِطْرِ وَالنَّدَى - وَهَمْسِ الصَّبَا فِي مُرْعَشَاتِ الزَّوَائِبِ(2)

وَتُخْفِي دُرُوبًا فِي ظِلَالٍ خَبِيثَةٍ - بِهَا الرِّيحُ مَا أَبْقَتْ حَذَارًا لِهَائِبِ

عِدَادُ الحَصَى فِيهَا،أَفَاعٍ خَبِيثَةٌ - كَرِمَالَةِ صَبِّ المَوْتِ فَوْقَ المَعَاطِبِ(3)

تَجُودُ بِهِ سُمًّا نَفِيثًا مُعَطَّرًا - تُدِيرُ بِهِ النَّجْوَى خُدُودُ الكَوَاعِبِ

وَتُسْحِرِي ضَحَّاكَ الرَّدَى، كُلَّ بَسْمَةٍ- تُهَبُّ مَعَ السَّاقِي بِسَهْمٍ وَضَارِبِ(4)

ومنها الوجه الخائن الذي يستعير مخالب الذئب للغدر ونكران الصاحب، والشاعر ينكر صحبته مادام يعتصم بالخيانة والغدر، ويستجير بالله منه :

... وَقَفْتُ طَوِيلاً فَوْقَ أَعْتَابِ رَوْضِهَا - وَنَادَيْتُ رَبَّ الكَوْنِ: مَاذَاكَ صَاحِبِي

أَجِرْنِي فَهَذَا الوَجْهُ كَمْ صِدْتُ سِرَّهُ- وَلَوْ كَانَ مَعْصُومًا بِغَدْرِ الغَيَاهِبِ

فَلَمْ أَلْقَ إِلاَّ آدَمِيًّا يَسُوقُهُ- بِجَنْبَيْهِ ذِئْبٌ مُسْتَعَارُ المَخَالِبِ(5)

ومنها الوجه المنافق المرائي، الذي يتزيّ بأزياء العناكب والثعالب، ويجاري الناس في مواقفهم وآرائهم،حتى وإن كان فيها انحراف وبهتان، واضطراب وتذبذب وقد صور مواقف ذلك المنافق برموز كونية أخرى كشفت قناعه المتلون المتغير :

وَوَجْهٌ بِهِ وَجْهَانِ.. وَجْهٌ مُقَنَّعٌ - بِآخَرَ مَدْسُوسٍ بِزِيِّ العَنَاكِبِ

يُجَارِي وُجُوهَ النَّاسِ فِي كُلِّ نَظْرَةٍ - وَيَسْرُبُ فِي فِيَافِيهَا كَالثَّعَالِبِ...

بَرَتْ آيَةُ البُهْتَانِ جِلْدَةَ وَجْهِهِ - مَطَايَا رِيَاءٍ لاَ تَضِيقُ بِرَاكِبِ

إِذَا قِيلَ: هَذَا العَنْصَرُ مَاءٌ، رَأَيْتَهُ - يُرَدِّدُ لِلْيَنْبُوعِ شَوْقَ السَّبَابِبِ

وَإِنْ قِيلَ: هَذَا المَاءُ نَارٌ.. رَأَيْتَهُ - عَلَيْهَا بَحُومًا عَرِيقَ المَذَاهِبِ

وَإِنْ قِيلَ: تِلْكَ النَّارُ فَحْرٌ..رَأَيْتَهُ - أَذَانَ مُعَلِّ هَزَّ سَمْعَ الكَوَاكِبِ

وَإِنْ قِيلَ: هَذَا الفَحْرُ قَيْءٌ..رَأَيْتَهُ - مِنَ الثَّكْلِ يَسْتَحْدِي دُمُوعَ النَّوَادِبِ

---

(1) مزنرة : ج زنانير والزنار هو حزام يشد به وسط الجسم،وهنا الأغصان مزنرة أي مشدودة .

(2) الزوائب : ج زوبة: عظام الصدر.

(3) المعاطب : عطب: هلك، المهالك .

(4) غاب قوسين-ص88-89 .

(5) المصدر نفسه -ص89 .

تَلاشَى بِلاَ مَوْتٍ، وأَوْدَى بِلا رَدى - لَعَلَّ بِهذَا النَّعْشِ بَعْضُ المكَاسِبِ
أَمَانَكَ رَبِّي مِنْهُ،هَـذَا مُنَافِـقٌ - أَحَقُّ لِـقَاءٍ مِنْهُ وَجْهُ المَعَايِبِ(1)

ومنها الوجه المخادع الذي يحقق مآربه بالخداع والزور، والكذب والظن، ويجري وراء السراب،ولا يريد أن يتوقف أمام حقيقة نفسه،أو يسمع صدى الحق، ويستعيذ الشاعر بالله من هذا الصنف :

وَوَجْهٌ سَرَاتُ اليَبِيدِ يَخْشَى ظُنُونَهُ - فَيَزْوَرُّ(2) عَنْ رُؤْيَاهُ خَوْفَ العَـوَاقِبِ
يَمُرُّ بِهِ مَرَّ الظُّنُونِ كَأَنَّـــهُ - مِنَ الذُّعْرِ صِدْقٌ مَرَّ فِي وَجْهِ كَـاذِبِ
وَيُمْعِنُ فِي نَجْوَاهُ، عَرَّافَةُ الضُّحَـى - فَيَنْكُشُ(3) فِي خَطٍّ عَلَى الرَّمْلِ خَائِبِ
يُعَلِّمُ أَجْوَازَ الفَلاَ كَيْفَ تَعْتَـفِي - لِظَلْمَائِهَا وُدَّ الرِّيَاحِ الجَـوَاصِبِ
تَعَمَّى عَلَى مِرْآتِـهِ، فَهْوَ صَوْبَـهَا - رُؤَى صَـدِإٍ طَيَّ الزُّجَاجَةِ هَـارِبِ
يُخَادِعُ حَتَّى نَفْسَهُ فَطَرِيقُهَـــا - بِجَنْبَيْهِ حُبٌّ قَاعُهُ فِي الجَـوَانِبِ
تَهَدَّجَ(4) وَاسْتَحْيَ وَهَوَّمَ، وَاخْتَفَى - بِخَفْيَيْ سَعَاةٍ تَحْتَ المَسَـارِبِ
لَحَتْ فَلاَهُ مِنْ بَعِيدٍ، فَصَرْصَرَتْ(5) - بِسَمْعِي رِيَاحُ الخَاتِلِ(6) المُتَأَيِّـبِ
فَقُلْتُ:مَعَاذَ اللهِ!ضَعْفٌ وَقُـدْرَةٌ - وَلَيْلُ ضِيَاءٍ.. فِيهِ فَخْرُ غَيَاهِـبِ(7)

ومنها الوجه الجهول المتعالم، الذي يدعي العلم وهو لا علم ولا معرفة عنده، بل بلغ من الحمق والغرور والخيلاء إلى حد التفاهة والسطحية والتلاشي :

وَوَجْهٌ دَعِيَّ الأُفْقِ، لاَ عِلْمَ عِنْدَهُ - بِمَا حَظَّ فِي فِيهَانِهِ مِنْ مَثَـالِبِ
مَحَى سَمْتَهُ ضَبٌّ(8) الغُرُورِ فَأَنْفَـهُ - كَرِمَّةِ(9) طِيٍّ كُفِّنَتْ بِالطَّحَالِبِ
تَوَرَّمَ وَانْقَدَّتْ سَبَائِبُ(10) نَفْسِـهِ - فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرَ تَلِّ المَنَاكِـبِ..
يُشِيحُ(11) فَضَاءَ اللهِ بِجِزْيَا لِحُمْقِـهِ - وَتَعْوِي لَهُ حُزَّانًا شُقُوقُ الجَنَادِبِ(12)

---

(1) قاب قوسين -ص90-91 .

(2) يزور : يميل بنظره .

(3) ينكش : نكش الأرض : نقب وبحث .

(4) تهدج : مشى في ارتعاش أو منقطع المشي .

(5) صرصرت الرياح : اشتد صوتها أو بردها (ريح صرصر) .

(6) الخاتل : المخادع، المراوغ .

(7) قاب قوسين-ص92-93 .

(8) ضب : ج ضِبَابٌ، من جنس الحيوان الزواحف، غليظ الجسم خشنه .

(9) رمة : ج رمم: عظام بالية ونطلق توسعا على ما تعفن من جسد الميت .

(10) سبائب : ج سبيبة، هي الشقة من الثياب أو الشيء وهنا القميص .

(11) يشيح : أشاح بوجهه عن الشيء : أعرض عنه .

(12) المصدر نفسه - ص 94 - 95

ومنها الوجه المتستر وراء الدين،ويدعي الذكر والزهد، ولكنه آثم فاجر، لم يطهّره الإيمان والتقوى الظاهري، لأنه يدور حيث دارت رغائبه ومعاصيه :

وَوَجْهٌ هُوَ التَّسْبِيحُ وَالذِّكْرُ وَالهُدَى - وَزُهْدُ اللَّيَالِي فِي جَمِيعِ الرَّغَائِبِ
بَلِيدُ التُّقَى أَبْعَثْتُهُ فِي إِسَارِهَا - يَدُورُ عَلَى إِتْيَانِهِ كَاللَّوَالِبِ(1)
تَهَاوَنْتُ فِي أَنْوَارِهِ، فَإِذَا بِهَا - كَهُوفُ مَعَاصٍ بَانِيَاتِ النَّوَائِبِ
تَفِحُّ خُشُوعًا لِلْفَضَاءِ وَظِيفَهَا - ضَحَارِيَ ضَلَّالٍ مُهْلِكَاتُ المَشَارِبِ(2)

ومنها الوجه الواشي الذي يُوقع بين النفوس، ويصغي إلى الناس، يجمع أخبارهم وينبش في غيابهم، ويفشي أسرارهم.. فيدعو الله أن يسلط أشد العقوبة والنقمة واللعنة عليه :

وَوَجْهٌ سَأَلْتُ اللهَ: لَا مَرَّ ثَانِيًا - وَلَا اتَّجَهَتْ يَوْمًا إِلَيْهِ مَذَاهِبِي
بِهِ سِحْنَةُ الوَاشِي،لَهَا سَبْعُ أَعْيُنٍ - لَهَا سَبْعُ آذَانٍ،وَسَبْعُ حَقَائِبِ
بُطَيْلٌ كَرَهْطٍ مِنْ بَنِي الجِنِّ طَامِسٍ - يَخْدَجُ(3) فِي نَبْعٍ مِنَ المَاءِ نَاضِبِ
وَيُصْغِي كَحُرْسٍ مَشَى فِي تُرَابِهِمْ - دَبِيبٌ مِنَ الأَوْهَامِ حَافِي الكَتَائِبِ
وَتَزْحَفُ كَالثُّعْبَانِ أَشْوَاقُ سَمْعِهِ - لِتَسْتَلَّ مَا تَهْوَاهُ مِنْ كُلِّ صَاحِبِ
حَزِينٌ عَلَى الأَسْرَارِ.. يَلْعَقُ طَيْفَهَا - كَذِئْبٍ غَرِيبِ العَابِ، حَيْرَانِ سَاغِبِ(4)
وَيَنْبُشُ فِي غَيْبِ العِبَادِ،فَلَا تَرَى - لَهُ نَظْرَةً إِلَّا بِرَفْشٍ(5) وَحَاطِبِ
سَأَلْتُ لَهُ الرَّحْمَنَ قَبْرًا كَوَجْهِهِ - تَدُبُّ لَهُ الآثَامُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ(6)..

وتؤكد المشاهد المثيرة لهذه النماذج الاجتماعية نظرة الشاعر الواعية لأخلاق الناس التي ارتبطت بحسه الإسلامي،عند كشفه لحقيقة تلك الوجوه،التي قصد من مواجهته ونقده لها، تقويم عادات الناس وسلوكاتهم ودعوتهم للتشبث بالقيم الإسلامية الرفيعة،ونهيهم عن كل ما يبعدهم عن الأمان والصفاء، والأخوة والمحبة، والصدق والإحسان، والخير والجمال والحق والنور... وهذا يحاول أن يقوي اتصاله بالله واستحضاره بالسؤال والدعاء والرجاء،من أجل إنابة وتوبة تلك الوجوه،أو محاسبتها ومعاقبتها،وصدها عن تماديها وتمردها وضلالها وانحرافها. وقد أبدى أمام الله عز وجل استنكاره الحاد لها، وحوفه وتبرأه واشمئزازه منها، وحزنه على الواقع

---

(1) اللوالب : لهلاب: نبات عشبي يلتف على المزروعات والشجر.
(2) قاب قوسين-ص94-95 .
(3) يخدج : حدج يحدجا : يحدق وينظر بارتياب واستكبار .
(4) ساغب : جائع مع تعب (مستعبة : مجاعة) .
(5) رفش : الرفش : الأكل، يرفش الطعام : يجبد أكله .
(6) المصدر نفسه-ص95-96 .

الاجتماعي التي يعاني من مضارها وآثارها. ويتعمق هذا الإحساس الديني لما يعلن في قصيدة "الوجه المسدود" استجارته بالله من تلك الوجوه-أي النفوس-التي استغلقت أمامه بقية أسرارها،على الرغم من محاولات ومجاهداته وانتقاداته. فالله هو القادر على فهم خباياها وأغوارها وتناقضاتها والتواءاتها. وهو القادر على تغييرها وهدايتها. بالوسائل الروحية للتوبة والعودة إلى النور والهدى. لما لها من الأثر الاجتماعي كالأثر الروحي تماما.

فالشاعر إذن يجعل من استشعار الله في علاقة الإنسان بنفسه، وفي علاقته بالنفوس الأخرى.أي الناس- المحيطين حوله، ولهذا فهو يلجأ إليه في أزماته النفسية والاجتماعية، ونجد عند التضرع والدعاء له،كل آمال الانفراج والفرج في الحياة، يقول :

إِلَـهِي.. وَأَنْتَ النُّورُ لَمْ يَغِبْ مَرَّةً - سَنَاهُ إِذَا أَعْشَى العَشَـيَاءُ بَصِيرَتِي
أَعِنِّي عَلَى هَذَا السِّتَارِ.. فَإِنَّنِـي - عَجَزْتُ، وَلَمْ تَهْدَأْ بَرَاكِينُ حَيْرَتِي
دُهُورٌ تَوَالَتْ، وَالرِّتَاجُ عَلَى يَدِي - وَأَعْرِفُ لِلإِنْسَانِ سِرَّ قَضِيَّتِي
وَأَسْتَلُّ مِنْ تِيهِ الوُجُوهِ ضَلاَلَهَا - وَمَا دَفَنَتْهُ فِي سَرَابِ الخَدِيعَةِ
أَغُوصُ بِهَا حَتَّى يَذُوبَ شِغَافُهَا - وَأَنْفُذُ حَتَّى فِي جُذُورِ الغَرِيزَةِ
وَمَهْمَا تَلَوَّتْ نَظْرَةٌ أَوْ تَخَالَسَتْ - رَمَيْتُ لَهَا صَيَّادَ كُلِّ خَبِيئَةِ
وَدُرْتُ حَوَالَيْهَا، وَطَرْفِي سَاكِنٌ - يَجُوبُ رَوَايَا النَّفْسِ فِي كُلِّ نَظْرَةٍ(1)..

ويؤكد في القصيدة عجزه أمام وجه استغلق أمامه دون الوجوه الأخرى، ولم يستطع أن يغوص في أعماقه، ويكشف كل حقيقته،على الرغم من ملاحقه وتصرفاته الموحية ببعض أسراره، إلا أنه يبقى وجه صعب التعرف عليه على الرغم من وسائل الشعور والحدس والتجربة إنه وجه المنافق، هذا الإنسان الذي قد نعاشره ونحبه ونخلص إليه، ولكن وجهه يظل كهفا معتما. وقد حذر الله عز وجل من المنافقين في كثير من الآيات التي عبرت عن مواقف إنسانية امتدت عبر الزمن الإنساني.﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ. إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ.﴾(2)، ويحذر من هذا الضعف الاجتماعي الخطير في واقع الإنسان الظاهر والباطن،محددا تصويره لبعض مواقفه مع الله ومع الناس :

عَبَرْتُ فَضَاءَ اللهِ صَيَّادَ أَوْجُهٍ - وَلَوْ سَكَنَتْ غَابَ الغُيُوبِ المَنِيعَةِ
وَحَيَّرَنِي وَجْهٌ أَطَلَّ، فَنَظْرَةٌ - حَيَاةٌ، وَأُخْرَى أَوْ مَاتَتْ بِالمَنِيَّةِ
تَنَاقَضَ حَتَّى خِلْتُ عِدَّةَ أَوْجُهٍ - تَوَالَتْ لِعَيْنِي رُمْزَةً إِثْرَ رُمْزَةِ
تُرِيكَ الرَّبِيعَ الغَضَّ، حَانَ حَرِيفُهُ - وَشَابَتْ لَيَالِيهِ عَلَى كُلِّ رَبْوَةِ(3)

---

(1) غاب نوسين-ص98-99 .

(2) التوبة-67.

(3) المصدر نفسه-ص100.

3- نقد بعض العادات السيئة :

إلى جانب هذه المظاهر الأخلاقية التي انتقدها الشاعر، وحاربها بوسيلته الشعرية، هناك عادات وسلوكات اجتماعية أخرى ارتبطت بالشعوذة والتحلف والسحر، التي انتشرت في المجتمع المصري وغيره، بسبب الجهل والتحلف وضعف الإيمان وعدم المعرفة بأصول العقيدة، ودسائس الاستعمار وخصوم الإسلام.(1)

حاول تحرير العقيدة الإسلامية منها، وتصحيح مفاهيم الدعوة إلى الله في الأوساط الاجتماعية(2)، وذلك باقتلاع تلك السلوكات من معتقدات الناس، وتنفيرهم من الانسياق وراء الخرافات كالتوسل بالأولياء الصالحين، والتمسح بجدران مقابرهم، أو الذهاب لدى بعض الوسطاء الأدعياء بالكرامات والاطلاع على الغيب، وصناعة التمائم والرقي، للوقاية والعلاج الروحي أو النفسي أو الاجتماعي. واقتلاع عادة التوجه لغير الله، يعني تأكيد سلامة العقيدة والإيمان بالله وقدرته وغيبه، والتوجيه إلى المعاني السليمة في دعاء الله وابتغاء لديه الوسيلة.

واتخذ الشاعر وسيلته الفنية المعروفة " الرحلة " ولبس الروح الخرافية في قصيدته " موسيقا من الجن " ليتسنى له الولوج إلى هذا العالم، محاولا أن يخالط بخياله هؤلاء الناس، الذين يحاولون أن يكونوا في حالة غيبوبة مؤقتة تمكنهم من الاتصال بالكائنات الأخرى في عوالم أخرى، ويتقمص شخصيتهم، ويدخل معهم إلى أجواء عبادتهم وتقديسهم ومحاريبهم التي يقيمون فيها التعاويذ، ويرشون البخور، ويضعون التمائم والرقي، ويهذرون بلغة غير مفهومة، لا يفهمها إلا هم، ويكشف ادعاءات اتصالهم بعالم الجن ومعرفة الغيب.

ويحاول أن يتصل بعالم الجن ويتعرّف عليهم، ويتصور أشكالهم وأصواتهم وواقعهم، وعلى الرغم من جرأته ومحارفته الفنية على اقتحام هذا العالم الغيبي، إلا أنه أكد العجز الإنساني بعد تحديد ملامحهم على الرغم من الإحساس بوجودهم :

وأكادُ أسْمَعُهُمْ !!..
ورَغْمَ ضَرَاوَةِ الغَيْبِ الكَثِيف،
أكادُ أسْمَعُهُمْ وأُبْصِرُهُمْ
وأرَى خَفِيفَ خُطَاهُمْ،
خَلْفَ الأثِيرِ مَزَاهِرًا حُمْرًا،
تُغَنِّيهِمْ وتُرْقِصُهُمْ
يَتَسَلْسَلُونَ ويَمْرُقُونَ
ولا طُيُورَ الوَهْمِ فَوْقَ الظَّنِّ
بالأحْلامِ تُدْرِكُهُمْ...

---

(1) انظر- محمد محمد حسين- الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر- ج1- ص320.

(2) انظر سعد الدين الخيراوي العامل الديني في الشعر المصري الحديث ص350 356.

مَنْ هؤُلاَءِ يَرَوْنَنِي شَبَحًا
وَعَيْنِي لاَ تُشَاهِدُهُمْ ؟
مَنْ هَؤُلاَءِ؟...(1)

وعلى الرغم من حقيقة الجن التي توصل إليها الشاعر، إلا أنه يواصل اتصاله بهذا العالم، ويجاري ادعاءات المتعاملين معهم، والمتصلين بهم من أجل كشف حقيقة علاقتهم الغامضة.ومعرفة ذلك، حدا بالشاعر إلى مواصلة توظيف خياله أقصى ما يمكن. فنرى أنه انشطر إلى ذاتين، ذات شاء لها أن لا تكون لا إنسا ولا جنا وإنما طيف روح لا يغادرهم، وذات أخرى أرادها أن ترتبط بالواقع وتكتفي بالمراقبة والملاحظة .وكأنه يريد بهذا الانشطار أن يكون حذرا ويقظا، ويبدو أكثر إقناعا وتبريرا بعد أن يعيش بذاته الأولى لحظات كشف وتجلٍّ معهم، وإن رفض التقرب بهم، وفضل أن يكون جنس طيف يتبعهم ليكشف غموضهم:

وَشَطَرْتُ ذَاتِي :
وَاحِدًا مَعَهُمْ،
وَالوَاحِدُ الثَّانِي يُرَاقِبُهُمْ
هَيَّا، وَسِرْتُ بِنِصْفٍ مُغَرِّبٍ
وَخَيَالُ ضَيْفٍ عَابِرٍ مَعَهُمْ !
وَإِلَى هُنَاكَ.. وَسِرْتُ..
لاَ إِنْسًا، وَلاَ جِنًّا، أُصَاحِبُهُمْ
بَلْ طَيْفُ رُوحٍ لاَ يُغَادِرُهُمْ
سِرْنَا سَوَاءً..
أَيْنَمَا ذَهَبُوا
لاَ خِفْتُهُمْ، وَظَلَلْتُ صَاحِبَهُمْ(2)..

ثم بايعهم وسار معهم، بعيدا من أي مواضعات منطقية وعقلية، ووصل معهم إلى مكا للقاء بأصفيائهم الإنس، ودخل معهم محاريب صلاتهم، وراح يحاور ويسأل كبيرهم عن حقيقة ما يفعلون مع أولئك الواصلين والمتعاملين معهم. وشاء الشاعر أن يكشف هذا الكبير بنفسه من حقيقة تواصلهم معهم غير المجدي والمطقي، ويسخر ويتهكم من دجلهم وسكرهم ووجدهم العصوفي المزعوم، ومن انتعاشهم من دعوات القادمين إليهم :

دَخَلُوا مَحَارِيبَ الصَّلاَةِ
فَرُحْتُ أَتْبَعُهُمْ...
وَرَاءَ حَائِطِ خَاشِعٍ للهِ

---

(1) نهر الحقيقة- ص30.

(2) المصدر نفسه -ص34-35.

كُنْتُ مُكَاشِفًا مَعَهُمْ!
نَخْتُو وَنَلْمَحُهَا صِحَتْ أَسْلَمُهُمْ
مَاذَا؟ فَقَالَ كَبِيرُهُمْ: هَهَهَا!
وَمَلَا الْمَسَاجِدَ أَهْلُهُمْ
الْعَيْنُ تَهْجَعُ فِي زَيْتِهِمْ[1]
وَالرُّوحُ تَفْزَعُ مِنْ حَقِيقَتِهِمْ
دَعْهُمْ سُكَارَى!
دَابَ وَاحِلُهُمْ
فِي دَمْعِ مَنْ مَلَزَى طَرِيقَتَهُمْ!
انْظُرْ صَدَى الْبُهْتَانِ فِي دَمْعِهِمْ
بِبَرِيقِ خَمْرٍ لِشَرْوَتِهِمْ
وَمَدُ الْفَقِيرِ ذِرَاعُ مِرْوَحَةٍ
شَلَاءَ بِالدَّعَوَاتِ تُنْعِشُهُمْ[2]...

وليؤكد هذا البهتان والخرق، والشعوذة المعلنة على كثير من المؤمنين بها، يتوقف عند أحد من هؤلاء الواصلين ويصور لحظات الاتصال والكشف الغيبي للريف، كيف يمنحونه طريقة التمائم والأحجبة والرقى، وكيف يملك الغيب عنهم، وكيف يدعي أنه يتواصل مع أحباب الله ويدرك من خلال صحبتهم سر الله :

... شَدَّ الْخُيُوطَ، وَقَالَ أَعْرِفُهُمْ
وَمَضَى يُجَادِبُ فِي أَعِنَّتِهِمْ
وَيَعِبُّ مَأْخُوذًا بِحَقْلِهِمِ
أَصْغَوْا إِلَيْهِ ثَانِيًا وَرُقَى،
وَسُطُورَ أَحْجِبَةٍ تُكَابِدُهُمْ
وَتَعُومُ غَرْقَى فَوْقَ لُجَّتِهِمْ
تَسْتَدُّ الْعَيَاءُ
وَمَا بِهَا قَبَسٌ إِلَّا الظَّلَامُ
يَلُفُّ وِحْدَتَهُمْ
وَمَضَى يَمُوجُ[3]، الْغَيْثُ عَنْ قِمَمِهِمْ

---

(1) رِيشَهُمْ : رِيبَةٌ تُثِيرُ بَعْضَهُمْ فِي أَحْيَانٍ مِنْ كَثْرَةِ السُّجُودِ.

(2) نهر الحقيقة ص35-36.

3 سقط بعض الحروف من هنا وهناك

المبـــحث الـثـالث

المـــــــرأة

1- المنـــــظور الأخـــلاقي.

2- المنـــظور الوجـــداني.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبزيفه العاتي يُزوِّرهُمْ
أعْمَى وَ لَمْ يَرَهُمْ
وَيقَوْلُ أحْبَابي، أوَاصِلُهُمْ
وَأذِيبُ سِرَّ اللهِ
مِنْ أسْرَارِ صُحْبَتِهِمْ[1]

وارتياده لهذا العالم وما أشاع فيه من خيال خرافي-إلا أنه شيء من واقعهم- كان طريقا لابد أن يرتاده بحثا عن الحقيقة، محاولا على الرغم من ضراوة الغيب الكثيف أن يسمع غمغمتهم وهمسهم، ويحاورهم بلغتهم ومنطقهم، ويتعرف على رقاهم وتمائمهم وخورهم ووجدهم... ليؤكد أن ما حدث له في هذه الرحلة، وما يحدث في ذلك العالم سوى الخرافة والشعوذة بعينها، وأن غيب الله ليس في الغيبوبة الظاهرة المزعومة التي تغشاهم. فغيب الله حقيقة لا تدرك بمنأى عن العقل والوعي، والإيمان والروح. وتظل أسرار الله حجاب أزلي بينه عز وجل وبين البشر، كما أكد من قبل سر الروح وبعض أسرار الغيب الأخرى[2]. وصرخ في النهاية في وجه ذلك الضرير الحائد عن الطريق السليم،وعالمه القائم على البدع والترهات والدجل مطهرا بذلك أفكار المعتقدين به :

ضَلُّوا الطَّرِيقَ
فَمَا لِمُنْتَجِعِ[3] غَيْبَ الإلَهِ سِتًا يُضَوِّئُهُمْ
الغَيْبُ غَيْبُ اللهِ يُبْعِدُهُمْ
وَالْعَقْلُ مَدَّ الرُّوحَ يَحْمِلُهُمْ
وَالرُّوحُ قَبْلَ العَقْلِ تَرْفُضُهُمْ[4]

من خلال هذه الأشعار النادرة، تأكد لنا أن أي أمة لا يتحقق لها وجود، ولا تمتد لها أجل إلا بفضائل النفس، تضع عليها أسسها، وتقيم منها بناءهاوتنهج مناهجها في أساليب التعامل ونظم الحياة.

ويكون محمود حسن اسماعيل،قد تفرد بهذه الدعوة إلى الأخلاق،التي تجاوزت أسلوب الوعظ والإرشاد بأساليب فنية رفيعة من الرموز والأقنعة،التي كشف بها وفضح أخلاقيات الناس الباطنة والظاهرة، من أجل البحث عن الجوهر الإنساني الخالص الذي برع فيه أكثر من غيره من الشعراء.

---

(1) نهر الحقيقة،ص37-38 .

(2) انظر فصل الرؤية الروحية .

(3) منتجع : أي قاصد وطالب، وهنا طالب غيب الله .

(4) المصدر نفسه،ص39-40.

على الرغم من خطوات الإسلام التي خطت بالمرأة خطوات واسعة، ونهضت بها انسانيا واجتماعيا ومنحتها حقوقها وواجباتها على أكمل وجه، وحددت مسؤوليتها التي لا تقل عن مسؤولية الرجل، وقاست أعماله بنفس المقياس الأخلاقي الذي قاست بها أعماله. وكثير من الآيات التي تجمع هذه المساواة في الحياة بين الرجل والمرأة، وأشمل مقياس للمساواة شمله قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ . وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ . وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ . وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَّدِّقَاتِ . وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ . وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ . وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1]. فهذه الصفات الكثيرة التي جمعت في هذه الآية،تتعاون في تكوين النفس المسلمة، وهي الإسلام والإيمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والتصدق والعفة والذكر... ولكل صفة قيمتها في بناء الشخصية الإسلامية.[2]

واشتدّ الحرص الإنساني منذ شروع شريعة الإسلام على تربية المرأة تربية دينية حلقية،قائمة على الفضيلة والعمل الصالح، لأن بصلاح المرأة تصلح الأسرة،ومن ثم يكون صلاح المجتمع.[3]

وإن طفت في المجتمع العربي الإسلامي بين الفينة الزمنية والأخرى بعض الآراء والأفكار المنحرفة من بعض المفكرين والمبدعين، بعد نشأة ظاهرة الازدواج بين الحياة الغربية الوافدة، والحياة العربية الإسلامية الأصيلة، كان أن انحرفت إليها المرأة سريعا. وخرجت الكثيرات عن مألوف العادات الموروثة لشعب مسلم يحافظ على المرأة كل المحافظة، ويأبى عليها كل ماينسّ كرامتها وشرفها.وخرجت عن بعض ما ينادي به الإسلام، وتأمر به الفضيلة ومما شجع المرأة على هذا الخروج،وانطراح بعض ما تدعو إليه مكارم الأخلاق،هو حرص السياسة الاستعمارية على خلق مجتمع فاسد بعيد كل البعد عن القيم الأخلاقية والمثل العليا والتعاليم الإسلامية،وكذلك الدعايات الأجنبية والهيئات التي تخدم الاستعمار في مصر وغيرها، وتعمل على رمي المرأة العربية المسلمة بالجمود وإلصاق أسباب تأخرها بالإسلام.

وكان انحلال الأخلاق والتقليد من أهم الدعائم الاجتماعية التي حاول الاستعمار الغربي إرساءها وبناءها. وكانت أخطر خطوة للمرأة لما بدأ رفع الحجاب سنة 1923 م وظهرت دعوات تحرير المرأة صارخة وثائرة في سماء مصر بخاصة.[4]

---

(1) الأحزاب-35.

(2) سيد قطب- في ظلال القرآن -ج22- ص2862-2863 .

(3) انظر-أحمد أمين الأخلاق ص177 178.

(4) انظر- محمد محمد حسين- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر- ج1-ص293-304.

وذاعت منها آراء قاسم أمين في المرأة باصدار كتابه " تحرير المرأة "،الذي أحدث هزة عنيفة في محيط الحياة المصرية، ثم أتبعه بكتاب آخر " المرأة الجديدة "، دافع فيه عن الكتاب الأول،ورد على ما وجه إليه من نقد وتجريح(1). وتواصل الجدل عنيفا بين من وقفوا إزاء آرائه موقفا مؤيدا، يرى أنها لا تتنافى مع الإسلام، ومعارض يرى أنها خروجا عن الإسلام وآدابه. إلا أن بعض الدراسات الجادة حاولت أن تبين الوجه المعتدل لآرائه على أن دعوته الإصلاحية وجهها إلى الطبقة الأرستقراطية في البلاد والتي ابتعدت عن الأفكار الموروثة باحتكاكها بالمجتمع الغربي، وكان يعتقد أنها بحاجة إلى الإصلاح، كذلك كان في دعوته يعمد أحيانا إلى التعميم مما جعل البعض يعتبرونه طاعنا الإسلام ومبادئه.(2)

ولم يقف الشعراء بعيدين عن هذا الميدان، بل كانت لهم جولات شعرية حول وضع المرأة والدعوات الاجتماعية المعاصرة، وكان هذا الوضع الحرج الذي تمر به المرأة موضع نقد شديد بخاصة من ذوي الغيرة الدينية الذين ينظرون إلى الأمور نظرة عقل ودين، واستلهموا الإسلام نظاما وفكرا، وعالجوا قضايا المجتمع على هديه. وقد هالهم ما رأوا من هذه الفطرة التي وصلت إليها المرأة من سفور وخلاعة، وقد أصبح سفورها أمرا واقعا، بعد أن كانوا يتحدثون من قبل عن إمكان إباحته وتحريمه،وراحوا ينتقدونه ويأملون له بعد أن تمادت المرأة في السفور وتبرّجت، وغالت في التبرج مع انتشار الحانات والمراقص ودور اللهو.

إلا أن الاندفاع كان قويا جارفا، ولم يستطع دعاة الإصلاح من مفكرين ومصلحين وأدباء وشعراء،إلا المواجهة بأضعف الإيمان على الرغم من ظهور جمعيات إصلاحية إسلامية نسوية،كجمعية السيدات المسلمات وجمعية سيدات أنصار الإسلام.(3)

وعلى الرغم من توجيهات بعض الشعراء بتصوير هذه الحياة، وما فيها من مخاز، وما تؤدي إليه من انهيار في شخصية المجتمع، وبالسمو في تصوير المرأة عاطفيا واجتماعيا من أجل كبح جماح ذلك التيار الهادم، وخلق جو فكري عام لصور الأخلاق والفضائل.

ومن الحقائق الثابتة آنذاك أن دعوة قاسم أمين، أصبحت كما يرى البعض جزء من الفكر الشوري الوطني في سير الحقبات المتتالية، له صداه عند كل من" أحمد أمين وابراهيم المازني وتوفيق الحكيم وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم" حيث كانت لهم أعمال أدبية نثرية وشعرية حول الحجاب والسفور، وحرية المرأة وقضاياها الأخرى.

على الرغم من المساندة القوية لهذه الدعوة، إلا أن الآراء بدت مضطربة والمواقف متباينة.وبدا في بعضها الشعور الإسلامي المحافظ عند الشعراء ذوي النزعة الأخلاقية والإسلامية،حيث لا يتجاوزون حدود الأدب مع الدين، ولا يشتطون شطط بعض دعاة تحرير المرأة الذين نادوا في دعوتهم.

---

(1) انظر-سعد الدين الخيراوي-أصداء الدين في الشعر المصري الحديث-ص210-211 وص 320.

(2)انظر-أنيس المقدسي-الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث-دار العلم للملايين-مصر-ط7-1982م-ص255-260.

(3) انظر سعد الدين الخيراوي أصداء الدين في الشعر المصري الحديث ص234.

1- المنظور الأخلاقي :

كان الشاعر محمود حسن إسماعيل بعيدا عن الصراعات والمعارك الفكرية والشعرية حول المرأة، والتي أشعلت جذوتها دعوة قاسم أمين وولدت آراء فيها معارضة وتأييد، وتناقض ونفور، واضطراب واعتدال، وإن لم يفته أن يوجه ويقيّم نتائج هذه الأفكار فكريا واجتماعيا من خلال قصيدة " من دخان المجتمع" (1)، التي حاول فيها بكل يقظة أن لا ينساق وراء دعوات قاسم أمين الظاهرية الداعية إلى السفور، وإنما أراد من خلالها أن يؤكد ما أكده بعض الناقدين المعتدلين لدعوته التي كانت صارخة في ظاهرها،لكن غايتها هو محاولة إصلاح وضع المرأة الذي يرزح تحت قيد الجهل والتخلف وسلطة الرجل والعادات القاهرة، دون إبعادها عن التدين والأخلاق. ولم يشأ أن يتحيز لقاسم، أولأي معارض أو مؤيد وإنما حاول أن يكون أكثر واقعية وفعالية بتصوير آثار هذه الثورة التي قامت حول موضوع الإصلاح والأخلاق، بدعوى العصر والحضارة وبحجة الدين والمبادئ، يقول :

وَاهْتِفْ بِقاسِمٍ، فَمْ فَانْظُرْ صَحائِفَهُ - تَعِبِتْ عَنْ وَصْفِها الأَحْبارُ وَالسِّيَرُ
شَهِدْتَ في الدَّورِ قَيْدَ الذُّلِّ مُحْتَدِماً - قَلَّبَ الخُدُورِ(2) عَلَى بَلْوَاهُ يَنْقَطِرُ
أَزاهِرُ النِّيلِ أَفْنَى النِّيلُ بَهْجَتَهَا - وَمَسَّ أَكْمَامَهَا مِنْ هَوْ لِهِ خَطَرُ
فَرُحْتَ تَزْأَرُ حَوْلَ القَيْدِ عَاصِفَةً - مَا شَلَّ قُوَّتَهَا حُبٌّ وَلا حَذَرُ
وَحَوْلَكَ الرَّأْيُ تَحْكِي نَارَ غَضْبَتِهِ - أَسِنَّةٌ فِي قَنَامِ الحَرْبِ تَشْتَجِرُ(3)
فَقَائِلٌ مُعْلِحٌ أَوْفَى بِمِشْعَلِهِ - عَلَى الضِّفَافِ كَمَا يَسْتَشْرِفُ القَمَرُ
أَلْقَى المَبَادِئَ مَا فِي رُوحِهَا ضَرَرٌ - مَسَّ الحِجَابَ، وَلا فِي شَرْعِهَا خَطَرُ
وَقَائِلٌ: شِرْعَةٌ قَبْلَ الأَوَانِ أَتَتْ - وَالعَصْرُ فِي وَهْدَةِ الأَخْلاقِ مُنْحَدِرُ
وَقَائِلٌ : زِبْدُ الوَادِي بِرَبْوَتِهِ - تَحْتَ الخَمَائِلِ عُمْرِيُّ الشَّذَى نَضِرُ
فَإِنْ تَنَقَّلَ مَاتَ العِطْرُ، وَانْتَثَرَتْ - كِمَامُهُ وَطَوَاهُ التُّرْبُ وَالوَضَرُ(4)

ثم واجه أولئك الذين أخذوا من هذه الدعوات قشورها وبريقها من أجل تحقيق مبتغاهم المنحرف وراء تيار الغرب الداعي إلى السفور في اللباس، والانحراف في الأخلاق، وكان الأثر الوخيم على سلامة المجتمع،ونقائه واستقراره:

وَبَيْنَ هَذَا وَهَذَا.. أَفْلَتَتْ زُمَرٌ - ضَلَّتْ سَبِيلَهَا، تَتْلُو رَكْبَهَا زُمَرُ
هَوَى عَلَى كَهْفِهِمْ نَجْمُ العَفَافِ..فَمَا - هَرَوْا لِمَصْرَعِهِ حَفْنًا وَلا شَعَرُوا
بِاسْمِ السُّفُورِ أَقَامُوا كُلَّ مُجْتَرَزَةٍ - يَكَادُ يَلْطِمُ مِنْ أَهْوَالِهَا القَدَرُ

---

(1) نشرها في مجلة الرسالة في ذكرى قاسم أمين .
(2) الخدور : ج الخدر : وهو المكان الساتر للمرأة .
(3) تشتجر : اشتجر القوم: تنازعوا وتخالفوا أو اختصموا .
(4) مجلة الرسالة-مج 7 ع 304 1939م ص 876.

عاشُوا فَضَجَّ الحِمَى مِنْ رجْسِ خَطْوتِهِمْ - وفرعتْ مِنْهُمُ الأَخْلاقُ والأُسَرُ
تَعْثُرُ الفَضِيلَةُ يَمْشِي فِي مَوَاكِبِهِمْ - فَمَا يُحَسُّ بِهِمْ سَمْعٌ وَلا بَصَرُ
قَالُوا: شَأَى الغَرْبُ، قُلْتُ: الشَّرْقُ سَابِقُهُ - وَإِنْ تَبَدَّلَتِ الأَشْكَالُ والصُّوَرُ
وَمَا بِقَادَاتِهِ نُعْلِي دَعَائِمَنَا - لَكِنَّمَا تُلْهِمُ الأَحْدَاثُ وَالعِبَرُ
وَكَيْفَ نَعْلُو حَبِيسَ الدَّهْرِ فِي بَلَدٍ - بِكَفِّ شُبَّانِهِ الأَخْلاقُ تَنْتَحِرُ(1)

على الرغم من وضوح نظرة محمود حسن اسماعيل في هذه القضية، إلا أننا لا نستطيع أن نؤكد مدى استقامة دعوة قاسم أمين مادمنا لم نتحر البحث المفصل والدقيق عن محاور كتابيه " المرأة الجديدة " و" تحرير المرأة ويبقى رأي محمود حسن اسماعيل مع بقية الآراء المعتدلة،والتي همّها الوحيد إصلاح شأن المرأة دون الخروج عن الإطار الإجتماعي والأخلاقي الذي يعيشه المجتمع الشرقي بالمقارنة مع المجتمع الغربي.

من هذا المنطلق العام، لم يخل شعر محمود حسن اسماعيل كغيره من الشعراء على فترات الزمن الطويلة من موضوع المرأة، وكانت له نظرته الاجتماعية والوجدانية،والتي لا تخرج عن نظرة الإسلام الاجتماعية والخلقية والجمالية والعاطفية.

تطرق في بداية حديثه عن المرأة عن إطار حقها في الحياة والحرية والكرامة،بعد أن أشار إلى وضعيتها الجاهلية مستنكرا عمليات وأدها الرهيبة، مشيدا بمنقذ البشرية محمد صلى الله عليه وسلم الذي حررها ومنحها حقوقها الروحية والمادية ونظر إلى صفتها الإنسانية التي تواكب نظرته إلى وحدة الإنسان.(2)

وكشف شعره بعد ذلك عن نماذج المرأة التي تتحلى بسجايا التقوى والفضيلة والطهر والعفة، والصون والاحتشام، وعن مقاييسها الخاصة التي تخالف أعراف كثير من الشعراء، فهو لا يستهويه جمال الجسد، بل يصرف إعجابه نحو جمال الروح والخلق في نظرة سامية لتقويم الجمال، وعن حرصه على تحقيق الغرض الذي ينشده في إصلاح حال مجتمعه الذي تجتمع فيه كل الفئات. فكان من ذلك تلك العناية التي أولاها للمرأة بدعوته إلى تهذيبها وتربيتها، والنهوض بشخصيتها وإبعادها عما تجذف بها من انحراف ونسيان لطابعها في الزي والعادات والأخلاق، موضحا من خلال ذلك دورها ومكانتها في المجتمع.

والمرأة التي ظفرت بنصيب وفير من شعر شاعرنا، هي امرأة الريف التي تمثل العنصر النسوي المتمسك بالعفة والطهارة، والحشمة والحياء، والبساطة والطيبة... وغيرها من القيم والفضائل، والتي تجتمع كلها لتميز المرأة المتدينة التي شدته بعفتها وطهرها، وعذريتها وصفائها وحلبابها... يقول :

تَهْنِيكَ عَذْرَاءُ إِذَا أَقْبَلَتْ - لِلَّيْلِ أَصْفَى مَوْجَهُ الغَادِرُ
يَسْتَلْهِمُ العِفَّةَ مِنْ خَفْرَةٍ - يَحْنُو عَلَيْهَا مِنْكَ طَاهِرُ

---

(1) المرجع السابق -ص876.

(2) انظر: فصل الرؤية النبوية- مبحثي- دواعي البعثة وآثار البعثة .

قُدْسِيةُ القَلْبِ، بِها عِصْمَةٌ - لَمْ يُؤْتِها يِسْرُ السَّما الكَاسِرُ
كَأَنَّما رِيشَتْ جَلابِيبُها - فَالوَيْلُ إِنْ مَرَّ بِها فَاجِرُ(1)

ويتكرر نموذج هذه المرأة إلا في أنقى وأجمل صورها، وهي تعيش حياتها مع صفاء الطبيعة بنيلها وموجها، وشمسها وأضوائها والتي تشبهها في صفاءها وجمالها وطهارتها، ولكن لا تخرج إليها إلا عندما يحين موعد ملء جرتها،متأنية الخطوات،غريرة اللحظ، يقول في قصيدته " عروس النيل " أو حاملة الجرة :

سَارَتْ إِلَى حَدْوِلِها الدَّافِقِ - سَيْرَ الكَرَى فِي مُقْلَةِ الغَاشِقِ
وَانِيَةُ الخُطْوِ، كَأَنَّ الثَّرَى - يَحْمِلُ مِنْها خَطْرَةَ السَّارِقِ
فَمَالَتِ الأَضْوَاءُ عَنْها لَما - أَحْجَلَها مِنْ نُورِهِ الشَّارِقِ
تَمْتَحُ(2) بِالجَرَّةِ مِنْ مَنْهَلٍ - صَافٍ كَرِيقِ الكَوْثَرِ الدَّافِقِ
إِذَا دَهَتْها الرِّيحُ أَبْعَثَتْها - حَمَامَةً تَفْرَعُ مِنْ باشِقِ
نَصِيفُها(3) تَخْفِقُ أَهْدَابُهُ - خَفْقَ الأَسَى فِي الشَّحَنِ الطَّارِقِ
غَرِيرَةُ اللَّحْظِ لَها نَظْرَةٌ - زَوْرَاءُ(4) عَنْ حَتْلٍ(5) الهَوَى الفَاسِقِ(6)

إلى جانب هذا النموذج الذي يمثل الخجل والحياء، والعفة والعذرية، والبساطة والصفاء، والجلباب والخمار، والملاك والطيف، والحمامة والعروس.هناك نموذج المرأة التي قد تحيد عن سواء السبيل بإغراءات المدنية الزائفة، وضياعها مع تيار العري والسفور، واللهو والانحراف، والفاحشة والبغي. في قصيدة " الرداء الأبيض"، يخاطب فيه نموذج هذه المرأة التي ترتدي ثوبا أبيضا، شفافا فاضحا، هاتكة الحياء، مشعلة الكيد، ملطومة الشفاه والأظافر باحمرار مزيف.. فيأمرها بحدة وسخرية أن تمزق عنها هذه الأصباغ والألوان، وتتراجع عن إثمها وتماديها في التكشف والزينة للغير:

تَوَشَّحَتْ فِي غَفْلَةِ الحَيَاءِ - بِأَبْيَضٍ يَفْتَنُ عَلَى العَيَاءْ
يَافِتْنَةً تَمْشِي بِلا رِدَاءْ - لَوَّحَها طُولُ اشْتِعَالِ الكَيْدِ
مَلْطُومَةِ الشَّفَاهِ وَالأَظَافِرِ - بِأَحْمَرٍ عَنْ زَيْفِهِ مُهَاتِرِ
يَسْقِي بِمَاءٍ شَبَّ فِي السَّرَائِرِ - وَأَمْرَتْ نِيرَانُهُ فِي الخَلَدِ..
فَمَزِّقِي الأَصْبَاغَ وَالأَلْوَانَا - فَإِنَّها لا تُخْفِتُ النِّيرَانَا(7)

---

(1) أغاني الكوخ- ص18-19.
(2) تمتح : تستخرج الماء وتحصل عليه .
(3) نصيفها : خمار أو طرحة سوداء تستر بها الرمشات .
(4) زوراء : امرأة زوراء : أي التي تميل عيبها.
(5) حتل: اخداج عن غفلة.
(6) المصدر نفسه -ص52-54.
(7) أبي المطر- ص153-154.

وفي قصيدة أخرى " خمر وخمر"(1)، صور حرارة واشتعال المرأة،وقد تخلت عن عفتها وحيائها وحجابها، وتمادت في مزالقها وهفواتها بارتيادها حفلات الرقص والغناء واللهو والخمر، التي أقيمت باسم الخير والبر للمعوزين والمساكين، ولكنها في الحقيقة متاجرة بالمرأة،وبصور العهر والخلاعة، وتقيم المجتمع الخلقية :

هَتكتْ بِهِنَّ حَياءَ الظَّـــلامِ - وَمزَّقَتْ عَنْهُ الحِجَابَ الطَّهُـــورْ
فَيَا خَيْبَةَ اللَّيْلِ رُدِّي السَّمُـومَ - كَـفَانَا ضَنًى مِنْ أَسَاهَا المَرِيـــرْ؟
كَذَبْتَ عَلَى اللهِ، مَا لِلْهَوى - وَمَا لِلطِّلاَ وَدُمُـوعِ الفَقِيـــــرْ؟
مُنَادِيهُ أَسْكَرَتْ وَحْدَهَـــــا - وَطَافَتْ بِأَشْوَاقِهِ تَسْتَجِـــيرْ
مُرَخَّمَةَ الصَّوْتِ، مُتْرَعَةَ الخُطَا - يُوَسْوِسُ فُسْتَانُهَا لِلْعَـــبِيرْ
عَلَى نِصْفِ ثَوْبٍ، تَحُرُّ الحَيَاءَ - عَرِيرَ الرَّدَى، كَفَنَتْهُ العُطُورْ
وَتَمْشِي بِنِصْفٍ يَعَافُ السُّتُورَ - وَيَجْزَعُ إِنْ مَرَّ طَيْفُ الحريـــرْ
تَدُورُ عَلَى أَعْيُنٍ حَوَمَـــــتْ - وَحطَّتْ هَوَاهَا بِأَيْكِ الغُدُورْ
أَعَاجِيبُ لَهْوٍ تُذِيبُ القُلُوبَ - وَتَغْتَالُ مِنْهَا بَقَايَا الشُّـــعُورْ (2)

ويصرخ في نهاية القصيدة في وجه الغيورين على هذا الوطن وهذا الدين، لكي يردوا إلى الحياة طريقها، وإلى المرأة طهرها وحلقها. ويتصدوا لمزاعم المدنية وسموم الاستعمار الذي كان من أسباب إذلال هذه المرأة وتشجيع مزالقها، فهو يدعو إلى القضاء على هذه الصور المنفرة والموصفة، والدفاع عن قيم المجتمع الأصيلة ، وإلى العودة إلى الله- أي إلى الإسلام-، ففيه السكينة والأمان والرضا:

بَنِـي وَطَنِي صَيْحَةٌ حُـرَّةٌ - وَحَقٌّ مِنَ الظُّلْمِ غَانٍ أَسِيرْ
إِلَى اللهِ رُدُّوا طَرِيقَ الحَيَاةِ - فَمَا غَيْرُهُ مِنْ أَسَاهَا أَجِيـــرْ
وَفِيهِ السَّكِينَةُ لِلْحَـائِرِينْ - وَفِيهِ الرِّضَا، وَالأَمَانُ الأَحَرّ(3)

ثم يتحول برؤيته إلى نموذج نسائي آخر، سقط في غياهب الخطيئة بعد عفاف وطهر، وكان واقعيا في رؤيته حيث لم ينفر من نموذجها الفاسد، و لم يعصب حمام غضبه ونقمته عليها، بل نظر إليها نظرة المصلح الاجتماعي والروحي بالبحث عن مخرج لها بالدعوة إلى توبتها وعودتها إلى الاحتماء بالله وطاعته، وإلى رعايتها وإصلاحها بإلقاء المسؤولية الكبرى على المجتمع الذي يساهم في إسقاطها أو السمو بها.

وفي قصيدة " دمعة بغي" يروي قصة سقوط هذه المرأة في الخطيئة بعد أن كانت عفيفة طاهرة، ريفية ساذجة، عصفت بها الظروف القاسية إلى المدينة.وفيها كانت البداية المؤلمة والخسيسة، وعلى لسان هذه البغي، يقول :

---

(1) يقول في مقدمة القصيدة: عام 1950م مع الحفلات الراقصة باسم البر .

(2) نار وأصفاد-ص76-77.

(3) المصدر نفسه-ص77.

واها على دُنْياي.. ما صنعتْ - بالحُسْنِ في كَفِّ الصّبا الفَاني ؟!
فَتكتْ بِعِصْمَتِهِ.. وَلَوْ عَدَلَتْ - فتكتْ بِقَلْبِ الآثِمِ الجَاني...
عَصَفَتْ بِي الأَرْزَاقَ مِنْ بَلَدِي - فَتَرَكْتُهُ، واخْتَرْتُنَا وَطَنِي
كَوْخِي الجَمِيلُ وَمَلْعَبِي وَدَدِي[1]- وَمِراحِي المَحْبُوبُ وَحُزْنِي[2]

ثم يصور حياة المدينة التي كانت من أسباب سقوطها الأخلاقي، ففيها الحجاب والستر ممزق، مهتك والفضيلة ذليلة تحت ربقة الغواية واللهو، والحب والهوى بين الرغائب والكؤوس:

وَنَزَلْتُ فِي بَلَدٍ شَهِدْتُ بِهِ - قُدْسَ الحِجَابِ مُمَزَّقَ السِّتْرِ
مَشَتْ الفَضِيلَةُ مِنْ كَوَاعِبِهِ - مَشْيَ الذَّلِيلِ بِرِبْقَةِ الأَسْرِ...
تَسْرِبْنَ وَالأَحْسَامُ عَارِيَةٌ - تَغْرِي بِحُسْنِ القَدِّ وَالقَامَةْ
فَضَحَتْ مَعَاطِفَهُنَّ أَرْدِيَةٌ - كَحَبَائِلِ العَسَّادِ.. تَمَّامَةْ
وَشَبَابُهُ غَالٍ.. فَسَتَارَاهُ - مِنْ عَيْشِهِ لَهْوٌ وَتَغْمِيلُ
سَلَبَ الأُنُوثَةَ مِنْ عَذَارَاهُ - وَمَشَى عَلَيْهِ العَارُ مَسْئُولُ
وَالحُبُّ.. مَا أَدْنَى رَغَائِبَهُ - بَيْنَ الكُؤُوسِ وَرِنَّةِ الوَتَرِ
فَإِذَا الهَوَى يُرْجِي ذَوَائِبَهُ - كَانَ العِفَافُ لِبَابَةَ[3] الوَطَرِ[4]

ويضعنا الشاعر أمام إمرأة نادمة أكثر مما يصورها المذنبة تعترف بالخطإ الشنيع، وتندم على الإثم الذي وقعت فيه،على الرغم من الظروف التي أحاطت بها، وتصور بشاعة الرجس والفجور الذي دنست به عرضها وعفافها، وامتثلت أمامها بمرارة صورة الوردة الجميلة التي تقتطف وتشم منها الرائحة العبقة لمدة قصيرة،ثم تلقى في التراب كشيء حقير-إنها أبلغ صورة لتصوير ندمها :

وَرْدٌ جَنَاهُ المَرْءُ مِنْ كَمَدٍ - وَاسْتَافَ مِنْهُ الرُّوحُ لِلْقَلْبِ
حَتَّى إِذَا ضَوَّعَ مِنْ شَمَمٍ - أَلْقَاهُ مُبْتَذَلاً فِي التُّرْبِ
وَيُقَالُ فِي حُكْمِ الهَوَى:سَقَطَتْ - وَنَعَمْ !وَلَكِنْ مِنْ خِدَاعِكُمُ
لَوْلاَ أَذَى الإِنْسَانِ مَا حَمَلَتْ - إِثْمَ الهَوَى عَنْرَاءُ وَيْحَكُمُ ![5]

بهذا الندم والاعتراف ومحاسبة النفس الشديدة، استطاع الشاعر أن يسمو بإنسانية المرأة حتى في سقوطها، وهذا التصوير لمراحل سقوطها وندمها يؤدي بالضرورة إلى الاصلاح والتهذيب الروحي الذي يمنع أي امرأة

---

(1) وددي : الدد : اللهو واللعب.
(2) أغاني الكوخ-ص118-119.
(3) لبابة : حالصة . اللباب : حالص كل شيء .
(4) المصدر نفسه-ص120-121.
(5) المصدر نفسه-ص122-123 .

من الدخول إلى هذا العالم الوضيع من الحياة،واتخاذ الشاعر صريقة الذم والتحقير في ثوب الاعتراف والندم حتى يتم الإقناع بالهداية والإصلاح، لأن أسلوب النقمة والقدح والهجاء والسب السافر والحط من وجود هذه المرأة، قد يؤدي بها ضعفا وجهلا وهروبا إلى عدم التورع عن تغلغلها في الرذيلة والفاحشة،وتذمير حياتها وحياة مجتمعها،مادامت تعيش التحقير والتهميش والتبرإ منها قبل فتح مجالات تحقيق سبل عيشها ورزقها. وهذا في نهاية القصيدة يشير باهتمام إلى إرجاع المسؤولية إلى المجتمع الذي ساهم في ظهور هذه النماذج النسائية بتفريطه في حرمانها، وعدم رعايتها ومراقبتها أخلاقيا، وعدم الدفاع عن حقوقها ومثلها الاجتماعية. ويشير كذلك إلى الرجل باتهامه المباشربإسقاط هذه المرأة،التي يلجأ إليها لتلبي له بعض من رغائبه الجامحة،ثم يرميها احتقارا وإذلالا.

وفي قصيدة أخرى "هكذا قالت بغي " يتقمص من البغي بدنها وروحها، ويتحدث على لسانها بعد أن حير دروب نفسها، وسلك ما توعر منها واستكنه ما خفي من أحاسيسها، ومارق من مشاعرها، ويخبرنا بأن الرق الذي ذابت قيوده، لا يزال حديده يتضرم على جسد تلك البغي... وما ساقها إلى هذا المصير المتردي والواقع المحزي سوى القوت الذي لم تكد تخرج في طلبه حتى جذبت طلاب الشهوة.>>(1) ولم يجد أمام هؤلاء الذين أحلوا شبابها على المفاسد،وقد حرمه الله إلا ليؤكد اتهامه لقطاعة آثامهم وأوزارهم بعد أن أغرقوها في الرذيلة، ولم يجد أمامها وقد أصبحت غارقة في الأوحال حتى النؤابة، إلا أن يجعلها تشعر بقوة الندم فتتمنى الموت حينا، وتطلب المغفرة والعفو حينا آخر..

وكأن بالشاعر قد فتح أمامها أبواب التوبة، السبيل الأخلاقي والروحي للكف عن الخطايا، والعودة إلى الله، والحذر من الدنيا والاعتبار منها:

وَايْسِ يَا دَهْرُ وَكَفْكِفْ مِنْ ضُرُوبِي وَأَنِينِي
طَالَ بِالْعَارِ عَلَى الدُّنْيَا وَقُوبِي لَا تَلُمْنِي
وَخَبَتْ مِنْ حِزْيِهَا تَحْتَ شُغُوبِي نَارُ حُزْنِي
مَا الَّذِي فِي زَلَّةِ الْجِسْمِ الضَّعِيفِ كَانَ مِنِّي
بِعْتُ عِرْضِي يَا إِلَهِي بِرَغِيفٍ، فَاعْفُ عَنِّي(2)

وإذا كان شاعرنا قد صنف مع مجموعة من الشعراء الوجدانيين أو الأبوليين المتعاطفين مع هذه المرأة البغي(3). إلا أننا نلاحظ اختلافا في النظر إلى قضية أو وضعية هذه المرأة. هناك من بدت مواقفهم خوفا متناقضة هزيلة، وحذرة، وممزوجة ببعض الرثاء وبعض القسوة عليها، لأنهم ساهموا في إيجاد هذا النموذج النسائي، وخاضوا تجارب البغاء في المحادع والملاهي. وهذا حاولوا معالجة وضعيتها بفلسفة

---

(1) محمد سعد شتوان-مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث- ص222.

(2) مجلة الرسالة-مج16- ع260-1938م-ص1071.

(3) محمد سعد شتوان- مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث-ص220-221.

رومانسية خارجة عن مفهوم الاصلاح الاجتماعي أو الديني، مثل إبراهيم ناجي في قصيدته " قلب راقصة" << التي يحدثنا فيها عن ذهابه وهو في قمة الضيق والسأم إلى ملهى يباع فيه اللهو مغمور بالأضواء، مزدحم بالرواد من السكارى والمجانين، وهناك يقف عن كثب من تلك الراقصة التي تبيع الهوى والفجور والإثم في سوق الرذيلة، ويتقدم إليها وأبدى إعجابه الشديد بها وطلب إليها أن تشاركه كأسين من الخمر، ولكنها اعتذرت وامتنعت ووعدته بلقاء في الغد،تشرب معه ويعم هو بوصالها... وعندما تجلس إليه يحس بأنها بائسة مثله، ويستزيدها الشاعر حديث السقم والوصب.>>[1]، إذ يقول :

هَاتِي حَدِيثَ السَّقَمِ وَالوَصَبِ - وَصِفِي حَقَارَةَ هَذِهِ الدُّنْيَا

إِنِّي رَأَيْتُ أَسَاكَ عَنْ كَثَبٍ - وَلَمَسْتُ كَرْبَكِ نَابِضًا حَيَّا

لاَ تَكْتُمِي فِي الصَّدْرِ أَسْرَارًا - وَتَحَدَّثِي كَيْفَ الأَسَى شَاءَ

أَنَا لاَ أَرَى إِثْمًا وَلاَ عَارًا - لَكِنْ أَرَى امْرَأَةً وَبَأْسَاءَ[2]

يبدو محمود حسن اسماعيل أكثر واقعية وإنصافا لهذه المرأة حيث يرجع المسؤولية الأولى إلى المجتمع، الذي بإمكانه الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي بتحديد مكانة وعلاقة كل من الرجل والمرأة ببعضهما البعض هذا التحديد الذي لا يحيد عن النطاق الشرعي في الحياة. كذلك أبدى تعاطفا معها دون نوازع وتجارب شخصية وعاطفية تتحكم فيه،بل منحها إمكانية التراجع عما هي فيه بالتوبة والعودة إلى الله، والارتداء بأثواب الفضيلة مرة أخرى وهي أنجع الوسائل في نظر الشاعر.

2-المنظور الوجداني :

أدى الجانب الديني والأخلاقي والاجتماعي في توجيه الرؤية الوجدانية والجمالية للمرأة دورا كبيرا في الآداب العربية على مر العصور، حيث كان موضوع المرأة والجمال والغزل والحب في بعض الأشعار طريقا إلى السمو والطهر والفضيلة، وإن تزامنت -بالطبع- مع أشعار أخرى، كان ذلك الموضوع هوى من الأهواء، ومجلبة للشرور والآثام، ونزوعا بالمرأة إلى الحضيض والرذيلة والإباحية.

وبعد تأليف الإسلام لجوانب الحياة الإنسانية كلها من عقلية وإرادية وعاطفية ونفسية، استهدفت طمأنينة الإنسان وسعادته الداخلية والخارجية على السواء. تجلى موقف الحياة الإسلامية من عاطفة الحب << فهي لم تقصد إلى أن تكبت هذه العاطفة في نفوس العرب،ولم تحاول كذلك أن تنتزعها من نفوسهم. وإنما كان أمرها هنا أمرها في العواطف الأخرى، أن تسمو بهذه العواطف،وأن تطامن من كبريائها وأشرها في الجاهلية، وأن تمسك بزمامها،فلا تترك انطلاقها وتمددها على حساب العواطف الأخرى.>>[3]

---

(1) أحمد سعد فتوان-مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث-ص223 .

(2) ديوان ابراهيم ناجي-دار العودة- بيروت- 1980م- ص28-29.

(3) د/شكري فيصل-تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام- دار العلم للملايين-بيروت-ط6-1982-ص212.

ويعد بذلك الإسلام عاملا تاريخيا لنشوء العذرية في الشعر العربي المتصدية للإباحية . هذه العذرية التي أرجعها بعض الدارسين إلى نوع من القسر والقمع، والكبت والضغط للطبيعة والفطرة الإنسانية الذي فرضه وضع تاريخي معين، وكان مسؤولا على إفراز الخط العذري أو الروحاني في الغزل العربي،بخاصة إبان العصر الأموي[1].

وإن خضعت بعض هذه الدراسات لتصورات قاسية في أحكامها وخاطئة في عرض إشكاليتها،إلا أنها أقرت من باب إقرار جزء من الحقيقة،وإن كان فيها رفض وعدم اقتناع بها أن العذرية << ليست مجرد وجع ينتجه الحرمان الصادح للروح، بل نتاج وجع أو حطر موجع، يحاول إعادة صياغة الهوية الإنسانية المتجهة نحو التمزق والانسراب في مجاري التاريخ البتة، فالعذرية بهذا تتوافق مع التربية الإسلامية التي كانت تسعى نحو الارتقاء بالهوية إلى مراقي الإنسانية.>>[2]

ما يهمنا من هذا النص هو إظهار علاقة العذرية بمحور التربية في الإسلام وترعرع الحب العذري في حضنه على التأمل العاطفي والسمو الروحي، وعلى العفة والنقاء الشعوري.

كما أننا نرد على ادعاء الحجر الإسلامي على العواطف،ما يراه محمد قطب أن << العواطف ليست حراما في الإسلام، عواطف الإعجاب والحب، وما يصحبها من أفكار وأعمال وسلوك، وإنما الحكم عليها هو الحكم على أي عمل آخر وكل شعور. الحكم المستمد من الناموس: هل تؤدي الدور الذي يتفق مع فطرة الكون أم تنحرف عن الطريق.>>[3].

وباستقراء الزمن الشعري للحب العذري، نرى نوعا آخر سما بالحب الحسي الذي يتجه إلى الحب الروحي، الذي وجهته ذات الحق، والذي سما بعدها إلى الحب الإلهي، وأصبح الحق كما يصوره الشعراء الصوفيون المحبون، هو الجمال الأزلي المطلق، المعشوق على الحقيقة في كل جميل.[4] ومن هذا التصور بدت المرأة في الشعر الصوفي،رمزا موحيا دالا على الحب الإلهي في معظم الأحيان.[5]

وظلت هذه العذرية والروحانية والصوفية حلقةمتصلة في الزمن الشعري،وتطورا للمذهب العذري في أدبنا العربي إلى المذهب الرومانتيكي بنوازعه وخصائصه الذي ظهر في أوربا، كما ذهب بعض النقاد ومؤرخي الأدب إلى تأكيد هذا التأثر، لأن الحب عند الرومانتكيين فضيلة لتطهير النفوس وصفائها، كما أن السمو بالعواطف والصدق فيها أدى إلى نوع من التقديس للمرأة والإشادة بها والخضوع لسلطانها.[6]

---

(1) انظر-يوسف اليوسف-الغزل العذري-دار الحقائق-بيروت-ط2-1982-ص10 وما بعدها.

(2) يوسف اليوسف-الغزل العذري-ص195.

(3) محمد قطب-منهج الفن الإسلامي- ص108.

(4) محمد عبد المنعم خفاجي-الأدب في التراث الصوفي-ص203-204 .

(5) انظر-عاطف جودة نصر-الرمز الشعري عند الصوفية-ص62 وما بعدها .

(6) محمد غنيمي هلال-الرومانتيكية-ص188-190.

ومهما يكن من أمر التأثر عند بعض المحدثين، فإن هذا لا يجعلنا ننفي عدم تأثرهم بالتيار العذري الأصيل الذي يحمل قيما متفردة في الطهر والحياء والعفة والتسامي في المشاعر نحو المرأة. وأي التيارين أقرب إلى نفوس بعضهم التي تحمل قيم وأخلاقيات أمتهم سوى التيار الإسلامي العربي لا الغربي ؟ ألا نستطيع أن نلقب في هذا المجال بعض الشعراء المعاصرين الذين اصطلح عليهم بالرومانسيين أو الوجدانيين بالعذريين ؟ كاصطلاح لابد أن يتحدد مع أي عصر أدبي، توجد فيه عاطفة الحب تجربة روحية ترتبط بمعاني الطهارة، والتعفف، يسمو الشاعر فيها بخياله إلى عالم نوراني من الأحلام متخذا من حبه مجرد إلهام لموهبته وحافزا لوجدانه، ليرقى إلى ما يستطيع من رحاب الروح والفن ويخاطب فيها مثالا ساميا، خالصا من أدران الحياة وأطماعها، ووجودا مطلقا غامضا هو وجود المرأة التي يرجو أن تمتد إليه كاليد الرحيمة لتنتشله من وهدة الحياة وآثامها... ويعيش الصراع والمعاناة، الرغبة والطهارة، الواقع والمثال،من أجل تحقيق تجربة الخلاص التي تعني الانسلاخ من إلف الواقع إلى حدة المثال، ومن نوازع الجسد إلى أشواق الروح.(1)

وكان محمود حسن اسماعيل، الشاعر الوجداني أو العذري، عبر عن هذا التسامي بهذه الآفاق الروحية التي يرقى إليها وجدان الحب، التي امتزجت في أعماقه بعناصر الطبيعة والمجتمع والنفس، وخلعت عليها أجواء من القداسة والدين والعبادة. وأكدت أشعاره مقولته التي صدّرها في إحدى قصائده الوجدانية << الأنوثة حياة عذرية سامية، مفعمة بالسحر والفتنة والجنون الروحي الغامض، وهي رحيق معنوي يترعه الجمال للعاشق، فيغمره الذهول والتلاشي المادي بين حبيبته... وعسير على النفس أن تسعد بهذه الحياة إلا إذا تمحضت للطهر،وفنيت مشاعرها في تقديس الجمال.>>(2)

لقد سما الشاعر بمثال الأنوثة المطلقة، واتسعت آفاق غزله لتشمل سر وجود الكون والوطن، وارتفع بالمرأة أحيانا إلى درجة التقديس،واقترابه من حب الصوفيين. وفي أكثر الأحيان الشعرية أفصح عن حب عذري متسام، بحياء ووفاء وصدق وابتعد عن مفهوم الحب الحسي اللاهي وتشده الأنوثة المطلقة، ولا يستحضر أوصافها المادية ولا صورها الحسية، حتى وإن جاءت بعض هذه الصور في سياقه الشعري، فإنما ليؤكد معنى روحيا. ففي قصيدة "لحن الأنوثة" يسمو في وصف جمالها الجسدي بشاعريته العذرية إلى جمالها الروحي بحيث يجد النور والإلهام والقداسة، ويعلو بها عن مسابيح الآدميين الآثمة، ويمزج جمالها الأنثوي بجمال الطبيعة وصفائها،وبقيم العفة والطهارة والعذرية، وسبحات الصوفيين في عالم من الروح والقداسة. ونحب روحي يمسح عنه الضنى والأسى :

حَلاَلُ الأُنُوثَةِ فِي طُهْـــــرِهِ - بَعِيدَ المَدَى مُسْتَحِيلُ الطَّلَبْ...
سَمَوْتُ إِلَى عَالَمِ أَقْـــــدَسٍ - أَتِيهُ بِهِ فَوْقَ هَامِ السُّحُبْ
يُلاَطِفُنِي فِيهِ طَيْفُ الهَـــوَى - وَيُشْرِقُ لِي فِي ظِلاَلِ الرَّهَبْ(3)

---

(1) عبد القادر القط--الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر - ص289-290 .

(2) أغاني الكوخ ص130 .

(3) المصدر نفسه - ص135.

وَتَمْسَحُ مِنْ شِقْوَتِي فِي الحَيَـاةِ - ظَلامَ الأَسَى، وَالضَنَى، وَالتَعَبْ

وفي قصيدة أخرى " أنت دير الهوى، وشعري صلاة"، تتجلى الملامح الروحية للمرأة عند الشاعر وصورتها العذراء العفيفة، الطاهرة، العابدة، المؤمنة، الوفية، حيث تجذبه ملامحها الجسدية إلى سمات الأرض الجميلة الطاهرة فهي نبع، وواحة، وزهرة، وطيف، ولحن، وفجر... ويسمو بها نحو السماء الإلهية فهي آية من الله، وصلاة وخلود، وتوبة ورحمة، وخشوع وتضرع، وعفة ووفاء..وتتمثل له في النهاية صورة مريم-عليها السلام-نموذج جمال المرأة الروحي والأخلاقي،التي منحت أمثلة خالدة في العفة والطهر والعذرية والصلاة والتبتل، يقول :

أَقْبِلي كَالصَلاةِ رَفْرَفَها النَسْـ - ـكُ بِمِحْـرَابِ عَابِدٍ مُتَبَتِّـلْ
أَقْبِلي آيَةً مِنَ اللهِ عُلْيَـا - رَفَّهَا لِلْخُلُـودِ وَحْيٌ مُنَزَّلْ
أَقْبِلي فَالجِرَاحُ ظَمْأَى وَكَأْسُ الـ - ـحُبِّ تَكْلَى والشِّعْرُ نَايٌ مُعَطَّلْ
أَنْتِ لَحْنٌ عَلَى فَمِي عَبْقَـرِيٌّ - وَأَنَـا فِي حَدَائِقِ اللهِ بُلْبُـلْ
أَنْتِ نَبْعِي وَأَيْكَتِي، وَظِلالِـي - وَخَمِيلِي وَحَقْلِي المُتَهَلِّـلْ
أَنْتِ لِي وَاحَةٌ أَفِيءُ إِلَيْـهَـا - وَهَجِيرُ الأَسَى يَخُبُّ مُشْـتَعِلْ...
أَنْتِ فَجْرِي عَلَى الحُقُولِ..حَيَاةٌ - وَصَلاةٌ وَنَشْوَةٌ وَتَهَـلُّـلْ
أَنْتِ تَغْرِيدَةُ الخُلُودِ بِـأَلْحَـا - نِي وَشِعْرُ الحَيَاةِ لَغْوٌ مُهَـلْـهَلْ
أَنْتِ طَيْفُ الغُيُوبِ رَفْرَفَ بِالرَّ - حْمَةِ وَالطُّهْرِ وَالهُدَى وَالتَبَتُّلْ
أَنْتِ لِي تَوْبَةٌ إِذَا نَزَلَ عُمْـرِي - وَصَحَا الإِثْمُ فِي دَمِي وَتَمَلْـمَلْ
أَنْتِ لِي رَحْمَةٌ بَرَاهَا شُعَـاعٌ - هَلْ مِنَ أَعْيُنِ الشَمَا وَتَنَـزَّلْ
أَنْتِ لِي زَهْرَةٌ عَلَى شَاطِئِ الأَحْـ - ـلامِ تَرْوِي بَهْجَتِي وَتَظَـلَّلْ...
وَاحَةٌ لِلْـجَمَالِ قَلْبِي فِيهَـا - مِنْ أَسَى الدَّهْرِ نَاسِكٌ مُتَغَزِّلْ
عَلَّمَتْنِي ظِلالُهَا كَيْفَ أَنْسَـى - صَخَبَ الهَمِّ وَهْوَ عَصْفٌ مُزَلْزِلْ
وَلَكِ العِفَّةُ الَّتِي عَادَ مِيـهَـا - مَرْيَمِيَّ السُّتُورِ فَوْقَكِ مُسْـبَلْ
وَلَكِ الحُبُّ سَاعِدِي فِي وَغَى الأَيَّـ - ـامِ وَالقَلْبُ وَهْنَانُ أَعْـزَلْ(1)

فالشاعر لا يستهويه سوى جمال الروح السامي، ولم يبالغ في ذلك لأنه يعلم أنها كالناس من ماء ومن طين . وإنما يريد أن يبرز صورة المرأة الحقيقية،والتي قد تبدو صورة مثالية، ولكنها واقعية في مفهوم الشاعر،وقد تراءت له صورة مريم المؤمنة التقية العابدة، وغيرها من الصور النسائية التي تتراءى في المفهوم القرآني،وتتجسد نابضة بالحياة الروحية السامية :

---

(1) هكذا أغني-ص72-79.

مَاذا جنيتُ وروحي في طهارتِـها - أزكى لحُبِّكِ مِنْ طِيبِ الرَّياحيـنِ؟
نَسَجْتُ حُسْنَكِ رُوحًا سَامِيًا ألقًا - وكُنْتِ كالنَّاسِ مِنْ ماءٍ ومِنْ طِينِ
خَلَّدْتُهُ بأغَارِيدِي، وَرُحْتُ بِـهِ - أرْمِي عَلَى كُلِّ فَتَّانٍ ومَفْتُـونِ(1)

وهذا الجمال مصدر خصب يستمد منه الشعر والحلم، والتوبة والهداية والجمال، والحب والحياة، والأرض والوطن... ولهذا فهو يعلن بافتخار،وعلى استحياء،حبه لها العفيف والطاهر. المرأة التي يحبها الشاعر لا تبعث جاذبيتها على الغواية والإثم، والشهوة، والخطيئة، إنما تبعث جاذبية فيها نور وسر، وجمال غامض وآسر وخاشع، يستمد منه حب الله والحياة والجمال والوطن، يقول :

مَنْ رَاحَ يَغْـوِيهِ الجَـمَالُ فَإنَّـنِي - أُهِمْتُ مِنْـكِ هَدَايَـنِي وَضَوَايِي...
قَدَّسْتُ فِيكِ الشَّرْقَ فِتْنَةَ مَنْظَـرٍ - وَجَـلَالَ يَمَنٍ وَقُدْسَ حَتَّـابِ(2)
مَـا لَيْلُ ؟ مَا مَاءُ الحَيَاةِ بِهِ ؟ إذَا - أجْرَى الْـهَوَى مِنْ فِيكِ شَهْدَ رُضَابِ
مَا نَفْحَةُ الغُولِ المُنَوَّرِ فِي الضُّحَى - إنْ فَاحَ زَهْـرُ غَيْهَكِ السَّوْثَابِ...
لَوْلاَكِ مَا أحْبَبْتُ مِصْرَ وَلاَرْتَـا - طَرْبِي لِرَوْعَـةِ نِيلِهَا السَّكَّـابِ
وَلَمَا هَتَفْتُ لِـرِيفِهَا بِمَلاَحِـنِ - فَصَحَتْ هَـزَارَ الرَّوْضَةِ المِطْـرَابِ(3)

وفي كل قصيدة يخاطب فيها الشاعر المرأة التي يحبها،تتوارد معاني الجمال والنور والإلهام والشعر والوطن. ويتطور هذا الشعر العذري ليسمو أحيانا في حبه إلى مقام العبادة،ويقترب من الصوفيين بتوظيف بعض دلالتهم ورموزهم.فهو عابد يقف في محراب العبادة، يرتل من العشق الروحي، وحبيبته هي المعبود الطاهر الذي يتجه إليه بقلبه وروحه، ويتغنى بذكره وتقديسه مادام يرى ويؤمن بأن الله قد فجر حسنها بفتونه وجلاله، وعليه أن يعبد هذا الحسن الذي هو ضياء ونور يرفرف على روحه، ويبعد عنه كونها المجسم:

أنْتِ فِي الصَّمْتِ آيَـةُ فَجَّرَ اللَّـ - ـهُ عَلَيْهَا مِن الجَلاَلِ مَعِينَهْ
بَيْتُ شِعْرٍ عَلَى جَبِينِكِ غَـافٍ - أيْقَظَ الصَّمْتَ سِرُّهُ وَفُنُونَهْ
وَفُـؤَادِي الذِي تَكَشَّفَ نَـحْوًا - هُ، وَذَرَّى عَلَى الخَيَالِ دَفِينَهْ
وَعَلَى الأعْـيُنِ السَّوَاجِي صَـلاَةٌ - أنَـا مِنْهَا فِي خَشْعَةٍ وَسَكِينَهْ
مَـا لِسَتَّاكِهَا وَجُـودُ وَلَـكِنْ - عَـابِدُ الحُسْنِ، وَحْدَهُ تَعْرِفِينَهْ...
وَالحَيَى كَوْنُكِ المُجَسَّـمُ، إلاَّ - قَبَسًـا مِنْ صَبَابَةٍ تُشْعِلِينَهْ
رُحْتِ تُذْكِينَهُ مِنَ النَّظَرِ السَّـا - هِي وَفِي مَعْبَدِ الهَوَى تُضْرِمِينَهْ!
رَحْمَةً بِالحَبِيبِ يَا هَالَةَ الوَحْـ - ـيِ، وَرِفْقًا بِتِيكَ يُشْنِي عُيُونَهْ(4)

---

(1) هكذا أغني - ص 31-32.

(2) حباب : حصيب .

(3) أغاني الكوخ - ص 43-46 .

(4) هكذا أغني ص 60 63.

فهذه المرأة التي تجمع الجمال والضياء والطهر والرقة والوداعة والقداسة، هي لا بد أن تكون ملاكا في رؤية الشاعر، يحفها موكب ملائكي سماوي، حيث ربى الخلد ولمسة الإله، وسجود الملائك، وصلوات النجوم، وطهر المهاد. أو تكون نبية الحب لأنها ترتدي أثواب العذرية والعفاف والصون والستر، والصدق واليقين، يقول في قصيدة "الملاك النائم" :

حِينَمَا تَهْجَعِينَ فِي مَهْدِكِ الطَّاهِرِ - وَالسُّحْرُ مُنْعَبٌ فِي جُفُونِكْ
حِينَمَا يُصْبِحُ الْمِهَادُ حَمِيلاً - فِي رُبَى الْخُلْدِ زَهْرَةً فِي يَمِينِكْ
حِينَمَا يُسْبِلُ الإِلَهُ عَلَى وَجْهِكِ - سِتْرًا يَصُونُ طُهْرَ جَبِينِكْ
حِينَمَا تَسْجُدُ الْمَلاَئِكُ حَوْلَكْ - حَيَاءً وَهَيْبَةً مِنْ فُتُونِكْ(1)

وإذا فكر لحظة في اللقاء بها ورؤيتها، رفرفت بينهما الأستار، وبدت من بعيد متسترة متحجبة، وعلى الرغم من شعوره بالحرمان والشوق والعذاب فإنه لا يبكر تسترها وعدم تكشفها أمامه، لأنه أمر عادي في بيئته الريفية التي تسودها الحشمة والعادات الإسلامية المحافظة التي تمنع سفور المرأة وظهورها ومخالطتها للرجال حتى تمنع أي غواية أو فجور، ولا تمنع طرقا أخرى مشروعة لتحقيق هذا الحب العفيف وهو الزواج- ولأنه أمر تعبدي لا يمكن أن تظهر المرأة بمفاتنها ودون حجابها. وفي ذلك يقول تعالى ﴿ **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُل لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ، وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا.** ﴾(2).

ولهذا فالشاعر يعبر عن ارتياحات هذا الستار المسدول بينهما في قصيدة " من لهيب الحرمان "، والذي حقق لقاء آخر طاهرا وعفيفا، يقول على لسان هذه المرأة التي تشاركه نفس الإحساس العذري :

أَسْدَلَتْ سِتْرَهَا وَقَالَتْ رُوَيْدَا - عَابِدَ الْحُسْنِ وَاتَّئِدْ فِي صَلاَتِكْ
غِبْ قَلِيلاً عَنِ الْعُيُونِ، وَانْشُدْ - خَفَقَاتِ الْغَرَامِ فِي خَلَوَاتِكْ
إِنْ هَمْسًا يَرِفُّ فِي سَاحَةِ الْمَعْـ - ـبَدِ أَحْنَى ذُيُوعَهُ مِنْ وُشَاتِكْ
غِبْ قَلِيلاً وَفِي دَمِي لَكَ عَهْدٌ - أَنَا وَالْحُبُّ وَالْمُنَى لِحَيَاتِكْ(3)

ويجيبها الشاعر معبرا لها عن شوق وظمأ روحه، ليرفع هذا الستار، ويفصح شعره عن كونه المتسامي من ضياء وجهها ووحي عينيها :

آهِ يَا زَهْرَتِي، لَقَدْ شَفَّ رُوحِي - ظَمَأٌ مُحْرِقٌ إِلَى نَفَحَاتِكْ
فَارْفَعِي السِّتْرَ بَيْنَنَا، وَدَعِينِي - أَتَحَسَّى الضِّيَاءَ مِنْ هَالاَتِكْ
وَمِضِي مِنْ لَحْظِ عَيْنَيْكِ سَاجٍ(4) - فَحَرَ الْوَحْيُ مِنْ سَنَا لَحَظَاتِكْ

---

(1) قاب قوسين- ص166 .

(2) النور- 30-31 .

(3) هكذا أغني- ص9-10.

(4) ساج : ساكن: من سجا البحر والليل، أي سكن وهدأ.

تَهَلَّلَتْهُ عَيْنَايَ، فَانْسَابَ شِعْرًا ... عَبْقَرِيًّا يَفِيضُ مِنْ نَظَرَاتِكْ(1)

على الرغم من أن الشاعر حقق هذا الالتقاء الشعري والروحي، إلا أن الستار بقي مسدولا أمام أمنية اللقاء الواقعي،وهو الزواج :

وَهُنَا أُسْدِلَ السِّتَارُ وَزَنَّتْ ... خَفْقَةٌ خَفْنَا عَلَى أُمْنِيَاتِكْ(2)

وبقيت تراوده هذه الأمنية،خاصة بعد فراق مفاجيء، نكّب به منذ رحيله إلى المدينة، حيث استحالت حياته هناك بعد فراق حبيبته الريفية إلى عذاب نفسي وقلق ممض، وحنين إلى قصر عذرائه، ومهد حبه، وشط إلهامه فاستوقفته تلك الأستار بعد أن عصفت بقلبه عاصفة من الوجد الصارخ، وأصبح الشاعر يفكر بواقعية وجدية بعد فراقه لها وذهابه إلى المدينة، موطن طموحه وعمله، وبعد شعوره بالحاجة إليها من جراء غربته ووحدته ومشاهدته لنموذجها المثالي والأخلاقي يتلاشى في أجواء المدينة الخانقة المزيفة ولكي يحقق اجتماعه ولقاءه المقدس بهذه المرأة، راح يطالبها ويدعوها للزواج منه،أو حتى تنتظره ليتزوجها ويعيش معها حياة،هي سر السعادة والسكون والإلهام، مستمدا حكمة الله وفطرته التي مست كثيرا من أشعاره حول علاقته بالمرأة ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً.﴾(3)

وإذا أطلنا النظر في بعض أبياته عثرنا على فكرة الزواج، وإن كانت بأسلوب رمزي غير مباشر، حيث يصف لها حالته بين الحزن والتشرد والغربة

ويطلب منها أن تسرع إليه قبل أن تغيب الأماني، ويذهب عهد الشباب،وتموت الأغاني، وبعد أن كان صاحبا، صارما في مقاطع من قصيدة " الصاحب المحزون "، عاد إلى دعوتها بلين ورجاء وحكمة في قصيدته "اسرعي قبل أن تموت الأغاني":

سَلْسَلِي لَحْنَكِ الجَرِيحَ، وَهَاتِي ... رَجْعَ قِيثَارَتِي، وَنَجْوَى صَلَاتِي

طَالَ شَدْوِي حَيَالَ قَصْرِكِ شَوْقًا ... فَاهْتِكِي السِّتْرَ، وَارْحَمِي خَفَقَاتِي ...

أَسْرِعِي قَبْلَ مَا تَغِيبُ الأَمَانِي ... فِي دُخَانِ الهُمُومِ وَالحَسَرَاتِ

وَتَصِيرِينَ فِي الهَوَى قِصَّةَ الغَدْ ... رِ وَأُسْطُورَةً عَلَى نَغَمَاتِي

أَسْرِعِي قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ الأَغَانِي ... فَتُنَاجِينَ بَعْدَهَا مَرْثِيَاتِي(4)

ويدعوها إلى عش جميل وظليل فيه المنى والوفاء،وكل الروابط المقدسة التي سنها الله بين أي رجل وامرأة:

وَإِلَى عُشِّنَا الجَمِيلِ... فَفِيهِ ... هَزَجٌ لِلْهَوَى، وَظِلٌّ وَسَلْسَلْ

وَعَصَافِيرُ لِلْمُنَى تَتَغَنَّى ... بِالتَّرَانِيمِ بَيْنَ عَشْبٍ وَحَقْلْ

وَغَرَامٌ مُقَدَّسٌ كَادَ يَغْشَى ... نُورُهُ العَذْبُ فِي ضَمَانَا وَيُشْعِلْ

---

(1) هكذا أغني-ص 12-13 .

(2) المصدر نفسه -ص13 .

(3) الروم-21 .

(4) المصدر نفسه ص40-48 .

وَوَفَاءٌ يَكَادُ يَسْطَعُ لِلـــدَّنْـ - ـيَا بِشَرْعٍ إِلَى الْحَبِيبِ مُرْسَـلُ
أَقْبِلِي.. قَبْلَ أَنْ يَمِيلَ بِهِ الرَّيـ - ـحُ، وَيَهْوِي بِهِ الفَنَاءُ الْمُعَجَّلُ(1)

إلا أن المقدور حال دون تحقيق تلك الفكرة وتلك الأمنية (2)، وبقيت تلك المرأة التي أحبها ملهمته الخالدة التي أشعلت روحه بلهبها المقدس، وأحفت نورها عنه وراء الغيوب، وتركته يرتشف الإلهام حيث الظلال الشاعرة، والجمال العبقري والحب العالي عن مسابح الآدميين.(3)

وإن وصل محمود حسن إسماعيل في نظرته إلى المرأة إلى حد التقديس والعبادة، لم يضعها في مرتبة الألوهية، كما وضعها أبو شادي المعروف مثله باتجاهه الوجداني في كثير من قصائده (4) مثل ما يقول في قصيدته " الإله المتنكر "، حيث يجعل لفظة الإله موازية للمرأة :

هَذِي الأُلُوهَةُ اسْتَرَقَّتْ وَتَنَكَّرَتْ - فَبَدَتْ لَنَا فِي صُورَةِ الْحَسْنَاءِ
فَإِذَا عَبَدْنَاهَا فَلَمْ نَعْبُدْ سِـــوَى - رَبِّ الْحَيَاةِ بِـــرَمْزِهِ الْمُتَرَائِي(5)

كما أن معنى التقديس كان استيحاء من جمالها الروحي والأخلاقي، لا جمال جسدها الأنثوي.كتقديس أبي الشادي للجمال الأنثوي العاري المتحطر على شواطئ البحر والمرسوم على اللوحات الفنية والمنحوتة، على الرغم من ادعائه أن هذا التقديس الجسدي ليس دعوة للإباحية والتهتك ولكن دعوة للتذوق الفني والإعجاب الصوفي(6)، مثل شغفه بالجمال العاري على الشواطئ ، وشتان بينه وبين وصف شاعرنا لحاملة الجرة التي تجر رداءها الطويل نحو نهر النيل، يقول أبو شادي :

الآنَ أَرْفَعُ لِلْجَمَالِ صَـــلَاتِي - وَأَذُوقُ أَحْلَى الْحُلْمِ مِلْءَ حَيَاتِي
مُرِّي تَعَالَي يَا نَمَاذِجَ وَحْـــيِهِ - فِي لَوْنِكِ الْخُمْرِي بِالنَّفَـــحَاتِ
سِيرِي عَلَى حَطِّ الخَلِيجِ فَعِنْدَهُ - حَجُّ الْجَمَالِ يَثُوبُ عَنْ عَرَفَاتِ
سِيرِي مُوَزَّعَةً عَلَى أَنْفَاسِنَـــا - مَا شِئْتِ مِنْ رُوحٍ وَمِنْ آيَـــاتِ
مِنْ جِسْمِكِ الْمُتَمَوِّجِ الخَفَّاقِ مِنْ - حُسْنٍ وَمِنْ حُبٍّ وَمِنْ لَذَّاتِ(7)

وابتعد بذلك عن عبادة المعالم الجسدية للمرأة، وكانت عبادته للحسن وتوجهه لعبادة الحسن المتمثل في القيم الروحية والأخلاقية التي تعيشها، وفي الملامح الجمالية الممتزجة بجمال الطبيعة، والكون، وفي المشاعر الخالدة

---

(1) هكذا أغني -ص80.

(2) تزوج الشاعر فيما بعد من امرأة غير هذه التي تعلق بها، ومرت الأيام وقل إنتاجه الشعري فيها، وإن بقيت سر إلهامه وإبداعه حتى آخر حياته.

(3) عن إهداء ديوانه هكذا أغني.

(4) انظر-كمال نشأت-أبو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث-دار الكاتب العربي-القاهرة-1967م-ص332-337.

(5) أطياف الربيع-مطبعة التعاون-1933م-ص116.

(6) أبو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث ص340 .

(7) أطياف الربيع- ص191.

المرتبطة بحب الله والوطن والشعر.

واختلف بذلك عن أبي شادي وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي،وغيرهم من الشعراء الذين ينتمون إلى المذهب الرومانسي في الشعر، لكنهم يعيشون تناقضا سافرا بين الحب المادي والحب الروحي، وصراعا بين الروح والجسد، واضطرابا في ميلهم إلى اعتناق العشق الصوفي وفكرة وحدة الوجود التي تجعل المرأة رمزا للألوهية مثل كل عناصر الوجود الأخرى.

ولم يكن لمحمود حسن إسماعيل هذا الاضطراب والتناقض والصراع في رؤيته الشعرية للمرأة، بل كانت الأطر الدينية الإسلامية بأخلاقياتها ووجدانياتها،هي التي تحددها تحديدا يتسم بالوضوح والاعتدال والواقعية والمثالية في علاقته بالمرأة اجتماعيا ووجدانيا. ونالت بذلك المرأة تقديسا واحتراما وحبا نفتقده في كثير من الشعر المعاصر والقديم، الذي ابتعد عن خط الشعر العذري ونظر إلى المرأة بأبعادها الجسمية المادية، ويصفها كما يصف أشياءه الأخرى، دون محاولة سبر روحها، واستكناه عواطفها، بل بتحقيق مفهوم الجمال البيئي السائد في كل عصر،أو بتوارث تلك السمات الجسدية. وأصبحت مواضع لإثارة شاعرية متميّعة المعاني والأفكار والصور، تستعار في مقدمات القصائد العامة، وتدور معظمها في فلك التقليد وأغراض الغزل. بل تجاوزت بعض الأشعار الأعراف الأخلاقية في المجتمع العربي، وتمادت في تمجيد جمالها الحسي الذي يخدم غريزتهم إلى حد الانحراف والشذوذ والإباحية كامرئ القيس قديما،ونزار قباني المعروف بشاعر المرأة حديثا وغيرهما. إذ تتعدد النساء عندهم بتعدد تجاربهم وعلاقاتهم وأغراضهم، حيث اعتنقوا نزعة أبيقورية تعرض مفاهيم خلقية غير سوية، وتجعل من اللذة والمتعة فلسفة للحياة وهدفا للوجود الإنساني.(1)

لقد عارض الشاعر هذا الاتجاه العام في التعامل مع المرأة عاطفيا وفنيا(2)، لأنه أحب امرأة واحدة واستقر في الوفاء لحبها،ولم يعدد تجارب الحب والغزل مع غيرها، لأن المرأة التي اصطفاها فكره وقلبه، تشبه نماذج نسائية أخرى في مجتمعه هي المرأة العفيفة، المتحجبة، المتدينة، المؤمنة، المتهمة،.. التي يسمو جمالها عن أدران الواقع وحبها عن لحظات غريزية زائلة، ويمتد أثرها الشعوري إلى حب روحي، ولا يتاح للحب أن يسمو إلى هذه المنزلة، إلا إذا كان حبا عفيفا طاهرا، مبرأ من شوائب المادة، لأن الحب المادي لا يثبت أمام إغراءات الحياة، ونوازع الهوى، ولا يتخذ بذلك تلك المنزلة.وعلى الرغم من توظيفه للرموز والدلالات الصوفية أحيانا واستعانته ببعض رؤاهم، لم يصل إلى ما وصلوا إليه في الحب الإلهي عن طريق هذا الحب الإنساني، لأنه اتخذ سبلا أخرى للحب الإلهي(3). وتجددت عاطفته الدينية وتوجهه الروحي بتلك الدلالات والرموز التي منحه منزلة الحب الروحي، مستعينا ببعض صور ورؤى العذرية والرومانسية والصوفية والواقعية، التي كونت له رؤية مميزة شاملة للمرأة ذات بعد اجتماعي وأخلاقي، وعاطفي ووجداني.

---

(1) انظر-محمد عادل الهاشمي-الإنسان في الأدب الإسلامي-ص135-137.

(2) انظر-المدخل المحور المتعلق برؤيته الشعرية فيها تصور نقدي هام حول كيفية التعامل مع المرأة وإخلاء قيمتها في الحياة والفن وتجلي تصوره فيما بعد في شعره كما رأينا.

(3) انظر-فصل الرؤية الروحية-مبحث الذكر.

المبحث الرابع

ملامح المجتمع الإسلامي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لا شك أن حقيقة الروابط التي تحقق التجمع الإنساني في التصور الإسلامي ليست هي الجنس ولا اللون، ولا الطبقة، ولا الأرض، ولا المصالح المادية، ولا الاعتبارات الزائلة، إنما هي العقيدة التي تسير الحياة الإنسانية، وتبتليها، وتمنحها في كل خير و شر، وفي كل نعمة وضر ، وأن مرد الأمور كلها إلى الله.(1)

وهذا التصور الإسلامي ليس تصورا سلبيا يعيش في عالم الضمير، قانعا بوجوده هناك في صورة مثالية نظرية، أو تصوفية روحانية، إنما هو تصميم لواقع مطلوب إنشاؤه وفق هذا التصميم. وليس الأمر مجرد مشاعر، إنما هو مشاعر تفرغ في حركة لإنشاء واقع وفق التصميم والتصور الإسلامي للحياة.(2)

إن هذا التصميم الذي يضعه للحياة البشرية يحمل طابع الواقعية، لأنه قابل للتحقيق الواقعي في الحياة الإنسانية. ولكن في الوقت ذاته واقعية مثالية،أو مثالية واقعية لأنها تهدف إلى أرفع مستوى، وأكمل نموذج يملك البشرية أن تصعد إليه.(3)

ولا ريب أن إحدى الخطوات العظيمة التي حققها الإسلام هو إيجاد النظام الدقيق المعجز الذي يحدد هذه العلاقات الخارجية، ويقدم للمجتمع الإنساني ضمانات رائعة للأمن والاستقرار في شتى صوره، ويسد المنافذ على كل ريح تحمل لهذا المجتمع المنتج سموم الفوضى والخوف والقلق، الذي لا ينجو منها أي نظام آخر. إن الدعوة إلى رسم معالم صورة المجتمع الإسلامي، لا تعني الحجر على سلوك الناس وضبطهم في قوالب مسبقة، وإنما هي دعوة لتوضيح الأبعاد التي يتيحها الإسلام لحركة الإنسان داخل نفسه ومجتمعه تقوم على منطق تنظيمي معجز، يهدف إلى وضع كل إنسان في موضعه الصحيح الذي ينسجم وإمكانياته وتطلعاته.(4)

ومن هذا المنطلق الإسلامي، راح الشاعر يبحث عن ملامح المجتمع الإسلامي الذي يراه بتطور رؤيته الاجتماعية مواكبا لدعوته إلى العمل الشريف والعدل والتكافل الاجتماعي والقيم الأخلاقية النبيلة، وانتقاده لفئات اجتماعية من انتهازيين ومرابيين، ومتاجرين بالكلمات والشعارات، وإصراره على كشف أقنعتهم ونواياهم، وانتقاده لكثير من العادات والأخلاقيات أيضا.

وراح يرسم المثل الأعلى للمجتمع الجديد الذي يصبو إليه في قصيدة " عاشقة العنكبوت"، التي كانت خطابا لأي نفس تعشق هذه الدنيا الواهية، وتتشبث بماضيها المظلم والزائل(5). إلا أن الشاعر أراد أن يحقق من خلال رؤيته الروحية طابعا اجتماعيا،ويخلق من فكرة الفوات والزوال كثيرا من القيم الاجتماعية الخالدة، ويعد كل ما يعلق بهذه الدنيا أي عبث أو شر أو رذيلة... حتى يسفر عن مجتمع الحب والإخاء والوئام والصبابات والمسرات والخيرات، وتكون لها في النهاية قيم الحساب والجزاء والخلود، بعد مسيرة حياة فيها ابتلاء وحكمة.

---

(1) سيد قطب-خصائص التصور الإسلامي ومقوماته-ص159.

(2) المرجع نفسه-ص157.

(3) المرجع نفسه-ص163.

(4) عماد الدين خليل-في النقد الإسلامي المعاصر-ص15-20.

(5) انظر فصل الرؤية الروحية من البحث.

فكيف يتصور الشاعر هذا المجتمع؟ إنه يتصور بواقعية أنه يسع نحو سفوح خضراء، ونحو صباح ليس له ظلام، ونحو طريق بعيد عن كل الأغلال والشرور والمظالم والآثام. وبأسلوب رمزي طريف وشائق، راح يرسم ملامح هذا المجتمع الذي لا يوجد فيه الظلم والقسوة والضغينة. فلا من يخطف الرحمة والأمان، ولا من يأكل حق اليتيم أو حق الغير، ولا من يتسم للآلام والأوجاع :

ارْجِعِي أَنْتِ... فَإِنِّي لِلسُّفُوحِ الْخُضْرِ سَائِرْ
لِصَبَاحٍ لَيْسَ فِيهِ نَظْرَةٌ مِنْ جَفْنِ صَاغِـــرْ
لَيْسَ فِيهِ خَاطِفُ الرَّحْمَةِ مِنْ كَفِّ يَتِيمَـــةْ
لَيْسَ فِيهِ سَارِقُ الظِّلِّ مِنَ النَّفْسِ الرَّحِيمَةْ
لَيْسَ فِيهِ آكِلٌ مِنْ لُقْمَةِ بِنْتِ سِـــــفَّاحِ[1]
وَلِدَتْ مَرْحُـــومَةَ الْأَنْسَابِ مِنْ غَيْرِ كِفَاحِ
لَيْسَ فِيهِ بَسْمَـــةٌ تَخْتَرُ أَوْجَاعَ الضَّمِيـــرْ
أَوْ ضَمِيرٌ هَالِـكُ الإِحْسَاسِ، مَوْءُودُ الشُّعُورِ
لَيْسَ فِيهِ كَلِمَـــةٌ سَاجِدَةُ الْحَرْفِ مَهِيـــنَةْ
حَبَّذَا فِي صَدْرِهَا وَكْرًا الْحَيَّاتِ الضَّغِينَةْ[2]

كما لا يوجد فيه الكذب والرياء، والذل والشرور والفاحشة واللغو والغيبة والنميمة، والباطل والجور والجحود والنفاق والكفر والأنانية، وكلها وظفها توظيفا رمزيا وديبيا رائعا، استطاع من خلالها أن يحدد علاقات الناس ببعضهم البعض، وبربهم:

لَيْسَ فِيهِ أُذْنٌ كَذَّابَةُ السَّمْعِ شَقِيَّهْ
تَجْلِدُ الصَّوْتَ صَدَاهَا، وَهِيَ بِالصَّوْتِ حَفِيَّهْ
لَيْسَ فِيهِ قَامَةٌ تَعْوَجُّ مِنْ رُوحِ الرِّيَاءْ،
لِتُجَامِلَ السَّهْمَ قَوْسًا حَائِشًا قَبْلَ اللِّقَاءْ
لَيْسَ فِيهِ أَحْدَبٌ مِنْ غَيْرِ دَاءٍ فِي عِظَامِهْ
مَرْضَعُ الذُّلِّ مَعَ الأَنْفَاسِ مِنْ وَقْتِ فِطَامِهْ
مُسْتَمِرٌّ فِي صَلَاةِ الزُّورِ مِنْ غَيْرِ أَذَانِ

---

(1) سفاح : مسافحة المرأة بالإقامة معها من غير زواج صحيح ،ابن سفاح : ابن زاني، وهما إبنة .

(2) قاب قوسين-ص24-25.

وَبِلاَ رَبٍّ إِلَيْهِ تَسْتَحِيمُ المُقْلَتَانْ

لَيْسَ فِيهِ خَالِسُ الفِتْنَةِ مِنْ وَجْهٍ حَيٍّ

حَصَنَتْ عَذْرَاءُ العِفَّةَ بِاللَّحْظِ الأَبِيِّ

لَيْسَ فِيهِ ذَلِكَ المُشْتَاقُ يَغْتَالُ طَرِيقِي

وَيَرِيقُ اللَّغْوَ كَالسُّمِّ عَذَابًا فِي عُرُوقِي

لَيْسَ فِيهِ، مَاضِغُ نَفْسَ أَخِيهِ فِي غِبَابِهْ

وَإِذَا يَلْقَاهُ يَغْدُو سَحْدَةً فَوْقَ تُرَابِهْ

لَيْسَ فِيهِ لاَ حِدُّ الحَقِّ يَقِرُّ فِي ضَمِيرِهْ

مُسْكِرُ البَاطِلِ مِنْ خَمْرٍ تَلاَشَتْ فِي شُعُورِهْ

لَيْسَ فِيهِ جَائِرٌ، يَمْتَصُّ أَيَّامَ الضَّعِيفِ

رَشْفَةً رَاقِصَةَ الجُوْرِ عَلَى نَعْشِ الرَّغِيفِ

لَيْسَ فِيهِ، وَاقِفٌ يَقْتَاتُ مِنْ مَاضِيهِ حِطَّوَهْ

أَوْ مُدَاجٍ، وَجْهُهُ سَفْحٌ، وَتَحْتَ الوَجْهِ هُوَّهْ

يَنْتَظِرُ النَّفْسَ، وَيَمْضِي هَائِمًا فِي شَبَحَيْنْ

وَاحِدٌ يَغْتَالُ، وَالثَّانِي يُحَيِّ بِاليَدَيْنْ.

لَيْسَ فِيهِ مَنْ يَرَى اللهَ حُرُوفًا فَوْقَ رَأْسِهْ

هَالَةً تَحْجُبُ لَيْلَ الرُّوحِ فِي أَطْوَاءِ نَفْسِهْ

لَيْسَ فِيهِ قَابِعٌ فِي ذَاتِهِ، يُعِيدُ ذَاتَـــهْ

لاَ يُحِبُّ العِطْرَ إِلاَّ أَنَّ سَقَى النُّورُ حَيَاتَهْ[1]

كما لا توجد في هذا المجتمع النماذج السلبية لبعض الناس، كالبائس والضعيف والكسول والمتواكل. وبذلك دعوة منه إلى العمل والكسب الذاتي الشريف، وإلى عدم التواكل والاعتماد على الغير في تأدية واجبات الحياة، وإلى اكتساب الإرادة والقوة، والأمل والتفاؤل لمواجهة صعابها وأهوالها :

لَيْسَ فِيهِ مَنْ عَلَى الرَّبْوَةِ حَيَّاهُ الخَرِيفُ

فَمَضَى يَأْسًا عَلَى بُسْتَانِهِ النَّضِرِ يَطُوفُ

لَيْسَ فِيهِ مُنْزَوٍ يَجْتَرُّ أَشْلاَءَ حَيَاتِهْ

يَجْمَعُ المَاضِـي وَيَبْكِيهِ وَيَحْيَا فِي رُفَاتِهْ

لَيْسَ فِيهِ وَاصِلٌ يَلْقَطُ مِنْ أَكْتَافِ غَيْرِهْ

فَإِذَا يَشْبَعُ، يَرْمِيهِ هَشِيمًا حَوْلَ قَبْرِهْ.[2]

---

(1) قاب قوسين ص 26-30.

(2) المصدر نفسه ص 30 31.

ويختم قصيدته بأن هذا المجتمع ستغدو كل دنياه صبابات ومسرات بالحب والرحمة، والتعاون والتراحم، والإيثار والتقوى. ويصل بهذا المقطع الأخير قمة الجمال الفكري والفني بحسه الإيماني ونضجه الشعري،بعد وصوله إلى مرحلة عميقة من التآلف الروحي والاجتماعي، والتواصل الإنساني الكبير الذي يجعل المرء يؤثر غيره في جرعة ماء، على الرغم من شدة عطشه وظمئه، والذي يجعل كل الناس أقباس مجتمعه مضيئة:

لَيْتَ فِيهِ مِنْ ضَبَابِ الكُرْهِ وَالأَحْقَادِ ذَرَّهْ
كُلُّ دُنْيَاهُ صَبَابَاتٌ،وَحُبٌّ،وَمَسَرَّهْ!
كُلُّ مَا فِيهِ يَدٌ تَسْكُبُ لِلنَّفْسِ العَشِيَّهْ
تُوقِظُ النَّفْسَ مِنَ الأَعْمَاقِ تَشْوَى لِلْعَطَاءْ
كُلُّ ما فيه.. أَنَا، أَنْتَ لِكُلِّ النَّاسِ، نَمْضِي
قَبَسًا، مِنْ بَعْضِهِ النُّورُ إِلَى رَاحَاتِ بَعْضِ
قَبْلَ أَنْ أَشْرَبَ، وَأَسْقِي كُلَّ ظَمْآنٍ أَرَاهُ
وَعَلَى جَنْبَيَّ أُلْقِي كُلَّ مَا يَطْوِي أَسَاهُ[1]

ومن خلال كل ما سبق تبينت دعوته إلى مجتمع إسلامي في ما يلي :

1- حاول الشاعر بذلك أن يأتي بالبديل الاجتماعي بنهيه عن تلك الأخلاقيات والمظالم والمهازل... ودعوته إلى القيم والمعاني التي تحمل الخير والحب، والحق والنور. هذا البديل الاجتماعي،هو بديل إسلامي لحياة الدين والدنيا التي نادى بها الإسلام.

2- كل ما عرضه الشاعر هو صياغة شعرية إسلامية لمجتمع مؤمن مقتنع بوجوده[2]، ولعلنا هنا نعود من خاتمة إلى بداية قصيدة "عاشقة العنكبوت" لنؤكد معنى آخر لعشق الحياة، هذا العشق الذي اتخذ معنى ايجابيا،لا عشق حياة زائلة، واهية.

3- لم يكن موقفه من الحياة والناس والمجتمع موقفا اعتزاليا أو احتجاجيا على ما يراه من سلوك وقيم تخالف القيم والمثل العليا، وليس موقفا سلبيا بالمعنى الذي أراده بعض الدارسين[3]. وإنما شعر بأنه صاحب رسالة، عليه أن ينقد ويرفض الفساد في النفوس والمجتمع بعد طغيان نوازع المادة على قيم الروح، وانعدام المحبة والأخوة والتعاطف والتعاون وانتشار ظواهر الظلم والعداء والنفاق والطمع وعليه أن ينشر المثل العليا في الأخلاق والسلوك، التي لا سبيل إلى سعادة المجتمع الإنساني بدونها. وهو مدفوع إلى إبلاغ هذه الرسالة بما يحس في وجدانه من وجود روحي،يجعله يحن إلى عالم روحي يسع كل البشر.

---

(1) قاب قوسين -ص 31-32.

(2) انظر-الرؤية النبوية-مبحث آثار البعثة المحمدية .

(3) انظر توطئة هذا الفصل.

الـفـصـل الـخـامـس

الـرؤية السيـاسية

المبحث الأول : قضايا وطنية (مصر).

المبحث الثاني : قضايا الأمة العربية الإسلامية.

المبحث الثالث : الوحدة.

المبحث الرابع : النهضة.

المبحث الخامس: السلام.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4- إن ما دعا إليه محمود حسن اسماعيل لبناء مجتمع إسلامي، ليست دعوة لمدينة أفلاطونية مثالية خالصة، بل هدم دعاوي الإلحاد والطعن بمبادئ الإسلام والشك والفجور والتقليد الأعمى، وبين مكانها عقيدة خالصة، تحي الضمائر وتطهر النفوس من أوضارها، ورسم حي صورة لمجتمع راق، متعاون، متكافل،لا أثر فيه للضغينة والطغيان. وأكمل في رؤية أخرى رد إيهام البعض بأن الإسلام لم يعد صالحا لمسايرة ركب الحضارة، وبنى مكان ذلك صورا واضحة المعالم عن حقيقة الإسلام، وسمو مبادئه وأمجاد تاريخه،ورفض تخاذل المسلمين وتفرقهم وضعفهم،وأكد آثار اتحادهم وتجمعهم.

وتعرض كل من الرؤية الاجتماعية والسياسية مواقف مختلفة مليئة بالحيوية والصدق والواقعية ، وتتجه نحو هدف واحد، هو بعث الأمة الإسلامية بعثا جديدا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تـــوطـئـــة :

من المعلوم أن الشعر السياسي الحديث لم يكن جديدا بل هو امتداد لشعر سياسي عرفه الأدب العربي منذ المعرفة منذ عصوره الأولى كما عرفته سائر الآداب الإنسانية لأنه ظاهرة طبيعية في الجماعات الإنسانية.

وقد تتبّع أحمد الشايب تاريخ الشعر السياسي وظواهره من العصر الجاهلي إلى منتصف القرن الثاني للهجرة وماستخلصناه هو أن الشعر السياسي القديم كان في أغلبه شعرا ذاتيا، قبليا مذهبيا،إذا ماستثنينا شعر عصرصدر الإسلام.أما الشعر السياسي الحديث فإنه اكتسب النزعة الإنسانية التي تطلب لكل البشر الحرية والكرامة والعدالة والحياة، وتغيرت الأغراض السياسية التي كانت تدور في قالب المدح والفخر والهجاء والرثاء ووصف الوقائع والحروب. إذ أصبح تجاوبه مع الأحداث تجاوبا قويا، إذ لا يمر حدث كبير أو صغير إلا وسجله، وإن اختلفت آراء الشعراء وتباينت نزعاتهم وتمايزوا في تصويرها.

وأصبح من الصعب على مؤرخي الأدب أن يفصلوا أثر السياسة في الأدب،وأثر الأدب في السياسة وقد أصبحت قوة من أفعل القوى في تكييف (2) الأوضاع المحيطة، بغض النظر هل أفسدت السياسة الأدب أو أحسنت إليه. وأصبحت للأدب رسالة في حياة أمة كالأمة العربية الإسلامية التي قاست وذاقت ألوانا من الصراع والجور والاستبداد. ونهض بهذه الرسالة مع أحداث الأمة العربية وتطور معها، وتنقل من الهجوم على الاستعمار والظلم، والدعوة اللازمة إلى الخلاص منه، وبين ما حدث في داخل الأمة من صراع بين الأحزاب وأشكال الحكم...

إلا أن هذا الأدب السياسي ظهرت فيه عدة تحولات واتجاهات سياسية وفكرية، واكبت الاتجاهات والتحولات التي طفت على صعيد الوطن العربي الإسلامي ككل.(3) حيث اتخذت أشكالا مختلفة سواء في المطالبة بتحرير الأوطان أو في محاولة بناء الشخصية السياسية والحضارية لهذا الوطن ، وأدت إلى ظهور شعراء لم يتجاوزوا المفهوم الضيق للوطنية على أنها الكلام الذي يرتبط بالأحداث السياسية المتواجدة في القطر الذي يعيش فيه أحدهم على أن الوطنية في أحد تفسيراتها كلمة يراد بها شمول كل الأمة على امتدادها الواسع. كما أدت إلى إعتناق بعضهم مفهوم القومية المرتبط بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة. إلا أن هذا المفهوم اتسم عندهم بالغموض والاضطراب و لم يتجسد صافيا فقد صحبته منذ ولادته منازع أخرى كالنزعة الشرقية والعربية والإسلامية والإنسانية (4)، وأعلن بعضهم ولاءه للاستعمار والغرب في الباطن، وفي الظاهر خصومته

---

(1) انظر-أحمد الشايب-تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني-مكتبة النهضة المصرية-القاهرة-ط4-1966م.

(2) رئيف خوري- الأدب المسؤول- دار الآداب- بيروت- ط1- 1968.-ص57.

(3) انظر-أحمد أبو حاقة- الالتزام في الشعر العربي- دار العلم للملايين-بيروت-ط1-1979م-ص109 وما بعدها وص162 وما بعدها.

(4) انظر د/ عمر الدقاق- نقد الشعر القومي- دار الأنوار-منشورات اتحاد الكتاب العربي-دمشق-1978م-ص210-211.

المضطربة،وانساق البعض الآخر وراء حكام طغاة، ورفض الشعور الشعبي الذي يجمع بين العروبة والإسلام، واتخذ من الشعر سلعة وبوقا لأولي الأمر، وهناك من كشف عن عدائه للإسلام وتحوله من الدفاع عن مفاهيمه الروحية إلى الدفاع عن مفاهيم التغريب وانحرف في مضمونه عن وجدان أمته. وخرج عن محور مشاعرها وأمانيها، وكان شعره كالبقعة السوداء في الثوب الناصع[1]. وإن وقف بعضهم على مفترق الطرق لا يدري أين المسير، هناك من اهتدى إلى الطريق السوي بإحساسه المشع بالإسلام ودوره السياسي والحضاري. وتبنى النزعة الإسلامية والإحيائية التي تقاوم كل من هو ضد الإحياء الإسلامي،وضد التكشف عن منابع الفكر الإسلامي.[2]

وفي خضم هذه الاتجاهات والنزعات أسهم الأدب في أكثره إسهاما جذريا في تكوين تاريخ هذه الأمة.. وتفجير اللحظات الحاسمة الجديرة بمستوى الحدث المعيش، وتوجيه الأضواء على مواقع العثرة والنزف فيها. إن فساد السياسة ونمادي الاحتلال، وتأزم الواقع العربي والإنساني ككل تعد من دوافع رؤية حسن إسماعيل السياسة التي اتسعت وتعددت أبعادها الإنسانية واتضحت شموليتها بمعايشته ومشاهدته الواقع السياسي وأثره على المستوى الفردي أوالجماعي. هذا لم يظل حبيس البعد الاجتماعي فقط بل اتسعت دائرة علاقته مع القضايا الاجتماعية إلى علاقات أخرى. فإحساس الشاعر بالفلاح وبكائه من أجل إثبات وجوده، لم يكن له وحده-أي الفلاح- بل كان الشعور بالمجتمع الذي تكونت ملامحه وسط هذه الظروف السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والفكرية والنفسية، متبلورا في مفهومه الشمولي عن الإنسان باعتباره الكائن المكرم وعليه لابد أن يمنح كل حقوقه المكفولة.

وتمثل هذا الالتحام بين البعد الاجتماعي والسياسي، لما أصبحت قضية الفلاح هي قضية المجتمع الكادح الشقي،والتي قامت من أجله الثورة للقضاء على الإقطاع والرأسمالية والاستغلال، وإنهاء عهد الملكية الفاسد، وطرد المستعمر الغاصب. وكانت ثورة يوليو 1952 م، حيّ شاهد على ذلك،بل بلغ ذلك البعد ذروة النضج حيث تطور مفهوم الشاعر للإنسان في هذا المجتمع << من الفردية إلى الجماعية ومن المحلية إلى العالمية، ومن الإنسان الباحث عن الحرية في صورها المتعددة إلى إنسان يرفض الصور المقلوبة المشوهة في الحياة.>>[3]

وجسد هذا المفهوم في معاناة إنسانية واعية، استمدت تأججها واحتراقها من ذلك الواقع المرّ الذي تعيشه أمتنا في كل أقطارها،بعد أن سد التعفن والفساد والتمزق والغزو منافذ النور، وأسدل ستائر الجهل والظلم والتخلف على كافة بقاعه.

---

(1) عمر الدقاق-نقد للشعر القومي-ص221.

(2) انظر-أنور الجندي - أضواء على الأدب العربي المعاصر- دار الكتاب العربي- القاهرة-1388هـ-1968م-ص224.

(3) مصطفى السعدني-المضمون الفني في شعر محمود حسن إسماعيل-ص30.

لقد اختار الشاعر أن يكون اتجاهه الوطني والسياسي ذا نزعة إسلامية،إذ أحسسنا منذ الوهلة الأولى عند قراءة أشعاره السياسية بلون من الوجد الديني << ولا يتمثل هذا الوجد في مجرد اتخاذ الشاعر من بعض الموضوعات الدينية أطرا لعدد ملموس من قصائد الديوان، وإنما يتمثل قبل ذلك في حرصه على أن يجعل رموزه الكبرى للمسيرة الإنسانية الجليلة رموزا إسلامية.>> (1)

وكانت قصائده السياسية والتاريخية تكفي الباحث المنصف في تكوين رأي صادق عن عاطفته الإسلامية. لما اتسمت بطابعها الإسلامي، وقوة الروح المعنوية التي توقظ الشعور الإسلامي في الأمة الإسلامية خاصة. وتؤكد نزاهة وإتقان الرسالة الشعرية التي حملها الشاعر عن يقين وقناعة.

ونستطيع أن نميز في هذه الرؤية السياسية-كما في الرؤية الاجتماعية-تلاحم وامتزاج كل من البعد السياسي، والبعد الاجتماعي، والبعد الديني.. فهذه << الأبعاد الثلاثة يمتزج بعضها وبعض امتزاجا عميقا بحيث يبسط كل منها ظلالا من ملامحه على الأخرين>>(2)

ومن خلال استقراء شعره لاحظنا إخلاص والتزام الشاعر بكل قضايا هذه الأمة ومشكلاتها وهمومها -إن لم نقل جميعها- وكل ما يقف في وجه انطلاقتها نحو تحقيق الذات، ونحو بناء العنصر الفعال الذي يقودها إلى دروب الخلاص والضياء إذ يتشوق إلى معانقة هذه الانطلاقة، وإلى رؤية الإنسان العربي يزرع النماء والتطور ،وإلى كشف الحقيقة التي يحاول البعض أن يغلفها << بأستار من الدجل والتزييف وتغرقها في لجة الشعارات البراقة والصخب الإعلامي والهموم المصطنعة، لتحجب عن الأنظار الرؤيا الصادقة والواقع المهين لهذا الإنسان المعذب.>>(3). كما امتد هذا الشوق إلى البحث عن معاني الإنسانية الضائعة برفضه للأنظمة الجاهلية التي تقضي على أبسط مبادئ الإخاء والمساواة والسلام،وتحطم ملامح الإنسان في هذه المعمورة وإتقانه لمستقبل زاهر للإنسان إتقانا ينبع من حقيقة ملموسة، أحدث تتفتح في أعماقه يوما بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة، وهي حقيقة سماوية علوية تمثلت في فطرة ونظام الإسلام.

وكثير من القضايا السياسية التي عرضها الشاعر، حيث احتضن قضايا الوطن والحرية والثورة والجلاء والجهاد والشهداء، ونكبات العالم الإسلامي ومنها نكبة فلسطين، ووحدة العرب والمسلمين،حيث لم يفصل بين العروبة والإسلام،وإنما عدها شيئا واحدا لوجود واحد. والتغيير والنهوض الروحي والحضاري،وغيرها من قضايا الإنسان الحديث وأحداث العصر.

---

(1) علي عشري-قراءات في شعرنا المعاصر-ص33.

(2) المرجع نفسه-ص33.

(3) عبد القادر القط-الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر-ص186.

المبحث الأول

قضايا وطنية (مصر)

1- الوطن

2- الحرية

3- الجهاد

4- الشهادة

5- الثورة المصرية (ثورة يونيو 1952 م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لم تتكون الوطنية في هذا العصر بشكل طفرة مفاجئة أو نزعة عارضة، وإنما تطورت عبر العهود السابقة، فالشعور بالوطن محدد في كل زمان ومكان بالبلاد التي ولد فيها الإنسان ووعى ذاته. فيكون مثار عاطفة خاصة عنده تقوم على الحب والقداسة، والحرص على خدمته والدفاع عنه. وتبلور الوعي الوطني بمحبة الوطن يؤدي إلى انبثاق شعور آخر يتجاوز محيطه المحدود ويربطه بسائر الأوطان الأخرى، ويجعله يعتز بالانتماء إليها.(1)

وإذا كانت النظرة الإنسانية ترى بأن الأديب إذا أراد أن يكون إنسانيا وعالميا ينبغي أن تتجرد وطنيته من الحدود الإقليمية، لأن الوطنية الصحيحة لا تقف بينه وبين محبة أوطان الآخرين،ولأن الإنسان الأمثل هو الذي يشمل على الكون بأسره، والبشر بكاملهم حتى يصبح ابن العالم، والذي يشمل العالم كله باستطاعته أن يشمل الجزء الذي يعيش فيه التعصب لطائفة أو جنس أو لون.(2) وعبر عن هذه النظرة جبران خليل جبران بقوله << إن الأرض كلها وطني، و جميع البشر مواطني >>(3).

على الرغم من أن هذه النظرة الإنسانية تتفق مع النظرة الإسلامية حول مفهوم الوطن والوطنية في كثير من الأفكار والأهداف. فكل الأرض هي موطن كل البشر، وكل البشر ينتسبون لأب واحد هو آدم عليه السلام ﴿فَكُلُّكُمْ لِآدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ﴾(4). إلا أن الاختلاف الجوهري كامن في الأساس الديني الذي يجعل العقيدة الإسلامية السليمة هي أداة التواصل والتجمع التي لاتجعل للوطن حدودا وقيودا،بل اتساعا وامتدادا،وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم لكافة البشر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(5). وفي الشعور الديني الذي يعد أقوى المشاعر الإنسانية في محو حدود الوطن وعيش المسلمين مع غيرهم في أمن وسلام، ولم يمنع هذا الشعور الانساني من الارتباط بمكان معين دون آخر نظرا لطبيعة التجمع البشري والله عز وجل قد قسم هذا الانتماء، وجزأ البشر إلى أجناس هم شعوب وقبائل متفرقة ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(6).

ولهذا فالنظرة الإسلامية هي دعوة أصيلة قبل دعوات الإنسانيين الذين ظهروا بعد تطور الصراع البشري وانقسام العالم إلى عنصر قوة وعنصر ضعف بقيام الحروب العالمية الكبرى، وسيادة النزعات الاستعمارية والتقدم

---

(1) انظر:د/وهيب طنوس -الوطن في الشعر العربي- منشورات جامعة حلب- كلية الآداب- 1979م- ص179 وما بعده

(2) ثريا عبد الفتاح ملحس-القيم الروحية في الشعر العربي، قديمه وحديثه- ص312.

(3) المرجع نفسه -ص312.

(4) الألباني- صحيح سنن الترمذي- أبواب تفسير القرآن- باب سورة الحجرات- ج3- ص108.

(5) سبأ-28.

(6) الحجرات-13.

العسكري والعلمي الذي أدى إلى السعي وراء الممتلكات المادية والمال،وجهتها نحو غايتي الغزو والمحافظة على الذات، وترويج فلسفة آلية مادية.(1)

لكن فكرة الوطنية أو الارتباط بالوطن ظهرت بقوة في العالم كله نتيجة ظروف اجتماعية وسياسية معينة. في العالم العربي الإسلامي مثلا لم يتورع الاستعمار الغربي عن التشامخ على بني الشرق، وامتهانهم في عقر دارهم، وعدائه السافر لهم واستهانته في ثرى وطنهم لقيمه ومقدساته وأمجاده التاريخية والحضارية وأصبح بعد أن طال أمد وجوده واحتلاله وتقسيمه واستراحة الحاكم الظالم الخائن له عدة أقطار مهانة، مفرقة.

ومن هذه المعطيات الواقعية التي فرضها الاستعمار نشأت فكرة الوطنية والتعلق بالأرض في الأدب العربي. وتجلت فكرة الصراع الحضاري بين الشرق والغرب وإرادة التصميم والمحافظة على كل ذرة من ذرات الوطن لأن التعلق الشديد بالأرض إنما هو تعلق بكل مقومات الإنسان الروحية المرتبطة بالهوية والانتماء، والكرامة والحياة والبقاء، والقيم والتاريخ... لهذا كان الإصرار على الوطن إلى حد الإقدام على الموت من أجله بحور واقتناع وحب عظيم قد يبلغ إلى مرتبة من التصوف والعبادة،وعصمة تلك المحبة دلت على عصمة التعلق الإنساني بالأرض، وأصبح الوطن يأتي بعد الله مرتبة، وحبه جزء من الإيمان.

1-الـــوطـــن :

أول ما استقطب الشاعر محمود حسن اسماعيل هو الشعور بوطنه "مصر"، والاهتمام بقضاياه وأهمها قضية حريته ومصيره وتطوره. فكانت له قصائد لهذا الوطن، صب فيها خواطره ورؤاه، وروحه وفكره، وحبه وتمنيه على الرغم من أن الوطن الذي ينتسب إليه الشاعر ليست هي مصر فقط،وإنما هي كل الأمة العربية الإسلامية، وقد عبر عن هذا الانتساب في أكثر من موقف، وكان انتسابه ذا طابع ديني لاعنصري أو عرقي، بل عبر عن انتساب أشمل وأعمق لكل الإنسانية في الأرض، وكان انتسابا أيضا ذو جهة إنسانية شاملة لا تخرج عن فكرته الإسلامية التي تعيش في أعماقه دون التأثر بأي اتجاه فكري مؤطر لذلك المذهب الإنساني الذي اعتنقه الكثير من الشعراء في العالم حتى العرب منهم .

واستوحى من ذلك الشعار الروحي "حب الوطن من الإيمان" قصيدته "أهواك يا وطني" التي كانت شعورا مفعما، متناغما بالحب والأمل والإيمان... إذ أن هذا الوطن الذي يهواه الشاعر هو جزء من إيمانه بجمال وقيم هذا الكون الذي أنعم الله عز وجل على الإنسان ليحقق وجوده المادي والمعنوي، فهو يمثل كل الصور الجميلة الحية في كائناته الطبيعية والإنسانية، وقيمه التاريخية والدينية :

---

(1) انظر : الف بارتون بيري إنسانية الإنسان ترجمة سمعي الخضراء الحيوشي مؤسسة المعارف بيروت ص11 وما بعدها.

أهْـواكَ يا وَطَني
يا كُلَّ ما تَرْوي بِهِ شَفَةُ الهَوَى فَتَني
وتَعُبُّهُ في الكأسِ أيّامي
رَحيقَ الخُلْدِ، أشْرَبُهُ وَيشْرَبُني
يا كُلَّ لَحْنٍ في لَهاةِ الطَّيْرِ أعْرِفُهُ وَيعْرِفُني
يا كُلَّ صَفْقٍ بَيْنَ مَوْجِ النَّهْرِ
أسْمَعُهُ يُناغِمُني وَيُطْرِبُني
يا كُلَّ نايٍ في غُرُوبِ الشَّمْسِ
مِنْ رِيَتي، يَجْذِبُني
وَيشُدُّني لِعَتادهُ المَسْحُورِ
لأسْمَعَهُ فَيَسْمَعُني
يا كُلَّ وَجْهٍ طَيِّبٍ
بِصَلاةِ نَظْرَتِهِ يُعَافِيُني
يا كُلَّ كَفٍّ في تُرابِ الرَّقِّ
تُدْمِيهِ، لِتَعْتِقَني
يا خِلَّةً بِسَرِيرَتي، خَضْراءَ
تَحْتَ الظِّلِّ تَزْرَعُني
يا وَرْوَرَقًا حَمَلَ الخُلُودَ، وَتاهَ التّارِيخَ
مِنْ رَمَنٍ إلَى رَمَنِ
لا مَوْجَةَ الطّاغِينَ تُوقِفُهُ
وَلا تَهْوِيمَةَ المِحَنِ[1]...

وتضفي تلك الصور والقيم الطبيعية والإنسانية والتاريخية والدينية على حبه لوطنه جوا تعبديا ساميا لأنه يجمع كل الأشياء المقدسة، والصفات الخالدة ففيه السحر والجمال، والخير والحق، والحرية والحب، والروح والقلب، والمئذنة والناقوس، ويشير بهذه الرموز الأخيرة إلى تواجد الديانتين الإسلام والمسيحية.

وهو بذلك لم ينكر الاختلاف الديني وإنما أكد ما يقتضيه الإسلام من حرية العقيدة، وسماحة النفوس، ولأن الأديان السماوية بكتبها ورسلها مجمعة في أصرها على توحيد الله، والدعوة إلى الحق والخير، وإن كان الدين عند الله الإسلام، لم يكن ذلك مدعاة إلى التباعد والتباغض بل إلى التصافي والتسامح.

---

(1) ج 1 الحمامة ص 166 168.

وكان هذا الحب الروحي ترنيمة للوطن وهو يشق الظلام، ويستل من ضراوته وضائع الفجر... حيث يسمو به فوق كل شيء إلهاما وحبا،ونجعل كل عناصر الكون والحياة والدين والزمن عناصر فداء وتضحية من أجل انبلاج الفجر وزوال الليل. ويقصد بالفجر الحرية وما تحمل من تغيير وانبعاث حياة، وبالليل الاستعمار الذي عاث فيها فسادا ودمارا وتشتيتا :

مَهْمَا اسْتَبَدَّ اللَّيْلُ يَا وَطَنِي
بِكَ أَنْتَ كَالرَّوْيَا تُبَدِّدُهُ
بِهَوَاكَ، بِالشُّطْآنِ، بِالأَزْهَارِ، بِالأَعْمَارِ
مِثْلَ النَّارِ تَحْصُدُهُ
بِنَسِيمِكَ الحَانِي تُمَزِّقُهُ
وَبِمَوْجِكَ العَاتِي تُخَرِّقُهُ...
وَبِكُلِّ مِئْذَنَةٍ، إِذَا هَتَفَتْ
خِلْتُ السَّمَاءَ بِهَا تُعَانِقُنِي
وَبِكُلِّ رَاهِبَةٍ، يُرَتِّلُهَا
نَاقُوسُهَا نَغَمًا يُسَاكِرُنِي
وَبِكُلِّ قَلْبٍ صَبَّ مُهْجَتَهُ وَحَفَقْتَهُ فِدَاكْ
وَبِكُلِّ مَا حَمَلَتْ إِلَى الدُّنْيَا، وَمَنْ تَبْحَرْ بِدَاكْ...
وَبِكُلِّ طِفْلٍ مَدَّ مِصْبَاحَهَا فَبَسَا أَمَامَ خُطَاكْ
وَبِكُلِّ رُوحٍ أَوْرَقَتْ لِلنُّورِ تَشْرَبُهُ رَحِيقَ هَوَاكْ...
وَبِكُلِّ حَطٍّ يَغْرِسُ الآمَالَ سَاعِدَهُ لِتَسْمُقَ عُلَاكْ...
وَبِكُلِّ شَيْءٍ، فَوْقَ أَرْضِكَ تَحْتَ ظِلِّ سَمَاكْ[1]

والتفع بذلك مع كثير من الشعراء الذين يتغنون بالوطنية الذي لايحيد معناها العام عن الهتاف بالحب والحنين إلى الوطن، والانطلاق مع أحداثه في كل ميدان من أجل إحياء مجده المرتقب،وبلوغ يوم نصره الموعود. وقام هذا الشعر بدوره الملحوظ منذ بدايات الاحتلال وإرهاصات الثورات، خاصة على يد شعراء عرفوا بعاطفتهم الوطنية والإسلامية، منهم" شوقي وحافظ ومحرم"... هذه العاطفة التي نضجت عند شاعرنا بالتفاته الشعري المبكر إلى قضية الوطن وإثارته لقضية الفلاح والكوخ والأرض وإدراكه العميق لفريضة الوطن عليه وشعوره الصادق نحبه وتطلعه الوثاب إلى مجده المرموق ومستقبله الزاهر.

---

(1) نهر الحقيقة-ص170-172.

2-الـحـريـة :

آمن الإنسان بحريته إلى أقصى الحدود منذ أقدم التاريخ،وازداد شعوره بحريته وكرامته في ظلال الإسلام الذي كان في صميمه حركة تحريرية تبدأ في ضمير الفرد وتنتهي في ضمير الجماعة.

إذ بعد أن خلّص الفرد من رق وعبودية التفكير الخرافي والوثني، ومنحه حريته الروحية راح يحارب رق السلوك غير الإنساني القائم على الظلم والطغيان من أجل أن تشيع الحرية الاجتماعية والسياسية بمعاني العدل والمساواة والسلم والأمان حيث نجد حملته الساحقة على الظلم والظالمين من مثل قوله تعالى ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ.﴾ (1)

وكان التحرر الروحي والوجداني الذي يعمّر قلب المؤمن بالإيمان بالله،ولا يدعه يخضع لأي سلطان إلا سلطان الواحد الأحد. هو الموقف المتميز في تأكيد ذات النفس المسلمة في معارك الجهاد ضد الظلم والكفر، وفي الفتوحات الإسلامية، وفي التسوية بين العرب والأعاجم إلا أن مرور حقبة من الزمن، بدأت مؤشرات استعباد الناس، بعضهم لبعض وانقلاب الأمور على العرب والمسلمين بضعفهم وصراعهم. عصرا بعد آخر. فبعد حملات التتار والصليبيين بدأت الحملات الاستعمارية على العالم العربي والإسلامي فيما بعد. وما إن جاء القرن التاسع عشر أصبح العرب بعد تسلط وجور حكامهم وانقسامهم وتشتتهم بفعل التيارات العربية الدخيلة، يساقون كالأنعام لا رأي لا إرادة ولا حرية لهم.

وإن ذهبت كثيرٌ من الصرخات في مهب الرياح السياسية العاتية ، انطلق الصراخ صاخبا في العصر الحديث من كل مكان، من كل فئات الشعب للمطالبة بالحرية والتوحد،وإصلاح الحكم والسياسة . وهب المصلحون والكتاب والشعراء يكافحون الاستعمار ويشرحون الواقع بسهام دعواتهم ومقالاتهم وأشعارهم << وتحولت البلاد العربية إلى ما يشبه بركانا ثائرا لايزال يرمي المستعمرين بحممه وقذائفه، حتى يولوا الأدبار عن ديارنا إلى غير رجعة.>>(2) وكان محمود حسن إسماعيل من الشعراء المحدثين الذين تحدثوا بعمق عن الحرية وأبعادها الروحية والوجدانية والاجتماعية والسياسية. وقد بدأ الحديث عنها في أعماق نفس الإنسان عندما يتخلص من الجهل والإلحاد والشك والفساد، ويتحرر من أسار النفس الأمارة بالسوء. وكانت الحرية الأولى هي الثورة على النفس (3) لأن << من لا يثور على ما في نفسه لا يحسن من العبودية، ولاحق له أن يشكو العبودية.>>(4) ثم انتقل إلى الحديث عن الحرية الجماعية بعد الحرية الشخصية

---

(1) الشعراء-227 .

(2) شوقي ضيف-دراسات في الشعر العربي المعاصر-ص127.

(3) انظر-فصل الرؤية الروحية-مبحث الشاعر .

(4) ثريا ملحس عبد الفتاح- القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه ص331 .

بالثورة على الواقع ، وتحرير الأرض من الشرور والآثام، وإقامة الوطن الإنساني الكبير. فتكون تلك الحرية التي تطهر الإنسان والمجتمع معا.

وكان للتحرر الوجداني أثره في استعلائه بالحق، وكان من الشعراء الذين استنارت رؤاهم بهذه الآفاق، فاتخذوا مواقف صلبة من الطغيان، صدرت عن عزة إيمانهم، فلا ناموا على ضيم، ولا ادّخروا وسعا في هدم الظلم والباطل، حيث أول ما أشار إليه محمود حسن إسماعيل هو دور الإنسان في هذه الأرض،فأجلى ما نهض به محمد صلى الله عليه وسلم من حركة تحررية للإنسان، أذابت الطغيان، وألّفت إنسانية الإنسان.(1)

وكان ديوان "نار وأصفاد"، أول ديوان برزت فيه هذه الرؤية السياسية حيث ينقسم إلى ثلاثة أقسام، قسم بدأه بنبي الحرية، وهي قصائد تعكس انتصار العقيدة والإيمان والحق على قوى البغي والعدوان، ليظل الذين نبراسا تهتدي به القلوب والعقول في مسيرتها نحو الحق والخير والعدل(2) وقسم ثان تحدث فيه عن معارك الحرية بقصائد شارك في الجهاد الوطني،والمسيرة الثورية لمصر ولكل العالم العربي الإسلامي، وقسم ثالث يضم فجر الحرية،ومراحل المواجهة مع الإستعمار. أما القسم الرابع وهي أغاني الحرية،وهي قصائد تغني الثورة والنصر والجلاء والوحدة والنهوض.

وصور ديوان نار وأصفاد حياة أمة كاملة بمعاناتها وماساتها، بعد أن تبعث دواوينه الأولى من واقع محدود للإنسان من الفلاح وأيام القرية، حيث لم يعد الشاعر << حبيس قريته، ولم يلجأ إلى اجترار الذكريات القديمة وتكرار المعاني المعادة، وإنما بدأ يصور الرق في المدينة بعدما صوره في القرية وبدأنا نسمع ارتطام الإحساس الريفي بتجربة المعايشة في صخب المدينة وانعزال مجتمعها عن الريف، وانقطاع إحساسها بعذابه، ووطأة الظلم الذي يرزح فيه الفلاح. فليغير النقاد أحكامهم، وليبدأوا البحث عن أحكام جديدة. فلم يعد شاعرنا صوت القرية فحسب ، إنما أصبح شاعر الحرية بشدها في كل مكان.>>(3)

إذ راح في الديوان يحكي قصة الحرية من بدئها وجمع صراعها في تاريخها الطويل، ويصور انتفاضة الإنسان العربي،ومواكب النصر المتلاحقة بأغنياته الثورية الجديدة، وامتلأ بقصائد لوطن كبير يتعشق الحرية والإسلام، ويتجاوز القيد والذل .ومن خلال عنوانه تحملنا إلى صورة الأصفاد بثقلها وخشونتها وحدتها وقسوتها، وصورة النار بدخانها ولهيبها ورائحتها، وإن وضع له عنوانا داخليا آخر هو"قصة القيد"- ويورده في مدخل الديوان

وبدأت قصة القيد بصدق في الرؤية والشعور،بالحديث عن الحرية في قصيدة "الموعودة" لأنها حقا موعودة بين المستبدين والغاصبين،والليل ضارب على كل حين،والقيود الغاشمة ترهق أنفاسها في كل مكان. لذا راح الشاعر يتلمس لها شعاعا في فجاج الوجود. ويبحث عنها في هب الأصفاد، مسائلا عنها كل كائن في الأرض أو السماء كالريح والنجم والطير ولكن الجمادات والكائنات أشعرته بفقدان شعورها بالحرية، فلم يجد جوابا:

---

(1) محمد عادل الهاشمي-الإنسان في الأدب الإسلامي-ص 391 .

(2) انظر فصل الرؤية السياسية.

(3) كامل الشوهي -نار وأصفاد- مكتبة النهضة بغداد ط 29 (1386هـ 1966م) ص 36 .

كَمْ سَأَلْتُ الرِّيحَ عَنْهَا فَشَكَتْ - بَرْحَهَا[1] وَاشْتَرَبَتْ فَوْقَ الجِبَالْ
ثُمَّ قَالَتْ: إِنَّنِي طَوَّافَةٌ - هَكَذَا مُنْذُ تَعَلَّمْتُ الرِّحَالْ...
وَسَأَلْتُ النَّحْمَ عَنْهَا، فَمَضَى - رَاعِشًا يَخْبِطُ فِي عُزْلَتِهِ
قُلْتُ حُرٌّ؟ قَالَ هَذَا فَلَكِي - رَاسِفٌ حَيْرَانُ فِي دَوْرَتِهِ
أَيْنَ أَمْضِي ؟ قَابَلَتْنِي حُرَّةٌ - مِنْ نَبَاتِ الطَّيْرِ خُتَّابُ الفَضَاءْ
قُلْتُ مَنْ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ عَبْدَةٌ - لَمْ تَدَعْ فِي الكَوْنِ أَرْضًا وَسَمَاءْ
لَوْ جَنَاحَايَ عَلَى بَأْسِهِمَا - يَقْتَرِعَانِ القَيْدَ، مَا جُبْتُ الفَضَاءْ[2]

وراح يسائل البشر عنها، فلم يجدها في ظاهر حياتهم، لكن في باطن أعماقهم التي تستنشق الحرية على الرغم من الظلم والقيد،لأن أرواحهم حرة تستمد معاني النور والخشوع والسجود والمتاب، حتى يحسبون تلك القيود كأنها منح للاختبار والابتلاء والتكفير عن الذنوب والخطايا، يقول :

تَلَفَّتُّ.. فَمَالِي لَمْ أَرَلْ - بَاحِثًا عَنْهَا وَعَنِّي فِي الرُّفَاتْ
تَرَامَيْتُ بِرُوحِي فِي صَلَاةٍ - كَبَّلَتْ بِالعَتْمَتِ قَوْمًا خَاشِعِينْ
سَجَدُوا وَانْتَهَرَتْ أَبْدَانُهُمْ - فِي ضِيَاءِ الرُّوحِ وَالنُّورِ المُبِينْ
هَزَبَتْ أَغْلَالَهُمْ وَانْطَفَأَتْ - نَارُهَا حَوْلَ قُلُوبِ التَّائِبِينْ
غَادَرُوا مِحْرَابَهُمْ وَانْسَرَبُوا - مِثْلَمَا كَانُوا أَسَارَى حَائِضِينْ[3]

هذه الحرية لم يجدها الشاعر عند تلك الكائنات والجمادات، لأنها مقيدة فعلا مادامت لا تملك حرية الإرادة والعقل والوجدان، بينما الإنسان يملك تلك الحرية الروحية حتى وإن كبل جسده، فإنه يستنشقها، يشعر بها،مادامت الروح بتحليقها في الأجواء التأملية والتعبدية لايمكن أن يؤثر فيها قيد أو حصار، على الرغم من أنه أكد حرية الروح، فهو لايفصل عنها حرية الجسد لأنهما يمثلان الحياة بتكاملهما وتجانسهما. وهذا فهو يواصل البحث عن الحرية،لأن الجسد مهدك ومتعب بثقل القيود وألمها،وكذا شعور الإنسان الملح والمشتاق إلى فطرة الحياة في كنف الحرية،متسائلا ومتعجبا بمرارة وألم عن أي معنى لوجود الإنسان مستعبدا مقيدا ،ولا معنى عنده للعمر والزمن والحياة ؟ .مهيبا بأي شعب يعيش القيد،أن لا يرضى المذلة والهول، ويدافع عن كرامته وحقه في الحياة :

دَمِيتْ نَفْسِي مِنْ طُولِ السُّرَى - وَأَنَا أَبْحَثُ وَالقَيْدُ مَعِي
كُلَّمَا زَحْزَحْتُهُ مِنْ قَدَمِي - أَنْبَتَتْ أَظَافِرُهُ فِي أَضْلُعِي

---

(1) برحها : البرح: الأمر المدهش المعجب .

(2) نار وأصفاد-ص36-37 .

(3) المصدر نفسه -ص38 .

أَيْنَمَا لُذْتُ عَوَتْ أَحْتَرَاسُهُ - يَقْتَدِي كَالسَّهْمِ يَفْرِي مَضْجَعِي
فِي دَمِي قَيْدٌ وَقَيْدٌ فِي فَمِي - وَعَلَى الأَحْذَانِ قَيْدُ الأَدْمُعِ...
أَيُّ شَعْبٍ عَاشَ ؟ وَالقَيْدُ بِهِ - كَانَ حُرًّا لَمْ يُعَذِّبْهُ الوَطَنْ !
أَيُّ قَبْرٍ عَاشَ ؟ وَالحُرُّ عَلَى - عُمْرِهِ بِالْهَوْلِ أَبَّانَ سَكَنْ !
ضَرَبَ القَيْدُ عَلَى كُلِّ الخُطَا - فَهْوَ حَادٍ وَطَرِيقٌ وَرَسَنْ[1]

ويتعب الشاعر من البحث المضني على الحرية لأنه أدرك الأسباب والدوافع الكامنة وراء اختفائها،واقتنع أن المشاعر الانفعالية مشاعر مثالية بعيدة عن الواقع، ولهذا يجب ابتداع الطريق الثوري الذي يفرض التضحية في سبيل الكرامة والعزة والحياة الشريفة،وستبقى الأمور على ماهي عليه من ظلم وفساد ومذلة بدون يقظة ونهوض وانتفاضة وثورة.

3- الجهاد :

إن المفهوم الإسلامي للثورة هو الذي تنعكس فيه روح الجهاد والشهادة وشعارات وقيم الإسلام، لأن <<عمل المحابهة لابد في نظر الإسلام أن يغرف من المعين الإلهي الذي يمدّ بالقوى والطاقات الضخمة>>[2].

وكان الجهاد هو الذي << صاغ الوجود الكريم للمجتمع الإسلامي، وأنجب الأبطال والشهداء، وتتراءى لنا النفوس البشرية تحت رايته وقد تحررت من ربقة الأرض وثقلها، واتجهت بقلوبها وأبصارها إلى السماء.>>[3]

وظلت الدعوة إلى الجهاد، وذلك بحمل السلاح في وجه كل من يقف في وجه الدعوة الإسلامية وإعلاء كلمة الله ومنها تحرير الإنسان من الظلم، لأن من صميم المبادئ الإسلامية دفع الظلم من المستضعفين من البشر ﴿ وَمَالَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا. وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا نَصِيرًا.﴾[4]

ومن وسائل الدعوة إلى الجهاد الاعتصام بالقوة المعنوية المتمثلة في قيم الخير والإيمان والإيثار، وبالقوة المادية بالتعبئة والاستعداد لتحطيم كل العراقيل والمحاولات ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ.﴾[5]

---

(1) نار وأصفاد-ص39 .

(2) محمد عادل الهاشمي- أثر الإسلام في الشعر الحديث في سورية- ص152.

(3) المرجع نفسه- ص153.

(4) النساء-75 .

(5) الأنفال-60.

فالثورة بلغة الإسلام هي الجهاد، فهو << مبدأ جامع من مبادئ هذا التراث، وركن ركين في خلق هذه الأمة الإسلامية،مجموعة في شعوبها ومتفرقة في آحاد المسلمين، وهذا مطلب من مطالبنا، وسمة نريدها في آدابنا المعاصرة،لابد أن يسعى الأدباء والقصاص إلى تأكيد ملامحها في المشاعر ، وفي أبطال القصص وأبعاد شخصياتها على وجه من الوجوه.>>(1)

وكان للاتجاه الإسلامي في الشعر أثره البين في الاقتباس من هذه الروح الجهادية والاستشهادية والبطولية، حيث لم يجد أمامه لدفع الطغيان والعدوان إلا بإحياء تلك الروح بروائع من التاريخ الإسلامي، وبمعاني الجهاد التي تهيب بقافلة التحرر في أقطارنا لتحرر الأرض والمقدسات من الغاصبين وتندفع في حرب مقدسة ضدهم. لأن الأرض في الإسلام جزء من الكون المسخر للإنسان يعمرها باستخلافه، ولهذا << فإن حركة التحرير في الإسلام وكل فعاليات الإنسان ترتبط بمهمة الإستخلاف الربانية وبغاية الحياة العليا، لا تنفصل عنها.>>(2)

وصاغ محمود حسن إسماعيل شعره الثوري على صدى هذا النداء الجهادي متنسما أريج البطولة الإسلامية وعبق الشهادة في سبيل الحرية والحق.

وبدأت دعوته إلى الجهاد بالدعوة إلى النهوض واليقظة لبعث حياة جديدة. وما فتئ يوظف كلمة البعث بكل ما تحمل من اشعاعات روحية، حيث استمد منها يوم القيامة والنشور ونفخة الصور، وحقيقة الحياة ما بعد الموت. ومن هذا اليقين والإيمان انتقل بمفهومها الديني إلى معنى التجديد والتغيير والثورة والانبعاث... وكان لهذا المدلول البعثي بواعث روحية للثورة شملتها عدة قصائد من ديوان نار وأصفاد وكبت اندلاع شرارة البعث الثوري، وتكبيرة الحرية.

ومن خلال عناوين بعضها "أذان الفجر"، "النداء المقدس"، "نفخة الصور"،"البعث"... نستشف دلالتها الدينية التي وظفها الشاعر للنهوض والانبعاث من جديد حياة أخرى بعيدة عن القيد المادي والروحي الذي كبل به الاستعمار البغيض مصر وغيرها من الأوطان العربية الإسلامية ولهذا لم يتوان الشاعر بعد تصوير واقعها المظلم بالمفاسد والتفرق، والجهل والفقر، والتي فرضتها أغلال واحتلال وأطماع الاستعمار، أن يبين ضرورة هذا البعث والذي يحققه الجهاد.

ففي قصيدة "أذان الفجر" يبرز ضرورته برسم الصورة الحقيقية المتوحشة للمستعمر الذي أشاع الفرقة والبغضاء، والتأخر والفقر، بما يملك من لؤم ومكر وغدر وادعاءات باطلة، ويوبخ أولئك الذين يريدون مسالمته والتحالف معه :

فَمَا بَالُ قَوْمٍ، زَلْزَلَ اللهُ حَظْوَهُمْ - وَحَلَّ بِهِمْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ حُسْرُ

يُرِيدُونَ مِنْ حِلْفِ الذِّئَابِ غَنِيمَةً - يَطُولُ هُمُ فَوْقَ الضِّفَافِ بِهَا عَمْرُ

---

(1) حسني مرزوق- الرومانتيكية والواقعية في الأدب- ص 99.

(2) محمد عادل الهاشمي - الإنسان في الأدب الإسلامي - ص436.

مَعاذَ الحِجَى مَا فِيهِ قَلْبٌ وَلَا يَـــدُ - يُرَاوِدُهَا عَـنْ نَـفْسِ أَبْيَهِـمْ غَـدْرُ
لَقَدْ هَلَكَتْ أَوْعَادُهُـمْ وَعُـهُودُهُـمْ - وَحَاقَ بِهِمْ لُـؤْمُ السِّيَاسَةِ وَالمَكْرُ(1)

ولهذا فهو يدعو أن تكون في هذه الإنطلاقة الثورية راية للتوحد في صف واحد، حتى تكون العدّة المادية والروحية في مستوى المواجهة للقضاء على هذا العدو وصعقه، مؤكدا في النهاية أن الجهاد هو سبيل العيش الكريم،على الرغم من المرارة والمعاناة .فيدعو الله أن يبارك خطوات الفدائيين وقد استجابوا لآذان الفجر، الذي انبعث من وادي النيل. وفي قصيدة أخرى "نفحة الصور" يبدو الشاعر أكثر انفعالا وامتعاضا وألما وهو يدعو شعبه إلى الإفاقة من السبات، وإلى عدم الشعور بالموات،وتشتد لهجة الخطاب عنده، و لم يعد يطيق تلك الحياة القاسية والمؤلمة التي يعيشها شعبه. ويكشف فيها أكثر عن حقيقة الاستعمار بتبع آثاره المادية والمعنوية ويتجاوزه مرحلة المواراة والمراوغة،والوعود الكاذبة،والشعارات الزائفة التي لم في نشر الخلاف والنزاع، والتحلف والفقر، بل غيّر سياسة الإذلال ودخل مرحلة المكاشفة باتباع أسلوب التنكيل والتهويل بإقامة المجازر واستباحة الديار، والفتك بالناس والتعرض لشعائر الدين، وتدنيس المقدسات وبيوت الله :

... وَأَقَامُوا مَجَازِرَ نَحْلُ الدُّنْيَا لأَهْوَالِـــهَا بِشَـــطِ فَتَـاتِيكْ
اسْتَبَاحُوا الدِّيَارَ يَا لِنِدَاءِ العَـــارِ مَسْتَصْرِخًا إِلَى نَخْـــعَتَاتِيكْ!
وَأَرَاقُوا الدَّمَ الزَّكِيَّ وَمَا سَالَ بِغَيْرِ الـــضَّحَايَا مِـــنْ مُهَجَاتِيكْ
فَتَكُوا بِالنِّسَاءِ... بِالشَّيْبِ.. بِالأَطْفَالِ.. وَاسْتَرْخَصُوا حَمَى عَتَبَاتِيكْ
وَأَبَاحُوا الكِلَابَ تَنْهَشُ أَحْشَاءَ الشَّبَابِ المُرَاقِ مِنْ فَلَذَاتِـــكْ
وَتَمَادَوْا فَهَاجَمُوا يَافِعَ الزَّرْعِ، وَحُبْلَى بِالقُوتِ مِنْ سُنْبُلَاتِـــكْ...
أَخْلَوُ الآمِنِينَ عَنْ هَجْعَةِ الدُّورِ، وَشَقُّوا الحَيَاءَ عَنْ حُرُمَاتِكْ
وَأَغَاضُوا بُيُوتَ رَبِّكَ بِالأَدْنَاسِ وَالرِّجْسِ عَنْ هُدَى صَلَوَاتِكْ
كُلُّ هَذَا .. وَأَنْتَ فِي دَوْرَةِ الأَيَّامِ تَعدو مُسْتَهْيِّئًا لِسُبَاتِكْ(2)

وكان نداء مصر للموت والشهادة نداء مقدسا في قصيدة "النداء المقدس" إذ تنادي أبناءها للتضحية والفداء بالعمر والأجل، وتخيب إليهم صفة الشهيد الذي يبعث موته الحي الخالد حياة وطن أذله الاستعمار:

تُنَادِيكُـمُ مِصْـرُ بَيْنَ الكُفُـورْ(3) - وَأَكْوَاخِهَا اللاَّهِـثَاتِ الجُحُورْ
سَوَاءٌ بِهَـا الخَائِطُونَ الحُفَـــاةُ - وَمَنْ هَدْهَدَتْهُمْ ظِـلَالُ القُصُورْ
وَمَنْ قَوَّمَتْهُـمْ صَـلَاةُ الفُـرُوضِ - وَمَـنْ وَسْـوَسَتْهُمْ حَيَاةُ العُصُورْ
إِلَـيْكُمْ جَمِيعًا يَصِيـحُ النِّـدَاءُ - لَقَدْ حَانَ يَا قَوْمُ وَقْتُ النُّشُورْ...

---

(1) نار وأصداء- ص90-91.

(2) المصدر نفسه - ص97-98.

(3) الكفور: ج الكفر: وهي القرية الريفية في مصر.

تُنَادِيكُمْ مِنْ جِرَاحِ الشَّهِيدْ - أَنَاشِيدُ بَعْثٍ تُهَزُّ الخُلُودْ
أُرِيزُ الرَّصَاصِ عَلَى صَدْرِهِ - أَذَانٌ مِنَ السِّلْمِ فَوْقَ الوُجُودْ
تَهِيبُ بِأَعْمَارِكُمْ لِلْفِدَاءِ - وَأَحْلَامِكُمْ أَنْ تَكُونَ الوَقُودْ(1)

وصور استجابة هؤلاء الأبناء المخلصين لهذا النداء بشعورهم بالنهوض واليقظة، واقتناعهم بضرورة الجهاد، وشوقهم للموت فداء، وتضحية ولمثانا بقيمة الحق والحرية:

سَنُفْنِي جَمِيعًا فِدَاءَ الحِمَى - وَنَرْفَعُ رَايَاتِنَا لِلسَّمَا
وَنَجْرِي مَعَ النِّيلِ خَمْرَ الخُلُودِ - لَظًى فِي مَعَاقِلِكُمْ أَوْ دَمَا
صَحَوْنَا.. وَهَذَا نَفِيرُ الجِهَادِ - تُفَزِّعُ صَيْحَاتُهُ الأَنْجُمَا
وَنَمْضِي كَتَائِبُهُ لِلرَّدَى - وَأَشْوَاقُهَا فَاتِلَاتُ الطَّمَا..(2)

4- الشهادة :

لقد أكرم الله المجاهدين الذين يجودون بأرواحهم في سبيل الحق، ويبتغون رضوان الله بالشهادة، ومن تكريمه لهم أن أعد لهم أجرا وثوابا عظيما،وبوأهم منازل الأحياء في حته. وقد قال عز شأنه ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(3).

و<< كان جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة في تصور الأمور إنها تعدل،بل تنشئ إنشاء تصور المسلم للحركة الكونية التي تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها وهي موصولة لا تنقطع، فليس الموت خاتمة المطاف، بل ليس حاجزا بين ما قبله وما بعده على الإطلاق إنها نصرة جديدة ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين واستقبالهم للحياة والموت.>>(4).

إن هذا الوعد الرباني، وهذا التصور لحياة الشهيد، جعل النفوس منذ عهود الإسلام الأولى تستعذب معنى الشهادة، وتتمنى مقام الشهداء عند الله. وهذا ما نستطيع أن نفسر به سر اقبال مواكب الشهداء، وبسر تلك الوقائع الظافرة التي حفل بها،وانتزع فيها المسلمون النصر من العدو على تفوقه في العدة والعدد. وقد حفل التراث الإسلامي بكثير من الوقائع وأسماء الشهداء وظل كثير من الشعراء يلحون على فكرة الشهادة، يستهضون بها الهمم، ويبعثون الحماس في النفوس، ويشيدون المراثي، ويحرضون على القتال(5). ومن الشعراء

---

(1) نار وأصداء ص94 95.

(2) المصدر نفسه ص95.

(3) آل عمران 169- 171.

(4) سيد قطب- في ظلال القرآن- ج4- ص517

(5) [illegible] ص211

المحدثين محمود حسن إسماعيل الذي أبرز أن الجهاد فرض وواجب بعد معاصرة الاحتلال بمآسيه ومصائبه، وأنه على الرغم من مشاقه ودروبه الوعرة،فهو طريق الخلاص والنجاة بعد صبر وإرادة، وهو مسدد بوحي الله، مؤيد بنصره .ودعا إلى كسب الموت نداء وتضحية، متخذا من الموت شعارا يطرح كل شعارات الكلمات الرنانة،مستلهما من وحي الشهادة آفاقا شعرية رفيعة يدفع بالنفوس إلى الجهاد دون مهابة أو خشية من الموت بل شوقا لرضاء الله والجنة.

وفي غمرة جهاد الشعب ضد المستعمر، شهد الشاعر سقوط الشهداء في ميدان المعارك، فلم يحبس شعره عن إحياء هذا الإستشهاد والثناء على الشهيد وترديد صا قام به إخوانه من جهاد واستبسال.

وكان بذلك يلهب العزائم، ويبعث الحمية، ويحرض النفوس ويعرض مباهج موت الشهداء وخلودهم لتكون زادا روحيا لإحراز النصر.

وتتجلى قيم الفداء المتمثلة في عظمة الاستشهاد، وفي سمو منزلة الشهيد عند الله وعند البشر في قصيدة رائعة "على مذبح الحرية" التي استوحاها من موكب أحد الشهداء الذين سقطوا في ساحة الجهاد الوطني... ويدور مضمونها العام حول تمجيد دور الشهيد وسمو مكانته بعد موته لكن الشاعر يقدم هذا المضمون من خلال عدد من المشاهد المتتابعة التي تتآزر معا على أدائه>>[1]، حيث يبدأ منذ لحظة استشهاده حتى عند دفنه وبعد دفنه،وتتلاحم صورة الشهيد مع صورة إشراقة الكون بحبور الأرض والسماء به، ومع صورة الموت والدم والكفن وعالم القبور والموتى،الذي انتعش بنحطات الانبعاث والاحتفاء والشعور بالحياة،بل بالحياتين الأولى والآخرة. وشملت القصيدة حقيقة لنهاية قل من يشير إليها في هذه الصور الشعرية الرائعة.

ويبدأ المشهد الأول << برصد نقطة الذروة في الموقف وهو سقوط الشهيد مضرجا بدمائه، ويستمد الشاعر الصور الجزئية التي تكون هذا المشهد من عنصرين حسيين هما النور والعطر اللذان يخلعهما على الشهيد ، فيمحو بهما أبرز آثار الموت وهو الاحتفاء أو الطلاء، وتغير الرائحة.>>[2]، ويصور أجواء الكون الروحية المليئة بالحبور والجمال والخشوع والقداسة والخلود:

يَاوَادِيَ المَوْتَى بِشَطَّكَ رَافِـــــدٌ - خَفَقَتْ لَهُ الأَرْوَاحُ بِالقُبَلاتِ
مَا ضَمَّهُ لَحدٌ[3] هُنَاكَ.. وَإِنَّمَا - حَضَنَتْهُ دُنْيَا النُّورِ فِي هَالاَتِ
تَهِرَتْ عَلَيهِ مِنَ السَّمَاءِ مَـلاَئِكٌ - تَغْشَى عَلَيْهِ سَوَابِغَ الرَّحَمَاتِ
أَلْقَى الضُّحَى فِي سَاحِهِ مُتَصَوِّفٌ - وَرِعٌ يَطُوفُ بِأَقْدُسِ الحُرُمَاتِ
وَعَوَابِرُ الأَنْسَامِ تَخْطِرُ حَوْلَـهُ - رَبَّا يَتَبِعْ عُطُورِهِ عَبِـقَـاتِ
تَنْسَابُ حَائِمَةً، وَتَسْرِبُ عَفْـوَةً - كَمُغَلِّبٍ تَمْشِي عَلَى عَرَفَاتِ
وَالفَجْرُ قَبَّلَ شَعْرَهُ فَوْقَ الرُّبَـى - يَخْتَارُ مِنْهُ وَشَائِعًا أَلْقَاتِ

---

(1) شفيع السيد- قمع محمود حسن إسماعيل في ديوانه هكذا أغني -آخر ديوان هكذا أغني- ص293-294.

(2) المصدر نفسه- ص294.

(3) لحدث: ج أحداث وأحداث، وهو القبر.

أَنْوَافٌ[1] من لُمَعِ السَّنَا ومطارِفٌ يُلْقِي خَلائِلَها[2] عَلَى الرَّيَّانِ
وَيَسُوفُ[3] عِطْرَ الخُلْدِ مِنْ جَنَبَاتِهِ وَيُذِيعُهُ مِنْ أَكْوُسِ الرَّهَرَانِ

وتكمل صورة الشهيد وتنمو فكرة الحياة وقد صاحبته لحظات الفجر والضحى، واشعاعات النور ونفحات العطر، وتمتد هذه المصاحبة التي ترتبط بالوجود والكون حتى في الليل حيث تمتد النور المنبعث من ذلك الجسد المسجى فوق الثرى. يتساءل الضحى عن هذا النور وبسائل أسدافه التي بدت لامعة مضيئة، وتجيبه الأسداف معرفة إياه بهذا الإنسان النوراني الخالد، مستفيضة في وصف إيمانه وشبابه وبطولته، وانطلاقته نحو الموت والشهادة :

سَأَلَ الضُّحَى أَسْدَافَهُ[4] لَمَّا بَدَتْ فِي لَيْلَةِ القَيْمَتَانِ مُلْتَمِعَاتِ
مَابَالُ مَا أَسْدَلْتِهِ فَوْقَ الثَّرَى وَصَفَوْتِهِ مِنْ حَالِكِ الظُّلُمَاتِ
لَمَّا تَزَلْتِ بِهِ عَلَى هَذَا الحِمَى أَضْحَى مَنُوعَ[5] الشَّمْسِ فَوْقَ رَبَاهُ[6]
فَأَجَابَتِ الأَسْدَافُ إِنَّ مُضَرَّجًا بِدِمِ الفِدَاءِ أَضَاءَ لِي فَسَمَاتِي
لَمَّا لَحَظْتُ رُفَاتَهُ حِلْتُ الضُّحَى يُزْجِي[7] رِكَابَ النُّورِ فَوْقَ سَمَاتِي
سَمْتُهُ فِي التَّوْرَقِ الشَّهِيدَ وَمَاسَهُ إِلَّا الخُلُودُ بِصَفْحَةِ المُهَجَاتِ
مَازَالَ سِحْرُ اللَّيْلِ طَيَّ جَفِيرِهِ يَرْتَاعُ[8] مِنْهُ المُتْرَفُ الخَفَضَاتِ
وَظَلامُ الأَهْرَامِ فَوْقَ جَبِينِهِ قَبَسُ الخُلُودِ يَشِعُّ بِالنَّظَرَاتِ
وَشُعَاعَةُ الإِيمَانِ تُشْرِقُ بَيْنَهَا كَالنَّجْمِ يَسْكُبُ رَائِعَ اللَّمَحَاتِ[9]

ويبدأ المشهد الثاني بوصف مشهد الشهيد المهيء للدفن والانتقال به إلى الحياة الأخرى، حيث مازال الشعور بالحياة ينبض في أعماق الشهيد المدثر بسابري معطر ومعطر كفرد النبي، وفي محيطه الجنائزي،وقد

---

(1) أنواف : م .نوف. ويقال معوف أي ثوب رقيق فيه خطوط بيض وهما بمعنى خطوط بيض.
(2) خلائل :م.خلالة، شعار يلبس تحت الثوب أو تحت الدرع.
(3) يسوف : هنا يشم.
(4) أسداف : م.السدفة: الضوء وتكون أيضا الظلمة، وهذه طبيعة الأضداد في اللغة العربية.
(5) منوع الشمس : ارتفاعها.
(6) رباة : الربوة: ما ارتفع من الأرض.
(7) يزجي : زجاء إزجاء:دفعه وساقه برفق.
(8) يرتاع : رتع رتعا. والمرتع مكان للخصب.
(9) هكذا أغني- ص107 - 110.

احضرت أعواد الزان اليابسة التي تحمله، وامترج الحنوط والطيب بالريحان الأرلي وعبير الخلد، وتراءى نعشه مضيئا بشموع من الفردوس، ووقفت مواكب مهيبة لتوديعه الوداع الأخير بمشاعر الإجلال والحب والحيرة والأسى والبحث عن كلمات للتوديع والدعاء:

أَعْوادُ زَانٍ[1] كُنَّ فِي كُثُبِ الْبِلَى - صُفْرًا لُبِذْنَ بِأَبْشَعِ الْكَسَرَاتِ
حُمِّلْتَهُ فَأَعَادَهُنَّ عَرَائِسًا - تَخْضَلُّ[2] فَوْقَ الْهَامِ مُؤْتَلِقَاتِ
وَكَأَنَّ بَيْنَ حُنُوطِهِ[3] رَيْحَانَةً - أَرْلِيَّةً هَرَبَتْ مِنَ الجَنَّاتِ
نَسَمَتْ عَبِيرَ الخُلْدِ طَيَّ سُتُورِهِ - وَتَرَعْرَعَتْ فِي رَيِّقِ النَّفَحَاتِ
وَتَرَى الشُّمُوعَ الْمُوقَدَاتِ لِنَعْشِهِ - شُعَلاً مِنَ الفِرْدَوْسِ مُبْتَعَثَاتِ
تَهْتَزُّ وَالِهَةً وَتُغْضِي رَهْبَةً - كَوَادِبٍ فِي الرَّكْبِ مُسْتَحْيَاتِ !
وَالسَّابِرِيُّ[4] غَلَالَهُ مِنْ طِيبِهِ - بُرْدُ الْحَيِّ مُعَطَّرُ الصَّفَحَاتِ
لَفَّ الشَّهِيدَ مُطَهَّرًا فَحَسِبْتُهُ - مَلَكًا تَهَيَّأَ مَهْدُهُ لِسُبَاتِ
حَارَتْ شِفَاهُ الهَاتِفِينَ حِيَالَهُ - مَاذَا تَنُصُّ لَهُ مِنَ الدَّعَوَاتِ[5]

وينتهي هذا المشهد بوصول الشهيد إلى مثواه الأخير، حيث يزرع الحياة في أحواء القبور وأجساد الموتى وبخاصة الشهداء السابقين. وتبعث الأرواح، وتسودها نشوة الفرحة والسعادة باستقبال هذا القادم الجليل بعد أن كان يغمرها وحشة وتوجس وترقب قبل قدومه. وها يؤكد الشاعر مضامين تلك الآيات الكريمة التي كرمها بها الله الشهداء، ويصفهم مثلما وصفهم الله تعالى بأنهم حقا أحياء، وهم خصائص الأحياء من انتشار وتواصل :

وَدَنَا الشَّهِيدُ مِنَ القُبُورِ فَأَرْعَشَتْ - طَرَبًا بِمَقْدَمِ نَعْشِهِ فَرِحَاتِ
كَحَمَائِمٍ نَزَحَتْ فَظَلَّ سِرْبَهَا - ضَلَّ اسْتِشَاءِ بِوَحْشَةِ الفَلَوَاتِ
جَثَمَتْ عَلَى الكُثْبَانِ تَنْظُرُ السَّنَا - وَأَتَى الصَّبَاحُ فَهُنَّ مُنْتَشِيَاتِ
حَتَّى إِذَا وَافَى الحَمِيمَ كَأَنَّهُ - وَحْيُ السَّمَاءِ، مُبَشِّرُ الآيَاتِ
كَادَتْ عِظَامُ الهَالِكِينَ تَخَشُّعًا - لِجَلَالِهِ تَعْطُفُ فِي الطُّرُقَاتِ
وَتَعُودُهَا الأَرْوَاحُ مِنْ فَرَحٍ بِهِ - وَتَظَلُّ حَتَّى البَعْثِ مُبْتَهِجَاتِ
مِنْ مِثْلُ هَذَا الحَيِّ ؟ كُرِّمَ مَوْتُهُ - مِنْ سَائِرِ الأَحْيَاءِ وَالأَمْوَاتِ[6]

---

(1) زان : نوع من الشجر اليابس لا يسقى إلا بالمطر.

(2) تخضل : ابتل وندى.

(3) الحنوط : كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم.

(4) السابري: الثوب الرقيق.

(5) هكذا أعني - ص 111-113.

(6) المصدر نفسه - ص 114.

<< وبعد أن يوارى جثمان الشهيد تبرز خيوط مشهد جديد، يتفاعل مع المشهدين السابقين ويكملهما، وهو مشهد شاعر تحت الغاب -هو الشاعر نفسه- يعزف قصيدة حزينة يرثي بها أرواح الشهداء، فتسري له واحدة منهن، وتنكر عليه هذا اللحن الباكي، وتطلب منه أن يحطم آلته التي يعزف عليها، وأن تشدو لها وطنيا يزيد أنفاس الشهيد ضراما، وليكن هذا اللحن قصة حياة الشهيد ذاته >>(1):

وَثَبَتْ لَهُ رُوحٌ تَفِيضُ حَمَاسَةً - وَمَضَتْ تُلَوِّمُهُ بِكُلِّ لِسَانِ
مَالِي أَرَاكَ عَلَيْكَ ثُرْتَ فِي نَغَمِ الأَسَى - وَفَوَاجِعِ الأَحْلَامِ وَالخَفَقَانِ؟
حَطِّمْ رَبَابَتَكَ الَّتِي تَشْدُو بِهَا - وَاقْذِفْ نَشِيدَ الهَمِّ وَالحَسَرَاتِ
وَاصْدَحْ لَنَا بِقَصِيدَةٍ وَطَنِيَّةٍ - تَدَعُ الشَّهِيدَ مُسَعَّرَ النَّشَوَاتِ
أَسْمِعْهُ فِعْلَتَهُ... فَإِنَّ حَدِيثَهَا - سَمَرُ الزَّمَانِ بِهَذِهِ الخَلَوَاتِ(2)

واستحاب الشاعر لرغبة روح الشهيد، وغير لحنه الشعري، وراح يتغنى بجمال الطبيعة المصرية الساحرة التي استأثر بها المحتل الغاشم، وحرم أهلها، وكبتهم بأقسى القيود، وحينئذ تفجرت النفوس الشابة بالثورة وتصدى العدو لهم بالحديد والنار. فاستشهدوا في ميدان الخلود ويربط الشاعر آخر المشهد بأوله بهذا الحوار الضمني بين روح الشهيد وبينه بعد أن شدا لها قصة كفاح الشهداء المضيئة والخالدة. إذ راحت هذه الروح تعبر عن افتتانها بتلك الأبيات المدحية واهتزازها في الأكفان بهذا الشعر الخالد، الذي يعيد لها الحياة في الدنيا مع نعيمها بحياة الجنة والخلود:

يَا شَاعِرًا غَنَّى فَكَادَ نَشِيدُهُ - يَهْتَزُّ فِي الأَكْفَانِ مِنْهُ رُفَاتِي
هَذَا خَيَالُ الخَالِدِينَ، فَغَنِّنِي - وَأَعِدْ بِشِعْرِكَ لِلشَّبَابِ حَيَاتِي(3)

وكشفت قصيدة أخرى "إني سائر للخلود" (4)، وإن كانت أقل من سابقتها روعة فنية عن حسه الديني الذي لمسناه في أي غرض من أغراضه الشعرية. كرر فيها مآثر الشهيد من إتقان وفداسة، وبطولة وجهاد في صياغة شعرية ممتزجة بصور الدم والموت، والحرية والحق، والطهر والتقوى. وصور قتومة حياة الشهيد -على الرغم من موته- بمشاعر التأثر والتأثير المتبادلة بين الأرض والسماء ويرفضه لعنف الكلمات المرونقة والاحتفاءات الصاخبة والمواقف الباكية بسموه نحو النعيم والخلود، وتحبيبه للشهادة بدعوة الجميع للمشي في ركابه من أجل الحياة الحرة أو الموت في سبيلها.

---

(1) شعبع السيد- هكذا أغني- ص295.
(2) المصدر نفسه -ص116.
(3) المصدر نفسه -ص118.
(4) انظر المصدر نفسه ص119- 125

وهذا الربط بين الحياة والموت، والدنيا والآخرة في وحدة زمانية، هو منطلق الرؤية الإسلامية للزمن التي تنتزع الفاصل بين الدنيا والآخرة. فإذا بالشهيد الممزق الجسد الذي يحسبه الناس ميتا هو عند الله حي يرزق. فالشهادة في سبيل الله رؤية زمانية، تتحطى الأبعاد الظاهرة، وتعبّر عن وحدة الحياة الزمنية.(1)

وتتجلى هذه الوحدة الزمانية للحياة التي تربط عالم الشهادة بعالم الغيب في رؤية شعرية أكثر جلاء وعمقا في قصيدة أخرى "موسيقا من الشهداء"، وهي قصيدة رائعة لما بواعثها الروحية التي تشكل ذلك البعد الزماني للحياة لمعرفة سر هؤلاء الشهداء الذين اقترن اسمهم بكل القيم التي تمتد بامتداد الزمن والحياة، وتسمو نحو السماء، وتفيض فيض الأرض الطيبة. وكان الشاعر في هذه القصيدة مع هذا الامتداد المرئي واللامرئي للشهداء فهو تارة معهم في الأرض، وتارة أخرى في السماء. وتتحرك أفكاره وتتدفق صوره مع الدماء والتراب، والصراخ والقيود، والنور والضياء، والطيور والعبير، والله والملائك، والأرائك والخلد. ويتساءل في بداية القصيدة، وتساؤله للتمجيد والغناء ماذا يغني لهم؟ وماذا تحبره كلماته ونغماته بعد احتفاء وتقديس الأرض والسماء لهم؟ ،وقد عرفوا طريق الخلد واتجهوا إليه بالعمر والروح، واليسر والنور، والحب والحلم، والدم والوجود:

مَاذَا أُغَنِّي ؟
وَالسَّمَاءُ بِقُدْسِهَا وَنُورِهَا غَنَّتْ لَهُمْ
وَالأَرْضُ لَمْلَمَتِ العَبِيرَ، وَضَمَّخَتْهُ بِعَاطِرٍ مِنْ ذِكْرِهِمْ
وَاللهُ قَرَّبَهُمْ، مَدَّ العَرْشَ أَظْلاَلاً لِرَفْرَفِ خُلْدِهِمْ
وَبِرُوحِهِمْ وَبِسِرِّهِمْ...
بِدِمَائِهِمْ، وَبِفِدَائِهِمْ، وَبِمَضَائِهِمْ...
قَطَفُوا الحَيَاةَ بِمَوْتِهِمْ(2)

فوجودهم هو وجود هذا التراب الحر الذي يصرخ تحتهم يطالبهم بالإيمان بالحرية والحق، فيحيون الفداء بدمائهم ومضائهم وفدائهم وموتهم... لكنهم يقطفون الحياة بذلك الموت، ويؤكد هذه الحياة اليانعة بقسمه بالله تعالى، والقسم توكيد لما وعد وأقر به الله لأناس مؤمنين عرفوا طريق الله وآمنوا به وبايعوه بعمرهم :

وَاللهِ مَا مَاتُوا
وَلاَ عَرَفَ البِلَى عَرَقاً بِجِفِّ جُسُومِهِمْ
عَرَفُوا طَرِيقَ اللهِ.. فَاتَّجَهُوا إِلَيهِ
...وَبَايَعُوهُ بِعُمْرِهِمْ(3)

---

(1) محمد عادل الهاشمي - الإنسان في الأدب الإسلامي - ص 472.

(2) موسيقا من السر - ص 103 - 104.

(3) المصدر نفسه - ص 104.

ويعود الشاعر ليتعرّف أكثر على هؤلاء الشهداء العارفين لطريق الله،ليبدي تساؤلاته المثيرة "من هؤلاء؟" ثم سرعان ما يجيب،لأن الإجابات تملأ كل فضائه الشعري،ويكرر كلمة "شهداء" ليعزف سمفونيتهم للقداسة وليتعرف على مثلهم وقيمهم وإصرارهم وإيمانهم ويعرفهم بعد أن رأى اليأس قد بدده اليقين بعزمهم،والأرض ترفع رأسها من يأسهم، والغار تغسله دماء جرحهم والذل يحصده الإباء بكبرهم وكرامة الأوطان تهرج باسمهم:

شُهَدَاءُ.. خَشْعُ كُلِّ ذَرَّاتِ الفَضَاءِ لِهَالَةٍ مِنْ طُهْرِهِمْ
وَتَمِيسُ رَايَاتُ المَعَارِكِ كُلَّمَا نَشَقَتْ مَعَارِجَ عِطْرِهِمْ...
شُهَدَاءُ، صَوْتُ الحَقِّ جَلْجَلَ كَالآذَانِ مُخْلِفاً مِنْ صَوْتِهِمْ
شُهَدَاءُ، رِيحُ العَصْرِ هَبَّتْ مِنْ لَظَى قَبَسَ اللَّظَى مِنْ صَبْرِهِمْ
ذَخَرُوا أَسَاطِيرَ الطُّغَاةِ، وَلَفَّقُوهَا آيَةً مِنْ ذِكْرِهِمْ
وَمَضُوا... وَيَمْضِي كُلَّ يَوْمٍ لِلفَرَادِيسِ زَائِرٌ مِنْ رَكْبِهِمْ
حَتَّى تَعَرَّدُ فِي التُّرَابِ حَقِيقَةٌ تُشْجِي سَرَائِرَ طَيْرِهِمْ[1]

وتجاوز زمانهم المحدد بسلسلة من التعارف المعنوي والحسي مع الشهداء إلى زمان لانهائي غيبي. حيث عرج بروحه إلى السموات العلى وطرق باب الخلد ليسأل عن روضهم وأرائكهم،وعن أملاك الجنة وطيورها التي ترفرف حولهم. فعلم علم اليقين بأن الله كرمهم ونعم بالشهادة قربهم، وأنزلهم منزلة منزلة الأنبياء. فلم يجد إلا أن يجيّهم تحية حاشعة،ويعترف بأنهم أسمى من الغناء والشعر بعد حكمة السماء :

حَيَّتَهُمْ فِي كُلِّ شِبْرٍ أَهْتَكُوا فِيهِ سَلاَسِلَ قَيْدِهِمْ
وَعَزَفْتُ بِالأَوْتَارِ حَتَّى شَارَفَتْ أَنَّاتُ النَّبْوَةِ حَوْمَهُمْ !
وَطَرَقْتُ بَابَ الخُلْدِ أَسْأَلُ: أَيُّ رَوْضٍ فِي الأَرَائِكِ ضَمَّهُمْ ؟
وَبِأَيِّ رَفْرَفِ جَنَّةٍ أَمْلاَكُهَا وَطُيُورُهَا حَظِيَتْ بِهِمْ
فَعَلِمْتُ أَنَّ اللهَ كَرَّمَهُمْ وَنَعَّمَ بِالشَّهَادَةِ قُرْبَهُمْ
مَاذَا أُغَنِّي ؟
وَالسَّمَاءُ يُقَدِّسُهَا وَنُورُهَا غَنَّتْ لَهُمْ
فَإِذَا شَدَوْتُ !
فَلَنْ أَكُونَ سِوَى صَدًى لِقَصِيدَةٍ مِنْ شِعْرِهِمْ [2]

---

(1) موسيقا من الحبر - ص106.

(2) المصدر نفسه -ص 106 ـ 107.

5-الـثـــورة المصـرية أو ثـورة يـوليو 1952 :

ولعل الثورة الكبرى التي سجلها شعره هي ثورة 23 يوليو 1952م ، التي تعتبر تاريخا لمصر ولكل العالم العربي، وعاملا رئيسا مؤثرا في تطور العلاقات على الصعيد الدولي والمحلي، فضلا عن كونها حركة سياسية واجتماعية في آن واحد.(1)، ودون استعراض كل الأحداث التاريخية لهذه الثورة، مايهمنا هو بعدها الاسلامي والديني عند الشاعر. فبعد أن مجد قيام الثورة على مبادئ الجهاد والشهادة وأرادها أن تكون ثورة شاملة ليس للتحرر والاستقلال وإبعاد المستعمر، بل للقضاء على كل آثاره المادية والمعنوية، وذلك بسحق كل الظلام الذي يعشعش فيه الذل والضلال، والقهر والظلم، والتحرر من كل صنوف الرق النفسي والاجتماعي والسياسي.

وقد عرفنا البعد الاجتماعي لهذه الثورة لما سجل أسباب قيامها من عمق الأرض ودخان الأكواخ، وأشلاء الفلاحين للقضاء على الإقطاع وقوانين الملكية المحتكرة، والفوارق الاجتماعية الفظيعة. وكان الحل الثوري دافعا للعدل والحق أملا في استرجاع الأرض وتحقيق العدالة الاجتماعية(2).

ويتضح معنى الحق أكثر لما ربط قيام هذه الثورة بحدة السماء أي بعون الله وقدرته ودعوته له عز شأنه لإنبات البذور الصالحة في الحياة.

بَعْدَمَا شَابَتِ الرَّزَايَا عَلَى مِصْرَ - أَتَتْهَا السَّمَاءُ بِالنَّجْدَاتِ
دَهَمَ الفَجْرُ لَيْلَهَا بِضِيَاءٍ - مِنْ أَكُفَّ مُسَمَّرِيحِ الكُمَاةِ
بِضِيَاءٍ مِنْ نُوَّرَةِ الشَّعْبِ قَامَتْ - تَرْفَعُ الرَّأْسَ حُرَّةَ الوَثَبَاتِ
دَمَّرَ البَغْيُ والفَسَادُ بِشَطَّيْهَا - وَأَحْيَا بُذُورَهَا الصَّالِحَاتِ
دَهَمَ الفَجْرُ لَيْلَهَا بِصَبَاحٍ - مُشْرِقٍ ابْتَثَّ رَائِعَ النَّهَضَاتِ
تَحْمِلُ الحَقَّ وَالحَيَاةَ لِشَعْبٍ - أَوْرَدُوهُ مَهَاوِيَ المُهْلِكَاتِ
حَيِّ رَبِّي يَا أَيُّهَا الشَّعْبُ...هَذَا - يَوْمُكَ الحَيُّ بَعْدَ طُولِ المَمَاتِ(3)

ويتسع البعد الديني للثورة لما يريدها أيضا ثورة روحية وأخلاقية، وذلك بسحق الفساد الروحي والأخلاقي مع ظلام الاستبداد والاستعمار، ولعلنا من خلال عنوان القصيدة "طريق الضياء" نستشف هذا المعنى للثورة لما يصور بداية طريق الضياء الثوري بعد هلاك وتيه، وضياع ويأس، يقول :

---

(1) انظر- عبد العزيز نوار- تاريخ العرب المعاصر مصر والعراق- دار النهضة العربية- بيروت-1973م- ص275 ومابعدها.

(2) انظر- الرؤية الإجتماعية- مبحث العدالة الاجتماعية - الحل الثوري .

(3) نار وأصفاد- ص118.

بَدَأْنَا نُمَزِّقُ ثَوْبَ العَدَمْ - وَنَلْبَسُ بِابْتِعَثٍ وَجْهَ الشَّدَمْ(1)
بَدَأْنَا كَمَا بَدَأَ الهَالِكُونَ - إِذَا العُسْرُ فِي جَانِبَيْهِمْ أَلَمْ
بَدَأْنَا كَمَا بَدَأَ التَّائِهُونَ - رَمَى الفَجْرُ نَاظِرَيْهِمْ عَلَمْ
بَدَأْنَا كَمَا انْتَبَهَ الضَّائِعُونَ - عَلَى صَيْحَةٍ مِنْ هَدِيرِ القِمَمْ
بَدَأْنَا كَمَا انْتَفَضَ اليَائِسُونَ - عَلَى ثَوْرَةِ النُّورِ فِي لَيْلِهِمْ(2)

وتتبع الشاعر دلالات النور في كل رؤاه الشعرية. فثورته على نفسه كانت من أجل النور، كذلك ثورته على الواقع ، مؤكدا أن الإنطلاقة الأولى يجب أن تبدأ من النفوس من أجل الوصول إلى الغايات الأخرى،وهذا فبدايات هذه الا نتفاضة يجب أن تكون ثورة أخلاقية وروحية، وذلك بالقضاء على بعض المشاعر والأخلاقيات والعلاقات مع الله والنفس والمجتمع... واكتساب الوجود الروحي الذي يؤهل حتما إلى اكتساب وجود اجتماعي وسياسي يسير به نحو الحرية،والحياة الحقيقية التي تحكمها المبادئ والقيم والأخلاق. فعمى في قصيدته يرسم حياة شعبه قبل أن توقظه الثورة. وقد استطاع أن يلخصها بأنها كانت عدما، إذ كانت مصاهر الحياة الكريمة قد اختفت،ولم يعد سوى كرامة ممزقة،وكلمة مفرقة، وأخلاق وضيعة،ونفوس بالية(3).

بَدَأْنَا وَفِينَا الأَسَى وَالهَوَانْ - وَفِينَا العَذَابُ وَفِينَا السَّقَمْ
وَفِينَا قُبُورُ طِوَالُ الأَنِينِ - عَنِيَّاتُ الرَّدَى لَيْلُهُ مُنْغَمِمْ
وَفِينَا الظَّلَامُ المَنِيفُ الفَسَادِ - يُعَشِّشُ فِيهِ خَرَابُ الذِّمَمْ
وَفِينَا المَظَالِمُ وَالظَّالِمُونَ - وَحُوشٌ وَبِيدٌ وَمَرْعَى غَنَمْ
وَفِينَا الكَرَامَةُ مُمَزَّقَةٌ - كَمُحْتَفَلَةٍ نَوْتُهَا النَّهَمْ
وَفِينَا الإِبَاءُ الجَرِيحُ الوَقَارِ - كَشَيْخٍ بِعَارِ الصَّبَا مُنْتَشِمْ
وَفِينَا المَذَلَّةُ لِلْغَاشِمِينَ - كَأَنَّا وَمَ يُضَاعُوا حَشَمْ
وَفِينَا الدَّمِيمَةُ قَدِيمَةٌ - تَدُمُّ الرَّدَى فِي عَبِيرٍ وَسَمْ
وَفِينَا الخِيَانَةُ أَفْعَى وُحُوشٍ - تُرِيقُ امْتِنَانَكَ إِذْ تَبْتَسِمْ
وَفِينَا النِّفَاقُ،عُطُورٌ تُسَاقُ - وَفِي زَهْرِهَا فَتِيكَاتُ النِّقَمْ
وَفِينَا الرِّيَاءُ، وَفِينَا الحَيَاءُ - رِيَاءٌ حَيٌّ احْتَضَا كَالسَّأَمْ
وَفِينَا الجِيَاعُ، وَفِينَا لَهُمْ - قُلُوبٌ مُتَيَّمَةٌ بِالعَتَمْ
وَفِينَا التَّعَبُّدُ بِالخَائِرِينْ - نُصَلِّي لِمَنْ حَارَ أَوْ مَنْ ظَلَمْ(4)

---

(1) السدم: م. سديم : الضباب .

(2) نار وأصداء -ص112.

(3) انظر- د/ أحمد أحمد بدوي- شعر الثورة في الميزان -دراسة تحليلية نقدية موازنة- مكتبة مصر- الفجالة- ط3-ج1- ص45-46.

(4) المصدر نفسه. ص112-113.

وكان دقيق الحس، شديد الانفعال تما يدور حوله من مظاهر النقص في أبناء هذا الوطن،منها أن هذه المشاعر والأخلاقيات والرذائل، والتي ساهم الاستعمار في إيجادها أيضا بوسائله المشروعة وغير المشروعة، ونواياه الظاهرة والباطنة،يجب محاربتها من النفوس، وذلك بمحاربة الجور والظلم، والهوان والشقاء، والضلال والآثام،والتي لاتكون إلا بالصحوة التي تحمل سر العودة إلى الله والفلاح والنجاة والقوة والنصر، والبعث لقوم هلكى:

صَحَوْنَا... وكُنَّا الرَّمَادَ الهَشِيمَ - فَعُدْنَا النَّطَى العَسَارِحَ الخُتَّمْ
تَـــفَجَّ بِنَا تَوْبَةٌ لِلْقُبُودِ - وَآثَـارَ عُـمْرٍ طَوِيلِ التَّـنَمْ
سَبَحْنَاهُ فِي خِضَمِّ الضَّلَالِ - عَلَى زَوْرَقٍ رِيحُهُ تَحْتَقِمْ
وَنُهْنَا عَنِ اللهِ فِي فَـتْـرَةٍ - تَعَايِيلُهَا زَائِشَاتِ السَّقَمْ(1)

لقد أدرك الشاعر سر نجاح الثورات في الحياة، والتي يجب أن تكون ثورات روحية قبل أي شيء آخر، تحكمها الفطرة الإنسانية،والنواميس الكونية،والغيب والحق الإلهي.

وانطلقت الثورة ومن شعائرها الكبرى شعيرة "الله أكبر" التي تزأر بها الأرواح والشفاه، وتهتز لها كل الجمادات، ويفزع منها الأعداء، وتصهر الجند مع الملائكة. وكانت هذه الشعيرة اللفظية تمييزا لثورات أمتنا والتي كانت ثورات يشدها الأصل الروحي إلى إخلاء وإكبار كلمة الله. وكانت للشاعر وقفة تاريخية فيها استذكار للقوة الروحية "الله أكبر" التي تداولتها العصور الثورية لهذه الأمة، وكانت بدايتها زعزعة مجد الروم والفرس، وإفزاع ملوكها، يقول :

اللهُ أَكْبَـرُ قَدْ فَسَرَّتْ فُوَتَـهَا - وَأَنَّهَا تَحْتَمِي فَوْقَ الثَّرَى جَـبُ
مَنْ مَسَّهَا بَعْثَرَتْ فِي الأَرْضِ رَايَتُهُ - وَزَاحَ مِـنْ صَهَوَاتِ الـمُلْكِ يَنْقَلِبُ
لاَ أَوْحَدٌ لاَ وَحِيدٌ كُلُّنَا بَـشَـرٌ - وَغَـمَّ ذَلِكَ لِلْبُهْتَانِ يَحْتَـسِبُ
رَدَّدْتُـهَا.. فَإِذَا التِّبْيَانُ مُفْزِعَةٌ - كَتَائِبَ الطَّيْرِ سَدَّتْ أُفْقَهُ السُّحُبُ(2)

وكانت للشاعر أيضا وقفة شعرية مع الجيش الذي عبر بتوان عن تقديم أوراق التجنيد للانضمام الثوري، حيث لم تخرج صورة الجيش ومبادئه عن التصور الإسلامي للشاعر،فهو قد بعث العدو في لمح البصر عند آذان فجر الثورة، كأنه موكب من السماء جاء لنصرة الحق والنور، وكأنه كتائب من الحق تقذف العدو بالإيمان والنور،والله معها يشد أزرها،ويسلط عقابه على العدو :

مَا بَيْنَ طَيْفِ الـكَرَى، أَوْ لَحْظَةِ البَصَرِ - كَانَتْ حُـصَادَكَ هَمْ أَمْضَى مِنَ القَدَرِ
بَغَـتَّـهُمْ .. وَأَذَانُ الـفَجْـرِ مُرْتَفِعٌ - رِكَابَ دَابِغَ لِـنُـورِ الـحَقِّ مُنْتَصِرِ
تَـلَفَّتُوا.. فَإِذَا الأَبْـطَالُ سَاحِـقَـةٌ - بِنَا سَتَأْتِي بِهِ مِنْ فَاجِـعِ الـنُّـذُرِ
وَالـدَّهْـرُ يُمْعِنُ فِي الإِصْـغَاءِ.. مُتَّحِفًا - بِـبَـثِّـنَ بِالـقَـلْـبِ وَالأَسْـمَاعِ وَالْبَصَرِ..

---

(1) نار وأصفاد-ص 113.

(2) المصدر نفسه ص 164.

كَأَنَّهُ بُرْدَةٌ خَيَّمَ السَّمَاءُ بِهَا - أَسْوَارَ حِصْنٍ بِالأَسْدَالِ وَالسُّتُرِ
مَا بَيْنَ إِمَّاعَةٍ أَوْ بَعْضِهَا.. انْتَبَهُوا - لِكَوْكَبٍ مِنْ سَمَاءِ الحَقِّ مُنْحَدِرِ
تَلَفَّتُوا.. فَإِذَا الأَصْنَامُ تَقْرِبُهُمْ - مِنَ الحَيَاةِ، وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الحَجَرِ
صَعَقَتْهُمْ بِعِقَابِ اللهِ تَقْذِفُهُ - كَتَائِبُ الحَقِّ بِالإِيمَانِ وَالسُّوَرِ(1)

لم تكن تلك الثورة التي انطلقت من كل مكان، ومن جميع الفئات الاجتماعية والتي أنصفتها السماء بالحق والنور، وباركها الله، ومنحها المدد الروحي. إلا أن تؤدي إلى النصر، هذا النصر الذي تتوّج بالعزة والكرامة، والحرية والإيمان، والفضل الإلهي، وقد قال تعالى ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.﴾(2) ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ.﴾(3)

وهذا النصر الإلهي يؤكده الشاعر، وهو يشهد هزيمة المحتل، وبشائر النصر، وعودة المنتصرين، وأجواء الجلاء، وقرارات التأميم... يقول في قصيدة "شجرة الحرية" التي أنبتها الله بعد زمن من الكفاح والتضحيات والمآسي:

أَنْبَتَ اللهُ لِمِصْرَ دَوْحَةً - تَسْكُبُ العِزَّةَ مِنْ قَلْبِ الثَّمَرْ
نَوَّرَتْ حُرِّيَّةً... وَارْتَفَعَتْ - فِي سَمَاءِ النِّيلِ ضَحَّاءَ الزَّهَرْ
أَيْقَظَ الشَّرْقَ ضُحَاهَا فَسَعَى - رَكْبُهُ لِلشَّمْسِ وَثَّابَ الشَّفَرْ(4)

وكان يوم الجلاء في 18 يونيو 1954 م، حيث انقشع إلى الأبد آخر ليل من ظلام الاستعمار ورحل آخر جندي من جنود الاحتلال عن أرض القناة. فيروي الشاعر في قصيدة "يوم الخلاص" قصة السياسة التي مرت بها مصر ويدعو إلى الشموخ والنشوة بعد أن ولى زمن الاستعباد، وبعث الله الثورة، وكان يوم الخلاص والقضاء على الظلم، ويوم نهاية الاستعمار. وكان يوما منتظرا كيوم المعاد والنشور، وكان غضب الله عليهم غضبة ما ثلّت أحقادهما مضى لما سلطها على قوم عاد، الذين عاثوا في الأرض ظلما وفسادا، والقصص القرآني يشهد عليهم بذلك ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ.﴾(5) واستعان الشاعر بهذه الحادثة لتأكيد تكرار الظلم في الأرض الذي لابد له من نهاية قاضية كقضاء السماء والقدر والغيب :

---

(1) نار وأصفاد -ص107-108.
(2) آل عمران- 126.
(3) آل عمران-160.
(4) المصدر نفسه ص120-121.
(5) الفجر-6-8.

ارْفَعِ الرَّأْسَ... يَا أَخِي... فَلَقَدْ مَاتَ وَوَلَّى زَمَانُ الإِسْتِعْبَادِ
ارْفَعِ الرَّأْسَ... إِنَّهُ فَلَقُ البَعْثِ، حَدَا اللهُ نُورَهُ لِلْعِبَـــادِ
ارْفَعِ الرَّأْسَ... جَبْهَةُ الشَّمْسِ نَادَتْكَ، فَزَلْزِلْهَا عَمِيقَ الرُّقَـادِ
بُعِثَتْ مِصْرُ مِنْ جَدِيدٍ،وَأَلْقَى شَعْبُهَا الحُرُّ آخِرَ الأَصْفَـــادِ
إِنَّـهُ يَوْمُهَا المُخَلَّدُ فِي التَّارِيخِ - يَوْمُ الخَلاَصِ، يَوْمُ المعَـــادِ...
وَأَرَاهُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ يَوْمًا - هُوَ يَوْمُ النُّشُورِ، يَوْمُ التَّنَادِي
بَعْدَ سَبْعِينَ أُمْهِلَتْهُمْ.. أَطَلُّوا - فَإِذَا الشَّرْقُ حَفْنَةٌ مِنْ رَمَادِ
وَإِذَا نَـارُهُ هَشِيمٌ... ذَرَتْـهُ - غَضْبَةٌ أُخْتُهَا أَطَلَّتْ بِعَادِ(1)

ويدعو الشاعر مصر بعد أن شعر بمعاناتها ومشاعرها المؤمنة،لكي تواصل السير بكل عزم وثقة، وأمل وإيمان في طريق الحق على الرغم ما شاب ثورتها من تأويلات وحلفيات :

يَامِصْرُ! وَالفَجْرُ الجَدِيدُ تَرَى - يَسْرِي بِعَزْمِ اللهِ.. لاَ تَهِنِي
سِيرِي.. فَمَنْ كَانَتْ قَوَافِلُهُ - تَلْحَقُ.. ذَكَّ مَعَاقِلَ الزَّمَنِ..
سَارَتْ.. وَلِلأَقْدَارِ فِي يَدِهَا - مَا لِلْعُهُودِ بِقَلْبِ مُؤْتَمِنِ
وَالزَّحْفُ مَوْصُولُ الكِفَاحِ إِلَى - شَطِّ بِوَجْهِ الشَّمْسِ مُقْتَرِنِ
فِي رَاحِـرٍ بِالنُّورِ، مَدَّ بِـــهِ - شَوْقُ الرِّيَاحِ حَوَانِحَ السُّفُنِ
تَجْرِي وَيَحْدُو اللهُ مَوْكِبَهَا - مِنْ كُلِّ غَـدَّارٍ وَمُضْطَغِنِ(2)
مَلاَّحُـهَا مِنْهَا... وَمِنْ يَـدِهِ - يَمْضِي الزِّمَـامُ بِهَا إِلَى القُنَنِ
وَاللهُ نَـاصِـرُهُ.. فَكَـمْ زَأَرَتْ - هُوجُ الخُطُوبِ فَطَاحَ بِالحَنَنِ(3)

على الرغم من ابتعاد الشاعر عن المهاترات والمعارك الحزبية والسياسية،وعدم طغيان الصراع الحزبي والمدح السياسي في شعره. فإنه وقع في خوض بعض المعارك،ونزل بشعره إلى بعض المهاترات والانزلاقات، ولم تكن له في ذلك تجارب سياسية متمرسة وإن تحولت فيما بعد إلى تجارب أكثر نضجا وخبرة بالحياة والناس.

فالشخصية السياسية الأولى التي اتصل بها هي الملك فاروق ولم يحاول من خلال اتصاله بقصره منافسة شعراء البلاط الذين مدحوا طمعا في مال أو منصب، فمدحه لم يكن من أجل بلوغ أهداف شخصية ولا من أجل تمجيد ذاتية الملك، ولم يتناقض مع الأهداف العامة التي رسمها لنفسه،حيث كان مدحه بعيدا عن التملق والنفاق، واتخذ الطابع الاجتماعي والوطني والإنساني. حيث كان بإمكانه أن تستغل صلته بالملك ومدحه إياه من أجل خدمة قضايا ذاتية معينة وإنما ربطه بقضية الفلاحين والبائسين ومظاهر الظلم والإقطاع. فكان

---

(1) نار وأصفاد-ص127-128.

(2) مضطغن : حاقد، من الضغينة، الحقد.

(3) المصدر نفسه-ص 135-136.

نداءً للعدالة الاجتماعية، وإيقاظا للشعور الإنساني من أجل إخراجهم من أتون البؤس والحرمان والمرض والجهل .وامتزجت جل قصائد ديوانه " الملك " بذلك، فذكر العمال والفلاحين، وصور الأرض والجوع، والفقر والرق،والقرية والمدينة ومظاهر الفوارق الحياتية فيهما،ومدح اتجاهاته الخيرية والإصلاحية والوطنية والدينية. ففي قصيدته "نور من الله "، يربط مدحه بقضية الفقراء. قائلا :

فَارُوقُ كَمْ رُحْتَ فِي البَلْوَى تَهَدْهِدُهَا - وَمَنْ سِوَاكَ إِذَا تَطْغَى البَلِيَّاتُ ؟
كَمْ بَائِسٍ كُنْتَ سُلْوَانًا لِكُرْبَتِهِ - لَوْلَاكَ مِنْ دَمْعِهِ يَرْوِي وَيَفْتَاتُ
وَكَمْ شَقِيِّ الثَرَى، عَارِي الأَدِيمِ، مَضَتْ - رَفْرَافَةً مِنْكَ نَحْوَهُ السَعَادَاتُ
وَكَمْ حَرِيفٍ عَلَى الأَكْوَاخِ أَهْلَكَهُ - نَدَاكَ، فَهُوَ رِيَاحِينٌ وَأَيْكَاتُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ شُعَاعٌ أَلَقُ ذَهَبَتْ - تَطُوفُ مِنْكَ بِهِ لِلنِّيلِ دَارَاتُ
عَطْفٌ، وَبِرٌّ، وَإِحْسَانٌ وَمَرْحَمَةٌ - يَا قَوْمُ مِنْ هُنَا تَزْكُو العِبَادَاتُ.(1)

وفي قصيدة أخرى "لما رآك الخيارى" يربط مدحه بقيمة الحب والإخلاص لوطنه مصر، فيقول :

أَعَدْتَ لِلنِّيلِ عَهْدَ السَائِرِينَ بِهِ - لِغَايَةٍ تُنْشِدُ الأَفْلَاكَ أَوْطَانَا
وَكَانَ فِي غَفْوَةٍ سَكْرَى، فَأَنْعَشَهُ - وَرْدَةُ طَرْفِكَ اليَقْظَانُ يَقْظَانَا
إِذَا جَرَى فِيهِ إِعْصَارٌ، وَقَفْتَ لَهُ - وَرُحْتَ تُلْقِي عَلَى جَنْبَيْهِ بُرْكَانَا
مِصْرَ الَّتِي وَهَبَتْكَ الحُبَّ مَا عَرَفَتْ - إِلَّاكَ قَلْبًا هَمَا فِي الرَّوْعِ غَضْبَانَا
نَشَرْتَ فِيهَا هَوَى الأَحْرَارِ فَاحْتَشَدَتْ - وَقَاسَمَتْكَ الهَوَى شَيْبًا وَوِلْدَانَا(2)

وكثيرة هي النماذج المميزة لمدحه -ولا مجال للتوسع فيها-، ويبقى أن نشير إلى ظهور تأثره بشعراء التراث القديم في المدح،حيث بدت ملامح من مدحيات المتنبي خاصة، معتمدا على النمط القديم في عرض صوره ومعانيه،وإن اتضحت ملامح التجديد الشعري لجعله الطبيعة دائما ووسيلة للمزج الفني. كما كثرت المبالغات الشعرية في مدحه -والتي عدّها الدارس ثابت محمد بداري حسنة فنية تحسب عليه لا له- بحجة أنها تمس جوانب دينية، لكن احترامه وحذره واضح في الديوان من المساس بعقيدته، إذ يعود دائما إلى أن القداسة والتفرد الحقيقي لله والرسول والإسلام.

كما أنكر عليه ديوان "الملك" جملة، واعتبره انزلاقا حصلوا في حياته الشعرية،ورفض الأعذار التي تلمسها بعض الدارسين لأخطاء الشاعر،وإرثائه في أحضان مدح الملك فاروق، حيث ذهب بعضهم إلى أن سبب ذلك هو نشأته في ظل التراث العربي، وكان أقرب الشعراء إليه أبو تمام والمتنبي وكلاهما من كبار المداحين، وذهب آخرون إلى أن سبب هذه المسايرة ماأشاعه رجال القصر حول تقى الملك ومبادراته الطيبة لخدمة الشعب، وذلك لخلق تيار شعبي يقف إلى جانب القصر في مواجهة الحماية الإنجليزية.(3)

---

(1) الملك- شركة فن الطباعة-ط1 1946م- ص14.

(2) المصدر نفسه- ص55.

(3) قضية الفلاح في شعر محمود حسن إسماعيل ص112.

المبحث الثاني

قضايا الأمة العربية الإسلامية

1- العراق

2- الجزائر

3- المغرب الأقصى

4- فلسطين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومهما يكن من أمر مسايرة الشاعر لهذا الملك، ثم تحوله عنه بكشوفه عن أعماله وآرائه الإصلاحية. فإننا لم نجد تحولا إلى ملك أو حاكم آخر،بعد أن اتسعت مواضيعه السياسية حيث لم يخص الرئيس جمال عبد الناصر إلا بقصيدة "البيعة" في ديوانه "لابد"، ربط مدحه بانجازاته ومشاريعه الإصلاحية والوطنية،وانتقال مصر من مرحلة الثورة والتحرر إلى مرحلة البناء والإصلاح،وإعادة حقوق الفلاح والعامل بتقسيم الأراضي، وتأميم القناة، وبناء السد العالي، وربط اللفظة الإسلامية "المبايعة" بفكرة الإصلاح والإخلاص:

بَايَعْتُ ثَائِرًا... وَهَمُّهَا خُلُود
رَدَّ القَنَاةَ كِبْرُهَا الشَّدِيدْ
عَلَى سَنَاهَا كِبْرُ الشَّهِيدْ
وَانْتَحَرَتْ مِنْ يَأْسِهَا القُيُودْ
وَمِنْ صَدَاهَا ارْتَعَدَ الوُجُودْ
وَانْدَحَرَ المُسْتَعْمِرُ العَتِيدْ...
وَقُبَّةُ الشَّمْسِ حُرَّةُ الظَّافِرُ
بِجَبْهَةِ السَّدِّ.. بِوَجْهِ نَاصِرْ[1]...

ثم سكت عن المدح والنقد،على الرغم مما أسفرت عليه ثورة يوليو 1952م من تناقضات وتوجهات سياسية غامضة،أثرت في مسار الحياة السياسية والاجتماعية لمصر[2]. وابتعد عن المواقف الإرتجالية اتجاه شخصيات وأحداث معينة،قد تؤدي به إلى اضطراب رؤيته الشعرية أو إفراطها ومبالغتها،أو إجحافها وحصرها. وارداد صمته لما استقر في الكويت وابتعد عن الواقع السياسي المصري، وإن بقي يتذكر من حين لآخر بعض زعماء السياسة الوطنية مثل "مصطفى كامل" الذي أشاد بوطنيته وإخلاصه وجهاده وروحه الإسلامية كما في قصيدته "الشعاع المقيّد"[3].

---

(1) لابد، ص 24-27.

(2) انظر- فصل الرؤية الاجتماعية- مبحث العدالة الاجتماعية.

3 لابد، مكة، ص 176 177.

ارتبط الحديث عن الأقطار العربية والإسلامية بمصطلح الشرق. وقد حاول كثير من الشعراء أن يعبروا عن كل تلك الأقطار باسم الشرق،إلا أنه يجب علينا أن ندرك أن مفهوم الشرق مفهوم مطاطي ومضطرب، لاختلاف الكثيرين حوله اتساعا وضيقا، إطلاقا وتقييدا،تبيّنت ثلاثة مدلولات رئيسية من وراء استعمال لفظة الشرق في الشعر على وجه التحديد:

1- ورود كلمة الشرق مطلقة في الشعر بمدلولها الواسع لأمم الشرق قاطبة،بحسب المصطلح الجغرافي الشامل الذي يشمل عدة أجناس دينية مسلمين ونصارى ويهود بوذيين وسواهم،والذي يعني به اليوم الشرق الأدنى والشرق الأوسط والأقصى.

2- يراد بالشرق الأمم الإسلامية ومن جملتها العرب، أما الغرب ارتبط في الأذهان بالأمم غير الإسلامية وتميزت بالغزو منذ عهد الصليبية.

3- يراد به الشرق العربي أو الشعوب العربية وحدها.(1)

وبامتزاج المفهوم الجغرافي مع المفهوم السياسي والديني رسخت في النفوس العاطفة الشرقية بعد اليقين بأن البلاء شمل العرب والمسلمين، وبعد آراء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وشكيب ارسلان ورشيد رضا وسواهم من أعلام المفكرين،الذين أولوا بلاد الشرق عنايتهم في دعواتهم ومؤلفاتهم. وثمة دلائل كثيرة تفيد أن عددا من الكتاب والشعراء استعملوا الشرق بمعنى الإسلام لأن معظم المسلمين يقطنون في الشرق،حتى بعد اختلاط التصور الإسلامي بمفهوم العروبة فيما بعد. إلى جانب الذين لم يفهموا الشرق فهما إسلاميا خاصة المسيحيين العرب الذين رأوا أن الشرق لايمكن أن تطلق على قطر إسلامي غير بلاد العرب أو شعب غير عربي(2). وتقلص شيئا فشيئا مفهوم الشرق في المرحلة الأخيرة وانحسر ليطابق الشرق العربي،على أن المفهوم الإسلامي للشرق لم تخف حدته عبر السنين، على الرغم من تبدل مفهومه ضيقا واتساعا، وطغيان الروح القومية والإقليمية فيما بعد،التي نادت في تقليص المفهوم العربي والإسلامي للشرق بتقسيم الواقع العربي إلى مشرق ومغرب... وراح البعض من الإقليميين المتأثرين بالفكر الاستعماري الخطير إلى اعتبار أن الشرق يعني مصر وسوريا ولبنان والعراق وفلسطين وكل الأقطار المتاخمة له،وغض الطرف عن المغرب العربي الذي هو جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير.

ومن خلال استقرائنا لشعر محمود حسن إسماعيل تبين لنا أنه وظف كلمة الشرق بمدلولها العقائدي لا الجغرافي حتى وهو يقيم فاصلا بينه وبين الغرب الذي يمثل نقيضه الروحي والإنساني، فهو يجمع كل حدود الوطن العربي والإسلامي -باعتباره يمثل الشرق الإسلامي- ولم يعبر فكرة تقسيم هذا الشرق إلى إسلامي

---

(1) عمر الدقاق -الاتجاه القومي في الشعر الحديث- منشورات جامعة حلب- ط3- 1977-ص95 96.

(2) انظر وليم الخازن - الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية من مطلع النهضة إلى عام 1939- دار المشروق- بيروت- ص65 وما بعدها.

وغير إسلامي أو عربي وغيرعربي، لأن اهتمامه الشعري حول الشرق العربي لم يخل من المفهوم الديني المرتبط بالعروبة ولم يقسم أيضا هذا الشرق العربي إلى مشرق ومغرب، لأن نظرته الإسلامية لمفهوم الشرق بدأت باهتمامه بقضايا الشرق العربي بمشرقه ومغربه وازدادت اتساعا بحديثه عن الوحدة العربية والإسلامية.(1)

إن الوضع الذي ابتليت به مصر لم يكن مقصورا عليها فقط إنما امتدت إلى كل الأمة العربية، ولم يكن الشاعر أسير وطنه الصغير بل امتدت مشاعره وأفكاره لتحتوي وطنا أكبر، ولم تختلف نظرته إلى الثورة والحرية عن النظرة الدينية السابقة،حيث استمر ذلك الشعور الديني مرتبطا بهذه القضايا الوطنية والسياسية. وتتبع الواقع الثوري في كل من مصر وسوريا والعراق، كما تتبعه في الجزائر والمغرب،وكانت نظرته نظرة موحدة.

ففي قصيدة "الله والشرق" دعوة لله عز وجل لمد العون والرحمة والفرج لأمتنا وهي تعاني الاستعمار، وما انجرّ عنه من جهل وفقر، وتخلف وتمزق، ولم يجد الشاعر أمام هذه الخطوب والمآسي إلا اللجوء إلى الله لأن المدد الروحي الذي يؤمن به،لم يكن اقتباسا من ذلك المفهوم الذي يدور حول القدرية والتواكل والسلبية، وإنما من دواعي الشعور بالقوة الغيبية التي لا يمكن أن تنسى في جو من الأهوال والنكسات، وفي ظل المأساة الاستعمارية التي مثلها الاحتلال على هذه الأمة العربية،راحت تزأر من الأصفاد بالدعاء إلى مفرج الكروب :

رَبَّاهُ ضَاعَ السِّرُّ مِنْ يَدَيَّا - وَأَطْبَقَ اللَّيْلُ عَلَى عَيْنَيَّا
وَلَمْ أَجِدْ فَوْقَ الحَيَاةِ مَيِّتَا - يُعْفِي العَذَابَ الهَادِرَ الخَفِيَّا
إِلاَّ نِدَائِي فِي الدُّجَى.. يَا رَبَّ!...
حَمَّتْ(2) بِنَا القُيُودُ وَالسَّلاَسِلُ - وَهَاجَتْ الأَوْكَارُ وَالبَلاَبِلُ
وَرَاعَ فِينَا الغَاصِبُ المُحَاتِلُ - وَاخْتَلَطَتْ فِي لَيْلِنَا النَّوَازِلُ
يَا رَبِّ فَجْرًا عَاجِلاً لِلْكَرْبِ...
وَصَفَّدُوا فِي غَابِهِ الأَحْرَارَ - فَمَلأُوا قُلُوبَهُمْ أُوَارَا
مِنْ أَيْنَ جَاءُوا شُرَّدًا حَيَارَى - وَكَيْفَ جَاسُوا هَذِهِ الدِّيَارَ؟
يَا لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هُبِّي!...
رَبَّاهُ مَا فِي الشَّرْقِ جُرْحٌ لاَ يَئِنّ - وَلاَ عَلَى الأَمِيمِ قَرَّ وَضَنّ
فِي كُلِّ وَادٍ مِنْهُ مِنْ بَقَايَا الزَّمَنّ - نَارٌ وَأَحْرَارٌ وَبَلْوَى وَفِتَنْ
رَبَّاهُ زَلْزِلْ فَيْدَهُ يَارَبّ(3)

---

(1) انظر مبحث الوحدة.

(2) حمت : يقال حم الوحي : حضر في الحمى وهنا حضنتنا الفتنة والسلاسل.

(3) ديوان الصفصاف ص 69 72.

1- **العـــراق** : عاصر الشاعر في العراق معاصر أحداث 14 تموز 1958م، حيث توالت مواكب الزحف العربي الظافر بانتفاضة العراق ضد القوى الحاكمة المستبدة،والموالية للاستعمار والاحتكار. وكانت روح ثورة مصر وسوريا، وما أخر عن ذلك من تغيرات سياسية،منها إعلان الوحدة المصرية السورية سببا في نجاح الانتفاضة الشعبية التي قادها عبد الكريم القاسم في تحطيم النظام القديم والتحرر من كل القيود التي كبلت العراق في الداخل والخارج[1]. وهتف الشاعر في قصيدة "شعلة على دجلة" بهذه الانتفاضة، واعتبرها شعلة أضاءت نهر دجلة في العراق المظلم، برجع السلام، وهزيع الحب، وابتسام الأهلة:

كَانَ لَيْلٌ... لَمْ يَشْهَدِ الشَّرْقُ مِثْلَهْ - أَفْزَعَ اللهُ مِنْ دَيَاجِيهِ شُعْلَهْ
شُعْلَةٌ... كُلُّ ذَرَّةٍ مِنْ سَنَاهَا - جَمِيعُ الأَحْرَارِ فِي الأَرْضِ قِبْلَهْ
شُعْلَةٌ... رَجَّعَ السَّلاَمُ عَلَيْهَا - هَزَجَ الحُبِّ، وَابْتِسَامَ الأَهِلَّهْ
وَجَرَى مِنْ ضِيَائِهَا النُّورُ، يَسْرِي ضَمَاً البَعْثِ قَبْلَ أَوَّلِ وَهْلَهْ
وَيَسُوقُ الحَيَاةَ، تَرْحَفُ كَالإِعْصَارِ، كُلُّ الآفَاقِ نَزَّارُ حَوْلَهْ
هَاتِفًا بِالقُيُودِ، لاَ قَيْدَ بَعْدَ اليَوْمِ! عُودِي.. فَالنُّورُ دَفَّقَ سَيْلَهْ[2]

ويشيد بهذه الانتفاضة التي امتدت أصولها الثورية من نهر النيل وأرض الشهباء -ويقصد بهما مصر وسوريا- من أجل بعث ديني يعيد إليها النور والحب والسلام وبعث تاريخي لحضارة إسلامية عريقة،وبعث حياتي فيه عز وكرامة وحرية... تشد أزرها جندة السماء -أي عون الله-:

كُنْتَ لَيْلاً... فَذُقْ مَصِيرَكَ وَاشْهَدْ مَارِدَ البَعْثِ يَسْبِقُ البَعْثَ ظِلَّهْ
أَيْنَمَا سَارَ، حَوَّمَتْ رَايَةُ الأَحْرَارِ - تَلْقِي عَلَى جَنَاحَيْهِ قُبْلَهْ
مَرَّ بِالنِّيلِ.. فَانْتَهَتْ فِعْلَةُ القَيْدِ وَبَادَ الطُّغَاةُ مِنْ كُلِّ مِيلَهْ
وَبِأَرْضِ الشَّهْبَاءِ شَعَّ ضِيَاءٌ - أَمُوِيُّ العَلاَ، يُعَانِقُ أَهْلَهْ
وَتَرَامَى ضُحَاهُ فِي الشَّرْقِ فَاشْتَعَّ - صَحْوَةُ البَعْثِ فِي شَوَاطِئِ دَجْلَهْ
وَزَمَانُ المَأْمُونِ تَصْحُو لَيَالِيهِ - عَلَى فَجْرِ أَلْفِ لَيْلٍ وَلَيْلَهْ
وَالأَنَاشِيدُ، وَالمَوَاكِبُ وَالرَّايَاتُ فِي كُلِّ سَاحَةٍ وَمَحَلَّهْ[3]

2- **الـــجزائـــر** :

وينتقل إلى بقية أجزاء الشرق المأسورة والمختلة، ويشعر بأصفاد ونيران الجزائر، التي لم يثل وطن مثلها باستعمار رهيب وطويل دام مائة وثلاثين سنة،عاث في أرضها الطاهرة ومقدساتها وشعبها الاستعمار الفرنسي بكل أنواع الفتك والدمار،وجعلها الشاعر جزءا كبيرا من هذا الشرق الذي لاينفصل عنه حتى في قيوده

---

(1) انظر- عبد العزيز سوار- تاريخ العرب المعاصر مصر و العراق-ص 537 وما بعدها.

(2) نار وأصفاد- ص145.

(3) المصدر نفسه ص146.

وهمومه... فيدعوه إلى اليقظة والبعث والثورة، فلا تخمد نيران هذا الشرق ولا تعلو أصوات الفجار حتى تتحرر كل أراضيه في المشرق والمغرب. فهو يشهد ثورة مصر عام 1952م، يجد نفسه مع الجزائر أيضا في قصيدة "على الشرق نار"، معبرا عن مشاعره المتألمة لهذا الوطن المأسور :

عَلَى الشَّرْقِ نَارٌ!وَلِلشَّرْقِ ثَارْ!
وَأَيْنَ النَّهَارْ ؟ فَتَصْحُو الدِّيَارْ
وَنَحْيَا مِنَ الصَّوْتِ تِلْكَ الذِّمَارْ(1)
وَتَنْزِعُ عَنْ سَاعِدَيْهَا الإِسَارْ
وَعَنْ مُقْلَتَيْهَا الأَسَى وَالصَّغَارْ
وَذُلاًّ تَهِيمُ بِهِ فِي القِفَارْ
تُغَنِّي لِمَنْ أَوْرَدُوهَا الدَّمَارْ
وَسَاقُوا مَوَاطِنَهَا لِلْخَسَارْ...
بَقَايَا عَبِيدٍ بِأَشْلاَءِ دَارْ
أَهَذَا هُوَ الشَّرْقُ؟ يَا لِلْفَخَارْ (2)

ومن خلال دلالة كلمة الشرق التي صاغها من أجل الوطن العربي الإسلامي جميعا ومنها الجزائر، يتبين لنا رد الشاعر على دعاة التفرقة، وعلى أولئك الذين يقصدون فصل المغرب عن باقي الأمة العربية من استعماريين وإقليميين،وربط الجزائر بالمشرق العربي يعني ربط بين الأم والأمل بين أبناء الأمة. فإذا تألم فرد هنا، تألم آخر هناك .وهذا الارتباط والانتساب والتحاوب،حتى في الألم،كان متبادلا صادقا بين المشارقة والمغاربة.(3)

فالشاعر الجزائري مفدي زكريا الذي كان من شعراء جيل محمود حسن إسماعيل يشعر بهذا الارتباط العميق بالمشرق، قائلا :

قُدْسُ العُرُوبَةِ وَالآيَاتُ شَاهِدَةٌ - مَاانْفَكَّ تَغْمُرُهُ، حُبًّا طَوَايَانَا
وَحُزْمَةُ الضَّادِ فِي الأَجْيَالِ، مَافَتِئَتْ - يَرْتَاشُ مِنْ نُبْلِ مَعْنَاهَا تَحَانُّانَا
وَالجُرْحُ مَاانْفَكَّ فِي أَكْبَادِنَا غَدَقًا - يَسِيلُ مِنْ دَمِهِ المَسْفُوكِ عِطْفَانَا
وَالمَغْرِبُ الحُرُّ لا تَخْبُو لَوَاعِجُهُ - بِالشَّرْقِ مَاانْفَكَّ مَشْحُورًا وَوَلْهَانَا(4)

---

(1) الذمار: هو كل ما يلزم حمايته وحفظه والدفاع عنه. وإن ضيعه لزمه اللوم وقيل سمي ذمار لأنه يجب على أهله التذمر له أي التغضب له.

(2) نار وأصفاد-ص83.

(3) انظر- عبد الله الركيبي- قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- مطبعة الشمس- تونس- 1983- ط1- ص101 وما بعدها.

(4) اللهب المقدس- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر 1983م- ص296.

وشعراء المشرق ومنهم محمود حسن إسماعيل طبعا،لم يتوانوا عن إعطاء حق الثورة الجزائرية التي اندلعت عام 1954(1)،وكان لها صدى واسعا وصيتا خالدا بالعناية والاحتفاء بأحداثها،وكواسن اندلاعها، وقداسة غايتها والتفاؤل بانتشاع الغيوم الباغية من سمائها، والإصرار على إلحاقها بركب الشرق الثوري.

وكانت قصيدة "زهرة من عذاب" نداء شعريا،ثوريا -كما أورد في مقدمتها- إلى سدرة النضال العربي المنيع، العزلاء التي قهرت حديد الطغاة، وحيّرت بطش الاستعمار، وكانت الآية الكبرى لنضال الشعب العربي في أرض الجزائر العربية الباسلة،التي سيكتب لها النصر المبين على ذئاب السين. وكانت أيضا تنديدا بأفعال المستعمر الحاقد المنتشر في كل الوطن العربي.

ولم يخرج الشاعر عن نطاق نظرته للحرية والثورة التي ارتبطت دائما بثورة الإيمان والنور والحق. الثورة التي تنهض باسم البعث والشهادة، وتكبيرة الله، ودعاء الأحرار، وقسم الثوار، وزئير الأرواح، وبلغة الحديد والنار، والنشيد والإلهام، يقول :

كُلَّمَا أَنْفَذَ المُعَذِّبُ سَوْطًا - فِي شَذَاهَا،وَأَطْلَقَ الرُّعْبُ غُولَهْ
وَقَفَتْ كَالزَّمَانِ كَالْغَيْبِ، كَالإِيمَانِ، تُجْرِي عَذَابَهُ وَغَلِيلَهْ...
زَهْرَةٌ؟ أَمْ قِيمَةٌ لِكِفَاحِ الرِّقِّ؟ - أَمْ قِصَّةُ الفِدَاءِ الطَّوِيلَهْ؟
أَمْ نَشِيدُ الأَيَّامِ؟ أَو ثَوْرَةُ الإِلْهَامِ ؟ أَمْ غَضْبَةُ الحَيَاةِ الذَّلِيلَهْ ؟
أَمْ دُعَاءُ الأَحْرَارِ ؟ أَمْ قَسَمُ الثُّوَّارِ ؟ أَمْ تَوْبَةُ اللَّيَالِي "جَمِيلَهْ" (2)

3- المغرب الأقصى :

وتوكيد هذا الارتباط بين المشرق والمغرب،اتضح أيضا في قصيدة "المغرب الثائر" التي كانت من أجل كفاح الشعب في المغرب العربي -أي المغرب الأقصى- ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم عام 1951م(3)،حيث أكد على وحدة الهموم والقيود التي لابدها من يقظة وبعث وثورة :

لاَتَسَلْ عَنَّا، وَلاَ أَيْنَ حِمَانَا ؟ - وَحَّدَ القَيْدُ عَلَى الدَّرْبِ خُطَانَا!
كُلَّمَا حَنَّتْ بِنَا أَصْفَادُهُ - فَجَّرَتْ لِلبَعْثِ صُبْحًا وَأَذَانَا...

---

(1) مولود قاسم نايت بلقاسم- ردود الفعل الأولية داخلا وخارجا على ثورة نوفمبر- دار البعث- قسنطينة- الجزائر- ط1- (1404هـ-1984م)-ص 50.

(2) نار وأصفاد- ص-158.

ونلاحظ في البيت الأخير اسم "جميلة" وهي إحدى البطلات الجزائريات التي اشتهرت في التاريخ والأدب، مع من اشتهر من أبطالها وشهدائها لأنها كانت ثورة كل الأطفال والشيوخ، وكل الرجال والنساء. وكانت التضحيات جسيمة بالغة والروح حتى كان حق النصر بعد مليون ونصف مليون شهيد.

(3)انظر:جلال يحي- المغرب الكبير- الفترة المعاصرة وحركات التحرر والاستقلال- دار النهضة العربية- بيروت-1981م- ص227-228.

هذه الأيام تترى[1] حولنا كلما رمت بنا زادت فتوانا
شابت الأغلال في أرواحنا وغدت في الشرق رخا ورخانا[2]

ومسايرة الشاعر لثورة المغرب لم تكن بتوحيد تلك الهموم والقيود،بل بتوحيد التاريخ والإشادة بالماضي الذي يربط بينهما،والحافل بالمفاخر والأمجاد، فذكّر بطارق بن زياد،ذلك الفاتح الإسلامي الذي امتدت رايته من المغرب الكبير إلى الأندلس -ورمز إليها بقصر الحمراء- والتي ما فتئ أن دال صيتها الحضاري. وإشارته إلى ضياع الأندلس،يعني ضياع جزء من الأمة الإسلامية، مؤكدا بذلك انتساب الأندلس إلى هذا الشرق الإسلامي المفرق،وغرضه شد أزر الثورات المتفجرة في كل جزء منه بتلك القيم الإسلامية الخالدة :

فامض لا تسأل على الهول سوانا واسأل التاريخ عنا والزمانا
عربي ساجل الشمس العلى وتوازت وهو يجتاب الرعانا[3]
ضاق أفق الشرق عن أعلامه فطوى الغرب، ولم يفقد سنانا
لم يزل "طارق" في أحفاده يخطب الدهر ويستفتي البيانا
ذلك أرض التين[4] فاسأل نهرها كيف لباه سهولا وجنانا
واسأل الحمراء عن تاريخها أو فدعها تتحدى الحدثانا
لاذت الدنيا على أعتابها ثم دالت :ربّ ما أعلاك شانا[5]

ونخلص في النهاية إلى أن معالجته لقضية الثورة في المشرق والمغرب كانت معالجة إسلامية لإبرازه الوجه الجهادي للإسلام أيام الفتوحات لأن حقيقة الإستعمار مرتبطة بحقيقة المسيحية الذي مافتئ أن يطبق ضد أبناء هذا الشرق الكبير سياسة عنصرية حاقدة تسعى إلى كبت المشاعر الإسلامية، وطمس الواقع الإسلامي عن طريق الحملة العسكرية حينا والحملة التبشيرية حينا آخر. ومن ثم فإن الشاعر كان يرى في الجهاد ضد الإستعمار امتدادا لجهاد المسلمين ضد الكفر، وأن القيام الثوري لا من أجل وضع حد للتطلع والسلب، والفتك والتنكيل فحسب بل مواجهة ضد الصليب المسيحي من أجل إعلاء أعلال الإسلامي، وامتدت المواجهة لمحاربة اليهودية والصهيونية أيضا والتي اتضحت في رؤيته لقضية فلسطين التي سنفصل الحديث فيها باعتبارها أبرز وأعقد قضية في التاريخ السياسي.

---

(1) تترى : تتابع وتتوالى.
(2) نار واصفاد-ص86.
(3) الرعان : م. الرعن والرعان أو الرعون الجبال العظيمة.
(4) التين : نهر كبير في شمال فرنسا.
(5) المصدر نفسه -ص86-87.

4- فلسطين :

لا يمكن إنكار أن القضية الفلسطينية تحتل مساحة جيدة من اهتمامات الفكر السياسي للإسلاميين باعتبار خلفية الصراع ضد الاستكبار الصهيوني العالمي وباعتبارها واحدة من أهم القضايا السياسية التي تعاني منها الأمة الإسلامية. فالقضية الفلسطينية التي مازلنا نعيش فصولها المأساوية حتى يومنا الحاضر،هي المحرك الأول للهمم والباعث الرئيسي على كل تغيير في حصن شتى أنحاء الأمة العربية والتي أصبحت تعيش في أجواء القضية التي حرمتها نعمة الإستقرار والسعادة، وجعلتها تواجه حضما من المشكلات التي لاحصر لها. وكانت هذه القضية في مقدمة القضايا السياسية العربية التي احتلت مكان الصدارة في الشعر العربي منذ أن بدأت خيوط المؤامرة الصهيونية الإستعمارية على هذا الجزء من الوطن العربي المسلم. وكان الشعراء الذين انفعلوا بها هم أول من دق ناقوس الخطر، ورفع الصوت عاليا ومدويا من أجل أن تستيقظ الأمة العربية على هذا الخطر الجسيم الذي يهدد كيانها ووجودها. ولم يتخلف شاعر قط عن القيام بدوره المفترض، فحفل الدواوين الشعرية تتضمن القصائد الكثيرة التي تصور عمق المأساة، وأدوارها المتكاملة منذ تاريخها الطويل حتى يومنا الحالي ولعل تطورات هذه القضية التي مرت بمراحل مختلفة دفعت بأكثر الدارسين إلى اختيار المنهج التاريخي أكثر من المنهج النقدي،تقويما وتفسيرا ومقارنة. وتقسيم هذا الشعر وفق هذا المنهج الذي يساير القضية وتطوراتها زمنيا وسياسيا إلى ثلاثة أقسام أو ثلاث طبقات من الشعراء:

القسم الأول : يتحدث عن قضية فلسطين منذ ظهورها على مسرح السياسة حتى نكبة 1948م

القسم الثاني : يتناول الفترة التي تلتها وامتدت حتى نكسة يونيو 1967م

القسم الثالث: يتناول الفترة مابعد النكسة حتى يومنا الحاضر.(1)

لم تكن كارثة فلسطين بالأمر الذي يخص أهلها فحسب، ولكنها كانت كارثة عظمى حلت بالعالم العربي الإسلامي كله، التي صهرت كثير من التجارب الشعرية ودفعت إلى مواكبة النضال والجهاد والثورة من أجل قيم الإنسان العربي المسلم وآماله في البقاء والحرية مهما كانت الأسباب والظروف.

ولم تكتف هذه التجارب بالحديث عن حاضر قضية فلسطين، وإنما رجعت إلى الماضي أيضا بتصوير المؤامرة من بدايتها، وإعادتها إلى الأذهان وربطها بالواقع، محاولة لتحسيس صورة النكبة، ودفع الناس إلى الوعي بأبعادها ماضيا وحاضرا، والإجابة عن الأسئلة الكثيرة عن مظاهر النكسة وكيفية الخروج منها،وعن سير الأحداث الاجتماعية والسياسية، وعن المصير والمستقبل.

وكثر هذا الشعر الذي كون علاقة ممتدة ومعقدة كامتداد وتعقد القضية الفلسطينية بفعل بروز التيارات السياسية والمفاهيم القومية والإقليمية المختلفة، والذي يهمنا هنا هو الشعر الذي كان عامل الدين الإسلامي من

---

(1) انظر - محمد مبيريك بسيار- الوظيفة الإعلامية للشعر الإسلامي المعاصر في قضية فلسطين- دار عالم الكتب- الرياض- السعودية-ط1-(1405هـ 1984م) ص110.

أكبر حوافزه،وأقوى مظاهره وراء كل حادث من حوادث البلدان العربية الإسلامية التي مني جميعا بكارثة الإحتلال، حيث كان وتر الدين عاملا قويا في الوقوف إلى جانب كل بلد عربي إسلامي ومناصرته استجابة لنداء العاطفة الدينية، ورغبة في تكتل المسلمين جميعا للوقوف أمام كل كارثة صفا واحدا، وتوجيه النظر إلى المعنى السامي في الوحدة العربية الإسلامية. ولهذا لم يأل هذا الشعر جهدا في مناصرة قضية "فلسطين" والحث على جمع الكلمة لإنقاذ هذه البلاد المقدسة من براثن الصهيونية،والدعوة إلى تأييد حق العرب والمسلمين فيها، وربط القضية كلها برابطة الإسلام بتحليل القضية من الوجهة الدينية والتاريخية.(1)

وانقسام الشعراء إلى ثلاث طبقات حسب الترتيب الزمني منذ ظهور القضية حتى يومنا الحاضر، وجدنا الشاعر محمود حسن إسماعيل ينتمي إلى الطبقة الثانية. هذه الطبقة التي كانت أفضل من سابقتها من حيث الشعور بالقضية << إذ أحست بالخطر الجاثم على أرض فلسطين فأعطت القضية وقتا أكبر مما أعطته سابقتها، وبعضها مشارك في الجهاد العملي،دفاعا عن أرض الإسلام فلسطين. كما نشأ بين أفراد هذه الطبقة رعيل من الشعراء الذين خطوا خطوات كبيرة في طريق الالتزام. فكان شعرهم يصدر عن عقيدة إسلامية صادقة، ليس فيه دخن ولا دجل، وإن كانوا قلة بين جمع كثير من الشعراء التزموا بأفكار علمانية أو يسارية>>(2). ومن أشهر شعراء مصر الذين انفعلوا بالمحنة واتقدت عواطفهم أسى لفلسطين هم أحمد محرم، علي محمود طه، محمود حسن إسماعيل، ونأسف لعدم عثورنا على أشعار في هذا الغرض لأكبر شعراء مصر أحمد شوقي وحافظ إبراهيم .(3) وفي مجال حديثنا عن عواطف الشعراء في هذه القضية نجد أن بعضها اصطبغت بالصبغة الدينية أمثال أحمد محرم وأبي الوفا محمود ومحمود حسن إسماعيل، بتمجيدهم للحق والعدل والحرية، وثورتهم على الظلم والباطل والاستعباد وتأكيد مكانة فلسطين لدى العرب والمسلمين.(4)

تعد هذه القضية من أبرز القضايا السياسية التي حظيت بانشغال واهتمام كبيرين من نفس الشاعر، وآية ذلك أنه ألمع إليها في أكثر من ديوان، بل خصص لها عدة دواوين كديوان "صلاة ورفض" الذي يضم عدة قصائد تؤكد أنه عاش قضية فلسطين،كما عاش قضية وطنه،حيث لا يرى فرقا بين واقعه الوطني والواقع العربي الإسلامي. وكذلك ديوان "التائهون" الذي اتسم بوحدة الموضوع. وكان << قصيدة حب إلى فلسطين مطولة، متعددة المقاطع، منوعة المشاهد>>(5).

وكانت الرؤية الإسلامية ملازمة لفكره ووجدانه في وقت كان فيه الشعور القومي بمفهومه السياسي يغلب على بعض الشعراء، ودفعهم إلى النظر في قضية فلسطين وغيرها بمنظار قومي صرف، ولكنه كان ينظر إليها

---

(1) انظر –سعد الدين الخيراوي– العامل الديني في الشعر المصري الحديث– ص167-183.

(2) محمد منير الجباز– الوظيفة الإعلامية للشعر الإسلامي المعاصر في قضية فلسطين– ص119-120.

(3) كامل السوافيري– الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين من سنة 1917م حتى 1955– مكتبة نهضة مصر– الجالة– 1964م– ص350.

(4) المرجع نفسه –ص317.

(5) صابر عبد الدايم– محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة– ص245.

منظور إسلامي حينا، ومنظور عربي حينا آخر. وهو يعبر بحديث أحسن تعبير عن مفهومه للعروبة والإسلام، وهو يتملى مأساتها، ويكشف عن علتها، ويندد بمغتصبيها ويتعاطف مع شعبها، ويصمم بإرادة قوية على تحريرها، وثقة كبيرة على رعاية الله لها، ويرى مناصرته لفلسطين فرضا إسلاميا مقدسا على كل مسلم. لايسلم دينه إن قصر في أدائه، و لم يلب نداء الجهاد. ويعتمد على فلسفة التاريخ في التذكير بأمجادها ومقدساتها وأحوائها الدينية، وتحليل أسباب الفشل واليأس والهزيمة. و لم ينفض يديه عن هذه القضية حتى آخر رمق منه. ولو ذهبنا نستقصي ما قاله الشاعر في فلسطين وقضيتها لامتد بنا شعره إلى كل مراحلها المأسوية منذ عهد بلفور حتى التقسيم، ثم النكبة وبعدها النكسة... مع طابعه الإسلامي الذي يراود أفكاره ورؤيته، ويتلامح في لغته وصوره.

وهذا النصيب الوفير الذي ظفرت به فلسطين من شعر محمود حسن إسماعيل نشعر ونحن نقرؤه كما نقرأ شعر أحمد محرم الذي يشبهه في اتجاهه الشعري الديني في هذه القضية بأنه لا يكرر نفسه، أو ضاقت عليه مذاهب القول. بل تراه كل مرة يفتح آفاقا جديدة ويوقع لحنا جديدا ليس أقل من سابقه قوة، ولا أدنى إثارة. فنقف مشدوهين أمام هذا الفيض الزاخر.(1)

أ- تصوير مأساة الشعب الفلسطيني

إن القصائد التي نددت بوعد بلفور الذي يعود إلى 2 نوفمبر 1917 (2) << لم تكن قد كتبت ونشرت يوم ظهوره بل كانت كلها متأخرة تقال في ذكراه المشؤومة من كل عام.>>(3) وهذا الاهتمام دليل معرفة على أن الوعد هو مصدر الشقاء الفلسطيني. ونرى محمود حسن إسماعيل يتوجه إلى ضمير الإنسانية بزفرة عنى فلسطين الدامية(4) بعد وعد بلفور المشؤوم، مصورا هذا الحدث الخطير الذي كشف عن حقيقة النوايا الاستغلالية والاستيطانية التي تستهدف تشريد وقهر شعب آمن أعزل، وتدنيس أرض إلهية طاهرة راحرة بمقام الإسلام السمحة، محذرا الشرق من معبة ما سيقع فيه غفلة وجهلا وتهاونا:

يَا يَوْمَ "بَلْفُورٍ" وشُؤْمُكَ خَالِدٌ - مَاضَرَّ لَوْ أَخْلَفْتَ هَذَا الْمَوْعِدَا!
عَاهَدْتَ أَعْزَالَ الْجُسُومِ سِلاَحُهُمْ - مَا كَانَ إِلا أَحَقَّ صَاحَ مُقَيَّدَا
وَتَرَكْتَهُمْ رَهْنَ الْمَطَامِعِ تَبْتَغِي - مِنْهُمْ عَلَى حُرِّ الْمَوَاطِنِ أَعْبُدَا..
هَجَمَتْ عَلَى الْغَارِ الْمُطَهَّرِ فِي الدُّجَى - فَأَثَارَ غُرْلَتَهُ وَهَاجَ الْمَعْبَدَا
وَمَقَامُ الإِسْلاَمِ بَيْنَ رُبُوعِهِمْ - كَادَتْ تُرَمِّجُرُ فَقَةً وَتَوَجُّدَا(5)

---

(1) انظر- محمد إبراهيم الجيوشي- أحمد محرم شاعر العروبة والإسلام- ص196-202.

(2) انظر- محمد عزة دروزة- العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وماحولها- دار النكسة - بيروت- ط1 1980م- ج2- ص22.

(3) محمد مهر الخباز- الوظيفة الإعلامية لشعر الإسلامي المعاصر في قضية فلسطين- ص137.

(4) عنوان القصيدة- زفرة على فلسطين الدامية.

(5) هكذا أغني- ص200.

وبعد ذلك الوعد المشؤوم ظهرت فكرة تقسيم فلسطين إلى دولتين،واحدة عربية،وأخرى يهودية،وتقرر تقسيمها عام 1947م[1]، بل أدى ذلك القرار إلى إعلان انتهاء الإنتداب الإنجليزي وقيام دولة إسرائيل عام 1948م[2]. وبدأت حملات التهجم والاستيطان، والتقتيل والاعتداء،وانتزاع الأراضي والممتلكات، و لم يجد الشعب الفلسطيني إلا التشرد في المهاجر العربية،أو البقاء في الحدود تحت الخيام وفي العراء، واتخذ بعدها صفة الغربة واللجوء. وصور وضعيته في قصيدته "اللاجئون"[3] بين الخيام والظلام، وهدير السيول في أرض المعراج، وفي شتاء مقرور الرياح، مسعور العواصف، جرفت أمطاره خيام اللاجئين. ورحل إليهم بسوقي شعره المتدفقة من أعماقه المتألمة إلى مكان لا أهل فيه ولا سكن، ولا عيش ولا عمر... حيث عثر على أناس مشردين،فقدوا وجودهم بفقدان وطنهم،على الرغم من الأرض الواسعة التي تسع كل شريد تائه، فإنهم يعيشون الاختناق والضيق، والتيه والضياع :

في رِحْلَةٍ لاَ تَبْغِي الأَيْنَاءُ وِجْهَتَهَا - وَلاَ يُتَاحُ لَهَا حِلٌّ وَلاَ سَفَرُ
وَلاَ دِيَارٌ، وَلاَ أَهْلٌ، وَلاَ سَكَنٌ - وَلاَ حَيَاةٌ،وَلاَ عَيْشٌ،وَلاَ عُمُرُ...
تَلْتَفُّ.. هَاهُمْ فِي الأَرْضِ إِخْوَتُنَا - تَعَاوَرَتْهُمْ خُطُوبُ الدَّهْرِ وَالغِيَرُ
كَانُوا بِأَوْطَانِهِمْ كَالنَّاسِ،وَانْتَهَبُوا - فَمَاهُمْ مِنْ وُجُودِ النَّاسِ إِنْ ذُكِرُوا
مُشَرَّدُونَ بِلاَ تِيهٍ... فَلَوْ طَلَبُوا - تَحَدُّدَ التِّيهِ فِي الآفَاقِ مَاقَدَرُوا
تَلْقَى الشَّرِيدُ فِجَاجَ الأَرْضِ وَاسِعَةً - لَكِنَّهُمْ بِمَدَى أَنْفَاسِهِمْ حُشِرُوا.[4]

ومن هذا الواقع المأساوي الذي أصبح يعيشه هذا الشعب تحت تلك الخيمة أو الخيام، راح الشاعر يصور آلامهم المادية و المعنوية المتمثلة في الجوع والعري، والمرض والحرمان، بعد فقد الغذاء والكساء والمأوى... وفي القلق واليأس، والحزن والخوف بعد فقد الدفء والأمان والاستقرار:

يَسَامَنْ لِقَوْمٍ عَلَى الأَوْحَالِ تَهْشِمُهُمْ - عُصُولُ الشِّتَاءِ بِرِيحٍ فَجْرُهَا عَكِرُ
مَلْعُونَةُ اللَّحْمِ مَنْ مَسَّتْهُ رَاحَتُهَا - خَفَتْهُ أَفْعَى تَرَى مِنْ نَابِهَا الخَطَرُ
إِنْ لَمْ تُذِفْهُ الرَّدَى هَوْنًا، فَرَحْمَتُهَا - أَنْ تَبْلُزَ السُّلَّ فِيهِ ثُمَّ تَحْتَضِرُ
كَانُوا عَرَاةً. فَعَطِّلِ الْبَرْدَ أَعْطُفُهُمْ - وَانْحُ حَفَّ لَهُمْ بِالسَّوْتِ يَعْتَبِرُ
وَكُتِّكِبُوا فِي مَحَاضَاتٍ يُشَلُّ بِهَا - حَضْرُ ابْرِتَاحٍ وَتَعْتَى نَازِهَا سَقَرُ[5]

---

(1) انظر- محمد عزة دروزة- العدوان الإسرائيلي على القنيطرة والعدوان الصهيوني الخبيث على فلسطين وماحاورها- ج2- ص63.

(2) المرجع نفسه-ص 64 .

(3) القصيدة منشورة في ديوان نار وأصفاد، وكذلك في ديوان التائهون، ومن هذا الأخير وقفنا القصيدة متضمن وحدة الموضوع.

(4) التائهون- دار الكتاب العربي- مصر 1968م- ص39 40.

(5) سقر: جهنم سميت السقرة شدة وقع حرارة الشمس.

مَـابَيْنَ طِفْلٍ تَسْمَدُ الرَّاحُ نَظْرَتَـهُ وَأُمِّـهِ فِي مَضَـاوِي الدَّرْعِ تَنْفَطِـرُ
وَغَـادَةٍ تُمْهِـلُ الأَقْـدَارُ فِتْنَتَـهَا فِي بَـغْتَةِ الأُفْـقِ لَمْ يُدْرِكْ هَا خَبَرُ
طَـارَتْ، وَعَادَتْ، وَصَارَتْ فِي مَفَارِغِهَا حَمَامَـةٌ فِي صَـدَارِ الصَّـيْدِ تَنْتَحِـرُ(1)
وَطَيْفُ عُـرْجُونِ شَيْخٍ فِي تَهَـارِيـهِ مَعَ الْـعَـصَا كَانَ شَبْحًا ثُمَّ يَنْذَثِرُ(2)

ويحظى اللاجيء والخيمة أيضا باهتمام الشاعر في قصيدة أخرى "خيمة البهتان"(3)، فيؤكد المعاني السابقة في صور أخرى، هي من أقوى الصور الشعرية. كصورة الفلسطيني اللاجيء المتشرد وهو كالشبح المطرود الذي لا تسعه أي أرض، يعيش الحيرة والبكاء، والجوع والموت. وصورة الجوع الذي يقتال أطفال اللاجيء كالذئب، والسيل الذي يعترهم كالحون بين مداحل العصر، والموت الذي يطاردهم بالقهر والقفر. وصورة الخيمة التي كانت خيمة بهتان وطغيان وزور، وماوى كلحد الميت، محفور في النسيان، وقد رُمِيَ فيها اللاجيء كدعوة وقفت على باب المقادير، تستصرخ وتناشد، وتوبخ أولئك اللاهين والغافلين الذين يدعون الإسلام والعروبة،وتركوا فلسطين تشكو القيد، وتتجرع الآلام. وتصويره للواقع الحياتي المزري للاجئين على قيم إنسانية الإنسان،وهي الحرية والكرامة والعزة. وهذه القيم هي من أخص خصائص الإنسان المسلم بخاصة ومن دواعي تمسكه بها في الحياة.

ب- تصوير حقيقة اليهود أو بني إسرائيل :

لم ينس الشاعر في خضم حديثه عن فلسطين بأرضها وشعبها، وقيمها ومقدساتها أن يتحدث عن اليهود أو بني إسرائيل الذين مارسوا يشكلون أبرز حلقات الصراع الديني والإنساني منذ القديم حتى يومنا الحاضر، محاولا كشف حقيقتهم الخطيرة التي لا تخرج عن التصور الإسلامي،والتي حددها الإطار القرآني تحديدا تاريخيا وزمنيا، واجتماعيا وعقائديا.(4)

ففي ديوان التائهون -وهو عنوان رمز به لليهود- خصص لهم عدة قصائد هي : قيامة الثأر، وقالت حبة الرمل ،التائهة، التائهون، مخاطبا إياهم بصيغة الإفراد والتأنيث تارة، وصيغة الجمع والتذكير تارة أخرى، ويقصد في كلا الموضعين نفس المعنى والمدلول. فإسرائيل هي مجموعة من قبيلة شعب من الشعوب هم اليهود، والتي تطور مفهومها فيما بعد إلى دولة إسرائيل بعد الاستيلاء القسري على فلسطين في العصر الحاضر.

ولم تخرج قصائده عن الوصف القرآني الذي حوته الكثير من الصور التي تستعرض تاريخهم الذي يأخذ العجب من فيض الآلاء التي أفاضها الله عليهم، ومن الجحود والمنكر المتكرر الذي قابلوا به فيضه المادي

---

(1) تسحر : تخدع.

(2) التائهون- ص42-43.

(3) انظر-المصدر نفسه- ص45-47. القصيدة منشورة أيضا في ديوان نار وأصداء -ص 81 - 82.

(4) انظر- محمد عبد السلام محمد- بنو إسرائيل في القرآن الكريم-مكتبة الفلاح- الكويت- ط1- (1400هـ-1980م).

والروحي. فبعد أن قال فيهم عز شأنه ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(1)، قال فيهم أيضا بعد جحودهم وتمردهم ﴿ ...وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾(2).

من خلال هاتين الآيتين وغيرهما، نلاحظ أنه << لم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود... واعتداء وتنكر للهداة، فقد قتلوا وذبحوا عددا من أنبيائهم... وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء وعصوا أبشع المعصية. وكان كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليس مثلها أفاعيل.>>(3)

وجحودهم لنعم الله، ونكثهم لعهده، ترتب على ذلك حرمانهم الاستقرار والرحمة، وكتب عليهم الذلة والمسكنة، والتشرد والضياع بتحريمه عليهم الأرض المقدسة التي كتبها لهم ووعدهم بها ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ... ﴾(4)، لكن بكيدهم وجبنهم، ونكوصهم وارتدادهم عن طاعة نبيهم موسى، أسلمهم الله عز وجل للتيه والضياع والخسران المبين، ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾(5)، وما فتئوا أن ازدادوا نكرانا وجحودا وكفرا، فزادهم الله لعنة وتيها إلى حين تقوم الساعة.

ويؤكد الشاعر التصاق هذه الصفات بهم في قصيدة "قيامة الثأر" مؤكدا بقوة وحدّة صفة الضياع والتشرد والتيه، هذه الحقيقة القديمة الحديثة التي تمنح الحق للشعب الفلسطيني الآمن الذي زاحموا أرضه وشرّدوه على الرغم من هويته العريقة. وتمنح هذا الضياع والتشرد حكمته الإلهية في تحريم الأرض المقدسة والموعودة عليهم، على الرغم من ادعاءاتهم الواهية والباطلة أمام الدليل الإلهي الذي كان لديه المبررات والدواعي الغيبية والتاريخية التي تجعلهم دائما وأبدا مشردين، تحيرين، ضائعين، لما اقترفوا به من جحود وإنكار، وفساد ونقمة:

مُشَرَّدُونَ أَبَدا... وَأَبَدا مُشَرَّدِينْ !
مُضَيَّعُونَ أَبَدًا وَسَرْمَدًا مُضَيَّعِينْ !
بِكُلِّ نُورٍ شَعَّ لِلْإِنْسَانِ، كُنْتُمْ جَاحِدِينْ
لِكُلِّ إِلْهَامٍ مِنَ السَّمَاءِ، رُحْتُمْ مُفْسِدِينْ
لِكُلِّ دِينٍ أَرْسَلَ اللهُ، ذَهَبْتُمْ مُنْكِرِينْ

---

(1) البقرة- 47.
(2) البقرة- 61.
(3) سيد قطب- في ظلال القرآن- ج1- ص75.
(4) المائدة- 21.
(5) المائدة- 26.

عَنْ كُلِّ شَرْعٍ مِنْ نَبِي جَاءَ، فَمُتُمْ مُعْرِضِينَ
وَكُلُّ هَادٍ مَرَّ بِالدُّنْيَا، وَقُمْتُمْ نَاقِمِينَ[1]

ويصر الشاعر أكثر على كشف حقيقتهم الدينية مستحضرا ما حدث بينهم وبين نبيهم موسى عليه السلام ومقاومته لعبادتهم العجل، مؤكدا ما ورد في القصص القرآني ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾[2]. وإذا واعد الله موسى عليه السلام على الجبل ميعادا ضربه له ليلقاه أربعين يوما، ويصعد موسى الجبل ويترك قومه في أسفله، وفي غمرة شوقه ومناجاته لربه، ينبئه ربه بما حدث ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ؟ قَالَ : هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى. قَالَ : فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾[3]. وهكذا فوجيء موسى بعد مناجاته لتلقي التوجيه الإلهي الذي يقيم عليه حياة بني إسرائيل. وكان أول ابتلاء هو ابتلاؤهم بالعجل الذي صنعه لهم السامري من حليهم وزينتهم، وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار ولاحياة فيه ولا روح فهو جسد، وما كادوا يرون عجلا من ذهب يخور حتى نسوا ربهم ببلاهة فكر وبلادة روح، وأصروا على أنه إلههم وإله موسى الذي راح يبحث عنه في الجبل، ولم يجد موسى بعد رجوعه إلى أن يساقم ويحاججهم في غضب وأسف[4].

ويختصر الشاعر كل تلك الأحداث التي قصّها القرآن الكريم عن موسى وربه وقومه اختصارا شعريا في هذه الأبيات:

"مُوسَى" يُنَاجِي اللهَ فَوْقَ سِينَا
وَأَنْتُمْ لِلْعِجْلِ سَاجِدِينَا
مُحَيِّرِينَ التَّيهَ أَرْبَعِينَا
حَتَّى نُسِخْتُمْ فِيهِ أَجْمَعِينَا[5]

ويتوالى السياق الشعري في مواجهة بني إسرائيل بمواقفهم المتشابهة والمتكررة والدنيئة والمشهودة في التاريخ. كموقفهم الخطير من الدعوة المحمدية ومواجهتهم إياها مواجهة نكراء ومقاومتهم لها مقاومة خفية وظاهرة، بالكيد والعناد، والخبث والنفاق. ولم يفتر عداؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم والتابعين لدينه لحظة،بعدما تبين لهم أن ظهور الإسلام هو طريق للسيادة بامتداد شريعته إلى كل الناس، ومنها ما شرع لهم من منهج مستقل بإصرارهم على يهوديتهم يقوم على أساس الكتاب الجديد،على الرغم من دعوته لهم بتذكيرهم بماضيهم

---

(1) التائهون - ص12-13.

(2) البقرة-51 .

(3) طه-83-85 .

(4) انظر- سيد قطب- في ظلال القرآن- ج16- ص2346 2348.

(5) التائهون ص13.

للخروج منه بتلبية نداء الإيمان والتقوى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ. وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ. وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.﴾(1) ويثبت الشاعر ذلك الموقف الإنكاري العدائي لدعوة الإسلام الذي زادهم لعنة وتشردا وضلالا :

وَحِينَ جَاءَ خَاتِمُ الْهُدَاةِ
مِنَ النَّبِيِّينَ إِلَى الْحَيَاةِ
بَذَرْتُمُ الشَّوْكَ عَلَى الزَّاحَاتِ
وَكُنْتُمْ مَزَاحِفَ الْحَيَّاتِ
لِمَنْ سَتَرَى لِلنُّورِ فِي الْآيَاتِ
فَعَاوَدْتُكُمْ لَعْنَةُ اللَّعَنَاتِ
وَعُدْتُمْ لِلتِّيهِ وَالشَّتَاتِ(2)

وفي موضع آخر يؤكد الشاعر سؤال عز وجل عن عدم جدوى اتصالهم بالأنبياء والرسل، وعدم إتيانهم بالمعجزات والآيات الكونية والروحية التي أتوها بها،وحققوها في واقعهم الغيبي والمشهود ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ... ﴾(3)، حيث نقضوا ميثاقهم مع الله بقتلهم الأنبياء بغير حق، ومطاردتهم نبيهم موسى عليه السلام،وسحريتهم من ألواحه التي تلقاها من الله،وفي نسخها هدى ودستور تشريعي لبنائهم، وتحريفهم كتابهم التوراة ونسيان شرائعها، وتبيّتهم لقتل وصلب عيسى عليه السلام. لكن فكرة وخطة الصلب بقيت في اعتقادهم ولكنه عند الله عز وجل ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾(4).كما كان موقفهم من خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم موقفا ثيما وعيدا، بخيانتهم لمواثيقه معهم. فباءوا بالطرد من هدى الله،وقست قلوبهم،فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى. ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ...﴾(5)

ويسترجع سيرتهم مع هؤلاء الأنبياء موسى وعيسى ومحمد، مبينا إصرار إسرائيل وتعنتها الذي أدى إلى كرهها ولعنها،ورفض سياستها ووثنيتها وكيدها وإرادتها المستمرة لإطفاء نور الله :

غَنَّى لَهَا مُوسَى بِأَلْوَاحِهِ - وَنَافَخَ الطُّورَ بِمِزْمَارِ
وَكَلَّمَ اللهُ... فَأَصْغَتْ لَهُ - نَاكِلَةً تُعْشِي بِخَفَّارِ

---

(1) البقرة- 40-42.
(2) التائهون- ص13.
(3) البقرة- 211 .
(4) النساء- 157 .
(5) المائدة- 13 .

جَبينُهُ لِلنُّورِ.. وَهِـي الدُّجَى - تَمْعَـنُ في ثَابوتِ أَغْـوارِ
وَحَاءَهَا عِيسَى بِـرِفْقِ الهُدَى - فَلَمْ تَزِدْهَا غَمْرَ إِصْـرارِ
وَغَيْرُ تَارِيخِ صَلِيبِ الأَسَى - يُعْبِرُ مِنْ لَوحٍ وَمِسْمَـارِ
وَأَنْزَلَ الفُرْقَـانَ نُـورًا عَـلَى -نُورٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْتَـارِ
فَوَاصَلَتْ كَيْدَ السَّمَا لَعْنَـةٌ - مَنْبُوذَةٌ تَبْحَثُ عَنْ جَـارِ
وَدَارَتِ الدُّنْيَا... وَفِي غَفْلَةٍ - نَامَتْ عَلَى أَحْضَانِ غَـدَّارِ
حَـطَّتْ عَلَى أَرْضٍ لَهَا سَجْدَةٌ - لله، صَارَتْ سَجْدَةَ العَارِ(1)

وبعد أن أظهر حقيقتهم العقدية الدينية، وأثار بعض جوانب حقيقتهم الأخلاقية والاجتماعية التي مضى السياق القرآني في مواضع كثيرة يكشف عنها في صور شنيعة ولعينة، تصور حالة من حالات النفوس والجماعات حين يستشري فيها الفساد، وتسقط القيم، ويسيطر الشر. ومما عرض من صفاتهم وسماتهم ورسم حركاتهم وغاياتهم، مسارعتهم للإثم والعدوان، وأكلهم للحرام، وعدم تناهيهم عن أي منكر، وسوء تصورهم لله عز وجل معللين بحلهم بزعمهم أن الله لا يعصي إلا القليل. فكيف يفقون ؟. ومما أكد أيضا ذلك السياق العلوي أن هذا الشر والفساد الذي يمثله اليهود لابد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه. فالله لا يحب الفساد في الأرض(2). يقول عز وجل ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ. لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ. وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا. وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(3). فكان وصف الشاعر مستمدا من وصف القرآن الكريم هم بالجحود والإثم والفسق والفجور، والحقد والبغضاء، والربا والبحر، والسحت وأكل الحرام. ومن لعنة الله وغضبه الشديد كانت لعنته وغضبه، حيث جسد في قصيدة "التائهة" نقمته على إسرائيل وعدوانيتها وشرورها وسوء أخلاقها ومعاملتها. وعبر عن كل ذلك تعبيرا ساخطا أقرب إلى الهجاء والتهكم. وعبر بلفظة التائهة -أي إسرائيل- عن تلك الدلالات الأخلاقية والحياتية والتاريخية والواقعية :

تَـاهَتْ.. فَلَوْ سَارَتْ لَكَانَتْ سُرَى - مُصَمَّمًا فِي وَهْمِ أَسْفَارِ...
... بِنْتُ الخَطَايَا السُّود، دارَتْ بِهَا - رَحَـى أَفَّاقِينَ أَشْـرَارِ
مِنْ غَـابِرِ الدَّهْـرِ لَهَا سِيرَةٌ - ضَاقَتْ بِأَوْطَـانٍ وَأَسْفَارِ

---

(1) التائهون- ص35-37.

(2) سيد قطب- في ظلال القرآن- ج6- ص928-930.

(3) المائدة 62 64.

نَـهارُهَا يَجْتَـرُّ رَيْفَ الـــــشَرْوَى - فَهْـوَ ظلامٌ فَـاسِقٌ عَـــار
وَلَـيْلُـهَا مَعْصِـيَـةٌ جُـــحَـــتْ - كَالبُـوم في أطْلالِ أوْكَـار ..
تَـنْـعَبُ فِـي تَـجْوَالِهَـا مِثْـلَـه - عَـلَـى خَرابٍ شَارِدِ الـدَّار
وَتَشْرَبُ السُّحْتَ عَلَى نَشْوَةٍ - يَـزْغُو بِهَا إبْـرِيقُ خَمَّـار
وَتَـــذْبَـــحُ اللهَ عَـــلَى دِرْهَمٍ - مُـقَدِّسِ اللَّعْنَـةِ ثَرْثَـــار
قَـالَتْ : يَـدَاهُ - جَلَّ - مَـغْلُولَـــةٌ - غَلَّتْ يَـدَيْهَا كَفُّ جَبَّارٍ[1]

وأكد إلى جانب تيهها وتشردها لعنتها من السماء والأرض، ومن الكائنات والشعوب، ويدحض بذلك دعاويها العريضة والعجيبة، بأنها شعب الله المختار، وقد أكد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ. قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ. وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ. وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.﴾[2] ويقرر بذلك الحقيقة الحاسمة في عقيدة الإيمان بإبطال ادعاء النبوة، فهم بشر ممن خلق، ويقرر عدل الله، وقيام المغفرة والعذاب عنده على أصلها الواحد على مشيئته التي تقرر الغفران بأسبابه وتقرر العذاب بأسبابه لا بسبب بنوة أو صلة شخصية[3].

ولهذا فإسرائيل لا يمكنها أن تدعي ذلك، واللعنات تصاردها لأفاعيلها ومعتقداتها وأخلاقياتها من الله والكون والبشر.

وَطَـارَدَتْهَا لَعَنَاتُ الوَرَى - بِعَاصِفٍ كَاهِـــلِ دوَّار
تَلْقَى بِهِ الذُّلَّ أَنَّى مَشَتْ - وَيْلَ هَشِيمٍ لاَذَ بِالـــنَّار
تَـلْعَنُهَا الأَرْضُ تَرَامَتْ لَهَا - فِي زَاخِـرٍ بِالحِقْدِ مِـــوَّار
يَنْهَشُ أَمْنَ الرُّوحِ فِي حَبِّهَا - مِنْ غَيْرِ أَنْيَابٍ وَأَظْفَـــار
يَلْعَنُهَا الأُفْقُ بِوَأْدِ الـمَدَى - مِنْ كُـلِّ أَبْعَادٍ وَأَقْـــطَار
تَخْطُو.. وَتَرْتَدُّ عَلَى مَوْجِهِ - كَـذَرَّةٍ فِي صَدْرِ تَـيَّار..
يَـلْعَنُهَا اللهُ... فَكَمْ مُرْسَلٍ - كَـانَتْ لَهُ تَأْوِينَ كَفَّارِ[4]

لقد كان من المنتظر أن يكون اليهود أول من يؤمن بالرسالة المحمدية، لما تضمن كتابهم من البشارات والإرهاصات لظهور النبي صلعم ورسالته. وما جاء به القرآن الكريم مصدقا للتوراة في صورتها غير المحرفة والمشوهة لكن << المعركة التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد، ثم لم يخب أوارها حتى اللحظة الحاضرة بنفس الوسائل، ونفس الأساليب، لا يتغير إلا شكلها. أما حقيقتها فباقية، وأما طبيعتها فواحدة. وذلك على الرغم من أن العالم كان يطاردهم من جهة إلى جهة، ومن قرن إلى قرن، فلا يجدون هم

---

(1) التائهون- ص34-34 .
(2) المائدة- 18.
(3) سيد قطب- في ظلال القرآن- ج6- ص867.
(4) التائهون- ص34-35 .

صدرا حنونا إلا في العالم الإسلامي المفتوح، الذي يكبر الاضطهادات الدينية والعنصرية، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا يؤذي الإسلام ولا يكيد للمسلمين >>[1]

لكن بني إسرائيل اغتنموا سماحة الإسلام، وتغلغلوا في عالمه الإسلامي، لتتكشف لأول وهلة نواياهم الحقيرة في الاستيلاء عليه،واسترجاع عهود سطوتهم البائدة. وأصبح شعارهم من زمن إلى زمن آخر "أرضك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل " إلى جانب حلم "الأرض الموعودة" في فلسطين. ووجد الشاعر أن ادعاءاتهم وحججهم بدأت تصدق باعتداءاتهم على كل الوطن الإسلامي، لكنه يستدرك بأن حلمهم لن يتحقق وستقوم قيامة الثأر[2] من أجل بقاء الحق الإسلامي وبقائهم للضياع والتشتت:

... وَأَنْتُمْ فِي كُلِّ أَرْضٍ سِيرَةُ القَلَاقِلْ
وَالغَدْرِ، وَالخِنَاعِ، وَالشُّرُورِ، وَالمَبَاذِلْ...
عَلَى سَمَاءِ المَسْجِدِ الأَقْصَى وَفِي مِحْرَابِهِ
وَفِي سُفُوحِ جَبَلِ النَّارِ وَفِي هِضَابِهِ
وَفِي ضِفَافِ دِجْلَةَ وَالبَأْسِ فِي عُبَابِهِ
وَفِي ثَرَى دِمَشْقَ فِي زَجْرَةِ لَعَابِهِ
وَفِي حِمَى النِّيلِ، وَهَوْلِ النَّارِ فِي شَبَابِهِ
فِي ثَوْرَةٍ دَكَّتْ ظَلَامَ الرِّقِّ مِنْ قِبَابِهِ[3]

وتمتزج بذلك البعد السياسي والديني في رؤيته لليهود << حيث يدين موقف إسرائيل من الرسل والأديان في إطار إدانته لوجودها اللامشروع ولقيامها على الشر والعدوان.>>[4]

جـ - مكانة فلسطين الدينية :

ووجد الشاعر في إبراز مكانة فلسطين الدينية والتاريخية إثارة كبرى لقضية فلسطين،كقضية دينية ذات منطلق إسلامي، قبل أي منطلق آخر سياسي أو إنساني، حيث شملت كل ما يجعل الإسلام من بقاء وقوة. وجهاد ووحدة،وانتصار للنور والخير والحق لشعب مضطهد،مقهور،مشتت ،ومقدسات خالدة للمسلمين، فهي أرض مهبط الديانات،وتبلور رسالات السماء،وموطن الأنبياء والرسل،ومكان بيت المقدس، ورحلة الإسراء والمعراج، وثالث الحرمين. وكانت الأرض المقدسة المباركة التي باركها الله بامتزاج بركة السماء

---

(1) سيد قطب- في ظلال القرآن- ج1- ص63-64.

(2) قيامة الثأر: عنوان القصيدة التي نحن بصدد دراستها وتحليلها.

(3) التائهون- ص15-16.

(4) علي عشري زايد- قراءات في الشعر المعاصر- ص37.

والخصب، والرزق والجمال، مع بركة الوحي والنبوة، والكتب والرسل جيلا بعد جيل وقد قال تعالى ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾(1)

وكثيرة هي القصائد التي تكررت فيها هذه الأجواء الدينية التي تؤكد قداستها وبركتها وإسلاميتها... صارخة مدوية مستحدية لإرجاع هذا الجزء الروحي من كيان أمتنا الإسلامية.

ففي قصيدة "موسيقا من الأرض" يرمز إلى ماآلت إليه تلك الأرض المقدسة والمباركة بعد مأساتها الكبرى، مصورا معاناة الطبيعة والإنسان والدين.. حيث بدأت القصيدة بعويل وبكاء وحسرة هذه الأرض، بعد أن توارت رهورها، وغابت عطورها،وتاهت طيورها، وجفت جداولها. فالاعتداء الرهيب عليها هز حركة الكون والحياة، وأثر في مظاهرها وكائناتها وإنسانها... وأصبح كل شيء يوحي بالذبول والزوال، والحزن واليأس، لا بالبركة والحياة والخير. ليصور بعدها مأساتها الدينية مشيرا إلى صمت المآذن صمتا مدهشا مفزعا، ليتأمل ماض حزين،حافل بأسرار الرسالات السماوية والأنبياء ،الذين اجتمعوا في تلك الأرض،وكانوا سؤالا وشعاعا للحقيقة ويشاهد السماء حزينة، حائرة متسائلة باحثة عن سر المسجد والقدس:

وَصَوْتُ المآذِنِ، صَمْتٌ بِهِ دَهْشَةُ الغَيْبِ تَفْزَعْ،
وَإِصْغَاءُ مَاضٍ حَزِينِ التَّأَمُّلِ فِي الأُفْقِ يَسْتَمِعْ!
جَمِيعُ النَّبِيِّينَ كَانُوا سُؤَالاً عَلَى رَاحَتَيْهِ
وَكَانُوا شُعَاعًا أَذَانُ الحَقِيقَةِ يَمْشِي عَلَيْهِ!
وَمُحَمَّدُ بِالنُّورِ وَالحَقِّ يَسْأَلُ عَنْ رَكْعَتَيْنِ
وَعِيسَى بِدَرْبِ الدُّمُوعِ يُفَتِّشُ عَنْ دَمْعَتَيْنِ
وَعَيْنُ السَّمَاءِ تُطِيلُ العِتَابَ، عَلَى نَظْرَتَيْنِ
تُطِلُّ.. وَتَدْرِي
وَتُخْفِي، وَتَسْرِي
وَتُنْشِبُ فِي السِّرِّ أَعْمَاقَ سِرِّ،
وَتَنْقَضُّ بِاللَّمْحِ فِي عَشْيَةِ النُّورِ، فِي كُلِّ فَجْرِ
...تُدِيرُ السُّؤَالَ عَلَى المِنْبَرَيْنِ!
وَتَبْحَثُ عَنْ ثَالِثِ المَسْجِدَيْنِ!
وَتَضْرِبُ فِي قَلْبِ سِينَا. تُنَادِي السَّنَا
وَتَعْصُرُ مِنْ قُدْسِهَا آهَتَيْنِ...(2)

---

(1) الأنبياء- 81.

(2) موسيقا من السر- ص79-80 .

إن تصوير حالة الأرض والسماء يعني أن قضية فلسطين قضية سماء لا قضية أرض فقط. فهو يرى أن الثورة والجهاد يجب أن ينطلقا من إصرار وصمود وإيمان هذه الأرض والسماء، رافضا أي وجود لهذه الأرض دون إحساس بالإنتماء الحقيقي إلى تلك السماء. بعدما عبثت أقدام اليهود العاتية ولوثت وأحرقت، وخربت وطمست معالم السماء فوق هذه الأرض، داعيا دعوة صارمة لتفهم وجه هذه الأرض على الرغم من الظلام والرياح والجراح:

لِمَاذَا مَعَ الثَّوْرِ مَاتَتْ زُهُورِي ؟!
وَحَطَّتْ عَلَى أَوَّلِ القِبْلَتَيْنِ...
وَتَدْفِنُ فِي صَدْرِهَا كُلَّ عَادٍ رَمَاهَا
وَصَيَّرَهَا لِبغَاءِ اليَهُودِ مَحَارِيبَ فِسْقٍ وَلَعْنَهْ
وَآثَارَ عَارٍ، تَلُوكُ العُصُورُ بِهَا كُلَّ مِحْنَهْ
وَكَانَتْ مُصَلَّى لِوَجْهِ السَّمَاءِ
فَصَارَتْ مَوَاخِيرَ تَجْأَرُ فِي جَانِبَيْهَا الضِّبَاعْ
وَأَرْفُضُ لِلأَرْضِ أَيَّ انْتِمَاءْ
إِذَا لَمْ يُعِدْ لِي ثَوَابِي الحَزِينْ
وَتَحْيَا زُهُورِي
وَتَحْيَا عُطُورِي(1)

لقد استطاع الشاعر في هذه القصيدة أن يمزج بين واقع الأرض والسماء مزجا رائعا، جسدته الألوان والأنوار والعطور والمنابر والمآذن والوجوه والأنبياء. أدركنا من خلالها مدى بعده الروحي والإنساني بأن كل شيء تمثل روحا ومادة، وكل قضية لها بواعثها الروحية والمادية.

إن هذا المزج الفني جعل قصيدته ممتلئة بكثير من الرموز التي استمدها من العناصر الكونية، وأخرى من الحقائق القرآنية، وأخرى من سير التاريخ الخالدة جعلنا نشعر حقا بعظمة وبركة وقداسة هذه الأرض التي تبحث عن أرض زاخرة، ممتدة بامتداد الزمن والحياة، وتبحث عن وجودها وانتمائها ومقدساتها في السماء التي منحتها في يوم ما عزة وكرامة وحرية، وإشراقات روحية.

وعلى الرغم من هذا الإصرار على الانتماء الديني للإسلام، لم ينظر إلى القضية نظرة عنصرية أو عرقية، لأن من خصائص الإيمان في الدين الإسلامي، الإيمان ببقية الأديان السماوية إلا أنه لم ينظر إلى اليهود نظرة ودية لأنهم يؤمنون بالتفوق العنصري ويتخيلون أنهم شعب الله المختار، ويختلفون بذلك عن الشعوب الأخرى. وعدم مجادلتهم في هذا الأمر، جعل الشاعر ينكر لأفكارهم وأفعالهم وتحريفاتهم، ذاكرا في مجال الذكر ثورة موسى بكل احترام وصدق وإيمان بتواصل العطاء الرسالي.

---

(1) موسيقا من نسر - ص 80 81.

و لم تكن لهجته الشعرية قاسية وجارحة مع المسيحيين،وإنما أكد أن فلسطين مهبط الديانات،وملتقى الشرائع ومكان ولادة المسيح عيسى عليه السلام والتقاء الديانتين الإسلامية والمسيحية على أرضها، وإن كان التمجيد للأثر الإسلامي هو الأبرز في قصائده. ففي قصيدة "محمد لاقى المسيح" بين هذا اللقاء التاريخي بين الديانتين، وكيف كانت لمحمد وعيسى عليهما السلام مواجهات عقائدية حادة مع اليهود. وأكد بذلك أن المد الصهيوني الذي يعشق فكرة الصهيونية بغلو شديد أحطر من المد المسيحي :

فِلَسْطِينُ فِي الأَرْضِ كِبْرٌ جَرِيحٌ
وَتَرْنِيمَةٌ رَدَّدَتْهَا السُّفُوحُ
مُحَمَّدٌ لاَقَى عَلَيْهَا المَسِيحُ
وَرَدَّا إِلَى خُطْوَةِ التَّائِهِينْ
رَبَاحُ المَذَلَّةِ فِي العَالَمِينْ
وَتِيهَ المُضَلَّةِ فِي الضَّائِعِينْ
وَمَهْمَا تَوَارَوْا بِزَيْفِ المَسُوحِ
سَتَسْتَلِهُمْ نِقْمَةُ الثَّائِرِينْ(1)

أما الحقيقة الدينية الأخرى التي تؤكد إسلامية فلسطين هي حادثة الإسراء والمعراج التي أدخلتها إلى صميم الانتماء الإسلامي والاعتراف بثبات هذه الديانة الأخيرة في مسجدها الأقصى . يقول تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.﴾(2). فكانت هذه الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى << رحلة مختارة من اللطيف الخبير تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيّن- صلى الله عليه وسلم- وبين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعا. وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بها جميعا. فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آمادا وآفاقا أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى .>>(3)

ومن هذا المنطلق كان حديث الشاعر المتواصل عن حادثة الإسراء والمعراج لأن في هذه الأرض المقدسة كان مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، ومعراجه من بيت المقدس إلى السموات العلى وسدرة المنتهى(4).

---

(1) التائهون- ص22 .

(2) الإسراء- 1 .

(3) سيد قطب- في ظلال القرآن- ج15- ص2212 .

(4) انظر فصل الرؤية الشعرية مبحث مظاهر التجديد الإسراء والمعراج .

ففي قصيدة "الأذان الذبيح"[1] يستحضر الشاعر هذه الرحلة العجيبة وما صاحبها من أحداث روحية خارقة ومعجزة حيث كان اللقاء مع الأنبياء والملائكة، وكان السفر من مسجد إلى مسجد،ومن أرض إلى سماء،بعثا إلهيا لمقدسات وديانات اجتمعت في ذلك المسجد المقدس، واشراقات ورؤى انطلقت منه إلى معارج السماء. لكن يستحضر معها -أي الرحلة- صور الواقع الممزوجة بالذكرى صورة الآذان الذبيح في فجر تلك الليلة المعجزة الوضيئة، وهو يئن العتاب للتهاون في حقه السماوي،وينادي ويصرخ من الألم والجور، والدنس آملا في النصر، وعودة التكبير ووصول الآذان إلى الفرقدين[2].

أما في قصيدة "المسجد الصابر" [3]، استوحى من ليلة الإسراء والمعراج معاني النور والحق، والقوة والنصر أمام مشهد هذا المسجد الحاضر، بعد أن داست أقدام الثائهين مصلى الأنبياء، ومرقى عروج محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء، وعاثوا بفجورهم في ترابه المقدس وتهتكت عراياهم على أعتابه وهو صابر كظيم.

واعتبر أيضا ذكرى هذه الليلة بحوادثها ومشاهدها صيحة من السماء من أجل الجهاد في سبيل استرجاع حق هذا المسجد، داعية له بالصبر والإيمان لأن السماء مارالت تحمل له بشائر الحق[4].

ومن سمات الرؤية الإسلامية هو هذا الارتباط الروحي والديني بالأرض،الذي قلما نجده عند الشعراء الذين انتهجوا نهجا ايديولوجيا آخر، فارتباطهم بها ارتباط ماديا مجردا من المقومات الروحية. فالشاعر منهم لا يكاد يتذكر عندما يشتد به الحنين إليها إلا التراب والنبع والبحر، والورد والنعناع والقمح والطفل والفلاح والخبز والكتاب، ولا نكاد نعثر في معجمه الشعري على دلالات المسجد والصلاة والإسراء والمعراج، والبراق والأنبياء، وحطين وصلاح الدين...يقول سميح القاسم مثلا :

وأنا نعناعة التل
أنا النبع وغصن الورد
والمزراب والمئذنة المهجورة
السطح.. أنا سنبلة القمح
كنت راعي الغنم الأسمر
والأراغول
كنت النسمة المبتلة الأردان في البحر
العواري،الرحلة الليلية.. الشط
انتظار الطفل في باب الغياب
وأنا قطعة أرض... سكة همة فلاح

---

(1) قال القصيدة في عام هزيمة 1967م .

(2) انظر- صلاة ورفض- ص92-94 .

(3) قالها في ذكرى ليلة الإسراء سنة 1388هـ-1968م .

(4) انظر-المصدر نفسه- 98-100

رَحِيلٌ فِي تُرَابٍ
فَإِذَا بَيَّارَةٌ تَطْلُعُ مِنْ لَحْمِي
وَأَطْفَالٌ وَخُبْزٌ وَكِتَابٌ.(1)

د- الإصـــرار على العـــودة إلى فلســـطين :

حين وقع عدوان يونيو 1967م الذي كان عدوانا مفاجئا كبيرا على مصر وســوريا والأردن، دمر معظم الآليات العربية،انتهى باحتلال فلسطين احتلالا شاملا وأكيدا(2). وأعقب هذا الوضع فترة شعر الكثير فيها باضطراب في شتى المفاهيم والقيم التي آمنوا بها ورددوها طويلا.. ومنهم الشعراء الذين أصبحوا يعيشون في حيرة مما وقع بحكم أحاسيسهم المرهفة، حيث هزت الهزيمة وجدانهم وعقولهم. وأصبحوا لايدرون -على وجه التحديد- ماذا يقولون ؟ وماذا يفعلون ؟ وعلى من يعبون غضبهم وسخطهم؟ ولمن يوجهون لومهم واتهامهم؟ وبقيت تساؤلاتهم تختنق في أعماقهم،وقد اختلطت الرؤى والتصورات مع أوضاع داخلية وخارجية، متشابكة،متورطة في إحداث هذه الهزيمة. بل كان من الشعراء من زعزعت النكسة إيمانه،فكفر بكل شيء وانطلق لاعنا ساخطا، ومنهم من استبد به اليأس، فصمت صمتا دون تعبير عن حالة المجتمع العربي والإسلامي المضطرب، وهناك من أخذ يتأمل ويدرس محاولا أن يخرج من النكسة بدرس وعبرة(3).

والتعبير عن العودة وإن اختلف بعض الشعراء في طريقه التعبير والمعالجة. فإن محمود حسن إسماعيل نظر إلى ذلك نظرة إسلامية لما ربط بين الإيمان وبين استرداد فلسطين. فالإيمان بالقيم والمقدسات الإسلامية هو السبيل إلى المحافظة على فلسطين والعودة إليها.

وفي غمرة الأحداث المتوالية على فلسطين من النكبة إلى الهزيمة إلى هجمات واعتداءات أخرى لا تكاد تتوقف أو تتمهل، يقف الشاعر موقفا ثابتا لإظهار الحق وإرهاق الباطل، والإصرار على التغيير. ولم يجد إلا إثارة المشاعر الدينية نحو القيم الإسلامية التي تختضنها فلســطين منذ عهودها القديمة خاصة بعدما تعرض له مسجدها الأقصى من حرائق منها حادثة 1969م.

ومن القصائد التي تدفعنا لمواجهة الواقع بعيدا عن الخلخلة الخطابية الصاخبة، والتهويمات الإنفعالية والتعميمات الفكرية، قصيدة " وجئت أصلي "(4)، وهي شبيهة بملحمة مأساوية،هي مزيج من الروحية والثورية، لكنها تعطينا وجها آخر للمأساة بالرغبة الملحة للعودة والصلاة في القدس، وإعادة اعتبارها الديني. كما أن الإصرار على الصلاة،هو رمي للمعتدين وطردهم من مكان طاهر مُهيء للعبادة،مؤكدا أن العودة لن تتم إلا في

---

(1) مجلة الآداب البيروتية- ع1- 1969- ص6.

(2) انظر-محمد عزة دروزة- العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الحديث على فلسطين وما جاورها- ج2- ص77-82.

(3) انظر-مبحث النهضة - هزيمة حزيران 1967.

(4) قال القصيدة عند الحريق الذي أصاب الأقصى في 31 أغسطس سنة 1969م.

تلك الصورة المقدسة المحفوفة بحلم المؤمن،وهي الصلاة بأعمق وأوسع أبعادها العقدية والروحية التي تثبت هوية فلسطين وعلاقتنا الروحية بها، فعلاقة الروح أقوى من كل العلائق بالنسبة للمرء المسلم، والشاعر في هذه القصيدة يجعلنا نصرُّ معه على العودة إليها من أجل قداسة قضيتنا المرتبطة بالدين قبل أي ارتباطات أخرى وطنية،أو قومية،أو سياسية،أو إنسانية.

وكأننا بالشاعر يصور ملحمة دينية عنيفة في القدس، كل شيء فيها يثير الحزن والغيظ والغيرة والإيمان. وقد تعامل مع المحسوسات والمعنويات تعاملا أعطى صورا جديدة للكلمات والأشياء والحوادث والشعائر. ومن المشاهد الدينية والتاريخية والطبيعية منح لمعاني الصلاة أدوات امتزاج فعلي مع التاريخ والحقيقة والوضع الراهن في فلسطين.

فهو يحلم بقوة وإيمان للصلاة على الرغم من واقع الأرض والشعب والمسجد الأقصى المحفوف بالمعاكين والأعاصير والذئاب والشياطين والخطوب والمنايا، وكلها آثار بني إسرائيل:

أَتَيْتُ أُصَلِّي!
وَرَغْمَ الحَرَائِقِ الدُّرُوبِ!
وَنَهْشِ الخُطُوبِ لِحَبَّاتِ قَلْبِي وَرَمْلِي
أَتَيْتُ أُصَلِّي!
وَرَغْمَ انْدِفَاعِ الذِّئَابِ عَلَى كُلِّ بَابٍ،
بِهِ حَسْرَةٌ مِنْ شَرَايِينِ أَهْلِي!
وَرَغْمَ الشَّيَاطِينِ تَعْوِي بِغَيْظِي وَشَجْوِي
وَبِالنَّارِ تَشْوِي وَتَكْوِي مَرَامِيَ خَطْوِي
وَرَغْمَ الرَّزَايَا، وَنَجْوَاهَا فِي جَمِيلِي وَأَيْكِي
وَعُشْبِي وَسَهْلِي!
وَلَيْلُ المَنَايَا عَلَى رَاحَتَيْهَا
يُزَمْزِمُ كَالجِنِّ خَلْفَ جَنَازَاتِ ثُكْلَى(1)

وعلى الرغم من النيران واللهيب والرزايا والشياطين، يرحل الشاعر إلى الصلاة في المسجد ولم يحتاج إلى جسده الذي يحرك الصلاة،لأن روحه هي التي تصلي وترحل إلى الله فوق كل قيود الذل والعبودية.فروحه من خلال هذه الرحلة تريد أن تبحث عن الجديد الروحي في الحياة والصلاة والتحلي ورؤية الله :

دَهَسْتُ السُّدُودَ
وَدُسْتُ القُيُودَ

---

(1) صلاة وقصيدة ص104 105.

وَجَـزْتُ المُـدُودَ.. وَجِئْتُ أُصَـلِّي !
وَجِئْتُ أُصَلِّي،
وَفَجَّرْتُ ذَاتِي لَهِـيبًا جَدِيدًا ،
يُمَزِّقُ ذَاتِي لَهِيبًا جَدِيدًا ،
يُمَزِّقُ أَغْـلاَلَ رِقِّي وَذُلِّي..
وَمَا كُنْتُ عَبْدًا
وَلاَ ذُقْتُ قَيْدًا...
لأَحْـيَا.. جَدِيدَ الحَيَاةِ، جَدِيدَ الصَّلاَةِ، جَدِيدَ التَّحَلِّي
أَرَاهُ بِقَـلْبِي، أَرَاهُ بِلُبِّي
أَرَاهُ بِـكُلِّ المَدَارَاتِ حَوْلِي...
وَكَـبَّرْتُ لِلّهِ.. قَلْبِي يُكَـبِّرْ
قَبْلَ اخْـتِـلاَجَاتِ قَوْلِي (1)

ومضى يبرر أسباب إصراره على تجديد روحه بالصلاة في ذلك المسجد.لأنه يقع في تلك الأرض المباركة التي هيأها الله لتكون أولة القبلتين وبنت للسماء، وبيت للضياء يفيض بالوحي والطهر والنور والقداسة :

وَجِئْتُ إِلَى أُولَةِ القِبْلَتَيْنْ
وَبِنْتِ السَّمَاءِ التِي ضَمَّتِ الثَّوْرَ بِالسَّاعِدَيْنْ
وَبَيْتِ الضِّيَاءِ الذِي رَشَّهُ اللهُ بِالرَّاحَتَيْنْ
ضِـيَاءً، وَعِطْرًا
وَقُدْسًـا، وَطُهْرًا
وَوَحْـيًا يُسَبِّحُ فِي آيَتَيْنْ(2).

ولم يشأ أن يرحل وحيدا، بل حمل معه قيمها ومقدساتها ومآثرها الروحية والتاريخية لتشهد بالماضي على الحاضر المؤلم، وتؤكد حق الرجوع الديني قبل أي حق آخر، فمضى ومعه الأذان والتكبير، والركوع والسجود، والتسبيح والدعاء، وليلة الإسراء والمعراج، ورؤيا محمد صلى الله عليه وسلم، ومصابيح الأنبياء:

... وَجِئْتُ وَجَاءَ بَحَيَّ صَوْتُ الأَذَانْ
مَعَ العَـتْمَتِ، يَصْرُخُ: أَيْنَ الأَذَانْ ؟
وَجَاءَتْ بِكَفَّيَّ تَكْبِيرَتَانْ
هُمَا رَحْمَةُ اللهِ فِي كُلِّ آنْ..

---

(1) صلاة ورفض-ص 105-106.
(2) المصدر نفسه ص 107.

وجاءتْ معي ركْعتَانِ، وجاءتْ معي سجْدتَانْ
وإلتماءتَانِ إلى الله مَشْدُودتَانْ
بِخفّتَيْنِ للنُّورِ فوْقَ المعَارِجِ تَسْتَطْلِقَانْ
...وجاءتْ معي لَيْلَةٌ
عانقَتْ بِهَا سُدَّةَ العَرْشِ تَسْبِيحتَانْ
بِهَا اللهُ سَـلَّمَ...
... لاكَفَّ تَبْنُو، ولاَ طَيْفَ شَيءٍ يُسَمَّى بَنَانْ
وجِبْرِيلُ حَادٍ لِمَسْرُوحَةٍ
تَقَاصَرَ عَنْهَا خَيَالُ الزَّمَانْ !
ونُورٌ يُنَادِي
ونُورٌ يُلَبِّي
ونُورٌ يُعَانِقُه المُشْرِقَانْ!
ومِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ
رَاحَتْ تُضِيءُ، جَبِينَ السَّمَا هَالَتَانْ !
وكَادَ الذي لاَ تَرَاهُ العُيونُ،
يَرَاهُ "مُحَمَّدْ" رُؤْيَا عَيَانْ !!
... وجَاءَتْ مَعِي مِنْ يَدِ الأَنْبِيَاءِ
مَصَابِيحُ مَبْهُورَةٌ فِي العَشَاءْ.(1)

ومضت معه أيضا مشاهد وحوادث وشخصيات تاريخية وإسلامية،كان لها الأثر العظيم في إقامة صرحها الروحي..حيث أتت لتصلي معه،منها خطوات عمر الذي كان أول من فتح فلسطين الفتح الإسلامي الذي زادها أصالة دينية،وزبجرة صلاح الدين الذي حقق لها فتحا آخر بقضائه على هجمات الصليبيين الذين عادوا حيث أتوا صاغرين، وكذلك عين جالوت التي كانت مسرحا مشهودا لانتصار المعارك من أجل الإسلام ضد التتار. ويضرب الشاعر الأمثلة المشجعة بإحياء دور عمر وصلاح وغيرهما،الذين خلصوا بيت المقدس في ظروف أصعب مما هي عليه اليوم. وذلك الإحياء هو لتفجير البراكين الخامدة في أعماق المسلمين، تنتظر ساعة الانطلاق:

... وجَاءَتْ خُطَا "عُمَرٍ"
والوُجُودُ عَلَى سَيْفِهَا مُسْتَطِيرُ المَضَاءْ
... وجَاءَتْ تُزَبْجِرُ دُنْيَا "صَلاَحٍ"

---

(1) صلاة ورقص ص 107 109.

وتعصف مشدوهة في إباء

... وجاءت لجالوت[1] عين تطل

وتزور من هول هذا اللقاء...

أتينا جميعا نصلي..[2]

ويفيق الشاعر من الماضي الذي يوحي بالمجد والازدهار والبهجة والإيمان على الحاضر المليء بالفواجع والنوائب، حيث وصل ومن معه لتأدية الصلاة، لكن كانت الخيبة والحزن وقد عثروا بمرارة على تراب حزين، وأرض ضلت طريق الصلاة بفجور وعصاة، والأذان شياطين لغو، والمصلى ميادين لهو، والمنابر مجازر. وعبر بتلك الدلالات على حقيقة الغزو الإسرائيلي وماصحبه من اعتداء وفساد ودمار :

... وجدنا الصلاة.. بغايا من الشر ترقص فوق الحريق

وجدنا الأذان

شياطين لغو.. تهاتر بالإثم عبر الطريق

وجدنا المصلى..

ميادين لهو تخاصر فيها الخنا والفسوق

وجدنا الترابَ الذي فيه صلى محمد

حريقا.. به لعنة الله ترغى.. وتزبد!

وجدنا المنابر

تحكي مجازر للطهر مخنوقة في العروق

وجدنا على صخرة الحق

... ليلا ينادي الشروق

ونارا.. تشد يد النور

من قاع ليل عميق[3]

ومن هذه المظاهرة المأسوية، انبعث صوت من الله منح الشاعر إصرارا وثقة لا تشاؤما ويأسا من أجل المضي نحو القدس، وافتدائها بالروح والدم والموت. فدعا إلى إنجاز أيام كيوم معركة القادسية التي تركت بصمات خالدة لثورات الحرية والإيمان، ودعا أيضا إلى التقوى والإيمان بالله ليتحقق النصر، وتعود الصلاة، وتكون صلاة في جماعة رمزا للقوة والوحدة الإيمانية :

وصوت من الله.

تزأر في كل ركن عتيق

---

(1) عين جالوت : موضع في فلسطين قرب الناصرة، انتصر فيه بيبرس قائد السلطان قطز على جيش هولاكو المغولي.

(2) صلاة ورفض- 109-110.

(3) المصدر نفسه- ص111-112.

وَلَوْ هُدِّمَتْ كُلُّ تِلْكَ القِبَابْ!
وَبَاتَتْ مَآذِنُهَا
أَذْرُعًا لِطُغَاةِ الخَرَابْ!
سَنَمْضِي لِحَرَابِهَا القُدْسِ جَمْعًا نُصَلِّي
وَلَوْ غَالَنَا المَوْتُ.. لَمْ يَبْقَ أَنْفَاسَ شَيْخٍ وَطِفْلِ!
مِنَ الدَّمِ، وَالعَظْمِ نُعْلِي ذُرَاهَا
مِنَ الرُّوحِ نُرْجِعُ لِلأُفْقِ أَعْتَى نَدَاهَا
بِيَوْمٍ سَتِزْحَفُ بِالقَادِسِيَّةِ
وَبِالغَضَبِ الحَرْفِ كُلُّ نَفْسٍ أَبِيَّةْ
وَبِالثَّأْرِ... وَهُوَ الصَّلاةُ الزَّكِيَّةْ
وَصَوْتٌ لِلإِلَهِ إِلَى كُلِّ رُوحٍ تَقِيَّةْ(1)

بعد هذه الشحنة القوية،والدفعة الصادقة من أجل العودة إلى فلسطين،بإحياء رموزها الدينية والتاريخية، وتقوية المشاعر الدينية نحوها كحل أول للقضية،وهو العودة إلى الاحتماء بظل عقيدة الإسلام السمحاء. تبين بعده الحل الثاني،وهو الدعوة إلى الجهاد والثأر لإنقاذ فلسطين من قوى الشر اليهودية. وهذا الحل متناثر في معظم مقاطعه الشعرية، وتجلى أكثر في قصيدة "تكبيرة الرحف" التي يعلن فيها وجوب الجهاد بكل قوة وإصرار، مؤكدا على أنه واجب ديني،بعد أن تراءى أمامه غضب الأنبياء، وسخط السماء، ورنين المآذن :

... سَمِعْتُ بِهَا غَضَبَ الأَنْبِيَاءِ - مَرَامِيرَ وَيْلٍ عَلَى صَدَاهْ
وَأَبْصَرْتُ أَرْوَاحَهُمْ فِي الفَضَاءِ - مَحَارِيبَ تَصْرُخُ فِيهَا الصَّلاةْ
وَتَسْبِيحَهُمْ مِنْ ضِفَافِ السَّمَاءِ - يَصُبُّ عَلَى الأَرْضِ سَخْطَ الإِلَهْ
وَيَرْمِي عَلَيْهَا دُخَانَ الشَّقَاءِ - أَعَاصِيرَ حِقْدٍ تَؤُرُّ(2) الخَيَاهْ
تَلاَطَمَ فِيهَا عَوِيلُ الغُيُوبِ - وَقَدْ أَذْهَلَتْهَا عَوَادِي القَدَرْ
سَوَاعِدَ مَشْلُولَةً فِي الفَضَاءِ - تَحَمَّدَ فِيهَا دُعَاءُ البَشَرْ
تَمُدُّ إِلَى اللَّهِ رَاحَاتِهَا - وَتَزْأَرُ فِي صَمْتِهَا المُسْتَمِرّ(3)

ويؤكد بعدها حلا ثالثا لتحقيق أمل العودة، وهي الوحدة التي تشمل كل الأقطار تحت ذلك الوازع الديني الذي يجمع أرواحهم، ويجعلهم يدا واحدة،ويقودهم تحت راية واحدة من أجل إعادة وتحرير فلسطين. ويوجه نداءه إلى المسلمين والعرب قبل أي شعب آخر، لأنها أعمق القضايا وأقربها إليهم جغرافيا وتاريخيا. وسياسيا

---

(1) صلاة ورفض- ص112-113.
(2) تؤز : أزّ أزيزًا، الصوت القوي المنبح .
(3) التائهون- ص68-69 .

واجتماعيا ودينيا. فإقامة دولة بني إسرائيل في قلب هذه الأمة ليس أمرا اعتباطيا أو هدفا احتلاليا يمس فلسطين فقط، بل يمس كل الأمة التي أصبحت وحدتها مستحيلة بعد اقتطاع هذا الجزء العميق والحميم منها.

والقصائد كثيرة التي تدعو إلى التوحد من أجل اكتساب القوة المعنوية والمادية للقضاء على الكيان اليهودي، منها قصيدة "راية العرب" التي يبرز فيها رمز الراية وهو رمز إسلامي وجد منذ العهود الإسلامية الأولى، حافل بالمعاني الإسلامية التي تعبر عن الأخوة والوحدة، والحق والنصر، والجهاد في سبيل الله،وإعلاء كلمة الإسلام. حققت عزة الشرق وزحفت بمشاعل النور والهدى، وحملت رسالة السماء إلى كل الأرض :

في طَرِيقِ الشَّمْسِ عُودِي، وَأَعِيدِي - عِزَّةَ الشَّرْقِ، عَلَى وَجْهِ الوُجُودْ
وازْحَفِي بِالنُّورِ، وَالنَّارِ عَلَى - صَرْحَةٍ لِلثَّارِ فِي بَاقِي القُيُودْ
مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ، حَيَّاكِ الإِلَهْ - وَبِصَوْتِ الوَحْيِ نَادَتْكِ سَمَاهْ
واصْطَفَى أَرْضَكِ مِنْ بَيْنِ الثَّرَى - فَحَبَتْهَا بِالرِّسَالاتِ بِدَاهْ
بِتَنَاهَا شَعَّتِ الدُّنْيَا هُدَى - وَبِهَا ثَارَتْ عَلَى الذُّلِّ الحَيَاهْ
وَمَضَتْ تَسْقِي اللَّيَالِي مِنْ ضُحَاهَا - وَتُذِيبُ الرِّقَّ مِنْ وَجْهِ العَبِيدْ
فِي ظَلاَمِ الدَّرْبِ فِي المَاضِي الطَّوِيلْ - كَمْ حَضَنْتِ العَهْدَ جِيلاً بَعْدَ جِيلْ
وَتَحَتَّا خَطْوُكِ فِي إِصْرَارِهِ - مِنْ طَرِيقِ الفَجْرِ لَيْلَ المُسْتَحِيلْ
وَضَرَبْتِ السِّرَّ، حَتَّى سَطَعَتْ - شَمْسُكِ الكُبْرَى عَلَى كُلِّ سَبِيلْ[1]

ويوضح غرضه لهذه الراية،أن هذا التجمع والتوحد من أجل غاية مقدسة،وهي إعادة تلك العزة، وذلك النور إلى أرض المعراج والقدس...

فَإِذَا شَارَفْتِ أَرْضًا، رَمْحَرَتْ - ظَمَأً لِلفَجْرِ مِنْ قَلْبِ الخِيَامْ
فَارْشُقِيهَا بِشُعَاعٍ مُؤْمِنٍ - يَسْتَرِدُّ النُّورَ مِنْ أَعْتَى ظَلاَمْ
وَيُذِيبُ العَارَ، أَنَّى حَطَرَتْ - لِبُرُؤَاهُ حَسْرَةٌ فَوْقَ الرَّغَامْ
وَضُحَى المِعْرَاجِ، تَمْحُو دَمْعَةً - لَمْ تَزَلْ تَقْرَحُ فِي القُدْسِ الشَّهِيدْ[2]

ويختم ديوانه الذي خصصه لقضية فلسطين بقصيدة " إلى الأمام يا عرب "ليؤكد بأن القضية دينية،وعليه لابد من التمسك بالقيم الدينية من أجل إعادة فلسطين. ويؤكد أيضا حقيقة إيمانية كبرى تربط القضية بالإيمان،والنصر بالسماء، لأن الله عز وجل هو الذي سيبارك مسيرة التحرير، ويمد المؤمنين بتلك القوة الغيبية تحت شعار الحق والنور، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3] وهذا الشرط الإيماني هو سبيل النصر لامحالة،والذي يكون مباركا من عند الله ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4] وهذا

---

(1) التائهون- ص73-74 .
(2) المصدر نفسه- ص76 .
(3) الروم-47.
(4) الأنفال- 10.

هو الشرط الأخير الذي أكده الشاعر لكل العرب والمسلمين لاكتساب الإيمان والقوة والثقة والأمل. بعد هول النكبات والهزائم المتكررة التي ابتلوا بها :

سِيرُوا بِنَصْرِ اللهِ لِلأَمَامْ
إِلَى الأَمَامِ أَبَدًا .. إِلَى الأَمَامْ
صُبُّوا عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ السَّمَاءْ ...
فَلَنْ تَعُودَ النَّارُ عَنْهُمْ أَبَدًا
حَتَّى تَعُودَ حُرَّةً أَرْضُ الهُدَى..(1)

وهكذا رأينا أن الإصرار على العودة لم يكن حلما باكيا رثائيا ولا شعارا كلاميا سياسيا، ولا دعوة تيارات وايديولوجيات معينة، تنتهي بانتهاء جدواها وفعاليتها كصيحات الشعراء القوميين التي حفتت بموت الدعوة القومية. وإنما الدعوة إلى العودة ارتبطت بالرؤية الإسلامية التي تعتمد على الحلول الإسلامية والواقعية، وتبتعد عن فكرة إقامة سلام ومهادنة مع شعب يهودي معلن عن عنصريته وحقده وظلمه، أو عن فكرة التقسيم لأرض فلسطين كحل هش لا يرضي الطرف الظالم أو المظلوم. ولذلك فمناصرة الشاعر لقضية فلسطين مناصرة دينية لما اعتبرها فرضا إسلاميا مقدسا، لايمكن أن يقصر أحد في الأخذ والرد في قضيتها، واليهود يثبتون أقدامهم فيها يوما بعد يوم،والضمير العالمي بدأ يصيبه الإغفاء واليأس. وهذا فصيحاته كانت دعوة إلى عدم الاستسلام والخضوع،وعدم التحلي عن الواجب المقدس نحوها بالإيمان والصبر والجهاد والوحدة. مؤكدا على مكانتها الدينية والتاريخية،مؤمنا بحق استردادها والعودة إليها، وإن لم يحصل الفوز اليوم،فالأمل في حصوله غدا كبير، على الرغم مما لاح في أرض الواقع مايعرف باسم اتفاق غزة أريحا. لأن هذا الاتفاق لن ينسي المسلمين قطعة غالية ومقدسة من أرض الإسلام مهما كان الثمن،ولن ينسي أن عقلية اليهود لا ينفع معها السلام.

---

(1) التائهون - ص 82.

المبحث الثالث

الوحدة

1- الوحدة الوطنية

2- الوحدة العربية

3- الوحدة الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لم تكن فكرة الوحدة منقسمة إلى وحدة عربية،وأخرى إسلامية، لأن المسلمين العرب وغيرهم انضووا تحت الشعار القرآني الخالد ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾(1) حيث كانت وحدة العرب آنذاك خطوة أولى إلى وحدة إسلامية شاملة. وظلت هذه الوحدة قائمة على الرغم من النكبات والأزمات السياسية. وقد كان الناس بمختلف طبقاتهم العلماء والأدباء والفقهاء والتجار يرحلون من بلد إلى بلد، ولايحسون أنهم تركوا أوطانهم أو تغربوا، ولا يشعرون أنهم اجتازوا حدودا، وخطوا نحوا تعزل قطرا إسلاما عن آخر. ولم تكن اللغة العربية هي القيد الذي يجمع تلك الأقطار بعضها،وإنما كانت هي اللسان الذي يحلمون بنطقه،ولا يريدون اتخاذ غيره،حيثما يكونون،لأنها كانت لغة القرآن الكريم، ولأن آصرة الدين كانت أقوى أواصر التجمع والتوحد.

وهكذا ارتبط مفهوم الوحدة بالإسلام طوال عصور عديدة ، ومازال كذلك حتى اليوم في أذهان الكثيرين، على الرغم من كون الرسول صلى الله عليه وسلم عربيا، وأن الذين نشروا رسالة الإسلام في الأرض كانوا عربا، وأن التراث الإسلامي لايمكن فصله إطلاقا عن تاريخ العرب والثقافة العربية، حتى الخلافة العثمانية التي تمركزت في الأستانة اقترنت بالإسلام ، واعتبر المسلمون العرب،السلطان التركي خليفة للمسلمين،والدولة العثمانية دولة للإسلام. واضطروا تحت وطأة الأحداث السياسية،أن يؤكدوا ذلك الإقتران حتى لا يتيحوا فرصة نفاذ الغرب المتكالب إلى وحدتهم وبلادهم .وكان شعورهم بالرابطة الدينية دافعا للاعتقاد بأن أي مساس بهذه الخلافة،مساس بالإسلام،وتقويض لأركان الجامعة الإسلامية،بعد أن راح الغرب يندد بالإسلام، ويتحفز للإجهاز على أقطاره.

وكان من الذين فهموا الوحدة مفهوما إسلاميا شخصيات إصلاحية وفكرية وأدبية كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، حسن البنا، عبد الله النديم، مصطفى كامل، أحمد محرم، حافظ إبراهيم، أحمد شوقي، جميل صدقي الزهاوي، معروف الرصافي. وقد لاحظ محمد حسين هيكل حين قدم ديوان شوقي الأول مثلا أن ما قاله في ذلك الجزء عن العرب،وما يتصل بهم يشتمل على ثلاث قصائد،وماقاله عن الخلافة والترك يشتمل ثماني عشرة قصيدة. ومما يؤكد أثر العقيدة الدينية في مواقف أولئك الشعراء أن بعضهم من غير المسلمين-خاصة المسيحيين-نظروا إلى الخلافة العثمانية بمنظار آخر،ودعوا العرب إلى التنكر وعدم الخضوع لغيرهم، بل كان نفور البعض منهم للارتماء في أحضان الدول المستعمرة لاشتراكهم معهم في العقيدة الدينية، وأملا في الحماية والعيش في ظلهم.(1)

---

(1) آل عمران-103.

(2) انظر-عمر الدقاق- الاتجاه القومي في الشعر الحديث-ص 41-52.

إلا أننا يجب أن ننظر إلى الموضوع من خلال الملابسات والظروف التي كانت تسم العالم العربي آنذاك، وتجعل للاتجاه العثماني الإسلامي وجهة نظر مقبولة ومنطقية حيث كان التكتل وتدعيم الوحدة بأصرة الدين في سبيل مقاومة الأخطار الاستعمارية الحاقدة على الإسلام قبل أي شيء آخر.

لكن بعد سقطات بعض العثمانيين وتذبيح العرب، ومحاولة محو اللغة العربية والتنكر لبعض الشخصيات العربية الإسلامية، تغيرت رؤية البعض من المناصرين والداعين إلى الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية،كعبد الرحمن الكواكبي الذي كان أول من نادى إلى إصلاح مفاهيم المجتمع الإسلامي الكبير في مؤلفاته أم القرى وطبائع الإستبداد[1]. وسعى من خلال ذلك إلى << تقديم الإطار الفكري لهذه الدعوة العربية، دون الاصطدام بالدين الإسلامي،داعيا إلى خلافة عربية تحمي الإسلام والعرب في الوقت نفسه.>>[2] وخابت آمال أنصار الجامعة الإسلامية،وكانت الصدمة عنيفة في نفوس شعرائها ودعاتها، حيث جعلوا ينفضون أيديهم من نظامها بعدما صارت إلى شبح هزيل،وظلوا يمنون أنفسهم بعد تقسم تركة تلك الخلافة بعودة نظام الخلافة، ويأملون في توحيد شمل مسلمي الأرض مرة أخرى، ويرون في الخلافة ونظامها صورة زاهرة لماضي الموحد.

وإن انتهت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية،بقي تأثير العامل الديني ساثرا،محدثا ذلك التلازم بين العروبة والإسلام بتحول البعض من أنصار الجامعة الإسلامية إلى الجامعة العربية التي كانت في ظاهر نشوئها لا تتعارض في جوهر حقيقتها عن الجامعة الأولى وذلك قبل أن تتداخل فيها مفاهيم سياسية أخرى تحدد نزعة الاستعمار دون وعي أو بوعي.

واقتنع ذوو الاتجاه الإسلامي أن لا مرحبا بهذه الجامعة [3]، ووجدوا في الدعوة إلى الوحدة العربية بعد أزمات الاحتلال والتقسيم من طرف الاستعمار الغربي،هي البناء الذي يتحصن به العرب ضد أعدائهم،بعدما ألغيت الخلافة الإسلامية. وتغيرت الأوضاع السياسية،وأصبح أمر الجامعة الإسلامية بعيدا،وحلم الوحدة العربية هي الدائرة الصغرى لوحدة إسلامية شاملة. وأفصح الشعراء انطلاقا من هذه العلاقة الوشيجة عن تعلقهم بالوحدة العربية في ظل المعاني الإسلامية المستمدة من طبيعة التاريخ المديد،الذي تداخل فيه تراث العروبة والإسلام تداخلا كبيرا لا انفصام له.

وأصبحت الدعوة إلى الوحدة العربية حركة بعث وإحياء تهدف إلى استعادة الأمجاد الماضية. وتمّ شعت الشعوب المتآخية التي فرقتها الأحداث السياسية الاستعمارية، ومزقتها الدعوات الإقليمية المتطرفة الضيقة التي

---

(1) انظر أحمد أمين- زعماء الإصلاح في العصر الحديث- دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان- 1979م- ص252 ومابعدها. ص252 وما بعدها.

(2) السيد يسين- تحليل مضمون الفكر القومي العربي- دراسة استطلاعية- مركز دراسات الوحدة العربية -بيروت- لبنان- ط1- 1980. ص193.

(3) كان عبد الرحمن عزام أول أمين عام جامعة الدول العربية، فهو العروبة على أساس ديني إسلامي، وأصبح ذلك في كتابه الرسالة الخالدة لتحقيقه العصر الحديث وأخرج من إرهاصات الأوطان.

انتشرت في نفوس الكثيرين بإيعاز من الاستعمار أيضا، وذلك بإثارة النزعات الفرعونية والآشورية والفينيقية القديمة[1]. وأصبح هذا شعب مصري، وذاك شامي، وذلك فلسطيني، وآخر مغربي... ولهذا أضحى التفكير في إقامة رابطة بين الأقطار العربية توحد صفوفهم أمام أعدائهم الذين مزقوا أوطانهم وفرقوا جموعهم، واستغلوا خيراتهم. هذه الرابطة التي هي استجابة لنداء الإسلام الذي يدعو إلى الاتحاد والقوة، ويأبى الذلة والخنوع.

وربط المفكرون والشعراء ذوو الاتجاه الإسلامي الوحدة العربية بعامل الدين، لأنه هو الرابط المشترك بين شعوب العرب جميعا قبل عوامل أخرى لأنه يتدخل حتى في أدق حياتهم التعبدية التي تجمعهم وتوحدهم كالاتجاه إلى قبلة واحدة في الصلاة، والصيام في شهر واحد، والحج إلى مكان واحد. وبقيت نظرتهم للوحدة الإسلامية نظرة مستقبلية، لأن تحقيق ذلك بحاجة إلى تريث زمني وحضاري في واقع يشهد ملايين المسلمين المنتشرين في أقطار متباعدة من آسيا وإفريقيا، تفصل بينهم أراضي شاسعة، وثقافات مختلفة، ولغات متعددة، واتجاهات متباينة، بل حتى الواقع العربي يشهد عدم الوحدة فيه. ولهذا فأولى بالدعوة إلى الوحدة أن تبدأ من صميم واقعهم.[2]

على الرغم من سطوع هذه الحقيقة ثمة ظاهرة يمكن أن تعد منافية للاتجاه الإسلامي أخذت تتجلى قوية مع تتالي الأيام، وهي عزوف البعض من الشعراء وغيرهم عن إبراز ذلك التلازم بين العروبة والإسلام، وحرصهم الدائب على معالجة الشؤون السياسية بمعزل عن الاعتبارات الدينية << حتى أن هذا الحذر كان يؤول لدى بعضهم إلى تحرج، فلا يدير كلمة الإسلام على لسانه، وكأن ذلك يلصق به تهمة أو يعيبه برجعية.>>[3] لكن الفكرة القومية المجردة من مقوم الدين، لم تجد مكانا في الشعر الحديث إلا بصعوبة، لأن العاطفة الدينية طبعت كثيرا من الشعر الذي تحقق من وطأة التأثر والاقتداء بالقوميات الأخرى. وابتعد عن الموجات الطائفية والإقليمية، وتخلص من تلك الظواهر السلبية بإبراز تلك المقومات بروح إيجابية بناءة، وأخذ دورا قياديا في الدعوة إلى فكرة الوحدة السليمة على أسس وطيدة مستمدة من طبيعة أمتهم أكثر من الاستيحاء من النظريات الاجتماعية والفلسفية التي قامت عليها القومية في منبتها الأصلي الأوربي[4]

وكان الشاعر محمود حسن إسماعيل من الذين شغلتهم قضية الوحدة، وكانت رؤيته أكثر عمقا وواقعية، لما انتقل تدريجيا بالدعوة إلى الوحدة مرحلة بعد مرحلة تمخضت عنها ثلاث مستويات هي الوحدة الوطنية أو الداخلية والوحدة العربية والوحدة الإسلامية، ولم تخرج عن إطار اتجاهه الإسلامي في حضم تلك الصراعات التي عاصرها بين دعاة القومية والدعوة الإسلامية.

---

(1) انظر-عمر الدقاق - الاتجاه القومي في الشعر الحديث- ص115-116.

(2) انظر-سيد قطب- دراسات إسلامية- دار الشروق- القاهرة- (1398هـ-1978)-ص99-105.

(3) عمر الدقاق- الاتجاه القومي في الشاعر العربي الحديث- ص76 .

(4) انظر- د: اسحاق موسى الحسيني- الأدب والقومية العربية- مطبعة جمعة البيان العربي- 1966م- ص15 ومابعدها .

1- الوحدة الوطنية :

وقف محمود حسن إسماعيل مع الأحداث التي ألمت بالوطن، لا يخاف تعسف الظالم، ولا يهاب بطش المحتل، ولا يداور في حق يعتقده، ولا يصانع في رأي،بعد أن رأى وحشية الاستعمار واستخفافه بالقيم الإنسانية وغفوة ضميره، ورميه بالكذب والخداع. وتقسيم البلاد إلى شيع وأحزاب ووقوفه في فرح ودهاء يؤرث نار الخلاف من وراء الستار، وينسج خيوط الفرقة. فتفرقت الأهواء، وتصدع الشمل.

والخطوة الأولى إلى للدعوة الوحدة دعوته الملحة إلى الوحدة الداخلية والوقوف في وجه رياح الفتنة التي اعترت مصر، مصورا بخوف وقلق ما يتهدد جهادها وثورتها- وحتى قبل ذلك- من فرقة الرأي وشتات الكلمة، فيتوجه إلى أبنائها،ويحذرهم عاقبة الخلاف وآثاره الوبيلة على البلاد وفي مفهومه للوحدة الداخلية لم يخرج عن التصور الإسلامي الذي حذر من معبة التفرق والخلاف ودعا إلى الحفاظ على أواصر التجمع، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ عليك بالجماعة،فإن الذئب تأكل القاصية.﴾(1) .

لعله من هذا الحديث استلهم قصيدته "عهد الذئاب" التي يصور فيها الفرقة في يوم عيد من أعياد الأضاحي حيث الغاصب يخاتل في عهده، ويمعن في كيده، والحرية تفت في وحدة العمل والجهاد والشعب يتنزى على الأصفاد، ويصلي سعير الاستبداد :

قَالُوا : أَتَى العِيدُ قُلْتُ العِيدُ أَنْ تَثِبُوا - عَلَى القُيُودِ يَدًا فِي أَهْوَلٍ تَجِبُ
وَتَدْفِنُوا حَيَّةَ الأَحْقَادِ فِي جَدَثٍ - يَهْوِي الخِلَافُ بِهِ فِي لُجَّةِ الأَبَدِ
إِنِّي أَرَى سُمَّهَا يَسْرِي رُبُوعَكُمْ - شَيْءٌ أَهَشُّ فَلَا يَبْقَى عَلَى أَحَدِ
ضُمُّوا العُفُوفَ لِتَرْعَى اللهَ وَفْقَتَكُمْ - فَمَا لَكُمْ دُونَ هَذَا الطَّوْدِ مِنْ سَنَدِ...
وَبَيْنَكُمْ غَاصِبٌ، يُرْجِي المُحَالَ، وَلَا - يَرْجَى لَهُ بِوَفَاءِ العَهْدِ أَيُّ غَدِ
عَاهَدْتُمُوهُ، وَمَنْ يَا قَوْمُ ضَلَّلَكُمْ؟ - عَهْدَ الذِّئَابِ زَمَانٌ كَادِبُ الأَمَدِ
حُرِّيَّةُ الشَّعْبِ لَا تُعْطَى بِمَوْعِدَةٍ - وَلَا تُنَالُ بِمِيثَاقٍ وَمُعْتَقَدِ(2)

وفي صورة أكثر واقعية يبين حقيقة هذا العيد الذي لامعنى له، وقد سنه الله عز وجل للتآخي والتآزر والتجمع والتوحد في الحياة،والتميز عن بقية الأمم التي لا عقيدة ولا شعيرة دينية لها، مثل شعيرة العيد ، ويرى بأن الذبيحة هي هذه الأمة،وعليه لابد من وحدة الصفوف لإنقاذها من مهاوي الاختلاف والتفرق،وإعادة الروح إلى جسدها. ففي الوحدة قوة وإخلاص،يرعى هذه الأمة،ويقضي على عنوها،وهي في جميع الأحوال صورة متشابهة لكل أمة صغيرة،هي جزء من الأمة العربية الكبيرة التي تصدعت وتفرقت:

العِيدُ حَلَّوه لِلأَحْرَارِ يُغْرِبُهُمْ - وَأَيْقَظُوا الثَّأْرَ لِلأَخْلَاقِ بِالكَلِمِ
ذَبَحْتُمُ الشَّاةَ قُرْبَانًا، وَأُمَّتُكُمْ - ذَبِيحَةٌ مِنْهَا.. يَكْفِي بَعْضُ بَعْضِ

---

(1) أحمد بن حنبل- المسند- ج5 ص196.

(2) ديوان الصمود ص88 89 .

دَبيحَةُ بِخِلافَاتٍ يَكَادُ لَسَعُها - حَديدُ داوُدَ، يُنْقِي العِهنَ في الزَّرَدِ(1)

فَانْفِدُوهَا بِنُورٍ مِنْ تَعَاضُرِكُمْ - يَدِبُّ فِيهَا دَبِيبَ الرُّوحِ في الجَسَدِ

فَإِنْ فَعَلْتُمْ.. فَعِيدُ الدَّهْرِ يَرْقُبُكُمْ - وَإِنْ تَخَاذَلْتُمُ.. يَا ضَيْعَةَ البَلَدِ(2)

وأكد في قصيدة أخرى "الجلاء الكاذب"(3)، أن جلاء الإنجليز من الأراضي المصرية،يكون بتوحد كل الشعب تحت راية واحدة،يباركها الله عز وجل لأنها سبيل العزة الكبرى :

قِيلَ: إنَّ الذِّئْبَ عَنْ غَابِكَ يا نِيلُ تَرَحَّلْ!

آهِ لَوْ كَانَ عَلَى الأَسْوَارِ لاَ يَأْوِيهِ مُعْقِلْ

فِي غَدٍ تَمْشِي إِلَيهِ صَفَّ أَحْرَارٍ جَحْفَلْ

لاَ تَرَى فِينَا أَخَا يَخْذُلُ فِي الرَّكْبِ أَخَاهْ

فِي سَبِيلِ العِزَّةِ الكُبْرَى سَيَحْمِيهَا الإِلَهْ

نَحْنُ لِلأَغْلاَلِ حَتْفٌ مِنْ يَدِ الشَّعْبِ مُعَجَّلْ

وَكِتَابٌ أَنْتَ فِيهِ السِّحْرُ، وَالحُبُّ المُنَزَّلْ..(4)

2- الوحدة العربية :

ثم انتقل إلى الحديث عن وحدة الأمة العربية المنشودة، التي كانت في يوم ما يلفها ثوب فضفاض عريق، تجمعها دعوة السماء والحق والنور،ألا وهي دعوة الإسلام. إلى جانب الدين جمعتها أواصر أخرى كاللغة والتاريخ وكل المآثر،التي اتسعت وامتدت في أصقاع الأرض، وصنعت حضارة. إلا أنها ما فتئت أن تفرقت وضاعت بين أيدي الغزاة والطامعين والحاقدين.

وراح بعض المصلحين والقادة والشعراء والأدباء يحلمون بالعودة إلى المجد الحضاري القديم،الذي لا يعود إلا بعد تحقيق التوحد والإخاء من جديد. ومضى معهم شاعرنا يعدد مآثر هذه الأمة الروحية والتاريخية،ويتلمس شعوره بالحنين والأمل إلى هذه الوحدة المرتبطة بالعزة والمجد،والتراث والأرض، والعروبة والإسلام.

وتتوالى القصائد في ديوان نار وأصفاد تنشد هذه الوحدة المرجوة وهي وحدة العرب المرجوة في ظلال الإسلام واعتبارها خطوة أولى إلى وحدة إسلامية شاملة. وقد أفصح عن تعلقه بالوحدة العربية في ظل المعاني الإسلامية بدعوته إلى وحدة متواصلة تحفز على بناء حاضر رصين وأصيل بإحياء مجد العرب المسلمين الأوائل الذين ملأوا الدنيا قيما وخيرا. فكان ينظر إلى هذه المقومات الثلاث الدين والتاريخ واللغة نظرة متكاملة، بعيدة عن تلك النظرات والدعوات التي فصلت بين تلك المقومات وأبعدت مقوم الدين بالخصوص، واعتبرتها

---

(1) العهن : الصوف أو ما كان منه مصبوغا. الزرد : ج زرود : الدرع المزرودة يتداخل بعضها في بعض .

(2) نار وأصفاد- ص89.

(3) قال القصيدة عام 1948م وعنى الاحتلال بجلاء الشعب بزواله من معقل الإستعمار في قصر النيل،بينما هو راسخ حتى ضفاف القناة .

(4) المصدر نفسه ص67 .

وحدة عربية خالصة. فالشاعر تجاوز هذا المفهوم الضيق لاقتناعه بالأصول الدينية للوحدة العربية مع تفكيره المشروع لتحقيق وحدة إسلامية كبرى تنطلق من الأمة العربية المهد الأول للإسلام. ولا تتعارض مع معاني القومية العربية التي لم يكن لها أثرا قبل أن يمزق الاحتلال تلك الأمة العربية. فكانت دعوة إلى قيام وحدة كبرى باستنهاض الهمم، وتبيين أثر الاتحاد والقوة،والتنديد بالاحتلال الذي أدى إلى التمزيق والتفريق،وتوضيح العوامل التي تربط هذه الأمة، وتجعلها أمة واحدة لا تفصل بين أوطانها حدود. وبالتالي فإن مفهوم القومية لا يمكن أن يحيد عن الفلسفة الدينية والاجتماعية لتلك الأمة والذي يختلف عما دعا إليه بعض رجال الفكر والسياسة استجابة لدسائس الغرب، وشكل مدا قوميا سياسيا أو شك أن يتغلب على سواه من التيارات على الساحة العربية .على الرغم من تصدّد هذا الاتجاه القومي وبروزه على أصعدة كثيرة، فإن الشاعر ظل ينظر إلى تلك الوحدة بمنظور عربي إسلامي،ركز فيه على الذود عن شخصيتها من عوامل التفرقة والشقاق، والتبشير بمستقبلها في ظل الوحدة المنشودة التي نادى إليها رواد الاصلاح في العالم العربي الإسلامي،فحرر النهضة الحديثة وحوتها فكرة تأسيس الجامعة قبل الجامعة الإسلامية العربية التي نجح الأجانب في إقامتها على أنقاض الجامعة السابقة، مستهدفين أحداث الانقسام والانشقاق والخلاف في وحدة العرب والمسلمين.

وكان شعوره بالوحدة مزدوجا يجمع بين العروبة والإسلام. فلم يكن عربيا صرفا، ولا إسلاميا صرفا، وإنما كان عربيا إسلاميا في آن واحد على أساس أنهما عنصران متداخلان متشابكان منذ عصور مضت.

ويبرز الشاعر مفهوم الوحدة العربية في ظل المعاني الإسلامية معتبرا الدين مقوما أساسيا لتحقيق الوحدة، لأنه ينظر دائما إلى الوطن العربي على أنه وطن إسلامي يوحده الإسلام بقيمه ومقدساته، وشعائره وفرائضه، ولم ينكر في ذات الحين مقوم التاريخ، الذي لا يخرج عن مفهوم التاريخ الإسلامي الحافل بالمآثر والأمجاد وكذلك اللغة المرتبطة بالبيان والإعجاز القرآني والإرث الأدبي والحضاري.

ففي قصيدة "الأحدب النشوان" استطاع أن يعبر عن أصالة وعمق الوحدة في ظل الدين الإسلامي، حيث استلهم قصيدته من وحي الهلال هلال العيد أو شوال -كما أشار في مقدمة القصيدة ورمز إليه بالأحدب النشوان وارتباط الهلال بمعاني الحياة الإسلامية بفرائضها وشعائرها وأجوائها الدينية كالصلاة والصيام والعيد، وما في ذلك من وحدة روحية قائمة على التعبد والتطهر، والتآخي والتوادد.

لكن الشاعر يشهد هلال العيد في واقع الشرق الذي يعيش التفرق والتشتت والقيود والاستعمار، ويمثل هذا الكائن المحدودب في صورة منتشية،على الرغم من الواقع المرير،لأنه يجب أن يبقى هذا الرمز الروحي الثابت،يحمل الحبور والنور لهذا الشرق العربي الإسلامي ليتوحد من جديد :

مِنَ الأَحْدَبِ النَّشْوَانِ طَافَ العَوَالِمَا - وَأَوْمَأَ إِلَى الشَّرْقِ المُقَيَّدِ بَاسِمَا ؟
يَدُبُّ عَلَى سَاقٍ مِنَ النُّورِ ثَمَّ تَدَعْ - عَلَى الأَرْضِ رُكْنًا مُظْلِمَ الأُفْقِ وَاجِمَا
وَيَمْشِي كَمَا تَمْشِي إِلَهٌ مُبَشِّرٌ - بِوَحْيٍ، يَرُفُّ الحَظُّ كَالطَّيْفِ حَالِمَا
وَيَرْنُو كَمَا يَرْنُو إِلَى اللهِ عَابِدٌ - يَكَادُ مِنَ الإِصْغَاءِ يُحْسِنُ نَائِمَا

لَهُ قَسَامَةٌ أَحْنَتْ يَدُ الدَّهْرِ عُودَهَا - فَهَلْ كَانَ شَيْخًا مِنْ حِجَى الْخُلْدِ قَادِمَا؟
تَحَدَّرَ، وَاسْتَعْلَى، وَأَقْبَلَ وَانْثَنَى - فَلَوْ كَانَ إِنْسَانًا قُلْتَ : حَيْرَانُ، نَادِمَا
يُشَقُّ عُبَابَ الْجَوِّ.. لَا جَرْ عِنْدَهُ - وَلَا شَطَّ لَكِنْ يَنْزَعُ النُّورَ هَائِمَا
هُنَا طَرْفُهُ فِي الْغَرْبِ وَجْدًا كَأَنَّهُ - يُرِيدُ انْبِثَاقَ النُّورِ لِلشَّرْقِ دَائِمَا[1]

وبعد أن تأمل الشاعر هذا الهلال الذي رمز به إلى الهداية والعبادة والحكمة والعبرة، وترقب قدومه الذي تزامن مع العيد وشوق ولهفة المسلمين إليه، ليكون اللقاء، وأي لقاء في زمن الفرقة والشتات. لكن الهلال يغتنم مناسبة العيد التي فقدت أجواءها الروحية وأواصرها العميقة، ليشير إلى ماضيهم المتلألئ،ويعاتبهم لإغفائهم عن النور الذي كان يغمرهم، والحق الذي بنوا به صرح الأرض،وعن كل القيم الروحية والأخلاقية والإنسانية التي كانوا يتمتعون بها، ويسعون من أجل نشرها وترسيخها في الحياة كالرحمة والعدل، والعفة والصفاء، والحب والخير والحرية :

أَطَلَّ رَحِيمُ النُّورِ تَحْسَبُ ضَوْءَهُ - تَحَمُّلُ إِيقَاعًا مِنَ الطُّهْرِ تَاغِيمَا
هِلَالٌ.. يَكَادُ الْمُسْلِمُونَ صَبَابَةً - يَطِيرُونَ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهِ حَمَائِمَا
أَشَارَ لِمَاضِيهِمْ بِكَفٍّ مُلَأْلِئٍ - تَزَامَتْ حَوَالَيْهِ النُّجُومُ حَوَائِمَا
يُعَاتِبُ مَنْ أَغْفَتْ مِنَ النُّورِ عَيْنُهُ - وَكَانَ لِمَرْجِ الْحَقِّ فِي الْأَرْضِ هَادِمَا[2]

ويتساءل ذلك الهلال متعجبا،متحسرا على هذا التفرق والانقسام،على الرغم من امتلاك هؤلاء المسلمين لذلك الرصيد الروحي والأخلاقي والإنساني الذي منحهم إياهم الدين الإسلامي،وحقق لهم وحدة روحية عميقة تغلغلت في مشاعرهم في السراء والضراء،فلا تحدّها تلك الحدود المصطنعة بين لبنان ومصر والعراق وغيرها. لكن الواقع يشهد تقهقرا وتراجعا مريعا،لتهاونهم وغفلتهم وضعف الوازع الديني في أعماقهم من جهة،ودسائس الاستعمار من جهة أخرى، الذي يريد أن يطمس كل المعالم الروحية التي تقف أمام أحقاده وسياسته:

مَضَى كُلُّ شَعْبٍ لِلسَّمَاءِ مُوَحِّدًا - وَنَحْنُ عَلَى الْبَلْوَى، عَشِقْنَا التَّقَاسُمَا
حِمَانَا حِمَى الْإِيمَانِ وَالنُّورِ وَالْهُدَى - فَكَيْفَ غَدَوْنَا لِلْعِبَادِ غَنَائِمَا
وَمَا نَحْنُ إِلَّا مُهْجَةٌ مِنْ أَثِيرِهَا - أَثَارَ جَنِيبَيْهَا اللَّظَى وَالسَّمَائِمَا
تَمَانَا تُرَابُ الْخَالِدِينَ، وَضَمَّنَا - ثَرَى مُشْرِقٍ ضَمَّ الْعُلَا وَالْمَكَارِمَا
إِذَا قَلْبُ "لُبْنَانَ" تَنَهَّدَ بِالْأَسَى - سَمِعْتَ حَفِيفَ الْأُرْزِ فِي اللَّيْلِ جَاحِمَا[3]
وَإِنْ أَرْعَشَتْ مَوْجَ الْفُرَاتِ كَآبَةٌ - رَأَيْتَ أَسَاهَا فِي رُبَى مِصْرَ غَائِمَا
وَإِنْ أَسْعَدَتْ مِصْرَ اللَّيَالِي سَمِعْتَهَا - حَدِيثًا بِقَلْبِ الشَّرْقِ رَيَّانَ فَاغِمَا[4]

---

(1) نار وأصفاد - ص53.

(2) المصدر نفسه - ص53-54.

(3) جاحما : من جحم، جحمت النار: اضطرمت واشتد اشتعالها.

(4) المصدر نفسه ص54- فاغما : شيء مغموم طيب الرائحة، فُغْمَةُ الطيب: عبقه .

استرجاع الهلال للعصور الماضي أمام واقع المسلمين،والتي تراءت فيها وحدة المشاعر والأفكار،والتعكست حتى على وحدة الطبيعة.لم تجعله يستسلم معهم إلى الحزن والحلم والاغفاء،فإنه مازال يصر على الثبات والعزم والأمل والتفاؤل، وبها يدعو إلى الاستفاقة والنهوض والتوحد والعودة إلى التمسك بتلك القيم الروحية والأخلاقية، وإحياء جذوة ذلك الماضي للموحد تحت شعار الدين. لأن التوحد في ظل تلك المعاني يُعيد للعيد وجهه الحقيقي،ولحياتهم الروحية الأخرى :

فَيَا شَرْقُ طَالَ النَّوْمُ، فَانْهَضْ، فَإِنَّمَا - يَدُ الذُّلِّ تَجْتَاحُ الشُّعُوبَ السَّوَائِمَا

تَزَوَّدْ مِنَ الأَخْلاَقِ، إِنَّ سِلاَحَهَا - يَفُلُّ حَدِيدَ الظُّلْمِ إِنْ هَبَّ غَاشِمَا

تَرَاكَ مِهَادُ الأَنْبِيَاءِ، بِشَطِّهِ - تَدَفَّقَ نُورُ الكَوْنِ كَالسَّيْلِ عَارِمَا

فَأَشْعِلْ رَمَادَ الهَامِدِينَ، وَقُلْ لَهُمْ - هُنَا جَذْوَةُ المَاضِي تُثِيرُ العَزَائِمَا

وَأَصْغِ إِلَى بُوقِ النُّشُورِ يَهُزُّهُ - عَلَى الشَّرْقِ صَدَّاحٌ عَلَى الأَيْنِ طَالِمَا

أَتَاكَ يُنَاجِي العِيدَ فَاهْتَاجَ قَلْبُهُ - فَلَمْ يَدْرِ أَشْعَارًا شَدَا أَمْ تَمَائِمَا(1)

إن دعوة الشاعر إلى التوحد من منطلق تلك الرموز الدينية،مازالت لم تجد صداها مع بقية الدعوات الأخرى، مادام كل قطر يرى الهلال كما يشاء،ويفرح بالعيد كما يشاء،ولا توحده حتى الأعياد والأيام.

في تلك الظروف التي تعانيها الأمة العربية، أخذت الدعوات طريقها نحو الوحدة. وكان الشاعر بماضي عزيمة وأكثر إصرارا على مواجهة الصعاب والتحديات من أجل تأكيد إرادة الوحدة الموجودة لدى كافة أقطار الأمة، مصورا وجودها في المشاعر والأفكار. وهي ليست بحاجة إلى قوانين لاثبات وجودها،على الرغم من الحواجز السياسية المصطنعة لأنها حواجز زائلة لا تمكن لها أن تستمر،لأن الأمة العربية يجمعها تاريخ واحد، تتحكم فيه اللغة والعقيدة والماضي والمصير.

ولذلك عندما تمت الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958م،والتي كانت أملا عظيما تحقق،وجهة جبارة في وجه أعداء أمتنا وبخاصة إسرائيل والصهيونية والامبريالية العالمية(2). سارع الشاعر مع غيره من الشعراء(3) إلى تأييدها والتغني بها، لأنها عكست وأحلام وأماني ومشاعر الإنسان العربي،الذي ظل ينتظر إشراقة شمس الوحدة الوضاءة، التي اختفت أنوارها سنوات عديدة من القهر والظلم، والفرقة والتباعد، وهاهي تعود من جديد بهذه الوحدة بين مصر وسوريا لتوحد القلوب تحت راية واحدة،التي رفع لواءها الإسلام،وأعلى فيها قيم الحق والخير والعدالة، وكان التاريخ خير شاهد على ذلك.

---

(1) نار وأصفاد - ص55.

(2) صابر فلحوط- نحو الوحدة العربية- ص89.

(3) انظر- أحمد محمد الحوفي- وحدة اللغة والوطن في الشعر الحديث -مطبعة لجان البيان العربي-مصر-ط1-1964م- ص118 وما بعدها.

ففي قصيدة "موكب الوحدة"(1) يشيد بوحدة مصر وسوريا، ولم يجد أمام هذا الموقف التاريخي العظيم إلا الإشادة بالتاريخ الإسلامي الذي جمعهما في فجر الحضارة الإسلامية،مذكرا بدمشق التاريخية نواة الدولة الإسلامية وامتداد للخلافة الإسلامية،التي أقامها بني أمية،وشقت حضارة ممتدة البيارق والمصابيح والآيات والفتوحات،في زمن كان الغرب يتخبط في ظلماته :

مِنْ جَبْهَةِ الشَّمْسِ حَيَّتْكَ المَنَارَاتُ - وَرَفْرَفَتْ لَكَ فَوْقَ النِّيلِ رَايَاتُ
وَأَقْبَلَ الدَّهْرُ.. نَشْوَانًا، بِرَاحَتِهِ - فَجْرٌ مِنَ الخُلْدِ، صَاغَتْهُ السَّمَوَاتُ
وَفِي الجَبِينِ سُطُورٌ، رَاحَ يَحْمِلُهَا - نُوحٌ مِنَ النُّورِ، خَطَّتْهُ النُّبُوَّاتُ
دِمَشْقُ فِيهِ نَشِيدٌ طَالَمَا شَجِيَتْ - بِهِ العُصُورُ، وَغَنَّتْهُ الحَضَارَاتُ
شَجَى أُمَيَّةَ فَامْتَدَّتْ بَيَارِقُهَا - وَنَوَّرَتْ فِي ظَلَامِ الأَرْضِ هَالَاتُ
يَا طَالَمَا سَطَعَتْ فِي الكَوْنِ، خَمْلُهَا - لِلْحَائِرِينَ مَصَابِيحٌ مُضِيئَاتُ(2)

وفي قصيدة أخرى "ربى الفيحاء" يؤكد هذا الارتباط التاريخي والجغرافي والديني والعاطفي لمصر وسوريا، اللتان يمثلان سر مجد هذه الأمة العريقة :

يَارُبَى الفَيْحَاءِ.. حَيَّتْكِ العُلَا - وَالْبُطُولَاتُ رِحَابًا وَجِنَانَا
هَذِهِ أَيَّامُنَا قَدْ رَجَعَتْ - سِيرَةً لِلْمَجْدِ يَرْوِيهَا هَوَانَا
فِي صَبَاحِ الشَّرْقِ عُدْنَا أُمَّةً - مِثْلَمَا كُنَّا عَلَى الدُّنْيَا وَكَانَا
بَرَدَى وَالنِّيلُ فِي يَوْمِ العُلَا - وَحَّدَا الشَّعْبَيْنِ قَلْبًا وَلِسَانَا(3)

وامتد صدى هذه الوحدة إلى كل الأقطار العربية، وازداد الشعور بالتوحد أكثر في خضم الثورات والتغيرات التي تشهدها.

وكانت قصيدة "راية الوحدة"(4) إجلاء لحقيقة هذه الأمة التي بدأت تلم أجزاءها المفرقة، بدأها الشاعر ببداية فنية جميلة مصورا وجوده الزماني المكاني، فوق أثير وأفق يلون كأنه فيه نبي ومصحف وصلاة. وهو يشير بذلك إلى الموقع الروحي لهذه الأمة في زمن بدأت فيه السماء تفتح الأبواب خطا العلم والاختراع. وأمام هذه المفارقة الروحية والعلمية، يحلم بأمته متوحدة لتحقق وجودها الروحي والحضاري، ويتخيل أنه يمضي فوق طير معجز، يتحدى الجن والسديم، ويشق الغيوب،باحثا عن حقيقة هذه الأمة في ماضيها وحاضرها :

---

(1) قال القصيدة في 31 يناير 1958 يوم إعلان الوحدة العربية، حيث قال في مقدمتها مع موكب الوحدة العائد من ضحى التاريخ العربي، بعد أن وضع الاستعمار في ظريفه الظلام والشتات.

(2) نار وأصفاد- ص142.

(3) المصدر نفسه - ص179.

(4) قال القصيدة في 20ديسمبر 1958م في المؤتمر الرابع للأدباء العرب بالكويت.

فَوْقَ صَدْرِ الأَثِيرِ وَالأُفْقُ حَوْلِي - كَتِبِي، وَمُصْحَفِي وَصَلاَتِي!
وَالسَّمَوَاتُ، فَتَحَتْ لِخُطَا الذَّرَّةِ بَاباً، وَكَمَّرَتْ لِلنَّوَاةْ
وَفَضَاءُ الفَضَاءِ غَيْبٌ.. وَلَكِنْ - خُطَا العِلْمِ شَعَّ بِالبَيِّنَاتْ
وَالضُّحَى عَابِدٌ تَوَشَّحَ بِالنُّورِ - وَصَلَّى عَلَى جَبِينِ الحَيَاةْ
وَأَنَا وَاثِبٌ، أُصَعِّدُ فِي المَجْهُولِ مُسْتَسْلِمٌ إِلَى نَظَرَاتِي
فَوْقَ طَيْرٍ لاَ تَعْلَمُ الجِنُّ شَيْئًا - عَنْ خُطَاهُ فِي سِرَّةِ المُعْجِزَاتِ
يَتَحَدَّى القَدِيمَ، وَالأَبَدَ الغَالِي - وَيُعْفِي مُسَخَّرَ الخَطَوَاتِ
وَيَشُقُّ الغُيُوبَ شَقَّ القَدَارِيرِ، خَفِيَّ المَدَى، عَفِيَّ الأَنَاةِ..[1]

وإذا بالشاعر يعثر في رحلته الكونية على راية شامخة تمس يد الشمس،ويرمز بها إلى راية الأمة العربية التي امتدت عبر الثرى، وذاع صيتها بالغا عنان السماء، إلا أنه وجدها تنفض عن جبينها الخسرة والذل، وراح يسائلها عن هويتها، فانبرت -كما يقول- تحصد الصمت، وتروي العظائم الخالدات. وتسرد تاريخها النبوي والبطولي والحضاري، وتذكر الوقائع والأماكن والأسماء، وتبرز وجه أمته المضيء:

وَإِذَا رَايَةٌ تَمُسُّ يَدَ الشَّمْسِ - وَتَمْشِي لِسُنَّةِ السَّبَوَاتِ
نَفَضَتْ عَنْ جَبِينِهَا خَسْرَةَ الذُّلِّ - وَدَاسَتْ عَلَى جَبِينِ الطُّغَاةِ
قُلْتُ مَنْ أَنْتِ ؟ فَانْبَرَتْ تَحْصُدُ الصَّمْتَ، وَتَرْوِي العَظَائِمَ الخَالِدَاتِ
أَنَا بِنْتُ "الوَلِيدِ" بِنْتُ "صَلاَحِ الدِّينِ" بِنْتُ المَلاَحِمِ الخَالِدَاتِ
البُطُولاَتُ نَوَّرَتْ بَيْنَ كَفَّيَّ - وَشَعَّ الضِّيَاءُ مِنْ عَتَبَاتِي
وَالنُّبُوءَاتُ أَشْرَقَتْ فَوْقَ أَرْضِي - وَأَضَاءَتْ بِنُورِهَا قَسَمَاتِي
وَقَفَ الغَرْبُ خَائِفًا عِنْدَ بَابِي - وَاسْتَمَدَّ الوُجُودُ مِنْ رَاحَتَيَّ
وَرَمَتْ خَيْمَتِي عَلَى الكَوْنِ فَجْرًا - صَدَّ عَنْهُ الغَوَاشِي[2] الحَالِكَاتِ
أَنَا بِنْتُ النُّجُومِ.. وَالغَرْبُ يَدْرِي - قِصَّتِي مِنْ عُصُورِ المُظْلِمَاتِ
كُنْتُ إِشْعَاعَهُ الضُّحَى وَهُوَ جَاثٍ - رَاكِعُ العَقْلِ، ضَارِعٌ لِفُتَاتِي[3]

ثم تشهد هذه الراية باسترجاعها تلك الذكريات الماضية، وتعبر على الماضي الذي لن يعود إلا بالثورة والتوحد. وتتذكر بدايات سقوطها الحضاري وتفتتها منذ اعتداءات وهجومات التتار والمغول إلى الحملات الصليبية والصهيونية التي قضت عليها:

---

(1) نار وأصفاد- ص147.

(2) الغواشي: ج الغاشية : العطاء: لقال للقيامة لأنها تغشى كل أحد بأهوالها .

(3) المصدر نفسه ص147-148.

خَلَسَ النُّورَ مِنْ تَحْتِي، وَحَطَّ اللَّيْلُ، وَالْقَفْرُ وَاغِلاً فِي سُبَاتِي
فَتَنَهَّدْتُ وَاسْتَحَرْتُ بِمَاضٍ - كَانَتِ الشَّمْسُ فِيهِ... مِنْ جَارَاتِي...
وَتَرَبَّصْتُ لِلْسَّعَدَا.. وَتَأَهَّبْتُ لِيَوْمٍ بِوِحْدَةِ الرَّكْبِ آتِ
بَعْدَمَا أَغْرَقَ التَّتَارُ ضِبَابَاتِي - وَحُفَاةُ الْمَغُولِ سَدُّوا جِهَاتِي
بَعْدَمَا أَوْغَلَ الْغُزَاةُ بِأَرْضِي - وَتَسَلَّوْا بِفَرْحَتِي وَشَتَاتِي...
وَمَشَوْا كَالذِّئَابِ تَنْهَشُ أَيَّامِي - وَيَخْفَرُ سُمُّهَا فِي لُهَاتِي[1]

ويراودها أمل الماضي وهي تشهد لحظات اليقظة والنهوض، والانبعاث من أجل استرجاع ذلك الماضي بتحقيق الحرية والنصر، والوحدة والتجمع، والقضاء على مظاهر التشرد والحرمان واللجوء، وإبعاد الطغاة الذين ساهموا في إشعال نار الفتنة والفرقة، وهذا فالوحدة هي السبيل الفعال لتغيير الواقع المؤلم.

نلاحظ أن حديث الشاعر مع واقع الأمة العربية حديثا موصولا،لا مبتورا بماضيها وحاضرها، وكان رجوعه إلى ذاكرة الأمة دفعا للواقع،وتنويرا وبعثا وتأكيدا ما في التاريخ من عزة ووحدة وحضارة.

و لم ينس الشاعر اللغة باعتبارها إحدى المقومات الروحية الرابطة بين أبناء هذه الأمة إلى جانب الدين والتاريخ والتي كان لها مجدا عريقا وأصيلا،حيث كانت أداة تعبير عن ماضي هذه الأمة العربية الإسلامية بوحدتها وحضارتها. و لم ينظر إلى اللغة نظرة منعزلة، بل نظر إليها كتاريخ و حضارة، وهدف ومصير بعد محاولة الاستعمار للقضاء عليها، وبالتالي القضاء على وحدة العرب، و لم يتوان عن التنويه بعراقتها وأصالتها لارتباطها بالعزة والنسب والحق والبيان والسحر والعلم والخلود ، وقد رمز لها بلغة الضاد والرحيق والناي والبيان، يقول :

يَاقَوْمِ هَذَا طَرِيقُ الْحَقِّ وَحَّدَنَا - فِي لَيْلِهِ نَسَبٌ، فِي فَجْرِهِ نَسَبُ
أَنَا أَحُوكَ وَأَنْتَ ابْنِي وَأَنْتَ أَبِي - بِحَرِّ دِمَائِكَ - إِذْ نَخْرِي - إِبِ الْعَصَبُ
مِنْ غَابِرِ الدَّهْرِ تَبْعُ الضَّادِ يَجْمَعُنَا - وَكُلُّنَا مِنْ سَوَانِي سِحْرِهَا شَرِبُوا
هَذَا الرَّحِيقُ بِكَفِّي كَيْفَ أَعْصِرُهُ؟ - إِنْ لَمْ تَكُنْ غَرَسَتْ عُنْقُودَهُ حَلَبُ!
هُنَا الْبَيَانُ هُنَا النَّايُ الَّذِي انْسَحَرَتْ - بِهِ الْعُصُورُ، وَغَنَّتْ خَلْفَهُ الْحِقَبُ
هُنَا الْقَوَاضِبُ[2]، وَالأَقْلَامُ، أَيُّ مَدًى - لِعِزَّةِ الشَّرْقِ إِنْ صَلُّوا وَإِنْ كَتَبُوا[3]

لكننا لم نعثر على قصائد أو مقاطع أخرى تبرز مقوم اللغة أكثر، وإن أصغينا إلى أشعار كثيرة[4] تتغنى برباط اللغة العربية الوثيق بين العرب، وتشيد بسعتها ومرونتها، وتدفع ما صوب إليها من باطل الاتهام، وتحذر

---

(1) نار وأصفاد- ص 148.

(2) القواضب- ج: القاضب : السيف الشديد القطع .

(3) المصدر نفسه -ص 165.

(4) انظر- د/ أحمد محمد الحوفي- وحدة اللغة والوطن في الشعر الحديث-ص21-31 .

من الاستجابة لدعاوى الاستعمار وعملائه، كقصيدة حافظ إبراهيم الشهيرة التي جمعت كل تلك المعاني، والتي يقول فيها على لسان اللغة العربية وكان أبرع وأعمق من محمود حسن اسماعيل :

رَجَعْتُ لِنَفْسِي فَاتَّهَمْتُ حَصَاتِي - وَنَادَيْتُ قَوْمِي فَاحْتَسَبْتُ حَيَاتِي
رَمَوْنِي بِعُقْمٍ فِي الشَّبَابِ وَلَيْتَنِي - عَقَمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَوْلِ عُدَاتِي
وَسِعْتُ كِتَابَ اللهِ لَفْظًا وَغَايَةً - وَمَا ضِقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتِ
أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِنٌ - فَهَلْ سَأَلُوا الْغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتِي؟ (1)

وفشل ذلك المشروع الوحدوي بين مصر وسوريا التي كانت خطوة أولى لطريق الوحدة، وأجهض عام 1961م(2).على الرغم من عمليات الانفصال والتجزئة، لم يستطع الاستعمار أن يقضي على معنويات الإنسان العربي وتصميمه على بناء حياته الجديدة على أرضه، وساعده ذلك العزم والتصميم،لأنه كان ينتظر من هذه الأمة الركوع والاستسلام، لكنه يفاجأ دائما على الرغم من أحداثه المتجددة المناوئة بأصوات صارخة تساعد على إجهاض توقعاته، حيث امتد صوت الوحدة حتى بعد فشل المشروع الوحدوي وبعد كارثة فلسطين، ومازالت لحد الآن الدعوة إلى الوحدة مرتبطة بحرية فلسطين، وبقي السؤال معلقا في الحناجر عن الوحدة العربية وفلسطين ومنها حنجرة الشاعر(3).

3- الوحدة الإسلامية :

لم يعاصر الشاعر محمود حسن إسماعيل الخلافة العثمانية التي مضت حافلة بالأحداث والصراعات، وأقصد بالتحديد أنه لم يشهد المقاومة التي كان قوامها مهاجمة الخليفة والسياسة العثمانية،أو حتى مناصرتها ومبايعتها، لأنها انتهت في غير زمنه، ولم يبق إلا آثار الجامعة الإسلامية التي استبدلت بالجامعة العربية، لأن فكرة الوحدة الإسلامية لم تَمُتْ عند الكثيرين ومنهم الشاعر،حيث كانت الدعوة إلى وحدة العرب يعني وحدة أرض الإسلام، وإحياء مجد هذا الإسلام الذي لن يكون إلا في أرضه الأولى ثم كل الأراضي الإسلامية غير العربية. وهذه النظرة ليست قومية إقليمية،أو تعصبية عرقية، وإنما تؤكد حكمة الله التي اختارت العرب وأرضهم ولغتهم، ليكون منهم الامتداد الإسلامي الخالد.

وهذه الحقيقة يوضحها قول محمد المبارك << لئن كان الإسلام عقيدة عامة في الحياة، ورسالة إنسانية ذات مبادئ عامة، فإن العرب كانوا هم أول من تلقاها وبلغها، وهم أول من وعاها وتمثلها ونفذها، منهم خرج صاحب الرسالة، وبلُغتهم نزل الكتاب، وإياهم خاطب أول ما خاطب،وإياهم كلف بالتبليغ أولا ومنهم كان

---

(1) ديوان حافظ إبراهيم- دار العودة- بيروت- ج1- ص 253-254.

(2) صابر فحوظ- نحو الوحدة العربية- ص90 .

(3) انظر-محور قضية فلسطين .

صحابة الرسول عليه السلام الناقلون للإسلام والشارحون لمبادئه. وهم كان الوعد أولا بالنصر والتمكين في الأرض،وارتفاع الذكر وهم الذين استلهموا قيادته الفكرية واعين مبلغين، وقيادته السياسية حماة حاكمين، وعن طريقه امتدت الشخصية العربية عبر الزمان والمكان،وامتدت في العالم متغلغلة بين الشعوب والأقوام ثقافة وتفكيرا وسلوكا، وخلال العصور والأحقاب. وهو الذي نقلهم -بعد أن وحّد مفاهيمهم في الحياة في جميع نواحي الحياة وآفاقها- من أفق القبيلة والصحراء إلى الصعيد الإنساني حيث أصبحوا حداة القافلة الإنسانية وأول من قدم النموذج العلمي الأول لها، وبه أصبحوا نواة لعالم كبير يحيط بهم كالهالة.>>(1)

ولهذا كان تذكير الشاعر بأن أرض الشرق هي أرض كل العرب والمسلمين (2)، وأنها مهد النبوءات والرسالات،وحاملة مشاعل الهدى والنور والعلم، وساهمت في تحقيق وحدة إسلامية كبرى امتدت من الخليج إلى المحيط، ومن أوساط أوربا إلى أدغال إفريقيا،وإلى بلاد السند والهند. هذه الوحدة التي تحققت في زمن الازدهار الإسلامي، وما فتئت أن تفككت أصولها وأواصرها بعد انهيار الصرح الحضاري الإسلامي. وتفرق الأراضي الإسلامية بفعل الحروب والحملات والتقسيمات.

لكن الشاعر مازال ينشد هذه الوحدة الإسلامية، ومازالت صورتها الدينية والتاريخية تبعث في دعوته الشعور الإسلامي الصادق،المفعم بالإيمان والأمل.

وكما رأينا سابقا فهم محمود حسن إسماعيل لنقطة الشرق(3) ودلالتها، أنه لم يكن يعني بها الشرق العربي، وإنما الشرق الإسلامي أيضا الذي يأمل في عودة وحدته. حيث وجد في هذا الشرق وبالضبط في الهند هذا الجزء الذي يتمتع بروح الشرق الخالدة طائر مسلم يوقظ الشرق كله بأناشيد الحرية والبعث والإيمان... هذا الطائر هو إقبال الداعية والفيلسوف والشاعر الإسلامي العظيم، الذي كان من دعاة نشر وبعث الإسلام، ودعاة الوحدة الإسلامية،والذي عبر عن انتسابه إلى هذا الشرق الإسلامي،واعتزازه بذلك، بقوله :

أَنَـا أَعْـجَمِيُّ الذِّنِ لَكِنْ حَمْرَتِي - صُنْـعَ الحِجَارِ وَرَوْضُهَا الغَيْنَاءُ

إِنْ كَانَ فِي نَغَمِ الهُنُودِ وَلَحْنِهِمْ - لكـنّ هذا الصَّوْتُ مِنْ عَدْنَانِ(4)

وكان شعور إقبال،هو شعور معظم المسلمين الذين ما إن يذكروا الإسلام،حتى يذكروا الأمة العربية،وقد أشار أيضا المفكر الهندي أبو الحسن الندوي << أن المسلم ينظر إلى العالم العربي كمهد الإسلام ومشرق نوره ومعقل للإنسانية وموضع القيادة العالمية.>>(5)

---

(1) الأمة العربية في معركة تحقيق الذات- دمشق-1959- ص105.

(2) انظر-مبحث قضايا الأقطار العربية الإسلامية.

(3) انظر- أحمد معوض- محمد إقبال حياته وآثاره- الهيئة المصرية العامة للكتاب- 1980-ص 61-62.

(4) انظر-الأبيات في كتاب محمد المبارك- الأمة العربية في معركة تحقيق الذات- وقد عربها الصاوي شعلان- ص203.

(5) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- ص 394.

ففي قصيدة "طير من الشرق" تمجد دور إقبال الديني بدعوته إلى الإسلام،وسعيه لإيقاظ الشرق المسلم للنهوض والانبعاث والتوحد والتمسك بقيم الحق والإيمان والعدل والحرية. وانتقاده لواقعه الصغير والكبير من أجل البناء والإصلاح،مجسدا صورة رائعة لإقبال بصورة ذلك الطائر الذي تراءى قدومه من دروب الخلد بأجنحة نورانية تحمل النور،وتغزو الظلام، يدعو النفوس لله ولقيم الحق والخير. ويهاجم أمة تريد أن تعود إلى الضلال والأغلال :

وَطَيْرٌ مِنْ دُرُوبِ الْخُلْدِ آتٍ - بِأَجْنِحَةٍ سَوَابِغَ مُؤْمِنَاتِ
مُزَوَّدَةٍ بِنُورِ الْحَقِّ... تَغْزُو - بِهِ لَمْكَ الشُّدُودِ الْمُظْلِمَاتِ
تُضِيءُ بِهِنَّ سَابِلَةٌ، وَدَرْبٌ - وَمِئْذَنَةٌ تُكَبِّرُ لِلصَّلاَةِ(1)

وعبرت صورة الطائر عن روح إقبال المرفوفة حول هذا الشرق. لتشهد واقع أمة ينتظر لحظات الانبعاث. هذا الانبعاث الذي لا يكون إلا بالعودة إلى الاحتماء بجناح الإسلام، ولا يرى الشاعر في دعوة إقبال القادمة من أعماق الهند ضيرا،لأن الشرق الإسلامي واحد، ولا يمكن أن يتجاهل كل من إقبال والشاعر الانتساب إلى الأصول الأولى لهذا الشرق،وهي الأصول الإسلامية العربية. ولهذا فهو لا ينس التذكير بهذه الخطوة الربانية التي منحت للعرب، فكانوا حاملي مشاعل التوحيد والهداية من الصحراء والبيت العتيق إلى ديار قيصر،وكسرى العجم. وباعثي حضارة امتدت إلى الشرق والغرب،وحمراء الأندلس خير دليل على ذلك الامتداد الحضاري. وكانوا أصحاب بطولة وكرامة وإباء... حققوا أروع الفتوحات،وصدوا أحقاد الصليبيين والمغول برايات كراية خالد بن الوليد،ومواقع كموقعه حطين،والتي لا يمكن أن تكون إلا تذكيرا بمجد ديني وبطولي كان سر انتشار الإسلام في كل الأصقاع وبالتالي انتعاش الوحدة الإسلامية. ولهذا فهو يرى في دعوة إقبال خير تجديد لأواصر الوحدة ، وبعث لهذه الأمة التي أصبحت لا حاد فلولا قائد ولا داعية ولا هاد. تنتظر صوت النفير الإسلامي الذي ينبعث من كل الشرق الإسلامي.

وَلاَ حَادٍ هُنَاكَ، وَلاَ طَرِيقٌ - لِمَنْ كَانُوا هُدَاةً لِلْحَيَاةِ
وَمَنْ كَانَتْ قَوَافِلُهُمْ ضِيَاءً - يُشَعْشِعُ فِي الْعُصُورِ الدَّامِيَاتِ
وَمَنْ صَحَرَاؤُهُمْ رَوَّى ضُحَاهَا - جَبِينَ الشَّمْسِ مِنْ نُورِ الْهُدَاةِ!
وَأَشْرَقَ مِنْ سَبَايِبِهَا شُعَاعٌ - لَهُ رَقَّتْ جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ
وَرِيعَ الظُّلْمُ، وَانْحَدَرَتْ حُدُودٌ - مِنَ الظَّلاَّمِ كُنَّ مُسْتَقَرَّاتِ
وَذَابَ الرَّقُّ.. وَانْتَفَضَتْ جِبَاهٌ - عَلَى قَدَمَيْهِ كُنَّ مُعَفَّرَاتِ
وَكُبِكِبَ مَارِدٌ عَجَمِيُّ نَارٍ - ذَرَاهُ رَمَادُهَا فِي السَّافِيَاتِ(2)

---

(1) نار وأصداء- ص154.

(2) السافيات : السافية: سفت الريح التراب: ذرته وبددته . الريح هي السافية .

وَجَمْجَمَ[1] قَيْصَرٌ كَانَتْ ذُرَاهُ - عَلَى فَلَكِ النُّجُومِ مُحَيِّمَاتِ
تَحَيَّرَ وَاعْتَلَى.. فَعَلَتْهُ رِيحٌ - أَشَدُّ مِنَ الْغُيُوبِ الْعَاتِيَاتِ
مِنَ الشَّرْقِ الْعَرِيقِ سَرَتْ خُطَاهَا - مِنَ السِّيِّتِ الْعَتِيقِ مُطَهَّرَاتِ
سَرَتْ عَرَبِيَّةَ الأَنْفَاسِ تَجْرِي - بِهَا مُهَجُ الْحِيَامِ مُوَحِّدَاتُ
تَحُوطُ الأَرْضَ لاَ تُبْقِي حَبِيبًا - لِغَيْرِ اللهِ، يُطْرِقُ فِي صَلاَةِ[2]

وقد يتبادر إلى الذهن ان الشاعر نظر إلى الوحدة الإسلامية نظرة جغرافية على أساس التقسيم الإستعماري للعالم إلى شرق وغرب، بل لقد رأى أن الوحدة الإسلامية تسود حتى الغرب -والمقصود به أوربا - حيث يأمل بعودة النزوح الإسلامي إلى تلك المناطق الأوربية، لأنها دعوة الله إلى كل الأرض، وبالتالي هناك أمل للوحدة الإسلامية. ولم يحاول الشاعر أن يكون حالما إلى حد التوهم،لأن إسبانيا اليوم كانت الأندلس في الأمس،التي تنتسب إلى الأمة الإسلامية،وجزءامن وحدتها وامتدادها الحضاري.

ففي قصيدة "عدو الاستعباد" يسترجع صورة هذه الوحدة الإسلامية التاريخية التي امتدت من أرض النبوة وأرض الله إلى قصر الحمراء، منارة الأندلس، بفعل الفتوحات وانتشار قيم الإسلام، التي تدعو إلى التوحيد والأخوة والمساواة والعدل والسلام :

أَرْضُ النُّبُوَّاتِ، أَرْضُ اللهِ.. كَرَّمَهَا - وَمِنْ يَدَيْهِ تَلاَقَتْ فَوْقَهَا الْكُتُبُ
هَذَا يُضِيءُ.. وَهَذَا فِي رِسَالَتِهِ - لِكُلِّ قَيْدٍ شِهَابٌ ظَلَّ يَرْتَقِبُ
أَوْمَتْ إِلَى جَبْهَةِ الإِنْسَانِ فَارْتَفَعَتْ - وَكُبِكِبَتْ حَوْلَهُ الأَصْنَامُ وَالنُّصُبُ
وَكَمْ أَضَاءَتْ دُجَى الأَيَّامِ رَاحَتُهَا - وَكَمْ بِكُوَّةِ الإِظْلاَمِ يَصْطَحِبُ
بِنْتُ الْحَضَارَى، وَهَذَا الرَّمْلُ يَعْشَقُهَا - مِنْ أَقْبَلَتْ فَوْقَهُ بِالنُّورِ تَنْسَكِبُ
ظَلَّتْ تُضِيءُ، وَتُعْطِي مِنْ مَشَاعِلِهَا - لِلظَّامِئِينَ.. وَكَمْ عَبُّوا وَكَمْ شَرِبُوا
وَمَرَّ دَهْرٌ عَلَيْهَا.. وَهِيَ سَاقِيَةٌ - بِالرَّاحَتَيْنِ.. وَلاَ أَيْنٌ.. وَلاَ تَعَبُ
مِنَ الْخَلِيجِ إِلَى الْحَمْرَاءِ، رَايَتُهَا - عَنْ دَارَةِ الشَّمْسِ لَمْ يُقْطَعْ لَهَا سَبَبُ
وَحَالَتْهَا يَدُ نَكْرَاءُ، فَاحْتَلَفَتْ - بِهَا الدُّرُوبُ، وَرَاحَ النُّورُ يَغْتَرِبُ[3]

ويتساءل في ألم وحسرة عن الواقع الذي آلت إليه الأمة الإسلامية بعد تفرقها وهوانها، وضياعها بضياع جزء إسلامي تاريخي نفيس،هي الأندلس. ويتساءل أيضا عن كيفية وإمكانية عودة قرطبة،وبالتالي عودة الوحدة المفقودة. وهذا لا يمكن إلا بعد عودة الصلاة والتسبيح إليها، وكذلك الأذان والتكبير، أي بعد عودة الإسلام إليها ثانية. وهذا الشرط الديني ضروري لتحقيق الوحدة بعد الحملة التغريبية التي اجتاحت الأندلس، وفقدت حتى اسمها التراثي، ويتساءل قائلا :

---

(1) جمجم : يقال جمجم عن الأمر، أي لم يفده عليه. وجمجم شيئا أي حمله ولم يبينه .

(2) نار وأصفاد- ص155-156.

(3) المصدر نفسه ص161.

المبحث الرابع

النهضة

1- هزيمة حزيران 1967 م

2- الدعوة إلى النهضة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَكَيْفَ تَفْتِكُ بِالطُّغْيَانِ وَحْدَتُهُمْ - وَيَسْتَرِدُّونَ مِنْ كَفَّيْهِ مَا سُلِبُوا ؟
وَيُرْجِعُونَ صَلَاةَ الشَّمْسِ ثَانِيَةً - فِي أَرْضِ قُرْطُبَةٍ تَسْبِيحُهَا عَجَبُ
إِذْ تَسْتَوِي أَذَنٌ.. فَالدِّينُ لَيْسَ بِهِ أَذَنٌ - وَإِذْ تَكَبَّرُ تَحْسُو الْهَامُ وَالرُّكَبُ(1)

ونخلص إلى أن دعوة الشاعر إلى الوحدة الإسلامية كانت دعوة دينية لا سياسية، لأنه وإن ذكّر بدور الخلافة والقيادة والحضارة التي شعت من أرض العرب، لم يطغ الجانب السياسي على الجانب الديني. حيث رأى أن دعوة الإسلام النقي الخالص، كفيلة بإعادة المجد العربي فقط، بل المجد الإسلامي الذي ساد الشرق والغرب. فهي دعوة إلى الاتحاد الديني الذي يمنح القيم الروحية الكفيلة بالوحدة قبل أي مادية أخرى.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) نار وأصفاد -ص163.

على الرغم من الدور الفعال الذي قام به المصلحون في التعريف بهوية العالم الإسلامي الحقيقية،وتفرده بالخاصية القرآنية والحضارية، وبعث الهمم المسلمة من جديد بالوعي،وإصلاح المفاهيم وإحياء التراث الحضاري. والذين ارتبط مفهوم النهضة عندهم بالمفهوم الإصلاحي الإسلامي،الذي ظهر فيما بعد عند الحركات الإسلامية،التي تمتد بأصولها الفكرية والإصلاحية إلى المنابع الأولى للإصلاح[1]. إلا أن هذا التوجه الإسلامي للنهضة قد عرقلته مؤامرات دبر لها مواقف شعورية من الخارج، وأخرى من الداخل -وإن كانت في بعضها مواقف لا شعورية- حيث ظهرت حركات الانبهار بالحضارة أو المدنية الغربية، ومساندة فكرة الالتحاق بها جملة وتفصيلا. فتم استنزاف الطاقة الإصلاحية الإسلامية،وانتصر الغزو الفكري والثقافي منذ البداية الأولى لتاريخ النهضة بحملة نابليون الشهيرة على مصر سنة 1798م،التي قرعت أصوات مدافعه آذان مصر،وما تلا بعدها من حملات للتقليد والاستيراد والترجمة العشوائية، ومن بعثات علمية إلى أوربا.. بدأها رفاعة رافع الطهطاوي،وأمثاله فيما بعد بانتاجهم الفكري والأدبي المشهود، ومن تيارات فكرية وأيديولوجية وأدبية ونقدية أعتنقها الكثير،وسربوها إلى الفكر والأدب والنقد والفلسفة والسياسة والاجتماع.[2]

وكان من أثر هذه النهضة المزعومة هو التغلغل في الحياة الأوربية بمحاسنها ومساوئها، والمبالغة في الدعوة إلى نبذ التقاليد والأفكار والآداب والفنون العربية والإسلامية، إلى حد الاستخفاف والشك والطعن في الدين،وهدم كل ماهو متعارف على تسميته بالحضارة والقيم العربية والإسلامية،ورفض كل قديم << حتى ولو كان القديم تراثا جوهريا بناء قدم للإنسانية ومازال يقدم سليمة لكثير من مشكلاتها وقضاياها.>>[3]

وكان المقصود الواضح << من الجهود المبذولة حمل العالم الإسلامي على الحضارة الغربية هو تفتيت وحدة الحضارة الإسلامية التي تقوم عليها وحدة المسلمين، لأن كل قطر سيتجه إلى اقتباس ما يلائم ظروفه من هذه الحضارة،ومن ذلك تتعدد أسباب الاقتباس بتعدد البيئات الإسلامية المختلفة،فتفقد الحضارة الإسلامية طابعها الموحد، بل لا يعود هنا شيء اسمه حضارة إسلامية.>>[4]

كان للإستعمار الغربي سياسة مرسومة لمحاربة الإسلام في صور مختلفة،لأنه العقبة الأولى في سبيل استقراره، حيث يقتصر الصراع في ميدان السيطرة والسياسة، بل شمل الصراع الفكري بين المبادئ والأفكار التي جاءت من أوربا،وبين البعث الإسلامي الذي أبرز أفكارا ومبادئ تتسم بالقوة والحيوية، والصلاح والبقاء، وأثبت تعاليم الإسلام قوتها وحيويتها وسط هذا الصراع.[5]

---

(1) انظر- احمد أمين- زعماء الإصلاح في العصر الحديث- ص9 وما بعدها.

(2) انظر- عمر الدقاق في الأدب الحديث- ج1- ص21 وما بعدها.

(3) عبد القدر القط- الاتجاه الإسلامي في الشعر العربي المعاصر- ص106.

(4) محمد محمد حسين - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر- دار النهضة العربية للطباعة والنشر- بيروت-ط3- (1392هـ-1972م)- ج2- ص215.

(5) انظر-المرجع نفسه- ص243 وما بعدها.

إن الدعوة إلى النهضة ذات الاتجاه الإسلامي،على الرغم من محاولات إخفاء صوتها،إلا أنها أثبتت تواصلها واستمرارها محذرة من الإنسياق وراء تقليد الغرب الذي يفقد إحساس الأمة بكيانها، ويدفعها إلى الفناء، منادية إلى أن النهضة الحقيقية لا ينبغي أن تقوم إلا على أساس التمسك بالأخلاق والدين، وداعية إلى الرجوع إلى النهضة الأولى الدينية التي بلغت أوجها بظهور الإسلام وانتشاره في قسم كبير من المعمورة، وإن اختلف مع الدعوات الفكرية والسياسية الدخيلة والمتطرفة، إلا أنها دعت إلى تعزيز العنصر العربي الذي أعزه الله بالإسلام. وإن نهك قواه العادون، ومزق وحدته المارقون،فهو لا يزال أصلح العناصر الإسلامية للقيام بأمر الإسلام وإعادة مجد الأنام، وتهيئة أسباب الوثوب للعرب،لينهضوا ويتحدوا ويقودوا المسلمين أجمعين،كما قادهم أسلافهم الأولين.فإن البذل على مساعدة العرب على إحياء مجدهم،هو عين البذل لإعادة مجد الإسلام الذي ماتأسس بناؤه من قبل إلا بأيدي العرب.(1)

وكان من لفتة مصلحي ومفكري وأدباء هذا الاتجاه الإسلامي الداعي إلى النهضة هو الإحساس بتراث هذه الأمة وامتداده إلى قضايا الحاضر وتطلعات المستقبل، والتحذير على أن ما من أمة تنسى ماضيها أو تتنكر له، أو تزدريه إلا وتقود نفسها بيدها إلى مزالق الضعف والهوان، وتحكم على مصيرها بالاندثار والفناء. واعتبارا لهذه الخطوة التي يمثلها التراث في مسيرة الأمم،كانت معظم موجات الغزو التي تتعرض لها الشعوب المستضعفة تحاول المساس بتراثها عن طريق التشكيك في قيمه، والتهافت على كنوزه بالتزوير والتدليس، علّهم بذلك يُحْدِثُونَ هوة نفسية بين هذه الشعوب وبين تراثها، فتفقد بذلك الثقة بحاضرها بفقدها الثقة بماضيها. ووقف أولئك بالمرصاد لمن يستهدف النيل من شخصية الأمة العربية الإسلامية المادية والمعنوية، ومسارعوا إلى نجدتها ساهرين على نشر أمجادها ومآثرها، وإحياء تاريخها والتصدي لفضح تلك الحملات المضللة.

ولم يكن الالتفات إلى الماضي والتذكر، وإنما للبحث في كنوزه عن علاج لعلل الواقع وأدوائه، والتعبير عن روح الأمة وآمانيها الكامنة فيه لإشعارها بكيانها، وتحميس الجيل الحاضر وشحذ همته، ودفعه إلى النظر في المثل والقيم العليا لأمته وتخليد عظمائها بعرض تاريخهم و آثارهم سواء في مجال السياسة والعلم،أم في مجال الدين والأدب.

إن تعزيز القوة المعنوية لهذه الأمة المشتتة، الضائعة،بالرجوع إلى الماضي الذي يحوي الدين والتراث، والقيم والحضارة، كان إيمانا بأن << القيم ليست وليدة ساعة أو يوم أو سنة،وإنما تضال قديم أرست قواعده أمتنة أجيال وأجيال حتى وصلت إلينا بشكلها الحاضر. ثم في هذه الحضارة ما هو سماوي وخالد كالمعتقدات الدينية التي جاءت من أجل صالح الإنسان وسعادته،وقدمت حلولا شاملة وإيجابية له. فلماذا نحاول أن نطمس تلك الإيجابيات ونتطلق من فراغ لا أساس له.>>(2).

---

(1) أنيس المقدسي- الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي الحديث- دار العلم للملايين- ط7- 1982م-ص 131-132.

(2) عبد الله العلايلي- الإسلام في حاضر العرب ومستقبلهم- ص106.

ومن أجل التغيير كانت الدعوة إلى رصد ظاهرة السقوط أو الانهيار الحضاري، وتتبع مساريه واقتناص أبعاده، والتعبير عنه بكل ثقله ومرارته وخصوصيته[1]. وفي ذات الحين كانت الدعوة إلى الاعتماد على تلك الإيجابيات الحضارية التي أسهمت في ترسيخ المثل الإنسانية الخالدة، وحققت مجدا عريقا وحضارة رائعة،لأن هذه الأمة التي تريد أن تبني كيانها ووجودها حضارة العلم الحديثة فقط،بل يعوزها الارتكاز إلى مذخور تراثي، وتجارب ماضية، وتاريخ حضاري، ارتبطت كلها بالإسلام. لأن الحضارة الإسلامية بنيت على أساس ومقومات،أو خصائص متفردة،لا تستطيع أي حضارة أخرى أن تمنحها،لقيامها على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة. فهي أول حضارة تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له، وتضع المبادئ الأخلاقية المحل الأول في كل نظمها ومختلف ميادين نشاطها. وتؤمن بالعلم في أصدق أصوله القائم على العقيدة بأصفى مبادئها، فخاطبت بذلك العقل والقلب معا، وأثارت العاطفة والفكر في آن واحد، وامتدت بتسامحها الديني، وإنسانية نزعتها وهدفها، فكانت عالمية الأفق والرسالة.[2]

1- هزيمة حزيران 1967 م

إن خط هذا الاتجاه في الدعوة إلى نهضة إسلامية معاصرة، لم يمت بل بقي مستمرا، وازداد ظهورا خاصة بعد هزيمة 1967 م. عندما خفقت بقية الدعوات الأخرى، وصمتت أمام هول الصدمة واختفى بريق الدعوة إلى النهضة.

هذه الهزيمة التي فرضتها الانقلابات الداخلية الكثيرة والمستمرة، واختلاف الأنظمة السياسية والاقتصادية، وتصارع الاتجاهات والدعوات تصارعا مريرا،أدت إلى التراجع الحضاري،أو كما سُميت بالهزيمة أو النكسة أو الردة أو المدلهمة،والتي أدت إلى التراجع العسكري والسياسي، والفكري،والنهضوي بعد انهيار الوحدة المصرية السورية، وتعثر أي خطوة وحدوية أخرى بين الأقطار الأخرى،وفشل فكرة الوحدة العربية -على الأقل- وبعد التكريس الدولي والعالمي لإنشاء دولة إسرائيل في فلسطين بعد خسائر حروب عام 1948م و 1956م و و 1967 م. هذا التاريخ الأخير كان كافيا لذيول كل المؤشرات الفعالة للنهوض،وولادة غربة حقيقية عن الواقع حينا، وعن الذات حينا آخر، اشترك فيها المفكرون والأدباء، والسياسيون والزعماء على حد السواء.

فماذا كان بعد الهزيمة ؟ لقد كانت المفاجأة مذهلة للأمة العربية،فبصدمة نبإ الهزيمة،انهارت معنوياتها وشلت قواها. وأبدت ذلها وهوانها أمام خصومها وكانت الصدمة عنيفة خصوصا، بعد تصريحات الزعماء وأقوال الإذاعات،التي أنبأت الشعب بالفور وصفع إسرائيل له واستئصالها من الوجود، حتى نام كل فرد قبل الحرب بهنوء،وهو قابض على النصر بيديه، وغفا الشعب العربي على أحلام وردية. وظلت الرواية تما تحمل

---

(1) انظر محمد اقبال عروي: انهيار الحضارات في الأدب الإسلامي المعاصر، ع44 ,1405هـ 1985م- ص67 71.

(2) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ط3 ,1402هـ 1982م، ص 45 48.

من فصول كاذبة مستمرة،حتى انقلب نصر الإذاعات إلى هزيمة مرة، وإلى استسلام واستغاثة، وانكشفت لعبة الزعماء وتصرخاتهم، فكانت المأساة التي ما عرف العرب مثيلا لها طوال تاريخهم.(1)

وبعد الذهول بدأت مرحلة الوعي بالهزيمة إلا أن الوعي اتخذ عدة مسالك، منها الاتجاه المتعقل الذي نظر إليها نظرة بعيدة المدى، اعتمد على التحليل والتشخيص المبني على وقائع وسلوكيات، وتصورات واستنتاجات منطقية، ولم ينخدع بدعوى الشعارات والتحليلات المظللة. وكشف عن تبني الأنظمة الثورية والعلمانية، وطالب بالعودة رسميا إلى الدين القويم، وإعادته دستور حياة للبلاد العربية الإسلامية. وفي المقابل ظهر الاتجاه اللامتعقل والطائش الذي حول الهزيمة،وألصقها بالدين والعادات الأصلية. وسارع بكل ما يملك من وسائل إلى بث أفكار معادية للإسلام لإفهام الناس أن الهزيمة سببها الدين، وكان أصحاب الفكر الإسلامي هم الذين دخلوا المعركة،وكان راية القرآن هي التي حققت في سماء المعركة. بل فسر بعضهم أن التمسك بالعقائد الغيبية انبنى على أن الدين قاد إلى التفكير الخرافي، ولم يستطع الأخذ بالأساليب العلمية للصراع مع العدو. وأنشأ ذلك شخصية معقدة وخجولة وخائفة وغير متقدمة. وبالتالي لم تستطع أن تكون شجاعة في المعركة.(2)

هذا على الصعيد الفكري، أما على الصعيد الأدبي فقد كانت الأحداث الكبيرة التي مرت بالأمة العربية أثرها الواضح في الأدب العربي الحديث. وكانت هزيمة يونيو 1967م،الحدث الأبرز بين الأحداث التي تركت آثارها على الخط الحضاري العربي الحديث، وكانت << الصورة الخمسة والأخيرة لسلسلة توقعات كانت تستشرق في الأفق ملامح انتكاسة مدوية تنتهي إليها المسيرة العربية في مجراها المتناقض الأوضاع والاتجاهات وحركتها المتخلفة حضاريا، وإن كانت تبدو في صورتها التقدمية الخادعة نحو الأمام.>>(3)

وانجلت من جراء هذه الانتكاسة مواقف متباينة لدى الشعراء أدت إلى انتكاسة خطيرة في نفوس الكثير منهم، اتخذت اتجاها عميقا في الشعر العربي بمواقف قاسية بالاغتراب والانعزال والاحباط وكان << المعركة قد انتهت دون أن تتاح لهم الفرصة ليعبروا حقدهم على الأعداء، فانعكس حقدهم على أنفسهم واستعذبوا مثل هذه النتائج : نحن خائبون، ونحن مثل قشرة البصل تافهون، ونحن محورون كالنعال. إلخ>>(3)

وظهر الموقف المتعزل نحو الوضع العام للأمة، وإن اختلف في مظاهره الخارجية بين شاعر وآخر. فهو حينا يحث يائس عن الماضي المفقود والمستقبل المحكوم عليه مقدما بالفقدان والضياع، وهو حينا يحث على صور غير واقعية مستعارة من سأم الوجوديين في الغرب وضياعهم وهروبهم(4).

---

(1) محمد منير الجباز- الوظيفة الإعلامية للشعر الإسلامي المعاصر في قضية فلسطين- ص528-529.

(2) المرجع نفسه- ص551.

(3) أحمد بسام ساعي- حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سوريا- دار مأمون للتراث- دمشق-ط1-1389هـ-1978م)- ص 471.

(4) شكري عياد- الأدب في عالم متغير- الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر- 1971م- ص141.

واتخذ هذا الاعتزال أيضا طابع الصمت والتحجب بستار اليأس،والذعر من الحياة دون الأمل في إصلاح الواقع ،واتخذ طابع البكاء والأسى،ولم يجد بعضهم بعد النكسة وجها للتفاؤل والأمل وكل احتمال بعودة العرب والمسلمين إلى النهوض.واتخذ كذلك طابع الصراخ والتمرد على الروح والدين والأخلاق والأعراف، وبرزت عند بعضهم موضة الطعن والشك والإلحاد.

وبدت أمام هذه المواقف الناشزة المتطرفة التي همّت أن تشكل تيارا قويا يمتاز بالسلبية والارتداد، مواقف أخرى ذات نظرة ثورية واقعية، مستقبلية متفائلة، فاتجه عدة شعراء إلى التمرد على منطق الهزيمة، ومحاولة استنبات الأمل في تربة مشبعة باليأس والألم والتشاؤم، وإلى السخرية من كثير من المسلمين،بل انطلقوا من موقف المحارب الذي نال قسطا قليلا من الراحة استعدادا لاستئناف المسيرة.

وانعتق هؤلاء الشعراء من عقدة الهزيمة، وتفجر اليأس القاتل عندهم أملا طافحا بالحزم والتحدد، لتحليص الأمة من أدران الحاضر،والتعلق بالمستقبل،والتغيّر البنّاء،والشعور بالحاجة إلى تحقيق الوحدة لإعادة الحياة إلى جسد الأمة القتيل وتحقيق النصر المؤمل. فبدت مواقف الانبعاث والشعور بالشخصية والتمرد على الهزيمة وانحلال العقد الداخلية، وعودة الثقة إلى النفوس. مما أوجد مناخا جديدا دفع بالشعر في خطوات أكثر سرعة إلى آفاق فكرية وشكلية جديدة. وإن ظلت ألوان من الهروب والتمزق، والانطواء والانضواء تغزو كثيرا من دواوين الشعراء في كل الأقطار العربية.(1)

على الرغم من قصة المأساة العربية التي سببها إنشاء الدولة اليهودية في قلب الوطن العربي والإسلامي، ومنذ ذلك التاريخ لم يهدأ الصراع الذي يسجل للعرب إصرارهم على حقهم،واستعادة أرضهم ومقدساتهم وقيمهم. استطاع أولئك الشعراء أن يضمدوا جراح العرب ليواصلوا مسيرتهم واستعدادهم دفعا للذل والعار، ويردوا تلك الطعنات المسمومة التي حاولت أن تنال من تاريخهم وقيمهم ودينهم،رافعين راية الصمود والتحدي عالية،مقسمين على تحرير المقدسات والأرض والإنسان.

واعتنق بصدق ذوو الاتجاه الإسلامي هذه المواقف أكثر من أي اتجاه آخر، وظهرت دعوتهم إلى النهضة الإسلامية المعاصرة في الأدب والفكر والحياة. وتناولوا فكرة النهوض من منظور إسلامي بما يملكون من ثقافة إسلامية، وروح دينية شفافة تخضع لتأثير روحي يجذبهم إلى نطاق الرسالة الإسلامية، والحضارة الإسلامية. وكانت أول غاياتهم هو التحدد من خلال الفوضى المعاصرة،والتفهم المرتبط بالمفهوم الإسلامي << بالصراع مع هذا الواقع ومنازلته بقصد اقتلاعه من جذوره،وهو وسيلة إلى خلق رؤى مستقبلية أكثر شمولا،وإلى تحويل هذه الرؤية إلى فعل وممارسة.>>(2)، حيث نصروا إلى واقع المسلمين وإلى ما يهددهم من تمزق وما يسود عالمهم من صراع ينذر بالضياع. فحاولوا البحث عن طريق يقودهم إلى السلام والأمن،ويخررهم من الفرقة والتبعية لعدوهم.ولم يجدوا إلا الطريق الإسلامي بالعودة إلى القرآن الكريم،ورحاب السيرة النبوية

---

(1) أحمد بسام ساعي – حركة الشعر العربي من خلال أعلامه في سوريا –ص485.

(2) علي عشري زايد– قراءات في الشعر المعاصر– ص26-27 .

المطهرة، والتاريخ والحضارة الإسلامية،من أجل إعطاء البديل الغائب،وصياغة واقع ينميه الإيمان والهدى، ويزكيه الخلق، ويصاحب ركبه في الحياة التحرر والقوة والعلم.

وكان الشاعر محمود حسن إسماعيل من هؤلاء الشعراء الذين عاصروا الأحداث والوقائع والصراعات التي يعيشها العالم الإسلامي ، وأدركوا أن لا بد له من نهوض يستلم فيه دوره الريادي والقيادي، دون الانبهار ببهارج الغرب ومدنيته الزائفة،أو الانسياق وراء ذلك جاهلين ما خلفوه وراءهم من تراث وحضارة تليدة وأسرار عقيدتهم وطاقتها المشعة وآفاقها المحررة التي حملت إلى العالم رسالة الهداية والنور.

وراح يعمل مع أولئك القلة المتنورة من الشعراء على الرغم من محاولات خنق أصواتهم،وإقصاء دعوتهم في خضم اضطراب المفاهيم والتصورات في واقع الأمة على،إحياء آفاق الدين الإسلامي ورسالته الحضارية باعتبارها المكونةلشخصية الأمة العربية والمشاركةلبنيانها الأصيل، والتي قادت البشرية على أسس جديدة من الحق والعدل والهدى...ووجد في ذلك تجديد للوجدان البشري على كل الدهور وتحرير من الواقع الهابط والمتردي.

أ- رفض الهزيمة :

لم يطغ على محمود حسن إسماعيل الشعور بالهزيمة، فلم يلجأ إلى احتزار الأحزان والبكاء على الأطلال والآثار أو،الاكتفاء بالصمت والتأمل واليأس والتشاؤم، أو الكفر والتمرد والرفض على القيم الحضارية الماضية من تقاليد وشرائع وقوانين،أو الثورة على كل تراث وقديم باسم الحداثة والعصر،أو البحث عن تعامل جديد بين البشر لأن الماضي لم يقدم حلا،ولم يحاول أن ينسف هذا الماضي من الجذور،ليؤمن بناء حضارة إنسانية شاملة.

ولم ينعزل أو يهرب إلى ذاته تجتر المحنة،ويردد أصداءها في قصائده بقلق وسخط وأسف وحزن، وإنما استمر في نغمته العالية بالدعوة إلى رفض مطلق الهزيمة، ومواصلة المسير نحو الجهاد والوحدة والنهوض والبناء الحضاري. وازدادت رؤيته وضوحا على الرغم من تشاؤمه وحزنه الإيجابيين،اللذان ينابانه أمام صور حاضر هذه الأمة، بإصراره على تحليل الظروف والوقائع بالاعتماد على الحل الثوري، والحل الإسلامي في كل الحالات، لا إلى الهروب من الواقع أو التمرد عليه.

وفي ديوان "صلاة ورفض" صاغ تمرده ورفضه للهزيمة ولأشياء أخرى تولدت عنها، واتضح إيمان الشاعر بقيم معينة تحمل للواقع المريض أدواء الأمل والسلامة والاطمئنان الروحي . واقتران الرفض بالصلاة يعني الرفض الإيجابي لكل القيم السلبية والانهزامية في الواقع، واعتناق القيم الباعثة على الصلاة،وما تحويه هذه الكلمة من امتداد وعمق دلالي يعبر عن الروح الإسلامية للشاعر.

وأول ما في الديوان قصيدة "رفض الهزيمة"(1)، التي يرفض فيها الهزيمة بكل أشكالها وأبعادها، ورواسبها وآثارها، ويشمل رفضه هزيمة الحق والروح، والهوية والأرض . تتكرر لفظة الرفض في القصيدة عشرين مرة لتعبر عن رفضه الصارخ والمطلق لكل أنواع الهزيمة. وتتـ الرفض بشتى الرموز والصور الدالة على

---

(1) أنشدت في مهرجان الشعر العربي الثاني بالقاهرة عام 968، عام بعد الهزيمة .

إصراره وإرادته لدفع حركة التغيير،وإعلان رفضه الكبير للهزيمة،والذي عبر عنه برفض الإنسان والكون، والزمن والقيم.

ويبدأ الشاعر قصيدته برفض يكرره مع كل أنواع الرفض الأخرى، وهو رفض توهم أو تخيل حدوث الهزيمة. لأن الشعور بحدوثها -كما يرى- في حد ذاته شعور بالهزيمة، ثم تشتد حدة رفضه باستنكار القدر الذي علل به البعض حدوثها ونسيان الدوافع الواقعية بالتحليلات الغيبية، بل إنه يرفض أن يستمر في الحياة إذ لم تصبح فكرة الهزيمة عدما. وليس في ذلك استسلام لواقعها الإجباري بل بمقاطعة العدم المرتبط بها من أجل استمرار الحياة. ولهذا فكل مقومات الإنسان الحي ترفض هذه الهزيمة،روحه وزمنه وصمته وهمّه وخواطره وشعره :

.. أَرْفُضُ أَنْ أَتَوَهَّمَ نَعْشَ خَيَالٍ
.. عَبَرَتْ فِيهِ!
.. أَرْفُضُ.. حَتَّى صَوْتَ القَدَرِ،
إِذَا مَا خَتَرَتْ مِنْ أَيْدِيهِ!
.. أَرْفُضُ خَطْوَ العُمْرِ
إِذَا لَمْ تُصْبِحْ عَدَمًا لَا يَدْرِيهِ!
.. تَرْفُضُ رُوحِي، كُلَّ رُؤَاهَا
تَرْفُضُ زَمَنِي أَنْ يَحْيَاهَا
تَرْفُضُ صَمْتِي هَمْسَ صَدَاهَا
تَرْفُضُ غَضَبَ النَّايِ سُرَاهَا...(1)

وبعدما يعلن رفض الأرض، التي ألصقت بها الهزيمة،وهي فلسطين،ويعني برفضها رفض لواقعها المأسور المهزوم، وإعلان عن ارتباط وجودها بالله والرسل، والقدس والصلاة،والإسراء والمعراج، التي انطلق من هذه الرحلة صوت الحق -والمقصود به النبي صلى الله عليه وسلم- الذي أنقذ وجه الأرض كلها من الظلمات إلى النور إلا بعض من وجوه هذه الأرض التي أبت واستكبرت،ومازالت تحمل الحقد للكون -ويقصد اليهود- وبخاصة لتلك الأرض المقدسة -أي فلسطين- التي تستحق أن تعلو صرخات رفضها وعدم خضوعها للهزيمة واليهود :

تَرْفُضُ مِثْلِي..
.. أَرْضٌ سَمِعَتْ نَجْوَى اللهِ عَلَى شَفَتَيْهَا
أَصْغَتْ، وَرَنَتْ

---

(1) صلاة ورفض- ص6.

ثُمَّ أضاءَتْ حلكَ الدُّنيا، مِنْ حَدَّيْها
ثُمَّ تهادى خطوُ الرُّسْلِ،
يُدفِّقُ نورًا بَيْنَ يَدَيْها
عانقَ فيها كلُّ نبيٍّ مرَّ أخاهْ
وغَدَتْ كُلُّ خصاةٍ فيها، قُدْسَ وصَلاةْ
حينَ أتاها حادي النُّورِ
يَشُقُّ ضُحاهْ..
فَوْقَ سَيفينِ، عَبَرَتْ لُجَّةَ الغَيْبِ
وَطارَتْ دُونَ شِراعْ
غَيْرَ نِداءِ الأُفُقِ الأَعْلى
سَبَّحَ في يُمْناهُ شُعاعْ
فَدَنا مِنْهُ، وَشربَ الحقَّ مِنَ الآياتْ
وَمَضى يُنْقِذُ وَجْهَ الأَرْضِ مِنَ الظُلُماتْ
كُلُّ ظَلامٍ م عَلَيْهِ، تَوَهَّجَ نورًا مِنْهُ وَذابْ
غَمْرُ وُحُوهٍ أَتَتِ اللَّعْنَةُ مِلْءَ دُجاها أَنْ تَنْتابْ
حَمَلَتْ حِقْدَ الكَوْنِ وَسارَتْ
تَجِدُ الطُّهْرَ بِكُلِّ تُرابْ
ثُمَّ رَماها التِّيهُ
فَأَلْقَتْ عارَ خَطاها فِي المِحْرابْ...(1)

وبعد رفض الشاعر -الذي يمثل رفض الإنسان-،وبعد رفض الأرض، ورفض الحقيقة أو واقع حقيقة الهزيمة، ورفض الحق السماوي الأعظم -أي الإسلام- هذا الحق الذي سما فوق كل القيم الحياتية والكونية .أعلن رفضه المطلق، وقسمه الثائر لكي لا يترك عار هذه الهزيمة توخز جبين الأمة الإسلامية التي ينتسب إليها أرضا ووجودا، عرضا وكبرياء، حركة وسكونا :

... لَنْ أَتْرُكَها، وَخْزَةَ عارٍ فِي لَعِينْ!!
لَنْ أَتْرُكَها.. يُطْرَقُ مِنْها أَيَّ حَنِينْ!
تَرْفُضُ أَرْضِي..
تَرْفُضُ عِرْضِي..
تَرْفُضُ كِبْرِيَ طَعِينْ.. !!

---

(1) صلاة ورفض- ص8-9.

يَرْفُضُ كُلَّ وُجُودٍ حَوْلِي،
كُلَّ جِرَاثِيمٍ، كُلَّ سُكُونْ!!
يَرْفُضُ أَنْ يَحْيَاهَا قَدَرًا..(1)

وإن ارتبط الشدو بالغناء الشعري بلحظات السعادة والحبور. فإنه شدوه في هذه اللحظات الحرجة التي تمر بها أمته سلك لغة الرفض للواقع المتردي،الذي لا يحتاج إلا لشدو فيه أعاصير رفض وبراكين ونيران، وفي قصيدة "سأشدو" يفصح عن معاني هذا الشدو الرافض الذي يثور على كل لحظة تسلية،أو فراغ تحجبه عن المصير وتمنعه من استرداد الكرامة:

... سَأَشْدُو!
... وَشَدْوِي.. أَعَاصِيرُ رَفْضٍ، وَنَارٌ تَدُورْ!
عَلَى كُلِّ صَوْتٍ يُمَرْجِحُ يُسَلِّي فَرَاغَ الصُّدُورْ
وَيَسْرِقُ مِنْ غَضْبَةِ الثَّأْرِ، بُرْكَانَ حِقْدٍ يَفُورْ!
وَيَمْزِقُ كَالإِثْمِ.. يَحْجُبُ عَنِّي أَذَانَ المَصِيرْ..
وَيُغْرِي يَدَيَّ عَنْ رَحِيقِ الفِدَاءِ!
وَشَوْقِ الدِّمَاءِ، وَعَصْفُ البَنَادِقْ!
وَشِرْيَانُهَا يَسْتَرِدُّ الكَرَامَةَ مِنْ كُلِّ بَاغٍ...(2)

وتشتد لغة الرفض عنده باتساع مفهوم الهزيمة .فالمعركة الحقيقية التي واجهتها أمته ليست تلك التي انتهت بالهزيمة والخذلان، والضياع والتفرق، بل إن المعركة ضد الهزيمة الحقيقية التي ينادي بها الشاعر هي معركة فوق الحياة والموت والوجود.. لأنها معركة صراع حضاري من أجل خلود القيم والمعاني في الأرض :

... فَمَعْرَكَتِي...
... صَوْتُهَا فَوْقَ صَوْتِ الوُجُودِ،
وَصَوْتِ النَّشِيدِ، وَصَوْتِ الوَتَرْ!
وَفَوْقَ الحَيَاةِ.. وَفَوْقَ المَمَاتِ...
صَدَاهَا يُدَوِّي بِصَوْتِ القَدَرْ(3)

ولهذا فهو يشدو، وفي شدوه رفض فعلي لأزمات أخلاقية وإنسانية عمت الأرض بعصورها وبشرها.

سَأَشْدُو لَكُمْ...
وَشَدْوِي مَنَاجِلُ مَجْنُونَةٌ يُحَصِّدُ الهَشِيمْ!

---

(1) صلاة ورفض – ص12-14.
(2) المصدر نفسه– ص66.
(3) المصدر نفسه – ص67 .

تُعَرِّي الجِرَاحَ
لِتَسْتَلَّ مِنْهَا قُشُورَ الرِّيَاءْ ،
وَزَيْفَ العُصُورْ!
وَتهتِكُ مَا بَرْقَعَتْهُ عَلَيْهَا،
وَمَا كَفَّنَتْهُ بَغَايَا السُّتُورْ!
وَمَا سَمَّرَتْهُ نُعُوشُ الحَقِيقَةِ ،
فِي دَرْبِهَا.. مِنْ ظَلَامٍ، وَزُورْ (1)

ب- الـوجـه الآخـر للهـزيمة :

ومن آثار تلك المعركة التي أشعرت الأمة العربية الإسلامية بالهول والرعب والذل والضياع، والوقوف بعد الهزيمة في نقطة سوداوية غامضة بين التدحرج إلى الوراء أو الاستمرار إلى الأمام. كانت للشاعر قصائد انبعثت من هذه المعركة بصوت غيبي قوي لنجدة وبعث حياة هذه الأمة .

ففي قصيدة طويلة "صوت المعركة" تراءت للشاعر ثلاث مشاهد أو لوحات شعرية تصور حقيقة المعركة النهائية التي ستفصل بين كل الصراعات والمتناقضات.

في اللوحة الأولى سمع الشاعر انبعاث ذلك الصوت من أنقاض تلك المعركة يوقظ الموتى -وهم أحياء الأمة بعد الهزيمة- ينزع عنهم الصمت والخمود، ويعيد إليهم أرواحهم، ويدعوهم إلى النشور والحياة، ويذكرهم بالصبر والشهادة :

سَمِعْتُكَ تُوقِظُ المَوْتَى
وَتُرْعِشُهُمْ...،
وَتَنْشُرُهُمْ...،
عَلَى خَلَدِي...
حَتَّى تُوَرِّقُ الأَكْفَانَ بَيْنَ يَدَيْكْ!
وَتَنْزَعُ نَفْسَهَا الأَرْوَاحُ
فَوْقَ جُنُوعِ رَايَةٍ بِلاَ أَغْصَانْ
حَدَائِقُهَا مُسَخَّرَةٌ
تَفُوحُ بِعِطْرِهَا النِّيرَانْ!
يُطِلُّ بِزَهْرِهَا الشُّهَدَاءُ ،
مِنْ ظَمَإٍ لِنَارِ صَدَاكْ

---

(1) صلاة ورفض - ص67-68 .

وَتَصْرُخُ آهَةٌ لِلْقَبْرِ
هَالِعَةٌ لِيَوْمِ لِقَائِكْ (1)

وفي اللوحة الشعرية الثانية، يصور قوة هذا الصوت الذي اجتاح أعماقه،ويريده أن يجتاح أعماق الآخرين، وكان كالموج في صراخه،والإعصار في شبوبه من أجل تفجر وشروق تلك الأعماق، وقد سمع دفه وعمقه وزجره ولطمه، وناره وصداه، يصارع الندم والعدم، ويلسع الأيام المشوهة الثاكلة الحائرة الغافلة، الساكنة .إنها أيام تلك الأمة العربية بعد الهزيمة التي ترسبت في الأعماق:

سَمِعْتُ صَوْتَكَ هَادِرًا،
كَالْمَوْجِ يَصْرُخُ فِي عُرُوقِي!
...وَسَمِعْتُ نَهْشَ صَدَاكَ
وَهُوَ يَشُبُّ كَالإِعْصَارِ،
فِي أَعْمَاقِ ذَاتِي.. لِلتَّفَجُّرِ وَالشُّرُوقِ(2)

أما في اللوحة الثالثة يكشف عن حقيقة هذه المعركة التي يجب أن تكون معركة شاملة من أجل تغيير وجه الحياة الإنسانية. ويكشف أيضا عن حقيقة ذلك الصوت المنبعث من آثار المعركة،باعثا الحياة والشروق من جديد، على أنه صوت منبعث من الله،ومن الروح تملأ كل النفوس والأكوان بالضياء والحق :

مِنَ اللهِ، أَنْتَ !
مِنَ الرُّوحِ، أَنْتَ !
وَمِنْ كُلِّ صَمْتٍ يُنَادِي صَدَاكْ...
وَتَزْأَرُ بِالثَّأْرِ تَحْتَ العُرُوقْ
لِتَسْتَلَّ مِنْهَا ضِيَاءَ الشُّرُوقْ...
وَأَسْمَعُهُ طَارِقًا مِنْ حَدِيثِ السَّمَاءْ
يَدُقُّ عَلَى كُلِّ بَابٍ بِأَعْتَى النِّدَاءْ..(3)

وجسد صوت المعركة المنبعث من السماء إلى الأرض،من لحظة بزوغ نور الإسلام بصوت جبريل،وهو يناجي محمد، ومن الوحي إلى دخول الكون والإنسان في زمن آخر غيّر مجرى الحياة مشيرا إلى حادثة التغيير الكبرى،هي "الهجرة"، وإلى المعركة الأولى الفاصلة بين الحق والباطل، هي معركة بدر الكبرى.

فَمِنْ صَوْتِ جِبْرِيلَ وَهُوَ يُنَاجِي مُحَمَّدْ
وَمِنْ رَعْشَةِ الوَحْيِ وَهُوَ لَهِيبٌ وَمَوْقِدْ

---

(1) صلاة ورفض – 70-71.
(2) المصدر نفسه – ص72-74.
(3) المصدر نفسه – ص76-78.

وَنَارٌ مُجَلْجِلَةٌ مِنْ سَمَاءِ الغُيُوبْ
لِمَعْرَكَةِ الحَقِّ جَاءَتْ تَشُقُّ الدُرُوبْ...
وَمِنْ عَنْكَبُوتٍ عَلَى الغَارِ أَرْخَى السُتُورَا
بِأَوْهَى خُيُوطٍ، أَدَارَ الزَّمَانَ، وَأَحْيَا الدُّهُورَا..
ومن بدر وهي نميمة كل المعارك(1)

وبهذه الصور الدينية يعيد لصوت المعركة المهزومة،الامتداد الروحي والديني، لأنها مازالت تمثل الصراع بين الحق والباطل ، المستمر في الماضي، وفي الحاضر. ولهذا فلابد للصوت المنهزم من المعركة أن يستمد من ذلك الصوت الغيبي والروحي المتمثل في الله والنبي والوحي والحق والصبر والثبات والتحدي والأمل الروحي. كذلك ثورته الرافضة للهزيمة، والمتأججة في أعماقه، جعلته يلح على ذلك الصوت الخالد بالعزم والجلجلة والاقبال بالنور،والاستمداد من امتداداته التاريخية.تشاهده وأسمائه، ومعاركه ووقائعه للتذكر والنهوض :

تَرَنَّمْ.. وَجَلْجِلْ
وَبِالنُّورِ.. أَقْبِلْ
وَهَاتِ الطُّبُولَ.. وَهَاتِ الخُيُولَ
وَهَاتِ البَيَارِقْ
وَهَاتِ العَدَى مِنْ مَزَامِيرِ طَارِقْ
وَأَيْقِظْ عَمُّورِيةَ مِنْ كَرَاهَا
وَذُقْ نَارَهَا، واسْقِنِي مِنْ لَظَاهَا
بَقَايَا ضُحَاهَا..
وَخُذْ نَفْحَةً مِنْ سَمَاوَاتِ حِطِّينَ ،
واخْضِبْ نَدَاكْ(2)

لقد كان إصرار الشاعر على انبعاث هذا الصوت من جديد انطلاقا من الواقع الذليل الذي أصبحت تعيشه هذه الأمة، حيث عاد الظلام والوهم، والتفرق والضياع... وحدث لها الإرتداد والنكوص إلى الوراء آملا في اليقظة والصحوة،إنها بلا شك دعوة إلى الصحوة الإسلامية لأنها سر التجدد والحياة :

وَأَوْغِلْ مَعَ الرِّيحِ فِي كُلِّ أُفْقٍ
وَفَجِّرْ إِبَاءَكْ
وَدُرْ بِالعُصُورِ، وَبُوقِ النُّشُورِ
عَلَى الهَامِدِينْ..

---

(1) صلاة ورفض-ص 78-79.

(2) المصدر نفسه - ص 80-81 .

-وَانْشِبْ هَدِيرَكَ فِي كُلِّ كَهْفٍ عَلَى الشَّامِتِينْ
وَلا تَخْشَ لَيْلاً بِغَفْلاتِنَا قَدْ نَسَجْنَا ظَلاَمَهْ
وَرُحْنَا مِنَ الوَهْمِ نَشْكُو دُجَاهُ وَنَبْكِي حِمَامَهْ
وَنَحْنُ الَّذِينَ افْتَرَقْنَا، فَتُهْنَا ضِيَاعًا بِدَرْبِهْ
وَدُسْنَا بِأَقْدَامِنَا كُلَّ نُورٍ هُدَانَا بِرَكْبِهِ.
فَكَمْ صَحْوَةٍ لِلشُّعُوبِ تَرُدُّ مِنَ المَوْتِ صَحْوَ الحَيَاهْ
وَكَمْ يَقْظَةٍ مِنْ رَمَادِ الزَّوَالْ...
هِيَ الفَجْرُ تَخْضَرُّ مِنْهَا رُبَاهْ[1]

إنه يريد ها صحوة تجتاح النفوس، وتغير الرؤى، لتكون ثورة يقين قبل أي شيء آخر،وتحقق الإمتداد نحو الله بذلك الصوت الإلهي الذي يغسل الذل والعار،ويمحو اليأس، وينتفض في كل حي بالحياة والنصر الروحي والمادي. هذا النصر الإلهي الذي لن يكون إلا بعد العودة إلى الله بالتغيير الذاتي والموضوعي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2]. وهو شرط إلهي، وهو منهاج صحيح في بناء الأمم، وفي تحقيق رقيها الحضاري، لأنه ركز على << القيم الإيجابية الداخلية،وحارب مسالك الانهيار النفسي والأخلاقي في الأمة، ذلك لأن تأكيد الروح لا يتحقق إلا بتنظيم علاقة الإنسان بالعالم الخارجي من خلال النور،المنبعث من العالم الموجود في أعماق نفسه.>>[3]

وأكد الشاعر بعمق على هذا الشرط التغييري،وعلى وجود تحقيق طرق هذه المعادلة الإلهية من أجل حدوث التغيير،وذلك بشق الصدور -أي النفوس- وتغيير الرؤى لتشتعل بعدها ثورة اليقين في المجتمعات:

فَزَمْجِرْ كَمَا كُنْتَ
حَتَّى تَرُدَّ إِبَاءَ السِّنِينْ !
وَشُقَّ الصُّدُورْ
وَأَضْرِمْ بِهَا غَفْلَةَ الوَاقِفِينْ !
وَغَيِّرْ هَوَانَا ..
وَغَمَّ رُؤَانَا ..
وَأَشْعِلْ مِنَّا ثَوْرَةً لِلْيَقِينْ
فَصَوْتُكَ فِي كُلِّ رُوحٍ حَيَاهْ
وَصَوْتُكَ لِلنَّصْرِ أَتْقَى صَلاَهْ[4]

---

(1) صلاة ورفض- ص81-82.

(2) الرعد- 11 .

(3) د/ عبد الحليم عويس- الإسلام والقيم الحضارية- مجلة الأمة- ع19-(1402هـ-1982م)- ص14.

(4) صلاة ورفض- ص82-83 .

إن صيغة الأمر والطلب التي وجهها الشاعر لذلك الصوت كانت شديدة عنيفة مؤثرة حينا، هادئة راجية متوسلة حينا آخر. تلاحمت في القصيدة لتؤكد تشبّثه بالله، وتعميق الموقف الخطير الذي تعيشه أمته. كما دلّت صيغ التكرار على ثورة الشاعر الروحية بدعوته المتكررة لذلك الصوت المرتبط بالجلجلة والنور << ترنم وجلجل وبالنور أقبل ..>>. كذلك بتكرار<< من الله أنت، من الروح أنت >>، أثبتت الجذور الغيبية والروحية العميقة لذلك الصوت، وأكد إيمانه الشديد بأن كل شيء هو من عند الله عز وجل.

2- الـــدعـــوة إلى الـــنـــهضة :

نظر الشاعر إلى واقع أمته بمنظار الأمل والثقة، فثقته بالمستقبل عظيمة، وأمله في قدرة أمته عظيم. ولهذا كان إيمانه بضرورة التغيير قويا،وبانتصار الخير والحق على الشر والباطل، وانتصار المعاني الإيجابية في الحياة على معانيها السلبية.

وكانت قصائده المتفرقة في دواوينه شاهدا على مدى نفاذ رؤيته التغييرية ومدى حدتها. فديوان لابد مثلا تجسيد لرغبة عارمة لتغيير كل ماهو متخلف ورديء في هذا الوجود، وإصرار عنيد على اجتياز كل العقبات، وكل مظاهر التخلف والجمود إلى كل ما هو مضيء ونبيل. وهذا الإصرار يواجهنا حتى من قبل أن نفتح الديوان في هذا العنوان الباتر على الغلاف "لابد". وهذا العنوان الذي يحمله الديوان،هو نفسه عنوان أولى قصائد الديوان،بل إنه في الحقيقة عنوان رؤية الشاعر في الديوان كله.

فالمكون الأساسي في هذه الرؤية هو هذا الإصرار العنيد على التغيير الذي ينفجر من هذه الكلمة الحاسمة "لابد".. ولقد استطاعت عبقرية الشاعر أن تنأى بهذه الرؤية عن منزلق الخطابية والشعارات المباشرة.. ونجح الشاعر في أن يحول هذا الإصرار إلى نشيد شعري جليل، ينتمي إلى عالم محمود حسن إسماعيل، ويحمل كل ملامحه وكل سماته الفريدة.>>(1)

وتعتبر قصيدة"لابدّ" أولى قصائد الديوان التي منحت نغمة الإصرار الشديد على التغيير،وعلى تحقيق كل الأهداف النبيلة للمسير والنضال والنهوض.والخطوة الأولى هي دعوته لكل الأفراد إلى المسير بالتوحد والتجمع والتضامن،حتى يتحقق النجاح والوصول إلى الهدف المنشود :

سَنَمْضِي
... وَكُلُّ يدٍ جَذْوَةٌ
تُعَانِقُهَا أُخْتُهَا فِي الـمَسِيرْ
سَوَاءً.. سَوَاءً.. كَمَوْجِ الضُّحَى
تُغَنِّي بِهِ الشَّمْسُ فَوْقَ الهَدِيرْ

---

(1) علي عشري زايد- قراءات في الشعر المعاصر- ص21.

وَكَالطَّيْرِ يَحْشُدُ أَسْرَابَهُ
عَلَى حَوْمَةِ النَّوْرِ، شَوْقَ العَبِيرْ..
قَطَعْنَا لَظَى التَّرْبِ، حَتَّى دَنَتْ
قَوَافِلُنَا مِنْ شَذَاهُ النَّضِيرْ..
وَمَهْمَا يَكُنْ فِي بَقَايَا الطَّرِيقْ ،
فَلاَ بُدَّ .. مَهْمَا عَنَا أَنْ نَسِيرْ (1)

ويؤكد في المقطع الموالي ضرورة المسير،على الرغم من العوائق والأهوال، وينتفع بعد دعوته الصارخة إلى الشعور بوحدة الهدف والمصير، والاقتناع بالمواجهة والتحدي. ويبلغ << قمة رفيعة في تصوير هذه الإندفاعة الجارفة التي تكتسح كل العقبات التي تعترض طريق الوصول إلى الهدف، مستغلا كل طاقات لغته التصورية الجارفة حتى ليكاد القارئ يسمع عصف هذه الاندفاعة ويحس بحرارتها.>>(2)، حيث يستخدم من أجل تبرير عنف وعرامة تلك الاندفاعة مجموعة من الأفعال ،كحرف ونعصر ونصعق ونصهر. وكذلك مجموعة من الأسماء،كالرياح والرحام والعواصف والزئير ، << وغير ذلك من المفردات التي تتآزر كلها على تجسيد هذا الإصرار العام، وتتآلف كل المفردات والعبارات حول هذه العبارة الحاسمة " لابد أن نسير" التي تمثل النغمة المحورية في القصيدة التي يفتتح بها الشاعر كل مقطع من مقاطعها.>>(3). وكانت تلك الأسماء والأفعال والعبارة المكررة مبررا لعنف وعرامة تلك الاندفاعة :

لاَبُدَّ أَنْ نَسِيرْ
وَنَحْرِفُ الأَقْدَارَ مِنْ طَرِيقِنَا الكَئِيبْ
وَنَعْصِرَ الرِّيَاحَ فِي تَلَفُّتِ المَهِيبْ
وَنَصْعَقَ الهَشِيمَ فِي احْتِضَارِهِ الأَخِيرْ
فَلَمْ يَعُدْ لِرَكْبِنَا وُقُوفْ
وَلَمْ يَعُدْ لِدَرْبِنَا عُكُوفْ
انْصَهَرَ القَيْدُ، وَذَابَتْ غَشْيَةُ الظَّلاَمْ
وانْدَاحَ كُلُّ وَاقِفٍ فِي غَضْبَةِ الزِّحَامْ
وَأَقْلَعَتْ آفَاقُنَا لِمَرْفَأِ السَّلاَمْ(4)

---

(1) لابد- ص3.

(2) على العشري زايد- قراءات في الشعر المعاصر- ص21.

(3) المرجع نفسه- ص22 .

(4) لابد- ص7-8 .

<< ولا يلبث الشاعر أن يضفي على هذه الاندفاعة العارمة طابعا إنسانيا شفيفا،ليبرز وجهها الوضيء متمثلا في غاياتها النبيلة الرائعة التي تتحدى كل جهامة الواقع، وكل صلابة العقبات وقسوتها.>>(1)، حيث يكشف عن غاية هذا المسير من خلال جملة من الأعمال الإيجابية كالعمل على نشر الخير والحق والنور وعلى إيقاظ الغافلين، وتجديد إرادة النفوس، وإضرام التغيير من أعماق الجذور من أجل غد مُورق للإنسان :

لابُدَّ أنْ نَسيرْ
وَنَقْطِفُ الظِلالَ مِنْ مَحاجِرِ(2) الهَجيرْ
وَنَلْقُطُ الحَبَّةَ مِنْ مَنافِرِ النُّسُورْ
وَنَبْتُرُ الرَّبيعَ في مَخالِبِ الصُّخورْ
وَتَنْشُبُ المَشيئَةْ
وَاليَقْظَةُ الجَريئَةْ...
وَنَضْرِمُ التَّغْييرْ
في أَعْمَقِ الجُذُورْ
في كُلِّ ماضٍ خَتْمُها بِمَوْتِهِ قَريرْ
وَكُلُّ آتٍ فَوْقَها لِفَجْرِهِ يُثيرْ
لابُدَّ أنْ نَسيرْ
في دَرْبِنا الكَبيرْ.(3)

وعلى هذ النحو يستمر الصراع في المقاطع الأخرى من القصيدة بين الإيجابية والسلبية التي تؤكد وجوب المسير في كلا الحالتين. وإن كان صراعا أبديا لا ينتهي، فإن الشاعر حدد موقفه الشعوري والفكري في حسم هذا الصراع << حيث أختتم القصيدة بما افتتحها به من أن انتصار الطرف النبيل في هذا الصراع الأبدي لا يتم إلا بالإصرار العنيد، المتمثل في عمل إيجابي مكتسح...وتتردد النغمة المحورية في الختام مكرورة هذه المرة تأكيدا لهذا الإصرار المتفجر من ثناياها لابد أن نسير، لابد أن نسير.>>(4)

أ- العودة إلى الإسلام :

ودعوة الشاعر إلى التغيير، قامت على تشريح واقع الأمة الإسلامية،وشرح أسباب عللها ومآزقها، وانحلالها وضياعها وتأخرها وحيادها عن النهج السليم القائم على روحانيتها السماوية، ويقف أمام ضياع هذه الأمة، موقف المتأمل الآمل،لا موقف اليائس المتشائم، حيث يرى الحل الوحيد للنهوض هو اشتراط العودة إلى الإسلام بمبادئه وشرائعه وقيمه وأجوائه الروحية.

---

(1) علي عشري زايد- قراءات في الشعر المعاصر- ص23.

(2) محاجر: م: محجر : ما يحيط ويدور بالشيء.

(3) لابد- ص9-10 .

(4) علي عشري زايد- قراءات في الشعر المعاصر- ص24 .

ففي قصيدة "موسيقا من الضياع" يتأمل أمته في حالة ضياعها وحيرتها، بانحرافها عن أصولها الأولى، وانجرافها وراء التيار الغربي، بعد أن استغلقت أمامها منافذ النور والهدى واستهوتها مظاهر تلك الحضارة الغربية المزيفة البراقة التي رمز إليها بكأس الخمر التي تحدث الرغبة والنشوة، لكنها جهلا وغفلة -كما ورد في مقدمة القصيدة- ظلّت تشرب من كأس لا تدري منابع كرمه، فضلّت خطاها في الطريق.

وما إن نتمعن في رموز القصيدة يتبين لنا ضياع الأمة الإسلامية بانقيادها بكل غفلة وتهور وجموح إلى كأس الحضارة الغربية لتشرب منه فيحذرها من أن تشرب أو تقترب من هذا الكأس لأنه ليس فيه إلا النشوة والتحذير، ولا يوجد فيه أي سر أو حلم أو مجد أو خلد....

ارْفُضِي الكَأْسَ.. وَلا.. لاَ تَشْرَبِيهْ ...
ارْفُضِيهْ.. فَهْوَ لَيْسَ الحُبَّ، لَيْسَ السِّرَّ كَيْ تَسْتَلْهِمِيهْ
ارْفُضِيهْ.. فَهْوَ لَيْسَ المَجْدَ، لَيْسَ الخُلْدَ كَيْ تَسْتَعْظِمِيهْ
ارْفُضِيهْ.. فَهْوَ لاَ شَيْءَ، وَلاَ أَحْلاَمَ شَيْءٍ كَيْ تَعِيهْ[1]

وبعد صيغ الرفض المتكررة التي تعبر عن شدة إحساسه بخطورة هذا الكأس وآثاره السلبية على أمته، يدعوها إلى النظر إلى حقيقة هذا الكأس المملوء بأساطير من الزيف والتيه، والفوضى واللغو، وغياب الروح والحق، وتسلط البغي والدجل، والجهل والمرض الروحي حيث خلق هذا التحضر المزعوم أصنافا من الناس، على الرغم من ادعائهم العلم والتمدن، والسعادة والأمان والإطمئنان، فهم يجهلون طريق الله،ويفتقدون إلى الأمان الروحي وإن كان الله مسلكا لكل طريق، وصدقا لكل كلمة فإنهم يتمادون وهم مخمورون بكأس الغي والافتراء والجحود...

انْظُرِي، أَيَّ أَسَاطِيرَ مِنَ الزَّيْفِ أَضَلَّتْ عَابِثِيهْ
وَأَذَلَّتْ وَارِدِيهْ
وَأَحَالَتْهُمْ سَرَايَا غَنَمٍ تَجْتَزُّ فِي أَعْشَابِ تِيهْ
تُسْبِلُ الأَيَّامُ رِقَّاً لِهَوَانٍ يَبْدَؤُهَا خَتْمُ وَيَهْ
ذَوَّبَتْهُ مِنْ عُصُورِ القَهْرِ كَأْسًا مُطْمَئِنًّا خَتْمِيَّهْ
فِيهِ مَا يُذْهِلُ سِرَّ العَقْلِ، سِرَّ الرُّوحِ، حَتَّى لاَ تَعِيهْ
يَنْسَخُ التَّارِيخَ أَمْثَالاً وَلَغْوًا.. بِصَدًى لَنْ تَفْهَمِيهْ
عَاكِفٌ فِي أَمْسِهِ المَشْلُولِ فِي كُلِّ غِشَاءٍ يَرْتَدِيهْ
وَاقِفٌ يَرْسِفُ فِي أَغْلاَلِ شَيْءٍ.. كُلُّ شَيْءٍ يَزْدَرِيهْ...
دَائِخٌ فِي نَشْوَةٍ تَخْتَالُ فِي كُلِّ مَدًى مَا تَبْتَغِيهْ

---

(1) موسيقا من السر-ص35-36 .

عاكفٌ في مَريضٍ لِلرُّوحِ.. لاَ يَدْرِي لَهَا مَا تَسْتَطِيبُهْ
يَشْتَرِبُ اللهُ خَيَالاَتٍ، وَحلَّ اللَّفْظُ عَنْ مُحْتَزِفِيهْ(1)

ويقنع أمته بالابتعاد عن هذا الكأس بعد وصف حقيقته، ورفض كل رؤاه الكاذبة، ويحذرها من تياره الدخيل،ومن دعاته الدجالين ليشيد في النهاية بكأس آخر،علّها تستلهم منه أسباب النهوض،وتوقظ مجدها النائم. هو الكأس الشرقي المليء بالأسرار والأناشيد لتذوق منه، وتشربه... فشتّان بين الكأسين، كأس امتلأ من كرمة الغرب وآخر من كرمة الشرق.. إنه الشرق الإسلامي الذي يحوي القيم والمعاني الروحية والإنسانية:

..وَاحْتَهِلِيهْ... فَهُوَ سِرُّ الغَفْلَةِ الكُبْرَى...
واخْرِقِي كُلَّ رُؤَاهُ، وَارْفُضِيهْ!...
مَرَّةً.. لَوْ ذُقْتِ مِنْ كَأْسِي وَقَدْ ذَوَّبْتِ آلاَمِي وَإِلْهَامِي فِيهْ
لَعَرَفْتِ السِّرَّ فِي رَفْضِي لِكَأْسٍ.. لَسْتُ مِنْ مُسْتَلْهِمِيهْ :
فَأَنَا مِنْ كَرْمَةِ الشَّرْقِ أَنَاشِيدِي وَبُسْتَانِي الذِي لَمْ تَدْخُلِيهْ
وَبِكَأْسِي طَائِرُ السِّرِّ..
فَإِنْ شِئْتِ حَيَاةً مِنْ رَحِيقِي
فَاشْرَبِيهْ...(2)

وفي قصيدة "المسلمون" يبتعد الشاعر عن أدواته الرمزية الغامضة،ويجنح نحو الواقعية والوضوح، وهو يتأمل واقع المسلمين ، وكأنه بهذا الانتقال من التعبير الخفي إلى التعبير الصريح، يريد أن يصل إلى لحظة فاصلة من التنوير والاهتداء والاقتناع، والدفع الإيجابي من أجل التغيير. ويفصح أكثر عن حقيقة الانتساب إلى هذا الإسلام.

ويطول تأمله، ويزداد ألمه وحزنه، وتكثر تساؤلاته، ويتكرر في كل مقطع سؤاله "أهولاء مسلمون؟" ويستنكر عقب كل سؤال، أن الحقائق -وحتى الظنون- تكذبه وترجمه، وتؤكد أنهم ضائعون تائهون، خانعون، هالكون، صاغرون . ولماذا هم كذلك ؟

إنهم تائهون لأنهم يعيشون اليأس والقلق والغفلة والتيه، والموت والقيد، والذل والهوان . وهذه الصفات الذليلة أبعدتهم عن أن يكونوا مسلمين،وإنما تائهون بل ضائعون!:

مِنْ هَؤُلاَءِ التَّائِهُونْ؟ - الخَابِطُونَ عَلَى النُّجُومْ
أَغْشَى خُطَا أَبْصَارِهِمْ - رَهَجُ الزَّوَابِعِ وَالغُيُومْ
وَاللَّيْلُ يَنْفُضُ فَوْقَهُمْ - مِنْ يَأْسِهِ قَلَقَ النُّجُومْ...

---

(1) موسيقا من السر -ص 36-37 .
(2) المصدر نفسه -ص40-41 .

فَإِذَا غَفَلُوا فَعَلَى مَوَاطِئِ كُلِّ جَلَادٍ غَشُومْ(1)
وَإِذَا صَحَوْا فَعَلَى خَطَا - لِلذُّلِّ حَاشِيَةُ الرُّسُومْ
مَنْ هَؤُلَاءِ الضَّائِعُونْ؟ - أَفَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونْ؟
أَبَدًا، تُكَذِّبُنِي، وَتَرْجُمُنِي الحَقَائِقُ وَالظُّنُونْ(2)

ولم تكن أحكام الشاعر جزافية، لأن المسلمين اليوم يعانون حقا الضياع بضياع قيمهم وعدم ارتباطهم بدينهم وتفرقهم، وتخلفهم وركودهم.. وهذا يزداد ألما وحزنا عن واقعهم الذي أصبح لا يقنعه أي حل سوى الحل الإسلامي بالعودة إلى كتاب الله الذي لا تبديل فيه أو تحوير. وفيه من الشرائع والقيم التي تمحو الظلم والفساد والضلال والعبودية، وتنشر العدل والحرية والحق والهدى. وقد قال تعالى ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾(3) ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.... إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ. تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.﴾(4) ولكنهم وإن يملكون هذا الكتاب الذي يمنحهم العزة والفخار، فهم خانعون لغيره، بعيدون عن نهجه الحياتي القويم :

أَبَدًا.. وَكَيْفَ؟ وَفِي يَمِينِهِمُ كِتَابٌ لَا يَهُونْ
أَبَدًا.. وكيف؟ وَدُونَ سَطْوَتِهِ وَتَنْتَحِرُ الْقُرُونْ
وَيَبِيدُ طُغْيَانُ الْعُتَا - ةِ وَيَهْلِكُ الْمُتَجَبِّرُونْ
وَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ - وَهَجِ الضِّيَاءِ الْغَاشِمُونْ
الْفَاسِدُونَ الْمُفْسِدُونْ - الظَّالِمُونَ الْمُظْلِمُونْ
مَنْ هَؤُلَاءِ الخَانِعُونَ ؟ أَفَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونْ ؟؟
أَبَدًا ، تُكَذِّبُنِي وَتَرْجُمُنِي الحَقَائِقُ وَالظُّنُونْ(5)

ولا يستنكر الشاعر أنه منهم -أي أنه مسلما- لكنه لا يشعر بما لا يشعرون به، إنه يشعر بالأصفاد وغمغمة العبيد، وبأنين هذه الأمة وحوارها. فيزداد شعوره بالبكاء والمرارة، بعد أن أدرك هجران الله بالهجرة إلى الشيطان، وسبب هذا التراجع والأنين، هذا الشيطان الذي رمز به إلى الحضارة الغربية، لأن همها دحض وجود وقيمة الأمة وتقييدها وتغريبها بالقضاء على دينها وحضارتها الإسلامية،التي تموت على الرغم من اختفاء وجهها اليوم،بذلك الهجران الذي أودى بها إلى الهلاك والتردي:

---

(1) غشوم : أصلها غشيم: الجاهل الذي لا دراية له.
(2) مجلة المسلمون- ع1- 1951م-ص 91 .
(3) البقرة:2.
(4) فصلت :3، 41-42.
(5) المرجع نفسه - ص92 .

أنا منهم... لكنني - نغم بسمعهم شريد
ربطت به الأصفاد بل - طحنته غمغمة العبيد
وحوار شرقي مبدد - بأنين أمتيه معيد
أبكي عليكم أم على - غد يكبلني شديد!
إنا هجرنا الله... هجرتنا لشيطان مريد
غاب تروضنا حضا - رته لكل هوى مبيد
ولكل من يحي لنا الإسلام في كفن جديد
تتحته أحبولة العصور - السود مذ زمن بعيد
ليحيل دين محمد - وهما على نعش مجيد...
من هؤلاء الهالكون؟ - أفهؤلاء المسلمون؟
أبدا تكذبني، وترجمني الحقائق والظنون[1].

وفي نهاية القصيدة يدعو إلى النهوض وتدارك أمر وجودهم الروحي قبل انهيار صرح حضارتهم وعقيدتهم، التي يريدون لها أن تتوارى عن الوجود. وذلك بالعودة إلى الإسلام، لأنه هو الذي يحمل الثورة على الفساد والفسق والغي والطغيان... بالترهيب والترغيب، والتبشير والإنذار، يوم المصير والمعاد والحساب والعقاب والثواب، ويصبحون حقا صاغرين للإسلام، لا للتيه والوهم والضياع والهلاك والخنوع، لأن الصغار للإسلام يمنحهم تلك الصفات الإسلامية العقدية والأخلاقية:

من كان للإسلام، فليتعثر بمعوله الفساد
فيقيبح باللص العتي : كفاك من شبع وزاد
ويصيح بالفساق : إياكم وأعراض العباد
ويصيح بالطاغين : أسرفتم، لكل مدى نفاد...
ونظرتم.. فإذا الظلام عليكم حتى السواد
ريح مصرصرة الزئير : كأخيتها في يوم عاد
تسقيكم من وبيلها : وخرابها حمم الرماد
من هؤلاء الصاغرون؟ أفهؤلاء المسلمون؟
التائبون، العابدون، الراكعون، الساجدون[2]

إن الشاعر في الحقيقة ركز على النهوض الروحي قبل النهوض المادي، لأن ذلك هو سر الحضارة. التي تقوم على الروح والمادة معا. ولعل خاتمة قصيدته كانت فيها إصرار وإيمان قوي بالعودة إلى الإسلام والعيش

---

(1) مجلة المسلمون- ص91.
(2) المرجع نفسه - ص92.

في رحاب صفاته وقيمه وشرائعه،حيث تراءت أمامه تلك الصفات القرآنية الشاملة الكفيلة بإيجاد الإنسان المسلم، وقد قال تعالى ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(1).

وهذا الإصرار على الإسلام هو إصرار فطري وإلهي قبل كل شيء،لأنه الرسالة السماوية الأخيرة التي تؤهل الإنسان،وتكلفه للإستمساك بالإيمان والذود عن القيم الفاضلة من عدل وحق وحرية وخير والتي تقود إلى البناء الإنساني والحضاري لا إلى الهدم ، وإلى النظام لا إلى الفوضى،وبالتالي تتحقق دعوة الإستخلاف والأمانة والتعمير ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(2)، ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾(3). ولم يجد الشاعر إلا الوقوف أمام الشخصيات التاريخية الإسلامية البارزة، من كان لها دور بارز في تغيير حياة هذه الأمة في القديم والحديث، وما قامت به من أدوار قيادة الأمة فكريا وأدبيا.

وتعتبر شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في مقدمة الشخصيات التي تعلق بها قلبه وعقله، وعمل على إبراز دورها التغييري الجذري في حياة البشرية وخاصة في قصيدة "حادي التغيير"(4).

أما الشخصية الحديثة شدته،شخصية إقبال الفيلسوف والشاعر المسلم،الذي كان من دعاة العودة إلى الإسلام، والتجديد الحياتي في ظله، وقصيدة "شعلة الذات" تجسيد لهذا النور التغييري، وإشادة بهذه الشخصية التي لقبها بطائر الإسلام،والذي لم يحن رأسه إلا لله:

قُلْ لِمَنْ أَحْنَى لِغَيْرِ اللهِ رَأْسَهُ - وَلِمَنْ صَبَّ لِغَيْرِ اللهِ كَأْسَهُ
خَائِفًا يَشْرَبُ مِنْ كَفَّيْهِ نَفْسَهُ - وَمِنَ الذِّلَّةِ لَا يَدْرِكُ حِسَّهُ
لَسْتُ أَدْرِي.. إِنْ تَوَهَّمْتُ الوَجُودَا
سَادَةٌ عَاشُوا عَلَى الأَرْضِ عَبِيدَا
اسْأَلِ الذَّاتَ.. تَجِدْ فِيهَا السُّجُودَا
لِسِوَى اللهِ، رِيَاءً وَتَصَيُّدَا
وَاسْأَلِ اللهَ.. لِمَنْ أَطْلَعَ شَمْسَهُ؟
لِسِوَى الأَحْرَارِ لَمْ تُشْعِلْ وُقُودَا
لِصَبَاحِ الشَّرْقِ أَوْ تَسْقِي أُمَّسَهُ...
طَائِرُ الإِسْلَامِ رَجِّعْ نَغَمَا - كُنْتَ فِيهِ لِلَّيَالِي حُلُمَا
أَشْعِلِ النَّايَ الَّتِي هَزَّ السَّمَا - وَسْتَقَى الأَعْمَاقَ شَدْوًا مُلْهِمَا(5)

---

(1) التوبة- 112.

(2) آل عمران- 85.

(3) آل عمران- 19.

(4) انظر فصل الرؤية النبوية- مبحث آثار البعثة .

(5) لابد- ص140- 144.

ب- الـدعوة إلى الـمـاضـي (التـراث) :

وقد أشرنا سابقا أن كثيرا من الشعراء لاذوا بماضي أمتهم من أجـل استنهاضها، وذلـك باستيحاء أمجادها السالفة، وإحياء تراثها الغابر، بعد أن قيّض لها ماض زاهر، وحضارة راسخة الأصول بوأتها مكانة مرموقـة بين الأمم في تاريخ البشرية.

إن الواقع في كل حضارة له أسس خالدة وأخرى زائلة وتتميز فيها العمد الثابتة عن المظـاهر المتغيرة،ووجد الشعراء في ذلك الماضي ذخرا يركنون إليه، وشعلة يهتدون بنورها، وأساسا وطيدا لتشيّد فوقه مستقبلا لـما فيه من إيجابيات لبناء خير الإنسانية، ومن ضرورة لتقدم المجتمع،بعد أن أصبح أمر الاستفادة من تقدم أوربا وخبرتها محمودا، وأنه لا يمكن لأمتنا أن تمد يدها لتمسحها حضارة، وهي تملك الرصيد الخالد الذي تستطيع به التحفز على التحرر والنهوض.

لهذا كان الاتجاه إلى الماضي ليس للبكاء على عهود زاهية، أو التغني بهـا مع إهمـال شؤون الحاضر وواقع أمتهم مما يجعلهم في شبه عزلة. وإنما كانت نظرتهم الغالبة إلى هـذا المـاضي تتسم بروح الاتعاظ والاعتبار واستخلاص العبرة والمغزى من أحداث التاريخ وتجارب الماضي .وربطه بالحاضر ليس لمجرد السرد والوصـف، أو الموازنة والمشابهة، ولكن من أجل الأمل في المستقبل.

وقد حدد بعض الدارسين موقف الشعراء والمفكرين إزاء التراث بأن لا يكون موقف المتلقـي لكـل مـا فيـه، ولا موقف الرافض الثائر على كل ما فيه، وإنما أن يكون موقف المتفحص لمحتوى هذا التراث، والمعتـبر في ذات الحين. لأن << الأديب الذي يفقد اتصاله بماضي أمتـه، لا يصلـح بحـال مـن الأحـوال أن يعبر عـن وجدانها الحاضر.>>(1) و<< أن كل تطور لا يستند على أساس أصيل يقوم عليه،مقضي عليه بالزوال.>>(2).

لهذا لم يكـن تغني الشعراء ببطولـة خـالد وطـارق وصـلاح، وتلاحـم بـدر واليرموك والقادسية وحطين وعمورية، وبمعالم الفكر والأدب الزاخرة في مراكز الحضارة الإسـلامية ، مصـر وبغـداد والأندلـس وغيرهـا،إلا انعكاسا لما استقر في نفوسهم من رغبات عارمة من أجـل أن يكـون لأمتهـم درعـا حصينـا تفصـل معركتهما التحريرية مع الغزو السياسي والفكري، وبمدها بروح الثقة والصمود، والإيمان والتفاؤل.

إن كان أحمد شوقي يُعد رائد الشعراء في العصر الحديث الذين برعوا في استلهام المـاضي التليـد، واستنطاق الأمجاد الغابرة على نحو لم يسبق له مثيل(3). ولكن هذا لا يمنع من أن قصائد محمود حسن إسماعيل ذات الطابع التاريخي تكفي الباحث المنصف في تكوين رأي صـادق عـن عاطفتـه ورؤيتـه الإسلامية، حيث كـان تذكيره بالماضي سلاحا باترا في قبضته، من أجل تقوية الـروح المعنوية للأمـة الإسـلامية، وإيقـاظ الشـعور الإسـلامي لحمل رسالة النهوض في نزاهة وإتقان .

---

(1) عائشة عبد الرحمان- قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر- دار المعارف- القاهرة- 1970- ص153.

(2) حامد حفني داود- تاريخ الأدب العربي-ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1983م- ص155.

(3) انظر عمر الدقاق- الاتجاه القومي في الشعر الحديث- ص243.

ولم يرد أن يجعل التحسر على الحاضر الأليم والشكوى منه،عنصرا من عناصر شعره الباعث على النهضة، بل تضرع إلى الله راجيا أن يأخذ أمته إلى طريق الأمان والازدهار . كما تضرع إليه سابقا من أجل النصر والحرية، ووقف يقاوم اليأس بالأمل، لعل الدهر يبتسم لأمته بعد خنوع للظلم، واستسلام للجهل،وعاد إلى الماضي بملامحه الإسلامية. وقد وجد من قبل أهم دواء لبعث الثورة.

والشاعر لم يتحدث عن الماضي من أجل الماضي،وإنما ليقابل بين ما كان في ذلك الماضي الزاهر،وبين ماهو كائن في هذا الحاضر. برسم صورتين متقابلتين صورة الماضي وصور الحاضر وقد عنونهما في قصيدته "من التابوت"، فمن التابوت الذي يوحي بالموت والسكون...انبعث صوت هذا الواقع متألما صارخا، ثائرا رافضا واقع الأسى والموت والجرح والوهم، باحثا عن هوية ذاته. هذه الذات التي لن تعود إليها الحياة إلا بالرجوع إلى نسبها القديم،أي ماضيها الحافل بالمآثر والأمجاد- ويعدد رموز هذا الانتساب بالشمس والبيداء والثارات والرايات والغلب والغزوات والصهوات والنحدات... وكل هذه الرموز حددت الإطار التاريخي والبطولي والاجتماعي والحضاري لهذه الأمة،التي انقسمت إلى حاضر مظلم، وماضي مشرق :

وحينَ يُطِلُّ وَجْهُ الأَمْسِ، فِيَّ
رُؤَاهُ تَفْزَعُنِي
فَأَسْأَلُ نَايَهُ المَحْفُورَ بَيْنَ يَدَيْنَ
تَخْتَرِقَانِ مِنْ فَزَعٍ.. وَمِنْ طَرَبٍ
أَذَاتِي هَذِهِ
أَمْ أَنَّهَا الأَوْهَامُ
تَرْحَمُنِي.. فَتُرْجِعُنِي إِلَى نَسَبِي
أَنَا ابْنُ الشَّمْسِ، وَالبَيْدَاءِ
وَالثَّارَاتِ، وَالرَّايَاتِ، وَالغَلَبِ
أَنَا ابْنُ السَّيْفِ، وَالغَزَوَاتِ..،
وَالصَّهَوَاتِ، وَالنَّحَدَاتِ، وَالغَضَبِ[1]

إن هذا الواقع الذي يشبه التابوت، لم يكد يصدق حقيقة نسبه من شدة التردي والظلم والأنين. وهذا العيش بين زئير الأمس الذي يعاتبه ويفزعه، وجرح اليوم الذي يسكن كبده ويلسعه، وهو في هذا الصراع بين الماضي والحاضر،يبحث عن صوت الرفض، والإصرار لعله ينزعه من تابوته :

زَئِيرُ الأَمْسِ فِي خَلَدِي، يُعَاتِبُنِي وَيُفْزِعُنِي
وَجُرْحُ اليَوْمِ فِي كَبِدِي.. صَدَاهُ المُرُّ يَلْسَعُنِي
فَهَاتِ النَّايَ مَحْمُورًا

---

(1) صلاة ورفض - 54 55 .

بِصَوْتِ الرَّفْضِ وَالإِصْرَارِ وَاللَّهَبِ
لَعَلَّ نَسِيجَهُ العَاتِي.. مِنَ التَّابُوتِ
يَنْزِعُنِي...[1]

وأهم أدواء هذه الأمة التي وصفها الشاعر، هو الاعتصام والتآخي والتوحد والاحتكام إلى الدين، وبناء واقع يكون في مستوى ما كان لهذه الأمة من مجد تليد وعز أثيل. ولهذا فكلّما اصطدم بالواقع السيء الذي تعيشه أمته بين خنوع للظلم والجهل، عاد إلى التراث بملاحمه الإسلامية ومعالمه التاريخية والحضارية واستفاد منه وهو يعيد مجد مصر والعراق والشام واليمن وغيرها...

حظيت مصر بمكانة في قلب الشاعر وفي شعره، فحاول إبراز تاريخها الذي تجلّت فيه الرؤية الإسلامية في كثير من قصائده وأكد بها عظمة أمجاد أمته، وانتماءها الديني، ورسوخها الحضاري.

ففي قصيدة "بنت المعز"[2] استرجع صورة مصر من التاريخ، حيث تراءت له في صورة امرأة عربية مسلمة أصيلة فراح يتتبع خطواتها بعد استيقاظها ليراها تستمد جمالها وصفاتها وعبادتها من الفجر والنور، والتكبير والصلاة،والشمس والنخيل. ثم تمضي لتُومِيء للدهر بحقيقتها، وتكلم تاريخها، ولم تجد أمامها إلا فتح عمرو بن العاص الذي غير وجهها الروحي، وكذلك توجه جوهر الصقلي إليها، قائد جيش المعز لدين الله الفاطمي، وبإقامة دولة الفاطميين العريقة، ولم تتذكر إلا صمودها أمام النكبات والغزاة،حتى أصبحت تسمى القاهرة من شدة قهرها للواقفين إليها بالمرصاد من الأعداء :

وَاسْتَيْقَظَتْ..
وَرَشَّتِ الفَجْرَ عَلَى جَبِينِهَا
وَكَبَّرَتْ..
وَكَحَّلَتْ بِنُورِهِ عُيُونَهَا
.. وَضَفَّرَتْ شُعُورَهَا، بِالشَّمْسِ وَالنَّخِيلْ
وَرَشَّحَتْ سُنُورَهَا، مِنْ ذَهَبِ الأَصِيلْ
وَأَوْمَأَتْ..
وَالدَّهْرُ مِنْ قِبَابِهَا يُكَبِّرُ

---

(1) صلاة ورفض- ص55.

(2) المعز لدين الله، هو رابع الخلفاء الفاطميين، وعد سلطان الدولة الفاطمية، وانقادت له بلاد افريقيا كلها، أسس القاهرة التي عدت عاصمة الفاطميين،وشجع العلم والعلماء بإنشاء الأزهر.

وَمَوْكِبُ الدُّنْيَا عَلَى أَعْتَابِهَا.. وَجَوْهَرْ[1]
وَكَلَّمَتْ تَارِيخَهَا
يَا قَاهِرَ الغُزَاةِ
يَا سَاكِبَ الضِّيَاءِ مِنْ يَدَيَّ لِلْحَيَاةِ..
عَلَى ضِفَافِي الخُضْرِ مَا تَزَالْ
رَايَاتُ "عَمْرُو" تَقْهَرُ الزَّوَالْ
وَتَتَحَدَّى اللَّيْلَ بِالمَآذِنْ
وَبِالضُّحَى السَّابِحِ فِي المَدَائِنْ
فَاسْمَعْ خُطَا مَجْدِي.. وَقُلْ لِلأَعْصُرِ الدَّائِرَةْ
تَفْنَى اللَّيَالِي... وَأَنَا القَاهِرَةْ.. القَاهِرَةْ[2]

وبذلك تعلن انتسابها لهذا التاريخ واعتزازها بأنها ابنة المعز الذي منحها عزة شهدها الماضي، ويشهدها الحاضر والمستقبل، هذه العزة المرتبطة بالإسلام الذي كانت له أحسن موطن وأمنع حصن.

ولهذا فهي تتأمل الحاضر،على الرغم مما فيه من غيوم وظلمة وغفوة بتفاؤل، وتعبر على بعدها التاريخي بعودة شروق شمس تلك العزة مرة أخرى :

بِنْتُ المُعِزّ
وَأَنَا العِزَّةُ لِلْمَاضِي وَالمُسْتَقْبَلِ
عَلَى تُرَابِي مِنْ قَدِيمِ
نَوَّرَ الدُّنْيَا ضِيَاءُ مِشْعَلِي
وَقُمْتُ لِلإِسْلَامِ
حِصْنًا صَامِدًا بِرُوحِهِ لِلأَزَلِ
رَنَّتْ بِهِ مَنَابِرِي.. وَشَعَّ فِيهِ هَيْكَلِي
وَلَمْ أَزَلْ لِقِبْلَةِ الأَحْرَارِ أَعْنَى مَوْئِلِ..[3]
مَهْمَا سَرَتْ فِي قُبَّتِي
أَوْ وَقَفَتْ غَيْمَةْ

---

(1) جوهر : هو جوهر الصقلي : قائد فاطمي شهير، فتح مصر للمعز لدين الفاطمي،وأنشأ مدينة القاهرة بأمره، وبنى الأزهر الشريف.

(2) صلاة ورفض- ص115-116.

(3) الموئل : الملجأ، وإليه الرجوع .

أَوْ أَسْبَلَتْ أَجْفَانَهَا
فِي رَبْوَتِي غَمَّةْ
أَوْ رَدَّدَتْ أَنْفَاسَهَا
فِي جَنْبَتِي ظُلْمَةْ
فَمِثْلَمَا صَدَّ الغُرُوبُ الشَّمْسَ عَنْ سَمَائِيَا
لاَبُدَّ لِلشُّرُوقِ أَنْ يَرُدَّ شَمْسِي.. ثَانِيَا[1].

وفي قصيدة أخرى "مصر أنشودة الدنيا"[2] يشيد الشاعر بطبيعتها وقوتها وفنونها وتاريخها وحضارتها... التي لا تحتاج إلى حجج ودلائل، بعد سحرها ونيلها وخصوبتها. وقد قال تعالى عنها ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ. فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا . قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾[3]، وكذلك بعد أهرامها وآثارها الفرعونية التي مازالت تعبر عن معجزة الإنسان فوق الأرض، ومعلما من المعالم العجيبة في العالم .

ولم يكن التذكير بماضي مصر من أجل التذكير، وإنما لاتخاذ معاني العبرة والقوة والاعتزاز للنهوض بالواقع الذي يرزح تحت نير الخطوب والأهوال والجراح، ولهذا فمجدها يدعوها للاقتداء والمسير لتكون أنشودة الدنيا.

لم تكن الدعوة إلى نهضة مصر وغيرها بالعودة إلى الاحتماء بالإسلام والتراث الحضاري، وإنما أيضا بمحاولة الإشادة بدور بعض الشخصيات الفكرية والأدبية المعاصرة،التي كان لها دورا اسلاميا على الصعيد الفكري والأدبي، ولكن لم تنل الحظوة اللائقة بها.فقدم في قصيدته "لم يطب للبوغ فيك مقام"شخصية الرافعي الأديب والناقد بنزعته الإسلامية من خلال إبداعه وتأليفه،مثل كتابيه الشهيرين "إعجاز القرآن"و"وحي القلم"، اللذان دافع فيهما عن مقومات الأمة الإسلامية ذات الطابع الديني والفكري والاجتماعي والسياسي:

كُنْتَ فِي عُزْلَةٍ مَعَ الـوَحْيِ تَشْكُو - وَشَكَاكَ كَادَ يَبْكِي الغَمَـامُ
تَمْسَحُ الدَّمْعَ مِنْ عُيُونِ اليَتَامَـى - وَيَتَلَوَّاكَ يَنْشِجُ الأَيْتَـامُ
صُنْتَ عَهْدَ البَيَانِ لَمْ تُرْخِصِ الفَوْ - لَ وَلاَ شَابَ سِحْرَكَ الإِعْجَامُ
وَتَفَرَّدْتَ بِالصِّيَاغَـةِ.. حَتَّـى - قِيلَ فِي عَالَمِ البَيَانِ إِمَـامُ
وَوَهَبْتَ الفُرْقَانَ قَلْبَكَ حَتَّى - فَاضَ مِنْ قَدْسِهِ لَكَ الإِلْهَامُ
فَبَعَثْتَ الإِعْجَازَ كَالشَّمْسِ مِنْهُ - يَتَهَدَّى عَلَى سَنَاهُ الأَنَـامُ
فَقُمِ اليَوْمَ.. وانْظُرِ الشَّرْقَ ضَاعَتْ - مِنْ يَدَيْهِ مَوَاثِيقٌ وَذِمَـامُ

---

(1) صلاة ورفض- ص115-117.

(2) انظر- المصدر نفسه - ص 123-125.

(3) البقرة- 61 .

هَـكَذَا تَعْشَقُكَ الطُّهَوْرُ تَهَـادَى - كَالأَمَـانِي، لا ضَحَّةٌ لا زِحَامُ
فَاذْهَـبِ اليَوْمَ لِلْخُلُودِ كَمَا كُنْـ - ـتَ تُغَادِيكَ هَدْأَةٌ وَسَـلامُ
لَـمْ يَمُتْ مَنْ طَـوَاهُ فِي قَلْبِهِ الشِّـعْـ - ـرُ وَإِوْغَـى بِذِكْـرِهِ الإِسْـلامُ (1)

ومن الشخصيات الأخرى التي أشاد بها هو الشاعر حافظ إبراهيم في قصيدته "وادي النسيان"، التي صور فيها مفاخره الشعرية، التي اهتزّ لها الندى والبلبل والنيل، ومواقفه الوطنية والإسلامية بحبه لمصر وللشرق كله، ومناصرته للإسلام ودعاته ومصلحيه، على الرغم من أنه لم ينل حقه، ولقي جحودا ونسيانا:

وَلَهُ يَمِـصْرَ اوَهِـزَّةٌ فِي قَـلْبِهِ - بِعَزَامِيـهَا كَالثَّـلْجِ رَاحَتْ تَهْـدِرُ
وَهَوَى أَحَالَ الشَّرقَ قَلْبًا ثَانِيًا - فِي صَـدْرِهِ بِأَسَى النَّوَازِلِ يَشْعُرُ...
سَلْ عَنْهُ فِي يَوْمِ "الإِمَامِ"(2) خَرِيدَةً وَضَـحِ الهُدَى مِنْ صَفْحَتَيْهَا مُسْفِرُ
فَزِعَتْ إِلَى القَبْرِ الطَّهُورِ وَقَلْبُهَا - جَـزِعًا عَلَيْهِ مِنَ المَحَاجِرِ يَقْـطُرُ
بِالأَمْسِ عَلَّمَهَا التَّصَبُّرَ فِي الأَسَى - وَضَحَتْ بِهَا البَلْوَى، فَكَيْفَ تَصَبَّرُ؟
هَتَفَتْ بِهِ: يَا مُوقِظَ الإِسْلامِ قُمْ - فَـالشَّرْ قُ بَعْدَكَ وَاهِنٌ مُتَعَثِّـرُ
كَادَتْ مَآذِنُـهُ تَمِيدُ قِبَابُـهَا! - وَأَذَانُـهَا يَرْثِي وَيَهْوِي المِنْـبَرُ (3)

أما القطر الثاني الذي شدّ الشاعر هو بغداد، عاصمة الحضارة الإسلامية، وشاهدة على أرقى العصور الإسلامية بالعلوم والفنون والآداب... وكانت قصيدة "بغداد"(4) أكبر قصيدة في "لابد" وأجودها حوّل فيها بغداد بمناجاته الشعرية الرائعة إلى كيان حي يفيض بالحياة الفاعلية.(5) فأول ما يطالعنا صورة بغداد الملهمة التي يتمنى الشاعر لو ألهمته صوتا أو طيف صوت من أصداء تاريخها الجليل، ووشعته بسنا من نورها، وساكبته رحيق الخلد، وفاغمته بعبير المجد، وسقته من الإيمان ومن جلال الشرق... فيسكب لها غناء وملاحما من الشعر تقص ألف ليلة وليلة أخرى عن أسرارها العميقة :

لَوْ أَهْتِنِي طَيْفَ صَوْتٍ، مِنْ صَدَى التَّارِيخِ حَوْلَ بَابِهَا،
أَوْ.. وَشَّعَتْنِي بِسَنًى، مِنْ سَحْدَةِ النُّورِ عَلَى قِبَابِهَا،
أَوْ.. سَاكَبَتْنِي بِيَدِ الوَحْيِ، رَحِيقَ الخُلْدِ مِنْ عُبَابِهَا،
أَوْ فَاغَمَتْنِي(6) بِعَبِيرِ المَجْدِ فِي تُرَابِهَا،
وَرَشَفَتِي مِنْ وَهْلَةِ الإِيمَانِ فِي أَهْدَابِهَا،

---

(1) هكذا أغني - ص170-173.
(2) الإمام هو محمد عبده. الرائد الإصلاحي ومفكري الإسلام في العصر الحاضر.
(3) المصدر نفسه - ص142-144.
(4) أنشد القصيدة في مهرجان الشعر السادس ببغداد يوم 21 فبراير 1965م.
(5) علي عشري زايد - قراءات في الشعر المعاصر - ص29.
(6) فاغمتني : طيبتني وعطرتني.

وَمِنْ جَلالِ الشَّرْقِ، مِنْ ضُحَاهَا فِي رِحَابِهَا،
.. لَحْنُهَا بِسَيْكَبِ[1] مِنْ مُهْجَتِي، مِنَ الغِنَاءِ، لَمْ تَرَهْ !
وَسَقْتُهَا مَلاحَا لِلشِّعْرِ، مِنْ تَارِيخِهَا مُعَطَّرَهْ !
تَقُصُّ أَلْفَ لَيْلَةٍ جَدِيدَةٍ لِأَلْفِهَا[2]

وكان الوصول إلى بغداد بعد لهفة وشوق لرؤية وجهها التاريخي والحضاري، وفي الليل كان النزول،وعلى الرغم من ظلام الليل، فإنه أوحى بالخشوع والسجود حيث كان النور يبث الضياء، وبدت حياته النورانية كحمائم بيضاء تصغي لبقايا وتر هذا الوتر لإسحاق الموصلي الذي بدت أنغامه خالدة على المدى،تجدد المسير لزمنها المزدهر، وعودة شمس حضارتها :

نَزَلْتُهَا.. وَاللَّيْلُ لَمْ يَدْرِ بِهَا مُنْحَهَا لِقِبْلَتِهْ
فَرَاحَ يَخْشُو خَاشِعًا، أَنَّى سَرَى مُكَبِّرًا بِخَطْوَتِهْ
وَالنُّورُ حَبَّاتُ ضُحًى مَبْثُوثَةُ الضِيَاءِ حَوْلَ سَجْدَتِهْ
كَأَنَّهَا تَمَائِمٌ، لِوَجْهِهَا المُنَضَّرِ..
كَأَنَّهَا حَمَائِمٌ، أَسْرَابُهَا لَمْ تَطِرِ،
بِيضُ الجَنَاحِ، مُصْغِيَاتٌ لِبَقَايَا وَتَرِهْ
... أَلْقَاهُ إِسْحَاقُ[3]، وَلَمْ تَسْكُنْ بَقَايَا عُودِهِ المُزَنَّمْ
وَلَمْ تَزَلْ أَنْغَامُهُ، رَغْمَ المَدَى، وَهْنَانَةً، لَمْ تَنَمِ،
شَجِيَّةً، أَبِيَّةً، عَتِيَّةَ السُّكُونِ وَالتَّزَمُّمْ
آهَاتُهَا نُشُورٌ، يَهْدِرُ فِي القُلُوبْ
وَصَمْتُهَا شُعُورٌ، يَزْأَرُ فِي الدُّرُوبْ
يُجَدِّدُ المَسِيرَ، يُنَدِّدُ الغُرُوبْ
وَيَرْفَعُ السُّتُورَ، لِلشَّمْسِ.. كَيْ تَثُوبْ
وَتُرْجِعَ النُّورَ، لِمَنْ كَانُوا عَلَى الدُّنْيَا حُدَاةَ يَقْظَتِهْ
وَمَنْ سَقَوْهُ لِلدُّجَى، وَالغَرْبُ أَعْمَى شَارِبٌ مِنْ ظُلْمَتِهْ.[4]

---

(1) سكيب : فيض.

(2) لابد- ص46.

(3) إسحاق بن النديم الموصلي: من مغني العصر العباسي، تعلم الحديث والقرآن، والغناء والأدب، لم يسبقه أحد في صنعة الغناء والضرب على العود. من مؤلفاته الكثيرة كتاب أغانيه والمغنياء.

(4) لابد ص-48-50.

ثم مضى يتأملها - أي بغداد - ويستلهم من التاريخ وجودها الحقيقي، فاستوقفه البحتري بشعره، وبخاصة سينيته المشهورة التي وصف فيها معالم حضارة الفرس البائدة، متتبعا أثار ذلك الإيوان البالي. ثم استطرد بإشارته للإيوان إلى تذكر أحد ملوكهم سابور الذي استطاعت في عهده أن تدخل حضارة وعقيدة الإسلام، وتنتصر على حضارة الفرس:

وَقَفْتُ فِي فَضَائِهَا أَسْمَعُ طَيْرَ الخُلْدِ فِي مَنَابِرِهْ
وَالبُحْتُرِيُّ[1] حَامِلٌ تَلَفُّتَ الدُّنْيَا إِلَى قَيَاثِرِهْ
وَالسِّينُ[2] سَهْمٌ لِلخُلُودِ يَرْشُقُ الإِيوَانَ فِي سَرَائِرِهْ
تَرْوِي تَذَلُّلَ البِلَى فِي وَجْهِهِ وَخَاطِرِهْ
وَنَشْوَةَ النُّورِ عَلَى إِطْرَاقَةِ بَاظِرِهْ
مُنْذُ دَهَتْهُ هَالَةٌ شَقَّتْ ذُرَا أَكَاسِرَهْ
مِنْ قُبَّلَةِ السَّمَاءِ لِلبَيْدَاءِ، مِنْ بَيْتٍ بِأَرْضِ الْعَرَبِ،
شَعَّتْ تُضِيءُ خَبْرَةَ الوُجُودِ، مِنْ وَجْهِ نَبِي
هَبَّ لَهَا سَابُورُ[3] مِنْ فَزْعَةِ الأَكْفَانْ
مِنْ دَسْتِهِ[4] المَقْهُورْ فِي قَبْضَةِ النَّسْيَانْ
وَدَارَ كَالمَسْحُورْ فِي خَبْرَةِ الإِيوَانْ[5]

ويشير بعدها إلى قيام الحضارة الإسلامية الراقية في بغداد، ويستدل بأرقى عهود الازدهار والرخاء السياسي والاجتماعي، والفكري والعلمي، ومنها عهود هارون الرشيد وابنه المأمون، التي لم تكن إلا نتاجا ماديا وروحيا لدعوة الإسلام، حيث يرى أن الاشعاع الحضاري له أصوله ومنابعه السماوية والروحية الأولى التي منها إلى الأرض "محمد صلى الله عليه وسلم" بتحرير الإنسان العقلي والوجداني من الوثنية والطغيان والهوان. وقد حرص الشاعر في كثير من المواقف على لفت نظر أمته إلى ما في الدعوة المحمدية من أصول حضارية روحية ومادية. تمكن من النهوض بالحاضر، والتمكن من أسباب العزة. لأن الأمة الإسلامية في تلك العهود الأولى للإسلام هي التي صنعت حضارة خالدة، وقادت مشاعل العلم والفكر والأدب والسياسة والدين إلى كل العالم، وهذا

---

(1) البحتري : شاعر عربي طائي. ولد في منبج بالعراق. وكان شاعر المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان، اشتهر بالوصف وحسن الديباجة.

(2) السين : إشارة إلى سينية البحتري في وصف إيوان كسرى.

(3) سابور : صيغة عربية لاسم شابور الفارسي، وهو ملك فارس من الأسرة الساسانية .

(4) دسته : دست، أصلها فارسي وهي مجلس أو سجن .

(5) لامية ص-50 51

فالغيمة رمز لامتداد الحضارة الإسلامية،وقد خاطبها هارون الرشيد من إحدى شرفات قصره:أيتها الغمامة اذهبي حيث شئت، فإن خراجك لي :

مِنْ هَاهُنَا، وَغَيْمَةُ الرَّشِيدِ(1) تَطْوِي الأُفُقَ فِي أَنَامِلِهْ
وَصَوْلَجَانُ الفِكْرِ، وَالمَأْمُونُ(2) يَذْكِي الضَّوْءَ فِي مَشَاعِلِهْ
وَسَيْفُ هُولاَكُو(3) مِنَ الخَيْبَةِ، مُرْتَدٌّ إِلَى مُقَاتِلِهْ
مِنْ هَاهُنَا، والنُّورُ لَمْ يَغْفُلْ سَنَاهُ أَبَدًا..
وَرَايَةُ الإِسْلاَمِ، لَمْ يَتْرُكْ ضُحَاهَا أَحَدًا..
وَكَيْفَ ؟ وَالسَّمَاءُ خَطَّتْ فَوْقَهَا مُحَمَّدًا !
مُحَرِّرَ الإِنْسَانِ، دَاهِي الرِّقِّ وَالهَوَانِ فِي جَبِينِهْ،
بِثَوْرَةٍ شَبَّتْ عَلَى تَكَالُبِ الأَغْلاَلِ فِي يَمِينِهْ،
فَذَوَّبَتْ قُيُودَهُ بِصَيْحَةِ القُرْآنْ..
وَأَضْرَمَتْ وَقُودَهُ فِي جَبْهَةِ الطُّغْيَانْ..
وَحَرَّرَتْ وُجُودَهُ مِنْ قَبْضَةِ الأَوْثَانْ
وَحَرَّمَتْ سُجُودَهُ إِلاَّ إِلَى الرَّحْمَانْ
مِنْ هَا هُنَا.. حُدَاؤُهَا مَدَّ الخُطَا وَسَارَ فِي قَوَافِلِهْ
وَفَجَّرَ الضِّيَاءَ، يَسْقِي ظُلْمَةَ الوُجُودِ مِنْ مَنَاهِلِهْ(4)

ولا يريد الشاعر أن يتذكر حملة المغولين على بغداد التي عاثت فيها فسادا ودمارا. ولا أن يصطدم بالواقع الحاضر لأنه مازال يوحي بتلك الأجواء الروحية والتاريخية والحضارية. فهو مازال يشهد تبتل النخيل واخضراره ويد الخليفة المنصور مازالت تنشر السلام والإباء والضياء،ومازال يصغي إلى المآذن التي تكبر للصلاة، وتسبح لوحدة ونهوض وإزدهار هذه الأمة الحضارية بإيمان وشموخ:

---

(1) هارون الرشيد : الخليفة العباسي الخامس، حارب البيزنطيين،وحكم المقاطعات الغربية،وبلغ أبواب القسطنطينية، وأقر الأمن في مقاطعات فارس وبين البربر في شمال افريقيا، اتصل بملك فرنسا شارلمان، وازدهرت في عهده العلوم والآداب والتجارة.

(2) المأمون بن هارون الرشيد، الخليفة السابع، حارب الإمبراطور البيزنطي توفيل وأجبره على قبول الصلح عام 820هـ. عني بالفلسفة والعلوم والثقافة والترجمة، وأنشأ بيت الحكمة.

(3) هولاكو : قائد حفيد جنكيزخان، من الذين هجموا على الخلافة العباسية في بغداد 1258م.

(4) لابد- ص52-53 .

وَلَمْ أَزَلْ أُصْغِي، وَيُصْغِي فِي دَمِي، تَبَتُّلُ النَّخِيلْ
كَأَنَّهُ مِسْبَحَةٌ، تُعَدُّ فِي تَارِيخِهَا الطَّوِيلْ
خَضْرَاءُ، مَازَالَتْ يَدُ الْمَنْصُورِ[1] فِي أَحْلَامِهَا تَجُولْ
تُدِيرُهَا، وَتَقْطِرُ السَّلَامَ مِنْ حَبَّاتِهَا
وَتَسْكُبُ الْعَبَاءَةَ، وَالإِبَاءَ، فِي رَايَاتِهَا
وَتَعْصُرُ الشَّمْسَ خُطُوطَ الْفَجْرِ فِي سَاحَاتِهَا..
وَحَوْلَهَا لِعَوْدَةِ الأَيَّامِ، لاَحَتْ شَحْنَةُ الْمَآذِنِ
تُصْغِي مَعِي، كَأَنَّهَا تَسْبِيحَةُ الْوَحْدَةِ فِي مَلاَحِنِي
كَأَنَّهَا جِبَاهُ، هَبَّتْ مِنَ السُّجُودْ
تُكَبِّرُ الصَّلاَةَ لِفَجْرِهَا الْوَلِيدْ
- وَتُرْجِعُ الْحُدَاةُ لِلدَّرْبِ مِنْ جَدِيدْ[2]

وفي قصيدة أخرى "سيف الله" أضفى الشاعر شمس الضياء على قبر الإمام علي رضي الله عنه في رورة النجف الأشرف بالعراق. فتراءت له صور من الدين والتاريخ والحضارة... وانتابته مشاعر من الحنين والشوق إلى علي رضي الله عنه وهو أمام قبره، ومشاعر أخرى من الطهر والتقوى والخشوع، انعكست على روحه الشعرية بهذه الصلاة والتسابيح :

ونادى مناد للضياء فكبرت
جفوني، وصلت للنداء خواطري
وذوبت قلبي، في رحيق من السنا
وعطرت من فجر الخلود قيثاري
وأحرقت من أوتارها، كل ماركت
به لصلاة الروح- نار المباخر
تسابيح من صلى وأشواق من دعا
وذوب في كفيه دمع السرائر..[3]

---

(1) المنصور أبو جعفر : الخليفة العباسي الثاني، واجه ثورات العلويين، بنى بغداد ودعاها دار السلام. نظم الشؤون الإدارية والمالية والبريد. توفي محرما بالحج .

(2) لابد- ص53-54 .

(3) المصدر نفسه- ص75 .

وفي تلك اللحظات الروحية، راح يتأمل كل المظاهر والكائنات الكونية، وكل الوجوه البشرية،واستوحى منها تلك الصلوات والتسابيح والتراتيل، وذلك التقوى والطهر والنقاء. [1] حتى يشدو لعلي كرم الله وجهه الذي عرف بالطهر والتقوى، والعدل والحكمة، والفتوح والخلافة فاكتسبت بذلك الكوفة المجد الروحي والديني وهي تحتضن هذا القبر الطاهر. فيتمنى دائما الوحدة وعودة العصور الزاهية.ويؤكد ذلك أن هذه الأمة تجمعها أواصر روحية كبرى، وشخصيات عظيمة كشخصية علي رضي الله عنه الذي أخذ من شخصية محمد صلى الله عنه وسلم الشيء النفيس. وبعد أن تغنى وترنم في القصيدة السابقة بمجد العراق فهو يخشع ويسجد أمام المجد الديني لهذه الأرض التي كرم الله وجهها هي أيضا بعلي رضي الله عنه... الذي عده سيفا من سيوف الله التي حملت هذا الدين بالقول والفعل :

وَبَدَلْتُ نَايِيَ مِنْ غِنَاءٍ مُرَنَّمٍ
لأنغَام نُورٍ خَاشِعَاتِ المَزَاهِرِ
لأشْدُو وَأَرْضًا كَرَّمَ[2] اللهُ وَجْهَهَا
بِوَجْهٍ عَلَى تَارِيخِهَا النَّضِرِ، عَاطِرِ...
بِسَيْفٍ بَرَاهُ اللهُ عَدْلاً وَحِكْمَةً
وَشَقَّ بِهِ الإِسْلاَمُ قَلْبَ الدَّنَاجِرِ
وَأَفْزَعَ لَيْلَ الجَاحِدِينَ بِوَمْضِهِ
فَخَرَّ لِدِينِ اللهِ كُلُّ مُكَابِرِ
وَشَعَّتْ خُطَا الدُّنْيَا بِنُورِ مُحَمَّدٍ...
فَيَا كُوفَةَ الأَمْجَادِ حَيَّتْكِ وَحْدَةٌ
عَلَى فَجْرِهَا التَفَّتْ جَمِيعُ الأَوَاصِرِ
وَعَادَتْ إِلَيهِ الشَّمْسُ يَسْطَعُ نُورُهَا
كَمَا كَانَ فِي تِلْكَ العُصُورِ الزَّوَاهِرِ.[3]

---

(1) انظر-الرؤية الكونية- مبحث عبادة الكون.

(2) علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وصهره على ابنته فاطمة الزهراء، من أبطال معارك بدر وحنين وخيبر والخندق،أنهى عصيان البصرة في معركة الجمل، وهو رابع الخلفاء الراشدين، ويعتبر صاحب المدرسة الأولى في الإسلام التي انبثقت منها شتى تيارات عريضة، جُمعت في كتابه "نهج البلاغة"، أغتيل في أواخر شهر رمضان وهو ساجد في صلاته.

(3) لابد- ص78-79 .

وفي قصيدة أخرى "موسيقا من الخلود" (1)، يظل الشاعر مع العراق في عصرها الذهبي- ولا يكاد يخرج منها - لأنه عثر على رموز النهوض الفكري والحضاري عن طريق التراث والتاريخ،الذي استغله الشاعر للعبرة والتحديد والبعث الحضاري. واستوحى هذه القصيدة من ثرى الموصل بالعراق المدفون فيه الشاعر العربي الخالد أبي تمام الطائي الذي اشتهر في العصر العباسي وعرف بقوة شعره وجدّة صوره، واشتهر بقصيدته البائية المشهورة في فتح عمورية التي يمتد بعدها التاريخي منذ عهد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الذي دك صروح بيزنطية في بلاد سوريا، وانقلب الروم إلى القسطنطينية ذات الأسوار المنيعة والبناء الحصين. وأخذوا يهاجمون بلاد العرب و المسلمين من حين لآخر. وقد دام هذا التعدي طيلة العصر الأموي والعباسي . وفي عهد الخليفة المعتصم حدث،وأن غار البيزنطيون على حدود الخلافة فنهبوا وقتلوا وعاثوا فسادا في بلدة تدعى "زبطرة"،وكان من الذين أصابهم سوء، امرأة هاشمية صاحت بأعلى صوتها "وامعتصماه" فبلغ الخليفة صوت استغاثتها. ففاضت نفسه حماسة ودعا إليه المنجمين وأحد رأيهم في تحديد الوقت المناسب للهجوم والجهاد، فحذروه من الزحف إلا بعد نضوج التين والعنب-كما قالت كتبهم- لكنه لم يأخذ برأيهم فاستعجل وهاجم الروم في عمورية. وكان ذلك الانتصار العظيم الذي سجله الشاعر أبو تمام على صفحة الزمان المشرقة حيث كان رفيق الخليفة في المعركة. فأثرت فيه وهزه الانتصار الرائع فخلّدها واصفا، مفتخرا، هاجيا، حكيما، محلقا في خيال رحب، مكشفا مناطق عذراء في الشعر. وكانت سر إلهام تلك القصيدة سببا في خلود أبي تمام لما تحويه من القيم والأمجاد والحقائق التاريخية التي شهدتها أمتنا العربية الإسلامية. مما جعلها ملحمة حضارية خالدة، بداية أبياتها الأولى الخالدة تمجد العقل والقوة والإرادة والإيمان، وترفض الواقع، وحجب الغيب الذي لا يمكن أن تدركه الأبصار، أو تدعيه الأوهام بحجة النبوءة والتنجيم،حيث تحقق الانتصار والفتح، وكان فتحا عظيما للإسلام. يقول :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ - فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لاَ سُودُ الصَّحَائِفِ فِي - مُتُونِهِنَّ جَلاَءُ الشَّكِّ وَالرِّيَبِ
وَالعِلْمُ فِي شُهُبِ الأَرْمَاحِ لاَمِعَةً - بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لاَ فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ(2)
أَيْنَ الرِّوَايَةُ: أَمْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا - صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ
فَتْحٌ تَفَتَّحُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ لَهُ - وَتَبْرُزُ الأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا القُشُبِ
يَا يَوْمَ عَمُّورِيَةَ انْصَرَفَتْ - مِنْكَ المُنَى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحُلُبِ (3)
أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي الإِسْلاَمِ فِي صَعَدٍ - وَالمُشْرِكِينَ وَدَارَ الشِّرْكِ فِي صَبَبِ(4)

---

(1) أنشدها لذكرى أبي تمام في المهرجان الألف لعيابه في 12-12-1972.

(2) شهب الأرماح : الرماح التي هي كالشهب، الخميس: الجيش.
السبعة الشهب : السيارات السبعة وهي زحل والمريخ والمشتري والشمس والزهرة وعطارد والقمر.

(3) حفلا: مأخوذ من قول العرب ناقة حافل أي مجتمعه اللبن/ ممنوه بالخير المعسولة : الحلوة، الحلب: ما يحلب.

(4) ديوان أبي تمام- شرح الخطيب التبريزي- تحقيق -محمد عبده عزام-دار المعارف- القاهرة- 1964م-مج1- ص40-47.

ومن تلك الأبيات استوحى الشاعر بروح إيمانية رقيقة تلك القيم الإسلامية المتجددة مع الزمن. حيث يتخيل أنه التقى مع ذلك المنجم الذي أراد في يوم ما أن يشغل الناس عن الحرب والمواجهة، ويتركهم عرضة لنهش العدو، بدعوته الغيبية الباطلة الداعية إلى التهاون والتراجع... لكن المنجم اليوم الذي التقى به الشاعر على قبر أبي تمام، اعترف بالحقيقة،وعبر عن إيمانه وهو يسجد ويسبّح مع الشاعر، بل استحال وإياه إلى وتربين من نغم الخلود راحا على ثراه يغردان، ويصلّيان، وينهدلان بقصائده لما فيه من سحر وبيان. ويشبيدان بصفات أبي تمام الشعرية والخلقية، فهو يرفض القول دون العمل والوهم والكذب والتقليد، يعشق الحقيقة والتحديد. واستطاع الشاعر أن يمزج بين خصاله الواقعية الحياتية والشعرية الفنية، حيث عرف بشاعر الدولة الإسلامية، وشاعر البطولة والقوة، والعقل والمنطق والإبداع والتحديد الفني: (1)

أَنَا وَ الْمُنَجِّمُ.. فَوْقَ قَبْرِكَ يَاابْنَ أَوْسٍ(2) سَاجِدَانْ، مُسَبِّحَانْ

وَتَرَانِ مِنْ نَغَمِ الْخُلُودِ عَلَى ثَرَاكَ.. يُغَرِّدَانْ، يُصَلِّيَانْ

يَتَهَادَلاَنْ بِكُلِّ مَا خَلَقَتْ فِيهِ مِنَ الْبَيَانْ، وَيُسَبِّحَانْ

وَبِكُلِّ سِحْرٍ رُحْتَ تَعْزِفُهُ حَدِيدَ الطَّيْلَسَانِ(3) يُهَوِّمَانْ

نَشْوَانْ يَرْفُضُ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ مَسْبُوقَ الْكِيَانْ، بِلاَ كِيَانْ

غَضْبَانْ يَرْفُضُ أَنْ يَكُونَ الْوَهْمُ مِصْبَاحَ التَّلَفُّتِ، فِي الزَّمَانْ

عَطْشَانْ لِلأَضْوَاءِ.. يَنْزَحُهَا حَقَائِقَ، تَزْدَرِي كَذِبَ اللِّسَانْ...(4)

ثم ينتقل إلى الحديث عن فتح عمورية التي استحقت ذلك اللحن الشعري الخالد بتلك القصيدة. التي كانت بالنسبة لأبي تمام همسة خالدة عبرّت عن انتصار رائع للإسلام ضد الشرك، وفرحة كبرى للمسلمين الذين تألقوا على مشركي الروم ،كما انتصروا فيما سبق في موقعة بدر على مشركي العرب الوثنيين. وأصبح الشاعر أبو تمام شاعر الأمة الإسلامية بهذه القصيدة العمورية ذات النفس الملحمي،الذي ضج بالخوارق.وتمجيد الأبطال،ولحظات الانتصار الباهرة التي تذكر بطروادة وإلياذة هوميروس، بل كانت أروع وأفخم منها، وإن لم تجر على أسلوب الملاحم، ولم تستوف شروطها الكاملة، لأنها كانت ملحمة من أجل تحقيق وجود الإسلام ومعركة فاصلة بين التوحيد والشرك.(5)

---

(1) انظر- د/مصطفى الشكعة- الشعر والشعراء في العصر العباسي- دار العلم للملايين- بيروت-ط7- 1991م-ص 631 وما بعدها.

(2) أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي : شاعر عباسي امتاز بشخصية شعرية مميزة، بابتداعه وخياله ولغته. إلى جانب ديوان الشعري، له كتاب "ديوان الحماسة" ضمنه الشعر العربي حتى عصره.

(3) الطيلسان: كساء أو ثوب أخضر مسوح من الخز،وهما شعر ذو ثوب جديد

(4) موسيقا من السر- ص108-109.

(5) انظر-د/ حسين الحاج حسين- أعلام في العصر العباسي- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع- بيروت- ط1- (1405هـ-1985م)-ص99-105.

ويعبر الشاعر محمود حسن إسماعيل أيضا عن هذه الملحمة العمورية بأنها كانت ثورة عميقة غيّرت دحى التاريخ،ورفعت مبدأ الحقيقة بالسيف والإيمان، لا بالشك والخرافة. وبذلك استحقت معاني التحديد لا الاجترار والتكرار:

فِي ثَوْرَةٍ أَبَتِ الوُقُوفَ بِعُمْقِهَا وَحَدِيدِهَا تَتَغَنَّيَانْ
أَصْلَابُهَا عَرَبِيَّةٌ. وَهُمَا الغَدُ الآتِي لَهَا عَرَبِيَّتَانْ
تَتَحَرَّكَانِ بِكُلِّ مَعْنَى.. لا احْتِرَارَ وَلَا اكْتِرَارَ
وَلَا اخْتِزَانْ!
غَيَّرَتْ دُحَى التَّارِيخِ، تَرْفَعُ مَبْدَأَ الحَقِيقَةِ بِالْبَنَانْ
السَّيْفُ حَقٌّ!
والنَّحْوُمُ خُرَافَةٌ وَالغَمْدُ هَيْكَلُهُ هَوَانْ[1].

ويصغي الشاعر لتلك القصيدة العمورية التي جمعت بين الجمال والرقة والقوة والبطولة في تشكيلها ومواقفها، ويمعن في الإصغاء، وتنفجر من روحه نغمتان أخريتان. وكان هو والمنجم ثانية، هو الصدى الذي يجهر بتلك الثورة العمورية في زمنه المتردي، أما المنجم فهو الردى والماضي الميت على جبين عمورية بينما صدى الشاعر هو من لحن السيف،الذي يمثل الماضي الحي بالانتصار والكرم والشرف والقوة التي يستعان بها بعد قوة الله عز وجل :

أَصْغَيْتُ... ثُمَّ رَأَيْتُ... ثُمَّ تَفَجَّرَتْ مِنْ قَاعِ رُوحِي نَغْمَتَانْ
أَنَا.. وَالمُنَجِّمُ فَوْقَ قَبْرِكَ سَاجِدَانْ
أَنَا .. فِي الصَّدَى
وَهُوَ الرَّدَى المَخْتُومُ،تِلْكَ حَقِيقَتَانْ!
أَنَا كُنْتُ لَحْنَ السَّيْفِ!
وَهُوَ جَبِينُ عَمُّورِيَةٍ، مُتَنَاقِضَانْ!..
كَلَّمْتُهُ .. بِصَبَا السُّيُوفِ، وَكِبْرِهَا وَحُنُونِهَا يَوْمَ الطِّعَانْ
وَبِأَنَّهَا شَرَفُ الثَّرَى.. بَعْدَ الإِلَهِ بِغَيْرِهَا لَا يُسْتَعَانْ[2]

ويختم الشاعر قصيدته بإعجابه ودهشته –ومعه المنجم– بموقعة عمورية الخالدة. آملا في دعوة ذلك العزم والإصرار والإيمان والصبر. إلى زمن أمته التي غرقت في اللهو واللعب والمراراة. ويتشوق إلى نفير عمورية لتحمل مرة أخرى عزة ووجود ونصر هذه الأمة الإسلامية :

---

(1) موسيقا من السر– ص 110.
(2) المصدر نفسه – ص110-111 .

حقناك...

مزمورين، مخمورين

من دهش المدى يتعجبان

يتقلبان على صداك مع الخلود

ويشربان، ويسقيان!

قم، واملأ الأقداح ثانية

وحلحل في الصفوف بلا أوان

فاللهو، واللعب استمرا في العروق مع المزارة.

يجريان

وأعد نفير الأرض

عمورية أخرى تشوق للآذان(1)

ومن القصائد الأخرى التي غرفت من تاريخ هذه الأمة العريق،لتعطي من الماضي أسباب النهوض، ودوافع الإحياء الحضاري، قصيدة "معبد الشمس" التي استوحاها الشاعر من أجل نهوض قطر آخر ينتمي إلى هذه الأمة،ألا وهي اليمن،حيث استوقفته أطلال وآثار معبد بلقيس ملكة سبأ، التي أنشأت مملكة سبأ في جنوب اليمن، وأوتيت من كل شيء، من ملك وثراء وترف، وتوافر أسباب القوة والصناعة والحضارة. وكان لها عرش عظيم،وقوم يعبدون معها الشمس. وكانت لها فيما بعد مع النبي سليمان عليه السلام وهدهد،قصة الإيمان بالله والصلاح العقائدي، أوردتها سورة النمل، مما جاء فيها ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ..﴾(2). وقد أشار القرآن الكريم في مواضع أخرى إلى عظمة هذه الملكة ومملكتها.

ويتخيل نفسه أمام معبدها أو عرشها القديم ليعكس صورة اليمن الحاضرة،حتى تعيش الصحوة والنهوض، وتتخلص من الجهل والرق والظلم، ويتوثب ليلا ونهارا،ليعيد من ماضيه واقعا يعيد للإنسان اليمني -أو حتى غيره- الحضاري الحقيقي، وقد أصبحت الشمس المعبودة في عهوده القديمة هي العابدة الساجدة في زمن الإسلام:

أصغيتُ طويلاً لقضائك

والصحوةُ تجري بدمائك

والأمسُ يطلُّ لأضوائك

---

(1) موسيقا من السر- ص111-112.

(2) النمل-22-24 .

مَفْزُوعَ النَّظْرَةِ، لاَ يَدْرِي
مِنْ أَيْنَ مَزَامِيرُ الدَّهْرِ..
عَادَتْ لِتُحَدِّدَ أَيَّامَهْ،
وَتَرُدُّ إِلَيْهِ أَعْلاَمَهْ!
وَصَلاَةَ الشَّمْسِ وَسَجْدَتَهَا
فِي كُلِّ صَبَاحٍ لِسَمَائِكْ...
يَتَوَثَّبُ لَيْلاً وَنَهَارًا
لِيَرُدَّ ضُحَاهُ مِنَ الْمَاضِي
وَيُعِيدُ إِلَى الدَّهْرِ سُطُورَهْ(1)

ثم ينتقل من الماضي إلى الحاضر، من واقع المعبد إلى واقع اليمن ليعيش فيها الحلم،ويؤكد لها أن تلك الأطلال حقيقة حضارية منها يكون إمداد عناصر القوة والإيمان، وإعادة حضارة وملك حققه الإنسان اليمني القديم،ولماذا لم يحققه الإنسان الحديث. ؟ ولهذا فالشاعر يزرع أمل الماضي لمسيرة اليمن من أجل تحقيق وجودها. فيحلم أن بلقيس عائدة من ذلك المعبد. لا لتؤدي صلاتها وسجودها للشمس القديمة، لأنها آمنت بعقيدة التوحيد،التي صنعت بمرور الدهور حضارة ساطعة كالشمس. لايمكن أن تغرب من أديم السماء. ولهذا فبلقيس أتية بشمس حضارتها لا بشمس معبودتها لتشهد صبح اليمن، وهي تسير نحو النور والمجد والخلد. ولهذا فالشاعر استطاع بذكاء أن يُعيد لشخصية بلقيس الغابرة حضورا روحيا وحضاريا من أجل بعث نهضة أقطار الأمة العربية الإسلامية :

بِلْقِيسُ أَتَتْكِ بِسَجْدَتِهَا
لِضِيَاءِ الشَّمْسِ، وَفَرْحَتِهَا
وَرَمَتْكِ بِحَاشِيَةِ نَظْرَتِهَا
قُدْسًا وَصَلاَةً لِضِيَائِكْ
وَنَشِيدًا يَرْكَعُ لِسَمَائِكْ
وَأَذَانًا بِصَبَاحِ الْيَمَنِ
يَتَزَنَّمُ فِي سَمْعِ الزَّمَنِ
سِيرِي بِالنُّورِ وَثَوْرَتِهِ
وَأَعِيدِي الْخُلْدَ لِجَنَّتِهَا.(2)

---

(1) قاب قوسين- ص78-81.

(2) المصدر نفسه - ص81.

المبحث الخامس

السلام.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن قضية السلام في العالم من أهم القضايا الإنسانية العامة التي تتحكم بمصائر الشعوب، وتفرض نفسها على غيرها من القضايا الأخرى،فتتشابك معها،وتتداخل بها،وتؤثر في مسرى الحياة الإنسانية أيما تأثير.

وتركت الحروب وبخاصة الحرب العالمية الأخيرة آثارها على الإنسان حيث جعلته يهيم في عالم من الشك والحيرة والخوف، كما جعلته يفتش عن ذاته الضائعة وعن أي ضوء إنساني يشعّ بالحق والأمان والسلام. ويكشف أبعاد تلك المتناقضات،التي اضطربت بها حياته،وغابت قيمته، وأغوار تلك المتاهات التي ينطلق منها التوحش والاعتداء والدمار. وتدخله في دوامة وذهول وبلاء.

وعلى أنقاض هذا الوضع المزري للإنسان،والمبشر بالفناء والعدم وتحول الأرض إلى غابة بشرية أفظع من غابة الحيوان. تعالت دعوات وشعارات السلام تنادي بحقوق الإنسان في كل مكان. وأصبح له أسسه وشروطه التي لا تخل بالكرامة والحرية والسيادة،ولا تحوله إلى استسلام يفرضه منطق القوة. إن السلام الحقيقي ينبع من القلوب وهو الذي تضعه العقول والأفئدة قبل أن تضعه الحراب والمدافع، لأن منطق البطش والإرغام لا يمكن أن تقبله حتى أكثر الشعوب ضعفا وتخلفا،بعد أن أصبحت وسائل الكفاح المشروع مشرعة أمام كل المقهورين،والدليل على ذلك التجارب الثورية الحية التي شهدت على بطلان منطق القوة والإرغام واحتقار الإرادات الإنسانية القادرة على إثبات وجودها واستقلالها.(1)

واصطدمت دعوة السلام التي تبحث على الحقوق الإنسانية المفقودة في ظلمات الفقر والجهل والحرمان، والقهر والتعسف والاعتداء والتميز العنصري،التي أنتجت كل أنواع التمزق والضياع والغربة في الأرض والذات والمقومات،بسلام آخر مزيف لايقوم على العدالة والحرية، ويخفي خلفه كثيرا من المطامع والأغراض، والأحابيل والضلالات. ويدعو أشخاص مقنعين بشتى الصفات، وفي حقيقتهم يكفرون بسعادة وسلام واستقرار الإنسان. وهم الذين يدعون الحضارة والعلم والتقدم والرخاء الإنساني. لكنهم هم الذين يقودون الحروب حيثما شاءوا. وهم الذين يعتنقون التميز العنصري وكل ألوان التعصب والتفرقة بين البشر، ويستحلون أن يقسّموا الناس على أساس باطل من العرق أو اللون أو الشكل. و<< يدافع عن هذه العنصرية البغيضة يرون أنفسهم مؤهلين لقيادة الناس، ويعتبرونها بفعل هذا المفهوم العرقي جنسا آخر يختلف عن غيره، وطبقة راقية تمتلك من القدرات والمواهب ما يمنحها الحق في أن تستعبد الناس، وأن تسيّر العالم وتتحكم فيه وتتصرف بموارده، وتمارس سلطاتها على أساس هذه النظرة التي تجعل الناس فئات ودرجات تتباين وتتمايز من حيث القدرات والوظائف والحقوق.>>(2)

---

(1) عبد القادر القط- الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر - ص329 330.

(2) المرجع نفسه- ص459.

ولهذا فالسلام الحقيقي ينبع من النفس ليتحقق في النفوس مجتمعة. و<< التركيز على الجانب المادي وحده هو مصدر الغل والحقد والأنانية، وبالتالي مصدر التنازع والتباغض والقلق والاضطراب والتوازن بين الجانب المادي،وما فوق المادي من مثل وقيم، هو سبيل التخلص من شرور الحياة الإنسانية، وبالتالي سبيل السلام الفردي والجماعي .>>(1)

وكان قيام الحضارة الإسلامية قائما على النزعة الإنسانية، التي نقلت الإنسانية من أجواء الحقد والكراهية والتفرقة والعصبية إلى أجواء الحب والتسامح والتساوي أمام الله ولدى قانون الشريعة، إذ من مبادئ الإسلام أن الناس جميعا خلقوا من نفس واحدة. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ. وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً.﴾(2).

فالأصل البشري واحد، لكل البشر على الرغم من تفرقهم إلى أمم وقبائل وشعوب وأجناس، ولكن تفرقهم واختلافهم يؤدي إلى تعارفهم وتعاونهم وعملهم للخير ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ.﴾(3). فمقياس الإسلام الذي يقيس به آدميتهم وإنسانيتهم لا يميز بين القوي والضعيف، ولا الغني والفقير، ولا الأسود والأبيض، فالجميع يخضعون إلى تميز الحق ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.﴾(4). والجميع يتحدون في كيان مجتمعاتهم ﴿ مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد. إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.﴾ (5)

وهكذا يستمر الإسلام في إعلان الوحدة الإنسانية بين الناس كأخوة من أب وأم. والوحدة الاجتماعية في المجتمع كشجرة تهتز أغصانها جميعا،إذا لمستها الرياح لا فرق بين أعلاها ولا أدناها. ومن المفيد هنا أن نلاحظ كثرة خطاب القرآن للناس بهذه الألفاظ التي تشعرهم بوحدة أصلهم الإنساني "يا أيها الناس، يا بني آدم" . كما خاطب أبناء الدين الواحد بقوله "يا أيها الذين آمنوا، أيها المؤمنون" دون أن يميز الخطاب أمة على أمة أو فريق على فريق (6) وسما الإسلام بكل ذلك بتثبيت الكرامة الإنسانية للناس جميعا بصرف النظر عن أديانهم وأعراقهم وألوانهم ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(7). هذه الكرامة التي تضمن لهم الحق في الحياة والعقيدة...

---

(1) محمد البهي- الدين والحضارة الإنسانية- ص312.

(2) النساء- 1.

(3) الحجرات- 13.

(4) الزلزلة- 7-8.

(5) النووي- صحيح مسلم- كتاب البر- باب التهي عن السباب- ج16- ص140.

(6) مصطفى السباعي- من روائع حضارتنا- ص62.

(7) الإسراء- 70.

وبذلك نتبين الاختلاف بين دعوة الإسلام إلى السلام وبين دعوات أخرى وبخاصة دعوة الذين يؤمنون بالوجود المادي، إذ هي دعوة تناقض نفسها، لأنها << في حقيقة أمرها ميل إلى التوسع والاستعمار والاعتداء والاستعلاء، لكنه ميل مغلف، ولغلافه بريق يخدع... إن الحرب العالمية الأخيرة، انتهت بالدعوة إلى السلام وراج اسم السلام،وتكرر نداؤه بعدها، ولكن الإنسانية لم تر من ذلك الحين إلا مظاهر القلق التي تحملها الحرب الباردة... إن الإيمان بالله وحده هو الذي يعيد السلام إلى النفوس والشعوب والمجتمعات...إن الإيمان بالله وحده هو الذي يخفف من طغيان المادية،التي تتمثل في الأنانية والاعتداء، ثم في القلق والاضطراب.>>(1)

وإذا كان الشاعر القديم قد آلمته صورة الحرب التي هي صورة الشر، وأسعدته صورة السلم التي هي صورة الخير، كالشاعر زهير بن أبي سلمي :

وَمَا الْحَرْبُ إِلاَّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ - وَمَاهُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ

مَتَى تَبْعَثُوهَا،تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً - وَتَضْرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضْرَمِ(2)

فإن الشاعر العربي المعاصر قد آلمه أن يعيش في عصر العلم والحضارة، ولكن مازال يرزح تحت نير الظلم والعبودية. وتتحكم به أهواء مريضة وأنانيات متسلطة، تسترق الإنسان،وتستبعده على أساس أنه يختلف عنه لونا وعرقا وحتى عقلا. ولم تمر عليه تلك الحروب المتوالية دون تصوير فظائعها وأهوالها. ولهذا رأينا وقوفه بصلابة وثبات خلف القوى الخيرة التي تدعو إلى العدل والسلام،وخلف كل ثورة إنسانية اندلعت من أجل الحرية والكرامة وقيامه برسالته التي تخدم السلام العالمي، بتصويره الحرب الظالمة الفاتكة بالبشر والحضارات بأبشع الصور المنفرة، ودعوته إلى حياة مليئة بالحب والنور،لأن المحبة << هي الوحيدة التي بإمكانها أن تبعث الحيوية والدفء والأمل في كل كائن يتنفس عطر الحياة، وبدونها تتحول الكائنات إلى هياكل مجردة من كل معنى، فارغة من كل محتوى. فالأرض وخيراتها، والبذور ونماؤها وعطاؤها، والأنس والسمر وكل ما يشعر الإنسان بسعادة الوجود سوف يفقد كل وجوده ومقوماته بفقدان المحبة. ويتحول إلى رماد أسود كئيب يغطي وجه الأرض، وتملأ قلب الإنسان شرا وهموما.>>(3) وبذلك تجاوز بهذه المحبة حدود وطنه الصغير، والضيق إلى محبة شاملة تحتضن العالم الواسع، وتتطلع نحو الإنسانية دون حقد أو تعصب أو فوارق.

وعبّر بعض الشعراء عن هذه النظرة الإنسانية الخيرة بنظرة إسلامية، وجدت عندهم أصداء إيجابية،لأنها دعوة مخلصة صادقة إلى توثيق عرى التعاون والتعارف بين البشر، وتتخلص في تطلعها من كل الدوافع المغرضة والغايات التي تختفي وراء بعض الشعارات المزيفة.

---

(1) محمد البهي- الدين والحضارة الإنسانية- ص313 .

(2) ديوان زهير بن أبي سلمى- ص 81-82 .

(3) عبد القادر القط- الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر- ص450.

إلى جانب المنظور الإنساني هناك المنظور الإسلامي، لأنه أولى بأن يقود السلام أصحاب حق وإباء وشرف وتسامح،ولأنه لا يمكن أن تتحول إلى خضوع بقدر ماهو إحساس داخلي ينبع من النفس، ومن شعور بالأمن والاطمئنان إلى اليوم والغد والمستقبل. وبانتصار الإرادة الإنسانية الخيرة، حيث يعود الإنسان إلى ضميره وفطرته، وإلى أماكن النور والهداية في ذاته،فيفجرها وينتصر بها على النوازع الشريرة فيه، ويفتح قلبه وروحه على الحياة المشرقة بأشعتها الهادئة التي تحمل لروحه،السعادة والسمو والطهر،ولنفسه القلقة المتعبة،الدواء الشافي من الهموم والضغائن والأحقاد.

لأن أماكن النور والهداية الكامنة في الإنسان لن تفجرها الدعوات البشرية التي لا تنجو من نقائص ومفاهيم غير موضوعية في أحيان كثيرة،بل تفجرها الأديان السماوية المتسلسلة بالكتب السماوية التي يتمّم بعضها بعضا، ويحيل السابق منها إلى اللاحق وبالعكس(1)

ولهذا مادام الإسلام آخر دعوة سماوية خاتمة، فإن النظرة الإنسانية الخيرة هي نظرة الإسلام التي تهدف إلى السلام الإنساني بوحدة البشر وتفاهمهم على أساس من الاحترام والمحبة والفساد والكرامة والعدل والحرية وما إليها من القيم.

إن دعوة الإسلام إلى السلام تتجه أولا إلى << سلام النفس وصفائها، وإلى إضعاف عوامل الغل ودوافع الأنانية. تتجه إلى تخليص النفس من الاضطراب والقلق أو من الميل إلى الاعتداء.. ولكي يصل الإسلام في دعوته إلى سلام النفس، وضع أمام الإنسان هدفا أولا يسعى إليه ، ويقترب منه ويكافح في سبيله، وجعل الله له غايته في الحياة فوق الأرض تعيش عليها وفوق وجوده المادي الذي يحسه ويشاهده. ويقصد الإسلام من وراء تحديد هذا الهدف في حياة الإنسان أن يقلل دائرة الخصومة والاحتكاك في جوانب الحياة المادية. فالحياة المادية إذا لم تكن غاية نهائية للإنسان، فهي إذن ليست المركز الذي تدور حوله حياته. وهي كذلك بالتالي ليست جديرة بأن تكون مصدر تنازع وتخاصم بين الإنسان والإنسان، وأولى بالإنسان أن يرتفع بإنسانيته فوق الأسباب المادية في حياته.>>(2)

وتحديد الإسلام لوجود الإنسان بتحديد قيمة وجوده الروحي أولا ثم وجوده المادي،وحتى إمعانه في وجوده المادي لا تجعله يغفل وجوده ما فوق المادي وقد قال تعالى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ. وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ.﴾(3)

---

(1) عبد الرحمن بدوي - الإنسانية والوجودية في الفكر العربي- دار القلم- بيروت- (1403هـ- 1982م)- ص153.

(2) محمد البهي- الدين والحضارة الإنسانية - ص311.

(3) الأعراف- 205 .

وكان الشاعر محمود حسن إسماعيل من صفوة أولئك الشعراء الذين استلهموا هذه الفكرة العالمية للسلام من مهازل هذا القرن الأخير، ومن أنين الأرض ومعاناة البشر، على الرغم من أننا استقرأنا فكرة السلام النابعة من التصور الإسلامي منذ تذكيره بقيمة وغاية الحياة، وقيمة تزكية النفس وتطهيرها ومتابعها، وإظهاره لآثار الدعوة المحمدية على الإنسانية جمعاء، ودعوته إلى المجتمع الأخلاقي القائم على الفضائل والعدالة الاجتماعية، واتساعها،بمواجهته للظلم الاستعماري،وتغنيه بالثورات وإشادته بالتوحد والتآخي، وحلمه بالنهوض الحضاري ومن كل هذه الرؤى تتشكل رؤيته الشاملة للسلام والوجود ككل.

ومن قصائد السلام "الغصن اليتيم"[1] التي ردّدها والحرب العالمية الثانية تنفخ أبواق الدمار،والعالم كله يتحفز لصراعها المحموم، والاستعمار يجول ظلامه، وتُحلحل أصفاده في وطنه العربي كله، وغصن السلام غصن زيتون[2] يتيم العود في أرض على الرغم من أنها معطاءة وحنونة كالأم الرءوم التي تحب كل أبنائها ولكنهم مزقوا أوصالها ونهشوها كالوحوش، وبطشوا بكل مظاهر الخضرة والنماء والظلال، ومنها أغصان الزيتون،حيث بدا غصن السلام يتيما أجدبا قاحلا،بعد أن أعلنوا الحروب على بعضهم البعض:

الأَرْضُ أُمٌّ رَءُومٌ، مَا جَفَتْ وَلَدًا - وَلاَ تَقَطَّع مِنْ أَرْحَامِهَا سَبَبُ

تُقِيتُ[3] جَائِعَهَا حَبًّا، وَتَسْتَرِيهِ - وَمَا تَضُنُّ بِسِتْرِ الهَالِكِ التُّرَبُ

فَمَا لَهُمْ مَزَّقُوا أَوْصَالَهَا طَمَعًا - وَنَاهَشُوا الوَحْشَ فِي الآجَامِ[4] وَاحْتَرَبُوا

وَدَوَّخُوا كُلَّ سَحْوَاءِ الظِّلاَلِ بِهَا - وَكُلَّ عَزْلاَءَ فِيهَا السَّيْفُ مُغْتَرِبُ

وَكُلَّ نَاسِكَةِ الكَفَّيْنِ، وَفِي يَدِهَا - غُصْنُ السَّلاَمِ يَتِيمُ العُودِ مُرْتَهِبُ

وَكُلَّ شَلاَّءِ فِي الشَّطْئَانِ بَاطِشَةٍ - فِي البَحْرِ، فِي يَدِهَا الرَّيْحَانُ وَالقُضُبُ[5]

وراح يصور أهوال الحرب التي نشبوها،حيث مزقوا وعفّروا غصن السلام، وملأوا الأرض بالأوبئة والمجاعات والمآسي، بقضائهم على كل مظاهر الحياة والحضارة بسيادة منطق الشر،وتحول كل الأحنة والنعم والخيرات إلى موت يقضي على كل المباهج والمسرات،وإلى دمار حقيقي يبدد الشمل والأمل والتفاؤل والمحبة بالدم والنواح والعويل والقلق والخوف والضياع الذي عمّ كل الناس والكائنات برا وبحرا وسماء:

---

(1) أنشأ القصيدة عام 1940م بعد الحرب العالمية الثانية، وهي طويلة من ثمانية وسبعين بيتا.

(2) غصن الزيتون: رمز عالمي للسلام، وهو رمز ديني يعود إلى غصن الزيتون الذي عادت به الحمامة التي أطلقها نوح عليه السلام لترتاد حالة الطوفان، فلما عادت ومعها هذا الغصن عرف أن الأرض أنكشفت وانبتت. انظر- ظلال القرآن- سيد قطب- ج30- ص193.

(3) تقيت : ترزق وتعطي القوت. والقوت: ما يأكله المرء ويعيش به.

(4) الآجام:م. الجماء: الأرض الكثيرة النبت.

(5) نار وأصفاد- ص45.

زَيْتُونَةُ السِّلْمِ حُلْوَهَا مُعَفَّرَةٌ - دَمُ الضَّحَايَا عَلَيْهَا هَاطِلٌ سَكَبْ
مَيْدَانُ حَرْبٍ هُنَا!؟ أَمْ تِلْكَ مَجْزَرَةٌ - دَمُ الحَضَارَةِ فِيهَا رَاحَ يَنْتَكِبُ؟...
فِي البَرِّ، فِي البَحْرِ، فِي صَدْرِ السَّمَاءِ وَغَى لِمَخْلَبِ الوَحْشِ فِيهَا النَّصْرُ وَالغَلَبُ
أَتَتْ إِلَى غَابِهِ الأَشْلاَءُ صَائِغَةً - فَعَافَهَا وَتَجَافَى نَتْنَهَا السَّغَبُ(1)

ويتأمل أرضه العربية المسلمة بعد آثار الحرب والعدوان،وهي تنزف وتصرخ من القيد والدم والنار. وتراءت له أبشع صور الدمار والعنف، واهتزت إنسانيته بحبه العميق لهذه الأرض، وعادت إليه ذكريات السلام والعدل والحرية الحقيقية التي اختصت بها هذه الأرض. و لم تكن ادعاءات وشعارات مقنعة. وإنما هي حقيقة راسخة دون أي شك، حيث انبعثت من هذه الأرض السمراء الطاهرة الوفية بمشاعل النور والحق والعدل والسلام التي أضاءت كل الأرض، وبرايات النصر والقوة والفتوح الإسلامية، وصنعت حضارة إنسانية خيرة في زمن كان أولئك الذين يدعون الحضارة اليوم في غياهب الجهل والظلام. وحتى حضارتهم التي يتغنون بها اليوم هي التي دمرت الإنسان، ونشرت الموت والشر ،بل أكد لولا حضارتنا الخالدة لمَا زَالَ كل العالم في فوضى وظلام وجاهلية:

هَذِي المَحَارِيبُ كَمْ رِمَتْ دَفَائِنُهَا - فَأَقْسَمَتْ أَرْضُهَا لَنْ تُرْفَعَ الحُجُبُ؟
قَدْ خَتَّمَتْ سِرَّهَا الأَقْدَارُ فَانْبَعَثَتْ لَهَا - مَنْ رَاحَ مِنْ فَمِهَا لِلسِّرِّ يَرْتَقِبُ
وَكَمْ تَحَطَّمَ جَبَّارٌ عَلَى يَدِهَا - وَدُكَّ بَاغٍ قَوِيُّ البَطْشِ مُغْتَصِبُ
شُطْآنُهَا الخُضْرُ أَلْوَاحٌ مُقَدَّسَةٌ - تَنْزِيلُهَا عَجَزَتْ عَنْ حَمْلِهَا الكُتُبُ
سَمْرَاءُ، مِسْكِيَّةٌ(2) الأَغْرَاسِ طَاهِرَةٌ - وَفِيَّةٌ صَادَنَتْ مِنْ عَهْدِهَا الرِّيَبُ
كَانَتْ مُصَلَّى جَبِينِ الدَّهْرِ فِي زَمَنٍ - مَلَّتْ قَرَابِينُهُ الأَصْنَامُ وَالنُّصُبُ
وَالنَّاسُ مِنْ نَزَقِ الفَوْضَى وَظُلْمَتِهَا - مَاجُوا مِنَ الجَهْلِ كَالقُطْعَانِ وَاضْطَرَبُوا
كُنَّا لَهُمْ قَبَسًا فِي الأَرْضِ نَشْعَلُهُ - كَيْمَا تُضِيءُ بِهِ لِلْعَالَمِ الشُّهُبُ
لَوْلاَ شُعَاعٌ سَرَى مِنْ مَهْدِنَا لَغَدَتْ - أَحْبَابُهُمْ فِي ظَلاَمِ الفِكْرِ تَحْتَجِبُ(3)

وبالتالي إن فكرة الأرض والتشبث بها وتعميرها هي استكمال لعبودية الله الشاملة، وتأدية دور الخلافة ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ .وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ. إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(4). فهذه النظرة المسالمة تبعد الانسان عن غاية الاستزادة من المال والسيطرة والنفوذ،وتفر به من قيم الحب والتكامل والتعاون الإنساني. أما النظرة المناقضة هي التي تنتي الشره

---

(1) نار وأصفاد - 45-46.

(2) مسكية: الأرض التي لا تُنشّف الماء لصلابتها، أو ذات نبات بستاني هو المسك وهو زهر أبيض له رائحة زكية جداء

(3) المصدر نفسه - ص48-49.

(4) الأنعام - 165.

في اقتسام الأرض والسيطرة عليها بوسائل العلم المتقدمة والمدمرة، مما تجعلها مهددة وسط الصراع المادي بالحرب والدمار والفناء.

ويتطلع الشاعر إلى عالم تسوده المحبة والعدل والسلام،ويتألم تألما روحيا يتفاعل مع كل مشاهد الكون والحياة التي هي في الحقيقة رموز لمعاناة الإنسان في كل مكان، وذلك التألم ماهو إلا موقف إنساني يمتد عبر قنوات الذات لترتبط بكل مظاهر الحياة والوجود، ويعبر من خلالها عن حزنه الشديد لما يعانيه الإنسان .وذلك التطلع هل هو مستحيل أم ممكن ؟ هل هو وهم أم حقيقة ؟ هل ينتصر الخير على الشر؟.وعبر هاتين الصورتين ينعكس بصورة واقعية الصراع الأبدي بين الخير والشر، والحق والباطل، والفضيلة والرذيلة. وبين كل القوى المتضادة التي يتباين وجهها، وتتغاير أهدافها،ولا يمكن أن تلتقي في منبع أو مصب واحد.

تلك التطلعات والتساؤلات أجابت عنها قصيدة الشاعر "السلام الذي أعرف "(1)، إجابة شعرية طويلة انفجرت من أعماقه كملحمة وطنية دينية إنسانية عالمية تناشد كل البشر وكل الأرض، حيث رحل إليهم رحلة شعرية عبر فيها عن رؤية شعرية،شملت كل المحاور والرؤى التي تغنى بها في شعره طيلة مراحله الشعرية حيث عبر عن كل الأرض، وكل الناس، وكل الحياة . وكانت نظرة واسعة لما جمع فيها كل المفارقات والمتناقضات. و لم يشأ الشاعر في بداية القصيدة أن يبين اتجاهه الإسلامي. حتى يستقطب كل الأصداع إلى رؤيته لمعنى السلام الإنساني. ويكشف عنه شيئا فشيئا برموزه وصوره، وحججه ومنطقه، ليؤكده في نهاية القصيدة. وأعلن عن مكان مجيئه ألا وهو الشرق،وكرره في كل مقطع ليوحي بطريق غير مباشر،إلا أن الشرق الإسلامي رمز السلام لمنبت الإسلام فيه، وإن كانت له نظرته الواقعية لما اعتبر في ثنايا قصيدته أن هذا الشرق هو جزء من معاناة الإنسانية. وحتى لا يتهمونه أنه أتى برؤية الدين المثالية والغيبية، نفى عنه صفة الأنبياء والرسل، والمعجزات والآيات. وأراد أن يكون واقعيا، وانطلق من واقع هذا العالم، من آثار الحروب والمجاعات والأوبئة والمظالم والشرور والمآسي. فأفصح عن مجيئه من دروب الحياة،ومن جروح الإنسان،الذي يعيش القهر والقيد والحزن والألم:

مِنَ الشَّرْقِ جِئْتُ
مِنْ كُلِّ أَرْضٍ أَتَيْتُ
وَلَسْتُ نَبِيًّا عَلَى كَفِّهِ تَسْطَعُ المُعْجِزَاتْ
وَلاَ مُرْسَلاً فِي يَمِينِي كِتَابْ
يُضِيءُ الوُجُودَ، بِآيَاتِهِ البَيِّنَاتْ
وَلاَ حَامِلاً شُعْلَةً فِي يَدَيَّ

---

(1) أنشدها في مهرجان الشعر العربي المنعقد صيف 1969م بمدينة سوسة بالجمهورية التونسية- وغيرها- أمام الجامعة العربية الإسلامية مع شعراء العالم من دول الغرب والشرق .

تَدُقُّ السَّمَاءُ بِهَا كُلَّ بَابْ..!
وَلَكِنَّنِي.. مِنْ دُرُوبِ الحَيَاةِ انْطَلَقْتُ،
وَمِنْ كُلِّ حُزْنٍ لإِنْسَانِهَا قَدْ سَرَيْتُ(1)

فإنه أتى أيضا من كائنات الكون التي تعيش هي أيضا الجفاف والجذب والذبول. ولم تنج من بطش يد الحرب التي طالت الخضرة والنماء... ولم يبق إلا نواح واحتجاج تلك السنابل والجداول والزهور والطيور:

وَمِنْ حَسْرَةِ الرَّيْحِ
وَهِيَ تَقُصُّ احْتِجَاجَ السَّنَابِلْ
وَنَوْحَ الهَشِيمِ، بِخَدِّ المَنَاجِلْ
وَثُكْلِ النَّسِيمِ بِسَمْعِ الجَدَاوِلْ
وَتَرْوِي أَسَاهَا، لِدَمْعِ الفَرَاشِ!
يُؤَبِّنُ مَوْتَى زُهُورِهْ!
وَحُزْنِ الطُّيُورِ عَلَى عُشِّهَا
فِي مَهَاوِي مَصِيرِهْ(2)

كما أنه أتى من تلك الشعوب المقهورة الكادحة، وهي تصرخ بأعلى صوتها من الظلم، وتنادي بحقها في الحياة الذي أخذه أولئك الذين يتقنعون باسم الحضارة والسلام، ويقدمون لأنفسهم صورة للرياء والنفاق والدهاء والخداع، إذ يسوقون لتلك الشعوب أسباب الجوع والعري والموت، ثم يسرعون إليهم بفضلات موائدهم وضمائرهم الميتة:

وَبِاسْمِ الحَضَارَةِ يَبْكِي عَلَيْهِمْ..
وَبِالقُوتِ يَهْذِي، وَيَجْرِي إِلَيْهِمْ
يَمُدُّ لَهُمْ فَضَلاَتُ المَوَائِدِ، حَوْلَ الخِيَامْ
وَهُمْ مِنْ شَقَاءٍ، وَبُؤْسٍ، بَقَايَا حُطَامْ
يَضُجُّ الوُجُودُ بُكَاءً عَلَيْهِمْ!
وَأَغْلاَلُهُ صَيِدَتْ فِي يَدَيْهِمْ
وَدَمْعُ الرِّيَاءِ، رَحِيقٌ مِنَ الظُّلْمِ غَادِرْ
تُفَتِّحُ بِالزَّهْرِ فِيهِ
نُعُوشُ الضَّمَائِرْ(3)

وإن أعلن قدومه من الشرق، فقد أكد انطلاقه من كل دروب الحياة، ومن كائنات الكون، ومن أصوات الشعوب المظلومة، كما أكد ثورته وغضبه من كل جور وقهر وشر، ويستدلّ ببعض الحقائق المأسوية التي

---

(1) صلاة ورفض-ص 16-17.
(2) المصدر نفسه - ص 17-18.
(3) المصدر نفسه- ص-20.

تشهدها الأرض وتعبر عن وحدة المعاناة الإنسانية،من القهر الاجتماعي والسياسي .كما تعانيه أرض مليئة بالنبوءات والقدسات من ذل ومهانة، ويشير بذلك إلى فلسطين التي أراد أن يسمع صدى قضيتها إلى كل العالم وأنها قضية إنسانية لا قضية العرب والمسلمين وحدهم. ومن التميز العنصري الذي تعانيه أرض أخرى حيث مازال الإنسان الأسود مطاردا ومقهورا من طرف الأبيض،ويشير بذلك للإنسان الأسود في أمريكا وإفريقيا الجنوبية،الذي مازال منذ أقدم العصور،يعاني أبشع أنواع التفرقة والتمايز،ويتحمل كل أشكال الكراهية والاضطهاد الإنساني:

وَلَكِنِّ...
مِنْ ضَمِيرِ الوُجُودِ انْسَلَلْتُ
وَمِنْ كُلِّ حُوْرٍ،
وَبَغْيٍ عَلَى حَقِّه، قَدْ غَضِبْتُ
وَمِنْ كُلِّ قَهْرٍ
لِإِنْسَانِه الحُرِّ، ثُرْتُ !
وَمِنْ كُلِّ نَعْرٍ
لِصَوْتٍ أَبِيٍّ
تَسَلاَشَى حَوَالَيْهِ صَوْتُ الضَّمِيرْ!
وَمِنْ كُلِّ أَرْضٍ..
عَلَيْهَا يَدُ الشَّرِّ، سَلَّطَهَا مُسْتَبِدٌ
وَأَرْضٍ..
عَلَيْهَا مِنَ القَهْرِ، حُرٌّ، وَعَبْدُ
وَأَرْضٍ..
عَلَيْهَا القَدَاسَاتُ تُسْقَى المَهَانَهْ
وَتَعْوِي بِخَطْوِ النُّوَّاتِ فِيهَا رِيَاحُ الخِيَانَهْ!
وَأَرْضٍ..
بِهَا اللَّوْنُ يُصْبِغُ وَحْهَ المَبَادِئْ،
فَهَذَا بَيَاضٌ، سَلِيبُ المَسَاوِئْ..
تَلُوذُ بِكَفَّيْهِ كُلُّ المَزَايَا
وَهَذَا سَوَادٌ.. أَبِيٌّ، وَثَائِرْ
عَلَى كُلِّ جَائِرْ
يَمُرُّ بِه العَدْلُ يَحْرَمُ جَائِرْ(1)

---

(1) صلاة ورفض- ص22-23 .

ثم يخاطب الأرض التي يعتبرها أم جميع الناس، مؤكدا أن كل الناس سواسية لافرق بين الأبيض والأسود، ويتساءل عن دعاة الفوارق ،كيف رفضوا حكمة الخلق، ويعلن رفضه وثورته بمنطقه الإسلامي على هذا الباطل الذي فرق بين البشر، وقسمهم إلى فئات على أساس من اللون والعرق والنسب :

فَيَا أُمَّي الأَرْضُ !
مَاذَا حَنَيْتُ ؟
وَمِنْكِ -وَمِثْلِي جَمِيعُ البَرَايَا- وُلِدْتُ
سَوَادًا.. وُجِدْتُ !
بَيَاضًا .. وُجِدْتُ !
إِلَى كُلِّ لَوْنٍ إِلَيْكِ انْتَمَيْتُ
فَمَاذَا أَهَاجَ دُعَاةُ الفَوَارِقْ؟
سِوَى حَشْعُ الظُّلْمِ بَيْنَ الخَلاَئِقْ
خِدَاعٌ.. بِهِ فِي وُجُودِي كَفَرْتُ
وَمِنْ كُلِّ سُخْطِي !
لَهُ مَاعَرَفْتُ !
وَمِنْ كُلِّ بُغْضِي.. وَأَرْضِي
وَمِنْ كُلِّ بُغْضِي.. وَرَفْضِي
لَهُ مَا عَرَفْتُ(1)

وبعد أن كشف عن حقيقة الأرض والحياة والبشر، وأعلن ثورته ورفضه واحتقاره لكل من أفسدوا في الأرض، وفرقوا بين البشر، وقتلوا معنى الحياة. فأكد منطق الفطرة والنواميس الحياتية قبل منطق الدين..حتى لا يتهمون دعوته بأنها دعوة دينية،وينفرون منها،بل أكد بأنه ابتعد عن كل الأديان السماوية التي تتحدد في رؤيتها، وتجهر بحرية الإنسان وامتلاكه لنفسه وقدرته ومشاعره، وعيشه مع الآخرين في أخوة وسلام . يدعو إلى السلام في كنائسهم وأحراسهم وصلاتهم، لأصالة الذين هم الذين أبادوه باسم السلام. وهنا يتبين سر إخفاء نزعته الإسلامية :

مِنَ الشَّرْقِ جِئْتُ
وَلَسْتُ نَبِيًّا
وَلاَ مُرْسَلاً فِي يَمِينِي كِتَابْ
وَلَيْسَتْ مَعِي مِنْ سُلَيْمَانَ،
أَسْرَارُ قُمْقُمْ(2)..!

---

(1) صلاة ورفض - ص25-26.

(2) قمقم : قنينة أو إناء أو وعاء من نحاس وغيره... يستعمل لعدة أشياء ومنها السحر .

أَسْلُ بِهَا الحِقْدَ مِنْ كُلِّ طَاغٍ ...
وَلَيْسَتْ مَعِي مِنْ مَزَامِيرِ دَوْدَ نَغْمَةْ !
وَلاَ مِنْ وَصَايَا الكَلِيمِ مَعِي آيَةْ كَلِمَةْ !
وَلاَ مِنْ أَنَاجِيلِ عِيسَى
وَإِصْحَاحِهَا، آيَةُ رَحْمَةْ !
وَلاَ مِنْ سَنَا آيِ مِنْ مُحَمَّدْ
حَمَلَتْ لَكُمْ آيَةَ نَجْمَةْ...
قَلِيلُ الطُّغَاةِ، أَصَمُّ الظَّلاَمِ
وَحِقْدِ الطُّغَاةِ، ضَرِيرُ الصِّرَامِ
وَمَا جِئْتُ أَشْدُو لَهُمْ بِالسَّلاَمِ
فَصَوْتُ السَّلاَمِ بِأَيْدِيهِمْ
فِي هَزِيجِ الكَنَائِسْ
وَفِي كُلِّ أَيْقُونَةٍ(1) ضَوَّأَتْهَا العَرَائِسْ
وَفِي كُلِّ قَرْعٍ لأَجْرَاسِهَا فِي صَلاَةِ الأَحَدْ(2)

وبهذه الدعوة الصادقة للسلام، أبرق للشاعر بصيص من الأمل، ونشيد للحب السلام، يسم عن مشاعر إنسانية رفيعة تهدف إلى توحيد البشر،وتوطيد علائق الألفة والمحبة بينهم، مميزا في نظرته بين الحق والباطل، الظاهر والجوهر، الكره والمحبة، مبينا جوهر عقيدته التي لا تفرض شعائرها وشريعتها،قبل إنسانيتها،منتقدا الذين أبادوا السلام باسم المسيحية . ومرّر أفكاره،ووجهة نظره الدينية والروحية في هذا الموضوع الإنساني،بصياغة فنية رائعة بعيدة عن الوعظ والإرشاد والأسلوب الخطابي :

... فَيَا أَصْدِقَائِي
.. إِذَا عَادَ حُرٌّ، إِلَى أَرْضِهِ.. فِي الصَّبَاحْ
وَعَادَتْ مَعَ النُّورِ،
تَبْسُمُ كُلُّ الجِرَاحْ
وَكَفَّتْ عَنِ البَغْيِ.. نَارُ السِّلاَحْ
وَذَابَتْ مَعَ اللَّوْنِ، كُلُّ العَنَاصِرْ
وَبَادَتْ مَعَ الأَرْضِ،كُلُّ الحَاجِزْ
وَمَاتَتْ عَلَيْهَا رِيَاحُ التَّآمُرْ
وَسَطْوُ العِصَابَاتِ مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَغَادِرْ...

---

(1) أيقونة: تمثال مريم عليها السلام .

(2) صلاة ورفض – ص 31 .

وغنّتْ مَعَ الفجرِ، أمٌ، وطفلْ
وَسَبّحَ لِلْحُبِّ
غُصْنٌ، وَظِلّْ!
سَأَشْدُو..
وَنَشْدُو جَمِيعًا..
بِلَحْنِ السَّلامْ[1]

وفي المقطع الأخير من القصيدة يعترف بأن الشرق الذي أتى منه هو الذي يؤمن بذلك السلام الذي يعم الكون والإنسان والحياة. لأنه يحمل سلام الإسلام الذي يرفض الرق والعبودية والمآسي والشرور والفوارق. واستطاع أن ينير الأرض، ويبث فجر الحضارة. وبهذا الرصيد الروحي والدعوة الإنسانية، استطاع أن يثور ويفك أغلاله وقيوده، من أجل أن يعود إليه سلامه وأيامه الخضراء :

مِنَ الشَّرْقِ نَارِي.. وَنُورِي..
وَشَمْسِي الَّتِي لاَ تَغِيبْ
وَضَوْئِي الَّذِي بَثَّ فَجْرَ الحَضَارَةِ،
عِنْدَ المَغِيبْ
فَإِنْ دَسَّ لَيْلٌ ضِيائِي،
وَغَامَتْ سَمَائِي
فَقَدْ حَطَّمَ المَارِدُ الحرُّ أَغْلاَلَ أَمْسِهْ
وَأَضْرَمَ فِي كُلِّ قَيْدٍ لَظَاهْ...[2]

ولكي نؤكد أكثر تسامح الشاعر الديني، في هذه القضايا الإنسانية، التي تمس حرية وكرامة وقيمة وحياة الإنسان أيا كان موقعه وأرضه، إشادته بشخصية غاندي[3] في قصيدته "قديس السلام"[4]. هذه الشخصية الهندية التي لم تكن مسلمة ولكنها حملت إنسانية الإسلام.

---

(1) صلاة ورفض - ص 31-33 .

(2) المصدر نفسه-ص 31 .

(3) غاندي: موهانداس كرامشاند (1869-1948م) فيلسوف ومجاهد هندي، ومن أبرز دعاة السلام المشهورين في العالم. اشتهر بلقب "المهاتما" أي النفس السامية، دعا إلى تحرير الهند من الإنجليز بالطرق السلمية بعيدا عن العنف. أدت جهوده إلى استقلال الهند، اغتاله برهمائي متعصب.

(4) قال القصيدة في 30 يناير 1948م عندما اغتالت يد أثيمة قديس السلام وزاهد الهند العظيم غاندي، فبكاه الشاعر بهذه الدمعة غداة إحراق جثمانه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويخلد الشاعر شخصية غاندي،بعد أن امتدت يد الإثم والغدر إليه،وهو خاشع في صلاته بإبراز صورته المضيئة المتمثلة في زهده. هذا الزهد وإن اختلف عن المعنى الإسلامي فهو يتوحد مع تجربة كل زاهد مهما كانت عقيدته، لأنه إخلاص لمبدأ روحي يعلو عن الواقع المادي للإنسان :

زَاهِدٌ عُرْيَانُ، مَسْنُودَةُ اليَدَيْنْ
مِنْ ضَنَى جِسْمٍ عَلَى قِدَّيْسَتَيْنْ
أَنْهَكَتْ مِنْهُ اللَّيَالِي جَانِبَيْنْ
فَسَرَى كَالطَّيْفِ بَيْنَ السَّمْوَكِبِ
أَثَرُ الزُّهْدُ عَلَيْهِ وَالتِقَيْنْ
تَتَلاَشَى فِيهِ أَحْقَابُ السِّنِينْ
رَاكِعُ النَّظْرَةِ، مَوْصُولُ الجَبِينْ
بِغُيُوبٍ سِرُّهَا لَمْ يُكْتَبِ(1)

وينتقل بعدها إلى سماحته ودعوته الروحية الإنسانية للحب والإسلام،مبينا دوره الجهادي الذي اتخذ طابع المقاومة السلمية، وشريعة الصيام من أجل تحرير شعبه الهندي من الشقاء والقيود،التي فرضها الاحتلال الإنجليزي. وكان هذا السلاح الروحي أقوى سلاح حقق أمل الهند في الأمن والسلام:

نَاطِقُ الإِيمَاءِ، رُوحِيُّ الكَلاَمْ
رَفْرَفَ الحُبُّ خُطَاهُ وَالسَّلاَمْ
وَمَضَى وَالدَّهْرُ مِنْهُ فِي زِحَامْ
حَيَّرَتْهُ حِكْمَةُ الشَّيْخِ الصَّبِي...
أَعْزَلُ أَحْرَى بِيُمْنَاهُ السِّلاَحْ
وَرَمَى طَرْفًا عَلَى القَيْدِ، فَطَاحْ
وَغَزَا بِالصَّمْتِ أَهْوَالَ الكِفَاحْ
وَهُوَ لِلأَغْلاَلِ لَمْ يَقْتَرِبِ...
عَلَّمَ الدُّنْيَا بِهَا سِرُّ الجِهَادْ
وَغَدَتْ سِيرَتُهَا لِلشَّعْبِ زَادْ(2)

ويصور الشاعر بكاءه وحزنه على نهاية غاندي الحزينة والمؤلمة.فبعد أن حارب يد العنف والغدر والإثم، مات مغتالا بتلك اليد. وبعد أن جاهد من أجل السلام، رافضا الرق والعبودية في وطنه وفي كل أوطان العالم، ودافع عن كل الشرق الذي يوازيه الغرب بقوته وجبروته وعنفه. فيدعو الشرق للبكاء على هذا الزاهد الحكيم المسالم الذي سيظل رمزا للسلام خالدا في كل زمان ومكان:

---

(1) لابد- ص124-125.

(2) المصدر نفسه- 126 128.

ابْكِ يَا شَرْقُ عَلَى الزَّهْرِ الحَسُورْ
وانْـقُلِ الحِكْمَةَ عَنْهُ لِلدُّهُـــورْ
وَإِذَا الرَّبْعُ عَلَى الأُفْـقِ تَـــدُورْ
قُـلْ لَهَا حُـطِّي صَدَاهُ وَاكْتُـمِي
حَامِلُ الـمِشْـعَلِ، فِي هَوْلِ الظَّلَامْ
دَاعِـيًا فِي كُـلِّ أَرْضٍ بِالسَّـلَامْ
فَاجَـأَتْـهُ غَـدْرَةٌ.. عَارُ الأَنَـامْ
خَـالِـدٌ فِيهَا خُـلُودَ الحِـقَبِ[1]

نستخلص من رؤيته السياسة بعض النقاط التي تحدد أبعادها العامة :

1- لا ننكر أن معظم القصائد السياسية تفجّرت في نفس الشاعر في هذه الفترة الصاخبة من حياة أمته، وتأثرت بصخب تلك الأحداث نفسها << وهذا طبيعي في مرحلة اتسمت بكثير من سمات التوتر والحماسة والانفعال.. ومن هنا كان الشاعر العربي منفعلا في أكثر الأحيان يتأثر قبل أن يؤثر.>>[2]

وهذا ما اتضح في بعض قصائد الشاعر الخطابية بانفعالها واضطرابها في تحليل الواقع السياسي،خاصة في الوقائع والأحداث التي عايشها،ثم تمخضت عنها نتائج غير متوقعة. كما في ثورة مصر والوحدة بين مصر وسوريا، وإن كانت نظرته لمعظم القضايا نابعة من إخلاصه لتصوره الإسلامي حيث امتزج فيها البعد السياسي مع البعد الديني كتوسعه في قضية فلسطين التي خصص لها ديوانين تقريبا، مما دل على عمق شعوره وتأثره بها على أنها قضية دينية قبل أن تكون قضية سياسية، مازالت مستجداتها تفاجئنا يوما بعد يوم.

2- ارتبطت رؤيته السياسية ببعض الدعوات الشائكة والغامضة التي اختلطت مع المنظور الإسلامي.كالوطنية والقومية والإنسانية، ولكنها عند الشاعر لم تتعارض مع رؤيته الإسلامية،وإنما منحتها بعدا أكثر عمقا ورحابة، كعدم تعصبه للإسلام، لمّا عبّر حديثه عن التسامح الديني واحترامه للأديان عند حديثه عن وطنه.الذي اجتمعت فيه رموز الديانتين الإسلامية والمسيحية، كالمآذن والأجراس، والأهلة والصلبان، والمساجد والكنائس. وكذلك عن قضية فلسطين على أنها مهبط الديانات والتقاء الرسل.وعدم تعصبه للعروبة،لما أكد الحكمة الإلهية التي أهّلت الأمة العربية لتكون حاملة لآخر رسالة سماوية، وقائدة لأنقى وأرقى حضارة عرفتها الإنسانية. ولمّا ركز على نجاح الوحدة العربية في ظل المعاني الإسلامية،لا المعاني القومية المتنكرة للرابطة الدينية أكثر من إصراره على الوحدة الإسلامية التي تبقي نظرة إمكانية مستقبلية تحكمها مساحات وتحديات عالمية، وتظل دائرة كبرى

---

(1) لابد - ص131-132.

(2) عمر الدقاق- نقد الشعر القومي- ص220.

تسبقها دوائر صغرى كوحدة الأمة العربية مثلا،دون أن ينسى جهود إقبال من أجل الوحدة الإسلامية.

ولما أثار قضايا الإنسان في كل الأرض وثوراته العارمة من أجل الحق والكرامة في الحياة،كرفضه لمنطق القوة والحرب والتمييز العنصري،وإشادته بجهود غاندي،محاولا أن يجمع بين المنظور الإنساني والإسلامي للسلام.

3- ارتبط البعد السياسي عنده بالبعد الحضاري لما أكد أن أزمة الأمة الإسلامية الحضارية سبقتها أزمة سياسية،مذكرا بمرور التجربة التاريخية الإسلامية بمنعطفات كثيرة،كمنعطف هجمات التتار والصليبيين،ومنعطف سقوط الأندلس، ومنعطف مراحل الاستعمار الحديث الذي انتهى بضياع فلسطين،وأفقدها حصانتها الفكرية والروحية. وداعيا إلى التغيير والنهوض الإيجابي المرتبط بالعودة إلى الأصول الإسلامية والحضارة الأولى قبل المعطيات المدنية المعاصرة التي لا يرفض فيها مالا يتعارض مع شخصيتها وعقيدتها ووجودها الحضاري، لأن البنات الأصيلة للحضارة التي هدمتها،كانت بناء شامخا حوى الشرق الإسلامي،واحتمى به الغرب الذي كان يرسف في ظلامه وجهله.ومُصرًّا على نهوض أمته ووحدتها برفضه لواقع الهزيمة،ودعوته للعودة إلى الإسلام بأصالته ونقائه،وإلى التراث الإسلامي وعراقته، وإنما بمواجهة واقع أمته المليء بالعيوب والعلل بالنقد والتشريح.

4- أمله في النهوض الروحي قبل النهوض المادي، لأن المعطيات الروحية التي تؤمن بها أمته تساهم في توحيد العقل مع الروح من أجل الاستقلال والاستقرار والإبداع،مستمدا رؤيته إلى المستقبل القريب أو البعيد لهذه الأمة من تنبوات تتجاوز الماضي والحاضر، ولا يحيط بها إلا علم الله المطلق الذي يسيّر السنن الكونية والتاريخية،﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1] واهتمامه ببعض الشخصيات الإنسانية،والإشادة بدورها الفعال في الحياة بمختلف مجالاتها وجهودها بخاصة في المجال الإسلامي الدعوي والحضاري والإنساني في القديم والحديث. مؤكدا أن الإنسان خليفة الله في الأرض، وصاحب دور أساسي في تحولات التاريخ والحضارة وإحلاء الروح الإلهية في أصل الكون والحياة.

---

(1) آل عمران- 140 .

تـوطـئـــة:

ظهر تعسف تقسيم العمل الفني إلى شكل ومضمون،لماله من دور غير محدود في تشويش التصور وتعميق مظاهر الاختلاف. ولكن هذا التقسيم << مشروع مرحلي وبخاصة عند الناقد المبتدئ الذي يجب أن ينتهي إلى نتائج محددة من محاولته النقدية، ولكن العمل الفني يشكل متضمنا معناه في حركة واحدة يجب أن يحاول الناقد اكتشاف أسراره الجمالية دون أن يمزقه إلى لغة ووزن...من الواجب أن نتخلى عن التمزيق دون أن نتخلى عن القول بأن هناك شكلا ومضمونا أو لنقل: قضية أوموقفا من القضية، ثم أسلوبا اتخذه الكاتب رغبة في توصيلها، ويمكن اكتشاف قيمة العمل الفني من خلال استخلاص - لاتمزيق- هذين العنصرين.>>(1)

وما يهمنا أن الشاعر الأصيل يصوغ قوالبه الفنية بنفس البراعة التي يصوغ بها قضاياه التي يتحدث عنها. فالشكل << يحتل وجودا مساويا لوجود المضمون في العمل الأدبي، وأن المضمون يحتل وجودا مساويا لوجود الشكل وكلاهما - أي الشكل والمضمون- وجود واحد لا يمكن وجود الأول في غياب الثاني، ولاوجود الثاني في غياب الأول.>>(2).

ولهذا فمواجهة الشكل مواجهة ضرورية، تعكس حقيقة النص الإبداعي المتكاملة والشاملة، وتعكس جودته أو رداءته، وصعود مبدعه،أو انهياره في التعبير عن مضامينه. فالشكل << ليس ما يمكن أن نتخيله بالرؤية البصرية للقصيدة، وكل قصيدة لها تركيبها ولغتها وصورها، فالشكل غير مفصول عن القصيدة.>>(3)

ولهذا فعملية اتحاد الشعور والتعبير في العمل الأدبي ضرورة. وكما اصطلح عليهما سيد قطب بالقيم الشعورية والقيم التعبيرية، ورأى بأنهما << وحدة لا انفصام لها في العمل الأدبي. وليست الصورة التعبيرية إلا ثمرة للانفعال بالتجربة الشعورية، وليست القيمة الشعورية إلا ماستطاعت الألفاظ أن تصوره،وأن تنقله إلى مشاعر الآخرين.>>(4)

ويبقى العمل الأدبي إدراكا جماليا للواقع وفق رؤية المبدع الخاصة،وهذه الرؤية لا تقلل من قيمة التشكيل على حساب الموقف أو المضمون،لأن النقلة الحقيقية في الشعر نقلة في التشكيل << فالفن هو تشكيل، وهو إعطاء الأشياء شكلا، وقوانين الشكل،وأصوله الاصطلاحية. إنما هو تجسيد لسيطرة الإنسان على المادة، وهي وسيلة للمحافظة على الخبرة الشعرية.ونقلها للأجيال القادمة.>>(5)

بالعودة إلى ما عرضناه آنفا عن ملامح الرؤية الشعرية من المنظور النقدي والإسلامي، وملامح رؤية الشاعر محمود حسن إسماعيل من خلال آرائه وآراء بعض النقاد والدارسين،وإلى جانب استقراء مضامين رؤاه ذات

---

(1) محمد حسن عبد الله-مقدمة في النقد الأدبي-دار البحوث العلمية-الكويت-ط أولى- 1975م-1395هـ-ص108.

(2) عبد العزيز المقالح- الشعر بين الرؤيا والتشكيل- ص193.

(3) المرجع نفسه- ص207.

(4) النقد الأدبي -أصوله ومناهجه- دار الفكر العربي- ط 3- ص1959-ص19.

(5) أرنست فيشر- ضرورة الفن- ترجمة- أسعد حليم- الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر- 1971م-ص201.

الـفـصـل الـسادس
الـرؤيـة الـفنـيـة

- تـوطـئـة.

1- المبحث الأول : المـعجم الشعري.

2- المبحث الثاني : الصورة الشعرية.

3- المبحث الثالث: الموسيقا الشعرية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأبعاد العقدية والإنسانية والجمالية. يمكننا أن نستخلص المصادر التي استلهم منها الأطر والأدوات والقوالب التي شكلت رؤيته الفنية وهي:

1- المصدر الديني (الإسلامي): اتضح الأثر الإسلامي والقرآني، بخاصة في معاني وأفكار رؤى الشاعر، وفي النواحي الشكلية لشعره، كاللغة والصورة والموسيقى، حيث استمد من الألفاظ والصور والإيقاعات القرآنية التي ملأت عليه حسه ونفسه،ألفاظه وصوره وإيقاعه، والتي تتداعى عليه في خضم حديثه عن الإسلام أو الوطن أو المجتمع أو الطبيعة. وقد أصبح أمر الإقتباس منه والتأثر به مألوفا وإراديا بل مقدسا. وذلك من خلال توظيفه الكثيف للألفاظ الدينية الإسلامية والقرآنية المحضة،أي الموجودة كما هي بنفس دلالاتها اللغوية في القرآن الكريم، وحتى الألفاظ المسيحية- .وكذلك صوره التي خلع عليها الروح العام للدين الإسلامي من خلال هبوط المعاني الدينية على الأشياء المادية الحسية أو المعنوية غير المحسوسة،أو التدرج من خلال تلك الأشياء إلى المعاني الدينية التجريدية، المشهودة والغيبية، والاستفادة من الخلفية القرآنية بمصطلحاتها ومسمياتها وأحداثها وقصصها ورموزها.

أما من ناحية الموسيقا والإيقاع. فقد استمد من ظاهرتي التكرار والفواصل الكثير من التلوينات الدلالية والإيقاعية.

2- المصدر التراثي : ظهرت الخلفية التراثية للشاعر من خلال شعره الذي عاش به في الماضي والحاضر باستلهام مواقفه الحضارية المشرقة على مدى العصور مضمونا وشكلا،وامتلاكه المادة التراثية المراد أخذها وتمثلها،وفهمه الصحيح والعميق لمدى أثرها وإثرائها للنص الشعري. وهذه المادة المتمثلة في اللغة بالرجوع بها إلى معجمها اللغوي والأدبي الأصيل الذي عرف به الشاعر العربي القديم من قوة ورصانة وجزالة، أو اللغة التي وظفها المتنبي وأبو العلاء المعري وأبو تمام وغيرهم. وفي التصوير بالاعتماد على التنوع الاستعاري والتشبيهي التقليدي بكل وجوهه وأدواته، وعلى النوع الكنائي والرمزي بتوظيف الرموز التاريخية من أسماء وأحداث ومواقع ذات الدلالات التاريخية والدينية والحضارية الحية التي تشمل التاريخ العربي والإسلامي. وفي الموسيقا باعتناقه آفاق القصيدة العربية العمودية ذات الوزن والقافية الموجودة، وذات النغم الغنائي والخطابي، وكذلك بعض الظواهر الموسيقية التراثية والتي تلاءمت مع روح التجديد العروضي في العصر الحاضر كفن التوشيح الذي ازدهر في التراث الأندلسي.

3- المصدر الكوني (الطبيعي): استقر في وعي الشاعر الظاهري والباطني، ودخل في كل عناصر تجاربه، حاملا كل أحاسيسه ورؤاه، متفاعلا في قصائده متخذا في تعامله معه أشكالا متعددة، فهو مصدر لغوي شمل معجما من الألفاظ الدالة على تنوعه واتساعه ودقته، بكل مظاهره وظواهره وكائناته الجامدة والحية. وكذلك مصدر خيالي تصويري وذلك بإحالة مظاهر الطبيعة إلى الخصائص الإنسانية، والهروب إليه كملاذ في البحث عن عالم جديد يعادل القيم المثالية والجمالية،واعتباره معادلا موضوعيا رمزيا لتجسيد القضايا الإنسانية المأساوية والمفرحة الموجودة في الواقع، محاولة منه لصنع عالم آخر من هذا المصدر المتفاعل و الحي.

4- المصدر الغربي (التجديدي): على الرغم من ارتباط الشاعر بالحس الديني والتراثي لم تكن ثقافته الشعرية ثقافة تقليدية تستوحي نمطها من الأدب العربي القديم. وإنما لاءمت روح العصر وماساده من تطورات فنية من حيث التشكيل اللغوي والتصويري والموسيقي الذي ارتبط بالمعطيات الفنية الغربية التي تسربت عن طريق التيارات الفكرية والأدبية والنقدية، بفعل الاحتكاك والتواصل. إلا أن تعامل الشاعر مع هذه المعطيات كان تعاملاً حذرا ويقظا، حيث حقق مفهوم الأصالة والمعاصرة بالاستفادة المحمودة التي لا تتنافى مع روح الواقع وما يحمل من مميزات فكرية وفنية، وذلك من خلال المرور عبر مرحلة المزواجة التي تحاول جمع المرحلة التقليدية مع المرحلة التحديدية.وإن أكدنا عدم انتمائه الشعري إلى أي مدرسة فنية، فهذا لا يعني عدم تأثره المطلق بالتيارات الأدبية التي أفرزت تقنيات جديدة تلاءمت مع الشعر العربي المعاصر. وعلى الرغم من عدم تمذهبه الشعري، فإن صوره الشعرية امتثلت كثيرا للعناصر الفنية للرومنسيين والرمزيين، لكنها اتخذت ثوبا عربيا أصيلا لا غربيا.

كما امتثلت الموسيقا أيضا لتيار الشعر الجديد أو الحر، بنظمه عدة قصائد على نمط الشعر المرسل دون التمرد على نظام التفاعيل الذي لايفقد القصيدة جوها الإيقاعي. وسنوضح هذه المصادر من خلال أبرز الظواهر في شعره وهي اللغة والصورة والموسيقا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول

المعجم الشعري

1- المعجم التراثي.

2- المعجم الديني.

3- المعجم الكوني.

4- الظواهر الفنية لمعجمه الشعري.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ظهر في النقد الحديث ما يسمى بالمعجم الشعري ولم يكن المقصود منه هو جمع الثروة اللغوية لحفظ الألفاظ بمعانيها المعجمية. فاللفظ في المعجم لفظ ميت ولا تدبّ فيه الحياة إلا إذا انتزع من موضعه المعجمي، ووضع في معجم من النثر أوالشعر. فتظهر خصائصه بمواطن استعماله ومن هنا تحددت دلالة المعجم الشعري، وأصبح هو ذلك الرصيد الضخم من الألفاظ التي يستخدمها الشعراء كل غرضه ومقصده، وإن كان على وجه العموم يتصل بلغة العصور جميعا لأن << التعبير في أبسط صورة -أي الألفاظ- هو أساس كل قصيدة، وبالرغم من أن الشاعر قد يتبع العرف السائد في عصره إلا أنه ينمي أسلوبه الخاص به تبعا لذوقه ومزاجه الخاص.>>(1)

وإن أصبحت نظرية المعجم الفني من مستحدثات النقد الأدبي، والشيء الذي فات القدامى، ولم تتردد أصداء هذا المصطلح عندهم.فإنه مازال حسب اطلاع البعض لم يحقق التوازن بين النظر والتطبيق. ومازال محدودا غير شامل في الدراسات النقدية، وكذلك غامضا غير دقيق في مجال البحث، لكن تم الاتفاق على أنه يندرج في باب النقد من حيث هو ألفاظ منثورة هنا وهناك. ويقوم على اصطناع الملاحظة الدقيقة،واستخدام الإحصاء للإلمام بالظواهر المهيمنة على نسج الخطاب،أي الاحتكام إلى النص دون اللجوء إلى عوامل خارجية بعيدة(2). ويتحدد بذلك دور هذا المعجم الفني على أنه << هو التميز الذي يميز النص الإبداعي بمجموعة من الخصائص الفنية التي يتفرد بها،أو يجب أن يتفرد بها على الأقل جدلا كل مبدع في أي لغة،وفي أي أدب.>>(3) حيث يستطيع الناقد أن يتتبع دور اللفظ في الإبانة عن معاني أي شاعر، ويتبين خصائصه اللغوية، كأن يعتمد على لغة تقليدية تجد أصولها ومادتها في التراث الأدبي القديم، أو يلتزم اللفظ العربي الأصيل، الذي لايستنكر للغريب،أو قل إن غرابته تأتي من أنه يرجع إلى غير عصرنا الحاضر، أو يتجه منحى السهولة والشفافية مثلا،كمظهر من مظاهر التجديد الشعري الذي يصبغها بالغموض والغرابة والابتعاد عن اللغة المألوفة. وقد يغرق في استعمال الغامض والغريب في بناء شعره حتى تحيله إلى طلاسم ورموز معقدة . أويفرط في استعمال ألفاظ بعيدة عن دلالتها الحقيقية ومقاييس فصاحتها بسقوطه في الشائع والعامي والمبتذل الذي يفرغ شعره من كل كثافة وعمق وإيحاء .

ويستطيع الناقد أن يحدد إتجاه الشاعر الفني بنزوعه نحو القديم أوالجديد، أومزاوجته بين الأصالة والمعاصرة ، أوتفرده بلغة معينة ، وهذا الاتجاه الفني يتوازى مع الاتجاه الفكري أوالمضموني للشاعر.كأن تتجلى ألفاظ تحدد اتجاهه العقدي، وكأن ينزع الشاعر منزعا دينيا ظاهريا في دواوينه ويتضح هذا النزوع في ألفاظه المتناثرة في شعره الديني،أو حتى الكوني والسياسي والاجتماعي.

واستطاع بعض النقاد الاهتداء إلى جملة من الملاحظات النقدية من خلال إبداعات مبدعين ينتمون إلى جيل واحد أو أجيال مختلفة، ولكن يجمعهم أمر فني واحد. كمطالع القصيدة العربية التي اتخذت لها معجما فنيا

---

(1) إليزابيث درو- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه- ص87.

(2) عبد المالك مرتاض- بنية الخطاب الشعري- دار الحداثة- بيروت- لبنان-ط أول- 1986م-ص244-245 .

(3) المرجع نفسه - ص246.

واحدا،ظل سائدا قرونا مدة طويلة، عند أصحاب المعلقات مثلا،الذين أجمعوا على تقديمهم والاعتراف بنبوغهم الشعري،على الرغم من أنهم يرددون ألفاظ بأعيانها[1]. وتتبع بعضهم ملامح المعجم الشعري منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث، وتفرّع من هذا الأخير معاجم شعرية خاصة بالشعراء المحافظين والمجددين بل لجأوا إلى تفريعات أخرى لمعجم شعري خاص بجماعة الديوان وآخر بجماعة أبولو، وآخر بجماعة المهجر الرابطة القلمية والأندلسية. [2]

ونركز الحديث على جماعة أبولو التي كونت رصيدا ضخما من الألفاظ الشعرية ونادت بالتحليق الشعري بعدم الوقوف بالشعر على حد المعاني السطحية،أو الطلاء اللامع للأشياء دون التعمق في أجوائها الفسيحة والبحث الدائب في أغوارها البعيدة وقد تجسدت تلك الدعوة في نظرية كاملة هي نظرية التحليق الشعري التي تستمد ألفاظها من الأضواء والأشعة والضلال والشذى والعطور والأرواح والأشباح والأطياف...عمل على تنمية ألفاظ المعجم الشعري القديم بالتجديد، لكنه في ذات الحين أهمل شعراء هذه الجماعة المتنبية لهذه النظرية كثيرا من الألفاظ العربية الأصيلة، وأدخلوا كلمات أخرى جديدة عليه، حتى يكون معجما عصريا تسري فيه الروح المصرية الخفيفة، وروح الجدة والطرافة باستغلال الألفاظ الرائجة في الوسط الشعبي والألفاظ الأجنبية، بحجة أن ذلك يثري لغتنا ويزيد من رصيدها اللغوي،ويشق لنفسها طريقا واسعا بين اللغات العالمية[3].

على الرغم من أن سعد نشوان أكد على أنه تم اتفاق في الألفاظ الشعرية الذي صدر عنه شعراء أبولو، أصبح رافدا قويا من أهم الروافد التي ينبغي الإستعانة بها عند مناقشة حركة أبولو. إلا أنه لم يوافق مطلقا على استخدام الكلمات العصرية والكلمات الرمزية ذات المنحنى الغامض والإتجاه المبهم، ولا على الكلمات العامية أو السوقية، التي لم يهذبها الذوق، ولم تصقلها المرانة والدربة. لأن الشعر -كما يقول- قمة سامقة في دنيا الفن، ومحرابا مقدسا في حياة الأمم، ومن الوفاء للشعر أن نبعده عن هذه المهاترات اللفظية،وعن التدلّي إلى تلك الألفاظ السوقية التي لا تصلح للتخاطب بين عامة الناس في الطرقات والأسواق[4].

وإن صنف الشاعر محمود حسن إسماعيل بدواوينه كلّها مع شعراء هذه الجماعة ونظريتها. لأن دواوينه تضج برصيد ضخم من تلك الألفاظ ذات الطاقات الغنية بالإيماءات والرموز والأنغام المحلقة في عالم الخيال[5]. فإننا نستطيع بعد استقرائنا لدواوينه أن نخرجه من هذا التصنيف الذي أقيم على أحكام عامة غير دقيقة، لأنه انتهج لغة شعرية متفردة جعلت معجمه الشعري يتخذ طابعا مميزا عنهم وإن لم ننكر أنه أخذ من

---

(1) عبد المالك مرتاض- بنية الخطاب الشعري- ص246-251.

(2) انظر- محمد سعد فشوان- مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث- ص112 ومابعدها.

(3) المرجع نفسه- ص195- 196.

(4) المرجع نفسه- ص196.

(5) المرجع نفسه - ص176.

تلك النظرية تلك الألفاظ الغنية والموحية والمحلقة، فلم نعثر له على ذلك المعجم العصري الذي يزخر بالكلمات العامية الشعبية، ولا الكلمات الأجنبية الدخيلة،بل نلحظ اعتماده في معجمه الشعري على السليقة اللغوية الأولى، وعلى ثقافته الواسعة في التراث اللغوي. وعلى حسه الإسلامي الذي جعل معجمه يشمل كثيرا من الألفاظ الدينية حتى القرآنية. ويؤكد معجمه الشعري على أن تجربته << تجربة عنيفة جادة يجيش بها وجدانه في معاناة أليمة،وينطلق من خلالها إلى مشاعر متباينة نحو الناس والطبيعة، والحياة والكون، وعبارته شديدة التوتر، جهيرة الإيقاع في أغلب الأحيان، ومجازاته تنطوي على كثير من التجسيم الجريء، وأسلوبه واضح الرصانة، تشيع فيه روح التراث.>>(1)

ويخضع اختيار اللفظ إذن عند الشاعر عدة تأثيرات متداخلة نحصرها فيما يلي:

1- ثقافته : تمثلت في امتلاكه لناصية اللغة العربية وجعلها أداة طيّعة حتى أصبحت جزءا من وجدانه ومن طاقته الوحشية في الصياغة والتعبير، بل أضاف إلى اللغة العربية قدرة تعبيرة جديدة تضاف إلى قدراتها المعترف بها، كما يجعلنا نسجل له تلك القدرة على تطويع اللغة، وأن تجديده فيها لم يكن قصرا على الألفاظ أو بناء الصور وصياغة الألحان. وقد كانت ثقافة الشاعر اللغوية ذات أثر واضح في توجيه أسلوبه هذه الوجهة، فهو لم يجد مشقة في مواجهة التجربة والحياة من خلال اللغة، بل أنه لم يعبر عن تجاربه إلا بتلك الأداة التي ثقفها وفهمها حق الثقافة والفهم، فلم نسمع عنه قط اتهاما للغة بالقصور،أو شكوى من عدم استجابتها.>>(2) وبذلك سجل قدرة فائقة على تطويع اللغة الموروثة للأغراض الجديدة ولغة أخرى معنوية يجللها بعض الغموض وتصاحبها محاولة الهروب من اللغة الواقعية إلى لغة موغلة في الخيال،ارتبط بها منذ بدايات حياته الشعرية،باحتكاكه بحركة الشعر الحديث،بخاصة جماعة أبولو صاحبة نظرية التحليق الشعري.

2- تدينه : إحساس الشاعر بالوازع الديني من جهة، ومعايشته للأسلوب القرآني قراءة وحفظا من ذلك جعله يسمو بالألفاظ إلى جوّها الروحي الآخاذ من خلال أنغام صوفية شعرية هامسة، تحاول أن تهدئ من صراع الإنسان مع الكون والحياة، الذي يؤرقه، ومن صدماته ومشكلاته في العصر الحديث.

3- إحساسه : إن إحساسه المرهف وسرعة تأثره لأبسط الأشياء، جعله يختار من الألفاظ التي تلائم إحساسه بالواقع، فيحتضن ألفاظ الغناء والوتر، وما يصاحب ذلك من جمال وبعث للحياة والحرية والإحياء، أو يختار من الألفاظ ما يشير إلى الحزن والشفقة والبكاء لما يلقاه من شر وظلم وشقاء، أو ألفاظ الغضب والثار والإصرار والقوة.

4- بيئته : إن البيئة الاجتماعية والسياسية والطبيعية، تجعله بأي شكل يستمد منها ألفاظه،وبخاصة البيئة الكونية التي تتصل بمعاني الطبيعة التي تمثل عشق الجمال والانطلاق، والتطلع والتأمل، الذي أشاعت في نفسه بلاعج السرور والإيمان. وجعلته يركن إليها ويقيم معها صداقة حميمة أو البيئة الحياتية،ومالها من خلفيات وعادات وآثار.

---

(1) عبد القدر القط- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر- ص384 .

(2) محمد علي هدية- شعر محمود حسن إسماعيل- دراسة فنية- ص257 .

واستخلصنا من هذه المؤثرات المتداخلة في أعماق الشاعر معاجم شعرية رئيسة،وسمت شعره بألفاظ متنامية ومتكاثرة،ومدته بسمات مشعة وأنساق جديدة لها إمكانات التأثير الفني:هي المعجم التراثي، المعجم الديني، المعجم الكوني.

1- المعجم التراثي:

يكشف البحث عن معجم الشاعر اللغوي منذ مراحله الشعرية الأولى، تزاوج اللفظ القديم باللفظ الجديد على نحو قلّ أن يوجد في شعر غيره من معاصريه. فحرص بذلك على صفاء لغته من العجمة وترفع بها عن مستوى التعبير العامي، وحفل بلغة التراث العربي بعامة،والتراث الشعري بخاصة.فما فتئ ينقب في التراث عن اللفظة الشعرية التي يكمن فيها معنى خاص أوصورة مميزة. وأكسبه ذلك خبرة في حقل اللغة الشعرية، وطمح بعدها إلى لغة ذات طابع خاص، وملائم لما يريد، بحيث ترفده، وتعضد فكره ووجدانه،وتمده بالمدد من أجل التعبير الأمثل عن رؤاه.

ولعل توظيف الشاعر للغة الموروثة كان من تأثير التراث الشعري عليه نتيجة اطلاعه الواسع عليه، ودلّ ذلك على رغبته في التحديد بإدخال ذلك التراث الذي يجعل اللغة القديمة ممكنة. فقد تغيم الرؤية في ذهنه ولا يتمثل موضوعه تمثلا كافيا، فيلجأ إليها بغية توضيح الحدث المستجد فكانت لتلك اللغة خصوصية أصيلة،وقع الشاعر في جاذبيتهما وتقليدها فعمل على إحيائها بالاستعمال وإغنائها بروافد الفكر الحديث. لأن اللغة -كما يقول"إيليوت"- كالتربة، فإنها مهما تبلغ بها الخصوبة عرضة للتشقق وخصوبتها مهددة دائما باستغلال يمتص حيوتها فهي تحتاج إلى إنعاش متواصل حتى لا تصبح مجدبة.>>(1)

على الرغم من التقليد والمحاكاة التي كانت نتيجة انفعال الشاعر بتراث لغته، فإنه ظل محتفظا لعقله بالاستقلال، ولشخصيته بالسيطرة على أداته اللغوية، بحيث يربط صوره بعصرها ويبثها شكلا ومضمونا.(2)

ومعرفته بالتراث لم تكن على قدر ضئيل، بل معرفته العميقة منحته قدرة على استخدام ألفاظه في بناء عباراته وصوره بوعي لغوي وإيقاعي وفني ظاهر، حيث ظهر توازن واضح في أغلب شعره بين روح التراث ومقتضيات الحداثة، فنقرأ أشعاره فتلمس فيها هذه المزاوجة الناجحة بين القديم والجديد، والاستخدام الموفق للألفاظ في عبارات وصور شعرية(3).

والمعجم التراثي للشاعر مكدس بكم هائل من الألفاظ التراثية (4)التي استوحاها من التراث العربي والإسلامي ووظفها في إطارها الحضاري العام. ولا شك أن مجرد استحضارها يثير طاقاتها الإيحائية والوجدانية التي دلت << على امتلاك هذه اللغة والقدرة على تصريفها وتطويعها للمعاني الشعرية والصور البيانية.الشاعر

---

(1) إليزابيث درو- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه- ص84.

(2) محمد علي هدية- شعر محمود حسن إسماعيل دراسة فنية- ص154.

(3) عبد القادر القط- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر-ص357.

(4) وقد سبق أن تعرضت لشرح كثير من الألفاظ التراثية في هوامش الفصول السابقة.

على وعي كامل بلغته، وله منها رصيد يدل على الغنى والثراء. فهو لا يعيش على هامش اللغة، ولا يأخذ منها أطرافها، وإنما هو يغوص في أعماقها. وهو في غوصه لا يأتي بالموغل في الغرابة،ولا بالثقيل على اللسان،ولا بالذي تزور منه الآذان، وإنما بالواضح البليغ الرقيق، الذي يشيع نغما عذبا شجيا يذكرنا بأنغام البحتري في ألفاظه الحسان.>>(1) كما دلت على تمثل التراث وهضمه بالعودة بها إلى أصولها العربية الأولى بحيث تجيء متمكنة في أبياته غير نابئة عن بناء القصيدة،حتى بإدخاله عليها بعض التنويعات،رغبة منه في تجديد حيوية اللغة القديمة والتأكيد على غناها وثراها وقوتها وبخاصة في دواوينه الأولى،"أغاني الكوخ، هكذا أغني، أين المفر، نار وأصفاد".وتقسيم معجمه الشعري العام خضع لمعايير وقيم لغوية كان أدعى إلى استخلاصها، استخدام الإحصاء كوسيلة ضرورية للدراسة. وكلما كان هذا الإحصاء أشمل، كانت النتائج أصدق لمعرفة أنواع الكلمات التي يختارها من مخزونه الشعري. ولكن الإحصاء هنا لا يمكن أن يشمل كل دواوينه وقصائده لطبيعة البحث التي تفرض علينا أخذ نماذج فقط الموضحة في الجدول التالي:

الديوان	القصيدة	الألفاظ
أغاني الكوخ	في المحراب	حامها- صهباتها- طفاحة- الأوصاب- الآراب العنجاب- المعشاب- الممرعات- الأحداب- معجمات- الأوشاب.
	أحزان الغروب	النسيار- بلاعج- الأهاصيب- التعاشيب النز- مربوب- وسن- الحداء- محاضر-تغيبت غريب- الجادب- المحاريب- السواجي-لغبة الحوّت- الميازيب- الرعاديب.
هكذا أغني	دنيا أدمع ومآتم	هضيم- الخواشي- آلاقة- الهوائم- تصاوحت سمائم- غيسانة- وهنانة- النواسم-السلادم- فيفاء- الخوافي-القوادم- السوافي- جاحم- الحنيات- السواجم- الخوائم.
	على مذبح الحرية	حدث- سوابح- وشائج- أفواف- غلائل- أسداف- ضفوته- متوع- يرتاع- نضا- شمات- رسيس- صمات- أعواد زان- الهام نخضل- جاسوا-الشبمات-السابري-الأسنة.

(1) د/طه مصطفى أبو كريشة- ديوان هكذا أغني- لجنة الأزهر- ص1894.

الديوان	القصيدة	الألفاظ
	ثورة الإسلام في بدر	سيكاب -دمنة- مربع- عبقر- الزعرع القصاف- فجاج- العجاج- هبوة- العضمر-ينزى- البيد- تعوي- الجريد- المحتى- أزرهت - أضاة- معمر- طيشان- وهنان- عريش-أجناد- خميس- المحبر-انتضى-اسلات منحر- المذاكي- الذواكي- الرمضاء- القنا- سادر- تعايا- القابر- الحفائر- حواسر- سيكبه - سجوة- مواثر- تسيار- تنزى- صافرات-الهواجر.
	راهب النخيل	محاذر- المخاضر- الفيء-جوسة- الباطور- ريان-زفراف- نحت- دوالي- الفيح- ساجع-قابر-تحاجر- زوافر-الجريد- النعاب- السقط- الحجا رقش- الزعزع- عبقر- صافر- حواشر- المعابر- السافيات- الدن- المراثر- صابرية- تقدحي- الذولاب- السها- المحامر- ازورت- وشائع-آباد- ضبة.
نار وأصفاد	الغصن اليتيم	زفت- ترنج- الأجام- سجواء- السغب- مترعة- جاس- الوصب- نزق- يحاني -السيف- البيد- صولة- ضافية-
	جنازة الوثنية	صولجي- السافيالقديم- حداة- الجمال- مرابعها- يرزم- الأطم-السهوب- الرمح- يوصوص-السائمات- الرخم-ريعت- الفلا- القفار- المهارج.
	عدو الاستعباد	زمت- فاغرة- سهته- يزن- لغط- جلجلة- الطبا- الصهيل- الجيل- البيارق- السيف- وهوهة-ترزيحعتل- الهام- أناخ- القواضب- البيد- قافية-القصب - الخصب.
	طير من الشرق	سابلة- فاحتة- فاغية- صادية- مقعية- سباسبها-حاد مصعرات- كبكب- السافيات- جمجم- الراسفات-بيارق.

2- المعجم الديني :

من خلال تلك المؤثرات التي ذكرناها أيضا، من الممكن رصد الإحساس الديني في لغته، ومحاولة الاقتراب من مصدر هذا الإحساس في نفسه وتحليل مكوناته الأساسية، وأبررها تأثره المنحوظ بالدين الإسلامي والأجواء

والآفاق التي يعيشها الإنسان المؤمن في كنف شعائره وشرائعه التي يشتق منها تجليات العبادة، ولحظات الحياة بمعناها الإسلامي.إلا أننا ينبغي أن نعرض سؤالا لبعض النقاد الدارسين لشعر محمود حسن إسماعيل. وهو هل تأثر بالمعجم الصوفي، أم أنه ظل أسير المعطيات الدينية الأولى التي استقاها من الدين الإسلامي ؟

نجيبه أن الشاعر لم يتأثر بالمعجم الصوفي الوارد في التراث الإسلامي وإنما شعره لا يخلو من بعض الألفاظ الصوفية الواردة في ديوان "أين المفر" ، "قاب قوسين"، "موسيقا من السر"،مثل الكأس، الخمر، السكر، النشور، العشق، الوجد، الحب، الهوى، الحجب، الرجاء، التجلي، العرش[1]...)والتي لم تطغ على معجمه الديني، ولم يوظفها كتوظيف الصوفيين لها في أغلب الأحوال.

لكن إذا أخذنا دلالة الدين بوجهه العام،لا الدين الإسلامي فقط، عثرنا على توظيف الشاعر للألفاظ اللصيقة بالدين المسيحي المرتبطة بالطقوس والكنائس والنواقيس والديرة والرهبان.. فإن ذلك التوظيف ليس من باب الإيمان العقدي،وإنما من باب الجو الروحي الذي تحققه تلك الألفاظ عند تشكيل صوره. فهناك من رأى بأن استعماله للألفاظ المسيحية يعود لا إلى جانب من عقيدته،بل من مخزون نشأته النحيلة التي تكثر فيها المعالم المسيحية، ففيها شارع رئيسي اسمه شارع الراهب، وبجوار بيته هناك كنيسة كان يسمع أجراسها ويرى عندها بعض رجال ورهبان الدين المسيحي. فكانت له ألفاظ وصور مستوحاة من جوّ الكنائس والأديرة[2].

وإذا تتبعنا هذه الألفاظ المسيحية، لاتتعدى بعده إحصائها في شعره مايلي: (الدير- الأديرة- الراهب- الرهبان- الكنائس- الأجراس- الأيقونة- الصليب- صلاة الأحد- عيسى- مريم- الإنجيل...). وذلك من خلال بعض القصائد راهبة الضحى[3]، سنبلة تغني[4]، راهب الغرب[5]، راهب النخيل[6]، أنت دير الهوى وشعري صلاة[7]، اهواك يا وطني[8]، محمد لاقى المسيح[9]، السلام الذي أعرف[10].

---

(1) انظر-د/ عبد المنعم الحفني- معجم مصطلحات الصوفية- دار السيرة- بيروت-ط 2-(1407هـ- 1987م) .

(2) عباس خضر- هؤلاء عرفتهم محمود حسن إسماعيل- مجلة الثقافة المصرية- ص67.

(3) انظر- أغاني الكوخ-ص211 .

(4) انظر- المصدر نفسه-ص 89 .

(5) انظر- هكذا أغني- ص99 .

(6) انظر-المصدر نفسه-ص232 .

(7) المصدر نفسه-ص232 .

(8) نهر الحقيقة- ص165.

(9) التائهون-ص21 .

(10) صلاة ورفض-ص15 .

أما الألفاظ ذات الطابع الديني الإسلامي العام، فيمكننا التمثيل لبعضها من خلال نماذج من قصائد متنوعة المواضيع والأغراض، متفرقة في بعض دواوينه. ولا نركز على المواضيع ذات الطابع الديني، كما في ديوان "صوت من الله"، الحافل بالألفاظ الدينية من أوله إلى آخره.

الديوان	القصيدة	الألفاظ
أغاني الكوخ	القرية الهاجعة تحت ضوء القمر	الرغيد- سندس- الجنان- النمير- عسجد- زبرجد- النمير- نبراس- سجود- خشوع.
	راهبة الضحى	راهبة-تصلي-تركع-تسجد-تسبح-روح -جنة- طهر-عابدة-تسابيح-الهدى- صلاة.
	في المحراب	محراب-الطهر- سجدت- الأملاك- الأرباب-متصوف- متعبد- داود- الآي-روح.
هكذا أغني	وطن الفأس	ساجدة- صلاته-كوثر-سلسل-ناسك-دعواته-جلال-الرشد- الهدى-المعجزات.
	على مذبح الحرية	الأرواح-الصلوات-ملائك-الرحمات-متصوف-ورع- يطوف-أقدس-خاشعة-عرفات-الخلد-الإيمان-الثورة- الفردوس-النبي-مطهر-مكة- وحي-آيات-النبعث- يسجد-يرتل-السجدات-جنة-ذاكرة- نسك-صلاة- آية-الله-صلاة-خلود-توبة-رحمة- خشوع- تضرع-دير-مريع.
نار وأصفاد	غدو الاستعباد	الوحي-ضارعة-يستغفر-كبر-ضياء الله-الإيمان-الصلاة- تسبيحها-تؤذن-تكبر-الله أكبر- صيب الله.
	طير الشرق	الخلد-صوامع مؤمنات-نور-الحق-مئذنة-تكبر-الصلاة- طريق الله- تسبح-ساجدة-الملائكة-هداة- البيت العتيق- مطهرات- رحمة-القلوب- المؤمنات- هاديات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الديوان	القصيدة	الألفاظ
قاب قوسين	معجزة على النهر	تكبر- تقديسا- المعابد-إيمان-الخلد-سجدته- إجلالا-معبد آينه-ألائي- الله أرسلني- عناية الله- ضارعة- سبحان رحمته-زكاة.
	النفس والخطيئة	التشهد- النور-التعبد-رب-توبتي-أدعو الله- الروح- الإيمان- المعبد- تائب لله- الناسك- النسك- الصلاة- التهجد-زهد- زهد-تقى-تعبد- دعائه-رباه-التوب-الغفران.
	شاطئ التوبة	تبتل-هدى-صلاة-المتاب-دعاء-ضارع-رب- تقى-عبد-رباه-عفوك- رحماك-غفرت.
صلاة ورفض	الآذان الذبيح	النبي-النور-إسراء-القداسة-أول القبلتين-رب السموات-سجدتين-معراج-الخلد-جنتين- الملائك-التسابيح-صلاة-عرش الإله-الروح- -الآذان-الصفا-المروة-تكبيرتين.
	وحقت أصلي	أصلي-الله-التجلي-كبرت-بكبر-أولة القبلتين- قدسا-طهرا-وحيا-يمسح-آينين-الآذان-تكبيرتان رحمة الله-ركعتان-سجدتان-المعارج-العرش- تسبيحتان-الله سلم-جبريل-قاب قوسين-محمد- الأنبياء-الهدى-بيت الإله-المصلى-خشوع-صفّى-صابر الحق-صوتا من الله-مآذن-محراب- القدس-المسجد.
	السلام الذي أعرف	نبيا-المعجزات-مرسلا-تجيي-كتاب-آياته-البينات-صوات المنابر-صلاة-المعابد-القداسات- النبوات-سليمان-داود-الكليم -أناجيل عيسى- مزامير-وصايا-آية-محمد-مسيح.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

منذ عصور الأدب السابقة كان القرآن الكريم والحديث الشريف أشرف الكلام. وكان غرض المسلمين في كافة مجالاتهم الفكرية والإبداعية من الاقتباس منهما تقوية كلامهم بما هو أشرف منه(1). ومن هنا ظهر ما يسمى " بالاقتباس"، و«هي تعابير جاهزة أو هي تراكيب أو جمل جزئية يأخذها الشاعر من مصدر مخصوص ويضمها كلامه، فيكون الكلام الدخيل عمدة في التبليغ. وفي نفس الوقت جزءا من الكلام.»(2). واستمر أمر الاقتباس حتى العصر الحديث عند ذوي الثقافة الإسلامية. ويأخذ النص القرآني أو الحديث من باب التأثير الذي يظهر في المعاني أو في الألفاظ. واتضح تأثر محمود حسن إسماعيل بالقرآن الكريم كثرة مانقل من ألفاظ وتعابير قرآنية في شعره،وصياغتها في قالب شعري جميل اطلاعنا على دواوينه وتحليلنا لرؤاها الشعرية، فمعظم دواوينه مستمد من المعاني العامة التي لا تحيد عن التصور القرآني.

ويهمنا أن نشير من خلال جدول إحصائي إلى الآيات القرآنية التي كان يورد بعض أجزائها على مستوى اللفظة أو العبارة في شعره بنصها كما في القرآن الكريم،ودلت على تأثير الشاعر بالقرآن الكريم تأثرا إيمانيا وإبداعيا.

الديوان	البيت	الصفحة	الآيـــة	السورة	رقم الآية
أغاني الكوخ	تَنْهَلُ دِيْتَهُ عَلَى مُتَعَصِّبٍ تَرْنُو بِقَدْرِ الثَّانِيَ الأَوَّاتِ	42	اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ، إِنَّهُ أَوَّابٌ	ص	17
	فَمْتَحْ بِأَجْرَدَ مِنْ مَنَاهِلِ صَافِ كَرِيقِ الكَوْثَرِ الدَّفِقِ	53	إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ	الكوثر	1
	يَنْسَابُ فِي الثَّرِّ فِي سُنْبُلٍ نَضِرٍ، وَنَخْلٍ مُثْمِرٍ يَانِعِ	54	أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ	الكهف	31
	أَطَلَّ سُكْرَانُ مِنْ نَدَامَاهَا أَوْ تَبْنِغُ الرُّوحُ لِلتَّلَاقِي	128	كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ	القيامة	26-27

(1) انظر مثلا: د/ محمد بن علي الحرفي- أثر القرآن الكريم والحديث في شعر أبي العتاهية- دار الإصلاح- الدمام- السعودية- ص45 ومابعدها.

(2) محمد الطرابلسي- خصائص الأسلوب في الشوقيات- منشورات الجامعة التونسية- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- 1981م-ص322.

الديوان	البيت	الصفحة	الآيـــة	السورة	رقم الآية
	وَتَرَشَّفْنَا الْمَوَى مِنْ كَأْسِهِ الْعَذْبِ الذَّهَافْ	149	إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا. حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا. وَكَأْسًا دِهَاقًا.	النبأ	34-31
	سَجَى الظَّلَامُ فَغَطَّتْ مِنْ قَنَاعِلِهَا وَاسْتَرْسَلَتْ فِي خَيَالَاتٍ وَتَغْرِيدِ	155	وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى	الضحى	2-1
هكذا أغني	سَلْسَلْ بِلُطْفِكَ الْهُدَى الَّذِي ضَلَّ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا كَفَّارَا	101	إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا	نوح	27
	حُسْ رِحَابِي وَطُفْ حَوَالَيَّ، وَاخْشَعْ وَادْعُ مَا شِئْتَ جَهْرَةً وَسِرَارَا	102	ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا.	نوح	9-8
	سَأَلْتُهُمْ: غُلَامَ أَسْرِي؟ فَصَمَّوا وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارَا	105	وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ، وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا.	نوح	8
	كُلُّ ذِي سِحْنَةٍ كَغَاشِيَةِ اللَّيْلِ وَهُوَ مِمَّا يَمُنُّهُ الْعَصْفَرْ	150	- هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ.	الغاشية	1
	يَا سِطَ كَفَّيْهِ لِلْفَيْ.. يَدْعُو رَبَّ حُمَّ الْقَضَا لِنَبِيهْ.. فَانْصُرْ	154	لَا يَسْتَحِيُونَ مِنْهُ شَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ. وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ.	الرعد	14

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الديوان	البيت	الصفحة	الآية	السورة	رقم الآية
	حرمت قتلاها.. وانتشت برحيقها أبابيلُ من خيل الضحى وقطارُ	235	وأرسل عليهم طيرًا أبابيل	الفيل	3
	فتوجان الدهر عيدي وزنه مثقالُ ذر	201	فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره.	الزلزلة	8-7
نار وأصفاد	نبأ يشفي لذي أوامي إنها صلة "سفنكم" تنارا	14	رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا.	نوح	28
	ذبيحة بخلافات يكاد لها حديد ذاود يلقي المهن في الزرد	9	ونكون اجتبال كثيبًا مهيلًا	المزمل	5
	خذوهم ولا تخشوا غرامات كفهم فما تنقل الغرمان لو دفدف الشر	91	أم نر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود.	فاطر	27
	تباك من شتى خطاكم وشتكم يغرم حظى أو تنادوا يهب الشعر	92	[illegible]	[illegible]	14
	تبيح الشعر.. فانية من نسبت أنها الشعث.. بيت أول حبيت	95	[illegible]	[illegible]	37
	[illegible] [illegible]	98	[illegible]	[illegible]	10
	كل ذي شرب حلال نعمت ذروتاه حين زينه الصفات	117	خلق نعمة فبئت رئيم	[illegible]	33

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الديوان	البيت	الصفحة	الآية	السورة	رقم الآية
	- هَزَجَ الجِيادِ الضَّافِناتِ وَرَقْشُها وَحَدِيثُها فِيهِ، وَعَاهُ الزَّائِرُ.	126	- إِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ بِالعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ.	ص	31
	- مِنْ جِرَاحَاتِ الضِّحَابَا سَاقُهُمْ نَافِحٌ لِلْحَرْبِ كَذَّابٌ أَشِرْ	120	- أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ بَيْنَنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرْ، سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الكَذَّابُ الأَشِرُ.	القمر	26–25
	- العَنْكَبُوتُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا صَنَعَتْ يَدَاهُ.. يَأْسًا طَغَاةُ الأَرْضِ نَخْشَاهُ	31	- كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةِ.	الهمزة	5–4
	يُغْرِيهِ سِتْرٌ لِلْبَاسِ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّ النَّاسِ	40	- قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ.	الناس	2–1
أيمن المفر	- مَخْدُوعَةُ الأَوْتَارِ، كَفُّ الغُيُوبِ هَزَّتْ مَثَانِيهَا	10	- اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ.	الزمر	23
	- وَفِيهَا جَنَّاتٌ نَضَّرَ الغَيْبُ أَيْكَهَا وَأَجْرَى بِهَا الأَنْهَارَ فِي كُلِّ بُقْعَةِ	45	- إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.	الحج	14
	- وَقَدْ تُبْصِرُ البُسْتَانَ أَوْكَارَ غَيْبَةٍ وَأَطْيَارُهُ مَشَّاءَةٌ بِالنَّمِيمَةِ	49	هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ	القلم	11
	- لَهُمْ دِينُهُمْ فِي زِحَامِ الصَّلَاةِ وَدِينِي الضِّيَاءُ الَّذِي تَنْشُرِينْ	55	- لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ	الكافرون	6
	- وَأَنَا حَائِرٌ أُقَلِّبُ كَفَّيَّ كَمَا قَلَّبَ المَقَادِيرُ الدَّهْرُ	61	- وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ، فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا.	الكهف	42

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الديوان	البيت	الصفحة	الآية	السورة	رقم الآية
	- تَبَارَكْتَ يَا رَبَّ هَذَا الجَمَالُ طَرِيقٌ إِلَيْكَ انْتَهَى وَاتَّحَدْ	109	- تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.	الملك	1
	- وَتَعْصُرُ السُّهْدَ خَمْرًا تَعُبُّهَا كُلَّ فَجْرِ	137	- وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا.	يوسف	36
	- العِطْرُ فِيهَا خَطَايَا ذَوَاتِ أَفْنَانِ عَذْرِ	137	- وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ذَوَاتَا أَفْنَانٍ.	الرحمان	48-46
موسيقا من السر	وَتَشُقُّ التَّابُوتَ، تُخْرِجُ مِنْهُ المَيْتَ الحَيَّ فِي ضُحَاهُ وَلِيدَا	12	- تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ	آل عمران	27
	تَلَفَّتَتْ.. وَانْطَلَقَتْ حَوَّامَهْ فِي كُلِّ رُوحٍ نَفْسُهَا لَوَّامَهْ	60	- لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ.	القيامة	2-1
	لَاهِثَةً بَاحِثَةً عَنْ دَرْبِهَا مَخْطُوفَةُ السِّحْرِ بِإِذْنِ رَبِّهَا	61	- تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.	إبراهيم	25
	يَدُلُّ بِكُلِّ شَيْءٍ أَرَاهُ فَسَوَّاهُ خَلْقًا جَدِيدَ الرَّوَاءِ..	75	- وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا	الإسراء	49
لابد	- زِيتًا يُضِيءُ لَيْلَ كُلِّ سَائِرْ	28	- يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ...	النور	35
	- تَعْنِي بِهَا مَوْؤُدَةٌ.. مَا سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ، دُونَ ذَنْبٍ قُتِلَتْ	40	- وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ.	التكوير	9-8

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الديوان	البيت	الصفحة	الآيـــة	السورة	رقم الآية
	أفاقها سَمُّ الخياطِ على حَفْنٍ ضليلِ الكفِّ مختارِ	63	ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط...	الأعراف	40
	قال : يداه - جلّ - مغلولة غلّت يديها كفُّ جبّارِ	66	وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء...	المائدة	64
	ثمارُه دانيةُ القِطاف ظلالُه وارفةُ الضفاف	109	في جنة عالية، قطوفها دانية	الحاقة	23
	جاء يسعى، خاشعًا نحوَ الصلاة توبةٌ تسعى لصدرِ المذنبِ	123	وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين.	يس	20
صلاة ورفض	- من أشرق حتى... ولستُ أبغي على كفّي تطلّعُ المعجزات ولا مُرسلٌ في تيهي كلّفْ يُغيثُ الوجودَ بآياته فيّ	16	فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات	الإنشقاق الإسراء	7 101
	علّو الظلام ترصّدتْ فيه خُطا القيدِ حتى نسختْ الظلامَ بصبحٍ مبينْ فاسألْ نايةَ المسحورِ عن يتمي تخترقُ من فزعٍ.. ومن ضربٍ كالخيطِ الخيطِ، هائمًا في الرمالْ زعمَ هذا الدجى سيعلو أذانكِ	44 54 96	قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس.	المائدة الطور آل عمران	15 4-6 134

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

	إلى قاب قوسين.. أو مبتة أدنى وكيف؟ وقد حاربوه جهارا	91	فكان قاب قوسين أو أدنى...	النجم	9
	وعاقبهم بأسه مرتين	92	وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين.	الاسراء	4
	ولكن امارة السوء تادت فطرت إلى ضوئها ترقصين	139	وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي. إن ربي غفور رحيم.	يوسف	53
	وتنادى المنادي: جميع الذنوب بيد الله تغفرها.. ما تشاء ورحمته وسعت كل شيء	139	قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء	الأعراف	156
النائهون	سأحكيه لظل التين في سيناء والزيتون	19	والتين والزيتون وطور سينين.	التين	2-1
	تزنجر في سماء القدس، هادرة ليثوم عاصف النذر	20	ولقد بطشنا. فتماروا بالنذر	القمر	36
	ويحتل الليل، لو ناغمت آناؤه لله بأسحار	31	ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله. آناء الليل وهم يسجدون.	آل عمران	113
	وأنزل الفرقان نورا على نور من الرحمن مختار	36	نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس. والله بكل شيء عليم.	النور	35
	وما كانت به سنة ولكن هي الدنيا تريد الطماحا	53	الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم	البقرة	255
	أطلتهم الإله.. فكيف تماروا بفتنتهم يريدون القلاحا	54	قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري	طه	5
	ويدفع الصور من بوق يصب به هو القلب فلا يبقي ولا يذر وكوكبوا في محاضات يشل بها خطو الزجاج وتنمى نارها سقر	43-41	سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر، لواحة للبشر.	المدثر	29-26

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الديوان	البيت	الصفحة	الآية	السورة	رقم الآية
صوت من الله	يَدايَ إلى اللهِ مَبْسُوطَةٌ وَأَنْتِ إلَيَّ طَيِّها تَضْرَعِينْ	43	بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ	المائدة	64
	وَنُفُوسٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتِ	82	مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ أَبْكَارَ	التحريم	5
	رَبِّ بَارِكْنَا بِهِ آصَالَنَا وَالغَدَوَاتِ	82	فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ بِالغُدُوِّ وَالآصَالْ.	النور	36
	وَابْعَثْ الشَّرْقَ بِنُورٍ ضَاحِي اللَّمَحَاتِ قَبَضَ اللهُ نَارًا عَلَى كَفِّ العُتَاةِ	82	وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينْ.	الزخرف	36
	يَدْعُوكَ يَا رَبِّ.. أَنْتَ المُلَبَّى وَلَبَّيْكَ .. أَنْتَ الرَّحِيمُ الغَفُورُ وَلاَ ضَلَّ فِي خَطْوِهِ مَنْ دَعَاكَ فَأَنْتَ السَّمِيعُ لِمَتْنِ الدُّعَاءِ	118	إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا. إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ	الزمر	53
			قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً. إِنَّكَ أَنْتَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.	آل عمران	38
	إِلَهِي سَعَيْنَا مَعَ المُوكِبِ هُيَامًا إِلَى البَلَدِ الطَّيِّبِ	130	البَلَدُ الطَّيِّبُ يُخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا. كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونْ.	الأعراف	58

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3- المعجم الكوني :

يعد هذا النوع من المعجم من عناصر شعره الأولى المستمد من الكون أو الطبيعة. وهذه سمة بارزة عند الشعراء الرومانسيين أو الوجدانيين الذين أكثروا من << استعمال الألفاظ المرتبطة بالطبيعة والألفاظ المتصلة بالجو الروحي.>>(1) وكانت هذه الألفاظ تأتي << محملة بالدلالات الشعرية والجمالية تتردد في عباراتهم وصورهم.>>(2)

فكان هذا المعجم يشيع منه الجمال والرقة،وتفوح منه رائحة الكون بكل جزئياته ومظاهره بإضفاء عليه روح الحياة بكل معانيها وإقامة بينهما علاقة تلاحم شديدة أثبتت هذه العلاقة أن هذا المعجم هو جزء أساسي من التشكيل الجمالي الكامل لشعره، بحيث يستحيل فصله عن صوره الشعرية أو البناء المضموني لقصائده. والمهم في هذا المعجم أن ألفاظه وإن كانت ترد << في بناء لغوي، يزيد من قدرتها على الإيحاء بمعاني البهجة وبجال الجمال،فإنها في شعر محمود حسن إسماعيل توحي بأجواء روحية دينية أكثر تحديدا.>>(3)

فمن خلال دراسة مضامين ورؤى الشاعر تبين كثرة ألفاظ هذا المعجم وسيطرتها على لغة القصيدة مهما كان موضوعها ذاتي أوسياسي أواجتماعي،ومهما كان طابعها وصفي تأملي أونقدي.

تناول بعض الدارسين كعبد القادر القط (4) وأنس داود(5) بعض المحاور الطبيعية،وإن كانت لكل طريقته ومنهجه في استخلاصها.

ومن المحاور الكثيرة الدوران في شعره هي ألفاظ النور بكل مترادفاتها ومشتقاتها(النور، الضياء، الضوء، السنا، الألق، الألاء، الأصيل، الشعاع، الشمس، القمر، النجم، الكوكب، الضحى، الصباح، الظلام، النار، الدجى، الليل، المساء، الشروق، الغروب..)،و ألفاظ العطر (الزهر، الورد، العبير، الندى، الشذا، الطيب، الأقحوان، الريحان..)، وألفاظ الغناء(الوتر، القيثار، الرباب، اللحن، الشدو، المزمار، الطروب، الطير، النغم، الصادح..)، وألفاظ الشراب (الكأس، النهر، الماء، النيل، الجدول، الموج، الرحيق، الخمر، الكروم، الطلا، الدموع، الدم..)

وتعددت المحاور اللفظية المستمدة من كائنات وظواهر ومظاهر الكون الواسع، الحيواني والنباتي، الجامد والحي، المرئي والمسموع، المشهود والغيبي. ومن خلال الجداول التالية نتأمل كيفية ورود هذه الألفاظ في بعض دواوينه، وكذا قصائده المختلفة الأغراض.

---

(1) يسري العزب- القصيدة الرومانسية في مصر- (1932-1956م)- الهيئة المصرية العامة للكتاب-1986-ص 81.

(2) عبد القادر القط- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر- ص396.

(3) المرجع نفسه- ص355 .

(4) انظر- شايف عكاشة- اتجاهات النقد المعاصر في مصر- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-1985م ص249 ومابعدها.

(5) انظر- شعر محمود حسن إسماعيل- محاولات للتذوق الفني- ص41 ومابعدها .

الديوان	القصيدة	الألفاظ
أغاني الكوخ	(زهرة القطن) كنز الذهب الأبيض	الطلّ- لولو-الشعاع-النسمة-ليل الربى- الضوء- شمس-ريح-الروابي-جدول-أعواد- النغم-النحل الدّماع- إكليل-سوسن-تبرّي-أصيل- الصيف- السنا- أبيض-الأغصان-النيل
	ريف النيل الفردوس المهجور	ريحان-روضة-الظلال-الضحى-أرجوان- الورود-طل-الصّباح-الرحيق-سوسان-الأزاهير- الطير-الغصون-الروض-ريّانة-الربى-النسيم- الفل- بنات الأقاح- الطيب-النجود-جدول-نيل-الأرض- العصافير-النحل- الفراشة- أفانين- الكروم-سنبلة المساء-رياح- النسيم- زنبقة.
	سنبلة تغني	الأرض-النيل-ثرى-الفجر-الندى-الأصيل-البر- تبر-شعاع-الشمس-شروق-غروب-الصبح- عبير الزعفران-الربى سيسبان-الضحى-نهر- طيلسان- الطل-قبرات-الحقل-العليق-الحقول- الهجير-ربيع-ربوات- السواقي-النحلات-الصيف- المنحل-سنبلات.
	عند زهرة الفول	ثرى-الريف-روض-الأيك-الأزاهير-الند-العطر- الأقحوان- كوثر-النبت-السنبل-الفول-أبيض- الزهر-الطير-الريحان-الخضرة-عيدان. العبير-الضحى-برود-شعاع-سنا-عسجد-النخيل- الطل-الدوالي-الثور-حدي-الربيع-الندى-الأصيل- أغصان- النيل- الشمس-ماء
	أحزان الغروب	النهار-الشمس-النور-الأفق-الشفق-لحن-النيل- الريح-الثرى-التعاشيب-الأيك-الماء-الهوام- العناكيب- الظلام-الضفدع-الجداء-المروج-مخاضر- بومة- الجنادب-الماء-ضحى-الأضواء-الزئبق- الوسنان-بيضاء-العطر-الضفاف-شعاب-طين- فجر-طائر-حمائل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الديوان	القصيدة	الألفاظ
هكذا أغني	دنيا أدم ومآتم	اللحون-ظلمة-سرمدية-ليل-فاحم-أغاريد-بيض الأكوان-النور-العيدان-اللحن-عش-الحمائم-الأنسام-فحيح-أعاصير-الألق-غيسانة-الأفياء-الأطياب-النسائم-ربي-بلبل-المروج-الأغصان-ظلال-الصخور-فيفاء-الهجير-الأرض-واحة-الطيور.
	أسرعي قبل أن تموت الأغاني	لحنك-قيثارة-بريق-هشيم-الريحان-الرفات-أطياف-غيمة-فلاة-الكون-كهف-الظلمات-الأفاعي-البوم-رياح-الدجى-البيد-الصخور-الفلوات-الليل-التراب-رمام-القبور-حفيف-الظلام- ورود-خريف-الأيك-الشذا-الورقات-الحيّات-النغم-حنوط-الأكفان-ظلمة-روائح-طيب-السنا-ربى-النيل-المروج-الراييات-الأفق-مظلمات-شعاع-جدول-شط-قبرات-النسمات-الأغاريد-الربوات-الصباح-الضحى-الناي-الظل-سماء-الصيف.
	أنت دير الهدى وشعري وصلاة	لحن-حدائق-بلبل-الريح-زورق-الرياح-الليل-الدياجير-الشط-غمام-القبر-السنا-النعش-نبع-أيكة-ظلال-حميل-جدول-واحة-هجير-فجر-الحقول-تغريدة-ألحان-شعاع-السماء-زهرة-شاطئ-الأنسام-السنبل-حفيف-الغروب-موج-النهر-ضفاف الجول-الأطيار-الروابي-الربيع.
	على مذبح الحرية	شط-النور-هالات-السماء-ملائك-ألق-الضحى-الأنسام-عطوره-الفجر-الربى-أفواف-السنا-الربوات عطر-الزهرات-الدجى-ليل-الظلمات-الشمس-الحصيات-شعاعة-النجم-الثرى-اللظى-ريحانة-عبير الزهر-حمائم-المساء-الفلوات-الصباح-الغاب-ليلة-الأمواج-ربابة-جداول-الحقل-النيل-الطير-النحل-النخل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الديوان	القصيدة	الألفاظ
	لم يطب للنبوغ فيك مقام	المنارات-شاطئ-الظلام-البوم-ظل-شط-الأنغام-هجير-الجداول-النهر-المعطر-الخمائل-روابي-الشذا-الأنسام السلسل-الفجر-نار-النسيم-الزهرة-الطل-السنابل-الخضر- قنابر-يمام-رحيق-نبع-سحابة-الذئاب-أنعام-الغدير-حمام.
نهر الحقيقة	الله	الظل-العطر-الغنوة-الحقل-الساقية-حفيف-السنابل المناجل-الفأس-الليل-الريح-الصحارى-الفجر-عبير-الندى-النور-الدجى.
	البقاء	الزهور-العطور-خريف-الغصون-ربيع-الظل-سفوح-طير-العبير-الغدير-الشعاع-الثلج-التراب-رياح-ماء-حب- زهر-بستان-عطر-الورد-غصن-الضياء-نور-ليل-روض-أرض.
	صلاة	الناي-الزهر-العطر-العبير-الموج-الهدير-الريح-الليل-الظلام-الطير-الضياء-اللحن-طير -الفجر-شدو-كهوف.
	أهواك ياوطني	رحيق-الكأس-لحن-الطير-موج-النهر-ناي-غروب-الشمس-الريح-الشدو-العشب-تراب-نخلة-خضراء-الظل-زورق-موجة-صخرة-رياح-الكون-السفن-الفجر-ظلمة-الوسن-قيثار-ربى-الشط-الشطآن-الأزهار-النار-سيم-موج-العطر-رباب-الشمس-السماء- رابيه.
	مع النور الأعظم	نور-البيد-الأكوان-ضحى-الليل-الفجر-سنا-الأرض-رحيق-الكون-شاطئ-نار-الغرس-التنين-النور-نغمة-كهف.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الديوان	القصيدة	الألفاظ
نار وأصفاد	الغصن اليتيم	رباب-كاس-عنب-الريح-الآفاق-الأرض-موقد-جمر-أعواد-حطب-سماء-الوحش-الآجام-الظلال-غصن-العود-الريحان-زيتونة-الليالي-تراب-أفرخ-قطر-الندى- ضوء-الضحى-البر-البحر-غاب-الكرم-نبع-نار-أعاصير-الفولاذ-النيل-شعاع-شطآن-مسكية-الأغراس-ظلام-النخل-موج-زبد-الغمام-الشمس-عطر-أغصن-النغم.
	من عميق الرقاد	نعش-النور-ليل-الظلم-ضوء-الشمس-القمم-الريح موج-الفجر-أفق-الأكم-السماء-النجم-الثرى-غاب الفلا-بوم-الدجى-الذئاب-طوائر-النيل-رياح-شطآن جبل-النجوم-ضوء.
	الأرض	الثرى-الأرض-ربى-ليل-ضحى-قبور-الأفق-الرياح-الفلوات-القطعان-الظلمات-الريف-الساقيات-الشواديف-خضرة-الزرع-الينبوع-طيور-الصباح-الأغنام-الحقول- الربوات-النخل-الطين-الأعواد-السنبل-البر-الثمر-نار-الخيل-السماء-الفجر-ضياء.
قاب قوسين	أنا والنفس والطريق	مزمار-الشط-أنغام-كوب-ليل-شدو-شعاع-الغروب النور-ينبوع-الموج-الإعصار-الفلاع-العطر-شذا أماسي-ضحى-نغما-لحن-الطير-الفجر-الروض-كأس خمر-الريح-فجاج-الرحيق-كرم-عنقود-الشروق-ناي-ظلام-ظل-خميلة-حصى-صحراء-الصباح-الدجى عاصف-بلابل-الحقل-السنابل-الطير-الخمائل-السلاسل- المعاول-الأخضر-القيد-الأرض-الضوء مصباح-أقداح-الضياء-الربابات-الفضاء-إعصار.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الديوان	القصيدة	الألفاظ
	الضباب الأخضر	الغناء-رباب-ناي-أمواج-الكؤوس-صحارى-الريح الفضاء-شاطئ-سديم-الوهج-الثمر-كهف-خريف-طيور-جنادب-عبير-صدى-أرض-أعشاش-بوم-الشعاع-أدواح-ربيع-أغصان-طير-ظلام-خيام-الشعاع-الضياء-واحات-أضواء-بساتين-أنسام-زهر عطر-ناي-رحيق-الضباب-أزاهير-جداول-خمائل-حيات-شاطئ-نغمة-الكهف.
	صحراء العجائب	صحراء-العقارب-ربوة-الأطيار-أسحار-المغاب-الأغصان العطر-الندى-ظلال-الريح-الحصى-أفاع-روض-الكون-ذئب-العناكب-الثعالب-الصخر-ماء-ينبوع-السباسب-نار-فجر-الكواكب-قبر-النعش-البيد-الضحى-الفلا-الرياح-الزجاجة-الأفق-قيعان-ضب-الطحالب-الجنادب-اللوالب-أنوار-كهوف-الفضاء-المسارب-نبع-تراب-الثعبان-الغاب.
	سارق الضياء	تراب-السكون-ضجة-الفضاء-الضياء-الرحيق-الوريق-الغروب-الصباح-الوجود-مزدهر-اللحود-طائر-كأس-حمر-عطر-النغم-الرياح-موج-عاصف-زئير-كهوف-شذا-رحيق-ضباب-العبير-دجى-ضحى-الظلام-ضوء-غبار.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4- الـظواهـر الفنـيـة لمعجمـه الشعري :

ومن الظواهر المستخلصة من معجمه الشعري المتنوع مايلي:

1- تآلف روافد معجمه الشعري الذي تشكل من التراث والديـن والكـون. حيـث تـآزرت هـذه الروافـد المعجمية << على صنع لوحات الشاعر وبث الحياة في شعره من خلال مفرداتها النثريـة وإيحاءاتهـا.>>[1]. إذ كثيرا ماتتلاحم هذه الروافد في القصيدة الواحدة،حيث يتم تعانق وانسجام دلالات الألفاظ المستمدة مـن تلـك الروافد،وهذا التعانق والانسجام ساهم في تعميق إحساس القـارئ بصـوره وتجربتـه الشـعري[2]. وسـعت هـذه الروافد إلى تشكيل عدة دوائر مضمونية كدائرة الجمال والرقـة، التـي مـزج فيهـا الشـاعر أجـواء كونيـة بـأفق شعري هامس،وروحي آخاذ. ودائرة الإيمان والأمل التي تـآلفت فيهـا كثـير مـن الألفـاظ الدالـة علـى تـأمل وشوق وألم الذات من أجل الوصول إلى الحقيقة بأكبر يقينياتها وغيبياتها، ورفض اليـأس مـن أجـل استنبات الأمل في نفسه وأمته لاستعادة الفرح والحبور والصفاء، والإشراق والانطلاق بمطاردة الشر بـالخير، واستشـعار الله في الظاهر والباطن، في الجهر والسر، ووصل الماضي بالحاضر والمستقبل. ودائرة الحزن والقوة التـي حـوت ألفاظ الكآبة والحرمان و الغضب والثأر والرفض والإصرار. وتغذت مـن إحسـاس الشـاعر بأوضـاع الحيـاة والمجتمع، وواقع الأمة بعد هول الاستعمار والتشتت والهزيمة، وضياع مقدسات الإسلام والعروبة والتاريخ.

2- شعرية اللفظة إذ لم تعد تخضع أساسا إلى بعدي المكان والزمان، فخرجت من الدلالة الصريحة، لتستمد شعريتها من الوجه المعاكس لخصائص اللغة في المعجم اللغوي العادي،أو في الخطـاب اليومي الخـاضع لصرامة المنطق .<< فاللفظة الشعرية ذات جمالية خاصة،وذلك لايعني أن ثمة ألفاظا شعرية وألفاظا غير شـعرية- كمـا يطيب لبعض النقاد القول، فكل لفظة إذا اعترتها التجربة المبدعة يمكن أن تفجرها من الداخـل، وأن تكتشـف الرموز الكامنة من معادلتها الحسية، وأن تجعلها لفظة روحية بعد أن كانت لفظة تقريرية.>>[3]

واستطاع الشاعر أن يجتثها من جدولها اللغوي ويزج بها في الخطاب الشعري، ويمنحها دفعا شعريا، ولعـل شعرية الكلمة قد عظم أمرها مع الرومنسيين قياسا إلى الكلاسكيين- إ ن شـئنا هـذا التعبير-<< لأن الفضيلـة الكبرى التي ساقها الرومنسيون، وجددوا بها كانت فضيلة اللفظـة ذات المـاء والنسـغ، اللفظـة الانفعاليـة ذات الذكريات والوشائج بالحنين والحنان والألم والندم، اللفظة التي تفيض عن النفس والحدس.>>[4]

3- إن الألفاظ التي تكون منها معجم الشاعر العام هي جزء أساسي من التشكيل الجمـالي لشـعره، حيـث تتصل بمنابع الصورة وتضيف سمة مشعة عندما ترتبط كل لفظة بغيرها في نسق جديد، وتسهم في مدّ الصـورة

---

(1) أنس داود- شعر محمود حسن إسماعيل- محاولات للتذوق الفني- ص45.

(2) انظر في كل نوع معجمي تكرار بعض القصائد من خلال الجداول مما يدل على ذلك التآلف.

(3) إيليا حاوي- الرومانسية في الشعر الغربي والعربي- دارالثقافة- بيروت-ط 2- 1983م- ص240.

(4) المرجع نفسه- ص102.

بإمكانات التأثير الفني المطلوبة،وفي أن تستمد منها بدورها ما يمكن أن تعد بها لفظة جديدة تنتمي إلى قاموس الشاعر(1).

4- الإيحاء والرمز من أهم خصائص ألفاظ معجمه الشعري التي استخدمها استخداما خاصا، جعلت أسلوبه يتميز برمزية وإيحائية ألفاظه تعتمد على سليقته اللغوية وثقافته الواسعة بأسرار اللغة التي استقاها من التراث الشعري في القديم والحديث وتطورت تطورا دلاليا ورمزيا من ديوان لآخر ومن قصيدة لأخرى. فاللغة الإيحائية << مادة في الأسلوب وأن الأسلوب يستمد الحياة والقوة من طريقة استخدام المفردات المناسبة، ومن السر في ربط الكلمة الحية القوية بأختها بحيث يتهيأ من هذا المركب طريقة في التفكير. فاللفظة هي الفكرة وهي الحياة وهي القوة.>>(2)

5- إذا كانت الألفاظ لها دور في التصوير وبناء الرمز، فإن لها دور أيضا في الموسيقا والإيقاع، حيث خضعت ألفاظه لإيقاعات متنوعة إلى جانب الإيقاع المرتبط بالوزن والقافية أوبتنوع الأوزان والقوافي اهتزازها وتذبذبها وصيغها البديعية من طباق وجناس وترصيع وتكرار، وبذلك اكتسبت موسيقا اللغة أومادتها النغمية، << قدرة فائقة على الإيحاء واستطاعت كلمات القصيدة المترابطة في سلسلة من الاهتزازات والتذبذبات أن تفتح أمام الشاعر والقارئ آفاقا فسيحة من اللانهائية الحالمة. وأصبح من الممكن أن تنشأ القصيدة عن تأليفة موسيقية تتعامل مع العناصر الإيقاعية والنغمية الكامنة في اللغة،كما لو كانت تتعامل مع أشكال وصيغ سحرية، وأصبحت عناصر الإيقاع والنغم هي التي تحدد دوافع العملية الشعرية نفسها،وتتسبب في وجود القصيدة واختيار كلماتها لابحسب معانيها بل بحسب الطاقات الموسيقية التي تشعها والدلالات التي توحي لها.>>(3)

6- تؤكد النظريات النقدية القديمة أو الحديثة في معظمها أن اللغة هي التجسيد المادي لوعي الشاعر، ولعل أهم نظرية تفردت في توضيح المعنى النحوي للفظة هي نظرية"عبد القاهر الجرجاني" التي تقوم أساسا على أن الألفاظ تتحاور بصور تختلفة في علاقات لغوية. تثير من خلالها تفجرات فكرية ونفسية،التي هي في حقيقتها المعنى الذي قصد إليه الشاعر،لأن تلك التفجرات تستطيع أن تحقق مجالات لغوية ودلالية واسعة عن طريق الاشتقاقات الصرفية للأسماء والأفعال، وصيغ الجموع الكثيرة، وأساليب الإنشاء من نداء وأمر ونهي وغيرها، وكذا عوامل التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير.ويتفرد بذلك"الجرجاني" في إعطاء اللفظة في الكلام الشعري وجودا مميزا وشاملا.(4) ومن الظواهر اللغوية التي برزت في معجمه الشعري، واستحوذت كثيرا من الصيغ اللفظية على أساليبه الشعرية استعمال كثير من الأفعال.بعد أن درج اللغويون على

---

(1) محمد علي هدية- شعر محمود حسن إسماعيل- دراسة فنية-ص 228 .

(2) إبراهيم السامرائي- لغة الشعر بين جيلين- دار الثقافة- بيروت- لبنان-ص45 .

(3) د/ عبد الغفار مكاوي- ثورة الشعر الحديث- الهيئة المصرية العامة للكتاب-1972م-ج1-ص88 .

(4) انظر- دلائل الإعجاز في عالم المعاني- تصحيح السيد محمد رشيد رضا- ديوان المعرفة- بيروت- لبنان-(1402هـ-1982م)-ص35 .

تقسيم الأفعال على أساس من الحركة والزمن، فاستغلال فعل الأمر والنهي والطلب له طاقة دلالية تحث على الحركة والحياة والتغيير مثل مافي قصيدة "أنا والنفس والطريق"(1)، التي حوت على قدر كبير من الأفعال التي أكسبت المعنى حركة وفعالية.(اتبعيني، احذري، اسمعي، كوني، مزقي، ارفعي، استمري، انفذي، اصرعي، اركبي، اكشفي، امضي،اتركي، اعبري، اخلسي، استمري، اسكبي، ابسمي، غلفي، استمدي، سيري، ازحفي، انظري، انهلي، انسخي، اسحقي ..)،وكذلك قصيدة "لابد"(2) التي تتصدر أبياتها أزمنة فعلية متلاحمة مع أدوات الخطاب المختلفة(سنمضي، تعانق، تغني، قطعنا، نسير، نحرف، نعصر، نصعق، انصهر، ذاب، انداح، اقلعت، انشقت، انهارت،انطلقت،نقطف، نلقط،نبذر،ننشب، يختفي، تلهب، تحرق، تزهق، تضرم، تشرق، يلعق، يهدر، تسمع، تشرب، تخلس، تفسح..).

ومما يلفت النظر << ليس التوالي الكمي للأفعال، وإنما التوالي الكيفي، فالفعل ذو الطابع الدرامي هو الذي يقود إلى الحركة، وهي حركة متطورة متجددة ولكنها لاتتجه -في تطورها وتجددها- اتجاها أفقيا مسطحا، وإنما تسير في خط رأسي أو تصاعدي. إذ لا تعبر عن الانتقال من حركة إلى حركة منقطعة عن سابقتها وإنما تعبر عن علاقة طردية بين الحركات.>>(3) واستعمال الاستفهام بمختلف أدواته (أ، هل، ألم، من، علام، متى، كيف، كم...)، وإن تنوعت دلالته،كأن يوحي بالحيرة والغموض المرتبطين باللحظة الحاضرة، فإنه بطريقة مانوع من الاستشراق إلى المستقبل.>>(4) واتضح ذلك في كثير من القصائد المتنوعة المضامين من خلال مخاطبة الأنا الفردي والجماعي أو محاورة الطبيعة والواقع(5).

واستخدام كذلك النداء في مطالع القصائد وختامها،ويكون بذكر أدوات النداء أوبحذفها، ومما يسترعي الانتباه كثرة استعمال هذا النداء كوسيلة لمخاطبة الله عز وجل (إلهي، رب، يارب، اللهم، سبحانك ..)، والتي سيطرت على معظم قصائده ديوان "قاب قوسين"، "صوت من الله"في شكل دعاء أو تضرع أورجاء أوتوسل، ويمكن أن تسمى أساليب هذا النداء بالتضرعات الإسلامية. وتوظيفه أيضاالبعض صيغ للجموع غير الواردة كثيرا في التركيب اللغوي،والمعتمدة على أسماء الأفعال وصيغ المبالغة وأوزان المصادر وجموع التكسير، والتي سيطرت على معجمه الشعري(6).

---

(1) قاب قوسين- ص9-18 .

(2) لابد- ص3-18 .

(3) محمد العبد- سمات أسلوبية في شعر صلاح عبد الصبور- مجلة فصول- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- ع1-2-1986,1987م- مج 7- ص 93.

(4) أحمد طاهر حسنين- المعجم الشعري عند حافظ ابراهيم- مجلة فصول- ع2-1983م-مج3-ص41 .

(5) انظر- بعض الشواهد في الفصول السابقة.

(6) انظر- ورود بعض الشواهد في الجداول السابقة .

7- إن عبرت روافد تلك الألفاظ عن مضامينه ورؤاه، فإنها أيضا شكلت عناوين دواوينه وقصائده، ولعل إطلاق الأسماء على الدواوين ظاهرة جديدة في الشعر العربي، بينما كانت الدواوين تنسب إلى أصحابها كديوان "المتنبي" أوديوان "شوقي". وأصبح إسم الديوان يطلقه الشاعر غالبا عندما يجمع معظم قصائده التي تنضوي تحت مضمون رئيسي موحد .كما أصبحت لعناوين القصائد أهمية كبرى، فالعنوان هو جزء من القصيدة،وقد يضع الشاعر فيه مالم يستطع وضعه في صلب القصيدة، و<< هو أول مايلقاه القارئ من العمل الأدبي، هو الإشارة الأولى التي يرسلها إليه الشاعر أو الكاتب. والعنوان يظل مع الشاعر أوالكاتب طالما هو مشغول بعمله الأدبي، كما يفكر الوالدان في تسمية طفلها إذ هو جنين لم يظهر إلى الوجود بعد.>>(1).وقد يكون العنوان عند البعض وسيلة للتعمية أكثر منه للدلالة فيمثل أحيانا نفاقا فنيا خطيرا، فعنوان منمق أومؤثر قد لا يلم كل أجزاء القصيدة المتناثرة ولا يبلور كل إيحاءاتها وأحاسيسها،وقد تكون عناوين الدواوين تجسيدا لمراحل شعرية واثقة أو مبالغة في تجسيد هيكل أجوف لم يتوقعه القارئ ولا الشاعر ذاته. ولكن مايهمنا أن هذه العناوين تعد مدخلا أساسيا لإدراك تجربته الشعرية، كما تعد خيطا واضحا يربط بين عنوان الديوان وعناوين القصائد ربطا نفسيا وشعوريا يعبر عن اتجاه الشاعر أورؤيته. ومن خلال عناوين دواوين وقصائد محمود حسن إسماعيل تم استنباط مدى ارتباطهما بحسه الديني والتراثي والكوني. ولعل بعض عناوين دواوينه فقط تعبر عن ذلك بكل موضوعية، وقد اختارها اختيارا دقيقا وواعيا (أغاني الكوخ، هكذا أغني، قاب قوسين، نار وأصفاد، نهر الحقيقة، صلاة ورفض، موسيقا من السر، صوت من الله.)(2)

8- تجللت بعض ألفاظه نواح من الغموض، جعلته لايحفل بمنطق الواقع ويخرج بها من كل ملابسة مادية، ليضعها أمام عالم مجرد داخل نظام لغوي، هو سر غموض تلك الألفاظ وقد صاحبتها محاولة الشاعر <<الهروب من واقعه إلى عالم موغل في الخيال يرتبط برباط من نفسه منذ بداية حياته الشعرية.>>(3) حيث نراه شغوفا باستعمال ألفاظ (الأسرار، الأحلام، الرؤى، الغيوب، الطلاسم، السراب، الأصداء، الأوهام، الشك، السحر، النسيان، الأبد، المدى..) وقد عدّ الدكتور "عبد القادر القط" ذلك الغموض من مظاهر التجديد اللغوي.واعتبر محمود حسن إسماعيل والهمشري من أبرز هؤلاء الشعراء في شفافية ألفاظهم وتآلفها في جوّ نفسي أوعاطفي منسق، ونغم حزين هادئ، وتداخل مدركات الحواس فيها فيما يشبه الحلم، كذلك أجسرهم على بناء العبارة اللغوية والخروج فيها على المألوف من الصلات اللفظية والمعنوية بين أجزائها، وأشدهم إحساسا بموسيقا الألفاظ وتآلفها وقدرتها على إثارة الخيال إلى تلك الآفاق المغلفة بضباب الحلم أوالوهم. ويضيف كذلك أن استخدام هذه الألفاظ قد يثير بعض القلق إذا قيس بالشعر الوجداني الواضح المعنى(4).

---

(1) شكري عياد- مدخل إلى علم الأسلوب- دار العلوم للطباعة والنشر- الرياض- 1982م-ص74 .

(2) تمت الإشارة إلى كثير من عناوين قصائد الشاعر في الفصول السابقة.

(3) محمد علي هدية- شعر محمود حسن إسماعيل- دراسة فنية-ص 229 .

(4) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر- ص 372 .

9- إن اتصفت ألفاظه أو مفرداته بالسهولة، وهذه السهولة ذات مدلول خاص إلا أنها لا تنأى عن الصعوبة لأنه يختار مادة لغته ولا يرسلها كما يرسل حديثه اليومي ولا ينزل بها اللغة الشعبية والعامية،ويحافظ على عفوية وانسيابية الكلمة، حيث جمال التعبير والقدرة الفائقة على التصوير واليد الصناع في اختيار اللفظ وحسن الجرس، وحدة الإيقاع .ولم يكن الشاعر يتعمد ذلك، وإلا لكان ضربا من الزخرف البديعي المصطنع، وإنما هو تمكن الشاعر من فنه ومقدرته اللغوية الفائقة، وذوقه الأدبي الرفيع، كل ذلك يجعل الكلمة تنساب بطبيعتها فنية في استخدامها دون لجوء متعمد إلى صنعة أو زخرف.>>(1)

وخصائص اللفظة عنده لا تجعلنا نغض الطرف عن بعض مزالقها، وثمة مفردات لاتتصل بسياق،وثمة مكونات لغوية لاتنبع من تجارب، وهما ظاهرتان خطيرتان في شعر أي شاعر.كاستخدام محمود حسن إسماعيل المفردة أحيانا استخداما غير ضروري في البناء التعبيري. كذلك جرأته وثقته الكبيرة بموهبته أدّت به إلى استخدام ألفاظ في سياقات غير إيحائية مثلما في قصيدة "في المحراب"(2) فقدت بعض كلماتها روحها وإيحاءها الشعري مثل(الزماع، الدماع، تلعاب، الترهاب، الدولاب، محروب، التحاريب، مغلوب، تتيب، تخيب، مجدوب، أهاويل..)،أيضا تسرب بعض الألفاظ الأخرى في موضوعات دينية ووطنية للتعبير المباشر في نبرة خطابية عالية أقرب إلى روح النظم منها إلى روح الاستلهام الشعري، أو اقترابه في محاولة لمغازلة بعض التيارات السائدة من طابع النثر الذي يتخلى فيه الشاعر عن الطابع الجوهري لعالمه الإبداعي الراقي من التعبير بالمفردة المختارة والصور المكثفة.(3)

---

(1) كامل البوهي- ديوان لابد- مجلة الكتاب العربي- ص40 .

(2) أغاني الكوخ- ص38 .

(3) أنس داود- التذوق الجمالي لشعر محمود حسن إسماعيل- ص47-50 .

المبحث الثاني

الصورة الشعرية

1- التشبيه .

2-الاستعارة .

3- التجسيد .

4-التجسيم .

5- التجريد .

6- التراسل .

7- التقابل .

8- التداعي .

9- الرمز .

10- الدراما .

11 - عيوب الصورة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تحدد طبيعة الصورة الشعرية ووظيفتها وفق الرؤية الفلسفية والفنية التي تقوم عليها،وتختلف في ذلك من القديم إلى الحديث. فالنقاد القدامى لم يستخدموا مصطلح الصورة في معالجتهم للخطاب الشعري ، وإنما كانوا مهتمين باستخدام الأنواع البلاغية التقليدية القائمة على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز بوجه عام(1).

وإن فاتهم أن يعالجوها بهذا المصطلح ، فإن تنظيراتهم لا تخلو من الإشارة إليها . إذ أن أقدم نص نقدي يوضح ضرورة وأهمية التصوير،قول الجاحظ المشهور:<< إنما الشعر صناعة وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير>>(2).

إلا أن معظم الذين كتبوا عن الصورة الفنية نوهوا بوعي عبد القادر الجرجاني في اعتماد الصورة معيار للنقد بقوله :" إن من الكلام ماهو شريف في جوهره كالذهب الإبريز الذي يختلف عليه الصور، وتتعاقب عليه الصناعات. وحل القول في شرفه على ذاته، وإن كان التصوير قد يزيد في قيمته ويرفع في قدره.>>(3)

أما النقاد المحدثون فقد إلتفتوا إلى أهمية الصورة الفنية كمصطلح حديث، ودرسوا جذورها وطبيعتها وأنماطها ووظائفها وتعددت منطلقاتهم بتعدد قناعاتهم الفكرية. فانطلق بعضهم من ثقافته التراثية،مقرا بما أنجزه الجهد النقدي العربي ، وانطلق البعض الآخر من ثقافته الأجنبية،ملمحا إلى أثر النقد الغربي وماساقه من تعريفات متشابهة طورا،ومتعارضة طورا آخر. وإن اتفقوا في السياق العام على أن الصورة هي شيء يجنح نحو تقريب حقيقتين متباعدتين (4).

وإذا كان النقاد القدامى قد احتفلوا بالتشبيه دون الاستعارة،وسلّموا بضرورة توافق التخييل أو المحاكاة التشبيهية مع متطلبات العقل وحدود المنطق بهدف الإفهام والإقناع وتقريب الحقائق وتوضيحها وتجزئتها،ومصداق ذلك في كلام صاحب" الوساطة"<< وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فاصاب ، وشبه فقارب وبده فأغزر ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته و لم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع (5) والاستعارة (6)".فإن النقاد المحدثين لم يكتفوا في نظرتهم الحديثة للصورة بالوقوف عند الأطراف القديمة

---

(1) انظر –عبد الإله الصانع– الصورة الفنية معيارا نقديا–دار الشؤون الثقافية العامة –بغداد –ط1 –1987م .ص107ومابعدها.

(2)الحيوان– تحقيق وشرح:عبد السلام محمد هارون– دار إحياء التراث العربي – بيروت–ط3–(1388هـ–1969م)– ص131.

(3) أسرار البلاغة في علم البيان– تصحيح السيد محمد رشيد رضا– دار المعرفة– بيروت– لبنان–(1402هـ–1982م)– ص19.

(4) انظر –عبد الإله الصانع– الصورة الفنية معيارا نقديا– ص142 ومابعدها.

(5) الإبداع : هنا من استعمال البديع.

(6) القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني–الوساطة بين المتنبي وخصومه–تحقيق وشرح:محمد أبو فاضل ابراهيم – علي محمد البجاوي– عيسى البابي الحلبي وشركاه– ص33–34.

المعروفة لها . بل أصبحت تمتد بامتداد التجربة لا بتعقد أطرافها وإنما بتعقد أبعادها الفكرية والنفسية الممزوجة بالوعي الإبداعي والخيال الابتكاري. مما جعل القصيدة الحديثة تحتوي على مجموعة من الألفاظ التعبيرية والتصويرية المعقدة المسندة إلى خلفية متنوعة داخل أوضاع زمانية ومكانية متعددة داخل البناء الشعري فضاءا شاسعا من الايحاءات المختلفة والمتأثرة بالمفاهيم الفلسفية النقدية الحديثة.إذ أصبح الشاعر **يحاول** التفكير من خلال الصورة.ولم تعد بالنسبة إليه طلاء أو عنصرا إضافيا محسنا بل هي ثراء الفكر(1).

وتجاوزت بنية الصورة الحديثة الصورة الشعرية المفردة أو الجزئية إلى الصورة المركبة الكلية،بل أصبحت تحتوي النوعين، والصورة المفردة البسيطة هي «التي تتضمن تصويرا جزئيا محددا ، وفيها دلالتها التي تكتمل داخل السياق الصوري الشامل» (2). أما الصورة المركبة هي «مجموعة من الصور اليسيطة المتالفة التي تقدم دلالة معقدة أكبر من أن تستوعبها صورة بسيطة .ويستخدم في تأليفها أسلوب حشد الصور التي تشكل في جملتها الصورة الكلية ... وهي مجموع الصور المفردة والمركبة المتآزرة في وحدة عضوية غنية بالتنوع الذي يتلائم في بؤرة دلالية شاملة هي القصيدة في ذاتها» (3).كما تجاوزت الصورة الأنواع البلاغية المعهودة، وتحررت إلى حد بعيد من الشكل المأثور للقصيدة .ونحت نحو اكتشاف عناصر جديدة أو تجديد عناصر قديمة لأداء وظائف أخرى للصورة والبناء الشعري العام. كلجوئها إلى التشخيص والتقابل والتواصل والتجريد، والأسطورة والرمز والقصة ...واستفادتها في كل ذلك من علم المعاني والبيان والبديع.(4) واقتناصها للمفردات اللغوية بما يساهم في تشكيلها على نمط خاص يستوعب الأفكار والأحاسيس،ويقود بها إلى دور جديد حيث يحدث التصوير بالكلمة الذي "يعتمد على طريقة في التعامل مع اللفظ تختلف عن الطرق المعهودة.إنها صورة تخلو من شيء مقابل، صورة لهذا الشيء تخلو من المشبه والمشبه به وتؤدي عملها من خلال علاقة جدلية حارة يقيمها الشاعر بين الكلمات.»(5) واستثمارها كذلك للموسيقا التي لا تقل أهمية عن الخيال،بحيث تشكل صور نغمية بحروفها ومفرداتها ووزنها وايقاعها وطريقة اتصالها ببعضها البعض في سياق الأبيات،وليس بها صورة خيالية ولها دلالتها الشعورية الخاصة المتساوقة مع المضمون الكلي للقصيدة التي أصبحت تقوم أساسا على بنية إيقاعية ترتبط بحالة شعورية معينة لشاعر بذاته(6)، وأدى ذلك إلى ابتداع الصورة الموسيقية أو الإيقاعية.(7)

---

(1) د/ مصطفى ناصف–الصورة الأدبية– دار الأندلس– بيروت– لبنان– ص216 .

(2) إبراهيم رماني–الغموض في الشعر العربي الحديث– ص267 .

(3) المرجع نفسه ص268 .

(4) محمد حسن عبد الله–الصورة والبناء الشعري ص– دار المعارف– القاهرة–1983– ص 19–20.

(5) أحمد بسام ساعي –حركة الشعر الحديث في سوريا– ص332 .

(6) عز الدين إسماعيل– الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية–ص64 .

(7) انظر– د/ ساسين عساف– الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع– بيروت– لبنان–ط1–(1402هـ–1982م)–ص19.

وأهم عنصر من عناصر الصورة الشعرية هو الخيال ودراسته هي المدخل المنهجي لدراسة الصورة.فأغلب نقاد في القديم والحديث اتفقوا على أن الخيال هو تلك << القوة التركيبية التي تكشف لنا عن ذاتها في خلق التوازن أو التوفيق بين الصفات المتضادة أو المتعارضة بين الإحساس بالجدة والرؤية المباشرة والموضوعات القديمة المألوفة، من حالة غير عادية من الإنفعال ودرجة عالية من النظام بين الحكم المتيقظ أبدا،وضبط النفس المتواصل والحماس البالغ والانفعال العميق >> (1).

ولا يهمنا كثيرا إجلاء مفهوم الخيال الشعري في التراث النقدي والبلاغي والفلسفي، وكذلك في التراث الغربي. ولكن ماينبغي الإشارة إليه هو غياب المحاولة النقدية التي تبتغي الإفادة من التراث الفلسفي وبلورة نظرية للشعر في ضوء رؤية فلسفية شاملة مثل مانجد عند" محي الدين بن عربي" الذي منح الخيال مرتبة سامية، ويرى بأنه أعظم قوة خلقها الله،وأنه القوة المبدعة التي توازي قوة العقل.والتي أكد عليها" كوليردج" وأمثاله فيما بعد،والذي يرى أن إدراك المطلق وتفسير العالم،إنما هو أمر يرتكز على الذوق والتجربة الروحية أكثر مما يعتنقها العقل أو المنطق.(2)

وتدفعنا هذه الإشارة الهامة إلى البحث في ظاهرة عدم قيام فلسفة النقد ونظرية للشعر والجمال عند العرب على الرؤية الإسلامية،ومامدى حدود الاستفادة منها والآثار الرائعة التي غابت بفقدان تلك الحلقة الواصلة بين الفن والتراث الفكري الإسلامي؟. إنها أسئلة جوهرية تجعلنا بحاجة إلى الالتفات إلى موازنة ضرورية بين صورة الخيال الشعري الحسي الذي شكل حيزا كبيرا من الدراسة النقدية، وصورة الخيال الإسلامي في تعلق الفنان المسلم بما وراء المحسوس والمرئي والجوهري والكلي والحياتي والغيبي والكوني. والإيمان بوجود عالم جمالي متميز يجب اكتناه أسراره وفلسفته،ظل غائبا في ساحة النقد عموما،وحان الوقت لاستعادة نظرية عربية اسلامية على ذلك النحو المنشود.(3)

والعنصر الآخر الذي يساهم في بناء الصورة هو شخصية الشاعر وكل عنصر كالعضو له وظيفة في جسم الكائن الحي. وهذا العنصر قد يبدو متخفيا،لا ظاهرا فهو<<بمثابة الروح الخفي في الكائن الحي وهذا العنصر الروحي لو صحت التسمية يطبع الأسلوب بطابعه ويكشف عن صورة صاحبه. فالشخصية تخلع بعض سماتها القلبية أو العقلية أو الخلقية على الأسلوب فيها فحسب،بل إن نوازع النفس وغرائزها وانفعالاتها تندمج في مادة الشعر>>(4) ويدفعنا ذلك إلى عدم الفصل بين تجربة الشاعر والصورة إذ يعرّف" محمد غنيمي هلال" التجربة على أنها << الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيرا يتم

---

(1) أ.أرمسترونج-مبادئ النقد الأدبي- ترجمة د/ مصطفى بدوي-المؤسسة العامة للترجمة والطباعة والنشر القاهرة-1963م - ص 312 .

(2) إبراهيم رماني- الغموض في الشعر العربي- ص 247.

(3) المرجع نفسه - ص 247-248.

(4) صابر عبد الدايم -محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة ص207.

عن عميق شعوره وإحساسه،وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي وإخلاص فني،لا إلى مجرد مهارته في صياغة القول ا ث بالحقائق،أو يجاري شعور الآخرين لينال رضاه.>>[1]

ويجب عدم الفصل بين رؤيته الشعرية والصورة ، لأن الصورة بخصائص بنيتها وتركيبها،هي نتائج الرؤية الشاملة فهي << تشبيه حسي يعبر عن رؤية ولا يقنع بإيضاح فكرة الشاعر أو شعوره بل يخلقها خلقا.>>[2] والشاعر أو الفنان في جميع الحالات << لا يدرك الحقيقة إدراكا حسيا،ولا يدركها إدراكا عقليا،إنما هو يدركها مصورة محسوسة ... وبعمل الخيال يدرك الفنان الحقيقة لا موضوعا ولا فكرة،وإنما يدركها في صورة.>> [3] فالحقيقة أو الرؤية لا بد أن تأخذ في الفن شكلها الجديد«لأن الفن ليس مجرد مرآة بل هو منظار من نوع خاص يعرض لنا الحقائق في أثواب ملونة جديدة، قد تغير من شكل الحقائق أو من حجمها. بل من وجودها الزماني أو المكاني.وعينا الفنان الداخليتان هما ذلك المنظار الذي ينظر من خلاله إلى الأشياء»[4]

وبهذه المعطيات العامة للصورة تدخل عالم محمود حسن اسماعيل الشعري الذي يجعل الصورة ركنا من أركان التعبير الجمالي بإفادته من الظواهر البلاغية المعروفة في علم البيان والبديع والمعاني،ومن الظواهرالمستمدة من الأساس النظري للتعبير الفني الحديث.بل حاول في تلقائية فنية أن يمزج بين ظواهر التصوير في القديم والحديث.جعلت منه شاعرا متفردا وأصيلا لأن << الشعر عنده ليس مجرد ضرب من القول سطحي الجذور يزدان بالمحسنات البلاغية،وإنما يعتصر فيه نفسه اعتصارا فيخرج ذوبا من دمه وفيضا من روحه>>[5].وكما يقول : غيري يسوق الشعر فضل بلاغة- وأنا أفجر في منابعه الدما.[6] وهذه المعاناة الفنية تشبه معاناة الفرزدق الذي يقول << وربما أتت عليّ ساعة ونزع ضرس أسهل علي من قول بيت >>[7].

وكل قصيدة للشاعر كانت تعبر عن تجربة عميقة ورؤية محددة ولكنه لم يكن يعبر عنها تعبيرا مباشرا.بل كان يبدع مجموعة من الصور والرموز والدلالات يربطها خيط واحد،وتشكل في النهاية تركيبة خيالية موحية مؤثرةيسفر من خلالها عن جوهر تجربته.وإن كانت وسيلة الشاعر التي استخدمها على نطاق واسع هي الصورة المبنية على التشبيه والاستعارة والمجاز،فإنه«استطاع أن يتجاوز الإطار التقليدي بصورته التراثية المعروفة ويخلق نموذجا من العلاقات بين دلالات الألفاظ على أساس من التشابه في الواقع الشعوري.» [8]

---

(1) النقد الأدبي الحديث - دار العودة- بيروت- ط1-1982م-ص383 .

(2) د/ محمد فتوح أحمد- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر- دار المعارف- القاهرة-ط2-1978م-ص141.

(3) د/ عبد المنعم تليمة-مقدمة في نظرية الأدب-بيروت-ط3 1983م-ص192.

(4) أحمد بسام ساعي -حركة الشعر الحديث في سوريا ص-303 .

(5) شفيع السيدمع محمود حسن إسماعيل في ديوانه هكذا أغني - ديوان هكذا أغني- ص281.

(6) هكذا أغني ص164 .

(7) ابن قتيبة- الشعر والشعراء- دار إحياء العلوم- بيروت- لبنان-ط3(1407هـ-1987م)-ص35.

(8) شفيع السيد- ديوان هكذا أغني- ص282 .

ومادامت الصورة هي «الغلاف الذي يحمي المضامين ويطرز الشكل بأروع الجواهر النفسية والشعورية والانفعالية والتعبيرية»[1] فلا يمكن دراستها وتتبع ظواهرها في شعره دون ربطها باتجاهه ومضامينه وإبراز نزوعه الإسلامي في رؤيته وتصويره الشعري.وقد عكس تلاحم العاطفة والخيال واللفظ والمعنى معا صورا دينية في كثير من المواضيع التصويرية التي سنصادفها – فيما بعد –كما يمكن الاستفادة من دراسة نقدية للصورة الشعرية عند محمود حسن اسماعيل قسمت الى مراحل حسب تطور الرؤية الشعرية لديه باعتبار انها انعكاس حقيقي لمحاوره[2].

1– التشبيه : هو اللون البلاغي المفضل عند الأسلاف ولا يزال بحث عبد القاهر الجرجاني في التشبيه «أقوى ماكتب في باب البلاغة العربية على الرغم من أنه لم يحطه بالعناية التي أحاط بها الاستعارة،ولعله بذلك قد صحح نسبة الأهمية في لغة التعبير الشعري وصوره»[3] فهو لم يكرس الانفصال أو الاتحاد، الوضوح أوالتقارب بين المشبه والمشبه به مثل غيره من النقاد القدامى،إنما يشيد بالتشبيه الذي يكتشف التقارب من خلال التباعد فيجمع بين مثلين متباينين ومؤتلفين ومختلفين،إذ يقول «إن الحذق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس. أنك تقدر أن تحدث هناك مشابهة ليس لها اصل في العقل وإنما المعنى أن هناك متشابهات خفية يدق المسلك إليها.فإذا تغلغل فكرك فأدركها فقد استحققت الفضل. ولذلك يشبه المدقق في المعاني كالغائص على الدر»[4]

ويعد هذا النص طفرة سابقة تلائم كل الملاءمة مع مايدعو إليه النقاد المحدثون من وجوب تجاوز الحدود المنطقية والواضحة والمتقاربة في التصوير. وأكد ماذهبوا من أن الصورة الفنية << تركيبة عقلية تنتمي في جوهرها إلى عالم الفكرة أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع.>>[5]

وقد اتضح هذا النوع من التشبيه الذي دعا إليه الجرجاني عند الشاعر محمود حسن إسماعيل من خلال تشبيهاته الشعرية التي شكلها بطرق التشبيه المتنوعة والمتداخلة دون المراعاة في أكثر الأحيان على النسبة المنطقية بين طرفي التشبيه (المشبه والمشبه به). والعلاقة الشكلية القائمة على المشابهة الحسية والحرفية،بل على المشابهة النفسية،والتي سنفصل الحديث عنها في المحاور الآتية كالتجريد والتراسل والتداعي.إلا أن مايمكن استنتاجه من ظاهرة التشبيه العامة في شعره عدة مظاهر فنية منها:

---

(1) صابر عبد الدايم–محمود حسن إسماعيل–بين الأصالة والمعاصرة– ص203.

(2) انظر– السعيد الورقي –دراسات نقدية– ص138–141.

(3) د/ محمد حسن عبد الله– الصورة والبناء الشعري –ص149.

(4) أسرار البلاغة–ص 130-131.

(5) عز الدين إسماعيل– التفسير النفسي للأدب– دار العودة–بيروت– ط4–1981م ص66.

1 -**المظهر الأول** : هو العلاقة المنطقية والظاهرية بين طرفي التشبيه التي تهمل ذات الشاعر وتتجه إلى المحاكاة بين الطرفين ، وهي علاقة مع فهم التراث للصورة الشعرية،حيث يكتفي الشاعر من نقطة إلى نقطة في نفس العالم،كأن يصف محسوس بمحسوس،أو يصف مجردا بمجرد،ويسمى ذلك تعويضا لأنه في هذه الحالة لا يقوم بمجهود تصويري خلاق بقدر مايتولى تنبيه المتقبل إلى زوايا نظر جديدة طريفة تعوض فيها الصورة الصورة الموصوف.(1)

أ- **تعويض المحسوس بالمحسوس** كتشبيه الإنسان وماتصل به من محسوسات حياتية وكونية بمظهريه الجامد والمتحرك.ومثل هذه النماذج يفرض الشاعر وجه الشبه بين الإنسان والطبيعة،كأن يمنح صورة لبطولة الثوار في سبيل الحرية وإعادة كرامة الوطن السليب فلسطين بتشبيههم بالرياح تارة والرعود تارة أخرى:

نَايِفِينَ مِنْ طَرِيقِكِ الرَّدَى عَاصِفِينَ كَالرِّيَاحِ بِالعِدَا
فَجْرُ يَسْتَنْشِقُ عَنْهُ الخِيَامْ وَاللَّيْلُ يَطْوِيهِ نُورُ العِلَمْ !...
رَاجِعِينَ كَالرُّعُودِ لِلْوَطَنْ قَاهِرِينَ كُلَّ أَسْوَارِ الزَّمَنْ

وفي موضع آخر يصور أهل مصر البسطاء وهم يلبون هتاف مصر للحرية كأنهم أجناس طير مسافرة،بعد أن حان موعد الربيع:

أَهْلُ الرِّضَا والحَمْدِ، أَحْبَابُ الثَّرَى - وَالكُلُّ مَهْدَهُمُ التَّقِيُّ الطَّاهِرُ
يَتَجَمَّعُونَ وَيَفْرِدُونَ كَأَنَّهُمْ - أَجْنَاسُ طَيْرٍ لِلرَّبِيعِ تُسَافِرُ (2)

أو تشبيه بعض ظواهر الكون أو الطبيعة بالطبيعة نفسها ، وبذلك نلاحظ أن الطبيعة أداة فعالة في عملية التشبيه. وبعض هذه الأمثلة،تشبيه الأنجم بالطير والنيل بالأسد والقبور بالحمائم. وكلها لها علاقة تجمع بين المشبه والمشبه به . الأنجم التي تحوم في الفضاء كالطيور،والنيل كالأسد في قوته وهديره،والقبور ببياضها وعزلتها واجتماعها في أسراب كالحمام :

- ذَهَبْتُ لَهُ وَالأَنْجُمُ البِيضُ حُوَّمٌ - عَلَى خَمْرِهِ كَالطَّيْرِ تَحْسُو وَتَرْشِفُ (3)
- سَبْعُونَ عَامًا يَدُوخُ الدَّهْرُ فِي يَدِهَا - وَالنِّيلُ يَزْأَرُ فِي القُضْبَانِ كَالأَسَدِ (4)
- وَدَنَا الشيد من القبور فَأَرْعَشَتْ - طَرَبًا بِمَقْدَمِ نَعْشِهِ فَرِحَاتُ
كَحَمَائِمٍ نَزَحَتْ فَظَلَّلَ سِرْبَهَا - ظِلُّ المَسَاءِ بِوَحْشَةِ الفَلَوَاتِ.

ب-**تشبيه المجرد بالمجرد** : ويشبه الاتجاه الأول، وفي كل من الحالتين لايخرج من العالم الذي ينتقل فيه مجردا كان أم محسوسا لأن قوام كل منهما هو التعويض كتشبيه المنايا بالجن، والدهر بالسريرة، والأسى

---

(1) محمد الهادي الطرابلسي -خصائص الأسلوب في الشوقيات ص 195.

(2) نار وأصفاد -ص125.

(3) غاب قوسين -ص176 .

(4) نار وأصفاد ص-88.

بالذكرى، والعمر بالخلود، وصوت الحق أو صوت الله بصوت القيامة:

- وَلَيْلِ المَنَايَا عَلَى رَاحَتَيْهَا.
يُزَمْزِمَ كَالجِنِّ خَلْفَ جَنَازَاتِ ثَكْلَى

- وَالدَّهْرُ مِثْلَ سَرِيرَةٍ نَاءَتْ بِأَعْبَاءِ الذُّنُوبِ(1)

- أَرَاكَ فَيَهْتَاجُ الأَسَى فِي سَرِيرَتِي - كَمَا هَاجَتِ الذِّكْرَى بِنَفْسٍ حَزِينَةٍ.(2)

- فَنَزَّهَ عَنْ قَيْدِ الزَّمَانِ فَعُمْرُهُ - خُلُودٌ مُضِيءٌ فِي الضُّحَى وَالعَشِيَّةِ.(3)

- وَتَمَادَى اللَّيْلُ حَتَّى دَهَمَ الفَجْرُ ظَلاَمَهْ
وَإِذَا صَوْتٌ مِنَ اللهِ يُدَوِّي كَالقِيَامَةْ (4)

2- المظهر الثاني :

ينتقل الشاعر من العلاقة بين المشبه والمشبه به نقلة شعرية حقيقية باتجاهها إلى التعبير عن الذات وعن واقعه، خالقا علاقات لغوية ذات طابع ديني بين المشبه والمشبه به . وتشكلت لديه الصورة التشبيهية التي تحمل ايحاءات دينية من خلال ربط علاقة بينهما سواء أكانت علاقة ذات تناسب منطقي أم علاقة مبالغ فيها،لكن سيطرة الروح الإسلامية هي التي ساهمت بأي شكل من الأشكال في تشكيل تلك الصور التشبيهية التي كثيرا ماترد تشبيهات بليغة . وتورد بعض النماذج على الرغم من كثرتها في شعره، ونحاول أن نبين كيفية توظيفها في رؤاه الشعرية .. كتشبيهه لبعض الظواهر والكائنات الكونية .فالنيل دعاء هادر،والنخل شيخ إلى حرم المصلى سائر.

حَيَّتْكَ فِي الجَبَلَيْنِ شُطْآنُ الحِمَى - وَالنِّيلُ بَيْنَهُمَا دُعَاءٌ هَادِرُ
وَالنَّخْلُ جَلَّلَهُ الوَقَارُ كَأَنَّهُ - شَيْخٌ إِلَى حَرَمِ المُصَلَّى سَائِرُ (5)

كذلك فأمواج النيل كسجادة للطهر والعبادة،وشعاع الضحى الجاث عليه كالساجد في صلاته ، والسفائن تسري حوالي مياه النيل كما يسري تائب ومحرم في كعبة الله:

- أَمْوَاجُهُ سَجَّادَةٌ
لِلطُّهْرِ وَالعِبَادَةْ
تَحْنُو بِهَا الطُّيُورُ وَتَمْرَحُ العُطُورْ (6)

---

(1) صلاة ورفض –ص105 .

(2) المصدر نفسه ص121.

(3) أين المفر –ص118.

(4) لا بد- ص90 .

(5) نار وأصفاد- ص125 .

(6) نهر الحقيقة- ص117 .

- في الضُّحَى والشُّعاعُ جاثٍ عَلى النِّيـــلِ كما خرَّ سَاجِدٌ فِي صَلاَتِهْ (1)

وَتَسَرِّي حَوَالَيْهَا الشَّفَائِنُ حَـــشْعًا- سُرى تائبٍ في كَعْبَةِ اللهِ مُحْرِم (2).

والأفق يتراءى أمام الشاعر كنبي ومصحف وصلاة،والفضاء كغيب شع بالبينات:

- فَوْقَ صَدْرِ الأَثِيرِ وَالأُفْقُ حَوْلِي - كَنَبِيٍّ وَمِصْحَفٍ وَصَلاَة

وَفَضَاءُ الفَضَاءِ غَيْبٌ وَلَكِنْ - لَحَظَ العِلْمِ شَعَّ بِالبَيِّنَاتِ (3)

وتشبيه للفلاح بالعابد الذي انزوى في أحد أركان كوخه الذي يشبه الكعبة،التي يلتمس منها النور والهدى:

وَطُفْ حَوَالَيْ رُكْنِهِ وَالْتَمِسْ- نُورَ الْهُدَى وَالرُّشْدِ يَاحَائِرُ...

ضَمَّتْ حَوَاشِيهِ عَلَى عَـــابِدٍ- مَحْرَابُهُ مِنْ فَاقَةٍ دَائِرِ.(4)

وفي موضع آخر فهو كالناسك في أرضه التي تتسحر له بالإنبات والإثمار بعد دعائه وقناعته وصبره :

جَنَّةُ نَضْرَةٌ الخَـمَائِلِ فِي الزَّيِّـ ـف نَمَاهَا مُعَذَّبٌ فِي حَيَاتِهْ

نَاسِكٌ فِي الحُقُولِ هَيْمَانُ بِالأَرْ- ضِ يُجْلِي بِتُرْبِهَا دَعَوَاتِهْ.(5)

وفي تشبيهه للثورة أيضا كان طابع ديني لما يشبهها أنها نداء من الرحمن :

-مُفَاجِئَةٌ لِلْغَاصِبِينَ كَأَنَّهَا نِداءٌ مِنَ الرَّحْمَنِ جَاءَ بِهِ الأَمْرُ.(6)

كما وصف ركاب أحد قواد الثورة وهي تلمح قدومه المظفر كما يلمح الحجيج في مكة ماء زمزم ،

والعلاقة هي شوق ولهفة للرؤية:

لَمَحَتْ رِكَابَكَ- يَا مُظَفَّرُ- مِثْلَمَا - لَمَحَ الحَجِيجُ بِظِلِّ مَكَّةَ زَمْزَمَا

فَأَتَتْكَ حَاشِدَةً.. تَـكَادُ سَمَاؤُهَا - تَهْتَـزُّ فَوْقَـكَ فَرْحَةً وَتَبَسُّمَا (7)

ومن تشبيهاته الدينية اعتماده على الدلالات الدينية غير الإسلامية،وبخاصة المسيحية كتشبيه الفلاحين بأنهم رهبان،وكوخهم هو الدير-أي دير عبادتهم-والعلاقة هي حياة الصفاء والإيمان التي يعيشها هؤلاء الفلاح :

رُهْبَانُ.. عَـبَّادُونَ حَازُوا الْهُدَى - لَيْـلاً فَمَا فِي دِيرِهِمْ كَافِـرُ

مَنْ لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ صَلاَةَ الدُّجَـى - فِي النَّوْمِ أَدَّاهَا لَـهُ السَّـاهِرُ(8)

كما صور معاناة هؤلاء الفلاحين بوصف جلابيبهم كأنها توراة بؤس :

---

(1) هكذا أغني- ص22 .

(2) أين المفر- ص23 .

(3) نار وأصفاد- ص147.

(4) أغاني الكوخ- ص12-13.

(5) المصدر نفسه- ص219.

(6) نار وأصفاد- ص90.

(7) هكذا أغني- ص159.

(8) أغاني الكوخ- ص14.

جاسوا الحقول مساكينا، جلابيبهم - تَوْزاةُ بُؤسٍ عليها تُقْرأُ العِبَرُ
يَجْنُونَ أيّامَهم ضَنْكًا ومَسْبَغَةً - مِمّا أفاءَ لهُمْ وادِيهُمُ النَّضِرُ(1)

ويتخيل الشاعر أنه يسمع وقع خطوات الشمس فوق الضفاف،وإيقاع تلك الخطوات ولغاها تحت الظلال تشبه ترتيل الأناجيل :

وإيقاعُ خَطْوِكِ فوقَ الضِّفافِ - صَبَاباتُ نايٍ شَجاهُ الحَنِينْ
سَمِعْتُ لُغاهُنَّ تحتَ الظِّلالِ - أناجيلَ تُتْلَى على الرّاهِبِينْ(2)

ويبدو الأفق في وهج الحر الصيفي وكأنه مصفدا،وأصفاده تشبه أصفاد عيسى، وقلقا كقلق مريم وهي تلتفت هنا وهناك لما جاءها المخاض :

وألْقَى على الأُفْقِ المُصَفَّدِ نَظْرَةً - كأصْفادِ عيسَى والْتِفاتاتِ مَرْيَمْ(3)

3- المظهر الثالث

وظاهرة أخرى في تشبيهاته، هي تأثره بالشعر العربي وطريقته في إيراد الصورة،حيث يتفق هذا التشكيل مع تشكيل الشعر العربي القديم مع أمثال المتنبي و المعري و أبو تمام و أبو نواس،أو مع طريقة الشعراء الكلاسكيين في الشعر الحديث كشوقي وحافظ إبراهيم وغيرهما . درج الشاعر في التشبيه في بعض الأحيان نحو القدماء واحتذى منهجهم في التشبيه <<حين يستحيل إلى براعة تنظيرية للأشكال والألوان فتمس الاشياء دون أن تتغلغل في صميمها بل تنتهي أحيانا إلى ما يناقض جوهر الإحساس بها>>(4)

ومن هذه التشبيهات التقليدية التي تعتمد على عاطفة مسرفة وخيال تقليدي في وصفه لحاملة الجرة،وللبحر الذي افتتن بها:

سَارَتْ إلى جَدْوَلِها الدّافِقِ - سَيْرَ الكَرَى في مُقْلَةِ العَاشِقِ
وَانِيَةُ الخُطْوِ كأنَّ الثَّرَى - يَحْمِلُ مِنْها خَطْرَةَ السَّارِقِ
جُنَّ جُنُونَ البَحْرِ لَمّا رَآى - أحْلامَها مِنْ قَبْضَةِ الرّائِقِ
فَصَفَّقَ المَوْجُ عَلَى سَاقِها - مِنْ فِتْنَةٍ كالْوَالِهِ الخَافِقِ (5)

فتشبيه السير الوئيد لحاملة الجرة بسير الكرى في مقلة العاشق وخطرة السارق،والبحر بالواله الخافق،وكلها تشبيهات مترددة في تراثنا الشعري.كذلك تشبيه الشمس تشبيها تقليديا،كتشبيهها في حالة توهجها كالكاعب، وفي لحظات غروبها تشبه قلب الحسود،ولها قبلة من الشوق للنيل كالنار،وأفقها لجة من الدم :

---

(1) أمين المفر- ص94 .
(2) المصدر نفسه- ص56 .
(3) المصدر نفسه- ص29 .
(4) أنس داود -محاولات للتذوق الفني - ص19.
(5) أغاني الكوخ-ص52 - 53 .

ـ وَوَجْنَةُ الشَّمْسِ حِينَ تَبْـدُو – يشَاطِيءِ الأُفْقِ فِي احْتِـــرَاقِ
كَأَنَّهَا كَاعِبٌ تُعَانِـــي – حَرَارَةَ العِشْقِ فِي الفِـــرَاقِ (1)
ـ تَعُودُ إِلَى كُوخِهَا فِي الغُرُوبِ – وَقَدْ حَاكَتْ الشَّمْسُ قَلْبَ الحَسُودْ
مُوَجَّجَةَ القُرْصِ مَلْهُـــوفَةً – عَلَى النِّيلِ تَرْجُوا لَهُ أَنْ تَعُـــودْ
فَتُلْهِمَهُ العَهْدَ فِي قُبْلَـــةٍ – مِنَ الشَّوْقِ تَذْكُو كَنَارِ الوُقُـــودْ
وَتَسْبَحُ فِي لُجَّةٍ مِـــنْ دَمٍ – عَلَى أُفُقِهَا مِنْ غَرَامٍ شَـــدِيدْ (2)

2 – الاستعارة:

تعد الاستعارة من أهم العناصر التي تستعمل في تشكيل الصورة الشعرية في التراث العربي حيث يعدها "عبد القاهر الجرجاني" هي الأصل ويعرفها على النحو الآتي «الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الاصل وينقله أليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية»(3)

ويرى "عبد القاهر" أن للاستعارة فضلا كبيرا في توليد المعاني «فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا. والأعجم فصيحا، والأجسام الخرسة مبينة والمعاني الخفية،بادية جلية ... وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون وإن شئت لَطُفَتْ الأوصاف الجثمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون.»(4)

والفهم التراثي للاستعارة جعلها من مكملات المعنى،أي تقوم بوظيفة التوضيح. ولذلك خضعت للمنطق وقامت العلاقة بين طرفيها على التناسب المنطقي بين المستعار منه والمستعار له.بل اعتبرت الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه. لا الجوهري في الاستعارة هو أننا لسنا إزاء معنى حقيقي ومعنى مجازي هو ترجمة للأول ، بل نحن في الحقيقة إزاء معنى جديد نابع من تفاعل السياقات القديمة لكل طرف من طرفي الاستعارة داخل السياق الجديد الذي وضعت فيه،أو كما يقول أحد النقاد الغربيين "أرنولد هوسر " من دلالة الإستعارة «تنطوي كل صورة شعرية أصيلة على عنصر من عناصر ازدواج المعنى.فالشيئان اللذان نعقد المقارنة بينهما في تشبيه ما أو نصل بينهما في كناية أو استعارة،إنما يشبهان بالأحرى شيئا ثالثا ولا يشبهان بعضهما البعض.»(5)

وعلى الرغم من أنه ليست هناك مفاضلة بين أنواع الصورة ، ولكن الصورة تفضل بمدى توفيق الشاعر في صياغة موفقة بالدلالات والإيحاءات،مهما كان نوع الصورة أو مهما كانت مصادرها التخيلية.فقد يكون

---

(1) أغاني الكوخ – ص 126.

(2) المصدر نفسه – ص 35.

(3) أسرار البلاغة – ص22.

(4) المصدر نفسه –ص33.

(5) فلسفة تاريخ الفن–ترجمة رمزي عبده جرجس – الهيئة العامة للكتب – مطبعة جامعة القاهرة– 1968م ص110–111.

التشبيه أكثر تصويرا من الاستعارة في سياق محدد والعكس صحيح. وليس معنى تفضيل الاستعارة على التشبيه عجز التشبيه عن أداء دوره،وإنما لمرونة الاستعارة وتخطيها للعلاقات المنطقية في الواقع وفي اللغة(1)وظلت منذ أن قرر أرسطو أن الاستعارة محك الشاعرية ودليل عبقرية الشاعر(2).

ولهذا السبب كانت الاستعارة عند الشاعر محمود حسن إسماعيل هي السمة الغالبة في شعره،وأعمق من التشبيه،وأكثر إيغالا واقتدارا على التحليق الفني المتميز،واكتشافا قائما على نفاذ الرؤية الروحية للأشياء والظواهر، وانصهارا في تجربته أو موضوع شعره." وإيغال الشاعر في وسائل تصويره في عالم التحليق بوسائل استعارية،أمر يتصل بفطرته ومكوناته النفسية يتوجه إليها توجها عفويا منعكسا من ذاته على فنه الشعري.

ولا سبيل إلى اصطناعه إلا عند من يزيفون المشاعر والأحاسيس ولا يلتمسون من الفن غير مايلتمسه المعدمون من بريق الجواهر المزيفة (3).

وقد استطاعت فطرة محمود حسن اسماعيل المرهفة أن تهديه إلى هذا الحس الاستعاري في لوحات عديدة من دواوينه. فكثيرا مائتلىء القصيدة بأجواء الاستعارة المتنوعة من تصريحية ومكنية . تتخذ طابعها التقليدي حينا،والابتكاري حينا آخر. ونعرض نماذج لمجموعة من القصائد تشكل من استعارات جزئية تستحوذ على بنائها العام مثل قصيدة "عدو الاستبعاد" التي يمنح فيها الشاعر للمحسوس والمجرد صفات وخصائص الإنسان (الكأس تعجب ، الأقداح فاغرة فاها ، الشعر يوميء، الأوتار ضارعة، غناء الخلد ، جلجلت العيدان ، يستغفر العنب ، تململ الجمر ، اشتكى اللهب ، السيف يعزف ، تصغي وتخشع الشهب، تلاقت الكتب، شهاب يرتقب ، الرمل يعشق ، الليل يرمي ظنونه،للسياط وهوهة،ظهر الرق،وسوس الذهب، الكواكب لم يهدأ لها صخب ، تفتك وحدتهم،التيجان مفزعة،طير تائه ،قلب العروبة،...(4)) وقصيدة "تكبيرة الزحف" (ظلام يغني، ضوء ينوح،سكون شقي، أثيم الظلال،أفق جريح ، يبوح البلى، مزامير ويل، دخان الشقاء ، أعاصير حقد،عويل الغيوب ،شقهات القدر،تحمد الدعاء، النبع ساه حزين،صحو الجفون، الخطايا عرايا، ظل السكون، عواء الرياح، راحتي البغي، ظلام مهين، بغايا الحظوظ، تجار دوالي الكروم، يصغي الجبل،يعوي اللظى، غمزات الظلام،جبين الوجود، فجر عنيد الضياء، تزحف راياته، يزأر الليل،ضلال السنين،يوم يكبر، تخفق هالات. (5))

وقصيدة "موسيقا الوداع الاخير" (الزفرة المطرودة،النظرة الموؤدة،اللحظة السارقة، الرعشة الخرساء، كف

---

(1) مدحت سعد محمد الجبار –الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي– الدار العربية للكتاب– طرابلس– ليبيا– 1984م– ص133.

(2) محمد حسن عبد الله،الصورة والبناء الشعري ص12.

(3) أنس داود–شعر محمود حسن إسماعيل محاولات للتذوق الفني ص17.

(4) نار وأصفاد ص159–166 .

(5) التائهون ص67 .

الغيب، السراج الضارع المهضوم، حلم عود، رفات ثمرة، بذرة حمقاء، حيرة ضريرة، عتمة مقهورة، سكينة تنقض، طيف حلم، حيرة مبعثرة، ذهول لحظة، اندهاشة الجنائز،ارتعاشة الضوء، موجة صوفية، تلعة جاهلة، شوق لجة، وجه عاصف، الصفاء يخطف.)[1]

وتحليل تلك الاستعارات تحليلا تقليديا قد لا يضيف جديدا، ولكن الأهم من ذلك أن التعبير الاستعاري قد اتسع إطار توظيفه من إطار جزئي إلى إطار مركب في عمليات تحويلية شكلت إطار ضخما في بناء صوره إلى جانب التشبيه أيضا،الذي ساهم بقسط وافر في عمليات التحويل،والتي تتم بانتقال الشاعر من نقطة تنتمي إلى عالم تنتمي إلى ثان،كأن يصف محسوسا بمجرد أو مجرد بمحسوس،لأن الشاعر إذاك يولد من الموصوف صورة مختلفة يعمل الخيال كثيرا في بلورتها.[2]

وبهذا فتوليد صورة من صورة لا يتأتى إلا بإعمال الخيال وإبداع الصور، والذي ينتج أنواعا من البناءات كالتجسيد أو التشخيص والتجسيم،والتي اجتهد الشاعر فيها من أجل بناء تصويري حديث.

3 – التجسيد:[3]

إذا كان الجسم هو الهيكل المحسّ لكل ما يشغل حيزا من المكان،فإن الجسد مختص بجسم الإنسان.[4] والتجسيد بذلك يُكسب الصور المعنوية أو الحسية ملامح الإنسان أو صفاته أو أفعاله.وهو أعمق في هذا المعنى من التشخيص الذي يعني سواد الإنسان أو غيره تراه من بعيد،وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه[5]. ونستطيع القول أن لكل ذي جسد جسما أو شخصا وليس لكل ذي جسم أو شخص جسد، فمصطلح التشخيص الذي ظنه المحدثون تجسيدا وتعقيلا،لا ينهض له سند لغوي،وخير المصطلحات ماروعي في لفظه المماثلة والمشاركة بين الدلالتين اللغوية والوضعية.[6]

---

(1) صلاة ورفض ص151–158 .

(2) محمد الهادي الطرابلسي –خصائص الأسلوب في الشوقيات- ص195.

(3) صادفتني في مرحلة البحث عن الصيغ الفنية للشاعر محمود حسن إسماعيل إشكالية تحديد المصطلح بين هذه الدلالات الثلاث " التجسيم، التجسيد، التشخيص".إذ رأيت خلطا إصطلاحيا لدى النقاد المحدثين حول تلك الدلالات،وبخاصة مصطلح "التشخيص" الذي أغرم به النقاد كثيرا وأصبح هو المصطلح الموظف في النقد الحديث،على الرغم من أنه منقول من المعجم الإصطلاحي الغربي الذي يقابل كلمة PERSONIFICATION التي تستخدم للإشارة إلى خلع الصفات والمشاعر الإنسانية على الأشياء الطبيعية والمادية والتصورات العقلية والمجردة.ولكن البحث في تراثنا اللغوي والنقدي يجعلنا نكتفي بمصطلحي "التجسيم والتجسيد" واللذان يجب توضيح دلالتهما اللغوية والنقدية قبل توظيفهما في دراستنا هذه.

(4) ابن منظور – لسان العرب– مادة جسد–ج1–ص 622 .

(5) المصدر نفسه – مادة شخص – ج 4 ص 2211.

(6) عبد الإله الصايغ– الصورة الفنية معيارا نقديا– ص419 .

وهذا فالتجسيد يعوض دلالة التشخيص الذي اعتاد بعض الدارسين أن يعنوا به بما يسمونه بالأنسنة أو الإحياء.ويتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية، هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية تشمل المواد والظواهر والانفعالات .وتهب لهذه الاشياء كلها عواطف آدمية، وخلجات إنسانية،تشارك بها الآدميين،وتأخذ منهم وتعطي،وتتبدى لهم في شتى الملابسات وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين، أو يتلبس به الحس فيأنسون بهذا الوجود،أو يرهبونه في توفز وحساسية وارهاق".(1)

ويعد التجسيد من أهم أدوات تشكيل الصورة الفنية في الشعر العربي قديمة وحديثة بارتكازه على الاستعارة بالدرجة الاولى فهو وسيلة قديمة كما يرى أحد النقاد <<تتسرب في كياننا موغلة الأسباب قد يكون من بينها بقايا الاعتقادات القديمة في أنفسنا في شكل غامض وحاجة الإنسان إلى وثاق يربطه بالطبيعة.>>(2)
وهي إلى جانب ذلك ملكة خالقة<< تستمد قدرتها من سعة الشعور حينا،أو من دقة الشعور حينا آخر. فالشعور الواسع هو الذي يستوعب كل مافي الأرض والسموات من الأجسام والمعاني،فإذا هي حية كلها لأنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة.والشعور الدقيق هو الذي يتأثر بكل مؤثر،ويهتم لكل هامسة ولامسة فيستبعد جد الاستبعاد أن تؤثر فيه الاشياء ذلك التأثير،وتوقظه تلك اليقظة وهي هامدة جامدة صفر من العاطفة خلو من الإرادة.>>(3) ومنهما بلغ إنكارنا لأن يكون التجسيد مجرد صدى لعقائد القدماء من أجل تفسير للظواهر الكونية والحياتية،ومهما اشتد إلحاحنا على عمق العاطفة وسعة الخيال لن نستطيع أن نكشف كشفا تاما عن لب التجسيد، أو كما يصطلحون عليه بالتشخيص(4) لكنه يظل <<ذوقدرة على التكثيف والاقتصاد أو الإيجاز،وقد عزا إليه"رتشاردز" الفضل في تجنب انتشار الدوافع الانفعالية وتبددها لذلك يتميز من كل أسلوب يراد به إحداث مفاجأة أو مخادعة فضلا على أساليب الشرود الذهني التي تفسد العاطفة،وأهم ماينبغي أن يحرزه التجسيم الثبت رسوخ الإطار العاطفي،بحيث نتجاوز عتبات الحسي والمعنوي،ونكتفي بمقولة لا هي حسية ولا هي معنوية خالصة،وإنما هي الدنيا السحرية التي تجمع الظاهر والباطن الحسي والمعنوي>>(5)
ويعد التجسيد أداة جوهرية في شعر محمود حسن إسماعيل،بل هو الصورة الشعرية عنده.وكما أكد محمد مندور أنه من وسائل فنه القوية إلى حد اعتباره مجرد عبث أو مهارة (6) لكن واقعه الفني أكد أن إسرافه في استعماله يعود لإرادة فنية فيه تريد أن تلمس الحقائق وتقدمها

---

(1) عباس محمود العقاد–ابن الرومي حياته من شعره– دار الكتاب العربي لبنان-ط6 -1967م-ص305 .

(2) انظر-مصطفى ناصف –الصورة الأدبية– ص136.

(3) عباس محمود العقاد –ابن الرومي حياته من شعره–ص 305.

(4) انظر-مصطفى ناصف –الصورة الأدبية – ص136

(5) المرجع نفسه– ص136–137.

(6) في الميزان الجديد –ص100.

بجسدة من ناحية ومن ناحية أخرى يبدي تعاطفه مع واقعه المادي المحسوس،الذي يجد متعته بمزجه بواقعه المعنوي التجريدي.فكانت معظم صوره قوامها أنسنة الموجودات من جماد أو حيوان أو نبات،وكذلك المعنويات من قيم وأحوال وحالات . وقد غدت جميعا على يد شاعرنا إنسانا يتحرك،ويتصف بكل صفات البشر وخصائصهم من حركة وإحساس وشعور.

1- ولا يرد التجسيد عند الشاعر على وتيرة واحدة،فهو تارة جزئي يعتمد على الوصف المباشر،أو العلاقات المجازية البسيطة من تشبيه حذفت أداته،ثم أضيف فيه المشبه إلى المشبه به،أو استعارة تخييلية أو ما إليها.ومن ثم كثرت في شعره أمثال هذه الأنماط التصويرية والدوائر الميجازية البسيطة التي لا تشف في كثير من الأحيان عن أبعاد نفسية عميقة الأثر(1). لكن في رأينا أن هذه الصور التي تقوم على الإستعارة والمجاز تكثر فيها الألفاظ المحملة بالدلالات والرموز،على الرغم من أنها صور جزئية،فهي تتألف بإيحاءاتها الشعورية،لتفصح عن صور مركبة تحتوي رؤية الشاعر وتجربته.

ففي وصف الريف مثلا ينتهج الشاعر سبيل التجسيد الجزئي لظواهر وكائنات الريف . لكنها في النهاية تعبر على تلاحم تلك الظ واهر والكائنات وتفاعلها مع بعضها البعض،لتحقق حياة مثالية وجميلة ،يتفاعل معها الشاعر بكل وجداناته فيمنح كل جزيئات الطبيعة معاني الحياة الإنسانية.ومثل هذه العلاقات المتلاحمة تتجلى في قصيدة "الفردوس المهجور" فالريحان يطوف في روضة تلبس أرجوان الورود،وترفل في سندس ضاحك، ويتنفس السوسان عن شذى ينشقه الطير،ويداعب النسيم أعطاف الفل وبنات الأقاح،لتضمخ بدورها جيب النجود،ويعطف على الزهور،وتخلو العصافير مع النحل والفراش في الروابي والحياض (2).

2- وهو تارة أخرى تجسيد أو تشخيص مركب يعتمد فيه الشاعر على استقصاء عناصر الصورة أو الاستطراد فيها بإهمال الطرف المعنوي،والانسياق في جلاء صورته الحسية،وقد يتطرق من ذلك إلى صور تابعة لأدنى ملابسة مما يضفي على التشكيل ظلا من التعقيد،مرده إلى وقوع الفنان تحت إغراء الصور الثانوية التي تتدفق على قلمه،فيستطرد إليها متخليا لبعض الوقت عن المحور الأصلي للصورة (3).ومن نماذج تجسيد الشاعر المعنوي المجرد والمحسوس الحي والجامد :

وَفِي مَرَّةٍ وَالدَّجَى مُلْحِدٌ
إِلَى اللهِ أَقْبَلَ يَسْتَغْفِرُ
وَنَفْسِي كَتَائِبَةٍ لَمْ تَزَلْ
رُفَاتُ المَعَاصِي بِهَا تَنْظُرُ

---

(1) محمد فتوح أحمد - التشكيل بالصورة في الشعر محمود حسن إسماعيل - مجلة الثقافة-ع 57-ص61.

(2) انظر - أغاني الكوخ - ص28--32،أو فصل رؤيته الكونية-مبحث جمال الكون.

(3) المرجع نفسه - ص 61.

فَقالَتْ:وَكَيْفَ الْتَقى العَاشِقَانْ
مَتابٌ وَإِثْمٌ بِهِ يُجْأَرُ؟
وَكَيْفَ الخَطَايَا تُصَلِّي؟ وَكَيْفَ
خُضُوعٌ وَرَفْضٌ بِهِ تُؤْمَرُ ؟
فَقُلْتُ اسْتَرِيحِي مَرَايَا النُّفُوسِ
عَلَى وَجْهِهَا الْحَقُّ لاَ يُسْفِرُ (1)

والواضح أن هذه الابيات يعتمد البناء فيها على التجسيد،فالدجى انسان ملحد أقبل إلى الله يستغفر، وجسمت المعاصي فغدا لها رفات ثم جسدت فصارت تنتظر،والإثم يجأر والخطايا تصلي . والتجسيد قائم على تركيب الصور للتعبير عن حالة الذنب،وضجر الخطايا من حياتها،والآملة في العودة إلى الله،ولكن التوبة غير مقبولة،لأن الخطايا لا تصدق في صلاتها،والحق لا يسفر على وجه النفوس غير الصادقة.وتتضح المفارقة بين الصور المجسدة للذنب،والصور المعبرة عن المتاب في الإنكار الذي يكمن في الإستفهام الذي تكرر مرتين في الأبيات.

3 ـ ومن الأدوات التي شكل بها الشاعر صوره التجسيدية ما يلي :

أ- خلق علاقة بين المجردات أو المحسوسات وصور العذارى والعرائس والزهاد والنساك والصوفيين والرهبان والشيوخ،والتي تستحضر معها الجمال والطهر والإيمان والحكمة.ولا يتم ذلك من خلال أحادية تلك الألفاظ، بل من خلال دلالتها الممتدة عبر الأبيات.مثل زهرة القطن التي تبدو كعروس،عاقدة أكليلها من سوسن، معانقة طيف الضحى،مكتئبة إذالاح الأصيل:

يَاعَرُوسًا لَمْ تُزَيِّنْهَا يَـــــدٌ - غَيْرَ كَفِّ الْمُبْدِعِ الفَنِّ الصَّنَاعْ
عَقَدَتْ إِكْلِيلَهَا مِنْ سَوْسَـــنٍ - بَاهِيَ الأَفْوَاقِ، تِبْرِيَّ اليَفَاعْ...
عَانَقَتْ طَيْفَ الضُّحَى وَاكْتَأَبَتْ - لِأَصِيلٍ لاَحَ تَخْنُوقَ الشُّعَاعْ. (2)

أما الصور المجسدة التي توحي بالمعاني الدينية صورة الزهرة التي كانت عروسا عند الشروق،وأضحت عند الاصيل،مطرقة الأصل،خاشعة كصوفي في محرابه:

وَرَنَتْ لِلشَّمْسِ يَخْبُو سِحْرُهَا - بَعْدَمَا أَذْهَلَ أَجْفَانَ القِلاَعْ
فَبَدَتْ حَانِيَةَ الرَّأْسِ أَسَـــى - تَرْمُقُ الغَرْبَ بِمَضٍّ وَالْتِيَاعْ
مِثْلَ صُوفِيٍّ تَرَاءَى خَاشِعًـــا - مُطْرِقَ الرَّأْسِ بِمِحْرَابِ التَّلاَعْ(3)

---

(1) نهر الحقيقة ـ ص49-50.

(2) أغاني الكوخ ص 24.

(3) المصدر نفسه ـ ص 92 .

وتتراءى المسبحة أمام عين الشاعر عذراء ناسكة في يد حاملها :

وَالسُّبْحَةُ العَذْرَاءُ قَدْ طَوَّفَتْ
كَأَنَّهَا نَاسِكَةٌ فِي يَدِهِ
ظَمْآَى إِلَى الإِيمَانِ قَدْ أَشْرَفَتْ
تَفْنَى مِنَ الشَّوْقِ عَلَى مَوْرِدِهِ (1)

وكذلك الغراب فهو راهب النخيل،لأنه يستوطن أعاليها، يتأمل الزمان والحياة والبشر،فهو شيخ وراهب حينا، وكاهن وقسيس حينا آخر.ونلاحظ أيضا اجتلابه صورة الرهبان والكهنة والقساوسة،وهي معان دينية غير إسلامية،وإنما شدته صورة من العزلة والوحدة والغموض والتأمل والحكمة:

فَيَا رَاهِبَ الأَزْمَانِ كَشِّفْ سُتُورَهَا - وَأَفْصِحْ فَإِنَّ العَقْلَ حَيْرَانُ صَادِرُ...
فَيَا كَاهِنَ الأَيَّامِ جِئْتَ مُعَلِّمًا - لِقَابِيلَ يَقْضِي بِالَّذِي أَنْتَ آمِرُ...
لأَقْسَمْتُ يَا شَيْخَ العُصُورِ تُذِيعُهَا - وَتَنْعَى بِهَا فَوْقَ الشَّتَاجِ العَصَافِيرُ...
فَقَالَ: أَنَا القِسِّيسُ وَالكَوْنُ مَعْبَدِي - وَبِالشَّرْعِ فِي دِينِي، البَرَايَا كَوَافِرُ...(2)

ب- استخدام أعضاء التشكيل الإنساني طرفا في التشكيل، وهذه الصور تجعل المشبه بجسدا أو حسيا،كأن يكون للأشياء الجامدة أو المجردة أكف وأقدام وشفاه وعيون وأيد وقلوب وأصوات وغيرها.

فالأرض لها وجه جميل،وصوت رخيم سواء في برها أم بحرها :

أَرْضِي... وَمَا أَقْدَسَهَا حَيَاةْ ...
جَمِيلَةٌ فِي وَجْهِهَا الحُقُولُ وَالجَنَائِنْ
رَخِيمَةٌ فِي سَمْعِهَا الأَمْوَاجُ وَالسَّفَائِنْ (3)

كذلك الشمس فهي لها جبين وخطو . وهي ملامح تؤهلها فيما بعد لكي تمس كل هامد فتنبت الحياة:

جَبِينُهَا حَيَاةْ
وَوَجْهُهَا حَيَاةْ
وَخَطْوُهَا حَيَاةْ
تَمَسُّ كُلَّ هَامِدٍ فَتُنْبِتُ الحَيَاةْ (4)

وهذه الأعضاء تمنح الحركة والحياة للأشياء الجامدة أيضا،كمآذن المسلمين التي تبدو لها سواعد مشلولة ممتدة في الفضاء تمد إلى الله راحاتها مع آذان الفجر العربي الزاحف لتحرير فلسطين:

---

(1) صوت من الله- ص103.

(2) هكذا أغني -ص 240-249 .

(3) نهر الحقيقة -ص112.

(4) المصدر نفسه -ص130 .

وَلاَحَتْ مَآذِنُهَا فِي الظَّلاَمِ - وَقَدْ أَذْهَلَتْهَا عَوَادِي الغِيَرْ
سَوَاعِدُ مَشْلُولَةٌ فِي الْفَضَاءِ - تَجَمَّدَ فِيهَا دُعَاءُ البَشَرْ
تَمُدُّ إِلَى اللهِ رَاحَاتِهَـــا - وَتَزْأَرُ فِي صَمْتِهَا الْمُسْتَمِرّ (1)

ومثل هذه النماذج كثيرة في شعره مهما غالى الشاعر في ذلك لا يمكن أن أتهمه بالمغالاة ـكما يرى" مصطفى عبد اللطيف السحرتي" ـأنه يغالي في خلع السمات البشرية على الجماد والنبات" (2).

ففي هذا النموذج مثلا،نلحظ المعاني التي رسمها من خلال تجسيده للمآذن التي لاحت بالبريق ذاهلة من عوادي الغير، وهي سواعد مشلولة في الفضاء وملأى بدعاء الألوف من اللاجئين والمضطهدين،ولكن هذا الدعاء متجمد،وفي لفظ الشلل تعبير عن المأساة الدينية التي تعيشها فلسطين. وفي لفظ التجمد إفصاح عن توقف القضية وتيهها في الساحات السياسية. وهذه المآذن تمد إلى الله راحتها صامتة،وفي صمتها زئير، وقد يبدو الزئير والصمت متنافرين، ولكن بالتأمل نلمح أن الصمت هو سكون قبل العاصفة.

كذلك المجردات فهي أيضا جسدها الشاعر بأعضاء الإنسان لتعبر عن معانيه النفسية والروحية،ويستحضر صورة الشرك في زمن الإسلام الأول،ويجعل له يدين حاملتين للهول والموت في وجه الإسلام :

فِي سَاحَـــــةِ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ - الَّتِي انْتَهَتْ بِاللهِ أَكْبَـــرْ.
وَمَضَى الشِّرْكُ بَيْنَهُمْ مُزْعِجَ الْهَيْ - جَةِ طَيْشَانَ كَاللَّظَى الْمُتَسَعِّرْ
جَمَعَ الْهَوْلَ كُلَّهُ فِي يَـــدَيْهِ - وَمَضَى بِالحِمَامِ فِي الْهَوْلِ يَزْفُرْ
إِنْ يَكُنْ كِبْرُهُ أَجَنَّ البَـــلاَيَا - لِنَبِيِّ الإِسْلاَمِ ... فَاللهُ أَكْبَرْ(3)

جـ ـ استخدام السؤال والحوار مع المجردات والمحسوسات ،حيث يتمثلها الشاعر تسمع وتعي وتجيب ... وهي وسيلة متداخلة مترابطة تحرك صورة معنوية أو مادية،وتبث فيها الحياة.مثل حواره بالسؤال والجواب بينه وبين الريح والنجم والطير في قصيدة " الموؤودة " التي رمز بها إلى الحرية التي وئدت بيد الطغاة والغاصبين. ولما ضرب الليل على جبين الأرض والقيود الغاشمة تزهق الأنفاس في كل مكان،راح الشاعر يتلمس لتلك الحرية شعاعا في فجاج الوجود.ويبحث عنها مسائلا موجودات هذا الكون بعد أن عجز الواقع الإنساني المتردي عن الإجابة،ولكنها أيضا لم تقدم له إجابات شافية،وكأنه بذلك يريد أن يشعرنا بأن إنعدام الشعور بالحرية شمل حتى تلك الكائنات والظواهر ... وهكذا يعمم ذلك الشعور بهذا التجسيد الحواري:

كَمْ سَأَلْتُ الرِّيحَ عَنْهَا فَشَكَتْ - بَرْحَهَا وَانْسَرَبَتْ فَوْقَ الجِبَـــالْ
ثُمَّ قَالَتْ : إِنَّنِي طَـــــوَّافَةٌ - هَكَذَا مُنْذُ تَعَلَّمْتُ الرِّحَـــــالْ...

---

(1) قاب قوسين ـ ص72.

(2) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث- ص 47 .

(3) هكذا أغني ـ ص 151-152.

وَسَأَلْتُ النَّجْمَ عَنْهَا فَمَضَى - رَاعِشًا يَخْبِطُ فِي عُزْلَتِهْ
قُلْتُ حُرٌّ؟ قَالَ : هذا فَلَكِي - رَاسِفٌ حَيْرَانُ فِي دَوْرَتِهْ ...
أَيْنَ أَمْضِي ؟ قَابَلَتْنِي حُسَّرَةٌ - مِنْ بَنَاتِ الطَّيْرِ تَجْتَابُ الفَضَاءْ
قُلْتُ : مَنْ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: عَبْدَةٌ - لَمْ تَدَعْ فِي الْكَوْنِ أَرْضًا أَوْ سَمَاءْ ...(1)

كذلك المجردات يستحضرها ويجسدها بهذا الجو الحواري،وأكثر ماستقطبت حواراته المصحوبة بالإجابات والتساؤلات التي تكشف عن حقيقة من حقائق النفس وأبعادها الروحية والحياتية، هي حواراته مع النفس الإنسانية - مجسدة في نفسه - مثلما في قصيدة "هتك البراقع" التي هي عبارة عن مقاطع حوارية متباينة المضامين والصيغ بينه وبين نفسه.وتكشف تلك الحوارات عن علاقة النفس أو الإنسان بالحياة والموت،والخير والشر،والكون والغيب(2)... ومن حوار المجردات مادار بين الذنوب والتوبة من حديث ذو شجون في قصيدة " حديث الذنوب" كشف عن الصراع بين الإثم والندم الذي يعيشه أي إنسان،واستطاع الشاعر أن يجسد هذا الصراع في قالب حواري ممتع(3).

والتجسيد بالحوار يصورالعلاقة التي تحدث بين الشاعر والكون فيكمله ويحاوره ويناقشه،حتى وان كان الحديث أو الحوار مبتورا،لأنه من جانب أو طرف واحد كأن يكون من طرف الشاعر.ولكن يهمنا أن جعل الطرف الآخر المادي أو المجرد إنسانا يسائله،وهي أسئلة تعكس التعاطف والأسى،أو تعكس الحيرة و الغربة مثلما يخاطب الرياح ويسألها دون أن تجيبه!المهم إنه حوّل وجود الريح المادي المألوف الذي يرتبط عادة في أذهان الناس بالقدرة والحرية والإنطلاق،فيغدو رمز للضيق والأسر، حيث يعيش الشاعر الظمأ إلى النور والضيق بالناس والأسى لمصير الإنسان في الحياة :

أَعْوِلِي يَارِيَاحُ ،قَيْدُكِ خُلْدٌ - وَبَلَايَاكِ لَيْسَ مِنْهَا مَفَرّ
وَأَنَا مِثْلُكِ فِي القُيُودِ حَيْرَانٌ - أَخَيْرٌ سَلَاسِلِي أَمْ شَرّ؟ (4)

أو أن يجعل الشاعر السؤال من الطرف الآخر، ولا يجعل له إجابة،ويعكس ذلك أيضا نفس المشاعر والرؤى. كأن تطيل السماء سؤالها وعتابها وحسرتها عن واقع المسجد الاقصى بفلسطين،ولكن لا من مجيب أمام هول المأساة الدينية التي يعيشها هذا المسجد :

وَعَيْنُ السَّمَاءِ تُطِيلُ العِتَابَ إِلَى نَظْرَتَيْنْ ...
تُدِيرُ السُّؤَالَ عَلَى المِنْبَرَيْنْ
وَتَبْحَثُ عَنْ ثَالِثِ المُسْتَحِدَّيْنْ...

---

(1) نار وأصفاد،ص 37 .

(2)انظر- فصل الرؤية الروحية- مبحث التذكير-ص 106 .

(3) انظر-فصل الرؤية الروحية- مبحث التذكر- ص 125.

(4) أين المفر-ص63 .

وَتَعْصُرُ مِنْ قُدْسِهَا آهَتَيْنِ...
وَتَسْأَلُنِي وَالضُّحَى فِي غَدِيرِي
لِمَاذَا مَعَ النُّورِ مَاتَتْ زُهُورِي؟!!
وَحَطَّتْ عَلَى أَوَّلِ القِبْلَتَيْنِ... (1)

وأسلوب آخر للمخاطبة وهو أن يترك تلك المجردات أو المحسوسات تتكلم،وتتحدث عن نفسها كأنها إنسان ناطق،وتعبر عن حالاتها وواقعها بكل ماتحمل من دلالات إنسانية.كالسنبلة التي تغني وتشدو بملكها وطهرها وصلاتها بين الحقول وبحياتها وعطائها وتضحياتها وتسير قصيدة " سنبلة تغني" على هذا النغم الممزوج بالفخر الذي يمتاز به الإنسان دون سواه(2).والدودة التي تدعو إلى التواضع وعدم التكبر والاعتبار من المو ذلك في قصيدة " هكذا قالت دودة القبر"(3).

والحوار يضفي إيحاءات أخرى لا من خلال النشاط التخييلي الذي يقيمه الشاعر من خلال السؤال والإجابة بل من خلال النداءات والاستفهامات وأساليب الأمر والطلب،لأنه بهذه الأساليب الحوارية أيضا << يلقي إلى الذهن سريعا صورة بجسدة مشخصة لصاحب السؤال والإجابة أو من ينادي عليه أو يأمره>> (4)

ومن أساليب النداء الموجهة إلى بعض الجمادات مخاطبته للنيل للإشادة بدوره في إنعاش الحياة عبر التاريخ، وأسلوب النداء أضفى عليه حياة وحركة وسمة إنسانية وذلك في قصيدته " أغنية للنيل"(5).كما استعمل أسلوب النداء لمخاطبة الموت وهو شيء غيبي مجرد،وهذا الأسلوب قربه إليه كأنه يراه،وراح يصف له حقيقته كأنه يسمعه ...وذلك في قصيدة "سارق الضياء"، إذ يبدو التجسيد من خلال العنوان ووصفه بالسرقة_أي سرقة الحياة_لفجائية فعل الموت وبغته،والقصيدة كلها عبارة عن نداءات للموت محملة بشتى النعوت الأوصاف(6).

د- استخدام الفعل الذي يدل على الحركة أو الذي يجمل صفات وحركات الحياة أو الإنسان ليحقق التجسيد في صور استعارية حيث نلاحظ تأثير الفعل على المجردات والجمادات فيحركها ويجعلها إنسانية دون أن تضيف هي تأثيرا فيه،ويظهر ذلك في كثيرمن النماذج المتفرقة في دواوينه.حيث يتحول الفعل بكل حركيته وأزمنته إلى أداة قوية للتجسيد، مع مكملات أخرى لطبيعة الجملة الفعلية،أو ماتسمى في العرف النحوي بالفضلة،والتي

---

(1) موسيقا من السر ص80 .
(2) انظر- فصل الرؤية الكونية- مبحث فاعلية الكون- ص 260.
(3) انظر- فصل الرؤية الروحية- مبحث التذكير- ص 95.
(4) مدحت سعد محمد الجبار - الصورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي - ص 157.
(5) انظر- فصل الرؤية الكونية - مبحث فاعلية الكون-ص 263.
(6) انظر- فصل الرؤية الروحية- مبحث التذكير- ص 97 .

لا يمكن إنكار دورها في تأدية المعنى وإكماله.ففي قصيدة "أنا والنفس والطريق" (1) مثلا يتصدر فعل الامر والطلب كل بيت تقريبا ... وتسير الحركة الفعلية المجسدة حتى آخر القصيدة ... ويمكننا أن نحصي أكبر قدر ممكن من هذه الأفعال في القصيدة (اتبعيني - احذري - اسمعي - كوني - مزقي - ارفعي - انقذي - اصرعي - اركبي - اكشفي - امضي - اتركي - اشربي - اعبري - اخلسي - استمري - اسكبي - ابسمي - اسلبي - غلفي - استمدي - سيري - ازحفي - انظري - انهلي - اتسحي - اسحقي ".) (2) ويجد النمط التجسيدي نفسه في حديثه عن الموت كموضوع غيبي،حيث جسده وأعطاه الفعل والحركة،فكان عمله حسي ينفذ إلى عالم الإنسان بكل حقائقه الواقعية والوجدانية بتلك الافعال الحسية التي نعثر عليها بكثرة في قصيدة " موسيقى من الموت" (3)،والتي تجاوز فيها الشاعر أساليب الامر والطلب القابلة للتحقيق الفعلي أو عدمه،حيث أدى الفعل المضارع دور الديمومة والاستمرار في الماضي والحاضر والمستقبل.وهذه الافعال يمكن جردها فيما يلي(تكتم - تسحر - تأوي - تمشي - تسقي - تزور - تمضي - لا تبالي - لا تعرف - ترسد - ترخي - تغفي - تشد - تميل - تسكر - تخبط - تنسخ - تفحأ - تلمس - تقابل) لما وظف الفعل في عملية التجسيد كأداة للمفاجئة والاستعطاف المصحوبة بأساليب التمني والرجاء في جملة شرطية تنقسم إلى جملة للشرط وأخرى لجواب الشرط مثلما يطالعنا هذا المقطع الذي يناجي فيه الشاعر بغداد،وتتحول إلى كائن إنساني يفيض بالحياة والعطاء والإلهام،وتكون هي المحور الأساسي لجملة الشرط :

لَوْ أَلْهَمَتْنِي طَيْفَ صَوْتٍ مِنْ صَدَى التَّارِيخِ حَوْلَ بَابِهَا
أَوْ وَشَّعَتْنِي بِسَنَا مِنْ سَحْدَةِ النُّورِ عَلَى قِبَابِهَا
أَوْ سَاكَبَتْنِي بِيَدِ الْوَحْيِ رَحِيقَ الْخُلْدِ مِنْ عُبَابِهَا
أَوْ فَاغَمَتْنِي بِعَبِيرِ الْمَجْدِ فِي تُرَابِهَا... (4)

نرى كيف تجسدت بغداد في رؤيا الشاعر برفع مناجاته الوالهة إليها،والتي يتمنى لو ألهمته صوتا أو طيف صوت من أصداء تاريخها الجليل،ووشعته بسنا من نورها،وساكبته رحيق الخلد،وفاغمته أي طيبته بعبير المجد ليكون هو المحور الثاني بجملة جواب الشرط ويستطيع من جلالها أن يزداد معها تفاعلا وانسجاما:

لَجَفْتُهَا بِسَبْكَبٍ مِنْ مُهْجَتِي مِنَ الغِنَاءِ لَمْ تَرِدْ
وَسُقْتُهَا مَلاحِمًا لِلشِّعْرِ مِنْ تَارِيخِهَا مُعَطَّرَهْ
تَقُصُّ أَلْفَ لَيْلَةٍ جَدِيدَةٍ لِأَلْفِهَا ... (5)

---

(1) انظر- الفصل نفسه- مبحث التذكر -ص 115.

(2) نلاحظ سبعة وعشرين فعلا في القصيدة مع حذفنا لكثير من الأفعال المكررة وبخاصة " اتبعي - ازحفي - احذري" سنرى في محور التكرار،مالهذه الأفعال من دور دلالي وإيقاعي .

(3) موسيقا من السرحص98-102

(4) لابد - ص 45

(5) المصدر نفسه،ص 45

ـ الإسقاط : أداة من أدوات التجسيد التي تجعل الذات محور هذا الكون،وتجعل الشعور والإحساس الذاتي الحكم والرؤية. ففي الإسقاط تتجلى الحياة البشرية داخل أي ظاهرة لأنه يتحد مع مايسقط عليه من نفسه وفكره التي هي في النهاية تجسيد لآمال وآلام الشاعر،أو أحلامه وهواجسه،أو أفراحه وأحزانه،أو تأمله وتساؤلاته، وتظهر من خلال رؤيته الشعرية ككل. فهناك من تضخمت الكآبة في واقعه النفسي، حتى غطت على كل شيء،ولما كانت ذات الشاعر كئيبة،وهي بالطبع محور الرؤية،راح ينظر من خلالها إلى كل شيء في واقعه،كأن يجعل الطيور تشاركه أحاسيسه وبكاءه مثلا.فيجسد موقفه المتعاطف معها كالواقع النفسي الكئيب الذي أسقطه الشاعر" أبو القاسم الشابي" في معظم أشعاره.(1)

وما امتاز به محمود حسن إسماعيل هو إسقاط واقعه النفسي والفكري حيث تستولي عليه مشاعره الدينية الإسلامية فيسقطها على تلك المحسوسات أو المجردات فتدخل معه أجواءه الروحية. ومثل هذا الإسقاط تمثل في معظم رؤاه الشعرية وبخاصة رؤيته الكونية والروحية حين جعل الظواهر والكائنات الكونية تشاركه حيرته وتشاؤلاته وتأمله في الحياة والانسان والكون والغيب... وتشاركه إيمانه ولحظاته الإشراقية ورحلته نحو الله وتشاركه أيضا همومه .فلو أخذنا محور الرؤية الكونية بالمراجعة والنظر، لأكدنا بكل موضوعية رؤية الشاعر الإسلامية للكون سواء من حيث جماله وعبادته وتسخيره وفنائه، فتجسيد عبادته مثلا من تسبيح وسجود هو شعور إيماني للشاعر بذلك . ولولا ذلك الشعور لما استطاع أن يسقط معاني العبادة الإسلامية على الكون بعد أن أكدتها الحقيقة القرآنية.(2) إن سيطرة الروح الإسلامية عليه،جعلته ينطر ويصف كل الأشياء والمعاني في كل المواقف تقريبا بتلك الروح التي يمكن أن نعتبرها تجسيدات ذات طابع إسلامي.ففي فصل الصيف مثلا حيث الهجير والقيظ والحنق أوحت له لحظاته الخانقة في قصيدة "جلاد الظلال" بأن الصيف جلاد ظالم مستبد يشتكي منه الروض بفروعه وطيوره وأعشابه،وجو هذا الصيف غاضب شم فيه ريح المعاصي والمآثم،والنخيل ملحد بعد أن كان صوفيا ناسكا في لحظات أخرى:

... وَجَوٌّ غَضُوبُ الذَّرّ يكْظِمُ نِقْمَةً - وَيكْتُمُ غَيْظَ السَّاخِطِ المُتَبَرِّمِ
شَمَمْتُ بِهِ رِيحَ المَعَاصِي سَخِينَةً - مُحَمَّلَةَ الأَنْفَاسِ مِنْ كُلِّ مَأْثَمِ
يَفُحُّ كَحَرَّاعِ الشُّكُوكِ هَوَاجِسًا - لَهُنَّ دَبِيبُ السُّمِّ فِي رَأْسِ أَرْقَمِ
وَأَلْحَدَ صُوفِيُّ النَّخِيلِ فَمَا أَرَى - بِهِ هَزَّةً كَانَتْ إِلَى النُّسْكِ تَنْتَمِي
لَقَدْ كَانَ رَعَّاشَ الأَيَادِي تَبَتُّلاً - إِلَى اللهِ لَمْ يُدْنَسْ وَلَمْ يَتَأَثَّمِ
وَلَمْ يَجْنِ ذَنْبًا يَبْتَغِي عَنْهُ تَوْبَةً - مَعَ النَّاسِ يَدْعُوهَا بِكَفٍّ وَمِعْصَمِ
أَمَا قَامَ فِي الفَجْرِ الرَّطِيبِ مُؤَذِّنًا - يَصِيحُ بِتَكْبِيرٍ عَلَى العَقْلِ مُبْهَمِ
فَمَا بَالُهُ أَصْغَى وَأَصْغَتْ ظِلاَلُهُ - كَمُنْتَظِرٍ حُكْمَ القَضَاءِ المُحَتَّمِ.(3)

---

(1) انظر-محمد سعد مدحت جبار - الصورة الشعرية عند أبو القاسم الشابي ص157-159.

(2) انظر-فصل رؤيته الكونية -مبحث عبادة الكون.

(3) أين المفر-ص 28- 29.

حيث يأخذ عليه أحد الدارسين أنه حين ينتزع الشاعر من النخيل،وقد سكنت أعاليه في قيظ الصيف، صورة صوفي أحد، فحمدت أطرافه بعد أن كانت ترتعش تبتلا إلى الله،فإنه لا يتجاوز بذلك لمح وجه الشبه الحسي بين النخيل والصوفي من حيث اتصاف كل منهما بحركة يعقبها سكون. دون أن تكون ثمة وشائج حقيقية بين الطرفين. وقد يكون للاتكاء على العلاقة الحسية في تشكيل هذه الصورة مايبرره من حيث أن الشاعر يتصدى لرصد منظور حي لا مجال للتحديد أو الابتكار فيه إلا بتحريك الحدقة الفنية من مجال إلى آخر.(1) ويأخذ على الشاعر أمثال هذه الشخصيات الحسية ذاهبا إلى أنها ليست إلا نوعا من المجاز الذي لا رمزية فيه،لأن الشاعر في تشبيهاته لا يخرج - كما يقول - عن مستوى المحسوسات يشبه فيه واحدا بالأخر هذا التشبيه الذي مهما بلغ من العمق ومن القوة ومن الجمال ومن الحياة يظل في مستوى المحسوسات.(2)

ولكن الناقد أسرف في حكمه على الرغم من ملاحظاته السليمة في مجملها،لأن الواقع الشعري يؤكد أن العلاقة حسية لا أكثر بين صورة النخيل وصورة الصوفي.. مالداعي إلى ربط هذه العلاقة بينهما مادامت ليست بينهما وشائج حقيقية كما يرى الناقد. ؟!

إني أرى أن الإحساس الديني المسيطر على الشاعر هو الذي يفرض عليه إحداث هذه العلاقة،وإسقاط ذلك الإحساس له من الإيحاءات،التي تعكس علاقة أخرى بين الجو والعاصي،والنخيل والملحد.لأن العاصي والملحد قد تنعكس صورتهما في الطبيعة،ويمثلان ذلك الجو الحار الجهنمي بالشك والجحود والكفر.

ولهذا فالبحث عن التقارب الحسي والمعنوي وإمكانات الإسقاط .. أمر يجتهد فيه كلما ازداد الاقتراب من أعماق الشاعر وجذور رؤيته.فلا يمكن إذن أن نرفض عملية الاسقاط أثناء تجسيده لكثير من المجردات والمحسوسات،وبخاصة الطبيعة التي كانت مصدرا أساسيا في شعره فكرة وتصويرا.كذلك بعض المجردات خضعت لعملية الإسقاط بتجسيد المعاني الحائرة التي يعيشها تجسيدا ذو طابع ديني،ففي مرحلة البحث عن الحقيقة الإلهية الكبرى أوجد لكل النوازع والمتناقضات اعترافها بالحقيقة ومآلها إلى الله،حتى الوهم مثلا جسده في شكل وهيئة إنسان تائه جاحد .. فلم يجد إلا أن أسرج الله من الروح خيلا لتأتيه صاغرا، راكعا، نادما:

وَأُسْرِجُ لِلْوَهْمِ خَيْلاً مِنَ الرُّوحِ
تَخْطِفُ مِنْ رَاحَتَيْهِ بَرُوقَهْ
وَتَفْنِيَ شُقُوقَهْ

---

(1) د/ محمد فتوح أحمد - التشكيل بالصورة في شعر محمود حسن إسماعيل- مجلة الثقافة - ص61-62.

(2) د/ محمد فتوح أحمد - الرمز والرمزية في الشعر المعاصر - ص253.

وَتَأتِي بِهِ رَاكِعًا لِلْحَقِيقَةْ
عَلَى وَجْهِهِ زَفَّةٌ لِلنَّدَامَةْ
وَفِي خَدِّهِ مِنْ ضَحَايَا الضَّلَالَةْ
وَالتِّيهُ أَخْزَى عَلَامَةْ
فَمِنْ غَيْرِ سِرٍّ جَثَا لِلْغُبَارْ
وَمِنْ غَيْرِ نُورٍ بَكَى وَاسْتَدَارْ
وَخَرَّ عَلَى الأَرْضِ عَبْدَ الجِدَارْ (1)

كذلك الحالة الإيمانية التي يعيشها الشاعر بوصوله إلى الحقيقة الإلهية،جعلته أيضا يستشعر حتى حيرته،ويجسد حالتها الإيمانية بلواذها وأوبتها إلى الله،ودعائها مثله ليهبها النور والأمان :

وَلاَذَتْ حَيْرَةُ القَلْبِ !!
تُنَادِي رَبَّهَا: رَبِّي .. أَمَانُ اللهِ
أَمَانُ اللهِ نَوِّرْ كُلَّ سَاعَاتِي
وَهَبْ لِلْفَجْرِ مِنْ ظَلْمَائِهَا مَطْلَعْ. (2)

4 ـ التجسيم :

لكل المحسوسات جسم عاقلة كانت أم غير عاقلة، حية أم ميتة،فالعرض مثلا ليس حسيا،وتجسيمه يأتي على سبيل الإستعارة (3). ومصطلح التجسيم يسعى إلى جعل المعنوي حسيا (4)،ولم نسوغ مصطلح التجسيد الذي دأب عليه النقاد المحدثون،لأن الجسم عام لكل المحسات والجسد خاص بالإنسان.ورأينا امتداد المعنى الإنساني للتجسيد. أما التجسيم فهو«تحول المعنوي المجرد من اللبوس والحدود المكانية إلى حسيات ترى أو تسمع أو تلمس أو تشتم أو تذاق"(5) ونشير إلى أن طريقة التجسيم هي الأسلوب المفضل في تصوير القرآن الكريم لبث الحياة الظاهرة للعيان والحياة المضمرة في الوجدان في شتى الصور المجسمة عن طريق التخييل الحسي(6).

واتكأ الشاعر أيضا على خاصية التجسيم بتحويله المعنوي إلى مادي عن طريق تجسيم بعض المعاني والمشاعر وإلباسها ثوبا حسيا اختلف عن تشخيصها في هيئات وأوضاع إنسانية،وإن كانت لا تخلو من حيوية وحركة تمتاز بها بعض الأجسام الحية غير العاقلة.

أ ـ إن التجسيم تركز بطبيعة الحال على المعاني المجردة . واتخذ طريقة التجسيد إذ لم يرد عنده على نمط

---

(1) نهر الحقيقة،ص13—14.

(2) قاب قوسين،ص 148.

(3) ابن منظور ـ اللسان ـ مادة جسم- ج 1 —ص 624.

(4) الزمخشري ـ أساس البلاغة ـ تحقيق د/ عبد الرحيم محمود ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان،ص 60.

(5) عبد الإله الصايغ ـ الصورة الفنية معيارا نقديا ـ ص 418.

(6) انظر- سيد قطب- التصوير الفني في القرآن الكريم- ص60-61 .

واحد. فهو تارة بسيط يعتمد فيه على الوصف المباشر أو العلاقات المجازية من تشبيه في الغالب أداته،ثم حذفت أضيف فيه المشبه به إلى المشبه أو استعارة تخييلية.ومن ثم كثرت في شعره أمثال هذه التعابير الجزئية ففي قصيدة "الوجه المسدود" (1) مثلا،تستوقفنا كثيرا من المعنويات المجسمة بشتى الوسائل المادية والظواهر والكائنات ... التي يمكن إحصاؤها في هذه القصيدة،وهي تجسيمات جزئية تكتمل صورتها الشاملة بموضوع القصيدة،الذي ينتقد فيه بعض أخلاقيات الناس وسلوكاتهم في الحياة.

فنجد (باب الحقيقة - سراب الجديعة - جذور الغريزة - زوايا النفس - ظل المكيدة - غاب الغيوب - كهف الظن - أسراب الظنون - دروب الأوهام) كذلك قصيدة "صلاة الجمال" (2) تمتلىء بمثل هذه التجسيمات الجزئية شعاب الغيوب - فجاج الزمن - مخدع الجمال - هجير الزوال - سهوب الضلال - الخطوب الثقال - سبات الغرور - غصون الفناء - عطر الفؤاد - رحيق الحياة - أرض الغياب - ليل العذاب - رفات الظنون).وهذه التجسيمات أيضا لها دلالات تخدم موضوع الفناء والمصيروما يترتب عنه من عبر وحكم .

وهو تارة أخرى تجسيم كالتجسيد مركب،يعتمد فيه الشاعر على استقصاء أطراف الصورة أو الاستطراد فيها. يترك الفكرة الأساسية والانسياق في التصوير،مما يضفي نوعا من الغموض مبعثه وقوع الشاعر تحت إغراء الصور الثانوية التي تدفق على قلمه،فيستطرد إليها متخليا لبعض الوقت عن المحور الأصلي للصورة. (3)

ولعل قصيدته "الشك" من أبرز نماذج تلك الظاهرة وفيها يصور تجربة قضى عليها شك الحبيبة :

ذَرِينِي فِي جَنَّاتِ وَهْمِي مُحَـرَّرًا - لَظَاهُنَّ أَشْهَى مِنْ رُبَاكِ الجَمِيلَةِ
فَقَدْ كُنْتُ رَوْضًا يَانِعًا كُلَّ زَهْرَةٍ - لَدَيْهِ أَرَى فِي عِطْرِهَا رَأْسَ حَيَّةِ
وَأَسْمَعُ فَحَّ الشَّكِّ تَحْتَ ظِلَالِـهِ - كَمَا تَسْمَعُ اللَّحْنَ الرَّخِيمَ بِضَجَّةِ
فَفِيهِ أَفَاعٍ لِلظُّنُونِ غَـرِيبَةٌ - تُطِلُّ مَعَ الأَضْوَاءِ مِنْ كُلِّ زَهْـرَةِ
وَتَزْحَفُ مِنْ أَيْكٍ بِجَفْنَيْكَ سَاحِرُ - رَهِيبُ الذُّرَى تَخْشَى حِمَاهُ تَمِيمَتِي
رَيَاحِينُهُ صُفْرُ العَبِيرِ سِوَاهُمُ - تَرَعْرَعْنَ مِنْ سُقْيَا ضَلَالٍ وَرِيبَةٍ (4)

فالظنون في نظر الشاعر تتجسم أفاعي،يسمع حفيفها،ويرى رؤوسها الغريبة تطل مع كل نظرة من نظرات الحبيبة، غير أنه لا يكتفي بذلك حتى يجعل من جفنيها أيكا تزحف منه تلك الآفاعي المستريبة .ثم يتطرق إلى الحديث عن رياحين هذا الأيك وأغانيه وطيوره وأدغاله فيما يناهز الثمانية أبيات.

وبعد هذا المطاف يعود إلى الشك مرة أخرى،لكنه ليجسده في صورة العملاق الزنجي الذي يشبه الموتى:

فَمَا رَوْضُكَ المَذْعُورُ إِلاَّ هَيَاكِـلُ - أُقِيمَتْ بِهَـا لِلشَّكِّ أَكْبَرُ خَيْمَةِ
وَخَيَّـمَ فِيهَـا وَحْدَهُ وَبِبَابِـهِ - مِنَ الزِّنْجِ عِمْلاَقٌ شَدِيدُ التَّهَافُتِ
عَلَى وَجْهِهِ مِنْ سِيمَةِ المَوْتِ دَهْشَـةٌ - وَإِنْ كَانَ حَيًّا فَهُوَ حَيٌّ كَمَيِّتِ (5)

---

(1) قاب قوسين،ص 97-102 .

(2) المصدر نفسه،ص 136-142.

(3) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر- ص 252 .

(4) أين المفر- 47 .

(5) المصدر نفسه - ص 47-48 .

ب : لما ندخل عالم محمود حسن إسماعيل المعنوي أو الممتنع عن الحاسة،نرى براعته في نقل ذلك الممتنع إلى العالم المحسوس، معتمدا في تجسيمه على أداتين هما التجسيم بالمادي الحي والمادي الجامد محاولا المزج بينهما بين الحين والآخر موظفا في ذلك الكائنات الحيوانية والنباتية، والظواهر المختلفة، والأدوات والعناصر الكونية والحياتية الملموسة. والمجردات أو المعنويات التي جسمها الشاعر هي الأكثر اتصالا بالإنسان و عالمه الغيبي والديني والأخلاقي والحياتي.

1- فعالم الإنسان المجرد عبارة عن خصائص روحية وشعورية خلق بها وهي التي تمنحه الحياة والصفات الإنسانية، وهذه الخصائص تمثلت في الروح والنفس والقلب والعقل والغريزة... وهي التي حاول الشاعر تجسيمها، وتنويع صورها من المحسوسات بتنوع أمثلتها، وإن كان تصويره في كثير من الأحيان للأمور الغيبية الخاصة،وصفا مطلقا أو وصفا ممزوجا بين التجسيم والتجسيد والتجريد ويرد في الغالب في سياق تأملي تجريدي على الرغم من الملامح المحسوسة التي يضيفها بأدواته التجسيمية أو التجسيدية.

وركز الشاعر عند تجسيمه لتلك الخصائص على صورة الطائر،وللطيور أنواع وفصائل ... وصورة الطائر توحي بالتقارب على الرغم من التباعد الظاهري لمعاني الظهور والخفاء والإنطلاق في عالم السماء الشاسع والغامض.

فالروح والعقل طائران مختلفان في قصيدة "موسيقا من الروح" فالعقل يشبه طائر الصقور القوية ، التي تحاول غرورا وقوة أن تمتلك كل شيء وقد غرته قدراته الإرادية فطار نحو غيب السماء،لكنه لم يستطع أن يتجاوز إدراكه، فعاد خائبا أمام سطوة الغيب المجهول :

وَالْعَقْلُ مَسْحُورٌ
يُطِلُّ، وَيَخْتَفِي،..
خَطَفَتْهُ أَضْوَاءُ الطَّرِيقْ.
فَظَنَّهَا وَصَلَتْ، فَزَاحَ مِنَ الْعِمَايَةِيَدْخُلُ
وَثَبَتْ مَخَالِبُهُ
وَدَقَّ جَنَاحُهُ بِالنُّورِ قَبْرَ النُّورِ
وَهُوَ مُخْبِلُ.
سَلَبَ الغُرُورَ ضِيَاءَهُ
فَمَضَى كَمَايَمْضِي الغُرُورُ عَلَى السَّرَابِ يُحَوْقِلُ (1)

---

(1) موسيقا من السره ص 19-20.

إن الروح التي عجز عن إدراكها العقل ، لم يمتنع الشاعر عن تجسيمها بالطائر ، ولكنه سماوي طائر لأرضي، خفي، نوراني، سرمدي، يرفرف في جسد الإنسان وإذا طار منه يعود إلى طين الأرض. وتتضح براعة الشاعر في تجسيم الروح التي تمنح العقل رشدة وإيمانه لاغروره وسطوته على الغيب :

وَطَائِرُكَ الخَفِيُّ يُجَنِّحُ فَوْقَ الزَّوَالْ.
جَنَاحُهُ لَا يَنْزِلُ
قَدْ كَانَ فِيكَ، وَكُنْتَ فِيهِ، وَكُنْتُمَا
هُوَ ضَوْءُكَ السَّارِي
وَأَنْتَ الْهَيْكَلُ...(1)

كذلك القلب،فهو طائر يعبر عن مشاعر وحالات الإنسان كالحزن والألم والتحيّر والقلق الذي ينتابه،وهو في صراعه الدائم مع الذات أو الواقع :

وَجَعُ بِقَلْبِي شَلَّ دَوْرَتَهُ - لَوْلَا حِرَاكُ هَفَ مِنْ قَدَمِي
كَالطَّائِرِ المَذْبُوحِ مُنْتَفِضًا - خَفَقَانُهُ فِي جَانِبِ الظُّلَمِ.
قَلَقُ المِهَادِ، كَأَنَّ مُهْجَتَهُ - مِنْ رِيقِهِ الأَفْعَى تَعُبُّ دَمِي (2)

ويظل الشاعر مع صورة الطائر وهو يجسم النفس بكل أحوالها وتناقضاتها، ففي حالة سكونها وتأملها تبدو كحمامة،وليست كبقية الحمام في صفائها ووداعتها وحبورها في الحياة. وكذلك في محاسبتها لأفعالها وفي بحثها الدائم عن درب الله للصحو والعبادة من جديد، وهذه الحمامة هي النفس اللوّامة :

حَطَّتْ بِرَوْضِي وَمَضَتْ حَمَامَهْ.
مَجْهُولَةُ السِّرِّ بِلَا عَلَامَهْ.
لَيْسَ كَالطَّيْرِ فِي جَنَاحِهَا جَنَاحْ.
وَلَا لَهَا كَالطَّيْرِ فِي صَفَائِهَا، صَدَاحْ...
تَلَفَّتَتْ .. وَانْطَلَقَتْ حَوَّامَهْ.
فِي كُلِّ رُوحٍ نَفْسُهَا لَوَّامَهْ...(3)

أما في حالة هيجانها واضطرابها فإنها نسر غضوب شرس، وندرك الفارق بين النسر والحمام .. كما ندرك الفرق بين النفس اللوامة والنفس الأمارة التي تشبه النسر في جموحه،وعدم انضباطه،وهيجانه نحو افتراس أي شيء،كإقدامها على فعل أو اعتقاد أي شيء:

---

(1) موسيقا من السر- ص 23.
(2) هكذا أغني- ص 50-51.
(3) موسيقا من السر- ص 59-61.

والنبض في الجسم كنبر غضوب – هاجت مرامیها.
راحت به في كل أرض تجوب – فزادها تيها
حيرى يسليها غناء كذوب – والوهم يسقيها
مخدوعة الأوتار : كف الغيوب – هزت مثانيها ..(1)

2- ومن الحالات الشعورية والنفسية التي جسمها الشاعر، النحوى فهي يمامة في العشاش،ترقب أسرار الهوى والعفاف بينه وبين حبيبته، فصورة اليمامة توحي بالحلم والحب والنحوى :

ونحوى يمامية في العشاش تحجب إلا تنين المغرمين
وفهمنا لغاها وأسرارها فهمنا بها في الضحى حائرين..
شجاها التغني فهزت لنا
تحايا من الله طافت بنا
ونحوى من الله رفت هنا
وقالت : سلام الهوى والعفاف ... (2)

كما جسم خواطره وتداعيها وجيشانها كالأمواج المتلاحقة في تداع :

وهذه أفواج
من خاطري الوهاج
تجيش كالأمواج – جنبا إلى جنب (3)

أما أشجانه – أشجان أشعاره – أمواج متلاطمة مصطخبة في واقع مليء بالأحزان والمتناقضات:

وهناك تحت الغاب يعزف شاعر – بقصيدة مكروبة الأبيات ...
وشدا فكاد الغاب يسجد نشوة – ويرتل الأشعار في السجدات
لما أذاع شجونها في ليلة – سوداء كالأمواج مصطخبات (4)

3-ومن المعاني المجردة التي جسمها الحياة والموت،وماتصل بهما من عمر وشباب وأمنيات وأيام ومآل وفناء . فعمره بقية موجة مضطربة وذلك تبعا لحالاته النفسية والحياتية وتقلبها بين سعادة وشقاء :

عمري موجة – حيرى تخطفها العباب

---

(1) أين المفر– ص 10.
(2) المصدر نفسه–ص 59.
(3) المصدر نفسه–ص 36.
(4) هكذا الغني–ص 115.

فِي زَاخِرٍ لَمْ يَدْرِ سَابِحُهُ أَبَحْرٌ أَمْ سَرَابْ ! (1)

ويتمنى تارة أخرى، أن يكون العمر كأسا، من رحيق الحب، ليحسوه حتى الثمالة :

أَلَا لَيْتَ هَذَا العُمْرَ كَأْسًا، وَحُبُّنَا - رَحِيقًا، وَنَحْسُو الحُبَّ حَتَّى الثَّمَالَةْ ! (2)

ولعل الحاضر لم يمنحه شيئا جميلا له ولحبيبته. فلجأ إلى الماضي الذي كان سعيدا وجميلا ... فجسمه في صورة ربيع أخضر الروابي وارق الظلال:

تَرَكْتُ لَكِ المَاضِي رَبِيعًا مُقَدَّسًا - فَأَيْنَ تُطَرِقُ فِيه تَسْمَعُ يَمَّمَتِي ...

وَفِيهِ رُبَى خُضْرِ الظِّلَالِ عَوَارِفُ - يَسُرُّ هَوَانَا فِي شَذَى كُلِّ زَهْرَةِ

فَطُفْ مِثْلَمَا طُفْنَا زَمَانًا بِسَاحِهِ - وَذُقْ فِيه طَعْمَ السِّحْرِ مِنْ كُلِّ ذَرَّةِ. (3)

ويتذكر زاوال الشباب والمنى، فيجسمها في صورة بريق وهشيم فوق الرفات،أو خيوط وأطياف غيمة في الفلاة :

وَبَرِيقًا مِنَ الشَّبَابِ المُوَلَّى - كَهَشِيمِ الرَّيْحَانِ فَوْقَ الرُّفَاتِ

وَخُيُوطُ المُنَى عَلَى صَفْحَةِ القَلْـ - ـبِ كَأَطْيَافِ غَيْمَةٍ فِي فَلَاةِ (4)

أما الموت فكما حاول تجسيده في صورة إنسانية - ما سبق- فإنه حاول تجسيمه في صورة كونية أيضا تجلت في النغم الذي يذهل الفضاء. بتخفية وفجائيته ، في العاصف الذي يزأر في سكون ، وفي دلالات بعض الأفعال التي تقترن بصورة بعض الكائنات الحيوانية مثل (يلسع - يربض -يقعى ...)

وَتَخْتَفِي فِي الْعُودْ.

كَالنَّغَمِ المَرْدُودْ.

فَتُذْهِلُ الفَنَاءْ.

بِسَكْرَةِ الخَفَاءْ...

وَتَلْسَعُ القُلُوبْ.

بِسُمِّهَا المَتَكَوْبْ...

وَفَجْأَةً تَلُوحْ

كَعَاصِفٍ ذَبِيحْ

زَئِيرُهُ سُكُودْ

---

(1) أمين المقر-ص 129.

(2) المصدر نفسه-ص 118.

(3) المصدر نفسه-ص 122-123.

(4) هكذا أغني-ص 41.

وَصَمْتُهُ عُيُونْ...
تَرْبِضُ فِي الشَّفَاهْ.
وَفِي شَذَا الحَيَاهْ ...
تَقْعَى عَلَى الجَبِينْ
يَلْدَغُ التِّينْ !! (1)

4- من الأخلاق الإنسانية التي وصفها في أكثر من موضع شعري بالبناء المادي،الرذيلة مجسما إياها بمشاهد من عالمنا المادي المحسوس من كائنات وجمادات وظواهر.

فالمعاصي تتحول في صورة تكثيفية مجسمة إلى كهوف في صحاري من ضلال. فالمعاصي والضلال واقترانهما بالكهوف والصحاري لهما دلالة على ثقل الأفعال العاصية،وعلى مدى الاتساع في التيه:

تَهَاوَيْتَ فِي أَنْوَارِهَا، فَإِذَا بِهَا - كُهُوفُ مَعَاصٍ تَمِيعَاتُ الـــذَّوَائِبِ.
تَفُحُّ خُشُوعًا لِلْفَضَاءِ وَطِيبَهَا - صَحَارَى ضَلَالٍ مُهْلِكَاتِ المَتَارِبِ (2)

كذلك اقتران الكهوف بالخطايا والشظايا بالندم لهما دلالتهما في التعبير عن حقيقة الإثم والخطيئة، والندم والتوبة، وتزداد صورة الكهوف تلازما للشاعر،وخاصة وهو يتحدث عن العودة إلى الله:

ربِّ إِنِّي لَكَ عُدْتُ مِنْ سَرَابٍ فِيه تُهْتُ
وَ كُهُوفٍ مِنْ خَطَايَا تَحْتَهَا نَارٌ وَصَمْتُ.(3)

ومن الأخلاقيات التي حاول تجسيمها في صورة كائنات حية كالحيات والأفاعي والخفافيش والذئاب وغيرها بشتى أو صافها وأصواتها، فالمعاصي أيضا التي لها أصوات فيها وتوحش وعواء ودمدمة في الأعماق والخبايا، كأنها صوت ذئب حينا، أوفح أفعى حينا آخر:

وَلِلْمَعَاصِي عُوَاءٌ مُدَمْدِمٌ فِي الْخَبَايَا
كَأَنَّهُ صَوْتُ ذِئْبٍ، تَغَاقَلَتْهُ العَشَايَا.
أَوْفَحُ أَفْعَى،شَوَتْهَا مِنَ الهَجِيرِ شَظَايَا (4)

كذلك الخطايا هي أيضا في موضع آخر تشبه الحيات الزاحفة في دروب كل التائهين:

رَأَيْتُ الخَطَايَا عَرَايَا تَسِيرُ - وَتَنْسَلُّ مِنْ أَعْيُنِ التَّائِهِينْ
وَتَزْحَفُ حَيَّاتُهَا فِي الدُّرُوبِ - لِتَنْهَشَ بِالتِّيهِ ظِلَّ السُّكُونْ (5)

---

(1) قاب قوسين-ص 228-232.
(2) المصدر نفسه-ص 95.
(3) المصدر نفسه-ص 104.
(4) المصدر نفسه-ص 115.
(5) التائهون-ص 69.

وحاول إيجاد علاقة في وجه الشبه بين الإثم والخفاش، الذي لايظهر إلا في الظلام. وأوحى هـذا التجسـيم بتقارب دلالي بين المعنوي والمحسوس:

وَالإِثْمُ خَفَّاشُ تُحِبُّ الـظَّلاَمَ – طُيُورَ أَسْرَارِهِ ....
وَإِنْ غَفَا السَّمْعُ إِتَسَطَّى وَنَامَ – فِي ظَهْرِ أَوْ زَارِهِ. (1)

5– ومن القيم الدينية التي جسمها الشاعر الإيمان،الذي جعله شيئا تشربه الأعمـاق،ثم يكشـف عـن هـذا الشيء الذي يُشرب ويُذاق وهو النور . وشرب النور يبدو فيه نوع من التباعد في التصوير،لكن هذه سمة من سمات تراسل الحواس وتمازجها عند الشاعر:

واشْرَبِ الإِيمَانَ ! تُسْقَى الصَّفْوَ مِنْ آهَاتِ حَسْرَةْ.
لَيْسَ لِلإِيمَانِ أَسْوَارٌ وَأَصْفَادٌ بِذَاتِكْ ...
لاَ .... وَلاَ فِيهِ مَكَانٌ وَزَمَانٌ لِحَيَاتِكْ.
هُوَ كُلُّ النُّورِ ... آنِيَّ ذُقْتُهُ فِي سَبَحَاتِكْ. (2)

كما جسم الإيمان أيضا بالشعاع الذي ينبعث من النجم،ويشرق برائع الأنوار المضيئة لحياة البشر:

وَشُعَاعَةُ الإِيمَانِ تُشْرِقُ بَيْنَهُمَا – كَالنَّجْمِ يَسْكُبُ رَائِعَ اللَّمَحَاتِ. (3)

وهذه الصور النورانية المحسوسة،والتي تساهم في الدلالـة على إسعاد وهداية الإنسـان، جسـم بهـا أيضـا القرآن الكريم . فآي القرآن هي ضياء بل بحر من الضياء لا ضفاف له، ولا شبه لضيائه.

وَأَتَى إِلَيْهِمْ بِبَحْرٍ لاَضِفَافَ لَهُ – مِنَ الضِّيَاءِ، تُرَوِّعُ الشَّمْسُ ضَحْوَاهُ. (4)

وإلى جانب صورة الضياء صورة البحر ... لما في القرآن مـن عمـق واتسـاع يجمـع النـور والهـدى والأمـان والحياة، أتى به سيّد البشرية، محمد صلى الله عليه وسلم:

وَبِيُمْنَاهُ لِلدُّهُورِ كِتَابْ
نَوَّرَتْ مِنْ ضِيَائِهِ الأَحْقَابْ
وَسَقَى الْعَالَمِينَ مِنْ عُبَابِ
فِيهِ لِلرُّوحِ نَجْدَةٌ وَإِهَابْ ...

---

(1) أين المفر–ص 14.
(2) موسيقا من السر–ص 64-65.
(3) هكذا أغني–ص 110.
(4) نار وأصفاد–ص 3.

فَهُوَ بَحْرٌ مِنَ الْهُدَى ... وَأَمَانٌ - كُلُّ حَيٍّ إِلَيْهِ يَبْغِي الْفِرَارَ ... (1)

5- التجريـــد :

إذا كان التجريد هو المعنى المجرد من اللبوس والحدود المكانية (2) بواسطة الصورة التحسيمية تقترب المعاني بالاعتماد على ماتقع عليه الحواس، أو ما تجري عليه العادة. فكذلك الصورة التجريدية تنزع هي أيضا إلى تقريب المعاني بإلباس المحسوسات تلك المعاني المجردة واستمدت منها مظاهرها.

ولعل أصل التجريد في النقد يعود إلى المدرسة الرمزية الغربية التي أفضت الكثرين من الرمزيين إلى النظر إلى الشعر بوصفه رياضة على المعرفة الغيبية قبل أن يكون تجربة فنية مادتها الكلمات واللغة عموما.(3) وأدى بهم الشعور بتخطي الواقع والشوق إلى المجهول والغيب إلى ظهور مايسمى بالرمزية الميتا فيزقية،أو رمزية ماوراء الواقع إلى جانب رمزيات أخرى هي الرمزية النفسية والرمزية التعبيرية. وهي صفة أطلقت لما في النظرية الرمزية من عناصر غيبية حيث أن العالم الحقيقي في نظرهم هو«تخطي المحسوس، والانعطاف اتجاه حياتنا الباطنية بكل مافيها من مجاهل وأعماق، أوقل إنهما جناحان لعملية واحدة. لأن تخطي المحسوس يتم في الآونة التي تنطوي فيها الذات باحثة في خفايا الروح وزوايا النفس عن ذلك العالم الحقيقي.»(4)

ورأينا فيما سبق عدم تمذهب المشاعر محمود حسن إسماعيل الرمزي.(5) لكنه استفاد من بعض قواعده الفنية لأن العالم الغيبي والمجرد الذي يتوق إليه ليس عالما مجهولا وغامضا،وإنما فك مغاليق مجاهليه ببؤرته الإسلامية التي حددت له إطاره الإدراكي والإيماني. فكان الشاعر الإسلامي أحق بالولوج في هذا العالم دون سواه لأنه لم يحاول تشويهه بغموضه وتساؤلاته وحيرته، وإنما حاول تقريبه إلى الواقع للشعور والإحساس ومن ثم الإيمان به،لأن الإيمان بالعالم الغيبي من العناصر الأساسية لبلوغ الحقيقة الإيمانية.

بينما نرى الاتجاه التجريدي عند غير الإسلاميين يختلف أشد الاختلاف،باعتمادهم المبالغ على نظرية افلاطون المثالية، وعلى أفكار بقية الفلاسفة المثاليين وهو اتجاه يرى أن العالم المادي بصورته التي نلمسها بحواسنا قابل للتغيير والتبديل، وليس في الواقع إلا صورة لعالم مثالي خالد لايتغير ولايتبدل. ولهذا فالعالم المادي لاوجود له إلا بقدر ما يعكس لنا هذا الجوهر الخالد، وكل المظاهر المادية ماهي إلا رموز للحقيقة . وحاول

---

(1)المصدر السابق-ص-16.

(2) انظر-ابن منظور-لسان العرب - مادة جرد -ج1-ص588 .

(3) محمد فتوح-الرمز والرمزية في شعر المعاصر، ص-100.

(4) المرجع نفسه-ص-237.

(5) انظر-المدخل-رؤيته من خلال آراء الدارسين والنقاد.

الرمزيون أن يصلوا إلى الحق المطلق. وهذا هو سر شغفهم بالمجهول والتحديق فيه،والهروب من الجو المادي إلى الضباب والغيوم، وتبدوا في شعرهم أحيانا تجليات كالنزعة الصوفية.

وهذا المنهج التجريدي ساهم في إلباس الشعر ثوبا من الغموض والإبهام بتصوير عالم خيالي،بل وهمي ملئ بالأساطير والخرافات والتهويمات بينما اتخاذ ذوي الاتجاه أو الرؤية الإسلامية المنهج التجريدي في التصوير يمنح موازاة فعليةبين عالم الغيب والشهادة عالم الغيب الذي يدركون بحسهم الإيماني أبعاده المقترنة بعالم الشهادة ويخلقون اتزانا ماديا وروحيا،وإشعاعا دينيا بين العالمين،نقيا من الشعور الضبابي والتهويم الأسطوري اللذين يجعلان العالم الغيبي عالم مرصود يقترب منه الشاعر مثلا،فيحترق بروحانيته المحضة،ولايستطيع بكثافته الجسدية أن يتحملها فيخر صريعا على أرض الجسد. ولهذا فإن اضطراب الواقعيين والرمزيين أمام عالمي الغيب والشهادة نتج عنه سطحية في التصوير عند الواقعيين. الذين لايؤمنون إلا بالعالم المحسوس. وغموض عند الرمزيين سببه الشوق إلى الانفلات من قيود المحسوس والإلحاق في امتلاك العالم المثالي المنشود،ونتيجته الحيرة بين الواقع والمثال.

ولكن كان محمود حسن اسماعيل قد جسد في بعض صوره كثيرا من المعاني ووقف في الكثير منها عند حد التقاط العلاقات الحسية بتجسيمها ومزجها بمظاهر الطبيعية حينا،وخصائص الإنسان حينا آخر. فإنه حاول في شعره أيضا أن يتخطى بالمنظور والمحسوس الكثيف إلى ماوراءهمن معان تجريدية، التي كانت ظواهرهاالفنية تقوم على التزاوج بين المادي والمعنوي .<< فديكون مألوفا أن يلجأ الشاعر إلى تعريف المعنوي بتشبيهه بالمحسوس أو تجسيده، ولكن الجديد أن شاعرنا لم يقتصر على ذلك فإذا بالمحسوس يتحول على قلمه إلى معنى مجرد >>.(1)

وأهم عنصر اعتمد عليه الشاعر في تجريد صوره هو ذاتية العلاقات التي يقيمها بين عناصر هذه الصورة عن طريق التبادل المادي والمعنوي، الذي«تنهار فيه الحواجز بين وما وراء الواقع، فلا يعود ثمة وجود إلا لبصيرة الشاعر التي تستوعب الأشياء والمعاني،لتشكيلها من جديد تشكيلا ذاتيا مثاليا»(2)

وهذا التشكيل التجريدي ليس احتذاء للواقع وعلاقاته الطبيعية، ولكنه تشكيل جديد لهذا الواقع وصياغة ذاتية لعناصره الحسية والمعنوية، وبذلك فالتجريد في كثير من مواضعه الشعرية،ليس إلا محاولة منه للتغلغل في قلب الحقيقة،واستبطان المحسوس للوصول منه إلى الوحدة الكلية التي ترتد إليها مظاهر الوجود وأعراضه. واتكاؤه على المزاوجة بين عالمي الجسد والمعنى وإضفاء صفات أحدهما على الآخر،حتى ليبدو شعره منتقبا بظلال شفافة يتجاور معها الواقع والمثال، إلا أن هذا الوصول لايشبه الرؤيا أو الكشف أو المشاهدة أو النشوة بلغة الصوفيين،والتي أرتكز عليها الرمزيون في الشعر العربي الحديث. وإنما الخاصية التي وقفت عليها هي أن تجريده في معظم صوره الشعرية بدا ذا طابع ديني لا أسطوري أو صوفي كما سنرى في الشواهد الآتية.

---

(1) محمد فتوح أحمد- الرمز والرمز والرمزية في الشعر المعاصر- ص 251 .

(2) المرجع نفسه- ص 220.

صور الشاعر بالمعاني المجردة إما الإنسان وبعض ماتصل به،وإما بعض من مظاهر الكون المختلفة وتجريده يخضع لواقعه النفسي والروحي،فيشكل بذلك رموزا معنوية لموضوعه وتصويره الشعري.ويتمثل جنوح صورة الشعرية إلى المعاني التجريدية،باعتماده أدوات المجاز المعهودة وبخاصة أداة التشبيه التي استعان بها في وصف محسوساته بالمعنويات، أكثر من أداةالاستعارة التي لاءمت محوري التجسيد والتجسيم.

أ - الكـــون :

اعتمد في تجريده لمظاهر الكون المحسوسة على نوعين من المعاني هما المعاني الغيبية المجبطة، والمعاني الحياتية المجردة من مشاعر وقيم وأفكار ... وتصويره في كثيرمن الأحيان أداة لتحقيق غرضه الديني الذي يظهر من خلال إيمانه الذاتي، وإيمان موضوعي يفرضه على تلك المظاهر والأشياء حيث استطاع أن يدرك الحقيقة الإلهية من خلال تجريد الكون للوصول بأن الله نور يسري في كل الكون على الرغم من مظاهره المحسوسة .(1)

لأنه يؤمن بالمعرفة الروحية لامعرفته الحسية :

فَعَالَمِي لَيْسَ هُوَ المَنْظُورْ
وَلاَمَارَاياَ البَصَرِ المَبْهُورْ
وَلاَ انْدِهَاشَ الوَتَرِ المَبْهُورْ،
بِكُلِّ شَيْءٍ حَوْلَهُ يَدُورْ! (2)

كما يشير إلى طبيعة العالم والكون،ليبين أنه ليس هو مايرى بعين البصر،وإنما هناك مالايدرك إلا بالبصيرة. فيتجاوز عالم الشهادة إلى عالم الغيب. ولهذا فهو يختار من الذين لم تتجاوز مرآتهم ماهو محسوس ومادي :

فَمِرْآتُهُمْ تَلَوَّثَ عَلَيْهَا جَمِيعُ الشَّبَاكِ
فَمَا يُبْصِرُونَ سِوَى مَايَرَوْنْ
وَمَالاَ يَرَوْنَ، شَقِيَّ الحِرَاكِ. (3)

ففي تصويره لجمال بلاده مصر بأرضيها وريفها وجنانهـا وضلالها ارتبط بالغرض الديني كل الإرتباط. ليضع أمامه صورة الجنة،وهي من المغيبات،فأن يجعل مصر جنة فوق الأرض،فذلك إثبات لقدرة صنع الخالق من جهة،والتشويق إلى الجنة التي تبقى أكبر من التصوير من جهة أخرى:

يَاجَنَّة تَهْتَزُّ بِـــالأَ سْرَارِ بَيْنَ شَذَى وَطِيبِ
مِنْ كُلِّ مُعْجِزَةٍ يَنُوءُ بِوَحْيِهَا قَلَمُ الغُيُوبِ. (4)

وعن ريفها الذي استعار له من الجنة صورة الجنان والظلال والسندس والريحان وسمو الخلد:

---

(1) انظر:ـ فصل الرؤية الكونية، مبحث الله والكون.
(2) موسيقـا من السر ـ ص 56.
(3) المصدر نفسه ـ ص 46.
(4) صلاة ورفض ـ ص 124.

تَفَجَّرَ فِي صَفْحَتَيْهِ الجَمَالُ وَرَفَّ عَلَى جَانِبَيْهِ الخُلُودْ
وَطَوَّقَ رَيْحَانُهُ فِي الجِنَانِ وَفِي كُلِّ مَنْضُورَةٍ بِالوُجُودْ
يُفَتِّشُ عَنْ رَوْضَةٍ بِكْرَةٍ بِفَيْءِ الظِّلَالِ الرَّطِيبِ الرَّغِيدْ...
وَتَرْفُلُ فِي سُنْدُسِ ضَاحِكٍ تَرَنَّحَ مِنْ سَكْرَةٍ بِالنَّشِيدْ
إِذَا شَامَتِ (1) الخُلْدَ فِي بَحْبَحِهِ تَجُرُّ عَلَى الخُلْدِ ضَافِي البُرُودْ
فَمَا هَزَّهُ لِلْمُقَامِ الهَنِيِّ سِوَى جَنَّةٌ فَوْقَ هَذَا الصَّعِيدِ. (2)

وشبه كذلك النيل بنهر الكوثر، وهو نهر في الجنة، لم يره الشاعر لكنه آمن بوجوده وجماله، وانعكس ذلك في مخيلته :

تَمْتَحُ بِالجَرَّةِ مِنْ مَنْهَلٍ صَافٍ كَرِيقِ الكَوْثَرِ الدَّافِقِ
يَنْسَابُ فَوْقَ التِّبْرِ فِي سُنْدُسٍ نَضِرٍ، وَنَخْلٍ مُثْمِرٍ بَاسِقِ. (3)

كما شكل علاقة بين الطيور والملائك بجمعهما الطهر والنقاء والإنطلاق، فللطير ترتيل كانه صلاة الملائكة:

وَتَرَى الصَّادِحَ الطَّرُوبَ مِنَ الطَّيْرِ يُنَاغِي أَلِيفَهُ المُتَوَجِّدْ
يُتَمْتِمُ تَرْتِيلُهُ فِي ذُرَا التَّوْحِ صَلاَةً مِنَ المَلاَئِكِ تُنْشِدْ (4)

وعطر الزهر أو عبيرهُ كأنه نفحة من نفحات الأملاك والأرباب، على الرغم من أن كلمة أرباب لم تكن لها دلالة سوى أن الضرورة الشعرية فرضتها للتقفية، لأن ذلك لايتلاءم مع معتقد الشاعر السليم :

طَوَّافَةٌ بِالزَّهْرِ تَنْشَقُ عِطْرَهُ وَتُجِيلُهُ فِي الطَّرْسِ هَمْسَ رَبَابِ
طَفَّاحَةٌ بِالطُّهْرِ تَحْسَبُ رِيحَهُ مِنْ نَفْحَةِ الأَمْلاَكِ وَالأَرْبَابِ. (5)

وتراءت أمام نعش الشهيد الرياحين أزلية، هاربة من الجنة، والشموع شعلا مضيئة أيضا من الجنة أو الفردوس ، وكأنه بذلك يوطد العلاقة بين عالم الغيب والشهادة للشهيد ويؤكدها :

وَكَأَنَّ بَيْنَ حُنُوطِهِ رَيْحَانَةٌ أَزَلِيَّةٌ هَرَبَتْ مِنَ الجَنَّاتِ
نَسَمَتْ عَبِيرَ الخُلْدِ طَيَّ سُتُورِهِ وَتَرَعْرَعَتْ فِي رَيِّقِ النَّفَحَاتِ
وَتَرَى الشُّمُوعَ المُوقَدَاتِ لِنَعْشِهِ شُعَلاً مِنَ الفِرْدَوْسِ مُبْتَعِثَاتِ. (6)

---

(1) شامت : رأت.
(2) أغاني الكوخ - ص 28-29.
(3) المصدر نفسه - 53-54.
(4) المصدر نفسه - ص 97.
(5) المصدر نفسه - ص 40.
(6) هكذا أغني - ص 112.

كذلك الجدول الذي يترقرق ويتسلسل كالأماني. والفراشة التي ترف رفيق المنى في أحواضها :..

تَرَقْرَقَ فِي مَهْدِهَا جَـــــــــــدْوَلٌ ـ عَطُوفٌ عَلَى الزَّهْرِ عَذْبٌ بَرُودُ.

تَسَلْسَلَ مِنْ نِيلِهِ كَالأَمَانِـــــــــي ـ تَرُفُّ عَلَى نَاعِمَاتِ الْمُهُودِ. (1)

تَرُفُّ الْفَرَاشَةُ فِي حَوْضِـــــــــهِ ـ رَفِيقَ الْمُنَى فِي مَجَالِي السُّعُودِ (2)

والقطن الذي يرتدي حلة بيضاء كالطـــــهر وبياض زهر الفول كسدول العفاف:

وَزَهَا الْقُطْنُ وَارْتَدَى حُلَّةً بَيْضَاءَ ـ كَالطُّهْرِ فِي جَبِينِ نَبِيِّ (3)

وَهُنَا الْفُولُ أَبْيَضُ الزَّهْرِ نَضْـــرٌ ـ كَسُدُولِ الْعَفَافِ لاَحَتْ بِمَشْهَدِ (4)

والشمس التي تبدو كالشك، والعشب الذي يهفهف كالمستحيل، والزهـر الـذي يـبدو كـالأنين، والهجير أونار القيظ في الصيف الذي يشبه الخزي الذي ينهش ضمير الآثم:

- وَالشَّمْسُ فَوْقَ الشَّطِّ غَرْبِيَّةً ـ صَفْرَاءَ كَالشَّكِّ بِوَجْهِ الْيَقِينْ (5)

- وَعُشْبُ يَهْفَهِفُ كَالْمُسْتَحِيلْ ـ يُرَاوِدُه أَمَـــــلٌ لاَيَلُوحْ. (6)

- وَالزَّهْرُ بِهِ يَبْدُو حَـــوْلِي ـ كَأَنِينٍ فَوْقَ الأَغْصَـــانْ. (7)

- وَيَنْفُخُ كَالْحَدَّادِ نَارًا، شَرَارُهَا ـ تَنَاهَشُ خِزْيٌ فِي ضَمِيرٍ مُذَمَّمِ. (8)

وليس بالضرورة أن يدعونا هذا النوع من التحريد إلى التساؤل عن طبيعة هذه العلاقة بين تلك المحسوسات والمعنويات،مثلما تساءل الناقد محمد فتوح أحمد عن ذلك << لست أدري -رغم طرافة الصورة- أي واقع نفسي يربط بين الحالتين، فبعيد مابين إحساس الإنسان بالقيظ وشعوره بالخزي، وربما كـان هـذا سر مابين عناصر الصورة.>>(9) لأن الشاعر استطاع أن يعكس هذا المزج بين الحسي والمعنوي على ذاته بإسقاطه عليهما بعض حالاته النفسية والشعورية، أحدثت تواصلا عميق الثراء والأثر بين الحسي والمعنوي.

---

(1) أغاني الكوخ-ص 31.
(2) المصدر نفسه-ص 32.
(3) أغاني الكوخ-ص 67.
(4) المصدر نفسه-ص 97.
(5) قاب قوسين-ص 159.
(5) المصدر نفسه-ص 195.
(7) أين المفر-ص 66.
(8) المصدر نفسه-ص 30.
(9) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر-ص 251.

ومن الصور التجريدية الأخرى التي تعتمد على المعاني الغيبية أيضا تشبيه العاصفة الهوجاء بصيحة أو هيجة الأقدار التي تصعق الجن والإنس والبيد والأرض:

وَإِذْ بِعَاصِفَةٍ هَوْجَاءِ قَدْ صَعِقَتْ ... هَوْلُهَا الجِنَّ وَالآنَامَ وَالبِيدُ

كَأَنَّهَا هَيْجَةُ الأَقْدَارِ مِن عَصَفَتْ ... مَاطَاقَهَا فِي شِعَابِ الأَرْضِ مَوْجُودُ. (1)

وسيل المطر الذي تذعر منه الخيمة – أي خيمة اللاجئين الفلسطينيين والذي ينهمر عليها كنبال الموت التي لاترحم ولاتلين . فرميت كدعوة على درب المقاديروتجردت كذلك هي من موقعها المحدد في العراء وأصبحت دعوة مقهورة :

- وَتَنْشُبُ الذُّعر فِي الأَوْتَادِ هَارِبَةً ... فِي صَدْرِ سَاكِنِهَا إِنْ زَارَهَا المَطَرُ

فَكَيْفَ لَاقَتْ زَئِيرَ السَّيْلِ ؟ كَيْفَ غَدَتْ ... وَوَيْلُهُ كَنِبَالِ المَوْتِ يَنْهَمِرُ (2)

- هُنَا فِي خَيْمَةِ البُهْتَانِ وَالطُّغْيَانِ وَالزُّورِ

رُمِيتُ كَدَعْوَةٍ وَقَفَتْ عَلَى دَرْبِ المَقَادِيرِ (3)

ومن الغيبيات التي استحضرها أيضا في مواضع معنية من شعره هو عالم الجن لما صور ظلام الأرض – ويقصد به ظلام الجاهلية– كأنه إعصار جنة تقبض به كل البرايا والريح المدوية جنا آثما:

- كَانَتِ الأَرْضُ قِصَّةً مِنْ ظَلَامٍ.

رَدَّدَتْهَا قَوَافِلُ الأَيَّامِ

فَهِيَ إِعْصَارُ جِنَّةٍ فِي قَتَامٍ ... وَالبَرَايَا فِي قَبْضَتَيْهِ أَسَارَى (4)

- وَالرِّيحُ جِنٌّ آثِمٌ وَخَزَتْهُ زَلَّتُهُ فَدَوَّى. (5)

أما تصويره التجريدي بالمعاني الحياتية المجردة. فكثيرا مايشبه المظاهر الكونية كالأفق والماء والتراب بالأحلام التي تتراءى من الفراديس-أي العوالم الغيبية-أو تشبيهه للنبع بالحلم التائه :

لَنَا كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ ... مَاءٌ وَتُرْبَةٌ ... وَأُفْقٌ كَأَحْلَامِ الفَرَادِيسِ مُخْضَرُّ (6)

وَهُنَالِكَ وَالنَّبْعُ سَاهٍ حَزِينٌ ... كَحُلْمٍ تَخَطَّاهُ صَحْوَ الجُفُونْ. (7)

---

(1) هكذا أغني– ص212.

(2) التائهون–ص 41.

(3) المصدر نفسه ص 46.

(4) نار أصفاد–ص 13.

(5) ابن المقفر–ص 74.

(6) نار أصفاد–ص 90.

(7) التائهون–ص 69.

ب - الإنسان :

نلاحظ في وصف الإنسان وماتصل به، أن الصورة المجردة كانت أيضا المعين الذي يستمد منه الموصوف المحسوس حقيقة وجوده.

فالإنسان يمثل حقيقة انسانية محسوسة في شتى المواقف والمواقع والحالات، ويحاول أن يتبدل ويتغير فيها، أو يتقمصها بعمق وصدق، ليعبر بذلك عن حقيقته الإنسانية.

تمثل محمود حسن إسماعيل الإنسان تمثلا صادقا من خلال شخصه بشتى نوازعه ومتناقضاته وآفاقه. إذ ينزوي في إحدى الزوايا في سكون الليل، وفي ظلمته تجلت تأملاته وخواطره المثقلة بالشقاء، وأضحى في هذه اللحظات كحكمة لم تجدها صدى فلاذت إلى الصمت والانزواء :

هَاتِ يَالَيْلُ مِنْ أَغَانِيكَ وَامْلأْ ـ نَغَمِي بِالْخَوَاطِرِ الْهَوْجَاءِ.
أَنَا فِي غَارِكَ الْمُغَلَّفِ بِالظُّلْمَةِ ـ أَسْيَانُ مُثْقَلٌ بِالشَّقَاءِ
حِكْمَةٌ فِي دُجَاكَ أَنْكَرَهَا الْعَقْلُ ـ فَلَاذَتْ بِالصَّمْتِ وَالْانْزِوَاءِ (1).

ويشعر بأنه الأشواق والماضي والآتي في رحلة العذاب والشوق للوصول إلى الحقيقة :

أَنَا الأَشْوَاقُ فِي جَسَدِكِ
أَنَا الْمَاضِي حَرِيقُ يَدَكِ
أَنَا الآتِي رَحِيقُ غَدِكِ وَجُودُكِ سِرُّ تَكْوِينِي. (2)

ويهرب من معاصية وخطاياه ويتذكر فناء الحياة وهول المصير، فلا يريد أن يكون ضلة أو زلة :

لَاتَتْرُكِينِي زَلَّةً ـ فِي الأَرْضِ تَائِهَةَ الْمَتَابْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْكِ ـ مَعَ الْهَوَى خَمْرَ الْعَذَابْ..
لَاتَتْرُكِينِي كَالرَّدَى ـ أَرِدُ الْفَنَاءَ وَلَاأُبَالِي
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْكِ ـ مَعَ الْهَوَى خَمْرَ الضَّلَالْ ..
لَاتَتْرُكِينِي ضَلَّةً ـ فِي الأَرْضِ ثَاكِلَةَ الرَّشَادْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْكِ ـ مَعَ الْهَوَى نَدَمَ الرَّمَادْ. (3)

وتطهر وارتقى بعد مراحل عسيرة من المجاهدة والمكاشفة لنفسه حتى شعر بالتجرد الخالص لله. وتراءت له لحظات من الإشراق والتسامي كأنه سبابة تقف على سدرة عرش الله، وتجأر بصمت في حضرته، متجاوزا وجوده

---

(1) هكذا أغني - ص 89-90.
(2) أين المفر - ص 77.
(3) المصدر نفسه - ص 129-132-133.
(4) صلاة ورفض - ص 142.

التعبدي المحسوس (المصلي، الكعبة) :

وَقَفْتُ طَوِيلاً عَلَى سُدَّتِكْ
أُنَادِي رَبِّي النُّورُ فِي سِدْرَتِكْ كَأَنِّي سَبَّابَةٌ أَوْ مَأَتْ
بِغَيْبِ الْمُصَلَّى إِلَى كَعْبَتِكْ ..
أُنَادِي ... وَأَحْارُ ... فِي حَوْمَةٍ
مِنَ الصَّمْتِ ... تَهْدِرُ مِنْ حَضْرَتِكْ.

والجدير بالالتفات في هذه الصورة توفرها على حالة سامية من الإطلاق والتحريد،صاحبتها رمزية شفت عن روحانيتها وإشراقتها. والجنس الثاني اللصيق بهذا الإنسان هو المرأة التي جردها الشاعر من ملامحها الجسمية،وأضفى عليها مسحات جمالية معنوية وروحية، اقترنت بالصفاء والسمو والطهر والعفاف والعذرية، وقد فصلنا القول في ذلك عند الحديث عن رؤية الشاعر الوجدانية للمرأة.(1) ولابأس من إعادة توضيح هذا المنحى التجريدي في وصف المرأة ، حيث ينسخ حسنها إلى روح سام متألق وإن كانت من طين وماء.

مَاذَا جَنَيْتُ وَرُوحِي فِي طَهَارَتِهَا - أَزْكَى لِحُبِّكِ مِنْ طِيبِ الرَّيَاحِينِ ؟
نَسَخْتُ حُسْنَكِ رُوحًا سَامِيًا أَلِقًا - وَكُنْتِ كَالنَّاسِ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ طِينِ. (2)

ويسمو بها نحو السماء الإلهية،فهي آية وصلاة وخلود وتوبة ورحمة وخشوع وتضرع وعفة ووفاء،وذلك في قصيدة طويلة متنوعة اللوحات "أنت دير الهوى وشعري صلاة":

أَقْبِلِي كَالصَّلَاةِ رَفْرَفَهَا النَّسْـــكُ - بِمِحْرَابِ عَابِدٍ مُتَبَتِّـــلْ
أَقْبِلِي آيَةً مِنَ اللَّـــهِ عُلْيَـــا - رَفَّهَا لِلْفُنُونِ وَحْيٌ مُنَـــزَّلْ..
أَنْتِ تَغْرِيدَةُ الْخُلُودِ بِأَلْحَانِـــي - وَشِعْرُ الْحَيَاةِ لَغْوٌ مُهَلْهَـــلْ
أَنْتِ طَيْفُ الْغُيُوبِ رَفْرَفَ بِالرَّحْمَةِ - وَالطُّهْرِ وَالْهُدَى وَالتَّبَـــتُّلْ
أَنْتِ لِي تَوْبَةٌ إِذَا زَلَّ عُمْـــرِي - وَصَحَا الْإِثْمُ فِي دَمِي وَتَمَلْمَلْ
أَنْتِ لِي رَحْمَةٌ بَرَاهَا شُعَـــاعٌ - هَلَّ مِنْ أَعْيُنِ السَّمَاءِ وَتَنَزَّلْ (3)

ويتخيلها ملاكا يحفها موكب ملائكي سماوي،حيث ربى الخلد وستر الإله، وسجود الملائكة، وصلوات النجوم، وطهر المهاد :

---

(1) انظر: فصل الرؤية الاجتماعية،مبحث الرؤية الوجدانية للمرأة.
(2) هكذا أغني-ص 31.
(3) المصدر نفسه-ص 72-75.

حينَما تَهجعين في مَهدكِ الطّاهر - والسّحرُ مُتعَبٌ في جُفونِكْ
حينَما يُصْبِحُ المِهادُ حَميلاً - في رُبَى الخُلْدِ زَهْرَةٌ في يَمينِكْ
حينَما يَنْسِلُ الإلهُ عَلى وَجْهِكِ - سِتْراً يَصُونُ طُهْرَ جَبينِكْ
حينَما تَسْجُدُ المَلائِكُ حَوالَيْكِ - حَياءً وَهَيْبَةً مِنْ فُتُونِكْ
حينَما تَسْهُو الغُيُوبُ لِتَرْعَى - صَلَواتُ النَّحُومِ حَوْلَ عُيُونِكْ. (1)

فجمال المرأة عنده له مذاقه الخاص،حيث يتداخل مع جمال الكون والقيم،ويحوم وصفه فوق الروح والقداسة، والعفة والطهارة. فحتى في بعض أوصافه الحسية لانجد في شعره تفصيلا حسيا للخصر والقد والصدر، ولالونا للبشرة والخد والعين والشفة، بل يركز على نوارنية الوجه، وقدسية الألحاظ، وطهر الجبين، ورقة الطباع، وبعث للإلهام وقيم الحياة، والتذكير بالله والتوبة والعبادة، ومؤانسة الروح قبل الجسد. فوصفه المعنوي للجسد فيه سمو في التخيّل،فتصوير جمالها بأنها كالنور في بهائها، والفل في بياضها، والقداسة في لحظها ... فهذه الأوصاف عامة مجردة، غير مجسدة، تؤكد معاني روحية. كوصفه مثلا أنها بيضاء كالفل. فالبياض يؤكد الطهر والنقاء، يقول :

عَبَدْتُها رُوحًا إذا رَفْرَفَتْ - طَهَّرْتُ في أنْوارِها سَجْدَتي
بَيْضاءُ كالفُلِّ سِوى أنَّها - خالِدَةُ الأنْفاسِ في نُكْهَتي
قُدْسِيَةُ الألْحاظِ إذا مارَنَتْ - قَبَسْتُ مِنْ أجْفانِها عِفَّتي. (2)

وما يتصل بالإنسان أيضا واقعه المليء بالأحداث والمشاكل ذات الطابع السياسي والاجتماعي والإنساني عموما،والذي حاول أيضا تجريد بعض مشاغله وهمومه ومعاناته. فتساوى المعنوي والمحسوس في نظره،وساغ له أن يشبه الفلاح الذي يعاني الشظف والتهميش في الحياة بالحكمة العمياء العاطلة :

كَأنَّهُ حِكْمَةٌ عَمْياءُ نائِمَةٌ - في عاطِلٍ مِنْ فِجاجِ الفِكْرِ مَخْرُوبِ
سَجَى الظَّلامُ فَغَطَّتْ في مَجاهِلِها - وَاسْتَرْسَلَتْ في خَيالاتٍ وَتَغْيِيبِ. (3)

كما جرد معاناة الصيادين في قصيدة "عبيد الرياح" الذين ساروا مصفدين بحبال السفن يصارعون تيار النيل في عراك جبار مع الطبيعة. فهم يسيرون سير الهوان، ويمشون مشي الزمان الكئيب، وسواعدهم تشق أجواز الفضاء أو تذيبها، وأجسادهم المنحنية تبدو كركوع محتل بالذنوب، وهم في عمق الموج، وفي رهبة المساء كأنهم شياطين، أي كائنات من عالم آخر :

---

(1) قاب قوسين-ص 166-167.
(2) هكذا أغني-ص 94-95.
(3) أغاني الكوخ- ص 155.

يَسيرُونَ سَيْرَ الهَوَانِ المُرِيبِ – وَيَمْشُونَ مَشْيَ الزَّمَانِ الكَئِيبْ
سَوَاعِدُهُمْ مَوْثِقَاتُ الزُّنُودِ – وَلَكِنَّهَا عُدَّةٌ لِلْـــــهُبُوبْ
تَشُقُّ القَضَاءَ بِأَصْفَادِهَـــا – فَتَنْشُقُ أَجْوَازَهُ أَوْ تَـــذُوبْ
وَأَجْسَادُهُمْ حَانِيَاتٌ لَهَـــا – شَيَاطِينٌ تَحْدُو المَسَاءَ الرَّهِيبْ (1)

كما انطلق بالشهيد من عالمه المحسوس إلى عالم الغيب ، فبدا له ملكا من الملائكة وهو موسد مطهر:

وَالسَّابِرِيُّ (2) تَخَالَهُ مِنْ طِيبِهِ – بَرْدَ النَّبِيِّ مُعَطَّرَ الصَّفَحَاتِ
لَفَّ الشَّهِيدَ مُطَهَّرًا فَحَسِبْتُـــهُ – مَلَكًا تَهَيَّأَ مَهْدُهُ لِسُبَاتِ (3)

وعرج إلى السماء، وطرق باب الخلد ليرى الشهداء كيف أنهم خالدون،أحياء مقربون من الله،مكرمون في جنة خالدة، تحفهم الأرائك والأملاك والطيور:

وَعَرَجْتُ بِالأَوْتَارِ حَتَّى شَارَفَتْ أَلَقَ النُّبُوَّةِ حَوْلَهُمْ!
وَطَرَقْتُ بَابَ الْخُلْدِ أَسْأَلُ أَيَّ رَوْضٍ فِي الأَرَائِكِ ضَمَّهُمْ
بِأَيِّ زُخْرُفِ جَنَّةٍ أَمْلاَكُهَا وَطُهْرُهَا حَظِيَتْ بِهِمْ
فَعَلِمْتُ أَنَّ اللهَ كَرَّمَهُمْ وَنَعَّمَ بِالشَّهَادَةِ قُرْبَهُمْ. (4)

وجرد الثورة التي اندلع زئيرها في سماء البلاد العربية الإسلامية،لتتحرر من ذل الاستعمار الذي أراد أن يجثم عليها كالأقدار:

نَهْضَتِي فِي مَسَابِحِ الشَّرْقِ كَالأَقْدَارِ يَشْقَى كَمَا يَشَاءُ وَيَسْعَدُ ! (5)

وكانت الثورة هي القدر الموعد، وكان اندلاعها كأنه نفخ في صور ليوم القيامة :

وَجَلَتْ قِمَّةٌ مِنَ الْغَيْبِ، كَانَتْ – فِي مَدَى العُمْرِ أَلْفَ غَيْبٍ مَدَاهَا
لَقِيَنَّا الأَقْدَارَ فِي مَوْعِدٍ، جَاءَ مَعَ البَعْثِ مِنْ أَعَالِي ســـــــمَاهَا...

---

(1) ابن المقرب-ص 19-20.
(2) السابري : الثوب الرقيق الجيد .
(3) هكذا أغني-ص 112-113.
(4) موسيقا من السر-ص 106-107.
(5) هكذا أغني-ص 175.

وقفت وقفة المقادير تعزو ـ بيد الموت كل باغ رماها.
نفخت صورها، وأورت دماها ـ وبعزم السماء هبت يداها. (1)

وكان صوتها أيضا كأنه صوت من الله، يدوى كالقيامة،وهي صورة تجريدية إيمانية :

وتمادى الليل حتى دهم الفجر ظلامه.
وإذا صوت من الله يدوي كالقيامة. (2)

وفي موضع آخر تكررت صورتا القيامة والأقدار،واقترانهما بالبعث والثورة والوحدة :

زأر البعث، والتفت صحة الأسحار وانشق هولها من رفاتي
وأتى مارد القيامة يجتاح قلاع الدجى، ويعلي فتاتي...
ودجى الليل ... فاشرأبت إليهم وحدة العرب من جميع الجهات !
ورأوا زحفها المقدس كالأقدار تمضي نفاذة الكلمات. (3)

كما كانت للجيش الذي يقود تلك الثورة صورة روحية، فهو موكب من السماء،آت بصوت ا- وهذه الصورة مستوحاة من قيمة إيمانية، أن لنصر الحق على الباطل مددا إلهيا بجنود ملائكية من السماء:

وتباين إيماءة، أو بعضها ...! انتبهوا ـ لموكب من سماء الحق منحدر
تلفتوا .. فإذا الأصنام تقربهم ـ من الحياة وإن كانت من الحجر
صعقتهم بعقاب الله، تقذفه ـ كتائب الحق بالإيمان والسور
خرت طواغيتهم في الأرض ساجدة ـ يمشي عليها مصير الظلم والبطر. (4)

---

(1) نار وأصفاد- ص 130-131.
(2) لابد- ص 90.
(3) نار وأصفاد- ص 149.
(4) المرجع نفسه -ص 108.

6-التـــــراسل:

و نعني به بصفة كلية<< نقل صور العالم الخارجي،و مرائيه من مواطنها ومجالاتها المعهودة فيما يشبه التداعي البصري>>(1). و يعتبر التراسل أو تراسل معطيات الحواس أو المدركات أداة أيضا من أدوات الشعر الرمزي حيث يرى الرمزيون << أن الإنفعالات التي تعكسها الحواس قد تتشابه من حيث وقعها النفسي،فقد يترك الصوت أثرا شبيها بذلك الذي يترك اللون أو تخلفه الرائحة . ومن ثم يصبح طبيعيا أن تتبادل المحسوسات ، فتوصف معطيات حاسة بأوصاف حاسة أخرى.>>(2)

ولن يتحقق التراسل إلا عن طريق قدرة مبدعة تظهر الموضوع الحسي مع فعالية الخيال الذي يأبى الألفاظ ذات الدلالات الوضعية ، هذا فضلا عن عدم إمكانية تبسيطها . فيلجأ إلى صنع لغة في لغة<< ما دامت اللغة في أصلها مجرد رموز تشير في نفوسنا إحساسا وخواطر وانفعالات يرمز لكل منها لفظ معين . وما دام الهدف النهائي من الأدب والشعر هو نقل تجربة بشرية،أو على الأصح أثر هذه التجربة من نفس الى نفس.، فإنه يصبح من الحكمة،بل من الواجب على الأديب أو الشاعر الذي يريد أن يستنفذ كل ما في نفسه وينقله كاملا الى نفس الغير ،أن ينقل ألفاظا من مجال حسي معين الى مجال آخر،إذا كان في هذا النقل ما يعينه على هدفه، وهو نقل الأثر النفسي الى الغير .>>3)

ولعل التشابه والاتصال بين هذه الظواهر المادية أدت إلى تشابه<<الحالات النفسية التي تبلغنا عن طريق الحواس المختلفة ، مادامت ترجع في أصلها الى مصدر واحد. بل إن تجاوبها بهذا الشكل يجعلها قادرة على استيعاب الحالات النفسية المعقدة للشاعر والافصاح عن مضمونها الحيوي الغامض في صورة الاحساس به>>(4) وأقاموا بذلك - أي الرمزيين - نظرية العلاقات التراسلية أو المراسلات باعتمادها على وحدة الحواس،وقيامها على رفضها << الأبعاد الحسية والمعاني الفكرية،والتي أوفى اليها العقل الانساني من العالم المادي ومن العالم النفسي ، وتجد أنها أداة نفعية للتعامل الخارجي وإقامة الحياة اليومية لقوم اكتفوا من الوجود بما بذله لهم في العرف المادي،وفي لغة المقادير والمقاييس والأحجام.>> (5)

ونظفر في شعر محمودحسن إسماعيل بهذا النمط التصويري في بناء صوره أي تراسل معطيات الحواس، واستفادته من هذه النظرية المعروفة في المذهب الرمزي،و لكن باعتبارها و سيلة فنية خارجة عن الإطار المذهبي

---

(1) محمد فتوح أحمد --الرمز والرمزية في الشعر المعاصر- ص 249 .

(2)المرجع نفسه - ص 248 .

(3) محمد مندور- الشعر المصري بعد شوقي- الحلقة الثالثة --ص 33 .

(2) مصطفى السعدني--التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل- ص 94 .

(5) إيليا حاوي - الرمزية والسريالية في الشعر الغربي والعربي--دار الثقافة- بيروت- ط2-1983م- ص 113 .

الذي لا يشف عن التراسل الرمزي الحقيقي المعروف عند الرمزيين(1).على الرغم من ذلك شكل الشاعر صورة بهذه الوسيلة الفنية " تراسل الحواس أو المدركات"، وكان استخدامه لها في ثلاثينات هذا القرن بمثابة خطوة على رغم لم يكن قد طرقها كثير من الشعراء في ذلك الحين (2) . فهو يمزج بين كل الحواس ووسائل الإدراك مزجا رائعا حيث تتعانق وتتراسل في تشكيل شعري حميم، و تنتقل المدركات من مجالاتها الطبيعية . ووضعنا بذلك الشاعر<< إزاء صورة لاهي وهمية بحتة لأن بعض عناصرها واقعي، ولا هي حقيقية بحتة، لأن العلاقات القائمة بين هذه العناصر علاقات ذاتية،فهي بين الوهم و الحقيقة،و ليست أحداهما بعينه>>(3) .

وهذا الواقع الذي يفرزه الشاعر من خلال استغلاله لتلك الوسيلة هو واقع متباعد العناصر في الواقع المدرك، و لكن تحكمه نزعته الفكرية و المنطقية التي تبدو على استيحاء،و ليس فيه ذلك الذهول العميق الذي لمحناه عند الرمزيين في سعيهم وراء المطلق و المجهول .ويظل هو منهج الشاعر المفضل في بناء صوره، فعناصر الصور وجزئياتها في قصائده تبدو على قدر كبير من التباعد،بل التنافر في الواقع المادي .لكن الشاعر يصهر هذه العناصر المتباعدة المتنافرة في وهج رؤيته الشعرية ويخلق بينها لونا من التواصل العميق الحميم، الذي تصبح به هذه العناصر قسمات متآلفة في عالمه الشعري الفريد (4).

وتراسل الحواس عنده هو وصف مدركات حاسة من الحواس بصفات مدركات حاسة أخرى — فيصف المشمومات بصفات المسموعات ، ويصف المرئيات بصفات المذاقات والعكس— وهذا التنقل و التحول فيما بينها على الرغم من أداة التشبيه و الأدوات الحسية الأخرى،فهي وسيلة لإبراز الأثر النفسي و الإحساس الدقيق للواقع الداخلي و الخارجي للشاعره وتجلى في معظم دواوينه هذا التراسل،إلا أنه كان كثيفا في ديوان (أين المفر، قاب قوسين، موسيقا من السر)،للطابع الرمزي الذي تتصف به هذه الدواوين.

1- المسموعات:

يطالعنا في محور المسموعات أو الصوتيات أبرز صوت هو الغناء ممثلا في أكثر من معطى (النغم الوتر، الناي، اللحن، الشدو، النشيد..) وفي كل موضع شعري له دلالة معينة، فليس الغناء دائما يرمز للفرح

---

(1) محمد فتوح أحمد – الرمز و الرمزية الشعر المعاصر –ص 250 .

(2) شفيع السيد – هكذا أغني – ص 282 .

(3) الرمز و الرمزية في الشعر المعاصر – ص 250 .

(4) علي عشري زايد – قراءات في شعرنا المعاصر –ص 28-29.

و الجمال، بل إلى أشياء أخرى منها الحزن و الألم و القوة و الإصرار، لكن الخيط المحوري الذي يجمع شتى الدلالات،هو الصوت الذي يسمعه الجميع سواء أكان غناء للحظة شاعرية أم أخرى ثورية.

ولكن ما يهمنا هنا كيف تراسل صوت الغناء وأدواته وتبادل مع المحسوسات الأخرى من مذاقات ومشمومات و ملموسات ومرئيات،وكان في هذا التراسل معاني دقيقة تخدم غرضه الشعري.

فرأينا الغناء أو الأناشيد تتصف بصفات المشمومات والمذاقات . فالغناء يتجرع كالمذاق المر في لحظة من لحظات الغافلين:

فَيَغْضَبُ إِنْ جَرَّعْتُهُ الغِنَاءَ
هُيَامًا .. وَ سِحْرًا تُغَنِّي بِهِ غَفْلَةَ الغَافِلِينْ[1]

وفي موضع آخر يقيد اللحن، كشيء ملموس للدلالة على الاضطراب وعدم الاستقرار في لحظة من لحظات الحياة:

ذَهَبْتُ لِلرَّوْضِ فِي صَبَاحٍ - مُقَيَّدِ اللَّحْنِ وَالجَنَاحْ[2]

وللناي أيضا اشتعال والغناء اضرام، كأنه من المرئيات، له لون النار،وفي ذلك تعبير عن صدى التغيير الذي يشمل الذات والواقع... وكان رمز هذه الشعلة شخصية إقبال المسلمة،المغيرة للأفكار و المفاهيم الراكدة في الأعماق والعقول،وذلك قصيدة " شعلة الذات "،ليتحول الاشتعال إلى شراب تتذوقه تلك الأعماق :

كُنْ غِنَاءً مُضْرِمًا وَجْدَ السَّمَاءْ
لاَ صَدَى نَوْحٍ لِقِيثَارِ الفَنَاءْ
وَاسْكُبِ الذَّاتَ .. بِنَايٍ مُشْعَلْ
تُبْصِرُ الكَوْنَ طُيُورًا مِنْ ضِيَاءْ...
طَائِرُ الإِسْلاَمِ رَجِّعْ نَغَمَا
كُنْتَ فِيهِ لِلَّيَالِي حُلُمَا
أَشْعِلِ النَّايَ الَّذِي هَزَّ السَّمَا
وَسَقَى الأَعْمَاقَ شَدْوًا مُلْهِمَا .[3]

وإلى جانب صوت الغناء ومعطياته،صوت آخر مناقض له في الدلالة المعجمية،أكثر من الدلالة الشعرية.وهو صوت التأوه والنوح والعويل وهو التعبير المباشر عن الحزن والالم عند الإفصاح عن الذات أو الواقع.

فالتأوه مثلا من المذاقات التي تسقي الصفو بالحسرة في مجال محاسبة النفس ودعوتها إلى الإيمان :

واشْرَبِ الإِيمَانَ !! تُسْقَى الصَّفْوَ مِنْ آهَاتِ حَسْرَهْ[4]

---

(1) صلاة ورفض – ص 39 .

(2) أين المفر – ص 156.

(3) لا بد ـ ص 139–144 .

(4) موسيقا من السر ـ ص 64 .

وتعصر السماء من القدس آهتين تعبيرا عن الضياع والأسر والواقع المرير الذي تعيشه كل أرض فلسطين المقدسة،ولعل في لفظة "يعصر" تعبيرا عن عمق المعاناة والألم :

... تُدِيرَ السُّؤَالَ عَلَى المِنْبَرَيْنْ
وَتَبْحَثُ عَنْ ثَالِثِ المَسْجِدَيْنْ
وَتَعْصُرُ مِنْ قُدْسِهَا آهَتَيْنْ ...(1)

والآهات من المرئيات التي تأخذ لون السواد للتعبير عن معاناة شوق الذات:

وَتَأْوِيهَ فِي اللَّيْلِ سَوْدَاءُ مُرَّةٌ - تُفَزِعُ فِي قَلْبِ الدَّجَى كُلَّ نَائِمِ(2)

2-المشمومات :

ركز الشاعر أيضا في محور المشمومات على العطر ممثلا مع بعض معطياته كالشذا أو العبير... وفي كل موضوع شعري يكتسب العطر،وهو من مدركات حاسة الشم أبعاده العميقة بسبب إحالته إلى أكثر من مدرك، ويتحول من دلالة إلى أخرى،لارتباطه بإحدى الحواس الأخرى.

وعثرنا على نموذج للعطر يكتسب فيه معاني عميقة بتحوله إلى أكثر من مدرك،وبالتالي إلى أكثر من دلالة ،وكلها تجتمع في هذا النموذج:

إِنْ دَعَاكَ العِطْرُ، فَامْضِي.. وَاتْرُكِيهِ لِشَذَاهْ
كَمْ سَكِرْنَا مِنْ أَمَانِيهِ وَأَشْجَانَا ضُحَاهْ
وَزَرَعْنَا فِيهِ أَحْلَامًا، طَوَاهَا مَنْ طَوَاهْ
وَشَدَوْنَاهُ، وَكُنَّا نَغَمًا يُشْجِي رُبَاهْ..
سَاحِرًا يُخْجِلُ لَحْنَ الطَّيْرِ فِي الرَّوْضِ صَدَاهْ
وَسَهَوْنَا مَرَّةً فِي الفَجْرِ.. لَمْ نَشْرَبْ طَلَاهْ
فَتَوَارَى عَنْ لَيَالِينَا، وَخَانَتْنَا رُؤَاهْ
فَاشْرَبِي مِنْ عِطْرِنَا الآتِي وَلَوْ طَالَ لُقَاهْ(3)

ففي البيت الأول يكتسب العطر وهو رمز لزيف وزوال الحياة الدنيا صفة الإنسان بعد امتلاكه لصفة المخاطبة والكلام، ليتحول في البيت الثاني إلى حاسة الذوق فتكون له صفات المذوقات المسكرة أو غيرها كما في البيت السادس والثامن (كم سكرنا – لم تشرب طلاه – فاشربي من عطرنا) وتتراسل حاسة الشم مع حاسة البصر فتخلع على العطر صفة النور بإحالته إلى نهار له ضشحى مشجي كما في البيت الثاني(وأشجانا ضحاه) وإحالته أيضا إلى مدركة أخرى مرئية إلى رابية تزرع فيها الأحلام كما في البيت الثاني(وزرعنا فيه أحلاما) وتجارب أيضا مع حاسة السمع فصار نشيدا وصدى. كما في البيت الرابع (وشدوناه) والبيت الخامس (صداه).

---

(1) موسيقا من السر ص 80 .

(2) هكذا أغني ص 26 .

(3) قاب قوسين ص10 11

3-المذوقات :

يبرز أيضا في محور المذوقات أو الطعومات، مذاق دائم التواجد والتحرك في شعره وهو الشراب الخمر والرحيق؟ وبخاصة الخمر التي تتخذ عدة دلالات ورموز صوفية وطبيعية، وتتحول وتتراسل في كل موضع شعري مع حاسة أو مدركة أخرى. وتواجدت بالخصوص في ديوان أين المفر الذي امتاز بهذا النسق التراسلي. فالخمر التي تذاق أصبحت من المسموعات لها صوت كالحفيف تارة،والمزمار تارة،وكالزجل تارة أخرى. ولعل ذلك يعود إلى الأثر النفسي الذي تتركه الخمر بالموازرة مع أشياء اخرى في الكون والحياة،لها الأثر نفسه :

- فَصَوتُكِ كَانَ هَمسَ رَبَابْ
وكان حَفيفَ خمرٍ ذابَ عَلى كَبِدي لِيُشْجِيني. (2)

-سَلِي الرِّيحَ : كَمْ مَرَّتْ بِنا وَهِيَ رَامِزُ - يُرَنِّحُ بِالأَنْفَاسِ تَايُ الجَزِيرَةِ ؟
لَهَا زَجَلُ دَامِي الرَّنِينِ كَأَنَّهَـــــــا - تُذِيعُ شِكَايَاتَ الزَّمَانِ الخَفِيَّةِ. (3)

من المذاقات لها صفة المرئيات،فهي تارة كالنور لها سنا،وتارة أخرى كالنار لها لظى:

- وَفَجَرُ مَدَى الدَّهْرِ يَبْقَى لَكِ
تُشَعْشِعُ أَنْوَارُهُ حَوْلَكِ
وَتَسْقِي أَبَارِيقُهُ لَيْلَكِ
سَنَا خَمْرَةٍ لَمْ يَذُقْهَا الأَنَامْ. (4)
- وأَنْسِنِي فِي جَذْوَةِ الأَنْفَاسِ لاَ تَزْعِجَ لَظَى خَمْرِي وَكُوبِي. (5)

4 - المرئيات :

ومن المرئيات التي برزت بوفرة بونرة في شعره هو النور بكل رموزه ومظاهره ومرادفاته،ممثلا في أكثر من معطى (الضوء - الضياء - الشهاب - الشعاع - الهالات - النهار - الفجر - الضحى - الليل - الظلام - الشمس - القمر).

فالنور يتراسل مع الصوتيات ليصبح صوتا ينصت إليه البشر، يوحي بالنواح والتأوه حينا والغناء حينا آخر، كمخاطبته للقمر :

---

(1) أين المفر-ص 80.
(2) المصدر نفسه-ص 117.
(3) المصدر نفسه-ص 112.
(4) المصدر نفسه-ص 127.

سَمِعْتُ سِحْرَكِ فِي الأَضْوَاءِ أُغْنِيَةً ... حَيْرَى تَأَوَّهَ عَنْهَا الرِّيحُ وَالشَّجَرُ...
قَلْبٌ كَقَلْبِكِ مَجْرُوحٌ ... وَفِي دَمِهِ هَالاَتُ نُورٍ إِلَيْهَا يُنْصِتُ البَشَرُ. (1)

ومخاطبته أضواء الشمس التي تغني وتسلّي غفلة الأيام التي يعيشها واقعه أمته، والشمس هي شمس الحضارة الإسلامية الغاربة:

وَيُغْنِي ضَوْءُ الشَّمْسِ ... لَمْ يَعُدْ فِيهَا شُعَاعُ يَرْتَجِيهْ
وَيُسَلِّي غَفْلَةَ الأَيَّامِ، يُلْهِيهَا بِشَدْوٍ تَصْطَلِيهْ
لَمْ تَزَلْ قُرْطُبَةُ تَصْرُخُ، وَالتَّارِيخُ يُصْغِي لأَبِيهْ. (2)

والنور أيضا من مذاقات الماء والشراب فهو يسكب ويشرب ويرشف، ويعصر، ويسقي ويذاب،وهي كثيرة في شعره ... بخاصة حينما يرمز بالنور إلى الإيمان والهدى والله والحق،مثل وقوفه أمام الله سبحانه وتعالى بالمناجاة والتضرع والخشوع:

لاَحَ لِي وَجْهُكَ فِي كُلِّ شُعَاعٍ يَتَجَلَّى
سَاقِي الإِيمَانِ ! مِنْ نُورِكَ طُفْ بِالكَأْسِ وَامْلأْ
وَاسْقِنِي، وَاشْرَبْ، وَلاَ تُحْرِمْ عَلَى البُعْدِ شِفَاهِي.
فَأُغَنِّي، رَبِّ سُبْحَانَكَ، دَوْمًا، يَاإِلاهِي!.
فَاسْكُبِ النُّورَ لِقَلْبِي، وَارْوِ بِالحُبِّ شِفَاهِي.
فَأُغَنِّي ... رَبِّ سُبْحَانَكَ، دَوْمًا، يَاإِلَهِي ! .(3)

وبعد مرحلة البحث عن الحقيقة يدعُو الإنسان إلى ترشف نور الإيمان بالله :

وَاشْرَبِ الإِيمَانَ !! تُسْقَى الصَّفْوَ مِنْ آهَاتِ حَسْرَهْ.
لَيْسَ لِلإِيمَانِ أَسْوَارٌ وَأَصْفَادٌ بِذَاتِكْ...
هُوَ كُلُّ النُّورِ ... أَنِّي ذُقْتُهُ فِي سَبَحَاتِكْ
فَتَرَشَّفْ !! فَضِيَاءُ اللَّهِ غَطَّى طُرُقَاتِكْ !!. (4)

ويدعو الله أن يرد التأهيل السماوي للشرق،رمز الأمة التي أهلها الله لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.فتعصر النور، لتسقى به الظلام الذي تعج به أرض البشرية :

وَدَعَوْنَا اللَّهَ فِي إِشْرَاقِنَا.
أَنْ يَرُدَّ الشَّرْقَ حُرًّا مِثْلَمَا.

---

(1) أين المفر-ص 91-92
(2) موسيقا من السر-ص 38.
(3) قاب قوسين-ص 134.
(4) موسيقا من السر-ص 64-65.

كَانَ مِنْ قَبْلِ ... إِلَى أَعْتَى الْمُنَى.
يَعْصُرُ النُّورَ وَيَسْقِي الظُّلْمَا !. (1)

والمرئيات أيضا من الملموسات،على الرغم أن لكل خصوصيته وطبيعته، كأن يرى الضياء مكبلا أو الضلام مصلوبا أو المصباح مخنوقا، للشعور الإنساني الظامي إلى الإيمان المشتاق إلى معرفة الحقيقة:

ظَمِيءَ الإِيمَانُ فِي أَعْمَاقِ رُوحِي.. ذَاتَ مَرَّهْ
وَأَنَا جَاثٍ عَلَى الأَعْتَابِ لاَأَدْرِكُ سِرَّهْ
كَبَّلَ العِشْقُ ضِيَائِي، بِقُيُودٍ مُسْتَمِرَّهْ
إِنْ مَضَى هَذَا ... أَتَى هَذَا، وَلاَ أَعْرِفُ آمِرَهْ. (2)

ويأخذ من مشتقاته المرئية وهي النار بعض صفاتها التي لا يتصف بها كالاشتعال والتوهج ونفشات والرماد للتعبير عن اضطرابه وحيرته،وهو يتأمل تناقضات نفسه وواقعه برمزيته المعهودة:

وَمَا أَنَا إِلاَّ شُعَاعٌ غَرِيبٌ تَأَلَّقَ بَيْنَ جُفُونِ الضَّبَابِ
لَهُ نَفْثَةٌ مِنْ وَرَاءِ السَّدِيمِ تُثِيرُ عَلَى الأَرْضِ حُزْنَ التُّرَابْ ...
تَوَهَّجَ حَتَّى بَكَادَ الرَّمَادُ وَأَغْنَى فَحُزْنَ عَلَيْهِ السَّحَابْ
يَلُومُونَ فِيهِ اشْتِعَالَ الضِّيَاءْ وَهَلْ يَمْلِكُ النَّارَ قَلْبَ الشِّهَابْ. (3)

من المرئيات ظاهرة أخرى تراسلية هي جزء من نظرية العلاقات الرمزية، ولها دور أيضا في تجريد الصورة وهي ايحاءات الألوان. فالألوان عنده ليست مدركات بصرية متميزة بل هي شتيت من الإيحاءات والمعاني المبهمة أحيانا. واللون الأبيض والأسود والخضر أسخى الألوان ايحاءا في نظره، فتارة يستخدمه وصفا لما من شأنه أن يكون محسوسا،وتارة أخرى يصف به معنى أو فكرة مجردة، وطورا ثالثا يستخدمه على سبيل التراسل بينه وبين معطيات الحواس الأخرى.

أ)- اللون الأبيض :

يرمز به إلى الطهر والعفاف والصفاء والانشراح،ففي وصفه للمرأة ككائن محسوس،ركز على بياض لونها وثيابها،معتمدا على لون الفل والوشاح والكفن :

---

(1) لابد-ص 145.
(2) موسيقا من السر-ص 63.
(3) أين المفر-ص 125.

- بَيْضَاءُ كَالْفَلِّ سِوَى أَنَّهَا خَالِدَةُ الْأَنْفَاسِ فِي نَكْهَتِي (1)
- تَوَشَّحَتْ فِي غَفْلَةِ الْحَيَاءْ بِأَبْيَضٍ يَفْنِي عَلَى ضِيَاءْ (2)
- رَأَيْتُهَا فِي دَهْشَةِ الْأَصِيلْ حُسْنَ كَفَنٍ جَمِيلْ (3)

أو يستخدمه استخداما تراسيلا كأن يكون لون اللسان،وهو حاسة ذوقية تتصف بالاحمرار، أو لون الليل الذي يتصف بالسوداء للتعبير عن الصدق والصفاء والأمان :

- وَأَلْسِنَةٌ بِيضٌ لَهُنَّ رَطَانَةٌ بِمِثْلِ لُغَاهَا كَاهِنٌ لَمْ يُتَمْتِمِ (4)
- لَيْلَاتُكِ البِيضُ وَالأَيَّامُ تَحْسُدُهَا غَزَالَتُ عَنْ صِبَا انْحَلَّتْ الأُزُرْ. (5)

ب)- اللون الأسود :

ويرمز به إلى صور متناقضة مع اللون الأبيض كالخداع والكذب،والتشاؤم واليأس، والبؤس والحزن، والاضطراب والحيرة، والغموض والإبهام،وكلها لحظات يعيشها الشاعر في مراحل الصراع من أجل البحث عن المثل العليا في الحياة.حيث يطالعنا وجه امرأة أخرى صادفها في أجواء المدينة صورة غامضة، مبهمة للسواد والسمرة تختلف عن صورة فتاة الريف :

- عَجِبْتُ لَهَا كَانَتْ سَوَادًا وَسُمْرَةً كَسِحْرِ غُرُوبٍ ضَمَّهُ سَاعِدُ اللَّيْلِ (6)
وَتَجْهَشُ بِالْحُبِّ الْعَنِيفِ جُفُونُهَا كَأَنَّ هَوَاهَا شَبَّ مِنْ عَالَمِ الشَّكْلِ
- عَشِقْتُ حَتَّى شَفَنِي وَطَارَا سَوَادُكِ الْمُقَدَّسُ، الْغَدَّارَا
ذَبَحْتُهُ فِي سَاعَةٍ تَوَارَى وَمَاتَ فِيهَا كُلُّ مَاضِي الْعَهْدِ. (7)

أو أن يجعل لبعض المرئيات صفات السواد، وهي غير ذلك في الواقع،ومنحها ايحاء تراسيلا تجريديا. كالموج والدمع، والتي تراءت جميعها بالسواد للتعبير عن الألم والحزن :

وَتَدَفَّقَتْ بِكِ مَوْجَةٌ سَوْدَاءُ مِنْ حُلْمِ الضَّبَابِ.
إِنِّي رَأَيْتُكِ أَدْمُعًا سَوْدَاءَ جَاثِمَةً حَيَالِي. (8)

---

(1) أغاني الكوخ-ص 97.
(2) ابن المقرء ص 153.
(3) المصدر نفسه ص- 153.
(4) المصدر نفسه - ص 27.
(5) المصدر نفسه-ص 91.
(6) المصدر نفسه-ص 32.
(7) المصدرنفسه-ص 103.
(8) المصدر نفسه-ص132.

ج) - اللون الأخضر :

هو عناوين بعض قصائده كالضباب الأخضر(1)، والناي الأخضر(2)، ويرمز إلى الخصب والنماء، والأمل والحلم، المجد والأمان، الجنة والخلود. فالسفوح الخضر رمز للمجتمع الإسلامي الآمن المطمئن، الزاهر بالحب والرحمة والخير، وشتى الفضائل والمكارم التي دعا إليها الإسلام. يقول مخاطبا نفسه :

أَرْجِعِي أَنْتِ ... فَإِنِّي لِلسُّفُوحِ الْخُضْرِ سَائِرْ
لِصَبَاحٍ لَيْسَ فِيهِ نَظْرَةٌ مِنْ جَفْنِ صَاغِرْ
لَيْسَ فِيهِ خَاطِفُ الرَّحْمَةِ مِنْ كَفِّ يَتِيمَهْ
لَيْسَ فِيهِ سَارِقُ الظِّلِّ مِنَ النَّفْسِ الرَّحِيمَهْ ... (3)

والغد الأخضر رمز للجنة والنعيم والجزاء الذي يحلم به الإنسان المؤمن.ففي طريق الحياة الطويل،وفي مرحلة مكاشفة نفسه،يمني نفسه بذلك الغد الأخضر. فيدعوها للزحف نحو النور والإيمان مع القوافل البشرية :

واتْبَعِينِي، فَالغَدُ الأَخْضَرُ فَوْقَ الدَّرْبِ مَاثِلْ ... (4)

ويرمز بالراحات الخضر إلى الخصب والاخضرار، الذي يمنحه النيل للأرض أو الطبيعة،ويخلصها من جدبها وهجيرها . وإن خالف الكناية القديمة التي تجعل الراحة البيضاء رمز للكرم والعطاء،ولكن الراحة الخضراء أيضا لها إيحاء فني جديد أقرب إلى التراسل،ولايخلو من المعنى الكنائي طبعا!:

دَعُوهَا عَلَى رَاحَاتِهِ الْخُضْرِ تَرْتَمِي ... فَقَدْ شَفَّهَا بَرْحُ الْهَجِيرِ الْمُسَمِّمِ
رَمَتْ فَوْقَهُ أَشْجَانَهَا، وَتَنَفَّسَتْ ... إِلَيْهِ بِشَكْوَى عَابِرٍ لِمُخَيِّمِ ....
وَأَغْفَتْ عَلَى حُضْنٍ مِنَ الْمَوْجِ نَائِمِ ... بِخَيْلِ الرُّؤَى إِلاَّ عَلَى كُلِّ مَلْهِمِ
هَوَ النِّيلُ رَبَّاهَا عَلَى الْحُبِّ وَالْهَوَى ... وَعَانَقَ شَطَّيْهَا عِنَاقَ الْمُتَيَّمِ... (5)

وعلى سبيل التراسل أيضا يحقق بعض الرموز الأخرى كإظهار المرء مالا يبطن نفاقا ورياء وكذبا ... كأن يخضر الأفول والكلام أو الحرف:

- ثُمَّ أَمْعَنَتْ حَيَّةٌ تَنْفُثُ الفِرْدَوْسَ سَمًا يَخْضَرُّ فِيهِ الأُفُولْ. (6)
- وَكَلاَمٌ أَخْضَرُ الْحَرْفِ تَشَهَّتْ كُلَّ نَفْسٍ عِطْرَهَا مِنْ حَامِلِيهْ
رَاغَ حَوْلَ الأَوْجُهِ السُّكْرَى، وَبَابَ الْخَانِ يَطْوِي دَاخِلِيهْ. (7)

---

(1) انظر- قاب قوسين ص 33.
(2) انظر- أغاني الكوخ-ص : 203.
(3) قاب قوسين-ص 24-25.
(4) المصدر نفسه- ص16.
(5) أين المفر- ص 22-23.
(6) موسيقا من السر- ص 8.
(7) المصدر نفسه-ص 39.

7- التـــقـابل (التـــضـاد):

استقر عند منظري علم البلاغة أن الطباق والمقابلة من المحسنات اللفظية الداخلية في باب البديع، وأن الطباق هو الجمع بين اللفظ وضده في الكلام، وأن المقابلة هي الجمع بين أكثر من ضدين أو الجمع بين معنين متضادين في الكلام. وأن << أصلها ترتيب الكلام على ما يجب فيعطي أول الكلام ما يليق به أولا،وأخره ما يليق به آخرا،ويأتي في الموافق بما يوافقه وفي المخالف بما يخالفه.>>(1).

وإن اعتبرت البلاغة القديمة الطباق والمقابلات من المحسنات اللفظية التي توظف لزخرفة الشكل،على الرغم من خدمتها للمعنى فقد استقر النقاد المحدثون بعد التداخل والارتباط الوثيق بين الشكل والمضمون،على أن المحسنات اللفظية تخدم المعنى والصورة في الوقت نفسه.بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فأكدوا أن بعض الصور إنما يشكلها الطباق أو المقابلة بالخصوص،وأصبحت فلسفة الصور الحديثة تقوم على هذا التقابل أو التعارض والتضاد أو مزج المتناقضات. وبذلك اتسع مفهوم المقابلة بعد أن تم توظيفها فضلا عما تؤديه من دور في تنميق اللفظ وتحسين الشكل،وذلك في أن توصل الإيحاءات وإحداث الأثر النفسي في المتلقي. لأن أسلوب التقابل أو التضاد أو التعارض يتمثل في تلك الصور التي يقع بين عناصرها تجاذب وتنافر يعكسان بقوة وصدق تصارع القوى البشرية،وتعارض مصالحها على أرض الواقع،وذلك بإظهار المفارقة بين الذات والواقع، والظاهر والباطن، والحق والباطل والضيلة والرذيلة، والماضي والحاضر... وتجاوز الناحية اللفظية إلى الصورة الفنية بأكملها، ومن ثم أصبحت للمقابلة دور لغوي وسياقي في آن واحد.

وعلى هذا الأساس قسمها البلاغيون المحدثون إلى مقابلة لغوية، وأخرى سياقية. فأما المقابلة اللغوية فهي التي تبين أن علاقات المتقابلين فيها اختيارية،وهي تلك التي تتمثل في استعمال لفظين اثنين متضادين بحكم الوضع اللغوي، ولا يشترك معهما في ذلك ثالث. والشاعر في هذا النوع من المقابلة يستسلم لضغط المعجم المشترك على إمكانيات التصرف الخاصة وإرسال الكلام، فيصغر بذلك حظه من التفنن فيه،ويعظم شأنه في استغلال الرصيد اللغوي العام(2). والمقابلة السياقية هي كل مقابلة كانت علاقة المتقابلين فيها توزيعية، فتقابل الشقين في هذا النوع ليس مرجعه إلى الوضع اللغوي، وإنما إلى أسلوب الشاعر وحده. فالشاعر في إخراج المقابلة السياقية لا يخضع لضغط المعجم المشترك بقدر ما يستجيب لملكته الخاصة في الخلق الفني.

ففي هذا الأسلوب تقدر جهوده وتقاس عبقريته، والطريف في المقابلة السياقية عامة أنها تبني على تداخل مستويين: مستوى لغوي وآخر سياقي في النص الشعري.(3)

---

(1) ابن رشيق- العمدة- تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد- دار الجيل- بيروت- لبنان- ط5- (1401هـ-1981م)- ج2-ص14.

(2) محمد الهادي الطرابلسي- خصائص الأسلوب في الشوقيات- ص98 .

(3) المرجع نفسه -ص 102-103.

وكان دور الشاعر الحديث في استخدام المقابلة اللغوية محدودا، و لم يعد في استطاعته استخراج ما في بطون المعاجم من أزواج المقابلات، لأنها بهذا المعنى لا تعكس عملا خلاقا، ولا تساهم في شعرية الشعر بحظ كبير، على الرغم من بعض الإيحاء المتقبل بالشيء وضده. ولهذا خرج الشاعر من الإطار المحدد بين الكلمة ونقيضها أوضدها، وبين عجز البيت وصدره... وأصبحت المقابلة لا تنحصر في دائرة الطباق المحض، الذي أصبح أسلوبا من شأنه أن يصرف الذهن عن الاهتمام بالمعاني الكلية وتتابعها إلى الإهتمام بالشكل وحده وبالصنعة اللفظية. وإنما أصبح منهج الشاعر في بناء قصائده على التقابل والتضاد قائما على تجاوز البيت أو البيتين إلى لوحات ومشاهد متقابلة ومتعاكسة قد يأخذ المشهد أو اللوحة الأولى الجزء الأول من القصيدة، والمشهد أو اللوحة الثانية الجزء الأخير من القصيدة أو يحدث بينهما تناوب أوتتابع، وبذلك اتسعت دائرة التصوير القائمة على المقابلة باتخاذها أبعادا ودلالات إنسانية وحضارية عميقة. ودعا ذلك إلى إعادة النظر في تقسيم علوم البلاغة العربية إلى معان وبيان وبديع، هذا الأخير الذي عدّته << الكثرة من الدراسات القديمة مجرد مكمل أو زخرف خارجي للتعبير الفني. فإننا سنجد من أقسامه ماهو من صميم البناء الشعري، لا يقل أصالة وجذرية وثراء عن الاستعارة نفسها.>>(1)

واستخلصنا من أدوات الشاعر محمود حسن إسماعيل الفنية المقابلة كأسلوب فعال في بناء صور أشعاره ومعانيها وفعاليتها،ليست في وفرة استخدامها، وإنما في تنوعها من حيث المدى والعمق، وفي استغلال الشاعر لإمكانيات التقابل في الرصيد اللغوي من ناحية،واستنباطه إمكانيات منه جديدة بعمل ملكة الخلق الفني من ناحية أخرى. على الرغم من استعمال الشاعر للطباق،وبخاصة حين ينظم في قالب الشطرين،محتذيا أسلوب القدماء في علو النبرة وتأليف الكلام في كثير من المواضع الشعرية في دواوينه. إلا أنه بنى قصائده على الصور المتقابلة المتضادة ليخرج في النهاية بتشكيل جمالي يصور موقفه أو بالأحرى رؤيته الشعرية عموما.

يأتي الشاعر أثناء بناء صورة التقابلية ملحقة بالصورة الشعرية،ليوضح ويشرح ويفصل باعتماده على صور التشبيه والاستعارة التي يبنيها بناء تقابليا تناظريا،ليفصح من خلالها عل قانون التناقض أو التضاد، والذي يفضي إلى تصوير الصراع بين القوى الخفية المتضادة في النفس الإنسانية وفي الواقع الإنساني. فيستسلم لتداعي معاني الصورة الأولى، ثم ينتقل إلى الصورة الثانية ليعرض الموقف المتناقض للموقف الأول. وهذا البناء المتضاد هو نتيجة لاضطراب واقعه الاجتماعي والسياسي، والديني والفكري، وما يموج به من تناقضات ومساوئ.. إلا أن الصورتين المتقابلتين لا تعكسان بهذا التناقض، الحيرة والتردد والألم داخل واقعه النفسي بل بالتضاد أوالتقابل تتميز الأشياء والرؤى عن طريق عرض صورتين شعريتين يشكل الشاعر بها قصيدته، ويجعلها ذات إيحاءات ودلالات متعارضة من النقيض إلى النقيض. ونجد في النهاية أن الشاعر حين يقابل صورة مع أخرى، كأن يقارب بين شيئين يبدو تفضيله لشيء ما. فكثرة المقابلات بين المعاني المتضادة جاءت لتأكيد المعاني التي

---

(1) محمد حسن عبد الله- الصورة والبناء الشعري- ص20.

يرمي إلى توليدها في كل دواوينه،بعد أن أدرك منذ فترة مبكرة من حياته << أن من أهم مميزات الشعر خلق المعاني وتجديدها بطريق ذلك التصادم أو التضاد أو التقابل بين معاني الألفاظ.>>(1)

فشدة الإحساس بما في الحياة والنفس من مفارقات،راح يبني كثيرا من صوره الشعرية على المقابلة بين المفردات أحيانا،وبين طائفة من المتماثلات في طرفي الصورة أحيانا أخرى.

أ-فمن المقابلات اللفظية اليسيرة التي تلائم العبارة المنطقية يمزج الشاعر فيها بين المتناقضين،مثل هذه الأمثلة التي لا تلتزم بالعرف اللغوي أو المعجمي المزدوج، وإنما من خلال السياق اللغوي عموما. وقد توزعت هذه المقابلات الجزئية من مثال إلى آخر بين الصدر والعجز الذي يتلاءم وبنية القصيدة العربية في قيام كل بيت من أبياتها على مصراعين ينتظم عليها توزيع المقابلات أو بين مفردين متقابلين يحتضنهما العجز أو الصدر أو السطر الذي يتلاءم مع شكل القصيدة المعاصرة.

1- تُلْهِمُ الرُّشْدَ لِلضَّلُولِ، وَتُلْقِي - مُعْجِزَاتُ الْهُدَى لِكُلِّ غَوِيّ
وَتَسُوقُ الإِيمَانَ لِلْجَاحِدِ الغَاوِي - فَتَنْضُو مِنْ قَلْبِهِ كُلَّ غَيّ(2)

2- خَرْسَاءُ، لَكِنْ صَوْتُهَا صَارِخٌ - يُذِيبُ قَلْبَ الصَّخْرِ مِنْ وَجْدِه
تُفْنِي دُمُوعُ النَّاسِ مِنْ فَيْضِهَا - وَدَمْعُهَا بَاقٍ عَلَى عَهْدِهِ(3)

3- لاَ أُبَالِي أَشَجَى سَمْعَكَ أَمْ لَمْ يُشْجِ لَحْنِي...
لِلأَسَى فِيهَا تَعَالِيلُ، وَلِلْيَأْسِ تَمَنِّي...
سَاهِمُ الأَنْفَاسِ حَيْرَانُ أَيَبْكِي أَمْ يُغَنِّي ؟...
فَسَوَاءٌ رُحْتَ تُغْضِي لاَئِمًا .. أَمْ رُحْتَ تُثْنِي(4)...

4- وَالصَّمْتُ رَبَابٌ لِنَشِيدِي
وَأَنَا كَالتَّائِهِ فِي بِيدِ - حَيْرَى تَتَلَفَّتُ لِلنُّورِ(5)
وَبِأَرْضِكَ نَهْرٌ دَفَّاقٌ - وَبِأَيْكِكَ عِطْرٌ مَنْسِيُّ
وَبِصَمْتِكَ نَايٌ قُدْسِيّ(6)

---

(1) محمود على هدية- شعر محمود حسن إسماعيل دراسة فنية- ص111.

(2) أغاني الكوخ- ص64 .

(3) المصدر نفسه- ص77-78.

(4) هكذا أغني- ص263-264 .

(5) أين المفر- ص67.

(6) المصدر نفسه- ص71 .

5- تلفتُ.. وَاهًا عَلَى الحَائِرِينْ
إذَا بُوغِتُوا باخضرار السفلاه (1)

6- وَأَلْفُ شَيْطَانٍ بَغِيّ الوَجْهِ بَاغِي الجَسَدِ
مُحَزَّمٌ مِنْ الخَطَايَا بِشِهَابٍ أَسْوَدِ.(2)

ففي الصورة الأولى والثانية والثالثة نلاحظ تلك التعبيرات الجزئية المتقابلة بين الإيمان والضلال الذي تمنحه الطبيعة المصرية، وجاء بها ليؤكد مدى دلالة الكون على الإيمان بوحدانية الله. وكذلك الساقية التي في خرسها صراخ على معاناة الفلاح،والماء الذي تسكبه يشبه الدموع التي لا تجف بالمقارنة مع دموع البشر المؤقتة. وكذلك في مجال حديثه عن شعره الذي يعتز به لأنه يمنح السلوى للأسى، والتمني لليأس، وهذا الاعتزاز بشعره في حالات البكاء والغناء، لا يجعله ينتظر من الآخرين الثناء أواللوم.

أما في الصورة الرابعة والخامسة والسادسة مزج بين الصمت والرباب، وكذلك الصمت والناي، وكلاهما مضاد للسكون، ومزج أيضا بين الفلاة وبين الزرع الأخضر،وبين لونين مختلفين متناقضين، هما اللون الأبيض (شهاب) واللون الأسود.

وهذه الصورة الأخيرة هي إيحاء بأهمية الصمت في حياة الشاعر وبكونه ذا معنى وإحساس يثبتان الوجود، ويوحي المزج والتركيب بألفة الفلاة ونفي الموت عنها وامتلائها بالحياة والنمو كي تنتفي عنها الوحشة والغرابة، والتفي والحرمان. ولقد جرد الشاعر – عن طريق هذا المزج– الصحراء من مفهوم المواضعة العقلية المتفق عليه إلى مفهوم نفسي خاص به. ويدلنا المزج الأخير على ما يمكن أن يصل إليه خداع الشيطان للإنسان ولاسيما التائب، حيث يمكن أن يؤدي غرضه من خلال التشوش والاضطراب.(3)

ب- **أما المقابلة المركبة** : ماهي إلا وحدة مركبة من عناصر متقابلة متضادة،مهما كبرت عناصرها المكونة أو صغرت. باعتمادها على المقاطع الشعرية التي هي لوحات أو مشاهد متقابلة، أو ترتد القصيدة أحيانا أخرى إلى القيام على ألوان تقابلية مفردة يجمعها السياق الواحد، فتتوسع بذلك دلالة المقابلة المركبة.

ومن المحاور التي اعتمدها الشاعر أنه ردد كثيرا من الأزواج المتقابلة في عدة مواطن كالمقابلة بين مكانين، وبين زمانين، وبين وضعيتين أو حالتين.وتأتي المقابلة بمختلف أنواعها وأشكالها لتعزيز الدلالة في الشعر ببيان، وجه الصلة العميقة بين شيئين يتضادان. وسر أسلوب المقابلة كله في تهيئ مفاجأة أو خلق عادة بتصوير حركة معينة في الانتقال من نقطة إلى أخرى تضادها،وتوضيح توتر بينهما. وتندرج تحت معنين رئيسين تقوم عليهما

---

(1) قاب قوسين– ص189 .

(2) المصدر نفسه–ص113.

(3) التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل– ص97 .

المقابلة هما: معنى الحركة ومعنى التوتر. فأما الحركة فهي وضعية المتقابلين في إجتماعهما في سياق واحد من حيث تحركهما في اتجاهات معينة ، وأما التوتر هو إحتفاظ كل من المتقابلين بمنزلته من ضده . فلم ينزع المتقابلان في تحركهما إلى الالتقاء، والجمع بينهما في السياق الواحد يكون لغاية إبراز التوتر في علاقتهما ، فيخضعان لنقطة ما يلتقيان فيها ، وذلك بالمقارنة بينهما أو بتعويض أحدهما بالآخر، أو يحصر ما بينهما بهما ، أو بتفضيل الخصائص المميزة لكل منهما .(1)

وتحت هذا البناء التقابلي نستطيع أن نضع مجموعة من القصائد تسير على هذا النمط التقابلي والتي يمكن تصنيفها تحت هذه المحاور .

1- **المقابلة بين زمانين**: ومن هذه المقابلات التي تتخذ الزمن عنصرا محوريا في تشكيل صور شعرية،تخدم معاني جوهرية في الحياة ، وذلك من خلال المقابلة بين زمنين مختلفين مثل :

أ- **الليل والنهار** : وهما شيئان متناقضان يرجعان إلى أصل واحد، وتستقطبهما سنة الله الكونية يتعاقبهما:

لَقِيَ اللَّيْلُ حَتْفَهُ حِينَ وَافَـــا - هُ طَرِيدًا مُعَرَّسًا فِي الخَـــلاَءِ
فَثَوَى فِي التَّخُومِ كَالهَمِّ أَلْقَى - رِحْلَهُ صَوْبَ هَالَةٍ مِنْ صَفَاءِ
وَدَنَا الْفَجْرُ فِي غَلاَئِلِهِ البِيـــ - ـضِ شَفِيفَ الإِهَابِ نَضْرَ الرَّوَاءِ
يَسْكُبُ النُّورَ فِي العُيُونِ وَلَكِنْ - أَيْنَ لِلرُّوحِ وَمْضَةٌ مِنَ سَنَاءِ (2)

ب-**الصباح والمساء**: وتتكرر حركة الاستقطاب بين هذين المتقابلين لتمنحانه التأمل والإيمان بقدرة وبديع صنع الخالق من جهة، ودعوة نفسه لإداء شعائر السجود لله من خلالها من جهة أخرى.لأن الصباح والمساء أو الشروق والغروب،هما المدى الزماني الذي دعا إليها سبحانه وتعالى لا ستشعار وجوده.

ففي أول القصيدة صورة الصباح ، واستيقاظ حركة الكون بالحياة :

كُلَّمَا هَلَّ صَبَاحْ
وَهَفَا كُلُّ جَنَاحْ
وَعَلَى الوَرْدَةِ صَاحَ - بُلْبُلٌ يَشْكُو هَوَاهْ .
رَدِّدِي شَكْوَاهْ . وَاسْجُدِي لِلّهْ ... (3)

---

(1) محمد الهادي الطرابلسي- خصائص الأسلوب في الشوقيات- ص121-123 .

(2) هكذا أغني- ص92-93.

(3) نهر الحقيقة- ص142 .

وفي نهاية القصيدة تقابلنا صورة المساء،وغفوة وسكون الكون:

كُلَّمَا عَادَ المَسَـــاءْ
وَغَفَا جَفْنُ الضِّيَـــاءْ
وَغَدَا طَيْرُ المَسَـــاءْ - عَـازِفًا مَـلَّ الغِنَـاءْ
سَبِّحِي، أَنْتِ وَعُودِي - فِي مَحَارِيبِ الْوُجُودِ (1)

ج- **الربيع والخريف** : وهما صورتان متقابلتان لتعاقب الفصول ، فبفعل الزمن الخريفي تغير زمان الربيع ؛ فتغيرت صورة الكون من الخصب إلى الجدب. وهذا التقابل هو إظهار لسنة الخلق وحكمة التعاقب، وإيمان الشاعر بالحياة بعد الموت،فالربيع يجدده والخريف لا يفزعه :

وَقَالَتْ : لَقَدْ غَاضَ سِحْرُ الرَّبِيعِ
وَأَمْرَعَ فِي شَاطِئَيْهِ السُّكُوتُ...
تَوَلَّتْ طُيُورٌ، وَمَاتَتْ زُهُورٌ
وَخَيَّمَ فِي الرَّبْوَةِ العَنْكَبُوتُ...
تَبَدَّدَ فِي رَوْضِنَا كُلُّ شَيْءٍ
وَحَلَّ الفَرَاغُ البَلِيدُ المَقِيتُ...
هَوَاكِ، وَأَنْتِ، وَهَذَا الوُجُودُ
رَبِيعٌ يُجَدِّدُنِي مَا حَيِيتُ
فَلاَ تُفْزِعِينِي إِذَا أَطَلَّ الخَرِيفُ
وَلَمْ يَبْقَ فِي اللَّحْنِ إِلاَّ خُفُوتُ(2)

د- **الماضي والحاضر** : وهذان الزمنان لم يعبر بهما عن دورتان من دورات الحياة الشاغرة من المعاني والقيم والأحداث والصراعات،وإنما ربطهما برؤيته للواقع السياسي والاجتماعي والإنساني الذي يعيشه بلده مصر،وكل بلدان أمته العربية والإسلامية. فعن بلده مصر يقابل الشاعر بين ماضيها التاريخي الزاهر بالحرية والمجد،وحاضرها المؤلم الذي كان واقعا تحت الاحتلال،والذي قيدها وأذلها أيم إذلال:

دَرَجْتُ فِي السِّنِينَ مِنْ عَهْدِ "خُوفُو" - حُرَّةً مَا وَعَتْ لَدَيْهَا إِسَارَا
عَقَدَتْ تَاجَهَا عَلَى الشَّمْسِ كِبْرًا - أَنْ يُحَلَّى جَوَاهِرَ وَنُضَارَا

---

(1) نهر الحقيقة - ص143.

(2) قاب قوسين- ص198-200.

وَبَنَتْ عَرْشَهَا عَلَى مَفْرَقِ الأَهْـــــ - ـرَامِ زَهْـوًا بِمَجْدِهَا وَافْتِخَارَا
ثُمَّ دَارَ الزَّمَـــــانُ دَوْرَةَ نَحْسٍ - فَإِذَا حَظُّهَا مَعَ النَّحْسِ دَارَا...
هِيَ مِصْرُ الَّتِي أَثَارَ شَجَـــاهَا - أَنْ تُطِيقَ الْقُلُوبَ عَنْهَا اصْطِبَارَا
كَبَّلُوهَا بِكُـــلِّ قَـــيْدٍ أَثِيمٍ - عَاقَهَا أَنْ تَحُوزَ تِلْكَ الدِّيَارَا...(1)

كما يتذكر ماضي الشرق الذي يمثل كل أجزاء أمته، ويزخربالنور والحق والسعادة، ويستنكر حاضره المليء بالأنين والغربة والضياع:

ذَكِّرِيهِ.. وَاذْكُرِي أَيَّامَهُ - بِهُدَى الْحَقِّ وَنُورِ الأَنْبِيَاءْ
كَانَتِ الدُّنْيَا ظَلاَمًا حَوْلَهُ - وَهُوَ يَهْدِي بِخُطَاهُ الْحَائِرِينَا
أَرْضُهُ لَمْ تَعْرِفِ الْقَيْدَ وَلاَ - حَفَضَتْ إِلاَّ لِبَارِيهَا الْجَبِينَا
كَيْفَ يَمْشِي وَثَرَاهَا غَاصِبٌ - يَمْلأُ الأُفْقَ جِرَاحًا وَأَنِينَا
كَيْفَ مِنْ جَنَّاتِهَا يَجْنِي الْمُنَى - وَتَرَى فِي ظِلِّهَا كَالْغُرَبَـاءْ(2)

2- السمقابلة بين مكانين : ويتخذ المكان أيضا عنصرا محوريا في تشكيل صوره الشعرية المتقابلة،وذلك من خلال مكانين مختلفين قابلين للتضاد والتنافر،ولهذا فهو لم يحدد الرسوم والمناخات الجغرافية،بل حدد التصورات والمفاهيم التي تحكمها.

أ- الشرق والغرب : ترددت في شعره المقابلة بين الشرق والغرب كثيرا،وعني بهذين المكانين المتضادين للتعبير عن الشرق الذي يشمل العرب والمسلمين والغرب الذي يشمل غيرهم. ومعنى التقابل الذي بينهما يحمل تنافض في القيم والمبادئ ليخلص دائما في النهاية إلى مقارنة لبيان وجه الاختلاف بين النقيضين.فتكون مقارنة تفاضلية كالتركيز على إظهار ظلام الغرب ونور الشرق الذي يبرزه في قصيدة " أنا الشرق" في صورة الإسلام بروحانيته وشريعته السمحاء:

وَتَوَرَّتْ آفَاقًا وَأَحْنَيْتُ عَالِـــــمًا - لَهُ فِي فِجَاجِ الْغَرْبِ ضَجْعَةُ مَيِّتِ
وَكَمْ رُحْتُ أَسْقِيهِ بِوَحْيِي.. وَرَاحَتِي - مِنَ الرُّوحِ تُعْطِي رَشْفَةً إِثْرَ رَشْفَةِ
تَمُدُّ يَمِينًا لِلسَّمَاءِ، تَـــــمُدُّهَـــا - يَدُ اللهِ مِمَّا تَبْتَغِي مِنْ هِدَايَـــةِ
رَسُولاً.. رَسُولاً.. مَوْكِبًا مِنْ عَدَالَةٍ - وَحَـقٍّ، وَإِسْـعَادٍ،وَنُـورٍ، وَرَحْمَـةِ...
أَنَا الْبَـعْثُ مَهْمَا قَاوَمَ الْغَرْبُ ثَوْرَتِي - أَنَا النُّورُ مَهْمَا قَـاوَمَ اللَّيْلُ يَقْظَتِـي
أَنَا الْـحَرُّ... يَدْرِي كُلَّ حُرٍّ مَوَاقِفِي - وَيَشْهَدُ لِي التَّارِيخُ فِي كُلِّ صَفْحَةِ(3)

---

(1) هكذا أغني- ص100-105.

(2) المصدر نفسه - ص171.

(3) نار وأصفاد- ص138-138.

وفي موضع آخر يكرر نورانية الشرق أمام ظلامية الغرب. ليؤكد صورة أخرى للشرق مناقضة لصورة الغرب،وهو حمله لمشعل العلم والحضارة لكل الأرض،بينما كان الطرف الآخر يتخبط في ظلام جهله وجاهليته:

كُنَّا لَهُمْ قَبَسًا فِي الأَرْضِ نَشْعِلُهُ - كَيْمَا تُضِيءُ بِهِ لِلْعَالَمِ الشُّهُبِ
لَوْلاَ شُعَاعٌ سَرَى مِنْ مَهْدِنا لغدتْ - أَجْيَالُهُمْ فِي ظَلاَمِ الفِكْرِ تَحْتَجِبُ(1)

ب- **الأرض والسماء** : لم يستعمل لفظ السماء نفسه وكذلك الأرض في المقابلة بينهما و نما مقابلته بين الأرض والسماء ترد كناية عن الكون والإنسان...كالمقابلة بين الجسد والروح. لامن أجل التفاضل أو التبعيد،وإنما لإبراز خصائص كل منهما. الجسد الذي يسكن التراب والروح التي تطير نحو السماء أو عرش الله، وهي موازاة بين عالم الغيب وعالم الشهادة:

إنْ أَكُنْ فِيكِ سَكَنْتَ الجِسْمَ والجِسْمَ تُرَابٌ يَتَقَلْ
فَأَنَا طَيْرٌ بِعَرْشِ اللهِ لِي عَشٌّ، وَبُسْتَانٌ، وَحَقْلْ
إِنَّمَا أَبْكِي لِهَذَا القَفَصِ الدَّاجِي الكَئِيبِ المُتَسَلْسِلْ
لَمْ يَجِدْ أَيَّ عَزَاءٍ فِي وُجُودِي..كَيْفَ يَغْدُو حِينَ أَرْحَلْ؟(2)

3- **المقابلة بين وضعيتين** :وهذا النوع من المقابلات أكثر منه الشاعر، لأنه يشمل صيرورة الحياة بكل سننها وتناقضاتها وانعكاساتها. والمقصود بالمقابلة بين وضعيتين،أو حالتين هما صورتان متقابلتان للثنائيات الكبرى في الحياة كالخير والشر، والسعادة والشقاء، الحق والباطل، الفضيلة والرذيلة، الحياة والموت، يعرض من خلالهما صورتين شعريتين ذات إيحاءات ودلالات متعارضة من النقيض إلى النقيض بعد إخضاعهما لرؤيته الشعرية .

أ- **الحياة والموت** : أراد الشاعر من خلال التقابل بين الحياة والموت أن يؤكد حقيقتهما الكبرى،التي سنّها الله سبحانه وتعالى. هذه الحقيقة لازمها الشاعر وعانقها وتوحد معها في قصيدة "تلازم"،ومضيا يسرحان في عالم الحياة وتناقضاتها تارة متخفيتان،وتارة أخرى متراثيان. والتخفي والتراثي سمتان متقابلتان لإدراك الأسرار والخفايا والظواهر:

مُتَرَائِيَانِ، مُتَخَفِّيَانْ
مُتَلاَزِمَانْ، مُتَعَانِقَانْ
أَنَا وَالحَقِيقَةِ كُلَّ آنْ(3)

---

(1) نار وأصفاد-ص49 .

(2) أين المفر-ص128.

(3) نهر الحقيقة- ص19.

ويهيمان كطائران في الحياة المتناقضة ليبرزا لنا أحوالها وأوضاعها تارة بالنوح والابتسام، والتكلم والصمت، والشدو والخرس، والجوع والشبع، والظمأ والارتواء:

وَإِذَا انْتَشَيْتُ فَطَائِرَانْ مُحَلِّقَانْ
بِالدَّمْعِ قَدْ يَبْتَسِمَانْ
بِالصَّفْوِ قَدْ يَتَنَاوَحَانْ
وَعَلَى الْمَدَى الْمَسْكُوبِ مِنْ قَدَحِ الزَّمَانِ يُهَاجِرَانْ...
مُتَكَلِّمَانْ، وَصَامِتَانْ
وَشَادِيَانْ، وَأَخْرَسَانْ.(1)

وينتقل إلى الصورة المقابلة للحياة وهي صورة الموت أو الفناء. حيث لا يبقى إلا وجه الله تعالى،بعد زوال كل شيء، وأمام جماجم البشر المتصارعة حول المعاني الفانية يضحك مرة أخرى مع الحقيقة ويبكي، وفي ذلك سخرية ومرارة تمتزج في أعماق كل متأمل:

وَعَلَى جِبَاهِ السَّاجِدِينَ يُنَادِيَانْ
كُلُّ الظِلَالِ تَحُولُ
إِلاَّ ظِلَّ وَجْهِكَ... وَالزَّمَانْ
يَتَعَجَّبَانْ، وَيَمْضِيَانْ
مُتَعَانِقَانْ، مُتَلَازِمَانْ
خَلْفَ الْجَمَاجِمِ، يَبْكِيَانْ وَيَضْحَكَانْ(2)

ويمنح الشاعر صورة تقابلية أخرى لتأكيد حقيقة الحياة والموت، وهي صورة الكون والحياة وأمام هول الزلزال تختصر لحظات الكائنات والبشر وتنتقل في فجائية وذهول من الحياة إلى الفناء... وفي الزلزال طبعا صورة مصغرة لهول الساعة الأخيرة، ويُخْضِع الشاعر كل المتقابلات لحتمية الزوال. فيصورها في حياتها الطبيعية، ويصورها بعد أن ترجف الأرض وتزلزل،وهي المدائن والقرى، الأكواخ والقصور، اللحود والمهود، المساجد والكنائس، والمآذن والأجراس، السعداء والأشقياء، الأجنة والكهول(3).

وكانت المقابلة بين الحياة والموت لها دلالات أخرى كارتباط الموت في قصيدة "موسيقا من الأرض" بموت أرض فلسطين بالاستيلاء اليهودي عليها. فكانت الصورة الأولى موت وذبول وجفاف واختفاء لكائنات الأرض من زهور وعطور وطيور وحمائل وجداول:

تَوَارَتْ زُهُورِي
وَكَانَتْ بَسَاتِينَ، تَرْضَعُ مِنْهَا شِفَاهُ اللَّيَالِي

---

(1) نهر الحقيقة – ص19-20 .

(2) المصدر نفسه– ص24-25 .

(3)انظر- فصل الرؤية الكونية– مبحث فناء الكون .

وَغَابَتْ عُطُورِي
وَكَانَتْ رَيَاحِينَ خُلْدٍ لِقَلْبِ الزَّوَالْ
طُيُورِي مَصَالِيبُ فَوْقَ الفُرُوعْ
وَأَحْزَانُهَا خَيَّمَتْ فِي الجُذُوعْ
وَشَاهَتْ كَمَائِلْ
وَجَفَّتْ مِنَ الهَوْلِ كُلُّ الجَدَاوِلْ.(1)

وكانت في نهاية القصيدة الصورة الثانية المقابلة، وفيها إصرار وإيمان المشاعر على بعث الحياة من جديد في أرض فلسطين، لينعم الكون والإنسان بالحرية والحياة:

... وَأَرْفُضُ لِلأَرْضِ أَيَّ انْتِمَاءْ
إِذَا لَمْ يَعُدْ لِي ثَوَابِي الحَزِينْ
وَتَحْيَا زُهُورِي
وَتَحْيَا عُطُورِي...
وَلاَبُدَّ رَوْضِي يُفَتَّحْ
وَطَيْرِي مَعَ النُّورِ يَصْدَحْ
وَبُسْتَانِي العَرَبِيُّ المُصَوَّحْ
يَلُوحُ بِالْعِطْرِ لِلْعَابِرِينْ.(2)

كما أن المقابلة بين الحياة والموت عبر بها عن موت الشعوب العربية الإسلامية،وهي تعيش سنوات القهر والظلم، ثم عن استعدادها للحياة باسترداد كرامتها وأرضها وسحقها بالنور ليل الطريق، فاقترنت الحياة بالأمل والنور والاخضرار،والموت بالليل والظلام والظلم والذل :

فَكَمْ صَحْوَةٍ لِلشُّعُوبِ تَرُدُّ مِنَ الْمَوْتِ صَحْوَ الحَيَاهْ
وَكَمْ يَقْظَةٍ مِنْ رَمَادِ الزَّوَالْ
هِيَ الفَجْرُ تَخْضَرُّ مِنْهَا رُبَاهْ
... صَحَوْنَا.. وَلاَبُدَّ نَسْحَقُ بِالنُّورِ لَيْلَ الطَّرِيقْ
نَصْمُدُ، حَتَّى نَرُدَّ مِنَ اللَّيْلِ ضَوْءَ الشُّرُوقْ.(3)

ب- **السعادة والشقاء** : هما وضعيتان من أوضاع الحياة الكثيرة والمتناقضة،لأن في ذهن البشر تتصادم وتتناقض كثيرا من المفاهيم لمعرفة طبيعة تلك الأوضاع، ولهذا فمفهوم السعادة والشقاء يعسر التعبير عنهما في

---

(1) موسيقا من السر- ص78-79 .

(2) المصدر نفسه - ص81-82 .

(3) صلاة ورفض- ص81-82 .

كثير من المواقف... ولكن بواسطة التقابل بينهما يمكن للمرء إدراك حركة الاستقطاب التي تجمعهما تحت سنة الحياة، وكذلك التوتر الذي يفرق بينهما لاختلاف مسارهما في الحياة.

ومن خلال المقابلة إذن يؤكد الشاعر في قصيدة "مع الطريق" أنهما من سنة الحياة. ولابد أن نسير ولا نتوقف على الرغم من متناقضات، الشوك والعطر، النور والظلام، الظل والهجير، الزهر والدمع. فلا بد أن يحدو الطريق الأمل والحياة:

طَرِيقِي أَمَلْ
وَخَطْوِي أَمَلْ
وَكُلُّ دَرُوبِي أَمَلْ...
فَإِنْ كَانَ شَوْكٌ.. مَضَيْتُ
وَإِنْ كَانَ عِطْرٌ.. مَضَيْتُ
فَإِنْ كَانَ ضَوْءٌ مَضَيْتُ
وَإِنْ كَانَ لَيْلٌ مَضَيْتُ...
وَلاَبُدَّ أَمْضِي وَيَمْضِي طَرِيقِي
عَلَى الزَّهْرِ.. أَوْ فَوْقَ صَدْرِ الحَرِيقِ...(1)

ويجمع بين تلك المتناقضات ويخلق من الموت الحياة ومن اليأس الأمل، ومن الأمس الغد، ومن الليل الضياء، ومن الدمع الصفاء، ومن الخريف الربيع:

خُلِقْتُ لِأَنْسُجَ مِنْ كُلِّ مَوْتٍ وَحَيَاهْ
وَمِنْ كُلِّ أَمْسٍ غَدًا وَاثِبًا فِي خُطَاهْ
وَمِنْ كُلِّ لَيْلٍ ضِيَاءْ
وَمِنْ كُلِّ دَمْعٍ صَفَاءْ
فَإِنْ شَجَرِي قَطَّعَتْهُ أَيَادِي الْخَرِيفْ
رَبِيعِي سَيُحْيِيهِ القُطُوفْ.(2)

ج- **الهدى والضلال** : المقابلة بينهما تجسدت في رمز متقابلتين هما النور والظلام. ففي قصيدة "حادي التغيير" شكل صورتين متقابلتين، صورة الظلام الذي كانت تهيم في دياجيره الإنسانية قبل أن يأتيها حادي التغيير " محمد صلى اللع عليه وسلم"، بكل ما يتمثل في هذا الظلام من رموز جزئية للضلال من شرك وظلم وجهل واستعباد:

تِيهِي مِنَ الطِّينِ عَلَى هَبَائِهْ
آلِهَةٌ خَرْسَاءُ فِي فَضَائِهْ...

---

(1) نهر الحقيقة-ص 122-123.

(2) المصدر نفسه-ص 137-126.

يَفْهَقُ فِي ظِلاَلِهِ لِلصَّنَمِ
وَيَسْتَجِيرُ بِضُحَاهُ الْمُظْلِمِ..
عَبْدٌ يَدُورُ فِي غُبَارٍ سَيِّدِ
وَسَاجِدٌ يَخْفِنُ ذُلاًّ بِاليَدِ
وَأُمَمٌ تَرْعَى بِدِينِ الغَنَمِ
لَجَّتْ بِهَا الأَغْلاَلُ أَعْتَى الظُّلَمِ
وَغَابَ وَجْهُ اللهِ مِنْ أَعْمَاقِهَا
وَزَمْزَمَ الشَّيْطَانُ فِي أَحْدَاقِهَا[1]..

وصورة النور الذي فجرته ثورة السماء من أجل هداية الإنسان مع حادي التغيير، الذي تحمل رسالة الإسلام لإخراج الناس من الظلمات إلى النور:

حَتَّى أَتَاهَا مُضَرِّمُ التَّغْيِيرْ
فِي لَيْلِهَا الجَاثِي عَلَى الدُّهُورْ...
شَدَّ خُطَاهَا فِي الدُّجَى، وَسَارَا
فِي هِجْرَةٍ شَقَّتْ لَهَا النَّهَارَا
وَشَعْشَعَتْ فِي دَرْبِهَا الضِّيَاءْ
وَأَتْرَعَتْ فِي قَلْبِهَا السَّمَاءْ
أَعْتَى شُعَاعٍ فِي ضَمِيرِ الزَّمَنِ
يَهْدِي بِنُورِ اللهِ كُلَّ مُؤْمِنِ.[2]

والمقابلة بين الهدى والضلال اتخذت أيضا صورتين من رمزي النور والظلام، لتصوير ضلال النفس وهداها مثلما في قصيدة " النفس والخطيئة"، حيث تمّ التقابل بين الصورة الأولى التي رسم فيها أجواء الضلال بالظلام القلق المسهد، والليل الكافر، والنجوم الباهتة:

... أَوْ طَارِقٌ أَسْرَابَ بَابٍ فِي الظَّلاَمِ مُوَصَّدِ
يَصِرُّ، ثُمَّ يَمْحَى فِي اليَأْسِ وَالتَّرَدُّدِ...
أَوْ حَائِرٌ عَلَى ظَلاَمٍ قَلِقٍ مُسَهَّدِ
بِغَيْرِ نَارِ الشَّكِّ لَمْ يَهْجَعْ، وَ لَمْ يُوَسَّدِ...
أَوْ رَاحِلٍ بِغَيْرِ تِيهِ الدَّرْبِ لَمْ يُزَوَّدِ
وَغَيْرِ لَيْلٍ كَافِرِ الرَّاحَاتِ، مَغْلُولِ اليَدِ

---

(1) لابد- ص37-39 .

(2) المصدر نفسه- ص41 .

نَجُومُهُ مَبْهُوتَةٌ، فِي أُفقِها المُصَفَّدِ
يُطِلُّ مِنْ شُعَاعِهَا المَسْحُورِ أَلْفُ رَصَدِ.(1)

والصورة الثانية المقابلة هي محاولة الفرار من الظلام إلى النور...وبالتالي التخلص من الضلال إلى التنعم بالهداية والتوبة التي يدعو الله أن يوصله إلى بابها :

رَبَّاهُ بَعْضُ النُّورِ، قَدْ طَمَّ الدُّجَى فِي خَلَدِي
سَبَحْتُ بِالإِيمَانِ فِي تِيهٍ عَمِيقٍ أَبَدِي
قَلْبِي إِلَى نُورِكَ نَشْوَانٌ بِحُبِّ سَرْمَدِي
مُنْطَلِقٌ إِلَى سَمَاءٍ بَابُهَا لَمْ يُوصَدِ.(2)

د- **الحرية والعبودية** :اتخذت المقابلة بينهما أبعادا إنسانية كثيرة من أبرزها إظهار الفوارق الاجتماعية والإنسانية بين فئات المجتمع، وتبين ذلك من خلال التقابل بين الفلاح والإقطاعي وتحلت صورتا المفارقة بينهما في كثير من المواقف سبق أن فصلنا الحديث فيها. ولا بأس من إظهار بعض الجوانب الفنية أثناء عرض صور التقابل بينهما والتي جعلت الشعور بالحرية المفرطة سببا في التسلط والاستغلال، والتي نتجت عنها العبودية في أتعس مظاهرها. مثل تصوير مسكنهما-أي الفلاح والإقطاعي-وهما الكوخ والقصر باعتبارهما رمزين للاستعباد والاستبداد . فصور الكوخ في إحدى ليالي الظلم وشخصه كإنسان ضرير، وهنان، حزين، مرتدي سدل الليل الأسود، مرتمي في بطن العراء، وترتجف بجنبيه شمعة تشبه المقلة العشماء،وترنو إلى القصور، فتغار من النور المتلالئ من لواحظ الثريات الكهربائية، ومن شموخ تلك القصور التي تكاد أن ترقى إلى بروج السماء. وهذه المفارقة بين الكوخ المظلم الكئيب،والقصر الناعم المتلالئ وبين شحوب الشمع وتلألأ الثريات هي التي جسدت معنى الحرية والعبودية .

ومن صور هذه المقابلات أيضا طعامهما،أو قوت عيشهما الناتج عن عرق الفلاح وجهده في زرع وغرس الأرض، لكن في النهاية يؤول إلى الإقطاعي الذي يقطف اليانع والشهي ويلقي إليه فضلات الفتات . وتجلّت هذه المفارقات في صورتها العامة عندما خاطب الشاعر الأرض مصورا المتناقضات الغريبة التي جعلتها سبب سعادة المتسلط وشقاء الكادح، بعد أن ارتوت من عرق جباه معفرة بالتراب،رضخت لأطماع عبدة المال، فكان الضنك والهوان مقابل للرفاهية والعز، والسعادة مقابل الشقاء.(3)

---

(1) قاب قوسين- ص111-112.

(2) المصدر نفسه-ص113.

(3)انظر- فصل الرؤية الاجتماعية- مبحث العدالة الاجتماعية - (الفوارق الاجتماعية) .

وصورة أخرى للتقابل بين الحرية والعبودية أمام ظاهرة التمييز العنصري وما انجرّ عنها من تناقضات انسانية. فرضت صنفين من البشر فوق الأرض حر وعبد، أبيض وأسود. الأول يعيش الحرية والسعادة، والثاني يعاني القيد والشقاء في صورة رائعة تشخصية للبياض والسواد، بل جعل اللونين الأبيض والأسود رمزين متضادين للحرية والعبودية:

وَأَرْضٌ
عَلَيْهَا مِنَ القُهْرِ، حُرٌّ، وَعَبْدٌ...
وَأَرْضٌ
بِهَا اللَّوْنُ يَصْبَغُ وَجْهَ المَبَادِئ
.. فَهَذَا بَيَاضٌ، سَلِيبُ المَسَاوِئ...
تَلُوذُ بِكَفَّيهِ كُلُّ المَرَافِئ
وَهَذَا سَوَادٌ.. أَبِيٌّ وَثَائِرْ
عَلَى كُلِّ جَائِرْ (1)

❀-الحق والباطل :وضعيتان لهما دلالات شاسعة في الحياة لارتباطهما بالمعاني السابقة كالهدى والضلال، والحرية والعبودية، لكن لهما مستويات أخرى ارتبطت بمواقف وقيم الحياة المتغيرة. وقد تجلت صورتا الحق والباطل للشاعر في قصيدة "موسيقا من الضياع" وهو يتأمل واقع أمته التي ينخرها التناحر والتقاسم والتذلل، بعد أن كان ينعم بالتراحم والتوحد والتفاهم، وبعد أن تشبث بمعالم حضارة الغرب الواهية الضائعة. فأصابها الضياع الحضاري، وجسم ذلك الضياع في صورة الكأس، التي يدعو أمته إلى رفضه وعدم لمسه أو شربه،لما قد يمنحه من تخذير معنوي لحقائق الواقع والتراث والتاريخ والأصالة الروحية. وهذه الصورة الأولى تتجلى في بداية القصيدة.

وبعد أن صوّر ما في الكأس من نشوة وتخذير وزيف وباطل، قدم الصورة المقابلة هي صورة الكأس المجسدة للحق،والمتمثل في دعوة الشاعر إلى الشرب من هذا الكأس الذي يختلف عن الكأس الأول، لأنه يمنحه الرحيق من عبق التاريخ والعقيدة والحضارة الإسلامية. ويختم بها الشاعر قصيدته ليكون الشرب منه هو الخلاص والمنقذ من الضياع، وهو سر الإلهام والنجاة(2).

كذلك قابل الشاعر بين الحق ، الذي تتمتع به أرض فلسطين بمقدساتها ومعالمها الدينية وفضائلها، وبين الباطل الذي يريد أن يفرضه اليهود أو بنوإسرائيل مجسدا ذلك في عدة رموز جزئية متقابلة.الصلاة وبغايا

---

(1) موسيقا من السر- ص35-36 .

(2) انظر- فصل الرؤية السياسية- مبحث النهضة-(محور العودة إلى الإسلام)

من الشر، والأذان وشياطين اللغو، والمصلي وميادين اللهو، والحمام الصادح والحمام المجروح المولول،والتراب والحريق، والمنابر ومحازر الطهر...محاولا أن يقابل الحق في ثوب القداسة والطهر والأمن والسلام، والباطل في ثوب الإثم والرجس والدمار. (1)

8- التـــداعـي :

قد يتبادر إلى الذهن عند قراءة هذا المصطلح ، أنه وسيلة من وسائل علم النفس للتعبير عن الكوامن الإنسانية الخبيئة في اللاشعور، إلا أنه وإن كان هناك تقارب في الدلالة الإصطلاحية بين التداعي الشعري ، وتداعي الأفكار والخواطر في حالات معينة . فإن الاختلاف واضح،إذ يرتبط بالتداعي الشعري بحالة من الحدس والإبهام والانفعال، فينساب في الذهن بسيل فجائي من الأفكار والصور .(2)

وقد صادفتنا هذه الظاهرة الفنية في البلاغة القديمة في صورة التشبيه التمثيلي،أوالتشبيه المتعدد أوجه الشبه، المنتزع من متعدد . وإن عرف على أنه يؤدي غرض زخرفي لايقدم ولا يؤخر شيئا بالنسبة للمعنى. فإن سمة التعدد قد تكون عفوية غير متكلفة . لأن الصورة كما يقول"الحاتمي" << جمعت ليكون المعنى المقصود واقعا موقعه من البيان.>>(3)

وظيفة

وقد أمكن للنقاد المحدثين الاستفادة من هذا المصطلح لتحقيق فنية يقوم عليها بناء الصورة الشعرية الحديثة، اصطلحوا عليها بتداعي الصور،أو تتابعها،أو كما سموها بعناقيد الصور. ويعنون بها تساوق مجموعة من الصور وتتابعها لأحداث انطباع ما،أو للإيحاء بأمر ما معتمدة على << ظاهرة التكثيف الزماني والمكاني في انتخاب مفردات الصورة وتشكيلها، ففي الصورة الشعرية تتجمع عناصر متباعدة في المكان وفي الزمان غاية التباعد، لكنها سرعان ما تأتلف في إطار شعوري واحد.>>(4)

وعندما نلمس تفسيرا لهذا التعدد لا يمكننا أن نزعم أن هذا التعدد إنما هو انعكاس لتردد وحيرة يملآن نفس الشاعر. ويجعلانه لا يستطيع أن يجزم فنيا أي من هذه التشبيهات أقدر على نقل الصورة التي في ذهنه،أو لعله رأى أن أيا من هذه التشبيهات لا يستطيع وحده أن يفي بالغرض المطلوب،فعمد إلى جمعها كلّها تترك في المتلقي الانطباع المطلوب . ما يمكننا أن نستبعده أن هذا اللون من الأداء الشعري نوعا من الاستعراض وإظهار المقدرة الفنية. ونحسب هذا الأسلوب من أساليب الأداء الشعري يرتبط ارتباطا وثيقا

---

(1) انظر- الفصل نفسه- مبحث قضايا (محور فلسطين)- ص 413.

(2) د/ مصطفى سويف- الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة- دار المعارف- مصر-ط3-1970م-ص190.

(3) الرسالة الموضحة- تحقيق-محمد يوسف نجم- دار صادر- بيروت- 1965م-ص 28.

(4) عزالدين إسماعيل- الشعر العربي المعاصر- ص161.

بتغير النظرة عند الشاعر، وتحول عدسته من التجول خارج ذاته إلى الولوج في باطنها،حيث يسلم نفسه إلى عالم رحب بالمشاعر التي يتعذر بعضها أحيانا بوصف واحد محدد. وحينئذ ينشط خياله، ليلتقط كل ما يمكن التقاطه من العناصر والصفات، لينقل إحساسه في الموقف الخاص، بإيقاعه ومذاقه ودرجات ألوانه، ومن ذلك تأتي التشبيهات المتتابعة.(1)

وأكثر ما تعتمد هذه الصور المتداعية على الصور الحسية القائمة على التشبيه بالخصوص، وما يؤخذ عادة على الصور الحسية أنها باردة ومحدودة التأثير، إلا أن ذلك أمرا أو حكما ليس صحيحا دائما. فكثيرا ما تستحيل هذه الصور على يد شاعر موهوب إلى صور متحركة، عامرة بضروب الحياة، وامتلاك الأدوات الفنية هي التي تبعث الحياة في هذه الصور، وتشحنها بالإيحاءات المقصودة ولهذا لو انتزع كل صورة على حدة، لنظر إليها بمعزل عن غيرها،لأن منهج التتابع والتواصل هو مصدر الإيحاء في هذه الصور وإيحائيتها. هذه الصور إذن تكون في الصورة الحسية وكذلك الصورة التجريدية وحتى الصورة التي تجمع الحسي والتجريدي، ولكنها تتولد من حس توظيف اللفظة ومن الصياغة الفنية. وتكون أيضا خير تعبير عن الغرض الذي لا يوصل إليه التشبيه وحده،أو الأنواع البيانية الأخرى المعروفة.

وعلى الرغم مما قد يكون في سياق وآخر من تفاوت في قوة الإيحاء بالدلالة المقصودة، فإن ظاهرة التداعي في ذاتها،تثير الانتباه وتتطلب محاولة لتفسيرها وتحليلها. وهذه الظاهرة الفنية ليست سمة خاصة لشعر محمود حسن إسماعيل، فالواقع أننا نراها عند شعراء من القديم أو الحديث، وإن كانت سمة تغلب على الشعراء الوجدانيين أو الرومانسيين في الشعر العربي الحديث،لأنهم يؤمنون بنظرية الانسياب العاطفي والخيالي التي تدخلهم عالم التداعي والأحلام.(2)

ونحس بالشاعر محمود حسن إسماعيل وكأنه يقف أمام موضوعه في تأمل ذهني يستدعي الصور التي تتوالى متلاصقة،متزاحمة،متدافعة، حيث تختلط الصور بالرؤى الخيالية التي تكتسب بها دلالات جديدة وإيحاءات وظلال تتفجر من الأبنية اللغوية التي تشكل قاموس الشاعر،و<< كل هذه الصور الشاخصة المتحركة تتداعى في نفس الشاعر. وبذلك تتحول القصيدة إلى عناقيد من الصور الفنية الجديدة، وتلك هي طريقة الشاعر في بناء قصيدته. إنه يبينها من خلال الصور، وكأنه فنان تشكيلي ينحت من الأحجار أروع التماثيل، ويشكّل مواد الفن التشكيلي أحسن تشكيل.>>(3).

ومما يسترعي النظر في الصور المتداعية عند الشاعر أنه لا يعتمد على التشبيه بل يتم التداعي من خلال السياق العام للصورة وبخاصة عندما يتلقى من وحي الطبيعة << شعرا مزدحما بالصور الرائعة تتابع سراعا مع الألفاظ أو تكاد تسبق الألفاظ.>>(4). أما تنويع الصور عن الشيء الواحد بالتشبيه، يكون فيها بعدة

---

(1) شفيع السيد- هكذا أغني- ص286-287 .

(2) انظرمحمد غنيمي هلال-الرومانتيكية- ص73 وما بعدها- وص93 وما بعدها .

(3) عبد العزيز الدسوقي- التذوق الجمالي لشعر محمود حسن إسماعيل- مجلة الثقافة- ص69.

(4) السعيد الورقي- دراسات نقدية - ص134 .

صور << كأنه يرى أن الصورة الواحدة لا تؤدي المراد، أو أنها في حقيقة الأمر لا تكافئ عاطفة الشاعر الكامنة وراء كل تعبير>>[1]. ويكون استخدامه للتشبيهات المتتابعة معطوفا بعضها على بعض حينا، وبدون عطف حينا آخر، والغاية واحدة في كلتا الحالتين وهو تأكيد معنى واحد، أو إحساس ما، أو موقف معين، كما يختار صورا متداعية حسية أو معنوية أو ممزوجة بين الحسي والمعنوي وسنتتبع كل هذه الظواهر التي طبعت صوره المتداعية في ما يلي :

أ- استخدام الشاعر لظاهرة الصور المتتابعة لتأكيد معنى واحد، حتى دون أن تكون هذه الصور معتمدة على التشبيه مثل قوله:

مِنَ الْحُلْمِ البَسَّامِ فِي هَالَةِ السُّرُوَى - يَرُفُّ عَلَى دُنْيَا الحَزِينِ رُوَاؤُهُ
مِنَ السِّحْرِ الفَيْحَاءِ تَنْدَى رُبَاتُهَا - بِوَادٍ عَلَى شَطِّ الخُلُودِ ثَوَاؤُهُ
مِنَ الجَدْوَلِ الرَّقْرَاقِ فِي ظِلِّ الضُّحَى - يُعَانِقُ أَفْيَاءَ الخَمِيلاَتِ مَاؤُهُ
مِنَ الدَّعَوَاتِ البِيضِ فِي ثَغْرِ سَاجِدٍ - إِلَى اللَّهِ يَرْقَى فِي الصَّلاَةِ دُعَاؤُهُ
مِنَ الزَّهْرِ غَيْسَاناً، مِنَ العِطْرِ نَاتِجًا - مِنَ الرِّيفِ وَسْنَانَ المُرُوجِ مَسَاؤُهُ
قَبَسْتُ أَغَارِيدَ الهَوَى مِنْ حُشَاشَتِي - وَغَنَّيْتُ، عَلَى القَلْبِ يَدْنُو رَجَاؤُهُ[2]

لكن في أغلب الأحيان يكون مجموعة من الصور المتزاحمة، يعتمد فيها على العلاقة الحسية القائمة في تشكيلها على التجسيد والتجسيم،على نحو مانرى في الصورة التالية التي يصف بها الريف :

تَفَجَّرَ فِي صَفْحَتَيْهِ الجَمَالُ - وَرَفَّ عَلَى جَانِبَيْهِ الخُلُودْ
وَطَوَّفَ رَيْحَانُهُ فِي الجِنَانِ - وَفِي كُلِّ مَرْوَةِ مَنْضُورَةٍ بِالْوُجُودْ
يُفَتِّشُ عَنْ رَوْضَةٍ سَرَّةٍ - بِفَيْءِ الظِلاَلِ الرَّطِيبِ الرَّغِيدْ
وَعَنْ سِحْرِهَا فِي رِكَابِ الضُّحَى وَقَدْ لَبِسَتْ أُرْجُوَانَ السُّرُورْ
تَأَطَّرَ فِي حُلَّةٍ مِنْ شُعَاعٍ - مُوَشَّى بَطَلَّ الصَّبَاحِ النَّضِيرْ
وَتَرْفُلُ فِي سُنْدُسٍ ضَاحِكٍ - تَرَنَّحُ مِنْ سَكْرَةٍ بِالنَّشِيدْ[3]

إذن نحن أمام مجموعة من الصور الجزئية الحسية المتتابعة التي تخضع لسيطرة مشاعر واحدة نبعت من موقف الإحساس بالجمال والجلال. وهي صور متزاحمة، فلا يكاد يخلو بيت من صورة أو أكثر، فالجمال تفجر على صفحتي النيل، والخلود رفّ على جانبيه، والريحان يطوف في الجنان يفتش عن روضة ساحرة في ركاب الضحى عندما تلبس ثوبها الأرجواني، وتختال بحلة شعاعية موشاة البطل وترفل في سندس ضاحك.

ب- في الصور المتتابعة المعطوفة : وهي التي شكلت من تشبيهات معطوفة بأدوات العطف مثل (الواو- أو- أم...) تتوارد على مشبه واحد من أجل إبراز معنى معين،وبحروف العطف لها دلالات نحوية في

---

(1) د/ طه مصطفى أبو كريشة- هكذا أغني للشاعر محمود حسن إسماعيل- مجلة الأزهر-مج2-ج12- ص1895

(2) هكذا أغني- ص36.

(3) أغاني الكوخ- ص28- 29 .

النسق الشعري. فتستخدم حرف العطف "أو" لما له من دلالة أقوى أثناء تصوير حالة من الحالات النفسية حيث تتداعى صور الصراع من أجل الوصول إلى مخرج ما...كلجوء الشاعر إلى شاطيء التوبة للوقوف بين يدي الله طالبا المغفرة والإنابة إليه. فصوّر صوت المعاصي، وهي تهزّ نفسه تصويرا متداعيا،عبّر عن حالة ندم صادقة :

وَلِلْمَعَاصِي عُوَاءٌ مُدَمْدِمٌ فِي الحَنَايَا
كَأَنَّهُ صَوْتُ ذِئْبٍ، تَغَافَلَتْهُ الرِّعَايَا
أَوْ فَحُّ أَفْعَى، شَوَتْهَا مِنَ الْهَجِيرِ شَظَايَا
أَوْ نَوْحُ ثَكْلَى، أَهَاجَتْ لَهَا الْقُبُورُ خَفَايَا
أَوْ صَرْخَةٌ مِنْ يَتِيمٍ، تَلَقَّفَتْهُ الزَّوَايَا
وَحَمَلَتْهَا.. وَكَأَنِّي حَمَلْتُ هَوْلَ الْمَنَايَا
وَجِئْتُ نَدْمَانَ. أَرْجِي إِلَى الْمَتَابِ خَطَايَا[1]

يستخدم الحرف "أم" في تشبيهاته المتتابعة ويجعله في موضع تساؤل،للبحث عن صفة من مجموعة الصفات التي تريد أن ينسبها جميعا إلى المشبه، مثل إشادته بثورة الجزائر باحثا عن صفة تجمع حقيقة الجزائر بعظمة تلك الثورة. وقد وصفها الشاعر بالزهرة في قصيدة "زهرة من عذاب"،وبأوصاف أخرى متداعية:

زَهْرَةٌ ؟ أَمْ تَمِيمَةٌ لِكِفَاحِ الرِّقِ ؟.. أَمْ قِصَّةُ الفِدَاءِ الطَّوِيلَهْ ؟
أَمْ نَشِيدُ الأَيَامِ ؟ أَمْ ثَوْرَةُ الإِلْهَامِ ؟ أَمْ غَضْبَةُ الحَيَاةِ الذَّلِيلَهْ ؟
أَمْ دُعَاءُ الأَحْرَارِ ؟ أَمْ قَسَمُ الثُّوَّارِ ؟ أَمْ تَوْبَةُ اللَّيَالِي.. جَمِيلَهْ![2]

ويوظف أيضا حرف "الواو" في صور متتابعة كسرده لأخلاقيات المجتمع الذي أصبحت تنازعه الرذائل والأطماع، وتتكرر معها بعض العبارات والأدوات البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية ورمز :

وَفِينَا الْمَظَالِمُ وَالظَّالِمُونَ - وُحُوشٌ وَبِيدٌ وَمَرْعَى غَنَمْ
وَفِينَا الْكَرَامَةُ مَرْجُومَةٌ - كَمُحْصَنَةٍ لَوَّثَتْهَا التُّهَمْ
وَفِينَا الإِبَاءُ الجَرِيحُ الوَقَارِ - كَشَيْخٍ بِعَارِ الصَّبَا مُلْتَثِمْ
وَفِينَا المَذَلَّةُ لِلْغَاشِمِينْ - كَأَنَّا وَلَوْ لَمْ يَشَاءُوا خَدَمْ
وَفِينَا الدَّسِيسَةُ، قِدِّيسَةٌ - تَدُسُّ الرَّدَى فِي عَبِيرٍ وَسَمْ
وَفِينَا الخِيَانَةُ، أَفْعَى وُحُوهٍ - تُرِيقُ الهَالِكَ إِذْ تَبْتَسِمْ
وَفِينَا النِّفَاقُ، عُطُورٌ تُسَاقُ - وَفِي زَهْرِهَا فَاتِكَاتُ النِّقَمْ
وَفِينَا الرِّيَاءُ، وَفِينَا الحَيَاءُ - رِيَاءٌ حَيُّ الخُطَا كَالنَّسَمْ[3]

---

(1) قاب قوسين- ص115 .

(2) نار وأصفاد- ص158.

(3) المصدر نفسه- ص112-113 .

ج- أما التشبيهات المتتابعة غير المعطوفة، فهي تكتفي بأدوات التشبيه (الكاف، كأن، مثل) ويخضعها لعملية التكرار التي تلازم كل تشبيه مع حذف حرف العطف. مثلما في قصيدته "التزام" التي يصور فيها ملازمة الحقيقة له بمحاولات معانقاتها وإدراكها في كل الأحوال والمواقف:

مُتَلازِمَانْ، مُتَعانِقَانْ
فِي كُلِّ آوِنَةٍ، وَآنْ
كَالظِّلِّ فِي كَبِدِ الْغَدِيرِ يُهَوِّمَانْ
وَكَالشُّعَاعِ فِي تَلَفُّتِ نَجْمَةٍ وَحْشَا هَجِيرٍ يَهْبِطَانْ
كَالْوَهْمِ.. حِينَ تَرُوعُ حَيَّتُهُ بِأَغْصَانِ الشُّعُورِ يُدَاهِمَانْ
كَالْحُلْمِ يَخْلُقُ مِنْ خَرِيفِ النَّفْسِ أَجْنِحَةً تَطِيرُ.. يُرَفْرِفَانْ
كَالشَّكِّ يَلْمَحُ فِي السَّرِيرَةِ طَيْفَ هَاجِسَةٍ تَزُورُهُ بِخَافِقَانْ
كَالصَّمْتِ فِي الْمَوْتِ الْمُصَفَّدِ فِي الْقُبُورِ يُشَارِفَانْ
كَالْعِطْرِ فِي الْعَبَقِ الْمُقَيَّدِ فِي الزُّهُورِ.. يَجْتَحَانْ
كَرَبَابَةٍ سَكَنَتْ وَعَازِفُهَا بِنَغْمَتِهِ يَدُورُ.. مُتَدَاخِلَانْ
كَصَدَى صَدًى لِصَدًى تَنَكَّبَ فِي الْعُبُورِ.. مُتَكَامِلَانْ.(1)

د- ويحذف الشاعر من بعض الصور المتتابعة الاستطرادية حرف العطف وأداة التشبيه وتتكون بمجموعة من التشبيهات البليغة والتي تتكرر فيها أساليب الخطاب وأدوات النداء... ويستطرد حتى في تعدد أوجه الشبه بينها. فتسير قصيدة " اللحن المقهور" على هذا النمط الاستطرادي التي يصور فيها أيضا حالة أخرى، حيث تتداعى أمنياته في كل القصيدة لتصل إلى إحدى عشر أمنية في ثوب تشبيهي -أي إحدى عشر تشبيها- وهذه بعض منها حيث يتمنى أن يكون صلاة وغناء وشعاعا وسكونا:

لَيْتَنِي كُنْتُ صَلاَةً فِي كُهُوفِ النَّاسِكِينَا
أَتَلاَشَى فِي طَرِيقِ اللهِ شَوْقًا وَحَنِينَا
لَيْتَنِي كُنْتُ فَنَاءً - تَائِهًا بَيْنَ الصَّحَارَى
هَزَّنِي طَيْرٌ غَرِيبٌ - فَوْقَ رُكْبَانٍ حَيَارَى
لَيْتَنِي كُنْتُ شُعَاعًا - فِي لَيَالِي الْحَائِرِينَا
اسْكُبُ السَّلْوَانَ لِلدَّمْعِ وَأَغْتَالُ الأَنِينَا
لَيْتَنِي كُنْتُ سُكُونًا - خَاشِعًا بَيْنَ الْجِبَالْ
تَتَلاَقَى فِيَّ آيَاتُ - وُجُودِي بِالزَّوَالْ(2)

---

(1) نهر الحقيقة- ص18-19

(2) أبن المقر- ص110

وينتقل من ذاته إلى واقعه ليصور مكانة أمته في مرحلة إثبات الذات والوجود بمجموعة أيضا من التشبيهات الاستطرادية التي تشعرنا بحماس الشاعر وصدق عاطفته ومعاناته نحو واقعها المضطهد والمشتت بشبه الشرق بالمارد والحر والنور والبعث والعزة :

أَنَا الْمَارِدُ الْجَبَّارُ.. هَبَّتْ قِيَامَتِي - لِتَعْصِفَ بِالْأَغْلَالِ فِي كُلِّ بُقْعَةِ
أَنَا النُّورُ فِي لَيْلِ الدُّهُورِ.رَأَيْتُهَا - دُجَى حَائِرُ الإِظْلَامِ فَوْقَ السَّرِيَّةِ
أَنَا الْبَعْثُ مَهْمَا قَاوَمَ الْغَرْبُ ثَوْرَتِي - أَنَا النُّورُ.. مَهْمَا قَاوَمَ اللَّيْلُ يَقْظَتِي
أَنَا الْحُرُّ.. يَدْرِي كُلُّ حُرٍّ مَوَاقِفِي - وَيَشْهَدُ لِي التَّارِيخُ فِي كُلِّ صَفْحَةِ
أَنَا الْعِزَّةُ الْكُبْرَى.. أَنَا الشَّرْقُ فَلْيَعُدْ - إِلَى كِيَانِي بَعْدَ طُولِ التَّشَتُّتِ[1]

وكلما استوقفته شخصية ما أو مكان ما، تتداعى أمامه الصور وتتالى،وتلازمه أداة النداء "يا" في كل صورة تشبيهية.مثل شخصية النبي صلى الله عليه وسلم التي لم يجد أمامها أي وصف يماثلها لأنه فوق كل وصف، وأمام ذاكره يتذكر مسيرته ورسالته وشفاعته في قصيدة "هادم الظلم" وتتداعى الصور لتشيد به، فهو هادم الظلم والشرك، وهو حامل الرسالة لكل الأمم، وهو شفيع الباكين والمذنبين:

يَاهَادِمَ ظُلْمِ الأَيَّامِ - وَمُذِلَّ جِبَاهِ الأَصْنَامِ
وَمُبَدِّدَ أَكْوَانٍ رَكَعَتْ - لِسِيَاطِ قُوَى ظَلاَّمِ...
يَا مُطْفِئَ نَارٍ عَجَمِيَّةَ - فِي الْمَوْقِدِ لاَحَتْ أَبَدِيَّةَ
عَجْمَاءُ لَهَا نَغَمٌ سَكَبَتْ - بِيَدَيْهِ صَلاَةُ الْوَثَنِيَّةَ ...
يَا حَامِلَ شَرْعِ الأُمَمِ - سَوَّى الْقِيعَانَ مَعَ الْقِمَمِ
الأَرْضُ بِمَنْ فِيهَا سَلَكَتْ - لَيْلاً تَتَرَاشَقُ بِالظُّلَمِ..
يَا رَاقِيَ دَمْعِ الْبَاكِينَا - وَمُشَفِّعَ ذَنْبِ الْعَاصِينَا
جِئْنَاكَ حَيَارَى قَدْ نَفَرَتْ - أَعْمَاقُ الْجُرْحِ بَوَادِينَا[2]..

وهو يجوس أرض بغداد تداعت أمامه صور الماضي والحاضر، ولم يجد إلا أن يجسدها ويخاطبها ساردا بين يديها شتى التشبيهات...وذلك في قصيدة "بغداد" مجسدا فيها كل قيم وأمجاد ومعالم الحضارة الإسلامية:

بَغْدَادُ.. يَا تَرْنِيمَةَ الْعُصُورِ، يَا تَمِيمَةَ الزَّمَانْ
يَا حُلْمًا مُشَعْشَعًا، لِلدَّهْرِ كَمْ دَارَتْ بِهِ الدِّنَانْ

---

(1) نار وأصفاد- ص137-139.

(2) المصدر نفسه - ص40-43.

يا نغما للخلد، لم تعزف على ربابه يدان...
يا قصة، تحبو الأساطير على أعتابها
يا كرمة، دنت قطاة الشرين أسنابها
يا قبلة للشمس، تستيقظ من أهدابها
يا زاد كل وقفة، يكبر التاريخ في ترابها
يا كبر كل نظرة، شقت بك الأجيال في انتيابها
يا نبضة الأوتار في ثورة النغم
يا صحوة الأحرار يوم الدجى ألم.(1)

هـ- اتخذ الشاعر مسلكا آخر، وهو المزج أثناء تداعي الصور بين الحسي والمعنوي، وكأن بالشاعر يتحسس ما يدركه بصره حينا، ويتخيل ما تدركه بصيرته من الواقع الحسي والواقع المجرد حينا آخر.

ففي قصيدة " مع الله" يتداعى الشاعر في البحث عن الله في مظاهر الكون وقيم الحياة... حيث يتكرر مع كل تشبيه الضمير "هو" للبحث عن هوية الذات الإلهية في هذا الوجود. فهو (الحب، الظل، العطر، الصفو، الغنوة، الخفق، الرزق، الفأس، العرق، النفس، الرنم، الحق، العهد، الليل، الريح، الفجر، الندم، الحلم، التوبة، الرحمة، الأمل، الروح، الخير، النور.)(2) وبعد أن تمتد القصيدة في هذا التداعي التصويري الذي يريد أن يؤكد حقيقة وجود الخالق، وتشده نزعته الإيمانية في آخر القصيدة ليؤكد أن الله نور في كل قلب، وفي كل شيء، وهو أعلى من أن يدركه سمع أو بصر.

قصيدة "سارق الضياء" والتي رمز بها إلى الموت.. وأمام رهبته ووحشته وفجائيته، يذهل الشاعر في البحث عن صورة معينة للموت. لكنه لم يستطع أن يحدد له أي صورة مع مجموعة الصور الممزوجة بين الحسي والمعنوي، فيخاطبه بأداة النداء المكررة "يا" بما يلي (يا عازف الخراب- مشعلي السكون، ساقي الفضاء، سارق الضياء، خاطف الرحيق، منهي الطريق، كاذب الدروب، ساكب الغروب، خابيء الجراح، أبكم النداء، حادي الوجود، قاتل الصفاء...)(3)

كذلك في معرض وصفه للمرأة تتداعى الصور بين الحسي والمعنوي، بحثا عن سمو ورفعة في الوصف، الذي يجعلها جزء من الكون ومن القيم.. وذلك في قصيدة "أنت دير الهوى وشعري صلاة" ، حيث يتكرر ضمير المخاطب المؤنث "أنت" في كل صورة تشبيهية، متداعية فيخاطبها (أنت لحن، نبع، أيكة، ظلال، خميل، جدول، واحة، ترنيمة، الهدوء، تهويدة الخيال، كأس، كرمة، مدام، نجم، تغريدة الخلود، طيف الغيوب، توبة، رحمة، زهرة، شعر، سحر الغروب، صفو الظلال، عيد الأطيار، دير الهوى..)(4)

---

(1) لابد- ص51 .
(2) انظر- فصل الرؤية الروحية- مبحث الذكر- كذلك فصل الرؤية الكونية- مبحث الله والكون- ص 281 .
(3) انظر- فصل الرؤية الروحية- مبحث التذكير- الموت- ص 97
(4) انظر- فصل الرؤية الاجتماعية- مبحث المرأة، المنظور الوجداني- ص 350 .

9- الرمز :

بقي تعريف الرمز عند علماء البلاغة والنقد خاضعا للمفهوم القديم على أنه نوع من المجاز، ارتبط بالكناية والتلميح والإشارة والإيجاز[1]،حتى ظهور المدرسة الغربية الرمزية التي وضعت له مفهوما خاصا يتماشى مع مبادئ فلسفة الرمزية. فهو ليس تشبيها ولا استعارة ولا كناية ولا مجرد مجاز. فهو لا يقارن ولا يقابل جزء بجزء، ولا يخمن ولا يفترض حقيقة،بل إنه يكتشف في الظاهرة حقيقة قائمة بذاتها لا تنتمي لسواها، ولا تستمد منه يقينها. فهو الذروة العليا التي يدركها الشاعر حين ينتفض من عقال الحواس، والمقارنة والتشبيهية، ويقدر له أن يعاين الحقائق الأولى بأم عينه الباطنية[2].

وتتشكل طبيعة الرمز من اللغة كعنصر أساسي تجعل من الرمز طاقة دلالية تشتد شروخ النص وتفاصيله، وتفرض صورة مميزة، لذلك يصعب الفصل بين الرمز واللغة والصورة إلا نظريا. لأن امتزاج الرمز واللغة من أجل تشكيل الصورة التي تولد من سياق التجربة،لترسم معالم الرؤية التي تتحدد من ذلك التشكيل،والذي يتجلى فيه الرمز بخصائصه الواضحة. ومن أهمها أنه يبدأ من الواقع ليتجاوزه،فيصبح أكثر صفاء وتجريدا، ولكن هذا المستوى التجريدي لا يتحقق إلا بتنقية الرمز من تخوم المادة وتفصيلاتها .لأنه يبدأ من الواقع ولكنه لا يرسم الواقع،بل يرده إلى الذات وفيها تنهار معالم المادة وعلاقاتها الطبيعية،لتقوم على أنقاضها علاقات جديدة مشروطة بالرؤيا الذاتية للشاعر. فالرمز بذلك ليس تحليلا للواقع بل هو تكثيف له.[3]

إذا كان الرمز بهذا المفهوم << رؤيا شعرية ذاتية تعيد تشكيل الواقع وصياغته>>[4]، فما علاقته بالصورة، وهل يتميز عنها ؟.

يبدو أن الفارق بين الرمز والصورة ليس في نوعية كل منهما،بقدر ماهو في درجته من التركيب والتجريد فالرمز وحدته الأولى صورة حسية تشير إلى معنى لا يقع تحت الحواس، ولكن هذه الصورة بمفردها قاصرة عن الإيحاء، سمة الرمز الجوهرية، والذي يعطيها معناها الرمزي إنما هو الأسلوب كله، أي طريقة التعبير التي استخدمت هذه الصورة وحملتها معناها الرمزي ومن ثمّ فإن علاقة الصورة بالرمز من هذه الناحية، أقرب إلى علاقة الجزء بالكل، أو هي علاقة الصورة البسيطة بالبناء الصوري المركب الذي تنبع قيمته الإيحائية من الإيقاع والأسلوب معا.[5]

---

(1) انظر- ابن رشيق- العمدة-ج1- ص305-306 .

(2) إيليا حاوي- الرمزية والسريالية في الشعر العربي والغربي- ص115-116.

(3) محمد فتوح أحمد- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر- ص136-137.

(4) المرجع نفسه- ص137.

(5) المرجع نفسه - ص139.

والملاحظ من خلال تتبع مراحل توظيف الرمز منذ العصر القديم حتى العصر الحديث تغيرات دلالية وفنية أثناء توظيف الرمز[1]. وفي خضم هذه المراحل الفنية، كان للقرآن الكريم والحديث الشريف دورا فنيا بتوظيف الرمز مشتملا على ركني الإيجاز والمجاز وكانت لهما صلة وثيقة بالتيارات الفعالة في الرمزية في الأدب العربي فيما بعد.[2]

وما يمكن أن نؤكده أن استعمال الرمز لا يتعارض مع الرؤية الإسلامية مادام القرآن والحديث قد انتهجا سبيل الرمز. إلا أنه ينبغي الإشارة إلى مميزات الرمز فيهما ،كالوضوح وعدم التعقيد والغموض،وعدم بعث الحيرة والبلبلة،وتنوعه بالصورة الكافية التي تبدو كلوحة فريدة المثال سواء أكانت قصة أم صيغة بيانية مستمدة من الواقع أو الطبيعة أو ما وراء الطبيعة،وإيجابية هادفة بحيث يأتي بنتيجة بناءة ذات جدوى في التصور والسلوك الإنساني.[3]

أما في العصر الحديث، أفرط الشاعر العربي في استخدام الرمز حتى صار موضوع متسعا ومتشبعا بعد أن اقتنع بحكم المعاصرة أن التوظيف الرمزي يثري القصيدة، ويزيد في قوتها، ومدى تأثيرها في نفس المتلقي، ذلك أن الرمز يمكن أن يقوم بأكثر من وظيفة عند استخدامها. << فالفكرة التي ربما تبدو مسطحة أو صريحة أومغرقة في سكونها وخمولها، يمكن أن يتبدل حالها تماما باستخدام الرمز،لتتحول إلى فكرة تمور بالنشاط والحيوية، مكتسبة بذلك أغوارا وأبعادا،لم تكن متوافرة فيها قبل إستخدام الرمز. والرمز نفسه مصدر قوة اللغة الشعرية عندما يراد به إثارة شيء من الغموض في ألفاظ القصيدة أو إيقاعها. وهو إلى جانب ذلك دليل جامع لكثير من القيم الحضارية لأمة من الأمم.>>[4].

على الرغم من إفراطه في استعمال الرمز ونجاحه فنيا في توظيفه في كثير من الأحيان،إلا أنه ينبغي أن ننبه إلى نقطتين هما :

- الأولى : أن الشاعر العربي المعاصر،وهو يستخدم الرمز في شعره، لم يستخدمه انطلاقا من كونه أحد الشعراء الرمزيين ممن ينتمون إلى المدرسة الرمزية.

- الثانية : أن الشاعر العربي المعاصر، وإن كان قد تأثر بالشعر الأوربي خصوصا في مجال توظيف الرمز والأسطورة توظيفا إبداعيا، إلا أن هناك فرقا كبيرا بين النشأة في الإثنين من ناحية، والوظيفة في الإثنين من ناحية أخرى.[5]

---

(1) انظر- درويش الجندي- الرمزية في الأدب العربي- دار نهضة مصر- القاهرة- 1972م-ص 181 -219،وص 418-466.

(2) المرجع نفسه -ص 188-195 .

(3) نجيب الكيلاني- آفاق الأدب الإسلامي- ص79-80 .

(4) خالد سليمان- ظاهرة الغموض في الشعر الحر- مجلة فصول- ع1 و2-(1986م و1987م)- ص70.

(5) المرجع نفسه ص71.

يرتبط الرمز بصاحبه ارتباطا وثيقا، فهو ينبعث من قلب الفنان المتوتر ويحمل في انبعاثه انعكاسا لعقيدة ذلك الفنان وثقافته وميوله. وهكذا يتنوع الرمز تبعا لما يحفل به العالم النفسي والفكري للفنان ويتأثر تبعا لذلك بوضع البيئة التي يعايشها والأحداث المعاصرة التي تعصف به.

ويتألف الرمز في العمل الفني في كلمة واحدة أو عبارة موحية، أويتشكل في صورة نابضة أو ينبعث في ذكر علم من الأعلام أو اسم بعينه تردد ذكره في أسطورة ما، أوفي حدث تاريخي بارز،أولعب دورا ما، فأصبح دلالة على فكرة من الأفكار أوعلى سلوك اشتهر به ويفترش الرمز بذلك مساحة شاسعة سواء أكان جمادا أم نباتا أم حيوانا أم بشرا أم حدثا.(1)

وبناء على ماحملته إبداعات الشعراء من رموز تحددت تصنيفات النقاد للرموز وفق معايير مختلفة منها ما يستند إلى المعطيات الفنية العامة، ومنها ما يتصل بالمصدر المستقى منه الرمز. وعلى الرغم مافي تصنيفاتهم من اختلاف واضطراب، فأي دارس له القدرة على استعمال الرمز في أغراض شعرية معينة وبأنواع مختلفة حيث ظهر الرمز الأسطوري والديني والتاريخي،واختلطت كثيرا من الدراسات بين هذه الرموز، وظهر أيضا الرمز الصوفي والطبيعي والشعبي والفلكلوري، والرمز الخاص الذي يستند إلى إبداع الشاعر ذاته انطلاقا من لغته وأداته.

وسنأخذ في دراستنا بعض أنواع هذه الرموز مع تصحيح بعضها وترتيب بعضها،حسب ما توصلنا إليه أثناء تصنيف رموز الشاعر محمود حسن إسماعيل، حيث اختفى عنده الرمز الأسطوري والشعبي، وظهرت بقية الرموز بكثافة وقوة إلا الرمز الصوفي الذي بدا قليلا ومتناثرا في شعره.

استفاد الشاعر محمود حسن إسماعيل من الرمز كوسيلة في تركيب الصورة الشعرية كالتراسل والتجريد دون أن يكون منتميا للمدرسة الرمزية الغربية أو مطبقا لمبادئ فلسفتها كغيره من شعراء العربية الذين اكتفوا ببعض أدوات المذهب ووسائله الإيحائية.(2)

ولنرى كيف استطاع الرمز أن يستوعب رؤية الشاعر بكل أبعادها من خلال تنويع الرمز كما سيأتي:

1- **الرمز الخاص** : ومجال الشاعر فيه أوسع مجالا من رموز أخرى محددة، لأنه هنا أكثر حرية في اختياره وانتقائه. ولهذا يكون رمزا خاصا به على الأغلب لأنه يختاره عادة من بين آلاف الرموز المنبثة في الحياة، وهذا النوع من الرمز يكثر في أغلب دواوينه وبخاصة (نهر الحقيقة، أين المفر، موسيقى من السر)، حيث تتجسد الفكرة في قصائد كثيرة في شكل رمزي محوري، وتتعدد الرموز الجزئية في القصيدة لتشكل في النهاية صورة رمزية، وتتضح طبيعة هذا الرمز الخاص، من خلال هذه المقاطع من قصيدة "هتك البراقع":

1)- وَقَالَتْ.. وَقَدْ أَبْصَرْتُ رَاكِعًا
يُسَبِّحُ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةْ

---

(1) نجيب الكيلاني- آفاق الأدب الإسلامي- ص73.

(2) انظر- ياسين الأيوبي- مذاهب الأدب - معالم وانعكاسات (الرمزية)- المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان- ط1-(1402هـ-1982م)- ج2- ص194-195.

أَهَذَا تَقِيٌّ ؟ فَقُلْتُ: اسْكُتِي
شَقِيٌّ مِنَ الْأَمْسِ عَادَتْ خَطَاهْ
يَدُبُّ بِهَا فِي هَدِيرِ الضِّيَاءْ
وَيَلْعَقُ أَوْهَامَ ضِدٍّ يَرَاهْ
دَعِيهِ يُسَبِّحُ كَمَا يَشْتَهِي
فَمَا عَادَ شَيْءٌ يُسَمَّى إِلَهْ
سِوَى اللَّهِ فِي مُلْكِهِ لَا يُرَى
وَلَا يَعْبُدُ النَّاسُ رَبًّا سِوَاهْ

2)- وَقَالَتْ: وَقَدْ أَبْصَرَتْ صَائِحًا
فَصِيحَ اللِّسَانِ، كَسِيحَ الضَّمِيرْ
وَكَيْفَ بِهَذَا تَسِيرُ الْحَيَاهْ
وَيَزْحَفُ إِصْرَارُهَا لِلنُّشُورْ؟
لَقَدْ نُفِخَ الصُّوَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ
فَمَا بَالُهُ وَاقِفًا فِي خُطَاهْ
فَوْقَ الْعَصَا فِي يَمِينِ الضَّرِيرْ
وَمَا بَالُهُ؟ قُلْتُ: لَا تَسْأَلِي
فَهَذَا الَّذِي مَاتَ مِنْهُ الْمَسِيرْ

3)- وَقَالَتْ: هَذَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ
لَهُ هَامَةٌ مِنْ شُعَاعٍ ذَمِيمْ
تَعَالَى بِأَمْشَاجِ رِزْقٍ لَقِيطْ
مِنَ الْعَارِ تَخْجَلُ مِنْهُ سُدُومْ
يَظَلُّ بِحَفْنَتَيْنِ يَسْتَرْجِعَانْ
مِنَ الْأَمْسِ أَشْلَاءَ طَيْرٍ رَمِيمْ
وَيَبْنِي بِمَا خَلَّفَتْهُ الرِّيَاحْ
شَبَابُ الْجَدِيدِ يَنَعِّشُ الْقَدِيمْ
فَقُلْتُ: اتْرُكِيهِ لِأَوْهَامِهِ
سَتَصْعَقُهُ يَقَظَاتُ النُّجُومْ[1]

تبدو المقاطع السابقة،وهي حوار بين الشاعر ونفسه للقارئ المتعجل كما لو كانت منفصلة، ولكنها في ضوء القراءة الواعية تتكشف العلاقات بين صورها المتزاحمة عن جوهر الرباط الذي يشملها جميعا.

---

(1) نهر الحقيقة- ص42-45 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وتتجلى في المقطع الأول صورة عبادة خاصة بطريقة خاصة تستغل الأوقات غير المحددة للصلاة، وقد توحي في ظاهرها بالورع والتقى،ولكن في ضوء الصورة الموالية عبادة تابعة للنوازع والهوى،غير محكومة بضوابط الدين. وتتضح ماهية تلك العبادة بتحديد خصائص ذلك المتعبد، فهو شقي من الأمس، غلبه ضلاله القديم، وأصبح يلعق أوهامه،ويشبع شهواته إذعانا للمعبود الوهمي داخل أي نفس مظلمة. إن هذا المعبود الوهمي لا يمكن أن يقرّه عقل أو ترضى عنه موضوعية. كل ما في الأمر أنه ليس ربا واحدا لجميع الناس، والناس لا تعبد إلا ربا واحدا، صدرت عنه قوانين السماء. وفكرة الخطايا هي الرمز الذي اكتسب ثراءه من خلال تنوع تلك الصور. ويبدو في المقطع الثاني صائح، فصيح اللسان، كسيح الضمير، يدور في صداه على الرغم من تجدد الحياة حوله، ضرير على الرغم من العصا التي أصبحت محدودة العطاء جدا، ليس له ماضي ولاحاضر ولا مستقبل لأنه يفعل ما يرضي الشيطان لا رقابة للعقل على الضمير، ولا تهمه النتائج، ولا حكم المجتمع أو الدين، ويرمز إلى كل ذلك إلى الغريزة، ذلك الصوت الفوضوي الذي لايأبه بوخز الضمير، وما يهمه هو إشباع رغباته في لحظات مؤقتة زائلة. ويتراءى في المقطع الثالث شبح غير مرئي في السماء، له هامة من شعاع ذميم، اقترب من السدوم، حاملا معه أمشاج رزق لقيط، يختلف في طبيعته عما تتطلبه طبيعة النحوم. إن هذا الشبح يغوي الناس بالوقوع في الخطيئة، لأن الخطيئة دأبه وديدنه التي تعمل على هدم المعايير الدينية والخلقية. ولعل الرمز هنا كامن في الإيحاء

بالشيطان،الذي يصبح له وجود فعلي بعد فك تلك الرموز الجزئية في المقطع الأول والثاني والثالث. ليصبح الشيطان هو الرمز العام مع دور رمز الإثم أو الخطايا لتصور عالم الإنسان الشيطاني،أو الإنسان حليف الشيطان الذي أهدر قيمه الإنسانية والحياتية.

وهذا المفهوم قد يوحي به السياق الشعري من خلال قراءات متتالية له، وليس من الضروري أن يتفق أكثر من قارئ في مفهوم هذه الأفكار والرموز لأن ما يوحي به هذا السياق لا حدله. وإن ظل الشيطان هو المعنى العام على الرغم من التشابه والتنوع والتشابك.(1)

2- **الرمز الديني** : ونعني به تلك الرموز المستقاة من الكتب السماوية الثلاثة : القرآن والإنجيل والتوراة. وما يتصل بها من شخصيات وأحداث ذات بعد ديني. وهذا التحديد يستثني الرموز الأسطورية على الرغم من التداخل بين الأسطورة والدين، لأنها كانت في القديم رمزا دينيا ارتبط بطقوس العبادة في الحضارات القديمة،على الرغم من أن بعض الدارسين مازالوا يخلطون بينهما(2). كما يخلطون ايضا بين الدين والتراث(3)،حيث يعتبرون الدين جزءا من التراث.

---

(1) انظر للتوسع في تحليل هذا النموذج وغيره- مصطفى السعدني- التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل- ص135-139.

(2) انظر- يسري العزب- القصيدة الرومانسية في مصر- ص137 .

(3) انظر- ربيعي محمد علي عبد الخالق- أثر التراث العربي القديم في الشعر العربي المعاصر- دار المعرفة الجامعية- اسكندرية-1989م- ص195 .

لم يهتم الشاعر بتوظيف الرمز الديني العام، وإنما ركز على الرمز الإسلامي المستمد من القرآن الكريم، حتى بعض الرموز المسيحية والتوراتية استقى منها دلالتها الوادرة في القرآن الكريم،لإيمانه بأنه الكتاب الذي لا تحريف فيه. بينما يعود بعض الشعراء إلى رموز القرآن الكريم يختارون منها على الأغلب الرموز المتعلقة بالدين المسيحي، وإذا استخدموا عناصر أخرى من القرآن أو القصص الديني الإسلامي، فإنهم يختارون منها ما يتعلق بالديانات أو الدعوات الأخرى السابقة للإسلام. ولعل السر في ذلك الاتجاه هو أن الشعراء في سعيهم وراء الأسطورة يبحثون عن الرموز التي عاشت في عصر الأساطير أو الرموز التي ترافقها خوارق مادية عرفت في عصور المعجزات. والإسلام دين واقعي خلا من العنصر الأسطوري، وأنهى عصر المعجزات، فهو يخلو من الرموز التي يسعى مثلها هؤلاء الشعراء.(1)

وكان للشاعر دور كبير في بلورة الرمز داخل الصورة،وكذا بناء القصيدة العربية الحديثة، حيث خضع في تطوره إلى مستويين إثنين:هما المصدر الديني والرؤية المعاصرة. وكان سر نجاح الصور هو ارتباطهما بالرمز المرتبط هو الأخر بالوعي الفكري والروحي للشاعر،وبخاصة لما حقق من ارتباط ذلك المستويين الاستفادة الإيجابية القادرة على تفجير إحساس القارئ.لأن الرمز قد يكون واحدا، لكن تتشكل في إطاره دلالات الصور لتعبر عن التجربة الفردية أوالجماعية ذات المواقف الذاتية أوالموضوعية، كالموقف النفسي أوالاجتماعي أوالسياسي أوالديني المحض.

وتعددت المعطيات التي استمدها الشاعر من المصدر الديني كنصوص قرآنية دالة على أحداث ومواقف وشخصيات...يجعلها نقطة انطلاق لشعوره وفكره، وركيزة فعالة في إثراء وتقوية مضمون تجربته.

أ- **المحدث الديني** : ويأتي به ليوظفه للإيحاء بأبعاد رؤيته، ومن أشهر هذه الأحداث تبرز أحداث الدعوة المحمدية من وحي وهجرة وإسراء ومعراج وغزوات، وغيرها من وقائع السيرة النبوية.

وتتحدث عنها هنا كأدوات رمزية للتعبير عن مواضع معينة.لا من حيث هي مواضع وأغراض رئيسية ، <<لأن الوجد الديني المشبوب الذي يطالعه من معظم اقصائد الديوان، ولا يتمثل هذا الوجد في مجرد اتخاذ الشاعر من بعض الموضوعات الدينية أطرا لعدد ملموس من قصائد الديوان. وإنما يتمثل قبل ذلك في حرصه على أن يجعل رموزه الكبرى للمسيرة الإنسانية الجليلة رموزا اسلامية.>>(2)

كشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام التي جعلها الشاعر محورا لقصيدتين هما "حادي التغيير"، "سجدة في طريق النور"(3)، كانت أيضا رمزا جزئيا في قصيدتين أخريين هما " بغداد" و"شعلة الذات".

ففي القصيدة الأولى " بغداد" التي يستحضر فيها الشاعر ذكريات الحضارة الإسلامية. يرجع إلى أصل هذه

---

(1) أحمد بسام ساعي- حركة الشعر الحديث في سوريا- ص350 .

(2) علي عشري زايد- قراءات في شعرنا المعاصر- ص33 .

(3) انظر- فصل الرؤية النبوية .

الحضارة،وهي دعوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى رسالة الإسلام التي حررت الإنسان روحيا وإنسانيا وحضاريا،. وكان رمز الحضارة "القرآن الكريم" الذي أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم:

مِنْ هُنَا، والنُّورُ لَمْ يَغْفَلْ سَنَاهُ أَبَدَا
وَرَايَةُ الإِسْلاَمِ، لَمْ يَتْرُكْ ضُحَاهَا أَحَدَا
وَكَيْفَ ؟ وَالسَّمَاءُ خَطَّتْ فَوْقَهَا مُحَمَّدَا..
مُحَرِّرُ الإِنْسَانِ، دَاهِي الرِّقِ وَالهَوَانِ فِي جَبِينِهْ
بِثَوْرَةٍ شَبَّتْ عَلَى تَكَالُبِ الأَغْلاَلِ فِي يَمِينِهْ
فَدَوَّبَتْ قُيُودَهُ بِصَيْحَةِ القُرْآنِ
وَأَضْرَمَتْ وُقُودَهُ فِي جَبْهَةِ الطُّغْيَانِ...
وَحَرَّرَتْ وُجُودَهُ مِنْ قَبْضَةِ الأَوْثَانِ
وَحَرَّمَتْ سُجُودَهُ إِلاَّ إِلَى الرَّحْمَنِ...
.. مِنْ هُنَاهُنَا .. حُدَاؤُهَا، مَدَّ الخُطَا، وَسَارَ فِي قَوَافِلِهِ
وَفَجْرُ الضِّيَاءِ، يَسْقِي ظُلْمَةَ الوُجُودِ، مِنْ مَنَاهِلِهِ.[1]

واستعار الشاعر أيضا بعض المدلولات الإسلامية الأخرى،ليوظفها –بشكل ما– كرموز لاستيعاب الحديث الذي بصدد تصويره أو التعبير عنه،كحديثه عن معارك الأمة الإسلامية من أجل الحرية والتغيير وإثبات الذات الحضارية. وأثناء تصويره لها انبعث صوت لمعركة قديمة متجددة:

فَمِنْ صَوْتِ جِبْرِيلُ وَهُوَ يُنَادِي مُحَمَّدْ
وَمِنْ رَعْشَةِ الوَحْيِ وَلَهِيب وموقدْ...
وَمِنْ عَنْكَبُوتٍ عَلَى الْغَارِ أَرْخَى السُّتُورَا
بِأَوْهَى خُيُوطٍ أَدَارَ الزَّمَانَ وَأَحْيَا الدُّهُورَا
وَمِنْ بَدْرٍ وَهِيَ تَمِيمَةُ كُلِّ المَعَارِكْ
وَصَوْتُكِ مِنْهَا مِنَ الحَقِّ.. نَارٌ تُشَارِكْ
.. وَمِنْ كُلِّ خَطْوِ النَّبِيِّنَ فَوْقَ الصَّحَارَى
وَهُمْ يَحْصُدُونَ الدُّجَى، مِنْ وُجُوهِ الحَيَارَى.[2]

وتتضافر دلالات هذه الرموز (جبريل، محمد، الوحي، العنكبوت، الغار، بدر)، وتغدو أية معركة تحمل مضمون هذه الرموز قادرة على أن تحقق الأثر نفسه. فمناجاة جبريل لمحمد، ورعشة الوحي، لا يمكن أن تقف عند حد الإشارة لمدلول كل منها، فهي رموز ثلاثة تعطي بعدا هائلا للرعاية الربانية والتي تجعل من الضعف قوة. واتضحت دلالات القوة المستمدة من الله في بدر الكبرى، كما تصبح خيوط العنكبوت

---

(1) لابد– ص52-53.

(2) صلاة ورفض ص78 79 .

الإلهية قادرة على إدارة الزمان وتحريك الدهور. وصوت جبريل الغيبي أداة للتغيير الفعلي من أجل بعث الحق في الحياة. وهو يتأمل واقع المسجد الأقصى في فلسطين، ويصور انتهاك المقدسات والمآثر الروحية، يعود إلى ماضيه الروحي ليستمد من الرموز التالية (الإسراء، المعراج، النبي، البراق، الملائكة، الأنبياء، عرش الله) أملا روحيا لتثبيت الأحداث الإسلامية في واقع مهزوم، يريد بنو اسرائيل طمسه من خريطة الأمة الإسلامية. يخاطب الشاعر المسجد الأقصى معيدا إليه تلك الرموز في قصيدته " الأذان الذبيح" . وإن وظفها أيضا في قصائد أخرى " وجئت أصلي"، "القدس تتكلم"، "المسجد الصابر"، وكلها تدعو إلى إنعاش الدين في أولى القبلتين وصخرة القدس:(1)

تلفت.. فمازال خطو النبيّ
يرشّ لك النور بالراحتين
ويسقيك إسراؤه في الظلام
رحيق القداسة من خطوتين
ألمّت شعاعاته بالتراب
وحطّت به أوّلة القبلتين
وأوّل إصغاءة هذا الوجود
لربّ السماوات في سجدتين
وأومأت إلى الأرض فانسابَ فجرٌ
جديدُ الضياء إلى كلّ عين
وطارت بمعراجها فوق بحرٍ
وضيء العُباب بلا شاطئين
على طائرٍ من هيولى غيوبٍ
شذا الخلد يحذوه من جنتين
وحشد الملائك من حوله
يزفّ التسابيح في موكبين
وركب النبيين.. عطرٌ ونورٌ
وريّا صلاةٍ على الجانبين
ويرقى.. فيفترّ عرش الإله
وللذات يهرع في ومضتين
إلى قاب قوسين.. أو منه أدنى.(2)

---

(1) انظر- فصل الرؤية السياسية- مبحث قضايا الأمة العربية الإسلامية- محور قضية فلسطين- مكانة فلسطين الدينية.

(2) صلاة ورفض ص90 91 .

ب- **القصص الديني أو القرآني** : بديهي أن ما نعنيه هنا بتوظيف القصص في شعره يختلف عما عرفناه بالشعر القصصي أو الدرامي أو دور القصة والحوار في التصوير الشعري، إذ يستلهم مواقف أو حوادث أو شخصيات معينة من القصص الإسلامي،وهي القصص الواردة في القرآن الكريم مثل قصص الأنبياء والرسل، والملائكة والشياطين، والأقوام البائدة والمستمرة...وغيرها من القصص القرآني الذي ذكر للعبرة والموعظة وإرساء دعائم الإيمان. ومنحها الشاعر طابعا رمزيا ثريا من أجل تعميق الصلة بين الماضي والحاضر في تلاحم كلّي يؤدي به في النهاية إلى تكوين رؤية شاملة لواقعه وعصره، بعد أن تكتسب تلك الرموز الدينية أبعادا جديدة إلى جانب أبعادها الأصلية مما يجعلها ثرية وموحية. على الرغم من أن بعض محاولات الشعراء في توظيف هذه القصص كالسياب مثلا حملت سلبيات الريادة، وعكست تجربة غير ناضجة، لمس فيها بعض الدارسين شيئا من التعمل والافتعال في استعارة الرموز الدينية الغيبية لتعبر عن فكرة أو فلسفة مناقضة تماما للدين والغيب، ويعني بها الفكرة الشيوعية التي تمجدها قصائده، حيث تفتقر إلى العمق والتلاحم والامتلاء الحقيقي باختفاء إشعاعها الروحي المتضمن في النص القرآني المعجز.[1]ومن القصص القرآنية التي أفاد منها الشاعر قصص الأنبياء والرسل وأولها قصة آدم "وقصة أكله من الشجرة المحرّمة، وخروجه من الجنة ونزوله الأرض هو وزوجه حواء، التي رمز بها للتعبير عن حقيقة الإنسان والصراع الأزلي بينه وبين الشيطان، وحكمة النزول إلى الأرض لظهور مسيرة الخير والشر، والتوبة والخطيئة:

مرّ بي آدمُ قديمًا فأومأتْ إليه بطرْف هذا البنان
فسقى قلبَه من النهر كأسًا - وتلاشى عن أعيني في ثوان
وإذا بي أراه يهتك سرّ الـ ـخلد في غير هدأة أو تواني
مالَ بالتوّحة التي قدّس اللّه جناها فلم تنلها يداني
وجنى من ثمارها هذه الدنيا وأحداث هذه الأكوان
عبّ خمري. فأذهلته عن الغيب وأفصته عنّ ظلال الجنان[2]

وكذلك قصة ابنيه "قابيل وهابيل" الواردة أيضا في القرآن الكريم، حيث قتل قابيل أخاه هابيل ظلما وعدوانا، وانتقل هذا العدوان إلى بني الإنسان حتى صار طبيعة متأصلة فيهم، وازدادت أسلحتهم مضاء للفتك ببعضهم البعض، وأصبح قابيل وهابيل رمزين للصراع الإنساني من أجل الخير والشر على مدى الأحقاب .واتضحت أيضا قصة "الغراب" التي تدعم هذا المعنى وتقويه من خلال ما حكى القرآن الكريم على أنه هو الذي أرشد قابيل إلى إخفاء جثة أخيه في التراب[3]. حيث جعله الشاعر رمزا محوريا في قصيدة "راهب النخيل"، للتعبير عن صراعات الإنسان المعاصر مع أخيه الإنسان من أجل الكسب والمال والسلطة والجاه وغيرها[4]

---

(1) انظر- عثمان حشلاف- التراث والتجديد في شعر السياب-ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-1986-ص57-75

(2) أين المفر- ص168-169.

(3) المائدة- 31 .

(4) انظر- تحليل القصيدة- الرؤية الاجتماعية- مبحث الأخلاق- (فلسفة الخير والشر) ص327 .

ومما أورده من قصص الأنبياء " قصة موسى عليه السلام" فكثيرا ما يرد إسم موسى في كثير من المواضع الشعرية كرمز متنوع الدلالات لما في حياته من مواقف وحوادث...فعند حديثه عن أرض ونيل مصر أثناء الاحتلال، أراد أن يعود بها إلى مجد قديم إلى عهد موسى وعصاه ورعيه الغنم وصراعه من أجل الحياة في تلك الأرض، وذلك النيل. هذا الأخير الذي راح يروي قصة حاضره وسره القديم للشواديف والربى والطيور، لكن الشاعر كان من السامعين، وذلك في قصيدة " صرخ القيد" :

هَادِئًا صَاخِبًا.. وَأَحْتَارُ إِنْ زُرْتُ فِي حِمَاهُ لِلْكَشْفِ وَالتَّفْسِيرِ
دَسَّ أَسْرَارَ قَلْبِهِ، وَحَكَاهَا - لِلشَّوَادِيفِ وَالرُّبَى وَالطُّيُورِ
وَرَوَى لِلرُّعَاةِ مِنْ عَهْدِ مُوسَى- قِصَّةَ الظِّلِّ، وَاخْتِلاَجَ الْهَجِيرِ
خَيْمَةٌ، تَحْتَ نَخْلَةٍ حَوْلَ كَوْخٍ - بَيْنَ أَغْنَامِ قَابِعٍ مُسْتَجِيرِ
هَاهُنَا، تَنْفُرُ الْعَصَا وَهُنَا الدَّلْوُ... وَكَأَسِي عَلَى خِضَمِّ غَرِيرِ[1]

وفي معرض دفاعه عن قضية فلسطين لم يجد ليواجه به حقيقة اليهود أو اسرائيل إلا بعض رموز أخلاقهم وسيرتهم وبعض الأحكام الإلهية فيهم الواردة في القرآن الكريم[2]،ومنها مواجهتهم لنبيهم"موسى عليه السلام" الذي كان حجة لإصرارهم على الباطل على الرغم من دعوة السماء، الذي كان رمزا دينيا لمواجهة حقيقتهم المعاصرة، كاستحضاره لحادثة العجل وذهابه إلى طور سيناء،ليعتكف أربعين يوما ويكلم الله، ويحمل ألواح الحق،لكنهم ظلوا على تيههم وحيرتهم :

يقول :

مُوسَى يُنَاجِي اللهَ فَوْقَ سِينَا
وَأَنْتُمْ لِلْعِجْلِ سَاجِدِينَا
مُحَيِّرِينَ التِّيهِ أَرْبَعِينَا
حَتَّى نَسَخْتُمْ فِيهِ أَجْمَعِينَا[3]

ويخاطب إسرائيل في موضع آخر بالرموز نفسها :

غَنَّتْ لَهَا مُوسَى بِأَلْوَاحِهِ - وَنَافَخَ الطُّورَ بِمِزْمَارِ
وَكَلَّمَ اللَّهُ.. فَأَصْغَتْ لَهُ - ثَاكِلَةٌ تُصْغِي لِحُقَّارِ
جَبِينُهُ لِلنُّورِ..وَهِيَ الدُّجَى - يُمْعِنُ فِي تَابُوتِ أَغْوَارِ[4]

---

(1) نار وأصفاد- ص57.

(2) انظر- فصل الرؤية السياسية- قضية فلسطين- تصوير حقيقة اليهود - ص 398

(3) التائهون- ص13.

(4) المصدر نفسه - ص36.

وفي معرض تضمين قصص الأنبياء مع إسرائيل أيضا.. رمز إلى أفعالها الشنيعة الأخرى، بمواجهتها للنبي عيسى عليه السلام.وإصرارها على عملية الصلب مستنكرا عليها صلبة.كما استنكر ذلك القرآن الكريم ﴿وَقَوْلِهِمْ أَنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ، وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ. وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا.﴾[1]:

وَجَاءَهَا عِيسَى بِرِفْقِ الهُدَى - فَلَمْ يَزْدَهَا غَيْرَ إِصْرَارِ

وَغَيَّرَ تَارِيخَ صَلِيبِ الأَسَى - يُعَسِّرُ مِنْ لَوْحٍ وَمِسْمَارِ[2]

ويأتي في مقدمة الرموز الدينية الموظفة في القصيدة المعاصرة " رمز المسيح وصلبه"[3]. ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا أننا لا نجد شاعرا معاصرا لم يضمن بعض قصائده هذا الرمز الديني، لكن في معظمه بطابع مسيحي إنجيلي.لا إسلامي قرآني حيث استدعتهم تلك الرموز المسيحية إلى استقراء الإنجيل وأصوله الدينية والتي تختلف في جوهرها عن الأصول القرآنية وأبسط مثال قضية الصلب إلى جانب رموز أخرى(كالصليب وإكليل الشوك والخبز..)[4]

لكن محمود حسن إسماعيل بهذا الرمز، لم يؤمن به لما يحمل من دلالات لا ينسجم مع رؤيته الإسلامية، وإن لم ينكر شخصية عيسى عليه السلام كرمز ديني يدل على حقيقة الكتب السماوية والدعوة إلى التسامح الديني: كحديثه عن أرض فلسطين على أنها مهبط الأديان ولقاء الأنبياء والرسل، فرمز إلى هذا اللقاءبلقاء محمد مع عيسى عليه السلام-أي لقاء الدين المسيحي مع الدين الإسلامي-وتعايشهما على أرضها من خلال كنيسة أومسجد وذلك في قصيدة "محمد لاقى عليها المسيح".

فلسطينُ في الأرضِ كبرٌ جَريحٌ

وترنيمةٌ رددتها السُّفُوحُ

مُحَمَّدٌ لاقَى عَلَيْهَا المَسِيحَ...[5]

كما جعل من الأنبياء وبعض ميزاتهم رموزا للتعبير عن دعوة الأديان إلى السلام الإنساني، وذلك في قصيدة " السلام الذي أعرف" حيث حاول في الظاهر أن يدعو إلى السلام بعيدا عنها، إلا أنه باستقراء كل القصيدة نعثر على غرض الشاعر الخفي من رموز بعض هؤلاء الأنبياء،فمقم سليمان، مزامير داود، وصايا الكليم موسى، أناجيل عيسى، آيات محمد :

---

(1) النساء- 157.

(2) المصدر نفسه- ص36.

(3) انظر- خالد سليمان- ظاهرة الغموض في الشعر الحر- مجلة فصول- ص72-73.

(4) انظر- محمد عادل الهاشمي- الإنسان في الأدب الإسلامي- ص150 ومابعدها.

(5) التائهون- ص22 .

مِنَ الشَّرْقِ جِئْتُ
وَلَسْتُ نَبِيًّا
لآ مُرْسَلاً فِي يَمِينِي كِتَابْ
وَلَيْسَتْ مَعِي مِنْ سُلَيْمَانَ
أَسْرَارَ قُمْقُمْ..
.. وَلَيْسَتْ مَعِي مِنْ مَزَامِيرِ دَاوُدَ نَغْمَةْ
.. وَلاَ مِنْ وَصَايَا الكَلِيمِ مَعِي أَيَّ كَلِمَةْ
.. وَلاَ مِنْ أَنَاجِيلِ عِيسَى
وَإِصْحَاحِهَا، أَيَّ رَحْمَةْ
.. وَلاَ مِنْ سَنَا آيةٍ مِنْ مُحَمَّدْ
حَمَلْتُ لَكُمْ أَيَّ نَجْمَةْ(1)

ويتكرر رمز النبي "سليمان" في موضع آخر، وهو يحاول استنهاض واقع أمته باستحضار رموزها الحضارية، وليس سليمان إلا رمزا لحضارة سحرية عجيبة يزول من سبيلها كل عسير، حضارة روحية قامت من خلال خاتم سحري على تسخير كثير من الكائنات من طير وحيوان، وإنس وجان، فيدير العالم ويصير كل شيء على غير ماهو عليه.واستحضر أمام مشهد بناء السد العالي لعظمة إنجازه الحضاري رمز سليمان والريح والجن،وكأنها ساهمت في بنائه:

وَالرِّيحُ أَلْقَتْ عَصَاهَا عِنْدَمَا لَمَحَتْ
وَحْةَ الجِبَالِ مُكِبًّا فَوْقَ سَحْدَتِهِ
وَأَبْصَرَتْ شَامِخَاتِ الصَّخْرِ جَاثِيَةً
تَفَتَّتَ الْكِبْرُ إِجْلاَلاً لِهَيْبَتِهِ
فَسَاقَتِ الجِنَّ، وَالأَقْدَارَ، وَاحْتَشَدَتْ
مِنَ الذُّرَا، وَالثَّرَى، طَوْعًا لِإِمْرَتِهِ
عَاجَتْ بِغَيْرِ سُلَيْمَانَ وَلَوْنَطَقَتْ
لَقَالَتْ: النِّيلُ فِي إِعْجَازِ ثَوْرَتِهِ.(2)

وهو يتأمل واقع اليمين أورد رمزا حضاريا آخر، وهو مملكة بلقيس ملكة سبأ من أجل إعادة نهضة هذا الجزء من الأمة الإسلامية :

---

(1) صلاة ورفض- ص28-29 .

(2) قاب قوسين- ص62-63 .

بِلْقِيسُ أَتَتْكَ بِسَحْدَتِهَا
لِضِيَاءِ الشَّمْسِ، وَفَرْحَتِهَا
وَرَمَتْكَ بِخَاشِعِ نَظْرَتِهَا
قُدْسًا وَصَلاَةً لِضِيَائِكْ
وَنَشِيدًا يَرْكَعُ لِسَمَائِكْ
وَأَذَانًا بِصَبَاحِ اليَمَنِ
يَتَرَنَّمُ فِي سَمْعِ الزَّمَنِ.(1)

وأورد من الرموز الأخرى ذات الجانب السلبي لا الإيجابي للاتعاظ والاعتبار رمز عاد عند تصويره للاستعمار، وإمهاله بأن بطشه وقوته سوف يزول ،كما زال في العهود القديمة من الأقوام البائدة، قوم عاد الذي جاء ذكرهم في القرآن الكريم، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾(2) وكان اندلاع الثورة ضد الاستعمار إعلانا إلهيا للقضاء عليه كالقضاء على عاد، وكان الرمز رغبة وضرورة لتغيير العالم عن طريقها:

بَعْدَ سَبْعِينَ أَمْهَلَتْهُمْ.. أَطَلُّوا - فَإِذَا الرَّقُّ حَفْنَةٌ مِنْ رَمَادِ
وَإِذَا نَارُهُ هَشِيمٌ.. ذَرَتْهُ - غَضْبَةُ أُخْتِهَا أَطْلَتْ بِعَادِ(3)

كذلك رمز قارون وهي شخصية مذكورة في القرآن عرفت بالطغيان، ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ. إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾(4).

وهو رمز متجدد لأن أمثال قارون يتجددون،لكن لا يخلدون.ويعرض الشاعر هذا الرمز وهو يتحدث عن مآثر شهر رمضان الذي يمنح الرحمة والحنين والكرم، ولهذا يخافه كل قارون،أي غني،شحيح،عاشق للمال والحياة:

وَأَنْتَ مُلَقِّنُ الأَيْدِي تَدَاهَا
وَمُكْسِبُهَا التَّرَاحُمَ وَالحَنِينَا
يَخَافُكَ كُلُّ قَارُونٍ شَحِيحٍ
فَيَخْجَلُ أَنْ يَرُدَّ السَّائِلِينَا(5)

---

(1) قاب قوسين - ص81.

(2) الفجر- 6-7.

(3) نار وأصفاد- ص128.

(4) القصص- 79.

(5) صوت من الله- ص108.

ج - الألفاظ الإسلامية : اجتمعت كثير من هذه الألفاظ في عدة سياقات شعرية كرموز ذات دلالات دينية عميقة. كرمز الهلال الذي يتوارد على الشاعر كثيرا معوضا بذلك الصليب -الذي استهوى كثيرا من الشعراء المعاصرين- فهو رمز للوحدة الإسلامية بكل مشاعرها وشعائرها، واتضح ذلك في قصيدة "الأحدب النشوان" :

هِلاَلُ... يَكَادُ المُسْلِمُونَ صَبَابَةً - يَطِيرُونَ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهِ حَمَائِمَا

أَشَارَ لِمَاضِيهِمْ بِكَفٍّ مَلاَّلِـيٍّ - تَرَامَتْ حَوَالَيْهِ النُّحُومُ حَوَائِمَا.(1)

وهو رمز التحم مع رمز الصليب للتعايش والتسامح بين الديانتين :

كُلُّ القُلُوبِ لَدَيْكَ مُهْجَتُهَا تَزُودُهْ

مَنْ لِلْهِلاَلِ.. يَهِلُّ مَسْجِدُهُ

مَنْ لِلصَّلِيبِ.. يَطِلُّ مَعْبَدُهُ...(2)

وهو رمز لشهر رمضان الكريم الذي يهفو لمرآة كل المسلمين من كل عام خشوعا ورهبة :

وَمُنْذُ تَهِلُّ تُرْهِبُكَ الذُّنُوبُ

وَتَخْشَعُ السَّرَائِرُ وَالقُلُوبُ

وَتَفْزَعُ أَنْ تُقَابِلَكَ المَعَاصِي

فَتَهْرَعُ، أَوْ تُقَنَّعُ، أَوْ تَذُوبُ(3)

كذلك المئذنة فهي رمز للدعوة الإسلامية من جديد باتجاهها نحو السماء،تستمطر من الله الرحمة والعطاء والغفران، وتفتح أبواب العودة إليه عز وشأنه للواقع الإسلامي المهزوم روحيا وماديا. فصمت المآذن رمز للدهشة والتأمل والحزن بين الحاضر والماضي الروحي:

وَصَوْتُ المَآذِنِ صَمْتٌ بِهِ دَهْشَةُ الغَيْبِ تَفْزَعُ

وَإِصْغَاءُ مَاضٍ حَزِينِ التَّأَمُّلِ فِي الأُفْقِ يَسْتَمِعُ(4)

وجؤار وصراخ مئذنة المسجد الأقصى،رمز لفساد وعبث اليهود بأرض وشعائر المسلمين:

فِي مِئْذَنَةٍ

وَقَفَتْ تَحْأَرُ فِي الظُّلُمَاتِ بِلاَ كَفَيْنِ

---

(1) نار وأصفاد- ص53.

(2) نهر الحقيقة- ص170-171.

(3) صوت من الله- ص108.

(4) موسيقا من السر- ص79.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لاَ تَسْبِيحٌ
وَلاَ تَرْتِيلٌ، يَسْعَجُّ بِهِ ثَانِي الْخَزْمَيْنْ...[1]

والمئذنة أيضا رمز لانتعاش شعائر العبادة في شهر رمضان بالصلاة والتهجد والتسبيح والترتيل :

تَلَفَّتْ لِلْمَآذِنِ حَالِيَاتٍ
كَحُورِيَاتِ خُلْدٍ سَافِرَاتِ
تَفُوحُ مَبَاخِرُ النُّسَّاكِ مِنْهَا
فَتَحْسَبُهَا غُصُونًا عَاطِرَاتِ
تَلأْلأَ حَوْلَهَا أَطْوَاقُ نُورٍ
كَأَنَّكَ حَامِلٌ وَحْيًا إِلَيْهَا.[2]

وهي أيضا رمز لمعانقة عقيدة الإسلام،والتسامح مع الأديان السماوية الأخرى كالدين المسيحي :

وَبِكُلِّ مِئْذَنَةٍ إِذَا هَتَفَتْ
خِلْتُ السَّمَاءَ بِهَا تُعَانِقُنِي
وَبِكُلِّ رَاهِبَةٍ، يُرَتِّلُهَا
نَاقُوسُهَا نَغَمًا يُسَاكِرُنِي[3]

كما كانت "المسحة أو السبحة" التي تطوق يد المصلي،العابد أو الناسك رمزا للإيمان والشوق إلى الله:

وَالسُّبْحَةُ الْعَذْرَاءُ فَقَدْ طَوَّقَتْ
كَأَنَّهَا نَاسِكَةٌ فِي يَدِهِ
ظَمْآى إِلَى الإِيمَانِ قَدْ أَشْرَفَتْ
تَفْنَى مِنَ الشَّوْقِ عَلَى مَوْرِدِهِ.[4]

كذلك وردت في شعره رمزا للنفاق والرياء الديني فكثيرا ما تتحرك في يد تظهر الإيمان والعبادة، وتخفي أسرارا من الغواية والضلال، وقد ربطها الشاعر بالدعوات المقهورة،ورق العصور،والسخرية من عبد بهلوان هو الهازئ بالعبادة :

وَالْخَطْوُ مِسْبَحَةٌ تَدُورْ
وَلاَ تُحَرِّكُهَا يَدَانْ
مَقْهُورَةُ الدَّعَوَاتِ تَفْهَقُ بِالرِّيَاءِ بِلاَ لِسَانْ

---

(1) صلاة ورفض- ص11.

(2) صوت من الله- ص109.

(3) نهر الحقيقة- 170-171.

(4) صوت من الله- ص103.

وَيسُوقُهَا رِقّ العُصُورِ لِذِلّهِ في كُلّ آنْ
شَطَحاتُ عَبدٍ خادعَتْهُ شُعاعةٌ
نَسختْهُ ضَحكةُ بهْلوانْ(1)

3- الرمز الصوفي :

بقي أن نشير إلى مدى توظيفه للرمز الصوفي،كجزء من الرمز الديني؛ على الرغم من أن الشاعر لم يكن صوفيا -كما لم يكن أسطوريا- بل إنه كان يتنازع مع التصور الواقعي،وإن حاول أن يضمه ويحتويه ببعض رموزه.بخاصة إذا ما علمنا المنحى المتشابه عند كل من الشعراء الرمزيين والصوفيين على الرغم من اختلاف، قد يظهر في التصور أو الأداة -لأن الرمزية أيضا << هي نوع من الحلولية الفعلية التي يتهدم لها جدار العقل والحواس والمادة في عالم الغيب النفسي، ومن خلال تلك الأصقاع،وعبر تلك الرؤيا تطلع المظاهر المادية، وقد اتخذت دلالة أخرى غير ملازمة لها في واقع الحس. فالرمزية هي في أقصى أبعادها ليست سوى استشراف لما وراء المادة.>>(2)

وهذا ما جعل معظم شعراء أبولو يتأثرون بالرمزية لأنها دفعتهم إلى التحرر من الأجواء المادية والسبح في المجهول والغيب والأحلام المبهمة،وإلى الأجواء الصوفية لعلهم يجدون فيها ربّا لنفوسهم المتعطشة واستقرارا لأحلامهم المتلهفة.(3)

لكن الشاعر على الرغم من انتمائه لجماعة أبولو فنيا إلا أنه كان مميزا في رمزيته وحتى صوفيته. حيث استنبط بعض دلالات الرموز الصوفية في الرحيل والانشطار، والتجرد والمكاشفة، والحب واللوعة، والخمر والسكرة، لكنها محدودة في شعره حيث تجاوزت المعنى الصوفي إلى معنى نابع من إرادته الفكرية والفنية. فكان رمز الانشطار مثلا،وسيلة للبحث عن المعرفة داخل النفس، حيث يشطر ذاته إلى ذاتين حتى يستطيع أن يتغلغل إلى عالم الفضيلة والنور :

وَأنْشَقُّ ذَاتَيْنِ.. ذَاتًا تَنُوحُ
وَأُخْرَى تُسَبّحُ مِنْ خِشْيَتِكْ
وَكِلْتَاهُمَا مِنْ رِيَاحِ الضَّمِيرِ
صَدَى ذائِبٌ فِي صَدى مَوْجَتِكْ.(4)

---

(1) نهر الحقيقة- ص 23 - 24.

(2) إيليا حاوي- الرمزية والسريالية في الأدب العربي والغربي- ص149.

(3) انظر- عبد العزيز الدسوقي- جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث- الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر- (1391هـ- 1971م)- ص401 ومابعدها.

(4) صلاة ورفض 142.

كما أنه خضع لرمز الانشطار من أجل فك مغاليق رموز الحياة وكشف أسرار عالم الغيب كعالم الجن، حيث تتضمن قصيدة "موسيقا من الجن" ذاتين تتحاورن،إحداهما ذات متزودة بالنور والمعرفة، وأخرى تسير مع أولئك الذين يبحثون عن أية معرفة،تشدها معهم دروب من الوهم والافتعال.والذات الأولى في حالة يقظة وترقب، والثانية في حالة غياب عن الوعي[1]، كقوله :

وَشَطَرْتُ ذَاتِي وَاحِدٌ مَعَهُمْ
وَالوَاحِدُ الثَّانِي يُرَاقِبُهُمْ
لاَ إِنْسًا لاَ جِنًّا أُصَاحِبُهُمْ
بَلْ طَيْفَ رُوحٍ لاَ يُغَادِرُهُمْ.[2]

كما دفعه إيمانه وشوقه وحبه الإلهي إلى توظيف رمز " الحجاب والكشف "، حيث يرى روحه تملى عند باب الله عز وجل، ويرنو قلبه إلى سناه بعد أن انكشف أمامه الحجاب،وكادت تغمره تجليات الصوفيين:

كُلَّمَا رَفْرَفَ بِالإِيمَانِ صَدْرِي
وَسَرَتْ أَشْوَاقُهُ الكُبْرَى بِثَغْرِي
تَمِلَتْ رُوحِي مِنَ الْحُبِّ، وَلاَذَتْ عِنْدَ بَابِكْ
وَرَنَا قَلْبِي، فَشَاهَدْتُ السَّنَا خَلْفَ حِجَابِكْ
قُوَّتِي مِنْكَ، وَمِنْهَا تَنْهَلُ الْحَمْدُ شِفَاهِي
وَتُغَنِّي.. رَبِّ سُبْحَانَكْ، دَوْمًا يَا إِلَهِي.[3]

وكأنه يستعير رموز التعبير الصوفي من رابعة العدوية مثل قولها:

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الْهَوَى - وَحُبًّا لأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَا
فَأَمَّا الذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى - فَذِكْرٌ شُغِلْتُ بِهِ عَنْ سِوَاكَا
وَأَمَّا الذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ - فَكَشْفُكَ لِي الْحُجْبَ حَتَّى أَرَاكَ[4]

ويعد رمز الخمرة والكأس والمدام والسكر أكثر ترددا في شعره، إلا أنها في معظم الأحيان لم تعبر عن المعنى الصوفي،بل تتطور إلى أكثر من مستوى دلالي فالخمر في الأكثر رمز للمرأة الطاهرة، الجميلة،

---

(1) انظر- فصل الرؤية الاجتماعية-مبحث الأخلاق (نقد العادات السيئة)- ص 335

(2) نهر الحقيقة- ص34.

(3) قاب قوسين- ص135.

(4) عبد الرحمن بدوي- شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- ط2-1962م- ص162.

الأصيلة، وهي غير الخمر المألوفة التي تُسكب في الدنان وتعصر من رحيق العنب، فهي صورة روحية للمرأة لا حسية:(1)

هِيَ الْخَمْرُ مَا سُكِبَتْ فِي الدِّنَانِ - وَلاَ عُصِرَتْ مِنْ رَحِيقِ الْعِنَبْ...
وَمِنْ شَفَقٍ فَرْمُزِيِّ الْجَبِينِ - وَمِنْ نَفْسٍ عَبْقَرِيِّ النَّسَبْ
وَمِنْ حُلْمٍ ذَاهِلٍ فِي الْعُيُونِ - تُحَيِّرُهَا فِي نُورِهَا وَاضْطِرَبْ
وَمِنْ نَغَمٍ عَازِفٍ فِي الْحُسُونِ - يَتَرَجَّمُ عَنْ صَارِخٍ مُحْتَجِبْ
تَصَوَّفَ مِنْ عِفَّةٍ فِي الضُّلُوعِ - وَضَجَّ عَلَى لَوْعَتِي وَاكْتَأَبْ(2)

ونادرا ما عبرت الخمر عن المعنى الصوفي كاعتبارها وسيلة للتعبير عن الحقيقة الإلهية المتجلية في الحق أوالجمال(3)،لأنه اختار سبلا أخرى للمعرفة الروحية(4) وإن عثرنا على نموذج يتلاءم مع المعنى الصوفي المعروف،ويعبر عن حقيقة الجمال الإلهي، وذلك في قصيدته "موسيقا من الجمال":

يَاخَمْرَةَ الأَسْرَارْ
كَأْسٌ بِغَيْرِ خَمْرٍ. خَمْرٌ بِغَيْرِ كَأْسْ
وَزَهْرَتِي بِغَيْرِ عِطْرٍ تُسْكِرُ الإِحْسَاسْ
فَلْيَخْدَعْ الْجَمَالُ أَوْ يَفْنَى
وَفِي الرِّيَاءِ مَا يَشَاءُ يَخْتَفِي...(5)

كذلك عبرت رموز المرأة واللوعة والعشق والوجد عن رؤية الشاعر الوجدانية للمرأة ذاتها(6). ولم يحاول أن يتخذ أبعادها الصوفية للتقرب والتواصل إلى الله كما عند الصوفيين (7). حيث اتخذ طريق الوصول إلى الله خصوصية روحانية ارتبطت بمخاطبة الذات الإلهية المنزهة عن كل النداءات المتداولة والمحصورة بين الطاقات التعبيرية للبشر والرؤى الوجدانية المألوفة، حيث نزع نحو تجريد شعوره نحو الله تجريدا كليا، على الرغم من بعض المظاهر المحسوسة التي جردها أيضا من واقعها المادي.(8)

وإن حاول في قصيدة واحدة "الطريق إلى الله" التعبير عن الحقيقة أوالذات الإلهية عن طريق المرأة:

---

(1) انظر- يسري العزب- القصيدة الرومانسية في مصر- ص105-106.

(2) أغاني الكوخ- ص130-134.

(3) انظر- عاطف جودة نصر- الرمز الشعري عند الصوفية- ص357 وما بعدها.

(4) انظر- فصل الرؤية الروحية- مبحث الذكر.

(5) موسيقا من السر- ص53 .

(6) انظر- فصل الرؤية الاجتماعية- مبحث المرأة - المنظور الوجداني.

(7) انظر- عاطف جودة نصر- الرمز الشعري عند الصوفية- ص162 وما بعدها.

(8) انظر فصل الرؤية الروحية مبحث التذكير الذكر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ظَمِئْتُ إِلَى اللَّهِ يَوْمًا.. فَلَمْ - أَجِدْ خَمْرَتِي غَيْرَ هَذَا الجَسَدْ
عَلَى ثَغْرِهِ آيَةٌ أَفْلَتَتْ - بِأَسْرَارِهَا مِنْ نَبِيِّ الأَبَدْ
عَلَى شَعْرِهِ عَالَمٌ فَوْقَهُ - وَعُودُ الْهَوَى مَبْهَمَاتُ الأَمَدْ
وَفِي جِفْنِهِ نَبَأٌ نَائِيَهْ - لِغَيْرِ الْهَوَى فِي دَمِي لَمْ يَرِدْ
وَفِي قَدِّهِ.. حَلَّ بَارِي الصِّبَا - صَلَاةٌ مُقَيَّدَةٌ فِي جَسَدْ...
تَبَارَكْتَ يَا رَبِّ هَذَا الجَمَالُ - طَرِيقٌ إِلَيْكَ انْتَهَى وَاتَّحَدْ[1]

4- الرمز التاريخي :

احتل جزء كبير من الرموز التراثية المتنوعة، مكانة مرموقة في شعره، حتى أن القارئ لا يجد أي عناء في ملاحظة استخدامه لها وتكمن قيمتهافي استغلال عناصر التاريخ من مواقف وأحداث وشخصيات،كرموز موضوعية للتعبير عن آماله في التجدد والتغيير والنهوض. ومن أهم المراحل التاريخية التي استقى منها رموزه التاريخية هي مرحلتي التاريخ القديم، والتاريخ الإسلامي.

أ- التاريخ القديم : نال تاريخ مصر القديم حظا في شعر الشاعر،على الرغم من قلة رموزه بالنسبة إلى رموز أخرى من غير هذه الفترة التاريخية،.وتمثلت هذه الرموز في معالم وإنجازات ظاهرة للعيان حتى اليوم، ومجسمة بكل آثارها كالأهرام التي تشهد على حضارة مصرية عريقة، فاعتبرها رمزا شاهدا على مجد مصر وهي تواجه واقعها الأليم أثناء الإحتلال:

دَرَجَتْ فِي السِّنِينِ مِنْ عَهْدِ خُوفُو - حُرَّةً مَاوَعَتْ لَدَيْهَا إِسَارَا
عَقَدَتْ تَاجَهَا عَلَى الشَّمْسِ كِبْرًا - أَنْ يُحَلَّى جَوَاهِرًا وَنُضَارَا
وَبَنَتْ عَرْشَهَا عَلَى مَفْرِقِ الأَهْـ - ـرَامِ زَهْوًا بِمَجْدِهَا وَافْتِخَارَا
وَحَرَى النِّيلُ سَاجِدًا بَيْنَ كَفَّيْـ - ـهَا جَلَالاً وَرَوْعَةً وَصَغَارَا[2]

كذلك أبو الهول، فهو رمز لثورة الإنسان المصري بعد أن اكتشف أبعاد قوته باستحضار رموز تلك الهياكل التاريخية:

أَبُو الْهَوْلِ فِينَا يَسُوقُ الزَّمَانَ - وَيَرْعَى اللَّيَالِي رَعْيَ الغَنَمْ
فَمَا الْهَوْلُ؟ مَا خَطْبُهُ إِنْ دَجَا - سِوَى هَاجِسٌ بِخُطَانَا أَلَمّْ؟[3]

كذلك تمثلت تلك الرموز في شخصيات دينية وسياسية وأدبية، حاول الشاعر أن ينمي الجانب الإيحائي الذي يخدم الصورة الشعرية كشخصيتي فرعون وخوفواللتين يرمز بهما دائما إلى الامتداد التاريخي لربط

---

(1) أين المفر- 108-109.

(2) هكذا أغني- ص100.

(3) نار وأصفاد- ص62.

الحاضر بالماضي، مثلما وهو يتأمل النيل ويشهد عظمته وعطاءه، يعود به خياله إلى عهده القديم، ومعرفة الإنسان المصري القديم سر كنهه الخالد :

حَيّاكَ قَلْبُ الوُجُـودِ – يَا فِتْنَةَ الْكَـــوْنْ
يَانِيلُ.. يَا ابْنَ الخُلُودِ – يَا خَمْرَ فِرْعَـــونْ
يَاقِصَّةً فِي الدِّيَـــارِ – تَـرْوِي حَدِيثَ الزَّمَنْ
تُلْقِي نَـشِيدَ الفَخَارِ – فِي سَمْعِ هَذَا الوَطَـنْ...
مِنْ عَهْدِ خُوفُو القَدِيمِ – وَأَنْتَ رَاعِـي الذِّمَـمْ
تَـجْرِي لِمِـصْرَ النَّعِيمَ – مِنْ عَـالِيَاتِ القِـمَمْ[1]

ولهول ما أدهشه من إعجاز التشييد في "السد العالي"، أشاع الحو المصري الفرعوني بخيوله وهياكله، ومعابده وكهانه وطقوسه ونواميسه، وذلك عن طريق استغلال الأسماء التاريخية ذات الدلالات الحية، ليعطي القصيدة أبعاد السحر والخرافة، وقدبرع الشاعر في تفجير الطاقات الإيحائية لهذه الرموز "كهان منف، خوفو، رمسيس". فأجراس السد أيقظت كهان قدماء المصريين من الزوال، وهو بلا شك إنجاز مدهش ومعجز مادام شدّ نظرة خوفو وأيقظ الراقدين مسرعين من معابدهم، وحنت خيول رمسيس إلى ساحة السد، وذلك في قصيدة "معجزة على النهر".

كُهَّانُ مَنْفٍ، عَلَى أَجْرَامِهِ انْتَبَهُوا
مِنَ الزَّوَالِ، وَذَابُوا قَبْلَ سَكْتَتِهِ
وَمَدَّ خُوفُو مِنَ النَّاوُوسِ نَظْرَتَهُ
وَعَادَ لِلأَبَدِ الغَافِي بِدَهْشَتِهِ
وَالرَّاقِدُونَ عَلَى إِعْجَازِهِمْ، هُرِعُوا
مِنَ المَعَابِدِ.. إِيمَاناً بِصَيْحَتِهِ
لَمَّوْا هَيَاكِلَهُمْ وَالخُلْدُ فِي يَدِهَا
وَبَدَّلُوا الدَّارَ. إِذْعَاناً لِصَيْحَتِهِ...
وَخَيْلُ رَمْسِيسَ مِنْ خَلْفِ البِلَى صَهَلَتْ
وَحَنَّ بِرْجَاسُهَا شَوْقاً لِسَاحَتِهِ.[2]

---

(1) صلاة ورفض– ص129-130.

(2) قاب قوسين– ص61-62.

وتلاحم كل من الرمز التاريخي والرمز الديني في هذه القصيدة،إذ جعل فراعنة مصر وقد اتحدوا مع سليمان عليه السلام وقدراته الخارقة(1)، متعاونين على بناء هذا السد، وبذلك حشد الشاعر كل براعات العصور لإقامته << فروعة التصوير-إذن- مستمدة من الحس التاريخي لديه. وعدم اقتصاره على الإشارة التاريخية أو مجرد الاقتباس منه، وقد يحاول استغلال بعض مصطلحاته ذات الدلالات الموحية بالإعجاز والخوارق التي لا يستطيع البشر القيام بها، ليرمز بها جميعا إلى أبعاد العظمة في التشّيد المعجز. بذلك استطاع أن يبعث الماضي في الحاضر، ويجعل الحاضر مستوعبا للماضي، فاختلط الحاضر بالزمن الماضي، فكان ذلك حياة جديدة للحقيقة القديمة.>>(2)

كما أشار إلى بعض عبادات الفراعنة، كعبادة العجل، إذ في أساطيرهم أن "هوروس" هو الإله الذي حلت روحه في العجل" آبيس".

وقد وظف الشاعر هذا الرمز -الذي لا نعتبره دينيا- في قصيدته " عاهل الريف "، وهو يصور معاناة الثور -رمز الفلاح- في زمن الإقطاع، فأشار إلى عهد الثورة القديم، منافيا عنه هذه العبادة المزعومة. وعلى الرغم من سلبية الرمز هنا، فإن الشاعر ذكره لينجرّ عنه الأثر الإيحابي وهو تصحيح العقائد :

"آبيس" أيّ سريرة بلّهاء فيـــي - عِطفَيْكَ قد أعيا الحِجا معقودُهـا
حَمَلَتْ مِنْ "هوروس" أقدمَ آيـــة - عَبَدت وقدس في حماك عهيدهـا
أذكى لها الكهان نار بخورهـــم - في "منف" يسطع في المعابد عودها
أرواح ظلال حبتك رشادهـــا - وجثت لديك على التراب وفودها
بذلتك تقديس النهى ولو أنـــه - للصخرة السماء ربع صلودهـــا
عبدتك أبله لا تعي يـاضلـــة - لو تستطيع ذرا هداك جحودها.(3)

وأورد أيضا شخصية شاعر من قدماء المصريين خلّد موقعه قادش بملحمة من الشعر القصصي، وهو "بنتور" ليجعله رمزا معاصرا، ليغني ويخلد أشعارا أخرى من أجل جمال وسحر طبيعة مصر:

أنا في الشّرق هالة لو رآها - فاقدُ اللّمح فجّر الأنوارا
أنطقتْ "بنتور" في ضمّته الدّهر، فغنّى وخلّد أشعـــارا(4)

كما عاد إلى تاريخ الحضارات القديمة،وهو يتأ... نداد الحاضرة، وتعددت مـوز أمجادها الحضارية عند الشاعر بدء من عهد بابل إلى عهدها الإسلامي ا... سنلاحظها فيما بعد عن حديثنا عم رموز التاريخ الإسلامي. ففي المقطع الأول من قصيدة بغداد، إلى حضارة بابل كرمز للذهول والإلهام والعشق:

---

(1) انظر- محور الرمز الديني.

(2) مصطفى السعدني- التصوير الديني في شعر محمود حسن إسماعيل- ص63.

(3) هكذا أغني ص229 230 .

(4) المصدر نفسه ص102.

لَوْ دَنْدَنَ الشُّعُورُ وَأَقْلَعَ الطَّرِيقْ
وَفَاتَنِي الْعُبُورُ لِبِرِّهَا الْعَمِيقْ
فَتَغْمُرُ الْعُصُورِ فِي نَايِهَا الْعَرِيقْ
تُدَوِّخُ الدُّهُورَ، وَتُسْكِرُ الرَّحِيقْ
وَتُذْهِلُ الْعِيدَانَ، لَوْ بَابِلَ تُرْجِي السِّحْرَ، مِنْ رَبَابِهَا
وَتَعْصِرُ الإِلْهَامَ، مِنْ كُلِّ شَجٍ، أَوْ عَاشِقٍ غَنَّى بِهَا.(1)

ومن الأسماء التاريخية أيضا "كسرى وقيصر"، اللذين يمثلان حضارة عريقة للفرس والروم،حيث اتخذ أيضا من إيوان" كسرى" رمزا لصرح حضاري تهاوي أمام مولود أتى ليغير سيرة العالم هو "محمد صلى الله عليه وسلم" وكشف بذلك عن الصراع الحضاري،بانتصار قيم الحق على الباطل، وقوانين السماء على الأرض:

قِيلَ: بُشْرَى السَّمَاءِ.. قَالَتْ مُحَمَّدْ
فَأَكَبَّتْ أَوْثَانُهُمْ وَهِيَ تُعْبَدْ
وَاسْتَجَارَتْ نِيرَانُهُمْ وَهِيَ تُخْمَدْ
وَتَهَاوَى إِيوَانُ كِسْرَى الْمُمَرَّدْ..(2)

كما كانت ثورة الإسلام قضاء على إمبراطورية الروم التي تجبرت في الأرض،فأتتها قوة من الغيب أشد وأقوى، وكان زعيمها "قيصر":

وَجَمْجَمَ قَيْصَرُ كَانَتْ ذُرَاهُ - عَلَى فُلْكِ النُّجُومِ مُخَيَّمَاتِ
تَجَبَّرَ وَاعْتَلَى.. فَعَلَتْهُ رِيحٌ - أَشَدُّ مِنَ الغُيُوبِ الْعَاتِيَاتْ(3)

ب- التاريخ الإسلامي :

كان للتاريخ الإسلامي أكبر الحظوظ في الاعتماد عليه، -لا لشيء- وإنما لأن الشاعر وجد في الإسلام مادة خصبة لتاريخ حقبة من القرون عاشتها الأمة العربية.

ورموز الشاعر من التاريخ الإسلامي هي أعلام وأحداث، يرجع أكثرها من الناحية الزمنية إلى عصر الإزدهار الحضاري الذي بدأ بعد انبعاث نور الإسلام. وحاول أن يجعل له امتدادا في العصر الحاضر، باحثا عن أي أثر مادي أو معنوي له انعكاس على حاضر الأمة الإسلامية جمعاء.

وقد كان موقف بعض الشعراء موقفا معاديا لهذا التراث، فكثيرا ما نجده منصرفا إلى تحطيمه في قصائدهم، وهذا التحطيم يؤدي إلى استعمال الرموز التراثية العربية استعمالا سلبيا، يحطم من خلاله ما يمكن أن تحمله تلك الرموز من معان مثالية، ثبتت في الذهن العربي قرونا عديدة. وكان تحطيمه موجها بشكل خاص إلى رموز الدين الإسلامي والشخصيات الإسلامية أو العربية البارزة" كعثمان - الحجاج - هارون الرشيد-

---

(1) لابد- ص46 .

(2) نار وأصفاد- ص15.

(3) المصدر نفسه - ص155.

الخلافة- الإمامة) اعتبرها أكثر من شاعر رمزا للتأخر الفكري والسياسي والحضاري، وللتقاليد البالية والعقلية العربية القديمة، حيث يسقط كل ما يشكو العرب منه في العصر الحديث من تأخر وانحطاط على تلك الشخصيات غافلا على أنها كانت في زمنها أقوى شخصيات العصر، وكانت الدولة أو الخلافة أقوى دول زمانها[1].

ولهؤلاء الشعراء أيضا مواقف إيجابية من بعض الشخصيات الإسلامية، ولكن هذه الشخصيات ممن خرجت في الأغلب على استعارات الحضارة العربية أوالخلافة أو السنة، وتمثل في الاتجاه الشعوبي أوالشيعي وغيرهما، وتبرز بينهما شخصيات مثل: بشار بن برد، أبو نواس، مهيار الديلمي، الحلاج..ويحاول الشعراء أن يجعلوا من أعلامها أو نماذجها ثوارا على الفكر التقليدي، يحملون راية التغيير في النظام الإسلامي[2].وتمثل الموقف الإيجابي أيضا مع الرموز غير الإسلامية بحيث تحتل رموز الديانة المسيحية، وبعض أساطير الإغريق المكان الرئيسي في محاور شعرهم.[3]

بينما نجد شعراء آخرين حرصوا على البحث عن شخصيات عربية إسلامية، وجدوا فيها جانبا يمس حياتنا الحاضرة، ومنحوا كثيرا من الشخصيات العربية الإسلامية القديمة أبعادا إيجابية ومفهومات حية جديدة مستقطين بعضها على حاضرنا ومخترقين ببعضها حجب التاريخ ليكشفوا عن جوانب جديدة فيها.[4]

ومنهم محمود حسن إسماعيل الذي استمد رموزه الوضيئة من التاريخ الإسلامي، حيث تجنب الأحداث والروايات التي تنحو نحو التحزب والفتنة والخلافات المذهبية، والنعرات العصبية حتى لا يثير بلبلة فكرية في شعره تمنعه من أداء غرضه المرجو من اقتباس تلك الرموز التاريخية،وماحوته من أسماء لأبطال وعلماء وخلفاء... ارتبطت بمواقف إنسانية ووقائع تاريخية، وظفها لأغراض محددة،وهو يستعرض عدة قضايا إنسانية بما تتوفر لهذه الرموز من غنى وتنوع دلالي ونماذج إنسانية نادرة.حتى بذلك قدراته على إحداث ربط قوي بين عناصر التراث الإيجابية وتطلعات الإنسان المسلم المعاصر. وكانت تلك الرموز لوحات فنية وصور مضيئة عن طريق الكشف الباطني والرؤية الداخلية للنص الشعري. إذ لم يكن إيراد الأحداث التاريخية بمعناها التقريري المباشر بل صارت تسبح في زمن شعري آخر ممثلا في واقع مؤلم يعيشه العالم الإسلامي في مشرقه ومغربه على السواء، ونجح في توحيد رموز الحاضر بالماضي.

ففي رؤيته السياسية والتغييرية ومتطلبات الحرية والنهوض[5]، كانت الرموز التاريخية زاخرة في قصائدتصور الواقع الأليم،وتتطلع نحو مستقبل مشرق لكن بشروط العودة إلى الأصول والجذور المتمثلة في مبادئ الدين

---

(1) أحمد بسام ساعي- حركة الشعر الحديث في سوريا- ص338.

(2) انظر- المرجع نفسه - ص340 .

(3) انظر- المرجع نفسه- ص348 .

(4) انظر- المرجع نفسه- ص341 .

(5) انظر- فصل الرؤية السياسية- المباحث الآتية: قضايا وطنية(مصر)- قضايا الأمة العربية الإسلامية- الوحدة .

الإسلامي وعناصر التاريخ التي حركت تلك الأمة وجعلتها تقود الأرض، وتصنع حضارة فكثرت في قصائد الحرية والوحدة، رموز المعارك والمواقع والفتوحات والأماكن والأعلام البطولية الخالدة مثل قصيدة "عدو الاستعباد"(1) التي امتلأت بأصداء التاريخ وهو يعيد صورة الماضي المتحرر، المتوحد بهذه الرموز (القادسية- الضباء- الصهيل- الخيل- البيارق- الراية- الشهباء- بني حمدان- الخليج- قصر الحمراء- بني مر- عين جالوت- قرطبة- صلاح الدين)، وقصيدة " المغرب الثائر"(2)(الخيمة- طارق- أرض السيّن- الحمراء)، وقصيدة "طير من الشرق"(3)، (الرايات- الخيام- القوافل- الحمراء- المغول- حطين- الوليد- البيارق)، وقصيدة "راية الوحدة" (4)(الراية- ابن الوليد- صلاح الدين- التتار- المغول)، وقصيدة "صوت المعركة"(5)(الطبول- الخيول- البيارق- طارق- عمورية- حطين)، وكذلك قصيدة "جئت أصلي"(6)(عمر- صلاح- عين جالوت- القادسية).

من خلال هذه النماذج نلاحظ الرموز التاريخية الواردة والمتكررة والتي لها دلالات ثرية عبرت بصدق عن رؤية الشاعر لواقعه وقضاياه، فالراية أو الرايات رمز تاريخي إسلامي للتعبير عن الفتوحات والمعارك كمعركة حطين والقادسية وعين جالوت وعمورية. فهذه المعارك المظفرة استلهمها للتعبير عن صراع أمته مع الأعداء على مدى العصور. وكذلك القوافل والخيام والسيوف والبيارق والخيول... وكذلك تلك الشخصيات التاريخية الإسلامية التي ارتبطت بتلك الأحداث -أو هي التي قامت بها- كعمر بن الخطاب الذي فتح فلسطين .وصلاح الدين الأيوبي الذي فتحها مرة أخرى لما حررها من الصليبيين. وكان رمز صلاح الدين متكررا وهو يبحث عن باطل معاصر ليحرر فلسطين. وخالد بن الوليد الذي يشهد له التاريخ بقيادة أشهر المعارك والفتوحات في سبيل إعلاء كلمة الله. وطارق بن زياد الذي أورده الشاعر وهو يتحدث عن ثورات المغرب العربي ليكون رمزا لبعث الأمل والتلاحم مع أجزاء الأمة الإسلامية. أما قصر الحمراء وقرطبة،فهما رمزان للحضارة والوحدة الإسلاميتين التي امتدت من الخليج إلى الأندلس. وأما التتار والمغول فقد أوردهما للموازنة بين الغزو التتاري والغزو الاستعماري الحاضر، وكيف واجه المسلمون الغزو القديم ليواجهوا الغزو الحديث. وحاول الشاعرفيكل تلك النماذج أن يربط الماضي بالحاضر، ويقابل بين ماضي مضيء، الذي اقترنت

---

(1) نار وأصفاد- ص159.

(2) المصدر نفسه - ص86.

(3) المصدر نفسه- ص154.

(4) المصدر نفسه- ص147.

(5) صلاة ورفض-ص80-81.

(6) المصدر نفسه-ص 109.

فيه الأقوال بالأفعال الشجاعة، وتمعاني البطولة والفداء، وبين حاضر ضعيف وواقع مهين يقوم على الشعارات الجوفاء الزائفة.

أما قصائده التي يدعو فيها إلى النهوض الحضاري[1] فقد اختارها رموزا تاريخية لعصور المجد والحضارة الزاهرة في شتى الفنون والآداب والمعارف والانتصارات.مثل قصيدة "بغداد" [2]التي استلهم فوق تراب العراق مجدها الزاهر، ولم يعن بالتسلسل التاريخي، وتتابع الشخصيات والأحداث، ولكن ركز على ماله من قوة رامزة لموضوعه. ومن هذه الرموز: (إسحاق- البحتري- السين-الرشيد- المأمون- هولاكو- المنصور)، فإسحاق الموصلي لا يرتبط بغير العود والأنغام والبحتري وسينيته التي مثلت تألق الإبداع الشعري والبراعة الفنية وهارون الرشيد وازدهار الحياة في عهده، وابنه المأمون والعصر الذهبي للفكر والمعرفة والمنصور وما يتعلق به من مجد لدوره في الرقي والازدهار.واستلهم في قصيدة "بنت المعز"[3] رموزا تاريخية متعلقة بعصور الازدهار الروحي والمادي لمصر (المعز- جوهر- عمرو- القاهرة)، ويرمز بذلك إلى مرحلتها الأولى المشرقة برايات عمرو بن العاص وهو الذي دخلها باسم الإسلام وإلى مرحلة دولة الفاطميين ومؤسسها المعز لدين الله الفاطمي،وقائده جوهر الصقلي وإلى القاهرة التي كان لاسمها دافع تاريخي وهو قهرها للأعداء، فكانت القاهرة.كذلك قصيدة "شعلة الذات" [4] التي كانت فيها شخصية إقبال رمزا محوريا للتعبير عن التغيير لمساهمته الجبارة في تغيير واقع الأمة الإسلامية الحاضر ودعوته إلى الإسلام إلى جانب رموز أخرى (أندلس- الداخل- قرطبة- طارق- ابن عباد- الحمراء) التي رمز بها لتجسيد واقع المسلمين اليوم، وأمله في استرداد الأندلس وعودة بعض الشخصيات كطارق بن زياد، وعبد الرحمان الداخل، والمعتمد بن عباد، الذين لهم صلة وثيقة بهذا الجزء من الأمة الإسلامية كفاتحين وشعراء ،كالمعتمد الذي كان حاكما وشاعرا. ويتلاحم في بعض القصائد كل من الرمز الديني والرمز التاريخي،ويمنحان بعدا أكثر عمقا وإيحاءا مثل قصيدة "صوت المعركة"، "جئت أصلي"، "بغداد"، "شعلة الذات". فالأولى تضمنت رمز جبريل ومحمد والوحي والغار والعنكبوت وبدر، وكذلك الطبول والخيول والبيارق وعمورية وحطين وطارق... ليكون الجهاد المعاصر جهادا إسلاميا. وفي الثانية تضمنت رمز عمر وصلاح وعين جالوت والقادسية، ليكون أمل الصلاة في المسجد الأقصى له معنى روحي مستمد من الغيب والواقع الإسلامي. وفي الثالثة أرجع الحضارة إلى أصولها، إذ لم ينس أن يباركها بمسحة من القرآن الكريم. وفي الرابعة أن التغيير الحاضر للواقع الإسلامي لابد أن يكون تغييرا إسلاميا قرآنيا.

---

(1) انظر- فصل الرؤية السياسية- مبحث النهضة .

(2) لابد- ص49-53.

(3) انظر: صلاة ورفض- ص115 .

(4) انظر- لابد- ص140.

5 الـرمز الطـبيعي أو الكـوني :

إذا كانت الطبيعة مصدرا استمد منه الشاعر بعض أشكاله الرمزية، معتمدا على خاصيتي التجسيد والتجسيم، فإنها في الحقيقة لاتعدو منبعا واحدا من منابع عدة أتكأ عليها في هذا الصدد. ذلك لأن الطبيعة بالنسبة إليه أكثر رحابة وعمقا. ولهذا اتخذ كثيرا من مظاهرها رموزا للحياة الذاتية والموضوعية فكان ما يسمى بالرمز الطبيعي حيث يتم به إسقاط الطبيعة على الواقع الذاتي والموضوعي، ويصل الإسقاط عند بعض الشعراء إلى مرتبة المعادل الموضوعي كما يسميه "إيليوت" إذ ينفعل الشاعر -في رأيه- بموضوعه ويتعاطف معه وعليه ألا يعبر عن انفعاله بل عليه أن يوجد لهذا الانفعال معادلا موضوعيا يساويه ويوازيه ويخدده[1]. ومن هنا كان تفسير الرمز من الوجهة النفسية يعتمد في ظهوره على الحدس من جهة، والإسقاط من جهة أخرى، كما قرر "يانج" فبالحدس يصل الفنان إلى الوتر المشترك في الإنسانية، وبالإسقاط يخدد مشهده ويخرجه من نفسه واضعا إياه في شيء خارجي هو الرمز.[2]

إذا كانت عملية تجسيد عناصر الطبيعة خضعت للإسقاط[3]، فإنها بذلك تحولت إلى رمز. لأن كل ما تجاوبت معه بصيرة الشاعر من عناصر الكون صالح لأن يكون رمزا << شريطة أن تنصهر الذات بالموضوع في ضرب من الكشف، وأن تسقط عليه من مشاعرها أو أحاسيسها وتخلطه بها، بحيث تصبح الذات موضوعية، ويصبح الموضوع ذاتيا.>>[4].

لقد كان الرمز الطبيعي معادلا رمزيا موضوعيا للإنسان وقضاياه، ومن خلال استقراء كل رؤاه الشعرية، نتبين مدى نجاح تجربة البناء الرمزي للصور، التي لم تفقد قدرتها على الإيحاء والرمز، الارتباط الذاتي المكثف مع قوى الطبيعة يجعل الطبيعة لاتظهر في القصيدة أبدا لذاتها، وإنما تصبح جزءا من صورة عامة كبيرة لحقيقة عاطفية أو أخلاقية.[5]

1- انكشف أمام الشاعر رموز الطبيعة لتوصله إلى رؤية تستبطن النفس والوجود معا، وتسعى إلى كشف السر المحجوب في ظلام الذات الإنسانية، فوراء أحزان الطبيعة وأفراحها وحيرتها وعزلتها، تتحقق للشاعر وحدته وعزلته الروحية التي لم تكن طريقا للضياع والغربة، بل طريقا للصفاء والرؤيا الأعمق.

أ-ففي رؤيته الكونية كانت تلك الرموز عند حديثه عن عبادة الكون معادلا رمزيا عبر عن إيمانه وروحه الإسلامية مثلما في قصيدته "المستحيرة" حيث خلع على هذه الرموز (الأزاهير، العبير، الأطيار، النهر ...)

---

(1) أحمد بسام ساعي- حركة الشعر الحديث في سوريا- ص371 .

(2) انظر- مصطفى سويف- الأسس النفسية للإبداع- ص206-207 .

(3) انظر- محور التجسيد .

(4) محمد فتوح أحمد- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر- ص309 .

(5) إليزابيث درو- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه- ص228 .

روح الإيمان والقنوت والطهر والمتاب. فاكتسبت أبعاد الصفاء والطهارة والورع،وتلاءمت الحالة التي عبر عنها وهي حالة لاتستولي إلا على الإنسان المؤمن.(1). كما عبر عن تأمله في الفناء برموز الطبيعة، فكان الربيع رمزا للحياة والخصب والجمال والأمل. والخريف رمزا موازيا للموت والذبول والشيخوخة. وكلاهما رمز للبعث والنشور مثلما في قصيدته على باب الربيع.(2)

ب- أما في رؤيته الروحية فكان الرمز الطبيعي معادلا للكشف عن حيرته وشوقه نحو الغيب والحقيقة، والإيمان والحرية، وإدراك كنه الحياة. مثلما ورد في قصيدة "أغاني الرق"، حيث كان الموج الريح الليل العطر رموزا لتلك الحيرة وذلك الشوق وكذلك قصيدة "العزلة" حيث كان الروض الخميل النبع رموزا للحالة النفسية والشعورية التي يعيشها الشاعر في لحظات عزلته وتأمله.(3) كما تدرج من خلالها تاركا لواقع إلى عالم من التجريد انخلع فيها على نفسه،ليعادل بها حالة الصفاء التي تنتابه إبان التوبة وغفران الله له، كما في قصيدته "العودة إلى الله"،حيث استغل هذه الرموز (البستان، الربيع، الرحيق، العبير، الثمار، الغصون، الضفاف، الرماد، الحصاد) للصعود من خلالها إلى عالم غير حسي حيث النور الإلهي.(4)

وكان تأمله في الحياة والموت معتمدا على رموز طبيعية كقصيدة "دودة القبر"،التي رمز بها للاعتبار من حتمية الموت بالتواضع وعدم التكبر. وكذلك قصيدة "التراب"،حيث جعل التراب رمزا يشير إلى مفهومه في السياق الشعري. إذ تغير شكله الخارجي العادي بنسوه داخل تداعيات القصيدة،لأنه يصبح ليس ذلك التراب المألوف الذي يبدو جمادا،لكنه يملك الحس والحركة والقدرة، إنه يحمل في طياته الحياة. وهو في الوقت ذاته يحمل الموت فهو البداية والنهاية، المسير والتوقف، الحياة والموت.(5)

ج- في رؤيته النبوية عبرت رموز الطبيعة عن حفاوتها وفرحتها بنزول الوحي على سيد البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك رعايتها له وهو يخطو أول خطوات الدعوة الإسلامية.مثلما في "سجدة في طريق النور"، "النور الأعظم"، "النور المهاجر".(6)

د-أما في رؤيته الاجتماعية فقد استثمر رموز الطبيعة للتعبير عن معاناة الفلاح في مجتمع يفتقد العدالة الاجتماعية مثل "قصيدتي"، "عاهل الريف"، "القيثارة الحزينة"، حيث أبرز رمز الثور والساقية الشعور الداخلي للإنسان المتألم المغلوب على أمره(7). وفي تصويره لأخلاقيات الناس ونقده لها،اختار من رموز الطبيعة

---

(1) انظر- فصل الرؤية الكونية- مبحث عبادة الكون.

(2) انظر- الفصل نفسه- مبحث فناء الكون.

(3) انظر- فصل الرؤية الروحية- التوطئة .

(4) انظر- الفصل نفسه- مبحث التذكير.

(5) انظر- الفصل نفسه- مبحث التذكير.

(6) انظر- فصل الرؤية النبوية- مبحث البعثة -الوحي، الهجرة.

(7) انظر- فصل الرؤية الاجتماعية- مبحث العدالة الاجتماعية-تصوير معاناة الفلاح.

الصحراء كرمز للموجه الإنساني،وذلك في قصيدته "صحراء العجائب"، وجعل رموز بعض الحيوانات(كالأفاعي والذئاب والثعالب والثعابين للتعبير عن الكذب والنفاق والرياء وغيرهما)[1]

كذلك وظفها في رؤيته الوجدانية أثناء تصوير علاقته مع المرأة منها مارأيناه في قصيدة "دنيا أدمع ومآتم"[4]، حيث يصور إحساسه بالهناء والسعادة إثر التقائه بحبيبته، لكن هذا الإحساس لم يدم طويلا فسرعان مابدده الفراق، فتعكر الصفو وانطفأ الأمل، وحل الجفاف. هذه بداية الموقف حيث ينقلنا مباشرة غلى صورة موازية مستمدة عناصرها من الطبيعة لتكون تجسيدا رمزا لموقفه الحزين. فالحب جنة أضحت مقفرة، جفت أعوادها، وهجر صادحها عش الحمائم فيها، وتحولت أنسامها الرقيقة إلى رياح سموم عاتية، وحين سأل الربى الخضراء عن بلبلها الذي كان يغني في أرجائها، أطرقت الأغصان حزنا، ثم أجابت بأنه قد اتخذ مجلسه هناك على الصخور الصماء بعيدا عن ظلالها الوارفة،ملتهب الوجدان، ممزق الروح. وبهذا أسقط شعوره بالحزين عليها فبدت تلك الرموز حزينة.[2]

هـ-في رؤيته السياسية استحوذت رموز الطبيعة على كثير من المواقف فشعوره بالفرح في قصيدته "على مذبح الحرية" أسقطه على مظاهر الكون، فصور شعورها بالشهيد واحتفالها به وعودة الحياة إلى القبور.[3]

وشعور آخر بالحزن لضياع فلسطين أسقطه على الأرض برياضها وطيورها وزهورها وعطورها، فبدت فيها مظاهر الموت، والذبول، والحزن، والبكاء، وذلك في قصيدته "موسيقا من الأرض"[4]. كذلك هذا الشعور بالموت والذبول والحزن أسقطه على رموز الطبيعة وهو يتأمل واقع الحروب باحثا عن أفق للأمن والسلام. وذلك في قصيدته "الغصن اليتيم" و" السلام الذي أعرف"[5].

من خلال بعض تلك الرموز تأكد أن الشاعر لا يكتفي بالوصف الخارجي،وإنما تتعمق رؤيته فتمتزج بالرؤية الفلسفية وتتحول كائنات الطبيعة النباتية والحيوانية والجامدة إلى شخوص رمزية فينفذ الشاعر من خلالها إلى فلسفة اجتماعية واعية، وإلى البحث في سر الوجود، وتفسير الكون من خلال الطبيعة.

2- من خلال تقسيمنا للمعجم الشعري عند محمود حسن إسماعيل، كان المعجم الكوني أو الطبيعي[6] أقوى وأثرى من المعجم الديني والتراثي. حيث لاحظنا استخدامه كثير من ألفاظ الطبيعة الجامدة والحية

---

(1) انظر- فصل الرؤية الإجتماعية- مبحث الأخلاق .

(2) انظر- الفصل نفسه- مبحث المرأة - المنظور الوجداني.

(3) انظر- فصل الرؤية السياسية- مبحث قضايا وطنية- الشهيد.

(4) انظر- الفصل نفسه- محور قضية فلسطين- مكانة فلسطين الدينية .

(5) انظر- الفصل نفسه- مبحث السلام.

(6) انظر- مبحث المعجم الشعري(المعجم الكوني).

تختلف مشتقاتها ودلالاتها.

ويمكننا هنا أن نبحث عن الدلالات الرمزية لهذه الألفاظ الطبيعية أو الكونية. بعد أن << تكتسب الكلمة على قلم الشاعر أبعادها الجديدة، وتصبح قادرة على الإيحاء بالحالات المعنوية التجريدية. فتفقد محدوديتها في أداء المعاني المتفق عليها.>>(1) لأن المعنى القاموسي والمعنى الإصطلاحي غير قادرين وحدهما على الأداء الشعري للفظة في القصيدة، لأنها في القصيدة تحيد عن معناها العادي، << لأنه إذا كان الشعر تجاوزا للظواهر ومواجهة للحقيقة الباطنة في شيء ما،أو في العالم كله. فإن على اللغة أن تحيد عن معناها العادي، ذلك لأن المعنى الذي تتخذه عادة لا يقود إلا إلى رؤى أليفة مشتركة.>>(2) وتأخذ الصورة الشعرية أبعادا رمزية بعد أن تتكرر هذه الألفاظ من خلال قصائد الشاعر، وتصبح رمزا شعريا يحمل دلالات رمزية تحتاج إلى تعمق وتتبع من خلال السياق العام للدواوين،لجمع هذه الرموز التي أصبحت جزءا لتشكيل رؤيته الجمالية. لا نستطيع أن نتبع أو نحصي كل الدلالات الرمزية لتلك الألفاظ التي أشرنا إليها سابقا، لكن يمكننا أن نختار بعض النماذج التي تخدم غرضنا من البحث.

أ- فالنور رمز ثري أعطى في شعره عدة دلالات وإيحاءات، تختلف باختلاف سياقاته الشعرية. فكل من يطالع أشعار محمود حسن إسماعيل يلاحظ سمة واضحة في كل أشعاره وهي الإشراق والأمل، فقصائده تفيض بالنور وتبعث على الأمل حتى لقب بشاعر النور والأمل(3)، حيث يطالعنا النور في كل وجه من صفحات ديوان قاب قوسين بخاصة << فأينما سرت في قراءة هذا الديوان رأيت النور يملأ فجاج الأرض، ومسالك السماء. بل رأيت نورا يملأ كل كوة في نفسك، ويفيض عليها بإشراق جديد.>>(4).

ومنحت ظاهرة النور في شعره مذهبا إشراقيا، أكد بعده الإسلامي الدكتور عبده بدوي. إذ يرى أن فكرة النور تتصل بفرضية التجريد في الحضارة،كما تتصل بمرتكز هام من مرتكزات المدرسة الانطباعية التي تعمل على تفتيت العالم بحيث يتحول إلى ضوء ولون. وتتصل بما يسمى "الشعر الميتافيزيقي" الذي يعتمد فيما يعتمد على التصارع بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد، وإلى الرغبة العميقة في الحرية والإنطلاق، والخشية من الموت والعقاب، وتهويل فكرة الشر للوصول إلى عالم مليء بالنور والخير. ومن خلال الإشارة إلى أن الحضارة الإسلامية قد ركزت على الضوء أكثر مما ركزت على اللون، ومن ثم كان لجوء الفنان المسلم إلى الضوء

---

(1) مصطفى السعدني- التصوير الفني في شعر محمود إسماعيل- ص145.

(2) أدونيس (علي أحمد سعيد)- مقدمة الشعر العربي- دار العودة- بيروت- ص127-128.

(3) انظر- علي غريب بهيج- عنوان المقال- محمود حسن إسماعيل،شاعر النور والأمل- مجلة الجديد- ع130-1977- ص22.

(4) محمد عبد الغني حسن- قاب قوسين- مجلة الكتاب العربي- ع19-(1385هـ- 1965م)-مج4- ص21 .

ووقوفه عنده وكانت طريقة رسمه بما يسمى التظليل،أي التي تكون بالظل والنور. وكان إبداعه عن طريق التحريد كقصر الحمراء مثلا، وكان تركيزه على الزخرفة باعتبارها حركة دائرية في شوق أو متدفعة في إصرار نحو المطلق من خلال وحدات عذبة من الضوء الملون وغير الملون. وصل إلى أن كثيرا من القصائد التي نرى فيها التظليل والتوريق، وما يمكن أن يسمى بقصور الحمراء في الشعر العربي، ولعله يجيء في مقدمتها في العصر الحديث شعر محمود حسن إسماعيل، الذي اتخذ طابع اللوحات الجدارية التي يسطع عليها النور من كل ناحية، والتي تتداخل وتختلط لتقول شيئا لم يقل من قبل. لأنه سبح في عالم النور سباحة جديدة، فقد كان يحق غارقا في الضياء المقدس، لأنه لا يرى إلا من خلال شلالات من الضياء تفيض من داخله وحوله. وهو بدونه يبدو معتما وشحيحا وغير قادر على العطاء، وحين نتحدث عن النور عنده لابد أن يمر إلى الذهن ماقاله "ألكسندر إليوت" من أن إحساس الفنان بالنور هو في الصلب من إبداعه،وأن أي تحول أسلوبي عام في تصوير الضوء لابد أن يعكس تحولا في الحضارة كلها[1].

وبعدها حاول عبده بدوي أن يتتبع بعض دلالات هذا النور في معظم دواوينه الشعرية لتتضح قصة الشاعر مع النور، ويظهر في النهاية أن البطل الحقيقي في شعره هو النور. لكننا سنتخذ منحى آخرا في تتبع هذه الدلالات مع الاستفادة من منهجه الإحصائي[2]، وكذلك من منهج بعض الدارسين غيره[3]. فالنور فائض على الكون، مشع في كل ماهو موجود، مصدره هو الله خالق كل شيء في ضوء عبادة البشر قديما، تتضح طبيعة النور المعبود بعد أن خلع عليه العابدون في عهود الوثنية صفات الألوهية. لكن هذا النور مقيدة مصادره بمقدرات ثابتة، ومرتبط ظهوره بالليل والنهار، فهو نور ناقص محتاج إلى الكمال الإلهي، وأن عبادته في صورة الشمس أو القمر أو النجوم،ليست إلا عبادة لقوة وهمية وتقديس للقيم المتعلقة بالخوف من شر هذه الآلهة ولعنتها في العهود القديمة، فهو في الحقيقة لا يزيد عن كونه عبدا هو الآخر:

تَعْبُدُ النُورَ وَهُوَ عَبْدُ الحَيَاهْ
عَبَدَ مَنْ بَثَّهُ بِتِلْكَ الفَلَاهْ[4]

فالله هو النور الذي تتولد عنه كل ذرة في الكون وفي الحياة، فهو نور السموات والأرض:

عَلَى الأَرْضِ نُورٌ، وَفِي الأُفْقِ نُورْ
وَفِي كُلِّ قَلْبٍ شُعَاعٌ يَدُورْ[5]

---

(1) عبده بدوي- مذهب الإشراق في شعر محمود حسن إسماعيل- مجلة الشعر- ع7- 1977- مج2- ص69-70

(2) انظر- المرجع نفسه- ص70-71.

(3) التصوير الشعري في شعر محمود حسن إسماعيل- مصطفى السعدني- ص169-175، كذلك صابر عبد الدايم- محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة- ص274-275.

(4) نار وأصفاد- ص14.

(5) صوت من الله- ص118.

يهتدي إليه الشاعر في كل هامد وحي في الأرض والسماء، وفي كل قيم الحياة والكون. فهو الحب والظل والعطر والطهر والصفو، والخفق والعهد، هو النور في الأخير الذي يهتدي إليه الشاعر ليتراءى في كل شيء بعد أن يتعالى سبحانه عن الرؤية والسمع :

هُوَ النُّورُ فِي كُلِّ فَجٍ يَسِيرْ
وَيَمْحُو الدُّجَى مِنْهُ خَفَاءَ الصُّدُورْ...
إِلَهِي وَفِي كُلِّ شَيْءٍ رَأَيْتُكْ
إِلَهِي رَأَيْتُكَ... إِلَهِي سَمِعْتُكْ
تَعَالَيْتَ لَمْ يَبْدُ شَيْءٌ لِعَيْنِي
تَعَالَيْتَ لَمْ يَشْدُو صَوْتٌ بِأُذْنِي
وَلَكِنَّ نُورًا بِقَلْبِي يَطِلُّ
وَمِنْ طَيْفِهِ كُلُّ نُورٍ يَهِلُّ.(1)

إن التوحيد يرفض منطق الجاهلية والوثنية، لأن ذلك لا تقره الحاسة الفطرية لدى الإنسان. ولهذا فالنور رمز الحيوية والتغيير والقدرة على إحلال النور محل الظلام، وإكساب الحياة صفاءها ويكون هو الحل الحتمي للوجود الجاهلي والوثني:

سَيَمُرُّ عَلَيْكُمْ فِي الفَجْرِ
شَيْءٌ يَتَكَلَّمُ كَالْجَمْرِ...
وَيَفُضُّ مِنَ النُّورِ خَزَائِنْ(2).

ولعله أول من استوعب الهداية كاملة وحملها للبشر، ومبلغا سماويا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والذي رمز إليه بالنور في قصيدتين هما "النور الأعظم"، و"النور المهاجر"، إذ يحمل النور -رمز محمد- رسالة إلى الأرض عن طريق الوحي والدعوة:

يَا أَوَّلَ نُورٍ سَكَبَ اللهُ النُّورَ الأَعْظَمَ مِنْ شَفَتَيْهْ
يَا أَوَّلَ نُورْ
كُلُّ النُّورِ تَأَلَّقَ مِنْهُ، وَجَابَ الْكَوْنَ عَلَى كَفَّيْهِ
يَا أَوَّلَ نُورْ.(3)

---

(1) نهر الحقيقة- ص94-95 .

(2) قاب قوسين- ص147.

(3) نهر الحقيقة- ص190.

والنور أتي للبشرية بنور لا ينطفئ أبدا يرمز به إلى كتاب الله ، القرآن الكريم:

أَنْزَلَ الفُرْقَـانَ نُورًا عَـلَىَ - نُـورٍ مِنَ الرَّحْمَـانِ مُخْتَارُ.(1)

وببعثة النبي صلى الله عليه سلم بالكتاب العزيز، قامت الثـورة على الجاهليـة ببعديهـا الإنسـاني والعقـدي. واكتسب صفة الشمول للإنسانية جمعاء،لأنها تثور في وجه كل ماهو فاسد وغير خلقي وإنساني، فرمـز لثـورة الإسلام،أو الإسلام في حد ذاته كدين ثابت لكل زمان ومكان بالنور :

أَوْرَقَ النُّورُ وَشَبَّتْ نَارُهُ

تُضْرِمُ التَّغْيِيرَ فِي أَعْتَى الجُذُوْرْ(2)

ويستمر الشاعر في رحلته الروحية للبحث عن رموز أخرى للنور، فالنور عنده هو زاد الرحلة وحركة السير والوسيلة والغاية في الحياة:

زَادُكِ النُّورُ وَفِي دَرْبِكِ يَنْبُوعُ الشُّعَاعْ

فَانْفُذِي فَالسِّرُ إِنْ بِشْتِ عَلَى قَيْدِ ذِرَاعْ(3).

ثم إنه سر بناء الحياة والأمل والأمان على الرغم من المخاطر والخطايا، فالنور هو رمز الحياة المطمئنة الآمنة :

لَيْسَ فِيهِ قَابِعٌ فِي ذَاتِهِ يَعْبُدُ ذَاتَهُ

لاَ يُحِبُّ النُّورَ إِلاَّ مَنْ سَقَى النُّورَ حَيَاتَهُ(4).

فإذا كان النور هو الحياة، فهو أيضا رمز للهدى، الـذي بـه تمضـي الحيـاة، ويكـون للنفـس البشـرية معنـى ووجودا :

اتْبَعِينِي.. فَمَعِي الفَخْرُ الذِي أَحْيَا رُفَاتِكْ

وَمَعِي النُّورُ، انْطِلاَقٌ وَمَضِيٌّ لِحَيَاتِكْ(5).

والنور أيضا هو الإيمان الذي يملأ الذات الإنسانيةفي كل لحظاتها وتسابيحها :

لَيْسَ لِلإِيمَانِ أَسْوَارٌ وَأَصْفَادٌ بِذَاتِكْ

لاَ وَلاَ فِيهِ مَكَانٌ وَزَمَانٌ لِحَيَاتِكْ

---

(1) التائهون- ص36 .

(2) قاب قوسين- ص4 .

(3) المصدر نفسه- ص10 .

(4) المصدر نفسه- ص29 .

(5) المصدر نفسه- ص17 .

هُوَ كُلُّ النُّورِ.. أَنَّى ذُقْتَهُ فِي سَبَحَاتِكْ(1).

وهو في موطن آخر اليقين الذي يناقض الشك:

فَأَتَاهَا مِنْ حَالِكِ التِّيهِ يَخْشَعُ
هُدَأَةٌ.. وَانْطِلَاقَةٌ
وَإِذَا النُّورُ عَلَى الدَّرْبِ
يَسْتَهِلُّ، وَيَسْطَعُ(2)

والنور هو العلم والمعرفة الذي يحاول البعض أن يسدوا طريقه ليظل الجاهل في ظلمة جهله:

عَنْ طَرِيقِ النُّورِ سَدُّوا وَجْهَهُ
بِدُجَى كَالزَّاخِرِ المُرْتَطِمِ..
أَلِفِي كَالْبَاءِ وَهْمٌ.. يَالَهَا
ظُلْمَةُ الجَاهِلِ، أَمْ الظَّلَمِ(3).

ونشهد الشاعر في قمة النشوة الروحية وهو يسبح في نهر هذه الحقيقة الكبرى لمعاني الكون والحياة والله، فيرمز للحقيقة بالنور:

وَجُودِي حَقِيقَة
وَذَاتِي حَقِيقَةْ
وَأَنِّي عَلَى الأَرْضِ طَيْرٌ يُغَنِّي الحَقِيقَةْ
وَنُورُ الحَقِيقَةِ سِرُّ الحَيَاةِ وَالأَمَلْ(4).

ويظل النور مع الشاعر بدلالاته الرمزية،وهو يخوض غمار واقعه الوجداني والاجتماعي والسياسي. فالنور هو الجمال والحب الذي يشعر به ويتأمله في المرأة الملهمة :

فَاتِنَتِي سِرَّ الهُدَى سَابِحُ
فِي نُورِ عَيْنَيْكِ.. فَلَا تَسْأَلِي...(5)

ويقول أيضا :

هِيَ النُّورُ... أَوْ فِي النُّورِ مِنْهَا - هِيَ السِّرُّ يَضْوِي فِي غُيُوبِ الطَّلَاسِمِ(6)

---

(1) موسيقا من السمر- ص17.

(2) قاب قوسين- ص242.

(3) المصدر نفسه- ص220-221.

(4) نهر الحقيقة- ص12.

(5) قاب قوسين- ص162.

(6) هكذا أغني- ص24.

والنور هو الربيع الذي يغزو كل دروب الحياة بالنور والعطر، والخصب والنماء، والحركة في النفوس:

غَزَا النُّورُ كُلَّ دُرُوبِ الحَيَاةْ
فَهَيَّا نُوَدِّعُ أَوْهَامَنَا.(1)

والنور هو رمز للبعث واستيقاظ كل هامد للثورة والزحف نحو الحرية :

مَعَنَا يَافَجْرُ.. وَازْحَفْ بِصَبَاحِ الثَّائِرِينَا
وَانْشُرِ البَعْثَ، وَفَجِّرْ نُورَهُ لِلزَّاحِفِينَا.(2)

وهو رمز للثورة التي تدب في كل شيء،لتخلع روحها الجديدة على الحياة بالكرامة والصفاء والسلام، وتتفجر بالنور والنار والرحيق:

وَمِنَ النَّارِ وَالبُرُوقِ
وَوَهَجِ البَعْثِ.. لِمَاضِ عَزْمِهِ وَسُرَاهْ
وَمِنَ النُّورِ وَالكَرَامَةِ، وَالإِيمَانْ
وَالحُبِّ سَلِّمْهُ وَصَفَاهْ.(3)

والنور رمز للحق، حق أرض فلسطين في الحياة، ولهذا على الرغم من الرياح والجراح والضباب لابد أن يعود هذا الحق:

وَمَهْمَا الظَّلاَمُ الذِّي كَفَّنَ النُّورْ فِي كُلِّ بَابْ
وَمَهْمَا الرِّيَاحُ الِتي بَدَّلَتْ عِطْرَ هَذَا التُّرَابْ
وَمَهْمَا الجِرَاحُ الِتي دَوَّخَتْ كِبْرَ كُلِّ الرِّقَابْ
وَمَهْمَا اسْتَبَدَّ عَلَى النُّورِ بَطْشُ الضَّبَابْ..(4)

وعندما تندلع الثورة من أجل الحق، وتنفك القيود،وتنطلق الحرية،يصبح لا أدل على الحرية من رمز النور:

وَأَتَاهَا النُّورُ كَمَايَأْتِي
حَشْرٌ يَنْقَضُّ عَلَى مَوْتِ(5)

وبالحرية تتحقق الثورة على الانهزامية والتعلق بطموح الاكتشاف والازدهار فكان النور رمز الإزدهار، وهو يدعو اليمن إلى النهوض،كأي بقعة من بقاع العالم الإسلامي:

---

(1) قاب قوسين- ص182

(2) لابد- ص93

(3) قاب قوسين- ص48-49

(4) موسيقا من السر- ص81

(5) قاب قوسين- ص80